

مِنْ شِيَمِ العَرَب

فهْدُ المَارك

الجزء الأول
الجزء الثاني

الجزء الثالث
الجزء الرابع

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتباتها
دمشق

و

المكتبة الدولية
الرياض



فهْد المَارك

الجزء الأوّل

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتباتها و المكتبة الدولية

دمشق الرياض

نبذه عن حياة المؤلف

أولاً ـ من أهالي المملكة العربية السعودية .

ثانياً ـ حمل السلاح في سبيل الله تعالى متطوعاً مع المجاهدين العرب الذين جاؤوا بدافع من عقيدتهم الإسلامية للمشاركة في الدفاع عن عروبة فلسطين والجهاد ضد الصهاينة في حرب فلسطين علم ١٩٤٨ م .

ثالثاً ـ ترأس الفوج العربي السعودي ضمن جيش الإنقاذ العربي في حرب فلسطين علم ١٩٤٨م .

رابعاً ـ شارك مشاركة فعالة في معارك المالكية .

خامساً ـ نال أوسمة الشرف في حربه ومعاركه علم ١٩٤٨ م .

سادساً ـ ساهم بشكل مباشر في تأسيس «جمعية رعاية أسرى مجاهدي وشهداء فلسطين» في المملكة العربية السعودية .

سابعاً ـ ساهم في جميع التبرعات «الشعبية والرسمية في العالم العربي» لدعم الثورة الفلسطينية .

ثامناً ـ قام بتأليف كتب عدة عن القضية الفلسطينية ونضال شعب فلسطين الأبي، ونشر العديد من الحلقات في الصحف العربية، ناهيك عن الكتب الأدبية والتاريخية والإجتماعية التي عرف منها وتم طبعها :

١ ـ كتاب : من شيم العرب أربعة أجزاء .
٢ ـ كتاب : من شيم الملك عبد العزيز آل سعود (طيب الله ثراه) ثلاثة أجزاء .
٣ ـ كتاب : هكذا يكون الإصلاح .
٤ ـ كتاب : هكذا نصلح أوضاعنا الإجتماعية .
٥ ـ كتاب : التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين .
٦ ـ كتاب : كيف ننتصر على إسرائيل .
٧ ـ كتاب : كيف هزمنا .
٨ ـ كتاب : الهدامون والبناؤون .
٩ ـ كتاب : لن نهزم إسرائيل عسكرياً قبل أن نهزمها إعلامياً في أمريكا .

تحت الطبع

١ ـ كتاب : جهاد الملك فيصل وجانب من عظمته .
٢ ـ كتاب : تاريخ جيل وحياة رجل «محمد العوني» .
٣ ـ كتاب : من الطفولة إلى الكهولة .

تاسعاً ـ انتقل إلى رحمته تعالى يوم ٢٠/ جمادي الأولى/ ١٣٩٨ ب . هـ. ن الموافق ل ٢٧/أيار/١٩٧٨ م .

الناشر
محمد مفيد بن عزة الخيمي

الإهــداء ..

الى العربي الذي يشعر ان لا كرامة له ما دامت اسرائيل الظالمة مستقرة في وطننا العربي ، غاصبة لأرضنا غير مبالية بنقمتنا .

.. الى العربي الذي يدرك أن اسرائيل لم يكتب لها الاستقرار إلا على نهر من دماء شهدائنا .

.. الى العربي الذي يحس ويقلق حينما يعلم انه لم يتم لأسرائيل مجد الا بهدم مجد أمته العربية ، ولا تحيا إلا بقتل شممنا وعزتنا .

.. الى العربي الذي يعي أن عصابة اسرائيل الملفقة من مشردي العالم لم يقم لها كيان لو لم نفترق ..

الى العربي الذي يعقل ان اسرائيل الباغية سوف لا تعيش في أرضنا يوماً من الدهر عندما ننسى أحقادنا، ونتنازل عن أنانيتنا في سبيل وحدتنا العربية الشاملة

الى كل عربي يقدر هذه المعاني ، ويضحي بكل ما لديه من طاقة في سبيل توحيد أمته العربية

أقدم هذه الشيم العربية الخالدة .

المؤلف

مُقدِّمة الطبْعَةِ الثانِيَة

كان إقبال القراء على الجزء الاول من (شيم العرب) ونفاده بسرعه مذهلة ، ومطالبة الكثير من المواطنين بإبراز الجزء الثاني الى حيز الوجود حافزا يحدوني لا الى تلبية رغبة المواطنين فحسب ، بل والى تفاؤلي خيراً بأن هـذا الجيل العربي الناشيء كان ولم يزل يؤمن بقيم اسلافه الأشاوس وكان الأجدر بي أن ألبي طلبات الراغبين بل الملحين بإعادة الجزء الاول وانجاز الجزء الثاني ، لو لا وجود بعض الاسباب التي حالت دون الاستجابة الى مايطالبنا به المواطنون .

ولا يسعني أن أشرح جميع الاسباب التي منها ما هو مادي ومنها ما هـو معنوي ، وانما اكتفي بالاشارة الى بعض منها فأقول : لما كان الاستقرار عاملا رئيسيا لا في الانتاج الفكري فحسب بل في كل معنى من المعاني بصورة أشمل واعم . فإن عملي كموظف في السلك السياسي تارة في دمشق ، واحيانا في جدة ، وبرهة في صنعاء ، وطورا في ليبية ، وحاليا في تركية ، كل هذه الرحلات التي لم يكتب لي الاستقرار في بعضها أكثر من شهر واحد كصنعاء مثلا ، كانت من ضمن العوامل التي اضطرتني الى عدم الاستجابة الى موافاة القراء برغبتهم الصادقة .

وجوابي على من يقول : ولماذا لا تستنجد بمروءة احد الاصدقاء من الادباء ليتولى الاشراف على اعادة طبع الجزء الاول والقيام بطبع الجزء الثاني البكر ؟؟ جوابي على ذلك يتلخص فيما يلي :

اولاً ـ أنه بالامكان أن أجد أديبا ملما بالادب العربي لكي يتولي الاشراف على طبع وتصحيح أي كتاب من الكتب العربية ما عدا الكتاب الذي من نوع كتابنا هذا (من شيم العرب).

ذلك ان كتابا كهذا لايكفي ان يتولى الاشراف على طبعه أديب ملم بقواعد اللغة العربية فقط ، وانما ينبغي ان يكون هذا الاديب ملما كل الالمام بالادب الشعبي في الجزيرة العربية ، وعالما بأوزان الشعر العامي (النبط) خبيرا بقوافيه بصيرا بألفاظه ، متذوقا لمعانيه ، والاديب الذي يجمع بين العلم بالادب العربي بلغته

العربية الفصحى ، وبين الفهم لادبنا الشعبي بشتى الفاظه ومختلف اوزانه وقوافيه ليس من السهل الحصول عليه .

وقد أجد في شبه الجزيرة من يجمع بين هذا وذاك ، ولكنني لم اجد في البلاد التي اود أن أطبع مؤلفي فيها من تتوفر فيه هاتان الصفتان ، بحكم ان الطبع في الجزيرة قد يكلف الضعفين عن تكاليفه في بلد كدمشق او كلبنان ، يضاف الى ذلك ان وسائل التوزيع والنشر قد تكون متيسرة ومهيأة في هذين البلدين وخاصة في الاخير منهما أكثر من أي بلد عربي

وفي الحين الذي كنت في حيرة من أمري بصدد طبع هذا الكتاب هناك تبادر لذهني الاستاذ حمد الجاسر المقيم في بيروت ،فقلت انه من أقدر من يوكل اليه القيام بمثل هذا العمل ، وكانت صدفة مباركة عندما اجتمعت به في بيروت ، وأوضحت له ما في نفسي ، وقبل ان انتهي من حديثي قاطعني قائلاً : هات كل ماعندك من مؤلفات خطية ، ولا يكن لك هَمٌ في أمرها وعندما وجدت لدى الاستاذ هذه المروءة ازددت طمعا فقلت ان لدي كتاب مخطوطا جاهزا بعنوان (تاريخ جيل في حياة رجل) وهذا وان كان يعبرعن تاريخ جيل من شتى النواحي الاجتماعية والسياسية والادبية فهو في الوقت ذاته طافح بالعبارات الادبية باللغة الشعبية ، الامر الذي يجعل صعوبة الاشراف على طبعه على المرء الغريب عن معرفة الادب الشعبي في شبه الجزيرة اعظم من صعوبة الإشراف على طبع كلا الجزئين من شيم العرب ، فكان جواب الأستاذ حمد تأكيدا لعبارته الأولى (هات كل ماعندك ولا يكن لك هم في امرها) [1] قلت لقد انفرجت وللاستاذ حمد مني عظيم الشكر اذ لو لا مروءته لظلت مؤلفاتي في اضباراتها الى أن تتاح لي الفرصة التي استقر بها وتلك ظاهرة قد لا تتاح لي بسهولة مادمت موظفا في السلك السياسي الذي لا يستقر موظفوه في مكان ما .

---

(١) طلب الاستاذ حمد مني بأن لا اذكر اسمه هنا – بل الح علي بشدة . معتبراً ان ما قام به ليس الا خدمة للادب ولما كنت كمؤرخ يكتب عن « شيم العرب » ، فقد وجدت قيام الاستاذ حمد الجاسر بهذا العمل جزء « من شيم العرب » التي ارى أن امانة التاريخ والنقل يفرضان علي ان اسجلها كشيم من ذاتها سواء أرضي اهلها عن نشرها ام لم يرضوا.

والذي أسترعى انتباه القاريء اليه وارجوه المعذرة فيما اذا وجد في الجزء الثاني اسلوبا لم يتطور عن اسلوب الجزء الاول ، وذلك انني كتبت كلا الجزئين في وقت واحد ، والحقيقة انني عندما أعدت النظر في مراجعة الجزء الثاني وجدت فيه من العبارات التي حذفت بعضا منها ، بل وددت ان لدي من الوقت الكافي ما يمكنني بأن انقض الكثير مما كتبته وابدأ بكتابته من جديد ، ولكني وجدت ذلك يكلفني عناء كثيرا ، ووقتا طويلا ، ولا عجب في ذلك ، فالانسان يتطور في افكاره وفي سلوكه ، وفي اسلوبه وفي ميوله ، وقد يتجه المرء منا اتجاها يرضى عنه اليوم ويطمئن اليه ، ولكنه في الغد القريب او البعيد ينفر من ذلك الاتجاه ويمقته بقدر ما كان راضيا عنه ، وهكذا الكاتب والشاعر معا ، قد يدبج الاول بيراعه عبارات تحمل معاني فكرية او سياسية يكون وقتها مؤمنا بها ، بل ولديه استعداد ان يناضل في سبيلها الى آخر نقطة من دمه ، ولكننا نجد هذا الكاتب نفسه بعد فترة قد تكون طويلة او قصيرة قد غير تلك العبارات ، وبدل ذلك الاسلوب ، بصورة معاكسة لما كان عليه بالامس ، وما يقال عن الكاتب حرى به ان يقال عن الشاعر ، وعن كل انسان في هذه الحياة ، واذا اردت دليلا واقعيا محسوسا على ما نشير اليه فانظر مثلا الى صورة شمسية اخذت لك وانت في المهد ، ثم انظر الى صورة اخرى اخذت لك وانت في سن الطفولة ، ثم اعد النظرة الثالثة الى الصورة التي اخذت لك وانت في شرخ الشباب وعنفوان الفتوة ، ثم بعد ذلك قارن بين هذه الصورة وبين صورتك التي اخذت في سن الشيخوخة ، عندئذ يظهر لك مدى التطور السافر بين هذه الصورة بشكل يخيل اليك أن صاحب هذه الصورة الاولى لم يكن هو صاحب الصورة التي تليها مباشرة ، واذا كان هذا التطور موضعيا ولا يقبل الجدل في الجسم الذي هو أقل شأنا من الفكر ، فما بالك اذن بتطور المدارك والافكار التي هي اقدس مكانة في عالم الخلود من الجسم الفاني

اما اذا كان هناك من لم تتطور افكاره ، ولم تتبلور مداركه ، فإنسان كهذا اشبه ما يكون بالمخلوق الجديد ، الذي ولد مشلولا ، وظل الشلل ملازما له في مهده وفي طفولته وفي شبابه ، وحتى كهولته وهرمه . وعلى هذا الاعتبار تكون

الصورة الشمسية التي اخذت له وهو في مهده لم يطرأ عليها أي نمو أو تغيير عن الصورة التي اخذت له وهو في شرخ شبابه .

وبعد . . فانني اذ اقدم الطبعة الثانية للجزء الاول (من شيم العرب) فانما اقدم قيما أخلاقية كان اسلافنا يقومون بها كنظام اجتماعي أملته عليهم اخلاقهم الاصيلة واطأنت الى الاخذ به وتطبيقه نفوسهم الطاهرة .

فالوفاء جزء من طباعهم ، والعفو عند المقدرة خلق أصيل في اعماقهم والامانة سجية راسخة الجذور في نفوسهم .

فإلى أولئك الذين أعمت أبصارهم مظاهر الحضارة الغربية ، وأصمت قلوبهم هذه الزخارف عن كل ما هو طيب وجميل من تراث قومهم ، حتى بلغوا من العقوق لأمتهم والكفر بمجد أسلافهم حدا جعل أحدهم ينظر لكل فضيلة قام بها اهله وذووه بعين السخرية والازدراء وهو في الوقت نفسه ينظر بل يتبجح ويعتز بأي عمل قام به المستعمرون ... إلى هذه الفئة الجاهلة بتاريخ أسلافها والمخدوعة بتاريخ الأجنبي أوجه كلمتي هذه إيمانا مني بأن النفر الذين من هذا النمط سيكونون شرّ بلية وأعظم ضررا علينا من المستعمر الغاصب فهؤلاء الابناء العاقون هم الذين حذر عنهم الشاعر العربي بقوله :

واذا تنكر للبلاد رجالها صاروا أَضرَّ لها من الأعداء

وكم يبلغ الاسى والقلق بالمواطن العربي الغيور الواعي عندما يدرك ان المستعمر الغازي حينما شعر أن استعماره الاقتصادي تقلص واضمحل ، وذهب الى غير رجعة في شتى بقاع العالم بفضل نمو الوعي القومي عند مختلف الشعوب ، عند ذلك بدل استعماره الاقتصادي باستعمار أشد ضررا من سلفه ألا وهو الاستعمار الفكري .

فهؤلاء الذين يهللون ويسبحون بحمد وإجلال الحضارة الغربية ، والعادات والتقاليد الأجنبية ، ويتنكرون لشيم اسلافهم هؤلاء مستعمرون فكريا وروحيا وعقائديا ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، وان المرء ليعجب بل يسخر كل السخرية عندما تتاح له الفرصة في مناقشة بعض المستعمرين (بفتح الميم) فكريا

فهؤلاء يرون أن ما يسمى عندنا احسانا او كرما او شجاعة او وطنية هـو بمنطق فلسفتهم الاستعمارية يسمى أنانية وما يسمى بخلا او جبنا اوخيانة هو ايضا انانية ، وعندما يؤمن المواطن بهذه النظرية الجوفاء عندئذ ينبغي له ان يزيل من قامـوس جميع اللغات الانسانية ما يسمى أمانة او فضيلة ،اجل ينبغي ان ينزع هذا العرف الذي اجمع على اعتباره وتقديسه جميـع الأمم والملل على مختلف ميولها واتجاهاتهـا السياسية والفكرية .

ويتحتم علينا ايضا ان نلغي قانون العقوبات المدنية والعسكرية من جميـــع الانظمة الدولية : فالسياسي مثلا إذا خان أمانة عمله ، وأذاع الأسرار المؤتمن عليها من قبل حكومة وطنه لحكومة معادية لحكومته ،فمعناه انه فعل ذلك بحافز من أنانيته التي دفعته الى حب المال المغري المـدفوع له ، مقابل قيامه بهـذه العملية ، والسارق عندما يستحل مال غيره والغادر حينما ينكث العهد ولا يرعى الذمـــة، والقاتل عندما يسفك دم بريء آمن ، كل هؤلاء يقال عنهم كما يقال عن الاول .

ومن ثم يقال ايضا بنفس المنطق عن المواطن المخلص الذي يبلغ به اخلاصه الى ابعد حدود التضحية ، ويعبر التعبير نفسه عن الامين الذي تبلغ به امانته الى اقصى حد من حدود الفاقة . وهو قادر على الاختلاس ، أجل يقال عن المواطن المخلص ، وعن الأمين الورع ، وعن الوفي الشهم ، يقال عن هؤلاء الآخرين ما يقال عـن الأولين، أي كما أن أولئك يقومون باعمالهم الدنيئة بدافع الانانية المادية فان هؤلاء ايضا يؤدون عملهم هذا بدافع انانية كانت من نوع آخر .

ووفقا لهذا المنطق المجرد من جميع المعاني الانسانية أجدني مضطرا الى تكرار الجملة الأولى فأقول : يتحتم على من يؤمن بهذه الفلسفة ان لايؤمن بأيـــة شريعة سماوية ولا أية قوانين انسانية .

والذي يسوء كل عربي مخلص هو ان بعضا من المثقفين العرب الذين تمكـــن الاستعمار الفكري من قيادتهم قد وجدت نموذجا منهم يجهل تاريخ امته العربية جهلا فاحشا ، ولم يخطر ببالي ان شابا جامعيا عربيا يجهل مراحـل التاريـخ الذي اجتازته امته ، اللهم إلا ان هذه الظاهرة بدأت لي واضحة جلية عندما تتـــاح لي

الفرصة أحيانا في النقاش والحديث مع بعض هذه الفئة ، وكنت عندما أصل الى البحث في التاريخ العربي مع مثل هؤلاء اتحفظ لكي لا أغلط اعتقادا مني أن أمامي من يسجل علي غلطاتي التاريخية ويحصيها عددا ، ولكنه بدا لي مع استمرار الحديث أن امامي من لايعرف شيئا من تاريخ أمته العربية ، مع الاسف الشديد وهكذا يفعل الاستعمار الفكري ، ويتصرف بمدارك وعقول وأفكار بعضنا .

وانه ليجب على حملة الاقلام العرب الأحرار الواعين ان يعدوا العدة لمجابهة هذا الاستعمار النفسي والفكري ، ليسهل القضاء عليه في مهده ، قبل ان ينمو وينتشر (مكروبه) المعدي بين الناشئة وتلك حقيقة يتحتم علينا مجابهتها ومحاربة أهلها بسلاح فكري معاكس .

والله اسأله التوفيق .

فهد المارك

مقدمة الطبعة الاولى

يسعدني أن يرى القارىء بين دفتي هذا الكتاب وما بعده من الاجزاء المتسلسلة قصصاً عربية شاملة لكل معنى من معاني الفضيلة .

ولا عجب من ذلك إذ أن هذه القيم الاخلاقية المثلى ليست الا صورة ناطقة عن أخلاق ساكني الجزيرة ، ومعبرة أبلغ التعبير عن حياتهم الأدبية والاجتماعية (وما فطروا عليه) من وفاء ونجدة وسخاء ومروءة وإباء وشمم .

ولربما يتساءل القراء كيف كان هذا التراث المجيد وهذه القصص الواقعية الرائعة مهملة ومتوارية عن الأعين طيلة هذه المدة ، حتى أوشكت ان تدرس ويمحى أثرها رغم ما فيها من عبر تاريخية جديرة بإعجاب القارىء؟ أحب أن أجيب على هذا السؤال :

كانت هذه الدرر النفيسة مكنوزة في صدور الرواة الشعبيين وينقلها الخلف عن السلف . ومن دواعي الأسف أنه قل أن نجد بين الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية كاتباً طرق هذا الباب وحاول أن يكتب كتابة شاملة يعبر بها بوضوح وجلاء عن كنه حياة ساكني شبه الجزيرة ، وأن يصل بكتابته الى حد يحلل فيه اخلاق أهلها تحليلاً علمياً من الناحيتين الاجتماعية والأدبية وان يكن ثمة نفر من المؤرخين كتب شيئاً عنها فإنما كانت كتابته ذات طابع محدود لا يتجاوز ناحية معينة كالوقائع التاريخية المشهورة وشيء من أنساب القبائل وقسط من تراجم الحكام وما إلى ذلك .

وإني ممن يقدر جهد اولئك الكتاب من عرب ومستشرقين لاعتقادي أنهم سدوا فراغاً وبذلوا جهوداً جبارة بخدمتهم لتاريخ الجزيرة الحديث خاصة من الناحية السياسية . أما إهمالهم للناحيتين الادبية والاجتماعية فإنهم معذورون بذلك لانهم لو اجتهدوا وحاولوا ان يكتبوا عن هاتين الناحيتين لأعياهم الامر لان القضية ليست مجرد سرد حوادث وتسجيل أساطير وقصص على أي شكل يكون، ولكنها تحتاج الى إقامة طويلة في الجزيرة ليتمكن بها الكاتب من معرفة حياة أهلها الاجتماعية ، كما أنه يحتاج لدراسة عميقة تمكنه من معرفة الشعر الشعبي لانه فن مستقل بذاته .

ولن يستطيع كاتب ما ان يكتب عن الجزيرة الكتابة الوافية مهما أوتي من قوة ملكة في الكتابة ما لم يكن قد درس الادب الشعبي دراسة دقيقة تؤهله لفهم نظمه ونثره . وهذا لا يكفي بل يجب ان يكون لديه الى جانب ذلك من الموهبة الادبية ما يجعله يتذوق هذا التراث وبالاخص النظم الشعبي النجدي الذي فيه من غرابة الالفاظ ما يعيي فهمه بعضاً من ابناء الجزيرة انفسهم فضلاً عن الاغراب عنها، وان كانت معانيه اشبه ما تكون بمعاني الشعر الجاهلي من ناحية متانتها وقوة مغزاها.

وعلى هذا الاعتبار اصبح من المتعذر على المرء ان يجيد تفهم هذا التراث الخالد ما لم يكن من صميم الجزيرة ومجيداً إما لنظم الشعر النبطي [1]، او معرفة اوزانه واجادة روايته ، ذلك لان اغلبية الحوادث الرائعة لا تخلو من قصيدة شعبية يشدو بها صاحب الحادثة او شاعر قبيلته .

واني لوطيد الاعتقاد ان كثيراً من الحوادث القيمة لولا وجود القصيدة التي خلدت ذكرى الحادثة لدرست كما درس غيرها من القصص النفسية .

وبما ان كاتب هذه الاسطر من صميم البلاد ، ومن النفر الذين وهبهم الله تذوق معاني الشعر الشعبي ورواية طرف منه، كما أني وهبت أيضاً شدة الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الاهمية منذ نعومة اظفاري . هذا كله جعل الامر علي متيسراً وإن وجدت فيه صعوبة ما فإنها ليست كتلك التي يعانيها المرء الغريب عن الوطن ومعرفة الفن . ولحسن الحظ ان سنحت لي الفرصة بالاتصال بكثير من الرواة القدامى من العرب بدوهم وحضرهم ، وكنت أسعى وراء هذه الغاية منذ مدة لا تقل عن ستة عشر عاماً ولكنني لم أباشر التأليف إلا منذ عامين فقط ، وذلك أني كنت في شغل شاغل عنه .

ولرب سائل يقول : إذا كانت هذه الحوادث القيمة مما لا يستطيع الكاتب الغريب عن البلاد أن يكتبها لشدة ما في النظم الشعبي من تعقيد ، فلماذا لم يؤلفها أهلها القدامى الجديرون بإتقانها ؟

---

(١) يسمى الشعر الزجلي الشعبي في الجزيرة نبط .

الجواب على ذلـك أنه ثمة أمور حالت دون تدوينها آنذاك ، وذلـك أن أهل الجزيرة لم يكونوا بحاجة إلى تدوين هذه الحوادث وطبعها ، فلو طبعت لما وجدت من يقرؤها إلا النزر القليل ، لأنهم في غنى عنها إذ أن اغلبهم يحفظ الكثير منها عن ظهر قلب ولأنهم كانوا يعيشون في العصر الذي لم يكن لهم فيه اتصال بالعالم الخارجي فهم بحكم ظروفهم وزمانهم ومجتمعهم يتداولون هذه الحوادث بأنديتهم ومسامراتهم، فلا يشغلهم عنها استماع إذاعة ولا قراءة صحف

وبعد: فإني لست بحاجة أن أؤكد أن هذه القصص فيها من الروعة ما يدهش القارىء حتى ليخيل له أنها وليد خيال مصطنع ، ولكنها حقائق ثابتة لا مجال للشك في صحتها ، إذ أن العرب وخاصة البادية منهم أبعد ما يكونون عن تصوير الخيال الوهمي ، فهم واقعيون ، وليس للخيالات المختلقة أي رواج عندهم ، والمـرء الذي يعرف عندهم باصطناع الاحاديث يحتقرونه ويستهزئون به . لهذا تجدهم لا يفخرون إلا بالحوادث الواقعية .

وبما أن القراء في هذا العهد يضيعون قسطاً من حياتهم بقراءة قصص بنيت على الخيال ، لهـذا أرجو أن اكون موفقاً بتقديمي هذه التحفة التي فيهـا من الحوادث والقصص الواقعية ما يغني عن الخيال المختلق .

وإنه لمن الخطأ أن نشغل القراء بالقصص الخيالية الوهمية ولدينا من تراثنا المجيد الواقعي ما هو أجدى عليهم من أحاديث الخيال .

ونحن اذ نفخر بكرم حاتم ، ونترنم بوفاء السموءل ، ونعتز بحـلم الاحنف ، ونتباهى بشجاعة عنترة ، فإننا نؤكد بهذا السفر بأن شيم العرب الاصيلة ، لم تدرس ولم ينطمس أثرها بذهاب اؤلائك القوم هلم معي اقرأ هذا الكتاب تجد في حقله ما يفوق وفاء السموءل ويعلو على كرم حاتم ويسمو على شجاعة عنترة ، ويزيـد على حلم الاحنف .

ولقد حرصت الا أضع في كتابي هذا إلا القصة التي أؤمن بصحتها فمن قصـة تشفع لها قصيدتها الشعبية وتكون القصة آنئذ شاهدة من نفسها على نفسها بالصحة. ومن قصة مشهورة رويتها عن رواد كثيرين ولا حاجـة لأن أسرد اسم كل فـرد

رويتها عنه بل سأكتفي بتعليق أوضح به أنها مشهورة ومتواترة . وأما القصة التي رويتها عن مصدر واحد فقط فإني سأذكر الشخص الذي رويتها عنه مع اليقين أني لم أضع قصة رويتها عن شخص واحد إلا بعد إيماني واعتقادي أنه ثقة ويروي الحادثة عن ثقة مضارع له بالصدق والامانة .

ولو شئت أن أسجل كل ما سمعته من الرواة لطال علي الطريق ولكني ضربت صفحاً عن ذلك وحرصت جيداً على أن أقصر كتابـــتي على الاحاديث والقصص الاكيدة الذائعة الصيت التي أستند على البراهـين المنطقية والادلة المقنعة في اثبات صحتها .

وإني إذ أسير على هذا المنهاج الصريح فإني أسير بدافع غرامي الاكيد ورغتبي الملحة في قول الصدق ، تلك الرغبة التي تأصلت جذورها في جبلتي واينعت فروعها في كياني، إلى أن أصبحت سجية راسخة في معتقدي، أؤمن بها ايماناً وطيـــداً لا أستطيـع التخلي عنه ، حتى ولو حكمت علي ظروفي واضطرتني الحال على أن أقول خلاف الصدق والواقع وعكس ما أعتقده لما استطعت ، وتلك ظاهرة يشعر بتأثيرها الفعال كل ذي ضمير صادق حر . ولقد عبر عن هذه الحقيقة الشاعر محمـود سامي البارودي فقال

تعودت صدق القول حتى لو انني   تكلفت قولا غيره لا أجيده

* * *

ولما كان الوفاء هو أنفس القيم الأخلاقية وأنبلها فقد طاب لي أن أجعله الفصل المقدم من هذا الكتاب ، وبما ان قصة المهادي هي اطـــول القصص ، ومن أنفس الحوادث واروعها ، لما فيها من الوفاء المتناهي بين الصديقين لهذا جعلتها في طليعـة فصل الوفاء .

* * *

هذا واني اعتقد انه ما من قبيلة من قبائل العرب في شبه جزيرتنـا العربية الا وسيجد القاىء في هذا الكتاب لأفرادها من المـآثر الخالدة الحية ما يرفع الراس من شتى القيم الاخلاقية .

وثمة قبائل ربما كان لبعض رجالها القسط الاوفر من هذا التراث ، وليس معنى ذلك ان القبائل الاخرى اقل حوادث من تلك ، بل ربما لدى افرادها من القصص النبيلة والحوادث النفيسة ما يضارع او يفوق حوادث تلك القبائل . وانما الامر يرجع الى سببين رئيسيين :

الاول : وهو الأساسي في نظري ، واعني به اتصالي المباشر المستمر برواة وافراد بعض القبائل ذلك الاتصال الذي كان اكثر وأيسر علي بحكم ظروفي القاهرة :

والثاني : هو ان الرواة توفروا في هذه القبائل التي كانت لي بهم صلة مباشرة اكثر من توفرهم في القبائل الاخرى .

وكم كنت شديد الحرص على ان احصي أنفس الحوادث لكل قبيلة من قبائل العرب ، لهذا كنت اسعى جاهداً وراء هذه الغاية ، ولا زلت أنقب عن كل راوية من رواة القبائل ، فإذا ذكر لي فرد منهم وتأكدت من صحة نقله أهرع اليه مسرعاً ملتمساً منه الوصول الى هذه الأمنية .

ولئن فاتني شيء من حوادث بعض القبائل ، فأرجو الله ان ييسر لي الفرصة لاجول جولة اخرى كي استوفي ما فاتني من الحوادث التي لا تزال مكنوزة في صدور الرواة الذين لم تتح لي الفرصة للاتصال بهم ، ومن ثم سأنشر ما استدركه في الجزء الأخير بحول الله ومشيئته .

* * *

ولما كانت كتابتي هذه ، استوعب بها ما استطعت من تخليد الفضيلة لأي فرد أسداها سواء كان علماً أو نكرة ، فإنه من واجبي كعربي مخلص ، يهمني توحيد أمتي العربية بأية وسيلة كانت وبأي ثمن كان — ان ابتهل الى الله وادعوه ان يقدس ثرى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، ذلك العبقري الفذ الذي وحد كلمة عرب الجزيرة بعد ان كانوا أعداء متفرقين .

* * *

هذا واني اذ اقدم هذه التحفة ، فإنما اقدمها غيرة على تراثنا القومي الأدبي الذي كاد ان يفنى ويضمحل ، هذا من ناحية والناحية الأخرى الاساسية هي رغبتي

الاكيدة ان يتخذ الناشئة من هذه القيم المثلى قدوة صالحة ، لتكون نبراساً سامياً يقتدى به في شتى مناهج حياتنا الادبية والاجتماعية .

وبعد :فانه لا ريب عندي انني انسان معرض للخطأ وانما أود أن يعاملني قراء كتابي هذا بالحكمة التي تدرع بها ابن سيرين غفر الله له، حيث كان اذا ذكر عنده احد بسوء ،ذكره بأحسن ما يعلمه عنه من سجية حسنة ، وهذه السجية ، ان دلت على شيء فانما تدل على سمو نفس صاحبها ومتانة خلقه وبالعكس،والله أسأله التوفيق.

فضل الوفاء

هي الأيام تكلمنا وتأسُو　　وتجري بالسعادة والشقاء

فلا طول الثواء يرد رزقاً　　ولا يأتي به طولُ البقاء

كما أن السؤالَ يذل قوماً　　كذاك يعزُّ قوم بالعطاء

حلبنا الدهر أشطره، ومرت　　بنا عقبُ الشدائد والرخاء

وجربنا وجرب أولونا　　فلا شيء أعز من الوفاء

علي بن الجهم

« القصة العالمية »

كل ما أعتقد أن هذه القصة واقعة في القرن الثاني عشر للهجرة ويغلب على ظني أنها في أول ذلك القرن ، وكثيراً ما حرصت على أن أجد المصدر الأكيد الذي أثق بصحة روايته لهذه الحادثة من الناحية التاريخية فلم أوفق إلى ذلك رغم حرصي الشديد ، أما الحادثة من الناحية الواقعية فلا مجال للشك في صحتها من وجوه شتى منها . أنهـــا مشهورة ومتواترة فيندر أن نجد عربياً له أقل إلمام برواية الحوادث لا يعرف هذه القصة ولا يسردها حسب ما رواها ، الرواية التي لا تحيـد عن الجوهر الأساسي . وقد يكون ثمة نقص في نوع الرواية لا في الأصـــل . والشيء الثاني الذي اعتقد أنه هو السبب في خلود هذه القصة وفي صحتها أيضاً ليس إلا انشودة بطل القصة المسمى مُهمل المهادي الذى اصبحت شهرته في عالم الجزيرة العربية أشهر من نار على علم ، وخاصة عند أهالي نجد بدوهـا وحضرها ، وإني أعتقد جازماً أن هذه الحادثة على ما فيها من الروعـــة لولا أنشودتها المحفوظة في صـــدور الرواة والمسجلة في دواوين الأدباء الشعبيين ، فلولا هذا السجل الخالد لدرست هذه القصة الرائعة كما درس كثير من أمثالها من القصص الجوهرية ولكن وجود تلك الأنشودة التي

سنوافي بها القارىء موضحة في آخر هذه الأسطر ، كان هو العامـــل الأساسي الذي بفضله بقيت هذه القصة وستبقى أبداً بمشيئة الله خالدة أبدية في صفحات التاريخ العربي المجيد .

مهمل المهادي هو قحطاني من عبيدة [1] أما رفيقه في الحادثة فهو من قبيلة (سبيـع [2]) ومن الفخذ المسمى ببني عامر المتفرع من هذه القبيلة ذاتها ، والقصة تعطينا دلالة واضحة بأن المهادي ليس هو بالشخص العادي بل هو من رؤساء عشيرته وذو مقام مرموق [3] بـــين عربه وشاعر مطبوع كما أنه ثري بلا ريب ، وأما « مُفَرِّج » فليس لدينا من الأدلة ما يهدينا إلى أنه رئيس .وكل ما في القصة من دلالة لا تزيد عن أنه رئيس من قبيلة « سبيع » ومن « بني عامر » كما أسلفنا هذا غاية ما وصلنا إليه في مجهودنا ، أما من ناحية القيم الأخلاقية فلا شك أن الإثنين كليهما فرسا رهان بالوفاء والمثل العليا ، والمهادي أعظم شهرة وأذيـع صيتا في أندية العرب وذلك بأسباب قصيدته التي هي من أشهر القصائد الشعبية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بحكم منزلته الإجتماعية فهو قد رزق موهبة

«١» فخذ مشهور من قبيلة قحطان . «٢» هم بدو مدينة الرياض .

«٣» ولمرور الزمن الطويل الذي سحب أذياله على هذه القصة ما استطعت أن أجد من يدلني على مدى رئاسة المهادي هل هو رئيس لـ «عبيدة» كلها أم لبعض منها

الشعر كما حباه الله سعة من المال وجاهاً رفيعـــاً في مجتمعه فتوفرت له الأسباب الأدبية والمادية والإجتماعية ، وهذه العوامل الفعالة اذا توفرت لفرد ما خلقت له ذكراً جميلاً في التاريخ ولا سيما إذا وفق إلى أن يسخر هذه الأشياء في سبيل المجد والخير ، وعلى ضوء هذه الحقيقة ليس بالغريب أن يطغي اسم المهادي على صديقه السبيعي ويكون أشهر منه صيتاً وأنبه منه ذكراً عند عرب الجزيرة ، حتى أن هذه الحادثة لا تعرف عند العرب إلا اذا قلت (قصة المهادي)، وفي رأيي أن السبيعي فعل من المروءة والوفاء الشيء الذي يضارع المهادي بفعله .

إنها لمن أبلغ الحوادث وأروعها حادثة الشخصين اللذين ابتلي كل منهما بأعظم المصائب وأدهى الملمات وثبتا امام هذه الرزايا جميعاً ثبوت الجبال الراسيات .

سار المهادي مسافراً للغزو ومعه فئة من عرب عشيرته ، وفي رحلته هذه ساقه القدر الى قبيلة « سبيع » من بني عـــامر حيث توسط بيوتهم وصدفة اعترضت أمـامه فتاة من فتيات هؤلاء العرب ذات جـمال فاتن يأسر القلب ، ويستهوي الفؤاد « هيفاء دعجاء » استولت على لب المهادي بلحظة من لحظاتها حتى أنه لم يعد يستطع أن يفـــارق هؤلاء العرب ولا يقوى على أن يسير خطوة ، أوقف راحلته مذهولاً كالمصـــاب بسهم وأي

سهم أمضى من سهم الغرام ولا سيا اذا كان مفاجأة ؟!

عندما رأى المهادي نفسه أنه أصيب بهذا الجرح الخطير هنـــاك استردقوته وشجاعته وضغط على أعصابه بقدر ما استطاع بحيث لا يشعر رفاقه بشيء من هذا الأمر الذي ابتلي بـــه، ولكنه وجد نفسه أنه لو استطاع أن يخفي عن قومه هذه المصيبة التي ألمت به فهو لا يستطيع بوجه من الوجوه أن يجاري قومه ويسير معهم الى السبيل الذي كانوا قاصدين له، لأن عقله وحواسه وشعوره وجميع مواهبه أصبحت ملكاً لهذه الفتاة فهو آلة مسخرة تديره إرادة الله ثم إرادة هذه الساحرة التي خلبت لبـــه بجمالها الباهر، كيف تشاء.

عندما رأى المهادي نفسه انها كبلت بهذه الأغلال، هنـــاك وفق لتدبير الطريقة التي يتخلص بها من قومه ليبقى عند هؤلاء العرب حتى يتسع له الوقت الذي يسأل فيه عن هذه الحسناء هل هي ثيب ؟ أم بكر ؟ وهل هي متزوجة أم لا ؟ وهل هي من بيت عريق في نسبه وحسبه فيما اذا شاء أن يخطبها من اهلها ؟ وكل ما تصبو اليه أمنيته هو ان تكون هذه الفتاة بكراً لا قرين لها ولا خطيب وأن تكون من أسرة يتلاءم نسب اسرتها مع نسبه.

هذا وقد بقي المهادي عند قبيلة سبيع واختار اكبر بيوت هؤلاء

العرب ونزل ضيفا عند صاحب البيت الذي اكرمه إكراما يليق بمقامه ، وإنما المشكلة التي بقي المهادي حيران كل الحيرة في حلها هي رسم الطريقة التي توصله بسهولة وخفاء الى معرفة هذه الفتاة المعرفة الكافية التي اشرنا اليها آنفا ، فكر مليا والحاجة كما يقال - (ام الاختراع) واملى عليه رشده بعد تفكير طويل بما يلي : الا يبدي سره لواحد من هولاء العرب إلا للمرء الذي يؤمن بأنه من شخصيات الرجال الابطال الأفذاذ ، لقد صمم المهادي ان ينفذ عمليا هذه الحكمة الرشيدة التي اوحاها اليه عقله السليم ، ولكنه وقع في مشكلة عويصة اخرى وهي معرفة هذا النوع من الرجال فكيف يهتدي الى تشخيص الرجل الذي تتوفر فيه القيم الأخلاقية الكاملة ، مع العلم ان هذه الشيمة من اخفى وادق سجايا الرجال فهي من الأسرار الكامنة في جوهر الإنسان ولا تعرف ولا تبرز إلا في الشدائد كما قال الشاعر :

إذا الرزايا اقبلت ولم تقف   هناك اخلاق الرجال تختلف

فمن اين « للمهادي » الغريب ان يعرف الرجل الذي يتصف بصفات الكمال كما يريد والمدة التي قضاها وجيزة لايتمكن بها من معرفة القوم؟ وهذا يحتاج الى مجالسة طويلة لهؤلاء العرب وخبرة وتجربة لأخلاق أفذاذهم فردا فردا . ولكن مع هذا كله لم ييأس المهادي من معرفة السبيل الذي

يوصله الى غايته المنشودة ، وسرعان ما خطر على ذهنه المثل القائل : « اذا جهلت أخلاق امرىء فاختبر صبره وحياءه » وهاتان الخلتان هما بلا ريب محك جوهر الرجال بل عماد الأخلاق .

استطاع المهادي ان يصل الى ضالته بواسطة الرجل الذي تمثلت في طباعه هاتان الخصلتان .

باشر صاحبنا المهادي عمليته التي يختبر بها متانة أخلاق البعض من أفراد هؤلاء القوم العرب الذين هم قبيلة سبيع وكان امتحانه لسجايا أفراد هؤلاء القوم مبنياً على اساس وطيد من الحكمة ، ذلك انه تظاهر امام هؤلاء العرب الذين حل عندهم ضيفاً بأنه مصاب بشيء من تشنج الأعصاب الذي كثيرا ما يطرح صاحبه أرضاً ويفقده شعوره .

وبفضل هذه الحيلة تمكن بسهولة سريعة من معرفة أخلاق الرجل الذي يبين له سبيل الإتصال بهذه الفتاة التي أخذت عقله وسلبته رجولته ولا عجب ان يصل المهادي الى مراده وذلك يعود الى ذكائه وبعد نظره وسعة أفقه ،فهو عندما تظاهر بتشنج الأعصاب كان اذا جلس في المجلس الحاشد من مجالس هؤلاء العرب اختار أفضل القوم الذي يتحرى فيه كمال الرجولة والوقار ، ومن ثم يجلس بجانبه فيطرح نفسه على هذ الرجل ويتكىء عليه بشدة فتمكن بعمليته هذه ان يصل الى الرجل صاحب

الصبر والحياء اللذين هما عماد الرجولة ، فالمهادي عندما يطرح نفسه على هذا الرجل يشتد باتكائه عليه فالرجل المتكأ عليه لا يقابل هذا الضعيف المبتلى بهذا المرض إلا بالتجلد والصبر واذا شاء أحد من القوم ان يزيحه عنه رفض ،وقال :هذا ضيف عزيز علينا وغريب عندنا فلا يمكن ان يزاح عن المكان الذي اختاره وجلس فيه وهو في شعوره وعقله (١) .

أما المهادي فقد ارتاح ضميره لحديث هذا الشاب الذي عبر عن عميق رجولته وجلده واحتماله للمشاق وقد اعتقد المهادي أن هذا الفتى هو خير من يثق به ويطمئن له فيما اذا أبدى له سره الكامن في نفسه الذي لا يعلم به إلا الله.

فعندما صحي المهادي من إغمائه المختلق ، أشار لصاحبه الذي توسم

---

١ - لا شك ان المهادي كان حكيماً بعمليته هذه . والحق ان العرب لديهم فراسة قوية فإن الحياء والصبر من أوضع الأدلة على كمال خلق المرء ، وقد شاهدت بنفسي حادثة وقعت معي وفيها شاهد لصحة هذه القصة أعني من ناحية امتحان المهادي لصاحبه الذي اتكأ عليه ،لقد كنت مسافراً من مدينة الرياض الى مدينة حائل وذلك في سنة ١٣٥٨ ه وكانت السيارة سيارة بريد تضم اكثر من عشرة ركاب ومن بين هؤلاء الركاب صبي لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وقد قيل عنه انه «ابن دعفس» الساكن ببلدة حائل كما انه كان يوجد بين الركاب شيخ كبير يدعى «سلطان الفقير» من رؤساء بادية عنزة وهو شخصية مهيبة ومشهور في رجولته ويبلغ من=

به النجابة واتكأ عليه، وأخذ بيده الى محل ناء عن مجتمع القوم فعند ذلك صارحه بالحقيقة كما هي وزاده صراحة بأنــه لم يتأخر عن قومه من أجل المرض الذي ألم به كما هو ظاهر أمره، وأفاده بوضوح بأن مرضه الحقيقي هو غرام تلك الفتاة التي أصابته في صميم مهجته بسهمها القاتل، هذا . وكان الفتى يحسن الاستماع لضيفه بكل بشاشة ورزانة وهدوء فلم

=العمر آنذاك ما يقارب السبعين سنة هذا وقد نزلنا من السيارة في مكان مـا ليرتاح قليلًا ونقتات وعندما حللنا جميعاً بهذا الموضع وجلس بعضنا بجانب بعض، قام من بيننا الصبي ليقضي حاجة له فبعد ان بعد عنا بعداً يجعله لا يستطيع ان يسمع كلام المتكلم الذي في مجلسنا افتتح الحديث الشيخ سلطان الفقير وكان حديثه كله مدحاً وإطراء لهذا الصبي واستمر الشيخ بمدحه للصبي إلى ان قال : ان هذا الصبي صاحب مروءة وذو اخلاق كريمة ومطبوعة في معدنه عموم السجـايا المثلى، لقد استغرب الحاضرون من إطراء الشيـخ لهـذا الصبي الذي هو حديث في سنه ولم يعرف شيء عن أخلاقه، فلم يسعني إلا أن جابهت الشيخ وقلت له : ما هو دليلك على نجابة هذا الصبي؟ فقال: « إنه صبور وحيي، والصبر والحياء من أصدق الأدلة على نجابة المرء ورجولته » فقلت له ما هي الأدلة التي عرفت بها صبر هذا الفتى وحياءه ؟ فأجابني الشيخ بقوله : لقد عرفت ذلك عندما رقد أحـد الرفاق من راكبي السيارة وطرح نفسه على فخذ هذا الصبي فأردت أن أوقظ هذا النائم الذي رمى جسده على هـذا الغلام الحديث السن ولكن الغلام رفض ذلك وقال « لا يمكن أن يوقظه أحد من مرقده خشيه ان ينزعج »

يقول الشيخ :قلت للصبي ألست متألماً من اتكائه عليك؟ أجاب الصبي بلى،ولكن الذي يهون على الألم ان رفيقي مرتاح برقاده هذا.

يزل الفتى يحسن الأستماع حتى أنهى المهادي كلامه الذي نعت به الفتاة وشخص جسمها تشخيصاً كافياً ، كما وصف لباسها وأشار الى البيت الذي دخلته ، عند ذلك أجاب الفتى ضيفه المهادي بقوله : « هل تستطيع ان تؤكد معرفتك لهذه الفتاة فيما لو رأيتها ثانية ؟ أم انك نظرتها نظرة عابرة ونسيت اوصافها ؟ » أجاب المهادي بقوله « لا يمكن أن أنكرها لو أتت ماشية بين مئات النسوة لأن صورتها مسجلة في سواد عينيَّ ومودتها توطدت في دمي ولحمي » ، فما وسع الفتى بعد ذلك إلا أن ياخذ بيد المهادي ودخلا معاً الى البيت الذي أشار اليه المهادي وذكر بان الفتاة دخلته ، فلما دنا الفتى من البيت ، نادى بصوته العالي : « فلانة احضري لدى » فعلى الفور خرجت من خدرتها تهتز كما يهتز الرمح بيد الفارس المغوار ، فلما نظرت الى هذا الأجنبي الذي لم يسبق لها ان رأته عادت هاربة كما يهرب الغزال اذا رماها الصياد ونجت ، أما صاحبنا المهادي فكاد أن يخر مغشياً عليه من لوعة الغرام الذي استولى على عقله . وأما الفتى فهو عندما رأي ضيفه قد اوشك ان يفقد رشده حين نظر هذه الحسناء الفاتنة، عندئذ لم يخامر ذهنه الشك قطعياً بأن هذه الفتاة معشوقة الضيف ، ولكنه شاء ان يتأكد فقال للمهادي « لعلها تكون هذه هي » أجاب المهادي بقوله « نعم هي بالذات » فقال الفتى « اطمئنك أولاً أنها أختي كما اني اطمئنك

باني قد قبلت ان تكون لك زوجة شرعية » كاد المهادي ان يفقد عقله من هذا الخبر المفاجىء الذي هو ألذ ما يكون على نفسه.

أما الفتى فقد ذهب فوراً الى والده وقص عليه القصة كما حدثت وأعلمه بما تم ،وكان والده من أفذاذ الرجال البارزين،لهذا شكر ابنه على هذه العملية، وقال له يجب ان لا تتأخر لحظة عن فعل السبب الذي يمكنك من عقد النكاح لضيفنا العزيز على هذه الفتاة بقدر ما يمكن من السرعة لئلا يفتك به داء الغرام ، وفي الليلة الثانية تزوج بها ، وكانت تلك الليلة اسعد الليالي عند المهادي ، اجل إنها ساعة مملوءة بالسرور والسعادة المتناهية ، هذا بالنسبة للمهادي : اما بالنسبة للفتاة فانها ترى ان هذه الليلة اتعس ليالي حياتها وأشقاها ، بل تعتبر نفسها دخلت في سجن مؤبد وفي نكد عيش جديد، ولا عجب من ذلك فهي المسكينة ادخلت على قرين سيشاركها في حياتها ويقطف ثمرة شبابها ذلك الشباب الذي ترى انه لا يدانيه أي شباب من فتيات عربها بل ربما انها تعتبر ملكة الجمال في عصرها على بنات عرب الجزيرة قاطبة ، ومما يضاعف حزنها وآلامها أن هذا الشاب الذي ادخلت عليه لم يسبق لها به أي معرفة من قبل وهذه اللحظة هي أول مرة ترى فيها شخص هذا الرجل الذي سيكون مصيرها ومستقبلها قبضة بيده مدة حياتها ، وفي الحين الذي خلا كل منهما

بصاحبه عند ذلك قرُب الزوج العاشق الى زوجته المعشوقة و بـــدأ في الحديث ليعلن عن سروره و اغتباطه بها ،وكان حديثه مليئاً بالمداعبة والمرح ، ولكن زوجته بعيدة كل البعد عن استماع حديثه ،فإن يكن هو عند نفسه في جو من البهجة و الغبطة والسرور ، فإنها تعتبر نفسها في قفص من حديد مع أنها حاولت المسكينة أن تخفي حزنها وتكبت مصيبتها وتواري غرامها بمعشوقها الأول ولكن فضحتها عواطفها وخانتاهـــا عيناها بالدمع الذي يفيض من مقلتيها ، ويسكب كما يسكب الوابل من السحاب الغزير المنهمر ، والعين اكبر دليل يعبر بدقـــة وصدق عن حقيقة المرء .

كما قال الشاعر :

عيناك قد دلتا عيني منك على ... أشياء لولاهما ما كنت أدريها
والعين تعلم من عيني محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

فالمحب يستطيع مثلاً ان يستر جميع علامات المودة و الحب ويتجلد بقدر ما يمكنه ويتصبر أمام الشامتين او العاذلين ، ولكن هيهات مـاذا يكون موقفه تجـاه العين ، والحقيقة إن واقع هذه الفتاة المنكوبة قـــد عبر عنه الشـــاعر الشعبي كاتب هذه الحروف أمثل التعبير بقوله :

الْحُبْ لَوْ تُخْفِيه خـــانَتْ بِكَ ٱلْعَيْنْ

تْكَذِّبَ الجَلَدْ والصَّبْر بْدَمْعٍ تِجِي بِهْ [1]

هذا وقد كان المهادي مرهف الإحساس سريع الفهم لهذا شعر ان هذه العروس ليست مطمئنة إليه فظن انها تجهل سمو منزلته الإجتماعية بين قومه كما تبادر لذهنه ايضاً ان هذه العروس تفتكر انه فقير الحال ، لهذا دنا منها ثانية وافهمها بأنه ليس بالرجل النكرة في عشيرته ، بل انه رئيس قومه وانه فلان المشهور ببطولته والثري بمادته والشاعر الموهوب بادبه ، فهو بعد ان شرح لعروسه هذه العوامل الإيجابية المغرية التي تتصف بهـــا حقيقته ، لم يكن عنده بعد ذلك ادنى شك في قبولها له لأن الأمور التي تطلبها الزوجة من الزوج كلها قد توفرت بــــه من عموم الوجوه الأجتماعية والمعنوية والمادية ، فلم يبق الآن امام هذه العروس شيء من

---

١ – هذه الأبيات من قصيدة لنا قلناها في مناسبة لو تطرقنا لشرحها طال بنـا الطريق، ولخرجنا عن بحثنا الذي نحن بصدده والقصيدة تبلغ عشرة أبيـات وهذا مطلعها :

ما في البلاوي والرزايا من الزين ... أمر نبين حكمته والحكي به

إلا انها تكشف سجايا الوفيين ... وتعلن سريرة من يحب الحبيبه

اعتقد ان هذه الأبيات واضحه في لفظها ومعناها وليست كالقصائـــد الشعبية الغامضه التي نضطر لشرحها .

الأمور المغرية لها إلا توفرت به، وزيادة على ذلك فان المهادي شاب وسيم الطلعة جميل الصورة عذب المنطق، ولكن هذه العوامل كلها وإن كانت ذات اثر فعال في نفسية الزوجة ولكنها لا اثر لها في نفسية هذه الفتاة قطعياً بل ازدادت بكاء، ولم يكن بين العروسين أي تجاوب سوى هذا الدمع الفياض هذا هو الترجمان الوحيد المعبر خير تعبير عن خواطرها، فبعد ذلك ادرك « المهادي » ان قضية عروسه هذه ليست قضية مظهر تهواه من مظاهر الحياة المعنوية أو المادية بل ولا الأدبية، وإنما ثبت عنده ثبوتاً جازماً أن الفتاة مصابة بأمر نفساني فعلى هذا الأساس دنا منها المرة الثالثة ،وخاطبها بكل صراحة بأنه الآن لا يريد منها شيئاً سوى ان تصارحه بايضاح وتبين له العلة النفسانية التي استولت على شعورها .

وبعد ان ألح عليها وأكد لها انه سوف يمكنها من رغبتها ويبلغها امنيتها مهما كلفه الأمر ، عند ذلك رجت الفتاة الفرج وتوسمت في زوجها المروءة، وصارحته بما هو آت : « انني فتاة يتيمة توفي والدي قبل ان أبلغ سن التمييز وكان وكيلي عمي الذي عقد لك النكاح وهو شقيق والدي ولقد كان بيني وبين ابن عمي «مُفَرِّج» إلفة زائدة من ايام الصغر فلما كبرنا جميعاً انقلبت إلفة الصبا الى غرام وعشق، ووصل بنا الشوق الى حد انه لا يسلو عني لحظة واحدة وانا بالمثل ،وقد كان عمي يعلم ذلك وهو عازم

أن ينكحني ابنــــه ولكن ابن عمي عندما تاكد من رغبتك بزواجي وحرصك على الأقتران بي عند ذلك آثرك على نفسه بصفتك ضيفاً عزيزاً عليه ،فتركني لك وانا اعلم ان حياته اصبحت مهددة بمـــا اعرفه عنه من المودة المتبادلة بيننا ،وان حياتي انا ايضاً مهددة كل التهديد اذا لم يسعدني الحظ باطلاق حريتي وعودتي الى ابن عميّ وإني ارجو ان يكون لي من إباء نفسك وكرم خلقك ما يشفع لي ويجعلك تترك سبيلي وأنت ايهـــا الشاب الأمير باستطاعتك ان تجد من بنات العرب من هي خير مني ، وأما انا فلا يمكن ان اجد من هو خير من ابن عمي مفرج » .

فبعد أن انتهت الفتاة من حديثها أجابها المهادي فوراً فقال :

« ابشري إني سأتركك لابن عمك وكوني امينة ومطمئنة أنني لن أباشر جسدك ولن تمسك يدي فانت حرام علي كحرمة والدتي علي وإنما الذي أريده منك أن تخفي الأمر حتى أذهب الى قومي ومـن ثم أبعث لك طلاقك بصراحة واشرح لابن عمك هذا السبب الذى تركتك من أجله».

لقد باتت الفتاة وهي هادئة البال فسيحة الآمال ، كما بات المهادي وهو مرتاح الضمير أيضاً ولقد كان شديد الغرام فيما سبق بهذه الفتاة،أما بعد أن وصل اليها وأصبحت زوجة شرعية ومن ثم اتضـح له غرامهـا بابن

عمها ومودتها المتبادلة معه ٠ فقد رأي أن الإقدام عليها وزواجه منها شيء يخالف الشيمة العربية . فلا يسعه إلا العزوف عنها وتركها وشانها لهذا الشاب الكريم الذي بلغ به الكرم لضيفه أقصي حد من حدود المروءة .

لقد مكث المهادي عند العروس الجديدة أياماً قليلة ليستر فيها أمره أمام الناس ، وبعد ذلك ذهب الى قومه فلما وصل اليهم انتدب رسولا من عربه ليبلغ مفرجاً طلاقه لهذه الفتاة ،ويشرح لهالأسباب التي دفعته الى طلاقها ويشكره ابلغ الشكر على معروفه الذي صنعه له ويؤكد له أنه أصبح أسيراً لفضله وأنه لا ينسي هذا الجميل مدى الدهر ويزيده تأكيداً أنه لم يطلق الفتاة وبنفسه لها أدنى غرام ويوضح له أن الغرام والمودة قد امحى اثرهما من نفسه .

وأكد لصاحبه أيضاً قائلاً أنني بعدما علمت أن هذهالفتاة مرشحة لتكون زوجة لك يا مفرج ، أصبحعزوفي عنها مائة بالمائة فحسب بل امسى امراً ضرورياً يتحتم على تنفيذه هذا وقد عادت الى اهلها ونكحها ابن عمها ومضت ايام وسنون ومفرج وزوجته في رغد من العيش وبسرور وهناء ليس بعده سرور ٠ استمر هذا النعيم على مفرج وابنة عمه مدة من الزمن واخيرا مال عليهما الدهر وهلكت

ما شيتهما و تشتت شمله وذهب ماله وبقي اجوف خالية يده من جميع متاع الدنيا .

فهذه الفاقة الشديدة والضرورة الماسة اوجدت في نفس مفرج عاملاً قويا يحدوه على ان يلتمس السبيل الذي يلتجىء إليه لينقذ نفسه من قيود الفقر الذي هو اثقل القيود على نفوس البشر وخاصة النفس الكريمة الأبية ، فبعد ان ضاقت الدنيا بوجهه وتعذرت عليه شتى الأسباب الإيجابية فلم ير الآن بدا إلا أن يذهب الى صاحبه « المهادي » الذي يجزم انه في بحبوحة من العيش وحياة مزدهرة وسرور ليس بعده سرور : هذا وقد ذهب «مفرج» الى ضيفه السابق المهادي ونزل بضيافته ليلاً هو وعائلته وأبناؤه الثلاثة فلم ير المهادي ساعة أبرك عليه وأسعد بل ولا أشرف وألذ من زيارة مفرج له لا سيا بعدما رأى أثر الفقر على وجهه ووجوه ابنائه المجعدة الشاحبة وكان المهادي يعتبر مجيء مفرج له من دلائل سعادته ومن علامات توفيقه في الحياة وطيب حظه وأكبر ما يتمناه المهادي أيضاً ان صاحبه أتاه من فاقة شديدة حتى يشاركه في ما يملك ويغدق عليه من الدنيا لينسيه الفقر ويدخل على قلبه السرور ، وظاهر أمر مفرج يعطي المهادي دليلا واضحاً على فاقته ، لهذا بادر المهادي مسرعاً بأمره لإحدى زوجتيه وهي صاحبة البيت الكبير أن تخلي البيت بما فيه

من فرش وأثاث وتتركه لضيفه وصديقه مفرج ليسكنه هو وعائلته وقد نفذت زوجته أوامره فوراً وسلمت البيت وما فيه لزوجة ضيفهم وخرجت بنفسها ولم تحمل معها من البيت قليلاً ولا كثيرا ، وقبل أن تبارح بيتها تذكرت أن ابنها يسهر مع فتيان العرب ولا يعود إلى مضجعه إلا بعد منتصف الليل ، وعادة إذا عاد يبيت على طرف الفراش الذي تبيت عليه والدته . لذلك نبهت والدة الفتى التي هي زوجة المهادي زوجـــة ضيفهم وأعلمتها أن ابنها الآن يمرح مع الصبيان في مكان بعيد عن منازل العرب و بعد منتصف الليل سوف يعود هذا الصبي إلى البيت وأكدت عليها أن لا تنام حتى يأتي ابنها وتشعره بأن والدته بارحت البيت وذهبت إلى بيت أهلها وقد تعهدت الضيفة لأم الصبي أنها ستظل يقظـــة حتى يأتي الصبي وترشده بالأمر الواقع ، وقد كانت الضيفة صادقة بتعهدها ، ولكن النوم كما يقول المثل سلطان جائر ، ولكنها سهرت قليلاً ثم غلب عليها النوم فنامت نوماً ثقيلاً وذلك لطول السفر والمسير البعيد فأهملت وصية أم الفتى ، فأتى الشاب كالمعتاد ورفع طرف فراش والدته ونام عليـــه وبقي نائماً في طرف الفراش والضيفة على طرفه وكلاهما ملتحفان في غطاء واحد وفراش واحد هذا وقد كان « مفرج » يسمر مع صاحبه «المهادي» صديقه القديم ، والمهادي حريص على أن يؤنسه ويسليه ويدخل على قلبـــه

السرور والمرح بقدر ما يمكنه ، وبعد أن مضى أكثر من نصف الليل استأذن الضيف من صاحبه المهادي ليذهب وينام تأذن له صاحبه وسار يشيعه حتى أدخله على بيته الذي وهبه له ، فلما كشف الفراش وجد زوجته نائمة وبجانبها فتى يناهز العشرين فاندهش من هذا المنظر الشاذ فخبط برجله على قلب الشاب خبطة قوية بغير شعوره فشهق الفتى شهقة فارق بها الدنيا ، فاستيقظت زوجته فوجدت هذا الفتى مصروعاً بجانبها ونظرت إلى زوجها وإذا غيرته وحماسته طاغيتان على عقله فصاحت بوجه زوجها « ويلك قتلت ابن الأمير » عندها استعاد الزوج رشده واستفسر من زوجته وهو لا يزال في ثورة الغضب « من هو ابن الأمير ؟ ما الذي يجعل ابن الأمير يأتي إلى فراشي ؟ ومتى عرفت ابن الامير ؟ »

الزوجة « هذا ابن المهادي أخبرتني عنه أمه بأنه يأتي إلى بيت أمه ويرقد على طرف الفراش وقد نبهتني أمه بذلك ولكن استولى عليّ النوم ورقدت »

مفرج : « يا لها من مصيبة كبرى فكيف المخرج من هذا المأزق الحرج »

الزوجة : « مالك إلا أن تذهب إلى المهادي وتخبره بما قدر الله وقضاه » .

مفرح : « لا محيص لي من ذلك » .

ذهب مسرعاً قاصداً المهادي فوجده جالساً في الموضع الذي كانا فيه سوياً فدنا منه وقص عليه الحادثة ، وكان مفرج مرتبكاً عندما قص عليه القصة ، بينما كان المهادي بمنتهى الهدوء ومتانة الأعصاب ، وراح يُطَمْئِن مُفرّجاً بأن الحادثة لا قيمة لها عنده وأنه أمر قدره الله وطلب من مفرج ألاّ يعلم أحدا قطعياً وأن يحذر زوجته ألاّ تبدي هذه القضية لاي شخص كان حتى ولا لأولادها وهب مسرعاً وحمل ابنه على ظهر فرسه وألقـــاه في الموضع الذي يمرح به الصبيان ويلعبون به في ليلهم ، وعاد راجعاً كأن لم يكن شيء من ذلك كله ، فلما تجلى النهار وجد الناس ابن المهادي ميتاً في ملعب الفتيان فكل من رآه سكت خشية أن يتهم ابنه به حتى ارتفع الضحى وشاع الخبر عند العرب جميعاً وتسرب إلى والد المقتول الذي هو أمير القوم ، الآن انفعل المهادي واستمل غضبه المصطنع وصاح على عربه وطالبهم جميعاً بدم ابنه أو أن يخبروه بالشخص القاتل ، ولكنه لم يجد من يجيبه على كلامه ، وأخيراً عقد جلسة حضرها عموم الشخصيات من كبار قومه ودار الحديث فيما بينه وبين هؤلاء الكبـــار وآخر الامر تم البحث على تنفيذ ما يلي :

أن تحصى نفوس العرب جميعاً وخاصة الاغنياء منهم ويجعل على كل

فرد منهم ناقة من أطيب الإبل» . وافق القوم على ذلك ، فما غابت شمس ذلك النهـار إلا وقد اجتمع ما يقارب ثلاثمائة ناقة من خيرة الإبل عند بيته فساقها القوم وسلموها لأميرهم المهادي دية لابنه ، استامها المهادي وذهب إلى الضيف الصديق وأشعره بأن هذه الإبل هي ملك له وإنما تبقى الآن مبدئياً بين إبل المهادي حتى تنقشع هذه السحابة المصطنعة . أما أم الفتى التي هي زوجة المهادي فإن المهادي ساق لها عـــدداً من الإبل دِيَةً منه لابنها وبعد مضي مدة من الوقت ادخل المهادي هذه الإبل على صديقه القديم واصبح مفرج من كبار أثرياء البادية ولم يزل لِمُفَرِّج في جوار صاحبه المهادي وبقي الاثنان كالأخوين لا يفترقان ، وإذا جلس المهادي ومفرج في مجلس يضم الإثنين كان صدر المجلس والحـــديث لِمُفَرِّج هو صاحب المكان والمهادي كأنه غريب، مضت سنوات غير قليلة وهما خليلان صادقان .

فإذا أردنا ان نبحث عن أساس الصلة التي بنيت على أساسها صداقة المهادي ومفرج فإننا نجد ذلك ناشئاً عن غرام المهادي بتلك الفتاة وعلى ضوء تلك الحادثة الغرامية توطدت أواصر المودة والولاء بـــين كل من المهادي القحطاني «ومفرح السبيعي» لأنها ولا شك كانت محكاً لأخلاق الشخصين ولقد عبرت عن عراقة أصل وشيم كلا الصديقين .

ولكن الحادثة الغرامية الآتي ذكرها ، تختلف كل الاختلاف عن حادثة المهادي ، وان تشابهت الأسباب والوسائل فإن غاية الاثنين متباينة تبايناً كلياً :

وإليك شرح الثانية الوخيمة القذرة :

كان للمهادي فتاة جميلة الصورة ابتلى بحبها أحد أبناء « مفرج » فذهب يلتمس الوصول إليها بغير السبيل الشرعي [1] فلا يترك فرصة من الفرص

---

(١) لا اعلم لمـــادا حرص هذا الشاب على الوصول الى هذه الفتاة عن طريق السفاح ؟ ولم يحاول ذلك عن طريق النكاح المشروع . لا بد من ان يكون هناك عوامل اساسية تحول دون الوصول اليها بالزواج الشرعي فقد تكون هـذه الفتاة (محيرة) لابن عمها ومعنى (المحيرة) هو ان ابن عمها الأدنى يقول « إني محير ابنة عمي فلانة» معناه انه منعها منعاً باتاً ان تنكح رجلاً غيره . فعند ذلك لا يستطيع عمه ان ينكح ابنته من اجنبي إلا برضى ابن اخيه . فان زوّجها من غيره بدون إذن منه يصبح مهدداً بالقتل من قبل ابن اخيه ، كما ان الزوج نفسه يصبح عرضة للتنكيل . وهذه العادات لا زال لهـــا بعض الأثر في البادية وهي في طريقها الى التلاشي . المقصود ان ابن مفرج ما سعى وراء هذه الفتاة وحاول الوصول اليها من طريق الفاحشة إلا والسبيل المؤدي اليها بطريقة شرعية غير متيسر . ولا نـدري ايضاً فيما اذا كانت الفتاة غير محيرة وكان بامكان الشاب ان يطلبها من والدها بكل سهولة ولكن نفسه الخبيثة لا ترى لذتها إلا من طريق الحرام .

ونحن نميل الى الرأي الأخير لمـا يظهر لنا من دناءة نفسية الفتى ونجده اقرب للصواب .

التي تكون فيها الفتاة آمنة مطمئنة وفي خلوة من الناس : إلا اغتنم هذه الفرصة مع الفتاة وبدأ يغازلها ويداعبها ويحاول أن ينال من عرضها بقدر ما يمكنه .

هذا والفتاة تخبر والدتها بالواقع من أول الأمر الى أن تمادى السفيه في جهله وشقاوته وكانت والدة الفتاة أيضا تخبر والد الفتاة ، وقد كان يوصي زوجته بأن تحرص ابنتها على ألا تفشي هذا السر لأي أحد كان. وأن تحرص ايضا على أن تبتعد عن الشاب بقدر ما تستطيع ، وقد كانت الفتاة منفذة لأوامر والدها ومطبقة لوصيته عملياً قبل ان يأمرها بذلك ، فازدادت بوصيته حرصاً فوق حرص . ولكن حرصها لم يفدها شيئاً امام الشقي ، فكان يزداد تمادياً في سفاهته وضلاله .

مضت مدة طويلة وعفة الفتاة مهددة بخطر من هذا الشاب الفاسق . وأخيرا تقلص صبر الفتاة وبكت امام والديها واعلنت لهما بصريح العبارة أن الشاب أصبح منها قاب قوسين أو ادنى ، واوضحت لهما انه على استعداد كامل ان يفترسها عند اول خلوة يخلو بها ؛ وبصفتها انثى بطبيعتها ضعيفة امام الرجل فلا تستطيع أن تدافع عن نفسها اذا همّ هذا الفاجر بها وان مقاومتها لا تثمر شيئاً .

هذا وقد كان والدها على أحرّ من الجمر فلا يعلم ماذا يفعل ؟ وماذا يتخذ من الحيلة لحل مشكلته؟ فهو إن صرح لصديقه والد الشاب بالجريمة التي ينتوي ابنه تنفيذها فان صديقه سيعاقب ابنه اشد العقاب لا محـــالة ، والمهادي لا يريد أن يصاب ابن صديقه بسوء بسببه ولا بغير سببه لأنه يعتبر ابن صديقه كأنه ابنه بل ربما يرى له من حرمة الجوار ووفاء الصداقة الشيء الذي يفوق حرمة الابن عند والده ، ولكن المصيبة الكبرى ان الشاب لا يراعي للجوار حرمة فهو لا يضع نصب عينيه إلا الفرصـــة التي تمكنه من هذه الفتاة ، ليهجم عليها ويستبيح عرضها بأية وسيلة كانت ، هذه هي أمنية الفاجر التي كان يحلم بهـــا . والمفهوم أن والد الفتاة علم من طريق ابنته العلم اليقين بنية المجرم التي يحوكها لابنته لهـــذا اضطر أن يحجب ابنته عن الخروج ، وان خرجت لطريق ما تولى حراستها بنفسه . ومضى وقت غير قصير والحالة مستمرة على ذلك والشاب المعتدي ليس له شغل يشغله إلا مراقبة الفرصة السانحة التي يثب بها على الفتاة ووالدها يلاحظ حركات المجرم بعينه فما يزيده ذلك إلا حرصاً على حراسة ابنتـــه .

ومضى وقت غير قليل والحالة متواترة على هذا الشكل ، وأخيراً فرغ صبر الشيخ وطالت عليه ليالي الحراسة من هذا المعتدي الغشوم فهب

يلتمس انجع الوسائل والأسباب التي يأمن بها على عرض ابنته . فرأى أن أيسر الطرق وأهداها هو إمـــا أن يرحل عن جاره « مفرج » ويتركه هو وابنه المسيء أو أن يرحل جاره عنه ويبعد عنه الخطر المهـــدد لعرض ابنته . هذا هو المخرج الوحيد الذي ينجو به من آفة هذا الطائش الذي سعى بافساد ما اصلحه الصديقان سنين عديدة .

أصبح المهادي يرى أن فراقه لصديقه أمر لا محيص منه فهب يلتمس حيلة يلمح بها لصاحبه بالرحيل عنه لأنه شق عليه أن يصرح له بذلك فوجد أن هنـــاك لعبة تسمى عند البادية « البيَّه » وهي المسماة عند الحضر « الدامة » فطلب المهادي من جاره ان يتسلى وإياه ويلعبا هذه اللعبة . فلبّى مفرج طلب صاحبه ولعبا معـــاً . وعندما كان ينقل المهادي احدى آلات هذه اللعبة من موضع الى موضع كان يقول لمفرج « ارحل وإلا رحلنا » .

انتبه جاره لهـــذه العبارة لأن المهادي اعادها عدة مرات واندهش دهشة عظيمة لأن المهادي لا يمكن أن يصرح بمثل هذه العبارات الا أن يكون هناك دافع قوي ألجـــأه إلى ذلك ، ومفرج لا ينسى أنه أراد في أول الأمر أن يستأذن من المهادي ويذهب إلى عشيرته (سبيـع) أراد ذلك بعد أن وهبه المهادي الإبل التي دفعتها عشيرته دية لأبنه . ولكـــن

المهادي أبى ورفض ذلك وأصر كل الأصرار على أن يبقى بجواره حتى يفرقهما الموت . فكأنني بلسان حال مفرج يقول : ما هـــذا الانتكاس الذي جعل المهادي يكرر عبارته « ارحل وإلا رحلنا » ولقـــد أيقن مفرج اليقين القاطع أن هنـاك حادثاً خطيراً اضطر المهادي إلى أن يقول تلك العبارة .

ولما كان مفرج غريباً بين عشيرة المهادي فإنه لم يستطع أن يسر لأحد أمره ويشكو إليه مصيبته التي ألمت به وهي رغبة المهادي بفراقه ، لم يجد مفرج احداً يشكو إليه إلا زوجته التي تبادل معهـــا الرأي فاضطر إلى أن يخبرها بكلمة المهادي له « ارحل وإلا رحلنا » فـاجتمع رأي الزوجين على أن هناك أمراً عظيماً شعر المهادي بضرره فرغب بالفراق حسماً للخطر .

وقد استقر رأيهما على أن يذهب مفرج إلى المهادي ويستأذن منه بأن يرحل إلى قبيلته ، فذهب إليه وقال له : إني مشتاق إلى زيارة أهلي الذين مضى على مفارقتي لهم عدد من السنين . فقال المهادي : حسن ، لك ما تشاء . فلما سمع مفرج جواب صاحبه الذي يدل على عدم الاكتراث بفراقه بل رآه يستقبل النبأ بكل فتور ولا يبدي أي أسف أيقن يقيناً لا ريب فيه أن صاحبه يكتم في صدره أمراً خطيراً وأنه يرغب في الفراق رغبة

أكيدة .

ذهب مفرج وهو يحس بحرارة الألم وأعد رواحله فوراً ورحل . وفي طريقه مر على صديقه المهادي فودعه ثم واصل سيره مولياً وجهه شطر قبيلته، وكل ما يتمناه هو أن يعرف الاسباب التي أثرت على عواطف صديقه الحميم فجعلته ينفر من جواره بعد أن كان يعز عليه فراقه . فكر طويلاً ليعرف هذا السر الغامض . فتكاثرت عليه الظنون وقال في نفسه ربما يكون بعض الأعداء قد وشى بي عند صاحبي ، ولكنه يعرف أن صديقه رجل رزين لا يمكن أن تؤثر عليه وشاية الواشين، فحصر تفكيره بناحية واحدة ، واتجهت ظنونه نحو أولاده الثلاثة، ورسخ في ذهنه أنه لا بد أن واحداً من هؤلاء الفتيان سولت له نفسه بانتهاك حرمة صديقه المهادي . وقد اختمرت في ذهن مفرج هذه الفكرة ولكنه أحب أن يستوثق منها .

وكان مفرج يعرف أن المهادي شاعر مطبوع فقال في نفسه لا بد من أن المهادي ستتفتق قريحته ويعزف على ربابته [1] القصيدة التي تعبر

---

(١) الربابة : آلة موسيقية عند البادية وهي ابلغ شيء يطرب من نغماتها العربي فيما إذا كانت القصيدة يتطرق معناها إلى حزن وشكوى وآلام فلا يمكن ان يسمع العربي او يرى ما يثير شجونه وآلامه مثل الربابة والحقيقة ان لها اثرا عظيماً=

عن حقيقة أمره وواقعه الحالي وعلى ضوء هذا التفكير سار مفرج بنفسه وترك زوجته وأولاده وقصد منزل صديقه المهادي حيث وصله ليلاً فبقي متوارياً من خلف رواق البيت ، فلما انتصف الليل وأيقن المهادي أن العرب ناموا جمعاً هناك تناول ربابته وأنشد هذه الأبيات :

(١) يَقُولَ الْمَهادى وَالْمَهْادِي مُهْمل[1] لَوى علّتي جميع الورى ما دَرا بْها

(٢) « أنا إن بينتها بَانتْ لِرَمّاقة العْدا
وَإن كنْيتهـــا ضَاق الحشا بالْتهِابْها

(٣) ثمان سْنِيْن وَجارنا مُجرم بِنا وَهو كماواطي جمرةٍ مَا دَرَا بْها

= في نفسية العربي، خاصة إذا كانت القصيدة محزنة .ولا يمكن ان يعرف احد ما للربابة من تأثير في شعور العربي وعواطفه إلا من يتذوق نغماتها ويعرف معـــاني القصيدة الشعبية التي تلحن على اوتارها .

وحذار ان يظن القاريء إن الربابة التي يحملها (النور) المنحطون هي نفس تلك ، ليس كذلك لأن الأولى لا يترنم بها إلا الابطال او من يحذو حذوهم في اندية العرب ومجتمعاتهم ، وتتطرق إلى معان جمة في عموم حياة البادية الاجتماعية والحربية والادبية مع انها الآن لا اثر لها خاصة في بادية نجد . اما الثانية فهي آلة هزلية تحترف بها فئة سافلة من حثالة البشر .

(١) عرف عند عموم رواة العرب بأن اسمه (مهمل) لا محمد ولكني ارجح ان اسمه محمد لانه إذا كان (مهملا) فلا معنى لاسمه ، واعتقد انه قلب من محمد إلى مهمل .

(٤) رَحلْ جارُنا ما جَاه منّا زَرِية وَلَوْ جِتنامنه ما جاهْ مِنّا عتابْها

(٥)نرفو خَمالَ[١] الجارْإلى داس زلةْ كما ترفو بيض العذارى ثيابْها

(٦)ترىْ جارناالقالط[٢] على كل طَلْبَهْ ولو كان ما يَلقى شُهودٍ غَدابَها

(٧) أَلْأَجوادْ إذا قارَبْتَهُمْ ماتمَـلّهم وَالْأَنذال إذاقاربتها عِفت ما بْها[٤]

(٨) ألاجوادْ مثلَ العِدّ من وَرْدِهِ ارْتوا [٣]

والأَنذالْ لا تِسِقْي ولا يِنْسِقْى بْهـا

(٩) الاجوادْ مثل ألبدْر في ليلةَ الدُّجا

والانذالْ ظَلْما ضَايعٍ من سَرىٰ بْهـــا

(١٠) الأَجوادْ مثلَ الزَمْل للشْيلْ تِرْتِكِي[٤]

والانذالْ مثل الحَشْوْ ، كثير الرّغا بْهـــا

(١١)ولّى عجوز من سبيع آل عامر مْضَيّعَةٍ غِرّانها في شبابهـــا[١]

(١٢) أَقسمتْ ياارضٍ خَلَتْ من مُفرّج

مـــا أَبْغاهـــا لَوْ هو زعفرانٍ ترابَها[٢]

---

(١) الخمال : العيب . (٢) القالط : الفائز . طلبه : دعوه . (٣) ما بهـــا : ما بهم . (٤) العد : البئر .

(٢) الزامل : الجمال القوية . الحشو : اولاد الجمال الصغيرة . الرغا بهـــا : الصياح أي كثير الصياح والملل .

(٣) ولي . ابتعدي . غرانها . اطفالها .

(٤) ما ابغاها . لا اريدها .

شرح الابيات

(١) « يَقولُ الْمَهادِي وَالْمهادِي مُهْمَل
لَوى عِلّتي جَميع الملاَ ما دَارا بهــــا »

يقول انني انا المهادي ابتليت بمصيبة عظيمة وقد طويت عليها نفسي ولم يطلع عليها أحد من بني البشر . ومن المسلم بـــه أن أعظم المصائب أثراً في النفس هي المصيبـــة المكتومة التي لا يجد صاحبهـــا من يبديها له .

(٢) « أنا إنْ بَيّنْتَها بانَتْ لِرمّاقة[1] الْعِدا
وإن كَنّيتها ضاقَ الْحَشا بِالْتهابِهــــا »

يشير صاحبنا الى البلية التي ابتلى بها وهي مراودة ابن جاره لفتاته من ناحية ومفارقته لصديقه العزيز عليه من ناحية اخرى ويقول: إنها علي من أدهى الملمات والرزايا ويعطينا دلالة على شدة تأثره بها فيقول إنه لا يستطيع أن يفشيها فيشمت به أعداؤه كما أنه فرغ صبره من تحفظـــه وكتمانه لها .

---

(١) الأعداء الشامتون .

(٣) « ثمَانْ سِنِيْنْ وَجَارِنَا مُجْرِمٍ بِنَا
وَهُوْ كَمَا وَاطِي جَمْرَةٍ مَا دَرَا بِهَا »

يؤكد الشاعر أن هذه الإساءة التي صدرت من ابن مفرج ليست قضية أيام أو أشهر ولا إساءة سنة أو سنتين بل إنها ثماني سنوات والإساءة مستمرة بشكل عنيف ورغم هذه المدة الطويلة يؤكد لنا المهادي أنه لا زال يتجلد ويصبر ، ويقول من المصيبة أن والد المجرم أي صديقه مفرج لا يعلم شيئاً عن المصيبة التي ابتلي بها بسبب ابنه والعار الذي أراد أن يلبسه الإبن أباه . ويصف لنا حالة صديقه مفرج أنه أشبه ما يكون بالمرء الذي وضع قدمه على نار متوارية عن نظره وهو لا يراها ولا يحس بحرّها لسبب ، إما أنه ينتعل نعلاً يقيه أذاها أو بسبب موت جلد قدمه فأصبح لا يتألم وإن كانت النار تأكل لحمه وذلك على رأي أبي الطيب المتنبي في الشطر الثاني من هذا البيت :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وهو إذ يصف مفرجاً بهذا الوصف يعتقد أنه لو علم بالجريمة التي يحاول ابنه ارتكابها لكانت المصيبة على مفرج أكبر وأعظم مما هي على المهادي لهذا يقول :

(وَهُوْ مِثْل وَاطي جَمْرَةٍ مَـا دَرَا بَهَا)

(٤) «رَحَلْ جَارِنَا مَا جَاهْ مِنَّا رَزِيَّهْ
وَلَـوْ جَتْنَا مِنْـه مَا جَاهْ مِنَّا عِتَابِهَا»

يقول إن جاره رحل من عنده بدون أن تأتيه أذية منه بل يقول ولو فعل جارنا بنا الدنيئة وأساء إلينـا بجيرته لنا فلا يمكن أن نعاتبـه على إساءته لنـا بل نتسامح، ونغض الطرف عن جريمتـه مهما عظمت وكبرت.

(٥) «نرفُو خَمَالْ الْجَارْ إلى دَاسْ[١] زَلَّه[٢]
كَمَا تَرفُو بيْض العَـذارى ثِيابهَـا»

يزيد تأكيداً في هذا البيت بأن حرمة الجار في نفسه عظيمة عظمة بالغة ويوضح لنا أن جاره لو تمادى في إساءته فإنه يقابله بأحسن منهـا ويحاول أن يستر هـذه الإساءة حتى لا يطلع عليها الناس لهذا قـال «نَرفُو كَمَا تَرفُو بيْض العَذَارى ثِيَابهَا» أي كمـا أن المرأة إذا انشق

---

(١) داس: بمعنى إذا فعل. (٢) زلة. بمعنى خطيئة.

ثوبها الذي يستر عورتها وتتجمل به تحرص كل الحرص على أن ترفو هذا المكان حرصاً على تجملها وستراً لعورتها ، وكذلك يقول نحن نفعل ما استطعنا لنستر جريمة جارنا ، فيا إذا أخطأ وتجاوز الحد بخطيئته وضرره

(٦) « ترى جارنا القالِطْ[1] عَلَى كلْ طَلْبَهْ[2]

وَلَو كان مَا يَلقى شهوْدٍ غَدا بهَا »

يقول لنا المهادي إن الجار مقدس عنده وإنه إذا ادعى بقضية ما وطالب بها فإنه يحكم له بصحة ما يدعيه ويعتبر أن دعواه هذه قضية مسلم بها حتى ولو أنه لم يستطع أن يأتي بالبينة التي تثبت دعواه ولا بالشاهد الذي يشهد له بثبوت حجته . ومنطق المهادي يقول : إنه لا يطالب جاره بشيء ، بل يتركه له وهو راض ومطمئن الضمير .

(٧) « ألْأَجْوَادْ إذا قَارَبْتَهُم مَا تَملَّهمْ

والْأَنذَالْ إذَا قارَبْتَهَا عِفْت مَابهَا

يمتدح الشاعر نفسه دون أن يصرح بذلك فيقول: ان الرجل الطيب المعدن تجذبك خصاله اليه فكلما اقتربت منه ازددت رغبة فيه ومحبة له وإعجاباً به . ويعطينا دليلاً صادقاً بأن الأمجاد والأجواد لا يشعر

---

(١) القالط : اي المقدم . (٢) طلبة : اي دعوة.

صديقهم ولا جارهم بأي سأم ولا ملل مهما طالت اقامته عندهم .وفي الشطر الثـــاني يفيدنا أن الانذال اذا قرب منهم المرء عافهم ورأى أن سلامة عرضه منهم هي الكسب الوحيد لهذا تراه أشار بقوله : (وَالأَنْذَالُ إِذَا قَارَبْتَهُمْ عِفت مَا بِهَا) والأصح أن يقول « عفت مــــا بهم » ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلى ذلك.

(٨) « ألأَجوَادُ مِثْلِ ٱلْعِدّ[١] مَنْ وَرْدَه ارْتوى
وَالأَنْذَالْ لاَ تُسْقِي وَلاَ يُنْسَقى بِهَـــا »

معنى هذا البيت منسجم تماماً مع معنى البيت الذي قبله . إلا أنه يوضح أن الأخيار أقرب ما يكونون شبهاً بالبئر الغزيرة المــاء التي لا ينقص ماؤها من كثرة الواردين منه مهما زاد عددهم وأما الأنذال فهم على عكس ذلك.

(٩) « الأَجوَادْ مِثْلَ ٱلْبَدْر في لَيْلَةِ ٱلدُّجى
وَٱلأَنْذَال ظَلْمَا تَايهٍ مَنْ سَرى بِها »

وهذا ايضاً قريب المعنى من البيتين الأولين . فهنا يصف لنا مدى فضل الاخيار على الانذال ويهدينا إلى التباين البعيد بين الطرفين فيقول:

---

(١) العد : البئر الغزير ماؤه .

إن الأخيار لهم علامة فارقة تميزهم عن غيرهم من سائر النـــاس وانهم أشبه ما يكونون بالبدر في كمال نموه . ثم يعود ويصف الأنذال فيقول: انهم كالليل المدلهم الذي لا يستطيع احد ان يسير فيه . وإن سافر فيـــه مسافر للضرورة فإنه سيخطىء الطريق لشدة ظلمته وقلة العلامـــات التي يهتدي بها المسافر .

«١٠» « ألْاجْوَادْ مِثْلَ ألزَّمْل (١) لِلشَّيل تَرْتَكِي

وَألأَنْذَال مِثْلَ الحَشو كثير الرغـــا بَهـــا

في رأي الشاعر ان الاخيار مهما تكن المصائب بهم جليلة وخطيرة فإنهم يتحملون صعوبتها كما تتحمل الجمال «الزمل» الحمولة الثقيلة. ثم يذهب بنا الشاعر إلى وصف نفسية الأنذال ويقول: إنها منحطة الى آخر ما يعبر عنها ، فكما انه وصف الأخيار بالجمال لاحتمالهم المشاق فكذلك وصف الأنذال « بالحشو » والحشو هي ابناء الإبل الصغـــار التي لا تستطيع ان تتحمل من الحمولة ما تتحمله الجمال القوية .

١١ « وَلِّيْ (٢) عَجُوزٍ مِنْ سِبِيْع ألعامِر

مُضيِّعَتْ غِرانهاَ فِي شَبَابَهـــا »

أرى أن هذا البيت أبلغ ما في القصيدة إذ أن فيه حكمة وبياناً قوياً.

---

(١) الزمل : الجمال الشديدة القوية . (٢) ولي : اي ابتعدي .

فالمهادي هنا يريد أن يوضح لنا أن السر الذي جعل ابن جـــاره فاسد الأخلاق إلى حد أنه يحاول فعل الفاحشة بابنته وهو يعلم ان المهادي عند والده بمنزلة أعظم من منزلة الأخ الشقيق ورغم هذه الأخوة الصافيــة الصادقة المتبادلة بين الطرفين لم يرتدع عن مراودته لأبنته. فالمهادي يؤكد أن السر الوحيد الذي أفقد هذا الصبي المناعـــة الخلقية هو عدم تربية والدته له•فهو يعتقد أن والدته لو أحسنت تربيته أولاً وهذبت أخلاقــه وأفهمته ما للجار والصديق من حرمـــة وحقوق في نفوس العرب، لو أرشدتـــه إلى ذلك منذ نعومة أظفاره لما انحطت نفسه إلى هـــذا الحد [1].

وهو يقصد بقوله « وليّ عجوز » أي قبحك الله من عجوز عندما كنت شابة أهملت توجيه ابنك حتى كانت اخلاقه سيئة بهذا الشكل [1]

---

(١) لقد حمل المهادي المسؤولية كلها على والدة الفتى لاعتبارها الأم، والأم بلا شك هي مدرسة الحياة الأساسية فان صلحت صلح الابن وبالعكس وهذا ما ذهب إليه الشاعر حافظ ابراهيم بقوله :

الأم مدرسة إذا اعددتها　　　اعددت شعباً طيب الأعراق

(٢) لم أجد المصدر الذي يفيدني عن هذه العجوز التي يشير اليهـا هل هي تلك الفتاة التي اغرته إبان صباها واستولت على لبه. أم هي غيرها، وبذلك تكون تلك الحسناء قد فارقت زوجها مفرج بموت أو طلاق. انني اجهل الأمر.

وفي هذا البيت دلالة واضحة على ان هـــذه العجوز من عرب سبيع آل عامر يعني بذلك انها من قبيلة سبيع المتفرعة من بني عامر وسبيع بادية مدينة الرياض .

١٣ « أقْسَمْتُ يا ارْضٍ خلتْ مِنْ مُفَرّجْ
ما أبْغاها لو هو زعفرانٍ ترابها »

يقسم بطل الحادثة على نفسه بأنه لا يمكن ان يسكن في الأرض التي رحل عنها صديقه مفرج لأنه لا يرى المكان الذي كان يسكنه جـــاره مفرج إلا ويزداد حزنه وشوقه إلى صاحبه . لهذا يقول إن الأرض التي أرى فيها آثار جاري وصديقي يتحتم عليّ هجرانها والنزوح عنها حتى ولو كان ترابها زعفران والزعفران اشبه ما يكون بالورد رائحة وهو اصفر اللون .

والقصيدة اكثر من هذه الابيات وانما تركنا البقية واخذنا ما فيه شاهد ودليل على صحة الحادثة .

لقد ترنم الشاعر في قصيدته ، وانتهى منها ، وصديقه مفرج خلف بيته يستمع لهذه القصيدة ولم يفته شيء من اولها الى آخرها ، فعاد مسرعاً إلى اهله ، ولم تذق عينه النوم حتى اسفر الصبح .

لقد اتضح له بأن احد اولاده اساء الى عرض صديقه الهادي ، اتضح

له ذلك من معنى البيت الثاني عشر الذي يلوم فيه العجوز على عدم تربيتها لأبنائها . وانما الذي اشكل على «مفرج» الآن هو معرفة المجرم من ابنائه وهل هو فرد منهم ام اثنان ام جميعهم ولكنه دبر حيلة استطاع بها ان يعرف المجرم منهم ، وذلك انه ينفرد بكل واحد منهم على حدة ويداعبه مداعبة القرين لقرينه حتى يجرئه على نفسه بحيث يصبح الولد لا يهاب والده ثم بعد ذلك يقول : « إنني يا بني أتمنّى ان اكون شاباً في شبابك وقوتك لكي استطيع ان أغري بعض الفتيات بشبابي ، ثم يستطرد ويقول : « كم كنت اتجرع الغبن والحسرات عندما ارى بنت المهادي تلك الفتاة الجميلة التي لا اتمنى في الدنيا إلا ان اكون شاباً مثلك حتى اتمكن من ان اتمتع بها بأي شكل كان .

بهذا المعنى كان الشيخ يتحدث مع ابنائه كل واحد منهم على حدة . فأما البريء من اولاده فكان يؤَنِّبُ والده ويلومه بقوله : « هذا يا والدي عيب عليك ان تحكيه كما انه عيب علينا ان تحدثنا انفسنا بارتكاب الفاحشة، فلو حدثتنا انفسنا بعملية كهذه لما فعلناها مع ابنة صديقك الذي نرى له من الولاء والاخلاص والحق والواجب ما نراه لك يا والدنا » .

هكذا كان جواب كل بريء من ابنائه ، عندما يختلي به ، فلما وصل

إلى صاحب الجريمة وداعبه كما كان يفعل مع الآخرين عند ذلك قفز المسيء وقال : « والله يا والدي لو أقمنا عندهم ليلة واحدة لأزلت بكارتها » .

فقال الولد وهو يبتسم ابتساماً مصطنعاً : وهل كان ذلك عن رضاء منها ؟ قال الأبن : لا بل كنت ناوياً أن اغتصبها »

قال الشيخ وهو يكظم غيظه : « ما هي الطريقة التي كنت ناوياً تنفيذها لاغتصابك هذه الفتاة ؟ »

قال الابن : « كنت أترصد الفرصة التي أغتنمها ومن ثم اهجم عليها والخنجر بيدي اليمنى والحبال التي أشدها بها بيدي اليسرى ، وهي بطبيعة الحال سوف تخاف وتسلم نفسها وبهذه العملية استطيع ان أقضي وطري منها بكل سهولة » .

عندما انتهى الشاب من قصته الدنيئة قفز الشيخ وذهب مدبراً عن ابنه ثم استدار من خلفه وفي غفلة من الابن جرد سيفه وضرب عنق ابنه المجرم ثم أدرج رأسه في قميصه ، وترك جثمان ابنه في مسافة بعيدة عن اهله .

عندما وصل « مفرج » إلى أهله نادى بهم أن احضروا لديَّ فحضر الولدان وامها ، فسألهم عن عدم وجود الفتى المقتول

متجاهلاً .

فأجابه أحـــد ابنائـه بقوله : آخر عهدنا بـــه حينما ذهب بصحبتك .

فقال : وهو لا زال بصحبتي الآن . ثم صمت قليلاً فغشي الجميـع جو من الهدوء ومن بعد افتتح الشيخ الحديث مع زوجتـــه وأولاده وقص عليهم اسبـــاب صداقته مع المهادى وتاريخها إلى ان وصل إلى الأمر الذى أوشك ان يكون سببـــاً لانقصام عـــرى الصداقة .

فقال : إنها لصداقة متينة الأساس، راسخة الأصل ،ساميةالفرع بعيدة المدى، ولكن شاء أن يكدر صفوها ويقضي على كيانها عضو من اعضائي وهو لا شك عضو فاسد إن تركته سرى فساده إلى الجسد كله فأفسده لهذا استسغت قطع هذا العضو كي لا يسرى فساده إلى بقية الجسد [1] .

فبعد ذلك صرح لزوجته وولديه بالأمر الكائن . ثم انتدب أحد ولديه وكلفه ان يحمل رأس اخيه و يذهب به إلى المهادى و يضعه بين يديه

---

(١) ربما اني تصرفت بشيء من لفظ مفرج ولكنني لم اخرج عن جوهر المعنى الذي يرمي اليه .

فلبى الفتىّ كلام أبيه ، وحمل رأس اخيه حتى وصل المهادى فوجده جالسا في بيته فسلم عليه ثم طرح رأس أخيه بين يديه ثم انصرف حسب ارشادات وتعاليم ابيه .

لقد دهش المهادي من هذه العملية وشعر آنذاك أن صاحبه أدرك السر الذى جعله يلمح له بتلك الجملة « ارحل وإلا رحلنا »

الآن ازدادت آلام المهادى وعظمت مصيبته عما كانت ، وإني أجهل كما يجهل كثير من الرواة ما فعل المهادى بعد ذلك . هل ذهب إلى صاحبه وأقسم عليه ان يعود الى جواره أم انه لحق به وبقي جاراً له كما كان مفرج جاراً له بالأمس ؟.

هذا واني لا استبعد ان يكون عند القراء شيء من الشك في صحة هذه القصة لما فيها من الروعة والتفاني في التضحية ولكن ليطمئن القراء ان هذه القصة قد بلغت اقصي ما يعبر عنه من الشهرة والتواتر عند ساكني الجزيرة وخاصة عند البادية . وعرب البادية بعيدون كل البعد عن التزوير والإختلاق .

بتر قدم صديقه وفاء بعهده

وقعت بين عام ١١٩٠ و ١٢٠٠ ﻫ

كانت أواصر الصلة بين كل من « ماجد الحثربي،[١] وصديقه مُفَوّزِ التجغيف » وطيدة الاساس وثيقة العرى إلى أقصى حد . فكانا متحابين محبة لا تشوبها شائبة من المطامع الفردية ، وكل فرد يرى لصاحبه من الاحترام والتقدير ما يراه لنفسه ، ويود له من الخير ما يوده لذاته فهما كنفس واحدة لا يفرقها إلا الموت ، تجمعهما الفطرة العربية . كما ألفت بينهما رابطة الفتوة والفضيلة ، وكان ثمة تبادل وتجاوب بين شعور كل منهما من الطموح والقيم الأخلاقية المثلى ، فكانت صداقتهما صداقة عفيفة شريفة بريئة . ليست كمثل صداقة بعض الشباب المائعين . وقد كان بينهما انسجام كلي بالأخلاق والتربية الأدبية والاجتماعية ، اللهم إلا أن ماجداً يفوق مفوزاً بقريحة نظم الشعر فقط .

ولما كانت الحوادث الطارئة في ذلك العهد تداهم البادية بين عشية وضحاها ، لذلك فقد انصبت غارة أحد الغزاة على قبيلة شَمَّر التي هي عرب ماجد ومفوز . فركب الفارسان جواديهما قاصدين طلب الإبل وقد كان

---

(١) كلاهما من قبيلة شمر .

فرس ماجد أسرع جرياً من فرس صاحبه فوصل العدو قبل أن يصل خليله . وعندما سمع الغزاة صوت ماجد تركوا الإبل وولوا هاربين . فواصل غارته مقتفياً أثر العدو ، ولا زال يقاتل ويناضل حتى ظفر بفرد من هوءلاء الغزاة « منعه »[1] واعطاه إشارة منه إما عقاله أو شيئاً من ملابسه . وهذه العلامة تكون شعاراً تقي هـذا الأسير شر (عرب ماجد) فإنهم عندما يرون الأسير متدرعاً بعقال أو عباءة أو ما أشبه ذلك من ألبسة ماجد فلا يتمكن أحد أن يؤذيه قطعياً لأنه أصبح بجوار هذا البطل ، هذا وكان ماجد قد أجار من هؤلاء القوم الغزاة شجاعاً مشهوراً كان فيما سبق قتل أبا مفوز أي صديق ماجد الحميم . وقد كان مفوز يسأل الله بإلحاح أن يهب له غريمه بين يديه . وقد ساق القدر مفوزاً إلى غريمه وهو هذا الشجاع الذي أجاره صديقه ماجد فما ان نظر مفوز غريمه وتأكد منه حتى أخذته سكرة الغضب التي دفعته إلى أن يقتله بدون أن ينظر إلى عقال صاحبه الذي كان متدرعاً به ، وغاية ما في الأمر أنه طعنه برمحه ، وتركه ومضى في سبيله ليدرك العدو ويناضل في جنب رفيقه ماجد . أما هذا القتيل فإنه لم يفارق الحياة ولم يفقد حواسه ولا زال على آخر رمق من الحياة . وقد كان حينما طعنه مفوز قريباً من بيوت العرب

---

(١) منفعه . اي اعطاه عهداً بالله ان لا يمسه احد بسوء .

بحيث أتاه الصبيان والنساء ومن بين هؤلاء النسوة أم ماجـــد التي رأت عقال ابنها على صدر هذا الجريح المحتضر ، فحملته إلى بيت ابنها . وأعطاها الجريح الإفادة بأن قاتله مفوز و بعد مضي دقائق سلم نفسه لباريها.

هذا وقد عـــاد ماجد من الغزوة منتصراً ولكنه لم يرجع إلا بعد العشاء الاخير . وذهب الى محل بيته فلم ير ذاك البيت المشيد وإنما رأى بيتاً مقطعة أطنابه ومكسرة أعمدته ، وعلى جانبه عجوز تنوح وتدعو بالويل والثبور . أصغى قليلاً ليستعلم عن صوت هذه العجوز واذا بـــه صوت أمه الذي لا ينكره . أقبل عليها منحنياً يقبل رأسها : « لا يا أماه ابشري اني حي شديد منتصر بحمد الله ولم اصب بأي أذى ، من الذي افترى عليك الكذب وازعجك ، قبحه الله .

ـ ام ماجد :اني أتمنى انك ميت حتى يكون ذلك اهون عليّ مصيبة.

ـ ماجد : ماهو الخبر يا أماه ؟ ـ ام ماجد : الخبر هو خبر السوء الذي لا يفوقه سوء . لقد هتك صديقك مفوز حرمتك وألبسك العار الخالد . ـ ماجد : ماذا فعل مفوز يا والدتي ؟

ـ ام ماجد : فعل العملية الشنعاء . لقد قتل منيعك [١] وها هو ذا مجندل تحت رواق البيت .

---

(١) أي الذي عاهدته وأخذ منك الأمان وأجرته بجوارك .

ـ ماجد : لا يا والدتي اتقي الله لا يمكن أن يكون مفوز قد هتك حرمة أخيه الحميم ولكن الذي اخشاه انها مؤامرة من شباب عربنا الذين حسدوني ومفوزاً على ما نحن عليه من أخوة صادقة وقتلوا « منيعي » ليوقعوا بيننا العداوة .

ـ أم ماجد : لا يا بني ليست القضية قضية مؤامرة كما تظن وانما هي قضية صدق وفي ذلك شهود .

ـ ماجد : من هؤلاء الشهود ؟ أنا لا ارضى شهادة كل العرب ولا اصدقهم ابداً إن قالوا إن اخي مفوزاً ينتهك حرمتي .

ـ أم ماجد : يا بني يجب ان تكون اوفر عقلاً من ذلك وتصغي لقولي .

ـ ماجد : سمعاً وطاعة يا والدتي . هاتي ما عندك .

ـ أم ماجد : بينما نحن نساء العرب وصبيانهم نسير على إثركم حاملين الماء لنسقي عطشاكم ونسعف جرحاكم ، لقينا هذا القتيل مطعوناً طعنة أدت الى ما ترى . فظننا أَنه من عربنا لا من اعدائنا فحرصنا على ان نعرفه فلم يعرفه منا احد . ولكن روحه لم تكن قد فارقت جسده ، كما انه لم يفقد عقله فحدثنا وهو بحالة النزاع قائلاً : انا فلان(١) وقد « منعني »

(١) لم أجد احداً يفيدني بمعرفة اسم الشخص القتيل ولا قبيلته وذلك لطول العهد الذي اسبل اذياله على هذه الحادثة حتى كادت ان تدرس لولا تناقل الاحفاد لها عن الاجداد وقد كانت القصيدة الآتية خير ضامن لخلود هذه القصة .

ماجد الحثربي في وجهه واعطاني أمان الله، كما انه قلدني بعقاله وامرني ان اذهب الى بيته . فأتيت قاصداً أهله ولكن قابلني «مفوز التجغيف» الذي لا انكره فوثب عليّ عندما نظرني وطعنني برمحه، ولم يبرح من عندي إلا وهو يعتقد انني ميت . وهأنذا ميت لا محالة ولكن احملكن يا نساء الحي شهادتي هذه لتبلغنهـــا ماجداً الذي أنزلني بأمـــانه وبعهده ولا زلت بذمته.

كان ماجد يستمع حديث أمه ترويه عن مستجيره والدنيا تسود في وجهه، وبقي صامتاً مدة كأنه مغشى عليه . ثم أفاق فأصغى الى أمه وتكلم بصوت منخفض وقال : يا والدتي إن المرء عندما يكون في حالة النزع وسكرات الموت لا يملك من عقله وشعوره شيئاً فهو يهذي بالشيء الذي يمليه عليه خياله، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فانني لا استبعد أن يكون المرء الذي طعنه قد قال له انني مفوز التجغيف مضللاً إياه حتى يوقع بيني و بين أخي مفوز الشر ، ثم برهن ماجد على صدق نظريته فقال لأمه : إن الشيء الذي يجعلني لا اصدق بصحة هـــذا الخبر هو أن الذي طعنه تركه حياً حتى يلتبس عليكن الخبر فلو كان مفوز هو الذي طعنه لحز عنقه عن جسده وتركه ميتاً .

صرخت أم ماجد في وجه ابنها وقالت : إنك جبنت عن لقاء مفوز ولن تستطيع أن تقتص منه بإساءته اليك فبقيت تلتمس الأعذار المنجية

من لقائه. ولكنني آسفة على اللبن الذي أرضعتك إياه وعلى حضانتي التي أوليتك إياها (١).

ـ ماجد: لا يا والدتي أنا ابنك النجيب الذي تعهدين والبطل الذي لا يتسلل إلى قلبه خوف من مخلوق مهما بلغت شجاعته وإقدامه، ولكن القضية وقعت في مفوز الذي هو كما تعلمين انه روحي وقطعة من فؤادي، ومفوز يا والدتي مستعد أن أفتديه بنفسي وبما أملك من المال والعيال ولكني لا أرضى أن أفتديه بدرهم من شرفي وحرمتي وكرامتي.

ـ أم ماجد: وأنا هذا الذي أعهده منك يا بني كما أنني أزيدك تأكيداً أن لمفوز عندي من الولاء والمحبة مكانة لا تقتصر عن منزلتك ولكن الأمر أصبح ماساً بالكرامة ومنتهكاً للحرمة، وكثيراً ما يضحي العربي بابنه وفاء بعهده دون كرامته (٢)

---

(١) تذكرنا أم ماجد بالحديث الطويل الحماسي الذي تكلمته اسماء ابنة أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير إبان محاصرة الحجاج له بمكة.

(٢) هذا قبل حادثة فلسطين أما الآن فلم يبق لهم من المجد إلا الخطب الرنانة والتغني بمجد الاسلاف الغابرين والتزلف والتملق والنفاق والاطراء لزعمائهم الحاكمين مدة بقائهم على العرش، أما إذا دهمت عروشهم كارثة فسرعان ما ينقلب هذا التزلف عتواً وذاك النفاق صراحة بل وقاحة وذلك الاطراء قذفاً ولعناً. ولقد اعطتنا هذه التقلبات العربية صورة سيئة عن انحطاط اخلاق بعض افراد امتنا العربية ولكننا لم نقطع الرجاء ولم نيأس. فأرجو ان تكون هذه الكوارث قد اعطتنا عبرة وعظة فنعمل على استرداد مجدنا الغابر وما ذلك على الله بعزيز.

ـ ماجد : أنا يا أماه الآن احادثك وانا اشعر بالخلل يدب في شعوري وعقلي وذلك لعظم الخطب فاهديني برأيك الذي يجعلني اثق ثقة لا شك فيها بأن (منيعي) قد قتله مفوز .

ـ ام ماجد : الوصول الى حقيقة الامر سهل جداً .

ـ ماجد كيف يكون ذلك؟

ـ ام ماجد :ألسْت تشاركني الرأي بأن مفوزاً فتى صريح صدوق لا يمكن أن ينكر ويكذب فيما اذا سألته عن الحادثة وتحريت منه الإفادة الصادقة ؟

ـ ماجد بلى انه لا يمكن أن يكذب حتى ولو علم أنه ينقاد الى الموت أو يخسر صداقتي التي اعتقد انها تعادل عنده حياته

ـ أم ماجد : اذاً فابعث له من قبلك رجلاً يتحقق عن الامر واني ارجو الله يا بني ألاّ يكون هو القاتل لمنيعنا والهاتك لحرمتنا

ـ ماجد : سليه أنت يا أماه .

ـ ام ماجد : هاندا ذاهبة إليه .

ذهبت ام ماجد تهرول الى مفوز فلما دنت من بيته نادته فلباها بقوله : من المنادي ؟ فأجابته : أنا ام ماجد . فقال : اهلاً وسهلاً بوالدتي . تفضلي حفظك الله .

ـ ام ماجد : احب يا بني ان تتفضل الى هنا لقضاء امر ما .

ـ مفوز : ابشري يا والدتي خيراً يكون إن شاء الله .

ـ ام مـــاجد : اخوك ماجد يا بني وكل إليّ ان اناشدك الله عن « منيعه » فلانة هل انت قاتله ام لا ؟

صمت مفوز قليلاً ثم قال : اود ان اذهب الى اخي ماجد لأفهمــه الأمر .

ـ ام ماجد : لا يا بني لآ حاجة لذهابك الى ماجد فأنا وكيلته فاخبرني بالأمر كما كان .

ـ مفوز أصر على أن اقابل ماجداً لافهمه القضية .

ـ ام ماجد : انتظر هنا يا بني حتى اخـــبر اخاك ماجداً بطلبك للقائه .

عادت ام ماجد الى ابنها واخبرتـــه قائلة : يا بني ان مفوزاً يود ان يقابلك ويخبرك بما تم في القضية .

ماجد هل اعترف لك يا والدتي ام لم يعترف ؟

ـ ام ماجد : لم ينكر ولم يثبت وهو الى الإعتراف اقرب .

ـ ماجد : ارجو ان تعودي اليه يا والدتي ولآ تأتيني منه إلا بالخبر اليقين النهائي واذا اعترف أنه هو القاتل فاحرصي على ألا يأتيني وأن

لا أراه أبداً لأني لا استطيع ان املك نفسي عن الفتك به فيما اذا اعترف أنه القاتل .

عادت ام ماجد مسرعة الى مفوز فوجدته ينتظرهـــا بفارغ الصبر .

ـ ام ماجد : يا بني إن اخـــاك ماجداً يقرئك السلام ويرجو منك ألا تقدم اليه وكل ما يناشدك الله به هو ان تخبره بالحقيقة عن منيعه فلان هل انت قاتله ام لا ؟

ـ مفوز : يا والدتي إن فلاناً هذا هو قاتل أبي وما زلت مدة حياتي وانا انتهز الفرص لأخذ ثأري منه . ولما قاده القدر هذا اليوم إليَّ ورأت عيني عين قاتل والدي عند ذلك اصابني شيء افقدني عقلي ولم املك من نفسي شيئاً ، فدنوت منه فطعنته برمحي ولم اعلم في تلك اللحظـــة هل هو (منيع) لأخي ماجد ام لا ، وكل مـــا في نفسي انني اخذت ثأري من قاتل ابي ولم اذهب من عنده إلا وقد تركته ميتاً حسب اعتقادي . ولكن بعد ان عدنا من المعركة سمعت عند قومنا شيئاً من الهمس والهينمة ، التي جعلتني اتوقع خطورة أمر مبهم لم يتضح لي كنهه إلا الآن ، وهكذا يا أم ماجد شاءت الاقدار . وكل ما ارجوه منك ان تبلغي اخي ماجداً وتعودي إلي بالأمر الذي يأمرني به اخي فإني مستعد لتنفيذه على نفسي

مهما يكن .

عادت ام ماجد الى ابنها وقصت عليه القصة كما كانت .

هناك تشنجت اعصاب ماجد وانتفخت اوداجه وبقي ساعة وهو يكظم الغيظ ثم يزأر كما يزأر الليث في غابته ، ثم هدأ بعد ذلك شيئاً فشيئاً ونادى شخصاً من عربه صديقاً للاثنين أو هو صديق لمفوز أكثر منه لماجد فقال له : اذهب الى مفوز وقل له : يقول لك ماجد أرجو ان ترحل حالاً واحرص على ألا تبيت بين عرب اجتمع بك عندهم في مناخ واحد . واعلمه أنه إن لم يمتثل لهذه الأوامر فلن يأمن صولتي .

تبلَّغ مفوز هذه الأوامر فرحل فوراً بليلته ، اما « ماجد » فبقي بين عربه تعس الحياة كاسف البال مكسور الخاطر .

ولا عجب ان يكون ماجد على هذه الحالة فلقد فارق صديقه الحميم الذي كان يشاطره حياته في بؤسه ونعيمه . والمصيبة الكبرى التي حلت بماجد هي ان الامر ليس فراق صديقه فقط ولكنه (قطع وجه) [1] وقطع الوجه عند العرب أكبر شيء يعاب عليه الرجل فهي عندهم

---

(١) اي خفر ذمة . وذلك لأن ماجداً أعطى ذلك الرجل عهداً بالأمان فجاء وخفر ذمة ماجد وهذا يطلق العرف عليه اسم (قطع وجه) .

تبقى وصمة عار ابدية حتى يغسلها الرجل بأخذ الثـــأر من المرء الذي ارتكب هذه الجريمة وسود وجهه بين عربه .

بقي ماجد يتجرع الغبن مدة طويلة ، وإنمـــا الشيء الذي يعزي نفسه هو أنـــه قد فرض إرادته على غريمه وأبعده عن وجهه ونبذه عن عربه .

هذا وقـــد حكمت إرادة الله أن تأتى ظروف تجمعهما سوياً في منزل واحد ومشرب واحد، ومرعى واحد، لقد وقع ذلك بدون اختيار الطرفين .

والسبب الداعي لجمعهما هو ان اراضي شمال نجد أجدبت بوجه عام ماعدا موضع فسيح معين يسمى « فيضة الأديان » [1] هـــذا المكان هو اخصب الاراضي مزدهراً « اقحوانه » عذباً ماؤه مريئاً مرعاه ، ولكن هناك علة تحول دون ان يتمتع برعيه قبيلة من القبائل وهى آمنة مطمئنة وذلك أنها تخشى غارات هجوم القبائل الاخرى . لهذا بقى هذا النبات وافراً متراكماً ، ذلك أنه حماه بعضهم من بعض .

هذا وقد عظم الأمر على عموم رؤساء عشائر شمال نجـــد جميعاً

---

(١) سمي بفيضة الأديان من ذلك العهد (والأديان) معناه الأحلاف أي مكان المعاهدات .

ورأوا أنه لا بد أن يلجأوا الى طريقة محمودة تمكنهم من رعي ماشيتهم في هذه الأرض الخصبة . لهذا أوفد كل رئيس قبيلة رسولاً من عنده الى رئيس العشيرة الأخرى. وتم الإتفاق على أن يعقدوا مؤتمراً يحضره كل من رئيس عشيرة « عنزة » ورئيس «شمر » ورئيس « الظّفير » . هـذا وقد عقدوا المؤتمر في الوقت المعين ، وأسفرت نتيجتـه عما يلي :

المادة الاولى : تعقد صلح فيما بينهم

« الثانية : كل قبيلة يكفلهـا رئيسها على ألاّ يبـدر من أفرادها أي حـادث من الحوادث المخلة بالأمن

المادة الثالثة : أن ينتخب هؤلاء الرؤساء واحداً منهم ليكون كفيلاً لعموم رؤساء العشائر على ألاّ يحـدث من أفرادهم ولا من زعمائهم أمر يخل بالاتفاقية [1]

المادة الرابعة : أنه لايمكن بوجه من الوجوه أن يجير المستجير

---

(١) لقد انتخب هؤلاء الرؤساء رئيساً لهم اميرقبيلة شمر الشيخ« مطلق الجرباء» الفارس المشهور المتوفي سنة ١٢١٢ هـ ثمة رواية تفيد ان كل رئيس عشيرة يكفل افراد قبيلته ولم يكن مطلق كفيلا لرؤساء العشائر كمـا ذكرنا ، وانما الرواية الأولى التي تفيد ان مطلقاً كفيل لهم هي الأشهر المتواترة .

واحدٌ منهم ، أي لايصح ذلــك لا للكفيل العام ولا لرؤســاء العشائر ولا لأفرادهم .

إن هــذه المعاهدة فيها فوائد جمة منها : أنها جعلت مجــالاً فسيحاً لمواشي هؤلاء العشائر لترعى في هــذا المرعى الخصب والغدير العذب ، كما ان فيها من الضمان ما يقي بعضهم شر بعض ، بحيث لايستطيع أي فرد منهم أن يعتدي على الآخرحتى ولو رأى قاتل أبيه فإنه لايتمكن أن يمسه بسوء .

كان مجمع هؤلاء العشائر بطبيعته يجمع ماجداً ومفوزا في صعيد واحد ولكن مفوزاً لا يهمه ذلــك لأنه أصبح في ضمانة شيخه « مطلق الجرباء » الذي هو المسؤول عن قبيلته ولكن الذي ابتلي ووقع في البؤس هو ماجد الذي كان من الأصل لايهــدأ له بال ولا يطيب له عيش . أما الآن بعد أن علم أن مفوزاً سيجتمع به في مكان محدود فلا شك أنه ستتضاعف حسراته أو ربمــا أنه سيفتك به داء السل الذي كثيراً ما يتولد من القهر وضعف البنية . والواقع أن حالة هذا التعس قد وصلت الى حد يؤسف له فقد أصبح هيكلاً أجوف عظاماً وجلداً وأعصاباً ترتعش

لقد احتارت أسرته وأبناء عمه في أمره الذي أدى به الى انحطاط

جسمه، فبقوا يضربون أخماساً بأسداس يتحرون معرفة السر الذي أنهك صحة فتاهم. والمشكل الذي زاد أسرته حيرة في أمره هو أن ماجدا هذا صامت لا يعاشرهم ولا يبادلهم الحـــديث ولا يشكو لهم شيئاً من الأمور التي من اسبابها يرون صحته تنقص يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

فكر عميد أسرته المسمى « عمرو » وقال في نفسه : ربما ان ابن عمي هذا عاشق احدى فتياتنا الجميلات وفتك به الغرام وهو خجلان من اسرته ومستحى لا يستطيع أن يفشى لنا سره هذا . هكذا كان ظن ابن عمه . لقد اختمرت في ذهنه هذه الفكرة وكان له اخت من اجمل فتيات العرب فاستدعاها واوصاها ان تتجمل وتلبس احسن ما عندها من البسة والزمها الا تدخر وسعاً من اغرائها لماجد بجمالها ومداعبتها اياه كي تكشف سر نفسيته الكامن ليصل « عمرو » الى النتيجة التى يعلم منها عن آفة ابن عمه، فان كانت الآفة آفة غرام بنساء فهذا عنده شيء يسير ادراكه وباستطاعته ان ينكحه أجمل بنت يريدها من عرب قبيلته. هذا وقد كان ماجد يميل الى الخلوة بنفسه دائماً فهو كثيراً ما يذهب الى الصحراء حاملا (ربابته) [٢] معه فيفتش عن كهف أو رأس

---

(١) راجع شرحنا للربابة صفحة (٤٢) .

جبل يتسلى هناك وهو حريص على أن يبعد كل البعد عن مجتمعه ليتبادل الآلام هو ونفسه ويتجاوب الألحان مع صوت ربابته التي أصبحت نديمه الوحيد، وأنيسه الفذ، في حين لا يرى احداً من عربه ولا من أسرته يفشي إليه شكواه لأن نفسيته العظيمة وإباءه وشممه وكبرياءه وحياءه، ذلك كله يمنعه من أن يبدي شكواه لفرد من البشر ،فترى شخصيته الفــــذة كثيراً مـــا تصور لنا واقعها، بل تنفذ عملياً قول الشاعر السوري « بدوي الجبل » :

وأسر الشكوى حياء وكبراً رب شكوى إسرارها اعلان

هذا وقد ذهبت الفتاة تقتفي أثر ماجد حينما خرج من عند عربـــه قبيل طلوع الشمس يحمل ربابته قاصداً مـــأواه الذي يقضي فيه نهاره الى الليل كما جرت به العادة، فلما استقر بمكانه المعتاد هناك اقبلت عليه هـــذه الفتاة الغنوج تتبختر وتتمايل كما يتمايل غصن البان اذا حركته الريح فألقت عليه تحيتها الرقيقة، فصمت قليلاً ثم نهرها قائلاً : ما الذي أتى بكِ الى هذا المــكان ؟ شاءت ان تداعبه وتجيبه برقة وغنج وهي واقفة تتهيأ للجلوس عنده، ولكنه لم يتركها تتحدث كما انه لم يتركها تجلس فطردها من عنده حالاً ورجمها بالحجارة.

عادت الجميلة من عند مـــاجد ولم تتوفق في استكناه الخبر الذي يصل به اخوها الى نتيجة .

أما ماجد فقد أخذ ساعة وهو يفكر يمتحن تفكيره وعقله محاولاً أن يعرف قصد هذه الفتاة بمجيئها اليه الى هـــذا المكان النائي عن « قطين[1] » العرب .

وبعد أن اجهد تفكيره وحكم العقل والمنطق بات عنده مئة بالمئة أن هذه الفتاة لم تأته إلا بدافع قوي وإنما الذي يهمه الآن هو معرفة كنه هذا الدافع : لبث يحلل أسراره الإيجابية : ناقشه من الجهـــة الغرامية كما هو ظاهر الفتاة فلم يجد له سبيلاً معقولاً لأنه يعرفها معرفة جيدة فهي بعيدة كل البعد من أن تبذل نفسها وترخص عرضها له بهذه الصفة التي شاءت أن تتظاهر بها لولا أنه زجرها . فهو لا يشك بنزاهة عرضها وعفتها ومتانـــة أخلاقها كما انه لا يخامره الشك أبداً بأن للفتاة رجـــالاً ذوي غيرة على أعراضهم ومحارمهم ، فلو قدر أن الفتاة أخلفت ظنه بها من قبل عفتهـــا الصادرة عن نفسها فلا يمكن أن تخلف ظنه من قبل رزانة عقلهـــا الذي يمنعها من ارتكاب العار لأنها تعقل أن خلفها رجـــالاً يضحون بأنفسهم وأولادهم وما يملكونه من المال دون دنس العار ، إذن انحصر تفكيره بجهة

---

(١) القطين ، بيوت الشعر التي يسكنها العرب .

معينة فقال لنفسه : لا شك ان عميد اسرتي «عمرو» أشفق على صحتي التي يراها تنقص اليوم بعد اليوم فشاء ان يدفع هذه الفتاة ظانـــاً أني مصاب بداء الغرام والعشق الخفي .

لا ريب أنه أصاب عين الحقيقة بفراسته هذه . لهـــذا تراه تفجرت قريحته وفاض شعوره بهذه القصيدة :

(١) « يا عمرو يا لِمدْلاَة يـــا نازْل الَخوْفْ

أَوْذَيْتني وانتَهْ تُنَشِّد من العـــامْ » (١)

(٢) « يا ُخو فهيدَ اِلّي ْبكَ الطّيِّبْ موصوفْ

يا زَبِنْ مضهودٍ لجـــا ليك مِنْضامْ » (٢)

(٣) « لو زيَّنوا لي هاقَيَ الخصرْ بِشْنوُف (٣)

ما أبْغيهِ لَو إِنَّه على النَّفْس عَزَّامْ »

(٤) « والله لو انه يْوَمِّنْ مِن الَخوفْ

في مـــنزل ما فيـــه كُفْرْ ولا أسلامْ »

(٥) « وما كِلْ ، وَلَوْ زيَّنْ لي الزاد بالْحوفْ

لَوْ بُـــه فَقَارْ وسيّح الرّزْ بايدامْ »

---

(١) المدلاة ، الفتى الفاتك . تنشد ، تسأل .

(٢) زبن ، مأوى . مضهود ، مغلوب على أمره . لجا ، التجأ .

(٣) الشنوف ، قصب تزين به العباءة .

(٤) الحوف ، العناية . الفقار ، السنام . سيح ، سايل . الايدام ، يقصد السمن .

(٦) « لو حِنْطِةِ البَلْقا ، وتَمرْةْ أَهلِ الجوفْ
مــا تقبُلْهْ نفسٍ عَليها الطنَّا زامْ »

(٧) « ما تْشُوفُ حالي كِنَّهَا حال أبا العوف
أو حـالْ محجـوبٍ عن الزَّاد صَوَّامْ »

(٨) « شَفِّي مفوزْ نَقْوةِ الغوش مَنْقُــوفْ
خيَّــالِهن من بين عثعثْ ورُضَّامْ »

(٩) « أَقْلُطْ عَلِيْه والنَزِلْ طوفٍ ورا طوفْ
اقْلِط عليــه بْرْبعَــةَ البيتْ قِدَّامْ »

(١٠) « ثم اضْرِبُــهْ بسلّةٍ تَلْهبَ الجوفْ
ما زينتْ عندَ الصَّنانيعْ بِلْحــامْ »

(١١) « إمَّا عليه البيضْ يَصْفِقنْ بِكْفوفْ
وإن عاش مـا يمشى على كل الاقدامْ »

---

(٦) الطنا ، الشمم . زام ، زاد وتجاوز الحد .

(٧) ابو العوف ، دويبة اكبر من النملة . ما تشوف ، أما ترى . حالي ، جسمي .

(٨) شفي ، قصدي . نقوة ، صفوة . الغوش ، الفتية . منقوف ، أبي النفس .
بين عثعث ورضام ، بين السهل والوعر .

(٩) أقلط ، أقدم . النزل ، البيوت . طوف وراء طوف ، صف وراء صف .

(١٠) السلة ، نصل الخنجر . الصنانيع ، الحدادين .

(١١) البيض ، النسوة .

(١٢) « أللّي كساني ثوبٍ أسود وأنا شوفْ
خَلُّــهْ يقَعْ في سَهَرْ عينى وانــا نامْ »

(١٣) « من عقِبْ ماني قنّبٍ حطِّني صوُف
خــلاًّنْ للحَضْرَ ألمقيمين فحّــامْ[1] »

وإليك شرح الأبيات :

(١) يَا عَمرو يَا لْمَدلاة يَا نَازِل الخوفْ
أوْذَيْتني وأنتَــهْ أتنشّدْ من العَــامْ

يوجه بطل الحادثة مسؤوليته وكلامــــه إلى ابن عمه (عمرو) فهو يقول ياعمرو يالمدلاة ياناز ل الخوف ، (المدلاة) هو الشجاع المغوار المبالغ في اقدامه الذي لا يتقدمه بفروسيته احد ويقال (المدلاه) ايضاً بدون التاء المربوطة يقصد بها الرجل المؤنس للقوم اي الشخص الاجتماعي الذي لا يُمل حديثه ولا يتكلم إلا عن حكمة هذا معنى ولكن المعنى الأول بقصد الشاعر اقرب وذلك بدلالة نعته له بقوله (يا نازل الخوف) اي ايها الشجاع الذي تختار المنزل

(١) من عقب : من بعد . ماني ، ما أنا . حطني،صيرني . خلانْ، جعلني .

الخصب لماشيتك حتى ولو كان هذا المنزل بطبيعة حاله مخيفاً ومرهوباً من قبل صولة العدو الجائم لك بعدته ورجاله ولكنك يا عمرو تقطن هذا المكان المخيف ولا يتخلل الى قلبك الخوف من هذا العدو القوي ٠

وفي العجز يقول :

آذيتني ياعمرو بالحاحك علي وكثرة سؤالك لي وذلك من العام الماضي وأنت تبحث عن أسباب ضعف صحتي ٠

٢ ــ يَا خو فْهيَدَ اللّي ْبك الطيب َموْصوفْ

يا زَبِن َمضْهودٍ لجاليكْ مِنْضَامْ ٠

يكرر الشاعر المدح لعمرو ويكنيه بأخيه فهيد (يَا اِلّي بك الطيب موصوف (اللّي) دائماً تكون بمعنى الذي فهي اسم موصول وقوله (بك الطيب موصوف) أي انك مثال أعلى متصف بجميع القيم الأخلاقيــة والطيب معنى شامل لجميع السجايا الحميدة فإذا قال قائل بلغتهم الشعبية ان فلاناً اطيب من فلان معناه ان مجموع سجايا الأول الجميلة اكثر من الثاني ٠

يا زبن مضهودٍ لجا ليك منضام : زبن بمعنى مأوى مضهود أي مقهور . لجا ليك : استجار بك يمدح عمراً ويقول يا أيهـــا البطل الذي تؤْوي وتجير الرجل المستجير بحماك ولا يستطيع احد أن يخفر ذمتك مهما كانت جريمة مستجيرك

٣ « لَوْ زَيَّنُوا لي هَافي الَخصْر بْشنوفْ

مـــا أبْغيهِ لو انّه على النّفْس عَزّامْ »

يشير الشاعر إلى الفتاة التي بعثها « عمرو » اليه ويقول : لا تظن انكم اذا زينتم لي هذه الفتاة الناعمة الخصر ،المجملة بلبس الشنوف ، والشنوف نسيج حرير ينسج على ثياب نساء العرب وعباءاتهن فهو يؤكد لعمرو بأنه ليس في نفسه أقل شيء ، من الميول إلى ما يظنه به من الغرام بالنساء فتراه يزيد تأكيداً بقوله : ما أبْغيه لَو انّه عَلىَ النّفس عزّامْ . أي انني لا أريد هذه الفتاة الحسناء قطعياً حتى ولو انها رمت نفسها عليّ . وراودتني عن نفسي فلا يمكن ان تستفزني مهما فعلت من مداعبتها لي ومهما يبلغ بها الجمال فإنها لا تستطيع ان تصرف همتي عن مغزاها الأسمى .

٤ وَلا آكل وَلوْ زين لي الزّاد بالحوفْ

ولَوْ بُه فَقَار اوْ سيِّح الزّاد بإيدامْ

يفيدنا انه لم يكن لديه رغبة بالأكل ولو كان الأكل معتنى بـــه عناية كاملة. وهنا يوضح لنا الشاعر ان لحوم الإبل هي من ألذ مأكولات البادية ولا سيما ظهر الناقة السمين خاصة اذا طبخ مع الرز وصب عليـــه السمن كما وصفه لنا بقوله : لوبه فقار ، أي لو في الأكل ظهر ناقة ثم قال: لو سيح الزاد بايدام ، أي صب على الرز والخبز السمن والمرق فهو يقول: لو أتيتني بالطعام من هذا النوع فلا يمكن ان آكل منه شيئاً .

(٥) « لو حِنْطَةَ البَلقَا و تَمرَةَ أَهل الُجوفْ

مـــا تَقْبَله نَفسٍ عَلَيهـــا الطنّا زَامْ »

بهذا البيت يعطينا الرجل صورة صادقة عن أجود وألذ ما يقتات به رجال البادية وهي كما قال : حنطة البلقاء ، والبلقاء هذه هي الأرض التي بحدود شرقي الأردن وهي أرض زراعية من جملة زراعتها الحنطة الطيبة كما قال الشاعر . ثم يقول : وتمرة أهلِ الجوف ، الجوف : بلاد تعرف قديمـــاً بدومة الجندل التي هى احد أسواق العرب في الجاهلية تقع بين الشمال والغرب عن نجـــد وهى مشهورة بحسن وجودة التمر ، لهذا ترى الشاعر يقول : لو قدم له مع ظهر الناقة المطبوخ على الرز والسمن ايضاً حنطة البلقاء وتمرة الجوف لا يمكن أن تقبله نفسه الأبية كما وصف حاله بقوله : مـــا تقبله نفس عليها الطنا زام ، الطنا ، الشمم والإباء والغضب ، وزام ، بمعنى طاف وتعدى الحد فهو يقول أنـ نفسه بلغت من الهم والغضب الشيء الذي تجاوزت به الحد المعتدل حتى انها اصبحت ترى هذه المآكل الشهية اللذيذة الطعم في طبيعتها : أَمرّ من الحنظل على نفسه الجبارة الأبية :

«٧» « مَا تشُوفْ حَالي كانها حال أبا العوفْ

أَو حال مَحْجوب عَن الزّاد صوّامْ »

يعود الشاعر يخاطب ابن عمه عمرو بقوله : ما تشوف حالي كأنهـا حال أبا العوف ، أبا العوف : دويبة صغيرة اكبر من النملة قليلاً وهو

يشبه النملة كثيراً ، ويقال له في جنوب نجد القِعْس ، فالشاعر يشبه رقة حاله ونحول جسمه بهذه الدويبة التي هى من انحل الدواب ، او حال محجوب عن الزاد صوَّام ، يقصد ان جسمه وصل من الهزال الى حد لا يصل اليه إلا الرجل الذي أصيب بمرض مزمن ومنعه الطبيب من اكل الطعام قطعياً فلا يأكل من القوت إلا ما يمنعه من الموت فقط والمقصود انه يخاطب ابن عمه عمرو ويقول له انك حينما رأيتنى بهذه الحالة الصحية السيئة ظننت ان نحولي هذا من اسباب مرضية أو بات عندك بالأكثر ان ذلك من دافع عشق وغرام بالنساء ولكن نحول جسمى هذا بعيد جداً عمـــا تتصوره وتظنه فيَّ يا ابن عمى الذي اخطأت نظريتك فيَّ خطأً عظيماً .

وهذا المعنى من الشاعر ماجد الحثربي هو طبق الأصل لأبيات على بن مُقَرَّب الأحسائى القائل :

يظن نحولي ذو السفاهة والغبا   غراماً بهند واشتياقاً الى دعد
لعمرك ما هند بهمى وان دنت   ولا لي بدعد من غرام ولا وجد
ولكنَّ وجدي بالعلا وصبابتي   بعارفة اسدى ومكرمة اجدى

٨) شَفّي مْفَوِّزْ نَقْوَةَ الغُوش مَنْقوفْ
خيّالِهِنْ من بين عَشْعث ورِّضامْ

الآن الشاعر أعلن وصرح بالسر الذي جعله يهجر اجمل الفتيات ولا يلتفت إليها وتعاف نفسه ألذ المآكل واشهاها اليه والذي جعل جسمه يفتك به الهم والآلام حتى بقي هيكلاً اجوف وعظاماً عارية من اللحم وعروقاً خالية من الدم ، ينبئنا الشاعر ان هذا كله من اسباب قهر مفوز له .أما تراه يقول: (شفي مفوز نقوة الغوش منقوف) ، اي قصدي وغاية ما تتمناه نفسي هو القضـــاء على (مفوز) وقوله : نقوة اي صفوة و الغوش الفتيان الباسلون أما قوله منقوف ف « المنقوف »هو منتهى ما تبلغ به نفسية المرء من الإباء والشمم أي السميذع الذي لا تلين له قناة ولا يستطيع احد أن يخفر له ذمة.وكل هذا الاطراء صادر من ماجد لصديقه السابق مفوز فهو يثني على مفوز بالشيء الذي يعلمه منه ويشيد بما يعتقد أنه موجود فيه من السجايا الحميدة وهذا من شيمة العربي فلا يمكن ان ينكر ما لخصمه من الفضائل والمزايا الحميدة مهما بلغت العداوة بينهما حتى ولو وصلت الى حد سفك الدم ، وها هو ذا يؤكد لنا بعجز البيت ثناءه على شجاعة مفوز وفروسيته ايضاً. خيّالهن ما بين عثعث ورضّام ـ خيالهن ـ اي فارس الخيل العظيم ـ ما بين عثعث ورضام ـ اي انه متدرب على ركوب الخيل سواء كانت الخيل تجري بأرض رملية سهلة او بأرضٍ صخرية خشنة فهو لا يهمه ذلك بحكم فروسيته ومهـــارته وممارسته لركوب الخيـل.

(٩) « أَقْلُطْ عليه والنزل طوفٍ ورا طُوْف

أَقلط عليـــه ْبرَبْعَةَ البيت قـــدّامْ »

هنا يوضح لنا الشاعر البطل قوة ارادة نفسه التنفيذية ويرسم لنـــا العملية التي سوف ينتقم بها من (مفوز) (اقلط عليه والنزل طوف وراء طوف) أي اني سوف اقدم على مفوز وان كانت بيوت البادية مطوقة بيته ومتراكماً بعضها فوق بعض فهـــذا بزعمه لا يجعله يخشى من الأقدام على (مفوز) والفتك به (اقلط عليه بربعة البيت قدام) هذا زيادة تأكيد لمـــا سبق في صدر البيت الأول .

(١٠) « ثم أَضربـــه بسَلّةٍ تلهب الجوْفْ

مَـــا زِيّنَتْ عِندَ ٱلصَّنانيع بلحام »

يصف الشاعر انـــه سوف يقدم على (مفوز) وسيضربه بسيف أو خنجر وهو معنى قوله (سلة تلهب الجوف) أي أن هذا السلاح الذي سوف يضرب به مفوزاً سيخرق أمعاءه كلهيب النار (ما زينت عند الصنانيع بلحام) أي ان حديدة هذا الخنجر أو هـــذا السيف ليست بحاجة الى الحداد ليصقلها أو ليسنّها فهي بطبيعتها مصقولة مسنونة .

(١١) « إمَّـــا عَلَيْه الْبيضْ يَصفِقن بكفُوْف

وانْ عاشْ مَـــا يَمشي على كلّ الأقْدَامْ »

يقول انه سوف يضرب (مفوزاً) الضربة القاضية فامـــا أُن يقتله وهذا معنى قوله (إما عليه البيض يصفقن بكفوف) ذلك أن نساء البادية ينحن ويندبن على الشجـــاع إذا قتل (والبيض) يعني النساء يصفقن بكفوفهن على القتيل . (وإن عاش مـــا يمشي على كل الأقدام) يقول ماجد أَنه سوف يضرب مفوزاً الضربة التي إما ان تقضي على حياته مرة واحدة وإما ان يقطع بها ساقيه فلا يستطيع بعدهـــا أن يمشي على رجليـــه سليماً . وهذا معنى قوله : وان عاش مـــا يمشي على كل الأقدام .

(١٢) اللّي كســـاني ثوبٍ أَسْوَدْ وانا شُوفْ
خـــله يَقَعْ في سهر عَيْنـــي وانا نَامْ

اللّي ، أي الذي سود وجهي بين عشيرتي وألبسني العار وجعلني أسهر الليل من الهم وهو مع ذلك هادىء ومرتاح وينام مطمئناً لا يشغل باله شيء مني : خله يقع في سهر عيني وانا نام ، أي سأدعه يسهر من الغم والغبن كما كنت ساهراً حزيناً بسبب عمله ثم يقول : وانا نام ، اي اني بعد ذلك يطيب لي النوم .

(١٣) من عِقِبْ مَا انَا قنْبٍ صِرْت انَا صُوفْ
خلاَّنْ للحَضْرَ المقِيْمين فَحَّامْ

يقول إن مفوزاً اراد بعمليته هـــذه ان يغير مجرى حياتي ، فتراه يقول : من عتب ما انا قنب صرت انا صوف ، اي جعلني اسود بعدان كنت ابيض، و يعبر عن ذلك بطريق التمثيل فالقنب هو الحبل الأبيض والصوف اسود وهو يريد ان مفوزاً نال من شرفه وصيره اسود بعد ما كان ابيض : خَلاَّنْ لِلْحَضْرَ المقيمِينْ فحَّامْ ، ولما كان رجال البادية يزدرون كل الازدراء الرجل الذي يبيع الفحم منهم ، فإننا نجد هذا الشاعر يقول : إن مفوزاً جعلني بمثابة الرجل الذي يبيع الفحم لأهالي المدن .

لقد سمع عمرو هذه القصيدة بأذنه وذلك انه بعدما فشلت سياسته بدفعه للفتاة هنـــاك ، قال في نفسه : إن مـاجداً شاعر سريع البديهة ولا بـــد من أن تجود قريحته بقصيدة يترنم بهـا ويغنيهـــا على « ربابته » .

ولقد أصاب عمرو بظنه هذا حيث هب من الصباح الباكر يقتفي اثر ماجد حتى دنا من مكانه الذي يختلي به عن الناس وهناك بقي مختفياً بالموضع الذي لا يتمكن ماجد من رؤيته ، عند ذلك قـــام البطل الشاعر يلحن قصيدته على ربـابته ولقد سمعها عمرو بأذن واعية ولكن ماذا يفعل ؟

هذا وقد كان ماجد راسماً خطته التي سيقضي بها على صاحبه (مفوز)

وبينما كان (مفوز) يسقي فرسه من الغدير أتاه ماجد من الأمام وطعنه بسيفه طعنة بتر بها إحدى ساقيه فوراً ، ثم امتطى فرسه والتجأ إلى بيت آل هذال الذين هم شيوخ قبيلة عنزة فسرعان ما هب (مطلق الجرباء) ورؤساء العشائر معه يطالبون ابن هذال بتسليم هذا المجرم الذي خرق اتفاقية المعاهدة بعمليته هذه .

لقد أحرج موقف ابن هذال بهذا الملتجىء ، ذلك أنه إما أن يفعل ما تقتضيه معاهدة المؤتمر التي تنص على تسليم المجرم ، فيسلم مستجيره وهذا عمل يخالف ما تقتضيه شيمة العرب ، وإما أن يمتنع عن تسليمه ويحميه فينكث بذلك العهد وهذا شيء قبيح أيضاً . فبقي ابن هذال لا بدّ له من ارتكاب أحد الشرين إما نكث العهد أو تسليم مستجيره الذي لم يسبق لأحد من العرب أن سلم مستجيره .

اجتمع رجال اسرة آل هذال عن بكرة أبيهم وتداولوا الرأي ، وكانوا بين رأيين هذا وكان ماجد يسمع كل البحث الذي دار في صدده واتضح له أن رأي أكثرية القوم يرجح الوفاء بالعهد تنفيذاً لاتفاقية المؤتمر ومعنى ذلك تسليمه (لمطلق الجرباء) الذي لا شك أنه سيضرب عنقه وذلك لأمرين : أولاً أنه « شمري » ومطلق هو رئيس عشيرة شمر قاطبة وهو الضامن لها عن مثل هذه الحوادث ثانياً : أنه الكفيل العام لعموم القبائل

فأصبح ماجد بعمليته هذه قد خفر ذمة رئيسه مطلق أكثر من غيره من رؤساء العشائر . وماجد يعلم هذا لأنه ما التجأ إلى ابن هذال شيخ قبيلة عنزة إلا خوفاً من شر (مطلق الجرباء) .

هذا وقد رأى ماجد أن ابن هذال سيفي بعهده ويتخلى عنه ، لذلك مال إلى رئيس آل هذال وقال: يظهر لي أنكم ستفون بعهدكم ولكن أريد منكم أن تتركوا سبيلي حتى التجىء إلى غيركم .

عندها رأى ابن هذال أن في هذا الرأي خلاصه من المأزق الحرج. فقال : لا بأس نخلي سبيلك .قال ماجد: إنكم يا آل هذال أصحـاب راي وعقل فأريد أن ترشدوني إلى رئيس العشيرة الذي باستطاعته أن يجيرني ويخرق الاتفاقية .فأشاروا عليه أن يذهب الى بيت(دُغَيِّم[1] بن سُوَيْط) ويستجير بـه . فامتطى فرسه وهرع إلى بيت ابن سويط مسرعاً . وكان رئيس عشيرة آل سويط في ذلك العهد هو الرجـل الذي نوه الشاعر بذكره في قصيدته الآتي شرحها في آخر هذه القصة . هذا وقد علم مطلق الجرباء وروساء العشائر معه بأن ماجداً استجار بابن سويط. وهناك اجتمع رؤساء القوم من عموم القبائل المتحالفة وذهبوا لبيت ابن سويط مطالبين إياه باللين تارة وبالغلظة تارة اخرى من أجل ان يسلمهم هذا المعتدي ولكن

---

(١) دغيم بن سويط هو رئيس عشيرة الظفير .

ابن سويط ضرب بكلام القوم عرض الحائط وكانت مطالبتهم بتسليمه ضرباً من العبث رغم ان مطلق الجرباء ورؤساء عشائر البادية كلهم اصبحوا ضده فاتفقت قبيلة عنزة وقبيلة شمر كلتاهما على محاربته فيما اذا رفض تسليم المجرم ، اضف الى ذلك انه سيحرم ماشيته المرعى وذلك حسب الاتفاقية التي ابرمت في المؤتمر . كما انه يعتبر بعمليته هذه ناكثاً بعهده . وكان ابن سويط شجاعاً لا تلين له قناة ولا يهمه ان تتفق عليه القبيلتان بل ولو اجتمعت العرب كلهم عليه قاطبة ، ما أهمه ذلك ، كما انه لا يهمه حرمان ماشيته من المرعى الخصب ، وهذه العوامل وان كانت مهمة لا يمكن ان تجعله يسلم مستجيره حتى ولو تلف هو وعشيرته وماشيته ولكن العقبة الكؤود والمشكلة التي هي أم المشاكل هي قضية العهد ، تلك المشكلة التي جعلت ابن هذال لا يقبل ان يجير ماجداً ، هذا وقد اجتمعت اسرة آل سويط قاطبة منفردين لوحدهم يحاولون معرفة الطريقة التي يخرجون بها من نقض العهد وهم حريصون إن يجدوا لهم المنطق الصريح والحجة المقنعة أو شبه المقنعة التي اذا احتجوا بها كانت عذراً مرضياً موافقاً لقوانين العرب وعاداتهم ويكونون بالتماسهم لهذه الحجة قد انجو انفسهم ولم يعتبروا ناكثين للعهد حسب المنطق القبلي(١) بينما آل سويط

(١) لأن أهل البادية لهم انظمة خاصة ودساتير معتبرة كما ان لهم قضاة لا محيص لهم من تنفيذ الأمر الذي يحكم به هؤلاء القضاة .

يدرسون الأمر ويفحصون بشدة عن السبيل الذي يمكنهم من حمـــاية مستجيرهم ولا يجعل للعرب عليهم سبيل ملامة في نكث عهدهم ، عندما كانوا ينقبون عن الطريقة المنجية دخلت عليهم العجوز التي هي أم شيخ القبيلة « دغيم بن سويط » وهم في هذه الحالة فصرخت في وجه ابنهـــا وقالت : أراك حيران في أمرك وكأني أرى ان لديك من الوهن مـــا يجعلك تسلم مستجيرك ، والله لئن فعلت ذلك لأقطعن الثدي الذي رضعت دره .

- دغيم : معاذ الله يا والدتي ، كيف تظنين بابنك النجيب هذه الظنون ؟ وهل من المعقول اني أسلم من استجار بحماي ولاذ بجواري ؟ هذا شيء من المستحيل عليّ فعله وإنما الأمر الدي نحن في حيرة منه هو قضية العهد الذي تعاهدنا عليه في المؤتمر الذي تنص إحدى مواده على ان لا يجير أحد من رؤساء العشائر احداً من المعتدين ، هذه القضية يا والدتي هي التي بقيت حجر عثرة في حل مشكلتنا العويصة ولما كنت تعرفين من قوانين العرب اكثر مما نعرفه نحن الشباب كمـــا انك مشهورة وموفقة دائماً بالرأي السديد لهذا نرغب بأن تهدينا السبيل الرشيد الذي نسير على ضوئه ونصل به الى الطريقة التي تقينا شر وصمة عار نكث العهد .

ـ أم دغيم : الأمر سهل يا بني ولا يحتاج الى كل هذه الحيرة وهذا العناء .

ـ دغيم : ليس هو بالسهل بل انه مشكلة المشاكل يا والدتي فان كنت تعرفين حلاً لمشكلتنا فارشدينا فاننا بأمس ما يكون من الضرورة الى الطريقة المعقولة التي تشفع لنا بهذا الموقف الحرج .

ـ أم دغيم : ابشر يا بني سآتيك بالحجة التي تجعلك تجير مستجيرك وانت ناصع الجبين ابلج الوجه مرفوع الرأس .

ـ دغيم : هاتِ يا أماه فإنه فرغ صبري .

ـ أم دغيم : ألستم يا بني عقدتم مؤتمركم هذا وتعاهدتم في الوقت الذي كنت ذاهبة في سبيلي الى الحج وأخذت بويتي[1] الصغير هذا معي .

ـ دغيم : بلى يا والدتي حفظك الله .

ـ ام دغيم : وهل كان هذا البيت وصاحبته حاضرين لمعاهدتكم تلك ! . أم أننا كنا في الحجاز وبعيدين عن هذه المعاهدة كل البعد .

ـ دغيم : بل إنك كنت وبويتك في الحجاز ونحن أبرمنا معاهدتنا في

---

(١) تصغير بيت .

شمال نجد .

- ام دغيم : وهل كان في المؤتمر المعقود أو معاهدتكم المشؤومة مادة تنص على ان هذا البويت الغائب تشمله المعاهدة .

- دغيم : لا ليس فيه شيء من ذلك عفا الله عنك .

- ام دغيم : وهل في معاهدتكم مادة تنص على أن المستجير يسلم فيما إذا استجار ولاذ في أحد بيوت النساء دون الرجال ؟

- دغيم : لم يكن ثمة مادة تنص على ذلك ابداً في المعاهدة .

- ام دغيم : إذن سلمني مستجيرك هذا لأدخله في بويتي الصغير الذي لم يحضر المعاهدة لا هو ولا أنا ، فإذا استلمت المستجير بيدي فيكون قد تخلى عن بيتك والتجأ إلى بيتي ، فاذا فعلت ذلك لم تكن نكثت بالعهد وذلك من وجهتين أولاً : أن هذا البويت وصاحبته لم يحضرا المعاهدة ، ثانياً : أنه لم يكن في معاهدتكم ما ينص على أن المستجير في بيوت النساء من عجائز وفتيات يسلم .

- دغيم : بارك الله فيك من أم حكيمة رشيدة. لقد حللت الاشكال وهذا هو المستجير فخذيه بيدك وادخليه بويتك[1] ، هرعت العجوز

---

(١) أخذ آل سويط ميزة خاصة عند العرب بعمليتهم هذه فاصبحوا ينعتون بأهل البويت من ذلك التاريخ حتى الآن .

وأخذت ماجدا وادخلته بويتها الذي لم يحضر المعاهدة لا هو ولا صاحبته ومن ثم هرع أمراء القبائل وعلى رأسهم الشيخ مطلق الجرباء الذي كان أشد القوم حرصاً ومطالبة باستلام هذا المجرم الذي خرق القوانين وانتهك حرمة المعاهدة ولكن هذا المجرم التجأ الى حصن شديد البـــأس صعب المنـــال. فأصبح لديه من الحصانة ما يحميه من استلام (مطلق الجرباء) له .

واشتد النزاع وحاول الجرباء بشتى الوسائل أن يستلم هذا المستجير ولكن محاولاته باءت بالاخفاق الذريع . وأخيراً هـــدد الجرباء آل سويط بسوء ما ينجم من عاقبة سيئة وخيمة نتيجة نقضهم المعاهـــدة واصرارهم على حماية المجرم، ولكن آل سويط قوم لا يقعقع لهم بالشنان؛ فقد أصروا على عدم تسليم مستجيرهم، واحتجوا بحجة العجوز وتمردوا على مطلق الجرباء ورؤساء العشائر جميعاً .

هذا وقد كان عمل آل سويط هذا سبباً إيجابياً لنقض المعاهدة، وفعلاً قد انتقضت هذه الاتفاقية بسبب هذه الحادثة . وها هو ذا بطلهـــا ماجد الحثربي يمتدح آل سويط بقصيدته هـــذه ويهجو آل هذال الذين لم يجبروه فيقول:

١ « بَلْعَوْن ما سَرّوْن أَوْلَاد وايل

عيون الصّخُولْ ، مْرَضّعِـــين الأسِلّهْ

يقول ماجد : أن أولاد وائل الذين هم آل هذال ما أجاروني وما أدخلوا في قلبي الأمان والسرور كما فعل آل سويط وهو في البيت التالي يوضح هذا المعنى فيقول:

(٢)«ما ظَلّ لي غير السّويطاتْ ظايل
أدْغيم ثنىَ بالسَّيفْ دوني وْسَلَّهْ »

يقول ان الذين أجاروني هم آل سويط ويخص من آل سويط أميرهم الشيخ دُغيم ويقول انه لم يبق لي من رجال القبائل القاطنين على هذا الماء مجير غير آل سويط فلا شمر ولا غيرهم .

٣ « سوَيْطات يُعْطُونَ المهارَ الأصايِلْ
وَالمعْرَقهْ وعنَانَها تِبْعَةً لَهْ

الشرح : يمدح الشاعر آل سويط ويقول إنهم علاوة على ما فيهم من نجدة وحماية للجار فهم مع هذا كله كرماء اسخياء يهبون الخيل الجياد الأصائل والعرب يعتبرون أن الرجل أو الأمير الذي يبلغ به الكرم إلى أن يهب الفرس الأصيل فهذا يكون عندهم قد بلغ الذروة القصوى في الكرم لأن الفرس في ذلك الوقت ولا سيما الأصيل بمثابة الاسطول الجوي في العصر الحاضر . وهنا نأتي بالقصيدة بعد شرحها .

قال ماجد الحثربي :

١ ـ بِالْعَونْ مَا سَروّنْ أَوْلادْ وايِل
ْعيُونَ ٱلصـّخُول ْ مْرَضّعِين الاسِلّه

٢ ـ مَا ظَل لي غَيْر السّـْويطات ْ ظائِلْ
ادْغيِّـمْ ثَنى بالسيْف ْ دُوني وسلّهْ

٣ ـ سُوَيْـطات يُعْطونَ المهارَ الأَصايِلْ
وَالْمِعْرَقَه وعِـنَانَـهـا تِبْعَـةَ لَهْ

وفاءه بالعهد

اضطره أن يقتل أخاه

قصة نهار (١) الاحمدي مع أخيه صالح وقعت بتاريخ
١٣٣٠ هـ على وجه التقريب

قبل أن يوحد الجزيرة العربيـــة المغفور له البطل عبد العزيز آل سعود ، كان لا يستطيع أن يمشي بالصحراء إلا القوم الكثيرون الأقوياء بعدتهم الحربية ، وإلا فيكون الماشي بهـــا لقمة سائغة لعرب البادية ، ولا سيما طريق مكة والمدينة ، فان ثمة لصوصاً لا معيشة لهم إلا

---

(١) نهار من قبيلة حرب .

من هذا السبيل، فهم كما قالوا بمثلهم الذي يعبر لنا عن حياتهم الاجتماعية أوضح تعبير « رزقنا على الحاج ورزق الحساج على الله » . والذي يهون الأمر نسبياً هو أن لهم تقاليد عرفية كان فيها من المناعة ما يتقي بها عابر السبيل شر بعضهم ببعض . مثال ذلك ان المسافر اذا شاء ان يذهب الى جهة ما يتحتم عليه ان يأخذ شخصاً من هؤلاء العرب الذين يمر بسبيله على ارضهم ، ويسمى هذا الشخص (رفيق) ، فهم يعطونه من المال ما جرت العادة به . وهذا (الرفيق) يتحتم عليـه أن يحمي دماءهم وأموالهم ولا يستطيع احد ان يمسهم بسوء ، لا سيا اذا كان رفيقهم شجـاعا قوي الشخصية ، او عميد اسرة، أو له اخوان وابناء عم شجعان منيعو الجانب، فاذا توفرت هذه الشروط بالرفيق ، كان المسافرون في أمان لا يزعزع ، وكلما كان الرفيق ضعيفاً في شخصيته كان الخطر على المسـافر اكثر .

وهـذا الرفيق لا يقدر أن يحمي المسافر إلا من عرب عشيرته فقط . وكثيراً مـا يحتاط المسافرون للأمر فيكون معهم من كل قبيلة رفيق ، لا سيا اذا كان الطريق بعيداً وتلزمهم ضرورة السفر أن يمروا على عشـائر متعددة . وهكذا كانت الجزيرة في العهود الغـابرة .

هذا وقد كان فريق من أهل نجد وهم من بلدة حائل أدّوا فريضة الحج وزاروا المسجد النبوي — على ساكنه أفضل الصلاة والسلام — واستعدوا للعودة الى اوطانهم، فاضطروا الى ان يأخذوا معهم « رفيقاً » من بادية المدينة الذين هم قبيلة حرب . فساقهم القدر الى شخص يسمى «نهار الأحمدي» . فتم الأمر بينهم وبينه حسب التقاليد المرعية، وخرج القوم ورفيقهم من المدينة قاصدين اهلهم . وقبل ان تتوارى عن أعينهم جدران المدينة، هناك اصطدم القوم « بصالح الأحمدي » شقيق رفيقهم « نهار » . فطلب صالح هذا من القوم ان يعطوه « حقته » ومعنى ذلك أن له حقاً واجباً على المسافر الذي يعبر هذه الأرض التي يقطنها . فعليه أن يسلم له من المال . وهذا المبلغ حسب الاصطلاحات الجارية فيما بينهم أنه « حق » له، يأخذه منهم جبراً . ولكن على شرط ألا يكون معهم رفيق من قبيلة صالح هذا أو من عشيرته، اما اذا كان احد من اولئك فلا يكون له حق، لوجود الرفيق الذي قد تعهد حمايتهم . أما وقد كان رفيق القوم نهاراً أخا صالح الشقيق فأصبح ليس من واجبهم ان يدفعوا شيئاً كما انه ليس من حقه ان يطالبهم بشيء . ولكن يظهر انه شاء ان يتمرد على القوانين ويأخذ « حقته » كما يـــدعي من هؤلاء القوم سواء رضي أخوه أو لم يرض .

والذي يتبادر لنا من ظاهر أمره أنه لا يرى للعهود وزناً في نفسه ـ ودائما ما يرى المرء الناس بالعين التي يرى بها جبلته ـ لهذا تراه اعتقد ان اخاه لن يرعى للعهد قيمة . ولكن اخاه اخلف ظنه .

حاول نهار مبدئياً أن يقنع اخاه بالتي هي احسن ومن طريق المنطق، مؤكداً له بأن هؤلاء القوم اصبحوا في جواره وبعهدته وضمانته، وانهم لم يخرجوا من المدينة إلا بعد ان اعطاهم عهداً وثيقاً ، فعلى هذا الأساس لا يمكنه إلا ان يفي بعهده ويحمي جواره مهما كلفه الأمر . بهـــذه العبارات الرقيقة كان رفيق القوم يلتمس رضى اخيه ، ويحاول إقناعه . ولكن أخاه صالحا لم يقنع .

هبَّ نهـــار مرة اخرى يلتمس رضاء أخيه قاصداً إغراءه بالمادة فقال له : يا اخي إن كان يرضيك ان اتجرد عن كل مـــا أملك من المال وأهبه لك بما فيه هذا المبلغ الذي أخذته من القوم مقابل حفظي وحراستي لدمائهم واموالهم ، إن كان يرضيك ذلك فقد وهبتك إياه رغبة لا رهبة وذلك حرصاً على ألاَّ تسيء الى رفاقي بالشيء الذي من شأنه أن يمس كرامتي ويخفر ذمتي . فأجابه الباغي بعنف وسخرية قائلاً : انا لست بحاجة الى ان تحسن إلي من مالك ، انا اغنى منك مالاً ونفساً ، وانا إن طالبت بشيء فلا اطـــالب إلا بحقي الذي سآخذه رغم أنفك وأنف

رفقائك .

طفق نهار آخر الأمر يناشد أخاه بالله والرحم فقال : ناشدتك الله والرحم على أن تخلي سبيل رفاقي ولا تخزني بين قومي بنقضك عهدي ، وهتكك لحرمة جواري . فلم تزد مناشدته هذه أخاه إلا تمرداً وطغياناً. فابتلى نهار وامتحن بمخاطبة هذا السفيه الذي عبر عن امثاله المتنبي :

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

لقد رأى نهار أنه بذل شتى الوسائل وأنجع الأسباب المجدية التي تجعل أخاه يترك سبيل قومه : محاولاً بذلك استثارة عاطفته واستفزاز شعوره ولكنه لم يلن له قلب . اذن فستضطره حماقة أخيه أن يقيل نصيحة الشاعر القائل:

إذا كنت بين الحلم والجهل ناشئاً
وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً
ولم يرضَ منك الحلم فالجهل أمثل

عند ذلك حذر نهار أخاه سوء عاقبة تمرده هذا بطريقة التلميح والإشارة . ولكن الباغي لم يردعه التحذير ولم يأبه له ، لقد فرغ الآن صبر نهار وعمد إلى تنفيذ أمر كان يضمره في نفسه لحلّ المشكلة ولكنه

أمر ليس باليسير عليه تنفيذه وإنما الذي أرغمه على الإقدام عليه هو أخوه الطائش.

الآن خاطب نهار أخاه صالحاً بالصراحة الجلية فقال: يا ابن أبي وأمي إنه قد فرغ صبري وأنا أرجوك ، ولا شك أنك ستجبرني على ارتكاب أحد أمرين إما أن اترك شأنك لتنقض عهدي وتهتك حرمة جواري وهذا شيء مستحيل عليك ما دمتُ حياً سليماً ، الشيء الثاني انك ستضطرني الى قطع رحمي وبتر ساعدي الأيمن وتيتيم أبناء أخي وهذا ليس من شيمتي احتماله ولكنه اهون الشرين عندي .

كان نهار يخاطب أخاه وهو في تلك اللحظة شاهر السلاح بوجه أخيه ، وقد كانت رصاصة البندقية في بيت النار ولم يبق سوى التنفيذ ۰ ومع هذا كله لم يرتدع أخوه بل هجم على القوم ليسلب منهم مالهم بالقوة فلم يسع نهار إلا اطلاق الرصاصة التي خرقت رأس أخيه فخر ميتاً . أما نهار فهب يواري جثمانه فوراً ، ثم واصل سيره مع رفاقه حامياً لجواره وفياً بعهده ، حتى أوصلهم الجهة التي تم الاتفاق بينه وبين القوم ان يوصلهم إياها .

ثم عاد الى اهله لم ينكث عهداً ولم تخفر له ذمة[1] .

---

(١) القصة مشهورة .

وفاء وتضحية بالمال والجاه والاهل

قصة عجمي بن سعدون مع كوكس [1] الانجليزي
وقعت ابان الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ

عندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى كان عجمي [2] باشا ابن سعدون يحارب بجانب الأتراك وذلك بدافع عقيدته الاسلامية ولم ينخدع بالثورة العربية التي استمدت قوتها من الانكليز كما انخدع غيره من ساسة العرب بل كان عجمي منتبهاً لهذه الناحية وقد ادرك ان الانكليز لا يمكن ان يغدقوا المال على قادة العرب ويمدوهم بالعتاد رحمة بهم ومودة لهم ، وإنما أرادوا ان يتخذوهم مطية لهم كما كان الأمر . وقد حاول الماكر الانجليزي كوكس أن يغري عجمياً بالمال ليستغل بطولته وزعامته كما أغرى غيره ، ولكن عجمياً كان وفياً لمبدئه الى ابعد حد من الوفاء ، وليس للمال ولا للجاه قيمة عنده امام ايمانه بعقيدته ووطنيته ، ولو كان ممن يشترى ضميره بالأحمر الرنان لاستطاع الحاكم السياسي كوكس أن يستولي على كيانه بمئات ألوف الجنيهات التي بذلها له ، فرفضها ، ولم

---

(١) هو الحاكم السياسي للعراق آنذاك .

(٢) يعتبر من أعظم زعماء العرب في العراق ومن الأبطال البارزين بالفروسية ، واسرته اسرة عريقة في مجدها التاريخي وزعامتها العربية .

يقبلها بوجه من الوجوه .

لقد كنت من النفر المعجبين بشخصية عجمي السعدون لا من ناحية بطولته الخارقة وكرمه المتناهي (١) فحسب وانما من اجل وفائه الذي أدى

---

(١) كان شاعر الحماسة الشعبي محمد العوني المتوفي سنة ١٣٤٣ هـ من المتفانين بالولاء والاخلاص لعجمي ومن المعجبين بشخصيته إعجاباً ربما يبلغ بصاحبه حداً من الاسراف ، وليس ثمة مجال لسرد ما قاله الشاعر من القصائد السرمدية الحافلة بالاطراء والثناء العاطر به . وانما اغتنم هذه المناسبة لاستشهد بثلاثة أبيات جادت بها قريحة الشاعر عند مناسبة اثارت شعوره فقال .

الفاطر الزرقا ترزم مع السوق   حنينها اودع بقلبي هوايا
تبكي ولدها فارقه عاقها عوق   وأنا ابكي الصنديد ذيب السرايا
مدري حدر والا قعد أو ذهب فوق   او وين تدوي به ، ربيع الهفايا

هذه الأبيات الثلاثة قالها الشاعر بصورة ارتجالية ولم يزد عليها وذلك عندما كان جالساً في الشارع الرئيسي لمدينة حائل . وفي اثناء جلوسه مر امامه ناقة فاطر أي « مسنة » وكانت تحن حنيناً شديداً على فراق ابنها . والشاعر عندما رأى هذه الناقة اهتز شعوره وعواطفه . وذكر صديقه عجمياً وذلك سنة ١٣٣٨ هـ وكان عجمي آنذاك لا يعلم الشاعر عنه شيئاً . إذ لا مواصلات بين الاثنين . والشاعر بالبيت الأول يصف نفسه ويضعها بموضع هذه الناقة التي تحن على ابنها . ويقول انها أثارت حزني الكامن وجرحت فؤادي بحنينها عليه . وفي البيت الثاني يقول انها تحن على ابنها « وانا ابكي الصنديد ذيب السرايا » الصنديد . البطل المغوار . ذيب السرايا . أي قائد الجيوش والجحافل . يقصد بذلك انه يبكي على فراق عجمي الذي توفرت فيه هذه الشروط .

مدري حدر والاقعد أو نهج فوق   أو وين تدوي به ، ربيع الهفايا

يقول الشاعر لست ادري اين ذهبت به الدنيا « ربيع الهفايا » أي مطعم العاجزين عن طلب المعيشة من أيتام وأرامل .

به الى ان بقي بتركيا لاجئاً سياسياً أشبه ما يكون بالمشرد وقـــد فارق أملاكه في العراق وسيادتـــه ، كل ذلك في سبيل الوفاء الذي هو من افضل سجايا بني الانسان وأنبلها ، هذا وإن اعجابي لا زال يتضاعف بشخصية هذا البطل الوفي ، وكم كنت مسروراً عندما ساقه القدر لزيارة « دمشق » وهو في سبيله لتأدية فريضة الحج وذلك في ٢٨ ـ ١١ ـ ١٣٧٤ هـ وقد أقام في عاصمة بني أمية مدة لا تقل عن اسبوع وكنت كثير الاتصال به وهو شخص دمث الخلق كثير الصمت .

وقد حرصت أن انقل شيئاً عما حدث له من الحوادث التي تستحق التسجيل ، ولكنني لم أجد عنده تلك الرغبة بالأحاديث عن نفسه ، وفي جلسة من تلك الجلسات التي قضيتها معه كان الحديث بيننا يدور حول الانكليز ومـــا يبذلونه من المال تجاه تنفيذ مآربهم ، وأظن اني كنت البادىء بالحديث بهذا الصدد .

وبهذه المناسبة سرد عليّ البطل حـــادثة وقعت بينه وبين الحاكم السياسي في العراق المدعو « كوكس » الذي حاول ان يغري عجمياً بالمال فأعياه ذلك .

كان رسوله الى عجمي شخصاً عربيـاً من قبيلة عجمي اشترى ضميره بالمال يدعى « فرحان الرحمه » حدثني عجمي بأن هذا الرسول ابلغه رسالة

الحاكم شفهياً وهذا نصها :

« ان الحاكم الانكليزي على استعداد أن يدفع ثلاثمائة الف جنيهاً ذهباً انكليزياً لحضرة عجمي باشا على شرط أن يتخلى عن ساحـــة الوغا ويترك محاربته للانكليز » .

لاشك ان العرض مغر اضعفاء النفوس ، ولكن عجمياً اكبر نفساً وأعف يداً وأعز جانباً من أن يشترى ضميره بشيء من مظاهر الدنيـــا الفانية مهما حاول المستعمر أن يغريه فإن وفاءه وإباءه يرفضان ذلك وفعلاً قد رفض هذا العرض بكل اباء وشمم .

عندما شعر كوكس بأن صاحبه ليس من أولئـــك النفر الذين يصطادهم بمغرياته ، هناك هب يلتمس سبيلاً آخر ليصطاده من قبله فبعث اليه رسولاً ثانيا يدعى « هادي الشنين [1] » ليأخذ وعـــداً من عجمي « لكوكس » شريطة أن يكون تعيين الزمن والمكان شيئـــاً متروكاً اختيـــاره لعجمي ، كما أن « كوكس » اشترط على نفسه أن لا يرافقه اي فرد من الجنود الانكليز . واليك جواب هذا البطل الوفي للمستعمر المحتال :

« إن من دواعي شرفي واغتباطي ان يتنازل لي المستر « كوكس »

---

(١) هادي من المنتفك عرب الشيخ عجمي .

الى حد ان يطلب مني تعيين الزمان [٢] والمكان الذي نجتمع به ، اذ أني وإن كنت زعيماً من زعماء العرب ، ولكني أرى منزلتي بسيطة بالنسبة لسمو منزلة المستر كوكس وعلو قدره ، ثم استرسل الشيخ بكلامه الى ان قال : ولكنني أناشد المستر كوكس باسم بريطانيا العظمى التي هو قطب من أقطاب ساستها . فهل يقبل حضرته أن يجتمع معي او ينظرني بعينه فيما لو كانت الغلبة للعرب والاسلام كما كانت بالأمس . ومن ثم أسعدني الجد الى أن اتيته غازياً لوطنه لندن كما أتاني غازياً لوطني الآن ؟ وطلبت منه الاجتماع كما يطلبه هو مني فسله « يا هادي أيقبل هذا لنفسه؟ » أم يرى أن لا كلام بيني وبينه إلا السيف كما اعتقده الآن ؟

حفظ هادي هذه العبارات الوجيزة في لفظها المليئة في معناها ومن ثم القاها كاملة أمام كوكس .

وقد سألت عجمياً وماذا كان الجواب من صاحبه ، فقال :

انه لم يعد اليه الرسول بجواب ايجابي ، وانما أفـــاده بأن كوكسا

---

(٢) يقول الشيخ عجمي اني سألت «هاديا رسول المستعمر فقلت كيف يثق بي هذا الانكليزي الى حد انه يأتيني بمفرده ؟ فقال هادى لعجمي : لقد استغربت هذا الامر منه حتى اني صارحته بنفس هذا المعنى الذي كلمتني بصدده فأجابني بقوله « اني لا اخشى الغدر على نفسي من امثال هذا فيما إذا اعطاني وعداً حتى ولو كنت بمفردي . لأن الوعد من الوفي كهذا يقوم مقام العهد . »

عندما تبلغ هذه الرسالة الشفوية وجم قليلاً ، وفي هذه الحالة اصفر وجهه واحمر حتى بدت عليه ملامح الكآبة جلية ظاهرة.

ماذا يا ترى في وجمته هذه كان يحدث نفسه ؟ اتراه يقول لنفسه ان كان زعماء العرب وقادتهم كلهم من نمط هذا الرجل فإن سياسته وحكومته سوف تفشل في الاقطار العربية؟

هذا وقد كان داهية الأتراك وزعيمهم مصطفى كمال يعرف مدى رجولة الشيخ عجمي وبطولته وحاجته اليه لهذا اتجه يخطب وده ويلاطفه وينعته بما هو له أهل . والى القارىء نص رسالة مصطفى كمال التاريخية الموجهة منه الى الشيخ عجمي .[1]

وقد ترجمها لنا بالعربية الدكتور امين رويحة بما يلي :

حضرة شيخ مشايخ العراق عجمي باشا . استبشرت بتشريفكم الى ديار بكر ، وكنت قد سمعت عن سجاياكم ورجولتكم وارتباطكم بمقام الخلافة المقدس، وانا عندما كنت في الحرب المنصرمة في قيادة الجيش الثاني في ديار بكر وقيادة الجيش الرابع في حلب مما أحدث لكم في قلبي محبة كبيرة . ان افتراق الأمتين العربية والتركية وهما عينا العالم الاسلامي أوقع كلاً منهما في ضعف . وقد اصبح من فرض العين علينا الجهاد في

(١) أثبتنا صورتها في الطبعة الأولى ليرجع اليها من شاء .

سبيل حرية واستقلال أمة محمـــد [1] ، وإنني أعلن أني بجانبكم في جهادكم للخلاص من أثر الكفار والالتفاف حول مقام الخلافة المقدس مع صيانة الصفات والعنعنات العنصرية ، واني اترك لشخصكم النجيب بيان مطالعاتكم في هذا الشأن بواسطة قيادة الجيش الثالث عشر لتبـادل الأفكار واقدم لكم فائق الاخلاص .

١٥/حزيران/١٩٢٥ — التوقيـع – مفتش الجيش الثالث

مصطفى كمال

والشيخ عجمي الآن يقطن البلاد التركية حيث أدى به وفاؤه الى ان ناضل في صف الأتراك الى آخر لحظة ، ولم يقف به وفاؤه الى ان قاتل بجانبهم في بلاده العربية فحسب بل ذهب يناضل بجانب الجيوش التركية في قلب بلادها الى ان هجر وطنه العراق

وهكذا ذهب البطل ضحيةً لوفائه حيث خسر زعامتـــه في العراق واملاكه التي لا تحصى وبقي في تركيا لاجئاً ، وقـــد تجنس بالجنسية التركية :

---

(١) اني لاعجب من هـذا الماكر التركي الذي استفز شعور هـذا السميذع بالعقيدة الاسلامية كما استفز شعور الكثير من المسلمين وذلك عندمـا كان ضعيفاً في بداية أمره . وبعد أن بلغ مـا بلغه من العز والنصر أعلن كفره بمحمـــد ودستور محمـــد ﷺ .

ومما لا جدال فيه أن نفسية عجمي الأبية ترى أنها سعيدة في وضعها الراهن ، فهو وإن خسر شيئاً من زعامة وثروة، فقد ربح الحمد الخالد والمجد الأبدي ، وكأني بنفسه الجبارة تلحن قول الشاعر ابن الاطنابة :

أبت لي شيمتي وأبى وفائي　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح
واقدامي على المكروه نفسي　　وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدي أو تستريحي[1]

---

(١) وأعظم المصائب على الشيخ عجمي السعدون هو أن الحكومة التركية التي كان يقاتل بجانبها بدافع الرابطة الاسلامية قد تجردت عن ذاك المبدأ المقدس وذهبت بجانب الانجليز الذين يعتبرونه عدواً لهم رقم واحد . وعلى هـذا التقدير أصبح بطل القصة منكوباً وغريباً من شتى الوجوه ولا غرو فهذا شأن كل من أشرأبت نفسه لأنفس المعاني وأسماها . وهذا ما ذهب اليه الشاعر العربي :

غريب عن الأوطان في كل موطن　　ألا كل من رام النفيس غريب

من أروع أمثلة الوفاء بالعهد

وقعت عام ١٣٣٥

لا شك أن الوفاء بالعهد عند العرب من أهم المثل العليـــا ، فنجد العربي يتمسك به حتى مع أشد أعدائه ومن المستحيل أن يغدر و ينكث بعهده ولو ظفر بقاتل أبيه ومما يؤيد لنا صحة ذلك قصة (رفاع بن ركب[١]) من قبيلة مطير التي وقعت له مع عدوه اللدود (جذيل بن لغيصم الأسلمي الشَّمري) ذلك أن (جذيلاً) غزا قبيلة مطير وحصلت بين الغـــازي والمغزو مقاتلة عنيفة ، كان من نتيجتها أن وقع قتلى بين الطرفـــين ومن هؤلاء القتلى (أبو رفاع بن ركب) وكان (رفاع) شجاعاً لا ينام على الضيم . طلب من قبيلته أن تغزو قبيلة شمر خاصة عرب جذيل[٢] من أجل أن يأخذ بالثأر وكأن لسان حال رفاع يحدثنا أنه لا يريد بغزوه هذا اكتساب ابل من قبيلة شمر ولا طمع له إلا برأس (جديل) الفـــارس الذي اشتهر بقتل أبيه .

ذهب غزاة مطير برآسة هابس بن عشوان الفارس المشهور[٣] ومن

---

(١) رفاع : فارس من مشاهير فرسان قبيلة مطير .

(٢) جذيل : من فرسان قبيلة شمر .

(٣) هابس بن عشوان من زعماء قبيلة مطير ومن فرسانها البارزين الأفذاذ توفي رحمه الله في معركة وقعت بين قبيلته وقبيلة العوازم عام١٣٤٨ وكان البطل ضحيتها.

بينهم رفاع الذي كان أحرص القوم على لقـــاء قبيلة شمر ليأخذ بالثأر منهم سواء (بجذيل) أو بمن يضارعه أو يفوقه من قبيلته ، لأن العرب ولا سيما أهل البادية كثيراً ما يعملون بالعرف الجاهلي الذي ينافي قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر اخرى) فالبدوي لا يهمه إلا ان يأخذ الثأر بأكبر شخصية في الأسرة فهذا هو كمال الغاية وإن كان ثمة اكبر منه فلا يزال يطلب الثأر وينتهز الفرصة التي يحاول بها قتل هذا الكبير حتى يظفر به ، فإن تعذر ذلك بسبب من الأسباب كان مرجعه على القاتل، ولقد كان جذيل هو عظيم اسرته ، فعلى ذلك توفرت فيه الشروط وأصبح إذا ظفر به عدوه لا نجاة له البتة، يضاف إلى ذلك أن رفاعاً كان شديد الحقد والحرص على أن يقتل جذيلاً بيده ، ذلك أنه طلب بإلحاح من كل فرد من قبيلة مطير الغازية راجياً منهم جماعة وأفراداً أنه إذا ظفر احد منهم بجذيل أن لا يقتله بل يسلمه له حتى يقتله بيده أسوأ قتلة ٠ هذا غاية ما يتمناه رفاع ويطلبه من قومه ولكن قومه ردوا عليه بقولهم: إنا لا نعلم أيكون النصر والغلبة لنا أم للعدو ؟ ثم انه لو قدر لنا النصر على العدو فان « جذيلاً » ليس بالرجل الجبان الذي نتمكن من استلامه من دون مكافحة ومناضلة ، بل انه رجل مشهور بفروسيته فعلى ذلك من المستحيل ان نظفر به إلا بأحد أمرين : إما قتيلاً بعد قتال عنيف ومعركة دامية بيننا وبين قومه ، وإما أن نأخذه (منعاً) أي بعهد فان أخذه أحد منا بعهد فليس من المعقول

أن ينكث بعهده ويسلم لك من اجل أن تأخذ بثأرك منه. هكذا كان جواب القوم اجمعين ، كان هذا مدار حديثهم وهم في مسيرهم فظلت غزاة مطير تحث السير قاصدة قبيلة شمر ، ولكن قبيلة مطير ما علمت أن قبيلة شمر ايضاً تحث السير قاصدة غزوها حتى انكشف لها الأمر حينما اصطدم الغزاة بالغزاة . وكانت شمر أقل غزاة من مطير . لقد حصل بينهم تبادل حديث ، عند ذلك عرفت كل قبيلة منهما الأخرى وحمي الوطيس آنذاك . وبعدان اشتد الوغا وطالت المعركة كانت الغلبة لقبيلة مطير ولكن هذه الغلبة كانت « منعاً » لا « شلعاً » والفرق بين « المنع » و « الشلع » هو أن الأول بعهد والثاني بدون قيد ولا شرط. كما أن معاهدة المشاة غير معاهدة الفرسان الذين يقاتلون وهم على صهوات الخيل أو ظهور الإبل وإن كان الحكم واحداً في منطقه وإنما تختلف المعاهدة الأولى بحكم تجمعهم بحيث تكون المعاهدة معاهدة جماعة لجماعة بينما تكون الأخرى معاهدة أفراد لأفراد ، ويكون وقتئذ لكل فرد من الغالبين أن يمنع الذي امـــامه من المغلوبين . ولعل قدرة الله ساقت جذيلاً حتى كان منيعاً لرفاع الذي لا شيء في الدنيا أحب اليه من ان يظفر بجذيل قاتل أبيه . وأروع ما في هذه القصة هو ان جذيلاً يعلم انه وقع في قبضة عدوه رفـــاع الذي لا رحمة له عنده ولا شافع تقبل شفاعته لديه. انه كان يعلم ذلك قبل ان يقع في قبضته . والسبب ان تقاليدهم في هذا الموضوع تقضي بأن الفارس الغالب

عندما يطرد المغلوب ويرى أنه لا يستطيع ان يستولي عليه شلعاً أي بالقوة وبدون قيد ولا شرط يلجأ عند ذلك الى ان يستولي عليه بالمنع أي بالمعاهدة، فيقول الغالب للمغلوب : انزل بوجه فلان، فيجيبه بقوله : سمعني الله، أي اعطني عهد الله. فيجاوبه الغالب بقوله: عليك الله وأمان الله والخاين ينتقم منه الله. هذا هو المنع عند العرب لفظاً ومعنى وقد يكون ثمة اختلاف باللفظ غير أنه لا يخرج عن هذا المعنى. لهذا نعود فنقول ان جذيلاً يعلم أنه وقع في قبضة عدوه رفاع ذلك لأن رفاعاً خاطبه باسمه الصريح وقال له : انزل في وجه وأمان رفاع. الذي لا يتمنى شيئاً في الدنيا أعظم من أن يظفر به ليقضي من حياته. ولرب قائل يقول: وَلِمَ يسلم جذيل نفسه لعدوه رفاع، ولا يقاتل حتى يقتل حراً عزيزاً لا أسيراً مقهوراً أو ينجو ؟ وكثيراً ما ينجو المقاتل المستميت كما قال أبو بكر رضي الله عنه : إطلب الموت توهب لك الحياة . وجوابنا على ذلك هو ان جذيلاً يعلم أن عدوه لا يستطيع ان يقتله بعد ان اعطاه العهد وذلك لما يعلمه من عظم شأن الوفاء في نفسية العربي، خاصة كرفاع الشهم الكريم الذي يعلم انه لو نكث بالعهد وقتل «جذيلاً» لكان أول من ينبذه ويمقته بنو عمه بل ربما أنه لا يستطيع أن يقطن بين كل قبيلة مطير ؛ كما انه لا يمكن ان يقبل بالزواج من نسائه رجل من العرب يرى في نفسه أنفة وإباء وشمما. فعلى هذا الأساس كيف يرتكب هذه الجريمة الشنعاء؟ ولو أنه ارتكبها

لشفي غليله وأخذ بثأره ولكنه يكون قد وقع بما هو أكبر وأعظم عندالعرب وهي وصمة العار الخالدة لا عليه فحسب بل وعلى ابنائه وأحفاده.

لهذا لم ير رفاع بداً من أن ينفذ اتفاقية المعاهدة لا من قوة تجبره وتخضعه على ذلك ولكن قوة إيمانه بقوله تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» إن إيمانه بذلك من ناحية وتأنيب ضميره ووجدانه له من ناحية أخرى واحترامه ايضاً لقوانين العرب ودساتيرها، كل هذه العوامل هي التي كانت سداً منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه البتة. لهذا ترك «جذيلا» يرجع إلى أهله شديد القوى سليم الجوارح موفور الكرامة. وربما يكون جذيل بمنزلة الأخ الشقيق لرفاع وذلك حسب الاصطلاحات المرعية فانه كثيراً ما يكون الأعداء كالأخوان الأشقاء لا سيما إذا صدقت حادثة كهذه[1].

---

(١) القصة مشهورة.

فصل الامانة

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا

(قرآن كريم)

لا إيمان لمن لا امانة له . ولا دين لمن لا عهد له .

(حديث صحيح)

تحدث الاستاذ محمــــد جاد المولى ، في الجزء الرابع من كتابه « الخلق الـــكامل » صفحة ١٥٦ عن أثر الأمانة في اعلاء شأن الأفراد والأمم وقــــال : « الأمانة هي ينبوع السعادة ومصدر الفلاح » .. والحق ان كتاب الاستاذ تحفة يجب على الاديب ألا تخلو مكتبته منه .

لقد حث الاستاذ جزاه الله خيراً على الاستمساك بالامانة والمحافظة عليها ، الى ان قال : اعتصم الغربيون بها ففازوا ، واستضاءوا بنورهـا فاهتدوا ، وترددوا في اسواقها فكسبوا ، وجمعوا بها الاموال ، والفوا عليها الشركات فأقاموا في بلادهم الاعمال الجليلة . واوجدوا المستحدثات النافعة حتى صيروها جنة الدنيا وبهجة الناظرين .

ثم استدرك الاستاذ فقال :

« أمـــا الشرقيون فصفرت منها يدهم[1] فباءوا بالخيبة ، فعلينا ان نستمسك بها لنحيا حياة طيبة » .

لا شك ان الاستاذ جاد المولى لو اتيحت له الفرصـــة التي تمكنه من العلم بالحياة العربية على الوجه الصحيح ، لما جاء بعبارته هذه القاسية ، بل لبات عنده على ما اعتقد من الايمان الراسخ والقناعة الكافية مـــا يجعله يطمئن الى ان نفراً من ناطقي الضاد ، قد بلغت نفوسهم الزكية من التمسك بالأمانة والتدرع بها الى اقصى مـــا تبلغه نفوس بني الانسان .

ان في فصل الامانة من كتابنا هذا نوادر حدثت من بعض افذاذ العرب وحقائق محسوسة مؤكدة ، ربمـــا لا يتصور العقل حدوثها الا من طبقات الأنبياء أو من حذا حذوهم .

ولو بلغ هؤلاء الأمناء الأتقياء من العلم بالصناعة الحديثة والثقافة العصرية بشتى فنونها ومعانيها ، ما بلغه رجـــال الغرب لسادوا مشارق الارض ومغاربها ، ولعادوا إلى قيادة الركب من جديد كما كانوا بالامس ذلك لأن مواهبهم الكامنة الأصيلة وجوهرهم العريق ومعدن نفوسهم

---

(١) ليس كل الشرقيين كما يزعم الاستاذ ، ولعله يرى في هذا الفصل ما يسره ويجعله يعلم ان الغربيين لم يتقدمونا بأماناتهم ولكن بسعة اطلاعهم على اسرار العلم الحديث ، وكان الأحرى به أن يحث على العلم ويرغب فيه فنحن صفر اليدين منه . حقاً ، لا من الامانة كما يتخيل الاستاذ .

الطيب الخصب ، صالح للانتاج .

اذن فليس العرب بحاجة الى شيء في الدنيا أكثر من حاجتهم الماسة الى العلم الذي يصقل العقول وينير البصائر و يشحذ الهمم، ويذكي شعلة الطموح و يخلق في نفس الفرد و الجماعة قوة تؤمن بالحرية التي هي أسمى وأنبل و أشرف ما في الحياة .

وهب أن أمة ما ، بلغ أفرادها من الفضيلة و النبل أقصى ما يصفه الواصفون ، ولكنها حرمت من العلم ، فأنى لها ان تسترفي مجدها كاملا وتناضل الاستعمار الفكري والاقتصادي بايمان راسخ وعزيمة صادقة إلا بقدر ما تستلهمه من نور العلم واليقظة و الوعي .

ضحى بماله دون كرامة رفاقه

قصة عايد التميمي الأولى حدثت عام ١٢٨٨ هـ

يعتبر عايد من أفذاذ شخصيات بلاده وهو كثيراً ما يمارس حرفة التجارة ، فيتاجر تارة بالمجوهرات ، فيذهب بحراً ليشتريهـــا من ذوي الاختصاص بهـــا ، ويتاجر طوراً بالإبل والغنم فيسافر براً ليبتاعهـــا من البادية .

وقـــد دعته الحاجة هذه المرة ليشتري إبلاً من بادية سورية فيذهب ليتاجر بها في بلاد مصر . فقصد قبيلة « السبعة » (١) حيث حل ضيفاً على رجل يدعى (حمد بن شتيوي) واشترى ما شاء الله ان يشتري من ابل ، ثم رحل من عند مضيفه قاصداً مصر .

كان عايد قد ابتعد عن العرب وقطع مسافة غير قصيرة ، بعد ذلك هب مضيفوه وركبوا خيولهم وساروا خلفه يقتفون أثره . ولما ادركوه رحب بهم عايد ، وقد ادهشه لحاقهم بـــه . ثم ساد الصمت حتى شربوا القهوة (١) .

---

(١) عايد من ساكني مدينة عنيزة وهو تميمي النسب .

(٢) هي احدى قبائل عنزة التي تقطن شمال سورية .

(٣) من العادات المتبعة عند العرب أن المرء أو الجماعة اذا قصدوا شخصـــاً لغرض ما لا يتحدثون به حتى يشربوا القهوة .

وبعد ذلك اشعروا عايداً انهم فقدوا خمسمائة ريال كانت مخبأة في صرة لونها كذا وموجودة في مكان كذا ، وواصلوا كلامهم الى ان قالوا : وإنه لا يخامرنا الشك في امانة شخصكم الكريم وإنما أنت رجل في معيتك عشرات الرجـــال من الرعاة والمستخدمين فنخشى أنها وقعت بيد فرد من هؤلاء السوقـــة . لهذا نرجو منك أن تسمح لنــــا فنفتش جميع قومك .

ـ عايد : اطمئنكم أن هذا المبلغ محفوظ لدي بكامله ذلك ان احد رعاة ابلي ناولنيْ اياه وهو يزعم انه وجده بين امتعتي فأخذته واحتفظت به وقلت في نفسي امران لا ثالث لهما : إما أن يكون هذا المبلغ لأحـــد عربكم ، أو انه امانة وضعت معي لفرد نسيت ان اسجل اسمه . وقلت إن كان الأمر الأول فلا بد من ان يأتي صاحب المال ويسأل عنه . ولكن مضت مدة طويلة ولم يأت من قبلكم أحد . عنـــد ذلك نفضت الصرة واحصيت ما فيها من الدراهم ثم اضفتها الى ما عندي من الأمانات وقد صح عندي الأمر الآخر(١) . أما الآن وقد بان لي خطأ رأيي الأخير فتفضلوا باستلامها .

قام الرجل وسلم المدعين المبلغ كاملاً ثم انصرفوا الى اهلهم ، كما ان

---

(١) أي انها امانة مرسلة معه لتكون على سبيل المضاربة .

عايداً ادلج قاصداً مصر ليبيع بضاعته فيها .

أما المدعون فقد اتضح لهم خطأ رأيهم بعد مضي مدة قليلة من الزمن وذلك أنهم وجدوا دراهمهم بصرتها ملقاة في موضعها وعندما وجدوها هناك شعروا بخطئهم مع ضيفهم . كما ادركوا ان الرجل سلم هذا المبلغ من ماله ستراً لعرض حاشيته وحفاظاً على كرامتهم ان يفتشوا واحداً واحداً . فضحى الكريم بهذا المبلغ صيانة لكرامة النفر الذين في معيته . وخير وسيلة ركن اليها اؤلئك الذين ظلموا ضيفهم عن غير قصد هو ان اشتروا بهذا المبلغ غنماً باسم (عايد) وتولوا رعايتها والعناية بها كما لو كانت اموالهم ، وبعد مضي ثلاثة سنوات قدم اليهم عايد ليشتري منهم ابلاً . هناك قام مضيفه الاسبق « حمد بن شتيوي » وطرح نفسه بين يدي ضيفه عايد واعتذر عما بدر منه ، ثم اكد له ان المال الذي أخذه منه قد اشترى به غنماً وهذه الغنم قد طرح الله بها البركة حتى ربت وزادت .

ـ عايد : أنا لا استلم الغنم كلها وانما استلم رأس مالي فقط .

ـ حمد : انها ليست ملكاً لنا بل هي ملكك وقد بارك الله بها بسبب نيتك الطيبة .

واخيراً كان الوفاق على أن تثمن تلك الأغنام فيطرح منها خمسمائة ريال رأس مال عايد فيأخذها وما تبقى يقسم بينهما على التساوي وتم الحكم بذلك ورضيه الطرفان .

وفاء وامانة

قصة صالح المجراد حدثت عام ١٢٨٩ هـ

(صـــالح المجراد) شخص من حاشية الأمير بندر [١] بن طلال ابن عبد الله بن رشيد . وفي الحين الذي قتل الامير محمـــد [٢] العبدلله ابن أخيه بندراً كان صالح هذا غير موجود في تلك اللحظة ولكنه عندما بلغه الخبر ذهب فوراً الى قصر الإمارة الذي فيه اخوان بندر المحاصرون وهذا القصر من الاساس فيه بندر وإخوانه باعتباره قصر الحكم ولكنه عندما قتل بندر تخلى عن إخوانه كثير من حاشيتهم لأن الرأي العام الشعبي كانت أصواته مع محمد العبدالله القاتل لبندر .

أما صالح المجراد فقد أراد اخوته أن يحجزوه لئلا يذهب الى اخوة بندر المحاصرين بقصر الامارة ولكنه اصر على أن يذهب الى ولاة نعمته وفي رواية أن اخوته عندما رأوا اصراره أرادوا أن يستعملوا القوة معه ويمنعوه قهراً ولكنه عندمـــا رأى ذلك منهم قابلهم بالمثل وانتضى سيفه

---

(١) هو الأمير الرابع الذي تولى الامارة الرشيدية ١٢٨٥ هـ والتاريخ يعتبره أول مسؤول اعتدى على قطع الرحم بين الأسرة الرشيدية .

(٢) محمد تولى الامارة سنة ١٢٨٩ هـ وتوفي ١٣١٥ هـ وعهده يعتـــبر العهد الذهبي الزاهر بالنسبة لأمراء آل رشيد .

وقـــال : إني سوف اذهب الى القوم الذين لا زال معروفهم وفضلهم بعنقي واني عازم على ان اربط مصيري بمصيرهم حتى الموت . فلما رأى اخوته اصراره وشدة عزمه تركوا سبيله فذهب للقصر ورفاقــه في أشد الحصار : ولما طال عليهم الحصار وليس ثمة معين ولا ناصر هناك اضطروا أن يهربوا من القصر : وعندما قرروا ذلك قال لهم صالح : اذن اكون آخر من يفر من القصر من أجل أن اشغل العدو عنكم في المقاومة حتى تبلغوا مأمنكم ، فهربوا وبقي الى آخر لحظة في القصر . ومما تجدر الاشارة اليه انهم عندما يئسوا من المقاومة بل يئسوا من الحياة في تلك الحــــالة الضيقة احضروا عقد لؤلؤ ثمين وقالوا هذا أمانة عندك ليكون لذريتنا من بعدنا فيما اذا أصابتهم الدنيا ، وبقي العقد عند هــذا الوفي الأمين ، وأبى أن يسلمه لأولادهم عندما كانوا دون بلوغ سن الرشد . وشاءت قدرة الله ان يتوفى أولادهم جميعاً وهم احداث وكانت النتيجة ان يهلك جميع ورثة بندر ولم يبق لهم عاصب يرث تركتهم من الوجهة الشرعية اقرب من الأمير محمد العبد الله الذي هو عم لبندر الطــلال لهذا كان من وفاء صالح المجراد وأمانته أن أخذ العقد وسلمه بيد الأمير محمد واعلمه ان هذه أمانة عنده وضعها اخوة بندر في تلك الساعة الضيقة عندما أرادوا الفرار ، واستلمت منه الأمارة هذا العقد ولكن الأمير محمــداً كان

حاقداً عليه من الأساس بصفته موالياً متفانياً بمحبة الأمير الأسبق بندر واخوته ، لهذا وصل الحقد والغضب بالأمير محمـــد الى أن جعله لا يولي صالحاً عملاً من اعمال الأمارة مع انه لو ولاه لوجده وفياً امينـــاً وذلك وفقاً لحكمة العربي المشهور « معن بن زائدة » الذي تولى الأعمـــال في خلافة بني أمية كما تولاها من بعد في خلافة العباسيين وقد عاتبه الخليفة المنصور العباسي بقوله : « انك يا معن اسرفت بوفائك للأمويين » فقـــال معن : يا امير المؤمنين ان الذي يفي مع الذي لا يُرْجى جدير به أن يفي مع الذي يُرْجى .

أمـــا صاحبنا صالح المجراد فقد توفي منبوذاً ومبعداً عن الحكم ولم يتول أي عمل من أعمال الأمير محمد ، ولكنه كان مرتاح الضمير مطمئن القلب، فإن استطاع الأمير أن يجرده من جاهه ، فـــان اساطير التاريخ الخالدة ستكسو صالحاً حللاً قشيبة أبدية لا تزول بزوال اصحاب السلطة الفانية .

أجل ، ان جاه السلطان سيزول يوماً من الدهر سواء طال الزمن أو قصر ، أما القيم الاخلاقية فإنها ستبقى أبدية خالدة [1] .

---

(١) رويت هذه القصة عن اكثر من واحد .

أمانة ورباطة جأش

قصة عايد التميمي الثانية حدثت عام ١٢٩٥ هـ

سافر التميمي هذه المرة بحراً قاصداً المتاجرة بالمجوهرات وكان معه نفر من التجار زملائه في المهنة . وقد اشترى كل فرد منهم ماشاء الله له من هذه البضاعة وعادوا جميعاً بإحدى السفن البحرية .

وفي اثناء مسيرهم هذا ظل كل فرد منهم يتحدث عن طيب بضاعته التي اشتراها وجودتها ، وكان التميمي معجباً ببضاعته فجاء بمجوهراته واطلع رفاقه عليها ثم هم أن يعود بها الى حقيبته ولكن خادمه وضع بساط مائدة الطعام أمامه فأخذ التميمي المجوهرات ووضعها فوق الخوان[1] ومضى يتغدى ، وبعد أن انتهى من غدائه ذهب لغسل يديه وترك بضاعته كما كانت على طرف الخوان .

وبعد ذلك أتى خادمه وجمع اطراف الخوان وحمله بما فيه من فضلات الطعام والقاها في اليم . عاد التميمي ليأخذ مجوهراته فلم يجدها فسأل خادمه عنها فقال الخادم : لا اعلم شيئاً سوى انني اخذت الخوان والقيت ما فيه من فضلات الطعام في البحر .

---

(١) الخوان ، سفرة المائدة .

ـ عايد : اذن اكتم الأمر ولا يطلع على ذلك احد .

ـ الخادم : امرك يا سيدي .

رجع عايد الى زملائه بكل هدوء ورباطة جأش . وبعد أن مضى ساعة على الحادث ذهب يسوم بضاعة رفاقه بمكسب ثلاثة بالمئة فأطلق الأول عليه البيع فالثاني فالثالث إلى ان اشترى جميع مجوهرات رفاقه في السفينة .وتسليم الثمن طبعاً سيكون بعد وصوله البلادفكان بعمليته هذه حجز جميع اصناف المجوهرات عنده . ومن حسن حظ التميمي أن حصل للمجوهرات موسم عظيم فكان ربحه بها مئة بالمئة ، وبعدان كان رأس ماله عشرة آلاف جنيهاً ذهباً [1] أصبح الآن يملك اربعين ألف جنيه ذهباً . ومما يدلنا على صفاء نفس التميمي وحسن نيته ذلك أنه ذهب الى محمد العسافي [2] صاحب الألفي جنيه حيث سلمه ستة عشر ألف جنيه :

دهش العسافي من هذا المكسب الذي لم يحلم به ولكنه سرعان ما عزفت نفسه الطيبة الطاهرة عنه ، ذلك عندما شرح له التميمي الأمر :

---

(١) اعني رأس مال مجوهراته التي القاها خادمه في البحر كان عشرة آلاف ومن هذه العشرة الفا جنيه لصالح العسافي استلمها التميمي من العسافي على نية ان ان يتجر بها التميمي والمكسب بينهما.

(٢) وهو ايضاً من ساكني مدينة عنيزة .

هناك رفض قبول المكسب كما رفض أيضاً قبول رأس ماله الأساسي لاعتقاده أن ماله الأسبق هو ضمن المجوهرات التي القاها خادم التميمي في اليم[1] .

حاول التميمي أن يقنعه ليقبل المال ولكن العسافي رفض ذلك كما أن التميمي ايضاً رفض ابقاء المال عنده . وطفق الاثنان يتنازعان كل منهما يود أن يتجرد من هذا المال . وانتهى الأمر بأن ذهب المتنازعان الى القاضي .

ادعى العسافي بدعواه وقال : ان هذا المال لا يحل له منه قليل ولا كثير وأن ماله الأساسي القاه الخادم في البحر ، فقال التميمي : نعم إن ماله ألقي في البحر ولكنني عندما اشتريت المجوهرات من زملائي التجار اشتريتها على اساس ان مالي باق وعلى هذا الأساس باع التجار بضاعتهم لي . ولو علموا ان رأس مالي القاه الخادم في اليم لاعتبروني مفلساً ولكان من المستحيل ان يبيعوني من بضاعتهم شيئاً .

حكم القاضي بصحة ما ادعاه التميمي وامر العسافي باستلام المال وهكذا يبلغ سمو النفس والعفة بافذاذ الرجال . ولست أدري ايهما أعف نفساً ؟ وغاية ما اقول انهما فرسا رهان رحمهما الله .

---

(١) القصة مشهورة .

اعاد اللقطة الى ورثة الميت

حدثت في سنة ١٣٠٧

ذهب علي العبيد [١] إلى بيت الله الحرام ليؤدي فريضة الحج وهم بالعودة إلى بلاده «حائل» وفي أثناء ذلك وجد في أسواق مكة تركة تباع لشخص من بلاد «طهران» قدم إلى مكة ووافاه أجله فيها، وتولى مبيع متاعه جماعة من رفاقه الإيرانيين بمحضر من «مطوفه [١]» ساكن مكة الذي أجهل اسمه.

هذا وقد ابتاع علي من حوائج هذا الايراني متاعاً، وضمن هذا المتاع كيس طحين. وعندما غادر مكة وشخص الى بلاده حائل، دعته الحاجة وهو سبيله أن يخبز من هذا الطحين فلما فتح الكيس سقطت منه صرة ضخمة فيها مبلغ من الدنانير، عندما شعر علي بذلك وذهب ونادى جميع رفاقه في هذه السفرة وقال: أشهدكم على نفسي بأني وجدت بهذا الكيس دنانير وهذه الدنانير ليست إلا ملكاً لورثة الإيراني صاحب

---

(١) علي العبيد هو رجل من جبل طي، من المدينة المسماة الآن (حائل).

(٢) المطوف هذا هو شخص يسكن عنده الحجاج ويتولى العناية بهم، وسكناهم في مكة وفي منى وعرفات كما يتولى توجيه الحجاج في زياراتهم المواضع المقدسة.

الكيس ، وقد ترك علي هذه الأمانـــة كما كانت حتى أتى موسم الحج في السنة الثانية ، فذهب إلي مكة واتصل بمطوف الإيراني وأخذ يسأله عن اسم الإيراني وبلدته واسرته . وذهب المطوف بدوره يسأل الحجـــاج الإيرانيين فوجد من يهديه عليه ولست أعلم هل كان بين هؤلاء الحجيج أفراد من أسرة الميت الذين يحق لهم وراثة تركته أم أنهم بعدما عـادوا لبلادهم أخبروا أسرة الميت ومن بعد ذلك أتى الوارثون واستلموا الأمانة من علي . هذا أمر يخفاني تفاصيله كما أنه يخفاني أيضاً مقدار المال الموجود بهذه الصرة وإنما الذي عرفته أن المال مبلغ مغري . وأن علياً سلم هـــذا الجراب وما فيه لورثة الإيراني [1] .

---

(١) رويت هذه القصة عن السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمـــه الله وهي مشهورة خاصة عند أهل بلدة حائل .

امانة متناهية

وقعت بين عامي ١٣٢٨ ـــ ١٣٣٢

قصد حج بيت الله الحرام شخص يدعى ابن جليدان [١] عنزي النسب من الدهامشة ؛ فرمى به الفال الى ان مر بشخص يقطن قرية صغيرة تسمى (الحليفة) [٢] فوجد بها شخصاً يسمى ابن لويشان وهو عنزي النسب أيضاً ومن عرب السبعة ، فاحتاج الاول الى مخيط فأعطاه صاحب الحليفة مخيطاً بغية أن هذا المخيط (عدولة) معناه أنه يكون كأمانة عنده يبتاعه وينميه وهذه العملية اكثر ما اشتهر بها ونجح هم أفراد قبيلة عنزة لأنه امتاز نفر منهم بسلامة النية وشدة الأمانة .

أخذ ابن جليدان المخيط فلما قضى حاجته منه ابتاعه على فرد من عشيرته (بجزة) من الصوف ثم ابتـــاع الصوف واشترى بثمنه سخلة فكبرت السخلة وانجبت سخلة اخرى مثلها الى ان تناسلتا وبلغ المجموع

---

(١) القصة مشهورة وانما لم اوفق لمعرفة اسم الرجل المؤتمن ، وغاية مـا هنالك انه يقال له ابن (جليدان) .

(٢) (الحليفة) قرية تقع شمال المدينة المنورة وجنوباً عن مدينة حائل .

رعيتين من الغنم[1] ثم ابتاع بعضاً من هذه الغنم واشترى ابلاً فبارك الله بالابل ايضاً الى أن بلغت رعيتين، ونهاية الأمر بلغ مجموع هذه الأمانة رعيتين من النوق وثلاثين جملاً وخمساً من الخيل الجيـــاد ورعيتين من الغنم. والجدير بالذكر ان هذه الأمانة بلغت ما بلغته اليه من البركـــة ولا احد يعلم عنها شيئاً ابداً إلا الرجل الذي أمن عنده المخيط، وعندما بلغت هذه الأمانة الضئيلة ما بلغت من النمو والبركة آنذاك جمع المؤتمن أولاده ونخبة من عشيرته وقال لهم: اني اشهدكم الله على أن هذا المـال الذي ترونه من ابل وأفراس وغنم كله ليس لي منه قليل ولا كثير وإنما هو ملك لفلان ساكن قرية الحليفة وأصله مخيط ابتعه ونميته حتى بارك اللّٰه به هذه البركة، وأردف الشيخ كلامه الى ان قال: اني اخشى ان يتوفاني اللّٰه قبل أن يستلم صاحب الأمانة امانته لهذا فاني عازم بعد الاعتماد على اللّٰه على أن أذهب بنفسي لأسلم الأمانة الى اهلها.

ولما كانت الحروب بذلك العهد قائمة على قدم وساق بين القبائـــل فقـــد كان من الصعب أن يؤدي العنزي هذه الامانة الى اهلها بدون ان يخاطر بنفسه ويعرضها الى المغـــامرة والتهلكة، لأنه كان يقطن

---

(١) الرعية من الغنم من مائة وعشرين وما دون .

(٢) الرعية من الابل هي من ستين ناقة وما فوق .

في الأراضي السورية وصاحب الأمانة في أرض نجد وبينه وبين صاحبه مسافة بعيدة وهناك قبائل معادية لقبيلته ، ولكن رغم هذا كله لم يعقه عائق من ان يرسم لنفسه خطة تدل على منتهى أمانته ووفائه ذلك أنه ترك هذه المواشي عند أهله وذهب بنفسه على ظهر راحلته حيث اخبر أهله بأنه مسافر من اجل ان يتصل بصاحب الأمانة فيخبره بماله ، واكد لأهله قائلاً : « اني معرض نفسي للتهلكة ولا أعلم هل أتمكن من الاتصال بصاحب الأمانة ، أم اصادف غزاة تقتلني فان قدر الله علي شيئا من قضائه وقدره ، فانكم يا بني مسؤولون عن هذه الأمانة حتى تؤدوها الى صاحبها». بعد أن بلغ بنيه هذه الوصية ذهب مسافراً بمفرده قاصداً صاحب الأمانة ليخبره بها ، وعندما كان سائراً في سبيله صادفته غزاة من قبيلة شمر فوجدته لقمة سائغة فأخذت راحلته وتركت سبيله فرجع الى اهله راجلاً . والعجيب انه لم تنثن عزيمة هذا الامين بل كر مرة اخرى قاصداً صاحب الأمانة ، ولكنه في عودته هذه قد احتاط لنفسه بالأمان والحماية أكثر من سفرته التي أخذت راحلته فيها ، ذلك أنه في هذه المرة عاد بصحبة المحمل « الشامي » (١) فأصبح الآن بحصن منيع لا خوف

(١) « المحمل الشامي » هو كناية عن جماعة يحجون من القطر السوري ، وكانت تتولى حمايتهم الدولة العثمانية بفيلق من جيشها بحيث لا تستطيع العرب ان تمسهم بسوء حتى يؤدوا مناسكهم ويعودوا راجعين الى اهلهم .

عليه، ولا زال برفقة هذا الجيش حتى وصل قرية صاحب الامانة ولست أدري هل وجد الشخص نفسه الذي أمنه « المخيط » أم أن ذاك توفاه الله ووجد ذريته، هذا أمر لم أتأكد منه رغم اجتهادي وحرصي وإنما الرواية المؤكدة الذائعة تفيد أن الامين بلغ صاحب القرية بما له عنده من المواشي التي نمت وتفرعت من ذلك الاصل الضئيل.

وقد كان صاحب القرية قنوعاً كريماً حيث انـــه رفض قبول جميع هذه الابل والافراس والغنم لنفسه، بل انه قال للرجل المؤتمن: ان هذا الرزق قد ساقه الله بسبب نيتك الصالحة وجهودك الموفقة فعلى ذلك يجب ان نتقاسمه بيننا سوياً، فتقاسما الابل والغنم والافراس فيما بينهما (٢).

---

(٢) القصة مشهورة.

امانة وورع

قصة عُقلى[1] بن شبيب حدثت بين عامي ١٣٣٧ ــ ١٣٤٣ هـ

كان لعقلي جار[2] فرحل عنه ونسي عنده زناداً[3] فبقي محتفظاً بزناد جاره . وصدفة سافر ونفر من عربه ليكتالوا من احدى المدن[4] المجاورة لهم . وعندما نزلوا عن رواحلهم وشاؤوا أن يطبخوا لأنفسهم طعاماً يقتاتون به احتاجوا للزناد ليشعلوا نارهم ولكنه لم يكن مع هذه القافلة زناد سوى الزناد الذي ترك شبه امانة (عند عقلى بن شبيب) :

وأراد القوم أن يأخذوه من عقلى فلم يرض بصفته أمانة عنده فألحوا عليه لحاجتهم الماسة اليه فرفض إلا أن يشتروه منه فقبل القوم ذلك. فطلب عقلى ان تكون قيمة الزناد ضريبة موزعة

---

(١) عقلى عنزي النسب ، من قبيلة السبعة ومن فخذ القمصة القاطنين شمال دمشق ، وصاحب الترجمة يمت بصلة رحم لزعيم قبيلة السبعة ونائبها في البرلمان السوري الحالي الشيخ راكان بن مرشد.

(٢) لم أوفق لمن يدلني على اسم جاره .

(٣) الزناد ، هو أداة تستعمل لايقاد النار وكان يقوم مقام الكبريت قبل اختراعه .

(٤) ربما كانت مدينة حمص إذ انها اقرب المدن لمنازل قبيلة السبعة .

عليهم أجمعين

وتم شراء الزناد على أن يدفع كل فرد من هـــذه القافلة حفنة من طحين البر .

لقد كانت القافلة كثيرة العدد ، لهذا توفر عند عقلى كمية لا يستهان بها من الطحين فباعها واشترى بثمنها شاة وبارك اللّٰه بهذه الشاة وزاد بعد ذلك مـــال الأمانة حتى بلغ ستين نعجة وعشرين من الابل ، هذا وصاحب الأمانة لا يعرف شيئاً عما تم بها ، وربما كان نسي زناده ولم يخطر له ببال .

ولكن «عقلى» كان امينـــاً ورعاً حيث ذهب يسأل عنه حتى وجده فسلمه الابل والغنم وذلك بعد مضي عدة سنوات من تركـه للزناد عنده [1] .

(١) رويتها من الشيخ مقحم بن مهيد رئيس عشيرة الفدعان حاليـــاً وولداه نواب العشيرة في البرلمان السوري وهما النوري وتركي .

سلم الامانة لاهلها وهم له اعداء

قصة غنام الشباطي [1] الغريري حدثت عام ١٣٣٨ ه

أودع عبد العزيز [2] العريفي غنماً عند الشباطي فنمت هــذه الغنم وكثرت وشاء المؤتمن أن يسلم الأمانة لصاحبها ، ولكنه لم يتمكن من الاتصال به إذ أن بلده حائل كانت مطوقة من قبل المغفور له الملـك عبد العزيز وجنوده الاخوان . [3]

وكان الشباطي ممن يؤمن بمبدأ الاخوان فهو على هذه الحالة أصبح لايستطيع أن يأتي للبلاد التي فيها العريفي صاحب الأمانة فحار الرجل بالأمانة لايعرف كيف يفعل بها . وبينما كانت حيرته على أشدها هجم عليه أفراد عشيرته قاصدين نهب هذه الغنم على اعتبار أن العريفي الآن أصبح في الجبهة المعادية لعشيرته فتكون هذه الغنم على رأيهم غنيمة لهم يتقاسمونها وكل يأخذ نصيبه منها .

---

(١) غنام من قبيلة شمر .

(٢) عبد العزيز من سكان بلدة حائل واسرته من الاسر المشهورة في البلاد . توفي رحمه الله عام ١٣٥٢ ه .

(٣) الاخوان اسم اطلق على مجموعة من البادية انضوت تحت لواء الملك عبد العزيز رحمه الله إبان قيامه لانشاء المملكة وتركت حياة البادية وسكنت الهُجَر

فلما رأى الشباطي عزيمـــة قومه على سلب الأمانة ، لجـــأ إلى الحيلة ، فلم يبد لهم أية معارضة لرأيهم بل تظاهر بأنه مستعد أن يسلم الغنم إليهم ليتقاسموها غنيمة كما يزعمون ، ثم أسرع فساق الاغنام وشخص الى مدينة حائل ليسلم الامانة لصاحبها . فلما دنا من المدينة قبض عليه جنـــود أمير حائل وعذبوه أشد العذاب حيث اتهموه بأنه جاسوس لعشيرتـه على إمارة الرشيد . وبعد التعذيب والتنكيل شفع له صاحبه العريـــفي من بطش الامير الذي سجنه وهدده بالقتل . وبعد أن سلم أمانته لصاحبها عاد إلى عشيرته فلقي منهم الجفاء والهجران واتهم عندهم بالنفاق . ولكنه لم يبال بأقوال هؤلاء ولا اؤلئك وإنما كان همه ان يؤدي أمانته ليطمئن ضميره العفيف الورع الطاهر (١)

---

(١) رويت هذه القصة من السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد رحمه الله كما حدثني بها سليمان بن عبد العزيز العريفي صاحب الغنم

ضحى بماله دون كرامته

وقعت بين عامي ١٣٤٠ و ١٣٤٥ هـ

شاء بدوي من بادية بلدة « الرياض » أن يضع أمانة من الدراهم تبلغ خمسمائة ريال فرنسي فاختار شخصا يسمى ابراهيم البصري من أهالي « مدينة الرياض » فوضع هذا المبلغ عنده . ثم ذهب الى أهله في البادية وبعد مضي مدة من الزمن عاد البدوي الى الرياض وذهب الى شخص بجوار دكان صاحبه يطالبه بالمبلغ معتقداً أنه هو صاحبه الذي وضع عنده الامانة ، وهذا الشخص يسمى (عبد الرحمن بن محمد آل الشيخ) ، حاول ابن الشيخ أن يقنع البدوي ويوضح له غلطه ولكن البدوي يزعم أنه لا يشك ابداً بأن المبلغ عنده ورآى ابن الشيخ ان محاولته شيء يجعل البدوي يشك بأنه يحاول ان يوهمه بغير الحق ليختلس امانته .

هناك فكر ابن الشيخ فرأى أنه بين أمرين : إما أن يطول الجدال بينه وبين هذا البدوي وينتهي بأن يذهبا إلى القاضي ويتخاصمان عنده وهذا شيء لا تقبله شيمة عبد الرحمن ابن محمد بصفته من احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعوة الاسلامية في نجد ولا يليق بمكانته العلمية والاجتماعية ، ولا يرضى ان يتحدث عنه مجتمعه انه اتهمه بدوي بانكار

امانته مع علمه اليقين بأنه سوف يدحض حجة البدوي وذلك ان الحكم الشرعي في مثل هذه الامور صريح فالمشرع عليه الصلاة والسلام يقول « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى رجال دماء قوم واموالهم ولكن البينة على المدعي واليمين من انكر » فعلى هذا لايستطيع البدوي ان يثبت على ابن الشيخ ما يدّعيه كما ان ابن الشيخ لايطالب بغير القسم ؛ ولما كان يعلم من نفسه البراءة فانه كان بامكانه ان يقسم اليمين ويخلص نفسه من هذا المأزق الحرج . ولكن نفسه الكريمة ابت ذلك لان فيه مجالاً لأقوال الفضوليين من قيل وقال ،والشاعر العربي يقول :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذبا

فما اعتذارك من قول إذا قيلا

إذن كان يتحتم عليه الأمر الثاني وهو أن يضحي بماله دون كرامته سداً للذريعة واتقاءً للشبهات والمشرع عليه السلام يقول : « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » فعلى ذلك استحسن أن يسلم البدوي خمسمائة ريال وهو طيب النفس مع العلم أن هذا المبلغ في ذلك العهد يقابل عشرات الألوف في عهدنا الحاضر لأن اكتساب عشرات الألوف في عهدنا الحاضر أمر يسير خاصة في مدينة الرياض التي تضاعفت فيها أرباح التجارة إلى حد لا يسعنا التعبير عنه بحال من الأحوال ، لا سيما

في الأراضي والعقارات ، لهذا أقول : إن هذا المبلغ الذي سلمه هـذا الرجل البريء الكريم لهذا البدوي ربما يكون نصف رأسماله إن لم يكن كله .

ذهب البدوي إلى عشيرته وبقي في صحرائه سنة كاملة لم يأت فيها الى الرياض . وبعد مضي هذه المدة عاد إلى الرياض وبينما هو مار في قلب الشارع الذي يقع فيه دكان صاحبه ، ناداه صاحبه الأول وقال له : « ألست فلاناً الذي وضع عندي الأمانة في سنة كذا ؟ قال البدوي : نعم . قال : ولم تركتها عندي كل هذه المدة ؟ أرجو ان تستلمها مني وتريحني منها لأن مدتها طالت عندي والمرء في هذه الحياة عرضة للآفات والحوادث الطارئة وإنني أخشى ان يأتيني أمر أو أن يحدث بهذه الأمانة شيء لا أرضاه لنفسي ، كما أنك لا ترضى أن يكون مالك عرضة للخطر والحوادث المفاجئة » .

دهش البدوي من حديث صاحبه ، وخرج فوراً إلى صاحب الدكان الثاني ليتحقق من خطيئته فوجد الشخص الذي أخذ منه المبلغ في العام الماضي جالساً في دكانه ، عند ذلك تيقن أنه ارتكب خطأً كبيراً بعمليته تلك وافترائه على هذا الرجل الكريم . ولكن ماذا يفعل ؟ فقد مضى الأمر وانقضى .

أخذ بيد صاحبه الأول وهو ابراهيم البصري وقال : « أرجوك أن

تسلم أمانتي هذه لجارك لاني اقترضت منه ما يقابلها » .

اخذ البصري الأمانة وسلمها لابن الشيخ وقال له : إن هذا المبلغ أمرني البدوي فلان أن أسلمك إياه مقابل سلفة اقترضها منك .

لم يذكر ابن الشيخ أنه أقرض بدوياً هذا المبلغ ، فردّ على جاره وقال: إنك مخطىء أنت والبدوي لأني لا أذكر شيئاً من هذا القبيل.

وبينما ابن الشيخ وجاره يتداولان الحديث ، في تلك اللحظة دخل البدوي[1] عليهما وانحنى على رأس ابن الشيخ يقبله ويعتذر منه، هذا والبصري لا يعلم ما هو الأمر ولكنه قد اتضح له فيما بعد .

أقول : من صلاح نية عبد الرحمن بن الشيخ وتوفيقه ان قضيته كانت مع بدوي أمين ولو لم يكن البدوي صاحب أمانة لأخذ المبلغ من البصري وسكت عليه ولكن شاء الله أن يرد البدوي مال هذا الشريف الأمين عليه، كما شاء أن يبقى له ذكرى عمله الطيب خالداً أبداً . ومن التوفيق أيضاً ان البصري أمين ورع ولو لم يكن ذلك لسكت .

حينما ذكرت هذه القصة للشيخ عبد العزيز بن زيد[2] اسمعني قصة

---

(١) كنت اتمنى لو عرفت اسم البدوي أو اسم عشيرته على الاقل ولكنه قد تعذر علي ذلك . والحادثة مشهورة عند ساكني الرياض القدامى .

(٢) سفير المملكة العربية السعودية في دمشق ، توفى رحمه الله عام ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .

من نوعها حدثت بين ضابط من ضباط الأتراك في العهد (العثماني) وبين تاجر من تجار دمشق .

دخل الضابط التركي الى احد الحمامات العامة ، وكان يعتقد أن في جيبه ثلاثمائة (غازي) [1] مربوطة في منديل أحمر ، ثم نزع ألبسته وتدرع بمناشف الحمام فلما استحم وانتهى ، ذهب بعد ذلك الى ألبسته وأخذ يبحث قبل كل شيء عن الغوازي التي كان يظن انه دخل الحمام وهي موجودة في جيبه . فتش في جيوبه فلم يجد شيئاً ، فصاح في صاحب الحمام قائلاً : إني سرقت. فسأله صاحب الحمام : ماذا سرق منك ؟ قال : كذا مبلغاً من المال مربوطاً في منديل أحمر . قال صاحب الحمام : اننا سنتخذ التدابير التي تمكننا من إدراك ما فقد ، وهذه التدابير هي أن لا يخرج أحد من الحمام إلا بعد التفتيش الدقيق له . ومما زاد إيمان صاحب الحمام بأن هذه العملية كفيلة بالوصول الى الغاية ، ذلك انه متأكد أن هـذا الضابط من حين دخل الحمام لم يخرج من الحمام أحد كما انه لم يدخله من بعده إلا رجل واحد وهو شيخ السروجية المدعو محمد سعيد ، ولما خرج الشيخ السروجي من الحمام وجد عند صاحب الحمام ضجة غير طبيعية . فسأل عن السبب فأفيد أن الضابط التركي سرق من جيبه ثلاثمائة (غازية) ومن

---

(١) الغازي في ذلك العهد هو بمثابة نصف جنيه عثماني حسب ما يقال .

المصادفة الغريبة أن السروجي كان يحمل معه نفس المبلغ فوقع في نفسه ما وقع . ولكنه قال : لعلي أسأل الضابط عن لون المنديل الذي صر فيه المبلغ . فسأله فأفاده الضـــابط بوصفه واذا هو صورة طبق الأصل للمنديل الذي يحمله .

شعر السروجي بعد ذلك أنه وقع في التهمة لا سيما وهو داخل بعد الضابط كما أنه نزع ألبسته بقرب ألبسته ، فلم ير بداً من أن يأتي للضابط فيقول له: ابشرك إن دراهمك عندي وذلك أني وجدتها واقعة على الأرض فالتقطتها واحتفظت بها .

وسلم للضابط المبلغ صيانة لشرفه وذهب الضابط الى ثكنته ليضع هذا المبلغ الذي ضاع منه في مكانه.

ولكن عندما فتح صندوقه ، وجد المبلغ بمكانه كما يعهده . عند ذلك ادرك أنه مخطىء وأن السروجي سلم هذا المبلغ حفظاً لشرفه وسمعته ، فذهب فوراً الى السروجي وسلمه ماله واعتذر منه .

وهكذا التاريخ يعيد نفسه . ولكنني اعتقد ان حادثة عبد الرحمن ابن محمد بن الشيخ اعظم من هذه الحادثة . وإن كانتا متشابهتين من حيث المعنى ولكن الأولى تمتاز على الأخرى بشيء واحد وهو ان البدوي لا يستطيع ان يدين ابن الشيخ بالبينة الشرعية فيما لو ذهبا الى القاضي

وابدى كل منهما حجته . اما السروجي المسكين فإنه مرغم على عمليته هذه ، فإنه لو لم يفعلها مختاراً فان الشارع ربما يرغمه إرغاماً بحكم القرائن التي تدينه من شتى الوجوه[1] .

اجرة الاجير

حدثت سنة ١٣٤٠ هـ

هذه قصة فرهود بن هَنْدَا مع راعي غنمه « الحديدي » وفرهود هذا عنزي الأصل من « السبعة » عرب سورية لا سبيع عرب نجد ، من فخذ يسمى « الدوام » وهذا الفخذ يتفرع من « العبدة » والعبدة[2] قبيلة كبيرة تتفرع منها السبعة . وقد استأجر فرهود شاباً من عشيرة الحديديين[3] من فخذ يسمى «الأبرز» ليرعى غنمه مدة معينة يدفع له عليها جعلاً معلوماً إما من المال او من الماشية .

---

(١) أخبرني أحد الاخوان أن حفيد شيخ السروجية الذي جرت له القصة هو الاستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي واستاذ اللغة العربية في كلية الآداب وقد زرته في بيته فأكد لي القصة ورواها لي بالتفصيل كما وردت في السياق وأفادني بأن القصة جرت في سنة (١٢٥٠ هـ) والحمام الذي جرت فيه هو حمام « السلسلة » الباقي الى الآن في دمشق .

(٢) العبدة : يقدرون بألفي بيت يرأسهم ابن هديب .

(٣) الحديديون : يرأسهم ابن كرخ .

ولقد رعى الحديدي غنم فرهود مدة لا اعلم مداها من الأيام وإنمـــا الذي علمته من الشخص الذي روى لي القصة وهو « جوال ابن وايل[1] » : إن الأجرة التي استحصلهـــا الحديدي من « فرهود » عبارة عن حملين صغيرين ، وذهب الحديدي وترك هذين الحملين عنـــد « فرهود » (عدولة) أي أمانة ومضت سنون وهذان الحملان ينموان ومـــا زالت تتضاعف بركتها[3] مع الأيام حتى بلغ العدد سبعين نعجةوتسعاً من الابل وذلك بعد مضي مدة لاتتجاوز خمسة وعشرين سنة .

فلما نمت عند فرهود هذه الماشية ما وسعه آنذاك إلا ان يسعى سعياً حثيثاً للبحث عن صاحب هذه الأمانة . وظل فرهود ينقب عنه وما برح يسأل بالحاح حتى تأكد أن الشخص توفي الى رحمة الله ، عند ذاك سأل عن ورثته فوجد لصاحبه أخاً فما كان منه إلا أن سلمـــه جميع الغنم والابل .

وهذه القصة تذكرنا بمـــا رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن

---

(١) هو الذي روى قصة كليب الدهمشي مع صاحبه السبيعي . راجعهـــا في صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) من الواضح أن هذين الحملين لا يزيدان نمواً فيما لو تركهما « فرهود » كما هما . ولكنه كان عندما يكبر الواحد منهما يبدله بشاة او يبيعه ويشتري عوضاً عنه شاة من اجل النسل والنمو وهكذا دواليك حتى وصات الغنم الى مـــا وصلت اليه من الوفرة والنمو .

رسول الله ﷺ : « أن ثلاثـــة نفر انطلقوا حتى آواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا : إنـــه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم » فدعا الأول ببره بوالديه فانفجرت الصخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . ودعـــا الثاني بعفافه اتقاء لله فانفجرت الصخرة غير انهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : « اللهم إني استأجرت أجراء واعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منـــه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبدالله أدّ إلي أجري فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الابل والبقر والغنم فقال : يا عبدالله لا تستهزىء بي ! فقلت : لا استهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منـــه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون » .

لقد رسم رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف لأصحابه بقصة هؤلاء الثلاثة أرفع مثل في البر والعفة والأمانة .. فما أروع أن يصل أحد افراد أمتـــه في عصر متأخر في الأمانـــة الى مستوى ذلك المثل الرفيع[1] .

---

(١) رويت القصة من جوال بن وايل السبيعي .

قاتل الله الطمع

وقعت بين عامي ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩هـ

يوجد قرية من قرى مدينة « حائل » اسمها « فيد » وأكثر سكانها من بني تميم ، أودع أحد سكانها حملاً من الضأن عند شخص يدعى «سلمان الصل » من قبيلة عنزة من الدهامشة وقد وضع المؤتمن هذا « الحمل » ضمن غنمه ورعاه بعناية لا تقل عن عنايته بماشيته إلى أن بارك الله بهذا الحمل حتى كبر وصار كبشاً فبدل الكبش بنعجة فأنجبت هذه النعجة غنماً بلغت بركتها إلى حد أن ابتاع منها الرجل المؤتمن عدداً كثيراً ووضع مكانها « نوقاً » فتناسلت هذه النوق إلى ان بلغت خمساً وسبعين ناقة كما بلغ ثمن أوبارها وثمن بعض ما ابتاعه منها مقدار مائة وستين جنيهاً عثمانياً .

وبعد ان بلغت البركة إلى هذا الحد لم يسع هذا الأمين إلا الذهاب إلى صاحب الأمانة أي ساكن القرية حيث سلمه سبعين ناقة كما ذكرنا وخمساً وستين جنيهاً عثمانياً .

ومن المؤسف أن صاحب القرية[1] لم يعامل هذا الأمين الورع بما يستحقه من التقدير والانصاف ولم يهبه شيئاً يقابل جهوده وأمانته من هذا

---

(١) لم أوفق لمعرفة اسم ساكن القرية .

المال الذي أتاه وهو لا يحلم به وربما وهبه بعضاً منه ،

عاد الأمين إلى أهله وبينما هو في سبيله عائداً مر على بلدة « حائل » ودار الحديث بينه وبين أحد سكانها فقص الأمين قصته عليه فأرشده الرجل إلى أن يقيم دعوى على صاحب القرية وفعلاً رفع الأمر إلى أمير البلاد « عبد العزيز بن مساعد » والأمير بدوره أحال الدعوى إلى القاضي الشرعي وهو في ذلك العهد المرحوم « الشيخ عبدالله بن بليهد »[1] فاستدعي صاحب القرية من قريته وجرت المحاكمة بينه وبين صاحبه الامين فحكم القاضي بأن يأخذ البدوي الأمين نصف الابل والجنيهات مقابل أتعابه ويترك النصف الأخير لصاحب القرية .

(٢) « ابن بليهد » من علماء الجزيرة توفي غفر الله له عام ١٣٦٩ بمدينة الطائف.

أمانة بلغ أجلها قرناً

في عام ١٢٥٨ هـ أودع امير بلدة «بريدة» المدعو عبدالعزيز المحمد ناقة عنـــد شخص يدعى (طلق الشعيلي) من قبيلة عنزة من فخذ يسمى السويلمات وذلك في الحين الذي كانت قبيلة (طلق) تقطن اراضي نجد وقد اتت ظروف كان من شأنها ان نزحت هذه القبيلة واستوطنت الاراضي العراقية فبعدت اراضي صاحب الأمانة عن المؤتمن ، هـــذا والمؤتمن لا يزال معتنياً بأمانته أشد العناية الى ان بارك الله بها ونمى الخير منها نمواً سنذكر مقداره في آخر القصة .. وقد توفى كل من عبد العزيز صاحب الأمانة وطلق الذي أودعت عنده الناقة ، ولم يبق إلا احفادهما ، وبعد ذلك قدم أحفاد (طلق) الى (بريدة) حيث وجدوا أحد أحفـــاد عبد العزيز صاحب الأمانة المدعو عبد الله بن عبد المحسن بن عبد العزيز فسلموه ثمانين ناقة وثلاثاً من الخيل الجياد ، وفي عام ١٣٥٠ هـ سلم احفاد المؤتمن لأحفاد صاحب الأمانة عشرين ناقة واربعين نعجة .

---

(١) بريدة احدى مدن نجد والقصة رويتها عن عبد العزيز العبـد الله الصقير ، وهو يزعم انها مشهورة . ولئن كنت أشك في صحة رواية الراوي فانني لا اشك في صحة وقوع القصة .

من مصادفات الحديث

قصة كليب العنزي الدهمشي من فخذ آل عياش
مع صاحبه السبيعي

هذه القصة تلقيتها مبدئياً من الشيخ (راكان[1] بن مرشد) في السفارة السعودية في تاريخ ١٥-٦-١٣٧٤ هـ ــ ٧-٢-١٩٥٥ م وقد كان الحديث بين السفير (عبدالعزيز الحمود بن زيد) وبين الشيخ (راكان بن مرشد) يدور حول أخلاق العرب وما يتصفون به من صفات سامية كالأمانة والوفاء بالعهد وحسن الجوار وما الى ذلك. وقد كان السفير يروي للشيخ (راكان) قصة[2] عنزي من فخذ الدهامشة وقعت له مع (راعي الحليفة[3]) وفيها بلا شك ما يدل على احترام الأمانة في خلق العربي. وعندما انتهى السفير من رواية القصة بإيجاز، قال الشيخ راكان: أريد أن اروي لك قصة قريبة العهد فأصغى السفير لاستماع ما يرويه الشيخ فقال (راكان): من مدة اسبوعين كنت في صحراء المملكة السعودية اصطاد غزلاناً على متن السيارة. وفي أثناء مسيري هذا وجدت (خرجاً) مطروحاً في

---

(١) راكان رئيس عشيرة السبعة ونائبها بالبرلمان السوري حالياً.

(٢) هي قصة مشهورة راجعها في هذا الفصل صفحة «١٢٥».

الصحراء فأوقفت السيارة وأمرت السائق أن يأخذ هذا الخرج فأخـــذه فإذا به خرج بدوي فيه أشياء تافهة تدل على أن هذا الخرج لفرد ما من البادية . قال ثم سرنا قليلاً فوجدنا (شداداً) مطروحاً ايضاً في الأرض قال ثم تابعنا المسير ولكن ضميري كان غير مرتاح لمسيرنا هذا لأنني خفت ان يكون صاحب هذه الأشياء رجلاً طرحته مطيته في الأرض كما طرحت هذا الشداد والخرج عن ظهرها . قال : فعند ذلك امرت قائد السيارة ان يعود من حيث اتى ، فلما وصلنا الموضع الذي وجدنا فيه الخرج بقيت انا ورفاقي في السيارة يمد كل فرد منا بصره وننقب عن الشخص صاحب الخرج والشداد فرأينا بياضاً يلوح على البعد فلما دنونا منه وجدنـاه شخصاً مرمياً على قفاه فاقد الشعور . قال الشيخ : فحاولنا ان نبحث معه لنعلم من هو ؟ ومن أي قبيلة يكون حتى نحمله ونوصله الى عشيرته ؟ ولكن الرجل لم يكن لديه من القوى العقلية ما يجعله يفيدنا بشيء مما نريد وذلك لشدة ما اصابه من الألم .

يقول الشيخ وبينما نحن على هذه الحال نظر إليه أحد الرفـــاق وهو المدعو «جوال بن وايل» وقال له ألست فلاناً ؟ قال المنكوب: بلى، بصوت خافت ضئيل. يقول راكان: قلت لصاحبي: متى كانت معرفتك به؟ فأجابني بأنه عرف هذا الرجل منذ ستة أشهر . وذلك أنه ساقه القدر ونزل ضيفاً عنده أي عند (جوال) وكان في أثناء ضيافته يسأل عن شخص من عرب

السبعة وهو رجل كان اشترى منه عنزين من مدة تزيد على ثلاثين سنة . وبعد أن دفع ثمنهما انطلقت واحدة منهما وضاعت من يد المشتري فبقيت الثانية قلقة لفقد رفيقتها . فخشي المشتري أن تضيع الأخرى وتلحق سبيل الأولى . لهذا اضطر إلى ان يترك العنز الثانية عند صاحبهما البائع لتكون «عدولة»[1] .

لقد كان الشيخ راكان يسرد هذه الحادثة على مسمع من السفير ابن زيد وكان كاتب هذه الأحرف جالساً ، فالتفت إليّ السفير فأشار بقوله: إن هذه الحادثة من الأمور التي يحرص على تدوينها فلان - يعنيني - وكنت قد أعددت الورقة والقلم لكتابة القصة لأنها من الحوادث التي من واجبي أن أسجلها في حقل (شيم العرب)، وعندما انتهى الشيخ راكان من رواية الحادثة طلبت منه اسم الشخصين المؤمن والمؤتمن . كما طلبت منه أن يفيدني عن مقدار ما بلغ نمو هذه الأمانة في هذه المدة فأجاب الشيخ (راكان) بأنه لا يعرف عن ذلك شيئاً غير انه ارشدني الى الرجل الذي يعرف القصة من

---

(١) العدولة هي شبه أمانة توضع عند فرد ما من عرب البادية إما نعجة أو عنز أو أقل من ذلك أو أكثر . المقصود أن هذه الأمانة يضعها صاحبها عند الشخص الذي يكون مظنة للامانة وهـذا الشخص يحرص على حفظها وتنميتها أكثر من حرصه على ماله . والمؤتمن يكون من حقه أن يتمتع باستغلال لبن وسمن وصوف هذه الامانة ابلاً كانت أو غنماً .

أساسها . وهو المسمى (جوال بن وايل)[1] المقيم حالياً بدمشق في فندق الأندلس الكبير . وبما أني كنت ولم أزل شديد الشغف والحرص على تسجيل أمثـــال هذه الفضيلة لذلك ذهبت في الغد الى الفندق المذكور . فوجدت به رجلاً غريباً جالساً في صالة الفندق وعلى محياه طابع الصدق والوقار . كما وجدت الشيخ راكان الذي أرشدني إلى (جوال) ٠فدنوت منه وسألته عن القصة فراوها لي كما رواها لنا من قبل الشيخ راكان . فعدت أسأله عن اسم الشخص المؤتمن ـ أي الذي اودعت عنده العنزان ـ قال اسمه كليب ولا علم لي باسم أبيه كل ما أعرفه أنه يدعى كليب من أصل عنزي [1] من الدهامشة ٠ ومن فخذ يسمى آل عياش ٠ سألته عن عدد الماشية التي نمت وترعرعت عنده من الأصل الذي كان أساسه تينك العنزين ٠ قال جوال : إن كليباً عندما ضافني كان معترفاً لي ان تينك العنزين نمتا إلى أن بلغتا خمسين نعجة وخمسة عشر من الإبل ودراهم لا يذكر جوال عددها ٠

---

(١) جوال هو من عشيرة عنزة من فخذة العبد وهو رئيس عشيرة الرمـاح . ويبلغ عدد العرب الذين يرأسهم تسعين بيتاً .

(٢) هي في الأصل عنز واحدة على اعتبار أن الثانية ضاعت . ولكن يروى جوال عن كليب أن تلك العنز لما ضاعت وجدها عند فرد من عرب قبيلـته وأراد الذي وجدها عنده أن يبيعها لنفسه ولكن كليبا ادعى أنها امانة عنده فأخذها منه بالقوة بعد مقاتلة عنيفة .

عدت استفهم جوالا عن اسم الرجل السبيعي الذي أودع هاتين العنزين عند كليب الدهمشي قال جوال : إنه لا يعرف اسمه لأن كليباً عندما ضافه ما استطاع أن يهتدي إليه لأن القضية كما أسلفنا لها ثلاثون سنة وكليب في الأصل ما كان يعرف اسم صاحب الأمانة وغاية ما يعرفه أنه من عرب السبعة ولديه فرس حمراء . هذا كل ما يعرفه عن صاحب الأمانة .

يقول جوال: لا أستبعد أن كليباً إلى الآن لم يهتد إلى صاحب العنز فهو لا يملك أدلة قاطعة يستطيع على هداها أن يصل إليه .

وقد سألت الشيخ راكان عن الرجل المدعو كليباً الذي وجده ملقى على الأرض،سألته:ماذا تم في أمره ؟.

قال راكان: إننا حملناه معنا في السيارة حتى وضعناه عند عشيرته و ذلك آخر العهد به .

فائدة لم نسع اليها

في تاريخ ٧ ـ ٦ ـ ١٣٧٥

عندما كنت في دائرة عملي في السفارة العربية السعودية في دمشق في تمام الساعة الحادية عشر فرنجياً من التاريخ المشار اليه هنـــاك دق جرس الهاتف فتناولت السماعة لأستوضح من هو المتحدث؟ فإذا به الأخ سليمان الإبراهيم القاضي [1] وبعد تبادل الحديث افادني الأخ أن لديه عزيمة سفر الى مدينة جدة في صباح الغد ، كما أبدى لي شعووه الطيب فيما إذا كان لدي حاجة هناك ، فإنه الأخ المتواضع الذي يقوم بقضاء حوائج إخوانه بضمير مطمئن ونفس متواضعة ، ولقد شكرت الأخ القاضي على نبله وتواضعه الذي لا يستغرب منه كما أفدته بأن لا بد لي من حـــاجة عند شخص ما في (جدة) وأكدت له بأني سأمر عليه في مكتبه مساء لأوضح له حاجتي ، وتنفيذاً للوعد ذهبت اليه وسلمته رسالة مفتوحة ، وطلبت منه أن يقرأها ليفهم ما تحتوي عليه من الغاية ليتولى تنفيذ مضمونها فيما اذا وصل « جدة » وكانت الرسالة موجهة لتاجر في جدة وهو الأخ عبد الله

---

(١) سليمان من مدينة عنيزة ومن اسرة القضاة الذين نبـغ منهم الشاعر الشعبي المشهور محمد العبد الله القاضي المتوفي عام ١٢٨٥ وهم تميميو النسب واسرته من اشهر الأسر العريقة في بلادها ، وسليمان حالياً مقيماً في دمشق يمتهن حرفة التجارة .

العلي البسام الذي أستوضح منه إفادتي عن قصة أمانة تستحق الذكر كان لها صلة بين البسام و بين شخص آخر ، وحيث أن الشخص الذي رويت عنه القصة غير ملم بها من الناحية التاريخية ولا عن تفاصيلها . لهذا رأيت أن استفسر من البسام بحكم علاقتـــه المباشرة بالقصة حسب ما رويتها من الراوي .

عندما قرأ القاضي رسالتي وفهم ما فيها من غاية أصبو اليها ، انحرف إليّ وقال (اني أحدثك عن قصة قريبة العهد . وفيها من الأدلة الناصعة والبراهين الواضحة على امانة فاعلها الشيء الذي يسترعي الانتباه ويجدر بالكاتب ان يسجلها بمداد من الذهب) ، ثم استرسل القاضي وقـال : وإن لدي من الوثائق الخطية ما يؤكـد صحة القصة من الناحيتين التاريخية والواقعية .

هذا وقد كنت أصغي لاستماع حديثه بكل لهف وشوق .

فقال القاضي : ثمة شخص يدعى (سليمان المحمد الخليف [1]) كان يتعاطى مهنة التجارة بين المملكة العربية وبين بادية سورية ، وقــد ذهب بتجارته الى قبيلة السبعة [1] وذلك من مدة خمسة عشر عاماً فحل

---

(١) سليمان من مدينة عنيزة وهو لا زال على قيد الحياة .

(١) هذه القبيلة من عشيرة عنزة .

عندهم مدة ابتاع ما ابتـاعه من بضاعة واشترى ما شاء الله أن يشتري من المواشي عوضاً عن بضاعته ثم رحل عن هؤلاء العرب ولم يعد اليهم بعد ذلك.

وقد نسي (منديلاً) في منزله الذي رحل منه ، وبعد ذهابه عن المنزل أتت حرمة من نساء القبيلة فوجدت هذا المنديل مطروحاً في الموضع الذي رحل منه التاجر ؛ فايقنت اليقين القاطع بأن هذا المنديل للتاجر الذي رحل من عندهم ، فأرادت أن تلحق به لتسلمه أمانته ، ولكنه قد بعد بعداً لا يمكنها الوصول اليه ، فرأت أن خير وسيلة تلتمسها هي أن تحتفظ بهذا المنديل أمانة عندها بل إنها لم تحتفظ به كأمانة مجمدة ومعطـلة الفائدة ، بل قررت أن تتصرف به وتستثمره بقدر ما تستطيع من الجهد ، لعل الله يبارك به ،وينمو ريعه وتنتثر بركته [٢] .

ولما كانت الأعمال كما ورد في معنى الحديث الشريف مقروناً بنجاحها بصدق نية صاحبها ، فلا عجب إذ لقيت هذه المرأة نجاحاً باهراً في حسن تصرفها في هذا المنديل التافه ذلك أنها ذهبت به وباعته بكمية من الصوف وغزلته ونسجته حبالا . ومن بعد باعت الحبال بدراهم . وبدورهـا

---

(٢) اشارة الى قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » الخ . هذا الحديث يعتبره رجال السنّة من أبلغ الأحاديث معنى .

ذهبت واشترت بهذه الدراهم سخلة ، عند ذلك كرست الانثى التقيـــة جهودها نحو العناية بهذه السخلة حتى وضع اللّه البركة في ذرية السخلة ، بل قل في مساعي هذه الانثى الطاهرة القلب الصادقة النية ، الى أن تفرع من هذا الجزء الضئيل الاصل عدد جم من الغنم[1] .

وعلى الفور كلف ابنـــه حمداً ان ينقب عن هذه الوثيقة لعله يجدها بدفاتره التي في دمشق ؛ ولحسن الحظ أن (حمداً) كان واضعاً للوثيقـــة في قلب الصندوق التجاري ومتذكراً موضعها الذي وضعها به .

يالله !! كم تراني مسروراً ومبتهجاً عندما تناولت هذه الوثيقة ذلك أني وان كنت لا اشك بصحة عموم القصص التي سجلتها هنا . وانما هذه القصة لديها من البينة والبرهان ما يجعلنا نزداد ايماناً لا من ناحية صحة هذه القصة بالذات ، فهذه شاهدة من نفسها على نفسها بحكم وجود هذه الوثيقة الآتية ، وانما ازددت سروراً من أجل ما فيها من تأييد واضح على صحة القصص العربية التي أوردناها هنا ولم يتيسر لنا العثور على وثائقها كعثورنا على وثيقة هذه القصة وغيرها التي يطلع القارىء على نصها موضحاً .

واليك نص الوثيقة بنفس التعبير الذي جاءت به طبقاً للأصل :

---

(١) للقارىء ان يرى صورة الكتاب الآتي آخره يتضح له المجموع كاملاً من غنم وشيء من الجمال والحمير .

بسم الله الرحمن الرحيم

في ٢٨ ربيع آخر ١٣٧٣

بسم الله وحده عن بيان ما عند سالم بن الهنيدي من ادوام السبعه لنا عدد ١٣٣ عنده ماية وثلاثة وثلاثين رأس غنم منهن ثمان معز والباقي ماية وخمسة وعشرين ضان عدد ١٢٥ وبيان الضان ٧٧ سبع وسبعين ضان جلايل[١] شياه[٢] فقط منهن ٥ خمس كباش ومن الضان ٢٦ ستة وعشرين شات جذعات[٣] ومن الضان ٢٢ طلي[٤] جذعان قراقير عدد ١٢٥ فصح عدد الضان كما هو مذكور اعلاه ماية وخمسة وعشرين والمعز ٨ ثمانية منهن ٥ خمس معز كبار وتيسين ٢ جذعان ووحده صخله الجميع ٨ وبيان وسم الغنم ١٣٣ وبيانهن ومعهن زمال[٥] ابيض وزماله سودا وبيان وسم الغنم الشلقة بالإذن اليمنى وايضاً شلقة صغيرة بالأذن اليسرى من قدام هذا عدد الغنم واوصافه ووسمه وأيضاً لنـــا عند المذكور سالم ثلاث بعارين[٦] جمل خصي اصفر وقعود[٧] لقي اصفر وناقة صفراء ويزعم سالم

(١) الجلايل ، الكاملة السن .

(٢) شيان ، جمع شاة .

(٣) جذعات ، المراهقات .

(٤) الطلي ، الذكر من الضأن الذي بسن المراهقه .

(٥) الزمال ، الحمار .

(٦) أي جمال .

(٧) قعود لقي ، المراهق من الابل .

ان لنا عند واحد من الدوام خمسين ليرة سوري قيمة شاة هذا الذي عند سالم لنا وداعة ثم بعد واجهنا بامليص في ٢٦ صفر ١٣٧٢ طلب منا سـالم انحنا نقوم عليه الغنم ١٣٣ رأس والزمايل اثنين والجمل الخصي انقومهن عليه بتثمين بضاعة تكون عنده شركة[٣] عضم ومنه قومنا عليه بتثمين ما يسون وهن ١٣٣ رأس غنم وزمالين[٤] والجمل الخصي في مبلغ ستماية واربعين دينار عراقي ومنه يورد علينا قيمة صوفها وسمنها وخرافينها والذي ينباع من شيان ويورد علينا ويقيد الوارد دينار حتى ان شاء الله يبلغ الوارد المذكور ستماية واربعين دينار تكون الغنم ونسله والجمل والزمايل بيناحنا وسالم انصاف نسأل الله حسن النية بين الطرفين وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمـد وآله وصحبه. حضر سالم يقول بعد ساعات وجدنا له ثلاث معز ونعجتين ثنوات وقيمة الجميع ١٩ دينار تضاف على اصل القيمة بهذا حرر في ٢٢-١-١٣٧٣ والقعود والناقة ما جرا عليهن تثمين لنا عنده وداعه بعد يبيعهن سالم القيمة مع خمسين ليرة سوري لنا عند واحد بعد يقبضهن يسلمكن ياهن .

واليك نص الوكالة حرفياً :

---

(١) شركة العضم ، المناصفة بين الشركاء .

(٢) يعني حمارين .

بسم الله وحده نعم انا كاتبه سليمان الحمد الخليف قد وكلت الأخ المكرم سليمان الإبراهيم القاضي وكالة شرعية وكلته على مـــا عند سالم ابن الهنيدي من ادوام السبعة وكلته على ماعنده لنـــا من غنم وبعارين ونقود عملة وكالة مفوض ماين مفتصل وما وصله وصول وما اجرا جايز من بيع مواشي أو قبضهن نضره جايز وصلى الله على سيدنا محمـــد وآله وصحبه وسلم [1].

كاتبه بيده سليمان الحمد الخليف
حرر في ٢٨ ربيـع الآخر سنة ١٣٧٣

---

(١) يعبّر تعبيراً عامياً وفيه لحن كثير ونحن نقلناه كما هو وذلك حرصاً على أمانة نقله الخطي .وصورة الوثيقة نشرناها في الطبعة الاولى .

شرح ما تضمنه الوثيقة

أولا أن سليمان المحمد الخليف ، لم يعلم شيئاً عن هذا المنديل من اساسه ، ولم يحلم بأن منديله الضائع من مدة خمسة عشر عاماً قد التقطته يد أمينة وصيرت منه مئات من الغنم . هذا أمر لم يتخيله قطعيـاً ، ولكن الذي أخـبره بذلك ابن المرأة المدعو «سالم الهنيدي» المذكور اسمه في الوثيقة، فسالم هذا هو الذي أوصى أو هو كتب رسالة لعبد العزيز يوضح له مجموع ما عندهم له من المواشي وعلى ضوء هذه الاخبار قدم عبد العزيز من الجزيرة العربية ولكنه عندما وصل الى هؤلاء الأمناء ووجد مـا عندهم له من الغنم وبعضاً من الابل والحمير ، عند ذلك لم يكن الرجل ذا جشع ولا طمع، بل كان عادلا في تصرفه منصفاً لاصحابه الامناء حيث جعل مجموع المواشي شركة فيما بينه وبين ابن صاحبة المنديل سالم[1] بن الهنيدي ، فترى الوثيقة موضحاً بها شيئاً من ذلك والوثيقة تشير إلى أن عبد العزيز صاحب المنديل ، قد ابتاع قسطه بستمائة واربعين ديناراً عراقياً على سالم الهنيدي على اساس أن سالماً يسدده هذا المبلغ أقساطاً ، وقـد دفع سالم

(١) من سياق الحديث يبدو ان المرأة قد توفيت الى رحمة الله ووكلت ابنها على المال وذلك لأني لم أر لها ذكراً في السند .

بعضاً من المبلغ والبقية فيما بعد يدفعها سالم لعبد العزيز وبعد ان يتم تسديد المبلغ من سالم لعبد العزيز تكون المواشي ملكاً لهما جميعاً .

وهذا هو النص الذي جاء في السند .

فعلى هذا التقدير يصبح مجموع قيمة الغنم وما فيها من جمال وحمير مقدرة بألف ومائتين وثمانين ديناراً عراقياً .

رب صدفة خير من ميعاد

في تاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣٧٥

ذهبت لزيارة الأخ « ابراهيم النصار » [١] حيث وجدته في بيته وبعد مضي دقائق من جلوسي عنده، هناك دار الحديث بيننا وكان البحث يتضمن شيئاً من القصص العربية التي نسعى لتدوينها وبصورة خاصة كان الحديث يدور حول القصص التي لها علاقة بالامانة .

وفي اثناء حديثنا هذا انتبه لي النصار وقال : لقد خطر على ذاكرتي رسالة أتتني من مدة ثلاث سنوات من قبل شخص من قبيلة عنزة يدعى محمد بن حجر من الدهامشة ووصل حديثه الى أن قال : وان صاحب الرسالة ليذكرني بشيء لا أذكره فهو يشير بها بأنه سبق أن اشترى مني

---

(١) ابراهيم هو من اهالي مدينة بريدة وهو تميمي النسب ومن آل ابي عليان الذين كانت لهم امارة بلدة بريدة سابقاً وهو حالياً مقيم في مدينة دمشق ويعمل تاجراً فيها .

جملاً عندما كنت اتعاطى مهنة التجارة بالابل وذلك من مدة عشر سنوات ويزعم أنه في ذلك العهد تبقى لي عنده من قيمة الجمل نصف دينار عراقي ويبين أنهْ تصرف به في سبيل المصلحة ،حتى نمى ونتج من أثر تصرفه جمال وبعض من المواشي أي الغنم .

عندما روى لي الأخ ابراهيم هذهالقصة طلبت منه فوراً ان يستحصل لي على الرسالة التي اتت له من صاحبه ، ومن التوفيق أنه كان محتفظاً بها . لهذا ذهب فوجدها وسلمها إلي حالاً .وها نحن نضع نصها بالذات بين يدي القارىء مكتفين بنشر صورتها في الطبعة الأولى :

حضرة الأخ العزيز ابراهيم السيد[1] من عقيل[2] االمحترم بعد السلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته، أول السؤال عن عزيز خاطركم. بعد يا اخي نخبرك من طرف نصف الدينار الذي انقطع لك علينا من ثمن الجمل صار لك عندنا (بعير [3]) ومواشي[4]. ولا هن كثيرة واصلك يا خي عُقَيّل الجعيب (٥) .

المحب الداعي : محمد بن حجر من الدهامشة

هذه طبق الأصل

---

(١) كلمة السيد هو لقب للأخ ابراهيم .

(٢) اما قوله من عقيل فهذا الأسم يشمل كل من يمتهن تجارة الابل بصورة عامة من اهالي نجد وهو بصورة اخص يشمل اهالي القصيم من نجد وذلك حسب الاصطلاح.

(٣) يعني جملًا . (٤) يعني غنما . (٥) يعني حامل الرسالة.

ضالة وجدتها مؤخراً

في الحين الذي كنت أصحح آخر ملزمة من فصل الأمانة ، في تاريخ ١٨ جمادي الآخرة هناك وجدت هذه الضالة الآتي ذكرها عند « الدريعي ابن متعب الحدب[1] » ، لقد حدثني بما هو آت فقال : ثمة امرؤ من قبيلة شمر يدعى « خليف بن رويشد » أوْدِعتْ عنده سخلة وصاحب الوداعة رجل من ساكني مدينة المشهد [2] يدعى « أحمد بن ناجي » وذلك عام ١٣٣٥ هـ على وجه التقريب ، وهذه الوداعة هي طبعاً (عدولة) وقد سبق أن شرحنا معنى العدولة بهذا الفصل ، ومعناه أنه يتصرف بها المؤتمن وينميها كما يتصرف بماله وله مقابل ذلك الصوف واللبن والسمن حسب الاتفاقية . وكانت أيام غير طويلة الأمد ، واذا المُودَّع يسلم لصاحب السخلة مائة جنيه ذهباً عثمانياً .

وبعد مضي زمن قريب سلم المؤتمن ايضاً لصاحب السخلة خمسين جنيهاً عثمانياً وخمساً من الابل ، ويزيدني الراوي تأكيداً ان هذه الأمانة لا زالت بركتها تدر ، وريعها ينمو الى حد العام الماضي ١٣٧٤ هـ بهذا الوقت القريب بعث المؤتمن لصاحب السخلة ثلاثين ديناراً عراقياً ، ويوضح لي « الدريعي » ان هذا المبلغ الأخير قد دفعه المؤتمن بواسطة ابراهيم بن سليمان الجربوع ولا زال للأصل بقية حتى الآن .

---

(١) الدريعي هو أحد رؤساء قبيلة شمر .

(٢) المشهد احدى مدن العراق المسمى بالنجف .

فصل العفو

وَمَا قَتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عَنْهُمُ
وَمَن لكَ بالحُرِّ الذي يَحفظُ اليدا

«المتنبي»

من ابلغ المعاني التي قالها الشعراء والحكماء من العرب عن العفو قول شاعر الحماسة الشعبي المغفور له « محمد العوني » الذي قال بيتاً في العفو قلّ أن سبقه أحد من شعراء العرب الى معناه . وذلك في قصيدته اللامية التي يعتذر بها من الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود والد الملك عبدالعزيز رحمهما الله عام ١٣٢٥ هـ .

والقصيدة أكثر من أربعين بيتاً . وهنا نأتي بالبيت المناسب للموضوع الذي نحن في صدده وهو قوله :

لولا الحمال(١) وَمَا تكوّن من اللّوْم
ما كان صَار العَفو لُهْ سايْل يِسالْ

---

(١) الحمال هو الذنب ويقال ان فلاناً حمل اي ارتكب ذنباً .

يقول الشاعر : إن الجرائم العظيمة التي يرتكبها المجرمون والذنوب والخطيئات الجليلة التي تبدر من المسيئين هي التي بسبب وجودها كان لاصحاب العفو ميزة يمتازون بها ، ومكانة مرموقة بين المجتمع ، والشاعر يؤكد أنه لو لم تكن ثمة جرائم تبدر من المجرمين ، لما كان للعفو واصحابه أدنى ذكر جميل في التاريخ الانساني .

واذا شئنا أن نحلل فلسفة العوني تحليلاً منطقياً وواقعياً ، يحسن بنا أن نقول : إن هذه السجية أي العفو هي شيء كامن في جوهر الانسان لا يعلم أحد عنه شيئاً كبقية السجايا المثلى المتوارية في معدن المرء كالشجاعة والوفاء وما أشبه ذلك ، فخذ مثلاً الشجاع لو لم تصدف حادثة تثير هذه الجبلة الكامنة في كيان صاحبها لأصبح هذا الشجاع مجهولاً لا يعرفه أحد .

وهذا ما ذهب اليـــه بعض الفلاسفة بقولهم « ان الابطال الصناديد والجبناء الرعاديد لا تلدهم الحوادث الجسام بل تكشف عنهم الغطاء حتى يراهم الناس . وكذلك العفو لا يعرف اهله إلا في المناسبات والعفو هو ما يصدر من تسامح وغفران من القوي تجاه من هو دونه ، أمـــا التسامح من الادنى تجاه من هو اعلى منه فإنه يعتبر ذلة وخنوعاً .

بطل يعفو عن بطل

قصة عدوان بن طوالة [1] وعقاب بن سعدون العواجي
حدثت على وجه التقريب عام ١٢٤٥ هـ

وكان الاول يقطن شرق جبلي طي بينما كان الثاني يقطن في الجنوب منهما والحرب بينهما دائماً سجال ، واجتمع الزعيمان بطريق الصدفة وقد كان هذا الاجتماع في بلدة (الرس) التي هي إحدى بلدان القصيم ، حيث نزل الخصمان وقومهما ضيوفاً على امير البلدة ولا اعلم أيهما الأول ، وكل ما اعلمه انهما اجتمعا عند أمير هذه البلاد وكان الأمير كريماً فنحر لكل منهما كبشاً وعندما اجتمع الزعيمان وجّه عدوان خطـــابه لعقاب قائلاً : « لقد اجتمعنا بغير اختيار واحد منا ، وإني لأرجو أن تكون نتيجة هذا الاجتماع حسنة للطرفين فيما اذا أحسنا التصرف وتركنا الضغائن والعداوة القديمة .

عقاب : ماذا تقصد من كلامك هذا ؟

عدوان : اقصد أن نتعاهد نحن وانتم بهذه الغزوة ونشترك في الغنيمة التي نكتسبها من إبل أو غنم العدو . ولاشك أنها اذا اجتمعت قوة غزاتكم مع قوة غزاتنا فإننا سوف ننتصر بحول الله على أي قبيلة نغزوها

(١) عدوان رئيس عشيرة الأسلم من شمر وعقاب رئيس عشيرة ولد سليمان من عنزة .

ولنذكر في تاريخ حياتنا أن قبيلة شمر وقبيلة عنزة تصالحتا يوماً من الدهر وغزتا عدوهما سوياً .

عقاب : اختر لك رأياً أحسن من هذا الرأي .

عدوان : لا أعلم أصوب ولا افضل من هذا الرأي .

عقاب : لا شك انك رأيت قومي اكثر من قومك عدداً ، ودبرت لك حيلة لتنجوا بها من هذا المأزق خشية أن ننتصر عليك لهذا بادرتني بهذا الحديث الذي فيه من المكر والخديعة أكثر مما فيه من الحقيقة . وإن يكن فيه مصلحة فإنها في جانبك اكثر مما هي في جانبي . ولو علمت ان قومك أكثر من قومي لما أبديت رأيك هذا ، بل ربما كان رأيك على عكس ذلك .

عدوان : ما هو الرأي الذي تشير اليه وتريد أن تفعله أنت بصفتك أكثر مني قوماً .

عقاب : أريد ان نتنازل نحن وانتم بهذه الأرض الجميلة ، ويتبارز أبطالنا وأبطالكم. ثم واصل حديثه وقال : أليس كل من قومك وقومي كانوا يشدون الرحال من مكان بعيد لا قصد للطرفين غير محبة الفوز ولذة النصر والتغلب على الخصم؟.

(١) يشير الى أرض الرس لأنها أرض برية فسيحة لا حجر فيها ولا شجر، فهي خير ما تكون لمبارزة الفرسان .

عدوان: « صحيح ما تقوله ولكن نحن الآن اجتمعنا في ناد واحد لهذا أرى أن الأحسن هو رأيي السابق » .

عقاب: « نعم انه الأحسن بالنسبة لسلامتك وسلامة قومك أما بالنسبة لي ولقومي فلا أرى فيه شيئاً يوافق مصلحتنا »

عدوان: « إذا كان ولا بد فلتكن المبارزة في صباح الغد ». عقاب: وهو كذلك .

فلما انبثق الفجر خرج عدوان مبكراً يتبعه فرسان قومه ومر بطريقه إلى عقاب وأبلغه أنه في انتظاره في المكان المعين، فلما برز عدوان بقومه وقف بهم ورسم لهم الخطة الحربية بعد أن حرضهم على القتال حيث قال لهم: « نحن لا نريد غنيمة إلا شيئاً واحداً وهو رأس زعيم القوم - أي عقاب العواجي - هذا الرجل الذي تحدانا معتمداً على شجاعته وكثرة قومه لهم قائلاً: « إننا إذا قتلنا عقاباً أو طرحناه أرضاً فقد تم لنا النصر على قومه أجمعين » ثم إنه بعد ذلك قسم قومه الى فرقتين فرقة جعلها معه ويتولى قيادتها هو بنفسه وفرقة أخرى جعل عليها رئيساً من أفراد عشيرته ممن يثق بحزمهم وبطولتهم .

فأما الفرقة التي معه فقد أمرها أن لا يكون لها كفاح ولا مناضلة عدا شيئاً واحداً وهو أن يوجه كل فرد منهم همه وشجاعته وقوته تجاه رئيس

القوم الذي هو عقاب .

وأما الفرقة الأخرى فقد كلفهم أن يحاولوا ما استطاعوا أن يحولوا بين عقاب وقومه وأن لا يدخروا وسعاً من اشغال قومه عنه في الحين الذي تطوقه خيول الفرسان الأخرين الذين يقودهم عدوان بذاته وقد أبرموا أمرهم على هذه الخطة المحكمة .

أما غزاة عنزة فقد كان زعيمهم مهملاً الى آخر حد الإهمال والسبب في إهماله هذا أنه كان واثقاً ببطولته ورباطة جأشه التي لا تتزحزح هذا من ناحية والناحية الأخرى كان معتمداً على كثرة قومه وقلة أعدائه . وبعد أن بزغت الشمس وارتفعت قيد رمح خرج فرسان عنزة مدججين بالسيوف والرماح يقودهم البطل عقاب، وبارز أمام قومه فذهب مسرعاً نحو الموضع الذي يعتقد أن الخصم ينتظره به حسب الوعد المعين بين الخصمين. فلما دنا من المكان ونظر خيول عدوه هب على الفور وأطلق عنان فرسه وقومه على أثره فتركه عدوان وقومه حتى قرب منهم ثم أمر قومه بتنفيذ الخطة التي اسفرت عن فصل عقاب عن قومه حيث طوقه عدوان بالفرقة التي يرأسها كما أن الفرقة الأخرى حالت بين عقاب وقومه عن نجدتهم له فلم تستمر المعركة إلا مدة وجيزة حتى وقع عقاب اسيراً بيد عدوان وطرحه أرضاً بدون أن

يقتله ومن غير أن يمنعه بل استلمه « شلعاً لا منعاً » [1] وقد كانت التعاليم الحربية التي أخذها قوم عدوان ترمي الى أنه متى ما طرح عقاب ارضاً فإن خيل الفرقتين كلها تتحد وتنصب على قوم عقاب حتى لا يستطيعون أن يدافعوا عنه. وهكذا نفذ عدوان هذه الخطـــة حتى أن فرسان عنزة عندما رأوا رئيسهم مطوقاً من خيول العدو حاولوا انتشاله فعجزوا ، هناك ضعفت عزائمهم .

هذا وقد نصر الله عدوان بن طوالة على عقاب العواجي فرأى عدوان أن من الشيمة أن يعفو عنه ويحسن إليه أيضاً ، لذلك تحدث عدوان مع عقـــاب وقال « إني قد عفوت عنك كما إني قـــد وهبتك فرسك ».

أجابه عقاب « أما إذا عفوت عني فهذه شيمة العرب ولم تفعـــل شيئاً مستغرباً فانت تعفو عني اليوم ونحن نعفو عنك في الغد وأما من خصوص الفرس التي تزعم أنك وهبتنيها فإن هذه الفرس ليست من جياد عشيرتي عنزة بل ان مصدرها الأساسي من خيل عشيرتكم شمر لأني قد غنمتها العام الماضي من الفارس الشمري فلان » .

قال عدوان : « إذن الفرس نعيدها الى اهلها شمر ونشعرهم بأننـــا

---

(١) الشلع هو بدون عهد و « المنع » يكون الفـــارس استولى على عدوه بطريقة العهد ، فالأولى يستطيـع أن يقتله ولا عيب عليه عند العرب ، أما الثانية فلا يستطيـع أن يمسه بسوء .

أخذناها منك قهراً [1] وقوة كما أخذتها سابقاً » .

هذا وقد ذهب عقاب الى قومه ماشياً على أقدامه كما عاد عدوان وقومه منتصرين .

وهناك شاعر عند قبيلة شمر يسمى « مبارك التبيناوي » يعلق على كل حادثة تقع بين قبيلته وقبيلة أخرى بأسلوبه الشعبي بقدر مـــا يستطيع وخذ ما قاله الشاعر :

يا حَيْفْ يا عدوانْ يا حيفْ يا حيفْ
اعتقت ربعٍ عُقُبْ مـــا طيْرُهم حام

يوجه الشاعر لومه وأسفه المكرر إلى رئيس غزاة شمر وهو المدعو عدوان بن طوالة ويقول : أسف كل الأسف أن تعفو عن عقاب بعدما

---

(١) ما اشد ما ينطبق معنى بيت شاعر الاسلام حسان بن ثابت على هـذين البطلين عندما امتدح قريشاً في قصيدته التي مطلعها :

إن الذوائب من فهر واخوتهم   قد بينوا سنّة للناس تتبـع

الى ان قال:

لا فخر إن هم اصابوا من عدوهم   وإن اصيبوا فلا خور ولا جزع

« فالمصراع الاول الذي يقول فيه الشاعر « لا فخر ان هم اصابوا من عدوهم » هذا ينطبق على لسان حال المنتصر وهو عدوان بن طوالة ، وأما قوله«وان اصيبوا فلا خور ولا جزع » فهذا ينسجم ابلغ الانسجام على واقع عقـاب العواجي ولا عجب فان هؤلاء الابطال هم سلالة اولئك الاماجد الذين غيروا مجرى التاريخ العربي وانما ينقصهم التوجيه الصالح .

أصبح أسيراً بين يديك، ويؤخذ من معنى الشاعر أنه قد أسر أناساً من قوم العواجي غير الرئيس عقاب لأنه يقول : « اعتقت ربع عقب مـــا طيرهم حام » معناه انهم جماعة ليسوا بفرد، ولكن الرواية لم تصل الينا إلا أنـــه فرد. وقد روى لي هذه الحادثة شخص عنزي يدعى « عيـــادة الخمشي » المتوفي في مدينة الرياض سنة ١٣٦٥ هـ وهو يحسن الرواية جيـــداً وموثوق به .

اعتقتْ رَبْعٍ كَلّلوا شَذْرَة السَّيف

من يبذر الحسنى بقطّاع الأرحام

يقول: كيف نعتق من قد وضع السيف باعناقنا حتى تحطم سيفه وكلَّ من كثرة ما قتل من قومنا .

ثم يعود الشاعر ويقول: لمـــاذا تفعل الإحسان مع شخص يستحق العقوبة؟ويزعم الشاعر ان عقاباً قاطع رحم.

لو انت يا زين ألبكار المواليف

أوْدَعتْ راسه موقعٍ منه ما قامْ

يرى الشاعر أن عدوان أخطأ بعفوه عن العواجي ويقول : لو أنك ضربت عنقه حتى نأمن من صولته علينا فيما بعد لكان أكمل للفائدة .

وبعد ، فإن الذي يدرس أدب هذا الشاعر يرى أن كلامه ينقض

بعضه بعضاً ، ذلك أن البطل عقاباً قتله بعض فرسان قبيلة شمر في معركة أخرى ، فبعدما قتل نجد هذا الشاعر يبدي اسفاً شديداً على مصرعه في قصيدة طويلة جاء منها قوله .

عقابٍ طريحٍ يوم الأفراس َعجْلاَتْ

عِزَّاه من طير نقَرْ ِحجْر عينـــه

الى أن قال:ـ

ُفوات قبـــل ْمدَوَّرِ ْينَ الجهالاتْ

يا ليت ِعقَّالَ العربْ حاضِرينه

يقول الشاعر : في صدر البيت الأول ، إن عقاباً قتل في حالة كانت ارتجالية ، وفي المصراع الأخير من نفس البيت يتظـــاهر الشاعر بحزنه وأسفه على عقاب فيقول « عزاه من طير أكل حجر عينه » أي إنه يتوجع ويحزن على مقتل عقاب الذي سوف تأكل الطيور عينيه ، وفي المصراع الأخير من البيت الثاني . يقول ، كنت اتمنى أن عقاباً أستولى عليه رجال عقلاء حتى يقدروه ويعفوا عنه . ولكنه يزعم من معنى كلامه أن عقاباً استولى عليه شباب طائشون لا يفكرون بذلك ، وهذا الشاعر قريبـــة أخلاقه من الفرزدق الذي عبر عنه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فقال : إني لاعجب من نفسية الفرزدق يهجوني أميراً ويمدحني سوقة. واليك القصيدة:

(١) يا حيف يا عدوان يا حيف يا حيف

أعتقت ربع عقب ما طيرهم حـــام

(٢) اعتقت ربـــع كللوا شذرة السيف

من يبذر الحسنى بقطاع الأرحـــام

(٣) لو انت يا زَين ٱلبْــكارَ المواليف

أودعت رأسه موقعٍ منه مـــا قام

---

(١) يا حيف : اسف . يا عقب : من بعد . طيرهم حام : اوشكت ان تأكل لحومهم الطيور.

(٢) شذرة : حد السيف .

(٤) زين : مأوى . البكار المواليف : النوق الأبكار .

عفو متبادل

قصة صطام الذهي وفيصل العماج[1]

في عهد فيصل بن تركي آل سعود بين سنتي ١٢٥١ ـ ١٢٥٥ ﻫ حـدث بينهما شقاق كان من نتيجته أن قتل فيصل صطاماً ثم هرب و استجار بأحد امراء عتيبة المدعو ابن حِجْنَة وكان ابن المقتول في ذلك العهد حديث سن وبعد أن بلغ رشده ذهب الي قاتل أبيه يحاول أن يظفر به ليأخذ ثأره منه فنزل عند العرب الذين يقطن بينهم قاتل والده فبقى الشاب أجيراً يسرح بإبل أحد هؤلاء العرب وقضى مدة على هذه الحالة وهو راع ولا زال يرعى الابل حتى سنحت له الفرصة التي وثب بها على خصمه فطعنه بمديته ثم فر ولكنه قبض عليه وشد وثاقه وأتى به الى فيصل (أي الجريح الذي طعنه) فسأله من أنت ! فأخبره الشاب بأنه ابن صطام المقتول فلما علم فيصل بذلك طلب رئيس عشيرة عتيبة المدعو ابن حجنة فلما حضر الأمير قال : ان هذا الشاب في جوارك وفي ذمتك لأنه لم يفعل ما هو خطأ ولا لوم عليه بما فعل معي وذلك أني معتد عليه بقتلي لأبيه فإن توفاني الله من طعنته هذه فهي

---

(١) كلا الاثنين من قبيلة قحطان ومن فخذ السحمة .

نفس بنفس وإن سلمت منها فاني سوف أسلمه الدية ان قبلها ، ثم أمر أن يسلم الشاب الذي طعنه ذلولا نجيبة تقله الى ان توصله اهله وذهب الشاب الى أهله .

أما فيصل فقد انجاه الله من هذه الطعنة وذهب على أثر الفتى ليسلمه دية والده ولكن الفتى كان كريم النفس ذلك أنه رفض قبول الدية وعفا عن قاتل والده [1] .

---

(١) رويت هذه القصة عن حمود العماج القحطاني النسب والذي لا زال ضمن حاشية ولي العهد الامير فيصل بن عبد العزيز آل سعود .

يعفو عن من أراد ان يغتاله

قصة « عبد الله[1] بن علي بن رشيد وابو هادي »

وقعت سنة ١٢٥٩ هـ

بعد أن تأسست إمارة آل الرشيد وأمسى لها سلطان في شمال نجد وعصبية قوية تؤازرها، هناك عظم الأمر على أمراء القصيم خاصة اميري البلدتين عنيزة التي يرأسها في ذلك العهد زامل[2] بن سليم وأمير بريدة عبد العزيز المحمد بن عليان وقد تضاعف الخطر واشتدت العداوة أكثر من اللازم خاصة بعد معركة (بَقْعَا)[3].

---

(١) عبد الله هو المؤسس الاول لأمارة الرشيد التي ابتدأت عام ١٢٥٠ هـ وانتهت في ١٣٤٠ هـ وكان عبد الله والياً للامام فيصل بن تركي بن سعود ولا زال مذعناً لال سعود وسامعاً ومطيعاً حتى توفاه الله عام ١٢٦٣ هـ وهو عصامي ابتكر المجد وورثه ولم يرثه .

(٢) هو من اشهر زعماء نجد دهاء وبطولة قتل رحمه الله سنة ١٣٠٨ وكان مصرعه في المُلَيْدا، تلك المعركة الحاسمة التي وقعت بقيادة امير بريدة حسن ابن مهنا أبا الخيل وأمير عنيزة زامل بن سليم ضد محمد العبد الله الرشيد وقد انتهت المعركة بانتصار الرشيدي عليهما .

(٣) هي قرية تقع في الشمال الشرقي لمدينة حائل ومعركة بقعا ذكرها ابن بشر في الجزء الثاني من كتابه عنوان المجد صفحة ٩١ ذكر انها وقعت في جمادي الاولى عام ١٢٥٧ هـ .

لقدرأى أمراء القصيم ان خير الأسباب التي تقيهم شر هذا الخطر هو القضاء على المؤسس لهذه الأمارة إذ انه بلا شك هو الدماغ المفكر لا في الأسرة الرشيدية فحسب بل في العشيرة أجمع بالرغم من أنه في ذلك العهد لم تتكون اسرة آل الرشيد ولم تبلغ ما بلغته من وفرة العدد في عهدها الأخير • وعبدالله يعتبره التاريخ المسؤول الأول من ناحية التأسيس اما الذي وطد دعائم الأمارة فهو ابنه محمد ومن بعد عبدالله شقيقه عبيد الذي هو الساعد الأيمن له ، ولا شك أن رأي هؤلاء القوم في القضاء على الأمير عبدالله كان سديداً فهم لو نجحوا في مؤامرتهم لقضي على الامارة الرشيدية في مهدها .

وقد كانت مؤامرة أهل القصيم لقتل عبدالله مبنية على اختيار شخص يدعى (بأبي هادي) وهذا الشخص استلم من اصحاب المؤامرة مبلغاً من الريالات مقدماً كما أنهم تعهدوا له أن يسلموه مبلغاً آخراً بعد قتله للأمير ، وأبو هادي هذا رجل حسب ما يبدو لي من سياق الحديث وما روي لي - أنه رجل ضعيف الإدراك بحيث أن أصحاب المؤامرة استطاعوا أن يخدعوه ويوهموه بأنه إذا قتل الأمير عبدالله فإنه سوف يهرب ولا يستطيع أحد أن يراه ولا يتمكن عدوه من القبض عليه وذلك بفضل ما يتدرع به من الطلاسم التي يحملها بعنقه وأكد أصحاب المؤامرة لأبي هادي أن ما يحمله

من الآيات القرآنية والطلاسم الملفقة ستكون له سد منيع يقيه مفعول السلاح لئلا يفتك بجسمه وكانت الطريقة التي تمكن أبا هادي من قتله للأمير ، هي أنّ أبا هادي يحسن الرقص بالرمح من الأساس كما ان حركاته وشكله وخفته كل ذلك تشفع له فيما إذا شاء أن يجعل نفسه مضحكاً لحفل ما من الناس سيما وهو من قبل كان متخذاً ذلك حرفة له أي كان يعيش من وراء هذه المهنة .

سار أبو هادي من القصيم حتى وصل مدينة حائل عاصمة إمارة عبد الله الرشيد آنذاك فحل ضيفاً هناك وفي حينه استعمل لعبته المضحكة ، ومن البديهي أن الغريب اذا قدم لبلد ما سيكون محطاً للأنظار وتتفقد الناس أخلاقه، خاصة إذا كانت البلدة قليلة السكان « كحائل » بذلك العهد، يضاف إلى ذلك أن هذا الغريب أتى للبلاد بحركات مضحكة تجعل أهل البلاد بطبيعة حالهم يتفرجون ويعجبون من هذا الغريب الذي قدم اليهم بحركات بهلوانية .

هذا وقد مضت أيام على أبي هادي وهو يرقص أمام سكان البلاد ويضحكون عليه وكل من رآه من ساكني البلاد يعجب برقصه، ويأخذه الإعجاب ويذكره للذي لم يره فلم تمض مدة على أبي هادي إلا وهو بمثابة النادي الذي يتخذ للتسلية والمرح ، الى ان أصبح يتفرج على لعبه ورقصه

وحركاته الجم الغفير من سكان البلاد وفي النهاية بلغ الأمير عبدالله أمرُ أبي هادي ، فانتدب رسوله ليستدعيه ليضحك وجلساؤه عليه .

وعلى الفور حضر أبو هادي وطاب منه الأمير أن يلعب ويرقص كما كان يفعل ، فلبى طلب الأمير الذي يرى أن هذا هو منتهى أمنيته ، ولكن أبا هادي عندما أراد التنفيذ اختل توازنه وارتعشت اعصابه وارتبك ارتباكاً جعل الحاضرين يشكون في أمره وينتبهون له ، وأول من انتبه له شخص اسمه ابن نعام[1] هو الذي أسر للأمير عبد الله أن يأمر من يلقي عليه القبض ، فلما القى عليه القبض ازداد خفة وانهارت اعصابه انهياراً جعل البينة تقوم عليه بغير شك . عندئذ تولى الأمير التحقيق معه فاعترف له بدون تردد وبعد اعترافه اطلق سراحه الأمير وعفا عنه ولم يعاقبه بأية اذية ثم انشد الأمير قصيدته الشعبية الخالدة فقال :

(١) لِي دِيْرَةٍ مَابَهْ حذا اَلْبَرْد وَاَلْجُوعْ
لَوْلاَيْ عِفيتَـــهْ بِضَرْبَ اَلْهَنَـــادِي

يقول إن بلادي لم يكن فيها شيء من الانتاج الزراعي الذي يقيت

---

(١) يقول الراوي : ان ابن نعام لمح لعبد الله بكلمة تجعل أبا هادي لا ينتبه ولا يشعر بمعناها ، فقال كلمة عامية وهذا نصها « الحمراء كبيرة يا عبدالله » أي أن رئتك اكبر من قلبك فأنت لا تشعر بما يحوكه لك هذا الرقاص .

ساكنيها من الجوع ولا فيها ايضاً شيء من الإنتاج الصناعي والنسيج الذي يقي اهلهـا من ضرر البرد ، ثم يسترسل البطل ويقول « ولكني ازحت هذه العوامل واجتهدت وحميتها بضرب السيف حتى اصبح لها كيان وامست بلدة بعد مـا كانت قرية ويقصد بلاده حائل ـ وهي بلاد حاتم الطائي سابقاً في جبلي طي .

حَمَيْتَهـا عَن كُلّ دَوّارْ مَطْمُـوعْ

حَـيٍّ نُصَبّحْهمْ وَحيٍّ نهَـادِي

يقول إني حميت بلدتي من كل من اراد ان يطمع فيهـا ، ثم يوضح ويقول :

إن حمايتي لوطني مبنية على امرين سياسيين وهما المسالمة تـارة والحرب طوراً آخر فيقول إني أسالم اصحاب القوة الـذين لا استطيع مقاومتهم فأذهب التمس رضاهم بشتى الوسائل التي لا تحط من كرامتي وكرامة بني وطني وقبيلتي .

اَلْقَلْبْ مَضْمُوعٍ وَبِالْكَفْ قَـاطُوعْ

مَـا هِي حَكايَا رَقصَتِكْ يَا بُو هَادِيْ

يقول : أنا لست ممن يقرقع له بالشنان حتى أخاف منك يا أبا هادي ويؤكد أن السر الذي يجعله لا يخاف هو انه واثق من نفسه بأن قلبه قلب

شجاع لا يتزحزح البتة وفي يمينه صارم ماض ، أي السيف .

وَلاَ حدٍ يطيعْ إلاَّ له السِّير مَمْرُوع

وإلاَّ بِضَربْ مصقّلاتَ ٱلْهَنَــادِي

يقول إن الناس لا يطيعون ولا يذعنون للزعيم الذي يكون وضعه كوضعي إلا لأمرين وهما الرغبة بالمال الذي يغدقه عليهم به أو الرهبة من العقاب الذي يخشون تنفيذه منه .

(٥) فَعّالْ نوَّ الخير نَجزاهْ بِنْفُوعْ

مِنْ مالِنَــا نِكْثِرْ عَلَيْـه الْعَدَادِ

يقول ان الذي يسالمنـا ولا يريد منا إلا الخير نبذل له الخير ونغدق عليه المال والفعل الجميل ما استطاع لذلك سبيلاً .

والشّر فعّـاله إنجـازِيه بجْموعْ

وْ زِيرٍ إلى جَـا الْفَجْر حسّه يُنَادِي

يقول إن الجماعة والأفراد الذين لا ينفع معهم فعل الخير ولا يصلح معهم إلا فعل الشر هناك يقول : أفعل معهم من الشر الذي لا يتصورونـه واقابلهم بجيش عرمرم فأباغتهم به فجراً حتى أقضي على قواهم .

(٧) أخو عبَيْد إلىْ هَيا كُلّ مسْبوعْ

أسهَرْ الى نامَتْ عيُونَ ٱلسّرادِي

ينتخي البطل ويمتدح نفسه ويقول أنا أخو عبيد وعبيد هـذا ـ كما أسلفنا ـ شقيقه وساعده الأيمن ويقول أنا البطل الذي تبرز رجولته وشجاعته في الشدائد التي يفقد فيها رجولته الجبان ويؤكد أنه يسهر الليالي تلو الليالي في الحين الذي ينام فيه قاصر الهمة ٠

(٨) أحاوِلَ الدّنيا بْداخِلْ ومَطْلُوعْ
بَالْمَـالْ وَالاّ بْمرْهَفاتَ الْحدادِ

يقول اني احسن الدخول والخروج بالسياسة لقومي ولعدوي معاً فتارة استولي على قلوبهم بالمال الذي ابذله لهم وطوراً بالسيف في الحين الذي لا ينفع به المال ٠

(٩) كَم خَيِّرٍ عانٍ لَنا شاكٍ الجُوعْ
حادِيْه مِنْ لَوْعاتِ الأَيَّامْ حادِي

(١٠) لَوْ مَا نَعْرفُه رَاح مِنَّا بَطْمُوعْ
مِنْ رَاس مَالِ نَجْمَعُه لِلنَّفَادِ

يقول كم إنسان كريم التجأ إلينا وشكا ما اصابه من نوائب الدهر ونحن لم يسبق لنا به معرفة ذاتية ومع ذلك يقول : نسعى على الفور بجبر عثرته ونهبه ما استطعنا من اموالنا التي لا نحرص على جميعها إلا لننفقها في

سبيل المجد والخير .

ونهاية القول انّ ابا هادي بقي ساكناً بحائل حتى توفي فيها. وأكد لي الراوي سلمان بن رشدان بأنه كان يعرف أبا هادي شخصياً ولا عجب من ذلك لأن سلمان بن رشدان عمر سنين طويلة وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٦١ هـ بعدان بلغ من العمر ما ينوف على المائة سنة . والراوي من نفس بلدة حائل.

واليك القصيدة بكاملها :

(١) لي دِيرةٍ ما بَهْ حذا البَردْ والجوعْ
لَوْلايْ عفيّتَهْ بِضَرْبِ الهَنادي

(٢) حِميتَها عَنْ كُل دَوّار مَطْموع
حَيٍّ نُصَبّحْهُم وحَيٍّ نْهادي

(٣) القَلب مَصْموعٍ وِبالْكَف قاطوع
ما هي حكاً يا رَقْصَتِكْ يا بُو هادي

(٤) ولاَ حَدْ يطيع إلاّ له السّير مَرْوُعْ

---

(١) ديرة : بلدة . حذا : عدا . عفيته : حميتها .

(٢) دوار مطموع : طماع .

(٣) مصموع اصم لا يعرف الخوف ، قاطوع ، السيف الماضي .

(٤) السير مرموع : أي لين الجانب .

والاَّ بِضَرْب مْصَقَّلاَت الهنَــادي

(٥) فعَّــال نَوَّ الخيرْ نَجْزَاه بِنْفوع

مِنْ مَالَنـــا نِكْثِر عَلِيه العــدَادِ

(٦) والشَّر فعَّاله نِجَــازِيه بِجْموع

وزيرٍ إلى جَـــا الفَجْر حُسّه ينَادي

(٧) أُخو عُبيْد إلى هَبَــاكل مَسْبوع

أَسْهَر إلى نَــامَت عُيون السَّرادِي

(٨) أَحاوِلْ الدّنْيا بِدَاخِلْ ومَطْلوع

بالْمــاَل وإلاَّ مُرْهَفَاتَ الحْدَادِ

(٩) كَم خيِّرٍ عانٍ لَنا شاكٍ الجُوع

حَــادِيه مِن لَوْعات الأَيَّامْ حـادِي

(١٠) لَوْمَا نَعْرفُه رَاح مِنَّــا بِمَطْمُوع

مِنْ راس مَالٍ نَجْمعُه لِلنّفَـــادِ

---

(٥) نو ، النية . نفوع ، نفع .

(٦) الجموع ، الجيش كناية عن الجيش العرمرم . الزير ، هو الطبل يدقه الحاكم القوي قبيل وقوع المعركة .

(٧) هبا ، جبن . المسبوع ، الرجل الجبان . السرادي ، الأنذال .

(٩) عان : قاصد .

(١٠) لو ما نعرفه : ولو لم نكن نعرفه سابقاً .

عفو واباء وشمم

وقعت الحادثة عام ١٣٠١ هـ على وجه التقريب

تعتبر من أروع حوادث العفو قصة « نيف بن حيمر بن قشعم » مع « عجب بن عجبة » وكلاهما ينحدران من فخذ واحد وقبيلة واحدة يجمعهما الجد الأدنى الذي تتفرغ منه هذه العشيرة وهو المدعو « جعفر » فيقال للعشيرة آل جعفر[1] ولا يقل عدد نفوسهم عن ٧٠٠٠ نسمة ويشملهم اسم قبيلة شمر « فعجب بن عجبه » وقع منه اعتداء جره الى ان قتل أخا « نيف » ثم هرب القاتل من بلاده نجد والتجأ الى رؤساء عشيرة شمر (الجُرْبان) الذين يقطنون جزيرة الفرات الواقعة جنوب العراق وقد علم نيف ان صاحبه التجأ الى هذا الموضع فتبعه قاصداً ان يأخذ منه الثأر وبقي يتحين به الفرصة وقد كان القاتل حذراً جداً ، ومن اساليبه التي يخادع بها عدوه هو انه يتظاهر بأن يبيت في بيته أو في مكان ما والواقع انه لا يبيت في بيته ابداً ولا يبيت في مكان يعرفه احد قطعياً خوفاً من سطوة خصمه ، هذا وقد كان عدوه يسبر غوره ويتتبع حركاته ليأخذ

---

(١) الجعفر هم فخذ من عبدة من قبيلة شمر وابن عجبة من فخذ يتفرع من الجعفر يسمى الخليل ونيف من فخذ يسمى القشعم والاصل واحد .

ثأره منه، وفي ذات ليلة من الليالي نظر اليه عدوه عندما دخل بيته في اول الليل، ولكنه تركه ليهجم عليه اذا نام الناس آخر الليل غير انه خدعه في عمليته هذه لأنه دخل من امام البيت تمويهاً له وخرج حـــالاً من خلاف البيت بصورة خفية مسرعة، أما البطل فهو لا يعلم ذلك، فلمـــا انتصف الليل هجم على عدوه ولكنه عندما أراد تنفيذ العمل لم يجد احداً في البيت فاتضح له خطأه وقد انتبهت زوجة القاتل وصاحت بصوتها فانتبه العرب بعد ان فر العدو هارباً، امـــا ابن عجبة فقد رأى أن من الحزم والحذر ان يرحل عن هؤلاء العرب الذين عرف خصمه موضعه عندهم، لهذا نزح عنهم ونزل بجوار ابن عبيد رئيس عشيرة (الدُّلَيم) ولم يكن ابن عبيد أقدر على حمايته من الجرباء بل ربما أن الجرباء اعظم هيبـــة في نفسية «نيف» من ابن عبيد ولكن القضيـــة اصبحت قضية تمكن من الاختفاء، لهذا يرى ابن عجبه انه يستطيع أن يواري نفسه عند ابن عبيد اكثر من اختفائه عندما كان عند الجرباء على اعتبار ان عدوه الآن سبر غوره وعرف أنه عند عرب الجرباء. هـــذا وقد استعمل ابن عجبه من الحزم والحذر على نفسه اكثر مما كان يستعمله عندما كان عند الجرباء حتى انه لا يأتي بيته الا في لحظات خفيفة معينة، واذا شاء أن يواقع زوجته لا يواقعها الا بعد حين من الدهر، واذا خطر على باله هـــذا الأمر دنا من حليلته وهو كالمطرود، وقد كانت قرينته فتاة جميلة، وقد ذكرنا عن نفسية

العربية انها دائماً لا تنظر للرجل إلا من جانب واحد وهو جانب البطولة والرجولة فإذا تخلى عن هذه الناحية زهدت به ، وقد كانت حليلته تعرف بعلها أنه شجاع فيما سبق ، ولكن حركاته الأخيرة أخلفت ظنونهـا به ومعرفتها إياه السابقة ، لهذا قالت بنفسها لا بد من أن أسأله عن السر الذي جعله جباناً الى هذا الحد ، بعدما كان شجاعاً جريئاً . فسألت بعلها قائلة: « أراك بلغت من الحذر والخوف من سطوة عدوك الأمر الذي سوف يجعلني أزهد فيك آخر الأمر » .

كان هذا الحديث من قرينة ابن عجبه في ساعة متـأخرة من الليل وفي الحين الذي دنا منها ليواقعها ثم يهرب كالمعتاد ، أجابها بعلها : « انا لست جبانـاً ولكني اعرف شجاعة عدوي « نيف » الذي لا يبيت على الضيم ولو انك تعرفينه كمعرفتي إياه لعذرتيني في كل ما يبدو مني من الحذر ولحكمت لي بالشجاعة الخارقة - ثم واصل كلامه - وقال: «أجل فلو لم أكن شجاعاً الى آخر حد الشجاعه لما استطعت أن أحرك غريزتي الجنسية وأنا أعلم أن نيفاً يطالبني بدمي » هذا وقد كانت هـذه المحادثة بين الزوجين بمسمع من (نيف) وقد كان مختبئاً تحت رواق البيت وهو منه قاب قوسين أو أدنى ؛ ولكن البطل عندما سمع هذا الاعتراف من خصمه له وهذا الإذعان قفز من تحت الرواق وشهر سيفه وصاح بخصمه قائلاً : « يا فلان اقسم لي بالله انك قلت هذا الحديث عن اعتقاد لا عن خديعة منك لي ظاناً

اني قريب منك فاردت بذلك ان تخادعني لأعفو عنك فيما اذا أسمعتني هذا الحديث » اندهش الرجل واقسم له بالله انه لم يتحدث إلا بما يعتقده كما أكد له منطقياً أنه ليس من المعقول بأن يعرفه بهذا القرب منه ويكون عنده من الصبر والأناة والتفكير ما يجعله يتكلم بهذا الكلام، وأوضح له بأن ماسمعه من شهادة بحقه ليس إلا جواباً منه لزوجته التي تحدته ، وأراد أن يقنعها بما هو ثابت لديه ثبوتاً واقعياً . اجابه البطل: « اذهب فاني قد عفوت عنك طالما انك معترف ببطولتي وخائف من سطوتي ومحترم شخصيتي » أجابه صاحبه قائلاً « انه من كمال عفوك أن تقبل مني الدية حتى اكون مطمئناً على نفسي فيما بعـــد أي من بعض عشيرتك الأقربين ، لأني اذا دفعت لك الدية اصبحت مرتاح الضمير من الناحية العرفية والشرعية » . أجابه نيف « اني اقبل منك الدية على اساس ان تطمئن وتأمن ، لا رغبة فيها ، والطريقة التي ترى بها راحة نفسك افعلها وانا انفذها لك . » فقال ابن عجبـــه : « اريد ان تتفضل علي بقبول الدية » . فدفع الدية وانتهى الأمر الى العفو [1] .

---

(١) القصة مشهورة .

يعفو وهو بأشد ما يكون من الغضب

قصة خلف[1] المفرح الملقب بالضابط وقعت عام ١٣٣٨ هـ

حدث نزاع بين ابن عم خلف شقيق ابيه المدعو محمد بن مفرح و بين فرد آخر من نفس القبيلة وكانت النتيجة أن قُتل محمـــد ابن عم خلف بيد منازعه .

عندما شعر القاتل أن رصاصة مسدسه اصابت من محمد مقتلاً ضاقت به الأرض واسود في وجهه فضاء الدنيا خوفـــاً من سطوة ابن عم القتيل المدعو خلف . (ولا لوم على القاتل فيما اذا دخل قلبه الرعب واشتد بـــه الخوف فان خلفاً ذو سطوة قوية وقناة لا تلين ، لا يهتك لـــه جوار ولا يبيت على الضيم) .

ماذا يفعل القاتل ؟ وكيف ينجو بنفسه ؟ أيستجير بأحد ابطـــال قبيلته ؟ هذا هو السبيل الوحيد الذي يلجأ اليه ، وحـــاول أن ينفذ هذا الخيال . ولكن من اين له ان يطمئن من صولة خلف الذي يعلم مدى

---

(١) هو من قبيلة القرويين وقسم من هـــذه العشيرة يقطن قرية بقرب بلدة منبج التابعة لقضاء مدينة حلب في سورية والقسم الآخر موجود بقضـــاء الرقة المدينة التي تقع شمال شط الفرات كما يوجد فرع من هذه العشيرة يقطن مع عشيرة الولد الفدعان الذين هم من قبيلة عنزة وخلف هـــذا الآن هو ساكن مع عشيرة الفدعان . ويعتبر كفرد من هذه القبيلة .

إقدامه وبطولته فهو لا يأمن على نفسه أن يقتله خلف ولو كان عند مجيره .

لقد فكر طويلاً بالتماس المخرج فلم يجد له منفذاً . ولكن خطرت على باله فكرة غريبة وهي أن يلوذ بجوار خلف ذاته .

فر القاتل مسرعاً والقى نفسه في بيت خلف وتوارى في قاعة البيت هذا ، وخلف لم يبلغه مقتل ابن عمه ولم يدر بذلك الى ان دخل البيت ليلاً فوجد شقيقته تنوح وتندب بالويل والثبور[1] واطفالها الأيتام يبكون لمصرع ابيهم .

انزعج خلف من منظر اخته واطفالها المحزن فصاح بأخته وسألها عن كنه أمرها .

الأخت ـ ابن عمك قتله فلان .

خلف ـ أين ذهب القاتل ؟

الأخت ـ لا بد من أن يكون استجار بأحد زعماء العرب .

خلف ـ ومن الذي يستطيع أن يجيره مني ؟ اخبريني يا اختي عن هذا الشقي الذي تمادى به غروره إلى ان يجير مجرماً قتل ابن عمي وأثكل عمي[2] الشيخ ؟

---

(١) هي شقيقته من ناحية وقرينة ابن عمه المقتول من ناحية اخرى .

(٢) لم يكن لعمه المسن ذرية ولا ولد قط غير الفتى المقتول .

كان هذا الحديث على مسمع من القاتل وكان له وقع في قلبه أشد من وقع السهم . هب خلف ليأخذ بندقيته وهو لا يملك من شعوره شيئاً ، ولم يكن نصب عينيه سوى القبض على القاتل .

أخذ بندقيته وتوشح بعتاده وأراد أن يخرج وإذا به يطأ بقدمه جثة شخص ملقى على الأرض .

خلف - من هذا ؟

القاتل - « امرؤ لائذ في حماك لا يعلم من يجيره سواك ».

خلف - أأنت فلان قاتل ابن عمي ؟؟

القاتل - نعم قتلته في ساعة الغضب التي كثيراً ما يفقد فيها المرء صوابه . وأما الآن فقد عاد إلي رشدي ، وإني لأتمنى أني المقتول لا القاتل خوفاً من صولتك وخشية من سطوتك ، لهذا ما وسعني ان استجير عنك بفرد من ابطال قبيلتي لعلمي انه لن يجبرني من عقابك احد ، فاقض ما انت قاض . »

وجم خلف عن الكلام قليلاً كالمغمى عليه ، ثم أفاق فصاح بمستجيره : اذهب فقد عفوت عنك ، وابتعد لئلا يأتينك عمي فيقتلك .

القاتل - لا استطيع القيام فقد خارت عزائمي من شدة خوفي منك .

خلف - إذن سأحملك على فرسي حتى أضعك في بيت أمير القبيلة

الشيخ مقحم بن مهيد [1]. فحمله خلف على منكبه فأركبه فرسه ومن ثم ذهب به حتى أدخله في بيت رئيس القبيلة ثم انصرف عائداً .

وما يزال البطل خلف على قيد الحياة حتى هذه الساعة التي اسجل فيها هذه الكلمات وهو يعيش عزيزاً شامخ الأنف بين قومه. اما القاتل فلم تطل مدة حياته لأن الرعب عشش وفرخ في مهجته من خلف الذي صارحه بعد ما وضعه في بيت زعيم القبيلة بقوله . « إني قد عفوت عنك الآن وعفوي هذا قد لا يدوم طويلاً فإن استطعت ان ترحل وتبتعد عني وعن القبيلة التي اسكن بين ظهرانيها فافعل فإني لا آمن شعوري ان اراك فاقتص منك لأني استطعت ان املك نفسي واسيطر عليها عندما كنت في بيتي لاجئاً ولكني اخشى ان لا استطيع ضبط عواطفي فيما إذا رأيتك في موضع غيره».

عندما سمع القاتل هذا الوعيد من البطل اصابه ذعر وساءت صحته وما زال داء الرعب يفتك به حتى فارق الدنيا وأهلها .

---

(١) يقص علي الشيخ النوري بن مقحم بأنه كان حاضراً عندما وضع خلف القاتل في بيت أبيه والنوري هو رئيس عشيرة الفدعان حالياً ونائبها في البرلمان السوري ورويت هذه القصة من الشيخ مقحم ابن مهيد كما رويتها مفصلاً من خليل ابن حاكم بن مهيد .

يعفو عن قاتل شقيقه

قصة (مقعد الدهينة) وهلال ابن عمه وقعت في سنة ١٣٤٤ هـ

تزوج هلال ابنة عمه شقيقة مقعد الدهينة وقد كان زواجه لها بدون اختيارها [1] ورضاها بصفته ابن عمها المباشر حسب العادة المتبعة وربما ان هذه الفتاة غير راضية ولا مأخوذ رأيها في اقترانها من ابن عمها هذا ما استطاعت ان تعيش معه قطعياً ولا من طريق المجاملة بل اعلنت نشوزها عنه والتجأت الى بيت اخويها الإثنين (غازي) وهو الأكبر ولكنه أخ لها من الأب فقط، اما الأخ الشقيق فهو «مقعد» وعندما هربت من بعلها (هلال) الى بيت أخويها ذهب هلال يطالب اخويها بها فحاولا ان يقنعاها لتعود الى بيته ولكنها اصرت وأبت وفضلت الموت على العودة اليه، فلما رأيا شدة إصرارها تركا سبيلها ولم يضغطا عليها.

اما قرينها هلال فقد بات في ذهنه ان اخويها هما اللذان شجعاها على النشوز فأضمر لهما سوءاً، وذهب يلتمس الفرصة التي يفتك بأحدهما هذا ولم

---

(١) مقعد هذا يعتبر من الأبطال الافذاذ وهو من رؤوس الاخوان الذين حصل بينهم وبين الملك المرحوم عبد العزيز شيء من الخلاف ومن الذين نجو من عقاب الملك وهو من رؤساء عشيرة النُّـفَـعَـة المتفرعة من قبيلة عُتَيْبَة وهو ما زال على قيد الحياة.

يخطر ببالهما ان ابن عمهما رسخت في ذهنه هذه النية السيئة لأنه لم يتظاهر امامهما بشيء من هذا القبيل، واستطاع الغادر ان يواري غيظه وحقده، حتى سنحت له الفرصة التي وثب بها على الأخ الأكبر المسمى «غازي» فأطلق من بندقيته رصاصة خرقت صدره فلقي حتفه فوراً وهرب القاتل حالاً واستجار ببيت شخص يدعى «سواري العويل» من عشيرة النفعة قبيلة كلا المتخاصمين .

حدثني «مقعد» انه عندما بلغه خبر مصرع اخيه غازي فقد رشده واختطف بندقيته ولحق بالقاتل قاصداً قتله بدون ان يفكر في القوانين العربية بشأن المستجير، ويؤكد لي انه قصد البيت الذي استجار به قاتل اخيه فلما دنا منه قابله «سواري» الذي استجار به المجرم واراد ان يحول بينه وبين هلال القاتل ولكن مقعداً لما رأى ذلك من «سواري» وضع البندقية في صدره فهرب «سواري» منه، وشاء ان يترك سبيل مستجيره لينجو بنفسه لأنه نظر الى مقعد نظرة الرجل الذي لا يملك من عقله شيئاً ولكن «مقعداً» بهذه اللحظة أُتِيَ من خلفه وطُرِح أرضاً وذهب به الى بيته وآخر الأمر انتبه من ذهوله وهدأت اعصابه وعاد اليه رشده وعلم انه لو قتله في بيت مجيره لأصبح هو المجرم، ومن ثم تقوم عليه الحجة فيما بعد ولا يجد من يناصره لأن مَنْ قتل المستجير عند العرب لم يجد له نصيراً .

أما (هلال) فقد هرب فوراً من مستجيره والتجـأ الى عشيرة الشيابين وهم من نفس قبيلة عُتَيْبَةَ، وإنما هم بعيدون عن النفعـة عرب (مقعد) وعندما علم (مقعد) بذلك ذهب الى اؤلئك العرب يحاول الفرصة التي يقضي بها على حياة القاتل ولكنه اخفق بمحاولته لأن القاتل عندمـا حرص مقعد على قتله هرب وترك (نجداً) كلها وشخص نحو الكويت وبقي وقتاً متوارياً ، لا يعلم عنه شيء ، وبعد مضي مدة من الزمن علم (مقعد) أن المجرم يسكن الكويت ولكن مقعداً الآن في شغل شاغل عنـه وذلك عندما كان مطالباً من قبل الملك عبد العزيز ابن سعود الذي يعتبره أخل بالأمن ، وقتل جنوداً من جنود حكومة الملك بوقعة تسمى « الهبكة » [1] سنة ١٣٤٨ هـ غير أن مقعداً عندما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، هناك اضطر أن يذهب الى الكويت فالعراق لينجو بنفسه من بطش الملك ابن سعود فولى هارباً الى الكويت مبدئياً وعندما وصلها سعى بدوره يتجسس على خصمه هلال ، فوجد في الكويت قوماً من عشيرته الأقربين كما أنهم ايضاً اقارب لهلال، وهم ثلاثة رهـط

---

(١) كانت هذه الوقعة في موضع يقع شمالي جبلي طي ، ذلك ان سرية خرجت من قبل الوالي على مدينة حائل فاصطدمت هذه السرية مع جنود الاخوان المتمردين على الحكومة الذين يرأس قسماً منهم فرحان بن مشهور بن شعلان والقسم الثاني يرأسه مقعد صاحب الترجمة.

وهذه اسماؤهم « دحيلان وعويض وغافل » هؤلاء كلهم من المساعيد فخذ مقعد الدهينة القريب . حدثني مقعد انه عندما وجد هؤلاء الرهط قال لهم جميعاً : أنتم الآن علمتم بوجودي قبل أن يعلم هلال ولكنني اقسم لكم بالله لئن غابت شمس اليوم قبل ان تأتوني به لأجري عليكم العقاب الذي أنوي تنفيذه بهلال . قالوا له : وكيف يكون ذلك؟ قال : سأتوارى في بيت احدكم وانتم تأتون به كأنه مدعو عند صاحب هذا البيت . فتم الاتفاق بينهم على أن يخدعوا الغادر[1] وفي آخر النهار أتى الثلاثة ورابعهم القاتل ولا زالوا يسيرون سوياً حتى دنوا من البيت فلما ادخلوه من الباب اشعروه بالحقيقة وأفهموه انهم مرغمون على هذه العملية[2] فعند ذلك لا يعلم اين يذهب فلاحول له ولا طول ، فدخل على عدوه الذي لم يكن بينه وبين قتله إلا رؤيته له وتمكنه منه . فطرح هلال نفسه بين يديه وجثا على ركبتيه ويديه ينتظر عدوه أن يبتر عنقه ولكن عدوه كان اكرم منه نفساً وأوصل رحماً وأطهر قلباً وأعف يداً فعفا عنه .

(١) اظن ان هؤلاء الجماعة الذين في الكويت اقرب عصبية لمقعد من القاتل هلال فلو لم يكن ذلك لما فعلوا عمليتهم هذه .

(٢) عندما وصل مقعد الكويت لم يكن بمفرده بل كان معه بعض من بقية عصبيته الذين حاربوا الملك معه .

عندما رأى هلال أن مقعداً عفا عنه طلب منه أن يتفضل عليه بوثيقة يكتبها له لتكون على ما يزعم شهادة له فيما لو اتاه فيما بعد ابن مقعـد ، فأجابه مقعد : لا حاجة لك بهذه الوثيقة لأن أخي الذي قتلته ليس له من العصبية الذين يطالبونك بدمه أقرب مني ، وابني الذي لم يتجـاوز الآن السنتين من عمره . ويقول مقعـد إني اكدت له أن ابني لن يبلغ عمر الرجولة إلا وانت على احد امرين : إما أن تكون ميتاً او تكون هرماً على اعتبار ان عمرك الآن ستون فأكثر فإن يكن ابني كريماً عندمـا يراك هرماً فإنه سوف يعفو عنك ويترك سبيلك ولو لم يكن معك مني وثيقة ، وإن كان ابني دنيئاً قاصر مروءة فلو اعطيتك وثيقـة من عندي فليست هذه الوثيقة منجية لك من شره .

ومن الجدير بالذكر ان ابن مقعد المدعو (غازي) المسمى على اسم عمه المقتول ، هذا الفتى قد ساقـه القدر لزيارة الكويت بعد مضي عشرين سنة على الحادثة فوجد هلالاً قاتل عمه في تلك البلدة ، وجده شيخاً هرماً قد انحنى ظهره وفقد بصره وبقي هيكلاً أجوف ألمت به شتى المصائب [1] :

---

(١) يروي لنا التاريخ ان احد السلف الصالح رآى شيخاً هرماً يتكفف الناس فقال : ضيـع الله في شبابه فضيعه الله في هرمه فلو حفظ الله في شبابه لحفظه الله في هرمه . اي لو حفظ حدود الله في صباه لحفظه في شيخوخته.

(٢) رويت هذه القصة من بطلها مقعد .

هرم وغربة وفقد بصر وفراغ ذات يد ، فلما رآه الفتى بهذه الحالة اخذته الرحمة والعاطفة العصبية فآواه عنده مدة اقامته في الكويت واحسن اليه وعندما فارقه سلمه مبلغاً يستعين به على نوائب الدهر[٢] .

اكرام بعد عفو

قصة عُقْلَي بن غمور وصاحبه وقعت في سنة ١٣٥١ هـ

وشى صاحبه به عند ولاة الأمر فألقت الحكومة السعودية على عقلي القبض وسجن في مدينة الرياض وقد تأكد وهو في سجنه ان الواشي به صاحبه فلان فبعث له من سجنه يهدده بالعبارات الآتية :

« أنا لست مؤبداً في السجن وسوف اخرج ولو بعد حين ولكن بعدما اخرج فليدافع عن نفسه ما استطاع . واقسم عقلي[١] على نفسه بأنه

(١) عقلي من قبيلة شمر من الويبار من عبده ،وهو شجاع وشهم وجم المروءة الى ابعد حد ، ولقد الجأتني ظروف خاصة فاضطررت ان اقطن عند الويبار الذين هم فخذ الرجل ، واكثر شيء اعجبني من اخلاق البادية هو تقديرهم لصاحب الفضيلة . فهم لا يقيمون وزناً لصاحب المادة اذا عري من مكارم الاخلاق مهما بلغ من الثروة ، وبما ان صاحب الترجمة رجل لا يوجد عنده من الماشية لا ثاغية ولا راغبة اللهم الا الشيء الذي لا يذكر ورغم اعدامه هذا فان افراد عشيرته بصورة عامة يرون له من الحرمة والتقدير الشيء الذي يثير الاعجاب ، وهذه خلة مع الأسف محروم من تنفيذها الكثير من المدنيين الذين لا يرون للانسان قيمة الا بقدر ما يناله من ثروة ملفقة ومظهر براق .

سينتصف منه ولا يتركه حتى ولو علم انه عندما يشفي غيظه منـــه بأن الحكومة ستعاقبه بالموت » .

تبلغ صاحبه هذا التهديـــد من عقلى فاهتم له ولكن لم يبلغ به الاهتمام الحـــد الأكبر وذلك بحكم سجن الحكومة الحائل بينه وبين صاحب الوعيد.

ومضت ايام واذا بالسجين يطلق سراحه بريئاً ولم يثبت لديه أية تهمة تدينه وحالما بلغ صاحبه خروجه من السجن ضاقت عليه الدنيا بأكملها ، فلا يرى نصب عينه ارضاً تقله ولا سماء تظله، وخير وسيلة يلتجيء اليها هو انه التجأ بعقلى من سطوة عقلى ،فلم يشعر حتى دخل الرجل بيته ولاذ بجانب الرواق ومن ثم صرخ صائحـــاً اني مستجير فأجرني يا عقلى ، فقفز عقلى والسيف مشهور بيمينه مجاوباً للمستجير بهذه العبارة « ابشر فقد اجرتك من كل معتد » فيجيبه المستجير انا فلان ابن فلان جئت هارباً من سطوتك خائفاً من عقابك لم أجد من العرب من يجيرني عنك ولقد ضاق بي فضاء الدنيـــا عندما تبلغت وعيدك وها أنذا لائذ بجوارك خشية من سطوتك.

بعدما سمع عقلى هذا الحديث الذي جابهه به ضيفه اغرورقت عيناه من أثر هذه العبارات وندى جبينه حياء وتهلل وجهه سروراً وطرباً وذهب يقبل مستجيره ويضمه الى صدره ويلاطفه بكل هدوء وبشاشة وعلى الفور ذهب واستحضر كبشاً من الضان وذبحه له ودعى على شرفه كبار قومه وأعيانهم .

يعفو عن قاتل ابيه بعدما تمكن منه

قصة (مذهان بن شنان بن غافل)[1] مع (سمران العود الشمري)[2]

وقعت في شهر رمضان عام ١٣٥٦ هـ

ذهب نفر من قبيلة (الفدعان) قاصدين غزو قبيلة (شمر الفرات) فانصبت غارتهم على إبل احد فرسان القبيلة الشمرية المدعو (العود الخريصي) وحمي الوطيس بين الفريقين وكانت الغلبة للعود الخريصي ، فقد شاء القدر أن يُقتل «شنان بن غافل» بيد «العود» .

وكان للمقتول ابن دون العاشرة من عمره عندما قتل والده . ومضت السنون وبلغ الفتى الحلم ، وشب وهو لا يحلم بشيء سوى الأخذ بثأر

رويت القصة السابقة عن نايف الهباس بن هرشان ونائف ابن عم عقلي صاحب القصة وقد توفي عقلى بعد طبع الكتاب الطبعة الأولى .

(١) **«مذهان»** من الفدعان من قبيلة عنزة وهو ابن غبين الذي كان لأسرته رئاسة قبيلة الفدعان سابقاً .

(٢) العود كنيته اما اسمه فهو (سمران) وهو من عشيرة الخرصة المتفرعة من قبيلة شمر .

ابيه . اما القاتل فقد بلغه الخبر ان مقتوله خلف مولوداً مثـــالاً في البطولة والاقدام ،لهذا بات عنده من الحزم ما جعله يهتم ويحرص بأن لا يدع لخصمه اليه منفذاً فيتسلل منه اليه ويغتاله غدراً . ولكن كما ورد في المثل العربي «لا ينفع الحذر إذا حكم القدر»

لقد ظل الفتى يسبر غور قاتل أبيه ، وينقب عنه ، وما فتىء يتعقب حركاته وسكناته حتى ساقه القدر اليه وهو راقد في مضجعه . ولم يشعر القاتل حتى جثم خصمه عليه وتمكن منه بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

حالما ظفر الشاب بقاتل ابيه وضع المدية على عنقه وقبل ان يحز رأسه صاح بوجه خصمه : أتعرف من أنا ؟ فأجابه : ألست مذهان بن شنان ؟

الفتى : بلى . ولكن شتان بين قتلي لوالدك وبين قتلك إياي الآن . أما والدك فقد غزاني عند أهلي وأراد نهب إبلي وقتلي فدافعت دون مالي ونفسي حتى قتلته وجهاً لوجه ، لم اغدره ولم اعتد عليه كما اعتدى عليّ هو وكما اعتديت عليّ انت؟ والآن ! أيها الفتى لقد مكنك الله مني فان قتلتني فاني أرجو أن اكون شهيداً في شهر رمضان المبارك ، وإن عفوت واحسنت فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الفتى : بل عفوت . فاذهب عتيقاً لوجـه الله وارجو أن يقبل الله عملي هذا كثواب لروح والدي المرحوم .

العود : أرجو أيهـــا الفتى الكريم أن تتفضل علي بقبول الدية كما تفضلت علي بعفوك عن دمي .

الفتى : ليست الدية أثمن عندي من دمك فكما اني عفوت عنك فمن العار أن أرضى شيئاً من المال بدلاً عن دم والدي .

ذهب الفتى الى اهله وهو مرتاح الضمير وخال من الهم لاعتقاده أنه قتل خصمه. وهو فعلاً قد قتله معنوياً لأن القتل في عرف اصحاب النفوس الكريمة الأبية ليس هو إراقة الدم ، وإنمـــا هو ما اشار اليـــه الشاعر معروف الرصافي في البيت الثالث من هذه الأبيات :

تزود من الحسنى بمـــا أنت قادر
عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
واحسن إلى من قد أساء تكرماً
وإن زاد بالاحسان منـــك تمردا
وحب الذي عاداك إن رمت قتله
فـــإني رأيت الفضل أقتل للعدى

أقول : لقد قتل العنزي الشمريّ بفضله واحسانه وعفوه لا بسيفه . ترى لو قتله الفتى وشفى غيظه وحقده أكنا نسجل له في سجل شيم العرب

هذه المفخرة التي ستبقى له خالدة مدى الدهر الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ؟ إذن فقد ربح الفتى ربحاً معنوياً بعفوه عن خصمه) .

بعدما وصل الشاب الى اهله عائداً من مغزاه ، اقتاد الشمري فرساً اصيلة صفراء [1] وقدمها للفتى مذهان الذي اعتق رقبته ، وذلك دلالة على بياض وجه الفتى . وهذه عادة متبعة من عادات العرب ، فان فاعل الجميل يشاد بذكره ويعلن مجده بعلامة تكون بيضاء يطاف بها على أندية العرب ومجتمعاتهم .

وهذه الفرس كل من يراها يعلم انها عنوان مجد فعله الرجل المقدمة اليه . وعلى هذا الاعتبار قبلها الفتى . والجدير بالذكر أن من عفا ومن عفي عنه حيان يرزقان الى هذه الساعة التي كُتبت فيها هذه الأسطر [2] .

---

(١) أي بيضـــاء ، لا يقال للفرس البيضاء في اصطلاح العرب المعاصرين إلا صفراء .

(٢) القصة مشهورة .

فصل

في عفة نساء العرب واخبارهن

مهداة للفتيات العربيات

قصة كنعان الطيار[1] مع ابنة عدوان بن طوالة وقعت بين ١٢٢٢ و ١٢٣٠؟ هـ

كان لعدوان فتاة وهبها الله قسطاً وافراً من الحسن الفاتن مع جاذبية رائعة ، وكان الطيار ينظر اليها بعين العشق والغرام ويحرص على ان يجد الساعة التي يخلو بها ليشعرها بما يختلج في نفسه من مودة لها وغرام ، ولكنه طالت عليه المدة ولم تسنح له الفرصة التي يتمكن بها من الوصول الى هذه الفتاة التي سحرته بحسنها ، وما زال الطيار يترقب الفرص بها حتى تيسرت له بكل سهولة ، وذلك بعدما رحل عرب الفتـــاة عن منزلهم الذي كانوا يقطنونه من قبل وهم في مسيرهم هذا قاصدون المنزل الاخر الذي يكون أخصب نباتاً لماشيتهم ، هناك تذكرت الفتاة حاجة من حوائجها نسيتها في الموضع الذي رحل عربها منه فرأت انه بإمكانها أن تعود الى المكان وتأخذ

---

(١) كنعان الطيار رئيس عشيرة ولد علي من بني وهب من قبيلة عنزة امـــا عدوان بن طوالة فهو رئيس عشيرة الاسلم من قبيلة شمر .

حاجتها التي نسيتها ،ومن ثم تلحق بعربها قبل أن يحطوا رحالهم في المكان الذي يقصدون الحلول فيه .

لقد عادت الفتاة مسرعة الى منزل اهلها السابق ، فعندما وصلت اليه أناخت راحلتها وعقلتها وذهبت تبحث عن ضالتها وفي هـــذه اللحظة رفعت طرفها خلفاً فرأت فارساً مدججاً بسيفه ورمحه متجهاً اليها بالذات، فرفعت طرفها ثانية لتتحقق عن هذا الرجل القاصد لها بهذا المكان الخالي ، ظانة في نفسها : ان والدها أو أحد اخوانها دفعه وازع الشفقة والغيرة فلحق بها .

هذا ما كانت تظنه الفتاة بالفارس في أول الأمر ، ولكنه بعدما دنا منها أبصرته ، واذا هو اجنبي لا عن اسرتها فقط ، بل عن عشيرتها .

إنه كنعان الطيار العنزي الذي لا يمت لهـــا بأية صلة من صلات النسب .

الآن انقلب ظنها الحسن الى ظنون السوء ، وما هي الا لحظة وجيزة حتى أقبل الفارس يلقي عليها تحيته المعسولة ، وفي هذه التحية منتهى التغزل والغرام ، وقد بادلته الفتاة تحية كان فيها من الغنج والرقة مـــا يلهب غرام

لست ادري مـــا هي الاسباب والعوامل التي جمعت بين الطيار الذي يرأس احدى قبائل عنزة وبين ابن طوالة الشمري رئيس عشيرة الاسلم . لا بد ان هناك اسباب جمعتها ؟؟ وإلا فإن اجتماعها مستحيل ، بحكم ما بينها من عداوة .

الطيار ويزيده اشتياقاً ويجعل نفسه تحدثه بنيل مناه من هذه الحسناء بكل سهولة[1] فدنا منها أكثر مما كان . فأبدت له جانباً من اللين والهدوء والسماحة الشيء الذي زاده طمعاً بها .

بعد ذلك حدثها بلهجة العاشق المتفاني بغرامه ، فأبدت له انها تكن له من المودة والعشق اكثر مما يتصوره ، بعد هذا التصريح الذي سمعه من معشوقته ، لم يبق عنده من الصبر شيء الا أن يقرب منها ليقبلها وتبادله بالمثل ، فدنا منها باندفاع وذهول ،فلما رأت ذلك منه أجابته قائلة « يجب أن تعلم اني لم أعد راجعة من العرب وأنفرد وحدي عن اهلي إلا من أجل مودتي وغرامي بك ذلك جعلني اضحي بعرضي في سبيلك ، وها أنا الآن على أكمل الاستعداد بأن اسلمك نفسي ولكني أخشى شيئاً واحداً هو أن ينظر الينا أحد من عربنا فتكون الفضيحة على الإثنين ، وعلي أنا اكثر مما هي عليك ، لأن عقابي من أهلي ليس كعقابك والفضيحة علي ليست كالفضيحة عليك ، فأنا عقابي القتل وإن لم أقتل فلا أجد من يتخذني له زوجة من شباب العرب مدة حياتي ومعنى ذلك أقتل قتلاً معنوياً ، وهذا

---

(١) ولا غرو من لين حديث هذه الفتاة وما ابدته من غنج لأن النساء الشمريات مشهورات بلين العريكة وسلاسة اللفظ فأصبح الأمر طبيعياً لا يستغرب من النساء اللواتي منهن هذه الفتاة ولا سيا صاحبتنا . تعمدت هذه اللباقة حتى توهم الطيار وتخدعه لتتمكن منه في تنفيذ مكيدتها التي حاكتها له .

أخف الخطرين » .

الطيار : « ما هو رأيك إذن ؟ »

الفتاة : أريد أن تركب فرسك وتمد بصرك جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ولا ترجع حتى ترى الصحراء خالية من الناس الخلو الذي يجعلني اطمئن على نفسي وعليك ، فاذهب انت على ظهر فرسك وأنا ههنا انتظرك وأنظر الى حركاتك فإن رأيت أحداً من العرب أقبل علينا فافعل اشارة من عندك لأركب جملي ويكون الوعد بيني وبينك غداً فيما اذا رحل العرب فإني سوف افعل الك كما فعلت اليوم ، وإن لم تر احداً فعد تجدني في انتظارك ».

الطيار : هذا هو الرأي السديد .

وعلى الفور ركب فرسه وذهب ينظر الى الجهات الأربع ، ثم يعود كرة فينظر اليها فيجدها جالسة تتحرى الاشارة منه ، فلما عاد بدون ان يشير اليها بشيء حسب التعاليم المتفق عليها بينهما ، عند ذلك ايقنت انه الآن لم يكن بين عينيه عدا مفاجأته ونيله من عرضها . فرأت ان تخدعه اكثر مما سبق حتى يؤمن بصحة ما تدعيه له من محبة وغرام . فبدأت تتحسن له وتكحل عينيها وتلبس أجمل ما عندها من الثياب .

فلما دنا منها ووجدها بهذه الصورة متجملة ولابسة ألبستها الجميلة ،

لم يكن عنده الآن ادنى شك من صحة عشقها إياه ومودتها له ، فقد اعتقد انها صادقة بكل ما قالت ، وسيصدقها الآن بكل مـــا تقوله ، أقبل عليها بفرسه ، كما انها قابلته ماشية تحييه كما تحيي الوالدة الرؤوم ابنها البار ، فلما قرب منها صاحت : « بشرني يا بعد حيي وميتي و يا خلف أمي وأبي » عساك ما رأيت احداً يكدر صفو عشقنا [1] .

الطيار : ابشري انني لم أر أي انسان وإن الصحراء خالية من العرب مرة واحدة .

الفتاة : هذا ما أتمناه يا بعد هلي [1] ولكنني لست مطمئنة ولا هو بمرتاح ضميري إلا أن اذهب بذاتي وانظر بعيني اللتين اثق بجودة نظرهما الى ابعد حد [2] .

---

(١) هذه الجمل قليل ان ينطق بها من نساء العرب غير النساء اللواتي من قبيلة شمر ومعنى قولها « يا بعد حيي وميتي » اي فديتك بالاحياء من عشيرتي والأموات ، وقولها « يا خلف امي وابي » اي جعلت لك في المحبة والوداد والمنزلة في قلبي ما يفوق محبة امي وابي.

(٢) اي فديتك بأهلي .

(٣) لقد كانتا عينا الفتاة يشفعان لها فيما تدعيه امام معشوقها المخدوع فهو لا يشك ان هاتين العينين الساحرتين يريان من المدى البعيد اكثر مما يراه لهذا اصبح لا يكذبها بما تدعيه من قوة نظرها كما انه لا يخامره الشك بأنها صادقة بلهجتها لأن تغنجهـــا له وكلماتها المعسولة وتجملها كل ذلك كان شافعاً لها بتصديقه إياها .

الطيار : لا بأس من أن تذهبي وتنظري بنفسك لتطمئني اكثر .

الفتاة : اعتقد اني اذا ذهبت ماشية على اقدامي لا استطيع ان اتمكن من رؤية البعيد كتمكني منه اذا كنت راكبة إما جملي أو فرسك ثم استدركت الحديث وقالت : لا شك انني اذا ركبت جملي لا أتمكن من العودة عليه مسرعة كتمكني فيما لو ركبت الفرس .

الطيار : بل اركبي فرسي وسأحملك على ظهرها بكل ممنونية .

الفتاة : لا اريد أن اكلفك بحملك إياي على الفرس يا نور عيني فاني باستطاعتي أن اركب الفرس بكل سهولة [1] .

الطيار : تفضلي اليك الفرس وها انا بانتظارك .

تناولت الفتاة زمام الفرس فوثبت عليها ولما استقرت على صهوتها نزحت عنه قليلاً ، حتى أيقنت انه لا يستطيع ان ينالها بسوء ، هناك صرخت به : « يا للفاجر الغادر » ومـا زالت تصب عليه وابلاً من الكلام القارص .

الطيار : هذا هو ما اعتقده بك يا ابنة عدوان ، فكوني على ثقة أني لم آت اليك قاصداً أن انال من عرضك كما تبادر لذهنك مني الآن .

---

(١) اغلب نساء العرب يحسن ركوب الخيل خاصة بذلك العهد لا سيما بنات الفرسان كهذه التي لا يخلو بيت ابيها من عشرات الجياد .

الفتاة : وهل من المعقول أن لك قصـــداً آخر سوى قصدك السيء الذي ظهر لي منك سافراً جلياً ؟

الطيار : نعم ان قصدي الاساسي هو امتحـــان عفتك ، ذلك أني مصمم على أن اخطبك من اهلك ، واتخذك قرينة لي ، وليس الاقتران بالأمر السهل ، بل انه عنوان سعادة المرء في الحياة ، أو مدعاة لشقاوته وتعاسته ، ولما كنت فتاة قد توفرت فيك مجد الأب وأصالة الخال وعراقة الاسرة والحسن الكامل فإن هذه الأمور الحيوية لا شك انها مظهر ايجابي وعنوان جذاب لرغبة الفتى الذي تحدثه نفسه بالزواج من فتاة ما ، ولكن هذه العوامل الايجابية التي قـــد توفرت بذاتك ، فهي وان كانت مغرية لبعض من الشباب ، فاني امرؤ غيور ،أبي ، لا اكتفي بذلك فقط ، بل اني علاوة على ذلك أطلب مـــا هو أنبل منها ، الا وهي العفة التي هي اسمى وأشرف سجية تتصف بها الفتاة لأنها المحور الاساسي الذي يترتب عليه حفظ النسب ، والعفة طبعاً سجية كامنة في الخلق لا تتجلى ولا تبرز إلا عند الامتحان ، فان وجدتك على ما اعتقد ، رضيتك لنفسي حليلة وخطبتك من اهلك ، فإن اخلفت ظني نبذتك ، وحذرت عنك كل فتى يمت إليّ بصلة نسب أو صداقة .

الفتاة : هب اني اخلفت ظنك ، أما تخشى ان يسلط الله على محارمك

من يهتك اعراضهن عقوبة لعملك، ويفضحهن عند رجال الحي كما شئت أن تفعله معي الآن .

الطيار : لك ان تفعلي معي ما شئت من التوبيخ الأدبي فانه لا يهمني ذلك طالما اني وجدت بك ضالتي التي اصبو اليها .

الفتاة : لاحديث لك معي الآن قطعياً واني لذاهبة الى أهلي .

الطيار : اتقي الله لا تخزيني بين قومي .

الفتاة : أقسمت بالله بأني لن اتنازل عن شرفي وكرامتي بل اني سوف أذهب إلي أهلي وأخبرهم بما تم من أمرك معي وهذه فرسك شاهدة عليك ، اللهم إلا أن تركب جملي وتحل محلي في الهودج ، فان فعلت ذلك ربما أنظر في أمرك فيما بعد » . وأخيراً ركب الفارس جمل الفتاة ودخـل في وسط ظلتها [١] لا حول له ولا طول .

هذا وقد ظل الفارس تحت رحمة الفتاة ، يستنجد برحمتها تارة ويطلب منها ان تستره ، طوراً آخر ، وبالتالي عفت عنه، بعد ان اعلن عجزه وقلة اقتداره، كما أنه اعلن ثناءه عليها وأشاد بمدحه وثنائه على والدها ولعـل

---

(١) الظلة هي الهودج أي مركب يوضع فوق ظهر الجمل والمراد به مجموعة من العصي تحنى ويجعل فوقها ستار من القماش النسائي المقصود انه مركب لا يحل فيه ولا يركبه إلا النساء الفتيات .

الأبيات التي ارتجلها الطيار عندما كان في الهودج ، هي بلا شك أوضح صورة ناطقة عن واقع أمره مع هذه الفتاة فتدبر معي قوله :

١) يا الله يافرّاجْ يا والَ الأَفراجْ

يَاللّي غنيْ والنّاسْ ببـــابَكْ مَحاويجْ

٢) تَفْرِجْ لِمَنْ كِنّهْ بحقٍ من العاجْ

مُتْحيرٍ ضـــاقت عليه المنـــاهيجْ

٣) عِزّي لمن خلّنْهَ البيضْ مِسْهَاجْ

رَكْبَتْ جوادي وارْكَبَتْني هْجَيهْيجْ

٤) يا بِنْتْ من هو باللّقَا يَلْبَس التَّاجْ

إنْ حـــلْ بالرَّبعَ الْمقفّينْ تَزْعيجْ

٥) ما كولها الحنْطَهْ على صالي الصاج

ومشروبهـــا دَرّ الْبكَارَ الهجَاهيجْ

---

(١) يا والي : يا من بيدك . محاويج : محتاجين .

(٢)الْحُقّ: الصندوق .

(٣) عزي: ما أكبرها مصيبة . خلنه : تركنه . مسهاج : مهزلة . هجيهيج: جمل صغير .

(٤) اللقاء : لقاء العدو ، إلى : إذا ، المقفين : المدبرين ، تزعيج : صياح .

(٥) الصاج : صفيحة من حديد يخبز عليها، البكار الهجاهيج: النوق الأبكار.

الشرح : قوله.(١) «يا الله يا فراج يا والي الأفراج ياللي غني والناس ببابك محاويج » يدعو الشاعر الله ويعترف له بالقدرة الخارقة على سرعة الفرج ويقول يا رب إنك الغني والناس كلهم محتاجون لرحمتك وغفرانك.

٢) «تَفْرِجْ لِمَنْ كِنّه بحقٍّ مِنْ الْعَاجْ
مُتْحَيرٍ ضَاقَتْ عَليْه الْمَنَـــاهِيْجْ)

الشرح : يقول اسألك يا الله أن ترأف بحالي وتيسر لي الطريقة التي يكون لي فيها فرج من هذا المأزق الحرج ، وهو يصف نفسه كأنه مسجون في قلب صندوق مقفل عليه . ثم يشرح فيقول : اني الآن بأتم الحيرة من أمري ، وكل سبيل أريد أن التمسه أجده أمامي ضيقاً لا مخرج لي منه. وهكذا يقصد بقوله: « مِتْحَيِر ضَاقَتْ عليه الْمَنَاهِيْجْ »

٣) « عِزّي لمن خلّنه الْبِيضْ مِسْهَاجْ
رَكْبَتْ جوَادِيْ وارْكَبتْنِيْ هجَيْهِيجْ»

بهذا البيت صور لنا الشاعر ابلغ التصوير ما وقع فيه من مشكلته العويصة فهو عندما يقول : عزي لمن خلنه البيض مسهاج ، أي ما اكبرها من مصيبة ابتليت بها حتى أن النساء ضحكن علي « ومسهاج » أي معناه أن الفتاة بعدما ركبت الفرس واركبته هودجها جعلت تمر امامه راكبة

فرسه وهو في هودجها ثم تتهكم عليه وتسخر من عقله وتوبخه ، وتارة تأتيه من امامه وطوراً من خلفه وأحياناً عن يمينه وساعة عن شماله ، « مسهاج » أي تمر تمر من عنده وقد أوضح لنا الأمر جلياً بقوله . « رَكِبْتَ جوَادِيْ وَارْكبتَنِيْ هجيهيج » يقول انها ركبت جوادي اي ركبت فرسي . فكأنها اصبحت الآن هي الفارس وقد اركبتني مع ذلك جملها يظهر أن جملها غير كبير في سنه وجسمه وذلك معنى قوله « هجيهيج » اي صغير ، المقصود ، يقول : ما أكبرها من بلية على الفارس الذي من نوعه يحل محل العذراء وهي تحل محله .

٤ « يَا بِنْت مَن هُو باللّقَا يَلْبَس التّاجْ
إلى حَـــلْ بالرّبْع اَلْمُقفّيْنِ تَزْعِيْج »

هنا بدأ الشاعر يتلطف للفتاة لأنه مرغم فهو يخشى أن تذهب من عنده على فرسه ومن ثم تفضحه عند عربه وعند اهلها وما أسوأ النتيجة فيما لو فعلت ذلك ، لهذا تجده يقول في المصراع الأول « يَا بِنْت مَن هُو باللّقا يَلْبَس التّاج » أي استريني يا بنت الفارس المغوار الذي اذا عظمت الهيجاء وحمي الوطيس لا يختفي بل يشهر بنفسه ويلبس التاج ، ولا يعني بالتاج تاج الملوك وإنمـــا يقصد بالتاج تاج الشهرة أي يلبس اللباس الذي يشتهر به بين قومه .

(٥) « مَاكُولْهَا الِحنْطة عَلَى صَالي الصَّاج

وَمَشْرُوبَهـــا دَرّ اَلْبكَار اَلْهَجَاهِيجْ »

يمتدح الفتاة ويقول : ان غذاها كان غذاء عربياً ، فهي ما تتغذى إلا بشرب لبن الناقة البكر التي لم تلد إلا مرة واحدة كما انها لا تستطعم إلا البر المخبوز على الصاج فهو يزعم أن هـــذا الغذاء يكون ادعى لنمو صحتها وتناسق جسمها . وهنا يؤكد انها ابنة أمراء بقوله « مأكولها الحنطة على صالي الصاج » لأن هذا الغذاء لا يتمكن عليه من البادية الا طبقات الأمراء بذلك العهد .

وقد كان يترنم بهذه القصيدة على مسمع منها يقصد استرحامهـــا وإطلاق سراحه وتركه وفرسه يذهب من حيث أتى .

وقد كانت عند حسن ظنه الأخير بها ، فهي ، كما أسلفنا ، تركته يذهب مستوراً لم يعلم أحد عن فعلته هذه ، وربما أن هـــذه القصة كانت جديرة أن تموت بمهدها ولا تتسرب الينا لولا المناسبات والظروف الطارئة التي كانت بلا شك عاملاً اساسياً لذيوع القصة مع قصيدتها .

هذا وقد تضاعف غرام الطيار بهذه الفتاة واصبح مشغوفاً بحبهـــا ويود أن يضحي بكل شيء ليصل اليها ، لا بأساليبه الأولى الملتوية وإنما يريدها الآن بزواج مشروع .

وقد حدثته نفسه أن يبذل الغالي والنفيس ويسوق المال والجــاه حتى يحصل على هذه الفتاة الحسناء المحصنة ، بنكاح شرعي .

وعندما هم بالفتاة بطريقة شرعية كان توفيقه بالوصول اليها اجدى وايسر بكثير ممــا سبق في الأول ، أي عندما راودها عن نفسها بتلك الأساليب الشاذة . وغاية ما كلفه الأمر من استحصالها هو أن زار والد الفتاة وطلبها منه فانكحه إياها .

وما هي إلا ايام قليلة واذا بها زوجة له ، وكانت اسعد لياليه وأسرّها تلك الليلة التي عقد له بها النكاح ومضت مــدة طويلة والزوجان بمنتهى المرح والسرور ، ولكن الأيـام لا يدوم سرورها ، ومن الأسباب التي كدرت صفوهمـا وكدرت صفو الطيار بالأخص ، ذلك أن له أخاً أصغر منه ، وكان على جانب كبير من الجمال ، وهو ساكن معه في البيت وكان بدون زوجة ، وفي الحين الذي يأتي هذا الشاب لبيت أخيه كانت ترأف به زوجة أخيه وتعتني به عناية كاملة ، وكانت هذه العناية والرأفة التي تبديها زوجة الطيار لأخيه الأصغر ، مما أثار الشك في نفس الزوج وبات عنده من الظن السيء مــا يجعله يشك أن زوجته أغراها أخوه بجماله وشرخ شبابه ، لهذا قالت له نفسه لا بد من أن يمتحنها حتى يتجلى له الشك باليقين وعندما أملت عليه نفسه هذه الخواطر ، سعى لتنفيذها فوراً ، فقد أعلن

بلاغاً على عربه ، بصفته أمير القبيلة ، بأنه في اليوم المعلوم سوف يذهب غازياً لقبيلة ما من القبائل المعادية له ٠

وعلى أثر بلاغه هذا ذهب بغزاته . وبعد أن بات ليلة وهو في طريقه مدبراً عن عربه عند ذلك اختلق حيلة على قومه وأكد لهم أنه حدث لديه أمر هام يستلزم عودته الى أهله ، وواعدهم موضعاً ينتظرونه فيه ، ثم عاد في سبيله حيث وصل عربه آخر الليل ٠

فقصد بيته ليتفقد زوجته فوجدها نائمة على فراشها وملتحفة به بشكل طبيعي ، ولم يجد عندها أدنى شيء يدعو الى الشك والريبة ، فتركها ، وذهب الى شقيقه فوجده ايضاً غارقاً في نومه[1] فاتضح عنده خطأ رأيه ، ولكنه الى الآن لم يطمئن قلبه الاطمئنان الكافي ولم يقنع القناعة الكاملة بأن امرأته بريئة من أخيه ، لهذا صمم على أن يمتحن قرينته بصورة عملية لتكون عنده أجلى لأوهامه وظنونه ، فعاد كرة اليها فوجدها

---

(١) وربما يشكل على القارىء الأمر ويتساءل عن السبب الذي جعل هذا الشاب يتخلف عن الغزاة ، فنقول ، إنه من الضروري ان يبقى عند عربه ليتولى حراسة إبل أخيه ، ليحميها فيما لو تسلل غزاة من البدو وانتهزوا غياب اخيه وقومه فشنوا غاراتهم على إبلهم ، لذلك كان تأخره أمراً لا بد منه لأن الشاب لا يقل عن أخيه بطولة ، فاذا سرحت الإبل ذهب معها على فرسه ، وحسب الاصطلاح يسمى هذا الفارس « جنباً » ٠

نائمة في مضجعها ، فدنا منها وكشف عنها الغطاء ، فانتبهت من نومها فوجدت هذا الرجل الأجنبي جالساً على طرف فراشها فصرخت : من انت ؟ اجابها بصوت منخفض « أنا فلان » مالك يا حبيبتي منزعجة ، وعلى اثر هذه الإجابة حاول ان يدنو منها ويمديده اليها ، فما وسعها إلا ان قفزت من فراشها ووثبت عليه ولطمته بذراعها على وجهه لطمة طرحته مجندلاً على الأرض، وعلى أثر هذه اللطمة اتبعته بالشتائم واللعنات الحارة ثم قالت : « لعل ما اسديه لك من جميل وولاء ورأفة كان ذريعة اتخذها الشيطان ليدخل في ذهنك اني افعل ذلك بدافع غرام بك ، ثم واصلت حديثها فقالت : يجب ان تنتبه وتعلم ان ما افعل معك من المعروف ليس إلا من أجل قريني فلان شقيقك فلولا مكانته في قلبي ووفائي له لما نظرت اليك ، كما انه لولا غيرتي عليه لصرخت بصوتي وفضحتك بين قبيلتك ، ولكن تأبى نفسي ان افعل ذلك لأن فضيحتك هي بلا شك فضيحة لأخيك وهذا امر لا ارتضيه له » .

الآن جمع الرجل نفسه وذهب عائداً الى غزاته ، (ولا اعلم هل هو غزا أحداً من اعدائه أم انه تشاءم من هذه السفرة وعاد مع سبيله واعتقد انه الى الثانية اقرب) .

يعود بنا الحديث الى الشاب المتهم البريء ذلك انه عندما اصبح

الصبح ذهب الى بيت اخيه ونادى بصوته امرأة اخيه لتناوله فطوره كالمعتاد ولكنها لم تجبه، فنادى ثانية و ثالثة ، فأجابته بالثالثة اجابة قاسية لم يسبق له أن سمع من نوعها ، فاندهش الفتى من هذه الإجابة التي لم يسبق ان اسمعته مثلها فخطا الى الامام خطوتين قاصداً القرب منها فقال : « لا بأس عليك يا ابنة عدوان، كأني ارى صوتك عليه أثر المرض أو التعب، خيراً ان شاء الله » . استغربت المرأة ان يسألها الشاب هذا السؤال وهو ، على ما تعتقده ، اعلم بكنه السر الذي جعلها تجيبه الإجابة الشديدة .

خرجت من خدرها اليــــه وهي ناوية ان توبخه وتشتمه اكثر من الشتائم واللعنات التي صبتها على صاحبها في ليلتها الماضية ، ولكنها عندما نظرت الى وجهه ابصرته خالياً من اثر تلك اللطمة العنيفة التي خبطت بها وجه المرء الذي فاجأها البارحة .

لقد تحيرت في امرها ، ومما زادها حيرة واشكالاً في الأمر ، هو ان الصوت الذي سمعته البارحة نفس صوت و نغمة هذا الفتى ، ولكنها تراه أغر الجبين ناصع الوجه لا من ناحية الأثر فحسب، ولكنه من ناحيــــة الأثر المعنوي .

اجل ، انه مرتاح الضمير لم يعرف شيئاً يخزيه عندها حتى تنخفض عينــاه ويسود جبينه.

هذا وقد اخذ الشاب فطوره من يد حليلة اخيه وفي نفسه شيء من تغير اخلاقها معه، واخيراً ذهب الفتى لحراسة ابله كالمعتاد . وبعد مضي ليلتين من الحادثة عاد زوجها من سفرته وهو رابط رأسه بخرقة بيضاء، وما ان رأت « الحليلة » بعلها مجروحاً برأسه حتى تذكرت الحادثة فأصبح عندها من التفكير ما يجعلها تشك بأن تلك القضية مؤامرة حاكها لها حليلها الماكر . ثم عندئذ بادرته بالسؤال « لا بأس عليك مالك رابط رأسك ؟ » فأجابها قائلاً « وقعت من الفرس واصابني حجر شج جبيني ». قالت : اذن اخشى عليك ان « يشتم »[1] جرحك فيجب ان أعالجه بدواء عندي اخذته من والدتي واحتفظت به لحادثة مثل هذه ! فذهبت مسرعة وأتت بشيء تزعم انه هو العلاج لهذا الجرح . والحقيقة انها تريد ان تنظر لهذا الجرح. وعلى الفور سعت بنقض الحزام الذي على جرحه وتظاهرت أمامه بمزيد الشفقة والعطف ووضعت الدواء كما تزعم .

وفي معالجتها هذه تيقنت اليقين القاطع بأن هذا الجرح هو من أثر لطمتها له وذلك لأنها لطمته بذراعها وكانت آنذاك لابسة « مجولا »[2] فرأت نصب عينيها تأثير مجولها في جبينه فجعلت نفسها متجاهلة ولم تبد أي تغيير أمامه ولكنها قررت القرار الحاسم أن تهرب الى أهلها ، وانما

(١) « يشتم » معناه يلتهب .

(٢) المجول هو السوار ولكنه اضخم حجماً .

المشكلة الآن أن أهلها بعيدون عنها ذلك انهم ذهبوا الى منازل قبيلتهم لأنهم كانوا قد اجتمعوا هم وقبيلة عنزة عرب الطيار ولكن اجتماعهم ذلك لسبب طارىء وعندما زال ذلك الحادث عاد كل منهم الى عربه لهـــذا أصبحت صاحبتنا غريبة بين أظهر هؤلاء القوم ، فماذا تفعل فيما لو عزمت أن تهرب من بعلها الى عربهـــا ؟ لا بد من أن يكون معها رجل قيم عليها ومن اللازم أن يكون هذا الرجل من محارمها فان لم يكن أحد من عصبتها القريبين فيكفي ان يكون ممن يحمل اسم قبيلة شمر فانه عندهـــا بحكم الضرورة [1] يقوم مقام عصبتها الادنين ، خاصة اذا شكت له أمرها فانه سوف يكون عنده من الشيمة والنجدة ما يجعله يكون لها بمنزلة الأخ الحميم .

هذا وقد ذهبت تسأل بخفية عن وجود شخص من عرب « شمر » وبعد ان أجهدت نفسها بالسؤال عند ذلك ذكر لها انه يوجد شاب « شمري » اجير عند فلان يتولى رعاية ابله باجرد معلومة ، ولما تأكدت من ذلك قصدته على الفور فوجدته كما ذكر لها ، فقصت عليه أمرها وشكت له حالها واستنجدت به وأثارت نخوته على أن يهرب بها الى والدها وبكت عنده ، فأجابها الراعي

---

(١) وان كان هذا لا يجوز شرعاً وانما بحكم الضرورة والعادات وأما الاسلام فلا يقيم وزناً لهذه العصبيات وهذا هو مذهبي الذي أؤمن به .

بأنه على أكمل الاستعداد لتنفيذ طلبهـــا ، فلما رأت منه ذلك شكرته وقالت : يجب أن أدلك على أطيب ابله[1] النجائب التي تتمكن من الفرار عليها بصورة تجعله لو أراد أن يلحق بنا ويقتفي أثرنا لا يستطيع ذلك ، فأخذته وهدته الى أنجب إبل حليلها وعندما انتصف الليل ونام زوجها تسللت من الفراش وتركت قرينها في مضجعه ، وذهبت الى الموضع الذي واعدها اياه راعي الإبل فوجدته بانتظارها فركبا الذلول حيث كان الرجـــل على مقدم الراحلة وهي على مؤخرها وادلجا المسير بشدة خوفاً من أن يلحق بهما الزوج هذا وبعلها لم يخطر ببـــاله شيء من ذلك حتى أصبح الصبح واستيقظ من سباته فلم ير زوجته بفراشها كالمعتاد ، فظن انها ذاهبة لقضاء حاجة ما ، وبقي ينتظر عودتها بدون أن يدخل في نفسه ريبة منها ولكنه طال انتظاره بشكل جعل الريب يدب في نفسه ، فسأل عنها فلم يجد من يفيده، فازداد ريبة ، عند ذلك سأل أفراد عشيرته مستفسراً هل يوجد بين أظهر قومنا فرد من قبيلة شمر ؟ أجابه أعلم القوم بمثل هذه الأمور قائلاً : اني اعرف بيوت عشيرتي واحداً واحداً فلم اذكر بينهم فرداً من قبيلة «شمر» سوى راع عند فلان[1] فبعث رسوله يسأل عن هذا الراعي هل هو

---

(١) تعني ابل زوجها .

(٢) لطول الزمن الذي سحب اذياله على هذه القصة لهذا لم أستطع معرفة اسم الراعي الأجير ولا اسم المستأجر .

موجود عند ابله ؟ أم لا ؟ فذهب رسوله ينقب عنه فلم يجده ، عـــاد الرسول واخبر الطيار بان الراعي لا وجود له عند مستأجره ، فتضاعفت ظنونه وقال في نفسه: لا بد بأن هذا الشمري هرب بزوجته وانما هو لم يتيقن اليقين القاطع الى أن ذهب الى ذلوله النجيبة من اجل أن يركبها ويلحق بأثر زوجته ليعيدها اليه قبل ان تصل أهلها ، ولكنه عندما ذهب يحاول أخذ ذلوله لم يجدها ، الآن زال الشك وحل محله اليقين الراسخ ، بأن زوجته قد هرب بها هذا الراعي الشمري إلى أهلها ، وقد كانت الذلول التي هرب عليها الشمري وحليلة الطيار سريعة الجري ولا يمكن ان يجاريها بعدوها إلا الجمل الذي هو ابو هـــذه الذلول فاستدنى الطيار الجمل وركبه مقتفياً أثر زوجته الهاربة ، ولكن الزوجـــة والراعي عملا حساباً له ، لأنهما يعلمان انه اذا انتبه لهما لم يتركهما رحمة ولن يدخر وسعاً من جهده للاستيلاء عليهما ولا سيما الراعي فانه يعلم ان عقوبته القتل فيما لو ظفر به .

هذا وقد وصل الراعي ورفيقته عربهما ونجوا من شره .

أما الطيار بعدما رأى انه لم يوفق بالظفر بهما قبل وصولهما عشيرتهما ، فانه ذهب الى والد زوجته واخوتها وبقي يطلبهم ويتعطف اليهم بأن يردوا عليه زوجته ، فكان جوابهم له جواباً سلبياً يؤخذ من مضمونه أنهم لن يرغموها مطلقاً ، وانما اشاروا عليه ان يرضي زوجته فإذا رضيت فهو

احب اليهم ان تصلح امور الزوجين . عندئذ طلبها زوجها ليتفاهم معها فقبلت ذلك ، ولكن اشترطت ان يحضر عندهما ابوها واخوتها فحضروا محاكمة الزوجين .

الطيار : أنا معترف بأن الحق لزوجتي علي ومهما طلبت مني فـــاني مستعد للقيام به » .

الزوجة : لقد اخطأت علي وحاولت ان تنال من كرامتي وذلك عندما كنت بكراً وقد انجاني الله من شرك ، ثم اني سترتك واخفيت ذلك حتى عن والدي واخوتي ، وعندما طلبت زواجي ووهبني إياك والدي وأيد ذلك إخوتي قبلت وكظمت غيظي ، ولم ترض نفسي ان اعصي امراً بت فيه والدي لأني اذا عصيته ورفضت قبول الزواج منك ، استلزم علي آنذاك ان اوضح العلة التي رفضت قبولك من أجلها ، ولهذا لم تقبل شيمتي ان افضحك بين قومك بفعلتك تلك الشنعاء ، ومضت تلك الحادثة مستورة لم يعلم بها إلا الله ، ولم تقف عند ذلك بل زدت فاتهمتني بشقيقك وذهبت تحاول أن تجد علي ما يهتك ستري فلو صدقت ظنونك السيئة لفضحتني وطردتني الى بيت اهلي ، وهـــا انا الآن اترك الأمر لوالدي واخوتي فان سامحوا وعفوا عن حقوقهم في الأولى والثانية ، فاني لن اسمح بحقي ابداً » .

لقد رأى « الطيار » أن حجته واهية ومنطقه فاشل بعد هذا الكلام

الذي سمعـــه من زوجته فلم يكن لديه من الوسيلة إلا الاعتراف بجريمته والتودد والتلطف لها ، ولكن كل ذلك لم يفده شيئاً عندها ، ولم يلن لها قلب .

عاد الطيار الى اهله لم يظفر بشيء من امره ، وعندما وصل عربـــه انشد هذه القصيدة :

(١) « يَا رَاكِبٍ مِنْ فَوْق حُرٍ مْشَذّرْ
مَـــا دَنّق اَلرّقَاعْ يَرْقَع إرْهُوقهْ » [١]

كثيراً مـــا يكون مطلع قصائد الشعراء الشعبيين بوصف الراحلة النجيبة . لهذا ابتدأ الطيار قصيدته بوصفه للجمل الذي يركبه رسوله الذي انتدبه لزوجته وهمياً « يا راكب من فوق حرٍ مشذر » اي يا ايها الوافد من عندي لقد اركبتك على جمل عريق في اصله من سلالة الإبل النجائب الشديد في بنيته الصلب في عضلاته (مشذر) اي طويل القامة .

(٢) أمهُ لَفَتْنـــا مِن عِمَانٍ تذكّر
وَابُوه مِنْ قِعْدَانْ عِلْوى عَمُوقَـــهْ

---

(١) دنق اي ما تطأطأ الرقاع اي المختص بممارضة الابل كالبيطار « رهوق » يعني الحفاء مفردها رهق والجمع رهوق وحفاة وحفاء قعدان جمع مفردها قعود اي فتى من الإبل لم يكن كهلاً اخنى عليــه الدهر حتى اصيب من كثرة استعمال الركاب له بالحفاء .

يسترسل في مدحه لهذا الجمل ويؤكد انه عريق في اصالة نسبه من قبل امه ومن قبل ابيه ، فهو ينسب هذا الجمل من ناحية امه فيقول : إنها من الإبل النجائب التي مقرها (عمان) ويقال عمانية للأنثى من الإبل كما يقال عماني للذكر ، ويذهب الشاعر وينسب ابا الجمل ويقول انه من سلالة إبل عُلْوى ، وعُلوى هم قبيلة مطير الذين يقطنون الآن نجداً واكثر ما تكون مساكنهم بين الشرق والشمال لمدينة الرياض .

(٣) « يُشْبِه ظَلِيْمٍ مِنْ جَذِيبٍ تَحَدَّرْ
وإلاّ النِّداوِي يَوْمْ تُطْلق سْبُوقه »

يصف سرعة جري الجمل بجري الظليم (ذكر النعام) وتارة يقول إنه كالصقر من الطيور إذا انقض في الجو الراكد .

(٤) يَا رَاكْبهْ كِزّهْ لْنَجْعٍ بَالاَجْفَرْ
تَلْقى عَشيري كِنّهَ اَلْبَدْر فَوْقَـــهْ

يقول الطيار : اذهب ايها المندوب بكل سرعة واقصد الموضع الذي فيه محبوبتي وهو المكان الذي يسمى (الأجفر) والأجفر موضع خصب يبعد عن مدينة حائل مسافة ٨٠ كيـــلا ويقع في الشمال الشرقي عن حائل فيقول لاحاجة بك ان تسأل عنها فإنك ستجدها كالبدر في تمـــام نموه أو بمعنى ادق ، يقول تجدها في شكل من الزهو والجمال مما يجعلك تظن ان

البدر متلبس في جسدها .

(٥) « لا وا[١] عشيري حال دونه مضطر

عيّال واعزّي لمن دار شوقه »

يتألم الشاعر من فراق زوجته و يقول : إنه حال بيني وبين اقتراني بها رجال ابطال اقوياء ، ويؤكد لنا ان العاشق الذي يحاول ان يتصل بمعشوقته وهي في جو يحيط بها ويحرسها رجال من نوع هؤلاء الأبطال ! يقول : لا شك أن هذا العاشق من اسوأ الناس حظاً واتعسهم توفيقاً وكأنه يشير الى نفسه بهذا البيت .

(٦) حامين من فيد[٢] الى حدّ الاقور

ومحرّمين ضدّهم لا يذوقه

يزيد بوصفه لرجال معشوقته ويقول انهم حامون بقوة بأسهم وشدة نفوذهم مساحة كبيرة من الأرض الخصبة ولا يتسنى لإبل عدوهم ان ترعى ما في هذه الارض من العشب والكلأ . فيوضح لنا ان القوم الذين استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم ويفرضوا سلطانهم على الصحراء الخالية من البشر بحيث لا يرعى من شجرها عدا مواشيهم ، أين له ان يتمكن من

---

(١) « لا وا » كلمة تقال للتحسر والتمني .

(٢) فيد قرية قديمة تقع جنوباً للشرق عن مدينة حائل .

أخذ ابنتهم بأسلوب القوة؟ وإن كانت ابنتهم هذه زوجته الشرعية ولكنه مع ذلك يرى انه من المستحيل اخذها إلا بتكرم منهم وطيب نفس .

ويبدو أن الشيخ كنعان الطيار اراد بهـــذا البيت أن يأتي اهل زوجته من طريق المعروف واللين ، وهذا هو الواقع لأن الكريم اذا أتى من طريق المعروف والتودد لان وسلم مقوده لمرتجيه.

وهذا ما ذهب اليه المتنبي بقوله :

اذا انتَ اكرمت الكريمَ ملكته

وان انتَ اكرمت اللئيم تَمـــردا

(٨) « لا وَاَعشِيريْ عَنْ هَوَايَهْ تَنَكَّرْ

شِفْتَ الغَضَبْ يا نَاسْ باْغضاي مُو قَهْ »

يقول : وامصيبتاه على عشيري[1] اي زوجته ومعشوقته التي تغيرت عليه وتنكرت بعد ما كان جو الألفة والوداد بينهما مليئاً بالمرح والسعادة ويقول : إني رأيت غضبها علي ظاهراً في سواد عينيها فهو يرى أن زوجته تنظر اليه بعين الغضب لا بعين الرضا التي كانت تبديها له سابقاً .

(٩) أبو قُرُونٍ كِنهـا ذَيل الاشْقَرْ

رِيْح الخضيري وَاْلعَنَـــابر نشُوْقَه

---

(١) العشير في اللغة الشعبية كلمة تشمل في معناها الرجل والأنثى فالرجل يصح ان يقول لمعشوقته عشيري أو عشيرتي والأنثى كذلك تقول عشيري .

يصف شعر رأس محبوبته ويقول إنه اشبه ما يكون بشعر « ذيل » الحصان الأشقر ، أي الأحمر ، ويوضح بأن جسد رائحة زوجته كأنها رائحة الريحان والعنبر .

(١٠) وَجدي عَلَيها وَجدُ مَطعُونَ الأَبهَرْ
أَقفى يجرّ مُستَنجِدٍ مِن عروقَهْ

يقول : إن آلامي عليها هي أشبه ما تكون بآلام الرجل الذي طعنه اعداؤه برمح أصاب العروق المتصلة بالقلب .

(١١) أووجد من هُوَ عَنْ جوادِه تَقَنْطَرْ
بغارَةٍ عَيَّتْ تَمَدَّدْ سُبُوقَهْ

يعود ثاني مرة ويصف آلامه ووجده على محبوبته ويقول : إنه وصل الى وضع من البؤس والقلق يشبه وضع الفارس الذي رمته فرسه أمام اعدائه في ساحة الوغى ولم تستطع ان تجري به .

(١٢) أووَجد مَكتوفٍ تَولّوه عَسكَرْ
أقفى بَهَ الجَلاّدْ بِسَيفِه يَسُوقَهْ

يزيد الشاعر تأكيداً لسوء حالته ، ويصف ما يعانيه من الشقاء ، فتجده يضع نفسه بأسوأ وأتعس ما يصل اليه المرء .

وهل أسوأ مصيراً والعياذ بالله من وضع المرء الذي حكم عليه بالإعدام ومن ثم قاده الجلاد لتنفيذ الحكم عليه بالسيف . وهكذا الطيار يصف نفسه ويقول : ان وضعه الراهن يعبر ابلغ التعبير عن وضع ذاك الرجل الذي قيد للموت ولم يبق بينه وبين ازهاق روحـــه إلا دقائق معدودة .

واليك القصيدة متصلة غير مقطعة مع شرح ألفاظها .

(١) يا راكبٍ من فَوْق حرٍّ مشذَّرْ
مـــا دَنَّقَ الرقَّـــاعْ يرقع رهوقهْ

(٢) أُمّه لَفَتْنـــا من عِمـــانٍ تذكَّرْ
وابوه من قِعْدَانْ عِلْوى عموقـــهْ

(٣) يشبهْ ظِليمٍ من جِذيبٍ تحـــدَّرْ
والأَ النَّداوي يُومْ تُطلقْ سُبُوقُـــهْ

---

(١) حر : اصيل مشذر طويل القامة . دنق : انحنى . الرقّاع : الذي يصلح اخفاف الابل . الرهوق : الحفا . (يصف الجمل) .

(٢) تذكر : تنسب نسباً اكيدا . قعدان : جمع قعود . وهـــو الفتى من ذكور الابل . عموقة : عريقة النسب .

(٣) الظليم : ذكر النعام . جذيب : المكان العالي . تحدر : نزل . التداوي : الصقر . سبوقه : قيوده .

(٤) يـــا راكْبِهْ كِزّهْ لنجعٍ بالاجفر
تَلقى عَشيري كِنَّهْ البــدر فُوقَهْ

(٥) لا وَعشِيري حَــالْ دُونْه مُصطَّرْ
عِيَّـــال وَاعِزِّي لمن دَارْ شَوْقَـــهْ

(٦) حامين من فيدٍ الى حَدّ الأقوَرْ
ومحرمِّـــينٍ ضـــدُّهم لا يذوقَـــهْ

(٧) لا وعشيري عن هَوايـــه تنكَّرْ
شفْتَ الغضب يـــا ناسْ باغْضاي مُوقَهْ

(٨) ابو قرونٍ كنّهـــا ذيل الاشقر
رِيْـــحَ الخضْيري والعَنَابرْ نُشُوقَـــهْ

---

(٤) يا راكبه: ينادي المنتدب . كزه : ادفعه . النجـع . الثلة من العرب . الأجفر اسم الموقع الذي يقطنه اهل زوجته

(٥) لا وا: كلمة تقال للتوجع والتحسر والتمني . عيـــال . جبابرة . عزي . ما اكبر ما أتعزر له. دار شوقه : ينقب عن حبيبته .

(٦) (فيد) و (الأقور) موضعان . محرمين : حامين . ضدهم . اعداؤهم لا يذوقه . لا يرعون فيه .

(٧) عن هواي : عن حي . باغضاي موقه : بنظرة عينيها .

(٨) أبو : صاحب . قرون : يقصد شعرها . ذيل الأشقر : اي شعر الحصان المسدل على فخذيه . ريح : رائحتها . الخضيري : الريحان . العنابر : مفردها عنبر نشوقه : أي تشمه .

(٩) وجدي عليها وجدْ مَطعونَ الأبهر
أَقفى يجرّ مسَنْجِـدٍ من عُروقـهْ
(١٠) أو وجد من هُو عن جواده تَقنطرَ
بغـارة عيت تَمَّددْ سُبوقَـهْ
(١٠) أو وجد مكتوفٍ تولوه عسكرْ
أَقفى بـه الجلاد بسيْفِهْ يَسُوْقَـهْ

يقال إن القصيدة أكثر مما ورد ، وإن فيها من الايضـاح والتودد لاصهاره والترجي لزوجته وابراز شعوره نحوها وبث شكواه واعترافـه بذنبه لها ما هو اكثر من ذلك، وانما لم يردنا الا هذه الأبيات .

هذا وقد بعث الطيار قصيدته هذه لأصهاره وزوجته ، وبعد أن أيقن اليقين القاطع بأن قصيدته وصلت اليهم ، هناك بات عنده من اليقين ما يجعله يعتقد بأن قصيدته سيكون لهـا الأثر الفعال في نفسية أصهاره وحليلته وأنه سينال بغيته فيما اذا ارتمى على اصهاره والتجأ اليهم ، وذلك أن الشعر له مفعول محسوس في نفسية العرب ، خـاصة بذلك العهد ،

---

(٩) وجدي : أي ألمي . وجد مطعون : كألم المطعون : الأبهر . بين الكتف والظهر : أقفى: أدبر . يجر : يسحب . مسنجد : الرمح .

(١٠) جواده : أي فرسه . تقنطر . أرتمى عن صهوة فرسه . بغـارة : في معركة . عيت : ما استطاعت . تمدد : تجري . سبوقه : فرسه .

لذلك بادر الرجل مسرعاً وركب راحلته ونزل ضيفاً على اصهاره ودخل من رواق البيت. وعند رجال البادية عادة ان المرء اذا دخل من خلف البيت معناه انه سلم نفسه تسليماً بدون قيد ولا شرط ، وانه خاضع لكل ما يطلب منه ومذعن اذعان المغلوب على أمره للغالب المنتصر ، فكان أصهاره على ما يظنه بهم ويعتقده منهم ، وحالما رأوا الطيار لاجئاً اليهم وملتمساً عطفهم ، بادروا بإقناع ابنتهم ، وهي كذلك كانت المدة التي مرت عليها وهي معلقة عند أهلها مما خفف من شدة غضبها السابق .

وفي نهاية الأمر استطاع اهلها أن يؤثروا عليها حتى رضيت وذهبت مع قرينها ، فكأني بالطيار يرى نفسه اقترن بها من جديد .

ولما كانت نساء العرب دائماً وابداً لا يعشقن الرجل ويعجبن به وينظرنه بعين الاعتبار إلا اذا كان على جانب كبير من الشجاعة ، فقد كان الطيار لا يتمنى في نفسه إلا أن تأتيه غارة من اعدائه ليظهر شجاعته أمام حليلته لعلها تنظر اليه بعين الاعجاب والاحترام بعد ما حصل بينهما من سوء التفاهم . وما هي إلا ايام قليلة وإذ بغارة عرب السردية [1] ينصبون عليه في بيته ، فرأى الفارس انه وفق في أمنيته ، فنادى زوجته قائلاً لها :

---

(١) (السردية) هم عرب من بادية سورية حالياً ومنازلهم تقع شرقاً عن مدينة دمشق .

اليوم سوف ترين مني الفعل الذي يرضيك ويجعلك تستصغرين جميع مـــا صدر مني من خطأ . وقد طلب البطل من زوجته ان تضع هودجها على ظهر جملها وتركبه ثم تلحق به لتزغرد له بصوتها الناعم المعسول ففعلت ذلك ، فلمـــا حمي الوطيس بينه وبين عرب السردية صاحت مزغردة له بأعلى صوتها ، وكأن هذه الزغاريد كأس من الخمر يسكر من نغماتها اكثر بكثير مما يسكر شارب ابنة الكرم ، وكلما طرح فارساً من هؤلاء القوم وتمكن من الاستيلاء عليه صرخت زوجته بصوتها العالي مزغردة لقرينها البطل . ومن حسن توفيق الطيار أن لديه جواداً أصيـــلاً سريع الجري بحيث يجعله يسيطر على قهر اعدائه بكل سهولة ، فاذا مـــا تضايق من اعدائه وطوقوه بخيولهم نفذ من بينهم كالسهم فلا يستطيعون الاستيلاء عليه بفضل فرسه السريعة الجري ، كما انـــه اذا كر عليهم وهم هاربون منه لا يستطيعون الفرار ، لأن فرسه تلحق بهم ويطرح منهم ما استطاع .

وقد انتهت هذه المعركة بانتصار الطيار وهو بمفرده على هؤلاء القوم الكثيرين وقد استولى على خيل منهم ، والذي يسره اكثر من هذا كله هو أنه رأى زوجته الآن تنظر اليه بعين الاجلال والبطولة ، لأن نساء البادية كما اسلفنا لا يرضيهن من بعولتهن أن يكون الزوج وسيماً وجميلاً في شكله كما أنه لا يهمهن ايضاً ان يكون ثرياً ، وانما الذي يهم العربية ويجعلهـــا

تفخر ببعلها وتعجب به كل الاعجاب اذا كان شجاعاً حامياً للذمار لا تلين له قناة ولا تخفر له ذمة . هذا هو غاية ما تريده الزوجة العربية من بعلها ، وهي اذ تنظر للرجل من هذه الناحية فانما تنظر اليه من نواحي عديدة : منها أن الانثى العربية كلما رأت الرجل كاملاً برجولته كان ذلك ألذ وأجمل في حياتها الزوجية من شتى الوجوه الاجتماعية ، ومنها أنها تتصور نفسها أُمّاً لأبطال أفذاذ في الشجاعة والفروسية عندما يكون بعلها شجاعاً فتنجب منه مولوداً تعيش بكنفه بقية عمرها عزيزة مرفوعة الرأس بفضل شجاعة ابنها الموروثة فيكفيها أن يقال لها : أم فلان .

عندما عاد الطيار منتصراً على اعدائه جادت قريحته بهذه الأبيات :

«١» أصْبَحْنَا وَصَبَّحَنا جْنُوْدْ[1]

جْنُودٍ كِثْرْ سِيعْانَ الجَرَادْ

يقول : في الصباح الباكر هجم علي جنود كثيرون بعددهم كـكثرة الجراد .

٢) وْجونِي غِلمَةْ[1] يَبْغُونْ ذَوْدِي[2]

ونا عندهنْ فَوْقَ اَلْجَوَادْ

(١) (سيعان) . الشيء الكثير .

(١) (غلمه) فتيان .

(٢) ذودي . (يقصد ابله) .

يوضح في المصراع الأول من البيت الثـــاني بأن القوم الذين باغتوه صباحاً فتيان وأن لا قصد لهم الا أخذ إبله قهرا . وفي عجز البيت يقول: وانا عند ابلي وراكب لفرسي. فكأنه يقول إن هؤلاء الشباب يجهلون ما اتمتع به البطولة.ولو انهم رجال كهول عقلاء لبلغهم عني الخبر الذين يعرفوني بأني الفارس الذي لا مطمع لهم عندي .

٣) أَصِيلٌ من أَصيلٍ بنت اصيـــلْ

وَعَيْنَيهـــا نارٍ شِبّتْ بالَخْمَـــادْ

يصف الشاعر فرسه ، ويؤكد بأنها سلالة أفراس عريقات بأصلهن ، وفي عجز البيت ينعت عيني الفرس بأنها كالنار التي اشعلت في الصحراء في ليل مدلهم.

٤) وَقَوَائِمها كَعِمْدَان الحدِيـــد

وَصَدرهـــا بابٍ ركّبْ بالبـــلادْ

في المصراع الأول ينعت فرسه بطول قوائمها وطول القوائم في الفرس علامة تدل على نجابتها ، وفي العجز يصف ايضاً سعة نحرها .

٥) وَظَهْرَهـــاَ شِبْرٍ مـــا يزِيدْ

سرِيْعَـــةْ مَوْجْ باهِرْهـــا سَنَادْ

يقول إن ظهر فرسه قصير وانها سريعة الانحراف سهلة المقود.

٦) وَحارِكُها[١] كما الذِّيبُ المُوفِي
عَلَى الرَّعْيان ظَـــارٍ للهَـــداد
٧) وآذانيها كما كافُورُ غَرْسٍ
ومناخرهـــا كما كِيْرَ آلستـــاد[٢]

والواقع ان هذا العربي الأمي الذي لا يعرف شيئاً عن الأدب العربي الفصيح ولكنه بفطرته العربيـــة وبذوقه السليم تمكن أن يصف فرسه ، وينعتها بأجمل وصف وصفت الخيل به حكماء العرب وشعراؤهم من نثر و نظم .

فخذ من النثر ما قاله أحد خبراء العرب في الخيل وهو « صعصعة بن صوحان » الذي طلب منه معاوية بن أبي سفيان بأن يخبره أي الخيل أفضل فقال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث، قال فسر لنا ؟ قال : أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحزام ! وأمـــا القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب ؟ وأمـــا العريض الثلاث: فالجبهة والمنخر والورك ؛ وأما الصافي الثلاث فالاديم والعين والحافر ؛هذا

---

(١) الحارك : رأس الكتف .

(٢) الغرس : النخلات البكر والكافور هو ثمرة النخلة أول ما تثمر وهو اشبه ما يكون برأس القلم .

ما وصفت به الخيل نثراً أما ما وصفها الشعراء به فهو كثير وانما نأتي بشيء من بعض الأبيات المتفقة مع وصف الطيار كقول : عدي بن الرقاع :

يخرجن من فرُجات النَّقع دامية

كأن آذانها أطرافُ اقلام

فهنا نجد الطيار وصف أذن فرسه بنفس هذا الوصف .

وقد قال البحتري في قصيدة له طويلة يصف فيها الفرس جاء منهـا قوله :

وعريض أعلا المتن لوعلَّيتـه بالزئبق المنهـل لم يترجرَج

ويقول امرؤ القيس بن حُجْر في حصانه :

له أيطلاَ ظبيٍ وساقا نعامة

وارخاء سرحان وتقريبُ تَتْفُلِ [1]

ليس بالغريب أن يكون وصف الطيار لفرسه صورة طبق الأصل لما جاء به وصف العرب القدامى للخيل من نثر وشعر فالطيار فرع من ذلك الأصل ، والأصول لا تتغير سوءاً طال الزمان او قصر . علماً بأن الطيار أميٌّ لا يعلم شيئاً من الأدب العربي القديم .

---

(١) السرحان: الذئب . والتتفل: ولدالثعلب. اي ان حصانه سريع الانحراف كانحراف ولد الثعلب وكشدة عدو الذئب .

ومنطق الطيار وواقعه يقول : إنه لا عذر له البتة عن القتال والكفاح. ما دام أن لديه فرساً توفرت فيها جميع صفات الخيل الطيبة ويضيف إلى ذلك قوله :

ونور العينْ عند البِلْ تزغرد

تثير بزغروده مكنون الفواد

نور العين يقصد زوجته أنها كانت تزغرد له الزغرودة تلو الزغرودة ويزعم أن هذه الزغاريد من زوجته له كانت من أهم الدوافع التي ألهبت شعوره وأذكت شعلة الحماسة والشجاعة في كيانه أما تراه يقول . في عجز البيت « تثير بزغرودة مكنون الفؤاد » ولا شك أن هذا الصوت الناعم السلس كان له أعمق الأثر في نفسية الطيار وربما كان نجاحه على أعدائه مبنياً مائة بالمائة بسبب صوت هذه الحسناء . ولهذا تراه يقول .

لما راحتْ [1] بالبواسِلْ هرّبْ [2]

يشبه السيلْ حـــاديه [3] الحشاد [4]

يقول البطل : إنه على كثرة اعدائه الذين هم كما ذكر اشبه ما يكونون بكثرة الجراد ، مع ذلك فانه استطاع أن يحمي ابلـــه ويهزم الأعداء ،

---

(١) (راحت) يقصد خيل اعدائه (٢) (هُرّبْ) اي هاربات يعني افراس الاعداء الذين هجموا عليه (٣) (حاديه : يدفعه (٤) (٥) الحشاد : الموضع الضيق

والفضل يعود بذلك لفرسه الأصيلة ولزوجته التي شحذت همته وصقلت حاسة البطولة فيه ، وقد عاد منتصراً وكأني بـه يردد قول عنترة بن شداد مخاطباً زوجته عبلة :

أثني علي بما علمت فإنني سَمْحٌ مخالطتي اذا لم اظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مُرٌّ مذاقته كطعم العقم

مظهر رجل في حقيقة انثى

قصة « بشير بن ضبيعان »(١)

مع ضيفه علي بن ضيفته المدعوة (غتره)

هي فتاة توفي والدها بين عام ١٣٢٣ ـ ١٣٢٧ وكانت في عنفوان شبابها وليس لها من يعولها ، فخشيت على نفسها من وصمة العار فاضطرت الى ان تترك عرب عشيرتها الذين يعرفونها جيداً وتذهب الى عرب من عشيرتها نفسها ولكنهم لا يعرفونها بالذات ، وهي عندما ذهبت الى هؤلاء العرب لم تذهب بصفة أنها انثى ، كما هو واقع امرها ، وإنما ذهبت متنكرة كأنها ذكر . وكان لها من طول القامة ما يشفع لها فيما تدعيه ، يضاف الى

(١) كل من بشير وغترة كلاهما من قبيلة الشرارات بادية المقاطعة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية .

ذلك أن فيها من الجسارة والثقة بالنفس في أي عمل من اعمال الرجال ما يجعلها تضارع الرجل في المظهر ، ولهذا تمكنت أن تتصف بصفة الفتى فذهبت وظلت كضيف عند بشير بن ضبيعان[1] ، ولا زالت متنكرة لا يعرف عنها إلا انها شاب من خيرة الشباب البواسل وقد سمت نفسها علياً ، وبقيت عند بشير مدة طويلة، وهي مسلحة بالبندقية ولا يمكن أن تدعها من يدها قطعياً إلا في ساعات الفراغ ، وكانت تحسن الرماية واذا غزا عربها العدو غزت معهم وهي في طليعة الشجعان في ساحات القتال ، ولم يظن أحد أن علياً هذا انثى ، هذا أمر لا يخطر على البال. وكان علي هذا فتى وقوراً لا يمزح مع أحد ولا يستطيع ان يمزح معه أحد لشدة هيبته ووقاره ، ولكن الحقائق مهما توارت عن الأعين لا بد من أن تبرز عند أية مناسبة من المناسبات الطارئة ، ومن ثم يعود كل شيء الى اصله كما قال ذو الأصبع العدواني :

كل امرىء صائر يوماً لشيمته وإن تخلق اخلاقاً الى حين

وأخيراً طال الزمن علي «علي» وهو يخادع نفسه و يخادع الناس . فاضطر آخر الأمر ان يميط اللثام ويوضح الحقيقة . ولكنه لا يسعه ذلك حتى يختار لنفسه الشخص الذي يطمئن اليه ويثق برجولته ، وقد

---

(١) بشير : من شخصيات عرب الشرارات البارزين .

كانت إقامته بين اظهر هؤلاء القوم كافية بأن تعطيه خبرة ودراسة لأخلاقهم وتحليلاً لشخصياتهم ، لهذا وقع نظر علي على الشخص الذي هو ضيف في بيته ، ورأى انه خير من يختاره ليفشي اليه سره ويكشف له حقيقة امره ، ولكن علياً الآن طال عليه الأمد وشاء ان يعود الى ما خلق له من المتعة الجنسية ، فلا بد إذن من ان يكون علي « غترة » الفتاة لا علي المزيف فاذا عادت « غترة » الى جوهرها الاساسي اصبحت ملزمة بقرين ينكحها. وقد كان القرين الذي رشحته لنفسها معلوماً لديها هو بشير بن ضبيعان الذي حلت ضيفة عنده كل هذه المدة ، وانما المشكل عليها انها لا تعلم هل يقبلها بشير زوجة له ام لا ، وانما هي على كلتا الحالتين مرغمة أن تصارحه بحقيقة أمرها فإن قبلها زوجة له فهذا هو منتهى امنيتها ، وإن لم يقبلها فهي تأخذ منه عهداً على أن يسترها ولا يفشي سرها لفرد من البشر ، وعندما سنحت الفرصة واختلى بشير وضيفه ، هناك شرح الثاني للأول أمره بوضوح وأعرب له عن رغبته فيه كزوج شرعي ، وذلك بعد أن أخذ منه ميثاقاً على أن يستر القضية حتى ينتهي عقد النكاح ؛ اي اذا وافق بشير ورغب الزواج ، فإن لم يوافق على النكاح فيكون الأمر مستوراً لا يعلم عنه أحد إلا الله . هذا وقد كان الخبر بالنسبة لبشير مفاجأة عظيمة لأنه اندهش اندهاشاً بالغاً غير أنه في النهاية كان مسروراً للغاية بتيسير الله له هذه الزوجة التي توفر لها عقل الرجل وشجاعته مع انوثة المرأة المحصنة

العفيفة وجمالها وفي النهاية وافق بشير على رغبة ضيفه، ومن ثم عقد النكاح الشرعي بصورة سرية، ولم يشعر العرب الا وعليٌّ الشجاع الباسل قــد انقلب امرأة لبشير بن ضبيعان وفي تاريخ ٧-٧-١٣٧٤ هـ اجتمعت بالأمير [1] عبدالعزيز بن احمد السديري الذي هو أمير بلدة القريات والمفتش للحدود الشمالية الغربية التي يقطنها عرب الشرارات الذين منهم بشير وزوجتــه وسألته عنهما فقال الأمير انهما على قيد الحياة جميعهما وأنهما في سن الشيخوخة كما أفادني أنهما أصبحا يعولان اسرة كبيرة من البنين والبنات.

---

(١) توفي عبد العزيز السديري غفر الله له في أحد الربيعين عام ١٣٧٤ هـ وذلك بعد ان تولى وزارة الزراعة وقد كان رحمه الله ملما باخبار العرب غاية الالمام كما كان على جانب كبير من الدهاء والرزانة . وقد رويت عنه قصتين سأوردهما في الجـزء الثاني ان شاء الله .

نطاح بالقوة

يتبعه عفو وتسامح

قصة (غريب [1] بن معيقل الشلاقي الشمري) مع معشوقته (وديدة) [2]
حدثت بين عامي ١٣٢٥ و ١٣٣٠ هـ

لقد أتيحت لغريب الفرصة التي جعلته يرحل عن عشيرته « شمر » وينزل عند عشيرة (الرُّوَلَة) [3] وفي أثناء إقامته هذه اشغف قلبه بحب الفتاة « وديدة » كما ان الفتاة بادلته بالمثل أو ربما كانت أكثر غراماً به إلا ان الانثى عادة تخفي من المحبة اكثر من الغرام الذي يجاهر به الرجل ، وهـذا شيء مألوف ولكن المشكلة العويصة أنه على الرغم من الود والمحبة المتبادلة بين الطرفين ، مع هذا كله فإن هناك قيوداً تحول دون

---

(١) غريب هو احد الشلقان الذين حملوا رفيقهم الجريح على اكتافهم وسنذكر القصة في الجزء الثاني في موضعها وهو شجاع وشاعر ، توفي رحمه الله في المدينة المنورة سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) اما مخطوبته وديدة فهي من فخذ (القطاعي) من قبيلة الرولة . وحتى الآن لم اجد من يفيدني عن اسم والد الفتاة وغاية ما وصلت اليه روايتي هو معرفة اسم الفتاة واسم عشيرتها وفخذها الذي تنتسب اليه .

(٣) لابد ان هناك سبباً من الاسباب الطارئة التي جعلت غريباً يترك عربه ويقطن عند الرولة ولكني اجهل العلم بهذا السبب .

تحقيق أمانيهما فيما لو أراد غريب أن يخطب وديدة من اهلها[1].

هذا وقد طالت المدة على العاشقين ولم يزل غرامهما ينمو ويزداد ، وأعظم الأمور التي جعلت غرام كل منهما يتضاعف هو أن غريباً قرر أن يعود الى عشيرته «شمر» وذلك مما خلق في نفسية الاثنين ألماً لأن الاجتماع اصبح بين الطرفين شبه متعذر حيث أن كل واحد منهما ينتسب الى قبيلة معادية للأخرى ، ولكن هذا كله لم يمنع « غريباً » ومعشوقته من أن يدبرا لهما حيلة يبلغان بها امنيتهما • وخلاصة هذه الحيلة هي أن غريباً أعطى معشوقته وعداً اكيداً بأنه بعد مضي تسعين ليلة من تاريخ ذهابه فسوف يأتيها في منتصف الليل ويختطفها لا محالة ، وعندما أعطى غريب هذا الوعد الذي لا بد له من تنفيذه ، بعد ذلك عاد العاشق إلى عشيرته وبقيت معشوقته تنتظر اتمام الوعد بفارغ الصبر . ولا زالت تعد ليالي الدهر ليلة ليلة ، وهي واثقة كل الوثوق بأن معشوقها سوف ينفذ وعده إلا أن فاجأه القدر بملمة طارئة ، وقد كان هذا الرجاء خير معلل لها ، فلما انصرم من الوقت تسع وثمانون ليلة ولم يبق الا هذه الليلة التي هي آخر ليلة من ليالي الوعد ، عند ذلك أعدت جميع أمتعتها الخاصة وأدرجتها في

---

(١) اغلب الظن ان تكون معشوقة (محيرة) لابن عمها وقد شرحنا معنى المحيرة راجعها في صفحة (٣٧) من هذا الجزء

كيس وشدت وثاقه وبقيت ترقب مجيء خطيبها ، وعندما انتصف الليل وهجع الناس أتاها معشوقها حسب الوعد المعين بينهما واختطفها من أهلها وأردفها خلفه على ظهر ذلوله ، فلما وصل أهله اعطاها مهراً معادلاً لمهرها فيما لو كانت عند اهلها،وبعد ان سلم لها المهر عقد عليها النكاح عقداً شرعياً[1].
أما اهل الفتاة فانهم لم يفقدوها الا بعد انارتفعت الشمس من صباح الغد، والسر في ذلك يعود لأختها التي هي أصغر منها المسماة «ضحية»،وضحية هذه هي التي اسرت لها اختها وديدة وأوصتها أن تفعل ما استطاعت أن تفعله من الأمور التي تجعل أهلها في غفلة عنها بحيث لا يتمكنون من ان يفقدوها حتى يسفر الصباح لتكون أبعد مسافة عن عربها فيما لو سعوا لإدراكها . وقد كانت « ضحية » منفذة لوصية أختها فهي عندما هربت أختها مع غريب قامت «ضحية» وادخلت في قلب فراش اختها شيئاً من الامتعة البيتية وهذا الشيء هو الذي أوهم أهل وديدة بأنها لا تزال نائمة بفراشها إلى أن بزغت الشمس وأهلها يعتقدون ان ابنتهم لا زالت في نومها ، ولكنهم عندما قرب أن يشتد الضحى والفتاة لا زالت في لحافها كما يعتقدون، اضطر والد الفتاة ان ينتزع الغطاء عن فتاته لتقوم بمهمتها البيتية ، وذلك

---

(١) اعتقد ان مثل هذا النكاح الذي بغير اذن من ولي الفتاة يكون فيه شيء من عدم صحته في بعض المذاهب اما ابو حنيفة فهو لا يرى مانعاً من صحته .

بعد أن صوت لها عدة مرات ليوقظها من مرقدها هناك نزع الغطاء عنها وعندما نزع الغطاء ولم يجد داخل الفراش إلا أمتعة جوفـــاء ، عندئذ انتبه والد الفتاة وأهلها وأيقنوا أن الأمر ليس طبيعياً فاقتفوا أثرها فوجدوا أثر [1] جارهم السابق غريب كما وجدوا أثر ذلوله النجيبة التي أقلت الاثنين فعادوا دون جدوى و بعد مضي وقت غير طويل ، غزا أبو البنت قبيلة شمر هو وثلة من اسرته ، كما أنه في ذات الوقت غزا غريب قبيلة الرولة فصادف ان اصطدمت غزاة شمر الذين يرأسهم غريب بالغزاة الآخرين الذين هم غزاة قبيلة الرولة ، ولا اعلم هل يرأسهم ابو الفتاة أم الرئاسة كانت لغيره. المقصود ان هؤلاء الغزاة هم عشيرته الأقربون ، فلما دنا القوم من القوم تبادلوا الحديث فعلم كل فريق منهم بخصمه ، فحمي آنذاك الوطيس بين الخصمين وكانت غزاة « شمر » اكثر من غزاة « الرولة » [1] بالعدد والعدة لهذا كانت الغلبة لهم على عدوهم ولكن هــذه الغلبة ليست غلبة مطلقة بدون قيد ولا شرط بل ان الرولة لما رأوا قلتهم وكثرة اعدائهم اضطروا ان ينزلوا لعدوهم بعهد يحفظ دمـــاءهم فقط ويتركوا لعدوهم نجائبهم واسلحتهم كما هو العرف الجاري عند العرب ، وذلك عندما تشعر قبيلة

---

(١) يوجد عند بعض العرب مهارة في معرفة الأثر .

(١) حدثني حاشم اللاحقي الشمري الذي هو احد الغزاة الذين كانوا بقيـادة غريب واكد لي ان عدد غزاة قبيلة شمر يفوقون غزاة الرولة بثلاث مرات .

بضعفها وقوة خصمها تفعل هكذا . ولقد نزل الرولة على العهد لشمر واظن انهم عندما نزلوا على العهد ما علموا قطعياً ان رئيس هؤلاء الغزاة « غريب » الذي اختطف ابنتهم من عهد قريب بدون اختيارهم .

وبحكم سلطان القوة نزل قوم الفتاة نزول المقهور تاركين اسلحتهم وامتعتهم خلفهم ، وغاية ما هنالك انهم يعتبرون سلامة دمائهم هي المكسب . وفي الفترة التي تسلمت اسلحتهم منهم وبقوا عزلاً ، هناك ابرز غريب نفسه وراح يسلم عليهم واحداً واحداً ، فلم يروا عليهم مصيبة اكبر من ذلك. اما هو فلم تمر عليه ساعة اسعد من هذه الساعة ، وقد رأى « غريب » انه من كمال انتصاره ان يحسن ويتفضل عليهم ويظهر لهم من الولاء والمحبة ما يخالف الشيء الذي يضمرونه له ، وذلك انه جمع قومه وطلبهم ان يهب كل فرد منهم ما ناله من الغنيمة من نجائبهم واسلحتهم وامتعتهم ، وقد كانت مطالبته لقومه مبنية على شيء من العفة والإنصاف ، وبشكل يجعلهم تحت امر واقع ، فقد قال لهم : « يا قومي ان هؤلاء القوم الذين اصبحوا اسرى بأيدينا كان لهم علي يد بيضاء سابقاً عندما كنت غريباً عندهم ومستجيراً بحماهم ، كما انه اصبح الآن بيني وبينهم رحم ، وشاء الله ان تأتي ظروف تجعلني أسيء اليهم بنظرهم وقد كنت اسأل الله ان يتيح لي الفرصة التي تمكنني من فعل الجميل معهم وبذل الإحسان والمعروف لهم لعلي امحو أثر ما يتوهمونه من الخطيئة التي اقترفتها ، والآن

قد يسر الله لي السبيل الذي يجعلني افعل معهم ما استطعت من الخير » .

فأجابه رفقاؤه وقالوا : « ماذا تقصد ان تفعله الآن ؟ » قال : اريد ان اشتري منكم جميع ما غنمتموه من هؤلاء الأسرى على ان يمهلني كل فرد منكم الثمن الذي يستحقه الى ان نعود سوياً الى اهلنا . وقد كان جواب قومه مفعماً بالمروءة والكرم حيث قالوا : « بل نهب جميع غنائمنا لك وانت تفعل بها ما تشاء » وكان هذا جوابهم اجمعين ، عدا فرد منهم فإنه أبى ان يهب سهمه ، وكان نصيبه ذلولاً من انجب رواحل المأسورين ، وهذا الشخص ليس من عشيرة غريب الأقربين كبقية قومه ولكن غريباً ورفقاؤه استطاعوا ان يؤثروا عليه بشتى الأسباب حتى اقنعوه وترك الذلول الغريب ، وبعد ان جمع غريب كل ما اغتنمه هو وقومه من اصهاره ، عند ذلك سلمه لهم وطلب منهم ان يصفحوا له عما سلف . وقد صفحوا له عن طيب نفس وانشراح صدر ، وعاد كل من الفريقين الى اهله . هذا وقد عثرت على بيتين لغريب يتغزل بهما بمعشوقته وديدة التي اصبحت الآن أم اولاده ، والبيتان يفهم من معناهما ان الشاعر قالهما في أيام عشقه الأول لوديدة أي قبل ان يتمكن من اختطافها من اهلها ، لهذا تراه يقول :

(١) « هَلاَ هَلاَ فيك يا ضْحَيَّةْ

يَا لَيْتْ أَخَيْتْكِ مِنْ حَيِّي [١] »

---

(١) حيي : اي ليتها تكون من اسرتي .

يحيي ويرحب ترحيبـــاً مكرراً لـ «ضحية» وضحية هي اخت معشوقته الصغرى، فهو يؤكد ترحيبه ويكرر سلامه عليها تقديراً لأختها وديدة، ويقول أتمنى ان اختك وديدة من اسرتي حتى يكون زواجي منها شيئاً متيسراً.

(٢) وِدِّي وِدِيْـــدَه إِشْلاَقِيَّة (١)

وِدِّي وَلاَ الْـــوِدٌّ مِتْهِيِّي (٢)

في هذا البيت الثاني يشرح لنـــا بوضوح معنى البيت الذي قبله فيقول: أَتمنى ان وديده تكون من عصبتي القريبة، ولكن يقول: ما كل ما يتمناه الإنسان بهذه الحياة الفانية يمكنه الوصول اليه، وهـــذا البيت لغريب فيه من المعنى ما هو منسجم مع قول أبي الطيب المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه — تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

---

(١) شلاقية، يقصد فخذ قبيلته الأدنى المدعو بالشلقان.

(٢) متهيي، اي متيسر.

القصة مشهورة.

الحب لا يعقل ولا يرحم

حادثة جديرة ان تسترعي انتباه القارىء
وتذكرنا بالعشق العربي البرىء النزيه السليم الصادق

ولئن كان فيها من الروعة والدهشة ما يثير اعجـــاب القارىء في بدايتها فانهـــا تخلق في نفس ذي الشعور الرقيق والاحساس الرهيف والعاطفة اللينة أثراً عميقاً في نهايتها .

ثمة فتاة من قبيلة شمر تدعى (بالعفري) [1] ابنة (مغير بن زويمل) حسب ما نعتها لي راوي الحادثة [2] وشخصها التشخيص الشامل لجمالها وحيويتها واعتدال قوامها الفاتن وجمال عينيها الساحرتين ، جعلني اتصور بأن الشاعر العربي كأنه ينعتها حينما قال :

« حجازية العينين نجدية الحشا   عراقية الأطراف شامية الدم »

ان هذا البيت جدير ان يكون منسجماً وملائماً لها اكمل الملاءمة .

هكذا كانت صاحبة الترجمة . فكان من المنتظر ان يكون هذا الجمال الفاتن المغري مدعاة لتنافس الشباب عليها ومحطاً لأنظارهم لا سيما أبناء

---

(١) العفري هو اسم محرف من اسماء الغزال ، فالذكر يقـــال له الأعفر ، والأنثى يقال لها العفراء .

(٢) راوي القصة هو حاشم اللاحقي من نفس قبيلة الفتاة .

عمها الذين هم احق بنكاحها . ولكنه حسب العرف المتبع لا يمكن ان يخطبها احد ما دام يوجد لها ابن عم شقيق ، فان لم يكن فالأقرب من أبناء عمها .

ولن تستطيع الزواج من اجنبي إلا باذن منهم . وان زوَّجها ابوها دون رضاهم يصبح مهدداً منهم بالعقاب لا محالة .

وقد كان للفتاة الفاتنة ابنا عم وهما اقرب ما يكون لها ، فهي بحكم العادات ، زوجة لأحدهما لا محالة وهما « فهد السراي بن زويمل » وأخوه « محمد » ، كل فرد منهما شجاع ورئيس لفخذه وعلى جانب كبير من جمال الرجال . وهما في شرخ الشباب آنذاك ، وقد توفرت فيهما جميع الشروط التي تريدها الفتاة العربية من بعلها . ولم يخطر ببال احدهما او ببال احد من عربهما ان ترفض (العفري) القران بواحد منهما ، ولئن كان من المعقول ان ترفض القران بمحمد فانه ليس من المعقول ابداً ان لا تقبل (فهداً) لها بعلاً ، إذ أن فهداً مثال في الرجولة والشهامة والمظهر الحسن ايضاً الذي كثيراً ما يغري الفتيات ، ولا سيا المتحضرات منهن ، أما الأعرابية فقلما تعشق الرجل لمظهره او لماله وانما لمركزه الاجتماعي بين قومه .

وبالرغم من المزايا المتوفرة بفهد اولاً وبأخيه ثانياً فإن (العفري) لم تقبلهما ، ومن الأصول المتبعة ان ابن العم ، اذا رفضت ابنة عمه الزواج

منه ، فإنه لا يرغمها على نفسه ، خاصة اذا كان ابن العم ذا شمم وأنفة ، فإنه لا يقبل النكاح من فتاة تعلن رأيها بصراحة بعدم قبولها إياه ، ولكن حسب التقاليد ، يكون عندهم لابن العم الحق ألا تتزوج هذه الفتاة إلا برضاه ، وابن العم اذا اشتبه أن ابنة عمه تعشق شخصاً آخر هناك له أن يصرح بأن لها الحق أن تتزوج بمن تشاء إلا فلاناً ، أي الشخص المتهم بغرامها بـــه ، وذلك نكاية بها .

وقد كان (فهد) وأخوه من ذوى الشهامة حيث تركا ابنة عمهما بدون ان يجبرها احد منهما على الزواج ، ولكن الذي اخلف ظنون ولدي عمها بل عشيرتها جمعاء انه لا يعلم ذكر ولا انثى ان لها خطيباً تهواه ، فقضت الفتاة مدة وهي على هذه الحالة ، وكل فتى معجب بفتوته يحاول ان تمنحه لحظة من اللحظات العـــابرة ، عله يحدث نفسه بخطبتها ، ولكن كانت محاولات فتيان عربها ضرباً من العبث .

حارت القبيلة بأسرها في أمر الفتاة ، ولما كانت الأم هي اقرب الناس الى ابنتها ، وهي اجدر من تفشي اليها سرها ومكنون فؤادهـا ، فقد ذهبت الام تستنطق الفتاة تارة ،وتارة تسبر غورها لتنظر من هو الذي تميل عواطفها وشعورها نحوه من الفتيان ، لقد كانت الأم شديدة الحرص على أن تعرف خطيب ابنتها ، ولكن أعياها الأمر بعد التعب الشديد .

ظلت العفري ثماني سنوات على هـذه الحال . وهناك شاعت شائعة خفية تفيد أن العفري نظرت تتحدث مع شاب يدعى « هطيل [1] بن مشاري بن زويمل » والذي شاهد هذا المنظر هو (مرعيد) أخو هطيل .

وقبل كل شيء يجب أن نسأل عن هطيل من الناحية الاجتماعية والمادية ومن ناحية المظهر ايضاً ، اما الناحية الاجتماعية والمادية فهو شاب خامل الذكر فقير الحال لايملك من المال الا مايحصل عليه من عمه الذي يسرح بابله فيقبض أجراً زهيداً مقابل حراسته لها ؛ وهي أجرة سنوية . هذا من الناحية الاجتماعية والمادية ، أما من ناحيـة خلقته فحسبك ما روي لي (حاشم) أنه فتى قصير القامة ،دميم الخلقة قبيـح السحنة ، مجعد الوجه . ولهذا السبب لم يخطر ببال أخيه (مرعيد) أن حديثه مع ملكة جمـال عربها وراءه ما وراءه من العشق والغرام ، هذا لا يمكن أن يتصوره مرعيد لأنه يعلم أن أخاه أحقر من أن تقبله « العفري » بعلا لها فهي ترفض أبطال قبيلتها وصناديدهم وأثرياءهم ، فكيف تقبل هطيلا الصعـلوك القبيح ؟ ولكن هذا لا يمنع مرعيداً أن يسأل أخاه عن أسباب وقوفه مع (العفري) سأل (مرعيد) أخاه فلم يجبه فألح عليه ثانية فلم يجب بحرف واحد

---

(١) هطيل من ابناء عمها البعيدين وليس له من الحق ما يخوله النكاح من الفتاة ما لأبني عمها الاقربين (فهد ، ومحمد) وذلك حسب قوانينهم المتبعة ،

وانما دموع عينه كانت أسرع اجابة من حديثه وأفصح نطقاً من لسانه ، حاول الفتى أن يخفي عبراته ولكن عينيه خانتاه وفضحتا أمره.

انصرف أخوه عنه وهو يسخر من عقلية أخيه الذي يعشق فتاة رفضت الزواج من خيرة شباب عربها كلهم

أما الفتى هطيل فقد أدرك أن أخاه سينتقده ويستخف به ولكنه كان واثقاً بأن الفتاة زاهدة في كل بني البشر إلا فيه.

لهذا اضطر هطيل الى أن يشرح لأخيه حقيقة الأمر ، ويؤكد له أن « العفري » لا تريد من بني الانسان سواه ويوضح له أن بينه وبين الفتاة محبة راسخة منذ نعومة اظفارهما ، وانها قد اعطته عهداً ألا تقبل بعلاً في الدنيا سواه ، كما انه اعطاها عهداً من نوعه . وفعلاً ابلغ اخاه هذا الأمر وشرحه له بوضوح.

استغرب « مرعيد » هذا الخبر الذي هو أشبه ما يكون بالخيال والحلم ، غير أن اخاه يحدثه بلهجة الصدوق الواثق من نفسه . ولهجة الصدق لها طابع خاص تعرف به ولو كان هذا الصدق فيه شيء من الغرابة .

ذهب « مرعيد » الى ابني عم الفتاة الأدنين وطلبها منهما لأخيه فأجابا بالموافقة دون أن يبديا أدنى تردد لاعتقادهما ان ابنة عمهما التي رفضت النكاح منهما وممن يضارعهما ليس من المعقول أن تقبل « بهطيل » ذلك الفتى

الحقير في خلقته ، الفقير بماله ، الخامل الذكر في مجتمعه ، هـــذا ليس من المعقول من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يريان مانعاً من نكاحها من مثل هطيل فيما اذا صح المستحيل ورضيت « العفري » بهطيل قريناً لها . فمثل هطيل لا يجعلهما يحسدانه عليها ، لاعتقادهما انه ليس ممن يحسد على أمر من أمور الحياة ، لهذا وهباها له عن طيب نفس فلم يبق الآن غير قبول الفتاة .

ذهبت الأم الى الفتاة لتأخذ رأيها بهطيل فسألتها الأم وهي مستبعدة كل الاستبعاد قبول ابنتها قائلة : أي بنيتي لقـــد خطبك مرعيد لأخيه هطيل وقد رضي ابنا عمك بذلك وسمحا فهل تقبلينه ؟؟ تكلمها الأم بهذه الكلمات وهي تضحك ضحك الساخر المتعجب .

الفتاة : ولن أقبل في الدنيا بعلاً سواه .

الأم : ويحك أتقبلين هطيـــلاً الفتى الصعلوك الدميم الخامل وترفضين ابني عمك فهداً ومحمداً اللذين هما أجمل منه خلقة وأنبه صيتاً واكثر مالاً ؟

الفتاة : ان القضية قضية مودة يضعهـــا الله في القلب كيف يشاء وليست هي باختيار الأم والأب ولا باختياري وإنما هي قوة خارقة فوق طاقة العقل وحرية الاختيار .

الأم : هذا شيء يا بنيتي لا يخفى على وإنما ابدي رأيي لك بأن تتريثي

لعل نفسك تنصرف عنه الى من هو أوسم منه خلقة وأنبه ذكراً وأوفر مالاً ، لأن « هطيلاً » هذا لا اعتقد ان بين رجال العشيرة اقبح منه خلقة ولا أفرغ منه يداً ولا اخمل منه ذكراً .

الفتاة : اسمحي لي يا والدتي ان اجيبك على كل جملة من حديثك هذا .

الأم : تفضلي وهاتي ما عندك .

الفتاة : « أما قولك اصبري وتأني لعل نفسك تنصرف عنه إلى من هو أوسم منه خلقة وأنبه ذكراً وأوفر مالاً الخ .. فإني أؤكد لك أنني منذ بلغت الرابعة عشر من العمر حتى الآن حيث بلغت اثنين وعشرين عاماً ومودة « هطيل » لا تزال تنمو في نفسي وتغرس جذورها في مهجتي ولا زال عقلي من ذلك العهد يجاهد نفسي على أن أقلع عن مودته وانصرف إلى من هو أوسم منه وأثرى وأعلى شأناً كما تشيرين يا أم ، ولكن هيهات لقد أعياني ذلك . إذ أن الهوى له سلطان فوق نواميس الطبيعة فهو لا يعقل ولا يرحم هذا من ناحية[1] ، والناحية الاخرى يا والدتي يجب الا تجهلي أن الفتاة الحرة لا تنخدع بالفتى بمظهره وترضاه زوجاً من أجل وسامته وكثرة ماله

(١) منطق هذه الفتاة ينطبق وقول الشاعر البارودي .

وما الحب الا حاكم غير عادل	اذا رام أمراً لم يجد من يصده
له من لفيف الغيد جيش ملاحة	تغير على مثوى الضمائر جنده

إذ ان الوسامة والجمال للمرأة لا للرجل . اما الرجل فجماله عمله . واما وفرة المال فهذا عارض ربما يذهب عند ادنى حادثة من حوادث الدهر المفاجئة » .

الأم : ولم اجبتني على بعض جملي وتجاهلت الاجابة على ناحية رئيسية من النواحي التي تتوق إليها نفسية الفتاة العربية وهي ظاهرة من الظواهر الايجابية ولا اعلم هل تجهلينها ام انك اهملت الاجابة عنها لعلمك ان معشوقك عار منها ؟

الفتاة : ما هي هذه الظاهرة التي تشيرين اليها ؟

الأم : اعني نباهة الصيت وعلو الشأن في المجتمع فإن هطيلا محروم منها ولا وزن له بين قومه وليس له ماض جميل يعرف ويقدر به .

الفتاة : يجب ان تعلمي يا والدتي ان هطيلا لازال فتى والمستقبل فسيح امامه ، ولا يمكن ان نحكم عليه بشيء من الأمور الحيوية التي تبرز بها اخلاق الرجال إلا بعد ان تفاجئه الحوادث والملمات ، فاذا خاض معركة او جابهته ملمة ولم تبرز رجولته وكفاءته عند ذلك يحق لك ان تلوميني ان رغبته لي زوجاً ، وما دمت ترين ان مواهبه كامنة ولم تأت الحادثة التي تكشف عن مواهبه الغطاء فليس لك حق ان تذميه الا بعد التجربة[1] .

---

(١) كأن الفتاة تقصد ما اشار اليه المعري بقوله :

وقد يخمل الانسان في عنفوانه   وينبه من بعد النهى فيسود

الام : بارك الله لك فيه، والأيام بيننا ، وسننتظر هطيلا عسى ان يكون مستقبله أحسن من حاضره .

الفتاة : هذا ما اظنه واعتقده ولو لا أملي الطيب فيه لما رضيته لنفسي قريناً

بعد ذلك ذهبت الأم الى ابني عم الفتاة ، واخبرتهما بما تم بينها وبين ابنتها من الكلام ، وما انتهى الأمر اليه ، وفي مساء الغد عقد نكاح هطيل على معشوقته العفري وتم قرانهما في مساء ١٥ رمضان عام ١٣٣٣ هـ ومضت ليالي رمضان الباقية من الشهر ، والزوجان في اكمل ما يكون من السعادة والزهو والسرور ، ولم يبق في نفس هطيل وقرينته العفري من الأمنيات إلا شيء واحد هو أن يقدر الله حادثة عظيمة حتى يتمكن هطيلٌ من ابراز مواهبه المكبوتة لكي تكون له مكانة مرموقة في مجتمعه. ولتقنع به حليلته القناعة الكاملة .

وفي اول يوم من صباح عيد الفطر اتيحت له الفرصة المناسبة التي يحلم الزوجان بها ، وذلك أن غزاة من قبيلة مطير قدصبت غارتها على عرب الزوجين برئاسة أحد رؤساء القبيلة المدعو (مدباج أبو شويربات)، وقد كانت المعركه في موضع يدعى « الرديفة » . لقد سرّ هطيل وقرينته بهؤلاء الغزاة الذين هجموا على عربه في عقر بيوتهم ، وسيكون القتال الآن امام

النساء والرجال ، وهذا هو أقصى أمنية الزوجين ، وخاصة الفتى هطيل الذي تهلل وجهه طرباً وسرورا . لماذا ؟؟ ليقاتل قتال الأبطال وليبدي شجاعة خارقة كي يمحو عن نفسه آثار الخمول والانزواء اللذين مصدرهما الجبن ، لأنه يرى رجال قبيلته ونساءها يغمزونه ويلمزونه به بل ويزدرونه ويحتقرونه ويرون انه ليس بأهل ان تعشقه فتاة تعتبر من أنبل فتيات القبيلة لا بجمالها الساحر الفاتن فحسب بل برزانتها وعفتها وعراقة حسبها واصالة نسبها .

ان احساس الفتى وشعوره بهذا النقص ؛ خلق في نفسه باعثاً قوياً نحو الصموح وذيوع الصيت ليكون انساناً بارز الشخصية في الحيـــاة أو يموت فيريح نفسه من استهتار رجال قبيلته[1] به ، والشيء الذي هو أدهى عنده وأمر ، ذلك انه يعتقد جازماً ان قرينته العفري التي عشقته وطمحت له بالأمس سوف تعزف نفسها عنه فيما اذا خاض المعركة ولم يظهر بســالة خارقة ، لقد وثق هطيل بأن معشوقته ستنشز عنه وتستبدل به من هو أنجب منه وانبل من فتيان عشيرتها ان لم يحقق ظنها به .

---

(١) كأني بنفسه الطامحة تحدثه بقول البارودي :

على مَ يعش المرء في الدهر خاملا   أيفرح في الدنيـا بيوم يعده؟
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته   أضر عليه من حمــام يؤده

كل هذه العوامل الحية خلقت في نفس الفتى دافعاً جعله يقرر مصيره الذي اشار اليه أبو الطيب المتنبي بقوله :

اذا لم تجد مايبتر الفقر جالساً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة أومنية لعلك ان تبقي بواحدة ذكراً

وعندما انهالت الغارة على أهل الفتى ، اختطف بندقيته مسرعاً ثم نادى قرينته قائلاً : « اليوم يا ابنة العم سوف ترين من ابن عمك العمل الذي سيجعلك مرفوعة الرأس ، وناصعة الجبين بين رجال عشيرتك ونسائها ، هذا إن أسعدني الجد ونجوت من عاقبة هذه المعركة التي سأكون بطلها الفذ أو ألاقي حتفي فيها » .

كأنه يقصد ما أشار إليه علي بن مقرب الأحسائي :

فإما حياة لا تُذَمُّ ، حميدة يُحَدِّث عنها من أغار وأنجدا
أنال المنى فيها ، وإلا منيَّة تريح فؤاداً أجّ[1] من علة الصدا

اغرورقت عينا الفتاة ثم اجابته بهذه الجملة ودمعها كالسيل المنهمر : « ان هذا هو ما اعتقده فيك ولولا أملي الوطيد بفتوتك وايماني الراسخ برجولتك وشجاعتك لما اخترتك على فتيان القبيلة بأسرها » . ثم دنا منها الفتى بعد

(١) أجّ : مأخوذ من أجيج النار ، على ما ورد في شرح الديوان .

هذا الحديث فقبلها فضمته إلى صدرها بشغف فكادت أن تتحطم ضلوعهما من شدة دوافع المودة و الحب ، ثم قالت له : « ارجو ان لايكون هذا آخر العهد بك يا قرة العين » فأجابها الفتى : « لايهمني ان تكون هذه الساعة هي آخر العهد أو لا تكون ، وانما الذي يهمني هو أن ثغراً قبلته لايقبله ذكر من بعدي » فأجابته الفتاة : وهي تكفكف الدمع قائلة : « ثق واطمئن ان حياتي مرهونة بحياتك ولئن قدر الله شيئاً فلن أحيا بالدنيا بعدك ساعة واحدة » الفتى : هذا هو ما أظنه بك واعتقد .

ثم انطلق الفتى نحو العدو وقرينته على اثره تزغرد له وكأنها تسقيه كأساً من الخمر فازداد اندفاعاً وشجاعة من سماعه لصوت محبوبته المعسول، وما ان حمي الوطيس واشتدت الهيجا، إلا وهطيل من أبطال المعركة المغاوير المهاجمين ، بل كان في طليعة المناضلين والمحمسين لقومه فاتجهت بنادق العدو نحوه ، فأصيب بسهم خرق قلبه ، فكان أول قتيل من قومه وكان مصرعه رحمه الله في صباح عيد الفطر عام ١٣٣٣ هـ [1] وكان بالقرب من

(١) هذه الحادثة الوحيدة التي استطعت ان اعرف تاريخ اليوم الذي وقعت فيه والسبب ان راوي القصة الذي هو حاشم اللاحقي اكدلي انها حدثت في نفس العام الذي وقعت فيه معركة جراب المشهور لدينا تاريخها كما انه اكد ان زواجها كان في الخامس عشر من شهر رمضان وكان مصرع الزوج وانتحار الفتاة في صباح عيد الفطر ولهذا كان الأمر علي متيسراً بسبب علمي بتاريخ معركة جراب الواقعة في ٧ ربيع الاول سنة ١٣٣٣ هـ .

منازل عربه ، وحالما صرع أتته قرينته « العفري » فطرحت نفسها على جثمانه وشبكت يديها من وراء ظهره حيث اصيبت بذهول افقدها رشدها، وبقي الزوجان متشابكين كالجسد الواحد .

هذا والوطيس حام بين الغازي والمغزو ، وقومهما في شغل شاغل عنهما . وبعد ان انتهت المعركة عاد رجال القبيلة فاطلقوا يدي الفتاة من بعلها المقتول ، وحفروا له قبراً ليواروه فيه ، هناك هجمت الفتاة على حفرة القبر وناشدتهم بالله ان يفسحوا حفرة القبر ليواروها فيه مع قرينها المقتول، فلم تجد من يجيب لها النداء فأكدت لهم بأنها ميتة لا محالة وانها لن تبقى ساعة بعده .

كل هذا الحديث من الفتاة كان كالهذيان بنظر رجال الحيّ ونسائه ، فلما رأت ان لا مجيب لندائها ، عند ذلك خاطبتهم ثانية قائلة: اذن احفروا قبراً لي بجواره وليكن قريباً منه جنباً لجنب . فلم تجد ايضاً مجيباً ولا سامعاً فتركت القوم يعتنون بقبر المقتول وذهبت الى بيت أمها تنقب عن « سم »[1] موضوع في قلب صرة تعلم جيداً مكانه الذي وضع فيه فلما وجدته ابتلعته ، وحالما جرعته تغلغل في جسمها ، فشعر عربها بأمرها ،

---

(١) لا يخلو بيت أي عربي من البادية من السم لأن فيه علاجاً جيداً لمرض الجرب الذي يصيب الابل دائماً .

وقد كان العرب يستعملون علاجاً عربياً للسم وهو صوف يسل ويسقى المسموم ماءه ، وحالما يشرب المسموم هذا الماء يخرج من جوفه قيء فيهون المرض بخروج هذا القيء الذي يكون السم خارجاً به .

يقول لي راوي الحادثة حاشم اللاحقي الذي هو من العشيرة نفسها والمتصل بأهل الفتاة اتصالاً مباشراً : انه بعد مضي يومين من وقوع الحادثة أتى عشيرته فوجدهم بحزن من أثرها المفجع ، وأكد لي حاشم ان الفتاة عندما أراد اهلها ان يسقوها ماء الصوف كعلاج لها ، أبت ورفضت ان تشربه وقد وضعت يدها على فيها وعضت على اسنانها تحـــاول ألا تدخل قطرة من العلاج الى جوفها .

كانت تفعل ذلك وهي في غرغرة الموت حتى توفاها الله ، وفي اللحظة التي انتهي من مواراة قبر قرينها فاضت روحها فحفر قبرها بجانبه ودفنت بجواره فوراً . كما وعدت قومها واكدت لهم بأن هذا هو مصيرها النهائي .

كانت هذه الحادثة راسخاً اصلها في ذهني من سنين عديدة ولكني نسيت تفاصيلها وفروعها ، ومن عاداتي التي سرت عليها في كتابي هذه ألا أضع قصة حتى اكون متقناً لها من الناحية التاريخية ، ومن ناحية صحتها التي هي الاساس عندي ، وكذلك من ناحية تفاصيلها وكنت اذكر أن خير من يفيدني عن هذه القصه بصورة واضحة شخص من قبيلة شمر ومن

الفخذ الموالي لأسرة الفتاة ، وهو آنف الذكر حاشم اللاحقي[1] . وفي تاريخ ١٨ صفر ١٣٧٥ هـ ذهبت الى بيروت على سبيل المصادفة فوجدت « مِشَلّ التمياط »[2] مريضاً في مستشفى الجامعة الاميركية فسألته عن الحادثة فلم أجد عنده لها تفاصيل كافية فسألته عن حاشم أين هو ؟ لعلمي أنه ملم بالقصة فأفادني ان الرجل في بيروت قدم للعلاج من مدة قريبة فقلت في نفسي ،انها مناسبة ازور بها الشخص وأعوده فان وجدته معافى و وجدت لديه استعداداً للبحث بحثت معه والا اكتفيت بالعيادة وزرته فيما بعد في فرصة تكون أنسب من هذه الفرصة ، فذهبت اليه فوجدته قد شفاه الله نسبياً و تبادلنا الحديث حتى وصل البحث الى الغاية التي استهدفها ، فشرح لي القصة كما اوردتها آنفاً ووجدت نفسي لم أزد عن جوهرها الأساسي ولم انقص شيئاً عن أصلها ، اللهم إلا أن البحوث التي دارت بين الفتاة وامها عند الخطبة ، وكذلك البحث النهائي بين الزوجين عندما كان الفتى عازماً على لقائه

---

(١) شخص صدوق وثقة وميزته التي برز بها هي المهارة والخبرة بمعرفة ودلالة الصحراء ، فهو خبير بهذه الناحية خبرة قل أن يضارعه فيها أحد . وقد استعمله الملك المغفور له عبد العزيز عندما افتتح طريقاً للسيارات من جهة نجد الشمالية وهو الآن من خواص الأمير محمد بن عبد العزيز ، وحالياً أصيب بشلل خفيف ألم به وهو على وشك أن يبرأ منه . وحتى كتابة هذه الأحرف وهو مقيم في بيروت من أجل العلاج.

(٢) مشل رئيس فخذ يدعى (التومان) من قبيلة شمر .

للعدو باقدام وبطولة أقول : ربما شرحت معنى حديثها الشعبي الذي دار بينهما كما أني عادة اشرح معنى الشعر الشعبي وذلك بدون أن اخرج عن جوهر المعنى الأساسي .

قلب فارس في جسم فتاة

قصة (طَخّة ابنة ابن عزيز [1]) وقعت على وجه التقريب بين عامي ١٣٠٠ – ١٣٠٥هـ

كان الاجدر بهذه القصة أن تكون بعد قصة كنعان الطيار مع بنت عدوان بن طوالة مباشرة . ليكون ذلك أنسب لسياق القصة من ناحية تسلسلها من الوجهة التاريخية وهذا هو السبيل الذي انتهجته في كتابي هذا وحيث أن قصتنا هذه لم استفسر عن تفاصيلها إلا مؤخراً لهذا السبب جاءت اخيراً .

لقد كنت اعرف كنه القصة من حيث صحتها وانما نسيت اسم زوجها ، لهذا ما استسغت أن أضعها في كتابي حتى اكون ملما بها من شتى الوجوه ، وقد سألت غير واحد ممن أظن أن له علماً في القصة ، ولكنني لم اوفق رغم مابذلته من الجهد ، وفي تاريخ ٢٨ ـ ٦ ـ ١٣٧٥ سنحت لي فرصة الاتصال

---

(١) ابن عزيز شيخ عشيرة البعيج في العراق

بالأخ « عبدالله المشاري ابن سعدون» [1] حيث افادني مفصلا بصفته ممن يعرف القصة بحكم صلته المباشرة باصحابها ، فجاءت روايته متممة لمعلوماتي السابقة . التي أوافي بها القاريء بما يلي :

كان ابن عزيز رجلا لم يهبه الله ذرية وفي منتصف حياته رزق بنتاً فحدثته نفسه أن يربيها تربية خشنة علها تقوم عنده بالعبء الذي يقوم به الفتى ، وعلى أساس هذا التفكير ذهب يتولى العناية بها والتوجيه بنفسه فعلمها ركوب الخيل والرماية وعموم الأمور الحيوية التي هي من اختصاص الرجل الفارس، ولم تبلغ الفتاة الحلم حتى كان لديها من الاستعداد ما يؤهلها لأي عمل يقوم به أشجع الفتيان وأبسلهم ، ولم يقف بوالدهـــا الحد ان يوجهها توجيهاً خشناً سلبياً ، بل رأى ان يمتحن فتاته بالأعمال الحربية ، فغزت بمعيته مرة فأبدت بطولة خارقة ، واخيراً بلغت الفتاة من البطولة حداً جعل الرعب يدخل قلوب الأبطال المعادين لأبيها فسار بخبر بطولتها الركبان وبعد أن كان اسمها « طخة » اصبحت تدعى طخّاخاً [1] ولا زالت هيبة « طخاخ » في قلوب الفرسان تنمو وشهرته تزداد الى ان بلغت الذروة

---

(١) عبد الله من السعدون الذين هم رؤساء قبيلة المنتفق في العراق وهو الآن يقيم في مدينة الرياض وكان اجتماعي به في مدينة دمشق .

(١) أي ضرّاب .

القصوى واعتبر طخاخ من افذاذ الفرسان البارزين .

وشاء الله ان يتوفي والد طخاخ ويتولى من بعده رئاسة عشيرته ، ويكون له من الوقـــار وقوة الشخصية وهيبـــة الأعداء لجانبه ما يفوق والده .

لقد طالت الأيام على صاحب الترجمة وهو على هذه الحالة .

وآخر الأمر فرغ صبر طخاخ وظل في حيرة من نفسه التي ينازعها عاملان متباينان ، عامل اكتسابي وعامل طبيعي . فالأول يحدوه إلى ان يبقى على مـــا هو عليه باسم الفتى طخاخ الذي ارهب الفرسان ببطولته وساد العشيرة بقوة شخصيته ، ويكتفي من الدنيا بمـــا تمتع به نفسه من لذات المجد وذيوع الصيت ومظهر الفارس المرهوب ومحبة الزعامة والنفوذ ، وهذه الأمور الحيوية لا شك أن فيها لذة للنفس التي تذوقت طعم المجد ، ولكن طخاخاً يرى أنه رغم ما في هذه المعاني المجيدة من لذه ممتعة ، فإنها لذة مجازية لأنه لا يصل اليها إلا بشيء من التكلف الذي يخالف ما فطرت عليه نفسه من سجية أساسية راسخة في جوهره الطبيعي ، وعلى هـــذا الأساس سينقاد مرغمًا لقول المتنبي :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً   تكلف شيء في طباعك ضده

إذن فهو مضطر أن يلبّي صوت العامل الثاني الذي ينـــاديه ويأمره

بالتمتع باللذة التي هي شيء طبيعي بالنسبة اليه ، بل اليها الآن، لأنها ستعود منقادة لهذا الأمر الواقعي ، وقد قررت ألا تجابه الحقيقة بل ترجع الى اساسها الطبيعي ، ذلك أن دافع لذة الغريزة الجنسية كان اقوى من الدافع الأسبق ، فالأول فيه تكلف وعناء ، أما الأخير فهو شيء طبيعي لا تكلف فيه .

وعلى هذا الاعتبار اصبح طخاخ مضطراً ليعود الى اساسه الأسبق فتكون طخة [1] الفتاة ، فاذا عادت الى أنوثتها ملزمة على ان تنقب عن زوج ينكحها ، ولكنها لن ترضى أن يتزوجها بعل إلا بعد أن تؤمن ببطولته ، ولا يكفيها إيمان السماع به والشهرة ، بل يجب أن ترى ما يبديه من بطولة رؤية العين ، ولا يهمها سواء كان هذا الفارس من الأعداء أم الأصدقاء ؟

هذا وقد شاع هذا الخبر عند الفرسان فحرص كل فارس من فرسان أعدائها وأصدقائها أن يبدي امامها بطولة خارقة لعلها تهواه وترضاه لها بعلاً . ومصادفة وقع بين عشيرتها وبين قوم يقال لهم (القشعم [1]) معركة دامية ، فكانت النتيجة ان تصادمت صاحبة الترجمة هي وفارس من أبطال

---

(١) كلمة (طَخّ) في اللغة الشعبية هي بمعنى (ضرب) فطخّاخ بمعنى ضرّاب .
(٢) القشعم فخذ من الجعفر المتفرع من قبيلة شمر .

المعركة يدعى (جاسر بن قشعم) ولا أعلم أيهما الذي استولى على صاحبه[1]
والمقصود أنها اعجبت بالشجاعة التي ابداها جاسر ، وعلى أثر هذه البطولة
التي رأتها منه ، طاب لها ان ينكحها جاسر فخطبها او هي خطبته ، وتم
القران بينهما ، ورجعت طخة الى ما خلقت له وانجبت من جاسر بنين منهم
عقل الذي لا زال موجوداً في الرياض وهو يناهز الستين من العمر .

وسمعت ان احد ابنائها غضبت عليه عندما كان صغيراً فضربته
ضربة اودت بحياته . فكأنها متأثرة بنزعتها الأساسية ، لهذا تضاءل عندها
عطف الأم وحنانها على ابنائها .

(١) من مدة عشر سنوات سبق لي ان اجتمعت مع عقل بن قشعم الذي هو
ابن للزوجين . وأغلب ظني انه قال ان والدته هي التي طرحت والده . اما الرواية
التي تلقيتها من ابن سعدون تفيد ان كلا منهما طرح صاحبه ارضاً .

رجاء .. وشكر

انتهت طباعة الجزء الاول الأولى في العاشر من شهر رجب عام ١٣٧٥ هـ ٢٢ شباط عام ١٩٥٦ م ، وانتهى طبعه للمرة الثانية في شهر ربيع الثاني سنة. ١٣٨٣ (ايلول سنة ١٩٦٣ م) ويليه الجزء الثاني الذي سيصدر قريباً بحول الله ، وهو تحتوي على فصول لا تقل فائدتها عما في هذا الجزء منها : حماية الجار واكرامه ، والوفاء مع الرفيق ، واكرام الضيف ، واصطناع المعروف والمكافأة عليه ، والشجاعة العقلية والأدبية والحربية ، والصبر على حوادث الدهر ، وبر الوالدين ، وتنبؤات العقلاء . وربما نختم بقيته بفصل يحتوي على حوادث متنوعة .

هذا وإني اكرر ثانية ما جاء في المقدمة من الجملة التى رجوت بها القارىء الكريم الصفح عما يبدو من الغلطات المطبعية او الأخرى التي سبق القلم بها وفاتني استدراكه .

ولا يفوتني أن أشير ـــ شاكراً ومُقَدِّراً ـــ إلى ما قابل به الأدباء

والباحثون ، وجمهور القراء ــ الجزءَ الأوّلَ عند صدوره من عنـــاية واهتمام وتقدير ،بدت آثار ذلك فيما نشره كثير منهم في الصحف من تقريظ ؛ ونقد نزيه،وتوجيه ينبيء عن تقدير صادق ،ولقد تَمَنَّيْتُ أن يكون المجال مُتَّسِعاً لتسجيل كل ذلك، إلا أَنني وإن فاتني هذا ، لا يفوتني أن اسجل هذه الكلمة التي اعتبرها موجهة الى كل واحد من اولئك ، معبّرة عن عميق شكري ، واعترافي بفضلهم ، والله أسأل أن يلهمنا الصواب . ويهدينـــا سواءَ السبيل.

الفهــــرس



فهد المارك

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها و المكتبة الدولية

دمشق الرياض

الطبعة الرابعة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها
لصاحبها
محمد مفيد بن عزة النحيمي
الجمهورية العربية السورية
دمشق - ساحة النجمي - هاتف ١١٥٣٧٦

المكتبة الدولية
المملكة العربية السعودية - الرياض
العليا - شارع الثمانين - مجمع الخليج التجاري
هاتف : ٤٦٤١٨٥١ - ص.ب ٢٢٣٤٨

صورة المؤلف



أعوذُ باللهِ من قومٍ اذا اسمِعُوا
خيراً أسروهُ أو شراً أذاعوهُ

أبو العلاء احمد بن
عبد الله بن سليمان
المعري التنوخي



مقدمة

أخي العربي :اليك بعض شيم أهلك واسلافك التي كان لي الشرف بأن وفقت لجمعها وإخراجها من طي الأهمال الى حيز الخلود ، وقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من الطبعة الأولى شيئاً من معاني العبارات الآتية :

ـ أن هـذه الحوادث وان يكن فيها شيء من الروعـة الى الحد الذي يخيل للقاريء بانها وليـدة خيال مصطنع . ولكنها حوادث واقعية لا مجال للشك في صحتها . والسبب أن العربي بطبيعته ميال الى الصدق وأما الاحاديث المختلقة فإنها لا تعيش في عالم العربي العريق قطعياً ، والمرء الذي يعرف عنه الكذب لا يجد من يحترمه ، ولئن كان المرء الكـذاب عند العرب ممقوتا بصورة عامة . فإنه عنـد عرب البـادية منبوذ ومحتقر بصورة خاصة . والادلة على ذلك أكثر من أن تحصى وإذا شئت أن أورد شيئاً منها على سبيل الأختصار سرني أن آتي باعظم دليل على ذلـك : وهو أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام عندما جاء برسالته من ربه وشاء أن يقف منه مشركو العرب موقف المكذب والمكابر ، عندئذ تحـداهم

عليه السلام بما يعرفونه عنه من الصدق ، ولما لم يستطع أي مكابر أن يثبت عليه ادنى شيء مما تحداهم به ، عندئذ أقام عليهم الحجة البالغة ، مؤكداً لهم انه كإنسان عاش بين ظهراني قومه اربعين سنة . ولم يستطع ولن يستطيع ، أي واحد منهم أن يثبت عليه أقل حديث يمت الى ادنى معنى من معاني عدم الصدق باية صلة . فإنه من المستحيل أن يكذب على رب العالمين .

فكانت هذه البراهين أكبر دليل على اقامة حجة محمد على قومه ، وعندما وفد أبو سفيان الى « هرقل » سأل أبا سفيان هرقل عن النبي محمد قائلًا له ما معناه « أتعرفون عن محمد شيئاً من الكذب قبل أن يأتي اليكم برسالته » .

وبالرغم من أنه ظل مصراً على عداوته لرسالة محمد حتى اسلم يوم فتح مكة بالسيف . (١)

وعلى الرغم من أن أبا سفيان من اعظم زعماء قريش الذين تصدوا لعداوة الرسول ومحاربته ، بل هو زعيم قريش في غزوة أحد كما أنه زعيم قريش والاعراب المشركين قاطبة ومن دار بفلكهم من اليهود في غزوة الخندق .

أقول : بالرغم من ذلك العداء المتأصل في نفسية أبي سفيان وذلك الحقد الدفين رغم ذلك ، نجد أبا سفيان عندما وجه اليه هرقل السؤال

---

١ - كان ابو سفيان « رض » بعد ان اسلم من المناضلين دون الاسلام

المتضمن ما يعرفه عن محمد من صدق الحديث نجـــده ما استطاع إلا أن يقول : « كنا نعرفه صدوقاً عندما كان بين ظهرانينا . أما الآن فلا نعلم عنــه شيئاً » .

ويقول الرواة عن أبي سفيان انه قال : عندمـا سألني هرقل عمـــا اعرفه عن صدق محمد فكرت ملياً وشئت أن أفتري عليه وأقول أنـــه كذاب ، ولكنني خشيت أن قومي الذين يعرفون محمداً بالصدق وهم في الوقت نفسه حاضرون ويسمعون السؤال الذي وجهه هرقـل اليّ خشيت ان يحتقروني ، وانني سوف افقد منزلتي عنـدهم لا محالة فيما إذا سمعوا عني اني افتريت وكذبت .

فهذا خلق أبي سفيان وهو مشرك جاهلي يعبد الحجارة ورفاقـــه الذين يخشى انهم سوف ينبذونه إذا كذب ، هم الآخرون مشركون ومن نوعه . ولكنه رغم ذلك ، مـا استطاع أن يكـــذب ويفتري حتى على عدوه اللدود وعدو رفاقه معاً ، وإذا كان الخلق العربي يتنافى مع الكذب في الحين الذي كان العرب منغمسين في جاهليتهم ، فانهم بعدما هذبهم الاسلام وامنوا برسالة محمد بن عبد الله « ص » الذي قال .

« إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق » . بعد ذلك نجد محمداً اعتبر جريمة الكذب أعظم ، واكبر من جميع الذنوب بما فيها الذنوب الكبائر ، بل اعتبر أن الكذب جريمة لا تغتفر بدليل الحديث الوارد عن النبي عندمـا وجه اليه أحد الصحابة السؤال التالي :

أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال الرسول : نعم .

– أيشرب الخمر المؤمن ؟ قال : نعم .

– أيزني المؤمن ؟ قال : نعم .

– أيكذب المؤمن يارسول الله ؟ قال : لا .

ولما كان الكذاب منبوذاً عند العرب وهم جهلة . وجريمته لا تغتفر في الاسلام ، فانني أؤكد بأن جميع هذه القصص ثابتة ولا جدال في صحة ثبوتها . اما الاسباب التي جعلتها متوارية ولم تبرز الى عالم الوجود الى الآن هذه الأسباب سبق لي أن أشرت اليها في مقدمة الجزء الاول الطبعة الاولى ، وثمة سبب لم أشر اليه في الجزء الاول وهو ان مثل هذه القصص والحوادث لا يستطيع ان يكتبها الا كاتب من صميم أهل البلاد أنفسهم فحسب ،بل ويجب أن يكون لدى هذا الكاتب ثقافة باللغة العربية الفصحى. وثقافة أوسع بمعرفة الأدب الشعبي نظماً ونثراً . وفي الوقت ذاته ينبغي لمن يريد أن يتصدى للكتابة عن هذا التراث ان يكون لديه بالاضافة الى ما ذكرت المزيد من الاستعداد الفطري لتذوق هذه المعاني كما يكون لديه من الوقت ما يمكنه من التغلغل بين صفوف ابناء الشعب على مختلف طبقاته .

وهكذا ضاع هـــذا التراث القومي أو كاد يضيع بين الكاتب الذي لديه ثقافة عربية دون أن يكون لديه علم بالثقافة الشعبية – وبين الآخر الذي لديه ثقافة بعلم الادب الشعبي ولكنه ليس لديه قدرة على نقل هذا التراث القومي من اللغة العامية الى اللغة العربية الفصحى .

* * *

وبعد فان هـــذه القيم العربية المثلى هي المرآة التي تعكس الخلق

العربي لأنها من صميم الحياة العملية ، يطبقها أولئك القوم من نفوسهم على نفوسهم ، بدون أن يكون هناك أي قانون يرغمهم على تطبيقها مـــا عدا وازع الخلق فقط ، كما لم تكن أية سلطة تعاقب من يشذ عنها اللهم إلا سلطة الوجدان ومحاكمة الضمير ...

وهؤلاء العرب عندمـا يتدبر تاريخهـم المرء بوعـي وانصـاف ، فانـه قل أن يجد أمة في الدنيا توفر لديهـــا من الرصيد الخلقي كما توفر لناطقي الضاد ..

أما كون هذه الأمة مرضت ، وبعد مرضها المزمن الخطير قهرت ، وبعد هذا المرض وذلك القهر ، شمت بها ـ لا أعداؤها الموتورون فحسب ، بل حتى أبناؤها العاقون ، ومن ثم ذهب كل من هؤلاء وأولئك يحصي عليها هناتها ويسجل عليها كبواتها .. أقول : اذا كان الأمر كذلك كما هي الحقيقة المحسوسة ، فهذه سنة الكون ، تمرض الأمم كما يمرض الافراد ، وكما انه يوجد لدى بعض الافراد مناعة جسدية وصحية ويكون باستطاعته ان يقاوم جميـع الامراض مهما بلغت من الشدة ، كما يوجد عند بعض الافراد عكس ذلك ، وبقدر ما نرى هذه النظرية منطقية ومعقولة بالنسبة للافراد نراهـا أيضاً معقولة ولا تقبل الجدل بالنسبة للامم ..

واعتقد جازماً أن القاريء المنصف الواسع الاطلاع بتاريخ أمة العرب بصورة خاصة ، وبتاريخ الأمم البشرية بالمفهوم العام الشامل سيشاركني الرأي بأن العلل القاتلة والامراض المميتة والاوبئة المتتالية ، التي اصيبت بها الامة العربية ، لو اصيبت بها أية أمة كانت لمـا استطاعت ان تعيش يوماً من الدهر .

وإذا شئت أن أثبت صحة هذه الظاهرة بالأدلة المقنعة والبراهين النيرة ،

طاب لي أن أقول :

أيستطيع أي مؤرخ أن يثبت أن هناك أمـة استطاعت أن تتحدى الاحداث مـدة تزيد على ثلاثة عشر قرناً أي منذ مقتل عثمان بن عفـان الى يومنا هذا ومعاول الهدم تحاول أن تقوض صرحها الشامخ .. ومعدات النسف والتخريب تبذل ما استطاعت من الجهد لكي تهد بنيان هذه الامة من أساسه ..؟

فمن الحروب الاهلية التي ابتدأت بين علي ومعاوية ، ثم بين الخوارج وعلي ومعاوية .. ثم بين الامويين والزبيريين .. وبين الامويين والعباسيين.. وبين العباسيين والعلويين ، وبالتالي انتقلت السلطة الى يـد المماليك فمصر مثلاً .. التي كانت ولم تزل من أعظم البلاد العربية كان يحكمها احمد ابن طولون أحد المماليك ، كما كان يحكمها فيما بعـد المماليك الاخاشدة ، ثم حكمها كافور مملوك الاخشيدي ، وامتد حكم هذا المملوك الذي لم يكن مملوكاً للمماليك الاخاشدة فحسب ، بل ومعدوم (الفحولة) امتد حكمه الى الحجاز والشام ، ووفد اليه مادحاً أبو الطيب المتنبي وقال فيه :

قواصـد كافور توارك غـيره

ومن قصـد البحر استقل السواقيا

كما قال :

واخـلاق كافور إذا شئت مدحه

وأن لم اشأ تملي عليّ وأكتب

وأي معد يستحقك قدره
معد بن عدنان فداك ويعرب

ويكفيك عما يدعي الناس انه
اليك تعد المكرمات وتنسب

ثم قال فيه أيضاً :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
بأحسن ما يثنى عليه يعاب

ترى أي مرض أعنف وأشد واخطر من مرض امة يقول أبلغ شاعر من شعرائها بإنسان ككافور مثل هذه الابيات ..

ثم ذهب كافور وجاء إلى مصر ملوك الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي جاء هذا اليها غازياً وفاتحاً ، ثم جاء الايوبيون وازاحوا آخر من تبقى من سلالة الغزاة الفاطميين ، ومن المعلوم أن الأيوبيين من أصل كردي ، ، مع احترامنا واجلالنا للبطل الصنديد صلاح الدين الايوبي ، قاهر الغزوات الصليبية ، ثم بعد الايوبيين جاء المماليك الشراكسة ثم المماليك البحرية وحكموا مصر برهة من الزمان حتى جاء محمد علي جد الخديويين وقضى على

ما تبقى من سلالة المماليك بأسلوب كان الى الغدر اقرب منه الى الوفاء .. ومن المعلوم أيضاً أن محمد علي حاكم مصر لم يكن عربياً وانما كان ارنؤوطياً ، فهذا ما حل في مصر التي تعتبر من أكثر البلاد العربية عدداً واغناها بثروتها الاقتصادية .

وما نقوله عن مصر نقوله ايضاً عن العراق الذي ظل فيه الخليفة العباسي العوبة بيد مماليكه فينصب المماليك من يشاءون من اسيادهم واذا لم يرضوا عنه خلعوه أو قتلوه أو سملوا عينيه .

وأما الشام [1] فلا تسل عما كان يحل فيها من تدهور الأوضاع ومن الحروب الاهلية ومن استعانة بعض امرائهم بالغزاة الصليبيين على البعض الآخر ...

وأما الاندلس ، فلا داعي للحديث المحزن عنه ..

وأما المشرق العربي بما فيه شبه الجزيرة العربية واليمن وجنوب اليمن والبحرين وعمان وقطر الخ . فهذه الجهات كلها لم يكن نصيبها من التعاسة والتفرقة والحروب الاهلية والنعرات القبلية وسفك دماء بعضهم لبعض ، وسوء نظام حكمهم بأقل تعاسة من البلاد العربية السالفة الذكر . هذا اذا لم نقل أنها اسوأ من حالة تلك البلاد من شتى الوجوه ..

فهذه أوضاع البلاد العربية من حيث امراضها وعللها الداخلية ، واذا أضفنا الى هذه الامراض الداخلية العلل التي دهمت أمتنا من الخارج ، إذا أضفنا ذلك طاب لنا بل ساءنا أن نقول : أبتلي العالم العربي بغزوات

---

١ – كلمة الشام كانت تطلق على سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

متتالية ، وغزاة متباينين بأساليبهم الوحشية ومتفقين بأهدافهم العدوانيـة .. فمن الغـزو التـاتاري الى المغـولي .. الى الغـزاة الاوروبيـين المستعمرين ، بل المستغلين الذين غزوا العالم العربي وتقاسموا خيراته حقبـة طويلة المـدى ، فمنهم من دحر وطرد كالانجليز الذين طردوا من مصر والسودان ، وكالفرنسيين الذين طردوا من الجزائر ومن تونس ومن المغرب ومن سورية ولبنان .. وكالطليان الذين طردوا من ليبيا ، ومنهم من ظـل في بعض الاجزاء العربية يحاول محاولة مستميتة ان يظل كما كان يستغـل ثروة هذه البلاد على الرغم من ان محاولته هذه الفاشلة مخالفة لتطور العصر الحديث ، ومضادة لتيار الوعي العربي ، كمحاولة الانجليز البقـاء في الجنوب اليمني وفي البحرين وفي عمان الخ .. وفي بعض البلاد العربية التي وان كانت دولة مستقلة ذات سيادة ، ولكن خيراتها واموالها ظلت في البنوك الانجليزية تتمتع بريحها كما تريد ، وكيف تشاء ..

هؤلاء الغزاة الذين تكالبوا على هذه الأمة والذين لم تطب أنفسهم ان يتخلوا عن استغلالهم لمقدراتها واستعبادهم لحريات ابنائها ، حتى وضعوا وتد (جحا) [1] في قلب الأمة العربية ، وجاء هؤلاء الظالمون ،بمشردي اليهود وحثالة البشرية ، وقالوا للحثالة كوني دولة ، فكانت ، وقالوا فليكن اسمك اسرائيل فسميت بذلك .. وقالوا للامم المتحدة فليكن لها مقعد ضمن الدول الشرعية ،

---

١ – ينسب الى جحا الذي تنقل عنه الأساطير انه باع مسكناً له ولكنه استثنى من البيـع وتداً في الحائط ، فظن المشترون انه لا اهمية له .. ولكن جحا ظـل يأتي كل يوم ويضع على رأس هذا الوتد جيفاً منتنة مما جعل اهل المنزل يزهدون في منزلهم ، واخيراً هجروا المنزل فجاء جحا عائداً الى منزله ..

فلبت الأمم المتحدة هذا الطلب بما في ذلك الاتحاد السوفياتي .. لأن هذا الاخير بينه وبين العالم العربي صراع فكري وعقائدي لا يقل ضرره وخطره عن الاستعمار الرأسمالي الغربي .

* * *

هذه صورة مصغرة عن العالم العربي ، ولكن هذه الصورة على ضآلة حجمها ، تجعل بامكان ابسط انسان ان يحكم على هذه الأمة بأنها من حيث الماضي مريضة مرضاً مزمناً .. ومن حيث الحاضر فان قسما منها لا زال في دور النقاهة ، وان تكن دبت في عروقه بوادر الشفاء وبدأت الصحة تسير الهوينا في هيكله الذي انهكه المرض ، ان يكن الأمر كذلك فإن رواسب المرض المزمن لا زالت كامنة في جسده المهدد بنكسة المرض الخطير..

وهناك قسم آخر في سبيله الى دور النقاهة وهو لم يصل من الصحة الى الدرجة التي وصل اليها القسم الاول .. وهذا مما يجعلنا نكرر العبارة التي جاءت في السياق ونقول : اننا عندما ننظر الى هذه الأمة بعين الانصاف فإننا سوف نؤمن إيماناً لا يتطرق اليه الشك بأن لديها من المناعة الخلقية الشيء الذي قل ان يضارعها فيه احد ..

أجل .. لو لم يكن الأمر كذلك ، لقضت تلك العوامل قضاء مبرماً على حياتها من شتى الوجوه ، ولما بقي لهذه الأمة أدنى أثر في عالم الوجود ..

قد يظن أحد انني اتحدث بدوافع عاطفية بدون ان استند الى شيء

من الأدلة والبراهين ، ولكي افند هذا الظن يحسن بي أن اثبت صحة حجتي هذه بما هو آت :

.. ترى أيستطيع أي مكابر أن يثبت بالأدلة القاطعة بأن هناك أمة من الأمم واجهتها حوادث متتالية وحروب متعاقبة وأعداء من كافة أرجاء الدنيا سواء من المعسكر الغربي الرأسمالي الذي تصدى لعداء هذه الأمة بصورة سافرة علنية ذلك التصدي الذي لو لم يكن منه إلا خلقه لاسرائيل ومواصلة امداداته لها غذائياً وعسكرياً ومعنوياً وبالتالي تعهده بحمايتها فيما إذا شعرت بخطر يهدد حياتها من أمة العرب ..

أو من عداوة المعسكر الشرقي الذي لم يلتق على صعيد واحد هو وأعداؤه الغربيون إلا في عداوتها للعرب ليس إلا ..

أجل أية أمة من الأمم تضافر على عدائها هذان العدوان الجباران ومن ورائها اليهودية العالمية التي بذلت وسوف تبذل كل ما تملكه من قوة مادية في سبيل بقائها الذي لا يتم إلا على حساب سحق العرب .. قل لي بربك أية أمة تستطيع أن تقف لمواجهة هذه الاحداث القاسية بل القاتلة دون ان تتلاشى من عالم الحياة ..

زعم المستر -تشرشل- في مذكراته ، بل افتخر بأن شعبه الانجليزي وقف وحده أمام الجيش الالماني ، وهو زعم باطل من أساسه ، وذلك انه عندما دخل الحرب كانت فرنسا في بداية الأمر واقفة بجانبه ، فكان من نتيجة ذلك ان الجيش الالماني رمى بثقله كله على فرنسا فتنفست بريطانيا الصعداء .. هذا في بداية المعركة ، أما في منتصف المعركة فقد دخلت روسيا الحرب ، الأمر الذي جعل قوة الجيش الالماني تفك الحصار عن بريطانيا

وتذهب بجيشها اللجب الى روسيا .. فتنفست بريطانيـا أيضاً الصعداء مرة ثانية .. ثم جاءت خاتمة المطـاف بدخول امريكا الحرب بجانب بريطانيا .. يضاف الى ذلك ان امريكا من أول بداية الحرب وهي تمد بريطانيا بالغذاء والمعدات الحربية ..

إذن لم تقف بريطانيا وحدها ضد الألمان كما يزعم ويفتخر تشرشل ، ولو وقفت بريطانيا وحدها ضد المانيا وجهـاً لوجه بدون معونة ومؤازرة أية دولة ، لو كان الأمر كذلك لما بقي اليوم دولة في الدنيـــا تسمى بريطانيا !

ومن هنا نستطيـع أن ندرك مدى مناعة العالم العربي الذي كان ولا يزال صامداً وحده منذ قرون عديدة ضد جميـع القوى المتكالبة السالفة الذكر ..

ومما هو جدير باعجابنا بقوة المناعة الوقائية التي يتمتع بها العالم العربي، هو أن معاول الهدم التي تتصدى لسحقه وتحاول تقويض صرحه لم تكن محصورة بأعدائه الذين جاء ذكرهم في السياق ، بل حتى الانانيين والعاقين من أبنائه يسعون لسحقه بقصد أو بغير قصد .. فكم سمعنا ورأينا وقرأنا من العبـارات التي دبجتهـا اقـــلام بعض الكتاب العرب الذين لا يخلون من أحد امرين : أما ان قوة الاجانب المادية أعمت بصائرهم عن كل ما هو حسنة من حسنات أمتهم ، وجعلتهم ينظرون الى كل مـــا يصدر عن المنتصرين بعين ملؤها الاعجاب والتقدير وفقاً للمثل القائل :

(المغلوب الضعيف معجب بكل ما يصدر من غالبه ، وزاهد بما يصدر من ذويه)..وأما انه يخيل الى أحدهم انه لاينظر اليه كمثقف أو كفيلسوف

الا بعد ان يعلن ازدراءه لأمته ، وفي الوقت ذاته يشيد بإعجابه بالغزاة بكل تعبير عار من الكياسة والذوق والأدب ..

اجتمعت ذات يوم بعربي من النفر الذين لديهم ثقافة واسعة النطاق وذكاء متوقد وتفكير عميق .. بل ومؤلفات متباينة الاهداف ، فوجه الي صاحبي السؤال التالي :

– أراك ذكرت في مؤلفك «التطور الفكري» جملة تشير بها الى (انه لا يوجد أمة توفر لديها من المثل العليا كما توفر للأمة العربية) الخ ..

ولما كنت أعرف أن محدثي من النوع الاول السالف الذكر أي من المغرمين بأفعال المنتصر بقدر ما هم زاهدون وماقتون لما يبدو من المغلوب .. لما كنت أعرف هذه الحقيقة عنه فقد وجدت نفسي مضطراً لأن أجيبه جواباً مفحماً ومعقولاً فقلت :

« ترى لو أن هذه الجملة التي تريد أن تحاسبني عليها صادرة من كاتب ما بحق الأمة الانجليزية في القرون المنصرمة التي كان الانجليز فيها يباعون ويشرون في أسواق روما كما تباع السائمة والامتعة .. أما يجد ذلك الكاتب الذي يقول مثل هذه الكلمة من يلومه على كلمته هذه ويؤنبه كما تلومني أنت الآن ؟.

ثم استطردت وقلت : ان الظروف التي جعلت من الانجليز الذين يباعون في الاسواق بالامس شعباً يعتبر اليوم من أرقى الشعوب الغربية ، حرى بها الف مرة ان تجعل من الامة العربية أمة تسترد مكانتها في عالم التاريخ لانها أمة لديها مجد موروث في الحين الذي لم يكن للانجليز أدنى تراث

تاريخي عريق يضاهي تاريخ أمة العرب ..

فصمت صاحبي صمتاً لا أظن انه آمن بما قلت، كما انني لا أظن أن لديه جواباً يدحض به حجتي أو يفند به رأيي ..

* * *

ولما كان العالم العربي فيه من هو مريض مرضاً مزمناً موروثاً ومع ذلك لم ييأس ولم يستسلم للمرض الخطير ، وانما يحاول أن يسير في الطريق الذي سلكه الاصحاء ومن سار على الدرب وصل . وفيه من هو اليوم يمر بدور النقاهة الذي لم يتجاوزه بعد .. فإنه يجب علينا والحالة هذه أن نلتمس له جميع المبررات وان نؤمن بأن الزمان يسير لصالح العرب.. وان كانت بعض الدلائل الحالية لا توحي بالاطمئنان .. ولكن تطور الزمان يسير كله في جانب العرب .. وكل ما أرجوه هو أن يذكر أولئك الزاهدون بأمتهم العربية والمعجبون بأعدائهم ، عليهم ان يذكروا أن الفترة التي تسمى عند الاوروبيين بالقرون الوسطى .. أي فترة التدهور والانحطاط،هذه الفترة تعتبر عند العرب فترة الانتصارات والفتوحات والازدهار .

* * *

هذا وقد اجدني ملزماً بأن أذكر ان هناك من الكتاب من وجه اليّ

نقداً خاصاً في ما له علاقة بكتابي الجزء الاول ، والنقد الذي وجهه اليّ الناقدون هو قولهم : كان من الافضل على حد زعمهم أن أترك القصة على ما كانت عليه في لغتها الشعبية .

والحق ان الذين وجهوا اليّ نقداً بهذا المعنى أكثر من واحد سواء منهم من نقدني كتابة ومنهم من نقدني برسالة وجهها إلي بدون أن اعرفه - ومن صارحني بنقده شفهياً وجهاً لوجه . وعلى كل فانني متوقع مثل هذا النقد وفقاً للمثل القائل : « من ألف فقد استهدف » .

وكان جوابي عليهم جميعاً ما يلي :

أولاً - انني لو نقلت القصة باللغة الشعبية كما رويتها فانني لا أجد من يقرأها من الناقدين أنفسهم .

ثانياً - انني عندما أكتب هذه القصص العربية لا أقصد من وراء كتابتي لها ان اعرضها على العوام الشعبيين وإنما أقصد بأن انقلها بمعانيها الى عشرات الملايين من أمة الضاد بدون أن أبدل بأصل المعنى وجوهره أدنى شيء .

ثالثاً - لو كتبتها بلغتها الشعبية فانني سوف لا أجد من يقرأها من القوم الذين كتبتها بلغتهم اللهم إلا العدد القليل جداً ، وذلك للأسباب الآتية :

منها ان الذين يعرفون اللغة الشعبية بصفتها لغتهم المحلية فهؤلاء الكثير منهم عوام لا يحسنون القراءة كالبدو وأمثالهم .

ومنها ان الجيل الحديث من أبناء الجزيرة أصبح الكثير من متعلميهم

لا يعرف شيئاً من الأدب الشعبي بحكم شيوع الثقافة العربية الفصحى ، وحتى اذا وجدنا منهم من يعرف مثلاً معاني الشعر القومي فانه لا يتذوقه كما يتذوقه أهله القدامى ..

ومنها ان القصص الشعبية التي أوردتها في هذا الكتاب ليست مقصورة على جهة ما ، بل كما هو واضح انها من جهات شعبية مختلفة .

ومن المعلوم ان اللغات الشعبية عند قبيلة ما تختلف لهجتها عند القبيلة الأخرى ..

وما يقال عن اختلاف لغات القبائل الشعبية يقال عنه أكثر في اختلاف اللغة الشعبية مثلاً بين الجزائري والسوداني وبين الليبي واليمني - بل حتى بين ساكني شبه جزيرتنا العربية انفسهم ..

فهل يطلب مني هؤلاء الناقدون أن سرد القصة التي رويتها بلغة الليبي الشعبية أو بلغة السوداني أو الجزائري الخ ؟... هل يريد هؤلاء على حد رأيهم ان يكون كتابي مزيجاً من هذه اللهجات الشعبية المتباينة - تلك اللغات التي لو لم تسنح لي الفرصة بزيارة تلك البلاد ، ومخالطة اهلها لولا ذلك لما استطعت ان افهم من لغتهم الشعبية ادنى شيء ؟.

وهل ألام فيما اذا كتبت هذه الحوادث باللغة العربية الفصحى لكي يقرأها جميع ابناء الامة العربية من المحيط الى الخليج على مختلف لغاتهم المحلية؟..

وجوابي على بعض الادباء الذين تحدثوا معي صراحة قائلين : أما كان

الاحرى بكتابك « من شيم العرب » أن يكون ككتاب الاغاني وككتاب قصص العرب الخ من الكتب التي نقلها المؤرخون والكتاب عن العرب في لغتهم العربية ، ودونوها في نفس تلك اللغة .

جوابي على ذلك هو ان اولئك الكتاب الذين ألفوا تلك الكتب باللغة العربية انما نقلوها عن اهلها الذين كانوا يتحدثون اللغة العربية السليمة عندما كانت تلك اللغة هي لغتهم المحلية بدون ان يطرأ عليها اي تبدل يفسد جوهرها الاصيل .

* * *

وليس لدي من الجواب النهائي للاخوان الناقدين إلا أن أقول ـ هذا مجهودي الخاص الذي بذلت فيه جل جهدي منذ زهرة شبابي فمن كان لديه رصيد من هذا التراث فما عليه الا أن يدونه ويكتبه بالاسلوب الذي يختاره ، مع العلم بأن الفترة التي طبعت فيها كتابي الجزء الاول أخذت مدة بلغت ما يقارب عشر سنوات ، وكان الاحرى بالناقد أن يكون في خلال تلك الفترة ما استطاع أن يؤلف كتاباً « عن شيم العرب » التي لا حصر لها . وان يقدم لأمته شيئاً من هذا التراث بالاسلوب الذي يهواه ويختاره .

هذا جوابي على من ينقدني بما أشرت اليه من حيث نقد الكتاب من الذين لا شك عندي بأن نياتهم حسنة .

أما جوابي على الناقدين الآخرين الذين منهم من نقدني عن

قصد حسن ومنهم من نقدني عن نية الله أعلم بها ، وأعني اولئك الذين قالوا انني لم أكتب الا عن جهة معينة ، بل وقد بلغ ببعضهم الفقر من العلم والانصاف حداً لا مزيد عليه كما بلغ رصيدهم من العقلية القبلية الجوفاء درجة جعلت نقدهم اليّ موجهاً بمعنى يفهم منه بأنني لا اكتب الا عن جهة ما من الجهات التي تربطني بها رابطة القربى .

فجوابي على هؤلاء هو أنني كأي عربي مخلص لأمته أعتقد جازماً أن آية مكرمة تنالها أية جهة كانت من أمة العرب فإنما هي ملك مشاع للعرب جميعاً .

هذا جوابي بشكل عام - أما جوابي بصورة خاصة فهو انني أعلنت في صحف بلادنا المحلية أكثر من مرة طالباً من أي واحد له المام بالاحداث التي تمت الى الشيم العربية بأدنى صلة أن يوافيني بأي شيء من هذ التراث كما أوضحت فصول الكتاب الذي يشمل المعاني التي أطلبها من الرواة - ومن المؤسف انه لم يردني أي شيء من الحوادث التي تستحق أن أسجلها في حقل شيم العرب .

ترى هل يظن هؤلاء الناقدون او الحاقدون السطحيون أنني وجدت شيئاً من شيم العرب لجهة ما وانني اغفلته ؟

وانني اذ أرد على الناقدين من كلتا الجهتين . فإن من دواعي فخاري أن أقدم للقراء تعريفاً عن هذا السفر المتواضع موضحاً كما يلي :

الجزء الأول فيه ٣٢ قصة موزعة على الفصول الآتية :

الفصل الاول – الوفاء

الفصل الثاني – العفو

الفصل الثالث – الامانة

الفصل الرابع – عفة نساء العرب

الجزء الثـــاني ٤٥ قصة

الفصل الاول – حماية المستجير

الفصل الثاني – حماية الجار واكرامه

الفصل الثالث – الصبر على المصائب

الفصل الرابع – اصطناع المعروف والمكافأة عليه

الفصل الخامس– بر الوالدين وفطنة المرأة العربية

الفصل السادس – افعال البر والسخاء المحمود

الجزء الثالث ٣٨ قصة

الفصل الاول - الشجاعة الحربية

الفصل الثاني - الشجاعة الادبية

الفصل الثالث- الشجاعة الفكرية

الفصل الرابع- شجاعة الساعد

الجزء الرابع ٤٢ قصة

الفصل الاول - اكرام رفيق السفر والذود عنه
الفصل الثاني - النخوة العربية

الفصل الثالث-المروءة

الفصل الرابع-الفراسة

وأخيراً أرجو القارىء الكريم أن يقبل معذرتي فيا اذا وجدني اطلت الكتابة في هذه المقدمة ، وذلك لانها مقدمة لجميع الأجزاء الثلاثة ـ كما أن هناك بحوثا ذات علاقة بصميم هذا الكتاب اضطرتني الى أن استرسل في هذا الموضوع

كما أكرر رجائي من الناقدين الكرام من كلا الجانبين إن يكونوا الى جانب التسامح أكثر . ولا سيا اذا أكدت لهم ان ما قمت به بجمع هذا التراث هو اقصى ما بذلته من الجهد وابعد ما وصلت اليه من الاجتهاد والاخلاص وقديما قالت العرب لا يلام المرء بعد الاجتهاد

المؤلف

الفصل الأول

حماية المستجير

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه »

(قرآن كريم)



منتهى التضحية وأسمى معاني المروءة

- ١ -

قرأنا في كتب الأدب العربي وفاء كل من الأديبين المشهورين عبدالحميد الكاتب وعبدالله بن المقفع ، والرواية تفيد أن الاول كان متوارياً في بيت الثاني، خوفاً من سلطان الدولة العباسية التي كانت تنقب عنه لتضرب عنقه ، بصفته أمين سر مروان آخر خلفاء بني أمية الملقب بمروان الحمار ، وعبد الحميد بالاضافة الى أنه امين سر مروان كان كاتبه الخاص، بمعنى رئيس الديوان الملكي بالعصر الحديث وبعد الجهد الكبير الذي بذلته الدولة العباسية للعثور على عبد الحميد ، وجده جنود السفاح العباسي مختبئاً في منزل صديقه عبدالله بن المقفع حسب الرواية المنقولة .. وكان الجنود لا يعرفون شخص عبدالحميد مما جعل عبدالله بن المقفع يتطوع بمحض ارادته ووفاء منه ويلقي بنفسه بين جنود السفاح الجبار قائلا :

- ها أنذا عبدالحميد الكاتب الذي تسألون عنه، وعندما أراد أن يقوده الجنود الى عالم الاموات أسرع الكاتب وقال :

- ان الرجل افترى عليكم انني أنا عبدالحميد الكاتب أما هذا فإنما هو عبدالله بن المقفع. فأخلوا سبيل المقفع ثم قادوا الكاتب وقتلوه ..

لقد كان لهذه القصة مكانة مرموقة في كتب الأدب، مع العلم اليقين اننا عندما نوازن بينها وبين قصتنا لتي سوف نوردها في هذا الباب نجد أن هناك تبايناً كبيراً بين هذه وتلك :

أولاً ـ ان قصة ابن المقفع وصديقه وقعت في مستهل القرن الثاني الهجري أي من مدة اثنى عشر قرناً ونيف .. فإذا سلمنا جدلاً بصحة وقوعها فلنا أن نقول : ان الوفاء والتضحية بين الاصدقاء في ذلك العهد شيء مألوف ، ولم يكونا موضع غرابة كغرابتها بعصرنا الحديث الذي لا يقال عنه إلا انه عصر مادي عار ومجرد من أي شيء يمت الى الامور المعنوية أو الروحية بأدنى صلة من الصلات.

ثانياً ـ هناك من الاضطراب في الرواية ما يجعلنا نشك في صحة الحادثة عندما ناقشها من الناحية التاريخية على الوجه الآتي :

من المعلوم ان ابن المقفع كان مجوسياً ولم يسلم إلا في عهد الدولة العباسية على يد عيسى بن علي ، فيكون بين المقفع والكاتب تباين في الرابطة الروحية العقائدية التي هي أقدس الروابط وأوثقها صلة خاصة في ذلك العهد فإذا أمكن أن نصدق بأن أحد علماء المسلمين المتعصبين الاتقيـاء يفتدي نفسه بشيوعي متعصب كخالد بكداش مثلاً أو العكس ، إذا أمكن أن نصدق بذلك جـاز لنا أن نصدق أن مجوسياً كابن المقفع يفتدي نفسه ويدفعهـا قرباناً لمسلم كعبد الحميد الكاتب ..

ثالثاً ـ من المعلوم أن ابن المقفـع قتله المنصور في العراق سنة ١٤٦ هـ . وكان سنه وقتذاك ثلاثين سنة بينما نجد عبدالحميد الكاتب قتله السفـاح في مصر سنة ١٣٢ هـ . فمعناه أن ابن المقفع في سن السادسة عشرة في التاريخ الذي قتل فيه عبدالحميد، أي في سن المراهقة فكيف ترسخ عرى الصداقة بين كهل كعبدالحميد وصبي مراهق كابن المقفع .. ومن هنا يكون التباين سافراً بالعقيدة وبالسن ..

ومثل فصول هذه الرواية المضطربة يجعلنا لا نؤمن بصحـة قصة ابن المقفع والكاتب كإيماننا الراسخ بهذه القصة التي لا زال بطلها حياً، ورواتها على قيد الحياة وتاريخ حدوثها في عـام ١٣٦١ هـ .

في قمم الجبال

في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي رؤوس الجبـال الواقعة بقرب قرية تسمى (بيش) من قرى جـازان تقيم هناك قبيلة من قبائل العرب يقال لها قبيلة الصهاليل قحطانية النسب يعيش رجالها ونساؤها من ألبان ولحوم اغنامهم وزراعتهم .. وقل أن يأتي أحد منهم لمدينة جازان ، اللهم إلا في المناسبات الطارئة النادرة،وإذا قدر لأحدهم أن يأتي المدينة لقضاء غرض ما فيدخلها بحذر وبسرعة خاطفة ، فكأنه طير في قفص لا يهدأ له بال حتى يفارق البلاد وأهلها ويعود الى رؤوس جبـــاله يغرد بين أشجارها وهضباتها كالبلبل عندما تزدهر الاشجار وتينع الاثمار في ليالي الربيــع ..

ويعيش بين رجال هذه القبيلة فتيان أقوياء الشكيمة شديدو المراس وكل فتى منهم يرى لنفسه من الشجاعة والاعتزاز بالنفس القسط الوافر. ومن النادر أن يذعن بعضهم لبعض وكانوا مختلفين في سيرتهم وفي حـل مشاكلهم المتعددة ، فمنهم من لا يتورع من أن يكون قاطعاً أو سارقاً أو معتديـاً على ضعيف لا حول له ولا طول ، ولا يهمه إلا أن يثبت قوة عضلاته وشجاعته بين رجال قبيلته حتى يكون مهاباً بصرف النظر عن كون شجاعته هذه على حق أو على باطل فكله سيان مـا دامت النتيجة أن يهابه فتيان الحي ويخشون سطوته، ومنهم من يبتعد كل الابتعاد عن أذية أي كان ويحاول ما استطاع أن لا (يتحرش) بأولئـك الذين يؤذون ويظلمون من يقع بين أيديهم ..

أسد لا يؤذي ولا يرحم من يؤذيه

وكان من بين أولئك الفتيان القلة الذين لا يجتنبون الأذى والايذاء ما استطاعوا، فتى يدعى (ناجع الصهليلي) قليل كلامه ، كثير حياؤه ، لا يعرف عنه يوماً من الدهر انـه آذى أحداً أو أساء الى أحد ، كان في صمته يشبه الاخرس وفي حيائه

يشبه الفتاة العذراء ، كان جل همه رعي غنمه القليلة العدد التي لا يزيد لبنها عن حاجة أمه وأبيه ، ولكنه رغم اجتنابه المشاكل وابتعاده عن الأعمال العدوانية التي يقوم بها بعض اقرانه ، بالرغم من ذلك فان الفتى لا يدع البندقية تقع من يده لحظة واحدة ، فكان دائماً وأبداً متوشحاً بالذخيرة ومتقلداً بندقيته ومستبطناً خنجره ، وكان صمته الطويل ، وحياؤه الكثير ، لم يجعلا له وقاراً في صدور البعض من فتيان قبيلته ، الذين يعتبرون الصمت عجزاً ، والحياء ضعفاً ، وكذلك بندقيته التي لا تفارق يده وذخيرته التي يتوشح بها جنباً الى جنب مع بندقيته وخنجره المصقولة التي يضعها تحت صدره وفوق خاصرته من الجانب الايمن ، كل هذه المعاني لم تجعل له أية هيبة عند النفر الذين لا يعرفون لغة إلا اللغة التي من جنس عملهم الذي هو النهب والسلب والضرب ، والقتل اذا استدعى الأمر الى ذلك .

وفي احد الايام تجمع خمسة فتيان من الفتيان (القبضائية [1])وقدروا ان يهجموا على ناجع وينهبوا منه غنمه ويسلبوا منه بندقيته الجميلة وخنجره الفضية ، وفي غفلة منه أو عدم مبالاة منهم به ، هجموا عليه كما تهجم الذئاب على الحمل الوديع ، وفي أسرع من لمحة البصر انقلب الفتى الخجول الصامت الى اسد هصور ، فبرك على الأرض وصوب فوهة بندقيته التي كان في بطنها خمس طلقات نارية على الاول من المعتدين فأرداه قتيلاً ، ثم صوبها نحو الثاني فكان مصيره كمصير زميله ، وهكذا أبادهم كلهم في دقائق معدودة بدون ان يترك لأي واحد منهم فرصة للقتال أو حتى للفرار . .

كان لكل واحد من هؤلاء الفتيان صولة وجولة في البلاد ، وكان مصرعهم على يد ذاك الفتى الخامل الخجول مبعث السرور والاطمئنان في صدور كثير من المواطنين الآمنين وفي الوقت ذاته أدخل الرعب والهلع في قلوب قطاع الطرق

---

١ – كلمة قبضائية تطلق على اسم الفتيان المفتولي الساعد الذين يخيفون ولا يخافون لكثرة مشاكلهم ، ومفردها قبضاي .وهي تركية الاصل .

الذين رأوا أن طليعتهم لقوا حتفهم على يد ذلك الفتى الذي لم يأبهوا له ولم يحسبوا له أي حساب .

وكان من حق الوالي على منطقة جازان الذي هو خالد بن احمد السديري أن يعاقبه فيما لو جاءته أوامر صارمة من المرحوم الملك عبد العزيز تقضي بعقاب ناجع وما دام الملك لم يهتم كثيراً بأمر المقتولين بعدما شرح له الوالي بأنهم قطاع طرق فانه من مسلمات الأمور ان الوالي لم يعر القضية اهتمامه أكثر من انه وضع اسمه في حقل القائمة السوداء .

بلغ الخبر (ناجع) ان حاكم المنطقة وضع اسمه في القائمة السوداء للمجرمين وانه اذا ظفر به سوف يحاكمه على قتله المواطنين الخمسة ، ولكن ناجعاً لم ينقل كثير هم لهذه الاخبارية لعدة أمور :

أولاً – انه لا يفكر ان يذهب الى المدن التي فيها شرطة للحاكم .

ثانياً – وثوقه من نفسه ألا يستطيع أحد من الشرطة ولا من غير الشرطة أن يلقي عليه القبض لا ميتاً بعدما يدفع ثمناً لحياته من الرجال الذين يحاولون تسليمه للحاكم .

ثالثاً – انه مطمئن بأنه حتى ولو قدر المستحيل وهجم عليه قوم من جنود الحكومة وهو نائم ثم شدوا وثاقه وقادوه مكبلاً الى سجن الحاكم فانه لا يدينه الشرع الاسلامي لا بالقود ولا بدفع الدية بدليل الحديث النبوي الشريف القائل: « قاتل دون شراك نعلك».

وما دام ان شريعته تأمره بالقتال دون شراك النعل لمن يحاول الاعتداء عليه، فان من بديهيات الأمور أن يكون قتال كقتاله دون نفسه وماله جائزاً شرعاً وعقلاً...وحتى لو قتله المعتدون فان حكمه يكون كحكم الشهيد بدليل الحديث الشريف القائل : « من قاتل دون ماله وقتل فهو شهيد » .

كل هذه الأدلة كافية ان تجعل ناجعاً لا يخاف من الحاكم حتى ولو وقع بيديه .

لا أعرف مخلوقاً يجيرني سواك

أصبح لناجع من الشهرة الممزوجة بالهيبة والوقار قدراً جعله محطاً للأنظار وأمسى صمته الذي كان يعتبر بالأمس عجزاً ، يعتبر اليوم حكمة ، وحياؤه الذي كان يظن انه ضعف ، أصبح بعين مواطنيه قوة ووقاراً ، وبات الذي يخاف من أية قوة كانت ولا يعرف من يجيره ويحميه يذهب الى ناجع فيجده حصناً منيعاً لا تخفر له ذمة ولا يهتك له جوار .

وعلى هذا الاعتبار ليس الأمر غريباً أن يأتي الى بطل قصتنا شخص مطالب من قبل أحد امراء تلك المقاطعة وهو المدعو راشد بن غنيم الذي ولاه حاكم المنطقة على قرية (بيش) سالفة الذكر . لا ليس الامر غريباً أن يستجير هذا الشخص بـ(ناجع)ويؤكد له بأنه لا يعرف مخلوقاً يجيره ويحميه سواه،ولم يكن ناجع مسروراً بمجيء هذا الرجل الذي سوف يجر له مصيبة بعيدة المدى ، لأنه لم يكن مستجيراً به عن أمير القرية راشد بن غنيم الذي لا يعدو أن يكون أميراً عادياً وضعه والي جيزان في قرية متواضعة ، ولكنه مستجير عن سلطة الحكومة التي من وراء الوالي وحاكم المنطقة ، ولم يسع ناجع إلا أن يسلم أمره لله ويتخذ أقصى ما لديه من التدابير الوقائية لحماية جاره وأهم تلك التدابير وصيته لجاره بأن يبتعد ما استطاع عن الاماكن التي يمكن أن يراه بها شرطة حاكم القرية لئلا يقع بأيديهم لعلمه انه ما من أحد من الشرطة يجرؤ أن يقدم على مستجيره ما دام انه قريب منه ، لأن الشرطة أنفسهم من أهل البلاد ويعرفون ناجعاً جيداً ..

ولكن مستجيره وجه الشؤم لم يأخذ بوصيته ، فراح يدور حول الحمى حتى وقع بيد شرطة حاكم القرية ابن غنيم الذي اشبعه ضرباً بالعصي بدون أن تأخذه به رأفة ..

أردت عمراً وأراد الله خارجة

يعتقد ناجع أن مستجيره لم يرتكب خطأ بحق أمير القرية يستحق هذا العقاب

القاسي ويخيل اليه أن عقاب الامير له من أجل انه مستجير به ، وهذا يعني تحدياً من أمير القرية لكرامته ، وامعاناً بخفره لذمته ، بالاضافة الى ذلك ان قضية الضرب عند أهل اليمن تعتبر مهانة وتحقيراً من الضارب بحق المضروب وحسب تقاليدهم ان الرجل يقتل أهون وأفضل له من أن يضرب لأن الضرب عندهم لا يكون إلا للحمار .. أما الرجل فلا يضرب .. ولو خير المضروب بأن يضرب بالعصا أو بالسيف لفضل الاخير ..

كل هذه الامور حفزت ناجعاً على أن ينتقم من ابن غنيم الذي تعمد اهانته بضربه لجيره ، وإنما كيف الطريقة التي يتمكن بها أن ينتقم منه ، فأبن غنيم في وسط القرية وهو أميرها وقصره منيع فيتحتم على ناجع والحالة هذه أن يعرف أولاً أسواق القرية .. والطريق الذي يؤدي الى القصر ،ثم ينبغي له بعدما يعرف القصر أن يعرف المكان الذي ينام فيه ابن غنيم في وسط القصر ، وإذا تأكد من ذلك عليه أن يقدم على تنفيذ خطته ..

وهكذا راح في احدى الليالي يتعرف أسواق القرية ثم راح في الليلة الثانية يتعرف الطريق الذي يؤدي الى القصر .. ثم الى معرفة المكان الذي ينام فيه أمير القرية وبطبيعة الحال كان يروح في لياليه هذه الثلاث مختبئاً وبعدما تأكد من معرفة هذه الاشياء وعرف كيف يحسن الدخول والخروج ، عند ذلك توشح ذخيرته وتقلد بندقيته واستبطن خنجره وراح الى القرية في آخر الليل ، حتى وجد الامير (كما يظن) نائماً في فراشه المعتاد الذي سبق أن سبر غوره فيه ، فوثب عليه وقطعه أرباً في خنجره بدون أن يحتاج الى اطلاق الرصاصة التي تحدث دوياً قد يصحو من أثر صوتها النائمون في القصر ثم عاد الى جبله هادىء البال بعدما قضى على حياة الرجل الذي تعمد اهانة مستجيره لا لشيء وإنما من أجل أن يخفر ذمته ليس إلا ، ومن خفر ذمته بمستجيره ، فليس له إلا هذا العقاب..

ولم يخطر ببال ناجع قطعياً ان الامير ابن غنيم لا زال حياً سليم القوى وانه بتصرفه هذا الخاطيء قتل نفساً بريئة من أهل القرية الذين يبيتون في دار ابن غنيم ، هذه الخطيئة لم يعرفها إلا فيما بعد ، حيث ثبت لديه مؤخراً بأنه حصل معه

كما حصل مع الخارجي الذي تعهد بأن يقتل عمرو بن العاص عندما يؤم الجماعة في صلاة الفجر كالمعتاد . إلا أن عمراً في تلك الليلة بالذات تأخر عن صلاة الفجر ووكل عنه بالنيابة (خارجة) فقضى الخارجي على نائبه ظاناً انه عمرو ، وهذا ما حصل مع ناجع طبق الأصل الذي حصل مع الخارجي .

من يصطاد الأسد في مغارته

بلغ الخبر حاكم المنطقة السديري فتكدر جداً لهذا النبأ ، وإذا كان الحاكم ترك ناجعاً في قتله للخمسة الفتيان ولم يحاكمه فان السبب لذلك يعود الى أن الملك عبدالعزيز لم يأمر بعقابه ، أما الآن فأنه من المستحيل أن يتركه بعدما قام بعمليته هذه ، لأن بقتله لهذا الرجل في وسط دار الامارة تحدياً للحكم واستهتاراً بسلطة الحكومة بصورة علانية ، وإذا لم يؤدب الحاكم هذا المعتدي فانه سوف يتجاسر الناس على الفتك بعضهم ببعض فكل من له ثأر عند أي واحد من أهل البلاد فانه سوف يذهب ويأخذ ثأره بيده ، بدون أن يرفع الأمر للحكومة وعندئذ سوف لا يكون للحكومة أدنى هيبة وسوف تعم الفوضى جميع البلاد

وليس أمام الحاكم الا أن يلقي القبض على ناجع ليعاقبه بضرب عنقه ، ولكن المشكلة تأتي عند اختيار الجنود الذين يتولون تنفيذ هذه المهمة ، ولاسيما وقد بلغ الخبر ناجعاً أن الحاكم أهتم في أمره وانه سوف يأمر رجالاً من جنوده مهمتهم استلامه وتسليمه اليه ، لم يهتم ناجع كثيراً لهذا الانذار ولم يغير شيئاً من سلوكه ، فبندقيته التي أردى بها الخمسة لا يضعها من يده بل ظلت على ما هي عليه وخنجره الذي مزق به أشلاء المعتدي على مستجيره كما يتوهم ظلت مصقولة كما كانت ، فان يكن بدل شيئاً فإنما هذا التبديل يكون في ناحيتين :

الاولى – هي موضع منامه ، فقد غيره عن المعتاد فظل ينام في مكان مجهول ،

الثانية – قضية الذخيرة لم يتركها على ما هي عليه وانما باع عدداً من غنمه واشترى بثمنها زيادة من الرصاص ، كما ازدادت عنايته ببندقيته التي ظل يتولى

تنظيفها بصورة دائمة .. وعند ذلك أوصى ناجع جنود الحاكم بصورة غير مباشرة قائلاً لهم : من أراد أن تثكله أمه فليأت :

لم يكن الحاكم جاهلاً حصانة الجبال التي يختبيء في قلبها ناجع ولا جاهلاً باقدام وشجاعة الفتى .. ولذلك لم يفكر أن يعرض جنوده لمغامرة قد تكون فاشلة وقد تكون ناجحة فإن كانت الاولى فهي نقص على الحكم فيما إذا تظاهر بارسال جنود من عنده ومن ثم عجز الجنود عن استلامه أو قتله .

وان كانت الثانية وظفر جنوده بقتله أو استلامه فإن ذلك لا يتحقق إلا بعد أن يخسر من رجاله عدداً كثيراً ، مع العلم بأن تسلمه حياً يكاد أن يكون مستحيلاً والحاكم في حالة كهذه يود أن يتسلمه حياً لكي ينكل به .. فيكون قتله له عبرة لمن يفكر أن يقوم بعملية اعتداء وتحد لسلطة الحكومة كعمليته هذه ، أما قتله في جباله بطريقة اغتيال أو ما شابه ذلك فإن هذا ليس بذي أهمية بالنسبة للحاكم الذي يفضل أن يأسره قوياً سليماً ..

تضحية خارقة ومروءة نادرة

لم يجد الحاكم بداً من أن يجمع أهل الحل والعقد من رجاله ومن أهل المدينة ليأخذ رأيهم في موضوع هذا المعتدي المتحدي لسلطة الحكومة وحينما اجتمع القوم شرح لهم الحاكم موضوع جدول الاعمال الذي طلبوا من أجل دراسته فتداولوا الرأي وافترضوا شتى الاحتمالات وفكروا وقدروا فوجدوا كل الاحتمالات والافتراضات التي من شأنها أن يؤسر الفتى وهو سليم القوى ، وجدوها احتمالات عقيمة وافتراضات مستحيلة ، إذاً كيف الوصول الى الغاية ؟.. أيترك متحدي الحكومة ، فهذا شيء ليس من الحكمة أن لا يؤدب معتد وقاتل كهذا .. وبعدما استعصى عليهم الامر أو كاد خطرت فكرة لأحد الرجال أو للحاكم ذاته .. تؤدي الى أسر ناجع

ومضمون هذه الفكرة يتلخص باعتقال الرجل الذي استجار به ، والذي كان السبب الرئيسي لاقدام ناجع على القتل ، وقد قدر صاحب هذه الفكرة انه في حالة اعتقال مستجيره فإنه سوف يحاول أن يفعل المستحيل لاختطاف مستجيره من السجن وسوف يكون التحدي له سافراً ، كما انه سوف يتبدل الموقف بدلاً من أن تكون المغامرة من جنود الحاكم عندئذ سوف تكون المغامرة منه هو ، وعوضاً عن أن يكون الهجوم من الشرطة وهو مختبيء ، يكون الهجوم منه ورجال الشرطة مختبئون لاقتناصه ، كانت الفكرة سليمة جداً ، وعلى الفور بعث الحاكم جنوداً ليأتوه بمستجيره المشؤوم ، ولم يكن اعتقال المستجير شيئاً فيه أدنى صعوبة لأن ناجعاً لم يخطر بباله أن الحاكم سيتركه ويذهب لمستجيره ليتخذه طعماً لاصطياده ، لا لم يفكر ناجع بهذه الفكرة قطعياً ،ومما لا شك فيه بأنه لو خطرت هذه الفكرة في باله لما تخلى عن حمايته ، وهكذا تم اعتقال مستجيره ليلاً وهو مختبيء في رؤوس الجبال لا يعلم شيئاً عما تم لجاره حتى إذا عاد الى أهله أخبره سكان الحي بما تم بأمر جاره ، وكانت التعاليم من الحاكم للشرطة تقضي بأن يضربوا جار ناجع بعد اعتقاله أمام سكان الحي لكي يثيروا حماسه أكثر حتى يتمكنوا من اتقان الطعم ونصب الفخ لاصطياده بكل سهولة ، وقد نقل السكان لناجع بكل أمانة المعاملة القاسية التي عامل الشرطة بها جاره من ضربه باعقاب البنادق الى ركله بالاقدام الى صفعه بالحذاء من الأمور التي لم يقصد بها المستجير طبعاً ،وإنما يراد منها استفزاز ناجع لعله يغامر لاخراج مستجيره من السجن ومن ثم يقع بيد الكمين من الشرطة الذي نصبه الحاكم له.

وكان الامر كما توقعه الحاكم فقد تسلل الفتى في الليلة الثانية الى مقر الحاكم محاولاً أن يهجم على الشرطة ويخرج مستجيره من دار الحكومة بالقوة ويقتل من يقف بوجهه من الشرطة ، ولكن محاولته باءت بالفشل أمام رجال الشرطة الذين بذلوا أقصى ما لديهم ليعتقلوه ، أو ليحولوا بينه وبين اختطافه للسجين ، وقد تمكنوا من الثانية ، ولكنهم ما استطاعوا أن يلقوا عليه القبض .

وقد استمرت محاولته وهجومه ليالي عديدة دون أن يفلح كلا الجانبين بمهمته فلا ناجع تمكن من أن يختطف مستجيره من سجن الحكومة الذي كان محاطاً

بالشرطة ومن وراء الشرطة ابواب واقفال الخ .. ولا جنود الحاكم استطاعوا أن يعتقلوا ناجعاً الذي ظل يوالي هجماته الليلية بمزيد من الحذر واليقظة ، فهو كما يقال في المثل الدارج : (يثب وثوب النمر ويروغ روغان الثعلب) ..

طالت المحاورة بدون جدوى ، وسئم الشرطة من سهر الليالي المتتالية بدون أن يسأم ناجع أو يبدو منه كلل أو ملل ، ذلك الفتى ذو البأس الشديد والعزيمة الماضية ..

وبعدما طالت المدة بلا جدوى ، عندئذ احتبل الحاكم حيلة اخرى ذلك انه أشاع انه سوف يقتل السجين اقتصاصاً منه عن الرجل الذي قتله ناجع ، والحاكم عندما أشاع ذلك قاصداً أن يظفر بأحد الأمرين لا محالة ،وهما: أما ان يغامر ناجع مغامرة انتحارية لا مغامراته السابقة التي فيها كر وفر ،أو أن تكون الاخرى وهي انه متى ما تعذر على ناجع اختطاف مستجيره وثبت لديه بأنه سوف يقتل بأسبابه عند ذلك يأتي ويستسلم عن طيب نفس ومحض ارادة ، مفتدياً مستجيره بنفسه ...

وثقة الحاكم بوقوع احدى الحالتين جعلته يؤكد لرجاله بأن يشيعوا ويذيعوا أن مستجير ناجع سوف يقتل في يوم كذا في بلدة كذا ، واتبع الحاكم هذه الاشاعة عملية اخرى ، وهي انه أمر بنقل السجين من المكان الذي كان فيه الى البلدة التي أشاع بأنه سوف يقتل فيها ..

وصلت هذه الاشاعات الى ناجع ، وفكر . وقدر كيف يفعل ؟.. أيترك مستجيره يقتل بسبب عمل هو قام به ؟ فهذا شيء لا يطيق احتماله شجاع أبي كناجع ؟ أيغامر مغامرة انتحارية لينقذ رقبة مستجيره من السجن ، فهذه العملية أيضاً قد لا يحصد من ورائها إلا الافلاس من ظفره بانقاذ حياة صاحبه ووقوعه في فخ الحاكم المنصوب له ، أو انه يسلم نفسه ليفتدي جاره ..

كانت الاحتمالات السالفة الذكر كلها يرى انها سلبية وعقيمة ما عدا الاخيرة فانها هي الحل العملي ، ولكن هذا الحل ليس بسهل المنال ، ولا هو رخيص

الثمن ، بل ثمنه غال وغال .. وأي ثمن أغلى من حياة المرء تلك التي كل ما يناله الانسان ويكسبه من مال وبنين وجاه ، كل هذه المعاني الحية يدفعها المرء فداء لحياته عندما يستوجب الأمر لأن الابن يمكن أن يأتي عوضاً عنه ابن ربما يكون أصلح منه ، والمال بالامكان ان يستعيض الانسان عنه بمال أكثر من سابقه وكذلك الجاه أو السلطة ...

كل هذه المظاهر بالامكان أن يأتي مثلها أو خير منها ، ولكن الحياة في هذه الدنيا لا يمكن أن تبدل بحياة ثانية ، وبالتالي قرر ناجع القرار الحاسم الصادق انه عندما يتعذر عليه اختطاف مستجيره ، فإنه سوف يسلم نفسه السلطة لتضرب عنقه فداء لمستجيره ، كانت السلطة قد اتخذت بعد ذلك اجراءات حاسمة أكثر منذي قبل ، كما أمرت بأن يؤخذ السجين من مكانه الى المكان الذي اشيع انه سوف يقتل فيه ، وكانت هذه الاخبار تصل ناجعاً وعندما قررت الحكومة نقل السجين الى المكان الآخر ، كان ناجع يعلم كما أشرنا آنفاً أن السجين نقل من مكانه ، ولكنه يجهل أن الغاية الاساسية من نقله هي التمويه عليه ، لكي يفعل المستحيل ويسلم نفسه ، هذه الناحية لم يدركها ناجع لأنه سر كامن في نفس الحاكم لا يعلمه أحد ، وكل ما يعتقده ناجع بأن مستجيره سيؤخذ من سجنه لينفذ فيه الاعدام في بلدة غير بلدته التي سجن بها ، فراح يتبع أثر الشرطة الذين يتولون نقله وحراسته ، فإذا نزلوا في مكان ما ، اختبأ وتوارى محاولاً أن يهجم عليهم لعله يوفق في اختطاف السجين ، ولكن الجنود كانوا كثيري العدد وبالاضافة الى كثرتهم كانوا واثقين بأن صاحبهم سوف يحاول ما استطاع الهجوم عليهم ، ولذلك ليس بالأمر أية غرابة فيما إذا اتخذ الجنود شتى الاحتياطات اللازمة التي من شأنها أن تحول دون اختطاف السجين من بين أيديهم ، وفي الحين الذي شعر ناجع بعجزه عن اختطاف مستجيره ، وفي تلك اللحظة التي كان فيها الجنود يسيرون بالسجين مطوقاً من جميع الجهات ، ساعتئذ قرب ناجع من الجنود فناداهم قائلا :

ــ ها أنذا فلان .. قد عقدت العزم بأن أسلم نفسي اليكم على أساس أن تطلقوا سراح مستجيري ..

واعاهدكم الله على انني سأفي بما قلته لكم من تسليمي لنفسي بيدكم راضياً ، علماً مني بأن مصيري ضرب عنقي لا محالة ..

فأجابه كبير الجنود الذي لا يخلو من أن يكون لديه تعليمات من الحاكم فيما اذا اتخذ ناجع موقفاً كهذا فقال له :

– ان كنت صادقاً فيما تقول فما عليك الا ان ترمي بندقيتك وجميع سلاحك من يدك وتسلم نفسك مجرداً من أي سلاح ..

فأجاب قائلاً :

– هذه بندقيتي[1] فمن شاء منكم ان يستلمها فليتفضل . فاقبل اليه احد الجنود واستلم منه بندقيته وعتاده وخنجره كما أمر ان يطلق سراح السجين المرهون..

السجين يموت فجاة !!!

ذهب السجان ليبشر السجين الاول بالفرج وليدخل مكانه السجين الجديد معتقداً انها البشرى التي ما بعدها بشرى ، بينما هي السهم الذي مضى الى قلبه واوقفه عن الحركة .. ذلك انه عندما تأكد بالعفو عنه واطلاق سراحه وان مجيره جاء في محله فاديا نفسه عنه حتى شهق شهقة فارق فيها الحياة . فدنا منه السجان ليتأكد من أمره فوجد تلك الاخبارية التي خيل اليه انها بشرى سارة يزفها الى فؤاد السجين ، كانت حساماً صارماً مزق قلبه .

أصيب السجان بذهول ، وقبل ان يخبر مرؤوسيه بما حل بالسجين الاول ، راح مبدئياً يدخل السجين الاخير ويشد وثاقه وهو يرتعد خوفاً ، فكأنه كان يكتف اسداً لا يدري متى ينقض عليه فيقده بنابه، مع العلم ان اسده هذا لم يسلم نفسه الا بعدما قلع أنيابه بيده وقلّم اظفاره بنفسه ..

أدخل السجان سجينه الاخير بدون ان يخبره بما حل بصاحبه .وأقبل ناجع الى صديقه ظاناً بأنه نائم فتركه رحمة به ، لا يريد أن يفاجئه بوجوده واثقاً،بأن ذلك يزعج مستجيره . ولم يخطر بباله ان الازعاج سيبلغ بـه الى مصيره النهائي .لا ، لم

---

١ – انهى لي الراوي الامير خالد السديري الذي لا زال على قيد الحياة والذي كان حاكما لتلك المنطقة بأن ناجعا عندما أشار الى الجنود بقوله (هذه بندقيتي)كان ممسكا بندقيته من فمها لا من عقبها لكي يؤمن الجنود .

يخطر ببـال ناجع ان مستجيره سبقه الى الموت . فكل ما يظنه ان مستجيره في سبات عميق . فظل ينتظر السجان ليتولى ايقاظه ، لكي يخرج من السجن كوفاء بالعهد المتبادل بينه وبين كبير الجند لأنه لم يعد في بقاء مستجيره أية فائـدة بعدما سلم نفسه للسلطة ! ولم يطل انتظاره للسجان ، فقد جاء السجان ونفر معـه لينقلوا جثمان الميت ، فكانت مفاجأة لناجع عندما أخبره السجان بالأمر الواقع ، وكم كان حريصاً على ان يذهب الى عالم الاموات قبل مستجيره، ولكن مستجيره هو الآخر يبدو انه رأى ان حياته بعد مجيره الوفي ستكون عبئاً ثقيلاً عليه ، فلم يكن لديه بد من أن يعمل بوصية شاعر المهجر المرحوم ايليا ابي ماضي :

واذا نبا العيش الكريم بماجد   حرّ رأى الموت الكريم صوابا

الامر يحال الى الحاكم الشرعي

أخرج السجان جثمان مستجيره بعدما طبعه بقبلة صامتة ، ان عبرت عن شيء فإنما تعبر عما يحدّث ناجع به عن نفسه من امنيته التي كانت تختلج في كيانه، وهي انه كان يتمنى من صميم قلبه أن يقبل صاحبه حياً لا ميتاً ، وكان عزاؤه الوحيد، أنه قام بواجبه وجعل حياته وفاء لحياة مستجيره .

بلغ الحاكم بما حدث من استسلام ناجع بمحض إرادته ، ومن موت مستجيره بالسكتة القلبية.

وعلى الفور رفع الحاكم القضية الى المرحوم الملك عبدالعزيز بكل تفاصيلها ، فكان الجواب من الراحل يشير الى أمره باعادة معاملة ناجع الاخيرة الى الحاكم الشرعي ، وان لا تثار قضيته الاولى التي قتل فيهـــا خمسة الأنفس ، بحكم أن أولئك معتدون عليه ، وان قتلهم لا يعدو ان يكون دفاعاً عن النفس . ومعنى ذلك ان الملك أمر واليه السديري ان يتجاوز عن حقوق الحاكم في اعتـداء ناجع على قصر الامير ابن غنيم الذي يمثل سلطـــة الحكومة في القرية ، معتبراً التقاليد العربية والعرف السائد في قضية حمـاية المستجير في عالم الشيم والعادات العربية ،

ومقدراً ايضاً الوفاء الذي قام به ناجع بتسليمه نفسه عن رضـــاء وسماحة نفس ، فأصبحت القضية الآن بيد القاضي الشرعي ، واصبح ناجع مطالباً من قبل ورثـة الشخص الذي قتله في قصر أمير القرية اعتقاداً منه انه الامير ..

والقول الفاصل الآن بيد القاضي ، وما تحكم به الشريعة الاسلاميـة في ظرف كهذا فهو الحكم الذي لا يقبل الاستئناف ، ولا المحاباة .

القول الفصل

كانت القضية بالنسبة للحكم الشرعي واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ، ففي حالة كهذه يقول فيها القرآن الشريف « أن النفس بالنفس... الآية» فلم يكن هناك حل إلا القود ، لأن قتله الشخص ، وان كانت خطـــأ من حيث الشكل ، ولكنه عمد من حيث الأصل والتنفيذ .

وكان المقتول ابن واحد فقط تجاوز سن الرشد ، كما ان له أخاً شقيقاً، فالقضية بيد الابن بالدرجة الاولى ، والأخ ليس إلا مستشاراً للابن يأخذ برأيه في حـالة صدور الحكم ..

كان سكان تلك المنطقة ينتظرون متى يأتي اليوم الذي يذهب بـه ناجع وابن القتيل الى القاضي ، لينظروا مـــاذا تكون نتيجة الحكم الذي يتخذه القاضي بهذا الشأن ، وان كان الحكم كما أشرنا آنفاً واضحاً ولا يحتاج الى أخذ ورد ، ولكنه قد لا يكون وضوحه إلا عند القليل من القراء الذين يفهمون الاحكام الشرعية ، أما السواد الأعظم من الدهماء ، فانهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك . ولم تكن المدة بين استسلام ناجع وبين البت في الحكم الشرعي طويلة اكثر من الفترة الزمانية التي يتبادل فيهـا (السديري) والملك الرسائل بشأن توضيح الموضوع من الاول وتلقي الاوامر من الثاني .. كما أن بت الحـكم الشرعي بصورة نهائية من قبل القاضي ليس كالمحاكم المدنية التي تدور فيها معاملة كهذه مدة طويلة من الزمان ، بل كل ما في الامر أن عملية كهذه لم ينكر فاعلها ولا تحتـاج الى شهود ، لا يتجاوز البت

فيها اكثر من ساعة واحدة فقط . وهكذا عندما تلقى حاكم المنطقة السديري الامر من الملك باحالة القضية الى القاضي ، هب من فوره وجاء بالمدعي والمدعى عليه ، بين يدي القاضي وكانت المسألة بالنسبة للقاضي معروفة وكل ما في الامر انه أصغى أولاً الى ما قاله المدعي ، ثم بعد ذلك وجه اسئلة الى المدعى عليه . وكان جواب المتهم كله ادانة له فحكم عليه بالقود، والحكم هنا كما ذكرت آنفاً لا مجال فيه للاستئناف ولا للنقاش .

لقد خرجت القضية الآن من يد السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية واصبحت بيد أولياء القتيل ..

كأنه أسد يريد ان يثب على فريسته لا اسيراً مكبلاً بالقيود

وكان أمام هؤلاء الأولياء ثلاثة حلول : أما ان يعفوا ويتسامحوا عن قاتل رجلهم ، وأما أن يقبلوا الدية ، وأما أن يقتلوا القاتل. والذي له الحق في اختيار أحد هذه المعاني الثلاثة والبت النهائي بيد ابن القتيل . ويبدو ان الأبن كما يتضح من سياق القصة لم يكن حريصاً كثيراً على القتل ،بل ولا على أخذ الدية ، ولكن عمه أي شقيق المقتول ،كان هو الحاقد الذي يرى أن قتل ناجع هو منتهى أمنيته ، وهو المحرض الاول للابن على القتل .وكلما أراد ابن القتيل أن يسلك سبيل العفو والتسامح أصر عليه عمه وطلب منه بإلحاح أن لا تأخذه رحمة ولا رأفة بضرب عنق القاتل ..

كان المواطنون في تلك المنطقة يتساءلون عما يتخذه أولياء المقتول من المواقف الثلاثة ؟.. وكانت الاشاعات متضاربة بين اتخاذ الاجراء الاول والاجراء الثاني . وكانت قضية قبول الدية ليست موضع بحث قطعياً على أساس انها ليست محترمة عند العرب . وبينما كانت الاشاعات متضاربة رجحت الاخيرة بين صفوف المواطنين، الذين تتمنى اكثريتهم الساحقة أن يتخذ أولياء القتيل موقف العفو والا

قبول الدية . وكلهم مستعدون للاشتراك في دفع الدية حسب مقدرة كل فرد منهم واحتماله . والامر الآن بيد أولياء القتيل ..

كان الحاكم محمد الاحمد السديري كما فهمت منه شخصياً يود من صميم قلبه أن يتجاوز أولياء القتيل عن المتهم بأية وسيلة كانت ، ولكن جميع الأماني والوسائل والوسائط ـ كل هذه المعاني تفتت على صخرة ارادة العم الحقود ، الذي لم يقبل أي حل سوى القتل ، ولا غير القتل .

كان الحاكم إذا شاء ان ينفذ الاعدام بالمتهم يعين الزمان والمكان ، وذلك قبل التنفيذ ، وكان غالباً ما يكون بعد صلاة الجمعة ، وفي قلب مدينة جازان لكي يحضر عدد اكبر من المواطنين فيكون القصاص بحالة كهذه رادعاً لمن يفكر بالقيام بعملية القتل . وكان أولياء القتيل قد أصروا على قتل ناجع وخاصة عم الفتى الذي يعتبر من الناحية العائلية كبير الأسرة . وما على الحاكم الا أن ينفذ ما أمر به القاضي الشرعي راضياً كان أم كارهاً . ولذلك أعلن بأنه في يوم الجمعة من شهر لم استطع تحديده من سنة ١٣٦١ هـ سوف ينفذ حكم الاعدام بالمتهم ناجع الصهليلي .

لم يكن الخبر ساراً للاغلبية الساحقة من أهل المقاطعة كما أشرت الى ذلك بالسياق ، ولكن هذا لا يمنع من أن يحضر جميع أهل المدينة والقرى لينظروا ميتة الابطال ، على اعتبار أن الشجعان البواسل ، كما أن في حياتهم عبرة كذلك في موتهم عبرة . ولذلك توافد الى مدينة جازان في ذلك اليوم جميع السكان من رجال واطفال ونساء المقاطعة ..

وما أن حان وقت الصلاة حتى كانت مدينة جازان غاصة بأهل القرى الذين توافدوا عليها من كل فج عميق . وعندما انتهى السديري من صلاة الجمعة أمر رجال الشرطة بأن يأتوا بالمتهم من سجنه ليسلم الى أولياء القتيل ، وكان الناس منهم من يعرف ناجعاً ومنهم من يسمع به ولم يعرف شخصه .

وفي خضم هذا الحشد الكبير جاءت الشرطة بناجع يسير بخطى وئيدة ثابتة

ويمشي مشية المستهين بالحياة الساخر بالموت،محاولاً أن يتحدى أولياء القتيل،وكأنه وهو بحالته هذه يناجي نفسه ببيت أبي الطيب المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بدٌ
فمن العجز أن تموت جباناً

وعندما توسط الحفل ووصل الى المكان الذي ستضرب فيه عنقه عند ذلك ثنى احدى رجليه ونصب رجله الاخرى مستنداً على ركبة رجله في الاولى وعلى سطح قدمه في الثانية بصورة بين الجلوس والوقوف . وفي هذه الحالة مد عنقـه للسيّاف منتصباً لا ترف له عين .ولم يبد على محياه أية علامة من علامات الجزع..فكأنه أسد يريـد أن يثب على فريسته ، لا أسيراً مكبلاً بالقيود وليس بينـه وبين الموت الا اهاءة السيف على عنقه . وفي جلسته هذه طلب كاتباً ليملي عليه ما في ذمته للنـاس كما طلب المرآة والمقص ، ترى لماذا طلبها ؟.. أمن أجل أن يتجمل ليموت وهو جميل باسم الثغر .. وفي هذه اللحظة كان ابن المقتول حاملاً سيفه،ولا يدري هل ان تنفيذ القتـــل سيوكل اليه ، أو أن الحـاكم سوف يتولى التنفيـــذ . ولكن الحاكم المحلي محمد السديري لم يدع ابن القتيـل في حيرة من أمره بل استدعاه وقـــال :

– هذا ناجـع الصهليلي قاتل والدك وقد حكم لك القاضي بالقصاص منه ولك الخيار في تنفيذ القصاص أو أخذ الدية ، وان عفوت عن هذه وتلك فهذه مكرمة واحسان منك..

فأجاب الفتى : انني أود أن تأمر الجلاد بقتله .

ويؤكد لي الامير محمد السديري الذي كان الحاكم لتلك المنطقة نيـــابة عن الملك فيقول :

عندما سمعت هـــذه الكلمة من الفتى وجدتها فرصة مناسبة للأخذ والرد مع

الشاب، فبذلت ما استطعت من الحديث الذي يجعل ابن القتيل يقبل الدية أو يعفو عن القاتل ، ثم قلت للفتى :

ـ نحن لا شأن لنا بقتله قطعياً فالأمر عائد اليك ..

ظل الفتى متردداً بين الاستجابة الى تحريض عمه له على القتل وبين الاستجابة الى نداء ضميره الانساني . وبينما الجمع الغفير من المواطنين المتفرجين ينظر بفارغ الصبر الى الطريقة التي ينجو بها ناجع ، من القتل ، خاصة بعد هذا الكلام الذي جرى بين الفتى والسديري في تلك اللحظة التي اصبحت حياة الصهليلي فيها على كف عفريت ، أقبل شقيق المقتول وعم الفتى وصاح بابن أخيه قائلاً :

ـ اقتل قاتل ابيك ولا تأخذك به رحمة ولا رأفة ، وإياك ان تضرب عنقه ضربة جبان تخجلنا بها بين الناس أمام هذا الحفل ، وانما عليك ان تشد حيلك وتجمع قواك وتضرب عنقه ضربة حاسمة تجعل رأسه يتدحرج فتكون آنئذ أخذت ثارك وقضيت على حياته كما قضى على حياة والدك ..

ما ألذ الحياة بعد اليأس منها ! !

كانت هذه الكلمات المليئة بالتحريض التي تحدث بها العم الحاقد مخيبة لآمال جميع المتفائلين بما فيهم السديري. وكان للشاب بعد تحريض عمه له امام ذلك الحشد ان لا يتردد عن المضي في ضرب عنق قاتل أبيه . وكان على ناجع ان يتهيأ لضرب عنقه بشكل فيه من التحدي لعم الفتى أكثر من ذي قبل . وهذا ما حصل . فقد مد ناجع عنقه وشخص بعينيه بحدة نحو عم الفتى وقال :

ـ انني مكبل اليدين ، وان قتلي بهذه الصورة ليس فيه ما تعتز فيه وتفخر به أيها الجبان الحاقد. وانني عندما قتلت اخاك كنت اظنه حاكم القرية المحلي ابن غنيم. وكنت متحدياً بذلك سلطة الحكومة أما اخوك فهو اضعف من أن اتعمد قتله .

وبين تحريض عم الفتى الذي لا يدع مجالاً للشك بأثارة حماس الفتى والزامه

بالاقدام على ضرب عنق القاتل ، وبين حسرة المواطنين ويأسهم من حياة ناجع بعد تحريض العم لابن اخيه ، وبين يقين ناجع بمصيره المحتوم ، وبين ثقـــة العم بأنه استطاع ان يؤثر على ابن اخيه في اللحظة الاخيرة ، وبين خيبة أمل السديري في تأثيره على ابن القتيل - بين هذه المعاني التي تدل كلها دلالة واضحة لا شك فيها على أن الفتى سوف يمضي جازماً الى ضرب عنق قاتل أبيه... في تلك الساعة التي اصبح الموت من ناجع اقرب من حبل الوريد ،اقبل الفتى نحو القاتل شاهراً سيفه، حتى اذا دنا منه وضع سيفه في غمده ثم ربت على كتف قاتل ابيه وقال :

اذهب فقد عفوت عن قتلك من أجل الأمور الآتية :

أولاً - انك لم تنو قتل والدي بالذات وانما اردت غيره فكان قتلك له خطأ بلا شك .

ثانياً - لا أرى في قتلي لك وانت مكبل بالاصفـــاد أي معنى من معاني الرجولة والشجاعة ..

ثالثاً - لم يكن مجيئك الى الحاكم بواسطة قوة اخضعتك وانمـــا جئت بملء رادتك وبوفاء منك راضياً لنفسك الموت من اجل وفائك لمجيرك . وتقديراً مني لوفائك فانني قـــد عفوت عنك عفواً مطلقاً لا أقبل عنه دية في الحاضر ولا في المستقبل ..

وقد انهى لي الراوي محمد السديري شاهد العيان ،والذي لا زال على قيد الحياة، ان ناجعـــاً بعدما سمع هذه الكلمات من ابن المقتول وثب من جلسته الاولى وانتصب واقفاً ثم قال : ما ألذ الحياة بعد اليأس منها .

كانت خيبة أمل عم الفتى لا تقاس ، لقد عاد حاقداً على ابن اخيه، ومحتقراً ومحقوداً عليه في مجتمعه ، بينما عاد ابن اخيه موضع التقدير والاجـلال في نفوس كافة بني وطنه في تلك المنطقة .

يريد الحرية على الطوى

بعدما انهى الامير السديري رواية هذه القصة التي تكاد ان تكون خيالا أو رؤية منام ، سألت الراوي بل استغربت منه ان يترك مثل هذا الشهم الوفي يروح في رؤوس الجبال ، بدون ان يستميله ويغريه بشتى الوسائل كي يبقى عنده في أي عمل يسنده اليه ، أو حتى بدون عمل. فقلت لمحمد السديري :

– يجب ان يحترم مثل هذا الفتى ويقدر من أجل وفائه الذي لم يحدثنا التاريخ أن احداً قام بمثله اللهم إلا النادر من القصص التي نقلت لنا في كتب الادب العربي منذ قرون بعيدة المدى ، وفي عهد لا يستغرب فيه الوفاء . وقد عرفت ان السديري كان حرصاً شديداً على ان يبقى ناجع عنده محترماً ومكرماً على ان يؤمن له جميع لوازم حياته ، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل وتفتتت على صخرة الحرية التي يريد ان يتمتع بها على رؤوس الجبال ، مفضلًا ان يبيت الطوى وهو حر طليق ، لا يحتاج الى طلب الاذن اذا أراد أن يسافر ويذهب الى مكان ما ، ولا يخضع لنظام يفرض عليه . اللهم إلا ما يفرضه عليه ضميره الحر ونفسه الابية وخلقه الوفي . .

وبعد . . فان من يقرأ هذه القصة فانه ، كما اسلفت ، يخيل اليه انها رؤية منام أو من نسج الخيال .

وخير ما فيها هو أن رواتها أحياء وبطلها لم يزل على قيد الحياة الى وقت قريب . ولا استطيع أن احكم الحكم النهائي بأن بطل القصة في عالم الاحياء الآن بحكم انني اكتب هذه الأسطر وأنا في (أنقرة) كممثل لحكومة وطني ، وبطلنا ناجع في اليمن ، بل في رؤوس جبال اليمن وبيني وبينه مسافة بعيدة فيما إذا شئت أن اتأكد من حياته . وكم كنت أتمنى أن يكون لي من وضعي ما يشفع لي لكي أعيش عيشة الحرية التي يعيشها ناجع . فلو كنت كذلك لذهبت الى اليمن واصطحبت آلة تصوير لآخذ صورة لناجع اضيفها الى الصور الموجودة في هذا السفر . وهناك ملاحظة لا بد لي من الاشارة اليها وهي ما ذكرته عن موت

الرجل في السجن بالسكتة القلبية ،وأعني به المستجير بناجع، والذي هو طرف ثان في القصة . فقضية موته كنت رويتها عن محمد السديري . ولما كانت القضية أولها في عهد امارة خالد السديري شقيق محمد وآخرها في عهد محمد أو هي العكس ، فقد سألت الامير خالدا عن القضية ،وذلك بحضور أخيه محمد في مدينة الطائف عام ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م . لقد كنت واثقاً من صحة رواية محمد وإنما أردت أن ازداد تأكيداً لكي لا أنقل للقراء إلا الحوادث الحقيقية التي لا مجال للشك في صحتها . وكانت إجابة خالد طبقاً للأصل الذي رويته عن شقيقه محمد ،إلا أن خالداً توقف عند قضية موت المستجير ، بينما أكدها محمد . واعتقد أن في هذه القضية اكثر من معنى :

أولاً – انها كما ذكرت قريبة العهد ورواتها وشهودها أحياء .

ثانياً – وهو الأهم عندي أن القارىء بعدما ينتهي من قراءة هذه القصة القريبة ثم يعود بذاكرته الى القصة الاولى في الجزء الاول من هذا الكتاب التي هي بعنوان (القصة العالمية) أي قصة (المهادي) تلك التي قلنا أن لها ما يقارب أو ينوف على مئتي سنة – عند ذلك سوف يزداد يقينا بأن تلك القصة وأمثالها من شيم العرب حقيقة لا شك فيها ولا ريب .

الشيم العربية لا تذعن للمعاهدات السياسية

- ٢ -

لما كان رشيد عالي الكيلاني رئيس الحكومة العراقية السابق محكوماً عليه بالاعدام من قبل الحكومة العراقية ، أو الانكليزية على الاصح ، فإن من مسلمات الأمور أن يفتش عن ملاذ يلتجيء اليه. وقد وجد في الحكومة الألمانية الامل الوحيد الذي يمكن أن يركن اليه ، بصفتها العدو اللدود لبريطانيا . وكانت الدول العالمية الكبرى وقتذاك منقسمة الى معسكرين : معسكر الحلفاء ومعسكر المحور، وكانت الحرب بينهما قائمة على قدم وساق .

وإذا كان كل انسان على وجه البسيطة ينظر الى نتائج الحرب بعين ملؤها الحذر والرعب ، فان طبيعة حال الكيلاني ومقتضيات ظروفه تجعله ينظر الى نتائج تلك الحرب نظرة حياة أو موت .

وعندما كانت الجيوش النازية تزحف قدما الى الأمام بانتصارات مذهلة ، كان الكيلاني ولا ريب يرى ان كل خطوة تتقدم بها المانيا نحو النصر ، انما هي امتداد في أجَله. هذا اذا لم تكن باعثة لآماله. وعندما خسرت المانيا الحرب، لا يكفي ان يقال ان آماله تحطمت فحسب ، بل لقد أصبحت ايام حياته معدودة وأصبح شبح الموت منه قاب قوسين أو ادنى . وكان طبيعياً ان تضيق به الارض بما رحبت . .

فأين يذهب الكيلاني ؟.. أيفر الى روسيا وهل هو آمن على نفسه فيما إذا ذهب

اليها ؟. طبعا لا ، فروسيا حليفة بريطانيا حينذاك . وما يقال عن روسيا حريّ به ان يقال عن امريكا بل وعن جميع الدول الاوروبية .

او لعله يذهب لدول الحياد الايجابي ولكن أين هي هذه الدول ؟.

انها لم تكن بل ولم يوجد من يفكر بها من الناحية العملية .

أينتحر ويريح نفسه من هذا المستقبل الاسود الذي يهـــدده بكل وحشية وضراوة ؟..

ولكن كيف ينتحر وهو مسلم ومؤمن بالله واليـــوم الآخر ، والمسلم يعتبر الانتحار جريمة ما بعدها جريمة ! وقد حكم على مرتكبها بالنار في الآخرة على اعتبار ان الانتحار يأس وقنوط بينما تعاليم الدين الاسلامي تنهى عن اليأس والقنوط وتحذر عنها ! بل وتعتبر مرتكبها من أحط الظالمين ! كان الأمر طبيعياً ان تضيق به الدنيا فالأرض التي حملت الثقلين وجد انها اضيق من ان تحمـــله ... والسماء التي اظلت الانسان والحيوان وكل من على وجه الأرض خُيِّل الى الكيلاني أنها أعجز من أن تظله .

وبعد هذا اليأس المرير لاح له بريق من الامل .وهو أمل كالوهم ولكنه خير من القنوط .. أمل في حكام العالم العربي، اعتقادا منه ان العربي سوف يتفانى في في حماية من يستجير به انى كانت جنسيته ومهما عظمت جريمته .. فكيف به اذا كان عربياً كالكيلاني !!

لقد داعب خياله هذا الأمل. ولكن أمله هذا سرعان ما تلاشى وتبخر من فوره عندما استعرض الدول العربية ووجد اغلبها او كلهـــا يرزح تحت نير الاستعمار حينذاك ، ما عدا حاكمين – وهما ملك السعودية المرحوم عبد العزيز آل سعود وملك اليمن المرحوم يحيى حميد الدين ..

وحتى حاكما هاتين الدولتين لم يجد فيهما من الأمل ما يشجعه على ان يغـــامر بنفسه مغامرة ليست مضمونة السلامة .. وذلك انه يذكر بأن للأول مبرراً فيما

اذا رفض ان يجيره ، بل ولديه حجة سياسية تبرر تسليمه للحكومة العراقية التي تطالب برأسه . وخلاصة تلك الحجة هي أنه بين الحكومة السعودية والحكومة العراقية معاهدات تقضي بأن تسلم الاولى المجرم السياسي العراقي لحكومته فيما اذا طالبت به حكومته وان تقوم الحكومة العراقية بمثل العملية نفسها . وقد نفذت هذه المعاهدات من الجانب العراقي حيث سلمت حكومة العراق للحكومة السعودية فيصل الدويش رئيس قبيلة مطير كما سلمت ايضـــاً مثل التمياط رئيس عشيرة التومان من قبيلة شمر .

وهذه المعاهدات السياسية جديرة ان تجعل الكيلاني يتردد في الالتجاء الى الملك ابن سعود .. اما ملك اليمن فانه يخشى في حالة التجائه اليه انه لا يقف منه موقف المجير الصلب فيما اذا طلبت الحكومة الانكليزية ان يسلمه لها . وللكيلاني ما يبرر نظريته هذه بالنسبة لملك اليمن .لأنه يذكر ان الامـام يحيى سلم الادريسي للملك ابن سعود رغم ان الادريسي مستجير به .

لقد اشتدت حيرة الكيلاني واسودت الدنيا في وجهه ولم يكن له من بد إلا ان يرمي نفسه بأحضان الملك ابن سعود ،اعتقاداً منه أن شبه الجزيرة العربية موطن لم يدنس أرضه قدم مستعمر قط وايماناً منه بأن بلاداً عربية كهذه ، لم يأت على عادات اهلها وتقاليدهم من عهد الجاهلية الى يومهم ذاك أي طارىء . فبلاد بهـذه الصفة خليق بأبنائها ان تطغى شيمهم العربية على المعاهدات الشكلية والبروتوكولات السياسية .

هذا وقد شخص الكيلاني نحو الملك عبد العزيز ، ولكنه لم يصل اليه إلا بعد مغامرة عنيفة .

ولسنا بصدد شرح تلك المغامرة التي قام بهـــا الكيلاني حتى وصل الى شبه الجزيرة ،لأن شرحها يحتاج الى بحث مطول خاص .وعلى كل ،فان الفضل يعود للشابين البطلين ممدوح الميداني وجميل الجابي اللذين سوف اضع لهما بحثاً خاصاً تقديراً لوفائهما مع رفيقهما وتخليداً لذكرهما .

وعلى كل حال فقد وصل الكيلاني بصورة أود ان اختصر شرحها ما استطعت. وهي مع الايجاز على الوجه الآتي :

حرص الكيلاني بأن يفعل جل الأسباب التي تجعل الملك ابن سعود لا يعلم شيئاً عنه حتى يلتقي به وجهاً لوجه. وفعلاً وصل الرياض بدون أن يعلم ابن سعود شيئاً عنه ، وكل ما في الأمر ان الملك أخبر ان نفراً جاءوا من سورية يقصدون الاتصال به لمهمة ما. فرحب بهم الملك واذن لهم بمقابلته . فدخل عليه الثلاثة وكان الكيلاني هو آخرهم في السلام . وبعدما أدوا التحية التقليدية استأذن الاثنان من الملك بالذهاب كما استأذن الثالث أي الكيلاني في البقاء من أجل أن يشرح للملك المهمة التي جاءوا من أجلها .

وهكذا التقى الكيلاني بالملك عبدالعزيز بصورة لم يشعر بها الاخير حتى فاجأه قائلاً انه رشيد عالي الكيلاني .

دهش الملك طبعاً .. وظل في شك من صحة النبأ ،فظن أن هذا الرجل مدعٍ ، ولكن سرعان ما اتضح للملك بأنه الكيلاني بلا شك. وذلك بعدما نودي السيد حمزة غوث الذي كان يعرف الكيلاني جيداً لأن هذا كان قنصلاً للمملكة العربية السعودية في بغداد . وغوث هو الذي أزاح الشكوك عند الملك وأثبت له أن ضيفه هذا هو رشيد عالي الكيلاني بذاته. وعندما تأكد الملك من شخصية ضيفه أبرق لسفير بريطانيا المفوض في جدة بأن يحضر لمقابلة الملك فوراً وعندما حضر الوزير أمره الملك بأن يبلغ حكومته بأن رشيد عالي الكيلاني قد وصل الى المملكة وانه سوف يعتبره عربياً مستجيراً بعربي . وقد أكد الملك السعودي للسفير أنه سوف يجيره ولن يسلمه مهما كانت النتيجة وفقاً للعادات والشيم العربية.

ولما كانت الحكومة الانجليزية تعرف جيداً أن أي عربي يغار على كرامته لا يمكن أن يسلم من يستجير به ولا بوجه من الوجوه، فقد رأت انه ليس من الحكمة أن تتحدى الملك ابن سعود . ولذلك كان جواب حكومة بريطانيا ان الكيلاني مطالب من قبل حكومة العراق لا من قبل حكومة بريطانيا. وعند ذلك

راح الملك يتفاهم مع حكومة العراق بنفس الطريقة التي تفاهم بها مع حكومة انجلترا .. وقد حاولت حكومة العراق الخاضعة للنفوذ الانجليزي وقتذاك أن تغضّ طرفها وتتجاهل العادات والشيم العربية التي أشار اليها الملك عبدالعزيز .. ولكن محاولتها باءت بالفشل أمام الشيم العربية الأصيلة التي هي أعز جانباً من المعاهدات السياسية في نفسية العربي .

« قلت لو أن حكام العراق في ذلك الوقت تأثروا بالعادات العربية وآمنو بالشيم العربية لكان بامكانهم أن يريحوا أنفسهم من مطالبتهم ابن سعود بتسليم مستجيره .. وكل من يعرف العادات العربية او أطلع على ما جاء في حقل كتابنا الجزء الأول من « شيم العرب » - يدرك للوهلة الاولى ان الموقف الذي اتخذه المرحوم عبدالعزيز ابن سعود بصدد قضية رشيد عالي الكيلاني انما هو موقف تفرضه عليه الشيم العربية ويفرضه عليه عرف المجتمع العربي في شبه جزيرة العرب .. وحتى لو قدر المستحيل وأراد الملك عبد العزيز أن يتساهل مثلاً ويسلم الكيلاني لأعدائه ، فإنه سوف يعرض نفسه لا لسخط عرب شبه الجزيرة بصورة عامة فحسب ، بل لسخط أسرته وحتى أبنائه أيضاً . »

ومن أوضح الأدلة على صحة ما أشير اليه هو ان مجرد أن سمع كبار أبناء الملك أن رشيد الكيلاني قد وصل الى الرياض مستجيراً بوالدهم ذهبوا الى والدهم فوراً ، وأكد له كل فرد منهم بأنه على أتم الاستعداد أن يسلم نفسه لحكومة بريطانيا أو لحكومة العراق المدفوعة بإيعاز من الاولى - وهو مطمئن البال - بدلا من تسليم ضيفهم المستجير بحماهم واللائذ بدارهم..

وبصفتي عربياً نشأت في صميم الجزيرة العربية وتأثرت بالعادات العربية تأثراً جاء بعضه عن طريق البيئة والمجتمع والمحيط الذي ترعرعت به يافعاً كما جاء بعضه الآخر عن طريق دراستي للأدب العربي المدون في كتب الأدب من تاريخ وقصص وشعر ونثر الخ.. فإنني لا أرى ما قام به الملك المرحوم عبدالعزيز من حمايته لمستجيره أمراً غريباً . بل انه شيء طبيعي بالنسبة لملك عربي منيع الجانب كعبد العزيز.. وانما

الذي استغربه بل أمقته هو ما قام به حسني الزعيم بتسليمه مستجيره انطون سعادة لحكومة لبنان .. تلك العملية المستحقرة .. وقـــد كان لي صلة بالمرحوم حسني الزعيم قبل انقلابه عام ١٩٤٨ وبعد الانقلاب وذلك بصفتي ممثلا للفوج السعودي المرابط بسوريا ايام حوادث فلسطين ومساعداً لآمر الفوج المذكور .. وقد كنت اشعر ان لدى حسني الزعيم بعضا من صفات الرجولة التي احببته من اجلهـــا .. ولكنه ما أن قام بعمليته تلك الشنعاء ،واعني تسليمه مستجيره سعادة لحكومة لبنان حتى سقط الرجل من عيني وعين كل عربي يؤمن بشيم العرب .

وهنا نجد الاديب الشاعر الاستاذ راغب العثماني بقدر ما يمتدح الملك عبد العزيز في البيت الأول يسخر ويهجو حسني الزعيم في البيت التالي كما جاء بقوله :

وضيف مليك العرب امنـــع حوزة
من الليث في البيد الذي ليس يقرع

وبعض مـــلوك الناس يغدر ضيفه
ويلقى بأحضان الطغـــاة ويصرع

لكم أن ترهنوا أخي

- ٣ -

في الحين الذي كانت فيه الحكومة العثمانية باسطة سلطانها على الكثير من الأقطار العربية ، في تلك الفترة كان العربي الذي يُدان من قبل الحكومة بأية جريمة تضيق به الارض بما رحبت . فاينما يولي وجهه يجد نفسه محاطاً بجنود الحكومة . وهذا ما حصل مع شخص يدعى (شلاش العِر[1]) الذي ادانته الحكومة بتهمة ما ، في سنة ١٢٩٩ ، فاسودت الدنيا بوجهه ولم ير أرضاً تقله ولا سماء تظله ولا قوة تحميه ، فأينما يذهب يجد نفسه مطارداً من جنود دولة بني عثمان ..

وكلما فكر الرجل في مأوى يلتجيء اليه أو ملاذ يحميه ، لم يكن يجد ولن يجد ، فكل الابواب موصدة .. وأخيراً خرج الرجل من اهله هائماً تعلو وجهه علامات اليأس والبؤس ، يسير ولا يعلم أين يسير . وكان كلما رأى شخصاً يسير خلفه أو أمامه ازداد رعباً ، ظاناً انه من رجال البوليس السري الموكلين باعتقاله . وبينما هو في مسيره هذا رمى به الفال الى جماعة من بادية الشام .. وكأنه اطمأن اليهم بعدما وجدهم بدوا فسار معهم بلا شعور وبدون أن يعين المكان الذي يسير اليه .. وقد لفت نظره رجل وسيم يمتاز عن سائر

---

١ ـ شلاش من عشيرة العمور بادية سورية .

الركب لا بهندامه فحسب ، بل حتى في منطقه وهدوئه ورزانته ووقاره ، فبدأ يحاول أن يتقرب منه ليتعرف عليه . وكان من غرائب الصدف أن هذا الرجل الوسيم بدوره نظر اليه نظرة عطف ، حيث وجده شارد الذهن تلوح على وجهه الشاحب المتجعد دلائل الهم والحزن والبؤس فاهتم بأمره إلا انه لم يحاول أن يستفسر منه وانما ظل يتودد اليه ويلاطفه قاصداً أن يخفف عنه ما يختلج في كيانه من الهموم البارز أثرها على محياه .. فأمره أن يركب على احدى الرواحل التي تحمل كسوة اشتراها لأهل بيته من الشام وركب شلاش الراحلة وظل يباري صاحبه الذي لم يترك كلمة وديعة ولا مثلاً يدخل السرور والاطمئنان على قلب شلاش إلا جاء به حتى إذا دنا وقت الظهيرة، أمر قومه أن يحطوا عن رواحلهم ليتناولوا طعام الغداء ، فنفذ رجاله ما أمرهم به وفرشوا له سجادة ووضعوا شداد احدى الرواحل ليستند اليه فأخذ بيد الرجل البائس وقدمه حتى أجلسه على الفراش ثم وضع الشداد بينهما وظل ينادمه ويقاسمه همومه بينما تفرق رجاله فمنهم من ذهب بعد الغداء ومنهم من يسعى بتهيئة القهوة ، ومنهم من ذهب يتولى رعاية الركائب ، والبقية جلسوا أمامهما على سجادة اخرى وسرعان ما انتهى صاحب القهوة من قهوته فجاء وسكب الفنجان للرجل الوسيم فأمر هذا صاحب القهوة أن يقدمه للرجل الشارد الذهن فرفض البائس أن يأخذ الفنجان قبله ، فأكد عليه قائلاً :

ـ ألست عربياً ؟..

فقال : بلى . فرد عليه وهو يبتسم ..

ـ متى كان صاحب المكان يأخذ الفنجان قبل ضيفه !!

فقال الرجل وقد اطمأن الى حد ما ..

ـ أنا لست ضيفاً بل صاحب مكان ..

فرد عليه قائلاً :

ـ لا شك بأنك صاحب مكان ولكن العرب تقول: « الضيف الاول معزب

الثاني » ، فعلى هذا الاساس اكون أنا قبلك في المكان وان كنت انت صاحب مكان هنا بلا شك ..

فأخذ الفنجان وهو يتصبب عرقاً حياء من اكرام هذا الرجل الذي اعتنى به هذه العناية بدون سابق معرفة . وبعد مدة قليلة قدم الرجال وجبة الغداء فتصدر الضيف المكان وبدأ المضيف كعادته يسليه ويلاطفه حتى انتهى من ذلك الطعام الذي لم يهنأ بطعام مثله منذ مـــدة طويلة .. وبعد الغداء أديرت اكواب القهوة وسار الأمر على ما كان عليه ، أي أن المضيف قدم الضيف على نفسه . ثم بعد ذلك أمر الرجل الوسيم بأن تحضر الرواحل لأجل الذهاب الى الاهل ، وعند ذلك انحرف المضيف الى ضيفه فقال :

– اعتقد انك لم تعرفني ولذلك أحب أن اعرفك بنفسي: أنا محمد بن سمير[1] .

فأجابه الضيف :

– حقيقة انني لم أعرفك شخصياً ولكنني اعرفك بالذكر .. ثم أردف قائلًا :

– كم كنت أود واتمنى ان اذهب معك الى أهلك ولكنني لا أريد أن أجرّ عليك المشاكل ، فالمصيبة التي ابتليت بها أسأل الله ان لا يبتليك بمثلها ..

فقال السمير :

– خير ان شاء الله وكل الامور تهون وتتسهل بعون الله.. ثم استرسل وقال:

– ما هو أمرك ؟

– انني مطارد من قبل الحكومة ..

– ما هو السبب ؟..

– لم يكن ثمة سبب إلا أن ضابطاً أراد أن يعتدي على امرأة جاري فسمعت صراخها فهجمت عليه والتقطت حجراً وقذفته به فسقط على الارض وتركته هارباً

---

١ – محمد بن سمير من رؤساء قبيلة عنزة وهو مشهور بالكرم كما انه شاعر مجيد ، ولكن شعره قليل .

ظانـــاً انه لم يرني أحد ، لكن ظني كان في غير موضعه،اذ فهمت ان هناك جندياً كان ينظرني عندما سمعت صراخ جارتي،ورآني حين اقدمت على ما قمت به دون شعور ولا وعي . ثم ختم كلامه بقوله :

– وهل يلام العربي على أي عمل يقدم عليه حينما يفاجأ بحادثة كهذه ..؟

وما ان انتهى شلاش من حديثه حتى قال السمير بصوت عال مرتفع يختلف عن صوته المعتاد الهادىء الرزين :

– لعلك قتلت الخبيث ؟

– لم أعلم آنذاك وانما بلغني فيما بعد ان الحجر اصاب منه مقتلاً ..

– الآن اصبح من الضروري ان تذهب معي الى أهلي كما أصبح احترامك واجلالك عليّ واجباً محتوماً ، وأصبحت حمايتي لك فرضاً الزامياً لا محيص لي عن القيام به ..

– ان أقصى مـــا أتمناه أن أجـد عربياً كريمـاً شجاعـاً شهماً مثلـك لألوذ بجماه ، فيما لو كنت مطالباً من أي زعيم من زعمـاء العرب ، ولكنني مطالب من قبل دولة لا أجد منها ملجأ التجيء اليه . ولذلك لا أرى فائدة من ذهابي اليك لأن النتيجة الحتمية لمثل قضيتي انه سينالك بسببي اهانة أو مصادرة لأموالك وربما أعظم من ذلك ..

– ما هو الاعظم من ذلك ..؟

– ربما تسجنك الحكومة أو تقتلك .

– مهما تكن النتائج التي أدناها مصادرة أموالي وأوسطها سجني وأقصاها قتلي ، فانني لن أتركك ولن أتخلى عنك بل سوف أجعل مصيري واياك سوياً في الخير وفي الشر .. فهيا بنا الى اهلنا والذي يختاره الله من خير وشر ينبغي لنا أن نستقبله بصدر رحب وإيمان راسخ وصبر جميل ..

ذهب شلاش بصحبة الشيخ محمد بن سمير الذي ضاعف له الاحترام وظل يسليه ويدخل على قلبه السرور مـــا استطاع ، حتى اذا بلغ أهله أمر له بخيمة مفردة

وضع فيها احسن ما لديه من الفراش ، وهكذا ظل شلاش في جوار ابن سمير وضيافته وهو كل يوم يرى من الاكرام والاجلال أكثر من اليوم الذي قبله حتى مضت سنة كاملة بدون ان يأتي من الحكومة أية اشارة اليه ، فازداد المجير والمستجير اطمئناناً بجهل الحكومة للرجل المطارد ..

كان الشيخ محمد بن سمير ومستجيره يظنان ان الحكومة لا تعرف شيئاً عن المكان الذي يقيم فيه شلاش .

اما السجن المؤبد او الاعدام او يحضر المطالب

كانت الحكومة أخيراً قد عرفت مكان شلاش ولكنها تجاهلت وجوده عامدة متعمدة وذلك لتوهم ابن سمير ، حتى اذا قدم الى احدى المدن السورية اعتقلته وهددته بالسجن المؤبد أو القتل فيما اذا لم يسلم صاحبه . ولم تخطىء الحكومة الرأي من حيث زيارة ابن سمير لاحدى مدن سورية، وذلك انه بين كل فترة واخرى يأتي الى دمشق ليشتري اللوازم الضرورية لأهل بيته من كسوة وقهوة وطعام الخ .. فجاء الآن الى الشام كالمعتاد هو وشقيقه في الحين الذي كانت عيون الشرطة ترقب مجيئه هذا بفارغ الصبر ، وكانت امنيتها الوحيدة ان يقع بين يديها ابن سمير مجير القاتل لضابط الحكومة ومن حسن حظ الحكومة ان ابن سمير وشقيقه جاءا هذه المرة الى دمشق فظنت الحكومة انها عندما تعتقلها تكون قد صادت عصفورين بحجر ويكون ابن سمير وقتها ملزماً بتسليم مستجيره لينجو من أحد الشرين السجن المؤبد أو الاعدام .. وفي الحين الذي كان ابن سمير وأخوه يسيران في الشارع الذي يسمى الآن سوق مدحت باشا في الشام ساعتذاك القي عليهما القبض وسيقا مكبلين بالأصفاد الى الزنزانة ..

لم يستغرب ابن سمير ذلك، الا انه لام نفسه على مغامرته هذه التي جاء فيها الى الشام ، وكان بإمكانه ان يبعث غيره لهذه المهمة وان لا يقرب المدن قطعياً ، ما دام انه مجير في بيته رجلاً قتل ضابطاً من جنود الحكومة فهو مطارد من قبلها.

ولم يكن يسعه وقد وقع في الفخ الذي نصبه له رجـال الدولة بمكر وحنكة ، إلا ان يقابل مكرهم بمكر مثله، وان يعد نفسه وأخاه للصبر مهما طالت مدة السجن، ولاحتمال المشاق من تعزير وتعذيب مهما قسى الحاكمون في ذلك. .وقد ظل ابن مميز وأخوه في السجن اكثر من شهرين دون ان تسأل الحكومة عن الاسباب التي اعتقلا من أجلها . ظلت متجاهلة وجوده اعتقاداً من المسؤولين انه اذا طـالت على السجينين مدة السجن فإنهما سوف تخور عزائمها ويخنعان لكل طلب تريده منهما الحكومة ، وبعد مضي تلك المـدة في ذلـــك السجن الرهيب استدعاهمـــا والي دمشق وأملى عليهما ارادته المتضمنة البنود الثلاثة : تسليم القـــاتل ـ أو السجن المؤبد ـ أو الاعدام . ونده به بكلام لاسع على تحديه لسلطة الحكومة .

ولم يستغرب ابن مميز ان يسمع هذه الاشياء من الوالي لأنه كان متوقعاً لها ولذلك نجده أعد العدة لجواب الوالي بقوله :

ـ أنا أقل من ان اتحدى سلطة الدولة ولذلك فإنني مستعد كل الاستعداد لأن أسلم لكم المجرم .. ثم استطرد وقال : ولكن كيف أتمكن من تسليمه لكم مـا دمت سجيناً هنا .. فقال الوالي :

ـ الطريقة الى ذلك سهلة جداً ، فبالامكان أن نأتي اليك ببدوي يعرف المكان الذي فيه المجرم في الصحراء بعدما تصفه له ونبعث مع البدوي جنوداً من عنـدنا يعتقلوه وحين يصل الى هنا نخلي نحن سبيلك انت وأخاك ..

ـ هذا ليس هو الرأي الذي يضمن استلامكم للقاتل. وفي الوقت نفسه يضمن ايضاً اطلاق سراحي وأخي ..

ـ ما هو وجه الخطأ في ذلك ؟..

ـ الخطأ واضح وهو ان المجرم سوف ينهزم قبل أن تستلموه لأنه حذر جداً ولا سيا بعد ان عرف انكم حبستموني وأخي من أجله. .ولكن الطريقة التي تضمن لكم ولنا استلام المجرم هي ان اذهب وحدي الى هنـــاك وعندمـــا يراني يأمن ولا يهرب وعندذاك أتمكن من اعتقاله وآتي به اليكم هنا. .ثم استطرد في حديثه مع

الوالي وقال : واذا لم تكونوا واثقين من عودتي فلكم أن ترهنوا أخي ولا تطلقوا سراحه حتى آتي اليكم بالمجرم ..

خدعة مدروسة

لم يتردد الوالي في الموافقة على ذلك الرأي الذي ظهر له وجيهاً وسديداً. فأطلق سراح محمد حالاً بينما أبقى أخاه في السجن الى ان يعود بمستجيره ويسلمه اليه . وكان الوالي يتمتع بقسط وافر من الجهل العميق بمعرفة اخلاق العرب وعاداتهم ..

أما الأخ الذي ظل في السجن فكان متفقاً مع أخيه في دراسة الخدعة وراضياً لنفسه كل الاحتمالات التي سوف تتخذها معه الحكومة سواء كان السجن المؤبد أو الاعدام وهذا المنطق في عالم الشيم العربية لا يمكن أن يفهمه حضرة الوالي. وحتى لو افهم به فإنه لا يستطيع أن يهضمه ولو هضمه فإنه لم ولن يؤمن به ، وكل ما لدى فخامة الوالي من الوسائل التي فعلها هي ان يبعث جنوداً يحملون الاصفاد التي سوف يضعونها في يد القاتل عندما يسلمه لهم مجيره ..

ذهب محمد بن سمير وبصحبته اربعة من جنود(الوالي)المغفل الذي لم يبعثهم إلا وهو على يقين من أن ابن سمير بمجرد وصوله الى هناك سوف يسلم مجيره للجنود ليضعوا في يديه الاصفاد ..

كان في الشام شباب من أقارب ابن سمير آقاموا في المدينة طوال المدة التي كان قريبهم وأمير عشيرتهم سجيناًفيها ليقدموا له القهوة العربية التيلا يستطيع أن يسلو عنها، كما يقدمون له طعام البادية الذي ترغب فيه نفسه ويألفه اكثر من طعام السجناء ..

وعندما خرج محمدمن السجن ترك بعضاًمن أقاربه عند أخيهوالبعضالآخر بعثه يبشر أهله بخروجهويخبر فرسانعشيرته بأنه سوف يحضر في يوم كذا وانعليهم أي فرسان العشيرة ان يهيئوا انفسهم(لعرضة)شعبية تشمل رجال العشيرة بكاملها من الفرسان الى المجانة الى المشاة . فذهب الرسل الى اهلهم يحملون البشرى ، بخروج

اميرهم كما يحملون وصيته التي بلغوها لرجال العشيرة بكل امانة ..
وصل الرسل الى اهلهم قبل اميرهم حسب خطته المرسومة، بينما تأخرهو في دمشق ريثما اشترى بعض ما يلزم بيته من قهوة وكسوة لأهله .. ومن بعد ذلك غادر دمشق هو وجنود الوالي حملة الاصفاد ، وظلوا يواصلون سيرهم حتى بلغ اهله . وهناك وجد الفرسان والهجانة وجميع رجال ونساء العشيرة كلهم مستبشرين ومعلنين فرحهم وسرورهم بطريقة الاستعراض الشعبي ، ومن بينهم طبعاً شلاش.. كان منظر رجال العشيرة يوحي بالنشوة والأعتزاز في نفسية الخائف المستجير كشلاش وهو في الوقت ذاته يوحي بالهيبة والرعب في كيان الجنود حملة الاصفاد ..

رجع حملة الاصفاد خائبين مطرودين

وعندما انتهى الاستعراض جاء رجال العشيرة يتقدمهم شلاش ليسلموا على اميرهم وكان حملة الاصفاد جالسين عن يمينه فأشار الامير بأن يسلموا باديء ذي بدء على الضيوف أي الجنود . وكان ابن مميز يقوم بدور رجل التشريفات ، وحين جاء مستجيره يتقدم صفوف المرحبين أخذ بيده وقدمه الى حملة الاصفاد قائلًا :

– هذا شلاش العر . فصافحهم واحداً واحداً بدون ان يكترث بهم مما جعلهم ينظرون اليه شزراً وجعله ينظر اليهم نظرة الساخر المتحدي . وباتوا تلك الليلة عند مضيفهم الذي لم يدخر وسيلة من وسائل الحفاوة والاكرام إلا بذلها لهم . وفي صباح الغد نادى ابن مميز جنود الوالي واجلسهم عن يساره بينما كان مستجيره جالساً على يمينه ، فقال:
– هذا مستجيري (شلاش العر) الذي عرفتكم به امس الماضي وهو الذي بعثكم حضرة الوالي الجاهل لأسلمه لكم اذهبوا اليه وقولوا له : بالنيابة عني مادمت ايها الوالي جاهلًا بشيم العرب الى هذا الحد الذي جعلك تبعث جنودك معي لأسلمك

مستجيري فما عليك إلا ان تسأل ادني فرد ممن له أقل المام بعادات العرب – هل يمكن لعربي ذي اباء وشمم ان يرضى بتسليم مجيره لأية قوة كانت ما دام يوجد في دمه عرق ينبض بالحياة ؟ ثم واصل حديثه وقال : أكدوا للوالي على لساني انه من المستحيل ان يستلم مستجيري، اللهم الا بعد ان يمشي على جثتي وعلى جثث جميع رجال عشيرتي هذه ، والذي يمكن ان نفعله تجاه الوالي الذي يمثل سلطة الخليفة العثماني هو ان يطلب مني دية الضابط المقتول ، ثلاثة اضعافها ، وله علي ان ادفع طلبه هذا الذي فيه فائدة لأهل ضابطه المقتول . ان هذا خير وابرك الف مرة من عقابكم لمستجيري الذي أكرر لكم ثانية بأنكم لن تستلموه ما دمت أنا وعشيرتي على قيد الحياة ..

عاد حملة الاصفاد الى سيدهم الوالي صفر اليدين وبلغوه كلام ابن سمير حرفياً .

لم يكن من الوالي الا ان اشتدغيظه وأرغى وازبد، وفكر في ان يقتل أخا السمير السجين . لكن المخلصين اشاروا عليه بأن قتل السجين لم يكن حلًا مجدياً ، وبالتالي رأوا ان من الافضل ان يأخذ برأي ابن سمير الذي نقله له جنوده، أي ان يطلب منه دفع الدية ولكن بطريقة فيها شيء من الامتحان والتعجيز، بصورة يعتقد معها ان ابن سمير سوف يرفض دفع مطاليبه الباهظة . وكان الطلب الذي حمله رسول الوالي لأبن سمير ينص على دفع اربعمائة ناقة من طيبات الابل وثمانمائة شاة من خيرة الضأن، فلم يتردد ابن سمير من تنفيذ كل ما طلبه الوالي على شرط ان يتعهد له بضمانة خطية تحمل توقيع الوالي . والقاضي الشرعي معاً ، وإذا تم ذلك فإنه على أتم الاستعداد بأن يدفع كل ما طلبه الوالي ، وعند ما عاد رسول الوالي يحمل موافقة ابن سمير على تنفيذ الطلب ، كما يحمل في الوقت ذاته شرطه الخاص بطلب الوثيقة المصدقة من السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، التي تشير الى تنازل الحكومة وأولياء المقتول عن حقوقهم ، وافق الوالي واتخذ الاجراءات القانونية التي طلبها ابن سمير . فأحضر ابن سمير الطلب المشار اليه من الابل والغنم وجعلها جاهزة .. وكان أخو ابن سمير هو الوسيط الذي استلم الوثيقة من الوالي . وبعدما أيقن ابن سمير ان الوثيقة وقعت وان الوالي صادق وجاد في الموضوع عند ذلك ارسل ما قرره

الوالي كاملاً من الابل والغنم ثم سلم الوثيقة الى مستجيره شلاش الذي ضمهـا الى صدره وراح بعد ذلك الى اهله آمناً غير خائف ..

وبعد ذلك جادت قريحة محمد بن سمير بقصيدتين لم يردنا منهما مع الأسف إلا ما هو أقل من القليل . وعلى سبيل الاستشهاد يطيب لي ان آتي بما وصل الينـا من قوله :

يا شلاش ما نعطي دخيل [1] نصـانا
لو جمعوا كل العساكر والاروام

تعبي [2] على الشيمة سوا لد لحانا
قصيرنا [3] ما هو قصير لصطـام

الشرح : يخاطب الشاعر شلاشاً الذي استجار به ويقول انه من المستحيـل ان نسلمك للدولة حتى ولو جاءت الحكومة بجميع عساكرهـا من الاتراك ومن الرومـان .. فإننا لن نتخلى عنك، وما عليك إلا ان تنام قرير العين هادىء البـال ..

وفي صدر البيت الثاني يقول ان شيمتنا العربية تأبى ان نسلمك للحكومة. وفي عجز البيت يهجو الشاعر رئيس قبيلة من اكبر رؤساء القبائل في شمال الجزيرة وهو صطام بن شعلان فيقول ان جاري ليس جاراً لصطام ..

واليك بعضاً من أبيات قصيدته الثانية التي تشبه بمعناها الاولى :

يا شلاش ما نعطيك حمر الطرابيش
لو جمعوا كل العساكر علينـا

دونك نسوق المال والخيل والجيش
وان لزموا يا شلاش نرهن حدينا

اخوان عذرا ما بهم ماكر كديش

وعمارنا يا شلاش ترخص علينـــا

الشروح : يقول ابن سمير مخاطباً مستجيره المدعو شلاش إياك ان تخشى أو يخطر ببالك ان نسلمك (لحمر الطرابيش) يقصد رجال الدولة العثمانية الذين كانوا يتخذون الطربوش أي الطاقية الحمراء التي توضع فوق الرأس شعاراً لهم وقتذاك.. وفي عجز البيت الاول يعيد الشاعر المعنى نفسه سالف الذكر أي الذي في البيت الاول من قصيدته الاولى فيقول : لن نسلمك يا شلاش للحكومـــة حتى ولو جمعت جميع جنودها وساقتهم الينا ..

وفي البيت الثاني يقول : عندما تطالبنا الحكومة بتسليمك فإننـا سوف ندفع جميع ما نملك من المال وما نملك من الابل وما نملك من الخيل.. كل ذلك سوف ندفعه فداء في سبيلك ـوفي صدر البيت الثاني يشير الى العملية التي قام بها فيوضعه لأخيه رهيناً في سجن الحكومة ويقول : ان هذا العمل كله في سبيل حمـــاية جاره شلاش ..

وفي البيت الثالث يفتخر الشاعر بإصالة نسبه وعراقـــة حسبه كما هو شأن الاعراب منذ قديم الزمان فيقول : نحن اخوان عدرا ، عَذْرا كما نقله الينـــا الرواة هي القرية التي بقرب الشام فيقـــال ان هذه القرية كانت ملك لأبن سمير وكأنه يقول : نحن حماة بلدنا عدرا [1] .

---

١ ـ القصيدتان فيهما ابيات شيقة وتعبر عن الحادثة بوضوح .. ولكن لم نعثر على اكثر مما جاء في السياق واعتقد ان الكثير من القصيدتين انطوى في صدور الرواة الذين تحت الثرى ..

حتى ولو كان عمداً عفونا عنه

- ٤ -

كان ذلك في عام ١٣٣٣ هـ عندما هرب معضد [1] بن منيـع من قبيلتـه شمر خوفاً من عقاب أحد رجال القبيلة الذي يطلبه ثأراً وينوي الاقتصاص منه وراح واستجار بحمى شافي [2] بن شامان البجيدي. وقد عاش المستجير في حمى مجيره أكثر من خمس عشرة سنة وهو موفور الكرامة ، لا يستطيـع ابن عمه الذي هرب منه أن يمسه بسوء .

وكان لكل من المجير والمستجير فتى في ريعـان شبابه ، وكما ان الأبوين يعيشان كالأخوين كان ابناهما يعيشان أيضاً كالأخوين التوأمين.. كانت الالفة بينهما متصلة كاتصال الروح بالجسد ، وكان كل منهما بكر أبيه واذا طـــال غياب ابن الشمري عن أهله وأراد أبوه أن يتفقده فانه لايذهب بعيداً ولا يسأل عنه أي أحد وانما يذهب الى بيت مجيره العنزي فان وجده فيها والا فيسأل عن ابن رفيقه فان لم يجده عاد راجعاً وكله ثقة ان ابنه وابن مجيره ذهبا سوية الى أحد الأمكنة التي يمرح فيها فتيان البادية الذين لا يملون الألعاب الرياضية ..

كان هـذا ديدن الفتيين منذ ان كانا في سن الطفولة الى سن المراهقة ثم سن الفتوة الذي يعيشانه الآن ، وفي هذه السن أي سن الفتوة كان الفتيان كثيراً مـا

---

١ - معضد منقبيلة شمر الفرات ومن بطن يقال لهم الثابت .

٢ - شافي بن شامان من قبيلة عنزة ومن عشيرة العمارات ومن بطن يقال له السلقا.

يحمل كل منهما بندقيته ويذهبان الى الفلاة لأصطياد الأرانب البرية ثم يعودان قبل غروب الشمس ، وهما يحملان مختلف أنواع الصيد من أرانب الى طيور الى غزلان أحياناً ، وقل ان يعودا صفر اليدين . كانا اذا أفلس احدهما من الصيد ووفق الآخر فان هذا الاخير يقسم صيده بينه وبين رفيقه هكذا اصبحت قضية ذهابهما للصيد لها اكثر من معنى :

أولا – انها تعبر عن رسوخ الفتهما بحيث لا يمكن ان يذهب احدهما للفلاة دون أن يصحب رفيقه .

ثانياً – تشير الى ما يتمتعان به من صدق الأخوة والمودة بينهما بصورة تجعل كلًّا منهما يساوي صديقه بنفسه فيوزع صيده بينه وبين رفيقه في حالة افلاس احدهما من الصيد أو عندما يزيد صيد احدهما على الثاني .

ثالثاً – يجد الفتيان في رحلتهما للصيد لذة ورياضة علاوة على ما يقدمانه لأهلهما من لحوم صيد البر اللذيذ الشهي .

ظل الفتيان على هذه السيرة ، يخرجان بعد انبثاق الفجر ، وقبل بزوغ الشمس ممتطياً كل منهما ذلوله واضعاً (شداداً) وخرجاً صغيراً فيه قبضة من التمر ومثلها من طحين البر ، ويعادلها على جانب الذلول الثاني قربة ماء ، وبندقيته التي . تظل معلقة في (غزالة) الشداد الاخيرة ، وعندما يقطعان مسافة عشرة اميال تكون الشمس قد بسطت اشعتها على الصحراء النقية الهواء ، في تلك اللحظة ينيخ الفتيان راحلتيهما ثم يتولى احدهما وضع قيد في ذلوليهما بينما يقوم الثاني بأخذ حفنة من الطحين فيعجنها ثم يختار لها أرضاً رملية نقية فيضعها فيها ثم يشعل جذوة حتى اذا خمد اللهيب جاء بالجمر ووضعه فوقها واذا أيقن ان وجهها الأعلى نضج قلبها على الوجه الأسفل ، واذا وثق من نضوجها من كلا الجانبين أخرجها ومزجها مع التمر ، فان كانت سنتها كثيرة الأمطار والبركات اضافا الى الرغيف والتمر سمناً ، وتسمى هذه الأكلة (حنيني) وهي ألذ الأكلات لا عند البدو فحسب ، بل حتى عند حضر نجد في ذلك العهد ولا يتوفر وجودها الا عند الطبقة الراقية .

أما اذا كانت السنة من السنين العجاف التي كثيراً ما يهلك فيها الضرع ويذوي الزرع من شـــدة الجفاف ـ اذا كان الأمر كذلك فان الفتيين يكتفيان بالتمر والرغيف ، وأحياناً يكتفيان بأحدهما مع الماء الزلال ..

وقـد ذكرنا من قبل انهما كانا يعودان قبل غروب الشمس،وقل ان يتأخرا الى مـا بعد ذلك ، اللهم إلا في الحالات النادرة ، عندما يتعذر عليهما وجود الصيد ، فيصعب عليهما ان يعودا صفر اليدين. وحتى ولو لم يجدا إلا ارنباً واحداً فانهما اما ان يتقاسماه أو يتركه ابن المجير لجاره الذي عنده من الاطفال اكثر من واحد ، بينما المجير لم يكن عنده من الذرية سوى هـــذا الفتى الذي هو بكر أبيه وأمه ووحيدهما ..

وفي احدى الليالي تأخر الفتيان عن مجيئهما المعتاد ، فظن اهلهما انهما سيأتيان أول الليل. ولكن أول الليل مضى بدون أن يأتي الفتيان، فدب في قلوب والديهما الرعب . وذهب المستجير الى بيت مجيره في آخر الليل ظاناً ان ابنه جاء متأخراً أو انه بات عند رفيقه ، ولكنه عندما وصل هناك وجد مجيره يقظاً ومشعلاً ناره ويحتسي أكواب القهوة بنهم ومزيد من القلق .. كما وجد أم الفتى بجانب بعلها بحـالة تزيد قلقاً عن زوجها . فسلم وجلس بدون أن يحاول أن يسأل عن ابنه لأن مظهر الزوجـــين أبدى له أن مصير ابنه وابن مجيره واحد . ولذلك جلس صامتاً ، وبعد أن ناوله مجيره عدة أكواب من القهوة ورشفها الآخر بنهم لا يقل عن نهم مجيره ...بعد ذلك غشي المجير ومستجيره فترة من الوجوم دون ان يحدث أحدهما الآخر، إلا أن زوج المجير لم يعد بوسعها أن تصبر أكثر مما صبرت فوجهت الى مستجيرها السؤال التالي :

ـ ما هو الأمر الذي تتوقع أن يكون السبب الرئيسي لتأخير ولدينا ..

وقبل أن يجيب المستجير أجاب المجير قائلاً :

ـ انه يجهل السبب كما نجهله نحن .. ثم بعد ذلك أجاب المستجير :

ـ ان الاحتمالات كثيرة ..

فتنهدت الأم بزفرة شديدة ثم قالت :
– ما هي الاحتمالات التي تعني ؟
– ربما ضاعت احدى راحلتيها وراحا ينقبان عنها حتى امساهما الليل . او ربما انها لقياصيداً كثيراً وظلا يلاحقانه الى ان دهمهما الليل وعندما انهكهما التعب ناما لكي يرتاحا قليلا فغلبهما النوم كشأن الشباب في مثل هذه السن ، فظلا غارقين بنومهما حتى هذه الساعة . .
فقال المجير :
– كلا الاحتمالين معقول جداً ، فبادرت الام وهي تحاول ان تخفي عبرتها وقالت :
– ولكن اذا انبلج الضحى غدا دون أن يأتيا جميعا او يأتي واحد منهما فماذا يكون الاحتمال ؟
فأجابها بعلها :
– مالك متشائمة وتفترضين احتمالات سابقة لأوانها ؟..
فأجهشت بالبكاء قبل ان تقول :
– لا تلمني فيما اذا تشاءمت لأنني رأيت في منامي الليلة الماضية رؤية افزعتني وأقضت مضجعي .. فنهرها بعلها محاولا ان لا تمضي في شرح رؤيتها التي توحي بأنها لا تبشر بخير وأن تترك بكاءها الفاجع قائلا ..
– قولي خيراً او اصمتي .. ولكنها لم تصمت ولم تقل خيرا بل ازدادت في بكائها وقالت كلمات يكاد ان لاتفهم معانيها من شدة بكاها وشهيقها ..
– أجل لقد رأيت البارحة ان نارا أدخلت في فؤادي واحرقته .
فنهرها بعلها ثانية بشدة .
– استعيذي بالله من الشيطان الرجيم .
وشاء الضيف المستجير ان يحسم النزاع فقال :
– من الاجمل ان اذهب الآن على مطيتي واتبع اثرهما علّني أجدهما نائمين كما اظن ..

فبادره مجيره العنزي قائلاً :

– هدىء روعك ولا تعجل ولا يستخفنك هذيان هذه المرأة.. ولا مرد لقضاء الله وقدره ، والخير كله عاجله وآجله بما يرضاه الله لنا والعجلة من الشيطان والاناة والصبر من الرحمن .

– لم يكن في الامر عجلة ولست ممن لا يصبر ولا يحتسب فيما إذا قدر الله أمراً مهما بلغ من الهول والفظاعة وانما أردت ان افعل الاسباب ليس الا ..

– أنا اوافقك الرأي على فعل السبب من حيث المبدأ ولكنني لا اوافقك بأن تمضي على راحلتك من الآن وإنما الافضل ان ننتظر حتى تبزغ الشمس أو على الاقل حتى ينبثق الفجر فإذا لم يأتيا عندئذ نذهب سوياً ..

– ها هو الفجر قد انبثق ..

– هذا الفجر (الكذاب) [1].

ليس بين هذا وذاك إلا فترة وجيزة لا تتجاوز المـــدة التي آتي براحلتي من مراحها وانيخها وأضع على ظهرها شدادي فعندها يكون الفجر قد اسفر ..

– إذا كان ولا بد فلنذهب سوياً ..

– أرى ان لا داعي لذهابك ..

– اريد ان أؤنسك وأسليك في خلوتك..

– الأمر بعد الله لك . ومن هنا تدخلت المرأة وقالت :

– ولا بد لي من ان اذهب رديفة لك . (تعني زوجها)..

فرد عليهـا بعلها :

ألم أقل لك استعيذي بالله من الشيطان الرجيم . فصمتت المرأة على مضض بينما ذهب الشمري والعنزي كل منهما يدني راحلته .وقبل ان يمتطي الاول منهما ذلوله سمعا مؤذن الفجر ينادي (حيّ على الصلاة) .. فأديا صلاة الفجر ثم ذهبا نحو الجهة

---

١ – يسمي الفجر الاول عند البادية الفجر الكذاب .

التي اتجـه اليهـــا الفتيان ، وبعدما اشرقت الشمس وجدا أثر راحلتي الفتيين فظلا يتتبعان الأثر . وفجأة سمعا حركة من خلفهما فانحرفا الى الخلف لينظرا ما هي هذه الحركة ؟ فاذا بها قرينة المنزي تسير خلفهما حافية القدمين، فأناخ بعلها راحلته واركبها خلفه وواصل سيره مع جـــاره الشمري حتى وصلا الى راحلتي الفتيين فوجداها مقيدتين ترعيان من عشب الفلاة .

رؤيا الأم تتحقق

فأجالوا بصرهم هنا وهناك لينظروا أين الفتيين . ولكنهم لم يروا لهما شبحاً ولا أثراً . فعادوا يتتبعون أثر الراحلتين من جديد فقطعوا مسافة بعيدة دون ان يروا للفتيين أي أثر . وبينما المجير وجاره في حيرة من أمر ابنيهما اذا بالمرأة تصيـح قائلة : ها هما نائمان . وتمد يدها مشيرة الى واد منخفض قريب منهم ..

فقال الشمري لمجيره :

– هذا ما كنت أتوقعه . لقد تعبا وناما ولم توقظهما حرارة الشمس ..

فقال المنزي :

– هذا نوم الشباب .. لقد كنا ننام اكثر من ذلك عندما كنا شباباً في مثل عمرهما . ولم تنتظر الام حتى يصلا اليها بل نزلت وراحت تجري لتوقظ ابنها من نومه . ولكنها عندما وصلت اليه وجدت ابنها نائماً نومة أبدية ، فوقعت مغشيـاً عليها .وفي هذه اللحظة وصل المجير وجاره،فوجد ابن المجير مصاباًبرصاصة في صدغه الأيمن وخارجة من الصدغ الايسر وناثرة مخه على بقية جسده وراحا الى ابن الجار فوجداه هو الآخر منكباً على وجهه ولم يبد منه أية علامة تدل على أنـه حيّ ، فقلبه والده على ظهره لينظر الى أثر الاصابة ولكنه لم ير به أثراً لاصابته ، فوضع يده على صدره ليتحسس نبضات قلبه ، فوجد ان هناك ما يدل على انه لا زال على قيد الحياة ، وان كانت النبضات غير طبيعيـة وتتحرك ببطء . وفي الوقت نفسه

كان العنزي يقوم بالعملية نفسها نحو زوجته . وبعدما تأكد الشمري أن ابنه لم يصب بسهم ولم يفارق الحياة . عند ذلك ذهب الى مجيره فوجده يتحرى نبضات قلب زوجته . هل انها اصيبت بنوبة قلبية أودت بحياتها؟.. أم أن القضية لا تعدو كونها نوبة أغماء ؟..

وبعد التثبت وجد القضية اغماء أصابها نتيجة لهول فاجعتها بابنها . عند ذلك اتجه نحو مستجيره يسأله عن ابنه قائلاً :

- كيف وجدت ابنك لعله على قيد الحياة ...

- هكذا يبدو لي لأنني لم أجد في جسده أية علامة تدل على اصابته ولا أظن به إلا الاغماء فقط ..

- اذن فلنذهب اليه علنا نوقظه من اغمائه ..

- فلنوقظ زوجتك أولاً .

- لا . فلنبدأ أولاً بابنك أما الزوجة فان قرب عهدها بالاغماء يجعلها أخف خطراً من ابنك ..

أصر كل منهما على رأيه . فراح العنزي يوقظ ابن جاره باستعمال المنبهات المألوفة كرش وجهه بالماء البارد وما شابه ذلك .كما قام الشمري بالعملية نفسها مع زوجة العنزي . فاستيقظت المرأة قبل الفتى . فكان أول كلمة تحدثت بها قولها :

- الحمد لله على قضائه وقدره . ثم أردفت قائلة :

- لعل ابنك سليماً (تعني الشمري) .

- ليست به اصابة. فمدت بصرها اليه فرأت بعلها يستعمل معه وسائل التنبيه. فقالت لجارها :

- هيا بنا اليه . فذهبا الى الفتى وقد لفت نظرهم جميعاً وجود بندقية الشاب

ملقاة بجانبه وخزينة الذخيرة مفكوكة . وفي بيت نار البندقية (طلقة ثاريه) خارجاً سهمها وبقي مكان السهم فارغاً ، مما يدل على ان سهم هذه البندقية هو الذي هشم رأس الفتى القتيل . وكانت الأدلة كلها متوفرة بأن ابن المجير مات من يد ابن المستجير ..

كانت مصيبة الشمري فيما اذا كان ابنه القاتل لابن مجيره لا تقل عن مصيبة العنزي وزوجته بابنها . وكان العنزي ينظر الى وجه جاره الذي بدأت عليه علامات البؤس واضحة . وكان كل ما يخشاه ان يفلت لسان زوجته بكلمة تصدر بغير وعي منها فتمس بمفهومها شعور جاره الشمري خاصة بعدما ثبت بالدليل الملموس أن ابنها الوحيد لم يمت الا من سهم ابن الشمري . ولذلك أسرع العنزي بقوله :

– لا شك أن العملية سهواً .

موجهاً كلمته هذه الى حليلته . وكأنها أدركت ماذا يعني بعلها بهذه الجملة فقالت :

– حتى ولو لم يكن سهواً عفوت عنه . ثم مضت قائلة :

– اذا كان ابن صويط قتل ابنه من أجل جاره . فهل من الشيمة ان نسيء الى ابن جارنا حتى ولو قتل ابننا عمداً ..

قالت هذه الكلمة ثم مضت تساعد زوجها على ايقاظ ابن جارهما من غيبوبته بينما ظل والد الفتى في شبه غيبوبة . وبعد استعمال شتى الوسائل لايقاظ الفتى . عند ذلك بدأت اليقظة تدب في كيانه شيئاً فشيئاً حتى استكمل وعيه ، فوجد نفسه بين يدي أم الفتى وأبيه الذي يكن له من الالفة والمودة الشيء الذي لا يعادله في نفسه الفة ومودة والديه. الامر الذي جعله يجهش بالبكاء على فراق صديقه بل أخيه الذي مات من يده . وبعدما سكب من مقلتيه دمعاً لا يقل غزارة عن دمع والدة القتيل ثم هدأت اعصابه الى حد ما . بعد ذلك أراد أن يشرح الأمر

كيف حدث . ولكن والد القتيل ووالدته منعاه ، ولم يدعا له مجـــالا لشرح القضية . وكل ما في الأمر ان تعاونوا جميعاً على حفر قبر الفتى . وبعد ان واروا جثمانه عادوا وكأن لم يكن أي شيء بالنسبة لوالد الفتى ووالدته اللذين فقدا فلذة كبديهما ووحيدهما في الدنيا كلها .

وكانت التقاليد تقضي بحالة كهذه ان يدفع القاتل دية من خيرة الابل لوالد القتيل لا يقل عددهـــا عن ستين ناقة ، ولكن العنزي رفض حتى قبول الدية .. والقصة مشهورة ..

الشقي الذي شقي به أهله

- ٥ -

كما انني وفقت الى جمع وتأليف ما استطعت الحصول عليه من شيم العرب ، فانني أرجو ان تتاح لي الفرصة الكافية التي أوفق بها الى جمع وتأليف عادات العرب ، وذلك ان لعرب البادية عادات وقوانين وأنظمة يطبقونها على انفسهم بصورة إلزامية. كما ان لهم قضاة يرجعون اليهم في قضاياهم وما يحكم به هؤلاء القضاة يكون حكماً ساري المفعول ، والذي اعتقد ان الحكم في بعض القضايا غير الرئيسية يختلف باختلاف القبائل ، أما القضايا الرئيسية فإنهم متفقون عليها فمثلاً الذي يرتكب فاحشة فهذا لن يجد من يجيره ولا يؤويه قطعياً حتى أهله يتبرأون منه ، هذا وانني اعتقد ان البحث في هذا الموضوع يحتاج الى سفر خاص ..

والذي نحن في صدد الاشارة اليه الآن هو موضوع كنت أجهل كنهه لو لم يأت عرضاً في مجرى قصتنا هذه وهو انني اعلم ان الجار أو المستجير مهما ارتكبا من الشطط عمداً او خطأ فان زلتهما مغفورة مهما بلغت من الضخامة ، ولكنني اجهل ان الجار او المستجير ، اذا ارتكب خطيئة وهو عند مجيره ، ثم عاد الى اهله ، فانه يتحتم عليه ان يشد الرحال هو ونخبة من رجال قبيلته من اجل ان يعرب عن شكره وتقديره لمجيره على تسامحه عن عثرته التي ارتكبها خلال الليالي التي قضاها في جواره ، فإن لم يأت هذا المستجير بعدما يصل الى اهله في خلال مدة اقصاها سنة

كاملة فاذا مضت هذه المدة بدون ان يأتي المستجير الى مجيره ويقـــدم له الشكر والاعتراف بعفوه ، فمعنى ذلك ان هذا المستجير اما ان يكون مستهتراً بحق مجيره او جاحداً لمعروفه ، فعندئذ ترتفع عنه حصانة الجوار السابقة بانتهـاء المدة الزمانية سالفة الذكر ، ويكون للمجير الحق في ان يطالب مستجيره بالجريمة التي ارتكبهـا خلال اقامته ، اللهم إلا اذا استدرك الامر ، وأبدى اعتذاره بفوات المدة التي أهملها فعندئذ ينتهي الامر بالتسامح ، واعادة الماء الى مجاريه ، كما حصل عملياً مع ابطال القصة الآتية .

في سنة ١٣٠٦ هـ جاء الى علي الجبري [١] رجل من قبيلة مطير فـاراً من اهله خوفاً من أحد رجال القبيلة الذي اعتدى عليه بسبب حادثة ما ، فاستجار به فظل المطيري بجوار الجبري مـــدة اقامته عزيزاً مرفوع الرأس شامخ الانف موفور الكرامة ، كشأن كل مستجير عند أي عربي .

الابن المشؤوم

كان المستجير ابن تجاوز سن الرشد كما كان لعلي الجبري ابنان احدهما يضارع ابن المطيري بالسن والثاني ينقص عنه قليلاً . .

ولما كان المطيري مطالباً بالثأر من قبل رجال قبيلته ، فانه بطبيعة حاله يكون محتاطاً للامور المفاجئة ، ولذلك كان لا يترك بندقيته فارغة من الذخيرة ، بل كان بيت النار دائماً مليئاً بالرصاص ، وفي ذات يوم جاء ابنه واختطف بندقيته بغفلة من ابيه وراح يعبث بها وكان احد ابني علي الجبري أي مجير والده قريباً منه عندما كان يعبث ببندقية والده وفي احدى حركات الفتى السريعة التي لا شعور بها وضع احد اصابعه

---

١ – علي من قبيلة حرب من عوف بادية المدينة المنورة ، وهو شقيق لعليان الشاعر الشعبي المعروف المتوفي عام ١٣٦٤ هـ .

على زناد البندقية،بعدما أزاح مسمار الامان ، فكانت النتيجة ان انطلقت الرصاصة واصابت مقتلاً من الابن الاصغر للمجير فخر صريعاً على الفور ..

كان والد الفتى ساعتذاك غير موجود ، فهب نفر من صبيان القبيلة يبدون حماساً وضجراً من تصرف القاتل ، ولكن ام القتيل زجرت الفتيان الطائشين قائلة :

ـ لا شأن لكم في الامر ما دام المقتول ابني والقاتل ابن مستجيرنا ، ولئن كانت عواطف الامومة لها في النفس أثرها المؤلم فإن حرمة المستجير اذا انتهكت أشد ألماً وأثقل وطأة على النفس من الألم الناشيء عن مقتل الابن .. ثم مضت بحديثها الى ان قالت : ان ابني لقي حتفه بحكم القضاء والقدر ومن المستحيل ان تعود الروح اليه من جديد ، وان أي تصرف أهوج يصدر منكم أيها الفتيان بحق مستجيرنا فإنكم مسؤولون عنه فيما اذا جاء بعلي الآن فهو لا يهمه مصرع ابنه بقدر ما يهمه انتهاك حرمة مستجيره ..

تراجع الصبيان عن فورة غضبهم وذهبت الام تدثر ابنها المسجى بعباءتها،وبعد لحظة وجيزة جاء والد الفتى فاخبر بالأمر الواقع ، فما كان من أمره الا ان ذهب الى مستجيره الذي وجده بحالة ارتباك وقلق فطمأنه وأبدى له عدم اهتمامه بالقضية مؤكداً له ان أجل ابنه انتهى من عالم الدنيا وانه لو لم يمت بسبب هذه الطلقة الطائشة لمات بهذا اليوم نفسه .. وبهذه الساعة بالذات بسبب آخر .

وبعدما ادخل الى قلب مستجيره الطمأنينة وهدأ روعه ، طفق وفئة من ذويه الاقربين يواري جثمان ابنه ..

وعلى الرغم من أن علياً طمأن مستجيره وخفف عنه ما في نفسه من خجل وروعة ، وبالرغم مما سمعه من والدة الفتى من الكلام الذي وجهته الى اولئك الصبيان المتهورين بالرغم من هذا كله فقد ظل المستجير في حالة سيئة من شرود الذهن والقلق والهموم التي كدرت صفو حياته ، ولم ير أمامه الا ان يرحل عن مجيره ويعود الى قبيلته مطير ، معرضاً نفسه لعقاب رجال قبيلته التي هرب منها

غير مبال بما يصيبه منهم حتى ولو كان القتل ، فإنه لم يبق في نفسه أي أسف على حياته المشؤومة التي اصبحت عبئاً ثقيلاً عليه ..

وحيد الأبوين يلاقي المصير الذي لقيه أخوه

كان صباح عيد الفطر ، عندما كان فتيان القبيلة يمرحون وينشدون الاهازيج موالين رقصاتهم الشعبية ويطلقون الرصاص من أفواه بندقياتهم في الهواء ، وكان ابن الشؤم من ضمن أولئك الفتيان يشاركهم أفراحهم ، يرقص كما يرقصون ويطلق الرصاص من فوهة بندقية والده المشؤومة الاخرى ، وكان والدا الفتى المقتول لم يشاركا القبيلة بأفراحها حزناً على ابنهما الذي لم يتجاوز مصرعه المدة التي يندمل بها جرح الحزن .. وكان المستجير وزوجته هما الآخران لم يساهما بأفراح العيد ، بحكم ما يعانيانه من أثر الصدمة التي سببها لهما ابنهما . ففي هـذه الفترة بالذات سمع المطيري أهازيج الصبيان واطلاق الرصاص ، فهب يسأل زوجته عن ابنه فلم تفده عن وجوده . فراح يتفقد بندقيته فلم يجدها في مكانها المعتاد الذي وضعها فيه ، فنقب عنها هنا وهناك فلم ير لها أثراً . فأعاد الكرة الى زوجه يسألها أين البندقية؟..فكان جوابها سلبياً. فصاح بها: لا يكون الشقي الملعون أخذها؟. فأومأت الزوجة برأسها باشارة تعبر عن جهلها بالبندقية وعن غضبها على ابنها ..

فقال : لا بد ان وجه الشؤم التقط البندقية .. ثم أردف قائلاً : قبحه الله من ابن منحوس . منذ أن رأيته لم أر اليوم الأبيض .. هأنذا ذاهب اليه لئلا يجلب لنا مصيبة أخرى ..

هرع الاب يهرول ليأخذ البندقية من ابنه ، وقبل ان يصل الى ملعب الصبية لاحظ ان الفتيان تركوا رقصهم وأغانيهم وان الطلقات النارية انقطع صوتها وعندما دنا منهم اكثر وجد الضجيج الممزوج بالبكاء ، فأسرع بجريه ليتحقق ما الامر .. وعندما توسط الملعب وجد ابنه ملقى على وجهه كما وجد ابن مجيره بحالة مماثلة فراح يقلب ابن مجيره فوجده مصاباً برصاصة تحت ابطه الأيسر فوضع يـده على صدره

ليجس نبضه فوجد قلبه ساكناً عن الحركة ، فراح يسأل ما الخبر ؟.. فقيل له ان ابنك اطلق رصاصة من بندقيته فقتلت الفتى .. وما ان سمع هذا النبأ حتى سقط مغشياً عليه .. وفي هذه اللحظة كان والد الفتى قد وصله خبر السوء فجاء ووجد الامر قد نفذ بأبنه كما وجد مستجيره وابنه المشؤوم مغمى عليهما،فما كان من امره الا ان عزى نفسه بقوله :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، ثم اردف قائلاً :

ترى لو ان القضية جاءت عكساً للواقع وكان القتل من ابني لأبن جاري ؟ فماذا يكون موقفي ؟ وماذا يقول الناس ؟.. فهل يصدقون ان القضية جاءت خطأ ؟.. أم يقولون ان ابني تعمد هذا الخطأ ليأخذ الثأر لأخيه ؟..

قال الرجل هذه الكلمات ثم ختم حديثه بعبارات تشير الى المعنى القائل :

(حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض)..

أي كأنه يؤكد بأن مصيبته بقتل ابن جاره لابنيه الاول والثاني الذي هو عزاؤه الوحيد في حياته أهون من ان يكون القتل من ابنه لابن جاره ، ثم بعد ذلك أمر جماعة من ذويه ان يواروا جثمان ابنه كما أمر من يسعى بايقاظ ابن جاره القاتل وان يبعده في مكان ناء تقديراً منه بأن والده اذا أفاق من اغمائه قد يفتك بابنه كما تولى هو بنفسه ايقاظ الاب وقد جاء تقديره بشأن عزم الاب على قتل ابنه طبقاً للأمر ، الذي كان يتوقعه ، ذلك انه ما ان استيقظ من غيبوبته حتى راح يهذو كالمجنون يسأل عن ابنه المشؤوم الذي سوّد وجهه بأعماله التي وان كانت خطأ ولكنها لا تطاق ، وقد ظل في بيت مجيره الذي راح يهدؤه ولم يتركه حتى اخذ منه عهداً بأن لا يمس ابنه بسوء ، وقبل ان يخرج من بيت مجيره كان قد اتخذ قراره النهائي القاضي بذهابه لقبيلته ليلقي نفسه بينهم غير مبال بما يترتب عليه من سوء العقاب الذي هرب من اهله خوفاً من الانتقام الذي سيناله ممن كان في ذمته له ثأر .. ولذلك ودع مجيره في الحين الذي خرج من بيته وداع المسافر الذي لن يعود .. وكم حاول مجيره ان يعوقه عن همته ولكنه أصر على مضيه في عزيمته ،

فاستدنى الرجل رواحله وشخص نحو قبيلته وما ان وصل هنـاك حتى طرح نفسه بين يدي القوم الذين يطالبونه بأخذ الثأر ، قائلًا لهم :

– أريحوني من هذه الحياة التي هربت منكم خوفاً عليها ، وهـا هي الآن اصبحت عبئاً عليّ ..

ولكن طلبة الثـأر الذين كانوا يتربصون به الدوائر عندما علموا بما حـل به من المصائب تركوه وشأنه ، بل اعلنوا عفوهم عنه وتنـاسيهم عن مطالبتهم بالثأر نهائياً .

استهتار بغير قصد

ظل الرجل بين قومه مـدة وهو بسدرة من أثر الصدمة التي سببها له ابنـه المنحوس وكان كلما نظر الى ابنه عادت الى ذاكرته تلك الذكرى المؤلمة فأصبـح ينظر الى ابنه كأنه شيطان وبعدما مضى على رحيله عن مجيره مدة تقـارب السنة عندئذ صاحت به زوجته قائلة :

– ها فلاناً أنسيت ما في ذمتك للرجال ؟..

– ماذا تقصدين ؟..

– ألا تعلم اننا منذ ان تركنا مجيرنا الحربي حتى الان اصبح لنا من المدة مـا يقرب من السنة الكاملة ؟..

– بلى أعلم ذلك ..

– إذن لماذا لا تختار نخبة من خيرة رجال القبيلة وتذهب لزيارته..

– الحق كله بجانبك ولم تقولي إلا العدل والصواب.. ولكن اذا لم أزره ماذا يعمل ؟ اكثر من ان يأتي ويقتل ابننا الشقي وجـه الشؤم وأحب الي ان يقتله ويريحني من رؤيته ، لأنني كلما انظر اليه أتذكر ما قام به من الاعمال التي جعلت الدنيا تسود بوجهي ..

– عندما يأتي مجيرنا سوف لا يكون الدافع لمجيئه أخذ الثأر من ابنك..فتلك

قضية تجاوز عنها الرجل بكل كرم وسماحة نفس وانما يأتي لكونك قضيت سنة كاملة بدون ان تزوره وتعلن له تقديرك له وترفع له الراية البيضاء على مواقفه المشرفة ..

– لا تؤاخذيني يا ابنة فلان لقد كنت في غيبوبة وسدرة عن ملاحظة هذه الناحية بالذات .. لقد كان تفكيري محصوراً على ان مجيري سوف يأتي ويقتل ابني عندما تمضي مدة السنة الكاملة .. ولذلك لست مفكراً بزيارته أما بعد ان لفت نظري الى الناحية الهامة وهي ما يعتقده مجيري بأنني مستهتر به ، وغير معترف بجميله ، عندئذ فلا يسعني الا ان اذهب من الآن وصاعداً لأطلب من اعيان قبيلتي جميعهم بأن يذهبوا معي الى مجيري ونرفع له كل ما نستطيع رفعه من تقدير واجلال وراية بيضاء نضعها فوق رؤوسنا ..

– هذا هو أقل ما ينبغي ان تقوم به مع ذلك الرجل الذي اكرم مثوانا طول المدة التي نحن بجواره هو وأهله كما انه تحمل منا بعملية ابننا ما هو فوق طاقة الانسان . ولكن الذي انصحك به ان تبادر من الآن لان السنة أوشكت ان تنتهي ..

– حسناً سوف أباشر بسعيي في الموضوع غداً ..

– لا تؤخر عمل اليوم للغد .. بل من الآن اذهب الى أعيان قبيلتك واحداً واحداً وكلهم قد فهموا القضية ولا أظن احداً منهم يتأخر عن السفر لزيارة ذلك الرجل الكريم واياك ان تتأخر لحظة واحدة لأن التأخر له آفات وآفات..

– ها أنا ذاهب الآن وأرجو من الله التوفيق ..

ذهب الرجل من فوره الى رجال قبيلته الاعيان ، فوجد كل من طلب منه الذهاب الى مهمته موافقاً بدون تردد ولكنهم كانوا متفرقين فشد راحلته يتبع منازلهم فأخذ مدة أطول مما ينبغي ولم يعد الا وقد مضى على السنة شهران، ولكنه استطاع ان يشكل مجموعة لا بأس بها من مشاهير رجال قبيلة مطير البارزين الذين عينوا الزمان والمكان الذي يتجمعون فيه فعاد الى زوجه يخبرها بنجاح مهمته ..

ولكنه وجدها متشائمة على فوات الوقت الذي مضى منه شهران وسيمضي منه شهر آخر لبينما يتجمع القوم في الزمان المعين . كل هذا التأخير لا يوحي بالخير بالنسبة لتقدير الزوجة ، اما بعلها فلم يكن متشائما بالقدر الذي تحمله زوجته وهي منذ أول يوم انقضت فيه السنة في هم طويل وقلق مستمر لا يهدأ لها بال ولا يطيب لها نوم ، خائفة من ان يأتي مجيرهم بعد مضي المدة المحدودة .

ألفة الكلب ويقظة الزوجة انقذتا الموقف

كان الثلثان الأولان من الليل قد انصرما ، وبدأ اول الثلث الاخير منه ، وكان الظرف شتاء ، والنجوم حجبتها السحب المتراكمة ، والليل حالك السواد عندما بدأ الكلب يهر بقوة وعنف ، يطارد الرجال الذين جاءوا خلسة ليهجموا على اهله ، وفجأة سكت الكلب عن نباحه ، لماذا يا ترى سكت هذا الحيوان ؟.. بعد ما كان مستعداً أن يمزق اشلاء المعتدين ،اجل سكت بعدما عرف علي الجبرى مجير سيده السنين الطويلة .. فالكلب يفهم ان علياً كالأخ لسيده ومن المستحيل ان ينقلب الأخ عدواً ليهاجم أخاه .. ولذلك لم يسع الكلب الا أن ترك حماسته وعكف ذنبه وراح يتمسح بعلي ويقفز من أمامه وينط من خلفه فأصبح حارسا إياه بعد ما كان مهاجما له ، كان هذا الانقلاب في سلوك الكلب من مهاجم عنيف الى حارس أمين ، من اشد العوامل التي خلقت في نفسية علي وافكاره انقلابا مماثلا لموقف الحيوان .

فوقف مبهوتا لا يستطيع ان يسير الى الامام خطوة واحدة ، وبطبيعة الحال وقف رفاقه المهاجمين خلفه ينتظرون أوامره ..

ويقول راوي الحادثة الذي كان شاهد عيان ، وفي الوقت ذاته شقيق علي الاصغر وهو عليان الجبرى المتوفي عام ١٣٦٤ والذي اجتمعت به بمدينة الرياض يقول : حينما بدل الكلب هجومه العنيف باستسلام وحراسة ، عند ذلك اصابنا جميعا انفعالات نفسية خلقت فينا رد فعل ، ويزيد الراوي تأكيداً بأن الذي تأثر

اكثر هو اخوه علي الذي وقف منفعلا وقال لرفاقه :

– ان هذا الكلب ترك مقاومته لنا بعد ما عرفنا بحكم الألفة السابقة فكيف لا نترك أهله ونعفو ونتسامح عن ابن جارنا مهما كان ابوه مستهترا بحقنا .

سبق ان قلت ان الزوجة يقظة لا تنام لها عين منذ أن انقضت المدة ، ولذلك انهى اليّ الراوي بأن المرأة كانت يقظة عندما بدأ الكلب نباحه الأول الشديد ثم سكت بصورة ليست طبيعية بدليل انها صرخت بصوت فاجع قائلة :

– يا فلان – تقصد بعلها لقد الححت عليك بشدة منذ ان اوشكت المدة ان تنتهي بأن تذهب وتزور مجيرك عليا انت ونخبة من اعيان القبيلة –. ولكنك لم تعبأ بالأمر ولم تعره كثيرا من اهتمامك حتى فات الاوان وجعلت للرجال حجة عليك .. وهام وصلوك ، والدليل على ذلك سكوت الكلب عن نباحه الشديد الذي كان يبدو منه في اول الامر ، وائن دل سكوته على شيء فانما يدل على انه عرف علياً وترك سبيله ..

وعندما انتهت المرأة من حديثها هذا اجابها الزوج قائلًا :

– ألا تعلمين بأني منذ شهرين وانا ابذل جل جهدي ساعيا هنا وهناك من أجل ان اجمع عدداً كثيراً من اعيان القبيلة لكي نذهب الى مجيرنا علي .. ونرفع له الراية البيضاء ، اولاً تعلمين بأن الوعد الذي سوف نسافر فيه الى مجيرنا لهذا الغرض اقصى حد له بعد الغد ؟.

كان علي ورفاقه يسمعون الحوار الذي دار بين الزوجين، ولذلك تولى الاجابة علي قائلًا :

– لقد قتل ابنك ابنيّ واحداً بعد واحد ، وتقبلت ذلك بكل ما يفرضه علي الواجب من مجير الى مستجيره ، وكان عليك ان تقوم انت بواجبك وان لا تصبر حتى يمضي شهران على المدة المحددة ، بل كان عليك ان تأتي إلي حالما وصلت الى أهلك كدليل منك على رضاك عني وكشاهد أمام الناس انك لم تر مني ولا من أي واحد من رجال قبيلتنا أدنى اهانة لك ولكنك لم تفعل واجبك ومع ذلك فإنني

قد تجاوزت عن استهتارك هذا بحقي سواء عن قصد أو عن غير قصد ..

بعد هذا خرج المطيري من بيته وراح يقبل بجيره ولم يتركه يذهب حتى أقام له ضيافة كبيرة دعى جميع اعيان قبيلته على شرف الضيف كما انه عندما ذهب علي الى اهله قام المطيري بواجبه الشكلي فذهب هو وأعيان قبيلتة الى زيارة بجيره علياً ورفع له الراية البيضاء كدليل على اعترافه بجميل بجيره خـــلال المدة التي قضاها بجواره .

اسراف في التضحية

- ٦ -

ولئن كانت هذه الحادثة ليست بدعاً من نوعها ، فإنها أخذت الصدارة من حيث شهرتها وذيوع صيتها خاصة عند عرب شمال الجزيرة ، بصورة يكاد ان يقال عنها انها طغت على الكثير من الأحداث التي لها علاقة فيما بين الجار والمستجير ، واعتقد ان السر في شيوعها يعود الى العوامل التالية :

وهي ان الأسرة التي روي عنها القيام بهذه العملية التي تفوق احتمال العاطفة الأبوية ، هي أسرة آل صويط ، وهذه الأسرة سبق ان اكتسب رجالها شهرة في حماية الجار والمستجير بصورة قل ان يضارعهم فيها أحد[1] من رجال العرب. وجاءت عمليتهم الآتي ذكرها امتداداً للأولى ومكملة لها، فما كاد العرب يرددون في انديتهم ذكر تلك الحادثة وانشودتها وقصة بطلها الطويلة ، ثم يقفون عند آخرها على اطراء واحترام ابن صويط ، حتى جاءت هذه الحادثة من المصدر نفسه فكان لفاعليها الشهرة كما أسلفنا آنفاً توشك ان تطغى على شهرة أية حادثة لها علاقة مباشرة في حماية المستجير ، الامر الذي جعل آل صويط يضرب بحمايتهم لمستجيرهم المثل عند عرب الجزيرة.. وكما ان عنترة اصبح مثلاً في الشجاعة وحاتماً في الكرم والسموأل في الوفاء عند جميع ناطقي الضاد، كذلك اصبح آل صويط مضرباً للمثل عند عرب شمال شبه الجزيرة ، وبالأخص بعد حدوث القصة الآتية :

---

١ – انظر الجزء الاول من شيم العرب – الطبعة الثانية للمؤلف ص ٩٠ .

كان عبدالله بن منديل[1] في جوار صنيتان ابن صويط رئيس قبيلة الظفير، ومن المسلم به أن ابن منديل سوف يتمتع بالحصانة الكاملة التي يتمتع بها الجار العربي عند أي عربي آخر، وفي أحد الايام أعد ابن منديل العدة ليقوم بغزوة الى احدى القبائل المعادية لقبيلة ابن صويط، وبالنظر لما له من ماض وتجربة رابحة في هذا الميدان، فقد كان الامر طبيعياً ان يتبعه بغزوته هذه كثير من فرسان قبيلة الظفير، وكان من بين الذين التفوا حوله أحد ابناء رئيس القبيلة المدعو (ضاري) وكانت الاصول المرعية في حالة كهذه تقضي بأحد أمرين وهما :

اما ان يتنازل احدهما عن الرئاسة للآخر، أو ان يترك الامر للغزاة لينتخبوا من يختارونه لهم رئيساً من الاثنين ..

وكان ابن منديل يرى انه الرئيس لهؤلاء الغزاة وان ابن صويط ليس الا تابعاً له، لا بحكم انه رجل مجرب وعركه الدهر فحسب، بل لأنه صاحب الفكرة الاساسية لهذه الغزوة .. وكان الشاب ابن الامير يرى ان ابن منديل جار عند أبيه له حرمة الجوار، ولكن ليس له الحق في ان ينافسه في رئاسة الغزوة . أحالوا القضية الى انتخاب الغزاة، وكيفية الانتخاب بسيطة للغاية، وهي ان يذهب أحد المتنافسين شرقاً راكباً ذلوله كما يذهب الآخر غرباً، ومن ثم يكون للغزاة الحرية باتباع من يختارونه .. وهكذا نفذت العمليه، فكانت النتيجة ان اتبع الغازون ابن منديل الرجل المجرب، واعرضوا عن ابن رئيسهم ..

ولم يكن لدى ابن صويط بد من التماس أحد الأمرين، أما ان يعود الى أهله أو ان يذعن لرئاسة ابن منديل ويتبعه وهو مرغم، وما كان من أمره الا ان اتخذ لنفسه السبيل الاخير .. ولكنه حقد على ابن منديل واضمر له سوءاً الا انه لم يكن ذلك الفتى المقدام الذي اذا اخذته الغيرة لم يمنعه من نتائج عمله ..

---

١ – ابن منديل من رؤساء قبيلة بني خالد .

كان ابن منديل موفقا بغزوته هذه حيث صب غارته على اعدائه واغتنم ابلا كثيرة بدون ان يواجه مقاومة يخسر بها فردا واحداً من قومه ، مما جعل اسهمه ترتفع أكثر عند الذين انتخبوه ، لان البدو لا يكفيهم ان يكون قائد غزاتهم فارساً فقط ، وانما يهمهم ان لا يكون قائدهم مشؤوما لا يحالفه النصر ، فاذا كان من هذا النمط ورأوا من اثر قيادته افلاسا من الغنيمة او قتلا لرجالهم فانهم يعرضون عنه ويتبعون القائد الذي يحالفه التوفيق ..وكانت غزوة ابن منديل هذه من اوضح الأدلة على ان الرجل موفق او كما قالوا بالمثل الدارج : (فلان اذا ضربها عوجاء جاءته عدله) أي انه اين ما يتجه يكون الحظ والتوفيق أمامه ، ولكن هذا التوفيق الذي ناله ابن منديل يراه ابن صويطانه على حساب زعامته هو وأسرته ، وقد ادرك ابن منديل ما في نفس الشاب من ضغينه فحاول ان يرضيه ما أمكنه الأمر ، وذلك انه عندما فرق الغنيمة على الغزاة ، قدم له من الغنيمة نصيب القائد قاصداً ان يذهب ما في نفسه ، ولكن الشاب ظل حاقدا على ابن منديل ، ولم ير الشيء الذي قدمه له من الغنيمة الا انه حق من حقوقه ،لافضل لابن منديل فيه..

وبعد ان عاد الغزاة الى أهلهم ذهب ابن منديل الى زيارة رئيس القبيلة والد الشاب ليسلم عليه بعد عودته من غزوته ، فقابله الرئيس بالحفاوة وعندما كان ابن منديل بجانب رئيس القبيلة يحتسي فنجاناً من القهوة آمنا غير خائف : وواثقا بأنه بحصانة منيعة لا يمكن ان يناله احد بسوء في تلك اللحظة جاء الشاب ضارى واطلق رصاصة خرقت صدر جاره ابن منديل ففارق الضحية الحياة فورا ..

اما الغادر فأنه فرّ وذهب الى أحد بيوت رجال القبيلة كمستجير به .

ومن سياق الحادثة يبدو ان الشاب حديث سن ويجهل العلم في معرفة حرمة الجار ، كما يجهل ايضاً الحدود التي يقبل بها المستجير عند العرب ، والدليل على ذلك أنه راح يستجير بأحد رجال القبيلة ، ولو كان يفهم التقاليد لكان بامكانه ان يعرف بأن الاستجارة لها حدود عند العرب ، فالذي يرتكب جرما شنيعا كجرمه هذا لا يمكن ان يجد من يجيره ، بل حتى أهله سوف يضطرون للابتعاد عنه لئلا يشملهم عاره .

كانت المصيبة الكبرى على والد الشاب اكبر منهـا على آل منديل ، والقضية بحكم التقاليد العربية لا تقبل التأجيل لحظة واحدة ، ولا مجال للتسويف وليس لها أي حل وسط ، والحكم الفاصل فيها هو قتل القاتل ، وليس هناك من يستطيع ان يقتله الا والده بيده ، او عمه المدعو حمود بن صويط .

فكر الأب في الامر فوجد ابنه الصق بشرفه وصمـــة عار لا يمكن ان تمحى بسهولة ، ولا يتم غسلها الا بقطعة من قلبه وبجزء من نفسه ، وبقبضة من روحه ، وما عليه الا ان يسيطر على عواطفه الابوية بكل ما لديه من القدرة ، وذلك عندما أمر أخاه حموداً بأن يأتي بأبنه ويطلق عليه الرصاصة في المكان الذي اطلق الابن رصاصته على جاره ابن منديل ، على ان يكون موضع السهم في صـدر الشاب في الموضع نفسه الذي اصاب به ابن منديل .

وفي الوقت الذي كان يحفر فيه قبر ابن منديل ليواري جثمانه ، كان الشاب يحفر قبره قبل ان ينفذ فيه القتل ، فكانت النتيجة ان ابن منديل سبق قاتله في خروج روحه ولكن قاتله سبقه الى القبر .

انتفاضة عربية معاصرة من اجل المستجير

- ٧ -

كثيرون من يعرفون ثورة جبل العرب أي الدروز الكائنة في عام ١٣٤٤هـ - بقيادة البطل الشجاع سلطان الاطرش .. ولكن الذين يعرفون اسبابها ومسبباتها قليلون جداً ..

فتلك الانتفاضة العربية سنة ١٩٢٢ التي كانت من مقدمات الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ التي كلفت فرنسا الآف القتلى ، كان سببها شاب مجاهد يدعى (ادهم خنجر) من أسرة تسمى الاسعد من جبل عامل بقرية قريبة من مدينة صيدا اللبنانية ، وكان هذا الشاب كما وصفه الاستاذ ادهم الجندي بكتابه (تاريخ الثورة السورية في ص ١٨٦) يحمل فكرة عربية اسلامية صادقة .. وكان في طليعة المجاهدين من رجال جبل عامل الذين ثاروا بوجه الطغيان الفرنسي .. وقد تولى بنفسه احراق طائرة فرنسية كانت رابضة في المطار الفرنسي بقرب مدينة صيدا .. وبعدما أبلى الفتى بالجهاد بلاء حسناً قرر أن يذهب الى بلدة سلطان الاطرش في جبل الدروز عرين الاسود في سورية وتسمى (القَرية).

فذهب هو والسيد شكيب وهاب المجاهد العربي المعروف .. وفي اثناء الطريق

اختلف الاثنان ، فوصل شكيب وهـــاب الى أسلطان الاطرش ، بينما اعتقل أدهم خنجر وسيق مكبلا بالحديـد من قبل ادارة شرطـــة أمن الاستعمار الفرنسي ..

وعندما بلغ الخبر الزعيم سلطان الاطرش أن الرجل الذي قصد بيته ليستجير به اعتقله الفرنسيون ، عند ذلك صعق سلطان لهذا النبأ واشتد غضبه وثارت ثائرته فبعث رسولاً الى المسؤولين الفرنسيين يطلب منهم أن يخلوا سبيـل الفتى مؤكداً لهم انه سوف يدفع ما يطلبونه من المـال كفدية لمستجيره ، وبالطبـع لم يعرف الفرنسيون هذا المنطق ، ولا يفهمون شيئاً من التقاليد العربية، كما انهم لم يقدروا ما يترتب على ذلك من المشا كل التي كلفتهم خسائر فادحة ..

ولم يخطر لهم ببال أن اعتقالهم لهذا الفتى سيحدث انتفاضة عربية، كان من شأنها أن اصبحت أول مسمار في نعش دولتهم الاستعمارية التي طردت من جميـع البلاد العربية التي استعمرتها ، لا لم يتوقعوا ذلك حتى فات الاوان .. ورأوا ما منيت به عساكرهم من تقتيل وما حدث من انتفاضة جبل العرب بكامله بعد ذلك ..

فكان من نتيجة غطرستهم أن أصروا على عدم الافراج عن ذلك الفتى فأرسلوا السجين الى دمشق في مصفحة .. وعندما بلغ سلطان ما دبره المستعمرون بمستجيره ذهب ونخبة من شجعان قومه الى الطريق الذي تمر به دبابات العدو التي تقل الفتى وكانت الاعمال التي اتخذها سلطان الاطرش قـد وصلت للمستعمرين ، فلم يسعهم إلا ان بدلوا اتجاههم من حمل الفتى براً بالمصفحات الى حمله جواً بالطائرة الى دمشق .. ولما لم يطمئنوا الى بقائه في سجن دمشق بعثوه بالطائرة أيضاً الى لبنان حيث اعدم رحمه الله وقدس أثره ..

أما البطل سلطان الاطرش فقد أشعـل الثورة على الفرنسيين وكبدهم خسائر فادحة كما أن الفرنسيين دمروا بطائراتهم قرية الزعيم سلطان .. ولئن أزعـــج

الاطرش الفرنسيين بثورته عليهم وأقلق راحتهم فإنه لا يستطيع أن يقف بوجه دولة من أعتى دول الاستعمار ، ولذلك جلا البطـــل الى شرق الاردن مدة من الوقت..وكم حاول الفرنسيون من سلطات الاردن البريطانية أن يسلموه لهم ولكن محاولتم باءت بالفشل ..

وبعدما يئس المستعمرون من القبض عليه ، ذهبوا يخطبون وده معلنين تنازلهم عن حكم الاعدام الذي أصدروه بحقه كما وعدوه بأن يدفعوا له جميع ما لحق به من خسائر ..

وبعدما تعهد له المستعمرون بذلك عاد البطل الى وطنه مرفوع الرأس موفور الكرامة وهو يعتقد بان المرء لا يستطيع أن يقوم بواجبه كمجاهد ما لم يكن في وسط بلاده ، وايماناً منه بهذا المبدأ عاد الى بلاده لا ليخلد الى الراحـــة ولكن ليتحين الفرص بالعدو الغاصب ، وكان له ما تمناه ، إذ شاهد خروج المستعمرين من وطنه بحياته قبل مماته ..

وساهم بطردهم مساهمة فعالة ، والجدير بالذكر أن بطل قصتنا لا زال على قيد الحياة ..[1]

« واني اتماماً للقصة التي رواها الاستاذ الجندي أورد الخلاصة التالية عن سلطان : وهي انه بعد هذا الحادث بثلاث سنوات ، أي في سنة ١٩٢٥ تطـاول المندوب السامي الافرنسي الجنرال ساراي على زعماء جبل الدروز فأهانهم وحبسهم ،فثـــار

---

١ – نقلت هذه القصة بمعناها لا بلفظها من كتاب الاستاذ ادهم الجندي وربما كانت هذه القصة الوحيدة التي نقلتها من الكتب اما البقية فانما كانت من أفواه الرواة كما اشرت الى ذلك بمقدمة الجزء الاول في الطبعة الاولى .

سلطان باشا الاطرش على فرنسا وناوشها الحرب ، فإذا بسورية كلها تثور بسبب الظلم الفرنسي الذي أوغر صدور السوريين لعدوان فرنسا على استقلالهم،وقد أبلى سلطان الاطرش في تلك الثورة العظيمة بلاءً حسناً مشكوراً، وكانت هذه الثورة الكبرى سبب اخراج فرنسا من سورية ، وشهد الاطرش باشا في حياته خروجها من وطنه.»

اما هذا الاستدراك الاخير عن سلطان باشا فقد سمعته من الاستاذ المجاهد محمدعلي الطاهر .

اجاره ولو أمر بقتله لقتله

- ٨ -

اشتد الخلاف بين الامام عبد الله الفيصل آل سعود من جهـة وبين أخيه سعود ابن فيصل من جهة اخرى على زعامة البلاد ، ولعبت الاحقاد بين الجانبين دورهـا الخطير ، وتفاقم الأمر الى أبعد الحدود حتى وصل الى درجة تجاوزت حد الخلاف السلبي الى الشقاق والفتنة الايجابية ، كما ان الخصومة تجاوزت حدود الحاكم واخيه المنافس له الى ان مرت بين الحاشية من كلا الجانبين، فالأخ الذي من حاشية الامام عبد الله مثلاً يفرض عليه واجبالتقاليد والعادات أن يعادي أخاه الذي من حاشية أبناء أخي الحاكم بل ويقاتله اذا استدعي الأمر كما حدث ذلك فعلاً ، والذي من حاشية الجانب الثاني يفرض عليه واجب العادات والعرف السائد آنذاك ان يقوم بعمل مماثل أيضاً ..

ومن هنا يعرف ما وصل اليه الأمر من الخطورة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعرف مقدار تأثير شيم العرب العريقة الموروثة علىالعادات المحلية الطارئة، فمثـلاً عندما يقاتل حسن [1] بن غشيان بجانب عبدالله الفيصل اخاه فهد بن غشيان

---

١ - فهد وحسن شقيقان ، واحد من حاشية الامامعبدالله الفيصل والثاني من حاشية خصومه وعندمـــا بلغ الامر من العداوة حداً عنيفـــاً تقاتل الاخوان .. ولكي لا يلتبس الامر على القاريء بين فهد بن غشيان الذي لا زال من حاشية الملك فيصل ولي العهد وبين حسن شقيقه فهذان من سلالة سالفي الذكر ومسميان عليها .. وكلهم من اهل الرياض .

الذي بجانب سعود بن فيصل فهذا العمل يعتبر من العـــادات المحلية الطارئة التي فرضتها سياسة الحكام في ذلك الزمان وفي كل زمان ومكان فيها اذا جاءت ظروف مماثلة لتلك الظروف .. ولكن عندما يأتي عبـد الرحمن بن خضر الذي يعتبر من أقرب المقربين للامام عبدالله الفيصل ويجير سعود بن فيصل ويخبئه عن الامـــام ويسهل له طريق الهرب فيما بعد وذلك عندما لاذ سعود بجماه ـ علماً بأنه لو ظفر به بدون أن يأتي الى منزله مستجيراً به لقتله عبدالرحمن وفـاء للامام الذي هو من حاشيته أو وفاء وجرياً على التقاليد المحلية المكتسبة ولكن عندمـــا جاءه سعود مستجيراً بـــه طغت الشيم العربية الاصيلة التي ورثها الاحفاد عن الاجداد على العادات المحلية الزمانية ، ولم يقف الأمر بابن خضر الى أن أجار سعوداً بصورة سرية فحسب بل ذهب وأعد له ولحراسه مال نجيبة وزوده بالغذاء والماء ولم يتركه حتى ضمن له النجاة والسلامة مما يخشاه .

وموضوع الغرابة في ذالك هو أن سعوداً يعلم أن ابن خضر موضع ثقـة عند الامام عبد الله الفيصل ، وانه لو أمره الأمام بقتله وتمكن منـه ، فانه لن يتأخر لحظة عن قتله .

وللمرحوم عبد الرحمن بن خضر ابن يدعى سليمان لا زال على قيد الحياة يناهز الثمانين من عمره ، وقد روى لي شخص أثق بصدق روايته بأن سليمان قـام بعمل نحوه وان كان أقل مغامرة من مغامرة والده بحمايته لمستجيره الذي تحدى بـــه السلطة ولكنه عمل يستحق أن يقدر فاعله كل التقدير ، وبالرغم من أن ذلك العمل الذي قام به الابن ربما مضى عليه اكثر من ثلاثين عامـاً ، الا أن الراوي الذي لا يزال على قيد الحياة لم يسمح لي بنشر القضية بل ولم يأذن لي حتى بالحديث عنها لأمر قد يخفى علي ما يستهدفه الراوي من كتمان الفضيلة التي اسداها له سليمان هذا. وبما ان الراوي قد أئتمنني كتمان مـا رواه لي فانني سوف لا أبوح بسر ائتمنت عليه وان كان مذهبي الذي أؤمن به هو نشر واعلان كل مـا يمت الى فعل الجميل والفضيلة بأدنى صلة لا ايماناً مني بتقدير الفضيلة أنى كان مصدرهـا فحسب ، بل

ولكي يكون ثمة تنافس على الخلق الكريم وعلى المروءة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لأن المثل العليا ليست سهلة المنال ولا هي هينة المقود ، ولو كان الأمر كذلك لأصبح كل انسان بامكانه ان يبلغ قمة الشيم العربية بدون ان يبدي أدنى كلفة ، ولكن الأمر يعود الى ما نوه عنه أبو الطيب المتنبي بقوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

وأعجب ما في الأمر هو انه في هذه السنين الاخيرة وفي خضم الاحداث التي وقعت في سورية من انقلابات أخيرة حدث حادث مشابه لقصة عبدالرحمن بن خضر مشابهة تكاد أن تكون طبق ما أوردناه ..

لقد روى لي الشخص الذي وقعت عليه الحادثة والذي لا يسعني ذكر أسمه في الوقت الحاضر لأكثر من سبب أكد الراوي بأنه عندما وقع أحد الانقلابات في دمشق كان على يقين من العلم بأن قادة الانقلاب الجديد سوف لا يدخرون وسعاً لعقابه شر عقاب متى ظفروا به فلم يسعه إلا ان يتوارى عن الأنظار الى ان تتاح له الفرصة التي يهرب بها عن البلاد لينجو بنفسه فذهب الى أحد معارفه من ضباط الجيش السوري فطرق بابه ودخل بدون ان يعلم ان هذا الضابط من الموالين لعهد الانقلاب الجديد ، بل وبدون أن يدري أن هذا الضابط بالذات هو الموكل باعتقاله فكانت مفاجأة الهارب عندما صارحه في الحقيقة باللغة العسكرية الصارمة بأن الأوامر العسكرية الصادرة اليه من قادة الانقلاب الذي هو واحد منهم تقضي باعتقاله ضمن آخرين وضعوا في القائمة السوداء ممن يعتبرهم الانقلابيون مجرمين بحق الوطن على حد قولهم ويستحقون العقاب الشديد ، فأجابه هذا قائلًا : ولكنني الآن في منزلك ومستجير بك وبخلقك العربي من نفوذك العسكري . فقال له صاحب الدار :

– وهل تظن انني أسلمك لولاة الأمر بعدما دخلت منزلي ؟..

– اذن كيف السبيل الى سلامتي .

– اذهب الى حيث تريد وأنصحك أن تغادر البلاد في هذه الظروف .

وقد ذهب الرجل الى احدى البلاد المتاخمة للحدود السورية وربما لا يزال حتى الآن يعيش لاجئاً سياسياً في تلك البلاد ..

وهكذا كثيراً ما نرى أن التاريخ العربي يعيد نفسه في كل زمان ومكان ..

ميت يجير أحياء

- ٩ -

قلّ أن نجد شخصاً من سائر البشر أجمع منافسوه الاعداء ومؤيدوه الاصدقاء على محبته واحترامه اللهم الا الأنبياء والقديسين ، وهؤلاء من صفوة البشر وليسوا من سائره والتاريخ يحدثنا عن خامس الراشدين الخليفة عمر بن العزيز رحمـــه الله ورضي عنه ، أن خصومه ومحبوه اجمعوا على محبته واحترامه ، ولم تكن تلك المحبة وذلك الاحترام من الاعداء فضلا عن الاصدقاء لعمر بن عبـد العزيز محصورة على حياته فحسب ،فقد احبه ووالاه جميـع ابناء الطوائف الذين عادوا بني أمية كالشيعة والخوارج ، كل هؤلاء بقدر ما كانوا اعداء الداء للأمويين بصورة عامة ، اصبحوا لعمر بن عبد العزيز محبين بل ومواليين له حتى انه لم تقم في عهده فتن من جميـعهذه الفئات على مختلف اتجاهاتها .. لا لم يكن الحب والاحترام من أعداء عمر موقوفين على حياته فقط ،بل وحتى بعد مماته رحمه اللهفقدبقيت المحبة والحرمة له على ما كانتا عليه ، وذلك أن السفاح العباسي عندما بلغ به الحقد والتشفي من بني أمية الحـد الذي لم يقف به الى قتل الرجال من الأسرة الاموية فحسب ، بـل اسرف بحقده الاسود الى نبش قبور موتاهم جميعا ما عدا خامس الراشدين عمر بن عبـد العزيز ، فقد كانت حرمته في قلوب اعداء اهله ميتا كحرمته حياً بفضل ما أمتاز بـه من عدل وتقوى وورع وأنصاف في عهد خلافته التي اشبه ما تكون بخلافـة عمر بن الخطاب جده لامه رضي الله عنهما .

وهكذا نجد اعرابياً كان له من الحرمة والوقار عند عشيرته وخصومه على حد سواء ، ولم تكن هذه الحرمة وذلك الوقار محصورين على حياته ، بـل وحتى بعد مماته ، الا وهو فهد الصيفي من قبيلة سبيـع بادية مدينة الرياض ، فهذا الرجل كان له من الهيبة والوقار ما مكنه أن يجير ويحمي قوماً كثيري العدد وهو في قـبره بالية عظامه .

أما كيف اجارهم ولأي سبب لاذ المستجيرون بقبره ، وما هو السر الـــذي جعل الغزاة الغالبين يتركون المغلوبين عندما لا ذوا بقبر الصيفي وهم يعلمون أنـه ميت لا يملك من امره ضرا ولا نفعا ، فالجواب على ذلك كما يلي :

أما الأجابه على كيفية اجارة هذا الميت لمن استجار به ، فالقضية هي معنوية أكثر منها مادية إذ أن الصيفي كما ذكرنا رجـــل ميت .. وهو من حيث القوة المادية اعجز من أن يحمي جسده من حشرات الأرض ، فضـــلا عن أن يحمي غزاة بجيوشهم ورجالهم .. إذن فالحماية هنا واضحة بأنها ترمز الى أمر معنوي كامن في تاريخ حياة صاحب القبر .، أمر فيه من الاحترام والوقـــار للميت في نفسية المستجيرين والمجيرين من الهيبة المعترف بها بحياته ما ظل باقياً معترف به بعد مماته.. أما السبب الذي دفع المستجيرين لأن يستجيروا بقبره ويلوذوا بجاهه فهوا انهم عندما كانوا غزاة اصطدموا بغزاة آخرين أكثر منهم عدداً وعدة وحينا وجد الاولون أنهم مغلوبون فكروا في سبيل النجاة فوجدوا كل باب من أبواب السلامة والنجاة موصدا أمامهم ، وفجأة لاح لهم على بعد قبر فهد الصيفي الذي اشتهر في حياتـــه بصفة كريمة قل أن اشتهر بها أحد من فرسان العرب ، فهرعوا إليـه هاربين من خيل الاعداء الذين راحوا يطاردونهم ولم يفلتوا منهم حتى اناخوا رواحلهم عنـد قبر الصيفي بصورة احاطوا بالقبر من جميـع الجوانب معلنين استجارتهم بـه ، فلم يسع العدو الا أن قفل راجعاً بدون انـ ينال المستجيرين بأي اذى

ولنعد الى معرفة السر الذي جعل الغزاة المطرودين يستجيرون بقبره وجعـل الطاردين يعتبرون هذه الاستجارة سارية المفعول ، فكأنهم استجاروا بأقوى قوة وأمنعها لا بقبر بالية عظام صاحبه ..

السر في ذلك هو أن صاحب القبر كان شجاعاً مغواراً وفي الوقت ذاته كان شهماً لا يستعمل شجاعته إلا عند الضرورة التي لا مناص له من استعمالها ، فشجاعته لا تبرز إلا على أعدائه الأقوياء الأشداء الذين يعتدون عليه فتكون شجاعته بهذه الحالة كدفاع عن النفس ليس إلا .. وحتى هؤلاء الأعداء فإنه لا يحاربهم إلا عسكرياً .. اما اقتصادياً فإنه يرى نفسه أكبر وأجل من أن يحاربهم في رزقهم الذي يقوم بأودهم أو في مائهم الذي ينقذون به اطفالهم ونسائهم . فمثلاً إذا وجد رجالاً من أعدائه يحملون ماء فوق أبلهم ليذهبوا بها الى أهلهم الذين يقطنون أرض (مندى) أي أرضاً فيها وفرة الكلأ وليس فيها ماء ، والموقع الذي مثل هذا لا يسكنه البدو إلا في أيام الربيع أو الخريف .. ففهد الصيفي لا يمس هؤلاء (الرواوي) أي حملة الماء بأدنى أذى .. كما انه لا يمس المكتالين بسوء أي الذين يأتون لأهلهم بالغذاء كالقمح والتمر من المدن بحكم ان الصحراء لا يوجد فيها شيء من ذلك، فهذا الرجل الشهم إذا وقعت بين يديه قافلة يحمل أهلها قوتاً لأعدائه فإنه يترك هذه القافلة وان كانت لقمة سائغة له ، ومهما كانت غنيمة ثمينة فهو يتركها بدافع انساني اعتقاداً منه ان نهبه لأبل السقاية معناه انه جنى على أطفال رضع وشيوخ مقعدين ونساء لا حول لهن ولا طول . فما ذنب هؤلاء الضعاف بحكم الضمير الانساني الذي استجاب لندائه الصيفي .. وما يقال عن حملة الماء يقال أيضاً عن المكتالين ، إلا أن الآخرين كانت عفته عنهم ادعى الى الاعجاب بشهامته لأن فيهم من الغنيمة ما يغري الصيفي بكسبه فيمول بيته عاماً أو اكثر ، ولكن الصيفي بقدر ما عفت نفسه عن مثل هذه الغنائم، بدافع من كرم النفس الانسانية وبقدر ما احترم حقوق الضعفاء البائسين وهو يملك القوة على امتلاكها ، فقد قيض الله له من يحترمه ويقدره وهو أعجز من أن يملك لنفسه حرمة ، وأضعف من أن يكون له قوة أو ناصر ..

المثل الذي عرفت جانبا منه ولم أعرف الجانب الآخر !!

- ١٠ -

هناك أبيات من الشعر الشعبي يوحي مفهومها بأن الشاعر الذي أنشدها لم تجد قريحته بها عبثا ، وانما بعد وقوع الحادثة شحذت قريحته واستمد معاني قصيدته من صميم واقعها ..

والحادثة اذا كانت قريبة العهد ، أو مشهورة عند عامة الرواة ، أو أن الشاعر الذي سجلها بانشودته من الشعراء المشهورين ، إذا توفرت هذه العناصر الثلاثة . فأنه سوف يسهل علينا معرفة اسم ابطال القصة ومعرفة الزمان والمكان اللذين وقعت فيها الحادثة .. ولكن عندما تفقد القصة احد هذه المقومات الثلاثة ، فأنه سوف يتعذر عليّ الالمـــام بمعرفة القصة من شتى نواحيها سالفة الذكر ، لانني لا أريد أن احشو هذا السفر واشغل القراء بكل ما هب ودب من القصص التي لم أكن واثقا بصحة وقوعها ، وملما بتفاصيلها بصورة جلية واضحة ..

واما الأبيات التي المحت اليها في مقدمة هذا البحث فهي التي يؤخذ من معاني بعضها بأن الشاعر أنشدها بمناسبة ذات صلة مباشرة بالشجاعة الادبيـة ، كالبيت المشهور لابن حطاب راعي الجوف القائل ،

عن لعنتك حطاب ألـْعَنْ أبوكَ انـْتُ

ألـْعَنْ ابوكَ وخـيرة العمر فـــاني

هذا البيت فيه منتهى الجرأة الادبية فيما اذا صحت الرواية القائلةبأن صاحب هذا البيت الذي هو ابن حطاب ، عندما لعن أباه عبيد بن علي الرشيد وهو أسيرٌ بين يديه رد عليه اللعنة قائلاً ما معناه :

– بدلاً من لعنتك لأبي فانني ألعن أباك .. ثم أكد ذلك في عجز البيت قائلاً: ولماذا اجبن عن لعنتي لأبيك خوفاً من الموت ما دام ان الفتى مهما طال أجله نهايته الموت فالأفضل والحالة هذه أن أموت حراً أبيــاً ولو قصر أجلي ، من أن أعيش عمراً طويلاً وأنا ذليلٌ مهانٌ ، فمثال هذا البيت جدير بي أن أضع قصته في فصــل الشجاعة الأدبية ، ولكن عدم المامي بتفاصيل الحادثة جعلني أحجم عن ذلك ..

ومثاله قول محمد بن سمير :

ُقولوا لابنْ ِشعلانُ مــاني ُمخاشيــه
أنا الدرنوح اللي بعينــــه يذُوبِ

عذروبنــــا بس الجوق ماندانيه
نقب َقبّــــةْ َرضّةِ من شبوُبِ

وقول راكان بن حثلين :

الحسان يا ْبنِ عبيـــــد يجْزى بالحسانْ
والشّر ِتبْلى بهِ وجيـــهِ ِشريرهْ

من زَان فحنا لهُ على الدوْم خـــلانْ
وِضرّ الى ِحرِكْ تزَاوَدْ َسعيرهْ

وكلا الشاعرين يشيران الى وقوع حوادث ذات أهمية ، وفي معاني ابياتها تحدٍّ سافر : فالأول يتحدى ابن شعلان رئيس قبيلة الرولة والثاني يتحدى حمود العبيد

ابن عم الامير محمد بن رشيد، ومما لا شك فيه ان لكل منها قصة ذات مغزى.. وقد يكون لدى بعض العلم في البواعث والأسباب التي أملت على كل منهما أن ينشد قصيدته وخاصة الاخير ، ولكن علمي لم يكن مستوفياً لجميع الشروط ، ولذلك أغفلتها جميعاً ..

والذي تجدر بنا الاشارة اليه الآن ليس إلا أبيات يتداولها الكثير من رواة الأدب الشعبي ، وتشير الى معان عميقة خاصة فيما له علاقة في حماية المستجير واكرامه ، ولكن رغم ذلك ما استطعت أن أجد من يفيدني عن تفاصيل المعاني التي أشار اليها الشاعران في أبياتها الآتية :

الجار بالخبرا يقلّطْ على الرّاسُ
ما دوّروا بالجار بعض الدّنافيسُ

هُمْ بالقصيم ، وبالجنوب ابن دُوّاس
وأهل الحريق وبالشمال (السناعيس)

في هذين البيتين اطراء وثناء لأهل قرية من قرى القصيم تسمى « الخبراء » .. ويؤكد الشاعر أن من يستجير بأهل هذه القرية فان أهلها سوف يضعونه على رؤوسهم وانه لا يمس بسوء ما دام عندهم ..

والبيت الثاني يضيف اليهم دهام ابن دواس الحاكم لمدينة الرياض قبل عهد آل سعود ، كما يضيف الى دهام أهل بلدة الحريق ، وبعد ذلك يضيف عشيرة « عبدة » من قبيلة شمر ..

واذا سلمنا جدلاً بأن الشاعر لا ينشد قصيدة كهذه إلا لسبب ، فعند ذلك ينبغي للكاتب المدقق أن يعرف الاسباب ويعرف الاعمال بصورة مفصلة التي قام بها هؤلاء القوم لحماية وإكرام مستجيرهم ، كما يعرف الشاعر الذي أنشد القصيدة، فاذا كان هذا الشعر ينتسب الى أهل الخبراء مثلاً أو الى ابن دواس أو الى شمر أو

الى أهل الحريق ، فهذا معناه انـه رجل يفاخر بقبيلته أو أهل بلاده كما هو شأن شعراء العرب في الجاهلية ، وبعدها ، وعند ذلك يكون الاطراء بحق القوم الذين لم يكن منهم الشاعر له أهمية أكثر ولكن الذي حصل هو انني بقدر مـا سعيت لأعرف شيئـاً مما ذكرته اعلاه أو أعرف على الاقل الشاعر فانني ما استطعت ان أصل الى نتيجة .. والشاعر بلا شك له أكثر من قرنين وهـــذا هو السر في عدم عثوري على ما أريد ..

ولكن بعد هذا الشاعر المجهول يأتي عبيد العلي الرشيد وينشد قصيدته اللاميـة التي جاء منها قوله :

ألـلّيْ عَطـى حقْ الديار المزازين
وحنـا الى عدْت فرُوعَ القبايل

وهذا عبيد يشهد أيضاً ببيته هذا بالفضل للهزازين أي أهل الحريق الذين شهد لهم الشاعر في قصيدته سالفة الذكر وحتى لو سلمنا جدلاً بأن قائل البيتين السابقين من أهل الحريق أنفسهم فإن شهادة عبيد الذي قدم أهل الحريق بثنائه على قبيلتـه يعطينا دليلًا لا يقبـل الجدل على أن هؤلاء الرجـال قاموا بعمل ذي أهمية ، وإنما المشكلة هي معرفة كنه هذا العمل ..

الرجل الذي خلّد مآثر قومه

-١١-

كم كنت أتمنى لو كان في كل قبيلة من قبائل العرب شاعراً ، عبر بوضوح عن الأعمال الحيوية المثلى التي قامت بها قبيلته كما عبر عنها شاعر قبيلة الدواسر المدعو (سيف العويني الولمسان) الذي جمع مآثر قبيلته وفصلها بقصيدته التي يجدر بالقارىء العربي أن يعتبر كل معنى من المعاني التي أشار اليها الشاعر صالحاً أن يكون قصة مستقلة بحد ذاتها.

أقول : لو أن كل شاعر قبيلة من قبائل العرب قدم لنا ملحمة شعرية شعبية كما قدم لنا هذا الشاعر مآثر قبيلته لكنت أرحت نفسي من العناء الكثير الذي لاقيته في سبيل جمعي لهذه القصص من أفواه الرواة الذين كثيراً ما كنت اذهب أنقب عنهم في أماكنهم البعيدة وأعتقد أن هذا الشعر بقدر ما أفادني من هذه الناحية أفاد أبناء قومه ، بتخليده هذه المآثر ، إذ لولا وجود هذه القصيدة لما استطعت أن أعرف شيئاً عن الشيم العربية التي قام بها « أولاد زايد [1] » علماً أن الشاعر توفي عام ١٣٠٠ هـ وإذا قدرنا انه نظم هذه القصيدة قبل موته مثلاً بعشر سنوات أو

١ - اولاد زايد كنية يكنى بها الدواسر الذين منهم هذا الشاعر .

عشرين سنة فيكون للقصيدة على هذا الاساس قرن كامل ، يضاف الى ذلك ان الاعمال التي ينسبها الشاعر الى قبيلته لا بد انهـا واقعة قبل ينظم الشاعر قصيدته بمدة قد تكون بعيدة المدى ، المقصود من ذلك هو ان الأعمال التي يؤكد الشاعر بملحمته التاريخية أن قبيلته قامت بها ويسمي الرجال القائمين بها بأسمائهم فرداً فرداً، هذه الأعمال وقعت قبل مائة عام وهذا معناه أن الشيم التي قام بها رجـال قبيلة الشاعر من مائة سنة فما دون ليست داخلة في نطاق هـذه القصيدة ، ولم نوفق الى رجل من شيوخ القبيلة المسنين الرواة لينقل لنا ما صدر عن هذه القبيلة خلال القرن الاخير ، ومما لا شك فيه أن لولا هذا الشاعر لضاعت هذه المآثر .

واعتقد ان العرب في الجاهلية كانوا على حق حينما كانت القبيلة تقيم الافراح عندما ينبغ فيها الشاعر ، اعتقاداً منها ان هـذا الشاعر سوف يذب عن قبيلته ، ما توصم به من هجاء شعراء القبائل، المعادية لقومه وفي الوقت ذاته يسجل الحسنات والمآثر التي تقوم بهـا قبيلته بقصائده واشعاره عندمـا كان الشعر وقتذاك السلاح الفاتك الفعال بيد العرب ، وذلك لما للبيان من تأثير في نفوس العرب ..

ولا عجب فقد كان الشعر كالصحافة وكوكالات الانباء وأجهزة الاعـلام في عصرنا الراهن ..

وشاعر الدوامر يذكر في القصيدة الآتية انه صدر من قبيلته ثمـان نوادر من شيم العرب التي تستحق الذكر والخلود ، ولكن القصيدة التي بين يدينـا لم تكن حاوية لتفاصيل الاحـداث التي أشار اليهـا الشاعر بقصيدته ممـا يجعلني اعتقد جازماً ان القصيدة ناقصة وان ابياتاً مفقودة منها لم تصل الينا ..

والقصيدة الآتية أحد عشر بيتاً أشار الشاعر في مطلعهـا الى حادثة يتلخص مضمونها بما يلي :

هناك رجل من الدوامر قبيلة الشاعر يدعى المبيعيج ناصر بن ولمان هذا الرجل استجار بـه شخص من قبيلة قحطان ، وفي مناسبة ما وقع بين ابن المجير وابن المستجير نزاع أدى الامر الى ان قتل الاول الثاني،أي ابن المستجير قتله ابن المجير،

وفجأة سمع الدوسري بكاء جارته على ابنها القتيل ، فسأل عن سبب بكائها فأخبر أن ابنها قتله ابنه ، فذهب وجـــاء بأبنه وقتله بيده أمام أم الفتى القتيل وقال : « فلتبك أم ابني كما بكت أم مستجيري » ..

هذه واحدة من الأعمال الثمانية التي أشار اليهـــا الشاعر في مطلع قصيدته التي سنوردها فيما بعد ..

والعمل الثاني الذي يشير الشاعر اليه هو أن شخصاً من قبيلتهم قام بعمل ينافي الشيم العربية ، كنكث العهد أو الغدر بالرفيق أو عدم الاعتناء بحرمة الجوار ، ويؤكد الشاعر ان رجال قبيلته عندما ثبت لديهم ذلك ذهب نفر يدعون أولاد عويمر وقتلوا مقترف الجريمة ..

وأما الحادثة الثالثة فان مضمونها يشير الى ان هناك شخصاً من قبيلة قحطان يدعى الشايق بن سليم استجار برجل يسمى مانع بن منصور ابن حسن الولمان من عشيرة الشاعر ، وقـــد شاء القدر ان يسقط القحطاني ، أي المستجير ، ببئر المجير الدوسري فيصاب بجروح خفيفة فما كان من أمر الدوسري إلا أن وهب مستجيره فرساً أصيلة اوضاء له على أساس أن الجرح الذي أصابه من بئره ..

والحادثة هذه يؤكد الرواة انها وقعت حوالي عام ١٢٢٠ هـ وعندمـا نعرف أن قيمة الفرس الاصيل في ذلك العهد تساوي ستين ناقة من الابل فما فوق ، نقدر أهمية الهبة من المجير لمستجيره ، وفي الوقت ذاته نقدر ايضاً اهمية المستجير في نفسية العربي لأن هـــذا الذي وهب الفرس ليس لشيء الا لأن جاره سقط في بئره وأصيب بجروح طفيفة ..

والحادثة الرابعة تشير الى ان شخصاً ايضاً من قبيلة قحطان لقي حتفه بعدمـا سقط في بئر مجيره الدوسري المدعو سعد بن حسن بن محمـد الولمان من الوادعين وبالرغم من أن هذا المستجير توفي بحكم القضاء والقدر ولكن مجيره دفع عنه الدية كاملة وسلمها لأوليائه ..

وفي الحادثة الخامسة يفيدنا الشاعر بأن رجلاً استجار بشخص يدعى محمـــد

ابن خليف وان المستجير انقض عليه جدار جاره بمحض القضاء والقدر ، فما وسع مجيره الا أن دفع دية مستجيره الى اهله كاملة ..

هــذا وقد ذكر الشاعر ان قبيلته قامت بثمان من الحوادث ذات الاهمية ، ولكن القصيدة الآتية ليس فيها اكثر من الحوادث الخمس سالفة الذكر.. ولا بد أن البقية مذكورة في الابيات التي أشرت الى انها لم تصلنا ..

واليك القصيدة كما وردت :

نحـنْ جرى منا ثمانيه سوالف
كلْ بصــدق قائلة لقالهــا

منها المبيعيـج المسمى ناصر
زلةْ غريرٍ سبّبت لجـالهُــا

جرّةْ عليها ولاطْ حلقهْ فوقها
وقال : الثارات حلاتْها عجالها

والى باقْ واحدٍ منا في سيئة
ذبحناه ذبـح الشّاه وسط حلالها

واللي فعل ذا الفعل أولاد عويمر
وهم فحول المرجلة وازْحالهــا

وفيها بيان الشّايق بن سليم
بالبئر طاح وصكْ راسه جالهـا

وهو جار كسّاب المراجل ّمانِع

حاوي المراجل دِقّها واجلالها

اعطاه صفراً سابقٍ معنوُنه

صفراً يشوق خيّالها جمالهـا

ويوم طاح العاطفي في ِحسْيِنَا

َعطــاه سعدَ الدّية وأمثالها

ومنها الجدار اللي ودى ابن خليفْ

عطاه الدية واقفى بكل َمهالهـَا

ذا شرعنا في جارنا إذا التجى لنا

تعلّم بها ِعقالنا ِجهّالها

أكثر معاني هذه الابيات شرحتها آنفــاً وعلى كل لا بد من شرح بعضه بايجـاز ..

يقول الشاعر أن قبيلتة أي الدواسر قامت بثمان حوادث لها قيمتها وأهميتها.. والدليل على ذلك انه إذا شاء أي واحد من قبيلته أن يفخر بهذه الحوادث أمام أية قبيلة اخرى من قبائل العرب فإنـه يستطيـع أن يفخر وهو مرفوع الرأس بدون أن يجد من يعارضه بافتخاره هذا ..

ومن هذه الحوادث الثمان الحادثة الاولى سالفة الذكر ..

ويقول في البيت الرابع انه اذا اقترف أحد رجال القبيلة أمراً مخلاً بالشرف والكرامة العربية فإننا سوف لا نتأخر عن ضرب عنقه وفي هذا المعنى يشير الى الحادثة الثانية التي أشرت اليها بالسياق .

ومعاني البيت الخامس تأكيد للبيت الذي قبله وايضاح له ..

وأما البيت السادس والسابع والثامن فإن المعنى يشير الى الحادثة الثالثة أي منح المجير فرسه لمستجيره عندما أصيب بجرح من بثره ..

وفي البيت التاسع يشير أيضاً الى الحادثة الرابعة التي دفع فيها المجير الدية كاملة لجاره عندما سقط في البئر ولقي حتفه .. وكذلك البيت العاشر يشير الشاعر فيه الى الحادثة الخامسة وهي دفع دية المستجير عندما انقض عليه الجدار وتوفي ..

وفي البيت الحادي عشر يقول الشاعر أن هذه الاعمال التي نقوم بها من اكرام للجار وعقاب من ينكث العهد أو يخون رفيقه وما شابه ذلك ان الغاية منها هي ان يقتدى الابناء والاحفاد بخلق وشيم أهلهم الاوائل العقلاء الافاضل .. ولتكن هذه الشيم نبراساً يسير على ضوئه من يجهل سيرة اسلافه الغر الميامين الاشاوس ..

طغت حرمة الجوار على عاطفة الرحم

-١٢-

يقول المثل الشعبي المشهور (الخال والد) أي ان رحمة الخال وعطفه على ابن اخته اشبه ما تكونان بعطف الاب ..

وربما كان هذا المثل من أهم العوامل التي أوهمت الفتى محمد بن عجيان [١] بأن يعتدي على الرجل الدوسري [١] المستجير بخاله المدعو غنام بن عميان [٢] ظاناً انه اذا قتل الدوسري المستجير بخاله فإن عاطفة الخال سوف تحول دون حمايته لمستجيره.. وقد نسي ان عاطفة الخؤولة وان كانت قوية ولا شك ولكنها اذا أراد معتد مغرور ان يستغلها ويعبث بها فإنها ستتلاشى وتذوب كما هو الامر الواقع في تجربة كهذه ..

من المسلم به ان الدوسري سالف الذكر عندما لاذا بحماية غنام كانت الغاية

---

١ – محمد بن عجيان من قبيلة آل شامر بادية مدينة الرياض .

١ – بما ان الحادثة لها ما يقارب مائة وثلاثين سنة لذلك لم اوفق لمعرفة اسم هذا الدوسري لطول الزمان بالرغم من حرصي الشديد ..

٢ – غنام من قبيلة آل شامر سالفة الذكر .

طلب حمايته من انتقام ابن اخته محمد بن عجيان بالذات الذي كان بينه وبين الدوسري المستجير بخاله عداوة كانت في بداية أمرها ليست ذات أهمية ولكن الشر كما يقال عنه كالشرارة ، إذا لم تخمد في حينها فإنها سوف تتطور الى حريقة يصعب اطفاؤها بسهولة .. وهذا ما حصل بين ابن عجيان وبين الدوسري ، ابتدأت خصومتهما بشيء تافه لا يستحق الذكر ، ولكنها استفحلت وتطورت الى ان تفاقم أمرهـا وبلغت حداً جعل ابن عجيان يترقب الفرص ليأخذ ثأره من خصمه الدوسري الذي يزعم ابن عجيان انه اعتدى عليه ..

ولكن الدوسري كان ابعد نظراً من ابن عجيان عندما استجار بغنام بن عميان خال الفتى طالب الثأر اعتقاداً منه انه لائذ بحصن منيـع الجانب ..

وكانت المشكلة ان الفتى لم يفهم المنطق الذي فهمه الدوسري، وغاية ما يفهمه ان خاله ، وان كان يعرف انه شجاع لا تخفر له ذمة ولا تغمز له قناة .. ولكنه في الوقت ذاته كان يعتقد ان عاطفة الرحم سوف تحول دون قصاص خاله منه .. عندما يأخذ ثأره من الدوسري ، وتمادياً مع هـذا التفكير الصبياني الخاطيء راح الصبي المغرور يتحين الفرصة بالمستجير بخاله ، حتى خيل اليـه ان الفرصة سنحت له وانه لم يكن بينه وبين تنفيذ ما يريد إلا ان يثب على مستجير خـــاله ويقضي عليه ..

المستجير غارق في النوم والمجير يقظ سهران والصبي يتهيا للوثوب

كان المستجير يغط في سبات عميق واثقاً كل الثقة بأنه في اقصى مكان من عرين الاسد ، وكان المجير لا يهدأ له بال ولا تنام له عين وقد وجـــد نفسه بين موقفين لا يحسد عليهما :

فأما الاول فهو حراسته لجيره وحمايته له ــ التي لا تتم على الوجه المطلوب الا

على حساب قتله لابن اخته فيما اذا اعتدى على مجيره ..

وأمـــا الثاني فهو خفر ذمته وهتك جواره الذي سوف يلاقيه من ابن اخته الذي بذل كل ما لديه من الجهد بأنذاره له بأن لا يقدم على حماقته الخرقاء هذه ..

وبين خوفه من مواجهته لاخته فيما اذا قتل فـلذة كبدها عندمـا يعتدي على مستجيره ، وبين خوفه من ان تهتك حرمة جواره ، بـين هذين الموقفين الحرجين اضطر الرجل الى ان يتخذ جميـع الاحتياطات الضرورية التي تجعله يحرس مستجيره من ناحية ويحرص ان يتمكن من القائه القبض على ابن اخته من ناحية اخرى قبل ان ينفـذ عمليته الاجرامية بمستجيره لكي يتخذ معه اجراءات حاسمة تثنيه عـن استمراره بغروره دون ان يصيب منـــه مقتلاً يجرح به قلب اخته ويؤلم فؤاده كخال بار ..

وبقدر ما كان الخال يقظاً سهران على حراسة جاره وعلى اتقاء شر ابن اختـه كان ابن الاخت لا هم له إلا ان ينقض على غريمه ليأخذ منه الثأر ..

وفي آخر تلك الليلة المدلهمة ، هجم الصبي على مستجير خاله ظاناً انـــه ظفر بفريـته، بينما وجد نفسه بين فكي الاسد الرابض بحذر ويقظة على مدخل مغارته وعندئذ صاح ابن الاخت قائلاً لخاله :

– ناشدتك الله والرحم يا خالي ان تعفو عني وتخلي سبيلي ..

– فهل راعيت حرمة خالك يا مغرور ؟.. أم تريد ان تتخذ من صـلة الرحم سلاحاً تهتك به حرمتي .

ثم مضى وقال : أتستطيـع ان تتمادى بغرورك فيما لو لم تكن ابن اختي ؟

– سوف لا اعود بعد ذلك يا خالي ..

– ألم تبلغك والدتك نصيحتي وكان جوابك انك سوف لا تقوم بـأي عمل عدواني ، فكيف بك تنقض مـا وعدت به والدتك ؟.. وكيف بي أثق بوعدك أو اركن لعهدك ؟

– اعطيك وعداً من الآن فصاعداً بأني لن اعود لمثل ذلك ..

– بل أنا الذي اعطيك عهداً اصدق من عهدك ، بأنني لن اتركك الآن حتى

تحس وتلمس مني العقاب الذي لا يكون قاضياً نهائياً على حياتك ولكنه سيكون رادعاً لك ..

ومضى الخال بتهديده لابن اخته الى ان قال : وانني أؤكد لك بأنني وان كنت خالاً رحيماً طيباً ، ولكن رحمتي وطيبتي سوف يتلاشيان فيما اذا شاء أحد من امثالك ان يتخـذ منها سلاحاً يخفر به ذمتي .. عندئذ سوف لا تأخذني بـه رحمة ولا رأفة حتى ولو كان ابني .. وهاأنذا مؤدباً لك ومنذراً اياك لئن عدت بعد ذلك فلن يكون عقابك مني سوى القتل ..
ثم ترك الخال ابن اخته ولكن بعدما طعنه بمديته طعنة لم تكن قاتلة، وهي في الوقت ذاته خلبت لب الصبي وصيرت منه انساناً يتراجع نهائيـــاً عن خطته الاجرامية التي كان ينوى تنفيذها بجار خاله ..

وهذا التراجع بالطبـع لم يكن لو لم يلقنه خاله درساً قاسياً جعله يدرك ان وفاء خاله بعهده وحمايته لجاره سوف يطغيان على صلة الرحم فيما اذا شـاء صاحب الرحم ان يستغلها لتنفيذ اعماله الاجرامية ..

ندبة المستجير قتلت المجير

-١٣-

كانت الشهرة التي يتمتع بها آل صويط [١] بين قبائل البادية في حماية الجار شهرة قل أن يشاركهم فيها أحد خاصة عنـــد بادية شمال الجزيرة حتى اصبحوا مضرباً للمثل، ولا سيما بعدما قتل صنيتان بن صويط ابنه الذي اعتدى على جاره ابن منديل، كقصتهم التي سبق أن أشرت اليها في الجزء الأول من شيم العرب [٢] .. وشاهدنا هنا ان آل صويط أخذوا شهرة في حماية الجار اكثر من غيرهم لتوالي الاحداث ..

وعندما يكون فرد ما، أو أسرة ما اشتهرت في ناحية معينة من النواحي المعنوية يكون من غير السهل التخلي عنها فيما إذا ادعى الداعي، وسيكون رد الفعل عنيفاً في كيان المرء أو الجماعة فيما إذا دهمتهم ظروف قاسية حالت دون القيـــام بهذا الواجب، فالكريم -مثلاً- الذي اعتاد البذل والكرم ماذا يكون موقفه عندما يأتيه ضيوف وهو بحالة من الفاقة والفقر المدقع لا يستطيع أن يجد لقمة يسد بها رمقه فضلاً عن ان يكرم ضيوفه، وكذلك الشجاع عندما يهاجم وهو اعزل من السلاح لا يكون موقفه الا ان يستسلم لعدوه بدون قيد وشرط أو ان يطلق

---

١ - انظر القصة في ص ٦٦ من كتابنا هذا.

٢ - انظرها في ص ١٥٧ الطبعة الثانية وكان الاجدر بيا ان اضمها في هذا الفصل ولكن كما يقال: سبق السيف العذل.

ساقه للريح هارباً دون ان يبدي أدنى مقاومة، ولا بد له ان يرتكب احد الامرين لا محالة وان تكن شيمته الشجاعة ..

والذي وقع مع (عقوب بن صويط) في عام ١٣٢٨ هـ شيء لم تتحمله طاقته ولم يكن لديه من المقدرة إلا ان فاضت روحه جزعاً مما فوجيء به .. وهاك تفاصيل القصة ..

في تلك السنة وقع بين الشيخ عجمي بن سعدون[1] وابن صويط رئيس قبيلة الظفير شقاق مما اضطر ابن سعدون ان يستصرخ سعود العبدالعزيز بن متعب الرشيد ليؤازره على مقاومة بن صويط . فلبى سعود ندبة السعدون فراح ينكل بقبيلة ابن صويط ويسجن امراء القبيلة ويضع ضريبة على أثريائها ، كأخذ ابلهم . وكان بين الذين شملتهم الضريبة رجل مستجير بعقوب بن صويط وكان عقوب وقتها سجيناً مكبلاً بالحديد فصرخت أم المستجير بدون وعي منها عندما أخذت ابل ابنها قائلة بأعلى صوتها :

- أين عقوب من مستجيره ؟..

وكان صراخها باذنه ، لا بل كان سهماً ماضياً مزق قلبه تمزيقاً فأوقفه عن الحركة ، ففارق عالم الدنيا فور سماعه لصوت جارته المضطهدة مختاراً عالم الخلود على عالم الحياة الفانية ..

---

١ انظر ص ٩٨ الجزء الاول من شيم العرب - الطبعة الثانية للمؤلف .

لولا أخي لما قتل مستجيري

- ١٤ -

قصتنا هذه هي أحدث القصص عهداً ، واعني القصص التي لهـــا علاقة في حماية الجار .. وقعت في صفر ١٣٧٠ – ١٩٥٠ م.

كنت اظن ان تلك العادات العربية ذات العلاقـة بحماية المستجير والتي تبلغ احياناً من القسوة حداً تجعل الأب يقتل ابنه فيما اذا اعتدى الابن على حرمة الجار، وتجعل الأخ يقتل اخاه في حـــالة مماثلة .. اقول كنت اظن ان تلك العادات التي تبلغ الى ذلك الحد قد اضمحلت او اختفت على الاقل ، ولكن يبدو انها لا زالت باقية متأصلة في النفوس .. وهذه الحادثة التي بين ايدينا تعطينا اكثر من دليل على بقائها الى عهدنا القريب ..

كان نفر من قبيلة (الصهاليل) [1] يطاردون فرحان بن مفرّج [2] بغية ثأر يريدون ان يقتصوا به منه ، فهرب ولاذ بجوار فتى يدعى مَفزع [3] ابن مداوي الريشي، وكان الريشي من نوع الرجال الذين لا تحفز لهم ذمة ولا يهتك لهم جوار، وهذا مما جعل طالبي الثأر لا يستطيعون الوصول الى المستجير بسهولة، اللهم إلا ان

---

١ - سبق ان اشرت الى ذكر هذه القبيلة في صفحة ٣ من هذا الكتاب وبهذا الجزء بالذات.
٢ - من آل خريج وهو من قبائل اليمن .
٣ - مفزع من قبيلة خولان في اليمن التابع للمملكة العربية السعودية .

هناك وسيلة واحدة ربما تسهل لهم الوصول الى هدفهم المنشود ، وهذه الوسيلة هي ان لهم ابن اخت هو أخ للريشي من ابيه ، فذهب الصهاليل يستعينون بابن اختهم ليهديهم الى موضع المستجير من ناحية ، ويبصرهم الساعة التي يكون فيها المجير غافلاً او نائماً بصورة يتمكنون بها من اخذ ثأرهم من المستجير وفي الوقت ذاته ينجون من عقاب المجير حتى يلوذوا بالفرار ويصلوا الى قبيلتهم ، وعندها يصعب على الريشي الانتقام منهم .. وكان المجير والمستجير يعلمان ان الصهاليل سوف يبذلون جهدهم مـــا استطاعوا من اجل اخذهم بالثأر من المستجير .. ولذلك كانا آخذين الاحتياطات اللازمة بحيث كان المستجير يتوارى في الليل في مخبأ حصين لا يستطيع ان يعرفه احد ، اللهم إلا اخو المجير لأبيه ، اي ابن اخت الصهاليل طالبي الثأر .. ذلك الفتى الذي انقاد مع اخواله بخدعة أو بأخرى حتى دلهم على مخبأ المستجير ، وبغفلة أو غياب اخيه تمكن المعتدون من ان ينقضوا على المستجير ويقتلوه .. ولم يعلم المجير إلا بعد نفاذ الأمر وفرار القتلة الى قبيلتهم ..

ولم تعد خيانة أخيه سراً فقد شاعت الشائعات عند رجال القبيلة ان الذي أعان القتلة وهدام السبيل أخو المجير مما جعل أهل القتيل يعتبرون ابنهم قتل بيد جاره لأنهم لا يفرقون في حالة كهذه بين الأخ وأخيه ، وان كانوا واثقين بأن الأخ الأكبر من المستحيل ان يكون لديه علم بما حل بجاره عن طريق أخيه..ولكنهم يعتقدون بأن الأخ الأصغر لو لم يكن واثقاً من عدم عقاب أخيه لما تمادى بفعلته الاجرامية ..

كانت هذه الناحية الاخيرة موضع قلق للمجير لأنها اصبحت مهمزاً عليه بين عموم رجال قبيلته فلا بد له والحالة هذه من احد امرين .. أما ان يدفع دية المقتول بصفته مستجيراً بجاهه وهو المسؤول عنه والا يبقى مطالباً من أولياء المقتول من ناحية ، ومن ناحية اخرى يكون بين قبيلته منبوذاً ومحتقراً بسكوته على جريمة أخيه .. وهذه الاخيرة هي الأهم عنده ، فما كان منه إلا أن راح يبذل جهده ليرضي اولياء القتيل بقبول الدية عن ابنهم ، ولكن هؤلاء رفضوا ولم يصغوا

لاغرائه ، وقد تعهد لهم بأن يدفع الفا وستمائة نعجة وبندقيـــة وعدداً وافراً من الابلَ .. وهذا يعني كل ما في حوزته من الغنم والابل وحتى بندقيته ، وسوف يخرج من الدنيا صفر اليدين مقابل ازالة وصمة العار التي لحقت به ، وكانت الاجابة من اولياء القتيل لهذا العرض تتضمن المعاني الآتية :

أولاً ـ ان قبولهم للدية فيه عار مزدوج عليهم حسب العادات والعرف المعمول به الذي يشير بأن قبول الدية بحالة كهذه دليل على العجز والجبن عن أخذ الثأر من المعتدى ، وفي الوقت ذاته عار على المجير الذي يقبل دفع الدية لأن مجرد اعترافه بدفع الدية يعني انه معترف بخزيه ويحاول ان يغسل هذا الخزي بماله ..

ثانياً ـ ان العار والخزى لا يستطيع المرء ان يغسلها بالعار وانما يغسلان بالدم..

وكانت النهاية ان اضطر الى ان يقتل أخاه..

حرمة الجوار ليست محصورة على الانسان دون الحيوان

١٥-

أذكر في الأدب العربي القديم ان هناك عربياً أجار حيواناً .. ولكنني لم أعد اذكر التفاصيل ، كيف كانت حمايته لهذا الحيوان .. واعتقد ان عدم اهتمامي بذلك يعود الى كون الحادثة مسجلة في كتب الأدب العربي ، ولما كانت مساعيّ محصورة بما يحدث من (شيم العرب) وعاداتهم التي لم يسبق أن سجلت فإنني لم أعر تلك الحادثة اهتمامي ما دام انها وجدت بين أبناء العروبة الغيورين على العناية بتراث امتهم من اعتنى بها وسجلها فحفظها عن الضياع ..

إذن ، فهذه الحادثة وان كانت من نوادر شيم العرب ، ولكنها لم تكن بكراً من نوعها فهناك ما هو مضارع لها .. واعتقد ان الشيء الذي ذهب نتيجة الضياع والاهمال من شيم العرب اكثر بكثير مما احصاه المؤرخون ، ومضمون قصتنا هذه يأتي كما يلي :

كان شاعر الحروب والحماسة محمد العوني[1] يقيم في مدينة الكويت عام ١٢١٧ هـ كلاجيء سياسي كما يعبر عنه بالعصر الحديث ..

---

١ - محمد العوني من اهالي القصيم ، وهو بفضل دهائه وشعره اصبح عند الشعبيين اشهر من نار على علم . وللمؤلف كتاب عن حياة العوني تحت الطبع بعنوان تاريخ جيل في حياة رجل .

وبينما كان العوني جالساً في منزله في الكويت ينظم بعض قصائده الحماسية حاصرا فكره في هذه الناحية شارد الذهن عن كل شيء خارجاً عن المعاني التي أثارت شعوره، وشحذت قريحته بحيث انه غفل عن اغلاق باب منزله الخارجي ، في هذه الغيبوبة التي سبح الشاعر في لجتها فوجيء بدخول كبش جاءه يجري فقام ليطرده ويقفل الباب ، إلا انه قبل ان يفعل سمع صوت رجل يقرع الباب ويقول :

– اخرج اليّ كبشي ..

فلم يكن لديه أدنى شك بأن المنادى صاحب الكبش ، فراح وقبض على الكبش وجاء به ليسلمه لصاحبه ، ولكنه عندما وصل الباب وجد صاحب الكبش حاملًا مديته بيده ، فسأله العوني :

– ما الأمر ؟.. فرد عليه هذا جوابا فهم معناه أن صاحب الكبش جزار وانه يريد أن يذبحه ليبيع لحمه ، وعندما فهم العوني هذه الغاية صاح بالجزار قائلًا :

– كنت على اتم الاستعداد أن اسلمك الكبش ظانا انك رجل من رعاة الغنم وأن الغاية من رغبتك باستلامه هي العناية والرعاية به..أما ما دمت جزارا وتقصد أن تذبحه فأنني لن اسلمه لك لأنني اعتبر دخوله منزلي في حالة كهذه معناه انه لائذ بجواري .

– هذا حيوان وليس بالأنسان الذي يعرف بمعنى الجوار او الاستجارة .

– حرمة الجوار ليست مقصورة على الحيوان دون الانسان ، ولما كانت الغاية التي تدفع المستجير الى الاستجارة هي عجزه عن الدفاع عن نفسه ، ونجدته بقوي يجيره ويحميه فان مثل هذا الحيوان احق بالحماية لأنه اعجز من أن يدافع عن نفسه ..

– لك أن تحميه كما تريد ، وأنما الذي يهمني هو أن تدفع لي ثمنه بكامله كما تدفع

لي الربح الذي اتوقعه فيما لو ذبحته وبعته لحما ..

- سوف أدفع لك الثمن والمكسب الذي تتوقع انك سوف تربحه من ورائه فيما لو ذبحته ..

فدفع العوني ثمن الكبش كاملا والمكسب الذي كان يتوقعه الجزار ، وابقى الكبش في منزله يطعمه ويسقيه ، وعندما أضطر العوني للسفر وترك الكويت ، راح واستدعى بدوياً اميناً وأودع الكبش عنده بعد أن اخذ عليه عهداً بأن لا يمس الكبش بسوء الى أن توافيه منيته ..[1]

---

١ ـــ رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد .

الرجل الذى كان سبباً لامتداد أجلي

- ١٦ -

سوف تضطرني هـــذه القصة الى الحديث عن شيء من ذكريات الطفولة .. وهي ذكريات قد تكون لذيذة سعيدة بالنسبة لطفل لا يريد من الحياة إلا أن يتركه اهله حراً طليقاً يمرح مع اطفال الحي كيف يشـاء ويلهو بألعاب الاطفال سادراً ، حيث يريـد ، وهكذا كنت اتخيل انني اعيش سعيداً واشعر انني انعم بحياة هانئة طليقة .. ولكن هذه السعادة وذلك النعيم من حيث الحقيقة اشبه مـا يكون بالمعنى الذي نوه عنه ابو الطيب المتنبي بقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

واخو الجهـالة في الشقاوة ينعم

لاشك أن معنى هذا البيت ينطبق على نعيمي الموهوم أجل لقد توفيت والدتي قبل أن ابلغ السابعة . وظللت في حضانة جدتي لأمي ، التي لا تقل حنانا وعطفاعن والدتي . وكان يعولنا جميعاً خالي الاكبر . وهو يمتهن حرفة التجارة برأس مـال اقل من أن يذكر . اما والدي الذي تزوج امرأة غير والدتي .. في حياة أمي .

فقد كانت اقامته في المدينة قليلة . وقد أخذني والدي من جدتي وتركني في عهدة أناس - فقـــدت عندهم ذلك الحنان والعطف اللذين عهدتهما في حضانة جـــدتي وأن يكن لأولئك النفر على يد اذكرهم بها بالخير فانمـــا هي تلك المعاملة القاسية الخشنة التي خلقت مني انسانا يكره الظلـــم انى كان مصدره . ويعطف على الضعيف بقـــدر ما اوتي من القدرة ويناصر المظلوم ما استطاع الى ذلـك سبيلا - ويأخذ بيد اليتيم ما أمكنه ذلك [1]. كما خلقت في نفسي في الوقت ذاته -الشعور بحب الاستقلال والاعتماد على النفس بأية وسيله كانت ، مما جعلني افكر في الوسيلة التي تحقق لي كسب المال بحرية واستقلال . مهما لحقني في سبيل ذلك من عنـــاء ونصب وابتعاد عن الاهل والوطن . ولكن المشكلة التي اصطدمت بها وجها لوجه هي أنني احمل شعورا أقل بكثير من مستوى طاقتي كطفل . وأسوأ مـــا يلاقى الانسان في حياته عندما تكون امكانيات المرء دون همته وتلك ظـاهرة اشار اليها الأديب الكبير عبد الله بن المقفع عندما وجه اليه السؤال التالي :

من أشقى الناس ؟..

فقال : من علت همته وضعفت مقدرته واتسعت معرفته .

وهكذا كنت اشعر انني أحمل همـــة الرجال في الحين الذي كنت في سن الاطفال . ولكن الحيـاة ارشدتني الى انه قد يكون للسن حدود ولكن الهمم لا حد لها . ولا سيما اذا كان للهمة حافز ، يشحذها ، وعوامل تحدوها نحو الكمال والسمو . وقـــد اثبت علماء النفس أن مركبات النقص الجسمي أو المعنوي أو المادي الخ .. من أهم البواعث التي تبعث في المرء روحـاً لا تستكين الى الخمول والاستسلام .

---

[1] كان من اثر ذلك بل من دواعي شرفي هو ان سعيت بأنشاء مؤسسة في دمشق اثنـــاء اقامتي فيها جمعت بها شمل جميع الايتام المغتربين السعوديين والعجزة من فتيان وفتيات وشيوخ وارامل . ولم اتركها حتى ضمنت خلودها الابدي .

ولعل شعوري بفقدي لعطف الوالدين والمعاملة القاسية التي لاقيتها عند النفر السالفي الذكر . من أهم العوامل التي دفعتني منذ نعومة اظفاري الى العزوف عن الاتكال على منة الغير . والاعتماد على ساعدي راضياً ومطمئن النفس عن كل ما ينالني من مشقة في سبيل ذلك .

لقد داعب خيالي هذا الشعور ولكني واجهت صعوبة في تحقيقه .. ولا عجب فقد كان وضعي لايتناسب وهمتي ، لا كانسان لا املك من حطام الدنيا سوى ما يستر عورتي فحسب ، بل كطفل يعيش في مجتمع هو الآخر لا يزال في سن الطفولة من حيث الوعي والتقدم والرقي ، فلا مدارس ولا مصانع ولا مؤسسات اجتماعية ولا مستشفيات ولا نقابات ، كل هذه الاشياء التي يوجد الكثير منها اليوم في بلادنا لم يكن موجود منها وقتذاك ادنى شيء يذكر ، ومما لا شك فيه انه لو وجد شيء من ذلك لما استعصى عليّ الامر ، أي لكان في الامكان ان أسد الفراغ الذي اشكو منه بصورة تجعلني اعمل اجيراً في النهار في احد المصانع بأدنى اجرة تقيم أودي وفي الليل ادرس في احدى المدارس الليلية وفي آخر السنة الدراسية اقدم امتحاناً كما يفعل اليوم الكثير من ابناء الفقراء العصاميين .

وبما انه لم يوجد شيء من هذا، فقد تبادر الى ذهني ان اذهب الى البادية لأتولى رعاية الغنم أو البهم [1] بالاحرى بحكم حداثة سني ، حيث وجدت بدوياً أكد لي بأن من يقوم بهذا الأمر فانه يعطى في آخر السنة شاة.. فقلت في نفسي انها فرصة لا تعوض ما دمت أملك شاة في آخر العام وسوف املك شاة اخرى ، وفي خلال سنوات قليلة سوف يكون عندي « رعية » من الغنم .. وهكذا بدأ هذا الحلم لذيذاً ومغرياً لأوهامي واماني .. ولكنها اماني لم تتحقق لأسباب لا داعي لذكرها ... وعلى كل حال فلم يكن السبب المانع من قبلي ولذلك ظللت التمس سبيلاً آخر .. والسبيل الرشيد الذي وجدت فيه العزاء الكامل لنفسي هو ان

---

١ – البهم ابناء الغنم الصغار .

أترك اولئك النفر الذين شعرت بالنفور من بقائي عندهم بل واترك بلادي لأذهب الى أي بلد أتوقع ان اجد فيه عملاً شريفاً أكسب منه العيش بعرق جبيني وكسب يميني مهما كان ذلك العمل شديداً قاسياً . وقد كان ثمة قافلة ينوي أهلها الذهاب الى الكويت فرجوتهم ان يحملوني معهم مقـــابل خدمتي لهم فقبلوا ، فذهبت معهم مسروراً ، ولكن ما ان قطعت مرحلتين متجهاً بصحبة رفاقي نحو الكويت حتى لحقني مندوب من قبل اولئك القوم الذين اودعني والدي عندهم قاصداً اعادتي الى ذلك السجن الذي لم اشعر بالسعادة إلا بعد ما تأكدت من فراري منه .. ولمـــا كنت لا أملك من نمو الجسم وقوة الساعد مـا يمكنني من الدفاع عن نفسي فيما اذا شئت ان أصر واعاند هذا الذي يريد ان يعود بي مرغماً الى ما كنت فاراً وهارباً منه فقد سلمت أمري الى الله وأذعنت له عائداً بصحبته واثقاً بأنني اذا لم أعـــد بصحبته راضياً مختاراً فان ذلك الوحش المفتول الساعد [1] القوي العضلات المليء الجسم الفارغ العقل سوف لا يتورع من ان يشبع هذا « الطفل » النحيل الجسم ضربـاً بعصا الخيزرانة ثم يربط يدي ورجلي ويشـد وثاقي ويطرحني على مؤخرة راحلته حتى يسلمني لمن بعثه ..

وهكذا عدت الى حيث كنت ولكنني في قرارة نفسي لم ازدد إلا عنـــاداً وإصراراً على عزيمتي التي كنت انوي تنفيذها .. ولهذا ظللت أترقب الفرص .. هذا وقد جاء والدي من الرياض ولكن مجيئه هذا لم يدخل في قلبي أي اطمئنان لأنني كنت أظن انه سوف يعود الى الرياض ثانية كما تظاهر بذلك امـام كل من يسأله .. وكم تضاعف سروري واغتباطي عندمـا سمعت والدي يهمس لشاب من اهالي بلادنا بعبارة فهمت منهـــا انه ينوي الذهاب الى العراق لا العودة الى الرياض ..

كان الحديث الذي سمعته من والدي بشرى كبيرة بالنسبة لآمالي وأمانيي ،

---

١ - يدعى هذا الرجل عبدالله البرقع ، وهو بدوي من قبيلة شمر .

وما عليّ الآن إلا أن اتابع حركات والدي وان احرص على استراق السمع منه ما أمكنني ، وقد نفذت مخططي هذا وزادني رغبة في اهتمامي في ذلك هو ان القرائن والأدلة تزداد عندي يوماً بعد يوم ومما جعلني اثق ثقة اكيدة من عزيمة والدي على السفر نحو العراق ما قام به من تبديله لذلوله الأولى بذلول نجيبة صلبة يضاف الى ذلك ما قام به الشاب الذي أسر له والدي بشراء الذلول الخاصة به وهذا الشاب وان كان من أهالي بلادي ولكنني لا أعرف إلا اسمه وكنيته..فاسمه ناصر وكنيته القصيمة وهو الآن في عداد الاموات فيما أظن .

وقد اتضح لي من استمراري باستراق السمع وتحري أحاديث والدي ان كلا من والدي وهذا الشاب ينويان الذهاب معاً للعراق وسوف يكون ذهابهما خلسة طبعاً..وحينما ثبت لدي ان والدي عازم على السفر الى العراق ذهبت اليه وصارحته برغبتي بمصاحبته وقد حاول في بداية الامر أن يخفي عليّ أمره ويتظاهر بالانكار ولكنني استطعت ان اؤكد له بأنني فاهم كل ما يدور بالسر بينه وبين الشاب .. ولما لم يجد مناصاً من ذكر الحقيقة حينذاك اعترف بالأمر ولكنه رفض مصاحبتي له بحجة انه ذاهب بصورة خفية على ولاة الأمر ، وانه والحالة هذه يكون هارباً.. الأمر الذي يعرضه لمغامرة لا يحب ان يشركني بنتائجها السيئة .

فقلت له المثل الشعبي الآتي : ـ « الجحر الذي يسعك لا يضيق بي ».. فقال:

ـ انه لم يعش لي ابن سواك ولذلك أحب ان تبقى لتحيي ذكري فيما إذا حدث لي في سفرتي هذه حادث قد ألاقي به حتفي .

ـ أنا ذاهب معك لا محالة.

ليس لدي عزيمة سفر في الوقت الحاضر اللهم الا بعد فترة من الزمن لأن ذلولي هزيلة وقد تركتها في البادية حتى تبلغ من القوة ما يمكنها من حملنا أنا وأنت في رحلتنا الطويلة وفي الحين الذي نقرر فيه سفرنا عند ذلك سوف اخبرك لنذهب معاً .

قال والدي هذه العبارات ليقنعني أما من حيث الحقيقة فإنني واثق بأن ذلوله ليست بحاجة الى الراحة والقضية ليست إلا قضية تهدئة لي ..

وقد وجدت من الافضل ان اتظاهر بقناعتي بكل ما وعدني به وان انتظر ساعةالصفر وعندها أضع والدي أمام الأمر الواقع تجاه تنفيذ وعده .

ووسيلتي التي استطيع ان أعرف بها اللحظة التي يقرر الهروب بها والتي يحاول ان يخفيها علي وعلى غيري ما استطاع ، وهي ان أتحرى الساعة التي سيحضر فيها ذلوله من الفلاة الى البلاد وعند ذلك اكون على اتم الاستعداد للمواظبة ومباغتته في الوقت المناسب ، وبقدر ما كان والدي يحاول ما استطاع ان يخفي عني مجيء ذلوله واللحظة التي يهرب بها بقدر ما كنت شديد الحرص على ان لا اترك فرصة تمكن والدي من اخفائه لهذه الحقيقة .ولشد ما ازددت سروراً واطمئناناً عندما رأيت ذلول والدي جاء بها رفيقه الشاب وأدخلها وذلوله بعد العشاء خلسة في مكان خفي قريب من منزلنا .. لقد ظللت تلك الليلة سادراً بين الفرحة وبين الرهبة .. فرحة تداعب أمانيي واحلامي بتحقيق ما كنت اصبو اليه منذ أن بلغت سن التمييز ورهبة تنذرني بشيء من التشاؤم فيما إذا أصر والدي على عدم ذهابي معه .. وعلى أية حال فقد كان الحبور بتفاؤلي يغمر كياني اكثر بكثير من تشاؤمي ويأسي .

لم يتسلل الى عيني الرقاد في تلك الليلة التي رأيت بها ذلول والدي قرب منزلنا ولقد شعرت ان عدوي اللدود الذي سوف يحاول ان يفلت هذة الفرصة من يدي هو النوم ، ولذلك قطعت السبيل كلية على هذا العدو الغادر وأوصدت الباب في وجهه بقوة وحزم كلما جاء خلسة ليغدر بي .. ومن حسن الحظ أن الفصل كان صيفاً الأمر الذي جعل صراعي مع عدوي الذي هو أوسع مني حيلة وأقوى بأساً وأقدر مني على أساليب الاغواء والاغراء لم يطل مداه، وقد كنت أشعر ان ثواني ذلك الليل الصيفي القصير تمر علي ببطء ثقيل لا كساعات ولا كأيام بل كأشهر

أو كالسنة .يا لله الحمد على الفرج عندما رأيت والدي يمشي الهوينا تتبعه زوجته التي تقدم له امتعة السفر وعلى مدخل الباب الخارجي رفيق والدي الشاب الذي جاء بالذلولين واناخهما بحركة خفيفة -- وبسرية كاملة .. في هذه اللحظة لم يسعني إلا أن اوهم الهاربين بأنني غارق بالنوم ولذلك ظللت افتعل : الشخير : حتى ايقنت أن جميع الامتعة اللازمة للسفر قد وضعت على متن الراحلة ولم يبق إلا اللحظة الاخيرة التي كان والدي يوادع بها زوجه .. عندئذ قفزت من مضجعي واقبلت نحو مؤخرة الراحلة وامتطيتها .

لقد شعرت أن والدي ذهل من عمليتي هذه إلا انه لم يستعمل معي العنف رحمة الله عليه ، بل ذهب يحاول أن يقنعني بالعدول عن رأيي بكل لطف وبصوت منخفض هادىء ، ولكن محاولاته كلها باءت بالفشل امام اصراري وعنادي في تحقيق الامنية التي اعتقد انها فرصة لا تعوض بالنسبة لتحقيق احلامي المعسولة .. وحينما رأى والدي أن محاولته اقناعي باللطف واللين لا تجدى ، سحبني من ذلوله وطرحني ارضاً ثم امتطى راحلته وركلها برجله وولت تجري بسرعة .. وقد مثل رفيقه الشاب نفس الدور وقد ظن والدي انه تخلص مني ولكن ظنه جاء بغير محله وذلك انه عندما طرحني ارضاً قفزت مسرعا وتمسكت بأهداب الخرج و(السفيفة) [1] معاً ولم يكن بامكاني اللحاق بتلك الذلول السريعة الجري فيما لو لم أكن متمسكاً بالاهداب التي اعانتني كثيراً على مباراة الهاربين .. وذلك أنه بقدر ما تجري الذلول بسرعة كانت تساعدني بجريها هذا بحكم تمسكي بتلك الاهداب المتصلة بحمولتها .. ظلت الذلول تجري بشدة حسب رغبة راكبها حتى تجاوزنا سور البلاد المهدم وتوسطنا من الجانب الأيمن من مقابر أهل البلاد من الناحية الشمالية وعند ذلك استدنى الراكب رسن الذلول وخفف من جريها السابق حتى ظلت تسير سيراً طبيعياً . وكم بلغ الغضب بوالدي عندما شعر انني لازلت ملازما له عندئذ

---

١ -- السفيفة ذات اهداب ستة كأهداب الخرج تستعمل للزينة فقط .

اناخ راحلته ونزل بي ضربا بعصا الخيزران ، ولكنه سمح لي بالركوب رديفـا له بعدما اتبع ضربه كثيراً من الشتائم وختم شتائمه بتلك الدعوة الصارمة حيث قال: (أسأل الله أن يبتليك بسفرتك هذه بما يحقق الشيء لذي كنت اخشى عليك من مواجهتك اياه) .

لم اكترث بشتائمه ودعائه بل ولم اشعر حتى بضرباته ، التي لم أذكر قط أنـه ضربني بحياته قبل تلك الحادثة ولا بعدها .. وكان جل همي ومنتهى امنيتي هو أن اخرج من اولئك القوم .. لكي التمس سبيلاً اختـاره لنفسي حتى ولو كان سبيلاً قاسياً وعراً فأنني اجد فيه لذة وسعادة ما دمت مقدما عليه عن رغبة وارادة حرة لم يفرضها علي اقرب قريب حتى ولو كان والدي .

كان خروجنا من البلاد بعد أن ذهب من ليل الصيف الجميل ثلاثة ارباعه وقد انبلج نور الفجر الاول ونحن على مقربة من قرية (النيصة) المجاورة لمدينة حائل من الناحية الشمالية وما أن بزغت الشمس حتى تعدينا معالم البلاد .

كأن على رأس والدي ورفيقه الطير لم يتحدثا في مسيرهما هـــذا واعتقد أن السبب لذلـــك يعود إلى فارق السن بينهما بصورة ادركت بها أنه لم يكن بينهما تجاوب بالفكر والتجارب فبينما كان والدي في نهاية العقد الرابع من عمره كان رفيقه لم يتجاوز العقد الثاني فيما يخيل اليّ ..

وفجأة انحرف والدي نحو الشاب موجهاً اليه السؤال التالي :

ـ ماذا يقول الشاعر ابو زويد ؟..

ـ أجابه المسؤول (لا أدري) .

اتجه والدي ثانية نحو رفيقه ثم قال إلا تعلم ما قصد ابو زويد حينما قال :

(اختار لك من عوص الأنضا زماله

حمراء تورد بك إلى صنقر اللال

خَلّهُ مع الديان تمشي لحـــاله
لا عاد ما أنت للمسة الخشم حمال)

البيتان سبق أن اشرت اليهما في كتابي (لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٥٢ كما انني شرحت معناهما .. ولا بد من شرحهما هنا باختصار للقارىء الذي لا يعرف معاني شعرنا الشعبي .. إلا بعد شرحه .

يقول الشاعر : (إذا كنت رجلاً أبي النفس ولديك من الشمم وشموخ الانف ما يجعلك لا تتحمل الضيم والاهانة ، فما عليك إلا أن تشتري ذلولا من الابـــل النجائب التي تمكنك من الهرب عن مواطن الذل والهوان) .

لا أستطيع أن اوكد بأنني كنت ادرك معنى هـذين البيتين وقتـذاك وأن كنت مغرماً بالشعر واهواه منذ حداثة سني .. ولكنني حفظتها لأنني قد سمعت القصيدة كاملة من كثير من الرواة لأن قصيدة (أبو زوّيد) هذه مشهورة عنـد الشعبيين بصورة عامة .. عندما انتهى والدي من القائه هـذين البيتين رفع العصا وهوى بها على رقبة ذلوله ثم رفسها برجله فذهبت تخب خببا مسرعاً ..

لا أذكر كيف قضينا وقت القيلولة وتناول وجبة الغداء وذلك لطول العهد ولكن الذي أذكره جيداً هو ذلك السرور الذي غمر كياني بالرغم من انني عندما اتخيل وضعي وقتذاك اجدني في وضع يدعو إلى الرثاء .. فالذلول التي طرت فرحا عندما تيسر لي ركوبها رديفـــا لوالدي لم يكن بين بشرتي وبين شعرها الخشن ما يصح ان يكون وقاية ارتاح لها ولو بشكل مسكن ، والفراش الذي اضطجع عليه عندما نحط عن الراحلة ونلجأ إلى الراحة والنوم لا أملك منه أي شيء يذكر والحذاء الذي اتوقى به اشوك الصحراء ورمضاء النفود لا تستطيع يدي أن تناله ولا بشق الأنفس ، ولكنني مع هذا كله أجدني اشعر بحبور ولذة لاحد لها ولا نهاية ، ولكن هذا السرور وتلك اللذة لم يمتد اجلهما اكثر من ساعات محـــدودة تزيد على العشرين وتنقص عن الثلاثين .

وهانحن الآن قد وصلنا (النفود) تلك الأرض الرملية التي تشبه بحمرتها الذهب الصافي النقي تحيط بها من نفس تربتها تلال شامخات وهاهي الشمس التي كانت تصلينا بأشعتها الحامية قد خفت حدتها وبدأت تسير رويدا نحو الجانب الأيسر منا قاصدة مخبأها لتفاجئنا في أصيل الغد من الجانب الايمن .. وهذه بيوت فخذ من بادية قبيلة شمر يقال لهم (السويد) وبجانبهم فخذ آخر يقال لهم (الشلقان) وكل من الفخذين يقيان في موقع يقال له (السانية) وفي هذا الموقع المنخفض آبار تحيط بها من الجانب الغربي والجنوبي تلك التلال الرملية الذهبية .. وتمد بيوت البادية من مسافة قريبة من الآبار الى ابعد بيت من بيوتهم الواقعة في الجانب الشرقي ..

كان جميع هؤلاء البدو من المتعصبين إلى ابعد حدود التعصب للعقيدة التي رسخت في قلوبهم في تلك الايام .. وفلسفة هذه العقيدة توحي في بداية الامر أن كل من لم يسر في ركابهم وينطوي تحت راية المغفور له الملك عبد العزيز فهو كافر، ومن يقتله يدخل الجنة وأن قتله الكافر فهو في الجنة .. وأن يكن لهذه العقيدة شيء من المحاسن فأنما هو توحيد هذه الجزيرة ، ولكن اهلها بحكم جهلها وأميتهم اسرفوا بغلوهم بهذه العقيدة ، حتى أن قادتهم في آخر الامر تمردوا على السلطة وتحدوا القوانين معتبرين أن كل من لا يذعن لهم ومن لا يدخل في حظيرتهم فأنه كافر يحل دمه وماله ، ولولا أن الملك عبد العزيز قضى على دابرهم في معركة حاسمة لاصبحت البلاد تحت سيطرتهم بصورة لا يعلم مداها ونتائجها الا الله .

أنني عندما أذكر شيئاً من واقع امر هؤلاء القوم الذين سوف نظل ضيوفاً لهم ..وذلك من اجل ان لا يستغرب القاريء ما يطلع عليه من الاسلوب التقليدي الذي عاملنا به مضيفونا - الكرام .

وها نحن الآن قد وصلنا منازل الحي وبدأ والدي يسأل أحد المارة عن اسماء الاشخاص البارزين فأجابه المسؤول بسرد اعيان القوم ، وكان من بين هؤلاء

الاعيان شخص يدعى « شاهر بن عبيّان » من عشيرة الشلقان ، وكان هذا الشخص صديقاً لوالدي ، ولكن تلك الصداقة كانت في عهد « الجاهلية » على حد التعبير المصطلح عليه ، والمقصود بعهد الجاهلية يعني هو عهد ما قبل نشوء الفكرة التي آمن بها هؤلاء البدو فكل ما سبق تلك الفترة بنظر هذه الفئة يعتبر عهداً جاهلياً أي عهد كفر وضلال ، وقد شخص والدي ورفيقه نحو بيت صاحبه القديم وهي صداقة قد لا يعتمد عليها بحكم الانقلاب الفكري الذي بدل المفاهيم رأساً على عقب ، وجعل الصديق ينكر صديقه ، والأخ يعادي أخاه ، ولكن هذا الصديق على أية حال كان أرأف وأرحم من أي واحد من رفاقه، بل عبر انه صديق وفي، عندما دعت الحاجة الماسة لنجدته .. انخنا الراحلتين أمام بيت شاهر ، فقابلنا رجل ناحل الجسم يعلو بشرته شقرة كستها طبيعة الصحراء سمرة ويبرز بين الشقرة والسمرة وجه يشعرك صاحبه لأول وهلة بالهيبة والوقار . لقد قابلنا الرجل مقابلة طبيعية لا كلفة فيها وكان مجيئنا في آخر لحظة من ادبار النهار وأول ساعة من اقبال الليل .. وما هي الا ساعات حتى حضر عدد لا بأس به من اولئك الرجال الصلبين ، شاحبي الوجوه ويبدو على محيا كل فرد منهم قوة البأس والهيبة المرعبة ، وكان يعلو رأس كل فرد منهم عمامة بيضاء عبارة عن قماش ابيض كعلامة فارقة لمن يشاركهم ايمانهم بعقيدتهم التي يتفانون حتى الموت في سبيلها . وكان والدي قد وضع عمامة من نوع عمائمهم التقليدية ولكن عمامته لم تنطل على « صبيان التوحيد واخوان من اطاع الله » . هذه النعوت يسمون بها انفسهم ، الأمر الذى جعلهم ينظرون لوالدى بأعين يتطاير منها الشرار والشر، وبعد ان احتسينا القهوة في بيت مضيفنا ومضى الربع الاول من الليل هناك قدم لنا مضيفنا طبقاً مليئاً من الأرز يعلوه كبش سمين فدنونا منه بشهية ولم يشاركنا نحن الثلاثة أحد في تلك المائدة اللذيذة اللهم إلا بعدما أخذنا منها النصيب الوافر وما كدنا ننصرف من تلك المائدة الشهية حتى أشار مضيفنا الى جيرانه وبني عشيرته فجثم على تلك الجفنة المليئة بالخيرات أولئك القوم القساة الذين لم تأخذهم بها رأفة ولا رحمة وكانوا يلتهمون اللحم بنهم وكل لقمة يتناولها أحدهم يجب أن يتبعها حمداً

وشكراً لله .. وهذه الطريقة في الأكل جزء من عاداتهم وهكذا لا تنقطع حمدلتهم هذه حتى يقوموا ولن يقوموا حتى يشبعوا ولم يشبعوا الا بشق الأنفس .

كانت تلك القصعة الدسمة منيعة الجانب لذلك ما استطاع اعداؤها ان يقضوا على دابرها القضاء المبرم بالرغم من انهم لم يدخروا من مقاومتها بكل قسوة وعنف وسيلة الا اتخذوها ولكن كما ورد بالمثل الشعبي عندنا القائل (الكثرة غلبت الشجاعة) كانت مائدة مضيفنا امنع من أن يبيدها اولئك الشجعان : وبعدما يئسوا من ابادة خصمهم العنيد استسلموا للهزيمة وتركوا منزل مضيفهم يتجاوبون بالتجشؤ والحمد والشكر معا ..

يا لله ما الذ ليالي الصيف في الصحراء خاصة فوق تلك الارض الرملية اللينة النقية وقد نمت تلك الليلة نوما لذيذا عميقاً لا اذكر انني شعرت بلذة النوم كشعوري بلذته في تلك الليلة ولا عجب فقد كنت ساهراً ليلتي الماضية بكاملها الامر الذي جعلني اخلد لذلك السبات العميق الذي لم افق منه الا عندما ايقظني والدي بعد مطلع الشمس حيث وجدت والدي ورفيقه على اهبة السفر لمواصلة الرحلة .

وقد انتظرنا في بيت مضيفنا بعدما صحوت من النوم فترة لا تقل عن الساعة كان والدي ومضيفه يتداولان خلالها حديثاً فهمت منه ان أبي صارح مضيفه بالحقيقة التي لم يصارح بها أو يعلم عنها أحداً ما عدا رفيقه الذي يشاركه الرحلة.. لقد اعلن والدي لمضيفه انه يقصد العراق وانه بحاجة الى رجل يدله من بداية الحدود العراقية أما من الحدود المحلية وما دون فقد فهمت ان والدي يعرف أرضها جيداً .. وقد كان والدي يشيع أمام أولئك البدو المتعصبين انه يقصد موقعاً يسمى (الحزل) من أجل ان يأتي بابل له قد أودعها عند أحد رجال البدو المقيمين هناك، والحزل هذا بئر يقع في آخر الحدود الشمالية التابعة للملك عبدالعزيز آل سعود والمتاخمة للحدود العراقية .

ولا يسع والدي الا أن يخفي حقيقة أمره لأن السفر الى العراق في ذلك العهد في نظر هؤلاء البدو المتدينـين يعتبر من أعظم الأدلة على ردة وفجور المرء الذي يحدث نفسه بالذهاب الى بلاد « الكفر والشرك » ومـــا دام أن من لم ينضم الى زمرتهم يعتـــبر كافراً حتى ولو كان من نفس بلادهم بل ولو كان من صميم أهلهم الأقربين إذن فما بالك بمن يكون خارجاً عن دائرة حدود أرضهم ..

هذا وقد بدا لي ان الحديث الذي يدور الآن بين والدي ومضيفه لم يكن وليد ساعته وانما كان امتداداً لحديث سابق كما فهمت أن مضيفنا قد وجد الرجـل الذي يتولي القيام بمهمة الدلالة مقابل اجرة قدرها جنيه ذهب انجليزي وانما كان الحديث يدور حول مجيء هذا الرجل ، وعن وقته المحدد ، وقد تم الاتفاق بين والـدي ومضيفه بأن يذهب والدي في طريقه على ان يتعهد مضيفنا (شاهر) بالحاقه بالدليل بعد لحظات ، وافق والدي على رأى مضيفه ومن فورهما توادعا وركب والدى ورفيقه راحلتيهما كما ركبت رديفا لابي وبعد ان ابتعدنا عن منازل القوم مسافة (كيلومتر) على وجه التحديد ، انحرف والدي نحو الجنوب لينظر الى الرجل الدليل هل لحق بنا ؟.. كما كنا نظن ونتوقع ولكن سرعان ما تبدد ظننا وتحولت خطة سفرنا رأسا على عقب وذلك حينما اندار والدى نحو رفيقه بكل هدوء وقال : لقد لحقنا هؤلاء البدو ولا اعتقد الا انهم ينوون بنا سوءاً . اجابـــه الفتى بجملة اشار فيها بالهروب ، ولكن والدى لم يؤيده بالرأي ، ثم طلب الفتى ثانيــة من والدي ان يقاوم فأجابه قائلا : كم كنت أتمنى أن بين يدي بندقية اقاوم بها هؤلاء المعتدين ، ثم أردف قائلا لو أملك شيئاً من ذلك لما استطاع أن يدنو مني واحد منهم مـــا دمت على قيد الحياة . وما دمت لا أملك من وسائل المقاومة ما يعزيني فلا يسعني الا الاستسلام لقضاء الله وقدره ، وبعدما كنا متجهين نحو الشمال ذهبنا وتحولنا نحو الجنوب لمقابلة ضيوفنا القادمين الثقلاء ، وما هي إلا لحظات حتى طوقونا وأحاطوا بنا من جميـع الجهات . أناخ والدي ورفيقه ذلوليهما واتجهـا نحو الضيوف فسألهم والدي : عما يريدون من وراء عملهم هذا فتولى الجواب عنهم شخص كأنني أراه

لا يختلف بهيئتـه وسحنته عن سحنة البدوي الاصيل . رجـل ضخم الجسم أشقر البشرة شقرة ممزوجة بصفرة لا يوصف بالطول ولا بالقصر أو هو الى القصر اقرب ولئن نسيت اسمه الكامل فأنني لم آنس كنيته فالرجل يكنى بـ (المروقي) وقد فهمت فيما بعد أن هذه الكنية شاملة لاسرة من عشيرة الشلقان المتفرعة من قبيلة شمر كأنني أرى ذلك الرجل الثقيل نصب عيني الآن . ولا عجب فقد شاهدت منه ذعرا لم أر له مثيلاً في حياتي وارجو الا أرى مثله . كنت اتخيل في بـــداية الامر أن (المروقي) هو رئيس اولئك العرب او على الاقل الرجل الثاني في الزعامة ولكن سرعان ما أدركت أن رئيس هؤلاء رجل يكنى (بالهربيد) وأن (المروقي) لم يكن له بين اولئك القوم اية مكانة يمتاز بها عن أي واحد من العامـــة فضلا عن الخاصة اللهم إلا وقاحته وحقده الدفين المزمن على والدي بصورة خاصة .. وقـد ثبت من اسلوبه في الجدال انه يريد أن يثأر لنفسه بسبب اهانة لحقت به من والدي حسب ما يبدو من الجدال الحاد الذي دار بينه وبين والدي كما يلي :

عندما سأل والدي القوم عما يريدون من وراء عملهم هذا تولى الجواب المروقي بقوله : نريد أن نتقرب الى الله بدمك يا عدو الله .. ثم أردف قائـــلاً : ألست فـــلانا ؟؟

– بلى هو على الخير والشر ..

– لماذا تهرب من بلاد الاسلام ..

– لست هارباً.

– بلى انت هارب من بلاد المسلمين وتريد أن تـذهب (للشنيف) [1] فيصل الكافر ..

---

١ – المقصود بكلمة (الشنيف) اي شوال التبن الغاية من ذلك تحقير الشريف فيصل.

ـ لا أنا اقصد (الحزل) فقط .

ـ نحن نعرف ماذا تقصد وأين تريد ؟

ولذلك سوف تنال منا الجزاء الذي تستحقه اللهم الا أن يكون معك (فسح) [1] من الامام عبد العزيز فان يكن في يديك شيء من ذلك ابرزه لنا والا سوف نؤدب بك كل ضال من امثالك ..

ـ انا اولاً لست ذاهباً للعراق حتى احمل (فسحا) .

ـ ثانياً حتى لو كان (الفسح) في يدي لما قدمته لك لأنك لست من الرجال المسؤولين .

ـ الا تعلم من انا أنسيتني يا عدو الله ؟.. أنسيت ما نالني منك من ضرب واهانة ..

ـ بلى اعرف انك فلان .. (الفحام) ، واذكر انني أدبتك من اجل جريمة الاختلاس التي ارتكبتها .

ـ احمد الله واشكره الذي نصر الاسلام واهله وبدل عهد الكافرين الطغاة الظالمين بعهد المسلمين المؤمنين وجاء بك بين يدي أيها الفاجر لانتقم منك الانتقام الذي سوف تلاقي به حتفك اليوم جزاء لما عاملتني به أبان عهد الظالمين الكفرة ..

ـ أنا لا الومك يا المروقي فيما اذا نلت من ذلك العهد لأنك اعجز من ان يكون لك صفة من صفات الرجولة التي تؤهل صاحبها منزلة محترمة بين اولئك

---

[1] ـ الفسح : ورقة فيها اذن من الملك عبد العزيز تقوم مقام الجواز لمن يشاء ان يتجاوز الحدود .

الرجال والدليل على ذلك هو انك بذلك العهد كنت فحاما ..وجوابي على الجملة التي اشرت اليها بانك سوف تثأر مني واني سوف الاقي الموت على يدك: اولاً أنني عندما أدبتك لم افعل ذلك بدافع الانتقام او اخـذ الثأر كما تريد أن تفعله معي اليوم .. وانما ادبتك من اجل جريمة السرقة التي اختلستها والتي لا تستطيع انكارهـا لان عشيرتك كلها تعرف عنك تلك الجريمة النكراء .

أما الموت الذي تهددني به فإنني أراه منة رحمني الله بها وشرفـاً وهبني اياه الباري، لكونه يعلم تعالى ما يختلج في نفسي من تفضيل الموت الف مرة على الحياة في الزمان الذي اصبح لك به وامثالك صولة وجولة ..

وبعدما تكلم والدي بهذه الجملة قفز المروقي كالمذعور هاجماً على ضيفه الاعزل كما قفز جماعة من رفاقه يشاركونه النية نفسها وعندما دنوا منه واصبحت عمليـة التنفيذ قاب قوسين أو أدنى .. هناك وقع الخلاف العنيف بين الفرسان الاشاوس وقد بدأ لي للوهلة الاولى ان مصدر هذا الخلاف بين هؤلاء الشجعان ناشيء عن كون فريق منهم يقصد قتل والدي ، وفريق آخر يرى انه ليس من الشيمة العربية ان يقتل رجل كان في الليلة الماضي ضيفاً عند أحد رجالهم .. كما انه لا زال قريبـاً من منزل مضيفه .. يضاف الى ذلك انه أسير أعزل لا يملك أدنى شيء من مقومات الدفاع عن النفس .. والعادات العربية الأصيلة تتنافى كل التنافي مع قتل العدو فيما إذا كان اعزل لا حول له ولا قوة .. ومما زادني تمادياً في ظنوني الوهمية الطفوليـة هو ما بدا لي من منظر والدي ذلك الرجل الفارع الطول ، النحيل الجسم ، الذي كان واقفاً كالتمثال التذكاري لا يهتز له عضو ولا ترمش له عين ، فكأنه بوقفته التي يعلوهـا شيء من السخرية والصلابة يمثل انسانـاً ينظر بازدراء الى اولئك الاعراب القساة ، كما ينظر أي واحد منا الى فريق من اولئـك المشعوذين الذين يقومون بألعاب بهلوانية بغية الترفيه والتسلية . لا موقف رجل أسير بين يدي رجال جفاة غلاظ يتنافسون على قتله ويتسابقون الى ضرب عنقه .

وهكذا ادركت انني خاطيء في ظني السابق وذلك عندما بدا لي بوضوح بأن

ما كنت أتوهم انه خلاف بين الفريقين . إنما هو تنافس فيما بينهم على قتل الضحية فكل من المتنافسين يريد ان يكون هو الاول بضرب عنق الكافر .. اعتقاداً منهم ان من يكون له أفضلية السباق بقتله لكافر ما، فإنه يكون ايضاً من السابقين الأولين بالأجر والثواب ، ودخول جنة الفردوس التي سوف تكون بها نسبة الحور العين الحسان القاصرات الطرف . متوقفة على نسبة ما يقتله من الكفرة المشركين ، فإذا كان (المروقي) حريصاً على قتل عدوه بحافز الحقد وأخذ الثأر ، فإن هناك من هو أحرص منه لا بدافع كدافع المروقي العدائي وإنما بدافع يعتبره معتنقوه بأنه الجهاد المقدس والتقرب الى الله زلفى بدم الكافر الخارج عن حدود الاسلام

وقد بدأ ادراكي لهذه الظاهرة محسوساً عندما اقبل والدي على المتنافسين بخطى وئيدة وثابتة ، موجهاً كلمته التي يبدو لي انه يعتقد انها الاخيرة قائلاً: اسمع يا المروقي انني كما سبق ان قلت لن احزن على الحياة في الوقت الذي جعلك وامثالك اصحاب سلطة ونفوذ . وها أنذا سوف ألاقي الموت مطمئناً غير آسف ، انما الشيء الذي لا أرى مبرراً يدعو الى ايذائه هو هذا الطفل الذي (ينجس السلاح) مشيراً إلي بكفه الأيمن الذي عابته اصابة رصاصة قديمة .. كنت واقفاً مذهولاً شارد الذهن انظر الى والدي متى يضرب عنقه أحد هؤلاء الشجعان ، كما كان رفيقنا الشاب يشاركني نفس الذهول ، إلا انني أراه فيما يخيل الي انه يزيد علي ذهولاً من خوفه ان يكون مصيره القتل كصاحبه ولقد بدا لي وجه ذلك الشاب الأمرد النحيل الجسم ذو البشرة الصفراء التي يعلوها شيء من البياض كأنه جسد محنط لا روح فيه ..

لم يتخلل الى قلبي الخوف من أن يقتلني القوم ، لأنني لم أر أدنى دليل من أي واحد منهم يوحي بأية اشارة مما اخشاه ـ وذلك بحكم حداثة سني ـ ولا شك عندي ان اولئك الاعراب رغم ما فيهم من غلظة وعنف فانه لم ينو أي واحد منهم ان ينالني بأدنى أذى وقد اكد احدهم بل اعنفهم المدعو المروقي صحة حدسي هذا عندما اجاب والدي فقال : « لم افكر قط فيما سبق بقتل ابنك .. ولكن بعد

حديثك هذا الذي عبرت لنا به بأنك لا تأسف على الموت يا عدو الله بعهد الاسلام حزناً على عهد الكفرة الظالمين كما اتضح لنا ان حياة ابنك هي العزيزة لديك ... لهذا كله اقسم بالله انني لن اقتلك حتى ابدأ بقتل ابنك أولاً ، وبعدما أحز عنقه وأرمي برأسه بين يديك عند ذلك اجهز عليك لتموت حزيناً على ابنك ، ولتذهب الى جهنم وبئس المصير ..

الواقع انني مهما حاولت ان اصف الشعور الذي خالجني بعدما سمعت هذه الكلمات ومهما حاولت أن أحلل نفسيتي بصورة تنسجم وتلك اللحظة القصيرة التي لا تتعدى دقائق أو ثوان محدودة . فانني لم استطع ولن استطيع ذلك ، وكل ما اذكره هو انه تبدل شعوري ونظري اللذين كانا منصرفين الى الحوار الجاري بين والدي واولئك الأعراب الى ان وصل الامر الى ما وصل اليه من المصير المحتوم الذي اصبح يهدد حياة والدي ثم تطورت الحال الى ان شعرت ان حديث والدي مع أولئك القساة بشأن العفو عني كان السبب المباشر الذى صيرني الضحية الاولى لا محالة فكأنه حرضهم على قتلي ..

وكل مـــا استطيع التعبير عنه في تلك اللحظة الحاسمة هو انني اتجهت غرباً وأدرت ظهرى نحو القتلة الذين اصبحوا شرقاً مني منتظراً اللحظة التي يهوى بها المروقي بسيفه على عنقي .. ومن يكن في سن كسني الذى لا اذكر جيداً كم هو بحكم عدم تقييد النفوس عندنا وقتذاك ولكن الذى اعرفه انني بلغت الحلم في (سواكن) الميناء البحرية السودانية بعد هذه الرحلة بثلاثة اعوام .. ومن يكن ايضاً في ظرف حرج كالظرف الذي عانيته فانه ليس من السهولة ان يصف المرء في حالة كهذه ، مـــا يختلج في نفسه من احساس وشعور وما يدور حوله من تصرفات هوجاء يتولى تنفيذها جهال من الرعاع السوقة ..

* * *

لست ادري كيف نجوت من ذلك المصير ؟.. ولا أذكر كيف تخلى أولئك

السفاكون عن تنفيذ خطتهم الجهنمية .. لا أذكر شيئاً من ذلك في تلك اللحظة وانما الذي اذكره ساعتذاك هو انني سمعت ضجيجاً وصراخاً خلفي فلم ازدد إلا ذعراً ، ظاناً ان الفرسان يتنافسون على قتلي كما سبق ان تنافسوا على قتل والدى . وبالرغم من أن الصراخ تبدل الى عراك والى لكز بالعصي بين القتلة ، وبالرغم أيضاً من ان اصواتهم اصبحت اسمعها بعيدة عنا بعد انكانت تحيط بنا عن كثب . رغم هذا كله فانني لم اتصور إلا أن خلافهم هذا ليس إلا من نوع خلافهم سالف الذكر .. وكل الذى يدور في ذهني واناجي به نفسي لا يخرج عن نطاق واحد وهو معرفة بماذا سيتم قتلي ؟.. فهل يكون بالسيف ؟.. أم بالبارود ؟ واذا كان بالسيف هل يمكن ان يكون سيف البدوى مسنوناً ماضياً يقضي علي فوراً ؟ ؟ أم انــه داثر غير مسنون وبدلاً من أن ألاقي الموت بلحظة وجيزة . أظل أتجرع سكراته ساعات طوالاً ؟؟.. هذا خلاصة مايدور في مخيلتي ومـا يختلج في ذهني من احاديث النفس ووساوس العقل .

أما انني اتوقع أو اظن أو اتأمل أو يطرأ على ذهني ولو مجرد امنية عابرة بأنني سوف اعيش بعدما رأت عيني منظر اولئك القتلة السفاكين يتنافسون على ضرب عنق والدى وبعدما سمعت اثقلهم ظلًا وأشرسهم خلقاً وأوقحهم لفظاً واحقدهم قلباً يقسم بأن يبادر أولاً الى ضرب عنقي نكاية بوالدى قبل ان يقتل أبي .. أبعد ذلك يمكن أن اتصور ساعة الفرج التي جاءت بدون ان احلم بهـا على يد ذلك الرجل الكريم الشهم مضيفنا (شاهر بن عبيان) ...

كان مجيء (شاهر) ومفرزة من بني عمه الأقربين رحمة نزلت علينا من السماء وكان الضجيج الذي كنت اسمعه خلافاً لما كنت أتخيله وانما كان شقاقـاً بين السفاكين حول الغنيمة وذلك ان القراصنة منذ ان طوقونا وأصبحنا أسرى بأيديهم قد انقسموا الى قسمين : قسم كان همه قتلنا على النهج السالف الذكر ، وهؤلاء البـارز بينهم المروقي الذي كان مدفوعاً بحوافز الحقد والثأر اكثر من رفاقه المدفوعين بدافـع الرغبة بالأجر والثواب من البارىء بقتلهم لعدو الله ورسوله .. أما القسم الثاني فقد

كان أذكى من اولئك أو بصورة أوضح كانوا صرحاء بكشف ما تخبئه انفسهم التي أدت بهم إلى اللحاق بنا فهؤلاء منـــذ أن أمرونا ذهبوا يتقاسمون أسلاب والدى ورفيقه فكل جاءه من تلك الاسلاب نصيب ، والذى لم ينله شيء أشركه أحد الغزاة بشيء من المكسب .. وقد تقاسموا جميع الغنيمة في الحين الذى كان القسم الاول مشغولاً بين التشفي من والدى وبين التنافس على قتل الضحيـة .. ولحسن حظنا هو ان الفريق الذكي لم يستمر بعمليته التي سار عليها بتقاسمهم للغنيمـة بهدوء صامت الى المرحلة النهائية . ذلك انه جاء في الوسط غنيمة مغرية دسمة افقـــدتهم هدوءهم المختلق وجعلت بعضهم يصطـــدم ببعض فعلا ضجيجهم بصورة لفتت نظر الفريق الذى كان همه القضاء علينا أولاً وقبل كل شيء ، فعندئذ استيقظ القتلة من غفلتهم وشعروا انهم اخطأوا باقدامهم على ذبح الضحية التي لا تعدو ان تكون وسيلة الى كسب الغنيمة التي تعتبر هي الغاية الاساسية في حقيقة نواياهم الخفية الأصيلة ومن التوفيق انهم ادركوا اخطاءهم قبل تنفيـذهم الاعدام بضحيتهم البائسة بثوان معدودة . ففي تلك اللحظة الصارمة السوداء بالنسبة لكاتب هذه الاسطر بصورة خاصة . استيقظ السفاكون من سباتهم وذهبوا نحو الفريق الذكي الذى اعتبر أن الأصل في هذه الغزوة هو ما وقع بين يديه من الكسب فوجد هذا الفريق على وشك ان يقتل بعضهم بعضاً من أجل الغنيمة الثمينـة التي لا يعادل قيمتها جميع الاسلاب المذكورة .الا وهي راحلة والدى تلك الذلول (البكرة) الأصيلة فهذه الراحلة المباركة هي التي كانت سبباً لنجاتنا وذلك ان الخصام بين رجـال الفريق الاول وقع بسبب طمع كل فرد منهم بامتلاكها . وعندمـا بلغت خصومتهم من الصراخ والضجيج الحد الذى سمعه القتلة هناك هرع هؤلاء تاركين (الأجر والثواب وجنة الفردوس التي كانوا يتنافسون على قتلنا في سبيلهـا) واتجهوا نحو المتخاصمين لا ليقوموا باصلاح ذات البين ولكن ليطالبوا الجميع بحصة الاسد من الغنيمة الدسمة وخاصة الذلول التي هي الكل في الكل،وفي هذه اللحظة التي أخلى بها سبيلنا أولئك الزبانية .دنا منا مضيفنا وأحاطنا بسور من رجاله وأهله الاقربين،وسار بنا الى منزله الذى غادرناه من قليل، يتقدمنا ثلة من بني عمه الادنين ويحيط بنا من الخلف عدد

من نوع الاولين ويحرسنا من اليمين مفرزة من هذا النمط ويحمينا من الشمال فئة اخرى من نفس الطراز .. لقد كنا نسير في وسطهم في خطى ثابتة وئيدة ، ولئن فوجئت بموجة من الذهول في تلك اللحظة التي بركت بها القرفصاء ، خائر القوى ، غائر الدم ، ميت الاحساس ، لا أقول شارد الذهن بل فاقد الوعي ، أصم الشعور ، مشلول الفكر ، بصورة لا استطيع ان اذكر منها شيئاً سوى تلك الثواني التي انحصر فيها تفكيري في زاوية محدودة وهي هل يكون هشم هـامتي بطلقة من البندقية الفظ بعدها انفاسي بسرعة لا انجرع بها سكرات الموت ؟ أم يكون حز عنقي بسيف البدوي الذي اعتقد انه لم يكن مصقولاً ماضياً ليريحني من التعزير ؟ الذي كنت أتوقع أن يعاملني به ذاك الغليظ الجفص (المروقي) . . أقول لئن أصابني من هول المشهد ما صيرني آلة صماء لا استطيع التعبير عن وصف ما حدث في تلك اللحظة بصورة عامة مفصلة ، ولا وصف شعوري بشكل خاص ، فإنني استطيع الآن أي بعدما أسعفنا مضيفنا ورجاله وأنقذنا من مصيرنا المحتوم أن أصف السعادة التي أحسست بها واعبر عن السرور الذي غمرني خلال تلك الفترة الهنيئة السارة التي تختلف كل الاختلاف عن الفترة الاولى وقبل أن أصف البهجة التي سوف أشير اليها عليّ أولاً ان أقول لئن كانت الكلمة المأثورة تقول : (الصحـة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى) .

فانني أؤكد هنا بان للحياة قيمة لا يعرفها من هم في حكم الاموات .. اجل لقد كنت يائساً من الحياة ، قانطا من أية نجدة تنقذني من ذلك المصير الرهيب ، ففي تلك اللحظة التي لا يستطيع ان يتصور مأساتها إلا من عاشها كما لا يستطيع من عاشها ووقع في محنتها أن يملك من الوعي والتفكير ما يمكنه من التعبير عنها . وفي غمرة تلك اللحظة الحالكة السواد أرى مضيفنا شاهراً سلاحه أمام فتية من رهطه الابطال ، المدججين بالسلاح يحيطون بنا ، كما اسلفت ، من كل جانب ، فأمد بصري نحو ذلك الشبح المخيف (أي المروقي ورفاقه) فأجده في وسط معركة صاخبة الوطيس ، وفي قلب فتنة التهبت نيرانها بينه وبين انصاره ومؤيديه ، فهو يرى أن الحصة الثمينة يجب ان تكون غنيمة باردة له - لا يشركه فيها احد ..

ولحسن الحظ أن الاغلبية الساحقة من اللصوص لا تؤيـده الرأى في طلبـه الامر الذى جعلني انظر للمروقي عدونا الاول ذليلًا مقهورا بـين شركائه القتـلة المعتـدين .

فأرجع بصري كرة اخرى فاجدني بين هؤلاء البواسل تغمرني موجة عارمة من الحبور فاقارن بين تلك الثواني التي كان الموت مني بها قاب قوسين او ادنى ، وبين الدقائق التي شاهدت فيها رجال النجدة ، فأجدني في الأولى اشبه برجل القـاه اعداؤه عارياً مكتوفاً في بئر غزيرة الماء ، مدلهمة سوداء مليئة بالحيات ، فان نجا من الغرق فلن ينجو من الافاعي التي دنت من جسده العارى . وبينما هـو يائس قانط لايملك من امره الا القدر الذى يفكر به في كيفية نهايةحياته فهل يموت غريقاً ام لديغاً ؟ ام كلاهما معا ، ففي تلك الثواني التي كأنهاسنون جاء الفرج فجأة بدون ان يتوقعه ، أو يأمل حصوله .

وهكذا كان واقع امرى في احلك ساعات الظلام القـاتم .. اشرقت الشمس فبددت الظلام بأشعتها البهية . وفي اعنف لحظات الشدة والضيق فتحت ابواب الفرج على مصراعيها بـلا حد ولا قيد .. وفي اسوأ (الثواني) التعيسة المرة التي لم ار بحياتي قبلها ولا بعدها اشد امتحانا ولا اعظم هولا منهـا يباغتني السرور وتفاجئني السعادة التي لم اشاهد في حياتي حتى الآن نشوة سرور ولذة سعادة تعـادل تلك السعادة او تضارع ذلك السرور الرائع .

ومن ثم امد بصري قليلًا نحو والدي فأنظر الى ذلك الرجل ذى الوجه الاسمر الذي تعلوه صفرة قاتمة ، ولحية سوداء خفيفة ، يسير بمشيته العادية فكما انه لم يبد على محياه في تلك المحنة العصيبة اية علامة تشير الى الهوان والاستسلام .. فانه كذلك لم يبد على ملامح وجهه ايضاً أى دليل من ادلة البهجة والسعادة اللتين شعرت بها وكما ابدى هدوءاً ورزانة بسيطرته على اعصابه بتحديه لعدوه (المروقي) ابان اللحظة التي كانت ارواحنا فيها على كف عفريت فإنه سيطر أيضاً على عقله الباطني

الذى يخفي سروراً واطمئناناً لا من أجل حبه لحياته التي اشعر شعوراً اكيـداً بأنه صادق في حديثه سالف الذكر الذي صارح به للروقي عندما قال بأن حياتـه ليست عزيزة عليه الخ .. وانما من اجل حياة فلذة كبده الذى اكـد له المعتدى الحاقد بأنه سوف يلقي برأسه بين يديه قبل ان يقضي على حياة الوالد .

وعندما ارجعت بصرى كرة اخرى اتأمل وجه ذلك الفتى ناصر رفيق والدى وجدت ذلك الوجه الذى تركته منذ دقائق غائر العينين مصفر الوجه، أجده الآن قد تبدلت عيناه الغائرتان بعينين يشع من مقلتيهما النور ويعلو وجهـه طيف من السرور ، وموجـة عارمة من البهجة والغبطة ، وعندما انظر الى حماتنا الابطال الاشاوس ، وعلى رأسهم رجل النجدة ومنقذ حياتنا « شاهر » أجد كل فرد منهم كأنه نمر يتهيأ للوثوب على فريسته .. ولشد ما تضاعف اطمئناني وتبددت جميـع مخاوفي عندما دخلت بيت مضيفنا ، ذلك البيت الاسود المحبوك حبكاً محلياً من شعر الغنم ، والقائم سقفه على عمودين ، وفي جانبه الأيمن النـادى الاهلي ، الذى يضم الوافدين من ضيوف وجيران ، وفي مقدمته موضع لأواني القهوة ، وعـلى الجانب الايسر موقع المحرم يحول بين نادى الرجال (ورفـة) المحرم حاجز متين من نفس نوع البيت ، لقد شعرت الآن شعوراً راسخـــاً بأن أولئك اللصوص الغادرين اعجز من ان يدنو واحد منهم من عرين الاسد .

لم يقف مضيفنا به الحد عند صيانته لدمائنا ، بل انه بعدما ابلغنا مأمننا تركنا في قلب ذلك الحصن المنيـع ، وهب مسرعاً نحو الغزاة الذين لا زال الشقاق عامراً بينهم، من اجل الفوز بحصة الاسد، وأعني تلك الراحلة النجيبة التي سال لها لعاب (المروقي) حتى أنسته أخذ ثأره ، أو التقرب من الله زلفى بدم الكافر المشرك على حد زعمه ..

لم يظفر المروقي بعد بأخذ الذلول ولن يظفر لأن منافسيه عليها اقوى منـــه سلطة،واكثر أعوانا وأقوى حزباً من أعوانه وحزبه ،ولكنه عظم عليه الأمر أن

يذعن ويستسلم للهزيمة والافلاس من اسلاب المهزومين وهو يعتـــبر نفسه رئيساً لاركان جيش هؤلاء الغزاة الذين اسروا العدو بينما غيره ممن لم يضارعه بموقفه الشديد من اعداء الله لم يفلس من الغنيمة كافلاسه ..

وعندما جاء بطل النجدة (شاهر) وبنو عمه الأقربون ليستخلص جميع مانهبه الغزاة من اسلابنا : كان المروقي اقل من غيره معارضة في مطالبة مضيفنا باعـادة امتعتنا المنهوبة التي اصبح كل سلب منها مشتركا به اكثر من واحد منهم بحكم كثرتهم وقلة الغنيمة التي تنقص عن اشباع نهمهم جميعاً ، واعتقد أن السبب في كون المروقي كان اقل ممانعة من غيره في اعادة الاسلاب يعود الى عجزه عـن أن يحظى بحصة الاسد بل وافلاسه من الفوز بادنى شيء من الغنيمة . لذلك لم يمانع في اعادة الغنيمة كاملة بما فيها الراحلة الى اهلها كتنفيذ لطلب رجل النجدة ،وتعزية له وستراً لعجزه عن اخذ الراحلة التي ايقن انه من المستحيل أن يظفر بها .وعلى أية حال فان خلاف الغزاة الذي كان السبب الرئيسي لنجاتنا من القتل كان عاملا رئيسياً اعان بطل نجدتنا على اخذ كل شيء نهبه اولئك الفرسان من امتعتنا وذلك بعد جدال عنيف كنا نسمع تفاصيله بحكم قربهم منا .. وكان ذلك الجدال الصاخب يدور بين مضيفنا وبين اللصوص الذين رفضوا في بـــداية الامر الرضوخ لطلب مضيفنا رجل النجدة محتجين بما يلي :

- أن حمايتك لهؤلاء الكفرة يا شاهر دليل حي يجعلنا في شك من أن لا يكون النفاق قد تسرب الى عقيدتك وان الحنين الى العهد الجاهلي واهله قـــد انبعث في كيانك من جديد .

- أود اولاً أن لا تقحموا موضوع الكفر والايمان والاخلاص والنفاق وما مضى في عهد الجاهلية وما نعيشه الان في عهد الاسلام في صميم الموضوع وذلك لان المشكلة التي نحن بصدد حلها خارجة عن هذه المواضيـع وليس لها اية علاقـــة بذلـك .

– لا لا ليس الامر كما يخيل اليك أن توهمنا فيه بل اننـــا نؤكد انه بقدر ما دفعتنا غيرتنا الاسلامية على اللحاق بهذا الـكافر ورده مدحوراً عن خططه الذي ينوي تنفيذها وهو ذهابه الى بلاد الكفرة ، دفعتك حمايتك الجاهلية الى حمايتـــه والذود عنه .

– كنت أود أن نحل القضية بدون أن نخوض بهذا البحث .. اما الآن فلا بد لي من مناقشتكم بهذه الامور واحدة واحدة ..

اولاً – اذا كان الدافع الذي حفزكم على اللحاق بهؤلاء النفر دافع دين وابتغاءاً لمرضاة الله فما الذي يجعلكم تتقاتلون على اسلابهم ؟.. مع العلم أن هذه الاسلاب التي اغتنمتموها واستلمتموها لا يصح لأي واحد منكم استباحتها لانها ملك لبيت مال المسلمين بعدما يثبت الشارع صحة اكتسابها من الوجهة الشرعية ..

ثانياً – لـم يكن الحافز الذي دفع شخصا من كبـــاركم (وهو المروقي) الا حافزاً شخصياً منبعثاً من حقد قديم من عهد الجاهلية أراد صاحبه أن يثأر لنفسه باسم الدين ، ودين الاسلام الذي نرفل بأمنه اليوم : يجب ما قبله من عهد الجاهلية ، ويأمرنا ان نكون طاهري القلب ، وان ننزع من افئدتنا جميع الاحقاد والضغائن التي ورثناها وعشناها في عهد الجاهلية الغابر .

– نعتقد انك لو تعلم أن عدو الله الذي نصبت نفسك مدافعا عنـــه يشرب (المخزى) [1] الذي وجدناه مخبأ في (خرجه) لما وقفت منه موقف المدافع .

– اعتقد انكم لم تنهبوا اسلابه وتحاولوا قتله بدافع من دوافع الدين لكونه

---

١ ـ يعني الدخان الذي وجدوه في امتعة والدي وكان يعتبر شاربه فاجرا لا تقبل له شهادة ولا يؤم الجماعة في تأدية الصلاة .. ويكفي دليلا على ذلك ان والدي كان يخفي شرب الدخان حتى عني .

يشرب (المخزى) ومن اوضح الادلة على ذلك هو انكم عقدتم العزيمة على تنفيذ عمليتكم هذه قبل أن يثبت لديكم انه يشرب المخزى وكما انكم فعلتم ذلك بدافع الحقد والطمع .فانني سوف احرص على حماية دمه، واعادة ماله ما دمت اشعر بعرق من عروقي ينبض بـه الدم ، بصفته ضيفاً بات ليلة في ضيافتي ، وبحكم أن الوفاء العربي والاسلامي يقتضيان بأن اكون مسؤولا عن صيانة دمه وماله .

- كل الادلة تفيد أن بينك وبين هذا الكافر الذي تدافع عنه بشدة وتفان رابطة وثيقة العرى منذ العهد الجاهلي ، ودليلنا على ذلك هو أن عـدو الله ورسوله عندما جاء قادما لم يختر أحدا من رجال الحي جميعاً لينزل بضيافته سواك ..

- لم يكن هو الاول من الضيوف الذين نزلوا في ضيافتي واختاروني علـى غيري وهـذه حقيقة أناشدكم الله ان تفندوا قولي فيما اذا لم اكن محقا بمـا اشرت اليه .

صمت القوم جميعاً بدون أن يعترض احد منهم على ما تحداهم به ..

ثم استطرد مضيفنا وقال : انا لا انكر انني اعرف الرجل كمعرفة اكثركم له ليس إلا ...

- نحن نعرفه في عهد الجاهلية ونعتقد أنه مشرك كافر . لذلك لم نقف منه موقف المدافع كموقفك منه ، هذا الموقف الذي يدلنا بوضوح انك بقدر ما تبديه من حمية جاهلية لمناصرتك لهذا الكافر ، بقدر ما نتهمك بل نعتقد فيك بانـك لازلت متأثراً برواسب الجاهلية ومتمسكاً بعاداتها البالية التي نبذهـا الاسلام وحاربهـا .

- انا لا يهمني من ضيفي البارحة ومستجيري الآن ، أن يكون مؤمنـاً او كافراً ، وانما الذي يهمني أنه ضيف ، ومحمد عليه الصلاة والسلام - أمرنا باكرام

الضيف أياً كان بدون أن يميز بين الضيف المؤمـن والضيف الـكافر . ويهمني أن أجيره كمستجير بحماي ، وأن ادافع دون دمه . وحفظ مـــاله الى آخر نقطة من دمي ، وذلك عملا بالدين الاسلامي الذي قال دستوره في كتاب الله العزيز :

(وإن احد من المشركين استجارك فاجره ، حتى يسمع كلام الله ثم ابلغـه مأمنه) .

« لم يكن بين اولئك الاعراب رجل واحد يحسن القراءة فضلا عن الكتابة بما فيهم بطل النجدة ـ أي مضيفنا . ولكن لا يخلو الأمر من أن يكون من بينهم من يحفظ شيئاً من آيات الذكر الحكيم . ولذلك كانت الآية التي استشهد بها بطل النجدة محفوظة في صدور بعض من كبارهم ، الامر الــذي جعلهم يقفون مشدوهين من تأثير منطق الآية التي استشهد بهـا مضيفنا ، إلا انهـم ارادوا ان يغالطوه فقالوا » :

معنى ذلك أنك تريد أن تجير هذا المشرك حتى تبلغه مأمنه الذي ينوى الذهاب اليه وهو بلاد الكفر والشرك في العراق .

ـ لا أنا لم اشر الى ذلك وإنما الذي اشير اليه هو انني مسئول أمام الله بنص الآية الشريفة عن حمايته حتى ابلغه مأمنه ـ أي البـــلاد التي جاء منها . (يعني امارة مدينة حائل) .

ـ لا نحن الذين نذهب به ونسلمه للامارة .

ـ ابداً لا أسلمه لكم ولا آمنكم على مستجيري .. بل انا الذي اذهب به حتى أسلمه للامارة .

ـ أتتعهد لنا انك سوف تكون مسؤولاً عنه حتى تستلمه الامارة .

ـ أجل سوف اتعهد لكم بذلك بعدما اتق انكم أعدتم اليه كل دقيقة وجليلة من اسلابه المنهوبة .

ـ انتظر قليلاً وعما قريب سوف يأتيك منا الجواب .

ـ ليس في القضية ما يدعو الى الانتظار .

ـ هناك اشياء من الامتعة لم تكن قريبة المنال .

ـ ولكن الذلولين موجودتان الآن فينبغي تسليمي اياهما الآن ..

ـ لا بأس بذلك .

« الحقيقة التي لاشك فيها عندي أن الشيء الذي جعل اولئك الاعراب الجفاة يذعنون للأمر الواقع ، ويتراجعون عما كانوا عليه من العناد والاصرار ، ليس إلا الخلاف الذي دب فيهم وجعل بعضهم يتنصل من بعض .. هذا من جهة ومن جهة اخرى تكاتف رهط بطل النجدة وتضامنهم في سبيل مطالبتهم بالحق يقابلهم من الجانب الثاني عدم استناد هؤلاء الى الحجة المبررة وتفكك صفوفهم واختلاف كلمتهم . »

لم يعد مضيفنا الى منزله إلا بالراحلتين . اما الامتعة فلم تمض مدة لا تزيد عن ثلاث ساعات حتى عاد كل شيء فقد منا الا شيء واحد وهو المدخان .

ولا بد لي هنا من الاشارة الى ذكر حادث له علاقة ماسة في صميم بحثنا هذا: كان من فضولي عندما كنت في البلاد أي في حائل أن ذهبت الى عجوز أرملة تكون أما لشاب هو وحيدها في الدنيا يدعى (صالح الجزاع الشعلان) وهذا الشاب قد هاجر للعراق بغية طلب العيش منذ سنة كاملة .. ذهبت اليها واخبرتها بأني سوف اذهب للعراق مؤكداً لها استعدادي لتأدية رسالتها فيما اذا كانت تنوي تحرير رسالة لابنها. فقد فعلت ذلك لأمرين أولاً انها اخت زوجة والدي ثانياً: كنت اشعر انها كثيرة البكاء

والنحيب على ابنها الذي لم تر منه ولم ير منها رسالة لبعد المواصلات : وقد لبث الثكلى طلبي الذي التقى ورغبتها الاكيدة على صعيد واحد فوضعت رسالتها في مخبأ ذلك القميص الذي لا أملك من حطام الدنيا سواه كما لم يكن في تلك المخبأة ما يزن جناح بعوضة غير تلك الرسالة الجوفاء .

وعندما طوقنا الغزاة وشعرت من فحوى الحديث الذي دار بين والدي وبين المروقي ، أن الأمر ليس طبيعياً ذهبت كأنني اقضي حاجة ما ، وفي ذهابي هذا دفنت الرسالة التي بعثتها أم الشاب سالف الذكر ، ولحسن الحظ انني لم امزقها ولو فعلت ذلك لثبتت تهمتنا باننا نحمل رسالة تتضمن تقارير سياسية خطيرة موجهة من الرجال الخطرين في البلاد الى الشريف فيصل بن الحسين .. يبدو أن رجال البادية بالرغم من اميتهم وانعزاليتهم لا يخلون من الذكاء الفطري وذلك انهم كانوا قد اعدوا للأمر عدته ووضعوا علينا رقابة وتعقبوا حركاتنا وسكناتنا بدقة وصمت ..

لم يخطر ببالي أن الرسالة التي دفنتها في الرمال بصورة خفية جلست بها القرفصاء وأدرت ظهري نحو الغزاة ووجهي غربا ونبشت الأرض اللينة الرملية التي لم يكلفني حفرها ادنى صعوبة بهدوء صامت ، وبعدما بذلت اوسع الحيل ، والتمست ابعد الأساليب في اخفائها،عدت الى ابي ورفيقه اللذين طوقهما الفرسان .. في اللحظة التي دار بين والدي ورئيس اركان الغزاة (المروقي) من الجدل الشيء الذي اشرت اليه آنفاً ..

اجل لم يخطر ببالي قطعياً أن يبلغ هؤلاء البدو درجة من الذكاء والمكر الى هذا الحد .حتى فاجأ والدي مضيفنا ملمحا بما أكد له أحد الغزاة انهم وجدوا رسالة موجهة للشريف فيصل وأن حامل الرسالة الذي هو والدي حاول بواسطة ابنه أن يطمرها تحت الأرض ولكن فطنة (صبيان التوحيد) وعيون (اخوان من اطاع الله) الساهرة لم تغفل عن دسائس اعداء الله . حقا لم يتبادر لذهن والدي الا أن

القضية كلها مختلقة من الفها الى يائها ولم يتصور أن هنـــاك رسالة من عجوز ثكلى لا أهمية لها ذلك انني لم اخبر والدي ، ولم انو اخباره لا عتقادي انني لو اخبرته لم أر منه ما يرضيني ، لأنني اكون قد بحت بسر سفره الـذي لم يبح بـــه لا حد قط .

وليقين والدي من براءته مما يتهم به جعله يثور بعنف قائـــلًا : ما معناه لقد وصموني بالكفر والشرك وحاولوا أن يستبيحوا دمي ، ويريقوا دم أبني الطفل ، وصبرت اذ لا حيلة لي الا الصبر أما انهم يتهموني بالتجسس ويفترون علي ما انا منه بريء فأنني كأنسان مستجير بجاهك و كنت خير من اجـــارني وصان دمي وحفظ مالي .. لهذا فانني استجير بك على ان تصون شرفي مما اتهم به بالتحقيق عن هـذه التهمة ، حتى يتبين لك كذب الغادرين ، وصواب ما أنا عليه من صحة وصدق ، لا لف فيه ولا دوران .

كان والدي يتحدث هذه المرة بحماس وانفعال ، خلاف ما عهدته به من حديثه السابق الذي لم يبلغ به الأمر من الانفعال كما بلغ به الآن .

ذهب رجل النجدة الى المتهمين (بكسر التاء) يتحـــداهم بشدة وبجبين ناصع ووجه ابلج : ولئن كانت الرسالة لا تحمل اكثر من سطرين فقـط وحروق نار بأطرافها ومن خلفها وامامها كدليل على احتراق قلب أم الشاب على ابنهـا ، فان هذين السطرين وتلك الحروق قد يحملان من (الشيفرة الرمزية) اكثر من معنى في نظر اولئك البدو الذين لم يكن بينهم رجل واحد يعرف حروف الهجاء رغم عددهم الذي اظن انه لا يقل عن المائتين ولما لم يجدوا من يقرأ تلك الرسالة التي لا تزيد عن الشبر طولاً وعرضاً فقد اضطروا بدافع من احراج مضيفنا لهم ان يأتوا بالرسالة منقبين عن من يحسن القراءة من احد المشركين ولكن حتى هؤلاء لم يكن بينهم من يقرأ أو يعرف حروف الهجاء لا والدي ولا رفيقه غير كاتب هذه الاسطر ، حيث ادخلني خالي حينما كنت في حضانة جدتي مدرسة تعلمت فيها

حروف الهجاء على لوح من الخشب ، وتارة على تلك الارض الدمثة في حـائل ، لدى المرحوم الشيخ عبد الله الخليفي غفر الله له وقدس ثراه .

«جاء صبيان »التوحيد بالرسالة وأمروني ان اقرأها حرفاً حرفاً بعدما احاطوا بي من كل جانب يترقبون حركاتي ويستمعون لقراءتي بصمت وركود .. كانت حروف الرسالة مقطعة ، كل حرف من حروف الهجاء منفرد على حـدة ، الامر الذي جعل قراءتي لها سهلة لا كلفة فيها .. ولم يعد مضمون الرسالة إلا انه : (من الوالدة الى ابنهـا) الخ .. تعبر له عن قلبها المحروق ومقلتيها الساكبتين الدمع باستمرار ..

كان « أخوان من طاع الله » بين الشك واليقين بصحة قراءتي لما جاء في الرسالة من لفظ ومعنى ولم يؤمنوا الايمان الراسخ بأن ما قرأته عليهم هو الصحيح حتى جاء اعرابي منهم ، ولكنه ليس من نفس الحي ، يزعم انـه ضليع في القراءة ، فعرضوا عليه الرسالة فظل يقرأها قراءة مقطعة ، ولكنها لا تعدو عن القراءة التى قرأتها عليهم .

حمدنا الله على براءتنا من تهمة التجسس.. إلا انني كنت اتوقع ان والدي سوف يعاقبني عقاباً صارماً على تصرفي الصبياني بأخذ الرسالة من العجوز ، وعلى سلوكي الاخير في اخفائها الذي من شـأنه ان يدعو الى الشك والريبة كما حصل فعلاً .. ولكن والدي لم يعمل معي أي شيء من ذلك ، بل ولم يسألني أدنى سؤال عمـا قمت به .

قضينا صبيحة ذلك اليوم على الشكل الذي عبرت عنـه من القنوط واليأس وانتظار الموت الزؤام بين الفينة والفينة ـ اما وسط النهـار وآخره فقد قضيناهما بأمان وهدوء واطمئنان ، وقد بتنا الليلة الثانية عند مضيفنا الكريم الذي اكرم مثوانا ، وناضل دون سلامة رقابنا ، واستعاد كل مـا سلبه الغازون من امتعتنا ،

مبيتاً هنيئاً ، إلا انني لم أطعم لذة النوم بصورة هـادئة لذيذة كالليلة الماضية وذلك من الاحلام المزعجة التي اقلقتني .. وكل ما اغط بالنوم انظر الى المروقي ذلك الغليظ الجفس يدنو مني ليضرب عنقي بسيفه المسلول فاستيقظ مذعوراً فأجدني بعرين الاسد لا يستطيع المروقي ولا زمرته بكاملها ان ينالوني بأدنى أذى ، فأعود ثانية غارقاً في سباتي ، فتعاودني تلك الاحلام الرهيبة .. وهكذا دواليك الى ان انبلج الفجر بأنواره الزاهية ، وهنا ضج الحي بأصوات لم تكن غريبة عليّ : (الله أكبر) الخ .. وكل بيت كان فيه مؤذن !

بعد الوضوء اتجهنا بوجوهنا نحو القبلة وقلوبنا نحو الباري شاكرين نعماءه على سلامتنا بعدما اشرفنا على الموت .. لقد أدينا صلاتنا بأمان واطمئنان ومن ثم اتجه كل من والدي ورفيقه ورجل النجدة «شاهر» الى رواحلهم ، وما هي إلا لحظات حتى انهوا حمل امتعتهم، وركبنا عائدين الى اهلنا ، وها نحن نتسلق تلك الكثبان الذهبية التي مررنا بها يوم امس الاول عائدين مكرهين طبعاً بل وشاكرين المولى الذي انجانا من يدي اولئك القتلة ، على ان هيأ لنا سبيل العودة سالمين بفضل بطل النجدة ..

وبعد مضي ساعة من مسيرنا ، بزغت الشمس علينا بأشعتها المشرقة من الجانب الايسر . ولم نشعر بشيء من حرارتها إلا بعد فترة من الوقت ، هناك بدأ لهيبها يصيبنا بشدة ، وكما انني لا اذكر كيف قضينا فترة القيلولة والغداء في ذهابنا يوم امس الاول فانني ايضاً لا اذكر كيف قضينا فترة القيلولة والغداء في عودتنا هذه وكل ما اذكره هو ان حرارة الشمس كانت اقوى من يوم امس الاول ، وقد نصب كل من والدي ورفيقه وبطل النجدة عباءته على رأس عصاه الخيزران فأصبح فوق رأس كل واحد منهم مظلة تقيه حرارة الشمس ، ولما لم تكن لدي عباءة ولا أي شيء يقيني لا لهيب الشمس الحامي فحسب . بل ولا حرارة شعر الراحلة الذى كما اسلفت لم يكن بين بشرتي وبين وبرها الخشن سوى ذلك القميص المهلهل

لا فوقه شيء ولا تحته شيء ، ولا يسعني الا ان اصبر والتجلد وامر شكواى لله وحده ..

ظللت في هذه الحالة تارة اجلس القرفصاء على ردف الراحلة وتارة اخرى اجمع رجلي وادير ظهرى وطوراً اباعد بين رجلي الاثنتين .. وهكذا ظللت اتململ واتقلب هنا وهناك حتى آذنت الشمس بالغروب وأمست تحفنا رويداً رويداً من الجانب الايمن حتى تلاشت حدتها.. لم ينقطع الحديث بين والدي وبطل النجدة .. لقد شعرت ان بينهما تجاوباً بالسن وبالخلق والفهم اكثر بكثير من التجاوب المفقود بين والدي وبين رفيقه الشاب .

لقد بدأت الشمس تدنو من الغروب كما بدأنا ندنو من قريتي : (النيصية ، والجنامية) اللتين هما اولى القرى المجاورة لمدينة حائل من الناحية الشمالية ..

وفجأة استدنى بطل النجدة رسن ذلوله ونادى والدي وقال : (يا أبا فهد .. لقد جئت بصحبتك مودعاً ومحافظاً ولم آت حارساً لك لأسلمك للحكومة، وها أنذا استودعك الله ولئن كنت مسؤولا أمام قومي الذين سوف يبلغون الامارة حتماً فيما إذا لم تعد الى البلاد ، ولكنني افضل ان اتحمل ما يحل بي من عقاب الامارة على ان آتي بك حارساً لك ، حتى اسلمك للامارة كما يسلم المجرم .. فهذا شيء لا يتحمله وجداني ، ولا يرتاح له ضميري . فاذهب انت وشأنك ، فإن عدت للامارة فقد انقذتني من المسؤولية وان ذهبت الى محل آخر فسوف اكون مسؤولاً أمام الحكومة مسؤولية لا أعلم ما إذا الاقي بسببها من عقاب) ..

قال بطل النجدة هذه الكلمات ثم ختمها بكلمة الوداع التقليدية (مع السلامة) ومن ثم ركل راحلته وذهبت تخب به خبباً..وكان آخر لحظة رأيت بها وجه ذلك البطل الذي اعتبر نفسي مديناً له مدى الحياة هي تلك اللحظة وآخر كلمة سمعتها من فيه (معالسلامة).

الشمس الآن على وشك الغروب وقرية (الجثامية) اصبحت منا قريبة المنال .. دنا الشاب من والدي براحلته ثم قال له : ما رأيك الآن بعدما اصبحنا احراراً طلقاء ..

– سوف أعود الى البلاد طبعاً ..

– معناه اننا بعدما خرجنا هاربين نذهب ونعود ثانية ..

– أنا عندما أعود الى البلاد أشعر بالأسى .. ولكنني سوف أعود ولن افكر بالسفر مرة ثانية بوقت قريب بل سوف أظل مدة لا تقل عن السنة في البلاد حتى يكون صاحبنا شاهر في مأمن من العقاب ، وبعدما أتق من هذه الناحية عند ذلك سوف التمس سبيلاً آخر للخروج ..

لم يرد الشاب على والدي بل ظل صامتاً ومع غروب الشمس دخلنا قرية (الجثامية) ونزلنا ضيوفاً على ذلك الشاب الكريم الذي لم أنس لقبه كما نسيت اسمه كان لقبه فلان (الهاتف)وكأني أخاله شاباً لم يبلغ الثلاثين من عمره فيما أظن عريض المنكبين ، اسمر البشرة ، واسع الجبهة مستدير الوجه ، لا تفارق وجهه السمح الابتسامة ، عريض الهامة متوسط القامة .. لقد كانت بشاشة ذلك الشاب وطلاقته وانشراحه ودعابته خير مسل لنا بعد ذلك البؤس الذي لاقيناه يوم أمس .. لقد قدم لنا مضيفنا البشوش اكواباً من القهوة والشاي ، وظل يتجاذب الحديث مع والدي ولا استطيع ان اؤكد هل كانت هذه البشاشة وتلك الابتسامة صادرة من ذلك الشاب بسبب صداقة عريقة وثيقة العرى بينه وبين والدي .. أم ان ذلك الخلق الدمث مطبوع بجبلة ذلك الشاب يقوم بتأديته لكل ضيف يحل بداره بدون كلفة ؟..

لا أدري أيها الأصوب ولكن اعتقادي انه اذا لم يكن كلا الاثنين متوفراً بذلك الشاب أي الصداقة لوالدي والخلق الكريم الأصيل اذا لم يكن ذلك فإنني أرجح الأخير..

بعد العشاء الأخير قدم لنا مضيفنا الكريم ذلك الطبق الواسع المرتفع يعلوه كبش من الضان ، وتحته كومة نابية من الأرز ، وتحت الأرز لفيف من ثريد القمح استطعمنا من تلك المائدة ما لذ منها وطاب ، وبعدذلك احتسينا القهوة .. ثم امتطينا ركائبنا وشخصنا نحو أهلنا كنا نسير صامتين كليلنا المدلهم الصامت، لم يجر أي حديث بين الشاب ووالدي حتى دخلنا بلدة حائل في منتصف ذلك الليل الصيفي الهادىء .. ولم نر احداً ولم يرنا احد .. افترق والدي والشاب بعدما تبادلا تحية الوداع التقليدية (مع السلامة).. وربما كان ذلك الوداع آخر اجتماع بينهما حيث قصد كل منهما منزله.. طرق الباب والدي وبعد لحظةقليلة خرجت زوجته ففتحت الباب بعدما تأكد من صوت بعلها وادخلنا متاعنا كما ادخلت الراحلة في المخبأ الذي كانت به سابقاً .. وقد تركت والدي وزوجه في داخل المنزل وذهبت الى مضجعي ونمت نوماً لا اقول انه هادىء لذيذ بالمعنى الصحيح ، لأن شبح (المروقي) ذلك الفظ الغليظ القلب ظل يلاحقني في منامي ليال متتالية،ولكنه ظل يخف بالتدريج الى ان ولى نهائياً الى غير رجعة .. والغريب في الأمر ان عقلي الباطني ظل محتفظاً بذكريات المروقي وبشبحه المزعج فكلما أرى شخصاً يقارب منظره سحنة ذلك (الخرطبيل) الأجوف أنفر منه كارهاً له بلا شعور مني حتى يومنا هذا ..

ظل والدي في منزله ولم يخرج منه الا خلسة الى بعض اصدقائه ومن بين الذين ذهب اليهم وأسر لهم بما حصل له في رحلته القصيرة المدى (السرمدية) العبرة أحد اصدقائه القدامى المرحوم حمد الشويعر الذي أيده الرأي بذهابه الى الرياض والسلام على المرحوم الملك عبدالعزيز على ان يبقى هناك مدة تمكنه من التغطية لرحلتنا المشؤومة وتضفي اذيالها عليها .. نفذ والدي هذه الفكرة التي كان ينوي تطبيقها اعتقاداً منه ان سفره للرياض هو السبيل الوحيد الذي يهدىء به روع بطل النجدة شاهر ، الذي تعهد لرفاقه ان يسلمنا لأمير حائل ، وانه عندما يعلم أي شاهر ان الرجل الذى تعهد بتسليمه لأمير حائل ذهب للملك نفسه لا للأمير الذي لا يعدو ان يكون موظفاً من موظفي الدولة ، فإنه سوف يبيت هادىء البال ، مطمئناً على نفسه ، واثقاً بأن صاحبه بادله وفاء بوفاء ..

لم يكلف والدي السفر للرياض أي عناء فالذلول والعدة التي أعدهـا للذهاب الى العراق والنية التي ينوى بها العراق .. كل ذلك بدله رأساً على عقب وقصـد الرياض على الفور وذلك في أول الليلة الثانية من عودتنا سافر (خلاويا) أي بمفرده لأن الطريق من حائل الى الرياض وان كان اكثر من ضعفي المسافة بين حائـل والعراق ولكنـه طريق لا يجهله والدي كجهله لطريق العراق ، حائل..وصل والدي الرياض وظل عاماً كاملا بدون ان يحدث أي شيء يثير الانتباه حول تلك (الرحلة)..

ولئن سألتني بعد ذلك ماذا كانت النتيجة في تحقيق امنيتي أي هربي من معتقلي فجوابي انني حققت ما اصبو اليه بالانطلاق من ذلك السجن القاسي .. ولكن بعد عام كامل من تلك الرحلة ، وبعدما لاقيت في رحلتي الاخيرة من العنـاء والنصب ما الله اعلم به . إلا انه لم يكن بها ما يهدد حياتي كتلك الرحلة التعسة المشؤومة. أما كيف هربت ومتى تيسر لي ذلك وعلى يد من توفر لي السبيل؟.. فذلكبحث طويل يخرج بنا عن نطاق محور القصة الذي نحن بصدده ..

وأما والدي فقد عاد الى حائلمن الرياض ، بعدما قضى هناك عاماً كاملا ، كما ذكرت آنفاً وهو الآخر حقق امنيته بذهابه الى العراق .. ولكنه بعـد مغامرة ليست أقل هولاً ولا أهون خطراً من سابقتها هذا اذا قلنا ان الأولى وصل بها فعلا الى حافة القبر ولكنه في النهاية نجا من ذلكسالماً بنفسه وذلوله وامتعته على يد بطل النجدة .. أما الثانية فإنه يعتبر نفسه سعيداً عندما اتيحت له الفرصة التي نجا بـها بنفسه فقط وذلك على يد بطل النجدة الثاني ، المرحوم خلف بن لويش ، وهو من قبيلة شمر ايضاً ، غامر مغامرة باختطافه له من السلطـة بصورة تعبر عن النخوة العربية الأصيلةبكل معنى من معانيها التيتدعو الىالاكبار والاعجاب والاجلال بالوفاء العربي الأصيل أنى كانت دوافعه وحيثما كان فاعله وللقارىء ان يرى هـذه القصة الاخيرة في موضعها المناسب من هذا السفر .

وختاماً أرجو القاريء الكريم ان يسامحني فيما اذا وجد مني تفصيلا في كتابـة

هذه القصة بصورة تزيد عن كتابتي للقصص الاخرى .. والسبب في ذلك هو أن جميع القصص التي اوردتها في كتابي (من شيم العرب) كنت انقلها من الرواة الثقاة بدون أن اشاهد تفاصيلها وأرى بنفسي مجرى سيرها ومصدر بواعثها بصورة مباشرة محسوسة كرؤيتي لقصتنا هذه التي اوردتها لا كشاهد عيان رأى بعينيه الحادثة ، وشهد بنفسه كل ما دار من اسباب القصة ومسبباتها فحسب ،بل كأنسان قدر له ان يكون واحداً من بين اولئك النفر الذين ولا شك هم محور الحادثة واقطاب القصة حتى انصهروا في معمعة احداثها ورأوا اعنف مآسيها وشاهدوا اروع اهوالها وقديماً قيل : « ليس من رأى كمن سمع » ..

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

- ١٧ -

ما أن وحد الجزيرة العربية المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، حتى سعى الى توطيد العلاقات الودية والسياسية مع الدول العربية المجاورة وخاصة مع الحكومة العراقية التي عقد معها معاهدة ينص أحد بنودها على تسليم اللاجئين السياسيين ، ولما كانت قبيلة شمر غالباً ما تقطن المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية المتاخمة للحدود العراقية يضاف الى ذلك أن هذه القبيلة قسم منها يقطن العراق وقسم آخر يقطن شبه الجزيرة : فقد رأى الملك عبد العزيز ان خير طريق لوضع حد يفصل بين شمر الذين ينتمون الى بادية العراق وبين من ينتمي الى بادية الجزيرة العربية هو ان يعتبر كل من كان يقطن شمال الجزيرة من هذه القبيلة من قبل توحيده البلاد من نفس بادية الجزيرة .. ويتحتم على الحكومة العراقية أن تسلمه للحكومة السعودية فيما اذا هرب اليها وطالبت السعودية بتسليمه وكل من كان يقطن العراق من هذه القبيلة قبل أن توحد الجزيرة فانه يعتبر من بادية العراق وعلى السعودية أن تسلمه للعراق في حالة طلب حكومته له . ولم تكن هذه المعاهدة مقصورة على قبيلة شمر فقط ، بل كانت سارية المفعول وقتذاك ، على أي كان من بادية وحضر وانما جئت بذكر قبيلة شمر من اجل أن الشواهد في هذه القصة تدور حول رجلين من أقطاب هذه القبيلة وهما عقيل الياور شيخ مشايخ قبيلة شمر في العراق ويمثل القبيلة في مجلس النواب العراقي وعقاب بن عجل رئيس

اكبر فخذ من فخوذ عشيرة عبده المتفرعة من قبيلة شمر ويعتبر عقـاب من بادية شمر التابعة للجزيرة ، الا انـه رحل من الجزيرة العربيـة واستوطن العراق وذلـك من قبل توحيد الملك عبد العزيز للجزيرة بسنين قليلـة ، وربما كان نزوحه عن بلاده وسكناه في العراق بدافع سياسي محض ، ولمـا كان عقاب من ابرز رجال القبيلة شخصية ورأياً وشجاعة .. فقد رأى الملك عبد العزيز ان يطالب الحكومة العراقية بتسليمه كتنفيذ لبنود المعاهدات التي تقضي بذلـك ولم يكن للحكومة العراقية بد من الاذعان للأمر الواقع فراحت تسعى لتحقيق رغبة الملك التي تتفق نصا وروحاً مع تطبيق المعاهدة ، ولا بد والحالة هذه من أن يقف عقيل الياور موقف المعارض لتنفيذ هذه الغاية لا كممثل في البرلمـان العراقي ، وبقتضي الأمر أن يدافع عن حقوق رجال قبيلته فحسب ، بل كعربي استجار بجاهه ، ولاذ بجواره عربي لا حول له ولا طول ، وكان الامر بالنسبة للشيخ عقيل حرجا للغاية . فهو اضعف من أن يتحدى دولة ذات كيان ، كما يرى أنه امنع جانبا وأشم انفا من أن تخفر ذمته ، ويؤخذ منه مستجيره ، لقد حاول الياور أن يقنع الحكومة العراقية ، بأن هذه المعاهدة تتنافى والشيم العربية ،ولكن الجواب كان يأتي اليه من المسئولين في العراق وقتذاك بما يلي : « لست اعلم من الملك عبد العزيز بن سعود بتقاليد العرب وعاداتهم فلو كان الامر كما تظن لما اقدم الملك على توقيع هذه المعاهدة ولا اقدم ايضا على مطالبته لنـا بتسليم ابن عجل » ، فيعود الياور مؤكداً لهم بأن الملك عبد العزيز يعرف انه لا يعاب فيما اذا طالبكم بتسليم المستجير بل يعتبر تسليمكم لمستجيركم نصرا له بقدر ما يعلم انه عار عليكم حسب الخلق العربي ، كما انه يعلم ايضاً بأنه لا عيب عليه بتوقيع معاهدة كهذه ما دام تنفيذها من جانبكم من صالحه ولكنه عندما يأتي التنفيذ من جانبه فانه سوف يتقيد بالعادات العربية ويعتبر معاهدتكم حبراً على ورق .. ومن المستحيل كل الاستحالة على الملك ابن سعود ان يسلمكم أي مواطن من مدن أو بادية العـراق فيما اذا هرب منكم واستجار به ومن ثم طالبتم بتسليمه فانني اؤكد لكم سلفاً بأن ابن سعود لم ولن يسلمكم مستجيره مهما بلغ بجرمه السياسي من الفظاعة ، ومهما بذلتم من الجهـد بالمطالبـة ..

حاول الياور ان يقنع المسؤولين بوجهة نظره علهم يبدلون رأيهم ولكن محاولته لم تجد . ولما كان الياور من عباقرة الرجـــال كما أكد بعض ساسة العرب بقوله : « لم أؤمن الإيمان الكامل ان محمداً (ﷺ) أمي حتى عرفت ان مفكراً وسياسياً كعقيل الياور أمي » ، فإنه بدهائه وقوة حجته ووضوح بيانه استطاع ان يوقف المسؤولين في العراق وقتها عند حدهم بمطالبتهم بتسليم مستجيره وفي الوقت نفسه جعل الملك ابن سعود يترك مطالبته بتسليم ابن عجل الى الابد وذلك بفضل الحجة الدامغة التي قابل بها حكومة العراق بقوله : (اكتبوا للملك عبدالعزيز بن سعود رسالة عن لساني وقولوا له ان عقيل الياور يناشدك الله والشيم العربية أهل تسلم عقاب بن عجل لحكومة العراق فيما إذا كان من بادية العراق وطالبتك حكومته بتسليمه بعدما لاذ بحماك كما استجار بحماي ؟...

القى عقيل الياور هذه الكلمة في مجلس النواب العراقي ولم يكن بعدهـا بحاجة الى دفاع عن ابن قبيلته ومستجيره ، بل كانت هذه الكلمة وحدهـــا هي جيش الدفاع الامامي والخلفي والاحتياطي معاً ، ولم يطالب الملك عبدالعزيز حكومة العراق بعقاب ابن عجل قطعياً كما انه لم يجب حكومة العراق على تلك المعاني التي أشار اليها الياور جواباً سلبياً بل كان الجواب من الملك العربي ايجابياً بل عملياً ولكن بعد تلك المدة التي طالب فيها بتسليم ابن عجل بزمن طويل ، وبعد ان توفي عقيل الياور رحمه الله..وكان الجواب العملي لحكومة العراق من ملك عربي كعبد العزيز هو انه عندما استجار به رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة العراق سابقاً الذي اعلن الثورة أبان الحرب العالمية الثانية ضد الاستعمار البريطاني وذهبت حكومة العراق تطالب بتسليمه من عبدالعزيز.. وبما ان موحد عرب الجزيرة العربية ضليع بمعرفة أصول وفروع المعاهدات الدولية ، كما انه في الوقت ذاته دائرة معـــارف يرجع اليه بمعرفة فقه العادات والشيم العربية فقد كان جوابه العملي ذا جانبين وكلا الجانبين مقنع فمن الناحية السياسية فقد كان جوابه لحكومة العراق ما معناه: (ان المعاهدات التي بيني وبين الحكومة العراقية تقضي بأن يسلم المجرم السياسي فيما إذا كان هذا السياسي مجرماً بحق الوطن العراقي وحكومة العراق أما انـــه مواطن

كرشيد الذي كان رئيس حكومة العراق الشرعي يقوم بعمـــل ضد حكومة اجنبية كحكومة الانجليز فإنه قد يكون مجرماً بحق الحكومة المستعمرة البريطانية ولكنه ليس مجرماً بحق الحكومة العراقية الوطنية ..

هكذا كان جواب الملك عبدالعزيز من ناحية المعاهدات السياسية المتبادلة أمـا من ناحية العرف والعادات العربية فقد كان جواب الملك العربي صريحـاً وجدياً وصارماً كصراحة الخلق العربي الأصيل حيث قال ما معناه : (أنا رجـل عربي ومؤمن بالتقاليد والشيم العربية ومطبق لها قبل ان اكون ملكاً عربياً يقتضيني الأمر ان اكون رمزاً لخلق وشيم العرب ، ولذلك لكم عليّ ان تطالبوني بتسليم من تشاؤون من ابنائي وعلي ان ألبي طلبكم فوراً أما انني اسلم مستجيري فهذا شيء من المستحيل تنفيذه ما دام يوجد في دمي عرق ينبض بالحياة) .

وهكذا تحققت نبوءة الشيخ عقيل الياور وهكذا ايضاً كان الملك عبدالعزيز خصماً وحكماً في آن واحد ..

رويت هذه القصة ، من الشيخ احمد بن عجيل الياور .

استجار بالأشارة فأجير

- ١٨ -

لا استطيع أن احدد تاريخ قصتنا هذه بصورة قاطعة لبعد عهدها وانما يكون تحديدنا لها مبنيا على معرفة التاريخ الذي عاش فيه أبطالها ومن هذه الناحية نستطيع القول بان تاريخ وقوع هذه القصة يكون بين عام ١٢٠٠ - ١٢١٠ هـ ..

وفي هذه القصة ما يدلنا على أمرين : الأول ما يعبر لنا بوضوح بان الاستجارة عند العرب ليست محدودة على ان يأتي عربي من قبيلة ما الى عربي آخر من غير قبيلة الاول فيقول :

- انني مستجير بك ..

فمثل هذه الاستجارة تكون الزامية ولا مفر لأي عربي من أن يجير مستجيره مهما كلف الثمن فمجرد مجيء عربي من قبيلة قحطان ونزوله بجوار بيت أي واحد من قبيلة عتيبة ، يكون بعمليته هذه استجارة من الاول بجوار الثاني ، وانواع الاستجارة والدخيل [1] كثيرة وفي هذه القصة ما يدلنا دلالة ملحوظة بأن الاستجارة

---

١ - الدخيل من نوع الاستجارة ومعناه انه يأتي شخص من قبيلتك نفسها فيدخل بيتك خوفا من شخص يطالبه بثأر فتكون ملزما بحمايته .. هذا معنى الدخيل .

قد تكون مجرد اشارة فقط ..

اما الامر الثاني فهو ما يدلنا على أن القوة في كل زمان ومكان هي صاحبة الحق والقول الفاصل لا في عصرنا هذا فحسب كما قال أحد شعرائنا المعاصرين :

الحق للاقوى يصرفه كما

شاءت له الأهداف والاقدار

بل حتى في العصور القديمة وفي مجتمع البادية وحياة الصحراء التي غالبا ما تطغى فيها الاشياء المعنوية والروحية على الامور المادية .

عندما قتل فهد[1] الجربا ابن عمه ظاهراً وكان ظاهر فتى سخياً محبوباً مما جعل قريحة الشاعر علي[2] بن سريحان تنفجر فقال فيه أكثر من قصيدة كلها رثاء وتأبين لظاهر الأمر الذي أثار حفيظة القاتل وجعله يتربص به الدوائر ، على الرغم من ان الشاعر لم يمس القاتل الذي هو أمير القبيلة بأي معنى من المعاني لا بالتصريح ولا بالتلميح ولكن القاتل يعتبر ان مجرد مدح الشاعر واطرائه لضحيته ، وثنائه عليه، هذا وحده كاف ان يكون هجاء له بالذات ولم يتظاهر فهد بأية علامة تدل على انه غاضب على الشاعر وانما كظم غيظه وأبدى عدم اكتراث لكي يستدرجه الى ان تتاح الفرصة التي يقع بها بين يديه لينتقم منه شر انتقام .

وفي أحد الاعياد السنوية جاء الشاعر وأوفد الى رئيس قبيلته وهو آمن غير خائف لا يعرف عن نفسه شيئاً يعاقب من أجله،فدخل نادى الرئيس الحاشد بمئات

---

١ - فهد من اسرة الجربان رؤساء قبيلة شمر الفرات . ومن هذه الاسرة يكون تمثيل القبيلة في كل من البرلمانيين السوري والعراقي في الحين الذي يكون فيه انتخاب في القطرين بحكم ان القبيلة لها فروع في سورية والعراق .

٢ - علي شاعر من شعراء قبيلة شمر الفرات .

الشخصيات البارزة من فرسان قومه ، فجلس بالمكان اللائق بمنزله ، وما انابصره أميره الحاقد عليه حتى صاح به قائلاً :

– أأنت فلان – متجاهلاً إياه بالرغم من انه يعرفه جيداً ..

وقد انتبه الشاعر ان تجاهل أميره وسؤاله هذا السؤال الحاد لا يدل على شيء من الطمأنينة ، ولكنه وجد نفسه وقع في الفخ ، وليس لديه إلا ان يفعل ما استطاع ليسترحمه بالكلام الوديع اللين ، وهو في قرارة نفسه يدرك كشاعر جم الذكاء والاحساس بأن من يقدم على قتل نفس بريئة من اقاربه الاقربين، لا يمكن ان يكون في قلبه ، مكان للرحمة أو موضع للعاطفة وإنما أراد ان يجرب طريقة الاسترحام فإن أفادت فيها ، وإلا فما عليه إلا ان يضع في وجه النمر المفترس نمراً من نوعه ، بدون ان يحتاج الى مزيد من الاستجداء والاسترحام مع انسان لا يفيد معه شيء من ذلك ، وعلى الفور أجاب الأمير على استفهامه عن اسمه اجابة تعبر عن اللطف والرقة والمكر في آن واحد فقال :

– نعم حفظك الله ورعاك هكذا أسماني والدي علي، وسريحان نسبة لأسرتي، فأجابه الأمير بوجه عابس ونبرات صارمة بقوله :

لا حفظني الله ولا رعاني ان لم اجعلك عبرة وتأديباً لكل شاعر مرتزق من أمثالك ..

وقد أدرك الشاعر الآن الشيء الذي أغضب أميره وإنما أراد أن يتجاهل ذلك بل ويتجاهل الأمير نفسه باسلوب فيه شيء من السخرية ، فقال :

– أولاً أنا اقول الشعر ولكنني لست مرتزقاً به ، ولو كنت كذلك لقلت بك قصيدة لا لكونك أميري ولكن لكونك سخياً متلافاً ومن أمنية الشاعر المرتزق ان يفد بقصيدته الى كريم (شرواك)[1] ثم استمر بحديثه وقال :

---

١ – شرواك يعني من امثالك .

ثانياً ـ أنا لا اعرف انني اقترفت أي ذنب يوجب غضب أميرى علي لا من بعيد ولا من قريب ، فقال الأمير :

ـ اعتقد ان الفقراء والمساكين بعد ان مات صاحبك ظاهر ماتوا كلهم جوعاً ولم يجدوا كريماً يعطف عليهم بعد موته ، وانعدمت قبيلة شمر من أي سخي يرحم الفقراء ويطعم الأرامل والمساكين بعد موت ظاهر الذي تعتقد ان الكرم والسخاء ماتا بموته .

ومن هنا ازداد الشاعر يقيناً بما يقصد أميره ، وادرك ببداهته البيت الذي رثى به صاحبه ظاهراً ولكنه مع هذا أراد ان يتجاهل الشيخ فقال وهو يخفي من المكر والدهاء اكثر مما يتظاهر به من السذاجة :

ـ ماذا يقصد الشيخ ، أنا حتى الآن لم أعرف شيئاً مما يشير اليه شيخنا ؟..

فرد عليه الشيخ وهو يكاد ان ينفجر كالبركان ويخرج من وقـــاره لو لم يكن المجلس حاشداً باعيان قبيلته فقال :

ـ ألست القائل :

أنا غداً ظاهر وسيـع الفجوجي
اللي ببيته يشبعون المساكين

وفي الحين الذي كان الشيخ يردد هذا البيت بغضب شديد كان الشاعر علي يمد بصره خلسة يتفرس وجوه الفرسان الذين يضمهم ذلك النادي ، فاستقر بصره على شاب واضع على عضده الأيمن (بجولاً) [1] يسمى (نجران[2] بن هشمي).

---

١ ـ البجول هو سوار من فضة لا يضعه في عضده الا الفارس الذي ابدى شجاعة خارقة في احدى المعارك وطار صيته كفارس بين صفوف اعدائه وقبيلته .

٢ ـ نجران رئيس فخذ كثير العدد من قبيلة شمر الفرات .

وعندما انتهى الشيخ من البيت السالف الذكر وبعدما أرغى وآزبد بكلام لاذع بحق الشاعر ، بعد ذلك اتجه الشاعر نحو الشيخ بكل رزانة وهدوء وقال :

– آه لقد سمعت هذا البيت ضمن القصيدة الطويلة ولكنني لست بقائل للقصيدة ..

– لعلك تريد ان تقول قالها الشاعر فلان (يشير الشيخ الى شاعر توفي قريباً) لتخرج نفسك من المسؤولية ..

– لا بل الذي قالها لا زال حياً ..
– أتريد ان تضعها على احد شعراء قبيلة عنزة لتنجو من عقابي ؟
– لا بل الذي قالها من قبيلة شمر ..
– آه من شمر نجد ..
– بل من شمر الجزيرة .. [1]
– دلني عليه ان كنت صادقاً وأين يكون ؟..
– هو في مجلسك هذا ..
– وفي مجلسي ايضاً ..
– أجل هو نجران بن هشمي الجالس عن يمينك ..
– لم أسمع قبل هذه الساعة ان نجران قال بيتاً من الشعر ..
– اسأله ولا اظن ان مثل نجران ينكر شيئاً قاله ..

أمامك اسد ايها الأسد

كان الشاعر يقول هذه الكلمات وهو يحدق بالفارس نجران ويمسح وجهه

---

١ ــ يقال لشمر الفرات شمر الجزيرة تميزا بينهم وبين شمر نجد .

بكفه اشارة من الشاعر تفيد بمعناها الرمزي وتعبر بمفهومها العملي أن الشاعر يقول: انني مستجير بك يا نجران من سطوة هذا الجبار فاجرني ..

اصبح الشيخ محرجاً بعدما الزمه الشاعر بأن يسأل نجران كما اصبح نجران مضطراً ان يعترف لينقذ الشاعر ، وأن يكن هذا الاضطرار ليس الزامياً فيما لو أراد ان يتهرب من واجبه ويدعي انه لم يفهم ماذا يريد الشاعر من هذه العمليــة وتلك الاشارة ، ولم يسع الشيخ الا ان انحرف نحو نجران قائلا :

– لا اعتقد بأنك الناظم لتلك القصيدة التي فيها من الاطراء لظاهر ما يوحي ان قائلها تعمد هجائي وذمي على حساب مدحه لظاهر ..

– ولماذا لا تعتقد ذلك بـل عليك ان تعلم انني انا صاحب القصيدة لأن ظاهراً فتى كريم ويستحق مني الثناء ولا اعتقد ان ذلك فيه ما يسوؤك لأن المدح في ظاهر يكون مدحاً لك انت بالذات لأنه ابن عمك وقد فارق الدنيا والمدح الذي يرثى به الميت ، ليس الا تراثا يعتز به الاحياء من اقاربه ..

– الأبيات التي سمعتها لا يقولها الا شاعر مطبوع وانت لست بشاعر ولم نسمع عنك انك قلت بيتاً من الشعر ..

– أنا لست شاعرا يمتهن حرفة الشعر ويرتزق من ورائها ولكنني موهوب القريحة فإذا جاءت مناسبة تشحــذ موهبتي قلت الشعر كهذه القصيدة التي قلتها بدافع من شعوري نحو رجل كنت أكن له كل محبة واحترام بحياته وعندما مات رأيت من الوفاء ان أعبر عما في نفسي نحوه ..

– أليس لديك من التروي والحكمة ما يجعلك تمتدح ظاهراً بدون ان تتحدى وتغضب الآخرين ؟.

– عندما امتدحته كنت لا اقصد الا ارضاء ضميري فقط ..

– اذن نظرت الى القضية من حيث ارضاء ضميرك بدون ان تنظر لها من حيث شعور الاخرين وغضبهم ..

– انني حريص على ان لا اغضب احداً أما اذا شاء أحـــد ان يتحداني بدون سبب فإنني لا أرضى لنفسي ان اذل بل سوف ادافع عن كرامتي الى آخر نقطة من دمي ..

وعندما رأى وجهاء القبيلة الذين جاءوا ليباركوا للشيخ بالعيد ان الجـــدال سوف يتطور الى اكثر من ذلك عندئذ تدخلوا في الحديث وقطعوا بقية الجدال ، فذهب نجران يتبعه نفر من خيرة ابناء عمه الفرسان ، ومـا ان ابتعدوا عن مجلس شيخ القبيلة حتى وجهوا لومهم الى نجران قائلين له :

– لقد أردت ان توقعنا بورطة بتحديك لشيخنا ..

فأجاب بقوله :

– أنتم تعلمون بأنني لست شاعراً ولا اعرف أن انظم بيتاً من الشعر ولكن الشاعر ابن سريحان رمى نفسه علي واستجار بي عـن طريق الاشارة ولا يسعني ان اتخلى عنه في موقفه الحرج . ولذلك رأيت من واجبي ان اعتبر اشارته استجارة بي، لكي انقذه من عقاب الشيخ واضعاً نصب عيني شتى الاحتمالات التي يمكن ان تكون ، ومعتمدا على ثقتي بنفسي وبوجودكم ومؤمنا بأن الشيـخ يستطيـع ان يعاقب الشاعر شر عقاب ، ولكنه لا يستطيـع ان يقـدم على عقابي إلا اذا كان الاسد يطمع بافتراس اسد من نوعه ..

واليك ابياتاً من القصيدة التي اغضبت الشيــخ :

بالله عليك بجاهتك يا خلوج
لا تفطنين قـلوب ناسٍ مرنين

انتِ غدا لِك حاشي ِتقلْ بوجي
اللي الى َطبْ المبيعة ِبعشـرين

وانا غدا ظاهر وسيــع الفجوجِ
اللي ببيته يشـبعون المساكين

خريصات فوق الخيل مثل البروج
على الكمين وغالي العمر مرخين

الشرح : كثيراً ما يبتدىء شعراء الزجل قصائـدهم بالتوجع ، ولا سيما اذا كانت نفسية الشاعر متألمة بدوافع الحزن .. وهكذا نجد هـذا الشاعر يسير على نهج من قبله لا في الشعر الشعبي بل حتى في الشعر العربي ، وما قصائد الخنساء في رثائها لأخيها صخر الا من هذا النوع ..

وشاعرنا هذا يعبر لنا عن شعوره في البيت الأول بمعنى انه كان كاظماً لحزنه وآلامه بعدما قتل صديقه ظاهر ، ولكنه رأى ناقة فارقها ابنها فظلت تحـن على فراقه وانه في هذه الحال تكدر وانزعج من منظر هذه الناقة التي اثارت شجونـه فراح ينشد قصيدته هذه مخاطباً بلسان حاله تلك الناقة (الخلوج) أي التي فقدت ابنها قائلًا لها :

ناشدتك الله ان تتركي هذا الحنين لأن حنينك هذا يذكرني حزناً عميقاً كنت احاول أن اتناساه ، ثم يعود في البيت الثاني ويقول : ان ابنك هذا الذي تقيمين

الدنيا عليه بجنينك حقير لا قيمة له فلو ادخل السوق للبيع لم تزد قيمته عن عشرين درهما، وفي البيت الثالث يقول : انني احق منك بالحنين والعويل لأنني فقدت ظاهراً، ذلك الفتى السخي الذي كان مأوى الايتام و كهف الارامل ومطعم المساكين .. أما انت ايتها الناقة فأنك لم تفقدي الا حواراً حقيراً اشبه ما يكون بـ (البوجي)[1] وفي البيت الرابع امتدح الشاعر عشيرة ظاهر الاقربين وهم الخرصة واثنى عليهم جميعاً بشجاعتهم .

---

١ ـــ البوجي : الكلب الأفرنجي الصغير الحجم .



الفصل الثاني

حماية الجار واكرامه

« من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »

« حديث شريف »

لا يعاقب الجار حتى ولو كان مخطئاً

-١٩-

هناك قاعدة متفق عليها عند كافة رجال القبائل لا يعاب من يطبقها ولا يلام من يعمل بها وأن يكن فيها ما يخالف الأسس الأصيلة من تقاليد العرب كحماية الجار والمستجير ، ولكنها نادرة الوقوع ، وإذا وقعت فلا بد من تطبيقها اللهم إلا اذا وقعت مع رجل شجاع منيع الجانب شديد المراس كالحثشي الذي تمرد على رئيس قبيلته بعدم اذعانه لتنفيذها .

وشرح هذه القاعدة يكون على الوجه الآتي:

عندما يقوم رجل من احدى القبائل بعمل سيء مع رجال القبيلة الثانية ، عند ذلك يأتي رئيس هذه القبيلة فيبلغ رجال قبيلته بصورة تعميمية قائلًا : ان فلاناً (مرفوعة جنايته) ، ومعنى ذلك ان هذا الرجل لا يستطيع أحد من رجال هذه القبيلة أن يجيره اذا استجار به وان أجاره فعلى رئيس القبيلة ان يرغم المجير ويقتل المستجير كما انه لا يعطي عهداً فإن احد من رجال القبيلة أعطى (لمرفوع الجناية) عهداً فعلى رئيس القبيلة أن يضرب بالعهد عرض الحائط ويعاقب المعاهد بما يشاء من العقاب ..

وكان رجل من قبيلة شمر يدعى (عايد الصلعا [1]) هذا الرجل رفعت جنايته عند قبيلة عنزة بأمر من رئيس القبيلة ابن هذال ..

وما على رجال قبيلته إلا ان ينفذوا أمر رئيسهم تطبيقاً للعرف المألوف..

وشاء القدر ان يأتي عايد الصلعا بمحض ارادته وينزل جاراً للخمشي[2] بدون ان يعرف طبعاً ان (جنايته مرفوعة) فيقع الخمشي بمأزق حرج .. لا يعلم ماذا يلاقيه من رئيس قبيلته ..

فرأى أن خير وسيلة يتخذها هي ان يخبر رئيس القبيلة بقدوم جاره وضيفه لعل الرئيس يسمح له ببقائه ، ويتنازل له عن تنفيذ القاعدة التي أمر رجال القبيلة بتطبيقها ..

فذهب الى الرئيس وهو مصمم على ما سوف يتخذه من قرار نهائي فيما اذا رفض الرئيس طلبه ، وأصر على مطالبته بتسليم المستجير ..

قال الخمشي :

– ان الرجل مرفوع الجناية أعني به عايد الصلعا نزل بجواري ضيفاً ، وما كان بودي ان يحرج موقفي مع رئيسي .. واعتقد جازماً ان الرجل لم يعلم شيئاً عن الاجراءات المتخذة بصدده ، ولو علم لما اقدم وغامر بنفسه .

ولذلك أرجو ان يعفو شيخنا عنه بعدما وقع تحت رحمتنا ..

فأجابه الرئيس بقوله :

---

١ – الصلعا من عشيرة الاسلم من قبيلة شمر نجد .

٢ – الخمشي من بطن يدعى بالسلقا من قبيلة عنزة .. وقد رويت القصة عن المرحوم دهيسان الخمشي المتوفي عام ١٣٦٣ هـ في مدينة الرياض .. ومن يعرف دهيسان يعرف عنه صدق الحديث وحفظه للاحداث والقصص الشيقة ..

- كان بالإمكان ان نعفو عنه .. فالعفو من شيم الكرام .. وتعرف كما يعرف غيرك من رجال العرب كم عفونا وتسامحنا عمن هم اكبر جريمة من هذا .. وكنت أود لو انه جاء اليك قبل ان نتخذ بشأنه قراراً تعميمياً ..أما بعدما اتخذنا نحوه القرار الذي بلغت فيه القبيلة بجذافيره ، فلا يسعني والحالة هذه الا تطبيق القاعدة المألوفة .. وإلا فلا يكون بعد ذلك لهذه القاعدة أي معنى من المعاني وسوف يبطل مفعولها .

- ترى لو استضافك هذا الرجل ولاذ بحماك كما استضافني ولاذ بحماي . ايمكن ان تنفذ هذه القاعدة به .. بل أيمكن ان تأخذه من بين يديك أية قوة في الارض وانت على قيد الحياة ؟..

- حديثك هذا سابق لأوانه ..

- كما انني اعتقد جازماً بأن عايد الصلعا لو استجار بك فإنك سوف تجيره وتحميه وتضرب بالقاعدة عرض الحائط ، فإنني سوف احميه ما استطعت ولن يستطيع أحد ان يناله بسوء ما دمت سليماً شديد القوى ..

لم يرق هذا الكلام للشيخ ابن هذال [1] ..

ذهب الحشي من عند ابن هذال وهو مصمم على ان لا يمس مستجيره بأدنى ضرر اللهم الا الضرر الذي ينال المجير والمستجير على حد سواء .. كما اشار الى هذا المعنى بصورة واضحة بأحد الابيات التي انشدها البطل من قصيدته الآتية :

قِصيرَنا مَا حِشْمِتَهَ عندنا يَومْ
يَزيد مع زَايد سِنينْه وقارَهْ

---

١ - فاتني ان اسأل الراوي عن اسم ابن هذال الذي وقعت معه الحادثة كما فاتني ان احتفظ باسم بطل القصة وانما اكتفيت بأخذ القصيدة التي اوافي بها القاريء وهي خير شاهد في الموضوع .

الى قزتْ عينه قزينَـــا عن النومْ
والشيخ ما يكتبْ عليه الخَسَّارهْ

دونه نوِّي كل رمحٍ ومسمومْ
نرخص عمّار دون كسرْ اعتباره

عفو الظَّـهر مضمون إلا عن القومْ
بيـوم يخلط اجارنا مع اجماره

كيف الطيورُ اللّيْ تلابَدْ عن الحومْ
الناقله ماكـرِ دي الوكارهْ

شرهو على حقاتنـــا ماكر اليوم
شرهو على فـتر صعيب دمــاره

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول ان احترامنـــا لجارنا ليست مدته محصورة على يوم واحد فقط .. بل كلما زادت ايامه ازداد احترامنـا له وتضاعف وقاره عندنا ..

وفي صدر البيت الثاني يقول : اذا بلغ بجارنا همٌّ أسهره فإننـــا نسهر لسهره ولا يطيب لنا النوم ..

وفي عجز البيت يقول ان الضريبة والقيود التي يفرضها رئيسنا لا يمكن ان تفرض على جارنا .

وفي صدر البيت الثالث يقول : سوف نسقي أسنة رماحنا وأنصلة سيوفنا دماء من يريد ان يعتدي على حرمة جارنا وكرامته ..

وفي عجز البيت يقول: سوف نجعل حياتنا فداء لجارنا ونضحي بأرواحنا عندما نرى ان احداً يريد ان يهينه أو ينقص من كرامته أو ينال من احترامه ..

وفي البيت الرابع يقول أن حياة جارنا مضمونة اللهم ألا أن نصاب نحن وهو بسهام الاعداء في معركة نشترك فيها سوياً ..

وفي البيت الرابع والخامس يهجو الشاعر الوشاة الذين أثروا على ابن هذال بشأن طلبه تسليم جاره ..

ويقول : لقد اراد هؤلاء ان يخفروا ذمتي ويسودوا وجهي .. ولكن ذلك مستحيل تحقيقه [1] ..

---

١ – وبعد : فاننا عندما نذكر نفوذ الشيخ ابن هذال على قبيلته ونرجع البصر كرة اخرى لنقارن بين ابن هذال وبين الخمشي نجد ان الخمشي أضعف من ان يتحدى ابن هذال ، ولكن عندما نرجع الى تاريخ العرب بل ونرجع الى ما يحتويه هذا السفر بالذات نجد ان قضية المستجير عند العربي لا تقاس بالمقارنة من حيث القوة المادية ، فنجد مثلا المرحوم الملك عبـــد العزيز آل سعود تحدى بريطانيا العظمى ومن دار بفلكها بشأن حمايته لمستجيره رشيد عالي الكيلاني.. كما نجد محمد بن سمير تحدى الامبراطورية العثمانية بعنفوان قوتها بشأن مستجيره شلاش المر ، ونجد سلطان الاطرش تحدى دولة فرنسا التي كانت وقتذاك تعتبر الدولة الثانية بقوتها بين دول العالم بأسره بشأن مستجيره ادهم خنجر.. ونجد بندر التمياط تحدى أميره محمد العبدالله الرشيد وفضل ان يعيش مشرداً عن بلاده من أجل جاره النخيش الحربي .. والقصص بهذا الشأن اكثر من ان تحصى. فقضية حماية الجار لا تقاس عند العربي بقوة السلطة..وانما تقاس بمقدار ما يتمتع به المجير من غيرة وانفة واباء وشجاعة وشمم وشموخ انف ..

هذه المزايا هي المقياس .. وكل مقياس يتلاشى امام هذه المعاني الحية ..

لافرق لحرمة الجار في العرف العربي

بين الاساءة الكبيرة اليه او الصغيرة

- ٢٠ -

لم يكن لدى عرب البادية قانون مدون يعملون بموجبه ، كما هي الحال في عالم الحضارة والمدن ، وانما هنـــاك عادات وتقاليد ورثها الخلف عن السلف وتناقلها الاحفاد عن الاجداد ، حتى اصبحت هذه العادات وتلك التقاليـــد هي الحكم المعمول به في تطبيق حياتهم الاجتماعية .. ومن بديهيات الأمور انه لولا هـــذه التقاليد الموروثة التي يطبقها بعضهم على بعض بشدة لا هوادة فيها ولا رحمة ، لولا ذلك لا ختلت الموازين ، فالضيف مثلا الذي يأتي الى صحراء ليس فيها من يبيـع الطعام الناضج إذا لم يجد عند ساكني هذه الفلاة من يضيفه فمعناه انه سوف يبيت على الطوى ، والمسافرون الذين يصاب احدهم بمرض او بأية آفة كانت اذا لم يتفانوا بنجدة رفيقهم مهما بلغ بهم الامر من المشقة فمعناه ايضاً أن هـــذا الرفيق سوف يتركونه في الفلاة لتفتك به السباع قبل ان يفتك به المرض او الآفة التي المت به .. والمستجير الضعيف الذي لا حول له ولا طول اذا لم يحمه مجيره من سطوة المعتدين فإنه سوف يذهب دمه أو ماله هدراً عند احد رجال العشيرة الطائشين .. ولكن

هذه الانظمة التي امست قواعد اجتماعية يسيرون بهديها ويتخذونها (دستوراً) عادلاً يحمي ضعيفهم من سطوة قويهم وينصف مظلومهم من ظالمه هي التي كانت خير حكم عادل يرجعون اليه في جميــع تصرفاتهم وخير رادع لقويهم عن افتراس ضعيفهم .. وقد يبلغ الأمر في تطبيق عاداتهم هذه شيئاً من الاسراف الذي يتجاوز الحد ... ولكن هذا الاسراف على ما فيه من الشطط يرون أن القيام بـه ضرورة حتمية لامفر من القيام بتطبيقها ..

فخذ مثلاً حادثة جرت عند قبيلة حرب بطلها شخصان احدهما يدعى منــاور القرد بفتح القاف والثاني محمد بن طريف وكلاهما من ولد علي والحادثـــة وقعت حوالي عام ١٣١٣ هـ .

كان لمناور القرد جار من قبيلة مطير ومن فخذ الصعران .. وكان هذا الجار قادماً بماء جاء به لأهله من قليب بعيـــد عن منازل الحي .. فالتقى بمحمد بن طريف فاشتد بين الجار وابن طريف الشقاق الى ان اعتدى الأخير على الجار وطعن قربته بمديته .. وكانت التقاليد تقضي بحالة كهذه أن يذهب المعتدى على الجار ويستجير في حمى احدى الشخصيات من رجال العرب سواء من قبيلته أو من قبيلة ثانية .. ولكن المعتدي لم يفعل أو ان المجير لم يدع له فرصة واعتقد ان الاولى هي الارجح اذ أنه لو أراد ابن طريف ان يستجير بإحدى شخصيات قبيلته لأمكنه ذلك ولكنه لم يحاول شيئاً من ذلك فيما يبدو من سياق القصة الامر الذي جعل مناور القرد ينتقم منه بسبب اهانته لجاره انتقاماً اودى بحياته .. وهكذا يبلغ عقاب المستجير بمن يعتدي على مجيره درجة من الاسراف : لأننا اذا قسنا ما فعله ابن طريف مع جار مناور نجد ان القضية لا تستحق قتل النفس بل من الجريمة ان تزهق نفس بريئة بسبب عمل كهذا العمل البسيط ولكنها التقاليـــد والعادات التي اصبحت

قوانين لا تتسامح ولا ترحم تلك القوانين التي يعتقد المؤمنون بها أن تقاعس مناور القرد عن عقابه لابن طريف جريمة يعيبه بها مجتمعه ويمقته بل ويحتقره ..

المقصود هو ان حرمة الجار عند العرب مبدأ لا يتجزأ .. فالاساءة اليه سواء كانت كبيرة او صغيرة عقوبتها واحدة[1] .

---

١ ـــ رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ نافع بن فضلية وذلك في عام ١٣٧٣ هـ الموافق ١٩٥٣ في مدينة الطائف .

ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً

- ٢١ -

يسهل على العربي أن يهجر أرضه ويستبدلها بأرض غيرها، وان يهجر أهله وذويه وعشيرته الأقربين ويذهب شريداً طريداً الى أية ارض كانت والى أي قوم يكونون حتى ولو كانوا اعداءه الألداء، كل ذلك سهل ويسير على العربي في سبيل حمايته لجاره، بل يسهل عليه ان يعرض نفسه لغضب وعقاب السلطة الحاكمة مهما كان غضبها ومهما يكون عقابها كل ذلك يهون على العربي الشهم الأبي الشجاع ان يروض نفسه على احتمال المشاق وان يضحي براحته وماله بل وحتى بحياته عندما يستلزم الأمر الى ذلك.. والشواهد في هذا الكتاب كثيرة والذي لم أوفق في العثور عليه اكثر بكثير مما وفقت الى جمعه، وشاهدنا هنا عربي من قبيلة مطير ومن افذاذها البارزين وهو (لافي بن معلث[1]) الشهير بين رجال قبيلته، بل وعند القبائل الأخرى في الجزيرة .. هذا الرجل الأبي عرض نفسه لعقاب حكومته الصارم فيما

---

١ – لافي من قبيلة مطير. ومن بطن يدعى بني عبدالله وهو شجاع ذائع الصيت ولا يزال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الأسطر . وقد رأيته في مدينة جدة سنة ١٣٧٧ – ١٩٥٨ م ، وكان آنذاك فيما يبدو لي في بداية العقد السادس اسمر البشرة مديد القامة خفيف الشعر وجهه كالسيف الصارم .

او ظفرت به السلطات لما عرض نفسه ، الى ان يترك أهله وقبيلته وبلاده ويذهب (جلوياً) شريداً طريداً مدة طويلة ، كل ذلك في سبيل جاره ومن أجل جاره ..

كان ذلك في عام ١٣٥٤ هـ الموافق ١٩٣٣ م عندما جاء رجال أمير المنطقة الشرقية سعود بن جلوى ضيوفاً للافي بن معلث وفي الوقت ذاته قاصدين القبض على جاره المدعو عبدالمحسن بن ملعب[١] .

اتخذ ابن معلث نحو رجال الامير ابن جلوى موقفين مزدوجين: احدهما موقف اكرام واجلال لرجال الحكومة كضيوف ، والثاني موقف تهديد وانذار ، فأما الاول فإنه حالما نزل بساحته جنود الحاكم ذهب لافي واستدنا أسمن الاكباش وذبحه كضيافة لهم ، ووضع نفسه تحت امرتهم بمنزلة المضيف الكريم على النهج لذي أشار الى معناه الشاعر العربي :

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

هكذا كان موقفه من ضيوفه ، وفي الوقت نفسه كان الرجل حذراً ، فاتخذ جميع الاحتياطات اللازمة فيما اذا أراد رجال الامير ان يبدلوا موقفهم من ضيوف محترمين الى جنود خافرين لذمته ، معتدين على حرمة جواره ، عندئذ سوف لا يحدثهم بلغة المضيف وانما يحدثهم باللغة نفسها التي يحدثونه بها لغة القوة والنار، وان كانت قوته كفرد أقل وأضعف وأعجز من أن يقاوم رجال الحكومة الذين يستمدون سلطتهم لا من انفسهم ، وانما من حكومتهم ، ولكن الذي يبدو

---

١ – عبدالمحسن من قبيلة حرب .

ان القضية في حالة كهذه تعود الى قوة الإيمان بالمثل المعنوية التي يعتقدها العربي ، ويؤمن بقداستها اكثر من أية قوة اخرى ، وهذا هو الذي حصل فعـلًا بالنسبة لرجال الامير الذين كانوا في أول النهار ضيوفاً محترمين وفي آخر النهار انقلبوا الى نفر معتدين على حرمة مضيفهم متعمدين خفر ذمتـه ، أو على الاصح انقلبوا الى طبيعتهم كجنود مأمورين يتحتم عليهم بطبيعة عملهم ان ينفذوا ما يؤمرون به ، بدون أن يسألوا عن كنه الأمر ، أهو صواب أم شطط ؟..

وبقدر ما كان هؤلاء الجنود مخلصين بتنفيذ ما أمروا به ومستعدين لتنفيذ كل الأوامر حتى ولو كانت على اقرب المقربين اليهم ، بقدر ما نجد لافي مستعداً هو الآخر أن ينفذ مـا يمليه عليه ضميره العربي وما يؤمن به من عادات واخلاق عربيـة لا يتردد عن تطبيقها عملياً مهما كلفه هذا التطبيق من ثمن باهظ ..

وعندما انتهى الجنود من ضيافتهم اعلنوا غايتهم التي جاءوا من اجلها بصورة صريحة ، تلك الرغبة التي تدور حول اعتقال جاره ، وعندئذ لا بـد للاهداف المتباينة ان تصطدم بعضها ببعض ، ولا بد للجنود ان ينفذوا اوامرهم بدون ان تأخذهم رحمة أو رأفة ، وبدون ان ينظروا لحرمة مضيفهم الذي لا زال قراه في جوفهم لم يهضم بعد ، ولا بد للافي ان يكافح دون ما يؤمن بـه من شيم العرب ويناضل دون حرمة جاره الى آخر نقطة من دمه ، ولا بـد للجنود ان يبرزوا عضلاتهم المفتولة مؤمنين بقوة سلاحهم ومعتمدين على سلطة حكومتهم ولا بد للافي أن يقف موقف العربي الشجاع الشهم معتمداً على قوة ايمانه بنفسه بعد الله ومنفذاً مـا يمليه عليه ضميره العربي ، وهكذا اصطدمت القوتان : قوة سلاح الجنود الوفيين لتنفيذ أوامر السلطة وقوة ايمان العربي الوفي لتنفيذ التعاليم والشيم العربية بكل أمانة وتفان ، وتضحية ، وتأهب الجنود لتنفيذ ما أمروا به وشمر لافي عن ساعديه وحمل بندقيته الالمانية وتوشح بمنجده وحزامه المليء بالطلقات النارية وسدد فوهة بندقيته الى الجنود بعدما ابتعد عنهم مسـافة تجعله يثق من عدم استيلائهم عليه وقال :

– ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً .. ومن الخير لكم ان تعودوا

الى أهلكم مغتنمين السلامة ، وان لم تعودوا فسيكون لي معكم شأن ..

أصغى الجنود الى هذا التحذير الصادر من فتى لا ينطق الا بما يعتقده ، ولا تخرج كلمة من فيه الا وهو مؤمن بأنها عهد يتحتم عليه الوفاء به ، يضاف الى ذلك أن الجنود يعرفون (لافياً) (بوارديا) لا تخطيء رصاصته الهدف ، وشجاعاً لا يتسلل الى قلبه الخوف ، كل هذه المعاني جعلت الجنود يفكرون طويلاً بنتائج عملهم قبل الاقدام عليه ، وبالتالي قرروا ان يتركوا لافياً وجاره ، فكأنهم لم يروه ولم يرهم معتقدين بأنه سوف يجلو عن ارضه الى ارض الله الواسعة ويترك البلاد ومن عليها ، فذهبوا الى اميرهم بخفي حنين، مدعين ان (لافياً) (هرب) قبل ان يروه ، وكانوا صادقين في قولهم (هرب) لأنـــه فعلاً هرب وترك البلاد وراح الى العراق ولم يعد الا بعد عدة سنين كما ذكرنا آنفاً [1] .

---

١ - ترى لو ان جنود الأمير ابن جلوى جاءوا الى لافي قاصدين ان يصادروا ابله او جميع ما يملك بصورة شاملة أيمكن ان يقاوم جنود الحكومة طبعاً لا ؟..بل سوف يسلم ما يريدونه منه بدون تردد بل لو كان جنود الحكومة جاءوا يريدون ان يعتقلوه ويكبلوه بالاصفاد ويقودوه الى مصير مجهول لا يعلم ماذا يلاقيه ؟.. أقول أيمكن ان يرفض اوامر الحكومـــة ، لو كان الأمر بهذه الصفة ..؟

الجواب كلا والف كلا..واذا سلمنا جدلاً وآمنا بالمستحيل وقلنا انلافيا سوف يرفض الانصياع لطلب الحكومة فيما اذا أراد الجنود استلامه،أيمكن ان يكون ايمانـــه بالدفاع دون نفسه كايمانه وصلابته وشجاعته وعناده واستماتته دون جاره ..

اترك الامر هنا لمن يعرف الخلق العربي والشيم العربية ليقول حكمه الفاصل ..

حتى ولو غضب الأمير

- ٢٢ -

كنت في شرخ الشباب ، عندما ساقني القدر الى معرفة ذلـك الشيخ الطاعن بالسن الذي تجاوز العقد التاسع من عمره والذي تبدو عليه علامات الفقر من المادة وعلامات غنى النفس في آن واحد، كما يبدو أنه من اولئك الرجال الذين يتوشحون بحلل قشيبة من الفضيلة والعفة والإباء ..

عرفته في بلدة حائل سنة ١٣٥٨ هـ وذلك عندما كنت ماراً في الشارع الذي يقع فيه بيته المتواضع الكائن بين المقصب القديم وبين منزل ابراهيم السالم السبهان ولم اتردد عن الرجوع اليه مسرعاً عندما ناداني بصوته الهزيل ..

– يا ولد ..

– نعم ماذا تريد يا عم ؟..

– انني كما تراني يا بني مقعداً ولي ابن يحملني على كتفه من بيتي ويضعني في هذا المكان لأتسلى وأخفف عن نفسي بعض الهموم برؤيتي للمارة في هـــذا الشارع الرئيسي ، وعندما تدنو مني الشمس يأتي ابني فيحملني الى منزلي ..

والآن دنا مني حر الشمس وابني لم يأت ، فهل لك أن تفعل خيراً وتحملني ؟

قلـت :

- ابشر .. فحملته بدون أن ينالني كلفة فقد كان وزنه فيما يبدو لي لا يتجاوز ٣٠ كيلو غرام وحينما أدخلته في تلك الغرفة المتواضعة التي لم يكن فيها أي شيء من الأمتعة ولا من الفراش ما عدا حصير معمول من سعف نخل تلك البلاد عندئذ رفع الشيخ يده الى السماء وظل يدعو لي بدون أن يعرفني ، ثم بعد ذلـــك راح يسألني عن اسمي فعرفته عن نفسي ، وبالرغم من انني من مواليد حائـل ولكنني لا أعرف الشيخ واعتقد أن عدم معرفتي له يعود الى عاملين :

اولاً - انني تركت البلاد قبل بلوغي سن الرشد ولم اعـد اليها إلا بعـد مضي عشر سنوات ولم اقم فيها بعد عودتي هذه الا شهراً ..

ثانياً - أن الشيخ ليس من الجيل الذي يمكن أن اعرفهم ولا من شخصيات اهل البلاد المشهورين ، وهذا مما جعلني ابادله سؤاله عني بسؤال عنه فأجابني بأن اسمه فهد الرقابي ، ولما كنت كما ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هـذا الكتاب (شديد الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الأهمية منذ نعومة اظفاري) فقد اعتقدت في تلك اللحظة الوجيزة انني سأجـــد في شيخنا المقعد ضالتي المنشودة ، فوجهت الى الشيخ السؤال التالي :

- ما هي حرفتك عندما كنت قوياً شديداً .

فقال : كنت نجاراً ..

فتضاءلت رغبتي لعلمي أن من يمتهن حرفة الصناعة ليس من الرجال الذين تؤخـذ عنهم قصص من النوع الذي أريده بحكم ابتعادهم عن عالم المغامرات المألوفة بعهـد عمنا الشيخ .. ولكن بالرغم من فتور همتي لم ايأس من عدم وجود ما أريده في حياة رجل عاش قرناً ولذلك عدت وسألت ..

- هل سبق أن غزوت في حياتك أو سافرت الى بلاد بعيدة عن بـلادك ..

فقال :

لقد سافرت مرة في حياتي الى بيت الله الحرام حيث اسقطت فريضة الحج، ثم استطرد وقال : كما انني غزوت مع الأمير محمد العبد الله الرشيد في غزوته المسماة بغزوة (النقيرة) الواقع تاريخها في سنة ١٢٩٥ هـ فقلت :

– هل تعرف الأمير محمد عن كثب ؟..

فصمت قليلاً ثم قال : وهو يبتسم .

– أين أنا ومعرفتي للأمير محمد .. قلت :

– الم تقل انك غزوت معه غزوة النقيرة ؟.. فكيف بك لا تعرفه ؟ فقال:

– المعرفة يا بني معرفتين : معرفة مقصورة على رؤية العين ومعرفة المباشرة الشاملة التي يستطيع بها المرء أن يحلل شخصية الرجل تحليلاً كافياً .. ثم مضى الشيخ بحديثه الى أن قال : فإذا كنت تسألني عن المعرفة العابرة فانني استطيع أن اقول نعم : اعرف محمداً ولكنها معرفة رؤية لا تعدو أن تكون كرؤيتنا لإحدى النجوم ، اما المعرفة التي هي عن كثب كما تقول فأنى لي أن اعرف محمداً وأنا رجل لا صلة لي بالحكام والأمراء وكل مافي الأمر انني نجار بسيط يقتات من حرفة النجارة لا له ولا عليه ..

لقد اعطتني العبارات التي قالها الشيخ اكثر من دليل على أن هذا العجوز المقعد وأن كان نجاراً لا صلة له بالحكام ولا بالمجتمع كما يقول ، ولكن حديثه يدل على أن لديه من سعة المعرفة اكثر من كونه نجاراً لا يتجاوز حدود قدومه ومنشاره ، كما يبدو من حديثه انه من نوع الرجال الصدوقين الذين يحرص كاتب هذه الاسطر على نقل احاديثهم بكل امانة واخلاص ..

ولذلك عدت أوجه اليه اسئلة كثيرة قاصداً أن اوقظ ذاكرته فيما اذا كان رأى بحياته الطويلة أو سمع شيئاً من القصص التي تسترعي الانتباه .. ومن جملة

الاسئلة التي وجهتها اليه اسئلة تتضمن رغبتي منه أن يفيدني عما يعرفه أو ما سمع به عن الرجال المقربين عند محمد العبد الله اعتقاداً مني أن الحاكم لا يستطيع المرء أن يقف على حقيقته ويحلل شخصيته الا بمعرفته لرجاله الذين يتولى بنفسه اختياره لهم .. ولذلك ذهبت اسأل الشيخ عما يعرفه عن سبهان السلامة الذي كان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة عند الأمير محمد بصفته وزير المال والرأي وصهر الأمير كما سألته عن رجال كثيرين من المقربين من محمد العبد الله،وقد شعرت أن الشيخ يجتر شيئاً من ذكرياته عن اولئك الرجال الذين عاصرهم فسرعان ما قال :

– رحم الله اولئك الرجال ..

فصمت قليلاً ثم تنهد وقال :

– أن بعضاً من اولئك الذين تسألني عنهم لست ممن له بهم صلة ، اللهم الا أنه جاءت مناسبة لم تكن لي بالحسبان ، ولكنها كانت مناسبة طيبة ، وكانت سبباً مباركاً حيث انتقلت بها من قروي يسكن بيتاً متواضعاً في قرية الروضة [1] الى بيت اصبحت فيه جاراً لسبهان جنباً لجنب) ..

وبالطبع ازددت رغبة وحرصاً على أن اسأل الشيخ عن كنه هذه المناسبة فقلت :

– ما هي هذه المناسبة يا عم فقال :

– شرحها يا بني طويل وأنت الآن قد يكون لديك عمل تريد ان تذهب اليه ..

---

١ – الروضة قرية من احدى قرى مدينة حائل .

– ليس لدي من الاعمـــال ما يشغلني عن استماع حديثك الشيق مهما طال الوقت .

– سبق أن قلت لك يا بني بأنني غزوت مع محمد العبد الله غزوة النقيرة ..

– أجل ..

– في تلك الغزوة بالذات حدثت مناسبة غريبة كان من نتائجها أن وصلت الى بساط الامير وكانت هذه أول مرة بحياتي اجلس في مجلسه كما أنها آخر مرة أيضاً .. قلت :

كيف كان ذلك ؟ قال

بينما كان الأمير محمد جالساً يحيط به جلساؤه من امراء ورؤساء البدو ووجهاء البلاد فيتبادل واياهم الحديث الذي دائماً مـــا يكون ذا شجون ، حيث انتقل الحديث الى ما هو حسن من اسماء الرجال وما هو قبيح ، وكان من جمـلة الاسماء التي لم يستحسنها الامير اسم (بندر) وكان بعض الحاضرين من جلسائه لا يوافقونه ومن لم يعارضه لم يؤيده الرأي ، فقال المعارضون ان اسم بندر من أحسن واجمل الاسماء واستدلوا على ذلك بعدة اسماء من الامراء ورؤساء القبائل كالشيخ بندر ابن سعدون شيخ قبيلة المنتفق وكبندر التمياط رئيس عشيرة التومان ، وكلا الاثنين فارسين مشهورين وغيرهمـا .. ولكن الامير لم يقتنع بل ازداد اصراراً على رأيه وقال : ان هذا الاسم مزدوج يسمى بـه النساء ففند المعارضون رأي الامير وقد اشتد الجدل بينهم بدون ان تقوم الحجة على احـد الجانبين وكان الذين يجادلون الامير واثقين ان الصواب بجانبهم ويعتقدون ان السر الذي يجعل الامير يكره اسم بندر ناتج عن كرهه لابن اخيه بندر الذي كان اول قاطع رحم في اسرته ، هكذا كانت عقيدة المعارضين ، بينما كان الامير متأكداً بأنه يوجـد فتاة اسمها بندر ، وعلاوة على ذلك يعرف اسم القرية التي تقيم فيها تلك الفتاة من قرى بلدته حائل ، وهذه القرية هي قرية الروضة كما يعرف والد الفتاة وأهلهـــا

ومكان بيت اهلها من القرية ، كان يعرفها حينما كان يتجول في الارض قبل ان يكون أميراً .

حاول الامير ما استطاع ان يقنع معارضيه ، ولكن محاولته كانت ضرباً من العبث ، وبالتالي قال الامير : فليذهب احدكم ، مشيراً الى احد جنوده ليأتي الينا بأي شخص من اهل الروضة ليثبت صحة ما قلته .

ويمضي الشيخ في سرد القصة الى ان قال : وفي الحين الذي كنت جالساً به بين رفاقي الذين من طبقتي ، وبدون سابق انذار جاءني جندي الامير وقال :

– أأنت من اهل الروضة ؟ قلت : نعم.. فقال : هيا بنا .. فقلت: الى اين؟ فقال : الى الامير ..

وقد توقف الشيخ الرقابي لحظة عن مواصلته الحديث ليروي لي الشعور الذي ساوره عندما قاده جندي الحاكم ، وافهمه انه ذاهب به الى بساط الامير فيقول : لقد ارتعدت فرائصي وخارت عزيمتي ولصق لساني وظللت اتصبب عرقاً فرحت أسأل الجندي ماذا يريد مني الامير ؟.. فأجاب : لا أدري ..

ويسترسل الشيخ بحديثه فيقول : لقد تذكرت المثل القائل «كم زج في السجن من مظلوم» ، ولا زلت في حالة ارتباك واضطراب ، ولكنني عندما دنوت من مجلس الامير تشجعت فدخلت نادي الامير المهيب الحاشد بالرجال الذين لا اعرف منهم إلا القليل ، وبعد لحظة قليلة اديرت فيها اكواب القهوة ، عند ذلك اتجه الامير اليّ وقال:

– أأنت من أهالي الروضة ؟..

– نعم ..

فقال : ابن من ؟..

– ابن محمد الرقابي ..

يقول الشيخ ان الامير بعدما سمع اسم والدي ابتسم ابتسامة عريضة تدل

على انه عرفه وعرف منزله بدليل انه انحرف الى رفاقه الجالسين وقال :

- لقد انتهى الاشكال .. ثم تابع كلمته هذه بكلمة اخرى موجهة منه الى جلسائه قائلاً لهم :

- ألا ترضون هذا الشاب حكماً في الموضوع ؟.

فأجابه الجالسون بنعم .. ثم اتجه نحوي وقال :

- أليس بيت والدك ملاصقاً لبيت فلان جنبـــاً لجنب .. (يقصد بيت والد الفتاة) ؟..

يقول الشيخ : قلت بلى ..

فقال الامير : أليس لجاركم بنت تدعى « بندر » ؟..

قال الشيخ :

لقد ادركت الآن السبب الذي دعيت من اجله وهان عليّ الأمر ولكنني في الوقت ذاته شعرت بثقل العبء الذي واجهته ، فالقضية لهـــا علاقة باسم ابنة جارنا ، ومجرد ذكري لاسم ابنة جاري في حفل كهذا أمر أعاب به .

ويمضي الشيخ بحديثه ويقول: لقد ظللت ثواني وانا افكر في الأمر ، لا ادري ماذا أجيب الامير .. أأقول له نعم اسمها بندر وهـذه هي الحقيقة ، ولكن كيف بي أذكر اسم جارتي بهذا النادي وأنا لا أعلم ماذا وراء هذا السؤال ؟.. أم أكذب الأمير وهو صادق بما يقول ؟..

ويزيد الشيخ وضوحاً فيقول : بينا كنت في حيرة في أمري عـــاد الامير وكرر السؤال نفسه.. فيقول الشيخ : كنت قد اتخذت بيني وبين نفسي القرار النهائي فأجبت الامير قائلاً :

- اذا يسألني طويل العمر عن أسماء أبناء جاري الذكور فانني استطيع أن

أسرد اسماءهم واحداً واحداً أما الأناث فإنني لا أعرف اسم أية واحدة منهن .. فيقول الشيخ : لم يرض كلامي هذا الامير . ولذلك أمر بأبعادي عنـــه ، فخرجت مطروداً ولكنني غير نادم على طردي ..

الوزير العاقل الشهم

ويواصل الشيخ القروي حديثه الى ان قال : وفي أثناء خروجي لحق بي وزير الامير وصهره سبهان السلامة ابن سبهان وأمسكني من كتفي وقال :

ـ لقد أغضبت الامير ، أليس من الخير لك أن تعود اليـه الآن وتقول لقد كنت ناسياً اسم الفتاة والآن ذكرتها .. قل ذلك حتى ولو لم تعرفهـا وليس في الأمر شيء يخيف ..

يقول الرقابي عندما حدثني الوزير بهذه العبارات أجبته قائلا :

ـ ان الامير صادق من حيث اسم الفتاة ولكنني لن ارضى لنفسي أن اذكر اسم ابنة جـــاري في ناد كبير كهذا النادي وانا لا أعلم ماذا يراد من وراء معرفة اسمها ..

يقول الشيخ ما ان انتهيت من حديثي هذا مع الوزير حتى تراجع الوزير عن طلبه لي بأن أعود الى الامير وراح يربت على كتفي وفي الوقت ذاتـه بعث معي أحد رجاله ليأتوا بأمتعتي من الخيمة التي فيها رفاقي ووضعني في خيمته ضمن حاشيته المقربين فتبدلت حياتي الاجتماعية في تلك الغزوة من خيمـة القرويين الى خيمة الوزير ومن معيشتي مع أبناء القرية الى معيشتي من مائدة الوزير ، وظللت في جوار الوزير حتى انتهت الغزوة وظننت ان القضية انتهت عند هـــذا الحد ، ولكن الذي لفت نظري كلمة قالها لي الوزير عند موادعتي له حيث قال :

– دعك في قريتك حتى يأتيك مني خبر ..

بيت بلا ثمن

ويقول الرقابي ذهبت الى اهلي وبقيت فترة من الوقت ولم اشعر حتى جاءني رسول من الوزير يطلب مني ان آتي اليه في حائل . ولم أتردد طبعاً عن تلبية طلبه وعندما وصلت هناك أنزلني بضيافته أول ليلة وفي اليوم الثاني أخذ بيدي حتى أدخلني بيتاً كبيراً مجاوراً لبيته جنباً لجنب ثم تناول مفتاح هذا البيت وقال : خذه فانه هبة الك .. ثم أردف الوزير قائلاً : لقد وهبتك هذا البيت لأمرين :

الأمر الاول – تقديراً مني لموقفك المشرف في نادي الامير من اجل جارك..

الأمر الثاني – هو ان هذا البيت كان ملكاً لجاري السابق المدعو سليمان بن جمعان ، وكان ذلك الرجل جار سوء بصورة شكا منه نساؤنا اكثر من مرة وكان من جملة اساءته الينا انه قام وثقب في جدار منزله ثقباً حتى إذا غفلت نساؤنا راح يشرف خلسة عليهن من خلال ذلك الثقب وهو يظن انني لا اعلم شيئاً عنه ، ولكنني ظللت صابراً على اذيته لأمرين :

الأمر الاول – انه باستطاعتي بكل سهولة ان اتخذ نحوه اجراءات تأديبية ولكنني لو فعلت ذلك فإنه سوف يشاع عني بأنني استعملت نفوذي وجاهي عند الحاكم وعاقبت جاري ظلماً .. وسوف يجد اعدائي مجالاً يشمتون به ، ومن الذي يستطيع ان يقنع السواد الاعظم بأن هذا الرجل الضعيف هو البادي بظلمه والمؤذي لحرمي ..

والامر الثاني هو انني لو اقدمت على عقابه وطردته من بيته بأية وسيلة كانت من يضمن لي بأنه سوف يأتيني جار صالح شريف يرعى حرمة الجوار ؟.. ومن

يدري قد يأتيني جار اسوأ افعالاً من الاول، ولذلك صبرت على جار السوء حتى سمعت ورأيت موقفك النبيل من أجل جارك في نادي الأمير ساعتذاك قررت بأن اغرى جاري السابق واشتري بيته .. وقد فعلت ذلك ووفقت .. والآن اصبح البيت ملكاً لي وأنا بدوري اهبك اياه تقديراً لوفائك مع جارك الاسبق..[1]

---

١ - توفي بطل القصة رحمه الله بعد ان نقلت منه هذه الرواية بعامين.. ولما كان المرحوم عبدالعزيز اليوسف العتيق المتوفي سنة ١٣٧٧ - ١٩٥٧ ثقة وفي الوقت ذاته يعرف الرقابي جيداً فقد سألته عن القصة لازداد ثقة من صحتها فأكدها لي وزادني يقيناً بأن الرقابي صدوق بحديثه وثقة بروايته .

ضحى بأعز ما يملك من اجل جاره

-٢٣-

تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته بديلًا ، ولكل أمة من الأمم عادات مألوفة تكون عند هذه الأمة حسنة وقد تكون عند الأمة الاخرى قبيحة، ولهذا نجد القرآن الشريف صور لنا هذه الظاهرة بأروع ما يمكن ان يعبر عنها إذ قال جل شأنه : «وزيّنّا لكل أمة عملهم » ..

وعند العرب وخاصة الذين هم على فطرتهم وسجيتهم الصحراوية، تبلغ التضحية والايثار على النفس حداً لا يتصوره الخيال وهذه التضحية وذلك الايثار لا يبرزان في أوضح معانيها إلا في حالة معينة كنجدة الرفيق وكالمكافأة على المعروف وكحماية الجار الخ .. وفي حدود هذه المعاني نجد ان العربي يضحي بنفسه وبولده وبكل ما يملك عندما يدعو الداعي..

وكل من درس ادبهم القومي وحياتهم الاجتماعية يتضح له بجلاء ان العربي يرأف بماشيته ويعتني بسقيها ورعايتها ويحرص على تنميتها وراحتها اكثر بكثير من حرصه على عنايته بنفسه ، والأدلة على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الادلة والشواهد على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الأدلة والشواهد على هذه الحقيقة ثم آتي بالأدلة والشواهد التي تثبت بأن هذا العربي

الذي يجعل من نفسه خادماً لإنعامه مرعان ما يضحي بها عندما يفاجئه القـــدر بامتحان يضطره الى الاقدام على احد الامرين ، اما ان يضحي بماشيته على حساب اكرامه جاره واما ان يضحي براحة جاره في سبيل سلامة ماشيته ..

اقول : لا بد أن اقدم الادلة على ذلك كشاهد لقصتنا الآتية ثم أورد فيما بعد الأدلة والشواهد المؤكدة للمعنى الثاني ..

واذا حاولت ان آتي بالأدلة التي تثبت بأن العربي يؤثر ماشيته على نفسه ، فإنني لن أجد شاهداً أصدق أو دليلاً أبلغ من الآية الشريفة التي جاءت في سورة السجدة ونصها كما يلي : « أوَ لم يروا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الارضِ الجرز فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامهم وأنفسهمْ أفلا يبصرون » .

كنت قرأت هذه الآية وسمعتها أكثر من عشرات المرات ولم اتصور معانيهـا بدقة وعمق حتى اسمعني المرحوم الشيخ عبد اللهالصالح الخليفي قاضي المدينة المنوره سابقاً والمتوفي رحمه الله في عام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م سؤالاً وجهه اليه شخص مـــا يتضمن استفسار السائلعن الآية سالفة الذكر وعن الآية التي في سورة طه المتضمنة قوله تعالى : « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ..

وكان السائل يود ان يستوضح عن السر الذي بموجبه قدم البـــاريء في الآية الأولى الأنعام على البشر بينما هو في الآية الثانية قدم البشر على الأنعام ..

فكان جواب الشيخ الخليفي في تفسيره للآية الاولى ان قال ان الآية التي في سورة طه تشير بمفهومها الى قوم موسى الفراعنة لأنهم يؤثرون انفسهم على انعامهم وأمـــا التي في سورة السجدة ، فمفهومها يعني العرب لأنهم يؤثرون انعامهم على أنفسهم ..

هذا تفسير قاضي المدينة الخليفي ولديّ من القرائن الشيء الذي يؤيد هـــذا التفسير خاصة بما له علاقة بإيثار العربي ماشيته على نفسه وذلك انني شاهدت بعيني

رآمي وسمعت بأذنيّ عربياً من قبيلة شمر ، في الحين الذي كنت به ضيفاً في بيت المرحوم الشيخ عباس بن هرشان عام ١٣٦٢ هـ ١٩٤١ م يدعى (ساكت) [١] سمعته يقول :

أمسيت الليلة الماضية في مكان ناء عن اهلي وابلي مما اضطرني الى أن أبيت على الطوى ، فسأله أحد الحاضرين قائلاً له :

– لماذا لم تحلب احدى نوقك وتنتعش من حليبها ؟. فأجاب ساكت بقوله :

– ان حليب الناقة هو جزء من دمها ..

معناه انه فضل أن يبيت على الطوى على ان يحلب ناقته لئلا تسوء صحتها ويتلاشى دمها ، هذا شيء سمعته ولو نقل اليّ لكدت أشك في صحته .

* * *

وشاهدنا من هذه الأدلة هو كما أسلفنا ان العربي وان يبلغ به ايثاره لأنعامه الى هذا الحد فإنه عندما تصطدم سلامة ماشيته ، وحرمة جـــاره ، فإنه على أتم الاستعداد لأن يقدم ماشيته كلها ضحية في سبيل حرمة جاره وشاهدنا المحسوس المادي على ما نشير اليه هو ما وقع مع هجرس [٢] بن عاشى وجاره العنزي ، اللذين نرافي القارىء بقصتهما على الوجه الآتي :

كان ذلك بين عام ١٢٩٠ هـ و ١٢٩٥ هـ عندما جاء هجرس بن عايش وجـاره بماشيتهما الى احدى الآبار الكائنة في شمال نجد التي لا يقل بعد مائها عن سطح الارض مسافة اربعين متراً وكان الفصل صيفاً شديد الحرارة .. وصبر الغنم عن الماء يختلف اختلافاً كلياً عن صبر الابل واذا الابل تصبر اياماً كثيرة عن الماء ، فإن الغنم لا تطيق الصبر عن الماء في أيام الصيف اكثر من ساعات معينة ، يعرفها رجال البادية،

---

١ – ساكت من قبيلة شمر نجد من عبده من بطن يقال له الويبار توفي عام ١٣٦٦ هـ .
٢ – هجرس من قبيلة شمر نجد ومن التومان .

وإذا تجاوزت هذه المدة المحدودة يكون مصيرها الهلاك لا محالة ، كان بعد الماء وشدة حرارة الشمس المحرقة يجعلان كلا من هجرس وجاره يدركان ان الظرف لا يتحمل أن ترتوي غنمها جميعاً ، فأما ان تسقى غنم الجار على حساب هلاك وموت غنم المجير وإما العكس .. كانت غنمها تتنافض تثغي بشدة من تأثير الظمأ ، وحتى لو أراد احدهما أن يسقي غنمه مسبقاً على غنم صاحبه فانه لا يستطيع أن يقوم بعملية كهذه حتى يحجز غنمه عن اقتحامها الماء لكي يتسنى لها الشرب وحدها، وفي خضم هذا الامتحان الشديد بالنسبة للمجير الذي تصارع في نفسه تلف غنمه التي هي من اهم مصادر رزقه ، أو تلف غنم جاره الذي يعتبره في عهدته ومسؤولاً عن حمايته وعن أقل جفاء يحل به ، في تلك اللحظة الوجيزة الحاسمة ، قام المجير واتخذ الاجراءات التالية :

اولاً – أنه عمد إلى نفر من ذويه الأقربين أن يتولوا اخراج الماء من ذلك البئر العميق بقدر ما يمكنهم من السرعة ليسقوا غنم جاره..

ثانياً – اسند الى نفر آخرين من اقاربه أن يتولوا حجز غنمه عن شرب الماء حتى تنتهي غنم جاره لكي لا تهجم غنمه على حوض الماء الذي تشرب منه غنم جاره بحكم أنه لا يتحمل غنم الجهتين .

ثالثاً – عهد إلى رعاة ابله ورعاة أبل اقاربه أن يحلبوا أبلهم بقدر ما استطاعوا من السرعة لكي يمزجوا الحليب بالماء في الحالة الاضطرارية التي يتوقع بها أن يفتك الظمأ بغنم جاره قبل أن ترتوي جميعها بحكم عمق البئر لان اخراج الماء منه يستغرق وقتاً طويلاً .. وقد كان موفقاً بعمليته هذه الأخيرة بحيث كان حليب الأبل مما ساعد كثيراً على اسعاف غنم جاره وانقاذها من الهلاك وذلك لأن ما توقعه من بعد الماء الذي لا يخرج بسهولة حصل فعلاً مما جعل لحليب الأبل الأثر الفعال في اسعاف ونجدة غنم الجار التي ظلت تشرب من حليب الابل الممزوج بالماء أي أن ما نقصها من الماء كمله الرجل من حليب ابله ..

وقد ظلت غنم الجار تشرب من الماء الممزوج بالحليب حتى ارتوت عن بكرة

ابيها ولما لم يبق الا الحمار الذي يركبه راعي الغنم فقد شاء الراعي أن يمنعه عندما أقبل الى الحوض يريد أن يشرب ولكن المجير أصر بإلحاح الا ان يشرب حتى يرتوى.. فشرب ذلك الحمار الأسود كما وصفه الرواة حتى صدر عن الحوض وشفتاه السوداوان عليهما مسحة من بياض رغوة الحليب ..

وبعد ذلك فتح رواق البيت عن غنمه التي كانت محجوزة في بيته فوجدها قد فتك فيها الظمأ وماتت كلها عن بكرة أبيها ..

ومن هذه القصة وأمثالها يبدو لنا الأمر جلياً بأن العربي اذا كان يؤثر انعامه على نفسه فإنه يؤثر ضيفه وجاره والمستجير به على انعامه . والقصة مشهورة

هاجر عن ذويه وعادى حاكمه من اجل جاره

- ٢٤ -

صاحب هذه القصة هو بندر التمياط[١] من أشهر فرسان قبيلته، وأشمهم أنفاً، كان له جار من قبيلة حرب يدعى «براك النخيش»، مضت أيام طويلة والنخيش بجوار بندر موفور الكرامة شأنه شأن أي جار عند أي عربي شهم كريم كبندر التمياط، وفي اثناء اقامته عند التمياط ضاعت احدى نياقه في الفلاة، فراح يسأل عنها هنا وهناك، وبعد الجهد والعناء الكثير وجد من يؤكد له ان ناقته دخلت حمى الأمير محمد العبد الله الرشيد وظلت مـــدة من الايام بدون ان يأتي احد يسأل عنهـا. وكانت العادة المأخوذ بها تقضي بأنه عندما تأتي ناقة كهذه وتدخل الحمى الخاص بهجن الامير تترك مدة معينة فإن جاء صاحبها خلال هذه المدة تسلم له بعد تهديد ووعيد الرجال المنتدبين من قبل الأمير لهذه المهمة، أما إذا مضت المدة المحددة، قبل ان يأتي صاحب الناقة فعندئذ يوضع على الناقة (وسم الامارة) ومتى ما وضع عليهـــا الوسم اصبحت ملكاً للامارة. ولا يمكن ان تعود الى صاحبها إلا بأمر من الأمير

---

١ - بندر التمياط رئيس عشيرة التومان من قبيلة شمر.

نفسه . والوسم هو عبارة عن سيخ حديد يوضع بالنـــار ثم يكوى به رقبة الناقة أو فخذها فهذا يكون بمثابة علامة فارقـة يستدل بها بملكية الابل بعضهـــا عن بعض ..

كانت ناقة الحربي قد تجاوزت المدة المحددة قبل أن يأتي صاحبها ولذلك اصبح من حق الحماة أن يضعوا عليها وسم الامارة . ولم يكن والحـالة هذه لدى الحربي من وسيلة يبذلها إلا ان يعود الى الشيخ بندر يخبره بما تم من مصير ناقته التي اصبحت تحت قبضة الحماة ، وما من سبيل الى اعادتها لصاحبها إلا بعد مراجعة الامير نفسه، وحتى الامير إذا علم ان الناقة تجاوزت المدة المحددة بدون ان يأتي اليه صاحبها وان رجاله وضعوا عليها الوسم ، إذا علم بذلك فإنه قد يمنح التمياط ناقة تكون خيراً من ناقة جاره وأغلى ثمناً فيما إذا أراد ان يبتاعها ، ولكنه ليس من السهل أن يعيد عليه الناقة ذاتها التي وقع عليها العقاب ، وهذا ما حصل فعلًا ، عندما جـــاء التمياط يراجع الأمير بشأن ناقة جاره ، اظهر الاخير استعداده لأن يقدم للتمياط ناقة أحسن من ناقة جاره الحربي أما الناقة نفسها فقد رفض الأمير ان تعـــاد الى صاحبها بعدما تجاوزت المدة المحددة ووضع عليها الوسم ، وفي الوقت نفسه رفض بندر التمياط ان يقبل بناقة جاره أية ناقة اخرى بدلاً عنهـــا مهما كان البدل أثمن وأجمل من ناقة جاره، وكان لا بد للأمير ان يقابل اصرار التمياط باصرار مضاعف وكان للتمياط أيضاً أن لا يتراجـع عن اصراره ولو أدى الأمر الى ان يفصم صلة القربى القبلية المرتبطة بالأمير ارتباطاً قوياً ، بل عليه في سبيل ناقة جاره ان يعلن الحرب على الأمير ، وان كان يعتقد جيداً انه مهما بلغ من القوة لا يعـدو عن ان يكون رئيساً لبطن من قبيلة شمر محدود العدد ، وان كان رجـال ذلك البطن معروفين بالفروسية التي نالوا بها شهرة ممتازة ، ولكنه مهما يكن من أمره فإنـه

أعجز وأضعف عن ان يتحدى سلطة وقوة الامير الذي يحكم شمال [1] شبه الجزيرة وقتذاك ..

بدل الناقة الواحدة نياق كثيرة بالقوة لا بالرضا

ومع ذلك فان التمياط عازم على ان يعلن عداءه للامير مهما كلفه ذلك من ثمن غال . وذلك من أجل ناقة جاره فراح وصب غارته على هجن الامير في حماها ، ونهب منها ما استطاع الحصول عليه ودفع لجاره عوض ناقته عدداً من خيرة (هجن) الامير النجائب ، ومضى في سبيله الى الاراضي السورية تاركاً بلاده نجداً ومعادياً لأميره ولقبيلته معاً .. حيث ظل مستجيراً عند الشيخ جدعان بن مهيد رئيس قبيلة الفدعان ، ولم يسع محمد العبد الله إلا أن ثارت ثائرته وجهز جيشاً لجباً لغزو ابن مهيد في الحدود السورية لعله يظفر برأس التمياط ، فخرج من بلاده يقود من الفرسان والهجانة عدداً هائلاً لا قبل لابن مهيد بمقاومته ..

واليك قصيدة وجيزة لشاعر من قبيلة ابن مهيد يصف كثرة جيش محمد العبدالله العرمرم عندما غزا ابن مهيد :

البارحـــة بالليـــل اسمـــع رزيمه
وأخاف منهـــا كان مثلي تخافون

---

١ - الحادثة هذه وقعت قبل معركة المليدا الكائنة بتاريخ ١٣٠٨ هـ ١٨٩١ م لأن محمـــد العبدالله لم يتجاوز حكمه شمال نجد الا بعد تلك المعركة . والدليـــل ان هذه الحادثة كانت قبل المليدا هو ان التميـــاط هرب من نجد واستجار بأبن مهيد رئيس قبيلة الفدعان القاطنين ارض سورية وجاء محمد وغزا ابن مهيد، وفي تلك الغزوة قتل احد فرسانه وهو حمـــد الزهيري ابن عربان احد فرسان الفدعان . ومعروف ان الزهيري قتل في معركة المليدا سنة ١٣٠٨ هـ .

(ذِرْواتْ) [1] تال الليل أوحى حطيمه
ميل تَحَدَّرْ مِنْوِيِ لو تعذلون

هذا الحصيم اللي يَخَوِّفْ خصيمه
مقيم ثلاثـــة أيام وانتم تهجّـون

لا والله الا ضامنـــا بالهزيمـــة
يا مِنْوةَ الغزايْ واللي يفيدون

ابن علـيّ مفجعـــات حريمـه
هاذي مضت واللي تجي وش تسوّون

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول : انني في الليلة الماضية سمعت دويـاً مخيفاً .. فهل سمعتم يا قومي هـــذا الشيء المخيف وخفتم من عواقبه كما أصابني الخوف منه .

ويشرح الشاعر في البيت الثاني هذا المعنى فيقول : ان الذي سمعته البـارحة ليس الا صوت خيل وهجن الامير الذي له دوي كدوي النحل .

وفي عجز البيت الثاني يقول : ان جيش الامير أشبه ما يكون بسيل الوادي الجارف الغزير الذي لا بد له من ان يجرف كل شيء يقف في سبيله وان لا فائدة من محاولة صرفه عن مجراه الطبيعي ..

وفي البيت الثالث يقول : ان قوة عدونا تفوق قوتنـا ومن أوضح الادلة على ذلك ان خصمنا بعدما غزانا في عقر دارنا ظل نازلاً في ارضنا التي غزانا بها بينما نحن

---

١ - ذروات : اسم لهجن ابن رشيد .

لذنا بالفرار ثلاثة ايام على التوالي ، ونحن نتابع سيرنا في الهزيمة .. ومعنى البيت الثالث قريب من معنى الذي قبله ..

وأما البيت الخامس فقد أشار الشاعر الى مصرع الفارس ابن عوبان وما أصاب حرمه من الفاجعة بقتله ، وفي عجز البيت يقول : هذه المرة وقفت القضية الى هذا الحد ، ولكن ما الذي يجب أن نفعله في المستقبل ، وكأنه يريد من قومه أن يصلحوا أمرهم مع محمد بدون ان يسلموه المستجير طبعاً ، أي التمياط .

هذا وقد ظل بندر التمياط بجوار جدعان بن مهيد مدة طويلة .. وأكثر الروايات تفيد انه لم يعد الى بلاده ، وقبيلته إلا بعد أن توفي محمد العبد الله حيث حضر وقعة الطرفيه الكائنة عام ١٣١٨ هـ ١٩٠١ م بين مبارك الصباح وعبدالعزيز ابن متعب الرشيد كما كان له في تلك المعركة العنيفة موقف بطولي ذكرته في مكانه المناسب ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان بندر التمياط عندما كان مستجيراً بابن مهيد، في تلك الأيام كان رجال عشيرته أي المسمين التومان هؤلاء كانوا بحالة لا يحسدون عليها من الدعاية السيئة التي الصقت بهم عند كلتا القبيلتين ، سواء عند قبيلتهم شمر أو عند قبيلة ابن مهيد عنزة ، فان جاء قبيلة شمر غزاة من عنزة قال الشمريون : ان الذين يخبرون عدونا عن منازلنا واوقات غفلتنا ليس إلا أبناء قبيلتنا التومان الذين ذهبوا الى أعدائنا وراحوا يخونون قبيلتهم ويدلون العدو على أرضنا ومراعي ابلنا الخ ..

وأما اذا غزت قبيلة شمر عنزه فعندئذ ذهب هؤلاء يتحادثون فيما بينهم همساً قائلين : « ان الذين يدلون غزاة قبيلة شمر ليس إلا هؤلاء المستجيرين فهم وحدهم الذين يبعثون رسلاً من عندهم سراً ليخبروا رجال قبيلتهم عن منازلنا ...

هكذا كان واقع أمر عشيرة التمياط أثناء وجودهم عند ابن مهيد فهم في رأي

قبيلتهم أو على الأصح في رأي سخفاء قبيلتهم خونة سخرهم العدو ليتجسسوا على بني قومهم ، كما انهم في رأي المغفلين من قبيلة عنزه أعداء انذال لم ينظروا لحرمة ومعروف الشيخ ابن مهيد بعد أن آوى رئيس قبيلتهم وواساه بنفسه وتحمل في سبيل ذلك ما تحمله من غزو محمد له ونهبه لأمواله وقتله لخيرة فرسانه .

وهكذا ظل التومان خلال تلك الفترة خونة جواسيس بنظر قومهم ، وأعداء أنذالاً لا يملكهم المعروف في نظر مجيريهم ، مع العلم اليقين بان شيمتهم العربية تأبى أن يكونوا جواسيس لابن مهيد على رجال قبيلتهم ، كما ان وفاءهم العربي يمنعهم ان يقابلوا معروف ابن مهيد وقبيلته بالاساءة التي تنسب عنهم ، وبالرغم من كونهم بريئين من كلا الاتهامين فانهم تأثروا من ذلك لأن الدعاية التي تغلغلت كان لها الأثر السيء حتى ولو كانت مختلقة من أصلها ولا أساس لها من الصحة ، ولذلك نجد شاعرهم يعبر عن واقع أمرهم وقتذاك أبلغ التعبير بقوله :

المسعد اللي مهو تومي
من كل يمٍ مهو غالي

من كل الاشناق متهومي
كلٍ يرصه على الجال

ربما كان لهذين البيتين بقية لم تصل الينا وانما الذي اعتقده فهو انه حتى لو كان هناك بقية فانها لن تكن كثيرة بحكم ان القصيدة على وزن ما يسمى (هجيني) وهذا النوع كما أشرنا اكثر من مرة بأن ابيات القصيدة التي على هذا الوزن لا تتجاوز نسبة معينة محدودة أقصاها خمسة أو ستة أبيات .

وشرح البيتين اللذين يشير اليهما الشاعر مطابق للمعنى الذي أشرت اليه آنفاً فهو يقول في صدر البيت الاول انمن يريد الله له السعادة فينبغي ان لا يكون من

قبيلة التومان أي قبيلة الشاعر . وفي عجز البيت نفسه يقول : ان المرء من هـذه القبيلة اصبح مكروهـاً أينما ولى وجهه وفي صدر البيت الثاني يقول ان أي فرد يقال عنه انه (تومي) أي من عشيرة التومان فإنه منهم من جميـع الجهات يشير الى الاتهامين الموجهين له من قبيلته ومن قبيلة الفدعان . وفي عجز البيت يقول كل من هؤلاء واولئك يحاولون ان يلصقوا به شتى الاتهامات المختلفة ومختلف الافتراءات المفتعلة .



الفصل الثالث

الصبر على المصائب

تعز فان الصبر بالحر اجمل ... وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً ... لحادثة أو كان يغنى التذلل
لكان التعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر اولى واجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه ... وما لامرىء عما قضى الله مزحل
فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صلبة ... ولا ذللتنا للتي ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تحمل ما لا يستطاع فتحمل
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هزل

(ابراهيم بن كنيف الشهابي)

الصبر على المصائب مصيبة على الشامت

- ٢٥ -

زرت صديقي الشيخ عبد الله السعد القبلان [١] في جدة في تاريخ ٧-٢-١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ وقد دار الحديث بيننا حول اهتمامي بجمع القصص التي تمت الى شيم العرب باية صلة من الصلات فأكد السعد بانه سمع من الشيخ محمد آل سليمان التركي [٢] مدير مالية جدة آنذاك قصة تسترعي الانتباه ، ولما كنت ولم ازل شديد الحرص على أن لا يفوتني من الحوادث العربية الطريفة حادثة استطيع العثور عليها بشتى الاسباب إلا استقصيتها ، فقد ذهبت مسرعاً الى زيارة التركي واستفسرت منه عما ذكره لي السعد ، فقال : بانه كان يحفظ كثيراً من قصص العرب ؛ وذلك قبل أن ينهمك بالأعمال الادارية التي انسته قسطاً وافراً من الأمثال الادبية ، ونوادر القصص العربية التي كان يحرص على روايتها من مصادرها الثقاة . ثم صمت قليلاً كالذي يتذكر حاجة ثمينة ضاعت منه ، وفي خلال الفترة التي صمت بها جاء صاحب القهوة وسكب لكل واحد منا كوبا . وبعد أن احتسى الكوب الأول والثاني،

---

١ - عبد الله السعد كان وزيراً للمواصلات في المملكة العربية السعودية في عام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ ومن سكان مدينة جدة حالياً وهو قحطاني النسب . ويعمل الآن مديراً لشركة الأسمنت .

٢ - محمد التركي كان كما ذكرت اعلاه مديراً لمالية جدة ومن سكانها حالياً وهو في الأصل من مدينة عنيزة .

اتجه نحوي وقال :
- أعاننا الله على مشا كل الحياة لقد تبدد ذهني . واصبح تفكيري محصوراً في نطاق عملي ، حتى أنني ضيعت الكثير من الرصيد الأدبي . ولم يتبادر لذهني الآن إلا قصة واحدة .

قلــت :
- ما هي العبرة المستوحاة من القصة ؟
فقــال :
- الصبر على المحن والمصائب وعدم اليأس والقنوط ، قلت :

- عمن رويتها ؟ فقال :

- عن المرحوم عبد العزيز الميان والميان يرويها مباشرة عن بطل القصة المرحوم عبد الله العمري [1] المتوفى بين عامي ١٢٩٥ و ١٣٠٠ هـ .

فطلبت منه أن يسمعني اياها فلم يبخل الرجل وقصها علي على الشكل الآتي :

كان عبد الله العمري صاحب أموال طائلة ، جمعها من عرق جبينه وكسب يمينه حيث كان يمتهن حرفة التجارة ، وقد اتخذ مدينة الزبير مقراً لا عماله التجارية فربح الى جانب مركزه الاقتصادي ومكانته الاجتماعية ، مكانة معنوية ، الأمر الذي جعل حكام الزبير وقتذاك آل ابراهيم ، وكثيراً من أغنيائهم يثقون بــه ويؤمنون عنده المبالغ الطائلة من النقود الذهبية .

مضت أشهر وسنون ، والعمري اسعد بني جنسه ، فالبضاعة التي يشتريها اليوم بدرهم لا يأتي الغد إلا وسعر هذه البضاعة قد ارتفع من الدرهم الى الدينار . وكان صاحب المال الذي يقبل العمري أن يشغل ماله على سبيل المضاربة يجد نفسه سعيداً كما يرى أن العمري صاحب الفضل عليه لقبوله منه المال ، لأن لديه من رأس المال

---

١ - كل من الميان والعمري من مدينة عنيزة .

الزائد ما يغنيه عن تشغيل أموال الناس ، وإذا قدر له أن يأخذ من أحد شيئاً من المال ليشغله فانما هو من اجل فعل المعروف لأخوانه وأصدقائه ، أما هو فليس بحاجة لأن يستعين بمال أي كان .

ما أضحكت الا وأبكت !!!

مضت أيام سعيدة كحلم الليل وهو في حالة يغبطه عليها الملوك ، عندما كانت تجارته رابحة ، وبضاعته رائجة والدنيا ضاحكة له والاخلاء يخطبون وده والفقراء ينعمون من خيراته والاثرياء السعيد منهم الذي يشاركه ببضاعة يشتريها .

ولكن الدنيا التي لا يدوم نعيمها ولا يؤمن لها جانب، تلك التي ما اضحكت إلا وأبكت ، قلبت له ظهر المجن ، فانقلبت ساعدته الى بؤس . ونعيمه الى شقاء . وغناؤه الى فقر ، بسبب غلطة تجارية من غلطات التجار جاءت بمحض صدفة القضاء والقدر، وعندئذ بدأت أوضاعه كلها تتبدل وتجارته لا توحي بخير. فالبضاعة التي يشتريها اليوم بمائة سوف يضطر لبيعها غداً أو بعد الغد بنصف قيمتها ، وظل مدة وهو يحاول ان يخفي خلله الاقتصادي المتهلهل ولكن أنى له أن يستطيع اخفاء أمره بعدما عرف الناس انه وصل الى درجة من التدهور المالي لا يسعه الاستمرار به والثبات عليه . فالفقراء الذين عوّدهم احسانه ، يريدون منه ما عودهم عليه ، والاخلاء والضيوف الذين اعتادوا الجلوس على مائدته الدسمة،يريدون ان تظل تلك المائدة كما كانت متنوعة الاصناف من الاطعمة اللذيذة . وموظفوه وخدامه يريدون مرتباتهم الشهرية ، والنوافل التي يخصهم بها أحياناً في المناسبات، وعائلته وابناؤه ، هم الآخرون يريدون منه الدلال ، والترف الذي يعهدونه ويريدون ان لا يتبدل منه شيء . كل هذه الأمور أو بعضها تجعل الرجل لا يستطيع الصمود أمام هذه التيارات المتباينة ، ولا بد من ان يقدم على ما كان له

كاره وهو اعــــلان افلاسه وهذه هي المرحلة النهائية ، ولكن ماذا يفعل انه شر لا بد منه .

وعندما اتخذ الرجل قراره النهائي وقع بالمشكلة الاخرى وهي مطالبة اصحاب الودائع له ، فهذا صادر ، وذاك وارد ، وهو بحـالة كهذه لا يستطيـع ان يسدد واحـداً بالمائة من ودائع الناس ، فظل يهرب من منزله هائماً لا يدري أين يذهب ، وحتى اولئك الاخلاء الكثيرون تخلوا عنه فذهب يفتش عن الذين كان يعهد فيهم الوفاء لعلهم يواسونه في محنته ، فوجد ان اصدقاءه ينقسمون الى قسمين : قسم منهم الاغنياء والقسم الآخر الذين الى فراغ ذات اليـد أقرب منهم الى الثراء . فهؤلاء وجد فيهم الوفاء ، ولكن وفاءهم محدود على مشاركتهم له بالآلام والتوجع وعلى كفاحهم عن عرضه عندما يسمعون أحداً ينال منه أو يشمت به . أمـا اصدقاؤه الاثرياء فقد كان الوفاء فيهم أندر من الكبريت الأحمر ، وكان الوفي فيهم هو الذي لا يشمت به .

وعندئذ وجد الرجل أن لا محيص له من أن يترك البلاد ومن فيهـا ويهرب تحت جنح الليل الدامس الى بلاده عنيزه ليواري نفسه عن الانظار الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وكما انه هرب من الزبير خلسة وفي غسق من الليل المدلهم ، كذلك دخل بلاده في النصف الأخير من ليل الشتاء المظلم ، كي لا يرى ولا يرى ، فظل الرجل سجين بيته لا يخرج منه ، ولا يزور أحداً ولا يريد أن يزوره أحد .

والمشكلة انه لم يكن فراره من مدينة الزبير وتركه ماله من ديون على الناس مجدياً ولا سجنه لنفسه في منزله بين أهل بلاده نافعـاً ، كل ذلك لم يكن نهاية لتعاسته المريرة .

بلغت المحنة الذروة

كان ذلك بعد الظهيرة عندما طرق باب منزله بشدة شرطي امير عنيزه زامل بن سليم فجـــاء مذعوراً ويسير الهوينا لينظر من وراء شقوق الباب من هو الطارق ؟ وكم تضاعف ذعره ورعبه عندما رأى ان الطارق شرطي الحاكم، فوقف حائراً شارد الذهن لا يدري أيفتح له أ. لا ؟ وبينما العمري في حيرته هذه طرق الجندي الباب بصورة كانت أشد من سابقتها ، ولما لم يجد سبيلاً يتتجه أو يفر اليه اضطر مرغماً الى فتح الباب . وعندها ناوله الشرطي رسـالة من الامير ، أو كما يقال عنها الآن - مذكرة - انذار تتضمن مغادرته البلاد فوراً وذهابه الى الزبير بنـاء على طلب امير الزبير وأصحاب الامانات الزبيريين الذين يطالبونه بتسديد أماناتهم ..

كان أمر الأمير زامل حاسماً ولا يقبل الاستئناف أو التأجيل ، ولم يكن للعمري إلا أن باع بيتـــه الذي ورثه من أبويه في مدينة عنيزه بأبخس الاثمان واشترى بثمنه راحلة، وشخص نحو الزبير، وكل خطوة يسير بها الى الامام يشعر كأنه يسير الى حبل المشنقة .

وبينما هو سائر في سبيله هذا ، رمى به الفال الى صاحب بيت شعر كبير من قبيلة شمر [١] ، فحل عنده ضيفاً ، وكان صاحب البيت شيخـــاً مسناً ولم يدخر

١ - حرصت كثيراً ان اعرف اسم هـــذا الشمري لا لكونه محور القصة فحسب ، بل من اجل ان يكون للقصة الاثر المحسوس الاكثر من الناحية العلمية ، مع يقيني الوطيد ان القصة ليست وليدة خيال طالما ان رواتها كلهم ثقاة ، هذا من ناحية ، والناحية الثانية هي ان ساكني الجزيرة ابعد ما يكونون عن الخيال المكذوب ولكن لم أوفق وغاية ما وصلت اليه بأنه شمري.

المضيف وسيلة في إكرام مثوى مضيفـــه ، لا من حيث الكبش السمين الذي قدمه له ولا من حيث مسامرته تلك الليلة ومحاولة تسليته وشرح صدره كضيف يجب اكرامه بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، كل هذه الأمور بذلها الشيخ المحنك الكريم،ولكنه وجد ضيفه بشغل شاغل عن كل هذه الامور،فمن حيث الطعام لم يمس لحم الخروف الذي قدم له بالرغم من ان اللحم تكون له في الصحراء لذة تختلف عن دوافع الشهية في المدينة ، أما من حيث الأحاديث التي يسامره بها، فقد وجده شارد الذهن عن الاستماع لها ، ومن هنـــا راح الشيخ يفترض شتى الاحتمالات بضيفه. فظن أولاً أن في عقله خللاً ،ولكن سرعان ما تلاشى ظنه عندما القى عليه أسئلة لها علاقة في شؤون البشر العامة قاصداً امتحانه، فوجده ليس بالرجل العادي، كما أن محياه يعبر عن شخص محترم وقور ، وكان الاحتمال الأخير الذي اعتقـــده بضيفه هو أنه يعاني الهم من محنة المت به ، فذهب الشيخ يلح على مضيفه ويناشده الله بأن يخبره بأمره ، وتحت أصرار المضيف والحاحه ، راح العمري يشرح له محنته بكل وضوح ، فأبتسم الشيخ وهو يقول :

ـ اعتقد أنك لم تصب بحياتك كلها بمحنة اكبر من هذه ؟

درس ليلة خير من تجربة عمر طويل

كلا بل كانت حياتي كلها تسير من نعيم الى نعيم أكثر ولم أر بحيـــاتي قطعياً اليوم الأسود ، كما أنني لا أظن أن أحداً أبتلي بما ابتليت به .

ـ لا يابني قد نوافقك الرأي على ما أشرت إليـــه بجملتك الأولى بأنك لم تر بحياتك يوم بؤس ، وهذا يبدو واضحاً من وضعك الراهن بأنك عشت مترفاً غض العود لم يعركك الدهر ولم تجرب المحن ، أما جملتك الأخيرة التي تشير بهـــا وهما بأن محنتك هذه ليس لها مضارع من نوعها ، فهذا خطأ فادح يا بني .

– كيف يا عم أتريد مصيبة اكبر على المرء من أن يكون فقيراً بعـــد غنى وذليلاً بعد عز ومتهماً بعدم امانته بين قومه بعدما كان مضرب المثل بينهم بالأمانة والثقة ، وعاجزاً من أن يعول نفسه بعدما كان يعول اسراً مستورة لا يعلم فاقتها الا الله .

– كل ما ذكرته يا بني صحيح ، ولكن قضيتك اولاً أنها لم تكن بدعاً من نوعها ولم تكن أنت أول رجل امتهن التجارة بأمانة وشرف وربح اموالاً طائلة ثم خانه الجد وخسر رأس ماله ومال الرجال الذي بذمتـه ، والتاجر يا بني أشبه ما يكون من الناحية العملية بالمقامر ، وبعبارة أوضح واصح نستطيـع أن نقول بأن حياة بني البشر اغلبها أو كلها عبارة عن مغامرة بل الحيـــاة كلها كالقمار ، فالمزارع مثلاً الذي يحرث الأرض ويبث فيها البذور إذا لم يوفق بسقي زراعتـه فإنه سوف تكون خسارته فادحة ، ومثله صاحب المـــاشية إذا اجـــدبت الأرض سنين متوالية فالماشية سوف تموت عن بكرة أبيهـــا الخ ... ثم مضى الشيخ وقال: ولكن الفرق هنا يكون بين الرجل الذي عندما يصدم بأول صدمة بحياته يهرب من مواجهة الحياة ويستسلم بخنوع وذل وخور عزيمة ويدع الهموم تفتك بجسمه والجبن يسيطر على عزيمته ، واليأس يتحكم بعقله ، والقنوط يهيمن على أرادته وتفكيره ، وبين الرجل ذي الهمة القعساء والارادة الفولاذية والعزيمة الماضية الذي اذا اصابته المحن أزداد قوة في أرادته ، وإذا فاجأته الكوارث أزداد تمرداً وواجهها بكل ثبات ورباطة جأش .

– كلامك يا عم فيه حكمة وفيه فائدة من حيث الناحية النظرية ولكنك لا تستطيـع أن تطبقه من الناحية العملية عندما تصطدم بالحقائق وجهاً لوجه .

– أنا رجل بدوي لا أعرف ما تعنيه النظرية وانما أعرف الأمور العملية ، ولم يكن حديثي معك إلا ثمرة تجربة عملية عانيت مرارتها في منتصف شبابي وها آنذا الآن في منتصف العقد الثامن من عمري لا أذكر أنه مر بي بؤس اسوأ واشد من من ذلك اليوم .

– أود أن يشرح لي العم كنه هذه التجربة لعلي اخذ منها عبرة استفيد منها لمعالجة وضعي الراهن .

– أن الحادثة التي وقعت معي عندما أرويها لك الآن سوف يتبادر الى ذهنك انها من نسج الخيال لا من صميم الواقع ولكن من الأفضل أن أنادي رجالاً من شخصيات القبيلة لتسمعها منهم ، لكي تطمئن الى صحتها .

– لا لا أريدك أن تدعو احداً فأنت عندي موضع ثقة لا يتخلل الى قلبي ادنى شك بصحة ما تتحدث به فهات ما عندك .

– كنت يا بن أخي منذ ثلاثين سنة مقيماً في هذا المكان نفسه الذي نحن فيه الآن ، وكنت رافلاً بسعادة اغبط عليها من حيث المال والبنون وهما لاشك زينة الحياة وكان في حوزتي من الأبل العدد الذي لا يشاركني بكثرته أحد من أثرياء عشيرتي ، ولدي فرسان من اطيب الخيل ، كما انني رزقت فتيين لا يضارعهما أحد بالنجابة من فتيان الحي ، وكان الكبير منهما في سن العشرين عاماً والصغير أقل من أخيه بسنتين كما رزقت أبنة لها من العمر سنتان من زوجتي الفتاة البارعة بالجمال التي تزوجتها من جديد بعدما توفيت زوجتي الاولى أم الفتيين ، وكنت لا أعرف شيئاً أسمه الهم قطعياً ، وذلك أن هذه الأبل ورثتها عن والدي الذي توفي في الحين الذي بلغت فيه من العمر خمس عشرة سنة ، ولم ينجب والدي ذرية سواي فأصبحت بحكم الواقع الوارث الشرعي ، لجميع ما يملكه ابي من أبل ومن جياد ، ومنذ أن خرجت على الدنيا والسعادة تحفني بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، منذ أن كنت طفلاً وحيد والدي المدلل ، وكنت أقضي يومي على النهج الآتي :

أذهب بعد ارتفاع الشمس على ظهر مطيتي لاصطاد الأرانب والغزلان في الفلاة واعود عند المساء حاملاً ما أصطدته في رحلتي هذه ، وفي الليل يتجمع عندي كل رجال العشيرة يحتسون القهوة ويتبادلون الأحاديث التي تهمهم ويتناوبون

روايات القصص الشيقة ويصغون الى أحد المطربين صاحب الصوت الجميل ، الذى يحسن التلحين على الربابة ، وهكذا كنت أمضي أيامي كلها بسعادة واطمئنان ، وخاصة بعدما كبر ابناي واصبحا يذهبان جنباً [1] مع الأبل بعدما كنت أتولى القيام بهذه المهمة بنفسي ، وفي ذات يوم ذهبت ممتطياً مطيتي بغية الصيد كالمعتاد فوجدت صيداً كثيرا مما جعلني أبيت تلك الليلة في الفلاة خلافاً للعادة، وذلك بعدما انهكني التعب ، وكان الفصل صيفاً ، وليالي الصحراء في الصيف لذيذة وممتعة ، وفي الغد تابعت مواصلة مهمتي بالصيد ، ثم عدت راجعاً الى أهلي في وقت القيلولة ، وعندما مددت بصري نحو بيتي الشعر وجدت مكانه خلواً ولم يكن له أي أثر ، فأرجعت بصري كرة اخرى فرأيت امرأة متجهة نحوي،فأوقفت راحلتي واستدنيت الدربيل [2] لأتحقق من هذه المرأة ، واذا بها زوجتي فأرخيت لذلولي الرسن وأغرتها متجهاً نحوها ، وعندما دنوت منها وجدتها على آخر رمق من الظمأ الذي على وشك أن يفتك بها هي وابنتها الطفلة التي تحملها على ذراعيها ، فأنخت الراحلة وذهبت استفسر من أمرها ، فوجدتها لا تحسن الحديث من شدة الظمأ ، وكل ما في الأمر انها ألقت ابنتها على الارض وسقطت مغمى عليها،فتناولت الطفلة ووضعتها في الخرج الكائن على متن الراحلة ، رحمة بها من حمو الرمضاء المحرقة ، ثم عدت لاتناول الاناء لاسكب ماء من القربة لأسقي الأم وطفلتها،وعندما فككت وكاء القربة ، قفزت أرنب من أحد الاشجار القريبة منا ، مما جعل الذلول تقفز جافلة وراحت تجري بدون هوادة،فبقيت ممسكاً بوكاء القربة جارياً مجرى الراحلة التي كانت كلما سمعت حركتي بجانبها ازدادت جفالاً وجرياً ، حتى سقطت الطفلة من الخرج على أثر جري الذلول الشديد فلفظت انفاسها وأخيراً تركت الراحلة المشؤومة عائداً الى زوجتي التي وجدتها التحقت بالرفيق الأعلى فذهبت الى منازل الحي وأنا أشعر أن المنية اصبحت أقرب الي من حبل الوريد،فوجدت هناك بعض

---

١ - كلمة جنب تعني الفارس الذي يتولى حراسة الأبل .

٢ - الدربيل : هو النظارة المكبرة .

الشيوخ الذين أكدوا أن العدو صب غارته عليهم ونهب الأبل وقتل بعض شباب القبيلة ، وفي مقدمة المقتولين ابناي الفتيان كما اغتنم فرسيها[1] وعندما ابتليت بهذه المصيبة التي جاءت الي بصورة فجائية ، حمدت الله وشكرته الذي لم يبتليني بمصيبة اكبر من ذلك .

ومن هنا قاطع العمري الشيخ قائلاً :

- ما هي المصيبة التي اكبر من هذه ما دام انك فقدت كل ما تملك ، كما فقدت زوجتك وبنيك ، فرد عليه الشيخ المحنك فوراً بقوله :

- أكبر من ذلك مصيبة لو حضرت المعركة وفقدت حياتي ، أو طعنت وأصبت باصابة افقدتني بصرى ، أو لو انه عندما بلغني الخبر انهارت أعصابي وفقدت شجاعتي ، وصبري وايماني ، ولما لم افقد شيئاً لا من تلك الامور الصحية ،

---

١ - عندما يطلع القارىء على مثل هذه القصة وامثالها سوف ينزعج ولا شك عندما يسمع أن بني الأنسان تصل به درجة الوحشية الى الحد الذي يقتل به اخاه الانسان وينهب ماله ، ولكنه يعود ويخادع نفسه قائلاً : كان ذلك في عالم البدو الذي هو اشبه ما يكون في عالم الغاب . وينسى المتمدن منا أو يتناسى أن الدول التي تزعم أنها بلغت القمة في عالم المدنية والحضارة ، كانت حتى عهدنا الحالي تقوم بالغزوات والنهب والقتل الأبادي للابرياء بصورة أعنف وأوقح من ذلك العصر الذي كان يقوم به البدو منذ قرن . وهل يريد القارىء دليلا أعظم وأوضح وأقرب عهداً من الغزو الثلاثي على القاهرة الذي قام به دولة الانجليز وفرنسا وربيبة الغزاة اسرائيل في عام ١٩٥٦ م ١٣٧٦ هـ . ومما يدعو الى السخرية أن الأولى يقال عنها أم الديموقراطية والثانية يقال عنها أم الحرية ، وما وجود اسرائيل في وسط عالمنا العربي وتأييد دول الاستعمار لها الا دليل لا يقبل الشك بأن الغزو العشائري انقطع من عالم البادية منذ منتصف هذا القرن ولكنه لم ينقطع من دول الاستعمار التي تعيش على عرق وكدح الشعوب الضعيفة ولن تتخلى عن استعمارها بل استعبادها واستغلالها لمقدرات الشعوب الا خوفاً من وعي هذه الشعوب نفسها التي سمت نفسها دول عدم الأنحياز .

ولا الامور المعنوية ، فقد وجدت ان الامور الأخرى وان كانت مؤلمة حقاً ، ولكنها أهون من الاخيرة فلو فقدت شجاعتي وصبري فهذا يعني استسلامي لليأس والقنوط ومعناه ايضاً انني سوف أفشل في الحياة الى النهاية ، والنتيجة تكون هي انني أدع مجالاً لاعدائي الشامتين وأوصد الباب في وجه اصدقائي المخلصين، ولكن صبري وإيماني وشجاعتي لمواجهة الاحداث ، كل ذلك جعلني اكون عكس ذلك ، فالشامتون لم يروا مني أية بادرة تدل على يأسي أو قنوطي ، بل على العكس رأوا مني صبراً ، واستهتاراً بالحادثة،فكان الصبر الذي شاهدوه مني مصيبة عليهم،اكبر من المصيبة التي داهمتني ، وأما اصدقائي المخلصون فإنهم استبشروا خيراً وبسط كل فرد منهم يد المعونة والمواساة لي ، وذلك عندما وجدوا مني رجلاً لم تزده تلك الحادثة إلا قوة وشجاعة وثباتاً ، وها أنذا الآن قد منّ الله علي نتيجة لصبري،بمال وبنين وجاه لا يضارعني به أي واحد من رجال عشيرتي .

ثم ختم الشيخ حديثه بقوله : وأعظم من ذلك هو أن السعادة التي أشعر بها الآن يا بني ألذّ عندي من تلك الاولى لأن سعادتي السابقة شكلية لا طعم لها ولا قيمة لأن الغنى الذي كان مصدراً لتلك السعادة ، لم يردني عن طريق الكدح والكفاح في الحياة بل وردني كما ذكرت لك سابقاً عن طريق الوراثة ولذلك لم تكن له تلك اللذة التي اشعر بها الآن بسعادتي التي ارفل بها كعصامي جمع ماله بصبره وكدحه ، وبعرق الجبين والساعدين . وشتان بين من يرث المال وبين من يكسبه ، وبين وارث المجد وبين من يصنعه .

وبعدما انتهى الشيخ من حديثه ، قفز العمري وذهب يقبل رأس عمه الشيخ وهو يقول :

– لقد أزحت عني كابوساً من الهم فبوركت من شيخ محنك بثثت في نفسي عزيمة سأمضي بها بعون الله حتى النجاح ، وقتلت يأساً كاد أن يقضي على حيويتي

مدى الحياة .

ثم مضى العمري حتى قال : لقد أخذت عنك درساً جعلني أثق ان المصيبة الكبرى التي يفاجأ بها المرء في حياته هي اليأس والقنوط ، وموت الهمة وخور العزيمة .

وفي صباح الغد رحل العمري وهو فسيح الأمل رحب الصدر قوي الثقة بهمته الجديدة التي اصبحت تناطح السحاب ، فوصل مدينة الزبير بعزيمة تفل الحديد ، وارادة لا تعرف اليأس ، فحل ضيفاً في بداية الأمر على ابن ابراهيم حاكم الزبير ، ومن فوره طلب من ابن ابراهيم ان يستدعي كل من له في ذمته مال من أصحاب الأمانات والديون ، وعندما اجتمع القوم راح يتحدث معهم بحديث ينم عن ثقة الرجل بنفسه ، ويجعل دائنيه يثقون بأن الرجل لو لم يكن مستنداً على شيء يضمن لهم اعادة أماناتهم لما كان لديه هذه المعنوية القوية التي تختلف عن معنويته السابقة ..

وعندما رأى الزبيريون وحاكمهم معاً شدة ثقة الرجل بنفسه وقوة معنويته وايمانه بمستقبله ، عندئذ ذهبوا واعتذروا منه وفي الوقت ذاته جاء اصدقاؤه المخلصون يعرضون عليه ما يريده من سلفة مالية ليعمل بها كتاجر كما كان سابقاً ، فاستقرض من اصدقائه الاوفياء ما أمكنه أن يستقرضه من المال وراح يشتغل بالتجارة كما كان من قبل ، وعاد له الحظ من جديد ، ولم تمض مدة طويلة الا قد استرد مكانته الاجتماعية والمعنوية وثروته الاقتصادية بصورة أعظم من ذي قبل ..

وظل الرجل يدعو في سره وعلانيته لذلك الشيخ البدوي الذي بث في روحه

الهمة الشامخة بعدما كان قانطاً يائساً [1].

---

١ – وبعد ، لنا أن نقول أن الشيخ بلا شك نفض الغبار المخيم على همة العمري وحطم اصفاد الكسل التي كان العمري مقيداً بها نفسه بنفسه ، ولكن علينا أن لاننسى بأنه لو لم يكن بين جنبي الرجل روح حية قابلة للنهوض وهمة عصامية متهيئة للطموح وقلب المعي يستوعب العبر ويستفيد من الحكم ، لولا توفر هذه الاشياء في شخصية العمري لما كان لحديث الشيخ وقصته الواقعية أي اثر على نفسه . وفي حالة كهذه نستطيع أن نثبت بأن الشيخ المحنك أشبه ما يكون بالمطر الغزير الذي نزل على أرض مقحلة مجدبة ولكنها تربة خصبة ومجرد ما تدفق عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج..ولكن هذا الماء مهما كان غزيراً وعذباً لو نزل على أرض سبخة لما كان له أي اثر محسوس ..وهكذا الحكمة والموعظة اذا القيت الى غير اهلها فلن يكون لها أي تأثير ، ورحم الله عبد الله بن العباس الذي يقول : لا تعطوا الحكمه الى غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم .

الصبر سر النجاح

-٢٦-

(وبشّر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وأنا اليـــه راجعون .
اولئك عليهم صلاة من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون) قرآن كريم .

ذكر الله تبارك وتعالى فضيلة الصبر في أكثر من موضع في كتابه العزيز ، وإذا كان الحلم كما يعبر عنه بالمثل الدارج القائل : (الحلم سيد الأخلاق) فإن الصبر هو الأصل والحلم لم يكن إلا فرعاً عن اصل ، فالرجل الذي لا يملك الصبر في حالة الغضب لا يمكن أن يكون حليماً ، ولئن كانت الشجاعة من أهم صفات الرجولة فإن مصدرها الأساسي وينبوعها الأصيل في كيان المرء ليس إلا الصبر ، فالشجاعة فرع والصبر اصل .. والكثير من الناس من يبدي شجاعة خارقـــة في معركة عابرة أو (في مغامرة مرتجلة) ..

ولكن القليل جداً الذين إذا استمرت الشدائد وتوالت المحن وتضاعفت البلوى وطالت الحروب وإزداد السهر واشتدت الأزمة وبلغت الروح الحلقوم ، قليلون الذين يثبتون شجاعة في حالة كهذه وأقل منهم من يبدي شجاعة وثباتاً وصبراً وجلداً بل وتحدياً للعدو عندما يقع في قبضة اعداء الداء .. ومن ثم يـــلاقي أشد

الامتحانات هولا واعنفها ضراوة فإما أن تخور قواه ويستكين ويخنع طمعاً منه بالحياة ، وإما أن يتحدى اعداءه بكل اباء وشمم كما فعل المارشال الألماني غورنغ في محاكمات الزعماء النازيين في نورمبرغ [1] ، وكما فعـــل بعض شجعان العرب في موقف مماثل لموقف المارشال غورنغ ، وأية شجاعة من هذا النوع مصدرها الاساسي هو الصبر ..

وأما الرواية التي يتناقلها الشعبيون في جزيرتنا العربية فهي أن لم تكن من صميم الواقع فإنها تعبر تعبيراً بالغاً عن الحقيقة التي نشير اليها عن أهمية الصبر وعن كونه هو الأصل الأساسي لكل فضيلة ، بصورة عامــــة .. ولكل معنى من المعاني التي تمت الى الشجاعة بأدنى صلة ..

وخلاصة القصة التي يتناقلها شيوخنا الشعبيون هي كما يقال : أن عنترة العبسي وحاتم الطائي جمعتهما الصدف فقال الأول : أريد أن تخبرني عن السر الذي جعلك تكون كريماً الى الدرجة التي جعلت شهرتك تسمو على كل كريم من كرمــــاء العرب ..

فقال حاتم :

– السر في ذلك يعود الى الصبر ..

قال عنترة :

– كيف ذلك ؟

– قال حاتم : أنني اعتبر أن الصبر على الفقر وما يلحق به من جوع وتقشف عامل اساسي في حياتي .. وما أملكه اليوم وأنا بحاجة اليه انفقه في يومه وقــــد

---

١ – انظر محاكمات نورمبرغ . طبع دار اليقظة للتأليف والترجمـــة . تعريب فتح الله محمد المشمشع وجورج شاهين صائغ ص ٨٧ و ٨٨ .

انحر ناقتي لضيوفي وافرق بقية المأدبة لجيراني ومن ثم أبيت الطوى صابراً على ذلك غير مكترث بما يلحقني من مشقة وعناء في ذلك ، ثم استطرد وقال : فهل لك أن تفيدني انت عن السر الذي جعلك تبلغ انت الأخر من شهرة الشجاعة إلى الحد الذي جعل لك من ذيوع الصيت ما يطغى على سمعة أي شجاع سواك ؟.. فيقول الرواة أن عنترة ابتسم ثم قال : أدن مني وضع احدى اناملك في فمي وأنا ايضاً سأضع احدى أناملي في فمك .. وكلانا يعض أصبع اخيه بكل شدة وعنف .. وعليك أن لا تدخر وسعاً بأن تضغط على اصبعي بكل ما لديك من قوة .. كما انني سوف اقوم بعمل مماثل .. وعلى كل منا أن لا يبدي ضجراً مهما قسى أحدنا على أصبع أخيه . جرت العملية على هذا الشكل وشد كل واحد منهما اصبع اخيه بعنف فشعر حاتم بالألم وشاء أن يضجر ولكنه تصبر وشد على اصبع صاحبه بقسوة محاولاً أن تكون بداية الضجر من رفيقه لا منه وما كان من عنترة الا أن قابل العنف بعنف أشد ولما لم يطق حاتم شدة الام صرخ شاكياً ألمه فتركه عنترة وهو يقول :

- ثق أنك لو صبرت قليلا لكنت البادىء بالصراخ والضجر ..

هذه القصة تعطينا دليلا واضح المعالم على أن الصبر هو العنصر الاساسي لكل مكرمة وإنما انواع الصبر تختلف باختلاف الميول والطبائع البشرية فهذا مثلا يكون صبره على ما يناله من شظف العيش والبؤس والفقر في سبيل الكرم كحاتم .. وذاك يكون صبره على ما يناله من طعون في جسمه وعلى الأقدام حتى الموت اذا دعت الحاجة كعنترة .. وآخر يكون صبره على الملمات والاحداث الفاجعة والمصائب المذهلة كصاحب قصتنا هذه التي نقلتها عن المرحوم الامير عبد العزيز ابن احمد السديري الذي اشرت الى ذكره في أكثر من مناسبة .. في هذا السفر .. ويؤكد المرحوم بأنه نقلها عن والده (رحمه الله احمد السديري وهذا الأخير نقلها لنا عن المرحوم سالم بن سبهان ويقع تاريخها بين عامي ١٣٠٩ هـ - ١٣١٢ هـ .

يقول الراوي : عندما كان سالم السبهان يأخذ زكاة الماشية من القبائل الكائنة في جنوب الجزيرة في تلك الظروف التقى بمحض الصدفة بجماعة كثيري العدد من

بادية قبيلة قحطان ، فسأل عمن يكون هؤلاء ؟.. فقيل انهم من قبيلة قحطان فسأل ثانية من أي فرع أو من أية أسرة ؟ فأخبره المسؤول انهم من أسرة رجل واحد يقال له (ابو رقطة) فحط عن رحاله عندهم وأمر رجاله بأن يجبوا له زكاة الابل والغنم فكانت الزكاة وافرة وفي الغد وجد قومه يضارعون العدد الأسبق فسأل عنهم ممن يكونون ؟ فأفيد بأنهم أبناء (أبو رقطه) فأخذ منهم زكاة لا تقل عن الزكاة التي أخذها أمس الماضي ثم مضى في سبيله .. فوجد قطيناً لا يقل عددهم عن عدد سابقيهم فحط عن رحاله وأمر من يسأل عن هؤلاء الآخرين؟فجاء اليه الرسول يخبره بأن هؤلاء أيضاً أبناء أبو رقطه .. فجاء منهم الزكاة كالمعتاد فكانت الأموال التي جباها من هؤلاء القوم أموالاً طائلة ..

فقال سالم السبهان فليبارك الله لك يا عشيرة ابو رقطة على المال الكثير الذي توفر عندك فأجابه أحد السامعين من أبناء «أبو رقطة» قائلًا :

– انهم ليسوا بعشيرة وانما هم أبناء رجل واحد ..

فقال السبهان بلغة التعجب والاستفهام..

– أكلهم ينتمون الى أسرة واحدة ؟..

فأجابه هذا بقوله :

– بل كلنا أبناء رجل واحد ، فرد مستغرباً ..

– أمن جد واحد ؟.. فقال البدوي :

– بل من رجل واحد وأبونا لا زال على قيد الحياة وأنا واحد من أبنائه ..

وكان هذا الذي يخاطب السبهان في العقد السادس من عمره وقد وخطه الشيب مما جعل السبهان يزداد حيرة ودهشة في آن واحد عندما علم ان هؤلاء النفر الذين يشكلون عشيرة بكاملها كلهم من سلالة رجل واحد.. ومما جعل دهشته تتضاعف هو

ان أبا هؤلاء القوم لا زال على قيد الحياة ، الامر الذي جعله يحرصا إن يعرف مقدار عمر هذا الشيخ،وهل هو قوي البنية يقظ الحواس أم انه شيخ هرم؟..فراح يستفسر من ابنه بقوله :

- كم يبلغ والدك من العمر ؟..

فأجابه الأبن بسرعة ..

- في آخر العقد العاشر ، ولكن صحته قوية وحواسه سليمه وعندما تراه لا تظن إلا انه في بداية العقد السادس ..

- أيمكن أن أراه ؟.

- أجل وفي أي وقت تريد ..

- أين يكون الآن ؟.. هل هو يقيم معكم أو مع الآخرين ؟؟

- بل هو معناه وهو الشيخ الريان الجسم الربعة الذي كان يتقدمنا عندما سلمنا عليك وبيته ذاك البيت المرتفع على الاعمدة الثلاثة وإذا كان لك به حاجة فإنني على استعداد لأن اخبره ليأتيك في أي وقت تريد ؟.

- لا ليس لي به حاجة خاصة بالنسبة إلي وإنما أود أن اعرف شيئاً عن حياة والدك التي لا شك عندي بأنها حياة سعيدة لم ير فيها ما يكدر صفو عيشه..

- ما هو دليلك على ان حياته كانت كلها سعيدة ولم ير فيها ما يشوبها من نكد الدنيا ؟..

- من أعظم الأدلة على ذلك وجود هذه الأسرة الكبيرة بل العشيرة الكثيرة وهذه الأموال الطائلة التي كلها محسوبة له سواء من المال أو من البنين.. وهذان الاثنان هما كمال لذة الدنيا وزينتها كما ذكرها الله بكتابه العزيز بقوله : المال والبنون زينة الحياة الدنيا الخ ..

وبعدما انتهى السبهان من حديثه هذا تنهد ابن (ابو رقطه)وقال :

– أرى انه من الاحسن والحالة هذه أن تبعث رسولاً من عنـــدك لتستدعي والدي لـكي يقص عليك ما لقيه من حياته السعيدة كما يخيل اليكم..

– يبدو من الجملة الاخيرة أن في حياة والدك لغزاً مبهماً؟.

– طبعاً فيها أكثر من لغز ..

أتستطيع أن تشرح لي ما تعرفه عن حياة والدك ؟.

– مـا دام أن والدي قريب منا الآن فمن الاحسن ان تبعث اليه رسولاً من عندك ليحضر .. ومن ثم يروي لـكم الشيء الذي يسترعي الانتباه من صميم واقع حياته ..

– لا بأس هذا أحد رجالي سوف يذهب الى والدك ليأتي به الينا وإنما اريـد منك ان تهدي رسولي الى بيت والدك ..

– لا يحتاج بيت والدي الى دليل ثم أشار بيده الى بيت أبيـه قائلاً للرسول بالاشارة :

– انظر الى بيته المرفوع على ثلاثة أعمدة وتلك علامته الفارقة لأنه ليس في قطين الحي بيت على ثلاثة أعمدة يشابهه ..

فراح الرسول الى البيت المشار اليـه ووجد صاحبـه متكئاً على سرج الفرس ويحيط به عدد كبير من أبنائه وأحفاده وأحفاد احفاده فقال له الرسول بعد ان بدأ بالتحية التقليدية :

– ان الامير يريد أن يراك ..

فأجابه الشيـخ بالموافقة بعد ان طلب منه ان ينتظر حتى يقدم له اكواباً من

القهوة ، وبعدما أحتسى الرسول مـــا طاب له من القهوة ذهب الى السبهان وبصحبته الشيـخ ..

وبعد تبادل التحية التقليدية وانتهاء الشيـخ من أكواب القهوة والشاي اللذين احتساهما بأناة ووقار ، بعد ذلك وجه له سالم السبهان السؤال التالي :

- أيسمح لنا عمنا بأن نسأله بعض الاسئلة ؟..

- تفضل يا بني ..

- كم تبلغ من العمر ؟..

- ما يناهز المائة سنة ..

- يبدو لي انك اصغر من ذلك بكثير ..

- ولكن الذي قلته لك هو الواقع ..

- مـا هو السر في نمو صحتك وسلامة حواسك بالرغم من كونك بلغت من العمر عتياً ؟..

- أهم شيء في ذلك حسبما أظن هو ان التجارب علمتني بأن لا أحزن على الماضي ولا أفرح بالحاضر ولا اهتم للمستقبل ..

- فهمت من مجرى الحديث الذي دار بيني وبين ابنك ان في حياتك عبراً .. فهل يمكن ان تحدثنا عن أهم تجربة عرفتها خلال حياتك الطويلة ؟..

- لم أر - ولله المنة والشكر - في حياتي ما يكدر صفوها خاصة بعدمـا تجاوزت سن الشباب والفتوة وربما كان هذا ايضـاً من أهم العوامل التي ساعدتني على تماسك صحتي لأن أهم شيء يؤثر على صحـــة المرء ، ليس الا توالي الامراض وتتابع الأحداث والمصائب التي يبتلي بهـــا الانسان بعدما يتجاوز سن الفتوة

ويدخل مرحلة من سن الكهولة .. عند ذلك يفقد قوة المقاومة ..

ومضى الشيخ بحديثه الى ان قال : ومن رحمة الله ولطفه بي أن المصيبة التي ابتليت بها كانت في عنفوان شبابي فلم تؤثر عليّ من الناحية الصحية لأن في الشباب قوة ومناعة لمواجهة الاحداث لا توجد عند الشيوخ ، كما اعطتني تلك التجربة المرة درساً في مستقبل حياتي فصيّرت مني إنساناً يقابل الملمات والمصائب بايمان وصبر لا يتخلل اليهما القنوط واليأس ..

– نحن بحاجة الى أن تسمعنا التجربة التي أشرت اليها ..

– أنكحني والدي من ابنة أخيه المتوفي وذلك عندما كنت في سن المراهقة فأنجبت مني ذكورين- وذلك بعد أن توفي والدي فأصبحت ابل والدي الكثيرة وابل عمي التي لا تقل عنها عدداً ملكاً لي بحكم انني العاصب لعمي والابن الوارث الفذ الوحيد لوالدي ، ولم يكن لعمي ذرية ما عدا ابنته التي في عهدتي ، فكنت أغنى وأسعد فتيان عشيرتي ..

ثم استطرد الشيخ وقال :

– وفي ذات يوم ضافني ضيوف لم يكن لي بهم سابق معرفة من قبل ، ولم أرهم فيما بعد فذهبت واستدنيت كبشاً وذبحته كضيافة لهم ثم ذهبت لقضاء حاجة ما ، فجاء الطفل الكبير وأخذ المدية واتجه نحو أخيه الاصغر الذي انطرح له ليمثل دور الكبش كما مثل الكبير دوري بتذكيتي للخروف فذكاه بالشفرة المسنونة كما رآني أذكي الكبش .. فخرجت والدتهما وعندما رأت هذا المنظر فقدت رشدها فالتقطت حجراً كبيراً وقذفت به الصبي الكبير فأصابت منه مقتلاً ، فخر الآخر ميتاً بجانب أخيه ، فوقعت هي الاخرى على ابنيها ميتة من فورها ، فجئت فوجدت الابنين وزوجتي قد فارقوا الحياة ، فكان وجود ضيوفي مما ساعدني على التجلد والصبر ، فذهبت أحفر قبورهم بمعونة من ضيوفي .. وبينما كنت قد حفرت القبر الاول والثاني وبدأت بالثالث عند ذلك جاءني راعي ابلي يصيح بأعلى صوته

فتركت حفر القبر واتجهت نحوه اسأله الخبر فأخبرني ان غزاة من قبيلة عتيبه صبت غارتها ونهبت الابل بكاملها. فذهبت على الفور وامتطيت جوادي الأصيلة السريعة العدو ، وتنكبت سلاحي ولحقت العدو وأنا في حالة يأس من حياتي.. قد قررت أحد الامرين أما ان استعيد أبلي وأما ان اقاتل الغزاة حتى اقتل ، ولكن الذي حصل هو انني لم أحظ لا بهذه ولا بتلك ، لانني عندما هجمت على الغزاة اطلقوا عليّ عياراتهم النارية فأصابت مقتلاً من الفرس فسقطت ميتة فذهب الغزاة بالابل بعدما عدت الى بيتي الخالي من الزوجة والابل والاولاد والفرس ،وحتى الضيوف ذهبوا وتركوا ضيافتهم ولكنهم لم يذهبوا حتى واروا جثمان الزوجة وطفليها..

وصمت الشيخ قليلاً .. فانتهز ابن سبهان صمته هذا وقال :

ــ وكيف جمعت هذا المال بعد تلك الكارثة ؟.

ــ فأجابه الشيخ وهو يبتسم فقال :

عندما بلغ رجال قبيلتي ما حل بي من كارثة أبدوا رأيهم بالاجماع بأن أذهب الى قبيلة عتيبة الذين غزوني ونهبوا أبلي لأشكو لهم أمري لعلهم يعيدون لي أبلي أو بعضاً منها بعدما يعلمون بالكارثة التي حلت بي،ولكنني رفضت واصررت معتمداً على الله ، وواثقاً به ومقرراً بأن لا أبدي شكواي لأي مخلوق كان ومؤمناً بأن الضجر والشكوى للمخلوق الفاني ليست إلا عدم ثقة بالباريء جلت قدرته ، فقاطعه ابن سبهان قائلاً :

ثم ماذا كانت الاسباب التي التمستها حتى وصلت الى هذه الثروة الطائلة والبنين الكثيري العدد ؟.. فقال الشيخ :

ــ ليس هناك أسباب مادية تستحق الذكر سوى الاسباب المعنوية التي أهمها

الصبر .. ثم مضى الشيـخ في حديثه الى أن قال :

– عندما نكبت بهذه المصائب جاء قومي فتطوعوا من تلقاء أنفسهم فجمعوا لي أبلاً كما هو شأنهم في تكاتفهم الاجتماعي بحالة كهذه ، وقدموها لي كسلفة [1] على أن أتولى رعايتها والعناية بها فلي منها البانها ، وأوبارها وما تنجبه في العام الاول من ذرية مقابل عنايتي ورعايتي لها .. فقبلت ذلك كقاعدة متبعة وعرف متبادل ، فأعطاني رجال قبيلتي مجموعة كثيرة من أبلهم وقد أخذت أتولى رعايتها والعنـاية بها حتى بارك الله في ذريتها ، فأنجبت جميعها ..

وبعد ذلك أعدت الأصل من الابل الى أهلهـــا بينما بقيت عندي الذرية .. واسترسل الشيـخ بحديثه الى ان قال :

– وأعجب ما في الامر أن غزاة عتيبة الذين نهبوا أبلي لم يبلغهم خبر الكارثة التي حلت بي إلا بعد مدة تزيد على العام بحكم الحروب القائمة على قدم وساق بيننا وإياهم التي من شأنها ان تجعل حلقة الصلة بين الطرفين مقطوعة ..

ولكن ما أن تأكد غزاة عتيبة انهم اختطفوا أبلي وقتلوا فرسي في اليوم نفسه الذي مات فيه ولداي وزوجتي حتى أعادوا عليّ ابلي كاملة مضافاً اليها ما انجبته من الذرية خلال المدة التي بقيت عندهم بها كما اعطوني عهداً متفقاً عليه من رجـــال قبيلة عتيبة بأن لا يغزوني أحد منهم قطعياً ، فعادت إليّ ابلي بكاملها مع مـــا أنجبته من ذرية بالاضافة الى مـــا هو عندي من ذرية الابل التي أشرت اليها ، فأصبحت من ذلك اليوم الى يومنا هذا لا أغزو ولا أغزى لا أنا ولا أبنـــائي

---

١ – انظر كتابنا التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين للمؤلف ص ٣٥ .

وحتى احفادي ، وكل هذه النعمة نتيجة للصبر فهو خير عدة يستعين بـــه المرء بالملمات والمحن .. وهذا ما أوصي به أبنائي فيما اذا أصابتهم كارثة مـا فيها ضياع للمال أو الاولاد ، فقد أوصيتهم أن لا يفقدوا الصبر . فيكونوا وقتهـــا حرموا الأثنين : ضياع ما اصيبوا به في إتلاف كما حرموا الصبر [1] .

---

١ - ومن هنا بدى لنا الامر جلياً ان من اهم اسرار النجاح في هذه الحياة هو الصبر .. لا اعدمنا الله اياه ..



الفَصْلُ الرّابع

اصطناع المَعروف وَالمكافأة عَليه

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يصنه ومـن لم يتـق الشتم يشتم

اذا كان ابتكار المعروف فرض كفاية
فان المكافأة عليه فرض عـــين

- ٢٧ -

إذا كانت الارض الطيبة والتربة الخصبة البكر إذا جاءها المـاء القراح الزلال اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فإن الارض السبخة مهما تدفق عليها الماء العذب فإنه لا يغير شيئاً من طبيعتها ..

وما يقال عن الارض يقـــال عن طبيعة بني الانسان عينـاً بعين ولا غرو ، فإن القرآن الشريف يقول : منهـا خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) ..

إذن فالانسان بطبيعته جزء لا يتجزأ من الارض التي منها الخصبة ومنهـــا السبخة ..

وعندما ننظر الى ما قاله كثير من الشعراء والأدباء المتشائمين بل ونشاهد نحن بأنفسنا رؤية العين مـا يؤيد كلام هؤلاء في حكمهم على كثير من البشر الذين لا يفيد في طباعهم المعروف ولا يؤثر عليهم الفضل إلا إذا كان الماء القراح الزلال يؤثر على الارض السبخة ..

عندما ننظر هذه الظاهرة نكاد أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن بني الانسان خلقوا كلهم من ارض سبخة ولكن سرعان ما نفند هذه النظرية حينما نرى من بني الانسان من يؤثر على كيانه أدنى عمل من المعروف كما هو شأن الارض الخصبة التي تثمر تربتها وتزدهر فيها شتى أنواع النبات بدون سقي ماء مباشر وإنما بمجرد طل خفيف فقط ..

هكذا طبيعة الارض الخصبة وهذه سجية الانسان الكريم الوفي الذي خلقت طينته من هذه الارض المباركة الشكور بطبيعتها ..

وليست الحادثة المشهورة التي سوف نوردها الآن إلا دليلاً ملحوظاً من جملة الأدلة الواقعية المؤيدة لصحة ما نصبو اليه ..

وقصتنا هذه وقعت في عام ١٢٦٨ هـ فيكون لها الآن ما يقارب قرن وربع القرن ..

وفي العام المشار اليه أعلاه فكر أمير بلدة حائل آنذاك المدعو (طلال العبدالله الرشيد) ان يدعو البارزين من أعيان بلاده وأعيان أهل القرى القريبين من البلاد ليأخذ رأيهم في أمر ذي أهمية فبعث رسولاً من عنده يخبرهم برغبته هذه ويعين لهم الزمان والمكان اللذين سيتم الاجتماع فيهما .

ووفقاً للرغبة المشتركة توافد المواطنون حسب تعيين الزمان المحدد قاصدين المكان الذي كان في قصر الامير بالذات ، فانتظر الامير قليلاً ليصل بقية المواطنين خاصة من أهل القرى النائين عن البلاد ، ثم بعد ذلك بدأ يشرح الأمر الذي جمعهم من أجله ، وبعد أن أنهى حديثه صمت فترة ثم قال :

كل منكم يوافيني في رأيه في هذا الشأن لأنني لم اطلب حضوركم هنا إلا ليكون الرأي مشتركاً ..

وفي أثناء كلامه هذا وقبل أن يبدي كل فرد من القوم رأيه دخل شخص من أبرز شخصيات قرية تسمى قفار[1] يدعى سالم بن راشد ولهـذا الشخص مكانة مرموقة في المجتمع وكان حضوره المتأخر مشكلة بالنسبة اليه وللأمير ايضاً وذلك انه لم يأت إلا بعد ان اخذ كل فرد من اعيان البلاد مكانه في المجلس وكان مركز هذا الشخص القادم يفرض عليه ان يكون في صدر المجلس فاذا لم يكن الرجل الاول الذي يلي الامير بصورة مباشرة فينبغي أن يكون الثاني أو الثالث فاتجه الرجل الى صدر المجلس ليتخذ مكانه الطبيعي فيه فوجده حاشداً بأعيان البلاد الذين يرى كل فرد منهم لنفسه من المكانة ما يضارع ابن راشد ، فاتجـه الى يمين النادي ليختار له مكاناً فيه فوجده غاصاً ولم يكن له مكان فيه ، فعاد الى اليسار بسرعة فيها شيء من الخجل فكان الرجال متراصين فيه المنكب حذو المنكب ، وليس من السهل ان يتنازل أي من هؤلاء الاعيان قبل ان يشارك جماعته بالرأي وقبل ان يعرف ما هو الرأي الذي اتفق عليه القوم ، كما ان الامير وان كان يرى لابن راشد مكانة تستحق الاحترام ولكنه لا يستطيع من الناحية الأدبية والاجتماعية ان يأمر احداً من هؤلاء الاعيان بالخروج ليجلس ابن راشد في محله فهذه العملية وان كانت احتراماً لابن راشد من ناحية ولكنها احترام لا يتم إلا على حساب المس من حرمة وكرامة المواطن الآخر ..

وفي هذه اللحظة الوجيزة التي كان فيهـا الامير في حيرة من أمر ابن راشد وكان ابن راشد يتصبب عرقاً من الخجل متمنياً في قرارات نفسه أنـه لم يأت من قريته في هذه الثواني لم يكن أمام ابن راشد إلا أن يتجـه نحو الباب قاصداً الخروج .

---

١ ـ كانت هذه القرية الاصل وكانت حائل عبارة عن قرية اذ لم تكن تابعة لقفار فهي اقل منها شأناً . انظر كتاب المؤلف الجزء الخامس فيما اذا اصدر .

وقبل أن يتخذ قراره النهائي قفز شخص يدعى حسن الباذري [1] من صدر المجلس وصاح به : تفضل يا أبا فلان في مكاني ثم انحرف بوجهه نحو الأمير قائلاً :

ـ لقد سمع القوم الرأي الذي جمعتنا من اجله ، ولكن فلانا لم يسمعه بحكم بعد قريته ومن الاوفق أن يعيد الأمير اطال الله عمره حديثه ليسمعه فلان بصفته رجلا لا نستغني عن رأيه ، ثم اردف قائلاً : أما بالنسبة لرأيي فقد منحت صوتي لفلان (يقصد ابن راشد) قال الباذري هذه الكلمة بعدما اخلى مكانه لابن راشد ثم خرج فوراً ..

سر الامير لهذا الموقف الذي اتخذه الباذري والذي سر له اكثر وأكثر ابن راشد طبعاً .

كان الحديث الذي تحدثه الباذري من شأنه أن يجعل الامير ملزماً باعادة حديثه من جديد ليسمعه القادم الجديد فما وسع الامير الا أن اعاد حديثه السابق وقد اعيد تداول الرأي فيه من جديد وساهم ابن راشد برأيه الذي يعتبر رأي رجلين أي رأيه ورأي رفيقه الباذري ..

ولما كان الرأي المأخوذ به في حالة كهذه يعود الى الاكثرية فقد كانت الاكثرية بجانب القوم الذين في طليعتهم ابن راشد فأخذ برأي الاكثرية في ذلك الامر الذي حتى الآن لم نعرف كنهه لانه ضاع في خضم الحادثة التي كان لها من الاثر في نفوس المواطنين ما جعل ذلك الموضوع نسياً منسياً ..

كانت العادة المألوفة آنذاك أن يتبادل الدعوة فيما بينهم أهل القرى واهل البلاد

---

١ - الباذري من أهالي بلدة حائل .

وحيث أن القرى في فصل الصيف يكون فيها خضروات وفواكه لذلك تكون الدعوات من أهل القرى لاهل البلد بصورة مستمرة بهذا الفصل يضاف الى ذلك أن اهالي قرى حائل اكرم بكثير من اهل البلاد انفسهم بل أكرم من أهل اية قرية من قرى شبه الجزيرة ، ولذلك لم يستغرب الباذري دعوة ابن راشد له لتناول وجبة الغذاء .. لا لم يستغرب الباذري هذه الدعوة ولم يفسرها إلا انها دعوة طبيعية كشأن كثير من الدعوات والولائم التي يقوم بها ابن راشد بين فترة وأخرى فذهب الرجل ممتطياً دابته قاصداً قرية قفار التي لا يتجاوز بعدها عن بلدة حائل اكثر من خمسة عشر كيلومتراً وقد رأى الرجل وهو في طريقه ما أثار انتباهه من كثرة عدد الرجال الذاهبين من اعيان أهل البلاد إلى قرية قفار بدعوة من صاحبه نفسه ولكنه لم يفسر ذلك إلا انها دعوة من ابن راشد أما على شرف الأمير او في مناسبة اخرى ذات شأن خاص به ..

وعندما دخل بيت صاحب الدعوة ووجد الامير طلالاً والقاضي وجميع أعيان أهل البلاد وأعيان أهل القرى الذين حضروا مجلس الامير سالف الذكر كلهم موجودون فظن في نفسه أن الامر كما تخيله ..

ولكنه سرعان ما أدرك ان الدعوة له بالذات لا للأمير ولا للقاضي وإنما هي على شرفه ، لقد شعر بذلك بصورة واضحة عندما أمسك بذراعه المضيف وأجلسه في المكان الذي أعده له كضيف شرف ثم تلى الكلمة المألوفة التي يعرف المدعوون من مفهومها من هو ضيف الشرف عندما قال :

– ان «حسناً» كثير البركة فقد كان سبباً لحضور الامير والقاضي وأعيان قومنا الافاضل .

دهش الباذري من هذه الدعوة التي هي على شرفه بدون ان يخبره المدعو ، اديرت اكواب القهوة كالمعتاد وبعد ذلك وقف احد أخوة المضيف وأشار لهم ان يتفضلوا الى المائدة فجاء ضيف الشرف يسير بخطى وئيدة بين الامير والقاضي وكانت المائدة

فيها من الخيرات ما يزيد عن كفاية الامير وحاشيته الكثيري العدد وأعيان البلاد والقرى .. خرفان كثيرة العدد وناقة من سمان الابل واكواب اللبن المخيض يدور به رجاله على المدعوين وصحون الفاكهة والتمر الذي يسيل منه الدبس وجد كل ذلك موضوعاً تحت الجفنـات التي يقطر منها السمن ويغطيها أليات الخرفان وسنام الناقة .. ظل الامير وبعض من المدعوين تتجه أبصارهم نحو ضيف الشرف فكان لسان حالهم يشير له من طرف خفي بأن هذه الدعوة اكرام لك تجاه موقفك من مضيفك في المجلس الحاشد أي سالف الذكر .. كما أن ضيف الشرف هو الآخر بدأ يشعر ان هذه الدعوة مقابل قيامه له بذاك الحفل ..

كان كل من الامير وضيف الشرف والمدعوون يرون ان ابن راشد قابـل معروف الباذري بدعوته له مقابلة لا مزيد عليها ولم يخطر لهم ببال ان القضية لم تقف عند هذا الحد.

« الرجل اكثر كرماً مما يظنه المدعوون وأجم مروءة مما يتصورون »

عندما انتهى المدعوون من طعامهم ذهبوا الى مجلس المضيف وبعدما احتسوا اكواباً من القهوة ولم يبق إلا (دخون العود)[1] عندئذ وقف المضيف وقال :

ـ لا يخفى على الامير المثل القائل: ثلاث هزلهن جد وهن الهبة والطلاق والعتق ثم مضى قائلًا : اشهدوا عليّ بأنني قد وهبت حسن الباذري نصف ما املك فهو من الآن فصاعداً يشاركني بكل ما أملك من المال والماشية والارض الزراعية، كما اني اشهدكم بأن هذه الهبة سوف تكون سارية المفعول في حياتي وبعد مماتي . ثم أوضح قائلًا : يعني أن أبناءه سيكون لهم حق الشراكة مع ابنائي ..

---

١ ـ معروف لدى المواطنين في الجزيرة العود الى يومنا هذا وهو نوع من شجر يأتي من الهند طيب الرائحة وعندما يوضع دليل ان المجلس انتهى .. ويقال في المثل ليس بعد العود قعود..

ومن هنا قفز الباذري وقال :

– انني أرفض قبول هذه الهبة ..

فأجابه أبن راشد قائلاً :

– الهبة لا ترد .. والكريم امثالك لا يرد هبة الكريم .. ثم استطرد وقال : لا تنس انك انت صاحب الفضل الاسبق وانت الذي بدأتني بمعروفك ..

فعارضه الباذري قائلاً :

– أنا لا أذكر انني قدمت لك معروفاً يستحق الذكر الى هذا الحد .

– معروفك الذي وشحتني فيه لا يحتاج الى شهود فكل هؤلاء القوم بما فيهم الامير خير شاهد على معروفك الذي أسديته لي عندما كنت في احرج الظروف – مشيراً الى قيامه له – .

– أنا لم أفعل إلا ما يفرضه عليّ الواجب ليس إلا .

– إذا كنت تعتبر ما قمت به نحوى فرض كفاية فإنني اعتبر ان ما سأقوم به الآن فرض عين وإذا كنت ترى لذة في فعل المعروف من حيث هو معروف فإنني اشعر بلذة لا يعادلها لذة في المكافأة على المعروف ..

– عندما قمت لك لم افكر ولم يخطر لي ببال انك ستقف مني هذا الموقف الذي اخجلتني واحرجت به موقفي .

– لو كنت أعلم أو أشك بأنك قمت بدافع يحدوك نحو طلب الجزاء أو المكافأة مني لما فعلت معك ذلك .. ولما كنت مؤمناً بأنك لم تفعل معي ذلك إلا بدافع المروءة ، فانني أجد الدافع نفسه يضطرني أيضاً لأن أقابل معروفك هذا بدافع من المروءة لأجل المروءة وبحافز من النخوة لكي يكون كل منا قدوة صالحة لقومه ..

وعندما طال الجدل بين الراشد والباذري ، فالأول يعبر لسان حاله عن المثل العربي القائل : (اصطناع المعروف فرض كفاية والمكافأة عليه فرض عين) ..

والثاني يناجي نفسه بما قاله البارودي :

خلقت عيوفاً لأرى لابن حرة
عليّ يداً أغضي لها حين يغضب

وبينا كل منهما متعنت بفكرته عند ذلك توسط الامير فقال :

ـ ألا تقبلان أن اكون حكماً في حل الإشكال بينكما ..

فانتهز هذه الفرصة ابن راشد وسبق صاحبه قائلاً :

ـ لا مانع عندي ..

فالتفت الامير الى الباذري يسأله :

ـ هل انت موافق على حكمي ..

فقال وهو يتلعثم خجلاً :

ـ أجل اوافق ولكن بشرط ..

وقد أدرك ابن الراشد عن طريق البديهة ان الامير سوف يصدر حكمه بصالحه لكي يتنافس مواطنوه على ابتكار المعروف والمكافأة عليه ، لذلك أسرع فقال :

ـ لا أعلم ماذا يكون حكم الامير ، هل يكون بصالحي أم ضدي ولكني مع ذلك لا يسعني الا أن اقول انني قابل بما يحكم به اميرنا بدون قيد ولا شرط ..

ثم أردف قائلاً :

ـ ولا اعتقد إلا ان أبا فلان سيقبل (مشيراً الى الباذري) حكم الامير بدون قيد أو شرط ..

فأجاب الباذري بالقبول ..

فقال الامير : خير الأمور أوسطها ..

ثم مضى وقال : عليك يا ابن راشد ان تتراجع عن كون ابنـاء الباذري يكونون شركاء لأبنائك وان تتراجع ايضاً عن كون الهبة سارية المفعول حتى بعد مماتك وان تكتفي بأن تكون الهبة معمولاً بها ما دمت على قيد الحياة كشريك لك بكل ما تملك ..

ثم وجه الامير كلامه الى الباذري فقال : وعليك ايضاً ان تقبل هـذا الشرط فتكون أخاً شقيقاً لصاحبك ..

ثم قفز الامير وذهب يتبعه حاشيته دون أن يعطي الباذري مجالا للمعارضة أو طلب استئناف الحكم .. كما ان المدعوين تفرقوا حالما ان ذهب الامير، فلم يسع الباذري إلا ان قبل حكم الامير وهو يردد في نفسه المعنى الذي عبر عنه الشاعر المعاصر احمد الصافي النجفي :

ونبيل قوم جـاد لي برسالة
فواحـة من لطفـه بعبيره

وإذا بهـا ملغومـة بسخائـه
فاختـرت بـين مساءتي وسروره

حـاولت رد سخائـه فخشيت أن
اقضي على نبـع السخـا بضميره

فرضيت منكسراً بجرح كرامتي
وقبلت جرحي خوف جرح شعوره

وقد قام ابن راشد من فوره بارسال نصف ما يملك من حصاد زرعه ونخله وما لديه من نقود إلى صاحبه الباذري .

وظلت الصلة بينهما وثيقة العرى الى أن توفاهما الله ..

ولست أدري ايهما الذي لقي ربه قبل صاحبه ..

وقد رويت هذه القصة عن اكثر من واحد من النفر الذين منهم عاصر الحادثة وتوفي الى رحمة الله ومنهم من نقلها عمن شاهد الحادثة وكانوا شهود عيـان عليها ..

وعلى أية حال فالقصة معروفة ومشهورة خاصة عند سكان مدينة حائل فهناك من الاحياء الذين يعرفونها بحكم تناقل الرواية المتداولة من السلف الى الخلف ..

ادخار الفضل في اعناق الكرام خير من ادخار المال

-٢٨-

يخطيء كل الخطأ من يظن أن المال او العقار الذي يدخره المرء لابنائه وحدهما كاف لسد حاجات الزمان وغوائل الدهر ، بل هناك من الاشياء التي يصطدم بها المرء في حياته احياناً لا ينفع بها المال المرصود ولا العقار المدخر اكثر من نفع المعروف الذي يدخره المرء في اعناق الرجال ذوى الفضل ، فالمعروف في ذمة اصحاب المروءة كنز لا ينضب معينه ، ولعل في هذه الحادثة التي نقلتها من مصدرها المرحوم محمد بن ماضي [1] ما يعطينا اصدق الأدلة على صحة هذه النظرية .

كنت بين فترة وأخرى اذهب من دمشق الى لبنان لزيارة المرحوم ابن ماضي عندما كان في مصح ظهر الباشق والواقع انني كنت انوي في زيارتي له ان اسليه واقاسمه الهموم كمريض يشكو من عدة امراض وكغريب وبعيد عن اهله .. ولكنني عندما اجتمع به أجدني عند رجل بدلاً من أن اسليه اشعر بأنه هو الذي يسليني وهو الذى يبدد الهموم عني ، بأحاديثه الشيقة التي هي من صميم واقعنا العربي ، فكأن الرجل دائرة معارف مستقلة خاصة بما له علاقة في تاريخ جزيرة العرب ، وبمعرفة انساب الاسر والقصص الشعبية .. ويعجبني منه ضبطه للحوادث

---

١ - محمد من بلدة الروضة في سدير توفي عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

وحسن القائه ، فتارة يحدثني عن تاريخ بلادنا في قرننا الحالي وطوراً يتحدث عن رجال القرن الماضي الخ ...

وفي ذات يوم اسمعني حادثة وقعت على يده ويؤكد انه كلما يذكرها يشعر بسعادة ولذة لا يعادلها اية سعادة ولذة في حياته كلها.. فيقول :

عندما كنت والياً من قبل الحكومة السعودية على مدينة ضبة المتاخمة للحدود الاردنية وردتني اوامر من المرحوم الملك عبد العزيز تشير الى المنع التام لتصدير اغنام المملكة الى الخارج ، لأن كثيراً من تجار المواشي اصدروا غنماً الى سورية والاردن وفلسطين في عهد الانتداب البريطاني بلا حساب ، الامر الذي سوف يجعل البلاد فقيرة بثروتها الحيوانية فيما اذا استمر التجار في سلوكهم هذا ، ولما كانت المكاسب التي يربحها التجار من وراء الماشية مغرية فان ذلك مما دفعهم الى الاستمرار بتجارتهم وذلك عن طريق التهريب، وحينما بلغ الملك ان التجار انتحلوا طريق التهريب ، عند ذلك أمر القائمين على رؤوس الحدود بأن يشددوا الحراسة وبالاضافة الىذلك أمر بان الماشية المهربة التي تقع بيد امراء الحدود تكون ملكاً لهم ، الأمر الذي جعلهم يتصرفون بها كيف يشاؤون، وهذه الاوامر الاخيرة المغريةجعلت امراء الحدود يزدادون حرصاً على الحراسةاكثر من أيوقت مضى ، لأن القضية اصبحت قضية مصلحة محسوسة ، والامير الذي يوفق الى القبض على غنم مهربة فهذا يعني انه سوف يكسب صفقة خيالية من المال تزيد اضعافاً مضاعفة عما سيوفره من مرتبه الشهري ، فيما لو عاش عمراً طويلاً في خدمة الدولة ، لأن التاجر الذي ينوي ان يهرب غنماً من المملكة سوف لا يغامر بأقل من الفي كبش وقيمة الكبشلا تقل عن خمسين ريالا ..

وأمام هذا الربح المغري يؤكد ابن ماضي انه امر جنوده بأن يضاعفوا جهودهم بالتحري والتنقيب في الصحراء لعل القدر يسوق لهم من يستولون على غنمه ..

غنيمة لا يخشى مغتنمها الفقر

وعندما كان جنود ابن ماضي يطوفون الصحراء تارة خلسة ، واحياناً علانية ، التقوا بضالتهم المنشودة ، حيث وجدوا غنماً كثيرة العدد يسوقها صاحبها نحو الحدود الاردنية ، وقبل ان يدخل الحدود القي عليه القبض ، وجاءوا به يسوقونه الى اميرهم ابن ماضي ، بينما ذهب بعض من الجنود مسرعاً الى الامير ليبشره بالغنيمة الدسمة التي لا يخشى مغتنمها من غارات الفقر مدة حياته .

كانت البشرى عظيمة بالنسبة لابن ماضي ، وكانت الغنيمة فوق ما يتصوره ومنتهى امنيته ..

وعلى الفور أمر رجالا ممن يثق بهم بأن يحصوا عدد الغنم ، كما أمر بسجن التاجر صاحب الغنم بدون ان يعرف اسمه أو يحقق معه ، لأنه ليس بحاجة الى معرفة اسمه كما ان القضية لا تحتاج الى تحقيق لأن الاوامر الصادرة اليهم من قبل الملك تشير الى مصادرة أي شيء من الماشية التي تتجه نحو الحدود الاردنية بأي شكل من أشكال هذا الاتجاه. والتجار سبق ان ابلغوا هذا الانذار،واصبح لديهم علم بأن من يقرب من الحدود الاردنية الهاشمية بماشيته أو يتجه نحوها ومن ثم يلقى عليه القبض فان ماشيته سوف تصادر عن بكرة ابيها .. ولا يقبل له أي عذر كان ..

وعلى هذا الاعتبار اصبح صاحب الغنم يائساً من استرجاع غنمه .. وكل ما يهمه الآن هو ان ينجو بنفسه من غياهب السجن الذي أودع فيه ، اما امير ضبة ابن ماضي فقد كان همه الوحيد محصوراً بتصفية هذه الصفقة ومعرفة الزبون الذي اشترى منه الغنم دفعة واحدة ، وبينما هو سابح في لجة سروره بغنيمته هذه واذا به يسمع احد جنوده يذكر اسماً يكنى به اسرة كبيرة من إهالي بريدة محبباً الى

نفسه وهو ما يدعى (بابن شريدة) فقال ابن ماضي للجندي :
- ما هي المناسبة التي جاء بها ذكر ابن شريدة ؟..
فقال الجندي ببساطة :
- يسألني رفيقي عن اسم صاحب الغنم فقلت يدعى سليمان بن شريدة ..

« لذة كسبه المعنوي طغت على اللذة المادية !! »

- ولماذا لم تخبرني ان صاحب الغنم ابن شريدة ؟..
- لم تسألني عنه ..
- اذهب فوراً الى وكيلي الذي وضعتم عنده الغنم وأكد عليه بأن لا يتصرف بشيء منها وها انا ذاهب اليه لأقدم له اعتذاري وافرج عنه واسلمه غنمه ليتصرف بها كيف يشاء ..

* * *

كان المرحوم ابن ماضي يروي لي هـــذه القصة وكنت مصغياً بكل حواسي لحديثه ، إلا أنه بعدما وصل الى تصرفه الاخـير أي عفوه عن السجين واعادة غنمه اليه وتحمله المسؤولية امام الحكومة ، عند ذلك قاطعته الحديث قائلًا :
- ما هو سر هذا التناقض ؟..
فقال : عندما عرفت ان الغنم لابن شريدة شعرت بلذة طغت على كل مـا في نفسي من الطمع ، وذلك ان والدي حدثني بأن محمد بن شريدة عميد هذه الامرة أسدى اليه معروفاً وذلك منذ اربعين سنة ، وصفة هذا المعروف هـو ان والدي عندما زار مدينة بريدة بمعية المرحوم الملك عبد العزيز قـدم ابن شريدة لوالدي مبلغاً من المال وقال له : هذه النقود خذها ان شئت فهي قرض وأن شئت هبة

واستعن بهـا على نوائب الدهر ..

واسترسل ابن ماضي بحديثه الى ان قال : ومن اجل هذا المعروف الذي بذله ابن شريدة لوالدي تحملت المسؤولية ، واطلقت سراح السجين واعدت اليه غنمـه بعدما اعددت له ضيافة تليق بمقامه .. وزدت على ذلك بأن بعثت معـــه جنوداً يحرسونه حتى يوصلوه المكان الذي وجدوه فيه ، وفي الوقت نفسه بعثت رسـالة للملك عبدالعزيز شرحت فيها جميـع تصرفاتي من اولها عندما اردت ان ابتلع الغنم كما شرحت فيها الاسباب التي جعلتني اقدم على ما اقدمت عليه .. ولم يأت اليّ من المرحوم ادنى ملامة على تصرفي الاخير .

الفضل يملك الكريم وان قلّ

-٢٩-

قرأنا في كتب الأدب العربي المثل القائل (الفضل يملك الكريم ويخدع اللئيم والمثل الآخر القائـــل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحسن الى من شئت تكن أميره ، واقبل معروف من شئت تكـن أسيره ، والأمثال في مثل هذه المعاني كثيرة ، وأسوأ مثل سمعته هو المثل القائل: (اتق شر من أحسنت اليه). فهذا المثل ينهى بطريقة غير مباشرة عن فعل المعروف ، ومن المؤسف انني وجدته معلقاً في براويز في اكثر من بيت من بيوت المدن العربية فكأن واضعه يوصي أبناءه ان لا يفعلوا معروفاً ..

والحقيقة ان هذا المثل لا يضعه في منزله الاشرير لئيم..أجل فالمعروف لا يذهب سدى حتى مع الأشرار اللؤماء ، فالشرير إذا قدم له المعروف اذا لم يكن هـذا المعروف رادعاً لشره فإنه على الأقل يكون مخففاً من أذيته ولو الى حـــد ما.. وللشاعر العربي بيت يناقض هذا المثل السيء اذ يقول :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الانسانَ احسانُ

والمثل العربي المنسجم مع بيت الشاعر يقول : المعروف رق ، فاختر لنفسك من تضع رقك بيده .

والذي أراه في هذا الصدد هو أن يبتعد المرء ما استطاع عن قبوله لمعروف أي انسان كان .

وأما اذا كان تنفيذ هذه القاعدة ضرباً من المستحيل وفقاً للمثل القائل : الناس بالناس والكل بالله ، إذا كان الأمر كذلك فعلى الرجل الابي الحر ان يختار كريماً لقضاء حاجته هذا إذا كان في ضرورة ماسة الى ان يعتبر ذلك ديناً معنوياً في ذمته وان يبتعد عن منّة اللئام مهما قست ظروفه .

وإذا كان من خلق الكريم ان ينسى أو يتناسى أو يتجاهل أي معروف يصدر منه مهما كبر شأنه وفي الوقت ذاته يستكثر أي فضل يسدى اليه مهما كان ضئيلاً ، فإن من طبعت نفسه على اللؤم سيكون عكس الاول .

«والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ، قليله كثير ، وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجبة خلقاً وأدباً ومروءة ، وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها النبي محمد ﷺ فقال : من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ، ومن معنى الحديث الشريف يبدو ان المكافأة على المعروف واجبة..»

وفي قصتنا هذه أكثر من معنى يدل على أن المعروف في نظر الكرام وان كان ضئيلاً لا أهمية له فإنه كبير كمعروف ، بصرف النظر عن ضآلته وصغر حجمه ..

في عام ١٢٤٩ هـ غزا الامام فيصل[١] بن تركي آل سعود جنوب الجزيرة، وكان من ضمن رجاله الغزاة عبدالله العلي الرشيد وكان وقتها لم يبلغ من ذيوع الصيت ما

---

١ – الامام فيصل الجد المباشر للمرحوم الملك عبدالعزيز .

بلغه مؤخراً ، وانما كانت دلائل النجابة وعلامات الرجولة تعبران على انه لم يكن بالشاب العادي ..

وفي ذات يوم دخل الفتى مجلس الامام فيصل فوجده حاشداً من شتى أعيان ساكني شبه الجزيرة بدوهم وحضرهم فجلس الرجل حيث انتهى به المجلس وكان من ضمن الرجال الذين جمعهم نادي الامام فيصل شخص يدعى حماد الذائدي من قبيلة عنزة،وما ان ابصر الذائدي عبدالله جالساً حتى قفز من مكانه وقدم اليه (عوكية)[1] فاستدناها عبدالله واتكأ عليها وبعد ان انتهى المجلس أعادها الى صاحبها ..

مرّت الايام وإذا بعبدالله ينال ثقة الامام فيصل واعجابه فيوليه امارة بلدته حائل، فيكون عبدالله أميراً للبلاد ولقبيلته شمر بعدما كان شاباً عادياً لا يملك من الدنيا إلا قلباً ألمعياً طموحاً مغامراً لا يفكر في نتائج مغامرته ومنفذاً كل التنفيذ للمعاني التي نوه عنها الشاعر الاحسائي ابن المقرب حينما قال :

لا يبلغ العليـاء إلا ابن حرة
قليل افتكار في وقوع العواقب

جريء على الاعداء مر مذاقه
بعيد المدى جم الندى والمواهب

وعندما بلغ عبدالله ما بلغه من المجد هناك راح ينفذ عملياً قول الشاعر العربي:

ان الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

فذهب ينقب عن الذائدي الذي ناوله العوكية في أيام ضعفه لـكي يكافئه على

---

١ ـ العوكية هي عبارة عن عصا معكوفة الرأس صالحة لأن يتكأ عليها .

ذلك المعروف المتواضع . في ايام قوته ومجده، وعندما وجده أكرمه اكراماً يليق به وواساه واعتبره أخاً حميماً . وقد توفي الذائدي قبل وفاة صديقه عبدالله فما كان من هذا الاخير الا ان تعهد برعاية وعناية ابناء الذائدي الايتام كأنهم ابناء أخيه، ومما هو جدير باعجابنا بالوفاء العربي من حيث هو .وأنى كان مصدره،ان عبدالله لم تقف به مكافأته لمعروف الذائدي الى حد اكرامه له في حياته واكرامه لابنائه بعد ممات والدهم،لا لم يقف به الامر الى هذا الحد، بل انه أوصى ابناءه بأن يتعهدوا ابناء الذائدي بالاكرام مما جعل اواصر الصداقة بين ابناء عبدالله وابناء الذائدي وطيدة الاساس راسخة الاصل مدة طويلة من الزمان .

الكريم الذي ينسى ما اسداه من معروف ويذكر ما اسدي اليه

- ٣٠ -

اعتقد إنني ذكرت في غير هذه المناسبة انه من شيمة الكريم ، أن ينسى كل ما يبدو منه من معروف لاخوانه وأن يذكر بالخير دائماً ما يسدى إليه حتى ولو كان المعروف المسدى اليه قليلاً ومعروفه هو كبيراً ..

وهذه الظاهرة معروفة في عالم الاخلاق والشيم العربيـــة ، ولدينا من الادلة الواقعية بهذا الشأن أكثر من دليل وأنما أود أن استشهد بقليل من كثير ..

نقل اليّ السيد سليمان [1] ابراهيم القاضي الرواية الآتية :

يقول القاضي انه عندما كان موظفاً للحكومة السعودية ويعمل كمشرف على الحجاج القادمين عن طريق الكويت وذلك في عام ١٣٦٠ هـ في تلك الأيام مر به نفر من سكان الكويت قاصدين بيت الله الحرام .. وكان الفصل شتاء شديـــد البرد ، وقد لفت نظر القاضي على حد قوله شيخ مديد القامة يوحي منظره لأول وهلة بالوقار والهيبة والرجولة .. فسأل عنه فقيل هذا شملان بن رومي [2].. يقول

---

١ – سليمان القاضي من بلدة عنيزة .. راجع كتاب المؤلف (من شيم العرب) الطبعة الثانية ج ١ ص ١٥٠ .

٢ – شملان من اعيان اهالي الكويت واصله من قبيلة عنزه .

القاضي : كنت اسمع عن الرجل بأنه كان من رجال المروءة والكرم والنجـــدة والثروة الجمة ..

قل أن يجتمع المال والكمال

كما سمعت أن مروءته الدافقة وسخاءه المتناهي كانا على حساب رأس ماله الذي انفقه في سبيل النجدة وبذل المعروف .. ولذلك يقول الراوي إنني عندما رأيته في منظر لا يتجاوب ومنزلته الاجتماعية وسمعته الطيبة جئت اليه وأخذت بيـــده قائلاً العبارة الآتية :

(تفضل يا شيخ شملان أنت كالحصان الاصيل عند الشواوي) [1] .. فيقول : جئت به الى مكاني الخاص وأكرمت مثواه وكان ذلك كما أشرت في عـــام ١٣٦٠ هـ ..

ويؤكد القاضي انه لم ير شملان بعد ذلك إلا في الكويت بعد مضي أربع سنوات وذلك في مناسبة جاء بها القاضي الى الكويت كمندوب من قبل الحكومـــة السعودية ، ويقوم بعمل المساعد التجاري وهو ما يعبر عنه بالملحق التجاري ..

وفي اللحظة الاخيرة التي كان فيها القاضي على اهبة الاستعداد للسفر الى بلاده منتهياً من مهمته .

كان يظن أنه يريد أن يأخذ منه واذا به يريد أن يهبه

وقف شملان بجانبه وقال :

– إنني أريد منك يا بني حاجة ما ، وأود ان لا تردني خائباً ..

---

١ – الشواوي الذين لا يعرفون الخيل الأصيلة . أي انك كالجوهرة عند من لا يعرفها :

يقول القاضي : لما كنت أعرف ان اوضاع الرجل المالية متدهورة فإنني لم اشك قطعياً إلا انه يريد ان يستدين مني ،ولذلك شعرت ساعتذاك بعاملين يغمران كياني وكلاهما متضاربان : العامل الاول هو سروري عندما قصدني هذا الرجل الكريم دون غيري لاعتقادي ان نفسه العظيمة لا يمكن ان يذلها لأحد الا لأفذاذ الرجال الذين يعتقد فيهم المروءة . والعامل الثاني هو انني خشيت انه سوف يطلب مني ان اقرضه مبلغاً من المال اكثر من الرصيد الذي املكه .. ويقول القاضي : وبين هذين العاملين وجدتني بحيرة من امري واخيراً مددت يميني له وقلت :

– أبشر بموافقتي سلفاً على ما تطلبه مني فيم اذا كنت استطيع ان اقوم بطلبك على الوجه الاكمل ..

فقال الشيخ :

– لقد طوقت عنقي بمعروفك الذي لا يمكن ان انساه مدى حياتي ، وذلك عندما اخذت بيدي وقلت لي تلك الكلمة التي كلما اذكرها اشعر بنشوة تهيمن على كياني ، ولهذا اود ان تقبل مني يا بني هذه الهبة التي اجدني بغنى عنها وانت كموظف راتبك محدود قد تكون بحاجة اليها وهي عشرين الف روبية ..

يقول القاضي : انني لم استغرب هذه المروءة من شملان ، ولكن موضع استغرابي هو انني اعرف ان الرجل صفر اليدين من المال ..

الفضل كله يعود لصديقي الوفي

ويؤكد القاضي بأنه شكر الشيخ واقسم له انه ليس بحاجة لشيء من ذلك ، وانما الشيخ الذكي ادرك بفطنته ما يدور في مخيلة القاضي من الاستغراب وعلامات

الاستفهام الخفية ولذلك بادر شملان القاضي قائلاً له :

- قد يقول لسان حالك يا بني ان شملان تقلصت ماليته ، فمن اين له هـذا المال الآن ؟..

ثم مضى الشيخ بحديثه الى ان قال : حقيقة ان مالي ضـاع من بين يدي ، ومستني الحاجة واصبحت فقيراً بعدما كنت ثرياً ، ولكن الفضل كله يعود لصديقي الوفي الشيخ يوسف [1] بن عيسى القناعي الذي جبر عثرتي وواساني بنفسه وأعاد الي اعتباري وذلك بنجدته الفذة ..

وراح الشيخ يروي المروءة التي قام بها صديقه يوسف القناعي فقال :

- عندما مررت بك حاجاً الى بيت الله الحرام كانت اوضاعي الاقتصـادية متدهورة ، وعندما عدت من مكة الى اهلي وجدت منزلي مملوءاً بالسكر والشاي والقهوة والهيل والاقمشة الخ .. فسألت الاهل لمن تكون هذه البضاعة فقيل انها ليوسف القناع ،ولما كان بيني وبين القناع صداقة ارتفعت فيها الكلفة، فقد ظننت انه اراد ان يؤمن عندي هذه البضاعة الى ان يحين الوقت الذي يأتي فيـه زبون يشتريها منه ، وعندما طالت المدة ذهبت اليه فقلت على سبيل المداعبة :

- لقد مضى على بضاعتك مـدة طويلة في منزلي فما عليك الا ان تدفع لي الارضية والاجرة معاً ..

فصمت القناع قليلاً ثم ابتسم وقال :

- أرى ان تتصرف في جميع ما عندك من البضاعة مقابل الاجرة ..

---

١ - يوسف القناع من اهالي الكويت ، وحتى كتابة هذه الاسطر وهو على قيد الحياة ، وكان يعمل رئيساً لمحكمة التميز في الكويت .

يقول شمـــلان : كنت اظن ان حديث صاحبي كله مزاح بمزاح ولكنه عاد وقال :

- ان كل مـا في منزلي من البضاعة انما هو ملك لك انت بالذات ، لانني منذ مدة طويلة فرزت رصيداً معيناً من ماليتي ونويت ان اضعه بأسمك وان ابيع فيه واشتري كتجارة لحسابك ، فكانت النتيجة ان نمت تلك التجـــارة وتباركت حتى بلغت الذروة ، ومـا هذه الاشياء التي في منزلك إلا حق لك لا يشاركك به احد ..

هو صاحب الفضل الاسبق

يقول القاضي : عندما سمعت هذا الحديث من الشيخ شملان بحق الشيـخ القناع ذهبت على الفور الى منزل يوسف القناع ورحت اشكره على مروءته التي أسداها الى رفيقه ، فقال القناعي : سامح الله أخي شملان لقد تحدث عني بأكثر من اللازم ولكنه لم يتحدث عن نفسه ، وعن المعروف الذي أسداه اليّ فلو انه قال الحقيقة على وجهها الأكمل لعلمت انه هو صاحب الفضل الأسبق عليّ والذي فعلته لم يكن إلا مقابل الشيء القليل من كثير .. ومضى القناع بحديثه الى ان قال : عندمـــا أوصدت بوجهي جميـع أبواب الرزق جاءني الشيخ شملان وقال :

- اريد منك ان تأمر أخاك حسيناً لـكي يذهب الى الهند ليفتح مكتباً هناك وأنا بدوري ارسل له كوكيل لي ، يقول فأجبته قائلا :

- ان المكتب يحتاج الى رأس مال كثير ونحن لا نملك من المـال شيئاً .. فقال شملان :

- فليذهب الآن وقضية المال لا يهمك أمرها فهذا شيء سوف اكون انا المسؤول عنه فيقول الشيخ القناع فذهب اخي الى الهند وظل الشيخ شملان يموله بالمال والمعاملة من عنده حتى يسر الله امرنا وجميع ما نملكه الآن هو فرع من أصل البذرة التي غرس ثمرتها اخي شملان فهو الأصل في رزقنا بعد الله ..

الفصل الخامس

برّ الوالدين وفطنة المرأة العربية

العَيْشُ مَاضٍ فأكرِمْ والديكَ بِهِ
والأمُّ أوْلَى بإكرامٍ وإحسانِ

أبو العلاء أحمد بن عبد الله
ابن سليمان المعري

الفتاة التي طغى برها بوالدها على عطفها بابنها

- ٣١ -

كانت القاعدة المألوفة تشير الى ان الفتاة متى ذهبت من بيت ابيها الى بيت بعلها فمعنى ذلك انها ارتبطت بنسب زوجها واصبحت محسوبة من اسرة الزوج، اما إذا انجبت من بعلها ذرية فعندئذ تكون انقطعت صلتها نهائياً بوالدها واهلها واصبحت صلتها ببعلها واهله صلة وثيقة لا تنفصل .. •

وكثيراً ما نرى صحة هذه القاعدة في تاريخ ارتباط النكاح المشروع ، فنرى مثلاً فتاة ما انكحت من رجل من غير اسرة اهلها او من غير رجال قبيلتها ثم حدثت خصومة وشقاق بعد عقد النكاح بين اهل الفتاة وبين بعلها ، فكثيراً ما نسمع ونرى ان الفتاة تميل مع بعلها اكثر من ميلها مع اهلها ، خاصة إذا انجبت منه ذرية واصبحت رابطة الالفة والنكاح قوية بين الزوجين .

وكنا نظن ان هذه القاعدة مطردة لا تؤثر عليها عاطفة الوالدين .. ولكن سرعان ما اتضح لنا خطأ ما كنا نتصوره ..

وذلك في مناسبة حادثة سوف نذكرها في حديثنا هذا ، تلك الحادثة التي اعطتنا دليلاً واضح المعالم على ان هناك من الفتيات العربيات من يرين ان الوفاء

للوالدين والبر بهما فوق الرابطة الزوجية بل وفوق عاطفة الام لأبنها ..

وخير المشاهد الناطقه على صحة مـــا اشرنا اليه من صميم هذه القصة الواقعية التالية :

بين عام ١٢٩٠ و١٣٠٠ هـ وقع نزاع بين سالم الشليخي [١] ومبارك بن مغيث وتطور ذلك النزاع من الكلام الى الفعل ، حتى وصل الأمر الى ان طعن احدهما الثـــاني بعديته طعنة بليغة ولكنها لم تصب منه مقتلا .. وكان البادىء بالطعنة الشليخي ..

وحسب العرف المتبع هرب الطاعن الى قبيلة عتيبة المضادة لقبيلة قحطان لكي يكون في حصانة منيعة من يحاول ان يأخذ منه الثأر ..

وكان الطاعن والمطعون كلاهما كما اشرت آنفاً من عشيرة واحـدة ومن بطن واحد وتربطهما ببعضهما لا رابطة العشيرة فحسب .. بل ورابطة المصاهرة وذلك أن ابنة الشليخي الطاعن في عصمة شقيق مبارك المطعون .. وكانت الفتـــاة في وضع حرج جداً بين والدها الذي ذهب شريداً طريداً خوفاً من انتقام بعلها واخيه وبين زوجها الذي هي مرتبطة به برابطة النكاح الشرعي .. وزاد الطين بلة انهـا انجبت من بعلها مولوداً لا زال يعيش على حليب أمه ، فأصبحت الفتـــاة تكافح عاملين كلاهما يتصارعان في صميم كيانها :

- عامل عاطفة الامومة تجاه طفلها الرضيـع ..

- وعامل يحفزها بعنف تجـــاه برها بوالدها الذي ترى انه سبب وجودها بهذه الحياة ..

ظلت الفتاة في حيرة من أمرها بين اختيارها لأحد السببين ، وبلغت بها الحيرة

---

١ – كل من الشليخي وابن مغيث من قبيلة قحطان ومن فخذ يسمى آل عاصم .

وشرود الذهن درجة أنستها ابنهـــا وأصمت اذنيها عن صياح الطفل الذي اقض مضجع رجـــال ونساء القبيلة في تلك الليلة الماطرة المدلهمة من ليـــالي الشتاء الطويلة ..

كان والد الطفل يتعلل في نادي رئيس القبيلة ويشارك القوم بالاستماع الى قصة يرويهـــا شيخ طاعن بالسن من الرواة المختصين بحفظ القصص الشعبية ، والبارعين بحسن الالقاء .. وكان مصغياً لأحاديث الراوي بكل حواسه .. وفجـــأة قطع الشيخ القصاص حديثه دون أن تنتهي القصة متأثراً بصراخ الطفل المزعج .. كما ان والد الطفل استعـــاد حواسه التي كانت منصبة نحو احاديث الشيخ ، وتحركت عواطفه نحو صياح الطفل الذي وجده يشبه صياح ابنه .. كما ان رجال الندوة عن بكرة أبيهم تأثروا من صوت الطفل ، الذي يشبه صياح من لدغته افعى . ولكن الوالد كان اكثر القوم انزعاجاً وتأثراً من صوت الطفل ، الذي كلما اصغى اذنيه ليتثبت من الصوت ازادد يقيناً بأن الصوت ليس الا صوت ابنه ..فلم يسعه إلا ان قفز من النادي وذهب الى بيتـــه .. وكان يسير في بداية الأمر سيراً طبيعياً ، ولكنه كلما ازداد قربـــاً من بيته ازداد يقيناً بصحة حدسه بأن الصراخ صراخ ابنه .. فبدل مشيه المعتاد بالهرولة ثم بالقفز كالمطرود.حتى وقف على الحقيقة فوجد ابنه يصيح صياحاً يتفطر له أقسى القلوب غلظة.. ويتقلب على بطنه تارة وعلىظهره أحياناً ويتخبط الارض بساقيه الطريتين.. فخطفه ووضعه على ذراعيه وراح يسأل عن أمه وقد اخذته روعة منظر الطفل عن رؤيته لزوجته التي كانت بجانب الطفل جالسة ولكنها شاردة الذهن فكأنها في سبات عميق ولم تفق من ذهولها وحيرتها حتى صاح بهـا بعلها بعدما استرد شيئاً من ذهوله هو الآخر ونظر اليهـا فوجدها صامتة كأنها تمثال من تماثيـــل دكاكين الاقمشة في المدن الكبرى لم يتحرك منها شيء ابداً حتى بصرها كان طافحاً شارداً كأنها في عالم غير عالم الاحياء.. فدنا منها ووضع كفه الايمن على رأسها بينما كان ضاماً ابنـه الى صدره بذراعه الايسر وقد تضاعف بكاؤه وازداد صراخه ثم شد رأس زوجته بعنف صارخاً بها قائلاً :

- يا فلانة .. مالك .. فكأنه يوقظها من سبات عميق ، فأشاحت بوجهها عنه بعدما اتخذت قرارها النهائي ولم يكن للحيرة والموقف الوسط المذبذب أي مكان في قلبها الوفي البار بوالدهـا الذي استولى على كيانها، الأمر الذي جعلها تضحي بكل غال في سبيل رضاه حتى ولو كان فلذة كبدها البكر الوحيد.. فشعر زوجها ان حليلته تتعمد تحديه وتتجاهل وجوده فصرخ بها ثانية :

- ألا تسمعين ؟ ..

- بلى أسمع وأرى ..

- ألا تسمعين صراخ ابنك اللديغ ؟..

- أجل ، ولكنه ليس باللديغ كما تظن ؟..

- اذن ما باله يصيح ؟..

- لأنه جائع يريد الرضاع ..

- ولماذا سهوت عن رضاعه ؟..

- لم أنسه بل تركته عامدة متعمدة ولن يرضع ثديي البتة ..

- أبك جنة ؟..

- كلا بل انني سليمة العقل والحواس ولله المنة وانما رأيت أن من العقل والوفاء والبر بأن اهجر الابن الذي كان ابوه وعمه جعلا والدي يهجرني ويهجر أهله وقبيلته ويجلو شريداً طريداً ..

ثم صمتت قليلاً وقبل أن ينتهي بعلها من جوابه لها الذي بدأه بقوله :

- ألا تعلمين ان والدك كان البادىء باعتدائه على أخي ..

فقاطعته الحديث قائلة :

ـ أجل لقد اخذت على نفسي عهداً بأن لا ارضع ابنك لأن اباه وعمه لم يكن لديهما من التسامح والعفو اللذين هما من شيمة الكرام مـا يجعلانهما يغفران عقوة جده ..

وقد توقفت قليلاً تكفكف دمعتها التي انحدرت على خديهـا كحب اللؤلؤ المنفرط من سلك الحرير ، ثم قالت :

ـ ان الولد الذي ينحدر من هذه العائلة العاقة الجافية التي لم يفكر رجالها يوماً من الايام بالحلم والعفو عن والدي بقدر ما يفكرون بعقابه والانتقام منـه جدير بالجفاء وخليق بالعقوق والحرمان ..

وجم الرجل قليلاً ثم ذهب الى اخيه حاملاً ابنه الذي لا زال يوالي صراخه المفجع ..

وكان الليل قد مضى منه ثلثاه وكان أخوه قد تدثر بلحافه السميك .. ولكن صراخ الطفل قد أيقظه من سباته قبل ان يوقظه اخوه .. فراح يشعل النار مقابلاً أخاه بالتحية التي تلتها حروف الاستفهام المترادفة :

ـ مال ابنك يا أخي ؟.. عسى ان لا يكون لديغاً .. أهو الذي كان يصرخ من أول الليل .. حتى قطع علينا القصة الشيقة التي رواها لنا الشيخ فلان ..

ـ أجل هو ابني ولكنه لم يكن لديغاً كما تظن وكما خيل الي سابقاً عندما سمعت صراخه في أول الامر ..

ـ اذن لا بد ان يكون مريضاً .. ما أسوأ مرض الاطفال ..

فقاطعه اخوه قبل ان يزيد على كلمته التي اشار بها الى قوله ان الطفل اذا مرض مرض والده فقال :

ـ ان ابني لم يكن مريضاً ولكنه جائع ..

ـ جائع .. أين والدته ؟..

ـ الحديث عن والدته طويل وطويل .. وسوف اشرح لك امرها بعدما تأخذ طفلي وتسلمه لزوجتك لترضعه ..

ـ أنا لا أحب ان يكون بين ابنك وابنتي رضاع خشية من المستقبل الذي يجعل القران بينهما محرماً ..

ـ نحن الآن في حالة ضرورة والمستقبل لا يعلم ما وراءه إلا الله ..

اخذ العم ابن اخيه وسلمه لحليلته التي هي الاخرى أيقظها من رقادها صراخ الطفل ثم عاد لأخيه ليستفهم منه خبر زوجته ..

وقد بدأ أبوالطفل يشرح لأخيه الرواية بينما أخوه مصغ لحديثه بجميع حواسه ولكن صراخ الطفل كان يستثير عاطفة والده فيقطع الحديث بين كل كلمة وجملة ويسأل أخاه قائلًا :

ـ أرى الطفل ما زال صراخه مستمراً ..

فيهدىء أخوه من روعه بقوله :

ـ سوف يسكت الآن وينام بعدما يرتوي من الرضاع .. فيمضي والد الطفل يواصل قصة زوجه ثم يصمت برهة مصغياً الى صراخ الطفل الذي أخذ في الازدياد.. وكان أخوه مبارك قد استوعب قصة الزوجة وان كان ابو الطفل لم يصل بالقصة الى نهايتها بسبب صياح طفله الذي شتت عليه افكاره وبعثر حواسه ..

ذهب مبارك الى زوجته لينظر ما هو سبب بكاء الطفل بعدما ارتوى من الرضاع على ما يظن .. وقبل ان يسأل مبارك زوجته قاطعته امرأته قائلة :

ـ ان الطفل رفض ان يرضع مني بل ولم يقبل ان يضع ثديي بفيه رغم محاولتي اليائسة ..

فعاد إلى أخيه لا ليخبره بأن طفله رفض الرضاع وإنما ليؤكد له بأنه قد تجاوز وعفا عن والد الفتاة الذي طعنه .. فقال مبارك ..

– هيا بنا الى امرأتك ..
– ماذا تريد منها ؟..
– لأعطيها عهدالله بأني قد تنازلت عن ثأري الذي أدين به والدها واؤكد لها بأني سوف اذهب غداً الى قبيلة عتيبة لأعلن لوالدها تنازلي عن حقي ولن أعود حتى يكون أبوها بجانبي .. ما رأيك بهذه الفكرة ؟..

– الأمر عائد اليك فأنت صاحب الحق فإذا عفوت فهذه شيمة وفضيلة منك.. ثم انت الأخ الاكبر فالذي تأمرنا به سوف لا نخالفه ..
– أرى ان نذهب الان الى زوجتك ونخبرها بالحديث الذي يسرها طبعاً ..
– فلنأخذ الطفل معنا ..
– دع الطفل الان عند زوجتي وسوف تأتي والدته نفسها تحمله وتكفينا أمره ..

ذهب الاخوان الى المرأة البارة وما ان رأتها حتى أيقنت انها نجحت بفرض إرادتها فبادرها مبارك قائلاً :

– يا ابنة فلان .. لقد تضاعف قدرك واحترامك عندنا بعد موقفك هذه الليلة مضاعفة فوق ما تتصورينها .. فصمت قليلاً ثم واصل حديثه قائلاً:

– اعاهدك الله اني قد عفوت عن والدك كما اعاهدك الله ثانية بأني سوف اذهب غداً اليه ولن أعود حتى يكون بصحبتي ..

– هذا ما ينبغي ان يعمل به كريم من امثالك ولست استغرب ذلك منك وانما استغرب منك عكس هذا..
– ألا تذهبين معنا لتأخذي طفلك ؟..
– بلى ..
ذهبت الزوجة الى بيت حماها وأخذت طفلها وأرضعته ونام الطفل بعد ذلك

نوماً لذيذاً كما نامت والدته وهي قريرة العين عامرة الوجدان راضية عن نفسهـــا بارة بوالدها ..

وفي الصباح الباكر ذهب الاخوان الى قبيلة عتيبة ولم يعودا حتى عاد معهم ابو الزوجة ..

وعندما وصل اهله وذويه ووجد ان اصدقاءه الذين كان يعتقد فيهم الوفاء قد جفوه بعدما ابتلي بمحنته التي اضطرته الى الجلاء والتشريد، كما وجد ذويه الاقربين لم يواسوه بغربته ولم يسألوا عنه .. عنـد ذلك راح يفكر ويفكر .. ويعبر عن افكاره وما يختلج في نفسه بقصيدته التي جاء منها قوله :

الله يلومْ خويـــلدٍ وابن دِرعانْ
لومٍ بهم ورقْ الحَمايِم ُتغني

ما ساعدوني يوم تفريق الاضعان
تجالدوا يوم الذيابـــةَ عوني

الشرح : يلوم الشاعر بعض أفراد قومه الذين لم يتوسطوا له بالصلح مع أبنـاء عمه .. وهذا ما قصده في البيت الاول ، وأما في البيت الثاني فإنه يقول ان هؤلاء النفر تخلوا عني في أبان محنتي يقصد عندما أراد أن يجلو عن أهله وقبيلته فيقول لقد تركوني في الحين الذي كثر فيه اعدائي حتى أصبحوا كالذئاب المفترسة ..

إقْطعْ رفيقٍ لي إلى ِصرتْ َطربانْ
وإلا على الشدّاتْ مـــا هو مني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي يتظـاهر بالوفـــاء والاخلاص بأيام السلم

والسرور والطرب بينما هو بالشدائـــد والمحن سرعان مـا يتخلى عني كأنه لا يعرفني ..

إذا احتمَلتُ فهو من الثـِيلِ عَريانُ
وإذا احتملُ مني العيون اسهرني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي إذا أصابتني مصيبـــة لا يعبأ بمصيبتي ولا يعيرها ادنى اهتمام .. بينما أجدني إذا أصابته مصيبة لا أبيت الليل من همـه حتى اشعر انني اشاركه بآلامه وبؤسه وأحزانه ..

اذا كان لك يد على الكرام فلا تخف

- ٣٢ -

كان الزمان الذي عاشته أمة العرب خاصة في الزمان الاول قائماً على الأمور المعنوية أكثر من قيامه على المادبات ،وحياتهم الأدبيةوالأجتماعية كلها تثبت صحة ما أشرت اليه بأدلة لا يعتريها شك ولا ريب ..

ولئن بدأت تلك الناحية تتقلص مع الأسف في بعض البلاد العربية فإنها في صميم جزيرة العرب اذا لم أقل انها سارية المفعول الى يومنا هذا فإنني لا أستطيع أن أقول أنها اضمحلت نهائياً لأنني تركت البلاد منذ مدة لا تقل عن ثمانية عشرة سنة من تاريخ يومناهذا ١٧ -٧-١٣٨٤ هـ -٢٧-٧-١٩٦٤ واعني أنني تركت السكنى بين تلك الاحياء الشعبية وأبعدت عن معرفة الحياة الأجتماعية وأصبحت من تلك المدة بعيداً كل البعد عما كنت اعرفه عن حياة قومي عن كثب كما كنت سابقاً وهذا ما يجعلني أزداد تأكيداً بأنني لا أستطيع أن احكم الحكم الفاصل في كلتا الحالتين ، فلا اقول أن جزيرة العرب اصابتها العدوى التي أصابت بعض البلاد العربية كما أنني لا أستطيع القول أيضاً بأن سكانها ظلوا متمسكين حتى الآن ، بعاداتهم وشيمهم التي ورثوها منذ فجر التاريخ ، ولكن الشيء الذي استطيع أن

اثبته بالأدلة الأكيدة وهو أن الأخلاق التي عرفت بها العرب منذ العهد الجاهلي وما قبله تلك التي قامت على احترام المعنويات اكثر من احترامهم للماديات ، هذه الاخلاق ظلت سارية المفعول بصورة ملحوظة الى عهدنا القريب الى درجة أن النساء المخدرات اصبحن يدركن هذه الظاهرة بالبديهة ، واليك الدليل القاطع على صحة ما أشرت اليه :

كان ذلك في عام ١٢٨٩ هـ عندما قتل محمد العبد الله الرشيد أبن أخيه «بندر» امير حائل ، ولا أراني بحاجة الى شرح الأسباب والحوافز التي دفعت محمداً الى ذلك ، فتلك امور أشار اليها المؤرخون الذين كتبوا عن تلك الحقبة من الزمان ..

وشاهدنا هنا ما نقله اليّ المرحوم سلمان بن رشدان [1] يقول ابن رشدان أن مصرع بندر على يد محمد كان مفاجئاً لنا نحن اهل البلاد بشكل عام ، كما كان بلا ريب مفاجئاً لاخوته وزوجه بصورة مذهلة .والسبب على حد قول الراوي أن اهل البلاد كانوا يعرفون أن محمداً سافر في مهمة ما ، ولكن القضاء والقدر اخلف ظن الجميع وذلك أن المسافر قدم في الحين الذي كان أمير البلاد بندر خارجاً عن البلاد قاصداً موقعاً قريباً من البلاد يسمى (الحريمي) لا يتجاوز خمسة كيلومتراً يتنزه فيه ويغرس مشاتل النخل في أرضه الخصبة ،وفي قدوم المسافر محمد من سفره وخروج الأمير بندر الى نزهته حدث الامر الذي لم يكن بالحسبان والذي كما اشرت لا أريد شرح اسبابه ومسبباته ، المقصود أن محمداً قتل بندرا خارج البلاد، وكان حمود العبيد أبن عم محمد حاضراً عملية التنفيذ ويؤيد محمداً ضمنا بقتله لبندر ، وكان أخوة بندر الاشقاء ستة وهم بدر وسلطان ومسلط ونهار وتايف وعبد الله بينما

---

١ – سلمان بن رشدان ورد اسمه والتعريف عنه في اكثر من موضع من كتابنا هـذا ..

كان محمد لا أخوة له ولا أبناء ايضاً بصفته عقيا ، الامر الذي جعله لا يستطيع أن يقدم من فوره على احتلال قصر الامارة الذي يقيم فيه اخوة الامير المقتول فذهب وقصد جبلاً يشرف على مدينة حائل وملاصقاً لها للغاية .. سمي (عَنيف) وهو في ذهابه هذا يريد أن يعرف ماذا يلاقيه من موقف الرأي العام الشعبي ، فإن وجدتأييداً شعبياً اقدم على قصر الحكم وأن لم يجد مضى فيسبيله لينجو بنفسه ،أما أبن عمه حمود فقد ذهب الى قصر الامارة بحكم انه يسكن في الجانب الشمالي منه وراح يعد العدة لمؤازرة محمد ..

فطنة وذكاء وبعد نظر

فذهب يفرق السلاح على حاشيته ، ويهيء نفسه للطوارىء ، اما أخوة بندر فلم يعرف أحد منهم ماذا حصل لأخيهم القتيل ، ولم يكن لديهم من الفطنة ما يجعلهم ينظرون الى ما يقوم به جارهم حمود من تفريق السلاح على حاشيته ومن الاعمال التي تدل على الريبة منه وعدم الاطمئنان اليه ، لا لم ينتبه اخوة الامير القتيل لهذه الناحية وانما الذي انتبه اليها ولاحظها بدقة زوجة الأمير بندر المسماة (غشه) أبنة بن علي والتي هي محور قصتنا هذه ..

فهذه المرأة عندما رأت حمود العبيد يفرق السلاح والعتاد على رجاله وجهت سؤالها التالي الى بدر شقيق بندر القتيل قائلة :

- أين شقيقك الامير ؟.. فرد عليها قائلاً :

- خرج للنزهة الى (غريسه) .. فقالت :

الا ترى أن مجيء حمود قبل الامير وتفريقه السلاح على حاشيته واغلاقه لباب

القصر الا تشعر أن كل هذه الامور من شأنها ان تدخـــل الشك والريبة وتجعلنا نفترض شتى الاحتمالات السيئة ؟..

وعندئذ استيقظ بدر من غفلته وقال :

– كل ما اشرت اليه حقيقة وما علي الآن الا أن اذهب الى اخوتي وحاشيتي لنتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهة الطوارىء وشتى الاحتمالات .

فقالت المرأة الذكية :

– فلنفرض أن شقيقك الامير قتل ، ثم مضت وقالت : وهب ان هـــذا الافتراض حقيقة واقعية لا تقبل الجدل فقل لي من الآن كم عدد الرجال المواطنين الاوفياء الذين استطعت أن تضع في اعناقهم معروفاً معنوياً لكي يقفوا بجانبك فيما اذا دعتك الحاجة الى مؤازرتك في ظروف حرجة كهذه .. فقال :

– كنت اذكر انني شفعت عند الامير بصالح الجراد [1] في مناسبة مـا .. فقالت :

اذا كان الامر كذلك فهذا دليل على أنه لم يكن لك منن في اعناق الرجال الكرام الا بصورة فردية محدودة ، وهذا يعني انني سوف اعتقد جازمـة انك لن تجد من يناصرك او يربـط مصيره بمصيرك في هـذه الساعة الحرجـــة المجهولة المستقبل ..

وأخيراً جاءت تقديرات تلك المرأة موافقة طبق الاصل لما توقعته ، وذلك انه عندما علم المواطنون بمصرع الامير بندر على يد عمـه محمد ، لم يكن وقتهـا لدى شقيق المقتول أي رصيد شعبي يمكن ان يعتمد عليه في ساعته تلك الحرجة ، وكل

---

١ – انظر ص ١١٧ ج ١ من شيم العرب الطبعة الثانية للمؤلف .

ما في الامر ان جاء اليه عدد قليل جداً من المواطنين وفي مقدمتهم ذلك الرجـل الذي شفع له عند الامير المدعو صالح الجراد وظل بجانبـه الى اللحظـة الاخيرة ، وبالتالي انتهى الامر بتخلي المواطنين عنه هو واخوته الستة الـذين لم يكن لهم في اعناق الرجال الفضلاء من المعروف ادنى شيء يذكر فكانت نهايته كنهاية أي حـاكم لا يحسن سياسته باختياره للرجـــال الكرام ذوى المروءة والفضـل والوفـــاء ..

الفصل السادس

أفعال البر والسخاء المحمود

« كما أن السؤال يذل قوما ... كذاك يعز قوم بالعطاء »
علي بن الجهم

باعث نهضة ومعلم جيل

-٣٣-

قد يخيل لقارىء هذا العنوان انني أقصد بذلك منه أكبر منزلة سياسية واجتماعية من صاحبه الحقيقي ، ولكن الذي يعرف صاحب الترجمة ، يدرك للوهلة الاولى ان العنوان المشار اليه اعلاه مطابق كل المطابقة للاعمال التي قدمها هذا الرجل لأمته بكل تفان واخلاص ..

والرجل الذي أعنيه هو محمد علي زينل رضا [1] صاحب الاعمال الجبارة التي لا يستطيع القيام بها الا من وفقه الله لضمير يتجاوب والقيام بمثل تلك الاعمال التي سوف يبقى ذكرها خالداً الى الابد ..

وحيث انني لا اعرف الرجل شخصياً ، كما انني لا اعرف أعماله التي قام بها إلا بصورة اجمالية لذلك رأيت انه من الانسب ان اكتب رسالة لكل من الشيخ محمد نصيف الذي عاصر الرجل ولابن عمه الشيخ أحمد يوسف زينل طالباً منهما أن يوضحا ما يعرفانه عن الشيخ محمد علي زينل خاصة بما له علاقة

---

١ - لما كانت اسرة زينل بين رجالها اسمين متشابهين : فانه يطيب لي بأن اوضح للقارىء بأنني اقصد بذلك محمد علي زينل مؤسس مدرسة الفلاح صاحب الاعمال الانسانية والاجتماعية، لا محمد علي زينل الذي كان اول وزير للتجارة في المملكة العربية السعودية . والذي يعمل حالياً سفيراً للملكة العربية السعودية في الجمهورية العربية المتحدة . لا لم اقصد هذا وانما اقصد الأول .

بقيامه بمشروعه الذي شمل نفعه جيلاً بكامله ..

فجاءني الرد من الشيخ محمد نصيف والاخ احمد زينل في آن واحد .

ويسرني ان اقدم رسالتيهما للقارىء كما وردتا بنصها الحرفي ،

وهذه رسالة الشيخ نصيف :

من جده في ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٨٣ هـ ٢١ سبتمبر ايلول ١٩٦٣.

الى انقره

حضرة الفاضل الاستاذ الشيخ فهد المارك المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وصلني كتابكم وسرني دوام صحتكم . أدام الله على الجميع نعمه .. ومطلوبكم :

الافادة عن سنة تأسيس مدارس الفلاح وصورة مؤسسها الشيخ محمد علي زينل علي رضا وصورتي فهاكم البيان :

الصورتان . وان الحاج زينل علي رضا أو زين العابدين بن علي رضا وفـــد من الخليج العربي ،من أهل السنة .

وأهل فارس يختصرون زينل من زين العابدين . وأهلهم من العرب والخليج العربي كلهم من العرب.وان كان يتكلمون الفارسية فارسيتهم ركيكة.ويتكلمون العربية أجود من الفارسية . وأصلهم من أولاد الصحابة ومن الانصار .

الشيخ محمد علي بن زينل بن علي رضا

مؤسس مدارس الفلاح بجدة ومكة .

الشيـخ محمد علي بن زينل علي رضا أسسها في عـام ١٣٢٣ هجرية يوافق في زمن الحكومة العثمانية .

أول تأسيسها كانت مدارس صغيرة في جدة لتحفيظ القرآن وعلوم الدين والخط والحساب وأول ابتدائها ٢٠ تلميذاً ثم كثروا فصـار عدد طلبتها في مكة نحو الف طالب وفي جدة نحو الف وأدخل غير اللغة العربية اللغة العثمانية لغـة الدولة تدرس في مدارس الفلاح .

محمد بن عبد الله بن علي رضا وزير التجارة سابقاً في الحكم السعودى هو ابن عم الشيخ محمد علي زينل علي رضا ..

عبد الله بن علي رضا كان قائمقام جدة في الدولة الهاشميـة زمن الشريف الملك الحسين بن علي ملك الحجاز الذي كان أمير مكة زمن كان الحجاز تابعاً للاستانة ثم صار الشيخ عبد الله قائمقام جده زمن الحكم السعودي الى أن مات .

مؤسس بيت زينل التجاري بجده هو الحاج زينل بن علي رضا وكان شريكـه أخوه الشيـخ عبد الله فصارت العائلة تعرف بآ ل زينل أو بيت زينـــل .. وكان للحاج زينل ولد أكبر من محمد علي يدعى قاسم بن زينل عضوا في البرلمان العثماني في استانبول في أول سن الدستور أو المشروطيه ..

لما توسعت مدارس الفلاح وكثر فيها الطلاب صار يدرس فيها فقـه المذاهب الأربعة السنية..وكان غالب الطلبة شافعية واثنان حنفية واثنان مالكيـة واثنان حنابلة .. وكان مدرس الحنفية الشيـخ احمد بن طه رضوان مأمور الويركو ومن علماء جدة وكان يدرس – لولديه . وكان مـدرس الفقه المالكي والحنبلي الشيـخ محمد بن حسين ابراهيم وكان الطلبة اثنين مالكية واثنين حنابله وكان مدرس اللغة العثمانية الاستاذ شكري الجندي من أهل حمص بسوريا والآن محامي في بـــلده . وكان من موظفي الحكومـــة العثمانية معلمان سياران لهما حصة في المدرسة لتعليم

الطلبة ثم سافروا إلى استانبول فاحضر بدلاً عنها السيد شكري الجندي معلماً دائماً من أول النهار الى آخره يعلم اللغة وغيرها ..

وكتبه : محمد نصيف ..

واليك الرسالة الثانية :

حضرة الأخ الكريم الشيخ فهد المارك حفظه الله

تحياتي الطيبة وتمنياتي أن تكونوا بأتم الصحة والعافية وبعد :

تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٠ – ٩ ١٩٦٣ بشأن استفساركم عـــن بعض النقاط الخاصة بمدارس الفلاح ويسرني أن أجيبكم عليها فيما يلي :

١ – تاريخ الافتتاح : تأسست مدرسة الفلاح بجدة سنة ١٣٢٣ هـ .

٢ – تأسست مدرسة الفلاح بمكة سنة ١٣٣٠ هـ .

٣ – صرف الحاج محمد علي زينل على هذه المدارس من جيبه الخاص بجميع ما يلزمها الى نهاية عام ١٣٥٤ هـ أي مدة تزيد عن ربع القرن .ولما حالت الازمة المالية العالمية دون مواصلة الصرف الكامل على المدارس ترك لهـــا ريع عقاره في مكة وجدة لتكمل به مصروفاتها وذلك مستمراً الى الوقت الحاضر ..

٤ في سنة ١٣٤٨ هـ بعث الحاج محمد علي زينل بعثة من الطلاب الى الهند على حسابه الخاص عددها عشرون طالباً نصفهم من مكة ونصفهم من جدة ..

راجياً أن تكون هذه الأجابة طبقاً لما استفسرتم عنه .

وتفضلو بقبول وافر تحياتي .

الأمضى

احمد يوسف زينل علي ريضا

هاتان الرسالتان أوردتها بنصها الحرفي دون أن أغـــير أو أبدل بها شيئاً قطعياً ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو أن محمد علي زينل لم يكن عمـــله محدوداً على ما أشار اليه صاحبا الرسالتين نصيف واحمد ، بل أنه افتتح مدرسة في الهند على نفقته الخاصة لابناء العرب الموجودين هناك .. وهذه الحقيقة لم اكن أعرف عنهـا شيئاً لولا انني اجتمعت بمحض الصدفة بالشيخ قاسم مخدوم الذي التقيت بـــه في انقرة وأفادني بأنه كان في الهند يعمل مدرساً للغة العربية للطلاب العرب الذين يدرسون في مدرسة الشيـخ محمد علي زينل على نفقته الخاصة ..

... وبعد : فإنني اعتقد جازماً أن العمل الذي قام به زينل وأن كانت فائدته محصورة على ذلك الجيل المعاصر من أبناء المنطقة الغربية ولكنه فيا بعد أفاد شبه الجزيرة العربية بكاملها خاصة بعد أن وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز وذلك أننا نجد الاكثرية الساحقة من الذين تولوا مهام الأعمال في الدولة من الشؤون المالية الى ادارة التعليم الى ادارة الجمارك الى الذين برزوا بالأدب والصحافة كل من هؤلاء واولئك كانوا متخرجين من تلك الدوحة التي تعهد تأسيسها والعناية بها محمد علي زينل .. ولم يتخل عنها حتى أتت اكلها لذيذاً شهياً .. ومما لا شك فيـه انه لولا وجود هذه النخبة المتخرجة من مدارس الفلاح التي افلح محمد زينل بإنشائها لولاها

لما وجد في المملكة من يقوم بمهام امور الدولة المتحدة البكر خاصة عندما تم اتحاد المنطقة الغربية بالمناطق الاخرى في المملكة كالشرقية والشمالية والجنوبية ، فكل من هذه الجهات كان ساكنوها شبه أميين لعدم وجود مدارس على الطرز الحديث أو بالأحرى لعدم وجود رجال لديهم من الوعي الحديث والامكانيـــة الفكريه والمادية ما هو موجود عند محمد علي زينل الذي قام بهذا العمل الجليل الذي-سيبقى خالد الذكر وتعترف له بالفضل الاجيال القادمة مدى الدهر .. لقـد كان هـذا المجاهد الجليل قدوة حسنة لا في عمله هذا الذي أنشأ به جيلا وافاد به وطنه بشكل عام فحسب بل كان قدوة صالحة حتى بأقواله الحكيمة وآرائه السديدة .. ولقـد احسن اليّ بتوجيهاته الرشيدة وحكمته المأثورة بدون أن يعلم ، وذلك انـه كان لي الشرف بقيام بمشروع انساني ، وكم عانيت من العقبات والمشاكل التي كدت بسببها أن اتخلى عن القيام بذلك العمل الذي لا اذكر بحياتي انني وفقت لعمل ما كتوفيقي لذلك العمل المتواضع [1] ولكن كلما وهنت عزيمتي وفترة همتي واوشكت أن ادع ذلك العمل الطيب بسبب ما عانيته ولاقيتـه من مشقة ونصب ومصائب لا يعلمها الا الله أقول كلما تأهبت للهزيمة وشئت ان افر هارباً ، قبل ان أتم عملي عند ذلك اذكر كلمة لمحمد علي زينل رويتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد ، وحينما اذكر هذه الكلمة استرد شجاعتي من جديد واشعر بحافز يشحـذ همتي ودافع يلهب عزيمتي وايمان يقوى ارادتي ، ومن ثم استمر بعملي شوطاً بعيد المدى وهكذا دواليك .. كلما شئت ان استسلم للهزيمة واليأس ذكرت كلمة زينل تلك الكلمة التي هي صالحة لأن تكون نبراساً حياً يقتدى بانواره كل من أراد ان يعد نفسه للاعمال الشاملة النفع في كل زمان ومكان ..

والكلمة من حيث لفظها وجيزة للغاية ولكنها من حيث المغزى لها الف معنى

---

١ - هو انشأ مؤسسة لجميع الأيتام المغتربين السوديين في دمشق .

ومعنى ..ولا يعرف قيمتها الا من جرب مفعول علاجها الشافي لعلته ..

واليك ما رويته عن ابن زيد رحمه الله : يقول الراوي نقلاً عن صاحب الترجمة او عن أخيه ان محمد علي زينل جمع رجالاً من وجهاء واثرياء مدينة جدة واقنعهم برأيه وأثر عليهم بشخصيته بشأن القيام بمشروع وطني انساني لا علم لي به حتى الآن ولكن الذى أعلمه من ابن زيد هو أن المشروع ذو أهمية ويحتاج الى اشتراك عدد من اثرياء البلاد بحكم تكاليفه المادية الامر الذى جعل محمد علي زينل يجمع وجهاء البلاد ويذهب واياهم سويا الى الشيخ بناجي ليستعين بجاه هؤلاء الوجهاء عند بناجي من ناحية وليستعين بمعونة بناجي المادية وتأييده المعنوى لمشروعه بصفته من أعيان البلاد البارزين . ولكن بناجي عندما جاءه القوم لم يكن موقفه سلبياً من المشروع فحسب بل تكلم بجملة قال ما معناه : (أن ابواب الخير مفتوحة لكل من أراد أن يعمل خيراً وعلى فاعل الخير أن يعمل بدون أن ينتظر من يسوقه أو يقوده الى سبيل الخير الذي لم تكن أبوابه موصدة في وجه أي انسان يقصد دخولها بنية صالحة وقلب مخلص) ..

كانت هذه الجملة من بناجي صدمة عنيفة لزينل بصورة خاصة ولرفاقه بشكل عام مما جعلهم يخرجون خائري القوى الأمر الذي جعل أحد أعيان جدة وهو المزاز على حد قول الراوي يسخر من محمد علي زينل ويضع عليه اللائمة قائلاً : (اجئت بنا عند هذا الرجل من أجل أن يجرح شعورنا وينال من كرامتنا) ؟.. فأجابه زينل مبتسماً بكل هدوء ورزانة ورباطة جأش وثقة بالنفس قائلاً : إذا كنت تريد أن تعمل لخير أمتك بنية صادقة فما عليك الا أن تتحمل كل أذية واهانة وسخرية تأتيك في هذا السبيل ..

يا الله ما أعظم شأن هذه الجملة وما أعظم مفعولها على كاتب هذه الأحرف لا بما لها

علاقة بمشروعي سالف الذكر بل في كل عمل من الاعمال الحيوية التي يصطدم بها المرء في حياته اليومية في كثير من الاحيان مع أناس يـــلاقي الانسان منهم من السخرية وتثبيط الهمة وتشويه الحقيقة الشيء الذي يرهق الاعصاب وينهك القوى ويوشك ان يخلق وهنا في العزيمة وقنوطاً في النفس لا يجد المرء سلاحاً يحارب به هذه العوامل بعزم وثبات الا تلك الكلمات الخالدة لمحمد علي زينل (اذا كنت تريد الخير لأمتك الخ .) .

ومما لا شك فيه ان الانسان يسمع ويسمع من امثال هذه الجملة ما هو ابلغ منها لفظاً ومعنى ولكنني وطيد الأيمان بأن السر الذي جعل لهذه الجملة اثراً فعالاً في مجرى حياتي هو أن هذه الجملة صادرة من قلب صادق حينما قالها ومؤمن بمفهومها ومطبق لمعانيها . .

والحقيقة أن اعجابي بهذا الرجل بلغ درجة جعلتني افكر أن اهـدي مؤلفي هذا بإسمه ولكنني اعرضت عن ذلك لا لسبب ما وانما وجدت أن الاهداء الذي اخترته في الجزء الأول اشمل معنى

والجدير بالذكر ان صاحب الترجمة لا زال على قيد الحياة حتى كتابة هـــذه الاحرف في ١ - ٧ - ١٣٨٤ - ٥ - ١٢ - ١٩٦٤ .

والشيء الذي أحب أن أختم به هذه الكلمة هو أنني على يقين راسخ من العلم والأيمان بأن الرجل مهما جمع من المال ومن الثروة الطائلة ومن المركز الرفيع فإن ذلك لا يكون له أي اثر في عالم التاريخ بقدر الاثر الذي يقدمه لامته من اعمال انسانية وثقافية واجتماعية كهذا العمل الذي قام به هـذا الرجل المحسن الكريم ،

ولا يسعني حيال ذلك إلا أن أنشد مع الرصافي قوله :

لو كنت اعبد فانياً في ذي الدنى
لعبـــدت من دون الالـــه المحسنا

وجعلت قلبي موضعـــاً لتعبـدي
سراً وفهت له بشكري معلنـــا

قيمة الرجال بأعمالهم

- ٣٤ -

تقدر جميع الاشياء المحسوسة أما بثقل وزنها فيما اذا كانت ذهباً مثلا ، أو مواد غذائية أو بمساحتها ـ إذا كانت أرضاً ، أو ما أشبه ذلك من تلك الاشياء التي تقاس بالسنتيمتر ، أو باتقانها وجودتها اذا كانت صناعة . الخ ..

المقصود .. أن كل شيء في هذه الحياة يمكن أن يباع ويشترى . ويمكن أن يقدر له ثمن محدود . اللهم الا نوع واحد ـ الا وهو ـ « الأنسان » .

هذا المخلوق العظيم الذي كل معجزة في الكون من أرض وسماء ـ و ... و ... و ... الى آخره ... كل ذلك لا يقاس عظمته واعجازه ، بعظمة هذا الانسان ومعجزة وجوده التي كانت ولم تزل لغزاً مبهماً ، طاشت عقول العباقرة في معرفة كنهه وكل منهم ذهب في تفسيره لهذا اللغز المدهش ـ مذهباً معاكساً ـ ولم يعلم ولن يعلم أسرار هذا النبت المزيج المزدوج ، كيف أنشئت أول بذرة منه ؟... ومتى ينتهي آخر هذه البذرة ؟... لا ... لا يعلم أحد عن ذلك الا من أنشأها من العدم ... الا وهو : « الله » ـ جل شأنه ـ وتعالى عما يصفون ..

هذا المخلوق التافه والعظيم في آن واحد . الذي صارع الحديد وصرعه وجعل

منه طائراً يحلق فوق السحب مسخراً بأمره ولأمره ، وصارع الجبال فجعلها دكا طوع بنانه ، وتحدى الاسود في غاباتها ، وقهرها في عرينها فساقها ذليـلة حقيرة لا لحاجة بها . وانمـا ليشبع غرور نفسه عندما يرى أنه بمكره ودهائه وشجاعته استطاع أن يجعل من الاسد العوبة يسخر بها (في متحف الحيوان) .

هذا المخلوق الذي لا شيء في الدنيا أقدر منه لفعل الخير الشامل النفع اذا كرس مواهبه للاعمال الطيبة والمثل العليا . ولا شيء أضر منه اذا صرف جهوده للاضرار والافساد والشر . والوشاية عند ذي سلطان والنميمة والأذية عنـد من يملك العقاب ..

هذا هو الانسان الذي لا تقدر قيمته بما يكسبه من مال وافر ، ولا بمـا يناله من شهادات عالية ، ولا بما يحوزه من جاه رفيـع وسلطان باذخ لا ، لا تقدر قيمة الانسان بأية معنى من هذه المعاني ـ اللهم الا تقديراً مجازياً ، أمـا التقدير الحقيقي الذي يجعل ذكره عاطراً ، أبدياً ـ فإنه لا يأتي قطعاً الا عن طريق العمل الذي يسديه لأمته . وبقدر ما يكون عمله شاملاً لعدد ما من مواطنيه أو لبني الانسان بصورة اعم واشمل بقدر ما ترتفع قيمة أسهمه في عالم الخلود ، ومدار بحثنا هنا ، يدور حول مواطن عربي من ساكني ليبيا ، تلك البلاد التي احببتها ، بل أحببت أهلها ، وفقاً لقول الشاعر العربي :

ومـا حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

والحديث عن ساكني ليبيا وعن شيم أهلها العربيـة بالنسبة المؤلف يحتاج الى كتابة خاصة او الى سفر مستقل .

ولا بد لي أن اشير الى ذلك باختصار في آخر بحثنا هذا ، أمـا الآن فأود أن أشير الى مواطن من أبنائها البررة ـ ذلك الرجل الذي لو كانت قيمة الرجال تقاس

بوفرة بالمال لما كان له أية قيمة ، ولو أن قيمة المرء تقاس بالعلم ، لما كان له أدنى غن ولو ان نباهة الذكر وذيوع الصيت يستدل عليها بسمو الجاه لما استدللت على ذلك الرجل العادي بمظهره والمتواضع بمهنته ـ ولكن عمله وحده هو الذي حفزني الى معرفته بل والى تقديري له واعجابي به .

وكأنني أرى حروف الاستفهام من القاريء تترامى عليّ حرصاً منه على معرفة صاحب الترجمة . وعلى العلم بكنه العمل الذي قادني الى معرفته واحترامه ..

كنت في مدينة طرابلس الغرب ، في مطلع عامي ١٣٧٩هـ ١٩٥٩ م كممثل في سفارة حكومة وطني هناك ، وعلى الاسلوب الروتيني وجهت الي بطاقة تحمل دعوتي لحضور افتتاح مدرسة تسمى (مدرسة جميلة بوحيرد) كما وجهت لزملائي دعوة مماثلة ، وقد جاءت ظروف حالت دون حضوري الدعوة التي فهمت من زملائي انه حضرها ولي العهد الليبي كما حضرها عدد جم من اعضاء السلك السيامي ، ومن وجهاء البلاد ، وكبار موظفي الدولة ، وقد أسفت فيما بعد لعدم تلبيتي للدعوة ، وكان أسفي في بداية الأمر شكلياً ليس الا ... ولكنني بعدما عرفت ان صاحب الدعوة وان كان مجرداً من الصبغة الرسمية كتجرده من نباهة الذكر ومن أي شيء يمت الى الثقافة بصلة ، ولكنه رجل اوقف نفسه وكرس جهوده ، وبذل ماله للقيام بمشروع مقدس يفرض عليّ لا ان ألبي الدعوة فحسب ، بل ولأزوره في مكانه لأهنئه على ما وفق له من قيامه بعمل خالد يستحق الاحترام من أجله ، حقاً .. بعدما عرفت عنه ذلك هرعت في صبيحة الغد ذاهباً أسأل وأسأل . وعمن أسأل .. يا ترى أسأل عن ذلك المواطن الليبي العادي المتواضع . المدعو « يوسف مادي » بفتح الميم ..

- ومن هو مادي ؟.. وما عمله ؟..

رجل عادي أمي أو شبه أمي ... بائع احذية ..

ولمـــاذا أذهب اليه - لاعتذر منه . أولاً - ولأقدم له تقديري واعترافي له بالجميل الذي أسداه لمستحقيه من بني وطنه العربي ؟..

وما هو العمل الذي تصدى يوسف مادي للقيام بـه والذي رفع اسمه وزاد قيمتـــه ، من رجل بائع أحذية - الى رجل فرض عليّ احترامه وتقديره حتى أوجبني الأمر أن أضيف اسمه الى حقل « شيم العرب » هذا السفر المتواضع الذي آليت على نفسي بأن لا أضع بين صفحاته الا الرجال ذوي المروءة ، والشهامـة والانسانية ، أنى كانوا ، كباراً كانوا أو صغاراً ، سادة أم مسودين، نابهي الصيت أم خاملي الذكر ، لا عبرة عندي بذلك ، وانما العبرة الحقيقية ليس الا بالأعمال الجيدة التي يقوم بها أصحابها فللأعمال أكتب ، ومن اجلها احترم واقدر ، وهاأنذا أجيب السائل عن العمل الذي قام به يوسف مادي - كما يلي :

عندما كانت حرب الجزائر الضروس في أوجهـــا وكان الفرنسيون متمادين بتقتيل المواطنين الجزائريين . وكان مجاهدو الجزائر الابطال يكافحون دولة الظلم والطغيان وكان واجب الجهاد الذي اضطرهم أن يقدموا نفوسهم الطاهرة ودماءهم الزكية قرباناً لاستقلالهم، كان من شأنه ان يكونوا في شغل شاغل عن العناية بايتامهم الذين قتل الفرنسيون الظالمون آباءهم وشتتوا شمل امهاتهم فظـلوا هائمين بالصحارى قوتهم من النبات وفراشهم الارض وغطاءهم السماء .

كان من شيمة يوسف مادى ان اهتم بهؤلاء الايتام كما اهتم بابنائـه فذهب الى ارض الجزائر فوجد الايتام فتياناً وفتيات أكثر من ان تتحمـــل طاقته اعالتهم جميعاً .. ولما كان الفتيات أقل احتمالاً من الفتيان للمشاق فقد رأى مادى ان يأخذ من تلك الفتيات ما يخوله وضعه الاقتصادى ان يعولهن أو بالحرى ما تتحمل شيمته ومروءته اعالتهن لأن القضية بالنسبة اليه بصورة خاصة وفي حالة كهذه بصورة عامة قضية تعود الى توفر الشيمة والمروءة اكثر من وفرة المال.

كان بود يوسف مادي ان لا يترك فتاة يتيمة في الجزائر الا جاء بها وأعالها كما

يعول ويعنى بأطفاله ولكنه رأى ان يبتدىء المرحلة الاولى بأعالة خمسين من الفتيات على نفقته من غذاء و كساء وعناية ورعاية اللهم إلا ان الحكومة الليبية آزرته بتعهدها بالسكن والمعلمين .

ومن أجل هذه الاعمال المجيدة ذهبت الى يوسف مادى اسأل عنه في آخر شارع عمر المختار في مدينة طرابلس فوجدت رجلاً في مستهل الكهولة تحيط به الاحذية من كل جانب تشعر من اول حديث معه بسلامة طويته وبساطته وقد أثار انتباهي تمثال (جزمه) مصنوعة من النحاس الاصفر معلقة في ذراعه بجانب سوار ساعته مما أثار فضولي وجعلني أسأله عنها فأجابني فوراً بافتخار بأنه دخل مسابقة في روما مع المختصين بمعرفة فن الاحذية وانه نال الاسبقية بدرجة الرابع ولذلك منح هذه الاشارة كدليل على (نبوغه) من لدن الجهة المختصة في نقابة الاحذية في روما ..

هذا وقد كان ممثل الجزائر في ليبيا السيد احمد بودا حاضراً ساعتذاك فقال : لا يكون عدد منافسيك في ميدان السباق ثلاثة فقط وانت الرابع فأجاب باندفاع : لا بل كنا سبعة ، فضحك السيد بودا وانا على سرعة اجابته .

هذا هو السيد يوسف مادى لم يكن فيه من حيث مهنته ولا شخصه ما يثير الانتباه ولكن الانتباه بل الاعجاب والتقدير جاء اليه من حيث عمله الجليل : ولما كان الشعب الليبي من خيرة الشعوب العربية التي أبدت اندفاعاً وحماساً في قضية الجزائر فقد قدروا هذا العمل من السيد مادى حيث ذهب اليه عدد كثير منهم وطلبوا منه ان يرشح نفسه نائباً في مجلس الأمة الليبي الذي تم انتخاب اعضائه في عام ١٩٦٠ ولكن مادى رفض قبول هذا الطلب ويخيل الي ان رفضه هذا مبني على علمه بنفسه بأنه ليس لديه ما يؤهله من الثقافة للقيام بهذه المهمة .. هذا من ناحية والناحية الأهم والأرجح عندي هي انه على يقين من العلم بأن مواطنيه لم يطلبوا منه ان يرشح نفسه كنائب عنهم إلا من أجل عمله ليس إلا ولذلك ما أراد ان لا يشرك

في عمله الوطني والانساني عملاً سياسياً ولكن اخواننا الليبين عندما رأوا عدم قبوله لطلبهم هـذا أصروا عليه بأن يرشح من يشاء من المواطنين ليمنحوه اصواتهم فاضطر تحت الضغط ان يرشح شخصاً لم يسبق ان دخل مجلس الأمة كنائب ، ومع ذلـك فاز مرشح يوسف مادى على الرغم من ان منافسه الشيخ عبدالرحمن القلهود وهو من الرجال الثقيلي الوزن بالعلم وبالمكانة الاجتماعية وقد تقلب بعدة وزارات قبل هذا الترشيح وبعده .. كما كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء في عدة مناسبات ولم يسبق له ان خسر مقعده النيابي في مجلس الأمـة الليبي الا هذه المرة التي نافسه فيها مرشح يوسف مادى ..

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدلنا على تقدير شعب ليبيا للأعمـــال أنى كان مصدرها .. ولما كنت وطيد الثقـــة بأن ما قام به اخواننا الليبيون من تكريم ليوسف مادى فإنما كان قصدهم تشجيعه ليتخذ المواطنون القادرون منه قدوة صالحة بالقيام بعمل مماثل لعمله ،فقد رأيت من واجبي ان اقتفي أثر اولئك المواطنين في اكرام الرجل ولو في بعض الاشياء المجازية ولذلك وجدتني عندمـــا اقيم دعوة في مناسبة فإنني غالباً ما اضع اسم مادى في مقدمة المدعوين .. وكان كثيراً ما يعتذر . وفي مناسبة دعوة اقمتها لأحد المواطنين السعوديين ففي هذه المرة ألزمت يوسف مادى بالحضور دون ان اقبل منه أي عذر فحضر بعد الحـاحي الكثير الذي لم أفعله إلا لحاجة في نفسي وهي انني اردت ان اعرف المدعو على مادى أو بالأصح أردت ان اعرفه على العمل الجليل الذي قام به بائع الحذاء مؤملاً ان يقوم صاحبي المدعو بعمل مماثل لأن لديه من القدرة المالية ما يمكنه من ذلك..وقد حضر مادى ضمن المدعوين وعند ذلك قدمته الى الضيف شريف وقلت همساً في اذنه أي في أذن السعودي ان بعضاً ممن دعوت لم أدعه الا لأجل مركزه الحكومي أو لوجاهته الا هذا الرجل فقط فإنني لم أدعه لهذه ولا لتلك وإنما دعوته لعمله ومن أجل عمله الذي هو كذا وكذا الخ..

ومما يزيدني تقديراً واعجاباً بمادى هو ان هذا الرجل لم تقف به مروءته عند حد العدد الذي أشرت اليه آنفاً أي اعالة خمسين فتاة فقط بل ذهب يهيء مكانـاً يضم مائتي فتاة علاوة على العدد السابق . وقد منحته الحكومـــة سكناً لهذا العدد

الاخير كما تعهدت له بأن تكون مرتبات المعلمين والمعلمات على نفقتها وكان يشاركه هذه المرة في مشروعه الاخير مواطن من مشاهير أثرياء مدينـة طرابلس الغرب يدعى محمد الساسي ، وقد ذهبت والدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في ليبيا ، ذهبنا الى المدرسة الجديدة فوجدناهـا مجهزة بكـل شيء من التخوت الى الفراش الى عدة الطبخ الى الالبسة فكل ما يكفي لمئتي فتاة من جميع اللوازم قد أعد وهيء من قبل مادى والساسي ، ولكن فرج الله جـاء للجزائريين بأخذهم استقلالهم وطردهم للغاصب المستعمر وعنـد ذلك ظلت اليتيمات اللائي قرر مادى والساسي جلبهن ظللن في بلادهن كما ان الفتيات القديمات اللائي في عهدة مادى عاد بهن الى بلادهن الجزائر ..

هذا وان كتابتي هذه عن يوسف مادى ان هي إلا امتداد لمقال سابق كنت كتبته عنه ونشرته جريدة الندوة السعودية في عام ١٩٦٠ بعنوان (ألا تشاركني الاعجاب بهذا الرجل) .

واني لأذكر جيداً معنى أشرت اليه في ذلك المقال ولشدة ايماني بصواب ذلك المعنى أراني مضطراً الى تكراره الآن وهو قولي : (ان الحياة اذا تجردت من أمرين لا قيمة لها : الامر الاول : هو مصارعة الطغاة الظالمين والثاني الاخذ بيد المظلومين .. وهذا هو مذهبي الذي أدين لله به .. وقـد قدمت مصارعة الطغاة الظالمين على الاخذ بيد المظلومين بالرغم من ان منظر البائسين المظلومين قد يستفز الشعور الانساني من حيث العاطفة اكثر من استفزازه لرؤية الظالمين .. وذلك عندما ننظر لقضية المظلومين من حيث اطارها العاطفي ولكن عندما ننظر للأمر من جذوره نظرة موضوعية عند ذلك تتضح لنا الحقيقة الواضحة القائلة : لولا وجود الطغاة الجبابرة الظالمين لما وجدنا في الامة مظلومين ولولا ان فرنسا جاءت غازية باغية للجزائر حتى قتلت الرجال ويتمت الاطفال ورملت العجائز والنساء.. لولا ذلك لما وجد يوسف مادي يتيمات هائمات في الصحارى لا أهل لهن ولا مأوى ولولا ظلم الغزاة البغاة الصهاينة لمـا وجد مشردون من اخواننا الفلسطينيين ..

فمصارعة الظالمين وإذلال الجبابرة الطاغين ومحاربة الاستغلاليين الذين لا تتم سعادة الفرد منهم إلا على حساب تعاسة وشقاء الالوف المؤلفة من بني الانسان وفقاً لما قاله الشاعر الرصافي :

ورب سعيد واحد تم سعده

بألف شقي بالمعيشة راغم

ولئن كان الاخذ بيد المظلومين فرض كفاية فان محاربة الظالمين وسحقهم من عالم الوجود فرض عين ولولا بطولة الجزائريين وقهرهم للظالمين لولا ذلك لظل سيل الايتام واليتيمات يتدفق من الجزائر بدون انقطاع حتى الابادة .. وهـذا دليل قاطع يزيدنا ايماناً بأن مصارعة الظالمين والقضاء على دابرهم هى في الوقت نفسه نجدة للمظلومين بل في حالة ابادة الظالمين لن تجد مظلومين في حاجة الى الاخذ بيدهم لأن الداء السارى حسم من مصدره وجذوره .. ولكن هذا لا يمنعنا من تقديرنا لذوى المروءة الأخذين بيد المظلومين كيوسف مادى وأمثاله من المواطنين البررة.. وعندما اذكر يوسف مادى من اخواننا الليبيين اذكر ايضاً مواطناً آخر من مدينة طرابلس وهذا الآخر تعهد باعالة عدد من الايتام الذكور الجزائريين على نفقته هو السيد ابو بكر ..

والحقيقة ان المدة التي قضيتها في ليبيا منها ثلاث سنوات في طرابلس وثلاثة اشهر في بنغازي كانت تلك المدة التي أقمتها هناك فيها الكفاية التي اعطتني الفكرة عن الشعب الليبي . لا من حيث موقفهم في جانب الجزائريين فحسب بل ومن حيث ما يتصف به سواد الشعب من خلق عربي أصيل..

وعلى سبيل المثال والاختصار يلذ لي ان اذكر ما رأيته كشاهد عيان من حوادث وقعت من اناس من عامة الشعب وهي حوادث قد لا تكون ذات أهمية من حيث

ذاتها ولكنها تعبر تعبيراً قاطعـــاً عن عراقة الشيم العربية التي يتمتع بها الشعب الليبي ..

وبما أن الخلق القومي الاساسي لأي شعب كان لا يمكن معرفة كنهـه إلا عن طريق الفئة التي يعبر عنها بعصرنا الحـــديث بـ (البروليتاريا) أي الطبقة الشعبية الدنيا ، لذلك بذلت ما أستطعت من الجهد للوصول إلى معرفة خلق عامة الشعب الليبي ، وقد أدركت أنني لا أستطيـع الوصول إلى ذلك إلا عن طريق الامتزاج بعامة الشعب الأمر الذي جعلني أترك ركوب السيارة واسير على قدمي في كثير من المناسبات وهذه الطريقة وحدهـــا هي التي مكنتني من الوصول الى غايتي المنشودة ..

والذي أثار انتباهي في سماحة خلق هـذا الشعب هو انني لا أذكر انني سألت أحداً من عابري السبيل عن مكان ما ومن ثم أدرك هـذا المسؤول أنني غريب الا وذهب يرافقني حتى يوقفني على المكان الذي أريد : فمثلاً في اليوم الثـــاني الذي وصلت فيه الىالبلاد جئت سائراً على قدمي من فندق المهاري الى السفارةولم أكن أعرف وقتها موقع السفارة وطبيعة الحال تضطرني أن اسأل من يـدلني فألتقيت بشخص راكباً (دراجة) فسألته عن دار السفارة وكان سائراً نحو الغربفسرعان ما أنحرف الى جهة الشرق ونزل عن دراجتـــه وذهب بجانبي حتى قطعنا مسافة ليست بالقريبة فقلت في نفسي لابد أن هذا الرجل يعمل في السفارة فذهبت اسأله عن عمله فقال انه بائع حليب فقلت الك معامـلة مع السفارة ؟ فقال كلا : فطلبت منه أن يرجع الى السبيل الذي عاد منه وان يكتفي بالاشارة الى موقـع السفارة فرفض بحجة ان مكانها بعيد وانني لا أستطيع الاهتداء عليـه بالأشارة ولم يتركني الرجل حتى اوقفني على باب السفارة ثم قفل راجعاً وقد تكرر معي مثل هـــذا العمل مرات متتالية وفي عدة مناسبات .. ولا يسعني أن اسرد كل ما شاهدته من امثال هذه الحادثة وانما اكتفي بذكر حادثتين : ذهبت ذات يوم الى صاحب آلة كاتبة ليبيض مسودة مقال اعددته للنشر فوضعت الأوراق عنـــده على اساس أن اعود عليه في الغد ولكن عندما عدت أريد مكانه ضعت عنه وكنت قد حفظت

اسمه فذهبت اسأل أحد اصحاب الحوانيت عن مكان الرجل هذا وعلى الفور خرج المسؤول من حانوته وقال : هيا اتبعني ، ثم اشار لجاره فقال : (انتبه لبضاعتي حتى اعود .. فذهب يهديني الى صاحب الآلة الكاتبة تاركاً عمله وقـد قطعت مسافة بعيدة عن دكانه ولم يتركني حتى اوقفني على صاحبي ...

هذه الأولى وأما الثانية فقد كنت خارجاً من السفارة وذاهباً الى منزلي سيراً على الأقدام ويرافقني مواطن سعودي هو الاخير فضل المشي على ركوب السيارة وقد التقينا بصاحب (عربية) يحمل فواكه متنوعة فقرر صاحبي ان يشتري منه عنباً .. ولكن بعدما وزنه الرجل أدرك رفيقي انه لم يكن لدى البائع ماعون يحمل فيه عنبه كما أن البائع لا يستطيع ان يترك بضاعته في الشارع ليحمل مع المشتري حاجته فلذلك قرر رفيقي ترك العنب .. وكان عند صاحب العربة رجل من عامة الشعب يحمل ماعوناً فيه مؤونة لاهله فسرعان ما أفرغ هذا الرجل مافي ماعونه وراح – يطلب من رفيقي أن يحمل له العنب فوافق صاحبي ظاناً ان هذا الشعبي لم يفعل ذلك الا طمعاً بالأجرة ولكن سرعان ما أدرك رفيقي انه مخطيء في ظنه وذلك بعدما وصل منزله وأراد ان يدفع نقوداً للرجل الليبي ولكنه أي الليبي رفض قبولها بعنف قائلاً : ألست عربياً .. قال صاحبي بلى .. قال ألم تكن عراقياً ؟ قال ماذا تعني فيما اذا كنت عراقياً ؟ قال اعني انك لست من اهل هـذه البلاد .. قال رفيقي وهو كذلك .. قال الليبي اذن اصبحت ضيفاً لنا فكيف بي اخذ منك اجرة .. ومن هنا ادخلت نفسي بالحديث بينهما فقلت لليبي ما هو عملك فقال عامل في المستشفى ثم اشار بيده مودعاً ..

فهذه الأعمال وأن كانت بحد ذاتها بسيطة ولكنها من هذا العامل وامثاله تعبر ابلغ التعبير عن عراقـة الخلق الليبي لأن هؤلاء العمال وأمثالهم هم ولا شك المرآة المنعكسة والمعبرة عن الخلق الكامن المورث في كيان الشعب ..

والواقع انني تجولت كثيراً في البلاد العربية وقد وجدت ان العادات العربية

كلها متشابهة في كل بلد يشبه الى حد كبير البلد الثاني ولكنني لم أسر ولم اجــد الاصدقاء الكثيرين الذين ركنت اليهم واطمأنت نفسي لمعاشرتهم في بعض الاقطار كما وجدتها في الشعب الليبي .

ولئن كان النفط المتدفق في بلادهم اليوم كالسيف ذى حدين له ماله من حسنات وسيئات .. فإنني ارجو الله تعالى ان يوفق الليبيين للأخذ بما فيه من حسنات تتجاوب واخلاقهم الكريمة وان يقيهم شر سيئاته .

عندما تطغى المروءة على الجشع

-٣٥-

أتى الى شبه الجزيرة العربية في السنين الغابرة مجاعة لا يمكن أن يتصورها العقل ، ولم تكن تلك الأيام المجدبة بعيدة العهد ، الى الحد الذي يمكن ان تنسى أو تغيب عن الاذهان ذكراها المريرة : بل كانت قريبة العهد : وقد ظلت آثارها باقية حتى مطلع القرن العشرين :وكانت البلاد ايامها محرومة من الانتاج الزراعي ومن جميع المعدات الزراعيـــة كما يكن فيها انهار ولا سدود وكل ما في الأمر ان سكان البلاد يسعدون اذا أنهمرت السماء عليه بماء مدرار ويشقون بعـدم نزول الغيث .
ومن المعلوم ان الامطار في الجزيرة لم يكن نزولها دائماً متوفراً بصورة مستمرة كما هو الامر في البلاد الاخرى البـاردة الكثيرة الاشجار ؟! وكان القوت الاساسي لاهل البلاد هو القمح والتمر وهذان الصنفان هما الانتاج الزراعي المحلي وربما كان الاخير قوت الطبقة الوسطى من الشعب بل قوت السواد الاعظــم من المواطنين جميعاً ، اذ انه لم يكن وقتها ثمة تباين بين طبقات الشعب من حيث الثراء الفاحش بل يكاد أن يكون الشعب كله طبقة واحدة فإن يكن هناك فرق بين المواطنين بالغنى فإن هذا الفرق نسبي لا أهمية له ..

وكما أن اثرياء الحرب يدخرون المواد الغذائية بمجرد ما يشعرون ان هناك خطراً يهدد العالم بوقوع حرب عالمية أو محلية كذلك كان الاثرياء على قلتهم في

شبه الجزيرة كل فرد منهم يسعى جاهداً ان يشتري بكل ما يملكه من نقود قمحاً أو تمراً استعداداً لمواجهة القحط فإن اجدبت البلاد باع ما أدخره من تمر او بر او كلتاهما باضعاف مضاعفة ما اشتراه به وان ساق الله مطراً واخصبت الارض فانه سيبيع ما عنده برأسماله فلا يخسر شيئاً وان خسر فان خسارته ليست بذات بال .

وقد كان هذا الادخار شيئاً مألوفاً ولا يعاب فاعله بالرغم من ان من يقوم بعمل كهذا فإنه ممقوت شرعاً وعقلاً : وحسب فاعله من العار والخزى انه في قرارة نفسه وفي عقله الباطن يحزن عندما تخصب البلاد وترخص المواد الغذائية وبالعكس يطرب ويتهلل وجهه سروراً ويرقص طرباً حينما يمتنع الغيث وتقحل الارض وتزداد قيمة مواد الغذاء لانه لا يعيش ولا يثرى بل لا يبلغ الى ذروة الجشع والتخمة الا على حساب جوع الالاف المؤلفة او الملايين من مواطنيه .

وبالرغم من جسامة عار من يقوم بأعمال كهذه فاننا لن نجد أمامنا دليلاً مادياً يوحي بأن المواطنين يعيبون من يقوم بمثل هذا العمل الشنيع كما هو شأنهم مقت واحتقار أي مواطن يقوم بأعمال تتنافى والخلق العربي . مع العلم ان من يتولى القيام بأعمال حقيرة كهذه يجب ان يكون أول من يحتقر وآخر من يحترم، أجل وأي خزى أسوأ من خزى وعار مواطن لا تتم سعادته إلا بشقاء السواد الاعظم من مواطنيه .. ولكن الذي يبدو لي ان هذه العادة القبيحة اصبحت كما ذكرت آنفاً مألوفة عند المواطنين ومتى أصبح الشيء عادة مألوفة عند ذلك يتساهل المواطنون بحقها وتضعف حاسة الغيرة في نفوسهم شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى نهائياً وتذوب مرة واحدة ..

هذه ناحية رئيسية في هذا الموضوع بل تكاد ان تكون قاعدة مضطردة في جميع الامور بصورة عامة ، والناحية الثانية التي هي الاخرى ذات اهمية هي ان كل فرد من أهل البلاد يملك ولو قليلاً من النقود فانه بدلاً من أن يضعها مجمدة ومعطلة عن الفائدة فانه يذهب ويشتري فيها مواد غذائية ويخزنها لا من أجل أن يربح من ورائها بل من اجل أن

يدخرها كمؤونة يقتات منها في حالة وقوع قحط مفاجيء بل قحط منتظر الوقوع لأن أغلب السنين التي تمر بأهل البلاد يكون قحطها وقتذاك اكثر من خصوبتها، المقصود هو أن من يدخر شيئاً من المؤونة خاصة الذي ينوي التجارة بهـــا فانه لم يدخر ذلك على حساب الفقير فحسب بل وعلى حساب المسكين إذ أن الفرق بين الفقير والمسكين في اللغة العربية هو ان الاول الذى لا يملك قوت السنة والاخير الذى لا يملك قوت يومه وليلته ، ومن هنا يعرف مقدار جريمة محتكرى المواد الغذائية عليهم من الله ما يستحقونه .

كان من بين هؤلاء المحتكرين شخص يدعى محمد بن شريدة [1] الذى احتكر نوعاً من الاغذية الرئيسية إلا وهو التمر ، وهذا النوع ربما كان هو الغذاء الاساسي بل هو الغذاء الرئيسي بالنسبة للفقراء ذوى الفقر المدقع ، جاءت سنة قاحلة لم ينزل فيها نقطة من الغيث وارتفعت قيمة مواد الغذاء فيها ارتفاعاً مدهشاً وبلغت المجاعة فيها حداً فوق ما يتصوره العقل واصبح عدد المتضورين جوعاً والبائتين على الطوى أكثر بكثير ممن يجد لقمة من العيش بل ممن يجد له حبيبات من التمر يسد بها رمقه .. وازدادت نسبة المتسولين وخاصة اذا ادلهم الليل هناك يتضاعف عـــدد المتسولين لأنه اذا جاءت سنة كهذه هلك فيها الضرع والزرع فانـه حتى الشاب مفتول الساعد ينـاله من المجاعة كما ينال الطفل والعجائز والشيوخ لأنه لا يجد له عملاً يقتات من ورائه ..

وعلى كل فقد كانت تلك السنة من أسوأ السنين المجدبة وأشدها وطـأة وهولاً على المواطنين، وبقدر ما كان هذا العام عام بؤس وشقاء على المواطنين الفقراء بصورة عامة وعلى المساكين بشكل خاص بقدر ما هو عام هناء وسعادة للتجار محتكري الطعام ، فلهم أن يتلاعبوا بأسعار الطعام كيف يشاؤون وكما يريدون فلا سلطة

---

١ - انظر صفحة ٢٢٧ من هذا الكتاب.

هناك وقتها قوية تحدد الاسعار إذ أن البلاد وقتذاك لم يتم للمرحوم الملك عبدالعزيز توحيدها بعد ، فـــما على المحتكرين ميتي الضمائر ومعدومي الوجدان ومبلدي الاحساس ومقتولي العواطف ومفقودى المروءة : إلا أن يرقصوا طرباً على عويل المتضورين جوعاً ، فنفر من هذه الفئة لا يصح ان يطلق عليهم اسم البشر بل هم الى الحيوان اقرب كثيراً منهم الى الانسان بل هم الى نوع معين من الحيوان اقرب بخلقهم من أى نوع آخر من انواع الحيوانات جميعاً واعني بها الكلاب وفقاً للمثل الشعبي الدارج بين المواطنين حيث اذا شاء احد منهم ان يصف شخصاً من هذه الفئة التي لا يهنأ لها العيش إلا في الحين الذى يصاب بـــه المواطنون بجائحة من جوائح الزمان ، عند ذلك يقال فلان (كالكلب الذى يفرح بمصيبة اصحابه)،أى أن الكلب عندما تصيب أهله كارثة ما يسر لوقوع هذه الكارثة ، والسبب انه في الحين الذي يكون به أهل الكلب في ذهول من هول الكارثـة يجعل نفوسهم لا تقبل الطعام فعندئذ تكمل سعادة الكلب بحيث يتسنى له التهام طعام اصحابه منفرداً .. وهذا خلق التجار المحتكرين لا يطيب لهم العيش إلا على حساب جوع مواطنيهم ، اللهم إلا من يكن بين جنبيه قلب ألمعي وعاطفة دافقة ووجدان عـامر مستيقظ ومروءة جمة كمحمد ابن شريدة رحمه الله ،ذلك الرجل الذي احتكر التمر فعلاً كما يعمل غيره من المحتكرين، وكانت تلك السنة المجدبة من أمنيته فيما لو لم تطغ مروءته على جشعه ولكنه عندما خرج ذات ليلة من منزله فوجد الكثير من بادية بلاده ومن قراها بل ومن نفس اهل مدينته البائسين يتضورون جوعـاً ، عندئذ لم يسعه إلا أن لبى نداء ضميره وأصغى لحافز وجدانه وأصم أذنيه عن صوت الجشع واستجاب بكل جوارحه لصوت المروءة الذي تجاوب مع خلقه الكريم .. لبيك يا صوت المروءة لبيك .. أجل لقد وقف محمد بن شريدة بتلك الليلة المدلهمة منادياً بصوته الجهوري قائلاً : أيهـا الاخوان كل من هو بحاجة الى التمر فليـأت إليّ واهباً إياه بلا ثمن ..

يا الله ما أكثر الملبين من المواطنين لهذا النـــداء .. لقد تزاحم المحتاجون أو الجائعون عند باب ابن شريدة وظل يقـسم عليهم ما احتكره من التمر ، ولا زال

يقسمه حتى لم يترك في منزله حبة مما كان ينوي احتكاره سابقاً ثم بات تلك الليلة قرير العين مرتاح الضمير ، وفي صبيحة الغد ذهب لوالده ليخبره بما فعل :

الأبن - ابشرك يا والدي اني ابعت التمر بثمن فوق ما يتصوره العقل ..

الوالد - هل ابتعته نقداً أم مديناً ..

الأبن - بل ديناً .

الوالد - وكيف تبيعه ديناً يا بني ونحن بأمس الحاجة الى ثمنه نقداً ؟..

الأبن - كان الذي اشتراه مني قوم هم بأمس الضرورة اليه كغذاء يسد رمقهم عن الموت اكثر الف مرة من حاجتي الى ثمنه .

الوالد - فهل حددت اجلاً مسمى لدفع الثمن ..

الأبن - كلا .

الوالد - وهل لديك كفالة حلي أو عقار من المشترين تضمن لك استرجاع الثمن ؟..

الأبن - طبعاً لدي من الضمانة ما يكفل اعادة ثمن تمري اضعافاً مضاعفة عن ثمنه الحالي فيما لو ابتعته في الأسواق .

الوالد - اني اشك كثيراً بأن هناك من يستطيع أن يضع عندك كفالة تعادل ثمن تمرك بصورة مضاعفة على النهج الذي اشرت اليه كما انني اشك ايضاً أن هناك من يستطيع أن يسددك ثمن تمرك من المواطنين مهما كان المشتري اميناً ووفياً خاصة بهذه السنة المجدبة القاحلة التي لم اذكر بحياتي هذه الطويلة انه مر عام «قحط» كعامنا هذا الاسود التعيس .

الابن - يا والدي الكريم انني على يقين من العلم بأن ثمن تمري سوف يعود مضاعفاً بلا شك عندي ولا ريب ..

الوالد - فهل لك يا بني أن تصف الطريقة التي تمت فيها عملية المبايعة ..

الابن - مالك يا والدي ومال معرفة طريقة المبايعة ما دام انني قد اكدت

لك أن صفقة البيع كانت رابحة بصورة اكثر بكثير ما باع به تمرهم جميع التجار التجار في بلادنا كما أنني أزيدك تأكيداً انــه ما من تاجر باع تمره وهو مرتاح الضمير وواثق من ربحه كراحة ضمير ابنك بربحه المضمون ..

الوالد ـ وأنا ايضاً واثق من عقلك وحكمتك بأنك لم تقدم على أمر الا وانت عارف مسبقاً بنتائج كل امر تقوم به وان لا تضع قدمك حتى تعرف ما هو المكان الذى وضعت قدمك فيه وانني إذ الح عليك في طلبي بمعرفة السبيل الذى تمت المبايعة فيه بينك وبين المشترين فإن ذلك من سبيل الاحتياط او بعبارة اصح لكي يطمئن قلبي ليس الا ..

الابن أحب ان اصارحك اكثر وهو انني ابتعت تمري على قوم لا أريد منهم ثمناً من ورائه ولم أطلب منهم ولن اطلب مقابله جزءاً ولا شكوراً ..

الوالد ـ لعلك انفقته يا بني في سبيل الله وابتغاء مرضاته ..

الابن ـ اجل يا والدي لقد وهبته لمواطني الفقراء والمساكين لأنني كنت اشعر بوخز الضمير وقلق الوجدان واضطراب الحواس ولم اطمئن من هذا العذاب المؤلم حتى انني اتخذت القرار النهائي الذي على أثره قمت بتوزيع جميع ما دفعني الجشع الى احتكاره من التمر ولم اترك منه حبة واحدة وانني اؤكد لك يا والدي تأكيداً قاطعاً بأنني منذ ان انفقت ذلك التمر لأولئك البائسين الذين شاهدتهم يتضورون جوعاً ويضطربون هلعاً من تلك اللحظة وأنا أشعر براحة واطمئنان ونشوة سرور وبلذة من السعادة التي غمرت كياني بصورة لا اذكر بحياتي انني شعرت بسعادة تعادل تلك السعادة ومن أوضح الأدلة على ذلك هو انني نمت تلك الليلة نوماً هادئاً لذيذاً مطمئن النفس بشكل لم يسبق ان استسلمت فيه للسبات بسعادةوحبور هنيئاً على فؤادي كتلك الليلة ..

الوالد ـ سامحك الله وزادك توفيقاً من ابن بار كريم ..

الابن - ماذا تقصد يا والدي بهذا الدعا .

الوالد - اقول سامحك الله ثانية وثالثة بعدم اخبارك لي بهذا النبأ السر فقد كان الاولى بك ان تدخل على قلبي السرور من حين ان سألتك عن مصير بضاعتك أما وقد وفقك الله لهذا العمل المبارك الذي لا يقوم به إلا من يوفقه الله ويختاره للقيام بأعمال البر والاحسان بعد هذا التوفيق فإنني أرى انه من الواجب عليّ شخصياً وقبل كل شيء أن أحمد الله تعالى واسجد له شكراً الذي وهبني ابناً نجيباً ذا مروءة كمروءتك التي جعلتك تشارك اخوانك المواطنين بؤسهم وتشاطرهم آلامهم وتقاسمهم عمومهم . ثانياً : أحب ان اؤكد لك تأكيداً يغني عن القسم بأنك ادخلت على قلب والدك بعملك هـذا النبيل سروراً لا يعادله أي سرور وأزحت عن نفسي كابوساً من عذاب الضمير الذي طالما عانيت من وخزه العبء الذي لا يطيق احتماله صاحب الوجدان الحيّ .

ثالثاً - ابشرك ان الله سوف يخلف عليك من عنده اضعافاً مضاعفة على مـا انفقته في سبيله لأنه جل شأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

الابن - بورك فيك من والد ورع حكيم لقد كنت راضياً عن نفسي عندمـا قمت بهذا العمل كما انني واثق بأنني قد أرضيت الله وأرضيت ضميري ولكنني كنت في حيرة من أمري فيما له علاقة برضاك فلا أعلم ماذا ألاقي منك وهـذا هو السر الذي اضطرني الى عدم مبادرتي باشعارك فوراً بعملي هذا أما وقد بدا لي منك أدلة الرضا فإنني شعرت الآن بأن سعادتي قد بلغت الذروة وسيان عندي الآن أيذهب مالي أم لا يذهب ؟. المهم عندى بهذه الحياة هو الرضا والسعادة وهـا أنذا أشعر برضى لا يعادله رضا وسعادة لا تضارعها سعادة .

الوالد - بل أعيد وأكرر لك ما قلته آنفاً بأن الله سوف يرزقك من عنـده برزق لم يخطر لك ببال لأن ذلك سنة الله بعباده الكرام المحسنين ..

هذا وقد أكد الرواة الثقاة ان الله يسر لأبنشريدة رزقاً من عنده كان اضعافاً مضاعفة لما أنفقه على اولئك البائسين وذلك بأقرب فرصة مناسبة بفضل صفقـــة تجارية ربح بها ذلك المحسن التقي ذو المروءة الدافقة والشعور الانساني اليقظ[1] . القصة مشهورة

---

١ - محمد بن شريدة من اعيان اهالي بريده ذوي الحل والعقد، قتل رحمه الله في احدى المعارك الطاحنة ابان الحروب الاهلية في المعركة المسماة بـ جراب سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥م.

من ثمرة الأحسان

- ٣٦ -

أذكر أبياناً لشاعر المجتمع المرحوم معروف الرصافي نوه بها عن فضل الاحسان والمحسنين بقوله :

لو كنت أعبد فانياً في ذي الدنا
لعبدت من دون الاله المحسنا

ولجعلت قلبي موضعاً لتعبدي
سرا وفهت له بشكري معلنا

وخير مال ينفقه المرء في هذه الحياة هو ما يبذله في الاحسان ومن اجل الاحسان، وعندما يوفق المرء لذلك يجد اطمئناناً في نفسه وراحة في ضميره وسعادة في فؤاده بل وغذاء روحياً في الظروف الحرجة كما حصل ذلك فعلاً مع صاحب هذه القصة المرحوم (عليان الجبرى[1]) ومع شخص آخر يدعى (حداد بن مجلوب) من

---

١ - عليان من قبيلة حرب ومن البطن المسمى (عوق) ومن بادية المدينة المنورة .

قبيلة شمر . والاخير لا يزال على قيد الحياة .. ولنبدأ الآن بقصة الجبرى :

يقول الجبرى : انه كان في تركيا ابان الحرب العالمية الاولى ومن ضمن الجنود الاتراك المناضلين بجانب مصطفى كمال .. وفي أحدى الليالي ذهب بمهمة حربية هو ونفر من الجنود الاتراك المجاهدين ، وفي الطريق نزل عن جواده لقضاء حاجته ثم لحق برفاقه ولكنه ما أستطاع ان يهتدى اليهم في ظلام الليل الدامس . وعندما ادرك انه ضل السبيل وقف في مكانه بدون ان يسير خطوة واحدة حتى انبلج الفجر ، ولكنه مع ذلك ظل يجهل الطريق ولم يكن بوسعه ان يفرق بين الطريق الذي يؤدي الى قومه او الذى يرمي به في معسكر العدو .. وكان الفصل شتاء والثلوج تنزل بكثرة والبرد قارساً ، وخير وسيلة اختارها لنفسه هي انه ذهب نحو جبل عال وعندما وصله وجد في رأسه كهفاً فسيحاً وفي جوفه حطب وافر ، وكان من حسن حظه انه محتفظ ببندقيته و (كبريت) فذهب واشعل ناراً ليزيح عنه البرد الذى كان على وشك ان يفتك به . . وبعدما اخذ حقه من الراحة والتدفئة سمع حركة في أقصى كهفه الفسيح فاستدنى بندقيته وراح نحو هذه الحركة فوجدها من النوع الذى يسمى مفردها باللغة الشعبية (واوى) ومن المعلوم ان هذا النوع لا يحل لحمه ولكن الرجل وصل درجه من الجوع تباح له معها المحرمات الامر الذى جعله يقتل هذه الحيوانات ويذهب يشوى منها ويستطعم مدة من الوقت من لحومها وبالتالي لم يجد شيئاً يقوم بأوده ما عدا الماء فقد وجده بصورة متيسرة ولكن المشكلة الآن قضية الطعام فقد اصبح يعاني الالم الكثير من الجوع الشديد وقد كان يود ان يذهب الى رفاقه المناضلين ولكنه لا يعرف الطريق ، ولا يفرق بين الارض التي يقيم بها العدو من المكان الذى فيه رفاقه بصفته غريباً عن البلاد ، وعندما يتعذر عليه السبيل يذهب ويستعين بالنوم .

هي الى الخيال اقرب منها الى الحقيقة !!

ويؤكد بطل الحادثة وراويها بأنه في الحين الذى يضطجع مستسلماً للنوم في

تلك اللحظة التي يكون بها بين النوم واليقظة يرى رجلاً يذهب الى نخلة ويقطف منها رطباً جنياً ثم يناوله إياه فيحاول ان يعرف من هذا الرجل فيعتذر عليه معرفته . أما النخلة التي يقطف منها الرجل التمر فإنه لا ينكر انها نخلة من احدى نخلاته التي في العوالي[1] وقصة هذه النخلة على حد قول الراوى فيها شيء من الغيبيات فيقول :

ان هناك ايتاماً توفي والدهم ولم يترك لهم شيئاً من متاع الدنيا ووالدتهم فقيرة وغريبة وانه عطف عليهم ومنحهم نخلة من نخلاته ، وان الرطب الذى يأتيه فيه ذلك الرجل يشعر وهو في سباته القريب من اليقظة بأنه رطب نخلته تلك التي منحها للايتام .

ولما كانت معرفتي بالرجل كانت محدودة جداً فإنه من بديهيات الأمور أن أكون بين الشك واليقين في روايته هذه بالرغم من توفر الأدلة التي من شأنها ان تعضد هذه الرواية . ومن هذه الأدلة ان الرجل عاش فترة في تركيا أيام الحرب العالمية ومنها انني علمت انه كان يقطن العوالي ولأسرته ملك فيها . ومنها قصيدة له شعبية أسمعني اباها ويصور بها ما عاناه من الجوع والخوف في رحلته الآنفة الذكر[2] كل هذه الأدلة من شأنها ان تسند رواية الجبرى ولكن رغم ذلك لم تبلغ عندى من اليقين درجة تجعلني أنقلها الى القراء كقصة من شيم العرب اللهم إلا انني بعد ذلك بمدة سنحت لي فرصة برحلة يطول شرحها ذهبت بها الى بادية شمال الجزيرة.

---

١ – العوالي موضع فيه مزارع مجاور لمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

١ – لم احفظ من قصيدته مع الاسكف الا بيتاً واحداً فقط وهو قوله :

تسعين ليلة عيشتي لحم واوي

ما حولي الا الثلج كالقطن مندوف

وعند ذلك أسمعني شخص من قبيلة شمر قصة من نوع قصة الجبرى عيناً بعين .
ولما كان صاحب القصة الاخيرة لا يزال على قيد الحياة وكل رجال عشيرته يشهدون له بالامانة والصدق، ولما كنت أعددت فصلاً خاصاً في أعمال البر والاحسان ليمضي فاعل البر في سبيله قدماً لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لذلك فقد طاب لي ان أسجل هذه القصة في هذا الفصل .

من صنع خيراً جنى ثمرته !!!

- ٣٧ -

لما كنت ذكرت في قصة الجبرى بأنني لست ناوياً بأن أضمها في وجود هذا الكتاب أى قصة الجبرى لولا وجود هذه القصة فإنني أزيد تأكيداً مرة ثانية بأن هذه القصة والشهود الثقاة الكثيرى العدد بصدق وعدالة راوى قصتنا هذه هو الذى شجعني على كتابة تلك .

كان ذلك في عام ١٣٦٣هـ ١٩٤٢ م عندما حكمت عليّ ظروف قاسية الجأتني بأن انزل ضيفاً عند المرحوم الشيخ هباس[1] بن هباس بن هرشان ولا تسألني عن كنه الاسباب الداعية لتلك الرحلة لان شرحها يبعد بنا كثيراً عن بحثنا هـــذا ، وأرجو ان تتاح لي الفرصة التي تمكنني من اخراج كتاب كهدية مني لابنائي بعنوان « من الطفـولة الى الكهولة ».. لا أراني بحاجة على ان اؤكد بأن خير سجية يمتاز بها البدو على اصحاب البناء المدن هي تقدير الاولين لاصحاب الفضيلة .
وبصفتي انسان عاش بين ظهراني البدو فترات متباينة وفي مناسبات عديدة، كما انني كثير الاختلاط بهم بصورة دائمة . لذلك استطيع أن أوكد بأنه ليس لدي

---

١ جاء ذكر هباس في هذا السفر اكثر من مرة .

البدو شيئاً يغبطون عليه ما عدا تقديرهم لصاحب الفضيلة وسخريتهم بمن يتجرد منها مهما بلغ من المـــال وتلك سجية تأصلت جذورها في نفوس العرب منذ فجر التاريخ[1] . وقد اشاد بذكرها شاعر الاسلام والجاهلية حسان ابن ثابت عندما كان جاهلياً :

نسود ذا المال القليل إذا بدت

مروءته فينا وان كان معدما

رجل نكرة ولكنه موضع احترام

في احدى الايام التي قضيتها بين ظهراني اولئك القوم فدم رجـــل الى نادي مضيفي المرحوم هباس لم يسبق ان رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعـده والأمر الذي أثار انتباهي هو ما ابداه الحاضرون من مظاهر الاجلال والتقدير لهذا الرجـــل ، فمددت بصري خلسة نحو القادم محاولاً ان اتعرف عليه فوجدت انه رجل غريب عليّ ، ولكن طابع الوقار وسيما الرجولة بارزان على محيـــاه ، وبعدما افسح له الحاضرون المكان الذي احتله في صدر النادي وادبرت كؤوس القهوة ، بعد ذلك ساد الصمت قليلاً : كما هي العادة المألوفة عند البدو وهي عدم سؤالهم للقـادم حتى يحتسي القهوة ، ويأخذ بعد ذلك فترة تطول وتقصر بقدر بعد القادم وقربه منهم.

---

١ - نظريتي هذه التي اتحدث عنها محصورة على معرفتي السابقة منذ سبعة عشر سنة ونيف، ولما كانت الجماعات والافراد عرضة للتطور فانني لا استطيع ان اطلق حكمي السابق عليهم اليوم .. وليس معنى استدراكي هذا انني انفي ما قلته اعلاه . وانما اتحدث عما اعرفه سابقاً . واقف عند هذا الحد .

أما هذا الرجل وان كان موضع احترام عندهم جميعاً ولكن الأدلة تشير الى أنه ليس بالغريب عنهم . ولذلك لم تطل كثيراً فترة الصمت أكثر من دقائق محدودة وبعد ذلك وجه له الشيخ هباس السؤال التالي :

– أين نزلت ؟..

– في موضع طيب تشبع فيه الابل ولله الحمد والشكر .

وما ان انتهى الرجل من كلمته هذه التي جاءت رداً على سؤال الشيخ هباس حتى أجابه الحاضرون في المجلس بصوت واحد قائلين :

– عسى ان يكون منزلك مباركاً لأنك سخي بحليب نياقك والرجل الذي يكون من أمثالك نود له كل خير . فقال بهدوء ورزانة :

– ان ما ذكرتموه من سخائي بحليب نياقي فهذا واجب لا فضل لي به . ولا سيا بعد ان احياني الله بعدما اماتني وقطفت ثمرة سخائي .

عندما انتهى القادم من حديثه هذا وجم الجالسون جميعاً بينما وجدتني بحيرة من جواب هذا الرجل الذي احياه الله بعد مماته وفهمت من سكوت القوم انهم يعرفون الاشارة التي حيرتني وان الرجل لم يحدثهم بشيء غريب عليهم معرفته..ولما كان الذي كان جالساً عن يميني هو نايف ابن الشيخ هباس الذي لا زال حياً يرزق فقد همست بأذنه قائلاً :

– من هو هذا الرجل ؟..

– من الويبار[1]

---

١ – الويبار فخذ هباس مضيفي .

ـ ما اسمه ؟..

ـ حداد بن مجلوب ..

ـ ماذا يقصد بقوله بعدما أحياني الله الخ ..

ـ يشير الى حادثة وقعت معه وهي معروفة لدينا جميعاً وفيهـــا شيء من الروعة .

ـ ما هذه الحادثة ؟..

ـ سله ينبئك عنها ..

ـ انني لم أر الرجل قبل هذه المرة ولذلك يكون سؤالي تطفلاً وانما الانسب ان يكون السؤال منك .

ـ وهو كذلك ..

وعند ذلك اتجه نايف الى الرجل وقال :

ـ هذا أخونا فلان مشيراً إليّ أراد مني أن اسألك عن الحادثة التي أشرت اليها الآن ..

ـ انت تعرف القضية من أولها الى آخرها ..

ـ أنا لست بحاجة الى المزيد من معرفتها وانما أخونا فهـــد لا يعلم شيئاً عن كنهها وعندئذ اتجه نحوي الرجل الوقور الذي يبدو انه في بداية العقد الخامس من العمر وقال :

- أيها الاخ ان قضيتي لا تخفى على أي فرد من هؤلاء الحاضرين جميعاً ..

ثم صمت ، ففهمت من صمته ان القضية فيها شيء من الغرابة وان لسان حاله يقول : اياك ان تظنها من نسج الخيال فقلت :

- لا شك عندي ان قومك هؤلاء يعرفون القضية ولكنني لا اعرف شيئاً عنها وأحب ان اسمعها من فيك ، فقال :

- ربما سمعت بمعركة الشعيبة[1]

- أجل .

- كنت من النفر الذين اصيبوا في تلك المعركة اصابات قاتلة عديدة . ولكن أحياني الله بالرغم من ان الأعداء لم يتركوني الا وهم يعتقدون انني في حساب القتلى . والواقع انني بقيت أياماً [2] في وسط القتلى كواحد منهم بلا شعور ولا احساس اللهم إلا شعور نسبي لا استطيع ان اعبر عنه إلا ان أقول انه شعور اكمل من شعور النائم وأقل من شعور الانسان عندما يكون في يقظته الكاملة وعندما أبلغ هذه الدرجة التي بين النوم واليقظة ، أشعر كأن انساناً يحلب ناقتي التي لا أنكرها فإذا انتهى منها ناولني حليبها الذي لا أذكر بالدنيا طعماً ألذ منه ، وبقيت تلك المدة أنعم بهذا الغذاء الى ان أعاد إليّ احساسي وشعوري وكامل صحتي فوجدت نفسي أشبه ما يكون بالمرء الذي استيقظ بعد رقاد طويل ، وعند ذلك ذهبت افكر في سر

---

١ - وقعة الشعيبة في عام ١٣٣٧ هـ وهي بين الاخوان جنود الملك عبدالعزيز بن سعود وبين قبيلة شمر .

٢ - كنت احتفظ بعدد الايام التي ذكرها الرجل ولكني نسيتها بعد طول المدة .

حليب هذه الناقة التي كنت أسقى حليبها عندما كنت في تلك الحالة الخطرة .
وإذا بي اذكر انها ناقتي التي وهبتها لايتام توفي والدهم وهو لا يملك من حطام الدنيا درهماً فذهبت ووهبتهم هذه الناقة فظلوا يشربون حليبها ، وهكذا زاد ايماني بالله بأنه لا يضيع أجر المحسنين ومن تلك الحادثة إلى يومنا هذا آليت على نفسي ان لا ادخر وسعاً من فعل الخير ما استطعت اليه سبيلاً .

بيتان متشابهان

الأول : بيت الأمة الأسلامية والثاني : بيت الفتيان العرب

-٣٨-

لما كانت هاتان القصتان متشابهتين من حيث الأصل والمعنى .. فقد رأيت أن ادمج بعضها ببعض دون أن افصلها عن بعضها ..

ولنبدأ بالأولى ، لا لأن صاحبها لا زال على قيد الحياة فحسب ، بل لأن بيته كما اشرت اعلاه بالعنوان بيت للأمة الأسلامية فهذا يعني أنه اشمل معنى من الثاني الذي هو بيت للفتيان العرب ..

مما لاشك فيه أن كل من زار مدينة جدة من حجاج بيت الله الحرام وهو من الرجال ذوى الالمام بالعلوم الأسلامية ، فلا بد له الا أن يزور بيت الشيخ محمد نصيف الرجل الكريم المضياف ، وأننا اذ ننظر لهذا الرجل بعين ملؤها التقدير والأعجاب فلإنماهو للأسباب الآتية :

اولاً ـ أن بيته كان بمثابة دار ضيافة للوافدين في الحين الذي لم يكن في جدة

أي فندق كان لا حكومي ولا أهلي ..

ثانياً ـ أن الذي يدخل بيت نصيف لا يقف به الأمر عند الحد الذي يجد فيه مالذ وطاب من شتى أنواع الأطعمة الغذائية فحسب ، بل علاوة على ذلك يجد فيه مكتبة عامرة مليئة من شتى اصناف المؤلفات العلمية وقل أن يطبع كتاب بالعالم العربي الا وللشيخ نصيف القسط الأوفر منه خاصة من الكتب الدينية السلفية بالدرجة الأولى ، وكذلك كتب الأدب والتاريخ العربي ..

فالزائر لمنزل الشيخ نصيف يجد الغذائين : غذاء الجسد الصحي وغذاء الروح والعقل معا .

وأكثر ما يكون بيت الامة الأسلامية مزدحماً في أيام موسم الحج ،ففي تلك الفترة يكون بيت نصيف اشبه ما يعبر بالمعنى الذي اشار اليه حسان ابن ثابت في ملوك الغساسنة في ذلك البيت الذي قالت العرب عنه انه ابلغ تعبير وصف به الكرام بمعنى كهذا :

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

واعتقد جازماً بأن نصيفاً افضل من الغساسنة ممدوحي حسان ، لان الاولين لهم في كرمهم مطامع سياسية كحكام لا يستقيم لهم الامر الا بما يبذلونه من مطامع سياسية ..

أما الشيخ نصيف فهو رجل أوسع الله في رزقه وليس له من وراء عمله هذا الا أنه يفعل المعروف من اجل المعروف لا يريد من وراء عمله جزاء ولا شكورا ..

كان المرحوم الشيخ حامد [1] فقي يحج سنوياً ، وعندما يأتي الى جـدة قادماً من القاهرة ينزل ضيفـــاً في منزل الشيخ نصيف هو وعدد من اتباعه شأنه شأن العدد الكثير من ضيوف نصيف خاصة ، قبل وجود الفنادق في مدينة جدة ، وقد كان الشيـخ نصيف واضعاً عند الشيخ الفقي كتاباً من أجل أن يطبعه من ضمن الكتب التي يطبعها الشيخ نصيف دائماً على نفقته ويوزعها مجاناً ،واعتقد ان المدة التي تم تعيينها بانتهاء الكتاب تجاوزت الحد باكثر من اللازم الامر الذي جعل الشيـخ نصيف يغضب من الشيـخ الفقي على الرغم من أن نصيفاً حليماً لا يعرف الغضب ، ولكن الذي يبدو أن الكتاب الذي تأخر طبعه نفيس،ولولا ذلك لما غضب نصيف، وقد فهمت أن الفقي لم يتحمل غضب نصيف ولم ينه موضوع الكتاب ايضاً ممـا جعل نصيفاً يتضاعف غضبه ، ومضت الايام بدون أن ينهي الفقي طبـع الكتاب ، وجاء موسم الحج ، والتنافس بين الشيخين قد بلغ اوجه ، ولكن الحاسر الفقي فيما اذا وصل جدة هو واتباعه من انصار السنة المحمدية الذين يرأسهم فأين يـذهب ؟.. الفنادق لا وجود لها وقتذاك وحتى لو كانت موجودة فان الغذاء الصحي والفكري والعناية الكاملة التي يجدها الفقي في منزل الشيخ نصيف سوف لايجدها بأي فندق كان مهما بلغ من الرقي في مظهره ، ولكن الشيـخ حامـد الرجل الذكي لم يجعـل للغضب سبيلاً يحول بينه وبين تلك الراحة والعناية اللتين يجدهما في منزل المضياف نصيف ، ولذلك وجد خير وسيلة يتبعها أن جاء الى بيت الشيـح نصيف هو ورفاقه، ووضعوا امتعتهم في المكان المعد للضيافة كالمعتاد ، وذلك قبل أن يسلم على صاحب المنزل ، وبعد ذلك جاء الى المجلس العام الذى يجلس فيه الشيـخ نصيف وضيوفه ، وأدى التحية التقليدية للجميـع ، ثم اتجه نحو الشيخ نصيف وقال :

ـ دع ما في نفسك عليّ من غضب يبقى على ما كان عليـه ، فغضبك لا يهمني

---

١ ـ الشيخ حامد من رجال العلوم الدينية في القاهرة توفي رحمه الله عام ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

سواء رضيت أم غضبت ،ثم مضى وقال عليك ان تعلم بأنني لم آت هنا الى شخصك بالذات وانما جئت الى هذا البيت الذي يعتبر بيتاً للأمة الاسلامية ، وبصفتي رجلاً مسلماً فإنه من حقي ان احل فيه ضيفاً رضيت ام غضبت؟

* * *

هذه قصة بيت الامة الاسلامية واليك الآن القصة الثانية ..

بيت الفتيان العرب

- ٣٩ -

يوجد في مدينة حائل شخص يدعى ناصر السعد ، كان هذا الرجل وضعه الاقتصادي محدود ولكنه كلما وقع بيده صرفه لرفاقه الفتيان من أهل بلدته ..

وكانت الصفات المتوفرة في شخص ناصر ، من شأنها ان تكون كالمغناطيس للفتيان .

أولاً ـ انه يحفظ القصص العربية بصورة يكاد ان يعبر عنه بالعصر الحديث بدائرة معارف ، حتى انه حينما توفي رحمه الله في عام ١٣٤٠ هـ قال من يعرفه من المواطنين ان الشيء الكثير من القصص الشعبية ذات الصلة بشيم العرب ماتت واندثرت معالمها بموته ..

ثانياً - انه كان محدثاً لبقاً يحسن الالقاء بصورة جذابة ، هذا بالنسبة للقصص التي يرويها أما بالنسبة للقصائد الشعبية ، فإنه يلحنها تلحيناً شعبياً شيقاً ، حتى ان تلحينه الى الآن معروف ومعمول به عند بعض الشعبيين ، وخاصة القدامى ..

ثالثاً ـ ان الرجل كان لديه هواية في صنع القهوة فيتفنن فيها بصورة مغرية

لذوي الذوق ، والكيف في شرب القهوة ومعلوم أن الكثير من أهل شبه الجزيرة مغرمون بشرب القهوة ..

رابعاً – كان الرجل كريماً ومضيافاً لا يدخر رزق اليوم للغد .

كل هذه المعاني الحيوية من شأنها ان تجعل بيت الفتى ناصر السعد أشبه ما يكون بالنادي الثقافي في عصرنا الحديث ، او بسوق عكاظ بصورة مصغرة محدودة، فكان اكثر رواده من الفتيان ومن الاحياء الموالية له ، فيجتمعون فيه بعد الظهيرة وبعد العشاء ..

وعندما شاء القدر ان يشتت شملهم أو شمل بعضاً منهم حدث شقاق بين فتيين من الفتيان الذين يرودون هذا النادي ، أحدهما يدعى عتيق الضعيفي ويدعى الثاني مبارك بن كديس[1] . فالأول فارس والثاني شجاع شاعر ، وكان السبب لشقاقهما قصيدة غرامية قالها شخص على لسان فتاة بريئة امتدح بها عتيقاً وفي الوقت ذاته نال بها من شخصية مبارك ، ولا أرى داعياً يجعلني آتي بالقصيدة وانما نكتفي بالشاهد من القصة ، وهو ان الشاعر مبارك هجا عتيقاً ومعشوقته هجاء لاذعاً ، وخاصة بحق المعشوقة البريئة، فوصل الشقاق بينهما درجة أوشك معها ان يفتك احدهما بالآخر لو لم يكن خوفهما من القصاص الشرعي القائل : (النفس بالنفس) ..

والمشكل هنا هو ان هذا الشقاق لم يعد محدوداً بين شخص وشخص فحسب ، بل تطور حتى تأججت نيرانه وطارت عدواه الى درجة تعصب بها للمتنازعين كل فرد يمت لاحدهما بأدنى صلة من صلات النسب أو الرحم أو المصاهرة بل وحتى الصداقة .. فثارت ثائرة النعرات القبلية التي لا تستغرب في ذلك الوقت واصبح لكل منهما حزب يؤيده ويناصره ، بعدما كانوا كلهم كالأسرة الواحدة وبينهم الفة وطيدة الاساس وثيقة العرى ، يضمهم نادي ذلك الرجل الكريم الاديب يتسامرون احياناً

---

١ – قتل الاول في بعض الحروب عام ١٣١٦ والثاني قتل عام ١٣٢٧ .

حتى الفجر في ذلك البيت الذي أشبه ما يكون بالمدرسة الحافلة بالأدب الشعبي على مختلف أنواعه ..وكانت مصيبة الضعيفي وحزبه اكبر من مصيبة ابن كديس وذلك ان صاحب النادي بينه وبين ابن كديس صلة رحم الأمر الذي يجعل ابن كديس ورفاقه يتمتعون بهذا النادي ، بينما يكون الضعيفي وحزبه محرومين منـــه وهم كارهون، وفي ذات ليلة مر أحد انصار الضعيفي البارزين وهو المدعو صالح الغلث[1] مر وسط الشارع الذي يقع فيه منزل صاحب النادي، وعندما دنا الغلث من النادي شم رائحة القهوة التي انقطع عن التمتع بها منذ ان وقع الشقاق اللعين بين المتخاصمين، فوقف يتنشق الرائحة التي اسكرته ، وبينما كان واقفاً نشوان من رائحة القهوة ، واذا به يسمع ناصراً يلحن قصيدة شعبية بصوته الجهوري الذي استولى على كيانه بكل معنى الكلمة ، فما استطاع ان يملك شعوره بل ولا عقله ، فكأن الصوت ينقر بقلبه ، فجاء بحركة لا شعورية ودفع الباب بعنف وصاح بأعلى صوتـــه قائلاً :

– يا ابا نادر . (كنية صاحب النادي) .

فقطع الرجل صوته ليصغي الى صاحب هذا الصوت الذي لم يكن غريباً عنه ، وبينما ناصر صامت واذا بالغلث يدخل قائلاً: امض في تلحينك وقل معي ألا قبـح الله كلا من الكديسي والضعيفي اللذين حرمانا لذة الاجتماع والأنس بهذا النادي.. ثم استطرد وقال : وليعلم ابو نادر بأن هذا النادي ملك لجميـع الفتيـان ولم يكن وقفاً لأقاربك من دوننـا بل وحتى انت لا تملك التصرف به ، وثق انني في الغد سوف آتي بجميـع أقاربي السخفاء الذين هجروا نادي الشباب بما فيهم الضعيفي عليه

---

١ – صالح الغلث قتل في معركة الطرفية الكائنة فيعام ١٣١٥ ﻫ بين ابن صباح وابن رشيد.

من الله ما يستحقه هو وابن كديس معاً..

* * *

وكانت النهاية ان جاء بالضعيفي واقاربه جميعاً الذين قاطعوا النادي منذ ان بدأ الشقاق بين الفتيين وانتهى الموضوع بصلح وتسامح على الطريقة نفسها التي انتهى بها موضوع الشيخين نصيف والفقي رحمة الله عليهم جميعاً ..

جابر عثرات الكرام

- ٤٠ -

يقال أن ابلغ دعوة قالتها العرب تلك التي دعت بهـا احدى النساء العربيات لابنها المتضمن لفظها ومعناها كما يلي :

(أغناك الله عن منة اللئام ووفقك الى جبر عثرة الكرام) ..

ومما لا شك فيه أن حب المال والحرص على كسبه غريزة متأصلة في طباع بني الانسان ، ولا يستطيـع أي عاقل ان يتجرد منهـــا ، ولكن الاختلاف يأتي من حيث الوسائل المبذولة في كسبه من ناحية وفي سبيل انفاقه من ناحية اخرى ، واذا لم يكن الغاية من كسبه وانفاقه بصورة مختصرة ان يستغني به المرء عن الحاجة الى اللئام ، وان يجبر به عثرة الكرام ، اذا لم يكن الامر كذلك ، في مذهبي ، فان المال سيكون حجـة على صاحبه ومدعاة لعداوة مواطنيه وحقدهم ، وتربص الدوائر به حتى اذا سنحت به الفرصة لم يدخروا وسعاً في مقاومته بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكثير من كرماء العرب القدامى وفرسانهم لم يعبأ بالمـــال

ولم يسع له ، إلا من اجل تلك الغاية .. وهذا عنترة العبسي يقول :

دعيني أنهب الأموال حتى
أعف الأكرمين عن اللئام

والعربي الكريم الشهم من شيمته ان يأخذ بيد الكريم ، اذا جفاه الزمان ، ويجبر عثرته من حيث انه كريم حتى ولو كان من اعدى أعدائه ..

ومن المعروف ان العداوة بين قبيلة قحطان وقبيلة عتيبة كانت من اعنف واشد ما توصف به العداوات ،وذلك منذ عهد قديم ،الى ان انتهت تلك النعرات القبلية والغزوات الجاهلية وولت الى غير رجعة ، ولكن رغم ذلك كله نجد ان احد فرسان قحطان وكرمائهم عندما عضه الدهر بنابه وقسى عليه الزمان بلا رحمة ، نجده ذهب الى فارس من فرسان قبيلة عتيبة وحل بداره ضيفاً بدون ان يشكو أمره له وانما بمجرد ما قصده في ساعة محنته عرف العتيبي انه لم يأت اليه عدوه اللدود بهذه الفترة بالذات إلا وهو مستنجد بمروءته .

وهذا ما وقع فعلاً من سلطان [1] بن هندي ابن حميد رئيس عشيرة برقاء المتفرعه من قبيلة عتيبة ، وبين محمد بن فتنان القحطاني . [2]

ولنأتي اولاً بذكر المحنة التي من نتائجها واسبابها اضطر ابن فتنان بأن يذهب الى ابن حميد ..

كان ذلك في عام ١٣٠٥ عندما هجم أحد الغزاة على أبل ابن فتيان وظفرو

---

١ - ابن حميد هو اكبر رئيس في قبيلة عتيبه .
٢ - محمد بن فتنان كان يرأس بطنا من بطون قبيلة قحطان يقال له آل روق ..

بنهبها كاملة.. وعندما بلغه ذلك الخبر امتطى فرسه وذهب متبعا اثر المعتدين قاصداً أن يسترد أبله ، ولما لحق بهم وحمي الوطيس بينه وبين الغزاة اطلق الغازون سهما أصاب مقتلًا من فرسه فسقطت ميتة فوراً .. فعاد الى أهله فاقـداً أبله وفرسه .. وكانت المصيبة الكبرى انه حينما وصل أهله وجد غزاة آخرين صبوا غارتهم على أهله بغيابه ونهبوا الرواحل التي تقل بيته في حالة رحيله وبالاضافة الى ذلك إنه وجد زوجته ميتة من اثر رصاصة طائشة من اسهم الغزاة أصابت مقتلًا منها ..

فأصبح صفر اليدين من جميـع ما يملكه.. فلم يرد يداً أن يذهب الى سلطان بن حميد الذي كما ذكرت آنفاً هو من ألد اعدائه واكبر خصومه ، وما ان نزل بساحته حتى استقبله بأقصى ما يمكن أن يستقبل به كريم كريماً من أمثاله. وكان اول عمل قام به ابن حميد هو ان نحر عدداً من نياقه السمان كضيافة له من ناحية ، ومن ناحية اخرى قام بتنفيذ ما ينوي القيام به من جبر عثرة مستنجده وضيفه ودعـا على شرف ضيافته عدداً وافراً من رجال عشيرته .. وعندما انتهى قومه من الضيافة ، وزع على كل فرد منهم عقالاً وقد جرت العادة بحالة كهذه ان من يعطيه رئيس القبيلة عقالاً فإن هذا يعني ان هناك حاجة تشير الى عمل تكتلي اجتماعي يقتضي من كل فرد بأن يأتي بناقة من خيرة ابله ليقدمها لرئيس قبيلته والرئيس بدوره يجمع هذه النياق ويتصرف بها بما يعود نفعه المادي او المعنوي لرجال قبيلته ، وبعد لحظات سريعة عاد رجال القبيلة وكل واحد منهم يسوق ناقة (للقحة) [1] فكان المجموع أربعمائة ناقة ومعنى ذلك انها بعد عامين سوف تكون ثمانمائة ناقة بصفة أن النياق كل واحدة منها كما ذكرت حبلى .. وكل هذه الابل سلمها ابن حميد لضيفه ، ولم يقف اكرام ابن حميد لضيفه عند هذا الحد ، بل ذهب وسعى له بالنـكاح من فتاة من اجمل فتيات اسرته وهيأ

---

١ يقال للناقة الحبلى التي على وشك ان تضع (للقحة) ..

له جميع تكاليف الزواج من فراش وبيت بناه له من جديد وزوده بالمؤونة الكافية من قمح وتمر وسمن وقهوة الخ ... مما يلزم مصاريف البيت ونفقاته لمدة طويلة المدى ..

وقد عاش ابن فتنان وابن حميد كالاخوين الشقيقين الى أن فرقهما الدهر بموت أحدهما ، والقصة مشهورة ..

الشيء الذي بخل به الكريم حرمه الأبي ! !

- ٤١ -

اذا كان التباين بين بني الانسان بالخلقة ملحوظاً حتى انك لن تجد اثنين صفتهما واحدة حتى الاخوين الاشقاء ، وحتى الابن وأبيه ، اذا كان الأمر كذلك في صفة الانسان المادية فانه من مسلمات الأمور أن يكون البون شاسعاً أكثر بالصفات المعنوية ، بل قد نجد ولو عن طريق النادر أخوين متشابهين بالخلقة ، ولكننا لن نجد قطعياً أخوين متشابهين بالأخلاق ، بل والأعجب من ذلك هو اننا نجد الشبه بين صفات بني البشر من حيث الخلقة يوشك أن يكون متقارباً الى حد ما ولا سيما عند بعض الاجناس من بني البشر في بعض القارات كالصينيين مثلاً والجاويين ، بينما نجد هذا الشبه من ناحية الاخلاق مفقوداً في عالم الانسان

والناحية الأهم هي تباين المواهب والاخلاق والاحساس والذوق ، كل هذه الصفات المعنوية نجد البشر يتباينون فيها تبايناً اكثر بكثير من تباينهم بالخلق المادي . .

وأعظم شيء يسترعي الانتباه في عالم الاخلاق والمواهب هو اننا قل أن نجد انساناً إلا وله خلق طاغ على جميع صفاته ومواهبه حتى يكاد أن يكون هذا

الخلق هو الصفة البارزة التي ينعت بهـا سواء أكان هذا الخلق حسناً أو قبيحاً ، فمثلاً نجد شخصاً حالما يُذكر الوفاء والصدق يكون اسمه ملاصقاً لهاتين الخلتين ، وآخر حالما يُذكر المكر والدس والنميمة يأتي اسمه بجانب هـذه الاشياء الخ ..

ورجل قصتنا هذه شخص من المستحيل أن يذكر اسمه عند من يعرفه أو يسمع عنه إلا ويذكر بجانب اسمه الكرم العربي الاصيل والسخاء المطبوع بخلقه الذى نوه عنه أبو الطيب المتنبي :

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

كان سخـاء المرحوم (دهام المذلول[١]) متجاوباً ونبله ومنسجماً وسماحة نفسه ، ومتفاعلاً وأخلاقه الكريمة ، ومطابقاً كل المطابقة لمثله العليا ، ووافقاً جنباً لجنب مع مروءته وشيمته ، كان دهام يشرب الدخان في الحين الذى كان شارب الدخان في شبه الجزيرة أو في نجد بصورة خاصة يعتبر مرتكباً جرماً كبيراً ، فهو لا تقبل له شهادة ولا يؤم الجماعة للصلاة حتى ولو كان أعلم بالكتاب والسنّة من غيره ، ولا ينظر اليه بعين التزكية والوقار في مجتمعه .. كان من شأن هذه النظرة الجدية لشارب الدخان في المجتمع الذى يعيش دهام بين ظهراني أهله أن تجعل منـه انساناً منبوذاً محتقراً في محيطه ، ولكن كرم الرجل الذى لا حدود له وسماحـة نفسه عكس الآية بصورة جعلت الدخان محبباً الى نفوس كثير من رجال طبقته ،

---

١ - دهام من ساكني مدينة حائل .

وذلك للأسباب الآتية :

وهي أن بيت الرجل أشبه مـا يكون بناد يضم الكثير من اعيان البلاد والقادمين اليها حيث يجدون بصورة مستمرة مائدة دسمة يختلف شكل هذه المائدة باختلاف أوضاع صاحب النادى من الناحية الاقتصادية، كما تختلف باختلاف فصول السنة .. وكان في كلتا الحالتين يضيف الى مائدته السخية الدخـان المسمى بالشاور الوارد من العراق ، ولكن هذا الدخان الذى يقدمه دهـام لضيوفه ، لم يكن دخاناً الا من حيث اسمه فقط ، أمـا من حيث رائحته فانه مزيج من الروائح الشذية ، وذلك انه يأمر رجاله قبل أن يحضروا الدخان ، بأن يقدموا أولاً مسكاً وعنبراً فيمزجونها مع الدخان، ثم يضاف اليها ماء الورد ، فعندئذ يكون الدخان جزءاً رابعاً ، فاذا كان تحريم الدخان على رأى محرميه مبنياً على اساس انـه ذو رائحة كريهة تنفر منه ملائكة الرحمن على حد قولهم ، اذا كان الأمر كذلك فقد زالت العلة واصبحت رائحة الدخان لا وجود لها بين عبق المسك والعنبر والورد ، وعلىهذا الاعتبار زال المحذور واصبحت نسبة الشاربين للدخان الذى يستعمله دهام تنمو بازدياد مطرد وخاصة من رواد ناديه الذي دائماً مـا يكون حاشداً من الشخصيات البارزة ..

وفي احدى السنوات فرغت يد دهام ووصل من العجز الاقتصادي درجـة جعلته لا يستطيع أن يستمر على مـا كان عليه من كرمه الحاتمي ، فالمهات التي ينتدب لها من قبل امارة بلاده والتي غالباً ما يبني وارداته عليها تضاءلت ، والذي يملكه من ابل وغنم تلاشى عدده تدريجياً ، حتى انه لم يبق منـه شيء قطعياً ، فلم يسعه والحالة هذه الا أن يتراجع تدريجياً عن نفقاته الهائلة ويمد رجله كما يقال على قدر فراشه ..

وأول عملية قام بها لـكي يخفف عنه رواد ناديه هي أنه أعلن تركه للدخان ، وباعلانه هـذا بـدأ عـدد الزائرين يتقلص رويداً رويداً ، لأن الزوار

أكثرهم تعودوا أن يشربوا في ناديه الدخان أو (العبيق) ومـا دام أن صاحب النادي الذي دربهم على الشرب أعلن تركه له فهم وان لم يتركوا الدخان فانهم ليس من اللياقة ان يشربوه في منزله ..

كان جميع رواد النادي وأصدقاء صاحبه على يقين من العلم ان اعلان ترك دهام للدخان لم يكن حيلة وانما هو حقيقة ، وذلك لما يعرف عن الرجل من الصـدق والصراحة . ولم يعلم رفاقه أن ظروفه القاسية هي وحدها التي اضطرته أن يخلف ظنهم بـه إلا في مناسبة طارئة اكتشفها أحـد اصدقائه البارزين وهو المرحوم (فهد أبا الخيل [1].)

والطريقة التي جعلت فهداً يكتشف هذه الحقيقة جاءت على الوجه الآتي :

كان كل من فهد ودهام مسافرين في الصحراء ضمن عـدد كثير من الغزاة في عام ١٣٣٥ هـ وبينما كان القوم مخيمين في الصحراء شم فهد رائحـة العبيق الذى لم يسبق له أن شمه منذ أن اعلن دهام تركه له ، وكان فهد وقتها يشرب الدخان ، وكلما حاول أن يتركه لم تساعده نفسه على تركه ، وعندما شم رائحة العبيق في وقت القيلولة خرج من خيمته ، وظل يسير وراء رائحته التي بدأت تقوده بـلا شعور منـه كما تقود رائحة الماء الابل التي بلغت من الظمأ حـداً من الهلاك ، وهكذا ظل فهد يسير وراء هذه الرائحة حتى تسلق جبلاً عالياً ..

وفي هـذا الجبل غار فسيح فأدرك بواسطة قوة حاسة الشم ان مصدر هذه الرائحة يأتي من وسط هذا الغار فقصده حتى اذا دنا منه وجد دهاماً متواريا في قعر ذلك الكهف يمتص سبيله خلسة ،ولم يشعر حتى وقف على رأسه فهد فقام بحركة لا شعورية اخفى بها السبيل ، ولم يعلم ان فهداً شم رائحة دخانه وعرفـه قبل ان يراه صاحبه ..

---

١ ـ فهد أبو الخيل من مدينة بريدة ولأسرته امارة بلاده سابقاً ..

لم يكن من أمر فهد إلا ان تجاهل الموضوع من اساسه وجعل نفسه انه جاء لهذا المكان بقصد الرياضة، وفي الوقت ذاته عاهد الله سراً بأن لا يشرب الدخان..

مضت تلك السنة على دهام بقساوتها وضيقها ، وبعد ذلك عاد رزقه الى اتساع وانقشعت عنه موجة الفاقة ، فعاد على ما كان عليه من سخائه المعتاد واعلن انه عاد الى الدخان ، فجاءه رواد ناديه ،وقد استغرب دهام اعراض فهد عن شرب الدخان وكان يظن ان فهداً آخر رجل يعرض عن شرب الدخان، فراح يوجه اليه السؤال التـالي :

– ما كنت اظنك يا فهد تتخلى عن شرب الدخان حتى ولو تخلى عنه جميع شاربيه في الدنيا ..

فرد عليه فهد قائلاً :

– وانا كذلك ما كنت اظن انني استطيع ان اتخلى عنه لولا انني رأيت كريماً كأبي نواف[1] الذي اعتقد جازماً بأنه لو بلغت به الفاقة درجة جعلت منه انساناً لا يملك إلا قوت ليلته ثم بعد ذلك ابتلى بانتهاج احدى الطريقتين : اما ان يبيت الطوى أو ان يتوارى عن اعين رفاقه ويلتهم قوت ليلته خلسة لكي لا يراه احد يشاركه به،لفضل ان يبيت الطوى على من ان يتوارى عن أعين الناس ويتناول قوته بمفرده،ثم استطرد وقال ومن تلك الساعة التي رأيتك متواريا بالغار حاكماً على نفسك بالبخل الذي يتنافى وخلقك ومروءتك ، عزفت نفسي عن الدخان الذي يصير الكريم بخيلاً واقسمت بأن لا أضعه في جوفي مدى الحياة ..

وهكذا كان بخل الكريم سبباً لعزوف نفس الأبي .. فلو ان فهداً أبا الخيل

---

١ – ابو نواف كنية لدهام الهذلول بطل القصة .

شاهد شخصاً متواريا يشرب الدخان على الطريقة التي رأى فيها دهاماً لما أثر ذلك على نفسيته ، ولكن مصدر التأثير جاء من ان المتواري دهام ، ولو ان الذى شاهد دهاماً بغاره شخص من مفقودي الاحساس والأنفة والاباء غير فهد لما أثرت تلك الرؤية شيئاً على نفسه [1] ..

* * *

١ - وبعد ، فانه من المؤسف حقاً ان يذهب دهام ذلك الرجل النبيل الكريم ضحية الاهواء والوشاية وان يقتل غدراً بدون ذنب اقترفه او جريمة ارتكبها ..

وكل ما في الأمر انه عندما كان والياً على الجوف من قبل امير حائل في عام ١٣٣٩ ﻫ بلغه الخبر ان امارة حائل استسلمت للمرحوم الملك عبدالعزيز، ولما لم يتأكد من صحة الخبر فقد بعث من عنده رسولين يحملان رسالتين متباينتين واحدة باسم امير حائل والاخرى باسم الملك عبدالعزيز وأكد على رسوليه بأنه في حالة عدم ثبوت الخبر القائل بسقوط حائل فانهما يذهبان الى اميرها محمد بن طلال ابن رشيد ويسلمانه الرسالة، اما اذا ثبتت الاخبارية فانهما يسلمان الرسالة للفاتح الجديد عبد العزيز ابن سعود، والذي نقل إلى هذه الرواية هو المرحوم شاهان الذرفي الشمري الذي يؤكد انه احد الرسولين اللذين بعثهما دهام ، وعندما دنا الرسولان من حائل وبلغهما الخبر ان البلاد وان كانت محاصرة ولكنها لم تستسلم عند ذلك اتجه الرسولان الى حائل ، وهما في طريقهما الى اميرها صادفهما رجال للامير ، فوجدوا لدى احد الرسولين المدعو الضميري الرسالتين فجيء به الى الامير محمد ابن طلال وضرب عنقه . وفي الوقت ذاته بعث الامير ثلاثة من جلاديه ليقتلوا دهامـــا ، ولما لم يستطيعوا قتله بصورة علنية بحكم انه محبوب عند اهل الجوف ، فقد ادعى هؤلاء القتلة أنهم جاءوا ليحملوا رسالة موجهة اليه من الامير ، وبقدر ما كان القتلة الثلاثة مضمرين لهذا الكريم السوء والغدر ، بقدر ما كان مبالغاً باكرامهم حيث نحر لهم جزوراً .. وفي الحين الذي خرج به من المسجد مؤدياً صلاة العصر وقاصداً ان يأمر رجاله ليهيئوا المائدة لضيوف الشرف،في تلك اللحظة اطلق عليه الغادرون رصاصاتهم من خلفه فسقط على الارض ويقول الرواة انه حاول ان يستدني مسدسه الذي كان على جنبه الأيمن ولكنه ما استطاع بحكم ان الغادرين تمكنوا برصاصاتهم من ضحيتهم البريء .. فكان آخر حركة منه حسبما نقلتها من شهود عيان هي ان اشار بكلتا يديه فاتحاً =

= ابهاميها وسبابتيها بصورة شعر المشاهدون ان تلك الاشارة علامة استفهام،اي كأنه يقول علام هذا الغدر؟..

ويؤكد الرواة انه ما من واحد من الغادرين الثلاثة الا وسبق له ان برك على مائدة دهـــام مراراً عديدة والجدير بالذكر هو ان كلا من الآمر بالقتل ومنفذو الغدر لقوا ربهم فمنهم من قتل بعده بشهرين ، ومنهم من قتل صبراً بحالة اسوأ من الموت الذي لقيه دهام .. وخلاصة القول ان القتلة لم يبق منهم الآن الا واحد على ابواب الموت او هو كالميت ..

ولقد كان السبب لهذا التعليق هو الدفاع عن عرض ذلك الرجل الكريم النبيل الذي أراد بعض الناس ان يصمه بالخيانة وهو منها بريء ، والفضل كله يعود لشامان الذرفي الذي هو احد الرسولين والذي نجا من قتل محمد بن طلال باعجوبة،فهذا وحده الذي نقل لي الخبر الأكيد الذي جاء بالسياق . ولولا ان البحث في هذا الشيء يطول ويطول بصورة تبعد بنا عن صميم الموضوع..لولا ذلك لشرحت الحقيقة التي كان من شأنها ان ذهبت نفس ذلك الرجل الطيب ضحية بريئة .. رحمه الله وعفا عن ظالميه وقاتليه .

هذا امتحان من الله

- ٤٢ -

يمتحن الله جل شأنه عباده بالمال كما يمتحنهم بالفقر ، فالفقير مطالب بالصبر ، والغني مطالب بالشكر ، والحديث الشريف يقول : الغني الشاكر افضل عند الله من الفقير الصابر ، والطغرائي يقول :

وقدر شكر الفتى لله نعمته
كقدر صبر الفتى للحادث الجلل

والصبر الجميل الذي يطالب به الفقير هو الاحتمال وعدم الشكوى ، والشكر الذي ينبغي من الغني هو عدم التبذير والأخذ بيد الفقير ومواساة الضعيف ، والشاهد هنا حادثة فقير وقعت مع رجل أوسع الله في رزقه ، رواها لنا الاخ سليمان القاضي نقلاً عن احد رجال دمشق الثقاة وملخصها كما يلي :

عندما كان الشيخ زاهد [1] الالشي يتولى القيام بمهمة القضاء في بلدة دوما المجاورة لمدينة دمشق جاء له شخص قروي فقال :

– ان لدي دعوى .. فقال القاضي :

– على من تدعي ؟ فقال المدعي :

– على الذي ابتلاني بكثرة الاولاد كما ابتلاني بقلة الرزق وشهودي على ذلك الجيران وبيت المؤونة [2] .

فقال له الشيخ :

– اذهب الآن وعد عليّ غداً ظهراً لكي أنظر في دعواك ..

ذهب الرجل من عنده وفي صباح الغد ذهب يعمل في حقله ، وعندما قرب الموعد المعين جاء الى منزله ليبدل ثياب الحقل بثياب انظف منها الى حد ما . وعندما دخل منزله قابلته زوجته قائلة له :

– من هو الذى أقمت عليه الدعوى ؟..

فقال :

– من الذى اخبرك بذلك ؟.. فقالت :

– جاءني عمال يحملون عدداً من اكياس الطحين والارز والسكر والسمن وأدخلوه غرفة المؤونة وقالوا :

---

١ – زاهد من سكان دمشق وهو والد جميل الذي تولى الوزارة في سورية في عهد حكومة الشيخ تاج الدين الحسني..

٢ – هذه العبارة نقلتها عن القاضي بنصها حرفياً كما وردت اعلاه.

- اذا جاء زوجك فقولي له هذا أرسله لك الذى اقمت دعواك عليه ..

فذهب القروى للقاضي وعندما سلم عليه وبادله الشيخ السلام وقال :

- انني اطلب ابطال الدعوى التي اقمتها بالأمس لأن المدعى عليه انصفني ، ولا أرى ما يدعو الى شكواه الآن .. فقال القاضي [1] :

- بل سوف لا يكون لك سبيل الى الشكوى عليه لا اليوم ولا غداً ..

ويؤكد لي الراوى الاخ سليمان القاضي بأن الشيخ الالشي لم يقف بـه الامر الى الحد الذى بعث للقروى بتلك المؤونة بل ناوله وقتها عدداً من الجنيهات الذهبية ليشتري فيها كسوة له ولأبنائه ، والاعظم من ذلك انه رتب له مقرراً يتقاضاه لا مدة حياة الشيخ الالشي فحسب ، بل كتب في وصيته بأن يدفع للقروى عشرة جنيهات ذهباً كل سنة ..

والجدير بالذكر انـه حتى هذا التاريخ بالذات ١٣٨٣/١٠/٤ - ١٩٦٤/٢/١ والمقرر الذى اوصى بـه الشيخ يدفع لابناء القروي وذلك بواسطة ابن الشيخ الاستاذ جميل الالسي الذى نفذ وصية والده بكل أمانة ، وعلينا ان نعتبر عشرة جنيهات في ذلك الوقت بعشرة اضعافها الآن ..

وبعد فقد فاتني بأن اشير في أول الحديث الى ان القروي عندما جاء الى الشيخ الالشي بدعواه وجه اليه الشيخ السؤال التالي :

- ألم يسبق ان رفعت دعواك هذه الى القضاة الذين تولوا هذا المنصب من قبلي؟ فقال القروى :

- بلى كنت رفعتها الى اكثر من قاض من القضاة السابقين ولكن كانت دعواي

---

١ - ارجو ان لا يكون التباس عند القارىء بين اسم القاضي الشرعي الشيخ زاهد الالشي وبين سليمان القاضي راوي هذه القصة .

تعود عليّ بدون جدوى وبدون حل من أي واحد منهم[1]..

* * *

---

١ – ربما كان القضاة السابقين الذين رفع القروي شكواه اليهم ربما كان وضعهم الاقتصادي لا يشفع لهم بالعمل الذي قام به الشيخ الالشي وهذا مما يجعل ايماننا يتضاعف بحكمة الشرع الاسلامي تلك الحكمة التي تشير بأنه من اللازم بأن يكون القاضي الشرعي غنياً .. ومما لا شك فيه ان الشيخ الالشي لو لم يكن غنياً بماله كفنائه بنفسه لما استطاع ان يحل المشكلة على النهج الذي اوردناه بالسياق ، والشيء الذي اعتقده ان ايمان الالشي بربه وقناعته برزقه واعتماده على الله اكثر بكثير من اعتماده على ماله ..

حينما كنت غازياً طردناك

وبعدما اصبحت عاجزاً ضيفناك

-٤٣-

هذه الحادثة يقع تاريخها بين ١٣١٥ - ١٣٢٠ هـ وبطلها رجل يدعى (مكازى[1] ابن سعيد) وهو مشهور بالكرم وانما ازدادت شهرته بمناسبة عملية قام فيها ربما كانت فريدة من نوعها من حيث اسلوبها التقليدى .

من العادة المعروفة ان الذئب عندما يشعر بالجوع يتخذ عدة وسائل :

اولاً انه يحاول ان يهجم على غنم أية قبيلة قريبة اليه ويكون هجومه غالباً خلسة فإن تعذر عليه ذلك بواسطة كلاب القبيلة فلا يدخر وسعاً من ان يلتجيء الى وسيلة ثانية وهي انه يذهب ويعوي بصوت جهوري يسمع من مسافة بعيدة. والحكمة من عويله هي ان صوته هذا اشبه ما يكون بعلامة الاشارة الى بقيـة الذئاب ليستنجد

---

١ - مكازي من قبيلة شمر نجد ومن عشيرة عبدة وهو رئيس فخذه .

بهم فكل ذئب يسمع هذا الصوت فما عليه إلا ان يهرع مسرعاً لتلبيته وإذا وصله ضم صوته الى صوت الاول وهكذا دواليك حتى تتجمع كل الذئاب التي في تلك البقعة من الارض ومن ثم يكرون جميعاً على الغنم التي طرد منها رفيقهم الاسبق حتى يستحصلوا على فريستهم منها بالقوة .. هذا إذا لم تكن كلاب القبيلة كثيرة ولديها من القدرة ما يمكنها من طرد الذئاب مهما كثرت ..

وحديثنا هنا حول احد الذئاب الذي هجم على غنم كازي بن سعيد سالف الذكر ولكنه عاد مفلساً من فريسته بالرغم من هجومه العنيف حيث تصدت له كلاب القبيلة وطردته ، ولم يسعه إلا ان ذهب والتمس الوسيلة الثانية أي انه راح يعوى ليستنجد برفاقه الذئاب فلبى نجدته جميع الذئاب التي في تلك المنطقة، فهجمت على القبيلة كلها هجوماً موحداً بصورة عنيفة ومرعبة ، ولكن كلاب الحي كانت لهذه الذئاب بالمرصاد فكرت بالهجوم ثانية وثالثة ورابعة ولكن محاولة الذئاب كانت محاولة يائسة بحكم وجود كلاب القبيلة التي تصدت لرد هجومها وطردتها .. وعندما يئست الذئاب قفلت راجعة ولم يبق إلا الذئب الاول الذى كان السبب الأساسي بمجيء الذئاب ولم يكن الآن بوسعه ان يعوى كعوائه الاول الداوي . وإنما ظل يعوى عواء العاجز المهزوم المستكين الذي يبدو انه جائع جوعاً شديداً وكأنه يعبر بعوائه هذا بأنه يستجدى لاعواءه الأسبق الذي يحمل طابع التحدى والتهديد . ولذلك تبدل الموقف بالنسبة لهذا الوحش من عواء ذئب يريد ان يأخذ فريسته بالقوة الى عوائه الحالي الذى يريد ان يمن عليه احد رجال هذه القبيلة بأية لقمة تقدم له لتقوم بأوده ..

وعندما تبدل موقف الذئب من عويل التهديد والوعيد الى عويل الاستجداء

والاسترحام ساعتذاك تبدل موقف رئيس الفخذ من تركه للكلاب تقاوم الذئب وتطرده إلى أن اعتبر الذئب ضيفاً جائعاً يطلب القرى فيجب عليه أن لا يبيت الطوى بعدما اعلن استسلامه واستجداءه ولذلك راح واستنجد بفتيان من شباب قبيلته ليتولوا طرد الكلاب عن مقاومة الذئب قائلا لهم : عندما كان الذئب يحاول أن ينهب فريسته بالقوة تركنا كلابنا تتولى مقاومته حتى ذهب واستنجد بجميع ذئاب الفلاة التي سمعت نداءه واستجابت لندبته ثم كرر راجعاً هو واعوانه فتصدت لهم كلاب الحي بكاملها حتى هزمتهم وعادوا مدحورين ، والآن هاهو صوت الذئب قد تبدل من عويله المدوى الصارخ الذي كان يرسله في أول الليل معبراً عن ضراوته واستعداده لنهب فريسته بقوته وقوة رفاقه إلى صوته المزيل الفاجع الذي ينم عن ضعفه وعجزه . ثم استطرد ابن سعيد فقال : لقد اصبح الذئب الان ضيفاً لنا بحكم استجدائه الحالي ، وليس من الشيمة أن نتركه بعد ذلك يبيت الطوى ، فقال له أحد رفاقه المعبر عن رأيهم جميعاً :

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن ؟..

فقال : أريدكم أن تطردوا الكلاب عنه بينما اذهب بنفسي واختار شاة من اطيب غنمي واذكيها بيدي واقدمها له ضيافة معتبراً إياه كأى انسان ضافني وقدمت له ضيافة مماثلة كهذه الضيافة ..

فوافقه رفاقه على رأيه فذهب ونفذ العملية بينما رفاقه تولوا حراسة الذئب من الكلاب حتى انتهى من قراه ..

وقد اطلق على صاحب هـذه العملية اسم (معشي الذئب) أى أن سخاءه لم يقف به الى حد أكرامه للضيوف من بني الانسان أينما كانوا وانمـا ذهب به الى أكرام الوحوش الجائعــة ، التي استنجدت بكرمه واستعطفت مروءته فلبى نجدتها ..

حينما يكون العمل خالصاً لله !!

- ٤٤ -

ورد في الحديث الشريف عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام قوله : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امريء ما نوى » ..

يقول علماء الحديث ان هذا الحديث من أبلغ الاحاديث النبوية الصحيحة من حيث أهمية معناه المنطقي . وذلك لأنه أثبت بصورة جلية بأن الأعمال لا ينظر اليها من حيث إطارها الخارجي مهما بلغت من السمو والعظمة ، وانما ينظر اليها من زاوية واحدة ألا وهي حسن النية وسلامة القصد ، ولكن المشكلة العويصة بهذا الشأن هي أن سلامة النية والاخلاص بالعمل، هذان الأمران هما سر خفي كامن في خفايا النفس . ومن المستحيل جداً ان يعلم بهما أحد الا الله تبارك وتعالى ..

واذا كان العاملون قليلين . فان المخلصين أقل . وذلك أن العاملين المخلصين هم الذين لا يريدون من وراء اعمالهم جزاء ولا شكوراً ، ولذلك نجد الذي يقوم بعمل خالص محض نجده يخفي اعماله كما نخفي عيوبنا عن الناس . ومما لا شك فيه هو أن أي انسان يقوم بعمل ما ويجاهر بأعماله بصورة علنية أو يحب ان يعلن

عنه فانه سيكون هدفاً لأسهم المتهمين له بعدم اخلاصه بأعماله حتى ولو كان مخلصاً في سريرته . والسبب هو ان بعض العاملين أشبه ما يكونون بالتاجر المحترف الذي قل أن ينفق شيئاً ولو كان ضئيلاً إلا ولديه من العلم اليقين الراسخ بأنه سوف يربح اضعافاً مضاعفة عما انفقه ، أما أن ينفق التاجر درهماً أو اقل من الدرهم دون أن يعرف ان ربحه المادي المحسوس مضمون مائة بالمائة فهذا في ما اعتقد أشبه ما يكون بالمستحيل ، بل قل هو المستحيل بعينه . وما يقال عن التاجر في حالة كهذه يقال ايضاً عن السياسي الذي لا يمكن ان ينفق درهماً إلا وهو عارف لماذا أنفقه؟ ولأي غاية أنفقه من غاياته السياسية بل ربما لا ينفق شيئاً من ماله حتى يمهد له من مقدمات الدعاية الرنانة قبل انفاقه وبعد انفاقه حتى لا يبقى مخلوق في الارض إلا سمع ذلك الضجيج بل وسئمت اذناه سماع تلك الجعجعة الطويلة العريضة . .

أما أن يقوم السياسي بعمل من اعمال المروءة للمروءة فقط وينفق الاموال الطائلة ثم بعد ذلك يفعل المستحيل حتى لا يعلم أحد بها بذله بل ويطلب تعهداً ممن ينفذ عمله بأن يخفي الأمر ويكتمه فهذا ولا شك مما يدعو للاستغراب ، بل والى الاعجاب بسياسي يكون من هذا النمط اعجاباً لا يقل عن اعجابنا بهذا التاجر الذي يطيب لي ان أوافي القاريء باسمه وعمله كما آتي بعده بذكر اسم السياسي . .

أما التاجر فهو المرحوم عبد الله الحليسي [1] من مدينة بريده وهو من قبيلة بني تميم ، وقد قضى زهرة شبابه وكهولته في دمشق حتى توفاه الله فيها ، كان يعمل تاجراً بالابل ولم يكن وارثاً للمال الذي يعمل به كتاجر بل كان عصامياً جمع ثروته من عرق جبينه وكسب يمينه .

---

١ – عبد الله الحليسي هو عم عبد الرحمن الحليسي سفير المملكة العربية السعودية حالياً في روما . .

حدثني الشيخ سليم اللبني الدمشقي الأصل والذي لا يزال على قيد الحيـــاة ، يقول الشيخ سليم :

« لما كنت اماماً لجامع بلوزه الكائن في دمشق في حي الميدان في الحقلة منذ سنين طويلة فقد حضر في اوقات الصلاة الشيخ عبد الله الحلبسي وعندما انتهينا من الصلاة دنا مني الرجل فقال : ما لي أرى مسجدكم هذا خرباً وعلى وشك ان يتداعى سقفه » .. فأجابه الشيخ سليم قائلاً :

- كان بودنا ان نرممه أو نعمره من جديد ولكن لم نستطع لا هـذه ولا تلك ..

فقال الحلبسي : من الآن عليك أن تباشر هدمه وبنيانه من جديد ونحن علينا تكاليف كل ما يلزم لعمرانه بشرط أن يكون ذلك سراً مكتوماً بيننا لا يعلم به إلا الله ..

هذا وقد نفذ الشيخ سليم ما أمره به الحلبسي كما نفذ الاخير ما وعده به من دفع جميع تكاليف المسجد الذي هدم وبني من جديد على نفقـــة ذلك التاجر المحسن ، وأهم مـــا في الأمر هو اشتراطه أن لا يعلم أحد عن قيامه بهذا العمل الروحي ، وقد ظل السر مكتوماً بين الحلبسي وبين الشيخ سليم الى ان توفي الاول ، وعندئذ رأى الشيخ سليم أن من الافضل اعلان هذا الجميل لصاحبه لكي يقتدي فيه الأخيار الصالحون ..

هذا وقد أفادني الشيخ سليم ان الحلبسي رحمه الله زاره بعد ان عمر المسجـد بمدة وقال له : أتدري انني بعد أن وفقت لقيامي بعمران بيت الله ان الله قـــد أعاضني عن كل درهم انفقته في سبيل ذلك العمل رزقـاً طيباً يزيد اضعافاً مضاعفة عما انفقته في سبيل ذلك العمل الروحي ..

هذا هو التاجر الذي يلذ لي الاشادة بعمله الذي يعبر لا عن طيب نفسه وسلامة

طويته فحسب بل وعن اخلاصه بعمله الذي حرص على كتمانه لكي يكون عملاً خالصاً لله والى الله ..

* * *

أما السياسي فهو المرحوم فؤاد حمزة [1] اللبناني الاصل والذي كان وزير دولة ومستشاراً للمرحوم الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ولم يخطر ببال أي أحد أن سياسياً كفؤاد حمزه يتبنى عمران مسجد على نفقته ثم مع ذلك يحرص ان لا يعلم أحد عنه بعمله هذا ..

لقد كنت من ألصق الناس به وكنت اعرف عنه الشهامة والرجولة وسعة الأفق، ولكنني لم أفكر قط في انه يقوم بعمارات مسجد من جديد على نفقته وبصورة سرية مكتومة .. اللهم الا في اليوم الذى توفي غفر الله له وذلك انه عندما حمل جثمانه وجيء به الى المسجد القريب من منزله في رأس بيروت ليصلى عليه وعندما وقف الامام الشيخ سعدى ياسين قاصداً ان يكبر على جثمانه التكبيرة الاولى .. في تلك اللحظة تنهد الامام ثم انحرف على المأمومين فقال : ترحموا معي على هذا الميت لأن هذا المسجد العامر كنت أجمع من المحسنين الليرة والليرتين لعمرانه وعندما جئت اليه عارضاً ورقة تشمل اسماء المتبرعين قاصداً أن يساهم بما تجود به مروءته فما كان منه إلا أن مزق الورقة وقال : عمّر هذا المسجد على نفقتي شريطة أن لا يعلم أحد انني المتكفل ببنيانه ..

والحقيقة انه ما ان قال الشيخ سعدى ياسين الذي لا زال حياً يرزق هذه

---

١ – توفي فؤاد حمزه رحمه الله في ٢٢–١١–١٩٥١ م في مدينة بيروت إثر نوبة قلبية .

الكلمة ثم انصرف وكبر حتى شعرت عند كل من حضر الصلاة بحافز يدعوهم للدعاء والترحم لصاحب الجثمان الراحل الذى كان لديه من السريرة بينه وبين ربه أكثر مما هو ظاهر لنا ..

وهكذا نجد كلاً من الحليبي وفؤاد حمزة يتفقان بالأعمال الطيبة الصالحة بالرغم من اختلافهما بالمهنة والنشأة ..

وقد فهمت فيما بعد من مصدر موثوق ان المرحوم فؤاد عمّر مدرسة بقرية الاشرفية الكائنة خلف معمل القزاز في دمشق لفقراء تلك القرية، كلفته ثلاثين الف ليرة سورية . ولم اقف عند حد رواية الراوي بل ذهبت بنفسي لأتأكد من صحة الرواية . فوجدت الخبر أكيداً والمدرسة قائمة حتى الآن شـاهدة له كشهادة شيم العرب لأى محسن كان من ناطقي الضاد ..

* * *

وفي الحين الذي كان كتابي هذا تحت المطبعة زارني في الفندق في بيروت الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى المحتجبة التي كان لها صولات وجولات ضد دول الاستعمار ، وفي احدى زياراته المترددة التي يقصد من ورائهـا مساعدتي على تصحيح بعض ملازم هذا الكتاب ، سمعني اتحدث بالهاتف مع حرم المرحوم فؤاد حمزة ، وبعدما وضعت سماعة الهاتف ، جرى الحديث بيني وبين الطـاهر في ذكر فؤاد حمزة ، فقلت له انني كاتب عنه في هذا الكتاب كتابة وجيزة ، فقال :

ـ اتعرف الرجل معرفة راسخة ؟ فقلت :

ـ عرفته في اول حوادث فلسطين عام ١٣٦٧ هـ أي قبل وفاتـه بأربع[١]

١ ـ سوف اذكر في آخر هذه الكتابة المناسبة التي تعرفت بها على فؤاد حمزة .

سنوات تقريباً . فقال :

ـ أما تعرفه قبل ان يأتي الى بلادكم ؟ قلت :

ـ لم يكن لي وقتها من السن ما يخولني معرفة الرجال ، ثم اردفت قائلا هل تعرف فؤاداً قبل أن يأتي الى المملكة السعودية ؟ فكأنني بسؤالي هذا ارتكبت خطأ في نظر الاستاذ الطاهر حيث انحرف الي ونظرني شزواً، ثم قال بصوت مرتفع أتظن انني لم اعرفه قط ، إلا بعدما جاء الى المملكة ونال عندكم ما ناله من الجاه والمال ؟ ولما كنت اعرف الاستاذ الطاهر وأعرف عنه الشدة التي تبلغ من العنف احياناً درجة تتجاوز الحد المعتدل ، ولما كنت اعرف ايضاً انه سجل تاريخي خاصة في معرفة القضايا السياسية العربية منذ نصف قرن ونيف ، ومعرفة الكثير من الرجال الذين قدر لهم ان يساهموا في القضايا العربية منذ ان كانت لا تزال في المهد، فقد سألته عما يعرفه عن فؤاد حمزة فقال : انني أعرف فؤاد حمزة معرفة جيدة ، وقد كان الرجل وطنياً مخلصاً في عروبته الى اقصى حدود الاخلاص ، ثم مضى الطاهر في حديثه الى ان قال : لقد كان المرحوم فؤاد في شبابه يزود جريدة الشورى بالمعلومات السرية عن نوايا الانجليز ضد الوطن السليب فلسطين عندما كان استاذاً في ادارة المعارف الفلسطينية أبان عهد الانتداب البريطاني .

وبما ان الاستاذ محمد علي الطاهر كما أشرت آنفاً يعد تاريخاً حافلاً بمعرفة الرجال العاملين . وغير العاملين في القضايا العربية، وبما انه اشبه ما يكون بالشيخ ابن حزم الظاهري احد رجال الحديث المشهورين . الذي قال عنه رجال الحديث انه شديد للغاية بتزكيته لرواة الحديث الى الحد الذي جعل المحدثين يقبلون تزكيته للرجال بدون ذلك التردد الذي يبدونه بتجريحه لمن يحكم عليه بعدم الصدق والعدالة .

أقول : بما ان الاستاذ الطاهر في رأيي يعد من طراز ابن حزم الظاهري من حيث شدته بشهادته بالتزكية ـ فقد عدت أسأله ثانية واستوضح منه عما يعرفه عن فؤاد حمزة فرد عليّ قائلاً :

ما دمت تتحرى الحقائق وتحرص على تدوين كل ما يمت الى الشيم العربيـة بأدنى صله ، فإنه من الأجمل ان ابعث لك برسالة خطية تحت امضـائي ، على أن اذكر لك فيها بصورة موجزة الشيء القليل من الذي أعرفه عن فؤاد حمزة .

فذهب من عندي ثم عاد في صباح الغد وقدم إلي الكتابة الآتية :

بيروت ٢٨ : رجب ١٣٨٤

أخي الشيخ فهد المارك حفظه الله ورعاه

أراك لا تزال تدون اموراً كريمة في مؤلفاتك الثمينة عن شهامة رجال امتنا، وانك نوهت بشيء من شيم المرحوم السيد فؤاد حمزة اللبناني الأصل ، وكيل وزارة الخارجية السعودية سابقاً والسفير سابقاً ايضاً ..

واني بمناسبة عملك الطيب هذا،ارجوك ان تضيف الى سجل فؤاد حمزة عندك، انه لما جيء به من لبنان لفلسطين استاذاً بادارة المعارف قبل اربعين عاماً ، وقبل ان يلتحق بخدمة الحكومة السعودية ، كان فؤاد يتصل سراً بجريدتي « الشورى » التي كانت تصدر إذ ذاك في مصر،ويوافيها باسم مستعار بكل ما يراه لنفع فلسطين وجيلها الطالع،ثم كان يخاطر بمنصبه ويتتبع رحمه الله خطط ادارة المعارف الاستعمارية ويكشفها ويدبج للجريدة الفصول الطوال عنهـا ، وينبه الأمة اليهـا ، ويحذر الفلسطينيين من خطرها وسوء عواقبها ..

وقد بذل الانجليز في فلسطين وجواسيسهم في تلك الايام كل جهد لمعرفة اسم ذلك الكاتب المطلع تمام الاطلاع لينزلوا به شديد الأذى ، وأقله قطع رزقـه وحبسه ثم طرده من البلاد ..

ومنذ ٤٠ عاماً حتى الآن وأنا أكتم ذلك السر الذي تناسيته ثم نسيته ، إلى ان أيقظته أنت بمدوناتك الصادقة الرشيقة.

فمن هنا يمكن للسعوديين وغيرهم معرفة السبب الذي من أجله كان فؤاد محترماً

في البلاد السعودية ، وفي جميع الاوساط السياسية العربية الاخرى ، من رسمية ووطنية وشعبية ،حتى عند الساسة الاجانب ايضاً،ولم يعرف عنه ولا مرة واحدة انه أتى بعمــل غير جدي أو بتصرف غير محترم ، ولذلك كان المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود يحب فؤاد حمـزة ويجله ويصغي اليه ويثق به ، ويعهد اليه بالأمور الهامة ، وحل المشاكل الصعبة ، ولذلك فإنه يستحق التخليد في كتابكم الممتع « شبه العرب » كل الاستحقاق ، رحم الله الجميع ، وأطال في حياتكم .

أخوكم : محمد علي الطاهر

كيف عرفت فؤاد حمزة ؟ ولماذا أحببته ؟

سوف تضطرني الاجابة على حرفي الاستفهام أعلاه ، الى الحديث عن شيء ذي علاقة مباشرة في حوادث فلسطين المؤلمة ، تلك النكبة المحزنة المريرة التي طالما حرصت كل الحرص على عدم الحديث عنها لا جهلاً مني بمعرفة كنهها، وإنما لكونها من أتعس الذكريات التي شاهدتها بحياتي، ولئن كان كل عربي مخلص عندما يذكر تلك الكارثة سوف يشعر بلا شك بمزيد من وطأة الألم القامي والحسرة المرة،حتى ولو لم يشاهدها رؤية العين ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبــة للعربي الذي لم ير تلك الكارثة عن كثب ، ولم ير هولها كشاهد عيان، إذن فكيف يكون انعكاس الفعل في نفسية عربي مرهف الحس جم العاطفـــة رأى الكارثة بعيني رأسه . ونظر إلى ما حلّ باخوانه الفلسطينيين من المأساة التي داهمتهم فجأة ، وشاهد منظر اولئك اللاجئين الحزين ، ورأى كل فرد منهم هارباً بنفسه منفرداً ،شيوخاًوعجائز أطفالاً ونساء ثيبات وابكاراً ، كل من هؤلاء واولئك شردوا من بلادهم ، فظلوا هائمين تائهين يغشاهم ذهول أفقدهم رشدهم ، فكأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن ظلم

الصهاينة وأعوانهم أفقدهم وعيهم ، فلا يعلم الشيخ ماذا حل بأبنائه ؟ ولا تعلم المرأة أين مصير بعلها ؟ أهو أسير ؟ أم قتيل ؟ أم جريح ؟ أم مشرد ؟ ولا يعلم الاطفال ولا الفتيات ماذا جرى لوالديهم ؟ أهم في عالم الأموات ؟ أم في غياهب سجون العدو؟[1] أم مشردون طريدون، أجل كيف يكون انعكاس الفعل في شعور العربي الذي رأى هذه المأساة كشاهد عيان ؟ وعاشها بآلامه وعلى اعصابه، بل وفي بعض الأحيان على عبراته ودموعه ؟ أجل كيف يكون احساس العربي ، ولا سيما الجندي المحارب ، الذي يشعر ان عار الهزيمة لصق به لا على يد رجال شجعان أكفا لا يعاب بهزيمتهم له كما يعاب على الهزيمة التي مني بها على يد أنذال جبناء كاليهود اولئك النفر الذين يعتبرهم كافة البشر أنهم أحط بني الانسان خلقاً. وأوضعهم نفساً وأجبنهم قلباً ، أعيد تكرار هذه المعاني مرة ومرات اخرى فأقول : كيف تكون الانفعالات النفسية في كيان من عاش هذه المآسي وشاهد تلك المصيبة المروعة . كجندي هزمه أحط خلق الله لا بفضل شجاعتهم ولكن بفضل تخاذل بني قومنا ليس إلا ان شعوري المرير من أثر تلك البلوى المؤلمة . هو الذي جعلني أرفض طلب الاستاذ (عارف العارف) صاحب كتاب (النكبة) حينما بعث الي عدة رسائل يطلب مني أن اوافيه بما لدي من معلومات عن (حرب فلسطين الفاشلة) ومن بين الرسائل التي جاءتني منه رسالة بواسطة السيد علي الصقير عندما كان قنصلاً للمملكة العربية السعودية في القدس ، فكان جوابي للاستاذ العارف يتضمن عدم رغبتي في الحديث عن هذا الموضوع الذي أرى ان الحديث عنه مزعج لشعوري . ومهيج لأعصابي .

وقد اكتفيت بأن بعثت له بأسماء الشهداء والجرحى من المتطوعين السعوديين، ثم بعد ذلك أعاد الاستاذ العارف مرة ثالثة طلبه بأن ابعث له صورتي الشمسية ،

---

١ – انظر كتاب المؤلف قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب صفحة ٢٧ .

فأجبته معتذراً :

وبعد لئن اضطررت بأن أسهب في الكتابة في هذا الشأن فما ذلك إلا من أجل ان أصل الى الجواب على حرف الاستفهام الذي جاء في مقدمة العنوان الفرعي - كيف عرفت فؤاد حمزة .

فجوابي على ذلك هو أن معرفتي بفؤاد حمزه بدأت منذ عام ١٣٦٧ هـ وقد كانت المعرفة بسبب رسالة جاءتني من الملك السابق سعود عندما كان ولياً للعهد كجواب على رسالة حررتها له في ٢٨-٨ ١٣٦٧ هـ ولما كنت المؤسس لفوج المتطوعين السعوديين ايام حرب فلسطين الخاسرة، وضابط ارتباطه ومعاوناً لآمره فقد بعثت لولي العهد الامير سعود آنذاك الرسالة المشار الى تاريخها اعلاه ، والمتضمنة طلبي لما يلي :

١ - ان تتعهد الحكومة العربية السعودية بكفالة أطفال الشهداء من جميع المتطوعين السعوديين الذين استشهدوا في ميدان الجهاد المقدس كما تتعهد بكفالة وإعالة جميع السعوديين المجاهدين الذين اصيبوا في ميدان الحرب بأصابة اقعدتهم عن العمل واكتساب الرزق .

٢ - ينبغي على الحكومة السعودية بعدما تضع الحرب أوزارها أن تعتبر كل مواطن سعودي تطوع في حرب فلسطين جندياً نظامياً ضمن الجيش السعودي النظامي وان يمنح كل من نال رتبة مكتسبة في الجهاد رتبة زيادة على رتبته الاولى ..

٣ - رجوت الحكومة السعودية بعد أن تضع الحرب أوزارها أن تتعهد بالحج مجاناً وعلى نفقتها لجميع الضباط والقادة من جميع المجاهدين في جيش الانقاذ الذين أبلوا بلاء حسناً في الجهاد لا من السعوديين فحسب، بل من جميع المجاهدين من أي

بلد من البلدان العربية [1].

وقد رد عليّ ولي العهد على رسالتي هذه بالجواب الذي يطيب لي أن أوافي القاريء بنصه الحرفي لفظاً ومعنى موضحاً كما يلي:

المملكة العربية السعودية
ديوان سمو ولي العهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ... ٢٩٤٣
التاريخ ... ١٣٦٧/٩/٢
المشفوعات ...

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد المارق سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • بعده وصل الينا كتابكم تاريخ ١٣٦٧/٨/٢٨ وعلمنا جميع ما ذكرتم بارك الله فيكم ونحن انشاء الله سنعمل كل ما فيه ترغيبا للناس وخاصة رعايانا وحيث ان فواد حمزة موجود الآن بطرفكم فانتم انشاء الله تتصلون فيه وتخبرونه بكل ما يلزم نحو جمع رؤساء وضباط قوة الانقاذ وما هو عدد الراغبين فى ذلك وعن مسألة كفالة اطفال شهداء رعايانا وعن كيفية جمع الراغبين للانضمام الى قواتنا خاصة من رعايانا حتى يخبرنا فواد بما يلزم فى ذلك ونحن نقدر لكم اجتهادكم واخلاصكم هذا ما لزم تعريفه والسلام،،

---

١ - اقولها للتاريخ وهو ان الحكومة العربية السعودية هي الحكومة الوحيدة من جميع الدول العربية التي تكفلت باعالة المصابين بعاهات اقعدتهم عن كسب العيش لا من رعاياها المجاهدين فحسب، بل حتى من المجاهدين اليوغسلافيين المسلمين الذين تطوعوا في حرب فلسطين، فانها تصرف لهم مرتبات شهرية يستلمونها من السفارة السعودية في دمشق حتى يومنا هذا، كما ان الحكومة السعودية هي الحكومة العربية الوحيدة التي نظرت للمجاهدين من ابناء وطنها بعين الرعاية والعطف والتقدير الذي منحته لجيشها النظامي المحارب في فلسطين، وذلك انها رفعت كل ذي رتبة من الضباط المجاهدين رتبة اضافية على رتبته الاولى..





الرقم . . . ٣٤٠٥
التاريخ .. ١٣٦٨/٢/٩
المشفوعات ______

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فهد الطارق سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد وصل الينا كتابكم تاريخ ١٣٦٨/٢/٤ وعلمنا ما ذكرتم بشأن انحلال جيش الانقاذ ونحن باذلين الجهد فيما يختص بالجنود المنتسبين لحكومتنا وانشاء الله عن قريب تتم المسألة على ما يرام هذا ما لزم بيانه والسلام؟

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
ديوان سمو ولي العهد

الرقم ..... [illegible]
التاريخ [illegible]
المشفوعات ______

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد المارق سلمه الله
السلام وبعد من قبيل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن انشاء الله عند وصولهم
الى بلادنا سنرفع اصحابا لرتب رتبة واحده يكون معلوما والسلام "

ولنعد الآن الى صميم الموضوع فأقول :

كان الأحرى أن أكتفي بالرسالة الأولى ذات العلاقة بما له صلة بالبحث الخاص باسباب معرفتي بفؤاد حمزة وأن اقف عند هذا الحد وانما هناك امر اضطرني على أن أضيف الى هذه الرسالة ، هاتين الرسالتين اللتين وجدهما القارىء آنفا وانني اذ اضيفها على الرسالة الأولى ذات الختم فإنما هو من أجل الأسباب الآتية : منها أن الرسالة الأولى كانت موقعة بختم الملك سعود السابق عندما كان ولياً للعهد ، ولئن كان الختم واضحاً وبينا في اصل الرسالة الموجودة عندي الآن فإنه لم يكن بارزاً بصورة واضحة في الكليشه المأخوذة عن الرسالة ، ومن المعلوم ان سعوداً عندما كان ولياً للعهد فإنه ظل يستعمل الختم حتى عام ١٣٦٨ هـ وبعد ذلك بدأ يستعمل الامضاء كما هو واضح في هاتين الرسالتين . وهذه أحد الأسباب التي الجأتني الى اضافة الرسالتين . وأما السبب الثاني فهو انه جاء في الرسالة رقم ٣٥ ٥٦ تاريخ ١٣ / ١٢ / ١٣٦٨ هـ . جواباً على رسالتي تاريخ ٤ / ٢ / ١٣٦٨ هـ وفي رسالتي هذا المعنى نفسه الذي جاء بالمادة رقم ٢ من رسالتي الاولى المشار اليها اعلاها أي انني طلبت ضمانة من الحكومة بأن تعتني برفاقي المجاهدين بالعناية نفسها التي تمنحها لجنودها ، وكان طلبي هذا بعد أن حلّ جيش المجاهدين المسمى وقتها « جيش الأنقاذ » ، وأما الرسالة الثانية رقم ٦٣٠٩ تاريخ ٣ / ٥ / ١٣٦٨ فإنها جاءت جواباً على رسالة بعثتها اليه وهي تتضمن المعنى نفسه الذي ورد في الفقرة رقم ٢ من رسالتي الأولى السالفة الذكر الى التي تشير الى ترفيع كل ذي رتبة من اصحاب الرتب الى رتبة اضافية وفي الرسالة الواردة من ولي العهد ما يفيد بإنه أي ولي العهد موافق على طلبي بدليل العبارة التي جاء نصها الحرفي كما يلي « وبعد من قبل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن أن شاء الله عند وصولهم الى بلادنا سنرفع اصحاب الرتب برتبة واحدة يكون معلوماً والسلام

وهناك ملاحظة اخرى وهي ما سيراه القارىء من تبديل كنيتي التي وردت في جميع مكاتب ولي العهد بأسم فهد المارق - بينما سيرى القارىء ان الكاف في

كنيتي حلت محل القاف الى المارك بدلاً من المارق - فالحقيقـــة هي ان كنيتي الأساسية هي المارق - لا المارك وهذا الاسم ليس غريباً بالنسبة للأسماء العربيـة وخاصة ذات الطابع البدوي . لأن المعنى من المارق أي النافذ والماضي وقد ذكر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد أن هناك قبيلة يقال لها بنو مارقـه كما جاء من شعر البحتري يمدحه لأحد رجالات العرب كقوله :

نجيح مليح أخو مارق

يـــكاد يخبر بالغائب

أما لماذا غيرت الأسم من مارق الى مارك؟ فالسبب هو اني شعرت بأنه عندما أحضر بعض الاجتماعات ومن ثم يأتي بعض الاخوان ليقدمني باسمي الكامل أجـد هذا المقدم يخجل ويتردد عندما يحاول أن يلفظ الحرف الاخير أي المارق ولـكي لا احرج اخواني اضطررت أن أبدل القاف بالكاف . بحكم ان الحرفين قريبان من بعضها - وذلك في عام ١٣٧١ - ١٥٩١ - وكم كنت أتمنى اني بدلتــــه بالدال لـكي يحمل معنى من المعاني العربية - أما الكاف فإنه لا يحمل أي معنى.

ومن معاني هذه الرسالة التي فيها عبارة تشير الى أن اتصل بفؤاد حمزه من أجل تحقيق مطالبي السالفة الذكر ، من أجل ذلك ، بدأت معرفتي بفؤاد ..

هذا هو جوابي على حرف الاستفهام الاول ، أما جوابي على حرف الاستفهام الاخير والقائل : « ولماذا أحببت فؤاد » فالجواب على ذلك هو انني أحببته فعلاً من أجل الأمور الآتية :

منها انني عندما اتصلت به بشأن ان ابحث معه في الاشياء التي لها علاقة في تعهد

الحكومة لأطفال الشهداء الخ .. فانني قد وجدت الرجل ايجابياً وفعالاً وذلك انني ما أن عرضت عليه مطالبي التي جاء ذكرها في السياق ، فمجرد ما سمعها قام على الفور لا بتأييدي بمطالبي من الناحية النظرية ، بل أيدني عملياً حيث رفع من عنده رسالة للملك الراحل عبد العزيز رحمه الله ، طالباً فيها ارسال سيارات من المملكة لتأتي من أجل حمل الجرحى المجاهدين الى بلادهم ، وقد تم ذلك فعلاً وبوقت أقرب مما اتصوره حيث بعث الملك عبدالعزيز سيارات لحمل الجرحى الى المملكة وإعالتهم كما وضع مرتبات شهرية تجري لهم الى يومنا هذا ..

هـذه احدى الأمور التي حببتني بفؤاد ، ومن الأمور الاخرى التي حببتني له هو انه بعد مضي مدة من خسارتنا للحرب في فلسطين ، بعـد ذلك بدأت أفكر طويلًا بالأعمال التي يمكن اذا قام فيها العرب ضد اليهود أن تؤدي الى نتيجة ولو لم يكن من شأنها الا اخلال أمنهم واحداث الاضطراب ، وازعاجهم . وبالتـــالي توقيف سيل المهاجرين اليهود القادمين من الخارج – اعتقاداً مني ان اليهودي الذي ينوي الهجرة الى فلسطين ، فانه سوف لا يقدم عليها فيما اذا شعر أن الامن مهدد وأن البلاد في حالة فوضى واضطراب بسبب نشاط المجاهدين العرب ..

وقد خمرت في ذهني هذه الفكرة الرامية الى قيام نخبة من الفتيان المغامرين الفلسطينيين على ان يكون العمل الذي يقوم به هؤلاء المغامرون يتضمن ادخـال الهلع والخوف والرعب في قلوب الصهاينة المعتدين ، من الأعمال الارهابية.

وقد هداني تفكيري هذا بان اتصلت بجماعة من خيرة اخواننـا الفلسطينيين . وعلى رأسهم السيد سليم الحسيني الذي يقوم الآن بأعمال تجارية في المملكة. والمجاهد المعروف المدعو أبو ابراهيم الصغير ، ونفر آخرون منهم من توفى الى رحمـة الله

ومنهم من لا يزال على قيد الحياة .

وبعد أن تبادلنا الرأي في عدة جلسات مستمرة بعد ذلك خرجنا جميعاً بنتيجة واحدة وهي موافقتهم الرأي على فكرتي هذه من حيث المبدأ، كما أبدى لي الاخوان معرفتهم بكثير من الشباب الفدائيين الفلسطينيين الذين لديهم القدرة الكاملة على قيامهم وتنفيذهم لهذه المهمة خير قيام وانما قال الرفاق ان هناك مشاكل كثيرة تحتاج إلى تذليل ، ولست هنا بصدد ذكر جميع المشاكل التي فكرنا انها ستكون حجر عثرة في سبيل تحقيق امنيتنا المنشودة وعلى كل فقد بدا لنا أن أهم تلك المشاكل الناحية الاقتصادية وهي قضية المال الذي نستطيع ان نوفره لتمويل الفدائيين ، ولإعالة أُسَر من يستشهد منهم ، وفي إحدى الجلسات الدورية التي داومنا عليها فترة من الوقت ، أبديت رأيي للرفاق على ان نذهب معا المرحوم فؤاد حمزة ، ونأخذ رأيه في الموضوع من ناحية ، ومن ناحية اخرى نستعين بجاهه عند الملك الراحل عبدالعزيز ، ووفقاً لهذا الرأي الذي اتفقنا عليه جميعاً ذهبنا معا لفؤاد حيث وجدناه في مزرعته الكائنة في الاشرفية - التي تبعد عن دمشق مقدار ثمانية كيلومترات تقريباً . وبعد أن قدمت اليه الرفاق الذين لم يعرف منهم أحداً ما عدا سليم الحسيني الذي قال انه يعرف والده المرحوم السيد حسين الحسيني عندما كان رئيساً للبلدية في القدس ، بعد ذلك شرحنا له الغاية التي جئنا اليه من أجلها فكان الجواب منه على الفور الجملة التي أورد نصها الحرفي كما يلي (اعتقد ان النخوة العربية لم تمت في نفوس العرب الى الحد الذي يجعلهم يستسلمون بدون ان يبدوا أي شيء يقلق راحة اسرائيل) .

ثم أتبع هذه الكلمة بكلمات فهمنا من معانيها أن الرجل موافق على رأينا وانه

سوف يبذل جهده لتحقيق ما نصبو اليه .

وبعد هذه الكلمة التي قالها فؤاد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يبذل جهده عند المرحوم الملك عبدالعزيز ، ولما كان فؤاد موضع ثقة عند الملك الراحل ، وقل أن يذهب رأيه سدى ولا سيما في القضايا العربية . فقد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يتبع القول بالعمل . كما أيقنا بأن اهدافنا وآمالنا سوف تتحقق ولو بصورة محدودة. فذهبنا من عنده ونحن متفائلون خيراً في نجاح مهمتنا. ولكن القضاء والقدر حالا دون ما ينوى القيام به . وذلك ان الرجل عاجلته منيته بعد ذلك بمدة وجيزة رحمه الله وعفا عنه وعن كل مواطن مخلص .

هذه بعض الأمور التي أحببت إلي فؤاد حمزة. وهناك أمور لا أرى ما يدعو الى شرحها الآن ولما اكتفي بالاشارة الى ما عرفته عنه من المقدرة الكامنة على مواجهة الاحداث – وقد شاهدت منه ما أدهشني من ابتكاره للرأي السديد في حله لمعضلة سياسية لا يسعني ذكرها الآن، وأعظم شيء اعجبني منه خاصة بما له علاقة في كفاءته السياسية وبعد نظره . هو ثقته بنفسه بصورة تختلف كثيراً عما عرفته عن بعض من قدر لي ان أعمل معهم في الأمور السياسية ، فبينما أجد فؤاداً مثلًا لا يتوقف من أن يأخذ رأي من هو أقل منه منزلة و كفاءة في الأمور التي لم يكن ملماً بها كإلمام ذاك الذي أصغر منه ، ثم أجده بعدما يأخذ الرأي من هذا الذي كما ذكرت أقل منه كفاءة وعلماً ومنزلة ما عدا انه أعلم منه في الموضوع نفسه الذي أخذ به برأيه – أجده لا يخفي الامر فيما اذا جاءت مناسبة ما من ان يذكر بأنه استشار في رأيه ذلك الرجل – بينما أجد بعض من سنحت لي الظروف بأن اعمل معهم في حقل الاعمال السياسية أجدهم يأخذون

الرأي بمن هو أدنى منهم . ولكنهم عندما ينفذون الرأي الذي جاءهم عن غير مجهودهم ، أبعدهم لا يخجلون فيما اذا جاءت مناسبة ما ان ينكروا ويجحدوا الرأي الذي اقتبسوه ، لا بعدم حضور الرجل الذي هداهم الرأي فحسب ، بل حتى انهم ينكرونه بوجوده ، ولئن دل ذلك على شيء فانمـــا يدل على ثقة المرحوم فؤاد بنفسه ، بقدر ما يدل على عدم ثقة النفر الآخرين بأنفسهم ..



شكر واعتراف بالجميل

أقل عتابي أيها العقل انني
مخلف قلبي عند من فضله عندي

انظر الصفحة التي بعد هذه



بما انني قد وضعت في هذا الجزء بالذات فصلاً خاصاً باصطناع المعروف والمكافأة عليه ، وذكرت بإحدى القصص ذات العلاقة بهذا الفصل الحكمة القائلة : « اذا كان اصطناع المعروف فرض كفاية فإن المكافأة عليه فرض عين » كما انني وضعت عنواناً للقصة رقم ٢٩ وصفحة ٢٢٩ في هذا الجزء وفي الفصل المذكور اعلاه جاء نصه كما يلي : « الفضل يملك الكريم وان قل » وقد ذكرت في صفحة ٢٢٣ العبارة الآتية : « والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ، قليله كثير » وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجب خلقاً وأدباً ومروءة وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها محمد عليه الصلاة والسلام فقال : « من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له ومن معنى الحديث الشريف يبدو ان المكافأة على المعروف من اوجب الواجبات.

لما كنت اعتقد بصواب هذا المبدأ أو اؤمن به كإيماني بالحق - كما انني اعتقد ايضاً ان أدنى مراحل المكافأة على المعروف هو اعلان الشكر لمسديه ، فإنني أرى لزاماً عليّ بأن اعلن شكري في حقل شيم العرب الخالدة لشخص غمر كياني بمعروفه من دون ان يكون له أقل حاجـــة بمكافأتي له . وأعني به ذلك الرجل الذي لا أريد ان أنعته بما ينعت به من صفات ذات طابـع رسمي ، لأنه هو نفسه يعتبر هذه النعوت دخيلة على عاداتنا وتقاليدنا وقد قال عنها في احدى خطبه : لسنا بالملوك ولا بالأباطرة . كما قال في مناسبة اخرى : « انني حينما اسمع كلمة صاحب

الجلالة أو الجالس على العرش فإنني أتأثر من ذلك أشد التأثير ، ومما لا شك فيه بأن رجلاً كفيصل بن عبد العزيز آل سعود لا يقيم لمثل هـــذه النعوت وزناً .

هذا الرجل الذي لو لم يكن له علي من اليد البيضاء إلا انه هيأ لي الاسباب ووفر لي الوسائل التي ساعدتني على ابراز « شيم العرب » من طي النسيان الى عالم الخلود .

•

ففيصل هو الوحيد بعد الله الذي وفر لدي عاملين مهمين في الحيـاة وهما البلغة ، والأمـان ، وهذان العاملان هما من أهم الاسباب التي ضمنت لديَّ الاستقرار الفكري .

* * *

ومن بدهيات الأمور ان الكاتب مهما توفرت لديه ملكة الكتابة ، ومهما إتسعت مداركه ونمت مواهبـــه فإنه لا يستطيع ان ينتج ما لم يتوفر لديـه من الناحيـــة الاقتصادية الشيء الذي يقوم بأوده . كمـا يتوفر لديه من الناحية المعنوية الاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري .

ولئن كان فيصل وفر لديَّ هذه المعاني فإن ما اسداه إلي من معروف لم يكن محصوراً في هاتين الناحيتين فحسب – بل هناك أمور ليست بأقل أهمية مما ذكرت– فمنها ما لا يسعني شرحه . ومنها ما اكتفى بالاشارة اليها بما يلي :

أولاً أن محترفي الوشاية في فترة من الفترات لم يدخروا وسعـــاً في نيلهم من عرضي بشتى الاتهامات ومختلف الأباطيل التي كانت مصدراً لجاههم الزائف .

وكانت تلك الافتراءات تشبه الى حد بعيد ما قاله معروف الرصافي

« وأبشع الكذب عندي ما يمازجه » * شيء من الصدق تمويهاً على الفكر

ولكن تلك الأكاذيب المموهة التي خدع بها الواشون « المغفلين » – كانت تتفتت على عقل فيصل الكبير الذي يميز الخبيث من الطيب .

ثانياً – هو انني لا استطيع أن أنكر بأنني امرؤ صريح صراحة من شأنها ان تجعل أي واشٍ لاذمة له أن يتخذ من صراحتي هـذه سلاحاً يصيب به مقتلا مني بكل سهولة ، وكنت على يقين من العلم بأن الوشاة لم يدخروا وسعاً عند المسئولين من تحريف الكلم وقلب الحقائق ما أمكنهم الى ذلك سبيلا ، ولكن جميع ما يحوكه الدساسون . وما يفتريه الواشون . كل من هذا وذاك يتجمع وينمو حتى اذا ظن أهله انهم قادرون على نفث سمومهم القاتلة ، ومن ثم وصلت تلك الدسائس الى الفيصل عند ذلك اجدها تتلاشى وتذوب كما يذوب الملح في الماء .

ثالثاً – هو انني مبتلي باعتناق المذهب القائل بأن المؤمن بحقيقة ما ، لا يكمل إيمانه حتى يكون لديه من الشجاعة ما يجعله يعلن ما يؤمن به ، وكان ايماني بهذا المذهب يضطرني بأن اعلن رأيي احياناً شفهياً وتارة كتابياً لا في مؤلفاتي ولا في المقالات التي انشرها في صحف بلادنا فحسب ، لا لم اكتف في هذه الناحية بل اعلن ذلك لفيصل بالذات . بل واعظم من ذلك هو أن المقال الذي تتوقف الصحف عن نشره ، أذهب به وأسلمه لفيصل من بدي ليده .

وكم كنت في كثير من الأحيان اناجي نفسي بالندم على ما يبدو مني سواء من صراحتي الشفهية أمام فيصل وعلى مسمع منه أو الكتابية ، بل كم كنت اتوقع رد الفعل المباشر من فيصل ولا سيما عندما أنظر

الى منزلي كموظف بسيط ، يعلن رأيه بكل صراحة أمام أكبر مسؤول في الدولة بدون أن اعلم مـاذا الاقيه منه ومن ثم تتضاعف مخاوفي حينما اذكر ما ينسبه عني لا محترفو الوشاية فقط ، ولا اعدائي الحاقدون فحسب، بل حتى ضعفاء النفوس من ذوى القربى الحاسدين ، فكل من هـؤلاء واولئك تتجمع سيوفهم الماضية وقنابلهم المدمرة وسهامهم القاتـلة ومن ثم تتخذني هدفاً لها . وكان الأحرى انـه لو اخطأني الواشون بسيوفهم لم يخطئني الأعداء الحـاقدون بقنابلهم . ولو أخطأني هؤلاء وأولئـك . لم يخطئني الحاسدون بسهامهم . ولكن هذه الاسلحة الفتاكة التي التقت على صعيد واحد وليس لها أي هدف اللهم إلا سحقي وتمزيقي إربا – كلها تندحر وتتحطم وتحترق من نفسها على نفسها أمام حلم وعقل ذلك الحصن المنيع ألا وهو فيصل بن عبد العزيز – الذي وهبه الله عقـلاً ارجح من أن يخدعه الواشون وقلباً امنع من أن يغرر به الحاقدون ، وحلماً أفسح من أن يستفزه الحاسدون .

* * *

وبعد ، فإنني انتهز هذه المناسبة لأشير الى الحوار الذي دار بيني وبين شخص ما – وكان معنى الحديث الذي وجهه الي هذا الشخص يفهم منه ان ما اعلنته من الشكر السالف الذكر . إنما هو على رأي صاحبي ليس الا استهلاكا محلياً فقط ، الأمر الذي جعله يوجه اليّ السؤال التالي :

« الست مواطناً سعودياً جنسية وولادة .

قلت :

– بلى .

فقال :

ـ أليس لديك من القدرة والكفاءة مـــا يجعل حكومة وطنك تسند اليك عملاً يتناسب وكفاءتك العلمية ومواهبك الفطرية ؟

قلت :

ـ اما من حيث كفاءتي العلمية فانني لم احمل شهـادة عالية بل وحتى الشهادة التوجيهية لم أنلها . والسبب هو انني قطعت دراستي الثانوية وذهبت متطوعاً ايام حوادث فلسطين ، وبعـد أن وضعت تلك الحرب الخاسرة أوزارها شئت أن أعود لأكمل دراستي . ولكن الذي حصل هو أن حكومة وطني كلفتني القيام بمهمة ما يطول شرحها .

فظننت انه بالإمكان أن انهي مهمتي بوقت قصير ثم اعود لمواصـــلة دراستي . ولكن ظني كان خاطئاً . فكانت النتيجة ان باشرت الحياة العملية . وانقطعت عن مواصلة دراستي الرسميـــة ، دون أن اقطـع استمراري بدراستي الخاصة الى يومنا هذا ، وعلى هذا الاساس لا استطيـع ان اقول لك لدي شهادة علمية بمفهومها العام فيما اذا كانت الكفاءآت محصورة على الشهادة المدرسية .

فقال صاحبي .

ـ اليس لديك مواهب فطرية وتجارب عملية .

قلت :

ـ لا استطيـع ان اجيبك على ذالك .

قال :

ـ ولماذا ؟

قلت :

- لو وجهت مثل هذا السؤال الى أبله الناس لما إعترف على نفسه بأنه مجرد من الموهبة والتجارب .

قال :

- ولكن الذي أعتقده بل والذي دلتني عليه تجاربي الطويلة هو أن الحاكم العادل قد يرحم مواطنيه ويعطف عليهم . ويضع للعجزة والأيتام والارامل معونة تكفل لهم عيشة هنيئة كمواطنين . ولكنه لا يسند الى أي مواطن ادنى عمل من اعمال الدولة ما لم يكن لديه من الامكانيات والكفاءة الرصيد الذي يخوله ان يقوم بالاعمال التي تسند اليه خير قيام

قلت :

- هذه ظاهرة محسوسة .

فقال :

- معناه أن حكومتك عندما اسندت اليك العمل الذي تتقاضى بموجبه راتبا يعينك على نوائب الدهر ويضمن لك الاستقرار الفكري والاطمئنان النفسي ، معنى هذا انه لديك من الموهبة والخبرة ما يتناسب مع عملك الذي اسند اليك .

فقلت :

- هذا شيء ينبغي ان تسأل عنه اصحاب الشأن من المسؤولين .

فقال :

هذا شيء مفروغ منه ولا يحتاج الى سؤال وذلك ان المواطن في

كنف الحكومة العادلة إما ان يكون عاجزاً فتضمن له الحكومـــة العناية والرعاية التي تقوم بأوده ـ واما أن يكون قادراً عـلى ان يعمل فتهيء له حكومة وطنه عملا يتناسب وكفاءته .
قلت :

ـ كلامك مقنع وحجتك بالغة ومنطقك وجيه .

وما أن سمع مني صاحبي هذه العبارات حتى قام بحركات تعبر عما يختلج في نفس صاحبها بأنه بلغ القمة من انتصاره الجدلي وانه استطاع ان يقيم عليّ الحجة عندما قال :

ـ ما دام الامر كذلك فإنني لا أرى ما يدعو الى اعـلان شكرك لحاكم عادل كفيصل لانه عندما آزرك نظر لمصلحة الدولة قبل ان ينظر بعين الاعتبار لمصلحتك كفرد . وهذا ما يجعلني اعتقد جازما بأنه لو لم يعلم عنك الكفاءة لما اسند اليك ادنى عمل .

وما ان انتهى صاحبي من عبارته هذه حتى اجبته على الفور فقلت :

ـ عليك ان تدرك بأنني لم أعلن شكري لفيصل من أجل ما أشرت اليه ، لا ليس من أجل ذلك فهذا شيء لا أجهل مفهومـه وكنه بأنني كمواطن من حقي أن أخدم وطني وحكومته بكل أمانة واخلاص.ومن عدل حكومتي أن لا تحرمني من هذا الحق .

إذن فيكون اعترافي بجميل فيصل ومجاهرتي بشكره شفاهياً وكتابياً، مبنيين على ما يلي :

أولاً ـ ان هناك « أولاد حلال » بذلوا كل مـا لديهم من المكيدة والدس الرخيص . بل والتزوير حتى وصلوا مرحلة جمدوا فيها مرتبتي ، ومرتبي الشهري مدة بلغت اربـع سنوات متوالية بأساليب أربأ بنفسي

عن ذكرها وذكر أسمائهم ،وكان لدي فيصل وقتها من القيام بالاسفار الى الخارج ومسئوليته بأعباء المهام الكبار ما يحول بيني وبين الاتصال به ورفع أمري اليه، اللهم إلا بفترات متقطعة ، ولكنه ما ان استقر في البلاد وتولى رئاسة الوزارة وولاية العهد حتى كان من عدله وانصافه ان مزق ستار الباطل المموه ببصيرته النافذة وأعاد إليّ اعتباري لا باعادة رتبتي فحسب بل انه أمر بصرف مرتباتي جميعها الموقوفة في خلال السنوات الاربع .

وكان بإمكانه ان يقول : ما دام ان هناك أمراً يزعم اولاد الحلال « المفترون » انه صادر من والده الملك الراحل برقم وتاريخ يشير على حد زعم المزورين بإلغاء أمر والده الاول الخاص بتعييني براتب ورتبة وينص هذا الأمر الاخير « وان لم يكن فيه لا ختم الملك رحمه الله ولا امضاؤه » ينص على إلغاء راتبي وقطع مرتبي الشهري .

أجل .. كان بإمكان فيصل ان يفعل ذلك ولكن عقله الكبير جعله يكشف الحقيقة ويزيح الستار عن تزوير المزورين ويعيد الحق الى نصابه . .

ثانياً - جاءت فترة بعد وفاة الملك الراحل يتحدد تاريخها منذ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ الى آخر ٣٧٧-واول١٩٥٨م ففي هذه الفترة بالذات راجت بضاعة الوشاة عندناورواجاً مخيفاً فأصابتني سهامهم عند«ملك البلاد في تلك الفترة» فكان من نتيجة ذلك أن أمر بتوقيف راتبي وقطع المخصص الذي كان يجري لي بأمر من والده ، الملك عبد العزيز رحمه الله ، ولئن كان ذلك المخصص ضئيلاً . ولكنه كان أكبر شيء استعنت به على فاقتي وذلك عندما حسم راتبي في الفترة الاولى السالفة الذكر – أما وقد حسم هذا المخصص والراتب معاً فانني قد بلغت من الفاقة ما الله اعلم به ، وقد ظللت فترة من الوقت لا مورد لي . وذلك في عامي ١٣٧٦ هـ و ١٣٧٧ . وكان فيصل وقتها يتعالج في امريكا – وبعد أن بلغت بي الحاجة الذروة تشفع لي عند الملك وزير المالية حينذاك

الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان لشفاعته ، جزاه الله عني خيراً ، اثرها المحسوس بشكل جعل الملك يبدل رأيه الى حد ما ، حيث أمر بصرف مرتبي . وفي الوقت ذاته أمر بأن ينقل عملي من السفارة العربية السعودية في دمشق الى المركز العام في وزارة الخارجية بجده .

وبعد فترة قصيرة أمر أن أنقل الى المفوضية السعودية في صنعاء كما أمر أن يكون حسم مخصصي ساري المفعول .

وكنت أتمنى فيما لو خيرت بين أن يبقى مخصصي على ما كان عليه يجري صرفه لي على أن أظل عند أبنائي وبين استمرار راتب الوظيفة على أن أذهب الى اليمن . أقول لو خيرت بين هذا وذاك لأخترت بقاء مخصصي على ضآلته ولم أذهب الى صنعاء حتى ولو كان راتب الوظيفة يزيد اربعة أضعاف عن المخصص ، ولكن القضية لم يؤخذ بها رأيي كما لم يقصد فيها رضائي واطمئناني .

وهكذا ذهبت الى اليمن السعيد ، وقبـــل أن أقضي فترة تستحق الذكر قبل ذلك أصابتني نوبة قلبية كادت تقضي على حياتي .

وكان من حسن الحظ أن الفيصل العادل قد استلم السلطة وذلك في آخر عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م وعلى الفور أبرق الرجل الطيب الشيخ محمد ابن عبيكان الذي كان وزيراً مفوضاً هناك برقية الى وزارة الخارجية في جدة يطلب مأذونية لي بالعودة موضحاً فيها شدة النوبة التي ألمت بي .

ولما كان المرض الذي فوجئت به خطراً للغـــاية فقد عدت الى البلاد بدون أن انتظر رد الجواب من وزارة الخارجية .

وما أن وصلت جده حتى أبرقت لفيصل برقية شرحت فيها له مـــا أصابني من المرض الخطير ، كما طلبت منه أن يسمح لي بالسفر الى اوروبا لكي أبادر الى معالجة ذلك المرض قبل أن يستفحل امره . والى القاريء صورة البرقية التي جاءت جواباً من الفيصل على برقيتي :

نمره وتاريخ

إدارة برقيات المملكة العربية السعودية

رقم التسلسل

المخرج	الموارد	النمرة	الكلمات	تاريخ عربي	تاريخ افرنجي	ساعة	دقيقة

الإشارة	الطريق	تاريخ عربي	المأمور الآخذ	المأمور المرسل	ساعة	دقيقة

جلالة الملك صح

حنا لو سرتم بأمس ويتم

لكم بالشفاء قد باس بكم

الى أوروبا أفضل

وقد كان لهذه البرقية الرقيقة في نفسي أعمق الأثر لا لما تعبر عنه من تواضع وخلق أصيل في نفسية مرسلها فحسب - بل لأنني عندما أبرقت برقيتي لفيصل كنت لا أعلم ماذا يأتيني من الجواب فتارة أتوقع أن الجواب سوف يأتيني بعبارة تحمل التأنيب على مجيئي من صنعاء بدون اذنه وطوراً يخيل اليَّ أن الجواب سوف يأتي بعبارة تشير بأن أذهب اولاً لصنعاء ثم بعد ذلك استأذن من هناك . وكنت متخذاً قراراً في خبايا نفسي بأنه إذا جاء الرد على النحو الاخير بأن استقيل من الوظيفة لا أن أعود الى صنعاء لأنني اعتقدت بأن عودتي اليها وأنا اعاني ذلك المرض الشديد . يعني اقدامي على الانتحار.

ولكن كان الجواب من الفيصل علاجاً تاماً لذلك المرض الذي اعتقد جازماً ان سببه ومسبباته حصلت من تأثير الانزعاج النفسي الذي اصابني بسبب ما ابتليت به من كيد الواشين ودسائس الدساسين .

وقد ذهبت الى المانيا متعالجاً على حساب الدولة حسب الأنظمة المرعية. وبفضل برقية الفيصل التي استندت اليها لدى الجهات المختصة ، وبعد أن قضيت في اوروبا ما يقارب الشهرين - قضيتها بين الاطباء والمستشفيات واكثر هذه المدة في المانيا ، بعد ذلك عدت حاملاً معي تقريراً طبياً من الطبيب « تشاد » وقد شخص ذلك الطبيب مرضي . وأكد عدم وجود المقاومة الصحية لدي في أي جو مرتفع كصنعاء وما ان رفعت وزارة الخارجية رأي الطبيب للفيصل حتى جاءت برقية منه تنص على ان انقل الى الجهة التي تلائم وضعي الصحي ، والبرقية تحمل هذه المعاني الرقيقة لا استطيع ان ابرز كليشه عنها كالأولى لأنها موجهة لوزارة الخارجية .

وحسب أمر الفيصل عرض عليَّ وكيل وزارة الخارجية الدائم والحالي السيد عمر السقاف عرض علي عدة ممثليات عربية ومن جملتها « ليبيا » فاخترت

ليبيا حيث ظللت فيها حتى أصابني مرض الربو الذي يتنافى والجو الرطب كتلك البلاد .

والملاحظة التي أجدني ملزماً بالاشارة اليها هي انني قبل أن أذهب الى ليبيا أشار عليّ صديقي الوفي الأخ عبدالله السعد بأن أراجع الفيصل بشأن صرف (مخصصي) مؤكداً بأن الفيصل كبر منه لوالده أمر بكل شيء يجري لأصحابه بأمر والده - ووفقاً لنصيحة الأخ السعد راجعت الفيصل بذلك فطلب مني أن اقدم له دليلا ملحوظاً يثبت أمر والده فذهبت وعدت اليه مستصحباً وثيقة تحمل رقم وتاريخ أمر والده بذلك ، فما كان من عدله من ناحية وبره بوالده من ناحية اخرى إلا أن نفذ أمر والده فأمر بصرف معظم مخصصاتي المقطوعة منذ تلك الفترة التي سعى الواشون بحسمها .كما أمر باستمرارها

بعدما أسمعت صاحبي هذه الحقائق قلت له :

- أليس بإمكان فيصل ان يقول ما دام ان الأمر بنقلي من اليمن صادر من اخيه أي الملك السابق فإنه ليس مسؤلاً عما اصابني من المرض الخطير الذي أهم ما يهم الوشاة ان يقضي هذا المرض على حياتي .

- نعم كان بإمكان فيصل ان يتركني وشأني اواجه احد الامرين : امـا ان اهرب من اليمن واهرب ايضاً من الوظيفة بـل وقد اهجر البلاد واهلها لا جفاء مني لوطني ولكن كما قال الشاعر :

لا تحسبوا بغضي الاوطان من ملل
لا بـــد للود والبغضاء من سبب

قل وذل وخذلان وضيم عـــدى
مقام مثلي على هذا من العجب

او ان ابقى في اليمن ليفتك بي المرض حتى الاقي حتفي - ولكن وجدان فيصل العامر بالعدل والمليء بالإنصاف أبى إلا ان يأخذ بيدي وينقذني من مواجهة المشكلتين السالفتي الذكر اللتين كنت على وشك ان لا انجو من الاصطدام بواحدة منها

وإذا اعدت النظر كرة اخرى في اعادة مخصصي طاب لي ايضاً ان اقول :

أليس بإمكان فيصل ان ينأى بجانبه عن اعادة مخصصي ولديه من العذر ما يجعله يقول ما دام ان الامر بقطعه صادر بمن هو اكبر مني فإنني والحالة هذه لست مسؤلا عنه .

طبعاً كان بإمكان فيصل ان يقول ذلك . ولكن انصافاً منه للحق وعلماً منه بأباطيل الوشاة ، وبراً منه بوالده ، كل ذلك جعله ينقض كلما ابرمه الواشون .

ثالثاً مرت البلاد في محنة شديدة ابتدأت منذ عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٣ أي منذ حين انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة الى مؤتمر القمة العربي الاول ففي خلال تلك الفترة العصيبة التي خير اسم ارى انه ينطبق عليها هو اسم ازمة الضمير ، في تلك الايام السيئة كثر الهرج والمرج . واختلط الحابل بالنابل وانقلبت المقاييس واصبح مقياس الاخلاص والوطنية في نظر نفر ما هو القدرة على ما تبديه العواطف من تملق وتزييف ، واصبح المرء الذي لا يساير هذه الموجة العارمة عرضة لاتهام المتهمين وهدفاً لسهام الواشين .

إذن ما هو يا ترى مصير من يخالف ذلك الخلق المنحرف بكتاباته وبأقواله وبافعاله وبسلوكه وبجميع تصرفاته بصورة صريحة وعلانية .

وإذا شئت ان اعبر للقارىء بصورة اوضح واصرح ، قلت : ما هو يا ترى مصير بل عقاب المرء الذي يعارض ذلك التيار بل ويقاومه بكل مـا أوتي من القوة . وهو في الوقت ذاته مبتلى بأعداء جهلة حقودين ووشاة مرتزقين يرون ان لا يقوم بجدهم إلا في الوقت الذي يستطيعون به ان يشككوا المسؤولين باخلاص كل مواطن أبيّ مخلص لوطنه ولحكومته حتى ولو كان هذا التشكيك لا يتم إلا على حساب اضرام نار العداوة والحقد بين المسؤولين المخلصين للوطن وللمواطنين « الذين هم جزء منهم » وبـين المواطنين الأباة الاوفيـاء لوطنهم ولحكامهم اقول حتى ولو كان الامر لا يتم إلا على هذه الطريقة فإنه لا يهم الوشاة ذلك بقدر ما يهمهم الكسب المعنوي والمـادي الذي ينالونه من وراء مساعيهم الوخيمة العاقبة على الوطن وأهله .

اجل يا اخي كيف ينجو ويسلم مواطن ككاتب هـذه الاسطر الذي يتربص به هؤلاء الواشون الدوائر ويحصون عليه زلاته ، ويحسبون عليه عثراته فإن نجا من اتهاماتهم القبلية والعنصرية . فإنه لا ينجو من اتهاماتهم الفكرية والسياسية .

وهكذا كان المفروض ان اذهب ضحية رخيصة لدس الدساسين ولافتراءآت المفترين . لولا عناية الله ثم وجود الفيصل الذي كان عقله خير شافع لحمايتي . وادراكه اعظم حصانة لوقايتي ، وفهمه اكبر عون لاطمئناني .

وبعـد فقـد تحديت صاحبي الذي عـارض رأيي في بـداية الأمر قائلًا له :

« هب نفسك بمنزلتي وافترض انك ابتليت بجميع الظروف التي ابتليت بها انا واعتبر أن الوشاة والأعداء والحاسدين تكالبوا عليك وكل من هؤلاء وأولئك ارادوا سحقك من عالم الوجود بالأسلوب نفسه الذي اتخذوه نحوي وفي الحين الذي شعرت انك على جرف هاوٍ في تلك اللحظة الحاسمة يسر

لك الله رجلاً كفيصل يتصدى لكبح كيد أولئك الدساسين ويعد نفسه لحمايتك ويذود عن كيانك بل ويضمن لك الطمأنينة ويوفر لك السعادة ، وهو في الحين ذاته ليس بحاجة الى وفدك كما انه لا يخشى ضررك - فقل لي بربك الا ترى انه من الوفاء بل الواجب الخلقي مكافأة من يقف معك مواقف كهذه . ولو لم يكن من هذه المكافأة الا اعلان الشكر الذي هو كما اسلفت بإنه ادنى مراحل المكافأة وأقل مـا يمكن للمكافىء ان يقوم به ، عندما وجهت لصاحبي المعارض هذه الجمل قلت له :

- اجبني على ذلك .

فأجابني بقوله :

- بلغني عنك انك عصبي المزاج ، وهذا مما يجعلني أتردد في اجابتك على ذلك بجملة قد تثير اعصابك فيما لو اسمعتك إياها .

قلت : قد يكون فيما بلغك عني شيء من الحقيقة ولكن التجـارب جعلت مني انساناً احتمل الشيء الذي لم يكن من خلقي احتماله خاصـة اذا كان هذا الشيء صادرا من النوع الذي لا يعتبر احتمالي له جبناً وضعفاً بقدر ما يعتبر تسامحاً وعفواً .

فقال صاحبي : اذن اسمح لي ان أقول : ما دمت معترفا لفيصل بهذا الجميل الذي تدعمه بالأدلة والوثائق . ما دام الأمر كذلك لماذا لم يأت اعلان شكرك له الا بهذا الظرف بالذات .

قلت : ان اعتراضك هذا وان يكن فيه شيء من اتهامي بالتزلف ما يثير الاعصاب حقا ، ولكن لا استطيع الا أن اقول انه اعتراض وجيـه ، ولذلك لا يسعني الا أن أجيبك على ذلك بادلة منها ما هو من صميم تاريخنا

العربي والاسلامي ، ومنها ما هو من وحي تاريخ عصرنا القريب الحديث وعليّ ان اجيبك أولاً بما استند اليه بالأدلة الناصعة من تاريخنا العربي العريق فأقول : لقد اعطانا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام درساً كافياً في اسلوب دعوته الإنسانية . وارشدنا الى الطريق السوي وجعلنا نتخذ منه قدوة في مراحل كفاحه ونضاله فنجده مثلا لم يأمره ربه باعلان ثلاثة اركان من اركان الدين الاسلامي الهامة كالزكاة والصوم والحج ، هذه القواعد التي لا يعتبر المسلم مسلماً حتى يؤمن بها نجد الرسول محمداً لم يصدع بها الا بعد مضي عشر سنوات ونيف من تاريخ رسالته ، وذلك عندما اصبح للاسلام من المناعة القدر الذي يحميه من كيد الكائدين ، فإذا كان محمد عليه السلام وهو يسير بوحي من ربه لم يعلن ثلاثة اركان الاسلام الا بعد ما اتيحت له الفرصة التي أمر باعلانها ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنبي الذي ينزل عليه الوحي من ربه ، فإنه من بدهيات الامور والحالة هذه ان لا تلومني فيما اذا وجدتني لم اعلن شكري لفيصل الا في هذه الفترة . إذ لو فعلت ذلك في الفترة التي كانت قوى الشر كلها متجهة نحوي فمعنى هذا انني اعطيت الوشاة سلاحاً يقتلونني به بكل سهولة وعندها أكون خالفت تعاليم وهدى شريعتنا الاسلامية القائمة على القاعدة القائلة «دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح » — وبعد فإن هذا جوابي الذي استمده من تاريخنا العربي والاسلامي — اما جوابي الذي استشهد به من منطق عصرنا الحديث كدليل واضح المعالم ، وهو ما استدل بـه خروتشوف كجواب منـه على سؤال احد الشباب الروسي ، وذلك في المناسبة الآتي شرحها .

عندما عقد المؤتمر الشيوعي احدى جلساته في عهد ما وأظنه اذا لم تخني الذاكرة في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، ففي ذالك المؤتمر بدأ خروتشوف يهاجم ستالين وينال منه بعنف . فقام احد الجالسين وقدم ورقة وكتب عليها الجمل الاتية — لماذا لم تهاجم ستالين في حياتـه وايام

قوته – وكانت الورقة بدون توقيـع صاحبها – او قـــد تكون بامضاء مستعار ، فقرأ الورقة خروتشوف علانية حسب الاصول المرعية في تقديم سؤال كهذا – وبعد ان أسمعها جميـع من حضر في المؤتمر – عند ذلك سأل عن الذي قدم الورقة وطلب منـه باسلوب التحـدي بان يعلن اسمـه بصورة صريحة ، ولما لم يستطع مقدم الورقة ان يتجاهر باعـلان اسمـه خوفاً من العقاب عند ذلك انحرف خروتشوف الى من في المؤتمر وقال:

ان السبب الذي منعني من ان أنقـــد ستالين في حيـاتـه هو السبب نفسه الذي منع صاحب الورقة المقدمة اليّ بهذا السؤال بأن يعلن اسمه امامي .

* * *

هذا وانني عندما أدليت بهذه الأدلة لصاحبي كجواب مني على سؤاله بعد ذلك قلت له :

– هل بقي لديك سؤال آخر توجهه اليّ أو معارضة تنقدني بها ؟ فقال : كلا – فقلت : أقنعت الآن ؟ فقال : ان حججك كلها معقولة ومنطقية وقـــد يقنع الانسان بمنطق ما عندمـــا يجده واقعياً كمنطقك هذا ثم مضى صاحبي مسترسلاً بحديثه الى ان قال : ولكن لا يفوتك الانتباه الى ان الاقناع شيء والإيمان شيء آخر .

قلت : يهمني ان اقيم عليك الحجة بالإقناع وان أفند معارضتك بالمنطق ، فإن آمنت فبها وان لم تؤمن فإنك لم تكن أول من أقيمت عليه الحجة والبرهان

فآمن بعقله ولم يؤمن بقلبه .

فابتسم صاحبي وأومأ برأسه كعلامة الاقتناع بما قلت دون ان أعلم عنه هل اضاف الى قناعته بعقله إيماناً بقلبه أم لا ؟ ثم قام صاحبي بعد ذلك من عندي مودعاً وقبل ان يفوه بكلمة الوداع قال :

يجب ان تدرك وتثق بأن ما تكتبه اليوم سيظل سجلاً تاريخياً الى الأبد ، وان ما يبدو لك ولنا اليوم من الأدلة التي اوردتها الآن وهي أدلة لا شك بأنها منطقية ومقنعة بالنسبة لمفهومنا الحالي . أو الأحرى بالنسبة للظروف الراهنة التي نعيشها سوياً . ولكنها قد لا تكون منطقية ومقنعة في مفهوم الاجيال القادمة ، وما تعتقده ونعتقده نحن معك بأن ما قد نراه اليوم بأنه حجة لك بصورة لا تقبل الجدل .. فإنه قد يكون حجة عليك في الغد ..

قال صاحبي هذه الكلمة ومد يده قائلاً كلمة الوداع ، ولكنني قبل ان ارد عليه تحيته الوداعية اجبته على كلمته الاخيرة قائلاً :

– يهمني الآن ان اسجل شيم العرب التي كان لي الشرف ان قدمت منها لناطقي الضاد حتى الآن اربعة اجزاء تضم مائة وسبعاً وخمسين قصة مختلفة باختلاف فصولها البالغة ستة عشر فصلاً من بينها الوفاء والامانة واصطناع المعروف والمكافأة عليه الخ... وليس لي غاية من وراء ذلك سوى ان يستمر الوفي في وفائه وان يمضي الامين بأمانته وان يسير صانع المعروف بمعروفه ، لكي يكون ثمة تنافس على القيام بمثل هذه القيم .

ثم مضيت بأجابتي لصاحبي فقلت :

- اما اذا جاء عهد تنقلب فيـــه المقاييس الى الحد الذي ينظر فيه الى المرء الذي يؤمن بهذه القيم نظرة ازدراء . فانني افضل ان يتهمني رجاله بما يشاءون وأن يحكموا علي بما يريدون أفضل ذلك وانا مؤمن بقيمنا العربية على أن أعيش في عهد يتنكر أهله لمثل هذه الاخـلاق العربية العريقة

قلت هذه الجمل ثم مددت يدي مصافحاً لصاحبي ومودعاً له ..

إنتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث



الفهرس

استدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية. وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فبه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن لف صفحة ونيف والشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحاب المطبعة بحكم جهلهم بعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لأنني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قراءتي لها بعيني،واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمدالجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي الذي ساعدني على تصحيح الكثير من هذا الكتاب لولا ذلك لوقع من الغلطات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .



فهد المارك

الجزء الثالث

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتباتها
دمشق

و

المكتبة الدولية
الرياض

الطبعة الرابعة
١٤٠٨ ب. هـ.ن - ١٩٨٨ ب.م.م

منشورات

مؤسّسة الخافقين ومكتباتها
لصاحبها
محمّد مفيد بن عزة الحجيمي
الجمهورية العربية السورية
دمشق - ساحة النجمة - هاتف ١١٥٣٧٦

المكتبة الدوليّة
المملكة العربيّة السعودية - الرياض
العليا - شارع الثمانين - مجمّع الخليج التجاري
هاتف: ٤٦٤١٨٥١ - ص.ب ٢٢٣٤٨

الفَصْلُ الأول

الشَجَاعَة الحَربيَّة

أتدعو جواداً من يجود بماله ومن جاد بالنفس الكريمة اجود



رائد المجاهدين وشيخ الشهداء

- ١ -

اذا كانت الشجاعة من حيث هي وأنى كانت صفة من الصفات المحمودة التي تفرض الاحترام لصاحبها ، فان الشجاعة في سبيل الله ثم في سبيل الوطن سوف ينال صاحبها خلود الذكر الابدي العاطر في هذه الدنيا وشرف الشهادة في دار البقاء .

ولئن كان هذا الفصل بالذات خاصاً بشجاعة الحروب بالمفهوم العام ، سواء ما كان منهـــا في سبيل مجد القبيلة او ما كان في سبيل المجد الفردي فان بطل هذه القصة بالدرجة الاولى وبطلي القصتين اللتين بعدها يمتازون بـــلا شك على غيرهم من حيث سمو الهدف ونبل القصة وشرف الغاية .

ومما لا شك فيه باننا كعرب بعد كارثة فلسطين ، نزلت اسهمنا بين شعوب العالم ، ولم يسبق لنا من مجد تاريخي ما عدا ما نجتره من مجد اسلافنا الغابرين ، حتى اصبح المرء منا يخجل من ان يقول عن نفسه بأني عربي ، الى ان جاءت ثورة الجزائريين ، الذين بيضوا وجه امة العرب واعادوا لنا الثقة بانفسنا من جديد بوقوفهم امام حلف الاطلسي باسلحته الحديثة وبقهرهم لدول الاستعمار الذين تكالبوا عليهم وفي طليعتهم دولة فرنسا التي عرفت بانهـــا من اشد دول الاستعمار غطرسة وكبرياء ولكنهـــا بالتالي حنت رأسهـــا ذليلة مهـــانة امام شجاعة اخواننا الجزائريين ، الذين سجلوا تاريخ بطولتهم بمداد من المجد الخـــالد ..

ولئن كانت الجماهير العربية لا تذكر ما تفخر به خاصة في القرن العشرين سوى كفاح ونضال ابناء عمنا الجزائريين ، وتنسى ما قام به اخواننا الليبيون من بطولات خارقة ، فان التاريخ لا ينسى كفاح اولئك الابطال الاشاوس ..

وعندما ننظر الى البطولة التي قام بها الجزائريون بعين ملؤها التقدير والاعجاب ، ومن ثم نرجع البصر كرة اخرى الى البطولة التي ابداها الليبيون امام قوى الشر والطغيان والظلم الطلياني ، عند ذلك لا يسعنا الا ان ننظر لهؤلاء نظرة الاعجاب والتقدير نفسها التي ننظر بها اولئك .

اما ان يكون النصر حالف الجزائريين بنسبة اكثر واسرع مما حالف به الليبيين ، فهذا امر يعود الى عامل الزمان الذي بقدر ما كان مساعدا بجانب الجزائريين كان معاكساً لليبيين .

فالفرق بين الجانبين يأتي كما يلي :

اولا — بينما كانت قيادة الجزائريين موحدة ، كانت قيادة الليبيين مبعثرة ، — فالمجاهدون الذين في ولاية طرابلس الغرب ، قيادتهم منفصلة عن المجاهدين الذين في برقة ، بل واكثر من ذلك مجاهدوا ولاية طرابلس أنفسهم لم تكن قيادتهم موحدة ، بل كان الشقاق بين القادة بالغاً اوجه وهم في ساحة الحرب .

ومما لا شك فيه انه لو اتحد الطرابلسيون والفزانيون والبرقاويون تحت قيادة موحدة كما هي الحال باتحاد قيادة الجزائريين لما استطاع المستعمرون الطليانيون ان يستولوا على شبر من ارضهم .

ثانياً — بينما كانت الحرب الجزائرية الفرنسية في الحين الذي كانت الدول

العربية وشعوبها اكثرها او كلها تمد الجزائريين بالسلاح وبالمال .. ولو طلب الجزائريون رجالا متطوعين من اخوانهم العرب لوجدوا كثيراً من يشاركهم ، الا ان الجزائريين انفسهم كانوا لا يطلبون من اخوانهم الا السلاح والمال اللذين كانا يتدفقان عليهم من اخوانهم كواجب مقدس ..

بينما كان الليبيون محرومين من ذلك لاسباب كثيرة وفي مقدمتها او يكاد ان يكون السبب الرئيسي هو انه لم يكن هناك دول عربيه مستقلة عندما اندلعت نار الحرب بين المستعمرين الطليانيين وبين المجاهدين الليبيين في اواخر شهر سبتمبر ١٩١١ بل كانت البلاد العربية مشتتة فمنها ما هو تحت الاستعمار الفرنسي كالمغرب العربي وتونس والجزائر .. هذا بالنسبة للبلاد العربية المجاورة والقريبة لليبيا .. اما البلاد الاخرى كسورية ولبنان والاردن وفلسطين والعراق فهذه البلاد كانت في بداية الحرب الليبية الطليانية تحت الحكم التركي وحتى ليبيا كانت تحت الحكم التركي ، وقد حاولت تركيا ان تدافع عن البلاد التي في حوزتها محاولة يائسة حيث تولى القيام بالعمليات الحربية انور باشا الذي كان نائباً للقائد العام للجيش التركي في الحرب العالمية الاولى . وكان في معيته مصطفى كمال (اتاتورك) وعزيز بك المصري ، ولما كانت الحكومة التركية في ذلك العهد تلفظ آخر انفاسها ومشغولة في التيارات الداخلية المتضاربة وفي الحروب البلقانية فانه من بدهيات الامور ان تزيح عن نفسها عبء المسؤولية في الحرب الليبية الطليانية وذلك بموجب المعاهدة التركية الطليانية الكائنة في اوشي (لوزان) في ١٨ اكتوبر ١٩١٢ وتنص تلك المعاهدة على ايقاف الحرب بين الدولتين ، وان تتعهد الحكومة التركية بأن تسحب ضباطها وجنودها بل وحتى موظفيها المدنيين من ليبيا ، او ما يسمى ذلك الوقت بطرابلس الغرب .

ومن الواضح ان هذه المعاهدة على حساب الشعب الليبي وتعني بعبارة اوضح تسليم ليبيا للطليان ، وبموجب هذه المعاهدة المشؤومة رحل الجيش التركي عن

البلاد بقيادة انور باشا وقبل ان يغادر القائد انور البلاد ، ذهب الى السيد احمد الشريف السنوسي ليبلغه ان الخليفة منح ليبيا استقلالها الكامل على ان يدافع رجالها عن وطنهم وانـــه اي السيد الشريف هو الحاكم الشرعي للبلاد (بحكم ان الملك ادريس الحالي كان حديث سن وقتها) ، وواضح ان هـــذا الامر يحمل في طيه ظاهرتين مزدوجتين : فهو من حيث الظاهر المجازي منح ليبيا استقلالها على رأي (خليفة رب العالمين) ولكنه من حيث الواقع العملي هزيمة شنعاء وجبن صريح من الاتراك عن ملاقاة العدو ، ولكن هذا الاستسلام والتخاذل والجبن من الحكومة التركية ، هل فت في عضد المجاهدين البواسل الليبيين ؟ .. ام انهم اندفعوا اكثر بعزيمة صادقة ونضال الابطال الاشاوس امام جيش الطليان الذي يفوقهم عدداً وعدة ، ويفوقونه شجاعة وصبراً وجلداً وتضحية وايماناً .

عندما ذهب القائد التركي انور باشا الى استنبول، وولى السيد احمد السنوسي القيادة العسكرية في الناحية الشرقية لعزيز بك المصري ، واما الناحية الغربية فقد كان يتولى قيادة المجاهدين رجال من أهل البلاد انفسهم .

اذا كانت الجماهير تنسى فان التاريخ لا ينسى

وفي ١٦ مايو ١٩١٣ حشد الطليانيون اكبر قوة عندهم ليضربوا بها المجاهدين لكي يحتلوا الجبل الاخضر ولكن المجاهدين الابطال صدوا هجومهم وهزموهم هزيمة شنعاء .

وعندما شعر الطليان بان كثرة عددهم وضخامة معداتهم الحربية تحطمتا امام شجاعة ابطال ليبيا ، عند ذلك راحت حكومة ايطاليا تبذل مساعيها السياسية من جانبين : جانب الحكومة التركية لتضغط عليها من اجل ان تسحب عزيز المصري وما تبقى لها من جنود ومعدات .. ومن الجانب الآخر

راحت تسعى نحو الحكومة المصرية التي تعتبر وقتذاك حكومة انجليزية ، لـكي تمنع اي امداد يأتي الى المجاهدين ، وقد كللت مساعيها بالنجاح ، عند كلتا الحكومتين ، فاما من خصوص الحكومة التركية فقد اصدرت امرها الى عزيز المصري لا ان ينسحب من الجبهة بمفرده فحسب ، بل لينسحب بكامل معداته الحربية وما تبقى من الجنود الاتراك ، وقد نفذ المصري الامر بحـذافيره ، وعندما بلغ السيد احمد الشريف السنوسي الخبر بأن عزيز المصري اعد العدة وذهب بجنوده ومعداته الى السلوم لـكي يركب في الباخرة بحراً الى الأستانة ، انتدب السنوسي شيخ الشهداء عمر المختار بأن يلحق به ليأخذ منه المعدات التي هم بأمس الحاجة اليها ، ولكن المصري امتنع عن ان يسلمها للمجاهدين ، بحجة ان تسليم الاسلحة التي مع جنوده الى المجاهدين الليبيين لا يتفق مع الاصول الحربية التي تقضي بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا بـأن لا يسلم الجيش العثماني اسلحته الى اعداء ايطاليا ، ومن ناحية اخرى يرى انه ينفذ الاوامر التي وصلت اليه من حكومة (الاستانة) .(١)

هذه نتيجة مساعي الطليان تجاه حكومة تركيا ، اما مساعيهم تجاه حكومة الانجليز فقد نجحت ايضاً نجاحاً ملحوظاً بصورة جعلت حكومة مصر او على الاصح المعتمد البريطاني (اللورد كتشنر) يتخذ اجراءات صارمة من شأنها منع جميع من اراد ان يتطوع من الضباط او الجنود المصريين بجـانب المجاهدين الليبيين ، كما اتخذ اجراءات مماثلة نحو رؤوساء القبائل المصرية المتاخمة للحدود الليبية ، وفي الوقت نفسه بدل المأمورين المصريين الذين عـلى رأس الحدود المصرية الليبية بمأمورين انجليز ، ومهمة هؤلاء الانجليز هي منع اية قافلة

---

(١) . هذه الجملة نقلتها برمتها عن الكتاب الذي بعنوان (عمر المختـار ضحية الاستعمار الوحشي) . ص ٥٤ لمؤلفه الاستاذ محمود شلبي .

ذاهبة من والى مصر وليبيا ..

هذه هي حالة المجاهدين الليبيين - مقاطعين من جميع العالم مقاطعة اقتصادية واجتماعية وحربية ، بكل معنى من معاني المقاطعة ، والدولة التي كانت تحكمهم تخلت عنهم ، وقائد عملياتهم سافر بجنوده ومعداته ..

يضاف الى ذلك الوباء والمجاعة اللذان حلا بالبلاد . في عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، حتى بلغ الامر الحد الذي لايمكن ان يتصوره العقل او يطيقه احتمال الانسان ..

هذهْ الظروف الشديدة القاسية التي عاشها الليبيون عندما نتدبرها بامعان نجدها تختلف من حيث الزمان والمكان عن الظروف التي عاشها الجزائريون ، وتختلف ايضاً حتى بنسبة الاعمال الوحشية والقتل والابادة ، لا شك بأن الفرنسيين وحوش وقتلة ، ولكن الطليان اكثر وحشية واحقر وانذل من الفرنسيين ، فاذا كان الفرنسيون قتلوا مليونا من مجموع الجزائريين الذين يبلغ عددهم احد عشر مليوناً فان الطليان قتلوا من الليبيين ما يقارب ستمائة الف نسمة ، ومعناه انه اذا كان الفرنسيون ابادوا عشر الجزائريين ، فان الطليان ابادوا - ما يقارب ربع الليبيين ..

ولكن رغم هذا كله ، لم تلن لليبيين قناة ، بل ظلوا يتحدون قوة ايطاليا ، بكل ما اوتوا من قدرة معتمدين على قوة ايمانهم بالله وبأنفسهم ، وعندما تخلى نور باشا عن القيادة وهرب من المعركة بالسلاح عند ذلك تولى قيادة المجاهدين في برقة :

الشهيد الخالد حقاً

بطل الابطال وسيد شهداء قرننا الحالي ورائد المجاهدين العرب في القرن

العشرين ، عمر المختار الذي قدم لأمته اروع امثلة البطولة بكفاحه ونضاله الذي بدأه من عام ١٩١١ الى ان لقي ربه عام ١٩٣١ ، عشرون عاما وعمر المختار حاملا سلاحه مقاتلا ومناضلا بحافز من عقيدته الروحية وفي سبيل وطنه ومن اجل الحرية التي استشهد في سبيلها ، عرض عليه المستعمرون المال فركله برجله، واغروه بالجاه فنأى بجانبه عنه ، وخير بين رغد العيش الهنيء وراحة البدن وحياة الترف ، وبين عناء الكفاح الشاق وميتة الابطال الشهداء ، فاختار الاخيرة كما شهد له بذلك امير الشعراء احمد شوقي :

خيرت فاخترت المبيت على الطوى   لم تبن جاهاً او تلم ثراء

ان البطولة ان تموت من الظما   ليس البطولة ان تعب الماء

واعظم شيء يؤسفني هو اننا نجد كثيراً من جيلنا العربي لا يعرف حياة ابطال امته العربية كخالد بن الوليد وكعبد الله بن الزبير وكصاحب الترجمة بقدر ما يعرفه عن نابليون وامثاله من القادة الاجانب ، ولو طلبت منه مثلا ان يقارن بين شجاعة وبطولة كل من ابن الزبير وعمر المختار ، فالاول كان في العقد الثامن من عمره عندما حاصره الحجاج في مكة وتخلى عنه جميع اعوانه وظل يقاتل بمفرده دون ان يستسلم او تخور عزيمته الى ان قتل في ميدان الشرف وما يقال عن ابن الزبير يقال عن عمر المختار الذي هو الآخر في نهاية العقد الثامن ومع ذلك ظل يقاتل بعدد محدود من رفاقه البواسل الذين ينقص عددهم يومياً حتى كانت النهاية الابادة ، ومع هذا كله ظل يقاتل دولة ايطاليا الاستعمارية بجيشها اللجب وبطائراتها ومصفحاتها وكامل معداتها وامداداتها التي لا تنقطع ، يضاف الى ذلك بأنه محاصر من شتى الجهات ومضروب عليه في صحرائه سياجاً من الاسلاك الحديدية، لا يتصل بأحد ولا يتصل به احد .. فراشه الارض الجبلية ، وغطاؤه السماء وقوته الشيء الذي يفترسه من ايدي اعدائه ، كما لم يملك من السلاح الا ما يغنمه من ايدي الغزاة المعتدين ، ومع

ذلك نجد عمر المختار ورفاقه الابطال ظل يقاتل بدون ان تلين له قناة او تخور له عزيمة او يتسلل الى قلبه الطاهر الالمعي يأس او يخطر بباله اي نوع من انواع القنوط ، بل ظل يناضل الى آخر نقطة من دمه ..

اقول : .. لو قلت لبعض شباب العرب الذين خدعتهم الدعاية الاستعمارية : قارنوا بين نابليون الاول الذي يعتبره الفرنسيون بطل فرنسا الفذ كما يعتبره الاوربيون مفخرة من مفاخر اوروبا باسرها ، قارنوا أيها الشباب المخدوع بين نابليون الذي بمجرد ما هزم في معركة واترلوا في عام ١٨١٥ استسلم بدون قيد ولا شرط ، - استسلاماً مفعماً بالجبن ومليئاً بالخنوع والذلة طمعاً بالحياة الفانية ، تلك الحياة التي عاشها في منفاه في جزيرة (سانت هيلانه) في جنوب المحيط الاطلسي ذليلا مهانا ، على الرغم من ان نابليون عندما خارت عزيمته واستسلم كان لا يزال شابا ومن عادة الشاب ان يكون دافق الحماس اشم الانف قارنوا بين خنوعه كشاب واستكانته كرئيس دولة عظمى ، واستسلامه كقائد عسكري دون ان يحتفظ بشرفه العسكري بشرط يصون كرامته العسكرية ، وبين اباء وعناد وشمم وجلد وعزة نفس كل من ابن الزبير الذي كان في سن الثمانين وعمر المختار الذي وصفه احمد شوقي برثائه له بأنه في سن التسعين :

تسعون لو ركبت مناكب شاهق   لترجلت هضباته اعياء

اجل قارن بين بطولة وشمم هذين القائدين ، وبين جبن واستسلام نابليون ، واذا انتهينا من المقارنة بين هؤلاء كأفراد ، ينبغي لنا ان نعود ونقارن بين فرنسا كشعب عندما هاجمها الجيش النازي وحينما خنعت واستسلمت له وهي بكامل جيشها العرمرم ومعداتها الحربية الثقيلة من طائرات ومصفحات ودبابات ومن وراء ذلك كله خط (ماجينو) الحصن المنيع ، اضف الى ذلك بأنها لم تحارب منفردة بل يقف بجانبها بريطانيا العظمى التي كانت تعتبر الدولة الاولى وقتذاك

ومع هذا كله ماستطاعت ان تثبت امامعدوها الا اياماً لا تتجاوز المدة التي عقد فيها شروط الاستسلام بينها وبين قادة الجيش النازي الفاتح ..

أعيد العبارة مرة ثانية وثالثة فأقول : قارنوا بـين جيش فرنسا الذي يعد بالملايين كيف انهارت تلك الدولة وخارت عزائم قادتها ، وقارنوا بين صلابة وقوة الشعب الجزائري العربي الذي تصدى لحرب جيش فرنسا ومن ورائه جيوش حلف الاطلسي الجبار الذي اعـد لمحاربة روسيا ، وبالتالي هزمه الجزائريون الابطال ، ثم ارجعوا البصر كرة اخرى وقارنو ايضاً بـين شقيقه وسلفه الشعب الليبي الذي ظل حاملا السلاح مدة تزيد على عشرين عاماً امـام الجيش الطلياني الذي ما استطاع ان يثبت بالحرب العالمية الثانية بجانب حليفته المانيا في الساعة الحرجة التي يفرضها الشرف العسكري كحليف ان يقف بجانب حليفه الى آخر رمق ..

فهل لكم ايها الفخورون بمجد اعدائكم والزاهدون بمجد اسلافكم ان تقارنوا بين بطولة وجد ومثابرة اولئـك العرب الاشاوس الذين مضوا في كفاحهم سنين طويلة الى أن اخذوا استقلالهم بالسيف ، وبين جبن وهلع وخنوع كل من الفرنسيين والطليان .!؟

اجل اننا عندما نقارن بين الجانبين سواء من الناحية الجماعية او من الناحية الفردية ، فاننا سوف نعرف بلا شك ان الدعاية الاجنبية المسعورة لعبت دورها الخطير لا بتشويه الحقيقة عند الاجانب انفسهم ، بل وعنـد بعض من جيلنا الحديث الذين خدعهم المستعمرون وبهرتهم مظاهر الحضارة الغربية حتى بلـغ الامر بهم ان استحسنوا كل قبيـح من الاجانب واستقبحوا كل حسن وجميل لامتهم العربية ..

انني اعتقد جازماً بأن العربي الذي يسخر ويهزأ بمجد وتراث وشيم وبطولات

امته العربية ويفخر بمجد اعدائه ليس جاهلا لتاريخ أمته وعاقاً لها فحسب ،بل خائناً لاهله ولأمته ، والمسؤولية بهذا الصدد تقع على رجـال الفكر والخطباء وحملة الاقلام من صحفيين ومؤلفين ، وعلى مناهج التدريس ، كل هؤلاء مسؤولون عن تنوير الجيل وتصحيح مفاهيمه ..

وفي سيرة عمر المختار وكفاحه ما هو جدير بأن يفخر به كل عربي وان يتخذ الجيل من نضاله قدوة صالحة يهتدي بها المناضلون ونموذجا رفيعا يقتدي به المكافحون ..

حينما يكون الاسد في قبضة الثعالب

واذا شاءت الامة العربية ان تفخر برجالها الافذاذ فان عمر المختار سيكون في طليعة الابطال الذين ستفخر بهم امتهم ..

لقد ظل المختار يقارع جيوش الطغاة الطليان كما اسلفنا عشرين عاماً ونيفا ، اي منذ اطلق الاسطول الايطالي قذائفه على الموانيء الليبية في سنة ١٩١١الىأن لقي ربه شهيداً خالداً .

والذي اطلع على ما ذكرهالاستاذ محمداسد(١) في كتابه (الطريق الىمكة) عندما غامر اسد وتسلل حتى وصل المختار ، يبدو له الامر واضحاً بأن الرجل كان مصمماً على ان لا يتخلى عن كفاحه للغزاة المعتدين على بلاده حتى يدفن بها شهيداً قرير العين ..

وقد تم للمختار ما يتمناه ، وذلك عندما اراد الله ان يختم له بالشهادة ..

كان ذلك في يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١ عندما سقط الاسد الجريح بيد الثعالب واليك تفصيل الحادثة نقلا عن الاستاذ محمود شلبي في كتابه (عمر المختـــار) يقول : ان المختار كان قد جرى على عادة الانتقال في كل سنة من مركز اقامته

(١) – هو الكاتب النمساوي الهروانير الذي اسلم وعاش حياته في الحجاز ثم ارتحل الى سويسرا بسبب الشيخوخة

الى المراكز الاخرى التي يقيم فيها اخوانه المجاهدون ليتفقد احوالهم ، وكان اذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارىء ويأخذ معه قوة كافية لمواجهة العدو الذي يتربص به ! لدوائر في كل زمان ومكان ، ولما اراد الله ان يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة كعادته في نفر لا يتجاوز عددهم مائة فارس ، ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين وذهب بأربعين ..

ويوجد في الجبل الاخضر واد اسمه (الجريب) وهو صعب المسالك كثير الغابات وكان لابد له من اجتيازه ، فمر به السيد عمر المختار ومن معه وباتوا فيه ليلتين ، وعلمت بهذا ايطاليا بواسطة جواسيسها المنتشرين في كل مكان فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات بعد ان جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة ، فما شعر عمر المختار ومن معه الاوهم في وسط العدو ورأى انه لا خلاص له من هذا المأزق الا بالهجوم ، فأمر من معه بالهجوم على من يقربهم من العدو في الجهة القبلية ، ودامت المعركة بينهما يومين كاملين ، وعلى الرغم من الاحتياطات الشديدة التي اتخذها العدو وعلى الرغم من كثرة عدده وعدته تمكن المختار ومن بقي معه من خرق صفوف العدو الى ان خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا الى غربي (سلطنة) ..

وبعد ذلك فاجأتهم قوة طليانية أخرى غير القوة الاولى التي حاصرتهم في الوادي ، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاد ، فاضطروا الى مقاومتها في معركة جديدة اعنف من الاولى فقاتل المختار ورفاقه حتى قتل جواده وسقط تحته واصيبت يده بجراح وقاتل دونه رفاقه الابطال حتى ابيدوا جميعاً الواحد تلو الآخر، وبالرغم من ذلك استطاع المختار ان يتخلص من تحت جواده ويقاتل الظالمين الذين احاطوا به من كل جانب، ولكنهم لم يستطيعوا ان يدنوا منه حتى نفدت ذخيرته ..

وهكذا تم للثعالب ان تأسر الاسد الجريح ..

شجاعته وهو أسير وجريح مكبل بالاصفاد كشجاعته وهو حر طليق

عندما جيء به الى الحاكم الطلياني قال المختار :

(ان وقوعي في الاسر لا يضعف من حدة المقاومة لانني قد اتخذت تدابير مسبقة شأنها ان تكفل انتقال القيادة من بعدي الى رجال غيري .. ثم قال :

ان القبض عليّ اسيرا بيديكم ، ان ذلك تنفيذ لارادة المولى عز وجل وهو سبحانه وتعالى يتولى امري ، ثم ختم حديثه بقوله ، واما انتم فلكم الآن وقد اخذتموني ان تفعلوا ما تشاؤون وليكن معلوماً انني ما كنت في يوم من الأيام لاسلم لكم طوعاً ..

من الذي يتولى محاكمة المختار ؟ ..

كان الذي يتولىالبت في أمر عمر المختار طليانيسافلحقير يدعى (جرازياني) الذي كان وقتها حاكما على برقة ونائباً للمرشال (بادوليو) الحاكم العام لكل من برقة وطرابلس ..

ما اصعبه من امتحان عندما يقف بطل شهم مكبل بالسلاسل والاصفاد امام نذل حقير معدوم المروءة كهذا الطلياني القذر ، وقد دار بين الاسد المكبل والثعلب النجس الحوار الآتي :

الثعلب : — لماذا حاربت الحكومة الايطالية هذه الحرب الشديدة ..

الاسد : — لان ديني يأمرني بذلك ...

الثعلب : — هل كان لديك اي امل في انك سوف تستطيع اخراجنا من

البلاد بهذا العدد القليل من الرجال الذين يناضلون معك وتلك المعـدات القليلة التي تملكها ؟ ..

الاسد : – كنت مجاهداً وكفى ، أما ما ينجم من هذا الجهاد فالأمر فيه موكل الى الله وحده ..

الثعلب : – ولكني اعلم ان كتابك يفرض عليك جهاد الكفـار اذا كان هناك امل فى النجاح والنصر فقط حتى لا يضر الاهلون او يلحق بهم الاذى .. هل يقول القرآن الكريم بذلك حقاً ..

الاسد : – نعم ..

الثعلب : – لماذا اذن حاربت ؟ .

الاسد : – لان ديني يأمرني بذلك ..

الثعلب : – هل امرت فعلا بقتل الطيارين اوبر بابيتي ..

الاسد : – نعم فان الرئيس وحده الذي يتحمل جميع المسؤوليات والحرب هي الحرب .

الثعلب : – كم من الوقت يمكنك بما لك من نفوذ وصولة ان تخضع الثوار في الجبل ..

الاسد : – ابداً ابداً .. انني كأسير لا استطيع ان افعل شيئاً وحتى لو اطلقتم سراحي لن افعل .. وذلك لاننا اقسمنا جميعا ان نموت واحداً بعد واحد ولا نستسلم بتاتاً .ومن المعروف انني لم اسلم نفسي اليكم ..

الثعلب : ماذا تقول لو ان الحكومة الايطالية رأفة منها بك سمحت لك بأن تعيش ؟ .. هل انت على استعداد لان تعد بأنك ستمضي ما بقي لك من ايامك في سلام ؟؟

الاسد : — لن اتوقف عن قتالك وقومك حتى تغادروا بلادي او افارق حياتي .. واقسم لك بالله الذي يعلم ما في القلوب انه لو لم تكن يداي مغلولتين في هـــذه اللحظة بالذات ، اذن لقـــاتلتك بيدي العزلاء انا الشيـخ المحطم العجوز ..

الثعلب : - لا شك انك كنت طوال حياتك رجلا شجاعاً واني لارجو ان تظل شجاعاً مهما حدث لك او نزل بك ..

الاسد : — ان شاء الله ..

ويقول الرواة نقلا عن الثعلب بل الفار القذر الطلياني : ان البطل عمر المختار فهم من تلك العبارة وفي تلك اللحظة مصيره المحتوم ..

* * *

من المعلوم ان هذا الحوار الذي جرى بين البطل عمر المختار وبين الطلياني لم ينقل الينا الا من جانب واحد وهو الجانب الطلياني الخبيث ، ولذلك ليس مستبعداً ان يكون هذا الكلام محرفاً ، وان لا يوضع فيه الا ما كان ملائمـــاً لاهواء الخبثاء ، ولكن الشيء الذي يعترف به الحقير «جرازياني» نفسه هو انه عرض على الشهيد الفارس عمر المختار عفواً شاملا لقاء ان يكتب المختار بتوقيعه نداً للمجاهدين يدعوهم فيه الى الكف عن القتال والمقاومة ويطلب اليهـــم ان

يسلموا انفسهم واسلحتهم لحكومة الاستعمار الطليانية الطاغية ، ولكن المختار رفض ذلك لاسباب اوضحها الجرازياني بذاته وهي ان المختار قال : ان مثل هذا العمل لا يرضى عنه ضميره ولا دينه ..

وهكذا خير المختار بين الموت شهيداً ، او الحياة مع الذل والاستكانة ، فاختار الاولى على الثانية .

اليتم والفقر عاملان رئيسيان من عوامل النجابة

يحدثنا التاريخ بكل امانة وصدق بأن جميع العظماء البارزين اما ايتام واما فقراء ومن النادر جدا ان يبرز بالنجاة ابناء الاثرياء والاسر الغنية الموسرة ، ونحن كآباء نحرص بدافع الغريزة الابوية ان يعيش ابناؤنا في كنفنا عيش الهناء والرخاء ، ونخشى كثيراً ان نرى ابناء اصدقائنا ايتاما ، ولا تتحمل عاطفتنا قطعيا ان يعيش ابناؤنا ايتاما بل قد لا يحب الانسان الحياة الا من اجل ان يتولى تربية ابنائه .. وكل منا يخيل اليه انه اذا توفي وترك من خلفه اطفالا بدون ان يخلف لهم ما لا يقوم بأودهم فانه سوف ينالهم من العناء والتشريد الشيء الكثير .. وهذا المنطق قد يكون فيه شيء من بعض الحقيقة ولكنه ليس بالحقيقة كلها ، بل قد يكون شعور الصبي باليتم هو الحافز له الى النجابة والنبوغ والاعتماد على النفس ، واذكر انني قرأت عن حياة ونشأة محمد علي باشا الخديوي ، انه عندما حضرت والده المنية ، كان يقول : (انني لست مهتماً الا بابني هذا الطفل الصغير - يشير الى محمد علي الذي ملك مصر وملكها لابنائه واحفاده واحفاد احفاده حقبة من الزمن) ..

بينما الملك فؤاد ووالد الملك فاروق يرى انه خلف لابنه ملكاً عظيما ولكن شتان بين فاروق الملك ابن الملك الخ .. وبين محمد علي ابن الصعلوك الذي نال مرتبته تلك من الجندية حتى انه عاش عمراً طويلا وهو لا يعرف

حروف الهجاء ..

وبطل قصتنا هذه عمر المختار واحد من اولئك الرجال الافذاذ الذين **عاشوا** ايتاما وعركهم الدهر ، وصهرتهم التجارب وتلقنوا دروسا من صميم الحياة العملية وطبقوها في سلوكهم وسيرتهم حتى اصبحت حياتهم درسا للاجيال كما اصبح موتهم شرفا رفيعا يضيفه كاتب تاريخ العرب وشيمهم الى سفره الخالد ويترنم برثائهم وتمجيدهم شاعر كأحمد شوقي وخليل مطران اللذين بقدر ما اجادا برثائهما للفارس المختار بقدر ما ارتفعت اسهم شوقي ومطران عند ناطقي الضاد بانشودتهما الخالدتين ..

واليك قصيدة امير الشعراء احمد شوقي وتليها مرثية شاعر القطرين خليل مطران ..

ركزوا رفاتك في الرمال لواء — يستنهض الوادي صباح مساء

يا ويحهم نصبوا منارا من دم — توحي الى جيد الغد البغضاء

ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد — بين الشعوب مودة واخاء ؟

جرح يصيح على المدى وضحية — تتلمس الحرية ! الحمراء

يا ايها السيف المجرد بالفلا — يكسو السيوف على الزمان مضاء

تلك الصحارى غمد كل مهند — ابلى فأحسن في العدو بلاء

وقبور موتى من شباب امية — وكهولهم لم يبرحوا احياء

لو لاذ بالجوزاء منهم معقل — دخلوا على ابراجها الجوزاء

فتحوا الشمال سهوله وجباله — وتوغلوا فاستعمروا الخضراء

وبنوا حضارتهم فطاول ركنها — دار السلام [١] وجلق الشماء[٢]

خيرت فاخترت المبيت على الطوى — لم تبن جاها او تلم ثراء

ان البطولة ان تموت من الظما — ليس البطولة ان تعب الماء

افريقيا مهد الاسود ولحدها — ضجت عليك اراجلا ونساء

(١) داز السلام هي بغداد .

(٢) جلق هي دمشق .

والمسلمون على اختلاف ديارهم لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم يبكون زيد الخيل والفلحاء[1]

* * *

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وسد الصحراء
لم تبق منه رحى الوقائع اعظما تبلى ولم تبق الرماح دماء
كرفات نسر او بقية ضيغم باتا وراء السافيات هباء
بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك)[2] ولم يك يركب الاجواء
لكن اخو خيل حمى صهواتها وادار من اعرافها الهيجاء
لبى قضاء الارض امس بمهجة لم تخش الا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه سقراط جر الى القضاء رداء
شيخ تمالك سنه لم ينفجر كالطفل من خوف العقاب بكاء
وأخو امور عاش في سرائها فتغيرت فتوقع الضراء
الأسد تزأر في الحديد ولن ترى في السجن ضرغاماً بكى استخذاء
واتى الاسير يجر ثقل حديده اسد يجرر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم ينؤ ومشت بهيكله السنون فناء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق لترجلت هضباته اعياء
خفت على القاضي، وفات نصيبها من رفق جند قادة نبلاء

---

(١) الفلحاء لقب عنترة العبسي .

(٢) التنك : الدبابة

والسن تعطف كل قلب مهذب عرف الجنود وادرك الآباء

* * *

دفعوا الى الجلاد اغلب ما جدا يأسو الجراح ويطلق الاسراء
ويشاطر الاقران ذخر سلاحه ويصف حول خوانه الاعداء
وتخيروا الحبل المهين منية لليث يلفظ حوله الحوباء
حرموا الممات على الصوارم والقنا من كان يعطي الطعنة النجلاء
إني رأيت يد الحضارة اولعت بالحق هدما تارة وبناء
شرعت حقوق الناس في اوطانهم الا اباة الضيم والضعفاء
يا ايها الشعب القريب اسامع فاصوغ في عمر الشهيد رثاء
ام الجمت فاك الخطوب وحرمت اذنيك حين تخاطب الاصغاء
ذهب الزعيم وانت باق خالد فانقد رجالك واختر الزعماء
وأرح شيوخك من تكاليف الوغى واحمل على فتيانك الاعباء

مرثية شاعر القطرين خليل مطران

ابيت، والسيف يعلو الرأس، تسليما وجدت بالروح جود الحر ان ضيما
تذكر العرب، والاحداث منسية ما كان، اذ ملكوا الدنيا، لهم خيما
لله يا عمر المختار حكمته في ان تلاقي ما لاقيت مظلوما
ان يقتلوك فما ان عجلوا أجلا قد كان، مذ كنت، مقدوراً او محتوماً
هل يملك الحيّ، لو دانت له أمم لأمر ربك تأخيرا وتقديما
لكنها عظة للشرق اوسعها مصابه بك في الاخلاد تجسيما
لعله مستفيق بعد هجعته او مستقيل من الخسف الذي سيما
اجدر برزئك لم تحذر عواقبه ان يفجع العرب تخصيصاً وتعميما
وان يؤجج نارا من حميتهم وان يرد فرند الصبر مثلو ما

هيهات نوفيك ، والأقوال عدتنا حقا ونوفي الصناديد المقاحيما
من الألى صبروا الصبر الجميل وقد ذاقوا الكريهين : تقتيلا وتكليما
لعل اشقاهم الباقي على أسف وعلّ اروحهم من قسر مرحوما
قد أثموكم وكم من مثلة نزلت بالابرياء وبالابرار تأثيما
وانما ذنبكم ذنب الألى جعلوا صدق الهوى للحمى ديناً وتعليما
امضوا رفاقاً كراماً حسبكم عوضاً فخر عزيز على الخطاب ان ريما
قد سرتم في سبيل الخير سيرتكم محققين رجاء خيل موهوما
لا حاكما دون ما اوحت ضمائركم تراقبون ولا ترعون محكوما
يحطم العظم منكم دون بغيتكم فما تهون ويأبى العزم تحطيما
ليس الارادة الا من يكون على رأي ومن يتناهي فيه تصميما

* * *

ماالسجن؟حين يذاد الخسف عن وطن بعاره باء في الاوطان موصوما
يغني من الشمس في أعماق ظلمته برق من الأمل الموموق ان شيما
عدن على طيبها لو شيب كوثرها بظل باغ لعاد الورد مسموما
ما الموت ؟ ان تلك منجاة البلاد به من غاصب وانتصاف الشعب مهضوما
هذا هو العيش والقسط العظيم به من خالد الفخر فوق العمر تقويما
ان الفداء لأغلى ما حمدت له أخرى وان كان في اولاه مذموما
وما اعتدال زمان لايقومه بنوه بالصبر والاقدام تقويما

* * *

ياسادة اطلعت مصر بهم شهبا والليل خيم بالاحداث تخييما
فما وهوا للحمى عن واجب وبنوا للمجد فيه طرافاً كان مهدوما

أعزة ان بــدا من فضلهم أثر	فكم لهم من جميل ظل مكتوما
وللفدى كالندى حال منزهــــة	في حكمها تنفس المجهول معلوما
شاركتم الجار في خطب الم به	وما ادخرتم لشيخ العرب تكريما
كـــذا تكافيء مصر العاملين بما	يعدو الاماني تمجيداً وتعظيما
اكرم بها وهي تحني الرأس هاتفة	تحيـــــة ايها القتلى وتسليما !

* * *

واليك ما ذكره الاستاذ محمد اسد عن عمر المختار ومقابلته الشخصية له ، وذلك عندما انتدبه السيد احمد السنوسي من المدينة المنورة ليذهب الى المختار في الجبهة ليسلمه رسالة من السيد السنوسي وذلـــك بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٣١ ..

وهذا ما نقله لنا الاستاذ اسد في كتابه الطريق الى مكة ص ٣٥٩ وما يليها نصا حرفيا كما يلي :

« ما لبث عمر ان جاء على جواد صغير لفت حوافراه بالقماش ، وكان يحيط به راجلان من كل جانب ، ويتبعه كذلك عدد آخر وعندما وصل الى الصخور التي كنا ننتظر عندها ، ساعده احد رجاله على النزول ، ورأيت انه كان يمشي بصعوبة (عرفت بعدئذ انه قد جرح ابان احدى المناوشات قبل ذلك بعشرة ايام تقريباً) . وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن ان اراه بوضوح : كان رجلاً معتدل القامة قوي البنية ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة وكانت عيناه عميقتين ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء ان يعرف انهما كانتا ضاحكتين براقتين في غير هـــذه الظروف ، الا انهما لم يك فيهما الآن شيء غير الظلمة والالم والشجاعة ..

واقتربت منه لأحييه وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي :

– (مرحباً بك يا ابني) .. قال ذلك واخذ يجيل عينيه فيّ متفحصاً : لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي ..

وفرش احد رجاله حراماً على الارض فجلس سيدي عمر عليه متثاقلاً وانحنى عبد الرحمن ليقبل يده ثم شرع بعد استئذانه يوقد نارا خفيفة تحت الصخرة التي كنا محتمين بها وعلى ضوء النـــار الخافت ، قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد احمد اليه .. لقد قرأه باهتمام وعناية ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه ، وهي امارة من امارات الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها فيّ جزيرة العرب ولكنه كثيراً ما يراها في شمالي افريقيا ، ثم التفت الي مبتسماً وقال :

– لقد اطراك السيد احمد ، اطال الله عمره ، في كتابه ، انت على استعداد لمساعدتنا ولكنني لا اعلم من اين يمكن ان تأتينا النجدة الا من الله العلي الكريم .. اننا حقاً على وشك ان نبلغ نهاية اجلنا ..

فقلت : – ولكن هذه الخطة التي وضعها السيد احمد ، الا يمكن ان تكون بداية جديدة ؟ واذا امكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من كفرة بصورة ثابتة افلا يمكن صد الايطاليين ؟ ..

لم ار في حياتي ابتسامة تدل على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر : (كفرة .. ؟ لقد خسرنا كفرة ، فالايطاليون قد احتلوها منذ اسبوعين تقريباً ..) ..

واذهلني الخبر ، ذلك انني والسيد احمد طوال تلك الاشهر الماضية كنا نبني خططنا على افتراض ان كفرة يمكن ان تكون نقطة تجمع لتقوية المقاومة ، اما وقد ضاعت كفرة فانه لم يبق للسنوسيّن سوى نجد الجبل الاخضر لاشيء

سوى كاشة الايطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار . . وخسارة نقطة بعد نقطة .. واختناق بطيء ..

فأومأ سيدي عمر ايماءة متعبة الى احد رجاله ان يقترب : (دع هذا الرجل يقص عليك الخبر .. انه واحد من اولئك القلائل الذين هربوا من كفرة ، ولم يصل لعندي الا بالامس) .

وجلس الكفري على ردفيه امامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلم ببطء دون ان يبدو في صوته اي اثر للانفعـال .. ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الاهوال التي شهدها :

— لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق.. من ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة اما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل ولم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح اما الباقون فقد كانوا نساء واطفالا وشيوخاً.. لقد دافعنا عن انفسنا بيتاً بيتا ، ولكنهم كانوا اقوى منا بكثير .. وفي النهاية لم يبق لنا الا قرية الهواري .. لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا وتمكن عدد قليل جداً من الهرب . اما انا فقد اختبأت في حدائـــق النخيل مترقباً الفرصة لشق طريقي خـــلال الخطوط الايطالية .. وكنت طوال الليل اسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الايطاليون والعساكر الاريتريون يغتصبونهن
وفي اليوم التالي احضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز ، واخبرتني ان الجنرال الايطالي قد حشد كل ما تبقى على قيد الحياة امام قبر السيد محمد المهدي وامام اعينهم مزق نسخة من القرآن ثم رماها الى الارض وداس عليها بحذائه صائحا : دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن اذا استطاع .. ثم امر بقطع اشجار النخيل في الواحـــة وبهدم آبارها واحراق كل ما كان في مكتبة السيد احمد البدوي من كتب . وفي اليوم التالي اصدر امره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا

في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق .. وطوال الليلة التالية كنت اسمع من مخبئي – صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بندقياتهم .. واخيراً زحفت الى الصحراء في ظلام الليل فوجدت جملا شارداً امتطيته ووليت فرارا.

وعندما انهى الكفري قصته المخيفـــة قربني سيدي عمر اليه بلطف و كرر قوله : انك تستطيع ان ترى يا ابني اننا قد اقتربنا فعـلاً من نهاية اجلنا .. ثم اضاف كأنما يجيب عن السؤال الذي كانت تنطق به عيناي : (اننا نقاتل لأن علينا ان نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة او نمـوت نحن وليس لنا ان نختار غير ذلك . انا لله وانا اليه راجعون لقد ارسلنا نساءنا واولادنا الى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا ان نموت ..



من وحي الجزائر الثائرة

- ٢ -

ان بطل هذه القصة الواقعية والتي هي اشبه ما تكون بالخيال . مناضل من اخواننا الجزائريين بين الابطال الذين لم يكن كفاحهم ونضالهم وانتصارهم على اعتى دولة من دول الاستعمار البغيض محصورا بمجده وفخاره على اهلهم فحسب بل انه مجد تعتز به امة الضاد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي بل وتعتز به الانسانية بصورة اشمل لانه انتصار للعدل على البغي وانتصار للحق على الباطل وانتصار المظلومين على الظالمين وانتصار المؤمنين بقوة الله والاعتماد على سواعدهم وبطولتهم على المؤمنين بقوة الحديد والنار والاعتماد على غير انفسهم من دول حلف الاطلنطي .. اجل لقد اوشك المستعمرون ولقيطتهم اسرائيل بل وحتى بني جلدتنا من الانهزاميين العرب اوشك هؤلاء جميعهم ان يجعلونا نشك بصحة ما قرأته عن مجد اسلافنا الاوائل الذين فتحوا مشارق الارض ومغاربها وملأوا الدنيا عدلا وخلقا وكانت الغزوة الصهيونية لبلادنا التي كان من شأنها ان تجمع مشردي العالم وحثالة البشرية على سلب قطعة من قلب وطننا العربي وقتلوا رجالنا ويتموا اطفالنا ورملوا نساءنا ، كان ذلك مما جعلنا نزداد وهما وشكا بعدم صحة كل ما قرأناه مما ينسب عن ذلك المجد الغابر الذي قام به اسلافنا الاشاوس بدافع الايمان الروحي ولكن جاءت بطولة اخواننا الجزائريين مؤكدة لصحة ذلك التاريخ المجيد ومعيدة لنا الثقة بأنفسنا ومؤيدة لصحة تلك الكلمة الخالدة التي صرح بها رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة

في الولايات المتحدة وذلك قبل ان ينزع الجزائريون استقلالهم من فـكي الاسد. المهزوم ، لافض فوه حيث قال معناه : (يزعم الصهاينة انه لا جدوى من مطالبة العرب في حقوقهم المغتصبة من ارض فلسطين متبجحين بالمنطق المعكوس القائل : ان اسرائيل لها عشر سنوات ونيف وانه من غير المعقول بعد ذلك ان تعود عقارب الساعة الى الخلف) .. ومن هنا يفند بورقيبة ادعاء الصهاينة بقوله : (هل يا ترى اسرائيل التي تعيش على الاستجداء او الهبات اقوى من الدولة الفرنسية ؟ .. وهل المدة التي قضتها فرنسا في الجزائر البالغة ١٣٣ سنة اكثر ام المدة التي قضتها اسرائيل) .. ويمضي بورقيبة فيقول (ان رجال العرب الابطال الذين سوف يطردون فرنسا من ارضهم تلك الدولة التي هي من اعرق واقوى دول العالم جدير بهم ان يطردوا اسرائيل من ارضهم سواء طال الزمان او قصر ..

ونحن نقول هنا مما لا شك فيه بأن جهاد الجزائريين المرير واخذهم ارضهم بالسيف من فـكي الاسد الذي لووا اذنه حتى عكف ذيله مدحورا هاربا هو الذي املى على الحبيب بورقيبة هذا المنطق الواقعي المحسوس وهو الذي يجعل اعداءنا يحسبون لنا الف حساب وحساب ويبذلون شتى الوسائل والاسباب لتفرقة صفوفنا وبذل كل ما يمكن بذله من الدسائس الخفية والبينة التي تحول دون وحدتنا او اتحادنا ايمانا منهم اننا عندما نتحد بأي شكل من اشكال الوحدة او الاتحاد فان اسرائيل التى هي عدوتنا رقم واحد لا هي ولا مـــن ورائها من دول الاستعمار ولا اية قوة بالدنيا تستطيع ان تسلب درهمـــا من حقنا ..

* * *

وبعد .. فقد كان من حسن حظي ان سنحت لي الفرصة التي مكنتني من معرفة بعض المجاهدين الجزائريين وذلك ان رجال المجلس الوطني الجزائري

كانوا كثيراً ما يعقدون مؤتمراتهم في مدينة طرابلس الغرب وكان لي الشرف في معرفة عدد منهم بصفتي ممثلا في سفارة حكومة وطني في ليبيا ومن بين الذين اسعدني الحظ بمعرفته وصداقته العقيد سعيد بطل القصة التي نحن بصدد ذكرها ..

لقد شرفت نفسي بدعوة عدد من رجال المجلس الوطني الجزائري لتناول وجبة الغداء في منزلي وقد تم لي ذلك وكنت شديد الحرص على معرفة شيء من قصص بطولاتهم ولكنني لم اجد عند اي منهم تجاوبا لرغبتي والشيء الذي اثار انتباهي هو انك قل ان تجد فردا واحداً من الجزائريين الا وله من مواقف البطولة والشجاعة ما يملأ صفحات سفر ضخم ، الامر الذي جعلني اصبح بحيرة وتردد عن تنفيذ ما كنت عازما عليه .. والواقع ان الانسان عندما يرى اولئك الرجال خاصة ايام الحرب فانما يخيل اليه انه ينظر اسداً في غاباتها ومما لا شك فيه ان المرء ليشعر شعوراً اكيداً لأول وهلة يتحدث بها مع اولئك الفرسان بأنهم مصممون على احدى الحسنيين اما الشهادة واما الحرية والاستقلال ولشد ما غمرنا جميعاً في ذلك المجلس موجة التعجب والاعجاب عندما قال الدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في ليبياً والمعروف بكرمه الذي لا حد له وبسرعة بديهية بالجد وابتكار النكتة معا للكولونيل محمد سعيد محمدي الملقب بالكولونيل ناصر : من يعلم لو ان الله يتجاوز عن ديغول خطيئاته ويدخله الجنة : يا لله ما ان انتهى الدكتور فتفت من كلمته هذه حتى صرخ محمد سعيد ذلك الرجل العملاق صرخة مدوية قائلا : (اذا كان ديغول يدخل الى الجنة ، والله لن ادخلها) .

لقد ذكرت هذه النكتة لأمرين ، اولا ـ اردت ان يعرف القاريء مدى ما في نفوس الجزائريين من حقد على المستعمرين الفرنسيين ، كرد فعل لما قام اولئك المستعمرون .

ثانيا ـ من اجل ان اميز بين الكولونيل محمد سعيد محمدي عدو فرنسا رقم

واحد بصفته ثائراً على الفرنسيين ومحارباً لهم بجانب الالمان منذ الحرب العالمية الثانية والذي كان رئيسا لاركان جيش التحرير الجزائري سابقاً ثم كان وزير دولة في الحكومتين الجزائريتين الموقتتين كما كان وزيراً في حكومة بن بيلا الانتقالية ونائباً للرئيس ابن بيلا في حكومته الثانية .. اقول اريد ان أميز بين هذا وبين بطل القصة الكولونيل سعيد فكلاهما برتبة كولونيل اي عقيد لأن هذه الرتبة هي اعلى رتبة يبلغها المحارب القائد في جيش التحرير الجزائري كما ان كلا السعيدين من القبائل : وهذا الاصطلاح يعرفه الجزائريون ولم يكن بينهما فرق بالاسم وبالرتبة العسكرية وبالكفاح وبالوطنية وبمتانة العقيدة الروحية وبالنسب وحتى باتجاههما السياسي الداخلي لأن كلاهما من مؤيدي ابن بيلا الا ان بينهما بونا شاسعاً بالجسم والهيئة والمنظر فبينما نرى الأول عملاقا يحمل جسما يتناسب مع طوله الفارع دموي البشرة يوحي لناظره لأول مرة بهيبة الجندي الشجاع القوي المتين الصارم بينما نرى بطل قصتنا رجلا ربعة القامة اسمر البشرة متواضعاً في هيئته ليناً في حديثه لا يدل منظره العادي على ادنى معنى من المعاني الكامنة في خبايا نفسه من شجاعة خارقة وعلم بفنون حرب العصابات بصورة دوخ بها العدو وافقده رشده ..

لقد بدأ سعيد حياته كأي مواطن جزائري عادي وككثير من الابطال الجزائريين الذين قدر لهم ان يلعبوا دورا خطيرا في معمعة الحرب الجزائرية الفرنسية .. كان سعيد سائقا لسيارة تكسي يقتات من حصيل مجهوده الضئيل الذي يقوم بأوده وهو لا يعدو ان يكون محدودا على رزق اليوم ليس الا فان عمل واجتهد ووفق بزبائن وسلم من ضريبة المخالفة فانه قد يتيسر له ما يكفيه واطفاله قوت يومه اما ان خانه الجد في واحدة من الثلاث فالله اعلم ماذا يحل به من فاقة وبؤس وكان شديد الحرص على ان لا يهمل واحدة من تلك المعاني وربما تضاعف حرصه على تمسكه ومحافظته على الاخيرة اكثر من غيرها . اعتقادا منه ان شرطة الاستعمار الفرنسي لا تتورع عن ان تتخذ اقسى العقوبات

من الضريبة المالية عند ادنى مخالفة تبدو من اي قائد سيارة جزائري ، الامر الذي يجعله يعمل مدة طويلة حتى يسدد ما يكسبه من مجهوده لقسم الضرائب الفرنسية ولكن ماذا يفيد حرصه ما دام ان الفرنسيين انفسهم يعـــاملون الجزائريين معاملة الذئب للحمل .

وبالرغم من حرص سعيد الشديد وتجنبه لهذه المشكلة فانه لم ينــج من الوقوع فيها او بالاحرى من الافتراء عليه من شرطة الاستعمار بالمخالفة التي لا صحة لها حيث نصبت له شرطة الاستعمار فخا لتصطاده به ولتجعل عليه ضريبة باهظة كما هو شأنها مع جميع المواطنين الجزائريين الذين عاشت هذه الدولة الاستعمارية والمدعية للحرية المختلقة ردحا من الزمن على عرق جبين الـكادحين من العمال كسعيد وامثاله ؛ لم يرتكب سعيد« بتكسيبه » اية مخالفة تستوجب ادنى ضريبة مالية او عقاب ادبي .. والمشكلة ان بوليس شرطة السير كان يفهم ان سعيدا ليس مخالفا وانما يريد ان لا يفهم او على الاصح لديه من المعلومات ما يتطلب منه ان لا يفهم ، لقد تبادر لذهن سعيد ان شرطي السير قد يكون سكرانا او شبه سكران بمعاملته له الجائرة التي لم يكن لها اي مبرر وان لا بد والحالة هذه من ان يرفع مظلمته لآمر شرطة السير الأكبر فاتجه سعيد نحو مقر المسؤول الأكبر في المنطقة فوجد ذلك الطاغية مكفهر الوجهه مقطبـــا جبينه كأنه صنو لعزرائيل وخليفة لمالك خـــازن جهنم او هو عزرائيـــل ومالك معا ..

قدم سعيد التحية التقليدية باللغة الفرنسية التي يجيدها ولكن الطاغية لم يرد التحية بل زم انفه وازور جانبه فحاول سعيد ان يثير انسانيته ظانا ان لديه ولو مثقال ذرة من الانسانية فقال ما معناه : (انني عامل فقير قد ظلمني شرطي السير باتهامه لي بمخالفة لا اصل لها ووضع علي ضريبة باهظة لا طاقة لي بدفعها حتى ولو ظللت اعمل سنة كاملة فان دخلي بكامله لا يفي بما اطالب بدفعه من هذه الضريبة المجحفة) .

لم يجب الطاغي على الشاكي المظلوم بأدنى كلمة اللهم الا ما كان يبـــدو على وجهه العابس الساخط من ادلة الاستعلاء على الشاكي والسخرية منه ..

فأدرك سعيد انه بشكواه هذه انما يشكو فرع الظلم على الأصل وان قضية الظلم في دولة الاستعمار الفرنسي اشبه ما تكون بحلقة اتصال تبتدىء من أعـلى مسؤول في الدولة وتنتهي عند ادنى عامل فيها وعندما ادرك سعيد هذه الحقيقة ورأى ان الشرطي ليس الا منفذاً لما امر به وان استدراره لعطف هذا الجبار الظالم لا جدوى منه .. هناك قال للطاغية ما معناه : « الا تعلم ان للظلم صولة ثم يتحطم على صخرة العدالة مهما طال به المدى وان الله سوف ينتصر للمظلوم على ظالمه مهما بلغت سلطة المظلوم من القوة ومهما كان المظلوم ضعيفاً لا قـوة له ولا ناصر الا قوة الله وعدله تعالى ... »

لم يكن لدى المستعمر من الاعصاب والصبر ما يجعـله يتحمل السكوت عن الاجابة على مثل هذه الجمل التي تحمل في طياتها شيئاً من التهديد والوعيـد من هذا الصعلوك المستعمر بفتح الميم لسيده المستعمر ولذلك صرخ بوجه الشاكي قائلاً: (اخرج من هنا .. ونحن عندما نعاملك هذه المعاملة نعلم اننا ظالمون لك ولكننا نريد ان نعطيك درساً في معرفة الظلم فمتى جـاء اليوم الذي تهددني وتوعدني به حينما اكون ضعيفاً ذليلا بين يديك وتكون قوياً عزيزاً عندئذ تكون قد تعلمت الانتقام والظلم فما عليك وقتذاك الا ان لا تدخر وسعا من الانتقـــام مني وان لا تبقى جهداً من وسائل الاعتساف والظلم التي تعاملني بها ..

قال قائد المنطقة المستعمر هذه الكلمة عـلى سبيل الهزء والسخرية ثم اتبع السائق لعنات وشتم وطرد ..

خرج سعيد عن مقر قيادة الحاكم بامره يسحب خطاه ببطء لا يعـــلم ماذا يفعل ؟ .. فظل المظلوم المغلوب على امره يناجي نفسه بشتى الاحتمالات ؟..

أينتحر ويريح نفسه من حياة البؤس والاستسلام لظلم المستعمر ؟... ولكن الانتحار لا يستسيغه سعيد لعدة امور اولها انه مؤمن بالله وبرسالة الاسلام الانسانية ؟والاسلام يعتبر المرء الذي يقتل نفسه كقاتل النفس البريئة عيناً بعين.. اذاً أيقتل الفرنسي الذي ظلمه ولكن هذه العملية ايضاً لا تحل الازمة بل انها الاخرى عملية انتحارية اذ ان قتل ظالم من جنود او قادة الفرنسيين لا ينهي ظلم فرنسا الدولة القوية بأسلحتها البرية والبحرية والجوية ؟ .. فماذا يعمل سعيد ايظل يعمل قائداً لسيارة التكسي وهو يعلم ان كل ما يكتسبه من وراء عمله سنة كاملة سوف يذهب ضريبة لصندوق الدولة الفرنسية ؟.. لقد فكر سعيد وقدر ورأى ان خير وسيلة يقوم بها هي ان يسلم امره لله وان لا يستسلم لليأس والقنوط بل يجتهد ويسعى بمكافحة هذه الدولة الظالمة حالما تتاح له الفرصة المواتية لحربها ومكافحتها ...

استمر سعيد يعمل قائدا لسيارة التاكسي ويدفع كل ما نالته يده لصندوق الدولة كضريبة وان زاد شيء من ذلك اشترى به غذاء لاطفاله لا يسمن ولا يغني من جوع .. وقد انتهى العام الكامل وانتهت آخر دفعة من تلك الضريبة ولكن اثر ذلك الظلم لم ينته من نفسه ولم تمح المعامله الجارحة بل ظلت رواسبه تغلي في قلبه كالمرجل .. وبقي يتحين الفرص عسى ولعل نفرا من بني وطنه البواسل يقومون بثورة مسلحة ضد حكومة الظلم والبغي والطغيان ..

وفي نوفمبر عام ١٩٥٤ جاءت ادلة الفرج تزف البشرى بما يحلم به من آمال واماني تداعبان خياله وذلك عندما انطلقت اول رصاصة مدوية من سواعد المجاهدين المواطنين نحو الغزاة المستعبدين ..

لم تكن الثورة المسلحة الجزائرية مفاجأة لاحلام واماني سعيد بل كان متوقعا لها كأي جزائري يعرف تاريخ بلاده لان رجالها الابطال لم يستسلموا لفرنسا استسلام الجبناء بصورة لم يكن في البلاد من يرفع رأسه بل كانت الحروب

مستمرة من اول يوم وضع — الفرنسيون قدمهم حتى طردوا منها ذليلين صاغرين وانما كانت تلك الحروب الاولى تختلف عن ما قبلها فبينما كانت الحروب السابقة محصورة في اماكن معينة او حرب عصابات في الجبال والمخابىء كانت ثورة اول نوفمبر عام ١٩٥٤ ثورة الشعب الجزائري بكامله ..

لقد اندلعت الثورة في الحـــين الذي كان فيه المستعمرون سادرين في لهوهم تائهين في طيشهم متمادين في غرورهم، وكان هؤلاء الطائشون المتغطرسون يعتقدون ان الثورة ليست الا عملا من اعمال الصبيان المغامرين وانهم قادرون على اخمادها بقوة الحديد والنار بكل سهولة . وزادهم رسوخاً باعتمادهم هـذا الخاطىء ان الثوار بدأوا بثورتهم قبل ان يبدأوا بالتنظم ، وان الشعب الجزائري على حـد تقديرهم لا زال في سن الطفولة ولم يبلغ بعد من النضوج الفكري والوعي السياسي ما يؤهله للقيام بثورة جماعية تجعله يقوم بوجه دولة من اكبر دول العالم لديها من مصانع الدبابات والطائرات وشتى انواع الاسلحة الحديثة ما يعجز عن مقاومته الثائرون الذين لا يملكون الا اسلحة الصيد وامثالها.. هكذا كان الاعتقاد السائد ولكن سرعان ما تحطم هذا الاعتقاد على صخرة الواقع .. وذلك عندما رأى المستعمرون المواطنين الذين بدأوا بثورتهم فعلا قبل بدأهم بالتنظيم يلتف حولهم شعب الجزائر بكامله شعب قوامه احد عشر مليوناً كلهم قرروا اما أن يحيوا احراراً شرفاء مستقلين واما ان يموتوا شهداء سعيدين ..

وكان سعيد في طليعة هؤلاء الملايين الموتورين الحاقدين: قد ترك سيارة التاكسي حالما سمع نداء الوطن الذي حمل لواءه ابطال الثورة ..

ولما كان الثوار لا يرضيهم ممن ينضم اليهم مجرد القول او حتى الفعل الوسط ، وانما ما يقوم به مبدئياً من امتحان يثبت أولاً صحة اخلاصه لوطنه فانه لابد ان يقوم سعيد بامتحان يجعل الثوار يؤمنون بصحة اخلاصه الوطني — وملخص هذا الامتحان ، هو ان يطلب منه قادة الثورة ان يذهب لقتل شخص من القادة

الفرنسيين، وفي الوقت نفسه، يعمد الثوار لشخص آخر يتعقب حركاته وسكناته بصورة سرية بحيث لا يشعر به الممتحن . ومهمة الاخير هي انه متى ما رأى ان الممتحن مصمم على تنفيذ ما وكل اليه به ، أمسك بيده واعتبره موضع ثقة ، أما اذا بدا منه عكس ذلك فان مصيره القتل على يد من وكل به [١] .

لم يكن سعيد بحاجة الى الامتحان ، فهو صادق العزيمة بكرهه وحقده للمستعمرين الغاصبين ، الذين نال منهم الاهانة والتعسف والظلم ما يثير جذوة الحقد والشجاعة في كيانه . وقديماً قالت العرب : (احذر صولة الكريم اذا اهين واللئيم اذا بطر .) .

كان من حسن حظ الجزائريين ان الحكومة الفرنسية احسنت اليهم من حيث انها تقصد استعبادهم وتجنيدهم كجيش مدرب ليذود عن كيانها اذا استوجب الامر ، بحكم ان الجزائر بنظر فرنسا وبحكم الواقع المرير لا تعدو أن تكون واهلها مزرعة للفرنسيين يمتصون خيراتها ، ويجندون رجالها . ولذلك كان جميع الجزائريين المجاهدين قد سبق لهم ان خدموا في السلك العسكري الفرنسي وتدربوا على شتى انواع الاسلحة ، الامر الذي يجعل سعيداً وكثيراً من امثاله المجاهدين لا يحتاجون الى تدريب على اسلحة القتال الحديثة ، ولا الى تعليم الى رسم الخطط الحربية المعاصرة ، لانهم تدربوا عملياً في الحرب العالمية الثانية ، وبالاضافة الى معرفتهم في فن القتال في الجيوش المنظمة ، ازدادوا خبرة وتدربوا في معرفة حرب العصابات ، وتسلق الجبال واحتمال المشاق في الغابات والجبال الجزائرية، الامر الذي لا يطيق احتماله جيش باريس الناعم الغض الطري الذي اتقن فتيانه لعب (الدنس) اكثر بكثير من اي شيء غيره . ولذلك لم يكن في الامر غرابة فيما اذا تفوق الجيش الجزائري على الجيش الفرنسي ، الذي

---

(١) لم يذكر لي سعيد ان الثوار امتحنوه وانما الذي فهمته من الثوار انفسهم انهم كانوا لا يقبلون من ينضم اليهم الا بعد هذا الامتحان .

يفوقه بالعدد والعدة ، وبكل شيء الا بالايمان والمثابرة والصبر والجد والشجاعة ومتانة الخلق .

بعد ما اجتاز سعيـد درجة الامتحان بتفوق ، عندئذ قبله جيش التحرير كجندي مناضل . ولم يخطر ببال قادة هذا الجيش أن لدى سعيد لا شجاعة الجندي المناضل المتفاني بنضاله فحسب ، بل موهبة القائـــد في رسم الخطط الحربية المتقنة – لا لم يعرف احد من القادة عنه هذه الموهبة – بل وحتى هو لم يعرف عن نفسه انه قائد محنك ، مطبوع ، أجل لا احد يعرف ذلك ، حتى جاءت الاحداث التي كشفت الغطاء عن موهبته الكامنة ، واصبح سعيد ، لم يكن ذلك القائد للسيارة التاكسي النكرة ، الذي لا يعرفه الا زوجه واطفاله ، وانما اصبح احد القادة العظام البواسل في جيش التحرير ، وقد تدرج في الكفاح من جندي الى رتبة كولونيل ، اي عقيد . وهذه الرتبة هي اعلى رتبة ينالها قائد ما في جيش التحرير الجزائري ، كما نال ارفع الاوسمة الحربية ، هذا من الناحية العسكرية ، اما منزلته الاجتماعية ، فقد نال مقعداً في مجلس جبهة التحرير الوطني لذي لا يتجاوز عدد رجاله ستين شخصاً ، وهـذا المجلس هو عبارة عن مجلس الامة في الحكومات الديموقراطية .

لقد ابدع سعيد في خططه الحربيـة ، واصبح له من الشهرة وذيوع الصيت مـــا هو كاف لأن يدخل الرعب في قلوب اعدائه ، بمجرد ما يسمعون اسم الكولونيل سعيد ... الى ان كتبت الصحف الفرنسية عن بسالته وعن خبرتـه الواسعة في اتقان فن حرب العصابات ، وحرضت على قتله ما استطاعت والمثل العربي يقول :- (الفضل . ما شهدت به الاعداء) .

مضى الكولونيل سعيد بحربه مع العدو وكل يوم تزيد شهرته ، ومن نصر الى نصر ، وفي ذات يوم وضع خطة حربية لمهاجمة العدو ، واتقنها كل الاتقان ونجحت الخطة نجاحاً باهراً ، حيث لم يفلت من قوة العدو جندي واحد . فمن لم يلاق حتفه في المعركة ، وقـع اسيراً . وسيق الاسرى اليه ، فأمر باعتقال الجنود وصغار الرتب

كما امر بتقديم القادة الكبار الى المحكمة العسكرية التي يتولى رئاستها هو بذاته. فوضع القادة في قفص الاتهام ، واجرى معهم السؤال التقليدي على النهج الآتي: ما اسمك ؟ ... وما عمرك ؟ ... وما عملك ؟ ... الخ ...

وهكذا اجريت محاكمة هؤلاء القادة على هذا الشكل . ولست بصدد ذكر ما تنتهي اليه المحاكمة . وانما الشيء الذي تجدر الاشارة اليه هو ان بين هؤلاء القادة . - قائداً له طابع خاص وتبدو عليه علامات الدهشة والذهول اكثر من غيره بكثير ، وكان وضع هذا القائد يدعو الى الاستغراب ، شارد الذهن يضحك ضحكة التعجب ، يبتسم عند كل سؤال يوجه اليه ابتساماً يوهم من يراه انه بتسام السخرية ، ولكنه لم يقف من المحكمة موقف الساخر المستهتر المتحدي لاحكام الصادرة بحقه مهما كانت قاسية ، لا لم تكن وقفة هذا القائد من هذا النوع ، ولكن ابتساماته التي كانت بلا سبب ، وضحكاته التي تبدو بلا عجب ، كل ذلك مما جعل رئيس المحكمة يظن أن اسيره يحاول ان يبدي من الجلد والصبر امام محنته ما يوحي انه غير مبال بكل ما تتخذه المحكمة من احكام صارمة ، الامر الذي جعل رئيس المحكمة يوجه اليه السؤال التالي :

(مالك تقوم بمثل هذه الحركات الشاذة ، أتحاول ان تظهر نفسك بقفص الاتهام بمظهر الرجل الشجاع الشهم الآبي؟ فلو كنت شجاعاً لقاتلت حتى الموت بدون ان تستسلم للعدو ، ولو كنت شهماً أبياً لما رضيت لنفسك ان تأتي من بلادك لا بدافع يحدوك لهدف نبيل ، ولا غاية شريفة) اللهم الا بغية الظلم والسيطرة والغزو والاستغلال والسفك لدماء إناس ابرياء ، لا لشيء ، الا لقوتكم المادية وكثرة عددكم وعدتكم ظانين (ان قوة السلاح وكثرة العدد هي كل شيء) . ولكننا نريد ان نؤكد لكم عملياً كما رأيتم وكما سترون انّنا سوف نكافح في سبيل حريتنا وفي سبيل استقلالنا الى آخر نقطة دم في آخر رجل منا ، اعتقاداً منا ان الانسان بلا حرية كالحيوان عيناً بعين . (وايماناً منا بأننا نقاتل في سبيل استرداد حقنا المغتصب وفي سبيل عدالتنا الانسانية ، بينما تقاتلون انتم في سبيل الظلم

والاستعلاء وامتصاص مقدرات الشعب المضطهد) .

لم يجب القائد على حديث رئيس المحكمة الا بابتسامة عريضة ، فصمت رئيس المحكمة لحظة يتفرس بها وجه الاسير عله يعرف شيئاً عن الدوافع التي الجأته الى تصرفه هذا ، وعندما امعن النظر فيه وجد ان صاحب هذا الوجه سبق ان رآه ولكنه لا يذكر جيداًمتى واين كانت هذه الرؤيا، كما انه لم يكن واثقاً بصحة ظنه ، ، وكل شيء خطر بباله الا انه يرى مروض الاسد فريسة بين فكيه ، هذا شيء لم يخطر ببال سعيد حتى ولو خطر بباله كأمنية فانه لم يظن ان هذه الأمنية سوف تتحقق عملياً ، وعلى اية حال فقد رأى ألا مانع من ان يوجه الاسد لمروضه في الامس وفريسته اليوم السؤال التالي :

(يبدو أنني رايتك قبل ذلك) .. اجاب مروض الاسد :
اجل – كنت اتوقع انك عرفتني من اول ما رأيتني – لأنني منذ ان رايتك عرفتك فوراً ...

– اين كانت الرؤية .... ؟ .. ومتى عرفتني ؟ ..
– الست قائد سيارة التكسي – انسيت ما دار بيني وبينك من حديث؟..
يؤكد الكولونيل سعيد انه حينما ذكره أسيره بالحادث اصيب برعشة روحانية ظل خلالها ثوان وهو نشوان ، كأنه نقل الى عالم آخر ، كما يؤكد ايضاً انه تضاعف ايمانه بالله وبعدالة قضيتهم واعتقد اعتقاداً راسخاً ان النصر سيكون بعد ذلك حليفهم لا محالة .

وبعد ما افاق الاسد من غيبوبة النصر عاد الى مروضه فقال ماذا يدور في ذهنك الآن؟ وماذا تظن انني فاعل بك؟ فقال مروض الاسد بالامس واسيره اليوم :انما يدور في ذهني اليوم هو انني منذ اللحظة الأولى أمنت ان في هذا الكون الها ينصف الضعيف من القوي علماً بانني كنت لا أومن بشيء من ذلك .. واما قضية ما اظن انك فاعل بي فانني لا اعتقد الا انك ستعاقبني على ما عاملتك

به من شر .. فقال القائـد المنتصر وابتسامة النصر تعلو وجهه السمح المنير : (لقد عاملتني تلك المعامـــلة المليئة بالظلم والكبرياء ثم اتبعت معاملتك تلك بكلام اعنف واسوأ منهاعندما قلت بعباراتك تلك القاسية التي جاء منها: قولك نريد ان نعطيك درساً فيمـعرفة الظلم الخ ..

وبعد ان صمت القائد قليلاً مضي وقال : (لئن اردت ان تعطيني درساً في معرفةالظلم فانني اود اناعطيك درساً في معرفةالعفو والتسامح فاذهب الىحيث تريد فقد عفوت عنك ... »

لم يتصور مروض الاسد بعد ما وقع بين فكيه انه سوف يلفظه سالماً بدون ان يقده بنابه .

هذا شيء لم يخطر له ببال ، ولكنه عندما عاد الى الى ذاكرته سرعان مـا ادرك ان الاسد ليس من شيمته ان يأكل الجيفة ولن يدنو منها مهما بات على الطوى ، وحينا ادرك هذه الحقيقة وادرك ايضاً ما عامله به هذا القائد الكريم من عفو وتسامح عند ذلك قرر ان يبدل خطته كلها رأســاً على عقب فقال : (ما دمت قد عفوت عني بعـد ما تمكنت من رقبتي وما دام انني قنعت كل القناعة بان قومي على باطل وانك انت وقومك على حق ومـا دام انني كنت احارب بجانب قومي على الباطل فانني اعاهدك منذ الآن بانني قد كفرت بقومي وبملتهم واني سوف احارب بجانبكم جنبا لجنب حتى النصر او الموت . »

فأجابه القائد المنتصر قائلاً : نحن لا مانع عندنا من قبولك كانسان آمن بالحق وكفر بالباطل لان ديننا كمسلمين لا يحاسب الكافر ولا الظالم على كفره وظلمه فيما اذا اعلن ايمانه وتوبته كما انه لا يسأل ولا يحقق عن صحة ما يعلنه الانسان عن ايمانه أكان صادقاً ام غير صادق ؟ وانما يكتفي بالظواهر فقط ثم ستدرك القائد وقال :ولكنني ارىاننا بحاجة الى ما تفيدنا به من اخبارقومـك افيما اذا ذهبت عائداًاليهم بحجة انكانفلتتمنالاسر اكثربكثيرمن حاجاتنااليك

كمحارب بصفنا»..

اجاب الفرنسي الظالم بالامس والمؤمن المخلص اليوم قائلاً : بالنسبة اليّ سيان عندي ابقيت محارباً بين جنودكم ام ذهبت الى رفاقي بالامس واعدائي اليوم منفذاً لكل ما تأمرني به بكل دقة وامانة..

– اعتقد ان ذهابك اكثر فائدة للقضية التي منّ الله عليك بالايمان بعدالتها..

– ما دام الامر كذلك فلك عليّ ان اذهب الان كهارب من الاسر وان ارفع لكم اخبار العدو يوماً بيوم وان اقلب لهم الحقيقة .

– هذا ما نحن بأمس الحاجة اليه .

– لا اريد منك والحالة هذه الا ان تكتم السر حتى عن اقرب المقربين اليك ..

– نحن احرص منك على كتمان ما اشرت اليه .

– اذا اعاهدك الله والشرف انني سأرفع لكم جميع اسرار العدو السياسية والحربية .

– ولقد آمنت بالله فاذهب على بركة الباري وحفظه .

– هيا ادن مني لاقبلك واستودعك الله لانني سوف اقوم بمغامرة قد تكون نفسي ثمنا لها لان الظالمين اذا اكتشفوا امري سوف يعتبرونني خائنا وسوف تكون عقوبتي الموت اعتقادا منهم انني اقوم برفع اخبارهم للعدو مقابل عمولة لا بدافع ايماني بالله الذي لمست وشعرت انه ينصف المظلوم الضعيف من الظالم القوي .. لا لن يظن رفاقي بي ذلك ولا يمكن ان يتصوروا هذه الظاهرة لانهم لم يحسوا بها ولم يتذوقوا حلاوتها.»

– وهاانذاأقبلك واهنئك على عقيدتك فيما اذا طابقت اقوالك اعمالك » .

توادع العدوان بالامس والصديقان اليوم وضم كل منهما صاحبه الى صدره وكان المغامر الذاهب اشد ضما من القائد الذي وان كان يرى ان ادلة الصدق بارزة على محيا المؤمن الجديد ولكنه لم يكن واثقا كل الثقة بصحة ما وقع من اسيره وما تعهد به من اقوال حتى يثبت اقواله ويؤيدها بالاعمال الواقعيـــة وبالبراهين الساطعة التي تجعله يؤمن حقا ان الرجل صادق بايمانه وعازم على ان يكفر عما مضى منه من سيئات ..

هذا وقد عاد الرجل الى رفاقه هاربا من اسر العدو على ما يزعم او على ما يخيل لرفاقه ولا عجب ان يمنح وساما عاليا ويرفع رتبة بصورة استثنائية .. لا ، لاعجب في ذلك فقد ذهب منهم قائدا محاربا وعاد اليهم لا منفلتا من اسر العدو فحسب بل جاء يحمل اسرار العدو ومخططاته الحربيـــة ومدى قوته وضعفه .. هكذا اعتقد قومه المستعمرون .. اما انه يخطر ببال اي منهم ان ابن جلدتهم البار المنحدر من سلالة الغزاة ابا عن جد والوارث لظلمهم والمتعصب الى بعدحدودالتعصب لقوميتهم والمعتبر واحداً من كبار قادتهم واقطابهم المتحمسين يعود اليهم كافرا بهم حاقدا عليهم مؤمنا بعدالة اعدائهم مجندا نفسه لخدمة العدو مموها لكل المعلومات التي قدمها لهم عن العدو موهما لهم بأن لدى الجزائريين من قوة السلاح الحديث وكثرة العتاد والعدة ووفرة المواد الغذائية الشيءالذي يمكنهـم من الاستمرار بالحرب عشرات السنين هذه الناحية لم تخطر لهم ببال هذا وان الفرنسيين لم يكونوا بحاجة الى سؤال قائدهم ومخبرهم عن مدى صبر وجلد وشجاعة اعدائهم .. فهذه المعاني ليسوا بحاجة الى من يفيدهم عنها لانهم لمسوها بايديهم وشاهدوها باعينهم .. اما وقد ثبت لديهم من مخبرهم الصادق المخلص ما لدى العدو من قوة السلاح وكثرة العدد والعتاد ووفرة الغذاء الشيء الوافر بالاضافة الى ما يتمتعون به من شجاعة خارقة وعزيمة تفل الحـــديد وصبر لا

يعرف الكلل وجلد منقطع النظير – فبعدما ثبت لديهم ذلك فمعناه ان الجزائريين في النهاية سوف يأخذون استقلالهم ويتمتعون بخيرات بلادهم المسلوبة .. وهذا يعني ان الغزاة الغاصبين سوف يحرمون من خيرات البلاد التي يستغلونها ظلما وعدوانا .. وسوف تنتهي جميع الامتيازات التي يتمتعون بها **والاقطاعات** التي ينعمون بها على حساب كدح وعرق المواطنين الجزائريين وسوف بالتـــالي يطردون مدحورين تلاحقهم لعنة التاريخ وعار الهزيمة ..

اجل سوف ينبذون من البلاد التي طالما استعبدوا اهلها وابتزوا رزقهـــم وعبثوا بمقدرتهم .. هكذا تعني اخبارية مخبرهم الفار من الاسر الذي منح الوسام الرفيع والرتبة العالية مقابل تزويده بهذه الاخبار التي ادخلت في قلوب الغزاة وهنا على وهن وأقضت مضاجعهم ، وهذه المعلومات التي استولى عليها قادة الميدان العسكريون سوف يرفعها هؤلاء القادة مذعورين الى دهـــاقنة السياسة في باريس . وما دام الذعر دب في قلوب رجال الحرب وأوهن عزائم المحاربين فانه من مسلمات الامور ان تخور عزيمة السياسيين وان يتنازلوا عن كبريائهم بسحبهم لتلك الاسطورة القـائلة : (الجزائر فرنسيـة وستبقى فرنسية) ..

وهكذا اثبت الرجل صحة ايمانه ووفى بما ووعد به وقام بأعمال مزدوجة بحيث قدم لقومه تقارير عن العدو لم يكن فيها من الحقيقة الا بقدر ما يدخل في قلوب الفرنسيين الرعب والوهن وتثبيط عزائمهم وبقدر ماقدم إبنهم وقائدهم بالأمس وألد اعدائهم اليوم من تقارير مزيفة بقدر ما كان يرفع للكولونيل سعيد كل خفية وبينة من خفايا الغزاة ومن نواياهم تجاه المواطنين .. وقد كانت الاسرار تأتي منه اولا بأول حتى لقي حتفه رحمه الله على يد بني قومه الذين كشفوا امره على طول المدى وذلك بعد ان قام بخدمات لجيش التحرير يستحق عليها التقدير والاجلال .. اما كيف كشف امره ؟ .. فهذا شيء لا علم لي به والسبب ان روعة القصة جعلتني انسى ان اسأل عن التفاصيل التي آلت اليه نهايته . ولا

يسعني هنا الا ان اقول رحمه الله امرؤاً عرف الحق وانصـــاع اليـــه ، مكافحاومجاهدا للحق ومن اجل الحق وعرف الباطل وحـــارب اهله من اجل الباطل ..

اما الكولونيل سعيد فانه حتى كتابة هذه الاسطر لا زال على قيد الحياة في الجزائر وكما انه كان عضوا في المجلس الوطني فانه الان عضو ايضا في المجلس التأسيسي الجزائري .

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان سعيدا انجب ابنه البكر الذي ابلى بلاء حسنا في الجزائر بصورة لا تقل عن مواقف والده البطولية وقد استشهد الفتى رحمه الله في احدى المعارك وهو لا يزال في ريعان شبابه وعنفوان فتوته ، وقد قرر المجاهدون الجزائريون ان يكتموا الخبر عن والده حتى تـــأتي الفرصة المناسبة .. وقد جاء ذلك اليوم الميمون الاغر الذي يجدر به ان يخبر المجاهدون سعيدا باستشهاد ابنه .. وكان ذلك اليوم هو اليوم الاغر المحجـــل الذي يحق لناطقي الضاد جميعاً ان يفخروا به وان يرفعوا رؤوسهم عالية الا وهو اليوم الذي اخذ به الجزائريون استقلالهم بحد السيف بعد ان رووا تربة ارضهم الطيبة من دماء شهدائهم الزكية الطاهرة بذلك اليوم نفسه اخبر سعيد باستشهاد ابنه البكر فكانت نشوة النصر ولذة الفوز وقهر العـدو وطرد الغزاة ذليلين مدحورين من ارض الوطن اعظم سرورا واجل غبطة واكبر استبشارا مـــن هول فاجعة سعيد بفلذة كبده ..

ولله در الشاعر القائل

وللحرية الحمراء باب   بكل يـد مضرجة يدق

وبعد فقد كان الاحرى بهذه القصة ان اضعها في حقل (الجزء الأول من

شيم العرب) في فصل العفو .. ولكن لم اذكرها الا بعـــد ان انتهى الجزء المذكور من الطباعة .. وهذا ما جعلني اضطر الى وضعها . بفصل الشجاعة .

عمل لا يكفره الا الشهادة

- ٣ -

كما ان الفقر والحرمان يكونان احيانا من اهم حوافز النبوغ واعظم بواعث الاعتماد على النفس كذلك تكون الخطيئة التي يرتكبها المرء في حياته من أهم الدوافع التي تجعله قديسا او سخيا [١] بذالاً لكل ما يملك من مال ..

والشجاع الذي تبلغ شجاعته الى حد التضحية بالنفس .. حتى هذا قد تكون الحافز لتضحيته هذه احيانا اما الفقر وفقا لما قاله ابو الطيب المتنبي :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر جالسا   فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة او منيـــة   لعلك ان تحظـــى بواحـــدة عذرا

او ما يشعر به من مركب نقص بسبب ارتكابه لجريمة ما ..

وبطل قصتنا هذه من النوع الثاني وهو رجل يدعى عائد بن منيس من فخذ المفضل من عشيرة عبده المتفرعة من قبيلة شمر ..

ولد عايد في البادية وفي المنطقة الشمالية من شبــه الجزيرة ونشأ نشأة صحراوية كشباب البادية الخشنين المفتولي الساعد . ولا اعرف شيئا عن عمله في

(١) : اعرف انسانا كريما الى ابعد حدود الكرم يقيم الولائم بمناسبةوبدون مناسبة بينماهو شرير في سلوكه الاجتماعي ما بعده شرير .. فكرمه هذا حينئذ ناشىء عما يشعر به من مركب نقص كتكفير لخطئه . وستاراً لجريمته

صباه ولكنه لا يعدو ان يكون امـا راعيا لإبل اهله فيما اذا كان لاهله ابل كثيرة او حارسا لها في الفلاة على ظهر فرسه من غارة الغزاة ..

ولما كان عرب البادية معرضين دائما وابدا معرضين للآفات التي تصيبهم فلا تبقي عند احدهم (ثاغية ولا راغية) كغارة الغزو مثلا او كسني القحط التي تقضي على الزرع والضرع .. فان الامر لا يعدو ان يكون اهل عايد اصيبوا بكارثة من هذا النوع مما جعل عايداً يفر عن ابيه وأمه وذويه تائها هائما على وجهه محاولا ان يجد له عملا يوفر له لقمة العيش سو اء كان هذا العمل شاقا او مليئـــا بالمخاوف والاخطار ..

كان عايد يسمع وهو عند اهله عن الشام وعن خيراتها وانهارها واشجارها ووفرة العيش الهنيء وماء الفيجة المريء ومناخها العذب فشخص نحوها محاولا ان يجد له عملا ما يوفر له قوته اليومي .. وعندما حل في ربوعها ذهب ينقب عاصمة الامويين عن اي عمل يكسب به ما يسد رمقه ولكن اين للبدوي ابن الصحراء ان يحسن الاعمال المهنية التي يقوم بها ابن المدن فالبدوي لا يعرف الا مهنتين فقط وهما رعاية الابل او القتال على شتى انواعه .. وربما كانت المهنة الاخيرة احب الى نفسية البدوي الابي من الاولى طبعا . وكانت نفسية عايد من نوع النفوس التي طبعت على حب القتال وفطرت على الشجاعة والاقدام .. ولكن اين لعايد ان يجد في دمشق ميدانا يشبع به فراغ نفسه فليس في المدن شيء من ذلك ..

أيكون عايد اجيراً عند حلاق ام مساح احذية او عاملا عند طباخ ليقدم للزبائن اطباق الطعام ثم يغسلها بعد فضلاتها ام (جرسونا) في احد الفنادق او خادماً في احد مقاهي دمشق ؟؟ لا لم يقبل عايد اية مهنة من هذه المهن لنفسه حتى ولو بات على الطوى الليالي تلو الليالي .. فظروف حياته العائلية وتربيته الاجتماعية وما ورثه من بيئته وابائه كل هذه العوامل جعلت عائداً يحمل نفسا

كنفس ذلك الاسد الذي يقال عنه : ان شباباً من رعاة الغنم ذبحوا شاة من اغنامهم ليقتاتوا من لحمها وعندما اقدموا على سلخ جلدها جاءهم الاسد فلاذوا بالفرار هرباً منه .. وقد خيل الى الشباب ان الأسد لن يعتدي على اغنامهم ما دام ان هناك شاة مذبوحة بين يديه .. ولكن الاسد ترك الشاة الميتة وذهب يختار شاة من الغنم ليفترسها بيده ..

وهكذا كانت نفس عائد صنوا لنفسية الأسد الذي لا يأكل الميتة مهما بات على الطوى ، وبصرف النظر عما في ذلك من شذوذ المهم ان طبيعة الصحراء والادغال التي خلقت من الوحوش نفساً تأنف من أكل لحم الميتة ولا تستسيغ ان تدنو منها مهما لحق بها من جوع .. فانه حرى بتلك الطبيعة ان تخلق من البدوي نفساً مماثلة تقرف من كسب العيش عن طريق مهنة متواضعة من المهن السالفة الذكر كقرف الاسد من الجيفة عينا بعين .

ظل عائد في دمشق كالأسد بوسط القفص وجاءت ثورة المواطنين السوريين على الفرنسيين المستعمرين عام ١٩٢٥ وقد فكر عايد ان يشارك الثوار لابنفس الوعي والشعور العربي الشامل الذي يحمله اولئك الابطال الواعون لا لم يشاركهم بشيء من ذلك ، لا لانه بدوي ، والبدوي مع الأسف لم يتجاوز شعوره القومي حدود قبيلته خاصة بذلك العهد الذي لم يتسرب به الوعي العربي الشامل الى كافة ابناء الضاد بصورة عمت البادية كما عمت الحضر ، كما هو الامر الواقع الآن .. وانما كان تفكير عايد بمشاركته للثوار السوريين محصوراً على حب القتال وابراز موهبة الشجاعة الكامنة في خبايا نفسه او بصورة اصرح وأوضح كان الدافع لرغبته مشاركة ثوار سورية هو الفقر المدقع فالشاب يريد ان يشارك الثوار طمعاً في ان يجد ما يسد به رمقه مما يقع بين يديه ككسب يغتنمه من اسلاب العدو الباغي ليس الا .. ولكن حتى هذه الامنية لم يتيسر له تنفيذها لعدة موانع منها انه اعزل من السلاح ولا يملك من المال ما يبتاع به

وجبة يومه فضلا عن ان يبتاع بندقية وعتادا الخ .. منها انه حتى ولو قدر المستحيل واستحصل على السلاح بأية وسيلة كانت فانه ليس من السهل ان يقبله الثوار كمحارب بين صفوفهم ويطمئنوا له ما دام انه مجهول الهوية ...

ماذا يفعل عايد ؟ .. لقد اتيحت له الفرصة بقيام الثوار السوريين ليحارب ويقاتل ليكسب العيش من وراء هذه الحرفة الوراثية.. واخيراً قرر ان يلتحق بالثوار في مخابئهم وقد ازداد مضياً في عزيمته عندما ذهب يسأل عن شباب من قبيلته نفسها الذين كان يعهدهم يقيمون في حي متواضع في دمشق جمعته واياهم ظروف مماثلة ولكنه لم يجدهم وانما وجد وصية له منهم تشير ان رفاقه ذهبوا ليلتحقوا بالثوار منذ اليوم الاول. عندئذ صمم ان يلحق بهم الا انه ما لبث قليلاً حتى ورد اليه خبر يفيد ان رفاقه قد استولى عليهم الثوار وذكوهم كما تذكى الشاة ، وفي جانب هذا الخبر الذى اشيع عن مصرع ابناء قبيلته أشيع نبأ ثان مفاده ان حكومة الاحتلال الفرنسية افتتحت مكتباً لتجند فوج من الفرسان باسم الشركس وان الحكومة تتعهد بدفع ثلاثة عشرة جنيهاً ذهباً عثمانياً بالشهر كما تدفع مرتب شهر مقدماً لمن يقبل الانضمام لهذا الفوج من اي جنس يكون ومرتب الشهر المقدم يعتبر ثمناً للحصان الذي سيكون ملكاً للمتطوع ..

ظل عايد حائراً بين هذا العرض المغري من ناحية وبين معرفة مصير رفاقه الذين لم يأت منهم خبر يفيد انهم قتلوا فعلاً على يد الثوار او انهم التحقوا بالثوار وفازوا بالغنيمة والكسب اللذين لم يشغل فكر عايد الا هما ..

واخيراً .. تواترت الانباء التي لا تقبل الشك ان رفاقه وبنو قبيلته قتلوابيد الثوار ولكن هل كان قتلهم بيد الثوار كما اشيع او ان المستعمرين الغادرين وجدوهم ذاهبين الى الثوار فقتلوهم .. ومن ثم اشاعوا انهم قتلوا بيد الثوار ؟ .. وقد ظلت الحقيقة مجهولة حتى يومنا هذا .. الا ان الاخبار المتواترة تفيد انهم قتلوا بيد الثوار ، وهكذا ثبت لدى عائد ان بني قبيلته قتلهم الثوار ..

اذن ؟ .. ماله والذهاب الى القوم الذين قتلوا اقاربه وسوف يقتلونه ايضاً اسوة بمن قبله .. اليس والحالة هذه ان الاضمن لسلامته ولكسبه المادي ان ينضم الى فوج الشركس الذي هو اضمن بفائدته المحسوسة المغرية من الالتحاق باولئك الذين قتلوا رفاقه وسيلحقونه بهم ؟؟.

لم تطل مدة التردد عند عايد بين اختيار احد الجانبين خاصة بعد ما ثبت لديه ان رفاقه قتلهم الثوار لذلك بادر بتنفيذ رأيه الاخير اي الالتحاق بفوج فرسان الشركس فلم يتردد مكتب التجنيد عن قبوله فوراً ولا عجب ان يقدم له ١٣ جنيهاً ذهبياً كراتب شهر مقدم لا عجب بذلك فقد كانت ملامح الفتوة والشجاعة بارزة في محياة ومتجسدة بوجهه الصارم الذي هو كحد السيف .

لم يكن عايدبحاجة الى التدريب على ركوب الخيل ولا على معرفة استعمال السلاح .. فكلا هاتين الناحيتين كان مدرباً عليهما منذ نعومة اظافره .. اما الشجاعة فقد كانت مطبوعة بدمه ولحمه .

ولما كانت الشجاعة خلقاً في جبلة المرء والجبن ايضاً خلقاً فكما ان الجبان يفر هارباً عن ابيه في ساحة الوغى لينجو بنفسه .. كذلك الشجاع يقاتل قتال الابطال حتى ولو حكمت عليه الظروف ان يقاتل بجانب اعدائه ..

وما يقال عن الشجاعة والجبن يقال ايضاً عن الامانة والاختلاس وعن الوفاء والغدر فالوفاء خلق ايضاً يجعل صاحبه يفي مع الداعدائه والخيانة والغدر خلق يجعلان صاحبها يغدر باقرب الاقربين اليه ويخون اعظم من يحبه ويأمنه.

وهكذا كان خلق عائد الشجاعة التي لم يتجرد عنها وهو مع الاسف مع الد اعدائه وقد استعملها مع الاسف اقولها مرة ثانية وثالثة ضد بني عقيدته الروحية وبني دمه وبني وطنه ولغته محارباً بجانب اولئك المستعمرين الطغاة الذين لا تربطه بهم اية رابطة اللهم الا رابطة المنفعة المادية التي دفعته الى القتال بجانبهم ..

ولم يكن قتال عايد وشجاعته قتال المرتزق بل كان كقتال الشجاع الذي يقاتل كشجاع من اجل الشجاعه والشرف بصرف النظر عن كون الخزى والعار اللذين يناهما بسبب شجاعته الجنونية هذه هماسوأ واقبح الف مرة من عار الجبن الذي لا يستطيع ان يقبله لنفسه بل والذي لم يبد شجاعته هذه الا فراراً من وصمة عار الجبن الذي هو اقبح العيوب عند الاعراب ..

لقد اشتهر عايد بالشجاعة شهرةفائقة ونال ما ناله من الاوسمة الحربية تقديراً لشجاعته وجمع من المال ماهو كاف ان يشتري له ابلاً تجعله انساناً ثرياً بين قومه فاصبح الان ليس بحاجة الى البقاء في عمله هذا الذي شعر بالتالي بعذاب وجدانه وبوخز ضميره عندما يذكر انه يقاتل بجانب العدو ولم يكن عايد في هذا الجيش شرطياً مدنياً محافظاًعلى امن المدينة او شرطي صحراءمحافظاً على امن الصحراء من غزو البادية وسلب بعضهم لبعض .. لا لم يكن لا من هؤلاء ولا من اولئك وانما هو من فرقة الفرسان المحاربين فقد كان محارباً بجانب عدوه المبين ومقاتلاً لبني ملته وامته . . لقد شعر عايد ان كل ساعة تمر عليه في بقائه في جيش الاحتلال البغيض انما هي لعنة تاريخية ابدية ولذلك ليس لديه الا ان يستقيل من هذه المهنة اللعينة ولم يتردد الفرنسيون عن قبول استقالته وذلك انهم ليسوا بحاجة لان يدفعوا له ١٣ جنيها بالشهر ولا سيا وقد سحقوا الثوار .. ولذلك رحبوا باستقالته كما رحب هو بفراقهم خاصة بعد ما شعر بمقدار الاثم الذي ارتكبه في مناصرته لهؤلاء الغزاة الباغين .

ذهب عائد الى اهله جامعاً من المال ما لم يحلم بجمعه وابتاع ابلا ونصب بيتاً واصبح ذا جاه بين قومه .. ولكن شيئاً واحداً ظل يلاحقه وهو شبح اولئك المواطنين الذين كان في مقدمة الهاجمين عليهم والذين لا بد انه قتل منهم من قتل، ظل عايد يعاني من القلق النفسي والشعور بمركب النقص الشيء الذي كدر صفو عيشه وجعله امرأ لا يهدأ له بال ولا يطيب له عيش ولا يشارك رجال عشيرته في سرورهم وافراحهم .. حاول الرجل ان يقاوم مركب النقص الذي يشعر به

باعمال الزهد والتصوف والسخاء فبدل مجرى حياته رأساً على عقب .. فبعدما كان ذلك الشاب الوسيم الذي يظهر دائماً بمظهر الفتوة والتجمل والاعتناء بهندامه الخ .. اصبح الان في زي الناسك شكلاً وفي سلوك العابد تطبيقاً عملياً وفي خلق الكريم المحسن اعتقاداً وفعلاً .. قام بهذه الاعمال التي تعتبر انقلاباً من نفسه على نفسه ظاناً انه اذا واصل استمراره في اعماله هذه فانه سوف يذهب عنه ذلك القلق الوجداني الذي ازعجه في حياته ليلها ونهارها .. يقظاً كان ام نائماً .. ولكن صلاته النافلة التي يبتهل بها باستمرار آناء الليل واطراف النهار وصيامه الدهر المتواصل وسخاؤه في سبيل البر والاحسان وتسبيحه وتهليله الدائمين واعتزاله اندية قومه وابتعاده عن اللغو ، بل وتجرده من الدنيا زاهداً بكل متعها ومغرياتها كل ذلك لم يدخل في قلبه الطمأنينة والهدوء بل ظل شبح اولئك الشهداء الابرياء يلاحقه في محرابه وفي خلواته وفي سباته وفي كل حركة من حركاته وسكناته ..

ماذا يفعل التعيس بعد ذلك لقد اصبحت حياته عبئاً عليه .. كيف لا وهو المسلم الذي لم يهدد دستور الاسلام بوعيده لمرتكب اية جريمة كتهديده لقاتل المؤمن بقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيماً .)

وعندما يسمع عايد هذه الآية ويذكر ما جنته يداه بقتله لاخيه المؤمن وأي مؤمن هذا ؟ وبأي سلاح قتله.. ولصالح من قتله وتحت راية من كان يقاتل؟.. حينما يذكر ذلك يعود نادباً حظه الاسود وماقتا يومه التعيس الذي جاء به الى هذه الدنيا ولاعنا ظروفه السيئة التي آتت به الى ارتكاب تلك الجريمة النكراء ومحاولاً ان يريح نفسه من هم حياته هذا بأي وسيلة كانت ما عدا الانتحار لاجبنا من الموت او خوفاً من الردى وانما لما قرئه من وعيد في الدستور الاسلامي لقاتل نفسه .

سمع عائد بالحديث النبوي ما معناه : (يضحك الله من رؤية القاتل والمقتول في الجنة. فقيل كيف يكون ذلك يا رسول الله فقال : يكون المقتول قتل بيد خصمه عندما كان مشركاً ومن ثم يؤمن القاتل ويجاهد في سبيل الله ويبلي بلاء حسناً حتى يلاقى ربه شهيداً من اسهم احد المشركين كما استشهد اخوه المؤمن من سهمه فيلتقيان في الجنة وكلاهما نال الشهادة) ..

كان عايد يرى ان لا مخرج له من عذاب ضميره ومن الازمة النفسية التي يعانيها الا ان تتاح له الفرصه التي يجاهد فيها حتى يلاقي ربه شهيداً وكم تمنى وقوع ثورة اخرى بين المواطنين والغزاة المستعمرين لعله يقوم هذه المرة بعمل معاكس لعمله الاول عملاً يرضي به ضميره ويرضى عنه مولاه .. ولكن هذه الامنية طال مداها بدون ان تتحقق حتى بدأ جسم ذلك الشاب القوي يذوي الى ان ظل هيكلاً خاويا .. فمن رآه لا يظن الا انه ابن خمسين او ستين سنة وظل يزداد جسمه انحطاطاً وضميره ايلاما وكل يوم يمر عليه يكون اسوأ من اليوم الذي قبله الى ان جاءت بشائر الفرج والسرور توحي الى نفسه المعذبة بقرب الامنية التي كان يحلم بها .. لقد لاح له الان بريق من الامل عندما تناقل الركبان له احتمال وقوع حرب بين اليهود من جانب وبين المجاهدين العرب من الجانب الثاني.. لقد بدأت الشائعات تزداد كما بدأت آمال عايد تنمو وتزدهر كازدهار الورد في ايام الصيف .. وبدأ الدم يسير في عروقه وقد كانت المواصلات بين قبيلته وبين المدن شبه معطلة الامر الذي جعله يتحرى الاخبار من القادمين من مدن العراق المتاخمة لمنازل قبيلته بحرص شديد ..

وفي ذات يوم جاءت قافلة من الشام تزف له البشرى باسمى ما يحلم به من امان واعظم ما يداعب عقله الباطني من أمل .. انها البشرى التي ظل يرقص على اوتارها بزهو وخيلاء كالطاووس ويصدح على نغماتها كالبلبل .. لقد كانت خلاصة هذه البشرى تفيد ان الجامعة لعربية فتحت مكتباً في دمشق من اجل

تجنيد اي متطوع من المجاهدين العرب يرغب في الكفاح دون فلسطين والذود عنها من غزو اليهودية العالمية ومن وراءها دول الاستعمار الظالمة .

هلل عايد وكبر لهذه البشرى السارة التي طالما تمناها وابتهل الى الله سراً وعلانية سائلاً اياه تحقيقها .. اما وقد تحققت امانيه فلا يسعه الآن الا الذهاب الى دمشق قلب العروبة ومركز قيادة المتطوعين المجاهدين .. ولم يبت تلك الليلة التي بلغه به النبأ السار عند اهله بل سرعان ما اعد العدة وذهب فوراً ممتطياً راحلته النجيبة التي اعدها لمثل هذه الرحلة.. وكان اكره الناس اليه من اهله الرجل او المرأة اللذين يقولان له (اعادك الله علينا) لانه مصمم على ان لا يعود الى اهله..

كانت المسافة بين منازل بادية عايد وبين دمشق لاتقل عن ثلاثة عشر يوماً لمسير الابل النجائب ولكنه جعلها بسيره الحثيث مدة اقرب من الحد المعتاد . وصل عايد الى عاصمة الامويين بالامس ومركز الانطلاقات العربية اليوم ولم تكن البلاد غريبة عليه الآن فقد سبق ان جاءها عام ١٩٢٥ كما سلف ذكره .. وكان وقتذاك في آخر العقد الثاني من عمره وها هو الآن في بداية العقد الخامس كان وقتها في ريعان فتوته وشبابه اما الآن فقد طوى جسمه البائس وخز الضمير واوهن قواه الهزيلة شبح اولئك الشهداء الابرياء فأصبح من ينظر الى — وجهه الشاحب الذابل وجسمه النحيل الضامر لا يقول عنه الا انه في العقد السابع او الثامن من عمره ..

ذهب فوراً الى مقر قيادة المتطوعين محاولا الانضمام بصورة رسمية الى جيش المجاهدين المسمى وقتذاك (جيش الانقاذ) والذي يتولى قيادته فوزي القاوقجي ويتولى الاشراف على تنظيمه وتدريبه وتموينه المرحوم طه الهاشمي ..

وبعد الجهد الكثير والعناء الطويل تمكن عايد من مقابلة طه الهاشمي في المبنى القديم لرئاسة اركان الجيش السوري .. وبعد تبادل التحية بين الهاشمي

وعايد اوضح الأخير رغبته الصادقة بالانضمام الى جيش الانقاذ فدار بينهما الحوار التالي :

الهاشمي – انت رجل كبير السن ونحن لا نقبل الا الشباب ..

عايد – اعاهدك الله انني سوف اكافح كفاحاً لا يقوم به من هو في سن العشرين ..

– ومع كبر سنك لست مدرباً ..

– ابعثني لجبهة الحرب واذا لم اثبت لكم مقدرة فلك ان تعاقبني بما تريد ..

– على أية حال لا استطيع اقبلك بحكم كبر سنك ..

– انا اريد الجنة يا هاشمي وابواب الجنة مفتوحة للشهداء المخلصين لافرق بين الشاب والشيخ .

– اذا كنت تريد الشهادة صادقاً فهاهم اليهود اذهب وقاتلهم حتى تنال الشهادة ولا داعي لان اسجل اسمك ضمن المجاهدين بل انت سجل نفسك عملياً ..

– سوف افعل يا هاشمي ..

خرج عايد من مكتب الهاشمي وراح الى الموقع الذي اودع به راحلته فوضع الرسن في رأسها وسلمها رجلا يتولى بيعها وما هي الا لحظة حتى جاء له الرجل بثمن راحلته التي كان ثمنها الاساسي من بقية ذلك المال الذي جمعه من مرتباته عندما كان في سلاح الفرسان الفرنسي فذهب واشترى من ثمن ذلوله بندقية طيبة وعتاداً كافياً وقصد ميدان القتال رأساً . فألتحق بالمجاهدين ولحسن حظه وحظ المجاهدين ايضاً انه وجد على رأس احدى سرايا المجاهدين شخصاً

يدعى سعدون حسن من نفس قبيلته كما وجد في تلك السرية كثيراً من المتطوعين الذين يعرفونه بل ويعرفون عنه البطولة .. فكان السرور متبادلاً وبقدر ما سر بوجود مجاهدين يعرفونه جيداً بقدر ماسر اولئك المجاهدون الذين يعتبرون عايدا بشجاعته واقدامه سرية كاملة .. انضم عايد الى تلك السرية التي كان يقال لها السرية الاولى التابعة لفوج اليرموك الاول.. وكان هذا اسمها في بداية الحرب اما فيما بعد فقد سميت (السرية الثانية السعودية التابعة للفوج السعودي) ..

لقد بلغ عايد امنيته الآن من حيث المبدأ اما من الناحية العملية فانه لازال لم يبلغ منتهى امنيته بعد ولكنه في طريقه اليها هذا وقد اسعده الحظ بحضور اول معركة وثانية وثالثة الخ .. وكل واحدة من هذه المعارك كان يقوم بها باقدام الشجاع الذي يريد الشهادة ولا شيء غير الشهادة .. ولكنه لم يحظ بكل ما يتطلبه المحارب المنتصر على عدوه من انتصار وغنيمة الا الشهادة لم تتيسر له .. كان يطلب الموت ولكن كانت الحياة توهب له وقد جاءت الهدنة الاولى التي توقف بها القتال بين العرب واليهود مدة تقارب الاربعين يوماً وعاد عايد خلال تلك المدة الى حزنه وبؤسه .. وكل يوم يمر عليه من ايام تلك الهدنة اللعينة يعتبره يوم شؤم ما بعده شؤم .. وكل ما يخشاه هو ان تدوم الهدنة الى اجل غير مسمى وهذا يعني تحطيم امانيه وبقية آماله المعسولة .. لقد ظل الرجل ينتظر انتهاء الهدنة بفارغ الصبر وقد جاءه نبأ انتهاء الهدنة واعادة القتال ببشرى ما بعدها بشرى اليه وبالرغم من ان اليهود بعد الهدنة الاولى قد بلغوا من قوة السلاح الثقيل الشيء الذي يفوق ما كانوا عليه من القوة قبل الهدنة اضعافاً مضاعفة ولكن هذا شيء قد يحسب له رجال السياسة او من هو على شاكلتهم حساباً اما عايد فان هذه الناحية لا تهمه لا من بعيد ولا من قريب .. والسبب انه كان معتمداً على قوة ايمانه باحدى الحسنيين اما النصر على العدو واما الشهادة وكانت الاخيرة احب الى قلبه من كل شيء بل كانت امنيته الوحيدة وعزاؤه بوحدته وانسه بخلوته ولكنه يرى ان الوقت طال عليه بانتظار ما يستهدفه وما

تصبو اليه نفسه المطمئنة الطاهرة التي لا يطيب لصاحبها العيش ولا لذيذ المنام حتى يلاقي ربه شهيداً بعدما يبلي بلاء حسناً في الجهاد المقدس ضد اليهود المعتدين..

« انتهت الهدنة الاولى المشؤومة التي بقدر ما كانت بصالح اليهود بل امتدادا لاجلهم وتوطيداً لجذور سلطتهم في قلب وطننا العربي كانت كارثة علينا ووصمة عار تاريخية لا يمحوها الا انقلاب فكري يوحد امة العرب وعندما تتحد هذه الامة فان اسرائيل لا تستطيع ان تقف صامدة في وجه العرب لحظة واحدة ولا اعتقد انها بحاجة الى حرب بل سوف تنهار اعصابها وتتحطم نفسية رجالها بمجرد أن تتم وحدة امة الضاد لانها لم تهزمنا عسكرياً وانما هزمتنا بسبب اختلافنا وتفرقتنا .. ولهذا سوف نهزمها لا محالة عندما يزول هذا السبب نفسه بعون الله.. ولعل المطلع على مجرى الاحداث في تاريخنا العربي القريب يذكر قلق اسرائيل ومدى ما وصلت اليه من الانهيار والضجيج عندما شعرت في مناسبة ما بقيام وحدة او اتحاد بين الدول العرب .

* * *

ولنعد الآن الى عايد الذي كان ينتظر انتهاء تلك الهدنة والعودة الى السلاح بفارغ الصبر ..

لقد انتهت الهدنة وبانتهائها انتهى كل ما لدى عايد من بؤس وتشاؤم ولئن خاض قبل الهدنة معارك دامية واراد الشهادة بقدر ما استطاع ولم يحظ بها فانه هذه المرة سوف لا يترك الفرصة تفوته بدون ان يبلغ امنيته التي لا يطيب له عيش ولا يهدأ له بال الا بتحقيقها ..

لقد دارت المعركة الاولى بين اليهود والعرب وخاض غمارها عايد بشجاعة لا يقال عنها منقطعة النظير فحسب بل شجاعة تهور وغنم من اليهود رشاشاً ولكنه لم يحظ ايضاً بغنيمة الشهادة التي حارب وسيحارب من اجلها ...

سمع عايد ان هناك مفاوضات تجري بشأن وقف القتال بين العرب واليهود وهذا يعني بالنسبة له القضاء التام على جميع آماله وامانيه ، فسنه لم يشفع له حتى ينتظر جولة اخرى تأتي بها الطواريء او تخلقها المفاجآت ولا بد له والحالة هذه ان لا يدع الفرصة تضيع من بين يديه بل ينبغي له ان يبذل كل ما لديه من الجهد باهتبال الفرصـــة التي تمكنه من الوصول الى امنيته وان لا يتوانى عندما تأتي الفرصة المناسبة عن المبادرة بالحصول على الفوز بالغنيمة قبل ان تفلت من يديه كما افلتت بالمناسبات السابقة ومن ثم لا تتاح له الساعة التي يتمكن بها من الحصول على غنيمته التي تدغدغ خياله وتداعب آماله في كل حركاته وسكناته ..

وما ان جاءت معركة الشجرة الكائنة في لواء الجليل في عام ١٩٤٨ -١٣٦٧هـ حتى فاز عايد بغنيمته وبلغ اقصى ما تصبو اليه نفسه الزكية من امنية سعيدة ولقى ربه شهيداً وذلك بعدما اباد من اليهود برشاشه الذي اغتنمه منهم العــدد الوافر وذلك انه هجم على اليهود الغزاة المعتدين في وسط استحكاماتهم وحصونهم مما جعل الحقد يبلغ بالطغاة حداً جعلهم يحرقون جثمان الشهيد فغفر الله لعايــد واسكنه فسيح جنانه .. [١]

---

(١) وهكذا يأتي الخير احياناً عن طريق الشر وتأتي السعادة عن طريق الشقاوة ، ولئن كان الفقر قبحه الله العامل الاساسي الذي ادى بعايد الى ما وصل اليه من قتاله بجانب الفرنسيين المعتدين فان شعوره بجريمته واحساسه بمركب نقصه ويقظة ضميره الحي النير كل ذلـــك خلق منه انساناً لا يعترف بخطيئتها ويحاول ان يكفر عنها بالصلاة والصوم وقيام الليل والاحسان فحسب بل رأى ان يجود بنفسه الكريمة قرباناً لله وكفارة عما ارتكبه من خطيئة .. ومن جاد بالنفس الكريمة أجود .



اطلب الموت توهب لك الحياة

- ٤ -

احترت اي العناوين اضع لهذه الحادثة : اهو العنوان الاعلى ؟ .. ام اضعها بعنوان (اما الصدر والا القبر) .. فوضعت قرعة فجاءت على العنوان الاول وكلاهما من حيث المعنى واحد فهذا العنوان من الحكمة المأثورة عن الخليفة الاول ابي بكر رضي الله عنه فكانت من أهم وصاياه لجنوده هذه الكلمة : (اطلب الموت توهب لك الحياة) .. واما الكلمة الثانية فانها مأخوذة من بيت الشاعر القائل :

ونحن اناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين او القبر

ولا شك ان المعنى واحد في كلا الامرين والشيء الذي نحن في صدد ذكره الآن رجل كتب عنه الكتاب حتى كلت اقلامهم وتحدث عنه مؤرخو العرب وغير العرب حتى اصبح الكاتب الذي يريد ان يكتب عنه كأنه يردد عبارات معينة قد تختلف عما كتبه سابقوه من حيث اللفظ ولكنها لا تختلف قيد شعرة من حيث المعنى ولذلك نجد ان الكتابة عنه بأي معنى من المعاني يكون من تحصيل الحاصل .

والذي يخفف الوطأة علي امر واحد وهو انني بهذا الباب بالذات اكتب عن الشجاعة التي هي من خلق العرب وشيمهم وكتابتي عن هذه الصفة بصورة خاصة وعن اي معنى من المعاني التي تعتبر (من شيم العرب) وعاداتهم بشكل

اشمل واعم محصورة على الاحداث والقصص التي لم تدون بعد في الكتب المطبوعة تلك التي اخذتها عن صدور الشيوخ الذين منهم من لقي ربه ومنهم من هو في طريقه اليه .

والقصة التي اقدمها بين يدي القارىء وان كان بطلها كما اسلفت لم يترك الكتاب من ترجمة حياته شيئاً على حد اجتهادهم الا جاؤا بـــه ولكن المعنى الذي سوف اورده لم يشر اليه احد لا من قريب ولا من بعيد .

وخلاصة البحث يأتي كما يلي :

عندما خرج المرحوم الملك عبد العزيز من الكويت على رأس النخبـــة الاشاوس قاصداً بلاده الرياض التي كانت تحت نفوذ المرحوم الامير عبد العزيز بن رشيد والتي يحكمها بالنيابة عنه عجلان رحمه الله كان الفتى قد عقد العزيمة بصورة تختلف عن مغامرته الاولى التي حاول بها ان يهجم على نائب ابن رشيد والتي باءت بالفشل .. اما محاولته الاخيرة والتي كانت بداية مجده وانتصاراته كما كانت بداية هزيمة عدوه .

خرج الفتى من الكويت وهو واضع باحدى يديه الكفن من جهة والنصر من الجهة الاخرى وعندما دنا من مدينة الرياض ليلا رسم الخطة التي صمم على تنفيذها لا محالة بعد ذلك طلب من رفاقه ان يسيروا معه الى مكان ما فذهب النخبة بمعية قائدهم بدون ان يعرفوا مادا يريد حتى وصلوا الى المقبرة ..

وكانت الغاية من ذلك هو ان يقف برفاقه عند قبر شقيقه فيصل [1] ويعلن لهم انه اما ان ينهي مهمته بنصر على العدو والقضاء عليه او انه سيلاقي حتفه ، فان كانت الاولى فبها وان كانت الثانية فانه يوصي ان يكون قبره غداً بجانب شقيقه .. ثم طلب من رفاقه المغامرين ان يختاروا احد السبيلين : اما المضي

١ : ثمة رواية تفيد انه قال لرفاقه تلك الجملة بدون ان يذهب بهم الى المقبرة .

معه الى هذه العزيمة ومن لم يكن كذلك فما عليه الا ان يذهب الى حيث يشاء، فلم يتخل عن مشاركته بالمغامرة احد .

هذه الكلمة التي تعتبر من أهم القواعد الاساسية التي بنى الفتى على اساسها مغامرته الناجحة ، لم يشر اليها أي مؤرخ .

وبالنظر لما لهذه الجملة من اثر فعال في مجرى تاريخ الجزيرة ولما تعتبر لنا عن اقدام وشجاعة قائلها فقد وجدنها صالحة بأن اضع لها مكانا ضمن فصل الشجاعة في حقل الشيم العربية .



اما ان يموتوا ظمأ او يحيوا شجعانا

-٥-

كثيراً ما يقع في شمال شبه الجزيرة صراع مستمر بين قبيلة شمر وبين قبيلة عنزة فالاولى قحطانية والثانية عدنانية ، وكانت الحرب بينهما سجـــالا والغزوات متبادلة ، ولهاتين القبيلتين من العادات والتقاليد ما هو متقارب اكثر بكثير من تقاربهما في أية قبيلة اخرى واجمل سجية يتفقان عليها هي اعترافهما ببعضهما للبعض بالشجاعة والكرم والمروءة .. وبالرغم من ان العداوة التقليدية التي بين هاتين القبيلتين تكاد ان تكون من ارسخ العداوة القبلية قدما ولكن رغم ذلك نجد كلا منهما ينظر لصاحبه نظرة اجلال وتقدير .. وهذه الظاهرة التي هي امتداد للخلق العربي الاصيل تتجلى بصورة بارزة على افواه شعراء كلتا القبيلتين في شعرهما الشعبي الذي هو المرآة المنعكسة عن اخلاقهما فنجد الشاعر مبيريك التبيناوي شاعر قبيلة شمر في عهده منذ مائة وثمانين سنة نجد هذا الشاعر في كثير من شعره يمتدح فرسان قبيلة عنزة وعلى رأس اولئك الفرسان فارس عنزة المشهور (عقاب) العواجي ، فنجد التبينـــاوني يقول في قصيدته التائيـــة الطويلة ما يلي :

وعقَابْ يامَا قالَ بالبْيتْ قمْهاتْ   عَزّي لكَم يالَابةٍ فاقِدِينَه

يقول الشاعر ان عقابا كريما مضيافا فكم من مرة ومرة قال لرجاله في بيته اذهبوا واتوا لنا بكذا من المائدة للضيوف هذا المعنى بقولـــه الشاعر في صدر البيت اما في عجز البيت فانه يقول ما اكبر مصيبة القبيلة التي تفقد كريمـــا شجاعا (كعقاب) .

وفي قصيدة بائية للشاعرالتبيناوي نفسه وفي مناسبة اخرى نجد الشاعر ايضاً يشير الى الفارس عقاب ورجال قبيلته فيقول :

أولاَدَ وَايِلْ كِنّهم جَارى السَّيِلْ — قِدّامِهم غَلْبا يُهدُّون الأصْعَابْ
الكل منهم فَارَسِ يدّبَ الخَيلْ — متقَابِلين مِثْل أباَ زَيدوذِيَاب

يقول الشاعر في صدر البيت الاول ان قبيلة عنزه كأنهم في الحروب السيل الجارف وفي عجز البيت ذاته يقول امامهم قبيلة شمّر الذين يستطيعون ان يقفوا موقف التحدي للفرسان الجبابرة ..

وفي صدر البيت الثاني يقول الشاعر كل من فرسان عنزة وفرسان شمر لهم مواقف مشهورة بالفروسية وفي عجز البيت يوضح المعنى الذي يشير اليه بهـذا الشأن فيقول ان ابرزفارس من قبيلة شمر التقى بابرزفارس من قبيلة عنزة فهما اشبه ما يكونان بابي زيد الهلالي المشهور وبذياب ابن غانم الفارس المشهور ايضاً والشاعر يقصد بهذا المعنى هايس القميطاحد فرسان قبيلة شعر وعقاب العواجي اشهر فرسانقبيلة عنزة بزمانه المقصود انشاعر قبيلة شمر عندماامتدح بقصيدته التائية والبائية فرسان قبيلته لم ينل من فرسان قبيلة عنزة بأدني هجاء بل اعترف لهم بالفضل كرجال ابطال ينظر اليهم بعين ملوها التقدير والاعجاب كما نظر لفرسان قبيلته بنفس العين..وهذا هو الخلق العربي الاصيل فلم يكن للقذف يوالسباب في ادبهم مكان ، وهذا شاعر قبيلة عنزة واحد ابطالها المدعو مشعان بن زيدان عندماجاء بقصيدته التي امتدح بها قومه ولكنه في الوقت ذاته امتدح ايضاً رجـــال قبيلة شمر بالرغم من ان رجال قبيلة شمر في تلك الحادثة كانوا مقررين ان يتركوا ابن زيدان وغزاة قبيلة عنزة يموتون ظمأ لولا ان غزاة عنزة قاتلوا قتال الابطال حتى هزموا قبيلة شمر وشربوا الماء الزلال بالقوة لا بالرحمة وبالسيف لا بالمنة.

والقصة وقعت حوالي عام ١٢٣٤ هـ واليك مضمونها كما يلي :

خرجت حجافل غزاة من فخذ يقال له الصقور، ومن قبيلةعنزة ، قاصدين قبيلة شمر ، فبلغ المغزوين خبر الغزاة . فاخذوا لهم الحيطة. كما ان الغزاة ادركوا انه لا مكان لهم بالطمع باغتنام شيء من ابل العدو ، ما دام انه اصبح على اهبة الاستعداد . ومن الاعمال التي اتخذتها قبيلة شعر ، من اجل محاربة العـدو والحيلولة دون مطامعه، انها اعدت العـدة لضرب حصار على الآبار التي يحتاج العدو ، لان يستقي منها فيما اذا مسه الظمأ – اذ لا بـد من ان يحس بالعطش فيحتاج الى الماء ، لان الظرف كان صيفاً – شديد الحرارة . .

وكان موقع الماء الذي لا بد للغراة من ان يمروا به هو ما يسمى (الحزل) .
فجاءت شمر وطوقت هذا المكان كي لا يتمكن العدو من ان يستقي منه .
وكان سبيل الغزاة محتوماً على ان يكون على هذاالبئر الغزير بمائه والزلال القراح بطعمه ، ولكن هؤلاء الغزاة بعد مادنوا من البئر بلغهم الخبر ان العدو انذر بهم وانه طوق البئر بكل ما يملك من قوة السلاح والرجال . ولكن هذا النبأالسيء لم يبلغ الغزاة الا بعد ما دنوا من البئر وابتعدوا عنالآبار الاخرى مسافة بعيدة. او بالاحري بعد ما بلغ بهم الظمأ حداً لا يطاق . فما يسعهم بعد ذلك الا احدى السبل الآتية . – اما ان يستسلموا لشمر بدون قيد ولا شرط . واما ان يموتو ظمأ – واما ان يغامروا بانفسهم ويهجموا على العدو المتحصن بالخنادق المحفورة بحيث يسهل على اعدائهم ان يقتلوا منهم ما شـاء الله ان يقتلوه . بينما عدوهم المتحصن في حصنه المنيع لا يستطيع رصاص الغزاة المهاجمين ان يمس احداً منهم بسوء ـ لقد فكر الغزاة ورأوا ان لا محيص لهم من اقتحام احدى هذه السبل الثلاث . فرأووا ان السبيل الاول قد يكون فيه نجاتهم وسلامتهم . ولكن هذه النجاة وتلك السلامة لم يكونا مضمونتين وان كان هناك شيء من السلامـة . فانها سلامة لم تكن الا بدفع الثمن اغلى وانفسما يمتلكه العربي ويفخر به .ـالا وهي كرامته – وهذا الثمن يهون على العربي الحر ان يدفع حياته قرباناً له . ولا

ولا يستهتر بكرامته في سبيل حياته الفانية . - او السبيل الثاني وهو ان يستسلموا للظمأ كي يفتك بهم فيموتون ميتة رخيصة ، كما تموت السوائب بدون أن تدفع ادني ثمن يذكر وهذا كيف يمكن ان ... يقبلوه ... وهم يسمعون حمود العبيد الرشيد يقول :

لَاخيرَ في نَاسٍ هلاكي وذلاَّن   مَا يَجْدعون أرْقَابَهْم بَالَمهافي
اما تِجِيْ بِعقُودْ حصٍ ومرجان   وان عاضبت يعلها للذلافي

يقول الشاعر في صدر البيت الاول . ان من يبلغ به الامر الى درجة من الهلاك الذي يهدد حياته . بالموت - ثم مع ذلك يكون جباناً ذليلاً فهذا لا يستحق ان يقال له انسان . لانه لا خير فيه . ومن لم يكن لا خير في حياته من بني الانسان فمعناه ان في حياة السائبة منفعة وفائدة اكثر منه . وفي عجز البيت داته يقول الشاعر - لماذا لا يغامرون بحياتهم - هؤلاء القوم الذين بلغ بهم الهلاك الى درجة الفناء والموت ...

وفي البيت الثاني يقول الشاعر ان المغامرة بحياة امثال هؤلاء اصبحت الزامية . بالنسبة لهم ، لانهم بهذه المغامرة - على رأي الشاعر - لا يخلون من امرين - فاما ان يربحوا المعركة فيحيوا حياة سعيدة ، وشريفة مرفوعي الرؤوس ، موفوري الكرامة - ثم يقول : - واما اذا فعلوا كل ما لديهم من الجد والاجتهاد ولم يساعدهم ، ذلك الجد ، فعند ذلك يتحتم عليهم ان يموتوا ميتة الكرام ولتكن بعد ذلك الف داهية وداهية ما دام ان النهاية هي الموت . وهذا المعنى الذي قاله الشاعر حمود العبيد الرشيد ، سبق ان اشار اليه ابو الطيب المتنبي بقوله :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر جالساً
فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان ثروة أو منية
لعلك ان تحظى بواحدة عذرا

وهذه المعاني سواء التي وردت باللغة الشعبية على لسان الشعراء الشعبيين اوالتي وردت على لسان شعراء اللغة العربية الفصحى كالمتنبي وغيره وكل من هذه وتلك انما تعبر عن نفسية العربي الحر . في كل زمان ومكان .. ولذلك عندما يكون السبيل امامه محاطاً بالمخاطر والاهوال : ولم يكن نصب عينيه الا احد الامرين اما الاستسلام – وهذا يخالف شيمة العربي وتقاليده – واما الاقدام فاما ان يحيا شريفاً او كما ذكرنا يموت كريماً .

وهكذا – ... نجد هؤلاء الغزاة اختاروا لانفسهم السبيل الاخير فجاؤوا برحالهم ، وربطوا كل واحدة بذيل الاخرى وساقوها امامهم وهجموا بعد ذلك : والابل عادة اذا سمعت الرمي يزداد جريها . وكل ما ازدادت هذه الرجال جرياً يزداد هجوم الغزاة الذين يدفعونها الى الامام ويدفعون انفسهم حتى يقفزوا على المتحصنين بخنادقهم . – وازاحوهم عنها بحد السيف او كما يقال في المثل الشعبي(بخشم البنادق) – ...

فشربوا الماء الزلال بالقوة .. كما ذكرنا .. لا بالمنة ولا بالاستجداء ولكن بعد ما دفعوا ثمناً غالياً لامن رحالهم فحسب ... بل ومن خيرة شبابهم كما هو واضح من معاني الشعر الشعبي المتبادل بين شاعر الغزاة وبين شاعر المغزوين ... واليك قول شاعر الغزاة المدعو مشعان بن زبدان [1] ... :

انتم وحنا تحاربنا	يا زوبع والسنا عيسي
حنا ويلكم تراهنا	ان ما رجعتم مفاليسي
الطيب ما هو لكم عنا	يا كاسبين النواميسي
قلنا لكم جنبوا عنا	يا محرقين المحاميسي
لعيون من نشدن عنا	نصلهن للمتاريسي

(١) مشعان من نفس قبيلة **عنزة** – ومن عشيرة الصقور ، قتل رحمه الله في غزوة اخرى صبها على قبيلة شمر فجرح جرحاً خطيراً أودى بحياته ...

سبق ان اشرنا الى القصيده التي من هذا البحر المسمى (هجيني) لا يمكن ان تتجارز عشرة ابيات وهي ادعي للحفظ ، اكثر عند الرواة لا من حيث قلتهـا فحسب بل من حيث ان نوع القصائد التي على وزن هذه القصيدة كثيراً ما يتناقله هواة الشعر من الفتيان ، فيترنمون به في الاسفار والخلوات . الخ ...

والشاعر هنا عبر بكل فخر واعتزاز عن كسبهم للمعركة بدون ان يمس اعداءه بأدنى هجاء بل نجده هنـــا يمدحهم . ويثني عليهم كما هي شيمة شعراء القبيلتين .

يقول الشاعر في البيت الاول والثاني يخاطب اعدائه قائلاً نحن وانتم اصطدم بعضنا ببعض ووضعنـــا رهاناً بيننا ، أي منا سوف يخسر المعركة . ومن الذي سوف يربحها . وفي عجز البيت الثاني يقول الشـــاعر : وها انتم خسرتم المعركة ونكصتم على اعقابكم مفلسين .

ويقول في صدر البيت الثالث ، (ان الطيب) لم يكن وقفاً لكم من دوننـــا وكلمة الطيب باللغة الشعبية غالباً ما يقصد بها الشجاعة .
يقول : انتم واثقون من انفسكم انكم شجعان ، ولكن لا تنسوا اننا نحن يضاً ننافسكم على هذه الشجاعة . ونجد في عجز البيت زيادة بالتأكيد لما هو في صدر البيت قائلاً . : ليس المجد والشجاعة وقفاً لـــكم . وان كنتم معروفين باكتسابكم للثناء .

وفي البيت الرابع يقول الشاعر مخاطباً خصومه قائلاً : الم نقل لكم اجتنبوا الوقوف امامنا ياايها الكرام – وقوله في عجز هذا البيت (يا محرقين المحاميسي) اي يا ايها الكرام الذين يحرقون القهوة باستمرار لضيوفهم .

وفي البيت الخامس الختامي ـ ينهج الشاعر منهج الشعراء الشعبيين بهذا الصدد ـ وهو افتخارهم بأنفسهم أمام النساء ـ فيقول ابن زبدان كانت شجاعتنا

من أجل الفتيات الجميلات . اللواتي سوف يسألن عنا وعن بطولتنا ـ من أجلهن سقنا رحالنا وانفسنا حتى طردناكم عن الخنادق التي أنتم متحصنون فيها ..

ويرد عليه شاعر قبيلة شمر الذي لم يردني أسمه بقصيدة لم احفظ منها سوى بيتين فقط . فيقول :

لو كثرنا كثركم حنـــا ... لمـــا وردتم المتاريسي
الجيش ثلثين ما ثنـــا ... والزلم نصفه مفانيسي

وهذا الشاعر على حد زعمه يقول :

انكم غلبتمونا بكثرة عددكم الذي يربو على عددنا . فيؤكد بأنه لو كان عددهم مكافئا لعدد الغزاة لما استطاع الغازون أن يصلوا اليهم بخنادقهم ..

وفي البيت الثاني يقول : ومع هذا استطعنا أن نثبت حتى اننا قتلنا ثلثي الرحال ونصف الغزاة .

وعلى كل فقد كانت الغلبة والنصر للغزاة وفي هذه الغزوة وقعت حـــادثة جديرة بالاشارة . ومضمونها كالآتي :

يقول الرواة ـ ان شخصا من الغزاة أغمي علية من الظمأ . وذلك في الحين الذي كان الغزاة قريبين من الماء ، وقبل ان يتبادل الطرفان اطلاق النار ،وكان هذا الشاب من بين الغزاة وكان الشاعر مشقان وسيما وذا حظ عظيم عند الجنس اللطيف . وبالاضافة الى ذلك كان شاعرا شعبيا مجيدا خاصة في شعر الغزل الرقيق ـ وسريع البديهة . فيما اذا حضر المهرجان الذي يسمى عند بادية الشمال بـ (الدحة) [1] ومنهم من يقول له « المصنع » ولابن زيدان في هذا الميدان صولات وجولات ، وقليـــل من ينافسه من الشباب الامر الذي جلب له حقد وحسد كثير من فتيان قبيلته ،

وعندما وقع أحد الغزاة مغميا عليه كما ذكرنا ، عند ذلك وقف شاب من منافسي ابن زيدان ودنا منه وقال :

(أرني شجاعتك يا ابن زيدان الآن هذا رفيقك بحالة احتضار من الظمأ ثم أردف قائلا : ليست القضية اليوم قضية (دحة) أي رقص . وغناء عند الفتيات .

وانما هي قضية شجاعة وبطولة ثم ختم حديثه مكررا العبارة نفسها قائلا :

(أرني بطولتك الآن .. لا بطولة المصنع .. أنقذ رفيقك من الموت بشربة من الماء .. وها هو الماء قريب رؤية العين .. أقرب مسافة من مسافة المصنع الذي كان بينك وبين منزلك . الذي كنت تسبقنا اليه . في أيام السلم وساعات اللهو .. الخ ..) ..

لم يستطيع ابن زبدان ان يحتمل هذه التحديات .. بل سرعان ما اختطف دلوا وذهب الى احدى الآبار التي احاط بها وطوقها فتيان قبيلة شمر من جميع الجهات .. فتوشح بحبال الدلو على ذراعه .. وراح يصفق و (يدح) أي يرقص بمشيته كما كان يفعل في تمايله ورقصه عندما يكون في قلب ذلك المكان الذي يمرح ويصفق فيه الفتيان وترقص فيه الفتيات .. وقد استمر بمشيته هذه أو هي رقصته حتى وصل الى البئر .. وأدلى دلوه .. ثم ملأه ماء .. وعاد مسرعا وسقى رفيقه المغمى عليه ..

وموضوع الاعجاب والعجب . هو أن قبيلة شمر عندما رأوا هذا الفتى

---

(١) هو اسم يطلق على لعبه يقوم بها فتيان البادية وفتياتهم . فترقص احدى الفتيات على نغمات الفتيان الذين يرددون بيتاً من الشعر يقوله شاعر هذا المسرح .. ثم يصفق الجميع بعدما ينشد البيت ويلحنه ..

وتأتي الفتاة فترقص على هذه النغمات وكان ابن زيدان بطلا بهذه اللعبة ومحطا لانظار الفتيات

مقبلا على البئر (بمشية هسترية) .. بدون أن يحمل سلاحا تركوه بدون ان يطلق أحدهم عليه رصاصة واحدة .. ويؤكد الرواة .. بأن قبيلة شمر عندما رأوا هذا الشاب مقبلا على البئر بدون سلاح تكهنوا بالامر الواقع .. واعتقدوا أن هذا الفتى الشجاع .. لا بد الا أن يكون قد تحدى رجولته واحد من قبيلته كما هو الامر الواقع .. فعفوا عنه ولم يطلقوا النار عليه .. شيمة منهم بصفته اعزل .. من السلاح .. وتقديرا منهم لبطولته ، ويزيدنا الرواة أيضا تأكيدا بأن فتيان قبيلة شمر عندما رأووا ابن زيدان لم يضع في فيه قطرة ماء.. بعدما غرفه من البئر :. عند ذلك ثبت لديهم الدليل القاطع أن هذا الفتى لم يغامر هذه المغامرة ليشرب هو بنفسه ، وانما فعل ذلك انقاذا لغيره .. ولهذا لم يمسسه أحد منهم بسوء ..

شجاعة وصبر فوق طاقة الانسان

- ٦ -

لم يكن ثمة بلد في شبه الجزيرة العربية اهلها على جانب كبير من الحيوية التي تتجاوز الحد المعتدل كأهل الجوف اي المسماة سابقا بدومة الجندل .. كان اهل هذه البلادلا يدوملهم استقرار قطعيا وذلك قبل ان يوحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، كانوا قبل تلك الفترة في حروب اهلية دامية وثورات داخلية مستمرة فهم من قبائل مختلفة .. فالقرشة ضد قبيلة المعاقلة والمعاقلة ضد القرشة وهكذا .. دواليك فلا هؤلاء يذعنون لهؤلاء ولا اولئك يذعنون للاخرين .. فلو توفرت القيادة الشعبية لزعيم ما من زعمائهم وما اكثر زعماءهم لو توفرت مثلا هذه القيادة فانهم لايذعنون لهذا الزعيم ولن يذعنوا .. والذي درس ادبهم الشعبي يدرك للوهلة الاولى ما لهؤلاء القوم من نفوس ابية لا تعرف الاستكانة ولا تبيت على الضيم .. ولعدم وجود القيادة الشعبية فيهم او على الاصح لعدم اذعانهم لقيادة بعضهم بعضا نجدهم دائما يساومون ابن رشيد الحاكم لمدينة حائل وضواحيها الكائنة شرقا قاعنهم وبين ابن شعلان امير قبيلة الرولة التي تقطن بادية الاراضي السورية الكائنة غربي الجوف .. وحتى هذه المساومة لا نستمر طويلا فهم اذا استدعى بعضهم مثلا ابن شعلان وجاء هذا بجيشه وكامل قوته وحكم البلاد ووطد الامن وحسم النزاع الى فترة من الوقت ثم ترك البلاد وذهب الى الصحراء بحكم انه بدوي لا يستطيع ان يبقى في البلاد ويترك ابله وماشيته وقبيلته بدون مرعى ولكنه يضع نائبا عنه من احد رجال قبيلته ،

وعندئذ يذهب البعض الاخر المضاد لزعيم القوم الذي استدعى ابن شعلان يذهب هذا الى ابن رشيد فيستدعيه فيأتي الثاني ملبيا لدعوة مضيفيه فيطرد نائب ابن شعلان او يقتله هــذا الزعيم الداعي لابن رشيد ليثبت للامير الرشيدي صدق دعوته وولائه له كما فعل ذلك احد زعماء الجوف وهو المدعو رجا ابن مويشير الذي قتل نائب ابن شعلان المدعو (عامر المشورب) ثم بعـد ان قتله ذهب يستنجد بسعود بن رشيد وذلك عام ١٣٣٨ هـ حيث جاء هذا واستولى على الجوف بعد حرب ضروس دامت بين ابن رشيد الذي جاء منجدا لابن مويشير وبين ابن شعلان الذي جاء ليأخذ الثأر من قاتل نائبه ويعيد سيطرته على البلاد من جديد وكما ان ابن رشيد له الانصار الذين استنجدوا به من اهل البلاد كذلك ابن شعلان له انصاره السابقون .. وهكذا دامت الحرب بين الفريقين مـــدة طويلة وكل ما يقال عن اهل الجوف هو انهم اناس لا يستقر لهم قرار ولا يمكن ان يذعنوا لحكم اي واحد منهم ولولا ان قيض الله لشبه الجزيرة المرحوم الملك عبد العزيز ووفق لتوحيد البلاد ودخلت الجوف ضمن هذه الوحدة المباركة التي نرجو ان تكون نواة لوحدة عربية شاملة لولا ذلك لبقيت الجوف على ما كانت عليه من عدم الاستقرار ومن الحروب الاهلية الدائمة . ومن المساومة بالعهود فيعاهد بعضهم ابن شعلان مثلا فيأتي هذا حاكما احيانا ثم يعاهد الجانب الثاني من اهلها ابن رشيد فيقدم هذا حاكما طورا آخر وحتى ابن رشيد اذا حكم بلدة الجوف وان كان حضريا ويختلف عن ابن شعلان البدوي الذي يترك البلاد من اجل رعاية ابله .. حتى هذا يترك البلاد ايضاً .. ويضع نائباً له ويذهب الى عاصمة امارته حائل ومن هنا تبتدىء المسرحيـــة المتكررة اي يسهل على من يريد ان يستدعي ابن شعلان من اهل الجوف ان يستدعيه بكل سهولة .. وفي حوالي عام ١٣٣١هـ كان الجوف تحت نفوذ ابن رشيد وكان واضعا نائباً من قبله ومن اصهاره يدعى سبهان العلي وهو غير سبهان الاول وتحت امرة سبهان ما يزيد عن مائة مقاتل من خيرة فتيان رجال ابن رشيد وقد حكم ابن رشيد الجوف هذه المرة مدة طويلة من الزمن فتوطد الامن واستقرت الاوضاع

وهذا شيء لم يألفه اهل الجوف الذين يعبر لنا لسان حالهم عن المعنى الـذي اشار اليه بعض العرب الذين لايحبون ان يتقيدوا بأي قيد من السلطة حيث قال :

ولذيذ العيش ما كان فوضي ليس فيه حاكم او امير

ولذلك ذهبوا يستدعون النورى ابن شعلان ليحكمهم .. فجاء هـذا ملبياً لدعوة مضيفية فعلم نائب ابن رشيد بما قام به اهل الجوف فلم يسعه الا ان جعل من مقر امارته حصناً له ولجنوده ولحسن حظه ان القصر فيه بئر ماء كافيه من المؤونة ما يكفي لهؤلاء الجنود مدة محدودة .. وما زاد على هذه المدة فسيكون حتماً على حساب ما يتحمله الجنود من صبر وجلد ..

كان آمر السرية على جانب كبير من المعرفة بأساليب الحروب وخاصة حروب الحصار ولذلك قام الرجل منذ اليوم الاول يقتر على جنوده مؤونتهم بالتقسيط وبدرجة محدودة لا تتجاوز لقيمات من (عصيد) البر الذي لا يعدو من كونـه طحيناً مسلوقاً بالماء الفائر لا يمازجـه اي شيء من السمن او الخضروات فضلاً عن اللحم ..

لقد مضى الاسبوع الاول وتلاه اسبوع ثان وثالث الخ .. والحرب قائمة على قـدم وساق والقلعة مطوقة من جميـع الجهات فلا نجـــدة ولا امل للمحاصرين بالنجدة .. فالامير ابن رشيـد في شغل شاغل عنهم والعــدو كل يوم يزداد قوة معنوية واهل البلاد كلهم رحبوا بمجيئه ويحاربون العــدو المحاصر بجانب جنود الشعلان جنباً لجنب .. وكان ظن النورى الشعلان ان آخر مدة يستطيـــع المحاصرون استمرار القتال اسبوع او اسبوعان الى ابعد حد يمكن ان تتحمـله طاقتهم ، وكان تقدير الشعلان لا يعدو عن ان يكون صوابــاً من حيث التقدير الواقعي الذي يمكن ان تتحمله طاقة الانسان في حالة كهذه ولكن التجارب اثبتت ان للانسان طاقة من القوة اذا شاء ان يستغلها في حالة امتحان مـــا لا يمكن ان تحصر بزمان معين او يحدد لها مدى معلوم ... وقد ادرك ابن شعلان انه خاطيء وذلك بعد ما مضى الاسبوعان وتلى الاسبوعين شهر وتلى الشهر

شهر ثان وثالث ورابع ..

رأى ابن شعلان انه كلما زاد الحرب وزادت مدة الحصار زاد هؤلاء الرجال صلابة وعناداً وقوة وبأساً فضاق بهم ذرعاً فهو لا يعلم لهم اي مصدر ياتيهم التمويل منه فجميع السبل مقطوعة عنهم وحتى لو اراد ابن رشيد ان يمولهم فانه لا يستطيع ذلك بحكم قوة ابن شعلان الضاربة حولهم بالاضافة الى اهل البلاد الذين تحيط بيوتهم المنتشرة حول القلعة المحاصرة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ..

كان المحاصرون (بفتح الصاد) يأملون في اول الامر ان تأتيهم نجدة من اميرهم ابن رشيد ولكنهم في آخر الامر يئسوا من مجيء اية نجده وذلك بعد ما تسلل عليهم مندوب يقال له سعد الصلعا من قبيلة شمر الذي استطاع ان يغامر بنفسه وتسلل خلسة في آخر[1] الليل هو وراحلته في القلعة المحاصرة، فكان الصلعا يحمل لسبهان قائد السرية رسالة من اميره تفيد ان الظروف غير مواتية لنجدته. وان عليه ان يستسلم بأية طريقة يختارها لنفسه من طرق الاستسلام .

كان قائد السرية قبل هذه الرسالة مصراً على عدم مهادنة العدو ، ولكنه بعد الرسالة وجد نفسه مضطراً للتسليم ، لا للاستسلام و - اي انه على استعداد ان يسلم للعدو ، بقيود وشروط ، تصون كرامته هو ورفاقه الابطال - لا ان يستسلم بلا قيد ولا شرط فيضع نفسه موضع الخنوع والذلة ، تحت رحمة العدو ، ولكن ابن شعلان كان في بداية الامر على استعداد لأن يقبل التسليم المشروط ، وذلك قبل ان يأتيه الأخوان الشقيقان اللذان فرامن القلعة المحاصرة ،وهما حمود السيف ، وعبد المحسن السيف . وذهبا لابن شعلان واخبراه بأن قائد القلعة ورجاله ليس لديهم من المؤنة ما يقوم بأودهم وأكثر من ذلك أكد الاخوان لابن شعلان ان القائد في اول الامر كان يفرق بيده على المقاتلين كل يوم حبيبات من التمر لا تبلغ عدد اصابع الكف وكان المقاتل يضع حبة التمر في فيه فيظل يمتصها دون ان يمضغها ثم يحتفظ بنواتها فيحرقها ثم يلتهمها بنهم كالمسعور وبعد

ما كمل التمر ظل القائد يفرق على المتقاتلين حبيبات من الحمص وزاد الاخوان ابن شعلان تأكيداً ان الذي ساعد المحاصرين على المقاومة هـو الرسـول الذي جاءهم من قبل ابن رشيد فهذا الجمل لم يتقاسموا لحمه فحسب بل حتى دمه وجلده وعظامه ايضاً حيث كان قائدهم يوزع عليهم لحم الجمل بالتقتير .. اما دمه وجلده وعظامه فقد سمح قائد المتقاتلين ان يأخذ كل فرد منهم نصيبه فتناهب المقاتلون الدم والجلد والعظام وكل جاءه نصيب من ذلك ومن افلس من الغنيمـة راح يستنجد باخيه الذي اتيحت له الفرصة بأن ينهب غرفة من دم الجمل وقطعة من جلده او كسرة من عظامه .

لقد كان ابن شعلان كما اسلفنا قابلاً او على وشك ان يقبل الصلح مع المحاصرين على اساس الشروط التي طلبها قائدهم وهي كما يلي : ان لا يمس احد منهم بأذى او اهانة وان يهيء لهم المنتصر رواحل ومؤونة حتى يصلوا الى اهلهم وان يكتفي اي المنتصر باستسلام القلعة والسلاح والعتاد كل هذه الشروط لم يمانـع ابن شعلان في قبولها فيما لو طلبها قائد القلعة قبل ان يأتيه آل سيف ولكن بعد ما تأكد من آل سيف عن وضع المقاتلين الاقتصادي... بعد ذلك رفض الشعلان رفضاً باتاً اي شيء من هذه الشروط معتقداً ان القائد وجنوده بعد ما وصل بهم الامر الى هذا الحد من المجاعة فانه سوف يستسلمون بدون قيد ولا شرط او على الاقل سوف يهرب الجنود من القلعة واحداً تلو الآخر حتى تنهار المقاومة وعندئذ يهجم بجنوده على القلعة فيفتحها بدون ان يجد من يقاومه .. هكذا كانت تقديرات ابن شعلان ولكن تقديراته هذه سرعان ما تبين له انها تقديرات خاطئة وذلك عندما رأى القائد يقابل طلبه بالتسليم بدون قيد ولا شرط بالرفض بكل عناد واصرار وتحـد وزاد ابن شعلان حيرة في الامر وارتباكاً عندمـا سمع الجنود المحاصرين ينشدون القصائد الحماسية [1] التي قالها شاعرهم المدعو قمعان العنبر وفي كل بيت من قصائد قمعان ما يعبر عن تحدي المقاتلين تحدياً صارخاً وجارحـاً

---

١ – ـِف آتي بالقصيدتين في خر القصة وقمعان من ساكني حائل .

لكبرياء الشيخ (ابو نواف) اي النوري بن شعلان وعلى اية حال فقد صبر على تحديهم هذا ظاناً انها كما يقال رقصة الموت فظل يضاعف هجومه بصورة دائمة مستمرة اما الحصار فانه مشدود ولا يحتاج الى مزيد من المضاعفة وانما كرس جهوده بالهجوم على هذه القلعة التي ظن ان الذي نقلاه اليه الاخوان سوف يؤثر على معنوياتهم فيفرون من القلعة هاربين لائذين بجواره طالبين رحمته واحسانه عليهم الحياة، ولكن الذي حصل هو ان الهجوم من جنود (ابونواف) واهل الجوف معاً كان يقابل بصمود وجلد وقوة بأس فيرجع الهاجمون على اعقابهم بعد ما يكبدون خسائر فادحة من الجرحى والقتلى ..

ومن هنا ظن ابو نواف ظناً سيئا في هذين الاخوين مما جعله يتوهم ان فرارهما كله كان مصطنعاً من اساسه وان حديثهما عن المجاعة التي يذكرانها لا اساس لها من الصحة وان الغاية من فرارهما المصطنع انما هو حيلة دبرها قائد السرية الماكر لكي يجعله يطمع باستمرار الحصار لبينما يأتي ابن رشيد من حائل فيحاصره بالجوف ومن ثم يقع بين الكماشة بين رجال السرية الذين سوف يهاجمونه من الامام مجرد ما يسمعون لعلعلة بنادق اميرهم بن رشيد ...

لقد ذهبت الظنون بابن شعلان الى ابعد من ذلك فظن بأهل الجوف ايضاً سوءا فخيل اليه انهم طلبوا ابن رشيد وانه مجرد ما يأتي الرشيدي لنجدة سريته فان اهل الجوف سوف يستقبلونه مجددين له العهد السابق وفي الوقت نفسه يحاربون ابن شعلان حرباً لا هوادة فيها ليثبتوا صدق ولائهم لابن رشيد ..

لقد لعبت هذه الخيالات دورها الخطير في رأس (ابو نواف) فرأى ان يأتي بالاخوين الفارين ويأخذ افادتهم من جديد وان يستعمل معهم ما يمكن استعماله من وسائل التعزير فيما اذا دعا الامر الى ذلك فبعث رسولا يحضر الاخوين فجيء بهما فهددهما ابو نواف بأشد العقوبات فيما اذا لم يخبرا بالحقيقة المبهمة الكامنة من وراء فرارهما، ولكن الاخوين لم يكن لديهما اكثر من افادتهما

الاولى فزاد ابو نواف شكا عندما رآهما مصرين على افادتها السابقة فتوعدهما بالقتل فيها اذا لم يقولا الحقيقة فقال احداهما ماذا الذي تظنه بنا ؟ وما هو الذي تريده منا ان نقوله :

قال ابو نواف : لستما بهاربين وانما بعثكما سبهان لما هو كيت و كيت وكل ما تقولانه عن المجاعة التي يعانيها المقاتلون فإنها لا حقيقة لها اذ لو ان المجاعة بلغت بهؤلاء القوم الحد الذي تقولانه لما استطاعوا ان يقاتلوننا بضراوة وقـوة بأس على النهج الذي يقاتلون به الآن .. فكيف اصدق انكم تركتم القوم على الوضع الذي اكدتم لنا به من المجاعة ومن ثم اجد ان المقاتلين يزدادون كل يوم قوة بقتـالهم اكثر من اليوم الذي قبله .. فاجابه الاخوان بما هو آت .

ـ الان ثبت لدينا اننا متهمان عندكم ..

ـ ابو نواف : اجل

ـ هناك حكم فاصل في الموضوع يكشف لك حقيقة الامر .

ـ ما هو هذا الحكم ؟

ـ اليس العربي اذا وفد عليه وافد من مكان ما قالـــه لا يدخر شيئا من اكرامه وتقديم كل ما يمكن له من ضيافة وحفاوة .. ؟

ـ هذا لاشك فيه ..

ـ اذن فينبغي لك ان تنتدب رجلا من ذوي المكانة المحترمـــة المعروف بمنزلته عندكم وعند سبهان ليطلب من سبهان مقابلته بحجة التفاوض على عقد الصلح بين الجانبين فاذا وجد هذا المندوب عند قائد القلعة ما يقدمه له كقرى فمعناه اننا

كاذبان بكل ما قلنا وان عاد الينا ولم ير الا وجوه الرجـال المصفرة الشاحبة بدون ان يقدم له شيء فمعناه اننا صادقان بما قلناه لكم .

ابو نواف : ان ما تقولانة رأي لا يخلو من الاخذ به بحذر ..

ذهب ابو نواف وهو عازم على الاخذ برأي الاخوين بعدما وضعهما تحت المراقبة فراح من فوره يبعث رجلا من عنده لقائد المقاتلين بالقلعة ليخبره بأنه ينوي انتداب ابن عمه طراد الصطام من بني الشعلان ليتفاوض مع القائد في شروط الصلح .. فقبل قائد القلعة ذلك الطلب من حيث المبدأ الا انه طلب ان تكون المقابلة في اليوم الثالث من الطلب فكان عدم اهتمام قـائد السرية لقبول طلب الصلح بصورة مستعجلة ولا ينسجم وحالة المجاعة التي ذكرها الشقيقان مما جعل ابو نواف تزداد شكوكه الاولى في مجيء الاخوين ومما جعله يضاعف الرقابة عليهما .. اما قائد السرية سبهان فقد كان كما ذكرنا رجـلا محنكا ومن افذاذ الرجال الذين عركهم الدهر فاصبـح قادرا على ان يعد لكل شيء عدته الامر الذي جعله يفكر من الاساس بادخار قوت احتياطي من الطحين ومن التمر ومن السمن ومن اللحم المجفف ، لساعة امتحان فجائية قد يمتحنه بها عدوه كهذه الساعة وكان هذا القائد قد وضع هذه الاشياء في مخبأ تحت الارض وقد استعمل الوسائل التي من شأنها ان تحفظ هذه المأكولات بصورة لا يلحق بها ضرر مهما طال بها المدى .. وفي اليوم الذي قرر به قبول مجيء الوفد اخرج هذه المؤن المدخرة ليوم كهذا ووكل من يطبخ الطحين على الطريقة الشعبية التي تسمى (قرصا) وفوق هذا القرص اللحم المجفف وفوق الجميـع السمن السائح وعلى جوانب هذه المائدة التمر الجوفي اللذيذ الذي يقطر دبسا وفي الوقت ذاته امر رجاله المقاتلين ان يلبس كل منهم احسن ما لديه من لباس وان يهيء نفسه للعرضة الحماسية اي رقصة الحرب التي ينشد فيها القصائد الحماسية المهيجة .. ولما كان رجاله كلهم قد اثر الجوع على وجوههم حتى اصبـح وجه احدهم شاحبا مصفرا فقد اعطى كل فرد منهم قطرة من السمن ليدلك بها وجهه فاصبـح ذلك

الوجه الاغبر الشاحب يتلألأ من اثر السمن المدهون به الذي يتمنى احدهم ان يدهن به معدته اليابسة بدلا من وجهه .

ولم تأت الساعة المحددة التي سوف يأتي بها وفد (ابو نواف) الا وكل شيء على اكمل وجه وعلى اكمل ما يمكن ان يكون وكانت التعاليم التي يحملها الوفد الشعلاني تشير الى أنه اذا كان قائد السرية لم يقدم له قرى فعليه ان يرفض قبول اي شرط فيه ادنى قيد .. اما اذا قدم القائد ضيافة دسمة ونظر الى وجه الرجال المقاتلين ووجد ان معنوياتهم لم تتأثر رغم طول الحرب والحصار اذا كان الامر كذلك فان التعاليم لدى الوفد تقضي بأن يقبل الشروط السالفة الذكر اي التي يتعهد بها ابن شعلان بحفظ دماء المقاتلين جميعا وصيانة كرامتهم وترحيلهم الى بلادهم محترمين مكرمين ..

هذا وقد ذهب الشيخ طراد الصطام رئيس الوفد الشعلاني الى مقابلة قائد القلعة فأول مّا لفت نظره واثار اعجابه منظر اولئك الفتيان ذوي الوجوه الوضاءة والثياب الناصعة البياض فكأنهم لم يحاصروا يوما واحدا كما انه رأى هؤلاء الفتية يرقصون الرقصة الحربية وينشدون الابيات الشعبية التي كل بيت منها يحمل طابع التحدي والاستفزاز فازداد اعجابا وذعرا في آن واحد ..ومما ضاعف اعجابه وعجبه ما رآه من المائدة التي قدمت له فازداد دهشة وقد كانت تعاليم قائد السرية لجنوده تقضي بأنه لا يمد يده اي واحد منهم على المائدة حتى يخرج الوفد ..

وهذا مما جعل رئيس الوفد بحيرة من أمره عندما ترك المائدة وعاد يشرب اكواب القهوة بينما المقاتلون مستمرون في رقصتهم الحماسية او كما يقال (عرضتهم) بدون ان يحدث ادنى تبديل في اناشيدهم او عرضتهم التقليدية .. مما اضطر رئيس الوفد ان لا يبارح القلعة حتى عقد المعاهدة القاضية بتنفيذ جميع الشروط التي طلبها قائد السرية ولم يخرج الوفد الا وقائد السرية ونخبة من

رجال القائد سائرين بصحبة الوفد ليسلموا على ابي نواف وعندما دنا رئيس الوفد من مجلس ابي نواف ذهب اليه بينما .ادخل القائد وثلة من رجاله في دار الضيافة وقد اخبر رئيس الوفد ابا نواف بما رآه من قوة معنوية المقاتلين والمائدة التي قدمت له الخ .. فزاد اعتقادا الشيخ ابن شعلان انـــه كان على صواب في حدسه السابق اي ان الاخوين لم يكونا هاربين وانما هروبهما مصطنعاً وعلى هذا الاساس يكون (ابو نواف) ادرك بفكره الثاقب مدى الخطة البعيدة التي كانت مدبرة له ومعناه ايضا ان الحرب لم تنته بعد .. وان ابن رشيد سوف يأتي لا محالة .. وقد ظلت هذه الخيالات تدور في ذهنه وما عليه الان الا ان يذهب بنفسه للقلعة لينظر مقدار كمية المؤونة التي فيها والتي يمكن ان يعتمد عليها قائد القلعة فيما لو طالت الحرب لكي يقدر بدوره المدة التى يمكن ان يأتي ابن رشيد في حدودها فذهب ابو نواف بنفسه الى القلعة لينظر الى مقدار المؤن المدخرة في القلعة هذا من ناحية وليستلم القلعة ويضع فيها عددا منجنوده البواسل .. فراح هناك فوجد القلعة افرغ من فؤاد ام موسي فنقب هنا وهناك لعله يجد في الدورالمقفلة او في المخابيء فلم يجد لا هنا ولا هناك ما يفطربه الصائم لا من الطعام ولا حتى من حشرات الارض لان حتى هذه اذا وجدها المقاتلون عتبروها رزقا ساقه الله اليهم من السماء ولم يقنع ابو نواف حتى عثر على المخبأ الذي كان قائد السرية قد طمر فيه آخر ما عنده من بقية المؤن التي قدمها لرئيس وفده عندئذ ادرك ان ما رواه له الاخوان هو الحقيقة بعينها وان قائد السّرية لم يكن ورجاله شجعانا وعلى جانب كبير من الجلد والصبر والثبـــات فحسب بل وعلى قسط وافر من الحنكة في فنون الحرب وعلى خبرة واسعـــة النطاق في معرفة اساليب مكر الحروب ومخادعة العدو ..

وبعد ذلك ذهب يستدعي رئيس القلعة من اجل السلام والاكرام .. هذا وقد دار بين الشيخ النوري بن شعلان وبين قائد السرية سبهان العلي السبهان حوار كان الباديء به ابن شعلان الذي عاتب قائد السرية اي سبهان عتابا عنيفا

قائلا له : لماذا تكابر خلال هذه المدة الطويلة وانت ورجالك على وشك ان تموتوا جوعا ؟

فرد عليه القائد :

لا يخفي ابا نواف ان الخداع والمكر وحتى الكذب كل هذه الخصال وان كانت غير مقبولة في الخلق العربي ولكنها في منطق الحروب مقبولة ومشروعة ومستحسنة حتى ...

فبلغ الحقد بابي نواف الى انه هدد قائد السرية بالقتل .

فأجابة هذا قائلا: (نحن لم نستسلم لك عن ضعف في عزائمنا وكنا عازمين على ان نقاتل ونقاتل ولن تحتل القلعة الا على جثثنا ولكنك انت الذي بعثت ابن عمك مندوباً عنك ليفاوضنا ويعاهدنا فوضعنا عهدالله بيننا وبينك وعلى هذاجئنا مسلمين لا مستسلمين .. فان نكثت عهد الله وقتلتنا فسوف نلاقي ربنا شهداء مغدوراً بنا وهذه هي اطيب ميتة يموتهاالانسان وسوف يبقى ذكرنا خالداًمدى الدهرونحن اذا لم نمت اليوم سوف نموت غداً [1] وكلانا سوف يلاقي ربه نحن وانت سواء طال بنا الزمان او قصر ولكن شتان بين من يلاقي ربه شهيداً مظلوماً وبين من يلاقي الله ناكثاً بعهده قاتلا نفوساً بريئة ظلماً وعدواناً .

يؤكد الرواة ان الذي تأثر كثيراً من هذا الحوار هو الشيخ نواف الابن الاكبر للشيخ النوري فهذاهو الذي حسم النزاع وأمر رجاله بأن ينحروا للقائد ورجاله عدداً من النوق ويذبحوا عدداً اكثر من الغنم وقد اعتنى بهم كضيوف اعزاء واكرمهم غاية الاكرام .

وقد روى لنا المرحوم سويلم الشعلان [2] قصة طريفة في هذا الموضوع :

---

١ : مات هذا الرجل غدراً بيد ابناء عمه مع الاسف بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة .

٢ : من سكان حائل توفي رحمه الله عام ١٣٨٢ هـ ١٩٦٣ م

يقول الراوي« انه عندما اعتنى بهم الشيخ نواف اي انه عوضاً ما يضع رجالاً من حاشيته» خدامه الكثيرين ليتولوا خدمتنا عوضاً من ان يفعل ذلك ، ذهب وجاء بالاخوين الهاربين ليقوما بهذه العملية كتحقير لهما ويزيد الراوي الذي هو من اصدق الرواة واوثقهم وشاهد عيان يزيد تأكيداً بانهم اي المقاتلين بالامس والضيوف اليوم بعد ما انتهوا من طعامهم الدسم وراحوا يريدون ان يغسلوا ايديهم عند ذلك وجدوا المكلف بعملية سكب الماء على يدي الضيوف لاخدم الشيخ ابن شعلان ولا مماليكه وانما الاخوان آل سيف وعندئذ يزيدنا الراوي تأكيداً بان احد الرجال المقاتلين[1] وهو المدعو عبد الله القنب الذي قال لاحد الاخوين عندما كان يسكب الماء على يدي الضيوف : (اسكب الماء على اكف الرجال الابطال الذين يستحقون ان يسكب على اكفهم المسك والورد بقدر ما تستحق ان تكون خادما لهم بعد ما كنت شجاعا تقف منهم موقف الندللند.. فاغرورقت عينا هذا بالدمع [2] ..

هذا وقد وفى نواف بن شعلان بعهده حيث اعد لهم رواحل وزودهم بالمؤونة حتى وصلوا بلادهم حائل التي تبعد خمسة ايام للرواحل النجيبات وقد توفي بعضهم في الطريق من رواسب الجوع الذي كان على وشك ان يفتك بهم . وقد اكد لنا كثير من ابطال الحادثة وعلى رأسهم سويلم الشعلان سالف الذكر بأن الجوع بلغ بهم درجة الى الحد الذي اصبح الفرد منهم يقضي اليوم واليومين بدون ان يذهب الى بيت الخلاء ..

هذا ولا بد من الاشارة الى ان الذي اعتنى بهؤلاء الضيوف وكرمهم هو نواف بن الشيخ النوري اما النوري فانه كان حاقداً ولو لم يكن العهد مقيداً لكان له مع قائد السرية ورجاله موقف آخر وكل ما استطاع ان يتشفي به ابو نواف هو ان قتل الشاعر المهيج للمقاتلين المدعو «قمعان»

---

١ : عبد الله القنب توفي رحمه الله حوالي عام ١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣٠ في اليمن وكان يقوم بعمل لحكومته العربية السعودية وهو من الابطال الافذاذ .

٢ . ذكرت بالسياق ان تلك العملية كانت هي بداية الجبن ونهايته بالنسبة للاخوين .

واليك بعض ماورد الينا من قصائد الشاعر المهيج الذي كانت رقبته ثمنـــا لقصائده الحماسية المهيجة التي ظن ابو نواف انه لولا قصائد هذا الشاعر لما استمر هؤلاء المقاتلون كل هذه المدة وقد غاب عن ذهن ابي نواف انـه لو لم يكن لدى المقاتلين رصيد لا ينضب معينة من البطولة والجلد والصبر وعدم الركون الى الاستسلام اجل لو لم يكن في صميم كيان كل فرد منهم ثروة راسخة الجذور من هذه المعاني لما اثر عليهم هذا الشاعر بشعره مهما كان بليغاً ومثيرا .

لقد فات ابا نواف ان الشعر الذي قالة هذا الشاعر لم يكن الا مقوما لغيره لا مرجحاً له ، وجهل ابي نواف لهذه الحقيقة او بالاحرى تجاهله لها جعله يقدم على قتل ذلك الشاعر الذي نوافي القارىء بما ورد الينا من قصيدته ، وقد يكون له من القصائد ماهو اكثر من ذلك وانما الذي اتيح لنا العثور عليه هما هاتان القصيدتان

وهذه احداهما :

وانكانَ تَبغي يا ابن شِعلاَن منّا	نسلّم لكم تسليم بليا قِتَالِ
فتراك غَلطَانٍ أو تجهل خبرنا	لا تحسبَنا عن جموعك نبالي
إنشدِ عن حَاضِرنا أوماضي أهلنا	إنشِد هَلَ العْليا اقروم العَيالِ
حنا كِعام الضّد وان سألت عنا	او حنا هل القلات الى الشيل مال
وانكانك يا ابو نواف اتجرب ظفرنا	ترنا معروفين قديم وتـــال
حنا الى منا ابتلينا صبرنا	نصبر على الشدات صبر الجمال
الحرب لو يأخذ اسنين شبتنا	نَثبت على البلوى وغير الليالي
حنا صناديد الجبل الى امتحنا	ولا العاش حكي ما يعقبه فعال
او لمن صكات الليالي بلتنا	نثبت ثبوت الراسيات العوالي

انشد اهل الشيمات يخبروك عنا   أهل الجنوب واللي براس الشمالي

هذه هي القصيدة الاولى وهاك شرحها :

١ - يقول الشاعر في البيت الاول والبيت الثاني : اذا كنت تريد منا نحن المقاتلين ان نستسلم لك استسلاماً لا قيد فيه ولا شرط فأنت رجل جاهل بحقيقة امرنا .. فنحن لا نبالي بكثرة جنودك مهما بلغوا من الكثرة .

وفي البيت الثالث يقول : اذا كنت تجهل واقعنا الحالي وماضي اسلافنا فما عليك الا ان تسأل شجعان رجالك عنا وقوله (اسأل هل العليا) اي قبيلة ابن شعلان لانهم يكنون باهل العليا .

وفي البيت الرابع يقول : اذا شئت ان تسأل عنا فنحن القوم الذين نلقم عدونا حجراً ونقابل المعضلات مهما استعصت بثبات وجد وهذه شيمتنا في سالف الازمنة القديمة والحاضرة .

وفي البيت الخامس والسادس يقول الشاعر : اذا كنت يا ابا نواف يقصد النوري تريد ان تجرب شجاعتنا فنحن لا نحتاج الى تجربة لاننا معروفون في الازمنة القديمة والحالية فنحن اذا ابتلينا نصبر على البلوى ونتحمل الشدائد بصبر كصبر الجمال ..

وفي البيت السابع يقول الشاعر اننا سوف نستمر في قتالنا وسوف نثبت حتى لو اخذت الحرب بيننا وبينك سنين عديدة فاننا سوف نتحمل ذلك ولا نستسلم .

ويقول في البيت الثامن : نحن رجال جبلي طي (يقصد اجاء وسلمى) المعروفين بثباتنا اذا وصل الامر الى درجة التحدي لرجولتنا والامتحان لشجاعتنا

ومن لم يكن قوله مطابقاً لافعاله فهذا لا يستحق ان يعيش ويحيى بين بني البشر .

ويقول في البيت التاسع ـ اذا شاءت الليالي السوداء ان تبتلينا فاننا سوف نثبت امام هذا الابتلاء ثبوت الجبال الراسيات ..

وفي البيت الاخـير يقول الشاعر : يجب عليك ان تسأل عنا الرجال ذوي المروءة والشيمة سواء أكانوا من اعدائنا في شمال الجزيرة العربية او من كان في جنوبها ..

والمعنى الذي قاله الشاعر في البيت الثالث مطابق للمعنى الذي قاله في هذا البيت الاخير ففي البيت الثالث يقـول اسأل عنا قروم قومك اي اسأل عنا الشجعان الافاضل من نفس قبيلتك وفي البيت الاخير يقول : اسأل اصحاب الشيم من عرب الشمال وعرب الجنوب .

المقصود في البيت الثالث والاخير هـو ان الكرام هم الذين يمكن ان ترضى شهادتهم بصرف النظر عن ان يكونوا اصدقاء او اعداء .

* * *

واليك قصيدة الشاعر الثانية :

أرسلو لابن قِعيِّدِ نَصايحْ كأنه بفهم ني نَنْصحهْ

قبل ناتي كالمزون الروايحْ مانبأ من وادي نَمسحهْ

قبل هدم قصوركم والفلايح كم عذرا جيبها تشرحهْ

الرويلي الى اقبل القيظ رايح قال مالي عندكم مصلحهْ

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول والثاني : يجب ان تنصحوا ابن قعيد يقصد بابن قعيد زعيم من زعماء اهل الجوف الموالـــين لابن شعلان فيقول : اذا كان هذا الرجل لديه من الفهم ما يجعله يفهم الخطأ من الصواب فما عليه الا ان يبتعد عن ابن شعلان قبــل ان يأتي اميرنا ابن رشيد بجيشه العرمرم الذي يسد الفضاء ويملأ الأودية .

ويقول في البيت الثالث : من الاجمل لكم يا اهل الجوف الذين حذوتم حذو ابن قعيد ان تصلحوا امركم قبل ان يأتيكم قومنا يهدمون بيوتكم ويرملوا نساءكم وعندها سوف لا تسمعون الا نعي نساءكم لقتلاكم ..

وفي البيت الاخير يقول : ان ابن شعلان وقبيلته اذا جاء فصل الصيف فانه سوف يذهب عنكم ويتركـكم لانه سوف لايجد في بقائه فائدة محسوسة لقومه ..

ويقول الرواة ان النوري بن شعلان عندما قتل الشاعر انه كان يدق رأسه بالعصا بعد موته ويتمثل بالبيت الاخير .

لا يفل الحديد الا الحديد

- ٧ -

يستميت العربي دون كرامته بقتاله كاستماتته دون حياته عينا بعين ..

والحقيقة التي لا جدل فيها هي ان العربي الابي الشهم لا يفرق بين الكرامة والحياة ، فالحياة بلا كرامة تعتبر موتا ادبيا ومعنويا ، والموت الذي بهذه الصفة هو الموت الابدي ، لان الموت المادي بالنسبة للرجال ذوي الفضل والمروءة والعلم والادب لا يعتبر موتا كما اشار الى ذلك الشاعر العربي خليل مطران برثائه لاحد الكرام عندما قال :

لا ترثه فاليوم بدء حيـاته   ان الاديب حيـاته بمماته

واذا كان هناك نوع من البشر يرى ان الحياة مجرد النعيم برغيد العيش الهنيء والخلود الى الراحة في ظل المشرب المرئي والمركب الوطيء والمناخ العذب ..

فاذا كان هناك من قاصري الهمة من يرى ان منتهى امنيته الوصول الى هذه المتع الفانية ومتى ما بلغ ذلك ركن الى الخمول والاستكانة ، فان هناك رجالا يرون ان هذا النوع من الرجال لا يصح ان يعد من جملة بني الانسان ، بل انما هو الى خلق الحيوان اقرب منه الى الانسان .. فاذا كانت الحياة مجرد متعة وغذاء ونوم فان الكلاب والحمير وحتى الخنازير تنعم وترغد وتتمتع بهذه الاشياء المادية .. وهذا هو الفرق بين الانسان الحر الابي الذي لا يستسلم للضيم ولا يبيت

على الاذى ولا يرى للكرامة والحرية بديلاً ، وبين الانسان الثاني الذي على النمط سالف الذكر ..

وفي قصة هؤلاء الاعراب الذين كان بامكانهم ان يستسلموا للقوة التي تفوقهم عددا وعـــدة بدون ان يكبدوا انفسهم المشاق والعناء ولكنهم ابو وقاتلوا قتال المستميت الذي قرر مصيره باحد الامرين ، اما بالموت بدون الاستسلام واما الحياة المصحوبة بالعزة والكرامة ، وفي قصة هؤلاء الفتية ما يعطينا دليلا على ما اشرنا اليه .. واليك القصة باختصار .

كان نفر من قبيلة السبعة بادية سورية من عشيرة القمصه سائرين في طريقهم وصدفة اصطدموا بجيش الشيخ النوري بن شعلان العرمرم وكان النوري وقتها في عنفوان قوته وهو يمثل قوة اكبر رئيس عشيرة في عهده وبين قبيلة ابن شعلان المسماة بالرولة وبين عشيرة القمصة الذين يرأسهم حاليا الشيخ راكان بن مرشد عداوة تقليدية وقد كان عدد النفر الذين من قبيلة القمصة محدوداً لا يزيد عن عشرة انفار بينما قوة ابن شعلان من فرسان ومشاة واصحاب ركائب يعدون بالالوف . وقد وجد ابن شعلان هؤلاء النفر القلة لقمة سائغة بامكانه ان يستولي عليهم ويأخذ رواحلهم واسلحتهم . وان شاء قتلهم كاعداء وان شاء احسن اليهم بحياتهم .. هكذا كان المفروض ان يفعله ابن شعلان بحكم قوته وكثرة عدد فرسانه ووفرة رجاله وقلة عدد عدوه .. ولكن هؤلاء القلةاعطوا دليلا واضحا على انهم وان كان عددهم قليلا ولكنهم كثيرون بايمـــانهم وقويون بارادانهم وعزائمهم قوة تفوق عددهم او تزيد عما يتصوره العدو عنهم .. رأى هؤلاء الفتية بأن يكون قتالهم قتال المدافع لا المهاجم كما كان يتصوره العدو عنهم .. رأى هؤلاء الفتيه بأن يكون قتالهم قتال المدافع لا المهاجم بينما كان قوم ابن شعلان يقاتلون قتال المهاجم الطامع بالغنيمة وطبعا سيكون البون شاسعا بين من يقاتل من اجل الغنيمة والكسب وبين من يقاتل من اجل الحياة والكرامة لقد حمي الوطيس بين المهاجم وبين المكافح . وكلما دنا الفرسان المهاجمون ازداد ثبات

المكافحين فتصدوا للهاجمين وردوهم على اعقابهم .. وقد استمرت المعركة من اول النهار حتى سواد الليل الذي كان حاجزا بين المهاجمين والمكافحين .. ومن هنا يأتي الشاعر الشعبي فيقول :

إن جِيْتْ عندالعرب ياهطيل	إمدح هَــلَ الْعشر ياشينِ
نَطْ الرِّقيْبَةَ وشَافْ اَلخيلْ	واسلاَفِ بيَنِ إلرحيلَــينِ
ذبحت ذَلولي على مَاقِيْلْ	وانا ذَبحتْ الأصيلَــينِ
لِعيونِ رِغدْوِيدق الهَيلْ	نَنَطَحْ جُمُوع الشَعالِيني

القصيدة ربما كانت اكثر من ذلك ولكنها لا يمكن ان تزيد عن عشرة ابيات بحكم انها على وزن البحر الذي يسمى (هجيني) .. باللغة الشعبية ومثل هذا لا يتعدى اكثر من العدد المحدود المشار اليه اعلاه وهاك الشرح ..

يقول الشاعر في البيت الاول مخاطبا احد رفاقه العشرة المسمى هطيلا فيقول: اذا اتيحت لك الفرصة في اندية العرب فما عليك الا ان تثني على مواقفنا نحن الذين لم يتجاوز عددنا عشرة انفار ..

وفي البيت الثاني يقول : قد فوجئنا عندما جاءنا (الرقيبة) اي السبر وهو مأخوذ من (الرقابة) أي الذي يصعد جبلا عاليا ليسبر غور العدو فهذا هو الذي اخبرهم بكثرة خيل العدو وقوة عدته وكثرة رجاله ..

وفي البيت الثالث يؤكد ان راحلته اصابتها رصاصة اودت بحياتها ويؤكد انه قتل فرسين من الخيل الاصايل والرواة يزعمون ان هاتين الفرسين هما فرسا الشيخ النوري بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وفارسها أي ان الشيخ النوري هجم على هؤلاء العشرة يتقدم فرسان قبيلته ، فقتلت الفرس الاولى والثانية

والذي قتل الفرسين هو شاعر العشرة الذي لم يردني اسمه لان الحادثة لها اكثر من خمسين سنة على اقل تقدير ..

وفي البيت الرابع يقول الشاعر : لقد صددنا هجوم فرسان الشعلان ووقفنا امامهم موقف البطولة وذلـك لـكي نكون بعولة مقبولين عند الفتيات الجميلات ..

وهذا المعنى بالذات كثيرا ما نجد الشعراء الشعبيين يشيرون اليه خاصة عندما يفخر فارسهم بعمل بطولي .. وهذا ايضا مما يدلنا على ان الفتيات العربيات يعشقن الفتى لا لماله ولا لجماله وانما لشجاعته فقط .

والجدير بالذكر ان كلا من قبيلة السبعة المتفرع منها عشيرة القمصة وقبيلة الرولة كلاهما يجتمعان بأصل واحد وتجمعها اسم قبيلة عنزة ولذلـك تجدني وضعت عنوان هذه القصة : (**لا يفل الحديد الا الحديد**)

ليست الشجاعة وقفا على البدوي دون القروي

-٨-

كل من عاش بين ظهراني البادية يدرك جيدا مدى احتقـــار البدوي لابن المدينة واذا كان احتقار البدوي لابن المدينة بالمائة خمسين فانه سيكون احتقاره لابن القرية بالمائة مائة والسبب واضح عندما نذكر ان البادية في الزمان السابق بل وحتى الثلث الاول من قرننا الهجري الحالي كان لهم صولة وجولة لا في شبه الجزيرة فحسب بل وفي سورية وفي العراق وربما كان نفوذها في هذين الاقليمين على ساكني القرى اشد منه على ساكني قرى شبه الجزيرة . وليس الامر غريبا عندما نذكر ان كل فرد من افراد اية قبيلة كان لا بد ان يحمل بندقية بعتادها الكامل فالاحتفاظ بالبندقية والفرس اولا وقبل كل شيء عند البدوي الفارس الشجاع ثم بعد ذلك يأتي دور الاحتفاظ بناقته وجمله فهو يبيع الجمل والناقة ليشتري فرسا وبندقيـــة وليس العكس وخذ دليلا على ذلـــك قول احد شعرائهم :

بـع الجمل واشتر فرس	واشتر سواري معدلة
يا ناقلٍ عفن الحديد	ارع الموازر بدلــــه

الشرح : ربما كان صدر البيت الاول لا يحتاج الى شرح فهو واضح بلفظه ومعناه فالشاعر يقول لصاحبه بصيغة الامر المفروض عليك ان تبيع جمالك وتشتري عوضا عنها فرسا وبندقية من البنادق الثمينة سواري يقصد البندقية

القصيرة التي صنعت من اجل ان يحملها فرسان الخيل وفي البيت الثاني تأكيد لما جاء في البيت الذي قبله من المعنى .

المقصود ان رئيس القبيلة اشبه ما يكون بقائد جيش في عصرنا الراهن ويرتفع نفوذه في قبيلته بقدر ما يزداد عدد اسرته ورهطه الاقربين كما يكون له من الهيبة والقوة في خارج قبيلته بقدر كثرة عدد سكان فرسان قبيلته .. وغاية ما يقال ان رئيس القبيلة اذا كان له قبيلة كثيرة العدد فانه كما ذكرنا اشبه بقائد جيش بل ان بعض رؤساء القبائل يتصرف برقاب رجال قبيلته كتصرف الجزار بقطيع الغنم يقتل من رجالها من يشاء دون ان يخشى اخذ الثأر كابن شعلان في في قبيلة الروله، والدويش في قبيلة مطير ومن هنا نعرف ان رجال البادية في الصحراء كانوا قوة ضاربة مدربين على الاسلحة وعلى ركوب الخيل والحروب ولذلك من البديهي ان ينظر البدوي الى الحضرى بعين السخرية والى القروي بعين الاحتقار لان اهل القري ما كانوا يحملون السلاح خاصة فلاحي العراق وسورية. واما بعدان حمل السلاح فلاحو هذين الاقليمين بعد ذلك فقد وقفوا نفوذ ابناء عمهم البدو عند حدهم .. فمكف الاسد ذيله هارباً . والقصة التي نحن بصدد ذكرها كانت في اوج مجد البادية وفي عنفوان سخريتهم من الحضرى واحتقارهم للقروي وهي بلا شك لا يقل تاريخ حدوثها عن قرنين وما فوق والشاهد الذي نستدله به على بعد عهد الحادثة كالآتي :

اولا – اننا لم نجد من يذكر لنا اسم الفارس الذي يعتبر بطل القصة .

ثانياً – لم نجد ايضاً من يحدد وقوع الحادثة لا من ناحية الزمان ولا من ناحية المكان .

ثالثاً – لم نجد ايضاً من يذكر بصورة واضحة اسم الفتاة التي هي الطرف الثاني بالقصة .. كل هذه الاشياء تجعلنا لا نشك ان الحادثة لها زمان طويل وطويل ولولا وجود القصيدة التي انشدها بطل القصة لدرست الحادثة كما درس

المئـات بل الوف القصص والحوادث التي وقعت في جزيرة العرب من قرون طويلة فطوتها الاحقاب .

وكل ما يتناقله الرواة بسرد الحديث عن هذه القصة هو ما يستنتجونه من قصيدة الشاعر الفارس على الرغم من ان في القصيدة بيتاً يتنافي مع ما يتناقـله الرواة كل المنافاة.. وبالرغم ايضاً من ان القصيدة يوشك ان نقول ما من مواطن في شبه جزيرة له ادنى ميل في حفظ شيء من الادب الشعبي او الاستماع اليه الا وسيكون حافظاً لها او لبعضها او سامعاً بها ..

والرواية المشاعة المتواترة بين كافة الرواة تفيد انه في عهد الامير ابن عريعر الذي كان حاكماً لشبه الجزيرة العربية قبل قرنين من الزمان والذي يحدثنا الرواة عن مدى نفوذه وسلطته احاديثاً اشبه ما تكون بالخرافات .

وفي ذات يوم قام فرسان الحاكم ابن عريعر بمهرجان تطارد به الفرسان امام الامير وكان بين هؤلاء الفرسان فتى وسيم يتدفق حيوية وفتوة الامر الذي جعله محط انظار الفتيان والفتيات على حد سواء. وعندما انتهى المهرجان ترامت حروف الاستفهام نحوه .. ممن يكون هذا الفارس .. وكان الحرص على معرفة الفارس من الفتيات ثلاثة اضعافه عن الفتيان وهو من ابنة الامير ابـن عريعر حسب الرواية اكثر منه من اي فتاة كانت .. ولشد ما كانت الصدمة عنيفـة عندما علمت الفتاة ابنة الامير بان الفتى الفارس الوسيم لم يكن بدوياً ولا حضرياً وانما كان قروياً ومن قرية متواضعة يقال لها (ثرمدا) من قري الوشم الواقعـة غرباً الى الشمال عن مدينة الرياض ومن اسرة العناقرة فقالت الفتاة (خيال القري زين تصفيح) اي ان القروي قد يكون وسيماً بركوبه للفرس ويكون جميلا وفارساً عندما يكون طراد الخيل طردا سلمياً لا قتال فيه وانما هو مهرجان شعبي كهذا اما اذا جد الجد وحمي الوطيس واشتدت الهيجاء فان القروي لم يكن من فرسان هذا الميدان ..

وقد اشاحت الفتاه بوجهها عن الفتى بعد ما كانت شديدة الالحاح بالسؤال عنه . اما بعد ما تبين لها انه قروي عندئذ اصبح لا يستحق ان يسأل عنه .

اما الفتى الفارس فقد بلغه خبر سؤال الفتيات عنه بصورة عامة وسؤال ابنة ابن عريعر عنه بصورة اخص واكثر حرصاً كما بلغه ايضاً الخبر المعاكس اي ان الكلمة التي قالتها ابنة الامير وقد نقلت اليه حرفياً ..

فأسرها في نفسه .. ولما كانت موهبة الشجاعة لا تبرز الا في الحروب والشدائد والمحن فقد كان ذلك العهد عهداً طافحاً بالحروب المستمرة مليئاً بالغارات والغزوات التي لا تنقطع ، وكشيء مألوف جاء فرسان قبيلة الفضول وصبوا غاراتهم على الحي الذي يقطنه اهل الفتاة ونهبوا ابلهم وشرعوا يتحدون فرسان القبيلة في عقر بيوتهم بدون ان يتصدى لهم من فرسان قبيلة الفتاة او من اخوتها من ينازلهم منازلة الند للند ..

وعندئذ نزل الميدان الفارس الفتى القروي وتصارع هو وفرسان العدو ولا زال في كروفر حتى استطاع ان يصد هجومهم فولوا هاربين بعدما حطم الفتى سنان رمحه فوق هامة اعدائه واشبع نصال سيفه من رقابهم ..

كان ذلك بمشهد من الفتاة التي ازدرته بتلك الكلمة التي قد تكون حافزاً رئيسياً لبطولته هذه ولا بد له الآن الا ان يجعل بطولته هذه صدى وذكراً خالداًيتناقله الاحفاد عنالاجداد ولما لم يكنيوجدوقتها صحافة محلية ولامحطة اذاعة كما هي اليوم ولا وكالات انباء فما يسعه والحالة هذه الا ان يقوم هو بذاته بهذه المهمة والعادة المألوفة عند العرب منذ العهد الجاهلي هي ان الشاعر اذا كان فارساًفإنه مهما امتدح نفسهبشعره لايعاب بل يستحسن، ولكن بشرط اساسي وهو ان يكون فعله سابقاً لشعره وان اختل هذا الشرط فسوف يلاقي عند

العرب ما لاقاه بصري الوضيحي[1] .

اما وقد سبق شعره فعل بمشهد من رجال ونساء آل قبيلته بكاملها فمايسعه الآن الا ان يمتدح نفسه بما يشاء وان يسخر من ابنة الامير باسلوب لبق بلفظه جارح بمعناه فراح ينشد : قصيدته الحائية الآتية :

وراكْ تَزَهَدَ يا ريش العين ِفينا	تقول خيَّالْ القرى زين تصِفيحْ
الطيب ما هـو بس للظاعنينا	قسم على كل الوجيه ِالمفاليحْ
البدو واللّي بالقِرى سا ِكنين	كل عطاه الله من هبة الريحْ
يوم الفُضول بحلتك شارعينا	والخيل باخوانك سوات الزنانيحْ
يوم انكسر رمحي جذبت السنينا	لما جعلت الخيل صم ٍمدابيحْ
هيا عطيني الحـــق هيا َعطيَنا	وان مـــا عطيتنيه والله لصيح
لصيح صيحة من غدا له جنينا	والا خلوج فاختوها السواريح
يبو نهود تقل فنجال صـــبنا	وياغصن موز حركه ناعم الريح

الشرح :

يقول الشاعر في البيت الاول مخاطباً الفتاة ابنـــة الامير ... لماذا يا ناعس الطرف تزدرينني ، — هـذا معني صدر البيت امـا معنى عجز البيت فقـــد شرحته آنفـا — .

---

[1] بصري الوضيحي شاعر من شعراء قبيلة شمر قال قصيدةامتدح بها نفسه قبل ان يفعل وعندما وقعت معركة بين قبيلة شمر وقبيلةعنزة جبن الشاعر ولاذ بالفرار بدون ان يبدي ادنى مقاومة فما كان من رئيس قبيلته الاان اقسم الا يركب الشاعر فرساً مدة حياته . وزاد على ذلك انـه اي رئيس القبيلة امر ان يغسل ظهر الفرس التي ركبها الشاعر بالماء الحار والصابون . . والقصة والقصيـدة معروفتان لدى رواة الادب الشعبي ولذلك لا ارى ما يدعو الى شرحها هنا .

واما معنى البيت الثاني والثالث فانها مفسران لما قبلهما . فيقول: لقد قلت ان القروي ليس بفارس ميدان وانما هو فارس مهرجان ... ولكن يجب ان تعلمي ان الشجاعة ليست وقفا محدودا مختصاً بها البدوي دون القروي ، بل انما هي ملك مشاع لجميع اصحاب المواهب النبيلة ..

ويقول في البيت الرابع والخامس : عندما هجم العدو على بيوت ذويك .. حينذاك لاذ اخوانك الاشقاء بالفرار .. وعندئذ تصديت لهجوم الاعداء واشبعت العدو طعنا برمحي حتى تحطم سنان الرمح على هامات الاعداء . وبعد ذلك سللت سيفي وقمت أضرب به رقاب الفرسان حتى ولوا هاربين كـأنهم صم بكم ..

هذه الابيات الخمسة هن خلاصة القصيدة من حيث المعنى .. أما البقية فانها كلها تغزل . ويقال : إن الفتاة بعد ذلك بدلت رأيها وعشقت الفتى الفارس ولكن الفتى ناء بجانبه عنها ورفض الاجابة على رغبتها منه بالزواج .

وبعد فقد أوردت القصة على الشكل الذي يتناقله الرواة بصورة مشاعة بدون ان ابدل او اغير شيئا مما نقلته كما انني لم ادخل في صميم القصة شيئا من التعاليق التي كنت ادخلها فى القصة اي كما كنت افعل في الجزء الاول (من شيم العرب) الامر الذي عابني عليه بعض من الكتاب والقراء فمن هؤلاء الناقدين من يرى ان من الافضل ان لا يكون المؤلف دخل في صميم القصة من آرائه الخاصة بل عليه ان يأتي بالقصة ويضعها بين يدي القارىء ويترك للقارىء الحكم ومنهم من قال : يجب على المؤلف ان يوضح رأيه للقارىء فيما اذا كان في القصة اضطراب بين المتن والرواية او بين الرواية والقصيدة كهذه القصة مثلا .. وهؤلاء الذين يرون هذا الرأي الثاني كذلك يعيبون على المؤلف ادخال رأيه في صميم القصـة ويرون ان يكون رأيه الخاص بعد انتهاء القصة واصحاب هذا الرأي الثاني وجدتهم على صواب في رأيهم .وهذا مما جعلني لم ابد رأيي في هذه القصة

الا بعد انتهائي من كتابتها التي نقلتها من الرواة نصا كما اوردتها بالسياق . ومما جعلني ايضا آتي برأيي مؤخرا في هذه القصة على الشكل الآتي :

اولا ان القصة من حيث الاصل وصحة حدوثها حقيقة لا تقبل الجدل كما اشرت الى ذلك آنفا .

ثانيا – كون بطل القصة قرويا فهذا شيء يبدو واضحا من معاني القصيدة اما انه عنقري النسب او غير عنقري فهذا لا استطيع البت فيه ولكن الرواية المتواترة كلها تفيد ان الفارس من العناقرة .

ولكن الاضطراب يأتي الى القصة من الوجوه الآتية :

اولا – ان من سماهم الفارس بالفضول فهؤلاء لم يكونوا من القبائل الذين لهم من كثرة العدد وذيوع الصيت والشهرة بالفروسية خاصة عندبادية شرقي وجنوبي شبه الجزيرة المكانة – المرموقة كالقبائل المعروفة لدينا حاليا منذ قرنين وما دون اللهم الا اذا كانت الحادثة لها اكثر من ثلاثة قرون وهـــذا يعني ان قبيلة الفضول كان لها شأن ثم تلاشي شأنها وتضاءل حتى اختفى كما اختفى شان قبيلة بني خالد الذين منهم ابن عريعر نفسه .

فاذا كان الامر كذلك فهذا يعني ان قبيلة الفضول كان لهم من القوة وكثرة عدد فرسان قبيلتهم ما يجعلهم يقفون من ابن عريعر موقف النـــد الند ومن المعروف ان ابن عريعر كان باسطا نفوذه وسلطته عـــلى قسم كبير من شبه الجزيرة ..

طبعاً يجب ان يكونوا بهذه الصفة والا كيف يمكن ان يصب الفضول غارتهم على حاكم كابن عريعر وعلى نفس اهله ومحارمه والعادة المألوفة عند العرب ان الغارة على البيوت لا يمكن ان يصبها الا الحاكم او القوم الذين يضاهون بقوتهم

وكثرتهم قوة الحاكم بعددهم وعدتهم .

وخلاصة رأيي في هذه الحادثة هو اما ان يكون للفضول في سالف الزمان قوة ضاربة تجعلهم كما ذكرنا آنفا يقفون من ابن عريعر موقف الند للند وهذا معناه ان الحادثة كما ذكرت لهـــا اكثر من ثلاثة قرون اي قبل ان يبلغ ابن عريعر من سلطة الحكم القدر الذي يتناقله الرواة والمؤرخون عنه .

او ان الحادثة وقعت مع ابنة امير من امراء البدو العاديين الذين رمى بهم الفال فنزلوا بأهلهم بقرب قرية ثرمداء التي يسكنها العناقرة فحدث مهرجان شعبي بيوم عيد او ما شابه ذلك فجاء ابن العنقري بفرسه وشارك البدو المجاورين لقرية أهله بمهرجانهم فرأته ابنة امير العشيرة المجاورة للقرية فتحدثت بكلمتها سالفة الذكر فبلغت الفتى القروي كما ذكرنا ثم بعد ذلك جاء فرسان قبيلة الفضول وصبوا غارتهم على قبيلة الفتاة التي كانت مجاورة للقرية فاصبـــح دفاع الفتى وشجاعته امرين حتميين الاول ان اهل الفتاة جيران له ويتحتم عليه ان يدافع عنهم ويقاتل من اراد ان يعتدي على حرمة جيرانه الى آخر نقطة من دمه .. والامر الثاني هو ان يثـــأر لنفسه من الفتـــاة التي ازدرته وسخرت منه .

وهذا الرأي الاخير هو الارجح في نظري

مغامرة فارس من اجل ناعس الطرف

- ٩ -

نزح نفر من قبيلة شمر القاطنين في جزيرة الفرات واستوطنوا الاراضي التركية المتاخمة للحدود السورية برئاسة زيد بن عمرو الجرباء ويقطن الارض التي استوطنها ابن عمرو ورفاقه قبيلة تدعى (قيس) وفي هذه القبيلة فتيات بارعات الجمال جامعات بين حسن الحضارة الذي هو الى البياض والحمرة أقرب منه الى السمار البدوي وبين رشاقة وخفة روح الفتاة العربية ، وبين الفتيات القيسيات فتاة تمتاز بجمالها ورشاقتها على جميع فتيات قبيلتها وقبيلة شمر معاً كما يمتاز البدر بانواره وصفائه على سائر النجوم .. وكان الامر طبيعياً ان تلفت نظر فتيان الحي وان يحاول كل فرد منهم ان يحظى بلفتة من لفتاتها أو بايماءة من طرفها .. ولكنها كانت ابعد منالا عنهم من الجوزاء .. لقد كان الفتيان مجمعين على حبها ومتفقين على الهيام بغرامها ومتحدة قلوبهم في عشقها. ولكن معشوقتهم لم تمنح حبها لأي واحد من عشاقها ولا بأدنى اشارة عابرة .

وكلما ازدادت فتنة شباب الحي بسيدة الجمال ازدادت الفتاة تجاهلاً لهم .. ولم يعزّ هؤلاء الفتيان عن **تجاهل** الفتاة لهم الا امران :

الاول : **انهم** لايعرفون لها معشوقاً تهواه ..

الثاني : انها كشأن فتيات البادية اللواتي لا يعشقن الفتى لجماله ولا لماله وانما لشجاعته فقط ولذلك كانت أمنية كل فتى من كلتا القبيلتين شمر وقيس

هي ان تأتي مناسبة يغزوهم فيها العدو أو يغزون العدو لكى يقوم من تحدثه نفسه بغرامها بدور بطولي يجعل له عند الفتاة منزلة لا ينافسه عليها احـــد . ولكن المشكلة هي ان عهد الغزوات والحروب بين القبائل بدأ يتلاشى تدريجياً بحكم قوة الامن المشددة وخاصة في الصحراء السورية التي كانت محاطـــة بسياج من حديد ، ولئن كان لكل شيء حسنات وسيئات فان الاستعمار الفرنسي البغيض للوطن العربي السوري كله سيئات اللهم الا عملية واحدة وهي توطيـــده أمن الصحراء وذلك انه جند جنوداً من نفس شباب البادية مهمتهم الوحيدة حماية البدو من غزو بعضهم لبعض وحماية القوافل التي تمر عـبر الصحراء من السلب والنهب .. ويسمى هذا الجيش بالهجانة . . فكانو يطوفون الصحراء السورية شرقها وغربها على رواحلهم كما كانوا مدربين على الاسلحة الحديثة كالرشاشات وامثالها .. وليس من السهل ان يفلت من ايديهم اي غاز كان لان الغزاة لايعدو امرهم من ان يكونوا اما من قبيلة عنزة وامـــا من قبيلة شمر وهؤلاء الهجانة اغلبهم من هاتين القبيلتين .. ومن هنا يصح المثل القائل : لا يفل الحديـــد الا الحديد .

أماني الفتية تتحقق .

ولئن كانت حراسة الهجانة مشددة ورادعة ومخيفة لكل فارس يحـــاول الغزو على طريقة أهله الوراثية فان هذه الحراسة مهما كانت مشددة ومهما بلغت من القوة فانها لاتستطيـع ان تقهر فارساً كزيد بن عمرو الجرباء الذي اشرت الى ذكره من قبل بأنه نزح من الحدود السورية الى الحدود التركية هو وشلة من من فرسان قبيلته .

ففي حوالي ١٣٥٠ هـ ١٩٣٠ م اعد العدة زيد بن عمرو قاصداً غزو عشيرة الفدعان التي يرأسها مقحم بن مهيد وكان مجرد اعلان ابن عمرو للغزو يعتـــبر

امنية سعيدة بالنسبة للفتيان الذين يود كل منهم ان يبدي شجاعة خارقة يرضي بها اميرة الجمال .

كان ذلك اليوم الذي حدد فيها ابن عمرو موعداً لغزوة يوما أغر محجلا لكل من فتيات قبيلة قيس وقبيلة شمر .

واما ان جاء الوقت المعين لذهاب الغزاة حتى حضر الفرسان بكامل عددهم وعدتهم وكان من بين هؤلاء الفرسان والد الفتاة .. وعندما تهيأ الفرسان للسفر وامتطى كل منهم جواده في تلك اللحظة جاءت اليهم سيدة الجمال تمشي مشية زهو وغرور وتحد .. ولشد ما اندهش الغزاة جميعهم حينما دنت منهم الفتاة وخرقت صفوفهم ثم وقفت في وسط جموعهم بقوامها المشوق وهي تزيح بكفها الناعم خصلة من شعرها انحسرت على جبينها المشرق ثم اتجهت نحو الفرسان بوجهها الناصع البياض الممزوج بحمرة تشبه زهرة الورد فقالت(:ان والدي قد تجاوز سن الشباب الامر الذي جعلني اخشى عليه من ان تطرحه فرسه بين الاعداء فيما اذا حصل بينكم وبين فرسان العدو كروفر :) ثم صمتت الفتاة بعد هذه الكلمة لحظة تنتظر من هؤلاء الفرسان من يقول لها لا تحملي هم والدك فانه بعهدتي ، ولكن الفرسان كل واحد منهم لا يريد ان يتطوع بمثل هذه الكلمة تطفلا من عنده ، لا لما يترتب عليها من مغامرة انتحارية فحسب وانما يريد كل منهم ان الفتاة نفسها تنتدبه للقيام بهذا العمل .

وقد غشى الفرسان وجوم من الصمت بعد تلك الكلمة فكان على رؤوسهم الطير . كما ان الفتاة ادركت ما يختلج في نفوس الفرسان ولذلك عادت وغيرت مجرى الحديث بحديث آخر متجاهلة ما قالته في كلمتها الاولى . فراحت تتمنى لهم التوفيق في غزوتهم هذه سائلة المولى ان تكون غزوة ميمونة ، وفي اللحظة التي تواصل فيها حديثها هذا الطافح بالدعوات كانت ترسل نظراتها خلسة نحو الفرسان تتفرس في وجوههم النجابة فكأنهم خيل تعرض للبيع وكأنها واحد

من هواة سباق الخيل يريد ان يختار جواداً سباقاً يضمن له رهناً رابحاً ، وعندما ايقنت انها وجدت حصانها الرابح بعد ذلك قطعت حديث الدعوات وعادت الى حديثها السابق مؤكدة للفرسان العبارة السابقة وهي خوفها على والدها من ان تطرحه فرسه في الساعة التي يحمى فيها الوطيس ويشتـــد الطراد بين الفريقين الغازي والمغزو وقد واصلت حديثها هذا بدون انقطاع خلافاً لحديثها السابق الذي تريثت فيه وبينما كانت مسترسلة بحديثها هذا مضت بخطى وئيدة وبمشيـة ممزوجة بين الخيلاء والغرام فمن نظرها بعين الاعجاب قال عنها انهـــا تتبختر بمشيتها. ومن نظرها بعين الغرام قال انها ترقص .. وبينما الفرسان **مأخوذون** بين معجب ومغرم في تلك اللحظة قطعت الفتاة مشيتها ووقفت بقامتهـــا المديدة بجانب احد الفتيان الفرسان المدعو تركي العجرش فربتت على كتفه قائلة : (ان والدي بعهدتك) ..

فابتسم الفتى ابتسامة الواثق من نفسه والفخور بهذا الوسام الذي وشح بـه من قبل ناعسة الطرف ثم اجابها بهدوء قائلا (سوف يعود اليك والدك سالماً ان **أحياني الله**) .. فقفلت الفتاة راجعة بمشية خيلت للفرسان انها مشية الساخر المتحدي.

اما الفتى العجرش فقد كانت نظرته للفتاة نظرة اعجاب وغرام في آن واحد، خلافاً لنظرة رفاقه الذين راحت اعينهم تنظر الى الفتاة شزراً ويتمنى كل فرد منهم ان يقع ابوها من جواده في ساعة حرجه لا مجال لانقاذه وفي معركة من اشد المعارك هولا، والغريب في الامر ان الفتى العجرش هو الأخر يتمنى الامنية نفسها التي يتمناها رفاقه الفرسان ... لقد التقى هو ورفاقه على صعيد واحد من حيث الوسيلة ولكنه يختلف عنهم طبعاً في الغاية فهم يتمنون ان يقع والد الفتاة بين ايدي الاعداء في معركة حاسمة تجعل الفارس العجرش في مأزق حرج فامـا إن يغامر بنفسة كوفاء لما تعهد به للفتاة بانقاذ حياة والدها وعندها تكون نهايته **فيرتاحون** منه لاكرها له ولكن نكاية بأميرة الجمال التي اشاحت بوجهها عنهم جميعاً

ولم يقع اختيارها إلا عليه، واما ان يعجز عن حماية والد الفتاة وإنقاذه فيكونون ربحوا الشماتة بالفتاة التي هجرتهم وبالفارس العجرش الذي حسدوه على اختيار الفتاة له دون غيره ممن يضارعونه بالفتوة والشجاعة .

هذا هو معنى امنية الغزاة ! اما امنية الفتى العجرش فانه يود ان يقع والد الفتاة من جواده في احلك الظروف وفي اشد المعارك هـولاً واعظمها ضراوة ، وفي ساعة حاسمة لا يفكر بها اعظم الفرسان الا بنجاة نفسه فقط

وقع ما تخشاه الفتاة

لقد سبق ان اشرت بأن جيش الهجانة في الحـــدود السورية كان حارساً للصحراء حراسة قوية ويصعب جداً ان يفلت من ايديهم غزلة من هذا النوع..

ولسوء حظ الغزاة ان الهجانة كان لديهم علم بهم مسبقاً ولذلك اتخـذوا اي الهجانة جميـع الاحتياطات اللازمة لتعقب حركاتهم وسبر غورهم بصورة دقيقة وكانت خطة الهجانة تقضي بتطويق الغزاة واسرهم اذا امكن الامر .

اما الغازون فلم يعملوا حساباً للهجانة وانما كان جل همهم مصبوباً نحومقاومة فرسان الفدعان فبعثوا فرساناً يسبرون مواقع ابل العـدو وبينما هم يسبرون من قبل الهجانة.. وفي الحين الذي كانوا يسيرون آمنين غير خائفين ويظنوا أنفسهم انهم غـزاة ، فاذا بهم فجأة يقعون بالفخ الذي نصبه لهم الهجانة وبدا لهم الامر انهم مغزوون وان سلامتهم مهـددة وان امامهم قوة الحكومة المجهزة بالاسلحة الحديثة لا قوة فرسان البدو الذين يضارعونهم بنوع الاسلحة .

فكر الغزاة وقدروا في الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . فوجدوا ان كل سبيل امامهم من سبل المقاومة موصداً بل وعقيماً .. وان لا سبيل لهم الا أحد السبيلين ، اما الاستسلام بدون قيد ولا شرط وهذا منتهى ما يصبوا إليه الهجانة

او الفرار على صهوات خيلهم .. وبينما هم في حيرة باختيار اهدى السبيلين ، عند ذلك زحف عليهم الهجانة واصلوهم برشاشاتهم بوابل من الرصاص المدرار فلم يسعهم الا ان ارخى كل فارس منهم عنان جواده وفروا هاربين فرادى وكل فارس منهم لايعلم ماذا حل بصاحبه . ولما كان الهجانة على رواحل والغزاة على الجياد فانه من المسلم به ان لا يستطيع راكب الناقة بان يدرك راكب الفرس وانما العكس هو الصحيح ، ولذلك لم يستطيع الهجانة اسر او قتل اي واحد منهم .

الامنية المزدوجة تتحقق .

لقد نجا الغزاة من الاسر بعدما ابدوا مقاومة بسيطة جرح بها احد الهجانة اما الفرسان فلم يصب احد منهم بأذية ولم يفقد منهم احد قط. اللهم الا والد الفتاة الذي جاءت فرسه تسحب رسنها بدون فارسها الذي سقط من فوق صهوتها في اول المقاومة ولكن سقوطه هـذا ظل مجهولاً لدى رفاقه فلا يعلمون هل اصيب برصاصة من رصاص العدو ، ام ان كلمة ابنته اثرت على معنويته بصورة جعلته منه لا يستطيع ان يتماسك على ظهر فرسه .. ؟ كان الفرسان بحيرة من أمر والد اميرة الجمال وقد بدا لهم الامر جلياً فيما بعد ان صاحبهم لم يصب بجراح وقد نظروه رؤية العين يسير على اقدامه سليما من كل اصابة .. ولكنه محاط بقوة الهجانة التي لا زالت تلاحق فلولهم وترشقهم برصاص منهمر ..

لم يحزن الغزاة على والد الحسناء التي سخرت بهم جميعاً بل يرون انهم وان افلسوا من غنيمتهم لابل العدو فانهم لم يفلسوا من شماتتهم باالفتاة وبالفتى العجرش الذي شمخ بأنفه عليهم بعدما انتدبته الفتاة لحراسة والدها واسقطتهم من حسابها ، ولكن العجرش لم يدع لرفاقه فرصة يشمتون بها على سيدة الجمال فسرعان ما كر الفارس على والد الفتاة المطوق بجيش الهجانة والذي يعتبر اخذه من بين هذه القوة تحدياً لسلطة الحكومة واستهتارا بحياته ومغامرة ما بعدها مغامرة ولكنها مغامرة لذيذة بالنسبة اليه فهو ان نجا منها وفاز باختطافه والد

الحسناء من بين يدي الهجانة، فمعناه انه حقق نظرية اميرة الجمال به وفي الوقت ذاته يكون استولى على لب الفتاة واحتكر غرامها له وحده بصورة لا يستطيع اي فتى ان ينافسه عليها .. اما ان لقي حتفه من جراء مغامرته هذه فانه يرى نفسه كفتى بدوي مغامر بطبيعته خيراً له ان يغامر من اجـــل ناعسة الطرف حتى ولو لقي حتفه من ان يغامر بحياته من اجل غنيمة جمل من ابل عنزة ..

وقد غامر الفتى بحياته وكان من المسلم به ان يقتله الهجانة بطلقات رشاشاتهم التي صرفوها عن الغزاة ووجهوا افواهها الى هـــذا الفارس الذي وضع نفسه هدفاً لرماتهم او ان يقتلوا فرسه فيكون وقتذاك من السهل استلامه وقيـده اسيراً او بالاحرى يحولون بينه وبين اختطافه للفارس الذي سقط من جواده ..

ولكن المجرش استطاع ان ينهب الشيخ من فكي الاسود بدون ان يصاب بأدنى سهم لاهو ولا جواده بالرغم من ان الهجانة المدربين عـلى رماية البنادق والرشاشات لم يدخر كل فرد منهم اقصى ما لديه من الجهد لاصابـــة الفارس اصابة فرسه سواء باقباله او بادباره .. ولكنه نجا من سهامهم ..

وهكذا عاد الغزاة مفلسين وموتورين من اميرة الجمال التي تحدتهم باختيارها للفتى المجرش ومقهورين من المجرش الذي حقق للفتاة ما كانت تتوسمه به .

اما الفتى المجرش فانه يرى نفسه الفارس الوحيد الذي غـزا وعاد بالغنيمة الدسمة .

ولما كان الهجانة الذين تحداهم الفارس واختطف الرجل من بين ايديهم كلهم أو اغلبهـــم من البادية الذين تستهويهم الشجاعة انى كان مصدرها فانه من البديهي ان يتساءلوا فيما بينهم من هو هذا الفارس الذي قام بهذه المغامرة العنيفة النادرة من نوعها ؟..

وقد كان من بين هؤلاء الهجانة جندي يدعى (مراح) من نفس قبيلة العجرش ، فهذا الجندي قال لرفاقه الهجانة انني على اتم الاستعداد لأن اضع رهاناً لمن شاء ان يراهنني بأن الفارس الذي قام بهذه المغامرة هو ابن العجرش فلان يقصد الفارس بالذات تكهنا منه بصفته — يعرف رجال قبيلته شمر واحدا واحدا خاصة الذين نزحوا الى الحدود التركية . . وبما ان الارض التي يقطنها الغزاة قريبة من الحدود السورية التي يعسكر فيها الهجانة لذلك كانت معرفة الفارس سهلة جداً بحكم ذهاب واياب المسافرين من والى الحدود التركية ولم تمض ايام قليلة حتى جاءت الاخبار للهجانة مؤكدة لصحة ما تنبأ به الجندي (مراح) وموضحة الأسباب الدلعية لمغامرة الفتى ..

هذا وقد روى لي مراح انه اجتمع بعيد هذه الحادثة بعم الفارس المغامر المدعو مطلق العجرش وتحدث له بالمغامرة التي قام بها ابن اخيه وما كان الجواب من عم الفتى الا ان قال (فهل تعتبر مثل هذه العملية شجاعة من شاب استنجدت بنخوته فتاة حسناء .. ثم استطرد الشيخ وقال : كنت اتوقع ان تقول لي انه هجم على الهجانة وأسر عدداً منهم واغتنم رواحلهم واسلحتهم ..

وهكذا نرى الشيخ يستصغر هذه المغامرة من ابن اخيه .

الشيخ الذي دفع حياته ثمناً لكرامته

- ١٠ -

كانت صلتي المباشرة بكثير من الشيوخ الرواة الذين تجاوز البعض منهم قرنا كاملاً . هي التي أتاحت لي الفرصة لنقل الكثير من هذه القصص ، كما أنها أتاحت لي ان اعرف شيئاً عن تاريخ حياة رجال لعبوا دوراً هاماً في شبه الجزيرة العربية .

وكان من الواجب التاريخي ان لا يغفل اسمـــاء امثال اولئك الرجال من التاريخ ، ولكن مع الأسف ، اننا لم نجد اقل ذكر لأي واحـــد من هؤلاء . والسبب في ذلك ، كما ذكرته أكثر من مرة هو ان الفترة التي عاشها اولئك الرجال لم يكن فيها مؤرخون ، وحتى الذين كتبوا عن تاريخ البلاد في الفترة الاخيرة ، كان اكثرهم من غير أهل البلاد ، كما انهم غرباء عن معرفة الأدب الشعبي المتصل بحياة بلادنا اتصالا لا ينفصل ، ومن الرجال البارزين الذين يشار اليهم بالبنان ، المرحوم زامل بن سليم ــ زعيم مدينة عنيزة وأميرها . لقد كان هذا الرجل من ابطال الرجال الافذاذ . وقد كانت شجاعته بقلبه كشجاعته بعقــله . وكانت معركة المليداء التي وقعت بين محمد بن رشيد من جهة وبين حسن ابن مهنا وزامل بن سليم من جهة أخرى . من اعنف المعارك التي وقعت في الجزيرة ، أو قـــد تكون هي البداية والنهاية من نوعها في عهدها الغابر لا اعاده الله ، لانها وقعت في العهد الذي كانت الحروب الاهلية بين المواطنين قد بلغت الذروة . وذلك في عام ١٣٠٨ هـ . وهذا الشاعر المرحوم حمود العبيد الرشيد يصف هــذه المعركة ببيت من قصيدته البائية الطويلة ، وصفاً تاريخياً صادقاً فيقول :

يوم جرى بالضلّفعة له ضلال يعده الاول لناس بالاصلاب

الشرح : الشاعر هنا يؤكد ان اليوم الذي حدثت فيه تلك المعركة سوف يرويه الاحفاد عن الاجداد وسوف يتحدث عن هوله ويتناقله الاحياء للابناء الذين لا زالوا في اصلاب آبائهم لم يخلقوا بعد .

وها نحن ننقل اخبار هذه المعركة من افواه الرجال الذين خاضوا غمارها وهم بمثابة الاجداد لنا والذين لا اذكر منهم واحداً على قيد الحياة وسوف تظل في حقل هذا السجل الخالد الى ما شاء الله .

روى لي المرحوم الشيخ سلمان بن رشدان الذي كان من رجال تلك المعركة يقول الراوي كان اللقاء بيننا وبين العدو وقع في معركتين اولى وثانية فاما الاولى فقد سقنا على العدو ابلا تسمى الصخريات وهذه الابل دربت تدريباً متقناً يقضي بأنه متى ما سمعت لعلمة الرصاص هجمت على العدو وعندئذ نأتي نحن المشاة ونهجم على العدو على اثر الابل فيكون العدو وفتها في ذهول من مباغتة الابل له بصورة لا تمكنه من مقاومة الابل والمهاجمين المشاة والفرسان من قومنا .

يقول الراوي كنا قدرنا ان عدونا لايستطيع ان يثبت ويقاوم الابل والرجال المهاجمين على حد سواء ولكن سرعان ما اتضح لنا ان المكيدة التي ابرمناها والتقدير الذي قدرناه كل ذلك تحطم على صخرة شجاعة وبطولة اعداءنا العنيدين حيث قابلوا الهجوم بهجوم معاكس وتمكنوا من مواجهة الابل فعقروا بعضها بسيوفهم وعقلوا البعض الآخر ثم قابلوا هجومنا بهجوم عنيف وقد ظلت المعركة دائرة بالسلاح الابيض حتى كان النصر للعدو ..

كانت هذه المعركة في ارض رملية بصورة لاتستطيع الخيل ان تجري بفرسانها .ويقول الراوي انه عندما ادركنا فشل تجربتنا الاولى ووجدنا انفسنا

كمشاة اعجز مـــن ان نهزم مشاة العدو وعند ذلك رحلنا ونزلنا في أرض صلبة جرداء تستطيع الخيل ان تجري فيها بصورة يكون فيها لفرسان الخيل كر وفر ومجال للقتال اكثر من المجال الاول الذي كان في ارض رملية لا مجال للفرسان فيـــه ..

وكان العدو يملك القوة الكافية من حيث المشاة الذين أثبت بهم تفوقه على خصمه ولكنه لا يضمن لنفسه النصر على خصمه فيما اذا نازله في ارض صلبـــة صالحة لطراد الفرسان بحكم انه لا يملك من وفرة فرسان الخيل التي تضمن له النصر كما يملك من وفرة المشاة الذين اثبتوا شجاعة هزموا بها ابن رشيد وابــله المدربة ورجاله الشجعان ..

كانت هذه الظاهرة يدركها المرحوم زامل بن سليم الشجاع برأيه وبقلبـــه ولكن المرحوم حسن بن مهنا الذي كانت شجاعته بقلبه اكثر من شجاعته برأيه ما استطاع ان يفهم هذه الحقيقة وذلك انه كان مصراً على ان ينازل العـــدو في أرضه ولا سيما وان العدو بدأ يتحرش برجاله وكان قصد العدو من تحرشه هذا هو ان تأخذ الامير حسن بن مهنا النخوة ويخرج برجاله الشجعان من الارض الرملية الى الارض الصلبة ليتسنى لفرسان ابن رشيد الكثيري العدد القتال الذي لم يستطيعوا القيام به في تلك الارض الرملية ..

فما استطاع الشيخ حسن ان يصبر على ذلك التحرش من خصمـــه الذي يعرف انه سبق ان هزمه من عشرة ايام عندما جاء بكل مـــا يملك من القوة وعندما ساق ابله المدربة ورجاله الشجعان وحينما قال شاعره في هذه المناسبة :

الى سِيقَت البل بالمسَاوْق روسها   سِقْنا عَمـــار بالمواسم غاليه

الشرح : يقول الشاعر اذا كنتم تسوقون الابل وقاية لاعماركم فاننا نسوق أعمارنا

الغالية ونرخصها في (موسمها) اي اننا نفدي انفسنا على صخرة الكرامة والوطن.

فالقائد الذي يقـول شاعره المعبر عن لسان حال جنوده هذا البيت ويثبت قوله بالفعل حرى به ان لا يتحمل تحرش خصمه الذي هزمـــه بالامس القريب ولماذا لا يزحف عليه في ارضه وينازله فيها ؟؟

وهكذا قرر الشجاع الشيخ حسن بن مهنا ولكن شجاع الرأي والقلب معاً الشيخ زامل ابن سليم لا يوافق زميله على هذا الرأي بل يرى ان يبدأوا هم بالتحرش بعد مرورهم في ارضهم الرملية التي سبق ان كسبوا بها المعركة فان فقد اعصابه عدوهم وهجم عليهم فانهم واثقون من الانتصار عليه بحـــكم الموقع الرملي الذي سبق ان جربوا ما له من تأثير على قوة العدو ولكن الشيخ حسن لا يرى هـذا الرأي وانمـــا يرى ان يزحف على عدوه ويعتقد ان التأخر عن مهاجمة العـدو هو جبن بينما يرى الشيخ زامل ان مهاجمة العدو في ارض صلبة كهذه حماقـــة لا مبرر لها. فاصر على رفض الهجوم ولكن الشيخ حسن تحدى اصرار زامل باصرار معاكس وزاد على ذلك بكلمة جرحت كرامة الشيخ زامل حيث قال له : «كنا نعتقد انك شجاع كما يقال» .

فلم يسع الشيخ زامل حيال هذه الكلمة الا ارتكاب احـد الامرين : اما ان يصر على رأيه ويرفض الهجوم وهذا معناه اعتراف منه بالجبن امام نـد شجاع من انداده الذي ينافسه على زعامة القصيم. واما الاقدام على مهاجمة العدو وهذا اقصى ما يتمناه العدو .. ومعناه الانتحار وبالتالي فضل الرجل ان يدفع حياته ثمناً لكرامته فكانت آخر كلمة قالها الشيخ زامل للشيخ حسن بن مهنا اشبه مـا تكون بالكلمة التي قالها عتبة بن الوليد لعمرو ابي جهل في غزوة بـــدر عندما ابدى رأيه بعدم مهاجمة جيوش محمد(ص) فقال له ابو جهل : «اجبنت يا عتبة» فأجابه عتبة بتلك الكلمة التاريخية اللاذعة بل الوقحة .

ثم مضى في سبيله هاجماً على اصحاب النبي (ص) مطالباً البراز حتى لقي حتفه. وهكذا فعل الشيخ زامل اخذته النخوة ومن مكانه ذهب وحشد رفاقه اهل بلدته وهجم على العدو وكما ان الشيخ حسن آل مهنا هو الآخر الذي لا يريد من يثير نخوته هجم بمن عنده برجاله فكانت هذه امنية العدو فما اشدها من معركة عنيفة التقى فيها الجمعان وحمي فيها الوطيس ولم يسمع فيها صوت الا اصوات رصاص البنادق الذي بدأ يدوي كالرعد فترة ثم انقطع وبقي صوتان فقط وهما صوت (نخاوي) ابطال الجانبين وصوت انصلة السيوف واسنة الرماح .. لقد ظل هذان الصوتان يدويان كدوي النحل فترة ليست بالقصيرة ثم انقطع الدوي وحل محله الانين. لقد تحقق للعدو ما يريد حيث طوق فرسانه رجال الشيخين زامل وحسن ودفع الاول حياته في المعركة الخاسرة رحمه الله كما سقط الثاني جريحاً ثم جاءوا به اسيراً ثم توفي رحمه الله بعد ذلك ..

وهكذا دفع هذا الشيخ البطل حياته ثمناً لكرامته .

والواقع ان الشيخ زامل بن سليم من افذاذ الرجال الابطال كما انه شاعر ولكنه مقل في شعره وقد يكون له قصائد كثيرة ولكنها درست كما درس ذكره وذكر امثاله من الرجال البارزين بعهده ولم احفظ من شعره مع الأسف الا بيتين فقط قالهما جواباً على قصيدة قالها كما اظن حجرف البواردي[1] وحتى قصيدة حجرف لم احفظ منها الا بيتاً واحداً وهو قوله :

الضبعة العرجاء بدر منها النكر تنقز على رجل والاخرى عايبه

الشرح : لم يكن في هذا البيت معنى ذو اهمية وكل ما فيه هو ان الشاعر يهجو زامل بن سليم بأنه بدأ ينحرف عن جادة الصواب وفي الوقت ذاته يهجوه بأنه

(١) حجرف من زعماء مدينة شقراء عاصمة الوشم في نجد .

اعرج ..

فأجابه زامل بقوله :

رجلي بلاها صابها وطي الخطر	يوم اشهب الدخان كل هايبه
قـــدام ربعي والمنايا كالمطر	ما وَقَّفَتْ بالسوق تتلي الخايبه

الشرح : يقول الشاعر جواباً على البواردي ان العرج الذى اصاب رجلي كان اسبابه عدم مبالاتي بالاقدام على المخاطر في الحين الذي كثير من الناس يتقهقر عن الاقدام في الهيجاء هذا ما قاله في البيت الاول كما يقول في صدر البيت الثاني معنى قابل ان يكون تأكيداً لما قبله فيقول لقد اصاب رجلي الرصاص في الحين الذي كنت، اتقدم به رفاقي في الهيجاء .

واما في عجز البيت فانه يقول معنى مزدوجاً فيه ما يشير الى مدحه لنفسه بالعفة كما ان فيه همزاً للشاعر الذي هجاه ولكنه همز غير واضح ...

فيقول ان رجلي وان كانت عرجاء ولكنها لا تجري وراء امـــرأة مشتبه بعفتها .

حيثما تكون النساء تكون الشجاعة

- ١١ -

اذا تتبعنا تاريخ العرب نجد ان النساء من اهم العوامل الاساسية في بث روح الشجاعة والرجولة في كيان فتيان العرب ويبدو ان هذه الظاهرة كان لهـا الاثر الفعال عند العرب منذ العهد الجاهلي وذلك اننا نجد قادة قريش في غزوة احـد استصحبوا معهم فتياتهم لكي يشاهدن القتال اعتقاداً منهم ان الفتى عندمـا يرى قاصرات الطـرف الحسان يزغردن للفتيان الشجعان ويستحثنهم على المضي قدماً في قتال العدو فانه سوف يقاتل بلا وعي ونحن على سبيل الاستشهاد نذكر شيئاً من ذلك ففي وقعة (الطرفية[1]) الكائنة بين أبن صباح وابن رشيد نجد ان فرسان قبيلة العجمان جاءوابفتياتهم ليشاهدن المعركة او بالاصح ليدفعن الشباب الى القتال .. وفي معركة(جراب[2]) نجد فرسان قبيلة شمر جاءوا ايضاً بفتياتهم بل ويؤكد الرواة ان بعضاً من الفتيات هن اللواتي يطالبن رجالهن بمشاركتهم في المعركة كما فعلترقية ابنة سراي[3] بنزويمل تلك الفتاة التي تعطينا صورة ناطقة عن خلق النساء العربيات: هذه الفتاة انكحت من ابن عمها وهي في سن مبكرة فانجبت بكرها صبياً وكان ذلك في الوقت الذي يتهيأ به ابناء عمها وفرسان قبيلتها الى غزوة « جراب » فراحت الى بعلها تخبره برغبتها بالذهاب مع الغزاة

(١) وقعة الطرفية كانت في ٢٦ ذي القعدة ١٣١٨ هـ. ١٩٠١ م.

(٢) وقعت في ١٣٣٣ - ١٩١٥

(٣) سراي بن زويمل من فرسان ورؤساء عشيرة سنجار المتفرعة من قبيلة شمر .

فرفض بعلها بحجة وجود المولود الذي لم يتجاوز اربعين يوماً بعد فأجابت الفتاة بعلها قائلة إنني أريد ان أحضر المعركة التي يقاتل فيها ابناء عمي اعداءهم واريد ان انهض بهمتهم واستحث شجاعتهم لان انتصارنا على العدو اوجب علي من حياة ابنك .. وغلب العدو لنا اشد علي وطأة من موت ابننا .. قالت الفتاة هذه الكلمة وذهبت الى بيت اخويها فهد ومحمد فطلبت منهما مشاركتها الغزوة فلبيا طلبها فوراً حيث اعدا لها الهودج وقد حضرت تلك المعركة العنيفة التي تعتبر من اعنف المعارك التي وقعت في تاريخ بلادنا القبلي الذي ذهب الى غير رجعة ..

ويؤكد كثير من الرواة انه عندما هجم العدو على الجناح الذي فيه هودج الفتاة ودنا منها يقال انها ظلت تستثير نخوة الفرسان من بني عمها وتندبهم واحدا واحداً مما جعلهم يقاتلون قتال الابطال ولا زالت تصرخ بهم وتزغرد وترفع صوتها عالياً قائلة : (حب الذرة يالصبيان) اي معناه ان رصاصات العدو لا اثر لها وانها اشبه ما تكون بحبيبات الذرة التي لا تضر المرء بسوء فيما اذا اصابته وبفضل صوت الفتاة الناعم المعسول استطاع الفتيان الفرسان ان يصدوا هجوم العدوّ ولكن بعدما دفعوا الثمن باهظاً غالياً . وهذا الثمن المدفوع هو خمسة وعشرون فارساً من زهرة فتيان قبيلة الفتاة واكثرهم من ابناء عمها الادنين كلهم قتلوا بمشهد منها ودفاعاً عن هودجها وعلى مقربة من خفي جملها .. وقد شاهدت بعيني رأسها الشجعان من جميع الغزاة كما شاهدت ايضاً من جبن وفر وراحت تنشد قصيدتها (الهجينية [٢]) هاجية بها شخصاً ما فتقول :

سلّم على البيض يا هالناير	واللي شرد لايعشقنه
شرد ان يوم الدخن ثاير	أبو قرون يعرفنه
يا مالة لك يا لناير	يعل قرونه يعدمنه

---

(١) انظر كتاب المؤلف الطبعة الاولى الجزء الاول من شيم العرب ص ٢٨٣
(٢) سبق ان اشرت بأن القصيدة الهجينية لا تتجاوز ابياتا محدودة .

الشرح :

تشير الفتاة في البيت الاول الى شخص يسمى (ساير) وساير هذا من جملة الاشخاص الذين انتدبهم امير الغزاة ليذهبوا كي يخبروا اهل البلاد بنتائج المعركة.

فتوصي الفتاة سايرا قائلة اذا وصلت نساء الحي الناصعات البياض فابلغهن تحيتي وقل لهن اياكن ان تعشقن الجبان او ترضين ان يكون لكن بعلا .

وفي البيت الثاني والثالث تشير الى شخص معين وتهزأ به وتدعو عليه بالمنيه.

وهذا شاهد واضح على ان النساء من أهم العوامل التي تدفع فرسان العرب الى الشجاعة اذ ان الفتى اذا لم يكن شجاعاً فانه قد لا يجد من ينكحه ابنته من فرسان العرب ، والبيت الذي انشده الفارس المشهور خلف الاذن ابن شعلان من اكبر واعظم الشواهد على ذلك اذ يقول :

ما ننعشق للبيض لو ما فعلنا   ولا يلكد باعقابنا كل اصيلة

هذا البيت هو من قصيدة طويلة للشاعر الاذن الفارس ،

فيقول : اذا لم نثبت بالادلة القاطعة عملياً بأننا فرسان فمعنى ذلك اننا لن نجد من نساء العرب اية فتاة ترضى بالنكاح من اي فتى منا والشواهد بهذا الصدد اكثر من ان تحصى . وانني اذ استشهد بقليل من كثير فانما هو من اجل ان اثبت بالدليل القاطع بأن الشجاعة النادرة التي يبديها فتيان العرب في كثير من المناسبات كانت ناشئة من المسؤولية الكبيرة التي يواجهونها امام فتياتهم وخاصة كالشجاعة الغريبة من نوعها التي قام بها فتيان من قبيلة شمر والتي يطيب لي ان اوافي القارىء بها كما يلي :

من المعروف ان ابن هذال من كبار رؤساء القبائل [1] وفي مناسبة ما اصطدم وجهاً لوجه بأهل ركائب محدودي العدد من قبيلة شمر وذلك في تاريخ لا استطيع تحديده ولكنه لا يعدو من ان يكون حوالي عام ١٣٢٨ هـ

وكان لابد لأهل الركائب القلة من التماس احد السبل الثلاثة الاول من شأنه ان يأخذوا لانفسهم عهداً من ابن هذال على ان يكون هذا العهد محصوراً على سلامة دمائهم فقط وهذا يعني ان ابن هذال سوف يغتنم ركائبهم واسلحتهم .

السبيل الثاني هو ان يقاتلوا حتى تخور عزائمهم وعندئذ يستسلموا للعدو بدون قيد ولا شرط فان شاء العدو ان يعفو عن قتلهم فذلك صدقة منه وان قتلهم فلا يعاب .

السبيل الثالث : يحتم عليهم ان يقاتل كل فرد منهم الى آخر نقطة من دمه وان لا يستسلموا قطعياً بل يقاتلوا حتى الابادة .

لقد تداولوا الامر وانقسم الرأي الى قسمين فرجحوا في بداية الامر السبيل اي الاستسلام بقيد وشرط ولكن هذا السبيل لا يعلمون هل يقبله العدو الذي يفوقهم اضعافاً مضاعفة عدداً وعدة ام انه لا يقبل الا ان يستسلموا بدون قيد ولا شرط وبينما القوم يتداولون الرأي عند ذلك قفز واحد منهم وقال (فلنسلم جدلا ان ابن هذال قبل منا الاستسلام بعدما يسلب اسلحتنا من ايدينا وبعد ان يغتنم رواحلنا فما هو عذرنا الذي نعتذر به عند فتياتنا الحسان غداً فيما اذا اتينا قبيلتنا حفاة مجردين من ركائبنا ومن اسلحتنا ؟ ثم ما هو عذرنا الذي نعتذر به عند اميرة الجمال (ابن لامي) التي كل فتى منا يتمنى ان تمنحه لحظة بطرفي عينيها القاتلتين ..

---

(١) ابن هذال من بادية العراق

وما ان انتهى الفتى من كلمته هذه حتى استرد الفتيان شجاعتهم فصاحوا جميعاً يهتفون قائلين وبالاجماع : (وش عذرنا عند بن لامي) اي مرددين العبارة التي قالها ومعناه انهم قرروا ان لا يذعنوا لكلا السبيلين وانما يقاتل كل واحد منهم حتى النفس الاخير . وهكذا صمم الفتيان على هذه العزيمة .. وقد حاول ابن هذال ان يسيطر عليهم بكل ما يملك من القوة ولكنه ما استطاع فكل ما هجم فرسانه ثبت هؤلاء للهجوم حتى اوقفوا المهاجمين عند حدهم بعدما ألحقوا بهم خسائر في الخيل والارواح .. واخيراً يئس ابن هذال من مطاردتهم وعادوا الى اهلهم بدون ان يستسلموا وقد انشد شاعرهم ثلاثة ابيات على وزن القصيد الهجيني فقال :

مَاعاد نِعطي ركايبنا   وِشْ عذرنا عند ابن لاميْ
بالخيل بانت مضَاربنا   لِعيون من نهدَها زَاميْ
والبيك ما عاد يْطلبنا   دُبْ الليّـــالَي والأيامِيْ

الشرح : يقول لن نستسلم للعدو فيكسب رواحلنا .. هكذا يعني في صدر البيت اما في عجز البيت فان الشاعر يأتي بالمعنى نفسه الذي كان باعثاً لقتالهم وعدم استسلامهم فيقول : عندما نستسلم للعدو ماذا نقول لاميرة الجمال المكناة بابن لامي .. وهذا لم يكن اسم الفتاة الحقيقي وانما اطلق هـــذا اللقب عليها والسبب ان هناك عقيداً من قادة وفرسان قبيلة مطير يسمى صاهود بن لامي وهذا العقيد له شهرة كبيرة ادخلت في قلوب اعدائه الرعب ولذلك كنيت هذه الفتاة بالفارس ابن لامي معناه ان جمالهـا يفتك بقلوب الفتيان كما يفتك الفارس ابن لامي باعدائه .

وليس غريباً ان نجد من لا يعرف الحادثة معرفة راسخة عن كثب يخيل اليه

للوهلة الاولى ان المقصود بابن لامي هو الفارس صاهود بن لامي لا الفتاة مع ان البيت الاخير يوضح المعنى ، وعندما ذكر الشاعر اسم البيك فالبيك معروف بانه المرحوم الشيخ فهد بن هذال فيكون الامر والحالة هذه واضحاً لان الذين يتاخمون قبيلة البيك ابن هذال قبيلة شمر لا قبيلة مطير .

وفي البيت الثاني يقول الشاعر : لقد قاومنا حتى اننا اصبنا فرسان العـدو اصابة بينة محسوسة وفي عجز البيت يقول : لقد كانت شجاعتنا هـذه كلها من اجل سواد عيون الفتاة ذات الثدي البارز .

وفي البيت الثالث يقول اننا لقنا البيك درساً يجعله لن يقرب لنا مدة حياته ويقصد بالبيك شيخ قبيلة الحبلان من عنزة المدعو فهد ابن هذال .

الفارس الذي حالفه التوفيق أينما حل

- ١٢ -

لعل القارىء يستغرب مني عندما اقول انني ادركت منذ سن الطفولة ان الشجاعة توفيق وشهرة اكثر منها تطبيقا عمليا ..

انها حقيقة واقعية ادركتها وشاهدتها طفلا كما شاهدتها رؤية العين رجلا .. وليس معنى ذلك انني اعني ان التوفيق والشهرة يغنيان عن الشجاعة .. كلاوانما اقصد ان الشجاع اذا لم يحالفه التوفيق وتؤازره الشهرة وذيوع الصيت الذي يرهب به الاعداء ويجعل له عند قومه مكانة محترمة فانه يفقد منزلته وحرمته بين مجتمعه حتى ولو كانت شجاعته تتجاوز الحد اما اذا حالف الشجاع التوفيق وناصره ذيوع الصيت فانه سوف يفرض هيبته على اعدائه كما يفرض حرمته على بني قومه ولو كانت شجاعته دون شهرته .

اما كيف ادركت معرفة هذه الظاهرة منذ كنت طفلا لا اتجاوز السنة الحادية عشرة من العمر فالقصة تأتي على النهج التالي :

كان اطفال الاحياء في مسقط رأسي مدينة حائل اذا جاء يوم الجمعة بالذات يذهب ابناء الحي الشرقي مع ابناء الحي الغربي خارج سور المدينة فيتقاذفون بالحجارة فيظلون يتحاربون من قبيل صلاة الجمعة الى بعد العصر فيما اذا لم يأت رجال يفرقون بين الجانبين وكان الامر طبيعيا ان يكون بين المتحاربين من كلا الجانبين افذاذ بارزون يمتازون على غيرهم بشهرة الشجاعة .. وكنت أعتبر

نفسي واحدا من هؤلاء البارزين ولا سيما بعدما حالفني التوفيق في مناسبة ما وبعدما وجدتني اذا أقبلت على رفاقي وهم يتبادلون قذف الحجارة مع اندادهم تزداد معنويتهم ويتنادون «أبشروا جاء فلان» وفي الوقت ذاته يصيب خصومنا رعب بمجرد ما يسمعون رفاقنا يستبشرون بالقادم الجديد، فكان الامر طبيعيا ان انخدع بهذه الظاهرة، وان اعتبر كل من لا يشاركني بهذه الشهرة من زملائي هو دوني شجاعة، ولكن سرعان ما جاءت احدى المناسبات التي جعلتني ادرك انني مخدوع بما كنت اتوهمه سابقا وان هناك من رفاقي الخاملين من هو يفوقني شجاعة واقداما بقدر ما افوقه توفيقا وشهرة بين صفوف الرفاق والخصوم على حد سواء..

وكانت المناسبة التي عرفت بها هذه الحقيقة هي اننا في يوم ما من ايام الجمعة الذي نتبارز فيه. خطر على ذهني أن اقوم ونفر من رفاقي بعملية نطوق بها خصومنا ولا سيما وقد رأيت ان عدد الخصوم قليل وانه بالامكان تطويقهم فيما اذا وافقني الرأي رفاقي وشاركني بالقيام بهذه العملية عدد من خيرتهم، وعندما قنعت بنجاح الخطة قلت للرفاق انني اريد ان اذهب لاطوق خصومنا من الخلف فمن منكم يذهب معي لتنفيذ هذه الفكرة ؟؟ فاجابني واحد منهم على الفور قائلا: انا وكان هذا الذي اجابني لا يزيد عني بالسن ولا ينقص ولكنني اعرفه كما يعرفه رفاقنا جميعا بأنه طفل عادي من حيث شجاعته واقدامه، وكنت اريد ان يشاركني بمهمتي هذه غيره من الاطفال الذين لهم شهرة لا هذا الطفل العادي ولما لم اجد غيره.. ذهبنا سويا وكنا مضطرين لأن نتوارى عن اعين خصومنا وهذا يقضي ان نسير مسافة بعيدة المدى نتخطى بها جميع المساكن الكائنة جنوب البلاد وشرقها وفعلا قطعنا هذه المسافة البعيدة حتى وصلنا المكان الذي كنا عازمين على تنفيذ الخطة منه ولكن عندما جاءت ساعة التنفيذ وجدنا ان خصومنا زاد عددهم زيادة مضاعفة عما كانوا عليه من قبل كما رأينا انه جاء اليهم اطفال أكبر منا سنا فاصبحت العملية فاشلة فقلت

لصاحبي : من الخير ان نعود الى رفاقنا لاننا لا نستطيع ان ننفذ العملية بعدما زاد عدد خصومنا وبعد ما جاء اليهم فلان وفلان الذين يكبروننا سنا .. فأجابني صاحبي قائلا : من العيب ان نعود بدون ان ننفذ الخطة التي تعهدنا بها لرفاقنا .. قلت : كان ذلك ممكنا فيما لو لم يزدد عدد خصومنا ويأتيهم من هو اكبر منا .. قال : حتى ولو تضاعف عدد خصومنا فانه بالامكان ان نهجم عليهم ونباغتهم بينما رفاقنا يهجمون عليهم من الامام . قلت : اذا فعلنا ذلك فمعناه اننا جئنا بمحض ارادتنا وسلمنا انفسنا لخصومنا . قال ! اذاً ماذا تريد ان نفعل ؟ .. قلت نعود الى رفاقنا من الطريق نفسه الذي جئنا منه .. قال : من العيب ان نعود مع طريقنا البعيد ونحن نرى رفاقنا قريبين منا وانما نهجم على خصومنا وبهجومنا نشق لنا طريقا على رفاقنا حتى نصلهم .. قلت وهذه ايضا مغامرة تعرضنا الى ان يأسرنا خصومنا ولا يمكن ان نقدم عليها .

وما ان انتهيت من كلمتي هذه حتى انحرف نحوي رفيقي قائلا : سوف امضي وحدي في طريقي (وانا أخوريا) قال هذه الكلمة ثم انطلق كالسهم شاقا صفوف خصومنا ، فلم يسعني بعد ذلك الا ان اتبعته لا بدافع الشجاعة ولكن كما ورد في المثل العربي القائل : (مرغم اخوك لا بطل) فشققنا صفوف خصومنا بدون ان ينالنا اي واحد منهم بسوء .

وهكذا تركنا رفاقنا وصاحبي تابع لارادتي وعدت تابعاً لارادته معترفا في قرارة نفسي ان رفيقي هذا وان يكن عاديا ليس له ادنى شيء من الشهرة التي كان لي منها النصيب الوافر ولكنه من حيث الحقيقة هو اشجع مني [١] ..

ومن تلك اللحظة اخذت درسا كافيا بأنه عندما نسمع بشجاع ذائع الصيت

---

(١) رفيقي المشار اليه هو المرحوم سعدون الفهد السعيد المتوفي عام ١٣٥٩ هـ وقداثبتت الايام بعدما بلغ سن الفتوه بأنه شجاع لا تلين له قناة ، ولكن شجاعته كانت بغير محلها كما ان همته وطموحه كانا دون شجاعته بكثير . رحمة الله عليه .

فليس معنى ذلك انه لم يكن بين قبيلته ان كان بدوياً من هو اكثر فروسية منه ولا بين جنوده ان كان حضرياً من هو اشجع منه ، لا ليس الامر كذلك بل قد نجد شجاعاً مغواراً لا يباري ولكنه ليس له شهرة الشجعان ولاهيبة الشجاع في قلوب اعدائه كما انه ليس له حرمة الشجاع عند اهله الادنين ..

هذا واني ارجو القارىء ان يغفر لي اسهابي في ذكريات الطفولة وما كان ينبغي ان أشير الى ذلك لولا امران: الامر الاول هو ان هذه القصة على بساطتها اعطتني درساً في الحياة على النهج الذي اشرت اليه آنفاً .

الامر الثاني : هو ان القصة التي سوف نضعها بين يدي القارىء تعطيناصورة ناطقة ومؤيدة لما اشرنا اليه ..

وقد رويتها من أحد فرسان الحادثة المرحوم هباس[1] بن هباس ، والجدير بالذكر ان بطل القصة هو الفارس المشهور ناصر بن سرحان العجمي الذي لازال على قيد الحيـــاة والذي لا يعتبر فارس قبيلته العجمان فحسب بل جدير به ان يقال عنه بأنه من بقية فرسان الجزيرة العربية .

في عام ١٣٣٨هـ الموافق ١٩٢٠ ذهب المرحوم سعود بن رشيد غازيا نواف بن شعلان الذي كان محتلاً المدينة الجوف[2] وكان غزاته في بداية الامركلهم من اهالي بلدته حائل وعندما طالت مدة الحرب بين الشعلان والرشيد عند ذلك استنجد الاخير بقبيلته شمر وكانت الحرب اولاً بين المشاة والمشاة اما بعدما جاءت قبيلة الغازي فلا بد ان تكون المعركة الان معركة فرسان لفرسان بالاضافة الى مشاة كلا الجانبين ، ولا بد ايضاً من ان تكون المعركة شديدة وفاصلة : لم يكن بين قبيلة شمر اي فارس غريب عن القبيلة اللهم الا ناصر بن سرحان العجمي ولم يكن ابن

١ - هباس بن من فرناس قبيلة شمر البارزين .
٢ - اي دومة الجندل .

سرحان من الفرسان المجهولين ، وحتى لو خفي امره على بعض فرسان شمر بصفتهم بأقصى شمال الجزيرة وابن سرحان بأقصى الجنوب.. لو خفي على هؤلاء لما خفي الفارس هباس بـــن هباس الذي قضى فترة من عمره في جنوب الجزيرة بجانب المرحوم الملك عبد العزيز . ولذلك كان كل ما يخشاه هباس هو انه عندما يدنو فرسان الجانبين بعضها من البعض الآخر ويكون كل منهم على اهبة الاستعداد للهجوم كان يخشى في تلك اللحظة ان يتولى زمام المبادرة الفارس بـن سرحان ومن ثم يتحين الفرصة المناسبة ويهجم على العدو بصورة مباغتة متقدماً لفرسان قبيله شمر ، فان نجا من هذه المغامرة التي لا بعدها مغامرة يكون وقتها ربح لنفسه ولرفاقه معاني عديدة :

اولا – بالنسبة له فانه سوف يكسب شهرة تطغى على جميع فرسان ابـن رشيد ، وهذه وحدها كافية لفـارس كابن سرحان ان يراها ربحاً معنويـــاً لا بعده ربح .

ثانيا – انه واثق بأنه عندما يكون الاول بهجومه فانه سوف يجعل فرسان ابن رشيد مرغمين على مشاركته الهجوم لا محالة اذ انه من المستحيل ان يتركوا رجلا ضيفاً عندهم فريسة للعدو ، فهو والحالة هذه واثق بأنه عندما يهجم سوف يضع فرسان شمر امـام الامر الواقع لمشاركته الهجوم .

ثالثا – يعتقد انه عندما يباغت هو وفرسان شمر فرسان العـــدو وبهجوم موحد فانه ورفاقه سوف يربحون المعركة .

كانت هذه التقديرات التي يتصور (هباس) انها تختلج في فؤاد ابن سرحان هي عين الصواب فأضمرها هباس في نفسه ولم يسر بها الا لافذاذ من فرسان رفاقه مؤكداً لهم رأيه بما سوف يقوم به ابن سرحان ومحرضاً اياهم ان يفوتوا الفرصـة على الفارس الضيف مهما استطاعوا .

وتأكيدا لذلك يحسن بي ان اوافي القارىء بما نقلته عن المرحوم هباس بهذا الصدد لقد روى لي هباس هذه الحادثة اكثر من مرة على الشكل الآتي :يقول: في اللحظة التي حشد بها العدو فرسانه وحشدنا نحن فرساننا وكانت المسافة التي بيننا وبين العدو قريبة للغاية ولم يكن بيننا وبينه الا جبل منخفض يقول : ففي تلك اللحظة كنت أترقب حركات الفارس ابن سرحان وتصرفاته بصورة لا تقل عن مراقبتي لمباغتة العدو لنا .. ويؤكد الراوي بأنه وجد حركات الضيف وتحمسه (ونخاويه) واقباله وادباره فوق جواده تارة يذهب لميسرة الفرسان يستحثهم ويشجعهم وتارة اخرى يذهب الى ميمنتهم متوشحا بكامل سلاحه وكل شعرة في شاربه وفي رأسه المكشوف واقفة كالرمح فاتحا فاه كأنه اسد يريد أن يثب على فريسته : يقول هباس في هذه اللحظة ادركت ان كل ما كنت اظنه بالرجل سيصبح الآن حقيقة واقعية ، وانني اذا لم افوت عليه الفرصة الآن فانه سوف يهمز جواده بقدمه ويهجم على العدو وسيرغمنا ضيفنا على اقتفاء اثره وعندئذ سيقول لسان حاله بل سوف يتحدث الرواة والتاريخ بأن الذي تقدم فرسان قبيلة شمر وارغمهم على الهجوم وكان العامل الأول بهزيمتهم لعدوهم ليس الا الفارس العجمي ناصر بن سرحان وسوف تكون حقيقة تاريخية لا نستطيع جحودها وانكارها وهنا استدرك هباس :

وقال : ما علي الآن الا ان ابذل اقصى ما لدي من الوسائل التي تفوت عليه الفرصة : ولذلك صحت بأعلى صوتي قائلا : يا ناصر انظر فرسان الميسرة من قومنا متراخين اذهب استحثهم ويمضي هباس بحديثه فيقول : وحالما ذهب الفارس الضيف الى الميسرة ليقوم بتنفيذه للخطة صحت برفاقي الفرسان ناخيالهم فهجمت كما شاركني بالهجوم كل من الفرسان الآتية اسماءهم فهاد بن مصطح دعيع : سلامه السبيعي وفارس (نسيت او تناسيت اسمه) .. ويصور لنا هباس الصدمة التي فوجيء بها ابن سرحان عندما سبقه الفرسان على خطته التي رسمها ولم يشعر بالحيلة حتى كساه غبار خيل الفرسان المغاوير عند ذلك يقول

هباس صرخ صرخة عنيفة كان لها دوي مفجع ..
ولكن بالرغم من ان هذا الفارس الذي حاول ان ينهب المجد من مضيفيه لنفسه حتى فعـــل مضيفوة اقصى ما لديهم من الحيلة لكي لا يأتي اليهم شخص بمفرده وينهب منهم اغلى شيء يعتزون به وهم عصبة كثيرو العـــدد والعدة ، وبالرغم من انه لم يهجم الا بعدما سبقه خمسة من الفرسان وبعدما كان هجومه لا يعدو الا ان يكون كفارس عادي من جملة العدد الذي لا يحصى من فرسان القوم الذين اقتفوا اثر الفرسان الخمسة الاوائل. بالرغم من هذا كله نجد ان هذا الفارس لم يخنه الجد بل كان التوفيق حليفا له من عدة وجوه :

اولا : انه نجا بنفسه وبجواده من المصير الذي واجهه الفرسان الخمسه اولئك الذين كانوا طليعة الفرسان المهاجمين فقد لقي كل فرد منهم نصيبه من سلاح العدو فاما هباس فقد اصيب برصاصة خرقت ساقه وقتلت فرسه واما فهد ابن مصطح فقد لقي حتفه واما السبيعي ودعيـع فقد اصيب كل منهما بجراح خفيفة واما الفارس الاخير فقد قتلت فرسه كما اصيب بجرح بيـــده اليسرى السليمة لان يمينه كانت مصابة برصاصة قبل هذه المعركة فاصبح الآن مشلولا .

ثانيا ـ انه لم يعدم من كونه كسب شهرة وغنيمة معا لم يكسبها اي واحد من فرسان ابن رشيد قاطبة بما في ذلك الفرسان الخمسه الذين تولوا زمام المبادرة بهجومهم على العدو وقصة هذه الشهرة والغنيمة تأتي كما يلي :

ثمة فارس يدعى (منديل) شقيق الفارس دعيـع سالف الذكر احد الفرسان الخمسة فمنديل هذا ذهب غاضبا على اميره ابن رشيد والتف حول عدوه الشيـخ نواف بن شعلان الذي لقي منه كل اكرام وتقدير وعندما وقعت الحرب بين ابن شعلان وابن رشيد كان منديل بمقدمة فرسان ابن شعلان بقدر ما كان شقيقه دعيـع بمقدمة فرسان ابن رشيد .. وكان دعيـع واثقا بأن اخـــاه سيكون في مقدمة فرسان ابن شعلان في حالة الطراد والكر المتبادل وكان لا يهمه ان يقتل

اخوه في المعركة بيد اي واحد من قومه كما يهمه ان يقتل بيد الفـــارس ابن سرحان الاجنبي ولذلك يقال ان دعيعا نبه ابن سرحان لهذه الناحية مؤكدا له ان اخاه يحارب بجانب العدو وانه اذا وقع بيده كأسير يحرص بــألا يقتله ولكن ابن سرحان اولا انه لا يعرف اخا دعيع شخصيا ..

ثانيا : ان اللحظة التي يحسب لها دعيع بوقوع اخيه اسيرا بيد ابن سرحان سوف تكون لحظة حاسمة لا يستطيع ابن سرحان ان يسيطر فيها على اعصابه وانفعالاته النفسية .

وحينما التقى فرسان الرشيد والشعلان وجها لوجه كان منديل في مقدمة فرسان الشعلان وعندما احاط الفرسان الاولون بالآخرين وهزموهم كان منديل الفارس الاول الذي احاطت به فرسان الرشيد فعرفه احد الفرسان الخمسة وهو الذي لم اذكر اسمه فتركه وشأنه فأتى بعد ذلك بصورة مباشرة الفارس ابن سرحان الذي لا يعرف منديلا وصوب بندقيته اليه فصاح الفارس الاول الذي عرفـــه قائلا : (انه منديل يا ناصر) فيتذكر وقتهـــا ناصر وصية دعيع بأخيه فجأة به يقوده اسيرا مغتنما فرسه والعرف السائد يقضي بأن اغتنام الفرس يعتبر نصرا كبيرا للفارس المغتنم ويسمو على اية غنيمة . من الناحية المعنوية على اعتبار ان مجرد غنيمة الفارس للجواد دليل قاطع على الذي استطاع ان يغتنم فرسا من الاعداء فمعناه انه نازل صاحب هذا الجواد وجها لوجه أوانه تغلب عليه بالأسر او بالقتل فعندها سوف ترتفـع اسهم الفارس بين قومه من الناحية الاجتماعية والمعنوية بالاضافة الى ان الفرس من الناحية المادية ثمينة في ذلك الوقت وهذا كله يعود على ما لدى هذا الفارس من توفيق في الحروب .

والأمر الثالث الذي بنظري انه اهم من جميع ما ذكرناه هو ان المرحوم الفارس هباس ورفاقه الاربعة استطاعوا ان يحرموا ابن سرحـــان من تقدمه عليهم وتمكنوا عن طريق الخدعة ان يجعلوا من ابن سرحان فارسا من الدرجة

الثانية فيما اذا اعتبرنا ان اصحاب الامتياز الأول هم الخمسة طليعـــة الفرسان الزاحفين وهذه حقيقة لا يسعنا الا الاعتراف بها من الناحية الواقعية .

ولكننا اذا تدبرنا القصة بامعان ودرسناها بعمق واضفنا الى ذلك شهادة الفارس هباس الذي شهد من نفسه على نفسه بأن الذي حفزه هو ورفاقة على تلك المغامرة هو الخوف من ان يتقدمهم ابن سرحان : اقول : اذا تدبرنا هذه المعاني بوعي وانصاف فاننا سوف نعتبر وجود الفارس ابن سرحان من الناحية التاريخية في تلك المعركة من أهم العوامل التي حفزت اولئك الفرسان الطليعة الذين سجلوا بمغامرتهم نصرا باهرا على عدوهم .

فتكة فارس عربي ارهبت المعسكر التركي

١٣

شئت ان اضع عنوان هذه القصة على الوجه الآتي : (الفارس الذي انقذ الموقف) وانما بدلته بالاسم الذي وضعته اعلاه لان العنوان الذي اعرضت عنه وان كان منسجماً مع واقع القصة ولكن اصبحت العناوين المشابهة له في هذا السفر كثيرة ..

وقصتنا هذه حدثت عام ١٣٠٩ هـ بالضبط لانني رويتها عن المرحوم سلمان ابن رشدان الذي ورد اسمه في هذا الكتاب اكثر من مرة وكان الراوي شاهد عيان للحادثة التي جاءت كما يلي :

كانت (دومة الجندل) المسماة الآن الجوف تحت نفوذ الامارة الرشيدية وكان اهلها دائماً وابداً يحبون الاستقلال والتمرد على الحاكم الا انهم مبتلون بعاهة من اكبر العاهات التي تحول دون امنيتهم التي تشغل بال كل واحد منهم وهي عاهة التفرقة وعدم اذعان بعضهم لبعض.. وهذه البلية اذا أصيبت بها امة او جماعة فلن تقوم لها قائمة مهما بلغ امرها من كثرة العدد والعدة .

وأهل الجوف كثيرو الشبه ببعض من اهل البلاد العربية التي كما يقال عنهم (بانهم قوم لا يريدون ان يحكمهم أحد من غير بلادهم ولا يستطيعون ان ان يحكموا انفسهم بانفسهم) وهكذا اهل الجوف رجال يتمتعون بكل معنى من معاني الشجاعة والاباء والشهامة وشموخ الانف وعدم احتمال الضيم ، ولكن

شيئاً واحداً ينقصهم الا وهو كما اسلفنا الاتحاد ..

وفي التاريخ المشاراليه اعلاه اي عـام ١٣٠٩ هـ ضاق اهل الجوف ذرعـاً بحاكم بلادهم امير حائل محمد العبد الله، ولكنهم وجدوا انفسهم اضعف من انيتمردوا عليهويتحدوا قوته التي لاطاقة لهم بمقاومتها ، فقدروا وفكروا بالامر، فوجدوا ان خير وسيلة يتخلصون بها من أمير حائل هي ان يذهبوا للحكومة التركيـة ليطلبوا حمايتها ، مفضلين حكم الاتراك من ان يكونوا تابعين لابـن رشيد الذي وان كان عربيا ومنهم وفيهم ، ولكنه من اهل حائل ، وبحكم النعرة الاقليمية والقبلية الضاربتي اطنابهاخاصة في ذلك العهد ، يرى أهـــل الجوف انهمعندما يكونون تحت نفوذ الحكم التركي خير لهم من ان يكونوا تحت نفوذ محمد العبـد الله الرشيد ولا سيما والحكومة التركية في ذلـك العهد كانت باسطة سلطانها على أغلبية البلاد العربية كسورية والعراق واليمن والحجاز والاحساء الخ ..

ولا يحتاج الجوفيون الى كثير من العناء عندما قرروا تنفيذ فكرتهم هذه ، فكل ما في الامر هو ان ذهب نخبة من كبارهم الى والي السلطان عبد الحميد في دمشق يطلبون منه حمايتهم من حاكمهم ..

وطبيعة الحال تجعل السلطان التركي يلبي هذا الطلب بانشراح صدر وطيبـة نفس ..

وعلى الفور بعث السلطان فيلقاً منعساكره بقيادة االلواء محمد سعيد باشا ..

وما ان بلغ الامير ابن رشيد هذا النبأ حتى شعر ان امارته مهددة بالاحتلال التركي بحكم قرب الجوف من عاصمة بلاده حائل، ولا عجب فيما اذا كان لهذا الخبر وقع في نفسه كوقوع الصاعقة .. ولذلـــك لم يتأخر قطعياً من ان جهز جيشاً عرمرماً وقد كان راوي القصة ابن رشدان ضمن اولئك الجنود الذين قال هذا

الراوي نفسه ان عدد الخيالة اي الفرسان يبلغ الف فارس والعادة المتبعة هي انه في حالة كهذه يبلغ بها عدد الفرسان مثل ذلك العدد فان عـدد الهجانة راكبي النجائب غالباً ما يكون ثلاثة اضعاف هذا العدد ..

حرب الاعصاب :

لم يقصد محمد محاربة جيش الاتراك الذي عسكر في ربوع الجوف فهذا شيء لا يطيق احتماله ، وبالتالي سوف يقوده الى مالا تحمد عقباه ، وانمـــا اراد ان يستعمل مع القائد التركي ما استطاع من الحكمة والعقل ، فان افاد معه هـــذا الاسلوب فبها ، والا فسوف يستعمل معه حرب الاعصاب ..

سار الامير بجيشه اللجب من حائل قاصداً الجوف في الحين الذي كان القائد التركي قد وصل الجوف وبنى خيام معسكره خارجاً عن البلد ، وبعد بضعة ايام وصل الامير محمد الجوف وبنى معسكره هو الآخر بقرب معسكر القائد التركي بعدما بعث اليه رسولا من عنده يخبره بأنه لم يأت من اجل ان يحارب أهل الجوف الذين اصبحوا بعهدة وحماية السلطان وانما جاء ليتفاهم مع القائد اللواء محمد سعيد ويطلب منه تعيين الزمان والمكان اللذين يعينهما القائد للاجتماع ..

فكر القائد التركي في الامر ، بدون ان يتخذ قراره النهائي في الموضوع ، ثم بعد ذلك بعث رسالة لسميه العربي تتضمن كلمـــة موجزة سلبية خلاصتها (سوف ننظر في الامر) ثم ذهب بعد ذلك يستعرض جنوده ويدربهم بقصـد ان يقوم هو الآخر بحرب الاعصاب .. فكأن المحمدين العربي والتركي يريد كل منهما ان يغلب صاحبه بحرب الاعصاب ، فالقضية اصبحت من الناحية العملية الى حرب النفس والاعصاب وسعة الحيلة واتقان المكر أقرب منها الى اصطدام الجيشين ..

الحكم الفاصل .

كان الامير يقوم ايضاً بالدور التمثيلي نفسه الذي يقوم به التركي ، حيث أمر فرسانه ان يقوموا بعرضة الفرسان ، وهـــذه العرضة عبارة عن قيام الفرسان بطراد سلبي بعضهم يطرد بعضاً ومعناه التدريب على الحرب العملية ، وبعـد ان قام فرسان الخيل بالاستعراض قام بعدهم فرسان الجيش اي الهجانة ثم بعد ذلك جاءت عرضة المشاةالتي يدق فيها الطبول وينشد رجالها القصائد الشعبية الحماسية وهذه الاخيرة وان كان منظر الفرسان مثيراً ومهيبا فان تأثـــير عرضة المشاة يثير الحماس والرعب بصورة لا تقل عن عرضه فرسان الخيل والهجانة. لقد كان منظر فرسان وهجانة ومشاة محمد العربي كافياً ان يدخل الرعب في قلب محمـد التركي كان الاول ابرع بالتمثيل او بالاصح كان لديه من كـــثرة عدد الفرسان والجنود ما مكنه ان يكون اقدر عمليا بالتمثيل من سميه ..

لم يعد محمد العربي يطلب الاجتماع ثانية بل ترك الامر بيد سميه التركي ، وهذا الاخير بعدما رأت عيناه منظر الاستعراض المهيب اصبح أشد حرصاً على الاجتماع من سميه ، الامر الذي جعله يسرع بانتداب وفد من عنده مؤكدا به موافقته على الاجتماع تاركا اختيار الزمان والمكان للعربي ..

ومن هنا شعر الامير العربي ان هذه المبادرة من سميـــه التركي هي بداية الانتصار ولذلك وافق على ان يكون الاجتماع من حيث المكان في موقع يكون في المكان الفاصل بين المعسكر التركي والمعسكر العربي بحيث لا يزيـــد شبرا بقربه او بعده عن هذا وذاك ، وان يكون من حيث الزمان بعد الغد ضحي..

عاد الرسول التركي يحمل رسالة العربي المتضمنة تعيين الزمان والمكان ، ولم يتردد التركي عن موافقته عـــلى ما تحتويه الرسالة حيث بعث رسوله ثانية الى الامير العربي يؤكد فيها موافقته..

فبادر الامير بارسال نفر من رجاله لينصبوا خيمة بين المعسكرين وما ان جاء الموعد المعين حتى جاء القائد التركي ممتطياً صهوة حصانه يصحبه فارس من جنوده، كما جاء الامير العربي بصورة مماثلة ، فدخل العربي من باب الخيمة الشرقي كما دخل التركي من بابها الغربي وكان القائد التركي يتقن العربية ، فتبادلا التحية الروتينية، ويؤكد لنا الراوي سلمان بن رشدان الذي شاهد وقائع هذه المناورات ورافق الحادثه من بدايتها الى نهايتها بأن زمام المبادرة قد اعطي للأمير الذي استهل حديثه مع القائد التركي بما معناه :

– ان جيشه هذا ليس الا جزءاً لا يتجزأ من جيش السلطان خليفة المسلمين وانه كأمير ملزم بتنفيذ اوامر الباب العالي ثم استطرد وقال : ان كل خلاف يقع بيننا يفرضه تحريض الرعاع كبعض رؤساء قبائل[1] البادية وأهل الجوف الجهلة فانه سيؤدي الى حرب خاسرة بالنسبة لك انت بالذات ، لانني على ثقة بأن جنودك لا قبل لهم برجالي الذين كل فارس منهم يتمنى لو يرى مني ادنى اشارة ليهجم بها على بلدة الجوف وليسحقوا اية قوة تقف امامهم .. ثم استطرد الامير العربي بقوله : فوالله انني لم آت من عندهم حتى اصدرت اوامري المشددة بأن لا يقوم احدهم بأي عمل استفزازي لا من بعيد ولا من قريب .. قال هذه الكلمة محمد العربي ثم وجه سؤاله التالي الى محمد التركي قائلا :

– عسى ان يكون حضرة القائد. اصدر اوامره الى جنوده كما اصدرت اوامري بهذا الشان ؟ .. فتجاهل القائد التركي استفهام الامير العربي فقال :

– لم افهم ماذا تعني ؟ .. قال محمد العربي :

– كيف لم تفهم عبارتي الأخيرة وانت كما يبدو لي تجيد نطق العربية وتفهمها .. فأجابه التركي :

---

١ – يقصد بذلك بدويا من رؤساء قبيلة بني صخر بادية الاردن حالياً يدعى قمان كان من لمشجعين لاهل الجوف بتمردهم وطلبهم حماية الدولة التركية ..

- ولكن عباراتك الاخيرة لم أفهمها كما يجب فيمكن ان تعيدها لاستوعبها .. قال العربي :

- انني اكره تكرار الكلام ، فبادره التركي بلغة فيها شيء من التراجع فقال :

- لا أريد ان تعيد كل كلمة قلتها وانما اريد ان تعيد الجملة الاخيرة ولو بصورة موجزة ..

فقال العربي :

- لما كنت اعرف رجالي بأنهم حريصون جدا على منازلة الاعداء فقد اكدت عليهم بأن لا يعتدي احد منهم على رجالك لكي لا يقع الشيء الذي لا تحمد عقباه .. ثم مضى وبدل لهجته الاولى فقال :

- واعتقد ان حضرة القائد من صالحه أن يكون اتخذ مع جنوده نفس التدابير التي اتخذتها مع رجالي ..

فقال التركي :

- ان جنودي منظمون وليسوا بحاجة الى شيء من ذلك ..

السيف أصدق انباء من الكتب !!

وقبل ان ينتهي القائد التركي من كلمته هذه انطلق فارس من معسكره وراح متجها نحو المعسكر العربي هامزا جواده بعنف ملوحا ببندقيته ، حتى اذا وصل الفرسان العرب اطلق عدة عيارات نارية من بندقيته، دون ان يصيب أحدا منهم ثم عاد مزهوا بما ابداه من شجاعة تحدى بها اربعين الف مقاتل من

كانت هذه العملية بمثابة خرق للهدنة ، وكان الامير قداتخذ اجراءاتمسبقة مؤكدا بها على رجاله بأن يلتزموا الصبر وان لا يقوم احد منهم بأي عمل من شأنه ان يؤدي الى وقوع اصطدام بينه وبين الاتراك ، وكان قد وكل رجـــالا رقباء مهمتهم ان يحرسوا فرسانه من قيامهم باعمال عدوانية ، مؤكدا لرجاله الذين يتولون مهمة الرقابة بأن يقهروا فرسانه عن المقاومة حتى ولو تحرش بهم فرسان العدو باعمال استفزازية فيجب ان يضبطوا اعصابهم ، ومن لم يذعن لذلك فعلى الرقباء ان يتخذوا نحوه اشد العقوبات تأديبا ..

كان هجوم الفارس التركي استفزازا صارخا للفرسان العرب مما اثار ثائرتهم جميعاً فهاجوا وغضبوا وحاولوا ان يخرقوا الهدنة ، ويفتكوا بالفارس التركي الذي تحدى رجولتهم ولكنهم عندما ذكروا تعليمات اميرهم التي تقضي بأن يملكوا السيطرة على اعصابهم في حالة استفزاز يقوم به مغامر مهووس كهـــذا الفارس التركي ، عند ذلك تراجعوا وهدأوا ، كما ان جنود الامير الرقباء كانوا على أهبة الاستعداد ممتطين صهوات خيلهم متوشحين بأسلحتهم الكاملة آخذين جميع الاحتياطات اللازمة واقفين بالمرصاد والحراسة لكف وزجر اي فارس يحاول القيام بأعمال المقاومة حتى ولو كان الامر دفاعا عن النفس ..

وبينما الامير العربي والقائد التركي قد قطعا صلة الحديث الذي كان جـــاريا بينهما ، وفي تلك اللحظة كان العربي ينظر الى التركي بعينين يتطاير منهمـــا الشرر على استهتار جنوده بفرسانه وهو القائل من ثوان قليله : (ان جنوده منظمون) أي لا يقومون بأي عمل الا بأمر منه .

وبينما القائد التركي يتعمد ان يتجاهل ما قام به جنديه وهو في هذه اللحظة ذاتها يشع من عينيه اكثر من معنى من معانى المكر بصورة يظهر بها دهشته

وأسفه على ما قام به جنوده من اعمال طـائشة ، بينما ادلة الزهو والاعتزاز بتحدي جنديه لفرسان العرب كانت بادية على محياه وتلوح من طرف خفي على وجهه العبوس الصارم ..

وبينما فرسان الامير يشعرون ان كرامتهم أهينت وحرمتهم كفرسان بواسل انتهكت بتحدي ذلك الفارس الجندي الذي افرغها في بندقيته من عيارات نارية على رؤوس اربعين الف مقاتل ، بينهم ألف فارس ، ثم قفل راجعا مزهوا بتحديه للأسد في قلب غاباتها دون ان يتجاسر احد على منازلته ..

في خضم هذه الاحداث المتضاربة وفي تلك اللحظة الحاسمة امتطى جواده الفاتك المشهور المغوار راضي بن جدى [1] وانقض على الفارس التركي كالسهم وبسرعة مذهلة لحق به وهو على مقربة من معسكره فضربه بحسامه ضربة قسمته نصفين من صلبه وما فوق سقط على الارض وما بقي ظل على صهوة فرسه .. فدخلت جواده الى معسكر الاتراك حاملة من فارسها رجليه اليمين والشمال المتشبثتين بالركاب ، وما تبقى من جثمانه الذي لصق على سرج جواده وكان منظرا كافيا ان يدخل في معسكر الاتراك وقائدهم الذي شاهد الرواية الرعب والفزع اما الفتى الفارس ابن جدى بعدما قام بعمليته هذه الذي تحدى بها تعاليم أميره كما تحدى بها الفيلق التركي فقد عاد الى معسكره غير مبال بكل ما يتخذ نحوه من عقاب بعد ان انقذ شرف قومه من الاهانة ..

رضوخ واذعان

بعد قيام ابن جدى بهذه الفتكة النادرة عاد محمد العربي الى مواصلة الحديث بنفس قوية وارادة فولاذية متظاهراً بأسفه على ما جرى من فارسه الذي اعتبره

---

(١) . راضي بن جدى من قبيلة شمر نجد ومن عشيرة عبده ومن فخذ يسمى بالمفضل واسرته تسمى بالجدي يقطنون شمالي الجزيرة العربية ..

رد فعل معاكس على ما قام بـه الفارس التركي ، بينما هو في الحقيقة يخفي في طيات نفسه سروراً لا يعاد له أي سرور ، كيف لا وهذه علامات الانهيـــار والاستسلام بدأت واضحة المعالم على محيا القائد التركي .. وقد تبدل ذلك الوجه الاشقر الدموي الصارم بلون اصفر باهت ولم يكن بوسعه الآن وبعد مشاهدتـه لمصرع جنديه الفارس الذي ربما كان افرس ضباط فيلقه بعد ذلك لم يسعه الا ان يستسلم للامر الواقع ويقبل بكل ما يمليه عليه سميه ..

وكانت النتيجة هي ان طلب القائد التركي من الامير العربي مدة محدودة لكي تعطيه مجالاً يستر بها هزيمته امام الرأي العام من ناحية ومن ناحية اخرى يتمكن بها من ان يقوم بعملية حرب اعصاب لاهل الجوف الذين طلبوا من السلطان التركي ان يتولى حمايتهم ..

وكانت العملية التي دبرها القائد التركي الداهيـة تجعل اهل الجوف يتنازلون مرغمين عن طلبهم الحماية التركية بطلب منهم وبوثيقة رسمية يقدمونها لكي تكون حجة عليهم وشاهدة له عند الباب العالي .

وملخص هذه الحيلة التي ابرمها الباشا التركي هي ان فرض على كل رجل من أهل الجوف مبالغ باهظة ليدفعوها كضريبة منهم مقابل حمايتهم ، وكان التركي على يقين من العلم بـأن أهل الجوف ليس لديهم من القدرة المادية مـا يمكنهم من دفع هذه الضريبة .. وكانت خطته ترمي بأنه في حالة رفض اهل الجوف لدفع الضريبة عند ذلك يطلب منهم ان يقدموا وثيقة يوقعها جميع اعيانهم معلنين فيها تنازلهم عن طلب حماية الدولة التركية لهم ..

وقد نجح الباشا بخطته هذه وذلك ان أهل الجوف ابدوا سخطاً واستياء من طلب القائد التركي لهم بدفع الضريبة لعدة أمور :

اولا – انهم لم يألفوا قط على دفع الضرائب .

ثانيا – ان وضعهم الاقتصادي اعجز من يخولهم بدفع تلك المبالغ الباهظة التي لا طاقة لهم باحتمالها قطعياً فكانت النهاية ان اصروا بعدم دفعهم للضريبة المطلوبة منهم ..

وعندها طلب منهم القائد التركي ان ينفذوا له الحيلة التي كان يدخرها في حالة رفضهم وهي رغبته بتقديم وثيقة يثبتون فيها تنازلهم عن طلبهم لحماية الدولة ... وهذا يعني رجوعهم مرغمين ومذعنين لزعامة الامير محمد العربي وتخلي القائد محمد التركي نهائياً عنهم .

ولما لم يجد اهل الجوف بدأ من اختيار اهون الشرين فقد اختاروا ان يعودوا مكرهين الى زعامة اميرهم القديم محمد العربي وان يقدموا وثيقة بتوقيعهم جميعاً معلنين بها تنازلهم عن طلبهم السابق الرامي الى رغبتهم بحماية الدولة التركية لهم ، فاستلم الباشا التركي هذه الوثيقة ، وقفل بفيلقه عائداً الى بلاده ..

وهكذا اثمرت مغامرة هذا الفارس العربي ، ونستطيع ان نقول ان الفضل كل الفضل يعود للفارس ابن جدي الذي بشجاعته وغيرته بدل الموقف وأرهب المعسكر التركي وقائده مما جعل أميره يفرض ارادته على الباشا التركي ويضطره الى الجلاء عن الارض العربية .

هذا وقد دخل الامير محمد العربي الجوف بعد ما جلا عنها الباشا محمد التركي واختار الامير محمد نخبة من رجاله ليكونوا سرية بالجوف بقيادة جوهر العنبر وكان سلمان بن رشدان الذي روى لنا هذه القصة كشاهد عيان واحداً من بين تلك السرية .. وكانت القاعدة المألوفة تقضي بأن تبقى السرية عاماً كاملاً ثم بعد ذلك تبدل بمثلها من رجال الامير انفسهم ، ولما كانت المدة التي يقضيها المرء من رجال هذه السرية طويلة ، مما يجعله بشوق وحنين الى أهله فإنه من بدهيات

الامور بأن تجود قريحة صاحبنا راوي الحادثة الشيخ سلمان بن رشدان رحمه الله بقصيدته الشعبية التي يطيب لي ان اورد بعضاً من ابيات الشاعر كقوله :

أخيْل وانا قَاعِد بابرْق الجوفْ	برق تلالا شاق عيني شعوَقهْ
اخيل برقد من ركان الى نوف	عزكْ على مَنزلْ ربوعي حَقوقَهْ
عَساه وسمٍ ويتبع الوسمْ بصيوفْ	حتى هَشيمَ القَاعْ تنبِتْ عروقَهْ
ودّى بِشربة مَاطرهْ مَار مكْتوف	تكتيف طيرِ خادمين سُبوقَهْ

* * *

الشرح : يقّول الشاعر في البيت الاول : انني عندمـــا كنت في ارض بلدة الجوف رأيت بَرقا يضيء ويتلألأ فابتهج صدري لوميض هذا البرق .

وفي البيت الثاني يقول : انني اتوقع ان يكون هذا البرق وتلـــك السحب الدافقة بين جبلي ركان ونوف وهما اللذان سبق ذكرهمـــا ويقول عزك اي كما ذكرنا تمجيدا لقدرة الله وعزته سائلا الشاعر المولى ان يكون هذا البرق وتلك السحب منهمرة على بلاده .

وفي البيت الثالث يقول ارجو ان يكون هذا المطر مدرارا متصلا في جميع فصول السنة الاربعة ..

---

(١) ابرق الجوف : اي الارض البيضاء التي هي أرض بلدة الجوف ..
(٢) شاق عيني : اي ابتهجت عيني برؤيته ..
(٣) اركان جبل يقع شمالا عن جبلي طي ..
(٤) نوف هو ايضا جبل يقع شرقا عن جبلي طي .
(٥) عزك هذه الكلمة مصطلح عليها يقولها الشعبيون اذا رأوا وميض البرق معناها جلت قدرة الله .

وفي البيت الرابع يوضح لنا الشاعر صورة عن وضعة الراهن فيقول : كم كنت اتمنى بأن اكون في بلادي يقصد (حائل) وانما اجدني مقيداعاجزا عن الذهاب حتى يتم العام الكامل ، ثم يصف المدة التي ارغم ببقائه حتي تنتهي كما يصف ما يعانيه من قلق نفسي فيقول اني اشبه ما اكون بالصقر الحر عندما يصيده الصياد بشبكته ، ومن ثم يضع فيه قيدا يجعله عاجزا عن الطيران .

الحياء عنوان الرجولة

- ١٤ -

هذه القصة وقعت في عام١٣٣٢ هـ ، ومن معاني قصتنا هذهيستطيع القارئ بأن يعرف بأن مصدر الاخلاق المثلى هو الحياء ومن لم يكن فيه حياء فلا يرجى منه أي خير . وفي الحديث الشريف قوله : (ص) الحياء شعبة من الايمان .

ومن يكن في خلقه الحياء فانه وان بدر منه شيء يتنافى والاخلاق المثلى عن سهو أو عنعمد فانه سوف يندمحتما على ما وقع منه ويعود الى خلقه الاصيل الذيهو الحياء ولكن اذا كان المرء معدوما من الحياء فانه لايرجىمنه انيكون فيه خير حتى ولو بدى منه علامات تدل وهما على طيبته ..

وقد ادرك هذه الظاهرة فارس من اشهر فرسان قبيلة الظفير يدعى « علي بن ضويحي بن صويط » وذلك في عملية الامتحان التي امتحن فيها فتيين من فتيان قبيلته ..

* * *

وقعت معركةعنيفة بين قبيلة الظفير التييرأسها علي ابن ضوحي وبين احدى القبائل التي لم يردني اسمها وطالت المعركة وحمي الوطيس حتى كان القتال بين الجانبين بالسلاح الابيض ويقول الرواة انها كانت معركة من أشد المعارك هولا فلم يثبت بها الا رابط الجأش منقوم علي ، اما ضعفاء العزيمة فقد لاذوا بالفرار ،

وكان من بين الذين جبنوا عن لقاء العـــدو فتيان كانا في شرخ شبابهما وينحدر كلاهما من اسرة عريقة بمجدها وفي شجاعة رجالها الامر الذي جعل عـــلي بن ضوحي يهتم كثيراً في شأن هذين الفتيين فراح يفكر في العمل الذي من شأنه ان يخلق في نفس هذين الشابين الشجاعة وشحذ شعلة الطموح ..

فذهب بادىء ذي بدء يأمر شخصاً ينادي جميع رجال قبيلته رجالا ونساء شيوخاً واطفالا ، كل هؤلاء امر أن يحضروا في مكان اعده لاجتماعهم ، فما كان من المدعوين الا ان لبوا نداء أميرهم وعندما اجتمعوا كلهم قـــام ونادى الفتيين اللذين فرا من المعركة وعندما اقتربا منه صاح بهما قائـلاً : ان حياتكما اصبحت عاراً وخزياً لاعلى اسرتكما فحسب بل على جميع القبيلة التي تنتمـون اليها وانني احذر فتيات قبيلتنا ان ينكحهن واحد منكما لئلا ينجبن أبناء جبناء من نوعكما ومضى ابن صويط يسترسل في كلامه اللاذع الذي هـــو اشد من وقع السيف الى ان قال :

– وابتداء من الآن فصاعدا سوف نحكم عليكما بأنكما في عالم الاموات ، ثم أردف قائلاً : اجل ان المرء اذا ضعفت همته وجبن عن لقاء العدو وهــو شاب فانه اذا بلغ سن الكهولة سيكون اضعف وانذل . وهو بهذا المعنى يشير الى ماعبر عنه الشاعر العربي بقوله :

اذا المرء اعيته المروءة ناشئـاً فادراكهـــا كهلا عليه عسير

بعد ان وبخ علي الفتيين نادى نفراً من رجاله وقال :

– أحضروا قبرين متقاربين واعتبروا ان هذين القبرين لهذين الفتيين الجبانين وضعوا حجراً على قبر كل منهما واكتبوا عليه هذا (قبر فلان الجبان لا رحمه الله عليه) ..

حفر الرجال القبرين وفعلوا كل ما اوصاهم به اميرهم وبعـــد ذلك اتجه نحو نساء القبيلة فنادى الفتيات الكواعب الحسان اللائي لهن صلة نسب ورحم بالفتيين كاخواتهما وبنات عمهما وعند ذلك قال :

ـ ان هذين الفتيين يجب ان تسقطانهما من حسابكن وان تعتبرنهما من اموات الاحياء وان تندبن عليهما ، فقامت الفتيات يندبن على الفتيين حسب ما امرهن به رئيس القبيلة وينحن كما لو كانا ميتين ..

وبعد ذلك تفرق الحفل وكل ذهب الى أهله ، اما الفتيان فقـد ذهبا بشعور متباين ومختلف بعضهما عن بعض ، بقدر اختلافهما بنسبة الحياء الذي تزيد كميته باحدهما بقدر ما ينقص او يكاد ان يكون معدوماً نهائياً بواحد منهما ..

وبينما كان احدهما مفقود الاحساس متلبد العاطفـــة ميت الوجدان لا يبالي باحتمال العار ولا يخجل من دنس الخزى يشبه الى حد كبير ذلك الفتى الذي قال لوالده : انني لست مبالياً بمن يمتدحني ولا بمن يذمني) .. فقال والده : لقـد (استرحت يابني مما تعبت منه الكرام) بينما هـذا بهذه الصفة بينما الثاني ذهب الى اهله مهموماً كاسف البال لايطيب له عيش ولا يدخل عينيه النوم ..

وهكذا كان التباين بين الاول الذي ذهب الى اهله ساخراً بعقلية رئيس قبيلته مستهتراً به يتحدى زعيم القبيلة بلسان وقح وجبـــين لا يندى ووجهه كالارض السبخة قائلا لرفاقه :

ـ ثم ماذا يكون اذا اعتبرني رئيس القبيلة او القبيلة بكاملها ميتاً ما دمت على قيد الحياة ، فهذه مسرحية مفتعلة الخ .. بينما الثاني كما اشرت حارب المجتمع وهجر أهله وفراشه لا يحب ان يرى ولا ان يرى ، لا يفكر ولا يختلج في صدره ولا يدور في ذهنه الا امر واحد فقط وهو ان يقيض الله غزاة تهاجم قومه لكي

يغامر بحياته فاما ان يكون بطلا من ابطال الهيجاء وعندها يذهب الى رئيس قبيلته متوشحاً بسلاحه رافعــاً رأسه طـلباً منه ان يسحب كلامه الاول فيحيا بعدها حياة هنيئة يكون قدغسل عن نفسهجبن العار ومهانة الذلة، اومااني‌لقى حتفه فيستريح منحياته التي اصبحت وبالا عليه .. وقد ظل الفتى يتحين هذه الفرصة بفارغ الصبر .

أمنية تتحقق :

ولما كانت الحروب بين القبائل مع الأسف شيئاً طبيعياً خاصة في ذلك العهد الذاهب الى غير رجعة فانه . بطبيعة الحــال سوف تتحقق امنية الفتى التي طالما كانت تدغدغ خياله وتؤرقه عن السبات والتي اخذت من حياته وقتاً طويلا وهو يحلم بها ..

يالها من فرحة لا يعاد لها في نفسية الفتى عندما صبت احدى القبائل غارتها على ابل قبيلته وخرج فرسان قومه مدججين بالسلاح وعلى رأسهم زعيم القبيلة علي سالف الذكر .. كانت اول عمليـــة قام بها الفتى هي ان امتطى فرس أبيه بدون اذن منه ولبس (جوخة [1]) حمراء وتوشح بحسامه ووضع الرمح بكفه دون ان يحمل بندقية علامة على انه سوف يواجــه الفرسان وجهاً لوجه بالسلاح الابيض .وقبل كل شيء مر من عند رئيس قبيلته وصاح به قائلا :

– ان كنت رجلا فاتبعني .. ثم همز جواده وراح شاهراً سيفه .. فما كان من امره الا ان توسط فرسان الاعداء وظل يصول ويجول ويكر ويفر مناضلا نضال المستهتر بحياته فما من فارس من فرسان الاعداء ينازله الا وكانت الغلبة له حتى انه ادخل في قلوب اعدائه الرعب فولت فرسان العدو هاربة خوفاً من الفارس الجديد الذي ادهشتهم بطولته ..

---

(١) أي علامه التشهير بنفسه وهي عادة قديمة يتخذها فرسان العرب في الجاهلية .

بعد ذلك عاد الفتى الى أهله مفتنا عدداً من افراس الغزاة .. كما عاد رفاقه وكل فرد منهم ثابت لديه ان سر انتصارهم على اعدائهم يعود الى ذلك الفتى الذي كان منبوذاً ومحتقراً بالامس ، ولكنه اليوم اصبح بطـــل القبيلة بأسرها ، واحدوثة الأندية وراح ذكره يفوح كالمسك على السنة الفتيات اللواتي كل واحدة منهن تتمنى ان يكون لها بعلا .. وسرعان ما تغير مجرى حياة هذا الفتى ، من زهد فتيات قبيلته به الى تنافسهن عليـــه ، وما من فتاة تثق بجمالها الفاتن الا وتذهب اليه بدافع الشوق والغرام محاولة اغراءه عله يرضى ان تكون له قرينة او لعل القدر يسوقه لها بعلا ..

« ولا غرو فقد ذكرنا في أكـثر من مناسبة ان نساء العرب يعشقن الرجل لشجاعته اكثر من أن يعشقنه لاي معنى من المعاني » .

أما زعيم قبيلته الذي احتقره بالامس اي الذي بالاصح اشعل في كيانه تلك الموهبة الكامنة فقد ذهب اليه زائراً له وساحباً كلامه السابق ومنحنياً لبطولته ..

وهكذا شعر الفتى انه خلق من جديد وعاش حياة طافحة بالعزة والكرامة والاحترام حياة تختلف عن حياة زميله الذي رضي بالهوان وقبل ان يعيش بين قومه ذليلا مهاناً محتقراً كعيشة البهائم ليس الا ..

وفي تجربة كهذه تتباين مفاهـيم بني الانسان وتختلف نظرتهم للحياة ، فمن واحد يرى ان هذه الحياة العابرة التي اشبه ما تكون بوميض البرق الخاطف اذا لم يعش فيها الانسان حراً ابياً جم المروءة منيـــع الجانب شامخ الأنف موفور الكرامة ، فان عدم وجوده فيها كانسان خير الف مرة من ان يحيا وهو مجرد من تلك المعاني ..

وبعض من الناس يكفيه من الحياة اسمها حتى ولو كان يحيا كحياة الكلاب والحمر الاهلية مكتفياً بالعيش والتناسل فقط ..

ورحم الله محمود سامي البارودي القائل :

علام يعيش المرء في الدهر خاملا أيفرح بالدنيا بيـــوم يعـــده
ومن خاف ذل الموت كانت حياته اضر عليه من حمـــام يؤده

وبعد فاننا اذ اشئنا ان نفهم السر الذي جعل هذين الفتيين يشتركان في بداية الامر بالجبن والفرار ، ثم يختلفان فيما بعد . فذاك يظل مستمراً بجبنه وهذا تبدل مجرى حياته وسيرته الاولى رأساً على عقب ، اذا شئنا ان نعرف كنه العامل الاساسي فلا نجد دليلا ملحوظاً مقنعاً اللهم الا دليلا واحداً الا وهو الحياء الذي هو بلا شك نبراس الاخلاق الحية وعنوان الرجولة ، فهو وحده الذي اثبت لنا ان بين جنبي هذا الفتى نصيباً وافراً منه ، بينما كان فؤاد الثاني فارغاً منه ورحم الله الشاعر العربي القائل :

اذا لم تخش عاقبة الليـــالي ولم تستحِ فافعـــل ما تشاء

* * *

فارس ارهب ستين فارساً

١٥

كأنها خيال او اسطورة او تمثيلية ولكنني لا اشك في صحة وقوعها .. خاصة بذلك الزمان الذي يستطيع الفارس الشجاع ان يبرز موهبته كما يريد.. اما الآن فقد فقدت الشجاعة طابعها الواقعي خاصة بعد ان برز الى حيز الوجود السلاح الحديث، بعد ذلك لم يكن للشجاعةالفردية اي مكان في عصر الذرة والصاروخ..

وقد كان العهد المنصرم امتحاناً للشجعان، فكل ند ينازل نده وجهاًلوجه، فاذا تهيأ مثلاً لفارس ما جواد سباق وسلاح ماض ، فانه لا يخاف وقتها من اي مخلوق كان لانه بامكانه ان يكر ويفر بدون ان يتمكن العدو من قتله او طرحه ولا سيما والصراع بين الفرسان كان بالسيف والرمح ..

والقصة رويتها من الاستاذ ادهم الجندي صاحب كتاب الاعلام والفن العربي، وهي تتلخص على الوجه الآتي :

يقول الاستاذ الجندي : كنت ذات يوم في نادي المرحوم مشل[1]باشا الجربا، في دمشق فسئل الشيخ مشل عن اعظم شيء سمعه او رآه من مواقف الشجعان النادرة ، فأجاب بقوله : ان اروع وأهم مشهد رآه بحياته هو شجاعة فارس من فرسان قبيلة عنزة .. ويمضي الشيخ مشل بحديثه حسب رواية الراوي الى ان قال : كنا غزاة من قبيلتنا (اي قبيلة شمر) بقيادة المرحوم عبد الكريم الجربا قاصدين غزو قبيلة عنزة .. فوجدنا ابلا ترعاها فتاة فاغتنمناها اعتقاداً منا انها لقمة سائغة .. وقد لفت انتباهنا نظرة الفتاة المختصة برعاية الابل ، فقد كانت

١ ـ مشل من روساء قبيلة شمر الغزاة توفي رحمه الله في دمشق عام ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٨

تنظر الينا نظرة الساخر ، او المستهتر ، وما كنا نظن ان وراء نظرتها هـذه ما وراءها من سردفين ...

وما ان قطعنا مسافة ليست بالبعيدة حتى لحقنا فارس بمفرده ، وعندما دنا منا طلب منا (الحذية) اي الهبة كما هي العادة المتبعة بحالة كهذه ، فالمغتنم حسب العرف المتبـع يتحتم عليه ان يهب من غنيمتة .

فيقول : مشل لم نتردد من هبته ناقتين ظانين ان ذلك كاف له ولكنـه عاد

فطلب الحذية مرة ثانية فوهبناه ناقتين ايضاً ثم عاد ثالثة فطلب فوهبناه عـدداً مماثلاً ثم عاد رابعاً يطلب الحذية ولكن بلهجة توحي انه لم يكن مستجديـاً كما بدا لنا من الوهلة الاولى في طلبه السابق وانما كان هذه المرة متحـديا .. ولذلك برز لمنازلته ستة من فرساننا بينما نحن نسوق الابل التي اغتنمناها .. فظل برهة يتصارع مع الفرسان بين كروفر .. وبعد ذلك لحقتنـا افراس رفاقنا خاليـة سروجها من فرسانها الذين ابادهم هذا الفارس ..

فلم يسعنا الا ان ابرزنا له فرساناً اكثر عدداً من السابقين بينما ظل البقية منا يسوقون الابل.. وما ان اخذنا فترة حتى لحقتنا افراس قومنا الذين كان مصيرهم كمصير سابقيهم ..

فكانت النتيجة ان ارهبنا هذا الفارس[1] وادخل في قلب كل منـا الرعب فهربنا تاركين له ابله، مغتنمين السلامة بعدان قتل منا فتياناًمن خيرة فرساننا.. .. وبعد فقد وجدت السيد الجندي راوي القصة مندهشـاً لا من البطولة التي قام بها الفارس بالرغم من انها بطولة خارقة حقاً ، ولكنه مندهش ومعجب في آن واحد من اعتراف المرحوم مشل الجرباء بشجاعة عدوه وشجاعتـه

يؤسفني ان الاستاذ الجندي لم يحفظ اسم الفارس كما حفظ لنا القصة .

ولكنني شخصياً لم استغرب ذلك بحكم معرفتي الراسخة لاخلاق العرب .. فنجد مثلاً مشل الجرباء يشهد لخصمه اليوم بمثل هذه الشجاعة النادرة ..وفي الغد يجد مشل نفسه من يشهد له او لاحد فرسان قبيلته بعملية شجاعة نادرة من نوع الشجاعة التي قام بها هذا الفارس صاحب الترجمة ..

وهذا الخلق قل ان نجدمن يطبقه بصوره عملية كتطبيقالعرب له.. وخاصة البادية فالبدوي مهما بلغت العداوة بينه وبين خصمه لا يبخس حق خصمه ولا ينكر ما له من فضيلةبل ينصفه بدون ان تؤثر عليهالاحقاد او يستفزه الغضب، وهذا ما اشار اليه الحديث الشريف القائل معناه : (لا تصاحب امرءاً ما حتى تغضبه .. فان انصفك في حالة غضبه فبها ، وان لم ينصفك فابتعد عنه ...

كم من فئة كثيرة غلبتها فئة قليلة

١٦

من بدهيات الامور ان كثرة العدد والعـدة من أهم عوامل النصر والفوز ، ولكننا لا نستطيع ان نحكم الحكم الفاصل بأن النصر والغلبة دائمـاً للكثرة ، فالكثرة عامل من عوامل النصر بلا شك وسبب عظيم من اسباب الغلبة ولكنها ليست هي الكل بالكل ولن تكون والتاريخ العربي بل والبشري بصورة اشمل جديران بأن يكونا حكماً بهذا الشأن ، اذ ان قضية النصر غالباً ما تكون قضية ايمان اكثر من اي شيء آخر .. فالجماعة او الافراد متى كانوا وطيـدي الايمان بأنفسهم بعد الله ومتى ما قرروا مصيرهم النهائي في امر مـا فانه ليس من السهل قهرهم .. ولعل في هذه القصة التي بين يدي القارىء ما يقدم لنا اوضح الادلة على ما نشير اليه بأن القضية قضية ايمـان اولا وآخراً .. ويوشك ان تكون هذه القصة من أشهر القصص ذيوعاً وأكثرها انتشاراً ولا اظن احدا ممن له ادنى المام بتاريخ الاحداث التي مرت بجزيرتنا العربية منذ قرن فما دون الا وقـد سمع عن هذه القصة كما سمع بانشودتها الشعبية التي تناقلها الركبان وحفظ الاحفاد عن الاجداد جيلا بعد جيل .. كما ان احدى صحف المملكة نشرتها على صفحاتها وهي مجلة الجزيرة التي نشرت القصة بقصيدتها في ١٣٨٢ و ١٩٦٢ ، المقصود هو انني عندما اذكر في مؤلفي هذا حادثة ما فانني بطبيعة الحال لم آت بها من نسج الخيال لانني اذا اردت ذلك سوف اجد من سبقني اليه من الكتاب الذين تفننوا بكتابتهم للقصص الخياليـة باسلوب عصري حديث وبصورة تجذب اعجاب القاريء حتى يخيل اليه ان تلك القصة من صميم الواقع لا من صنع الخيال ..

وهذه القصة مما لا يشك أن فيها البطولة ما هو مدعاة للاعجاب والتقدير للابطال القصة الاشاوس ، وهي كغيرها من قصص البطولة وقد يكون هناك من القصص ما يفوقها .. ولكن الشيء الذي تمتاز به هذة القصة على غيرها هو انتشارها بين الرواة وشيوع ذكرها بين كافة المواطنين من ساكني الجزر العربية الامر الذي يجعلني اكون سلبي الاجابة فيما اذا قال لي أي مواطن عادي : (انك لم تأت الينا بشيء جديد في هذه القصة كبقية القصص المعروفة عند حضر وبدو وجنوب الجزيرة مثلا ، ولكنها مجهولة عند الجانب الآخر من اهالي الشمال باديه وحاضره) ..

طبعاً .. سأكون سلبي الاجابة على ذلك لان هذه القصة قد بلغت القمة من حيث الشهرة واعتقد ان اهم شيء في ذيوع صيتها ليس الا القصيدة الشعبية التي كان وزنها قابلا ان يلحنه الفلاح في حقله والعامل في عمله اني كان والمسافر فوق شداد مطيته ومغني (الربابة) على اوتار ربابته .. هذا هو العامل الرئيسي لشيوع ذكر قصتنا التي جاءت كما يلي :

هب غزاة قلة من قبيلة مطير ومن فخذيسمي بالعوارض ولبعد العهد بالحادثة الذي لا يقل عن ستين سنة لذلك ما استطعت معرفة القبيلة التي ينوي هؤلاء غزوها وانما الادلة كلها تشير الى انهم ينوون غزو قبيلة شمر .. وصدفة اصطدموا بقوة الامير المرحوم عبد العزيز بن متعب الرشيد الذي كان يملك من القوة ما يزيد على عشرين الف مقاتل بين فارس وراجل بينما الغزاة لا يتجاوز عددهم نسبة محدودة ..

وكان الوقت في بداية الضحى وبينهم وبين اقبال الليل المدلهم الذي لا يمكن ان يتواروا في ظلامه مدة طويلة والرواحل التي يمكن ان يفروا عليها هي ولا شك نجيبة وسريعة الجري ويمكن ان يفروا هاربين بدون ان يستطيع العدو اللحاق بهم فيما لو لم يكن لدى هذا العدو مئات الخيول الاصيلات التي يستطيع

فرسانها ادراك الهاربين بسرعة ، فكر الغزاة في امرهم فوجدوا انفسهم بين امرين عقيمين: الامر الاول هو الاستسلام وهذا معناه انهم سوف يسلمون انفسهم لعدو قاس عنيد لا تأخذه بهم رأفـــه ولا رحمة بل سوف يبيدهم عن بكرة أبيهم ..

السبيل الثاني : هو ان يقاتلوا قتال المستميت فان قدر للعدو ان يطوقهم ويقهرهم بخيله وجيشه العرمرم ، فانــه من الافضل لهم ان يموتوا قتلى معركة خير لهم الف مرة من ان يموتوا اسرى مكتوفي الايدي يمثل بهم جلاد الامير بسيفــه كيف يشاء .. لقد رأى الغزاة ان هذا السبيل هــو افضل الف مرة من السبيل الاول لا من حيث ان الاول يموتون به ميتة الجبناء وهذا يموتون به ميتة الشجعان فحسب .. بل من حيث ان الاول فيه فناءهم جميعاً مائة بالمائة .. بينما الثاني فيه احتمال ان ينجو منهم من تكتب له النجاة ولو واحد بالمائة على الطريقة التي اوصى بها غزاته الخليفة الاول ابو بكر الصديق رضي الله عنه حيث قـــال : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة .

وهكذا قرر هؤلاء الفتيــان ان يموتوا شجعاناً مقاتلين لا ان يموتوا اسرى مستسلمين ، وكانت النتيجة ان لقن هؤلاء الفتيان الامير وفرسانه درساً لا ينسى وسجلوا بطولة لا تطمس السنون ذكرها وقدموا دليلاً قاطعاً وعبرة تا يخية على ان قوة الايمان اهم من قوة السلاح وكثرة العدد والعدة .. وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لهذه الفئة القليلة التي استطاعت ان تثبت امام ذلك الجيش اللجب وان تقاتل اولئك الفرسان الاشاوس الذين لم يدخروا وسعاً في بذل اقصى ما لديهم من الجهد للسيطرة والغلبة عليهم حتى اعيائهم الامر .

وخذ قصيدة شاعرهم التي تعتبر وثيقة تاريخية حيث قال :

يوم نَطْ[1] الرقيبةِ راسْ مشذُوبه[2] قال زلوا وجـتَك الجيش زرفالِ

---

١ ـ نط اي صعد الرقيبة الرجل الذي يسبر غوره

٢ ـ مشذوبه الجبل المرتفع ذو الفرع كأنه منحوت.

قال انا شفت شوفٍ لا بتلِتُو به	شوف رِيبة ومنه القَلبْ يجْتَالِ
طبقوا الا بتي بـــكل مسلُوبه	واحتمو جيشهم ماضين الافعالِ
يوم لحق الامير ولحقت الشّوبه	لا قرايا ولا مزبن ولا جمالِ
لحقت الخيل بالغلمان مركونه	واقفت الخيل فيها الدّم شَلالِ
كل ما قلت راحو عودوا نوبه	ارسلوا سرية تسعين خيّـــالِ
من صلاةَ الضحى ياغافِر التوبه	لينْ غابت وحنا هَوش وقَتَالِ
ياعمـالِيسوق الموت مجلُوبـــه	ما هَقينَا على الدنيا لنـاَ تـالِ
هجننا مَاركبهِن كلِ زاروبه	كود قرم عريب الجدِ والخيالِ
كم جواد بحد الكوع مضروبه	صَار منها عَوضَها بِس الحبالِ
يحسّن بعـــود عند مَندُوُبَه	قال يرِسلَ عَلَيناَ خيله ارسالِ
الضفر ساعة لحل ما جوبه	كل ساعة لها حزات وارجالِ
انا لغـــالي الروح جَالوُبه	في نهار رخص مكان به غَالِ

وخذ شرح البيت الاول والثاني :

يقول الشاعر عندما صعد رفيقنا المختص بسبره لارض العدو رأس جبـــل رفيـع ذي رأس منحوت عند ذلك عاد الينا راجعاً قائلاً ابتعدوا عن وجه العدو فجئنا برواحلنا نهرول فأردنا إن نستفسر من هذا السابر عما وراءه فقال : انه رأى رؤية فاجعة عسى ان لا يبتليهم الله بما وراءها من شر ومحنـة . وفي عجز

البيت الثاني يقول : ان الرؤية التي رآها تدعو الى الريبة واضطراب الفؤاد .

وفي البيت الثالث يقول الشاعر عندما علم قومي بهذا النبأ لم يترددوا فترجلوا واستدنوا بندقياتهم واحتموا من طمع العدو . وفي آخر عجز البيت يقول : ان قومه لهم في البطولة ماض مجيد . وفي البيت الرابع يقول : عندما لحق بهم الامير يقصد عبد العزيز بن متعب الرشيد ولحقت صفوة فرسانه هناك ضاقت بهم الارض بما رحبت فلا من قرى يمكنهم ان يدخلوها ويلوذوا بأسوارها ويقاتلوا من وراء جدرانها ولا من مجير يستطيعون ان يستجيروا به او يستطيع ان يجيرهم ولا من جبال منيعة محصنة يمكن ان يلوذوا بها ..

وفي البيت الخامس يقول : هجم عليهم فرسان العدو بخيولهم وكل فارس مردف وراءه فارس آخر من هؤلاء الفتيان البواسل ولكن هؤلاء الفرسان ادبروا والدم ينزف منهم ..

وفي البيت السادس والسابع يقول : كلما هجم علينا العدو بخيوله رددنا فرسانه على اعقابهم واعتقدنا بعد ذلك ان هؤلاء الفرسان انتهت مقاومتهم وتلاشت قواهم كلما اعتقدنا ذلك عادوا الكرة مرة اخرى ثم هجموا علينا بمثني فارس من جديد وهكذا استمرت المعركة الطاحنة وظل القتال مستمراً متواصلا من الضحى الى ان غربت الشمس وهم والعدو بين كروفر يقاتلون قتال المستميت..

وفي البيت الثامن يقول : لقد عرضنا حياتنا لمشتريها في أسواق الموت وما كنا نظن ان يحيا منا احد أو يبقى على الارض منا بقية .

وفي البيت التاسع يقول : انه لم يكن بيننا اي جبان انهزامي بل كل منا فتيان بواسل وما من احد منا الا وهو عريق النسب من جد اصيل وخال عريق ..

ويقول في البيت العاشر : فكم من جواد من خيل فرسان العدو عندما هجم علينا فارسها اصبناها في عضدها اصابة اقعدتها عن الجري فكان عوض فارسها منها عنانها فقط وفي البيت الحادي عشر يقول : ان الامير ابن متعب ابن رشيد عندما نظر الى شجاعتنا وثباتنا راح يبعث الينا رسلا من فرسانه واحداً يتلو الآخر ظاناً اننا سوف نستسلم ونستكين وفي البيت الثاني عشر يقول : ان الشجاعة هي ساعة يجب على المرء ان يثبت ويصبر خلالها وهي اشبه ما تكون بامتحان للرجال .

وفي البيت الثالث عشر والاخير يقول : اللهم اشهد اننا في يوم كهذا اليوم قد استهترنا بحياتنا في سبيل كرامتنا التي هي اغلى ثمناً من كل شيء ثمين ..

وبعد : فان القصيدة اكثر بكثير مما اوردت ولا بد لي هنا من الاشارة الى ما يزعمه كثير من الرواة من قوم الامير ابن متعب ابن الرشيد الذين تكاد تكون روايتهم متفقة بصورة اجماعية ..

ويؤكد اكثر من واحد من الرواة بأن هؤلاء القوم وان كانوا شجعاناً بلا شك ولكنهم لم يصطدموا بجيش الامير ابن الرشيد وفرسانه وعلى رأسهم الفارس عبد العزيز ابن متعب المشهور بشجاعته وانما الذين اصطدموا بهم فليسو الا الفرسان الذين يقال لهم (عيون) وهؤلاء مهمتهم ان يسيروا مسافة بعيدة عن جيش الامير ليكتشفوا ارض العدو ..

هكذا يقول الرواة الذين هم من قوم ابن الرشيد .. وقد تكون هذه الرواية هي الحقيقة اي ان ابن متعب بذاته وبجيشه العرمرم لم يقابل هؤلاء وانما الذي قابلوهم هم (العيون) فقط ولكن اذا سلمنا جدلا ان قوة ابن رشيد بكاملها لم تقاوم هؤلاء الفتيان وان الذين قاوموهم العيون فقط .

فاذا آمنا بهذه الحجة التي قد يكون فيها رد اعتبار لحاكم كابن متعب ، اقول

اذا آمنا بذلك فهل يمكن ان نؤمن بأن هؤلاء العيون عندما رأوا هؤلاء القـوم لم يبعثوا فارساً يخبر ابن متعب بما شاهدوه طبعاً سيبعثون من يخبر اميرهم بذلك لان مهمتهم هي اخبار الامير بشيء من هذا النوع .. اما رأيي بهذا الشأن فهو ان كلا الجانبين صادق بما يدعيه فكون ان قوة الامير بكاملها لم تهاجم الفرسان فهذا شيء قريب جداً من الواقع اذ ان لدى الامير ما يقارب عشرين الفاً بـين فارس وصاحب ذلول فهذه القوة لو انصبت على هؤلاء الفرسان القلة لابادتهم عن بكرة ابيهم وكون ان العيون وحدهم هم الذين قاتلوا هؤلاء الفرسان ايضاً ليس من السهل ان نسلم بهذا المنطق ولكن الذي هو اقرب الى الحقيقة هو ان العيون اخبروا الامير ابن الرشيد بالقوم وان ابن رشيد لم يهتم له كثيراً فبعث فرساناً نجدة للعيون دفعة اولى وقد يكون ايضاً بعث دفعـة ثانية وثالثة وهو في معسكره دون ان يحشد جميع جيشة ، معتقداً ان الامر لايحتاج الى ذلـك حتى اخلف ظنه الابطال بثباتهم وجلدهم وحتى جنهم الليـل الذي احاطهم بستره وعندئذ لايستطيع الامير ان يظفر بهم حتى ولو جاء بكل ما يملك من القـوة وعلى أي شكل فلا يسعنا الا ان نحترم شجاعـة وبطولة هؤلاء الفتيان وننظر اليهم بعين ملوءها التقدير والاعجاب كشجعان بواسل .

* * *

لا قيمة للاقوال اذا لم تؤيدها الافعال

- ١٧ -

هناك ما يدعو الانسان الى العجب عندما ننظر الى احتفاظ العرب ببعض الحوادث بالرغم من بعد العهد بها ، وبالرغم ايضاً من عدم وجود سجل لمثل هذه الحوادث وكل ما في الامر انها تظل في صدور الرواة ويتناقلها الاجيال بصورة مستمرة يرويها الخلف عن السلف وهكذا دواليك .. وعلى هذا الاساس تظل حادثة كهذه التي وقعت في عام ١١٤٠ هـ وعلى الرغم من طول هذه المدة تظل محفوظة من الضياع وذلك بفضل الاسباب الآتية :

اولاً ــ وجود القصيدة في الحادثة

ثانياً ــ وجود الانديه المتوفرة بكثرة سواء عند البادية او عند اهل المدن والقرى في صميم الجزيرة العربية ، فكل من هؤلاء غالباً ما تكون انديتهم عامرة وحاشدة خاصة بعد الظهيرة وبعد المساء حيث يجتمع الشيوخ والفتيان في اندية كبار القوم ويكون هناك رواة مهمتهم سرد الحوادث ذات الطابع المثالي لا من اجل التسلية وتضييع الوقت بل كدروس يلقنها الرواة الذين هم بمثابة المعلمين والاساتذة ..

وهذان العاملان سالفي الذكر من أهم العوامل الرئيسية التي حفظت لنا كثيراً من شيم العرب كهذه القصة وأمثالها بالرغم من طول عهدها ، وبطل القصة

وشاعرها فتى يدعى نومان [1] الحسيني ..

خلق هذا الفتى ليكون شهما شجاعاً ، وشاعراً مطبوعاً وكان الى جانب ذلك وسيما فارع الطول يمتاز على اقرانه بخلقه واخلاقه. كما يمتاز البدر على سائر النجوم وكان ذا صفات مزدوجة ، أبي النفس ، قوي الشكيمة لاتلين له قناة معتزاً بنفسه امام العظماء والكبار الى حد الغرور : وفي الوقت ذاته تجده امام المواطنين الضعفاء ليّن العريكة دمث الاخلاق دافق المروءة جم العاطفة ، فمن نظر اليه من الجانب الاول اعتبره فتى متغطرساً مختالا ، ممعناً بالكبرياء والغرور ، ومن نظر اليه من الجانب الاخير قال عنه انه وديع مسالم عاطفي ، تقربه الكلمة وتبعده الكلمة .. وازدواج شخصيته هذا جعل رأى مجتمعه ينقسم الى قسمين : قسم يحكم عليه بالغطرسة والكبرياء ، وقسم يحكم عليه بسلامة الطوية وسماحة النفس وعطفه الزائد نحو الضعيف والمستنجد به ، وكانت ظروفه القاسية التي نشأ وترعرع فيها من شأنها ان تجعل لمن يحكم عليه الاول مجالاً اوسع بكثير من المجال الذي يحكم عليه الرجال الآخرون .

لقد نشأ في طفولته يتيما وبلغ سن الفتوة فقيراً ، ومن اين للفقير القدرة على ابراز مواهبه النبيلة مهما كان شهما محسناً كريمـاً ؟.. اللهم الا ان هناك موهبة واحدة يستطيع ابرازها وهي موهبة الشجاعة التي تعتبر في مقدمة المواهب قداسة خاصة عند عرب البادية ، ولكن حتى هذه الموهبة لايستطيع الفقير ابرازها ما لم يكن لديه بالدرجة الاولى القدرة على ملك الفرس الأصيل السريعة الجري ، وامتلاك الفرس لشاب كنومان أمر ليس بالسهل ، لانها غالية جداً ، والذي يستطيع ان يملكها في ذلك الوقت كالذي يستطيع ان يملك سيارة من أفخم السيارات في عصرنا الحديث ، اللهم الا ان هناك وسيلة لامتلاكه الفرس ، او على الاصح لحصوله على الفرس وهذه الوسيلة هي ان يذهب الى اكبر امير من

---

(١) نومان من قبيلة الظفير ، اما كلمة الحسيني فهي نسبة الى الحسين بن علي بن ابي طالب .

امراء القبائل ، ويطلب منه ان يكون عنده (فداويا [1]) وكان وقتذاك اكبر امير معروف بين رؤساء قبائل الجزيرة وهو (منيـع بن عريعر) وهـذا الامير لايمنحه فرسا الا بعدما يعرف عنة الفروسية اي بعد تجربة سابقة ، او في حالة استثنائية ، وذلك عندما يتوسم الامير فيه الشجاعة فعندئذ ربما يهبه فرساً ، على سبيل التجربة ولكن اذا لم يثبت هـذا شجاعة فان الامير سوف لا يتأخر عن استرداد الفرس منه .

ذهب نومان وطلب من الامير منيـع بن عريعر قبوله ضمن رجاله الفداوية ، فلم يتردد ابن‌عريعر عن قبوله مبدئياً بدون ان يقدم له فرسا، وفي احدى‌الافراح الشعبية التي قام بها الفرسان بمهرجان بين بيوت الحي استحصل نومان على فرس وركبها مشاركاً فرسان القبيلة افراحهم ، وفي هذا الاستعراض طغت شخصيـة الفتى على جميـع الفرسان لا لكونه اوسم الفرسان منظراً وأجملهم‌خلقة بل لكونه اثبت انه يجيد ركوب الفرس بصورة لا يشاركه بها احد ، مما جعل رجال‌القبيلة ونساءها لا ينظرون لاي فارس من فرسانهم بعين الاعجاب والزهو ، كما ينظرون لنومان الذي اثار اعجاب الامير والمتفرجين من جهة كما اثار اعجاب الحاسدين‌من اقرانه الفداوية من جهة اخرى ولم يتردد الامير عن منحه‌فرساً بصورة استثنائية قبل التجربة المعتادة ، ومن مستلزمـاب الفرس الرمح والسيف ، لانهما في ذلك العهد هما سلاح الفارس ، وبعد ما توفر للفتى الفرس والسيف والرمح لم يبق لديه الا بعض الكماليات ، ومنها وضع ريش النعام على رأس رمحه وهذه العملية تسمى (زرجة) فذهب وجمع ريش النعام وراح يسأل فرسان القبيلة عمن يقوم بحبكها.

---

١ ـ الفداوى ـ مشتق من اسم فدائي وجمعه فداوية ، وهو كما يعبر عنه في جزيرتنا العربيـة بكلمة (الخويا) ومفردها (خوى) ويقول ابو دباس بقصيدته الشعبية :

ترى الفداوى داوى وانشد الناس

عليش ما يذكر بخير وخيره

فأشاروا اليه الى بيت شعر منفرد عن بيوت القبيلة مؤكدين ان صاحبة ذلك البيت عجوز مهمتها حبك ريش النعام على رأس الرمح مقابل اجرة بسيطة ، فذهب الفتى واثقاً بكلام هؤلاء الفرسان واستصحب معه رمحه وريش النعام قاصداً صاحبة البيت العجوز على النعت الذي نعتها له فرسان القبيلة ، ولكن حينما دنا من الخدر ونادى صاحبته ، عند ذلك خرجت اليه فتاة هيفاء دعجاء العينين ممشوقة القوام ، فنظرت اليه بعينيها الساحرتين فوجدته غريباً لم يسبق ان رأته قبل هذه النظرة الا تلك الرؤية العابرة عندما كان الاستعراض سالف الذكر فوقفت بقامتها المديدة الريانة مبهوتة من مجيء هذا الفتى اليها في خدرها الذي اعتادت ان لا يأتيها فيه احد ، اللهم الا جواريها وخادماتها من النساء ، وبعلها الامير الذي لم يمض على قرانه بها اكثر من ايام تعد على راحة الكف ، وبعد لحظة استعادت بها شجاعتها ونزحت الى الخلف قليلا ثم قالت :

– ماذا تريد من مجيئك هنا ؟

وكان الذهول الذي اصيب به نومان لرؤيته تلك الفتاة لا يقل عن ذهول الفتاة نفسها وعندما وجهت اليه الفتاة حرف الاستفهام ارتبك في بداية الامر ، ولكنه تشجع فيما بعد وقال :

– أين أمك التي تجيد حبك ريش النعام .. فحددت الفتاة النظر فيه فوجدته يتحدث عن بساطة وارتباك فجاوبته قائلة :

– من الذي أخبرك بأن والدتي تقوم بهذا العمل .. فرد عليها فوراً :

– هؤلاء الشباب .. مشيراً بيده الى فتيان القبيلة الذين غرروا به .. ثم استطرد وقال :

– أنا رجل غريب ولا اعرف احداً يتقن حبك ريش النعام فذهبت اسأل هؤلاء الفتية بصفتهم من القبيلة نفسها فهدوني الى هذا البيت مؤكدين ان فيه امرأة مسنة تجيد حبك (الزرجة) بثمن ضئيل ..

كانت الفتاة تصغي لحديثه بوعي ولم يفتها منه كلمة واحدة.. ولذلك اسرعت بالاجابة قائلة :

– ان الذين هدوك الى هذا المكان صادقون فانا التي احسن حبك ريش النعام واضعه جيداً على رأس الرمح ولكن ذلك بثمن لم يخبرك به الشباب الذين هدوك الى هنا ..

– اذا كان الثمن يزيد عن مقدرتي فلا داعي لذلك لانني كما اشرت رجل غريب وفارغ اليد ..

– الثمن ليس مادياً وانما هو معنوي ..

– اشرحي لي ما تعنين بوضوح..

– يجب ان تعلم اولا انني حرم الامير منيع .. ولكن هذا لا يمنعني من ان احبك زرجة الرمح عندما يقبل صاحب الرمح الشرط الذي امليه عليه ومضمون هذا الشرط هو ان يتعهد لي الفارس بأنه سوف يكسو ريش النعام من دماء اعدائنا عند اول معركة تقع بين فرسان قبيلتنا وفرسان العدو فان لم يفعل فان الامير سوف يقطع يمينه من حد الكف . ثم ختمت كلامها قائلة فاذا كنت تقبل هذا الشرط فهات سنان الرمح وريش النعام وانتظرني مدة حتى اعمل لك رمحك

– ما دمت زوجة الامير عليك اولا ان تخبريه بالذي حدث مني بمجيئي الى

هذا المكان الناتج عن خطأ اوقعني به الفتيان الذين لم يخبروني بصاحبة البيت ولا بشرطها ، ثم بعد ذلك تخبرينه بأنني على اتمّ الاستعداد لقبول هذا الشرط ،فاذا لم اف بعهدي الذي تطلبين ان اتعهد به فما على الامير الا ان يأمر جلاده بقطع يميني فيما اذا وقعت معركة ولم انفذ الشرط المطلوب ..

– حسناً سوف اذهب للامير الآن وأخبره بقبولك الشرط فاذهب الانوعد بعد لحظة تجد الرمح قد انتهى ..

ذهب نومان ليعود بعد فترة حسب الوعد .. كما ان الفتاة ذهبت الى بعلها واخبرته بالامر الواقع فايد الامير الفكرة ، وامرها بتنفيذ طلب الفتي فراحت واستدعت عجوزاً من اللوتي يجدن حبك ريش النعام فسلمتهاالريش وسنانالرمح وقامت العجوز بالعملية واتقنتها خير اتقان .. وما ان عاد الفتى حتى وجد رمحه منتهياً من الغرض الذي جاء به من اجله ، فخرج نومان من خدر حرم الامير يهز رمحه فخوراً مختالا ، مما جعل فرسان القبيلة و(فداوية) الامير يزداد حقدهم وحسدهم اضعافاً مضاعفة ، على هذا الفتى الذي جاءهم من بعيد ..

ولم يكن العهد الذي قطعه الفتى على نفسه امام حرم الامير سراً . وذلك ان الشائعات عمت رجال القبيلة بأسرها ، فكلهم بلغهم الخبر بان امرأة الأمير الشابة اشترطت عليه ان يقطع الامير يده اليمني عندما تقع معركة ، ولم يكس ريش النعام المتوج به سنان الرمح دماً، وكان رجال الامير يتمنون وقوعالمعركة، بفارغ الصبر ، او بعبارة أوضح يتمنون ان تقع المعركة الطاحنة التي لا يستطيع الفتى ان يصمد بها فعندئذ يتحقق له ما يريدونه وهو شماتتهم بالفتى سواء قطع الامير يده ، او طرده من عنده ..

وفي تلك اللحظةالتي كان اعداء نومان يتمنون وقوع معركة حاسمة غزا الامير قبيلة شمر ويقال ان هذه الغزوة كانت على موعد سابق بين الامير ابنعريعر وبين الجرباء رئيس قبيلة شمر وقتذاك والقصيدة التيانشدها نومان الآتية تفيد بمفهومها

أن هناك علماً مسبقاً بوقوع الحادثـــة .. وكانت المعركة المتحتم وقوعها في مكان يقع شمالا عن جبلي طيء يسمى (لينة)[1].

كان نومان في حالة لا يحسد عليها ، لا يعلم ماذا يكون مصيره ... هل ينجو من هذه المعركة او يلاقي حتفه فيها...ولكنه على أية حال قد قرر الرجل مصيره في هذه الوقعة ، ولم يكن هناك حل وسط ، فاما ان يحيـا مرفوع الرأس وامـا ان يموت ويريح نفسه من حياته التعيسة .

وعندما قربت الليلة التي سوف تكون في صبيحتها المعركة عند ذلك اصابه قلق وارق ، وكان بوده ان يجد احداً يشكو أمره اليه ... ولكنـــه غريب وبين قوم كلهم يتمنون ان يشمتوا به ... ولم يكن هناك من يشكو اليه امره ولو على سبيل المجاز. اللهم الا فرسه التي يعلم ان المغامرة التي سيلقى نفسه في معمعتها سوف تشاركه جواده اياها ، وسوف يكون مصيرها مربوطاً بمصيره لا محـالة، ولذلك ذهب الفتى ينشد قصيدته التي يخاطب بها فرسه والتى عبر بها عن واقع أمره ابلغ التعبير حيث قال :

يا سابقي لَيلةَ قَربَنا للينةْ	عن واهجٍ بالصدر لو عنه تَدْرِين
لو جِيب لك صافيالعسل ما تَبِينَه	لجلك على حوض المنايا تُساقينْ
يَسْهَج قَطاتك كُلْ زَرقَا سَنينهْ	عَساكْ مِنهْن يا جوادي تَعَتْقين

---

١ ـ لينة كانت موقع بئر اكثر ما يقطنها قبيلة شمر اما الان فقد اصبحت مركزاً للحكومة وتقع في الحدود المتاخمة للحدود العراقية .

الشرح : يخاطب الشاعر فرسه قائلا : لو كنت ايتها الفرس تعلمين ما عانيته ليلة البارحة من القلق والسهر وذلــك منذ قربنا من (لينة) التي ستقع فيها المعركة ، فلو علمت ما سوف تلاقينه غداً من سهام الاعداء التي سوف تنهمر على صهوتك ما بين أسنة الرماح وأنصلة السيوف ، لما قبلت اي طعام يقدم اليك ، بحكم انك سوف تساقين غداً مرغمة الى ابواب المنية .. ثم يمضي ويقــول : ولن يسعني الا ان اسأل الله تعالى وابتهل اليه ان ينجيك من شر هذه الرماح وتلك السيوف التي لا سلامة لك من خطرهن الا بعنايته الالهية ..

وما ان جاء صباح الغد حتى التقى الفريقان وحمي الوطيس بينهما ودارت الدائرة في بداية الامر على جنود ابن عريعر .. ولاذت فرسانه بالفرار ، لا يلوي احدهم على الآخر ولكنه ربح المعركة العريعر في آخر الجولة وذلك بفضل شجاعة الفتى نومان الذي كرّ على العدو بهجوم معاكس ، وبكرته هــذه كان النصر حليفاً له .. وقد وفق ان يطرح اكثر من فارس وكان اذا طرح فارساً من اعدائه يأخذ عنان فرسه فيحتفظ به ويترك جواده يمرح ، فيأتي احــد فرسان قومه ويأخذ الفرس المطروح فارسها او المقتول صاحبها ، وبعدما تحققت هزيمة العدو على يد نومان ، عند ذلك عاد الى اميره معتقداً انه ليس بحاجة الى ان يقــدم دليلا على شجاعته ، ففعله هو الدليل الكافي وحده ، ولكن رجال الامــير « الشجعان » سعوا بكل ما لديهم من مكر بأن ينكروا شجاعته ويجحدوها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، حيث ذهبوا الى اميرهم وكل فرد منهم يفخر ويعتز بما ابداه من شجاعة وما قام به من بطولة وما من فارس يدعي هذه الدعوى الا ويستشهد على ما يدعي به بشاهد قوي ودليل واضح وهو وجود فرس من افراس العدو بيمينه .. وهذا دليل على انه هو الذي قتل صاحبها في ميدان القتال .

كثرت الافراس بأيدي المدعين ، كما كثر المدعون ايضاً ، ولا سيما من النفر

الذين يعلم الامير انهم ليسوا اهلا لما يدعون به ، اما الفتى نومان فانه لم يأت الى نادي الامير وانما ذهب الى زوجته التي تعهد لها ان يفي بوعـده مقابل حبكها ريش النعام لرمحه ، وعندما وصل اليها لم يخاطبها بأدنى كلمة ، وكل مافي الامر انه القى بين يديها أعنة الخيل ، كما قدم لها زرجة رمحـــه تقطر دما كدليل على وفائه بما تعهد به لها ، ثم ادبر من عندها فذهبت زوجة الامير وحملت الاعنة وقدمتها للامير ، وعندئذ انتبه الامير الى ذلك والقى نظرة الى الافراس التي جاء بها الفرسان اصحاب الدعاوي الملفقة ، فوجدها عارية من الاعنة ، فأدرك ما وراء ذلك فسأل الابطـــال عن موقف الفتى نومان في المعركة ، وهل كان شجاعاً ام جباناً فترددوا عن الاجابة الحقيقية ، وكل ما في الامر انهم اجمعوا على انهم رأوه في بداية المعركة قد (عزمت) [1] به فرسه ، نحـــو العدو ، وانهم لا يعلمون بعد ذلك هل ان فرسه طرحته ام لا ؟. «ومعنى عزمت به الفرس اي ذهبت به جواده تجري بدون ارادة منه ..»

وفي الوقت نفسه بعث الامير رسولا من عنده ليستحضر نومـان ، وعندما جاء الفتى أخبره الامير بما يقوله الفرسان عنه فاجاب نومان قائلا :

– أود ان يسأل حضرة الامير هؤلاء الوشاة الذين كما عرفتهم فرسانا بالاندية أين اعنة الخيل التي يزعمون انهم اغتنموها بعدما قتلوا فرسانها ؟..

فراح الامير يوجه اليهم السؤال نفسه ، فبهتوا جميعاً ، وعندئذ اتيحت الفرصة الذهبية للفتى نومان الذي اثبت انه شجاع في بيانه كشجاعته في سنانه وراح ينشد هذين البيتين في تلك الساعة وبصورة مرتجلة :

قَالوا عَزُومْ او قُلتسوُّا سواتي ارخوا لهن يا كاربين المصَارِيعْ

---

(١) المثل الشعبي عندنا يقول : اذا عزمت بك فرسك انتخي : اي اذا هجمت بك الفرس بدون ارادتك فانتخي واجعل ان القضية بارادتك .. اي كما يقال : مرغم اخوك لا بطلا ..

والى رَضى مَظنون عَيني شَفَاتي ذرنوح للذلان زَبّانة الرِّيْع

الشرح : يخاطب الشاعر رجال الامير الوشاة ويفند دعواهم عليه بقولهم ان فرسه عزمت به فيقول : كذبتم ليس الامر كما تدعون بأن فرسي ذهبت تجري نحو العدو وبغير ارادة مني ثم يذهب ويقول (سووا سواتي) اي افعلوا ان كنتم رجالا فرساناً كما فعلت .. وهذا المعنى اشار اليه شاعر الهجاء الحطيئة بقوله :

اقلوُّا عَليهم لا ابا لابيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

لقد وبخ الشاعر الفارس خصومه توبيخاً لاذعاً اذ يناديهم بقوله (يا كاربين[١] المصاريع[٢])

وفي البيت الثاني يقول : اذا رضي الامير عني واصبح ينظر اليّ بعين الاعتبار فلا يهمني بعد ذلك ما يقوله الواشون الجبناء ، اما قوله (ذرنوح) فالذرنوح هو السم ، معناه : انني القي في قلوب الوشاة الجبناء السم الذي يقطع افئدتهم لكي يموتوا بغيظهم .

* * *

(١) يا كاربين ـ اي ياقابضين ..
(٢) المصاريع ـ أي الاعنة .

اياك وصولة الكريم اذا اهين

- ١٨ -

هذا المثل سبق ان اطلعت عليه في احد كتب الادب العربي ، وهو كما يحذر من صولة الكريم اذ اهين كذلك يحذر عن تصرفات الاحمق واللئيم اذا بطر ..

ومحور قصتنا هذه يدور حول رجل له شهرة بالشجاعة والفروسية قلّ ان ينافسه عليهما احـد من ساكني شبه الجزيرة بعصره الا وهو « محمـد بن هندي بن حميد[١] » رئيس اكبر عدد من قبيلة عتيبة [٢] .

واعتقد ان الذي يعرف الرجل او سمع بشهرته يشاركني الرأي فـيما اذا قلت ان الشهرة التي يتمتع ابن هندي بالشجاعة في وسط عـرب شبه الجزيرة بصورة خاصة كالشهرة المعروفة عن عنترة العبسي في عالم التاريخ العربي بشكل اعم واكمل ..

وكما ان عنترة يقول بشعره :

اثن عـلـيّ بما علمت فانني	سمح مخالطتي اذا لم اظـلـم
واذا ظلمت فان ظلمي باسل	مر مذاقته كطعم العلقـم

(١) راجع ص... ج... من شيم العرب للمؤلف .
(٢) تنقسم قبيلة عتيبة الى قسمين برقا والروقة. فبرقـة يرأسها بن حميد والروقـة يرأسهم ابن ربيعان .

كذلك محمد بن هندي يقول لسان حاله باللغة التي قالها عنترة ويطبق ذلك بصورة عملية على النهج نفسه الذي يطبق به عنترة طريقته اذا نيل من كرامته ، ومما لا شك فيه ان ابن هندي طبق ذلك قولاً وفعلاً .. وعمـــلا في كثير من الحوادث والمناسبات وفي مقدمتها تلك الحادثة التي وقعت في عام ١٣١٠ هـ وخـــلاصتها كما يـــلي :

لما كان حاكم نجـــد وقتذاك محمد العبد الله الرشيد يحاول ان يكون قاسياً على البدوي بصورة تختلف عن سياسته مع الحضري ، فقد بلغه ان محمد بن هندي غزا قبيلة مطير واغتنم منها ابلاً كثيرة وافراساً اصيلات. فبعث من عنده رجالاً برئاسة سعد الحازمي من اجل ان يأخذ منه الحازمي جميع مـــا اغتنمه من قبيلة مطير ، وبالأخص الخيل العريقات بالاصالة، وكانت الخيل التي اغتصبها ابن هندي معروفة باصالتها كما يعرف افذاذ الرجال بين مجتمعهم ، وللخيل في ذلك العهـــد مكانة مرموقة ولا سيما الخيل المعروفة بالاصالة ..

وبقدر ما كان مندوبو الحاكم ابن رشيد حريصين على استلام الخيل التي دخلت في حوزة ابن هندي بقدر ما كان ابن هندي اشد منهم حرصاً على ان يلتمس شتى المبررات ومختلف الاعذار لعدم تسليم هذه الخيل لطالبيها ، وكان الحوار بـــين رئيس الوفد سعد الحازمي وبين الشيخ ابن هندي بصدد المطالبة بالخيل يدور بصورة لبقة ودية ولم يتجاوز حدود الآداب المرعية ، وكان ابن هندي ملتزماً حدود الادب امام الحازمي الذي يمثل سلطة حاكم البلاد بقدر مـــا كان الحازمي هو الآخر واقفاً عند حدود الادب ويحاول ان يأخذ ما يريده بطريقة سلمية، ومراعياً لشعور ابن هندي لا كفارس مرهوب الجانب فحسب ، بل وكزعيم اذا غضب يغضب لغضبه عدد لا يقل عن آلاف المقاتلين من قبيلة عتيبة الـــتي تعتبر من اكبر قبائل شبه الجزيرة واشدها بأساً وامنعها جانباً ..

كم من كلمة قتلت صاحبها

كان كل من رئيس الوفد الحازمي وابن هندي على وشك ان يصلا الى حـل وسط يرضى عنه الجانبان لولا ان احداعضاء الوفد فرغ صبره ووجه لابن‌هندي العبارات الآتية :

– يبدو انك يا ابن هندي مثل بعض الناس[1] لا يعطي الحق الا بعد دقـة الخشم .. ثم مضى عضو الوفد في حديثه اللاذع الى ان قال : واعتقد انك (اي ابن هندي) لن تعطي الافراس حتى نصب عليك غارة عنيفة كغـارتنا عليك في(عروي)وكغارتنا عليك بجبل النير[2] عندما انهزمت ولذت بالفرار ودخلت جبل النير ومن ثم لحقناك في وسط الجبل واغرنا عليك وقتلنا رجالك وكغارتنا عليك عندما غزوناك وقتلنا ابن عمك عقاب ابن حميدالخ.. وعندما انتهى عضو الوفد من وعيده وتهديده اتجه ابن هندي الى رئيس الوفد قائلاً بكل هـــدوء وثبات :

– من هو هذا يا سعد ؟.. فقال رئيس الوفد : – شخص من الرفاق .
– ما اسمه ؟..
– فهـــد الصطامي .
– من أية بلاد ؟..
– من بلادنا حائل ..

وعندما انتهى ابن هندي من هذه الاسئلة اتجه نحو فهد الصطامي وقال :

---

(١) يقال في المثل الشعبي : فلان كالصلبي لا يعطي الحق الا بعـــد ان يهشم انفه والصلبي معروف انه وضيع النسب ، ولا يعتبره العرب انه من اصل عربي بل يزعم العرب ان الصلبي من سلالة الغزاة الصليبيين .

(٢) النير جبل كبير من جبال نجد .

ـ كل ما ذكرته من الغارات الي اشرت اليها والتي صبها علينا الحاكم محمد العبد الله كل ذلك حقيقة لا انكرها ولا نعاب بهـا لاننا نحـن الذين نتمرد على الحاكم ونتحدى سلطته عندما يحاول ان يمس كرامتنا . ولكن العيب علينا اذا استسلمنا للهوان والعسف والعار علينا اذا اسمعنا امثالك كلاماً كهذا الكلام الجارح لكرامة الرجل الابي ، ثم بعد ذلك اذعنا خوفاً من تكرار مثل هذه الغارات علينا التي تشير بها ومن ثم سلمنا كم ما تطالبونا به .. والعيب علينا اذا لم اعلن على حاكمك الحرب من هذا المكان ، فاذهب وقل لاميرك ان ابن هندي رفض ان يسلم الخيل بل وقل له انه رفض ان يسلم ناقة واحـدة من الابـل التي اغتنمها من قبيلة مطير وقل له فليأت ويكرر غاراته الـتي هي امتداد لغاراته السابقة ، وعندما وصل ابن هندي هذه الجملة صمت قليلاً ثم قال هـــذه العبارة نصاً حرفياً :

ـ قل آمين يا فهد الصطامي . فقال الصطامي :

ـ ماذا تقصد من ذلك ؟ فردّ عليه ابن هندي بقوله :

ـ سوف اخبرك بالشيء الذي اقصده فيما اذا قلت آمين.. ثم زاد قائــلا : قلها لا تخف فالرجل الذي يتحدى بوعيده وتهديده رجلا من امثالي يجب عليه ان يكون شجاعاً وان يتحمل على عاتقه مسؤولية تحديه بدون مبالاة بما ينجم عما سوف يلاقيه ..

فقال الصطامي :

ـ اجل اقول آمين آمين آمين ، بأن تعلن علينا الحرب ، ومن ثم نأتيك في عقر منازلك ونصب غارتنا عليك كما كنا نفعل من قبل .

فقال ابن هندي :

ـ وانا اقول آمين انه في اليوم الذي تأتونا به بجيشكم اللجب : (ان تمتليء

عيني من رؤيتك[1]) .

واخيراً انتهى الامر عند هذا الحد ، اي ان ابن هندي تمرد على حاكمه واعلن الحرب عليه غير مبال بما ينجم عن ذلك من نتائج وخيمة العاقبة .

وعند ذلك قفل رئيس الوفد الحازمي راجعاً الى اميره محمد الذي بمجرد ما بلغه تمرد ابن هندي اعد العدة وجهز جيشاً عرمرما يقوده هو بنفسه فراح وصب غارته على ابن هندي ، ونهب ابله بدون ان يبدي ابن هندي في بداية المعركة ادنى مقاومة .

ساقه القدر بين يديه

وعندما اغتنم كل فارس غنيمته وذهب بكسبه ، عند ذلك كرّ الفارس ابن هندي بهجوم معاكس فكان القدر ساق فهد الصطامي بوجه ابن هندي فكانت فرحته وسروره برؤية عدوه الذى اثار حفيظته تعادل حزن وبؤس وشؤم الصطامي عندما رأى ابن هندي الذي قده بحسامه بضربته القاضية . ولم يكن الصطامي ضحية ابن هندي وحده في كرته تلك بل قتل اكثر من فارس في هجومه ذلك العنيف وفي مقدمة الفرسان الذين قتلهم ابن هندي من قبيلة شمر الفارس الشاب نمر ابن برغش بن طواله رئيس عشيرة الاسلم كما انه في الوقت ذاته استعاد ابله كلها في كرته تلك .

وما آفة الاخبار الا رواتها

هذه القصة رويتها من عدة رواة من الشيوخ الذين عاشوا تلك الحوادث وشاهدوها رؤية العين ، والقصة من حيث الاصل مشهورة عند الكثير من

---

(١) هذه العبارة التي بين قوسين نقلت من اكثر من واحد من الرواة شهود العيان وكل منهم يؤكد ان هذه الجملة نطق بها ابن هندي نصاً حرفياً كما اوردتها اعلاه ،

ساكني نجد خاصة ممن لهم ادنى المام في معرفة تاريخ الاحداث ، ولكن الخلاف يأتي من حيث المتن بالرواية التي فيها تباين نسبي ، بين الرواية المشهورة المتبادلة بين عامة الناس ، وبين الرواية التي اوردتها بالسياق . فالرواية المشهورة عند العامة الذين ينقلون الاخبار من غير مصادرها المطلعة ، تفيد بأن مصرع الفارس فهد الصطامي على يد الفارس محمد بن هندي جاء نتيجة لكون الصطامي (شرب فنجال ابن هندي[1]) وهذه الرواية وان كانت من حيث الاصل متواترة ومشهورة ، ولكنها لا صحة لها البتة ، وفي هذه المناسبة لا بد لي ان اشير الى الرواية التي نقلتها عن المرحوم « سرور العبد العزيز[2] » فيقول الراوي : اجتمع ذات يوم في نادي الامير محمد بن رشيد الفارس « قنيفذ بن لبده » فارس قبيلة قحطان واحد رؤسائها الكبار . وفارس قبيلة عتيبة « محمد بن هندي » السالف الذكر ، ولما كانت الحرب بين القبيلتين قائمة على قدم وساق وبصورة مستمرة فقد حصل تفاخر ومناظرة بين الفارسين، وكل واحدمنهما ذهب يعد الانتصارات التي انتصر بها قومه على اعدائهم ، وقد بلغ ابن هندي من الافتخار بشجاعة قبيلته بصورة عامة وبشجاعته وفروسيته بشكل خاص درجة اثارة حفيظة شاب عادي من جماعة ابن لبده الامر الذي جعله يتحدى ابن هندي قائلا له : « اشهدوا علي ايها الحاضرون بانني شارب لفنجال ابن هندي ، وعلي عهد ان رأته عيناي في ميدان القتال فلن اتخلى عنه حتى اقتله او يقتلني » . وبما ان صاحب هذا التحدي رجل كما اسلفت غير معروف . فقد وجه ابن هندي سؤالاً لابن لبده قائلا : « من هو هذا يا قنيفذ ؟ » فتولى الاجابة الشاب نفسه قائلا :

---

(١) يقال بالعادات المألوفة القديمة ان الفارس فلان شرب فنجال الفارس فلان في حفل ما ومعناه انه بصورة موجزة ان الاول طلب مبارزة الاخيرة .

(٢) سرور من اهالي حائل .

« انا شاب من رعاة قبيلة قحطان لا اهمية لي ولا قيمة . ومن اجل ذلك اجدني زاهداً بحياتي . وهذا مما يجعلني اتحداك واطلب منازلتك ، فان قتلتني فلا اراني نادماً على حياتي التعيسة التي لم انل فيها ذكراً حميداً وان قتلتك ، فسوف اتصدر المجالس ، وسوف يقال لي بين ظهراني قبيلتي « تفضل يا قاتل ابن هندي فارس عتيبة » .

يؤكد لي الراوي ان ابن هنـدي عندما اسمعه الشاب هـذه العبارات بانه تنهد ثم انحرف بوجهه الى الامير ابن رشيد وقال : الحقيقة انني لا اخشى الموت من تهديد او وعيد اي فارس كان كما اخاف الموت واخشاه من مغامر طائش كهذا الشاب[1] ثم اردف قائلا : ولكنني اضرع الى الله وابتهل اليه انه في اليوم الذي التقي به وهذا الشاب اسأله تعالى ان يعينني عليه او يكفيني شره .

وبعد فانني عندما اقارن بين الرواية المشهورة القائلة : « بان فهد الصطامي شرب فنجال ابن هندي وطلب مبارزته الخ.. وبين الرواية التي نقلتها عن سرور كما اوردتها في السياق اقول : عندما اقارن بين هذه وتلك ، تتوفر لدى النتيجة الآتية : وهي ان الشاب القحطاني التقى بابن هندى وبارزه في احدى المعارك . وان ابن هندى

---

(١) يذكر تشرشل في مذكراته انه بلغه ان هناك شاباً يحاول ان يغتاله لا لهدف ، وانما هو بدافع يحدوه في حبه لقتل العظماء ويقول تشرشل : ان مثل هذا الشاب هو الذي يخاف منه الانسان الخ ..

قتله . ومن هنا جاء الاضطراب بالرواية والخلط بين قصة الصطامي التي شرحت تفاصيلها وبين قصة الشاب القحطانى . والذى يجعلني اكون وطيد الاعتقاد بصحة نظريتي هذه هو ان الشاب القحطاني طلب مبارزة ابن هندي في مجلس ابن رشيد . ومن المعروف ان فهد الصطامي من حاشية ابن رشيد ، وهذا مما يجعل الاضطراب بالرواية يزداد التباساً .



الفصل الثاني

الشجاعة الأدبية

شجاعة السنان وشجاعة البيان صنوان . بعضهما متمم لبعض .

(حكمة عربية)



الجندي المجهول

- ١٩ -

حرصت كثيراً على ان اعرف اسم بطل قصتنا هذه التي سوف اوافي القارىء بتفاصيلها ولكن رغم حرصي الشديد ما استطعت ان اصل الى معرفة اسمه في بداية الامر . ولذلك حرصت على ان اسمي بطل القصة بـ (الجندي المجهول) ، والسبب الذي جعلني اطلق على بطل قصتنا هذا الاسم امران :

اولهما : ان سياق القصة يوحي بان الرجل مجهول في مجتمعه .

ثانيهما : ان اسمه ظل مجهولاً لدي حتى بداية كتابة هذه الاسطر رغم مابذلته من جهد لمعرفة اسمه ، ولما كان شلهوب الذي صاحب المرحوم الملك عبد العزيز طول حياته ، لا زال على قيد الحياة وهو في العقد العاشر من عمره فقد طلبت من الاخ الاستاذ عبد الله بن خميس بأن يسأل شلهوباً عنه وان يتحقق عن صحة الحادثة ، فجاءني الجواب من الخميس يفيد ان الحادثة حقيقية وان اسم الشخص ابراهيم العبيلان الجاسر .

وقصة الجندي المجهول تبتدىء على النهج الآتي :

قبل ان يوحد الجزيرة المغفور له الملك عبد العزيز كانت البلاد وخاصة نجد في حالة من الحروب القبلية والتطاحن الاقليمي وعدم الاستقرار السياسي . وعدم استقرار الامن الشيء الذي لايستطيع ان يتصوره إلا من عاشه وشاهده.. لقد

كانت القيادة موزعة والاتجاهات متباينة ، والمواطن لا يستطيع ان يسير مساحة محدودة من الارض ، الا بواسطة حراس يستأجرهم ليتعهدوا بحمايته من رجال قبيلة هذه الارض التي يمر بها ، واذا تجاوز حدود هذه القبيلة اضطر ان يستصحب حراساً آخرين .. وهكذا دواليك والا سوف يكون عرضة لنهب ماله واراقه دمه . .

كان الحضري يلاقي من الصعوبة والعناء الشيء الكثير ، ولا سيما الحضري الذي يحترف التجارة ، وبالأخص ساكني القصيم . فهؤلاء هم اكثر اهل البلاد اقبالا على الاعمال التجارية كما كان لهم اتصال مستمر بالبلاد العربية الاخرى كمصر والشام والعراق حيث يجلبون الابل والغنم من الجزيرة العربية الى تلك البلاد فاذا باعوا هذه الاشياء تبضعوا بثمنها الاشياء التي يستهلكها اهل بلادهم كاللباس والاشياء الاخرى الضرورية وبسبب اعمالهم هذه أصبحوا بحكم الضرورة مرغمين على طلب المسالمة والمهادنة لكل حاكم او زعيم قبيلة يمرون بتجارتهم في ارضه .

وبالرغم من العداء التقليدي بين اهل القصيم وبين حاكم منطقة الشمال وقتذاك ابن رشيد ، فان أهل القصيم أو اهل مدينة بريدة بالأخص وجدوا أن من مصلحتهم التجارية أن يعقدوا مع ابن رشيد هدنة لان هذه الهدنة سوف تجعلهم بمأمن من غارة قبيلة شمر التي لابد لقوافل اهل القصيم من اجتياز ارضها .ولذلك تمت معاهدة السلم بين اهل القصيم وبين ابن رشيد .

وقد تمت هذه المعاهدة بدون علم من الامام عبد العزيز بن سعود الذي يقع القصيم ضمن الحدود التي يحكمها ، وكان على اهل القصيم أن لا يقطعوا شيئاً من تلك المعاهدات الا بعد أخذ الاذن والموافقة من حاكمهم الشرعي الإمام [١] ابن السعود ، الامر الذي جعلهم يختارون نخبة من اهل الحل والعقد من اعيانهم

---

(١) كان الملك عبد العزيز يقال له الامام قبل ان يوحد البلاد .

ليذهبوا من بريدة الى الرياض، لا ليخبروا حاكمهم بالمعاهدات التي اصبحت امراً واقعياً ، وانما ليطلبوا رضاه بعد أن يشرحوا له الضرورة التي اضطرتهم الى ان يقدموا على امرهم هذا .

وفعلا اجمع الرأي على انتخاب مجموعة من اعيان البلاد ليذهبوا للرياض من أجل ان يعتذروا من حاكمهم . ويطلبوا رضاه ، ذلك الرضى الذي هو أحب اليهم واعز من مهادنة ابن رشيد عدوهم اللدود .

هذا وقد تألفت جماعة من رجال اهـل البلاد وتجارهم . وشدوا الرحال متجهين نحو الرياض . وبعد ان نزحوا عن مدينة بريدة مسافة خمسة أميال لحق بهم بطل القصة الجندي المجهول . فتركوه وشأنه اعتقاداً منهم أنه سوف يمضي يومه معهم الى طريق غير طريقهم وهدف غير هدفهم . ثم يفترق عنهم نحو القرية التي ينوي الذهاب اليها . هكذا كان ظنهم في رفيقهم الجديد . ولكن سرعان ما اتضح لهم ان ظنهم هـذا كان خاطئاً خاصة بعدما تجاوزوا جميع القرى والاماكن التي يتوقعون ان رفيقهم ينوي الذهاب اليها .

عندئذ اضطروا لأن يسألوه عن اقصى بلد يقصد السبيل اليها . وعندما سأله احدهم . أجاب فوراً . اقصد الرياض .

– ما هو قصدك من الرياض ؟..

– نفس القصد الذي تذهبون من اجله ؟

– نحن لسنا ذاهبين للرياض بغية مصلحة خاصة . وانما ذهابنا من اجـل مصلحة البلاد العامة .

– وما الذي يمنعني من مشاركتكم القيام بهذه المصلحة العامة ؟.. او لست من عامة اهل هذه البلاد ؟؟

– نحن منتخبون من قبل اهل البلاد لتأدية مهمتنا الضرورية .

– لا اعتقد ان جميع اهل البلاد اجمعوا على انتخابكم فانا واحد مثلا من اهل البلاد لم يؤخذ رأيي ، وغيري كثيرون من المواطنين الذين ربما لا يعلم احد منهم عن سفركم هذا شيئاً .

– طبعاً لم يؤخذ رأي الدهماء في مهمة كهذه وانما يؤخذ رأي الاعيان من اهل البلاد وكبار الجماعة .

– اتستطيعون ان توافوني بعلامة فارقة يمتاز بها المواطن الذي يؤخذ رأيه في الاشياء التي لها علاقة ماسة في مصلحة البلاد عن المواطن الذي لا يؤخذ له فيها رأي .؟؟

– الذي يؤخذ رأيه يكون من اهم شخصيات البلاد البارزين .

– معناه ان المواطن الذي لم يكن لديه من وفرة المال وذيوع الصيت لا يصح ان يؤخذ له رأي حتى ولو كان مواطناً مخلصاً ولديه من سداد الرأي ما لا يوجد عند غيره من ذوي الأموال الطائلة والجاه الرفيع .؟

– أنت تتطفل بأحاديث ليس من حقك البحث بها .

– عندما اتدخل في شؤون تجارتكم الخاصة أو اعترض على اعمال أي فرد منكم اكون وقتئذ متطفلا . اما انكم تعترفون على انفسكم بأنكم ذاهبون لحاكمنا في الرياض للبحث في امور لها علاقة في مصلحة أهل البلاد العامة . عندئذ لا أكون متطفلا فيما اذا طلبت مشاركتكم بهذه المهمة لأن الحقوق الوطنية ظاهرة مشاعة لجميع المواطنين ، وليست وقفاً محصوراً للغني دون الفقير ، ولا للمواطنين ذائعي الصيت ، دون المواطن الخامل .

– نحن نعلم ماذا تريد من وراء هـذا الحديث الطويل ؟.. وماذا تقصد من وراء سفرك هذا ؟..

– ماذا تظنون ؟.. وما هو قصدي برأيكم، من وراء سفري هذا ؟..

– نحن لا نكتمك الحقيقة فيما اذا اكدنا لك بأننا واثقون بأن منتهى امنيتك من سفرتك هذه هو ان تنال هبة من الامام تستعين بها على نوائب الدهر .

– هبوا انكم محقون بحديثكم هذا ، ولكن هـل من الشيمة ان تجرحوا شعور مواطن يشارككم آمالكم واما نيكم الوطنية ويغار عـلى بلاده وأهلها كما تغارون على بلادكم .؟؟

– نحن لم نقصد ان نمس شعورك وانما أردنا أن لا تتكلف نفقات الطريق ومشقة السفر ذهاباً وايابا مدة طويلة ، ولذلك قررنا ان نتبرع لك بهبة من عندنا جميعـاً تكون ضعفي ما تتوقع أن يهبك اياه الامام ابن سعود . ومن ثم تذهب عائـداً الى اهلك غانماً الراحة وضامناً للفائدة .

– بقدر ما كان حديثكم الاول جارحاً لشعور المواطن الغيور الحساس بقدر ما اجد حديثكم الاخير قاتلاً لكرامة العربي الابي ، ولئن دل اسلوبكم هـذا على شيء فانما يدل عـلى انكم لا ترون للمواطنين وزناً ولا حرمة الا بقدر مـا يناله من المال الفاني .

– لم يكن حديثك هذا بكراً من نوعه بل سبق ان سمعنا من تجار الكلام ومحترفي الجدل كثيراً من هذا الشكل .

– الجواب الحاسم الذي سيكون فصل الخطاب بيننا هو ان اترككم وشأنكم تسيرون لوحدكم . وانا أسير بمفردي حتى نصل الرياض عنـد ذلك سوف أجدني

ملزماً تجاه واجباتي الوطنية بـأن اشاركـكم الحديث الذي له علاقة بمصلحـة وطننا المشترك ، ولكم عليّ أن التزم الصمت فيما اذا كانت محادثتكم محصورة على اعمالكم التجارية الخاصة وخارجة عن مصلحة بلادنا العامة ... كما لـكم عليّ ان التزم الصمت ايضاً فيما اذا وجدت بينكم من فيه الكفـاءة والحنكة لمواجهة مـا سيخبئه لنا القدر عند مواجهة الامام عبد العزيز الذي لا اشك بأنـه غير راض عن اقدامكم على عقد الهدنة مع ابن رشيد ، قبل أخـذ رأيه في الموضوع . وفي الختام هذا فراق بيني وبينكم . وسوف لا اجتمع بكم الا في آخر يوم ندخل بـه مدينة الرياض كي نسلم على الامام عبد العزيز سوياً ولأنظر عن كثب الموقف الذي سيقفه منكم الامام ، وأؤكد لكم ثانية بأنني سوف أظل صامتـاً الا اذا دعت الضرورة للجواب ، هذا وقد ذهب الجندي المجهول ممتطياً ذلوله قاطعاً الفيـافي بمفرده – الى ان دنى رفاقه من مدينة الرياض .

هناك التحق بهم وانخرط في صفوفهم .

وما أن أناخوا رواحلهم بقرب باب قصر الامام حتى قدم اليهم (المضايفي) أي رئيس التشريفـات ابراهيم بن جميعه الذي يعرفهم واحداً واحدا ما عـدا الجندي المجهول .

تقدم أمامهم ابن جميعه وسار الوفد خلفه قاصدين السلام على الامام وبعـد السلام وتبادل التحية . اديرت كؤوس القهوة – بعد ذلك انحرف نحوهم الامـام يستفسر منهم عن صحة المعاهدة المبرمة بينهم وبين ابن رشيد وكان في سؤاله هذا ما يوحي بأنه ليس متأكداً من صحة الخبر فأجابه احدهم بما يؤكد صحة الامر الواقع واسترسل المتحدث بكلامه الذي اراد ان يبدي فيـه العذر والظروف الماسة التي الجأتهم الى مهادنـة العدو المشترك ، ولكن الامام قطـع الحديث على المتحدث ووجه اللوم الشديد على الوفد مؤنباً اياهم بالكلام القاسي لا باقدامهم على عقد الهدنة مع عدوه وعدوهم فحسب بل لكونهم لم يستأذنوا منه في بداية

الامر ، وبعد ما أسمع الامام الوفد الكلام الذي وضعهم في مأزق حرج ، حيث جعل كل فرد منهم يتصبب عرقاً .

وبعد ذلك صمت قليلا ينتظر منهم الأجابة ولكن القوم اصيبوا بذهـول أخرس السنتهم عن الجواب . وعندئذ انحرف نحوهم الامام ثانية فقال :

أما فيكم من يجب ؟ ..

وهنا قفز الجندي المجهول وانتصب كالرمح ثم اتجه نحو الامام بهدوء صارم وقال

(نحن هنا يا طويل العمر نمثل مئات الالوف من رفاقنا وجماعتنا (اولاد علي) كنية لاهل القصيم : ورد الجواب الذي تطالبنا به سوف تراه وتسمعه قريباً من رفاقنا حال ما نصل هناك ...

قال الجندي المجهول ذلك، ثم انصرف بوجهه الى رفاقه وقال هيا بنا فما كان من من رجال الوفد الا ان لبوا نداءه، وراحوا يقتفون اثره بشعور يحدوه الاحترام والتقدير لشخصه .

أما الامام المرحوم عبد العزيز بن سعود . فانه وان لم يعر جواب هـذا الرجل شيئاً من الاهتمام في ظاهر الامر. ولكنه في طيات نفسه. وبصورة غير محسوسة، أدرك كزعيم ينوي توحيد شبه الجزيرة ، بأنه ليس من الحكمة ان يخسر أهـل القصيم الذين يرجحون كفة الميزان في الصراع القائم بينه وبين عدوه ابن رشيـد لا من اجل كثرة عددهم وقوة بأسهم وبسالتهـم، كأبطـال مدربين على المحن والحروب ، فحسب ، بل من اجل موضع بلادهم الاستراتيجي المتوسط في قلب المعمعة بين القوتين المتحاربتين الامر الذي جعل موحـد الجزيرة يستدعي فوراً الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ الذي يعتبر المستشـار السياسي الاول للامام عبد العزيز والدماغ المفكر لحل المعضلات . وتذليل العقبات، وما أن علم الشيخ بالامر حتى بعث مندوباً من قبله يؤكد على الوفد رغبة الشيخ بتلبية

دعوته لتناول الغداءعنـده في اليوم الثاني ، فما وسع الوفد الذي كان على أهبة لاستعدادللسفر الاأن يلبي الدعوة لا من اجل ما يتمتع به الشيخ من مكانة سامية محترمة عند الحاكم فقط - بل ولما يتمتع به ايضاً من منزلة روحية واجتماعيـة عند ساكني نجد بصورةعامة بصفته عميد اسرة الشيخ محمدبن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية التي يؤمن بها ويعتنقها ساكنو نجد من شرقها الى غربها ، على الرغم من تنازعهم واختلافاتهم السياسية يضاف الى ذلك أن الشيخ عبد الله يمثل بدهائه لحل المعضلات عمرو بن العاص وبحنكته لحل البديهيات المغيرة بشعبـه. وبوقاره وسماحته الاحنف بن قيس ، وبكرمه المتناهي الذي لا حد له حـاتم الطائي. ونهاية القول هو أن المؤرخ الذي درس تاريخ بلادنا العربية بدقة وامعـان وترو وعمق فانه سوف يعتبر الشيـخ عبد الله بن عبـد اللطيف هو الركيزة الاساسية الذي يعتمد عليها بالذات الملك عبد العزيز حيث كان له بلا شك اسبقية الفضل بمؤازرتـه بتوحيده لجزيرتنا هـذه (وانني اذ انساق بقلمي بتحليلي لشخصية الشيخ عبدالله فانني ارجو أن يسمح لي القارىء فيما اذا اعتبرني خرجت نسبياً عن نطاق الموضوع الذي نحن بصدد ذكره . وذلك لأن دراستي لشخصية هذا الرجل الذي لم يمنحه المؤرخون ادنى شيء مما يستحقه أملت عليّ ذلـك ، يضاف الى هذا ان ذكر اسم الشيخ جاء متصلا بالقضية اتصالاً لا ينفصل بل هو الحد الفاصل لنهايتها) ..

وفي صباح الغد ذهب الوفد للشيخ تلبية لدعوته . يتقدم الجنـدي المجهول الذي اتجهت نحوه الانظار ، وسلطت عليه الاضواء، حتى اصبح صاحب الكلمة الفاصلة بين رفاقه والقائد لهم بعد ان كان منبوذاً عندهم بالامس وحينما انتهوا من الغداء الطيب بعد ذلك استأذنوا الشيخ قاصدين وداعه اشارة الى عودتهم الى اهلهم، فكان جواب الشيخ الموافقة على ذهابهم من عنده على اساس ان يعودوا اليه مساء لتناول العشاء وفقاً للعادات المألوفـة في البلاد وقتـذاك القاضيه على المضيف الذي يقدم لضيفه وجبة الغداء - بأن يقدم له وجبة العشاء ايضاً - فما وسـع

الضيوف الا تلبية دعوة الشيخ التي التقت وتقاليد البلاد الموروثة على صعيد واحد..
وفي المساء جاء المدعوون وفي مقدمتهم الجندي المجهول الذي احتل الصدارة بين رفاقه وفي نظر الشيخ معاً.

ابدى الشيخ عبد الله لضيوفه اهتماماً بالغا وعناية لا مزيد عليها بدون ان يأتي على ذكر الموضوع بادنى اشارة – وانما ظل يبحث معهم في بحوث عامة الى ان أوشكوا ان ينتهوا من طعامهم الذي يحتوي على ما لذ وطاب، عندئذ جاء الشيخ الى ذكر الموضوع باسلوب لبق وبطريقة غير مباشرة، ابتدأ اولا بالابتهال الى الله لجمع كلمة الاسلام. وتوحيد شمل امة محمد ﷺ - على الكتاب والسنة -. ثم انتقل الى ما يتمتع به الامام عبد العزيز من صفات الزعامة من عفة وتواضع وتقوى وكرم الخ من الصفات الحميدة المعروف بها «الملك الرجل».

وبعد ذلك جاء الشيخ الى ذكر شيء عن الصفات التي غالباً ما يعبر عنها بشذوذ العباقرة، ومن هنا بدأ الشيخ يتدرج رويداً رويدا بحديثه حتى وصل الى الجملة التي اشار اليها بقوله: (ان الامام عبد العزيز ينفعل احياناً فيغضب غضباً لا ينجو منه أحب الناس اليه فيما اذا كان موجوداً عنده في حالة ثورة غضبه وهذه الحالة لا تعدو أن تكون كسحابة صيف تنهمر لحظه ثم تنقشع.

أدرك جميع الضيوف ماذا يقصد الشيخ، ولكن ما من احد يستطيع أن يتصدى للحديث من رجال الوفد بوجود الجندي المجهول، ولكن الجندي حاول أن يجعل نفسه انساناً أبله لا يفهم شيئاً عن اي حديث يمت الى مثل هذه الاشارة بادنى صلة، ولم يسع الشيخ الا أن اعاد المعنى نفسه، ولكن باسلوب اكثر وضوحاً من الاول، منتظراً الاجابة، أو أي تعليق من احد الضيوف بصورة عامة، ومن الجندي المجهول بشكل خاص. ولكن الضيوف بقدر ما كانوا يحسنون الاصغاء والاستماع للشيخ كانوا مذعنين لزعيمهم المجهول، تاركين له وحده صدور الجواب، ولكن الجندي المجهول تجاهل كلام الشيخ وابدى لرفاقه اشارة

خفية فهموا أن اشارتـــه هـــذه تعني القيام عن المائدة والاستعداد للخروج ، وعندما ادرك الجندي النكرة ان رفاقه فهموا ما يعني قفز عن المائـدة شاكرا الشيخ على ما ابداه من سخاء وكرم . ومظهراً له تأهبه ورفاقه للسفر الى اهلهم . من مكانهم هذا، فلم يكن للشيخ من بد الا ان يؤجل خروج ضيوفه لبينما يحتسوا اكوابا من القهوة. وتدار عليهم « المدخنة » وهي نوع من الرائحة الطيبة —ومن ثم يواجههم بالحقيقة التي هي اصلاح ذات البين · وسد الرتق قبل ان يتسع ، وبعد ان استجاب الضيوف لطلب مضيفهم بالتأجيل لا كمال الضيافة في تلك اللحظة ، اتجه الشيخ نحوهم او بعبارة اوضح ، نحو الجندي الذي لا يعرفه ، وقال : دائماً يكون سوء التفاهم بين القريب وقريبه وبين الاخ واخيه وبين الاسرة بكاملها . بل وبين الابن وابيه . ولكنه لم يبلغ الذروة بصورة كبيرة ما دام أنه يوجـد بين الاخوان او في قلب الاسرة رجال سليمو النية والعقل بعيدو النظر يدركون بعقلهم الثاقب ان اي خلاف يقع بين الاسره فانما هو على حساب تشتيت شملهم جميعاً ، ولن يربحه الا عدوهم المشترك . ثم استطرد الشيخ الحكيم الداهية فقال ما معناه : لقد تأكدت من سوء التفاهم الذي حدث بينكم وبين الامام عبد العزيز وهو شيء وان كان مجازيا لا يستحق الذكر . ولكنني اخشى ان يتخذ منـــه دعاة التفرقة ورجال السوء واعداء الطرفين وسيلة لاتساع هوة الخلاف ، بـــين الاخوان الاشقاء المتحابـين وانني اطلب منكم كوالد وفيّ مخلص للجميع بأن لا تذهبوا من هنا حتى تودعوا الامام وترضوا عنه ويرضى عنكم .

وهنا تصدى الجندي المجهول للحديث فقال: نحن لولا رغبتنا الاكيدة برضاء الامام لما شددنا الرحال من مكان بعيـــد وجئنا الى هنا لنعرب له عن ولاءنا وصدق نوايانا ، ونوضح الاسباب لاضطرارية الماسة التي الجأتنا الى مهادنة عدو لنا وله . ولكن الامام صب علينا جـــام غضبه بدون ان يستمع الى وجهة نظرنا . ولو كانت تلك الاهانة التي صدرت عنه موجهة لفرد منا او لنا جميعاً كافراد لما اشكل علينا الامر ، ولما كنا كوفد يمثل اهالي القصيم الذين يشكلون اكبر عدد

في نجد . فاننا نرى ان الاهانة التي سمعناها كانما هي موجهة لاهـل بلادنا جميعاً ولذلك وجدنا ان الامانة التي انيطت باعناقنا كممثلين لقومنا تقضي بأن نرفع الامر الواقع لأهل بلادنا على علاته . ولهم وقتذاك ان يتصرفـوا كما يشاؤون ، » قال الجندي المجهول هذه العبارات ثم قفز ماداً يده للشيخ اشارة للوداع كما مثل رفاقه نفس الدور الذي فعله صاحبهم ولكن الشيخ لم يكن حريصاً على وداعهم بهـذه الصورة . وانما قال : الا ترون انى بمنزلة الوالد الروحي لكم وللطرف الثاني ؟

– قالوا جميعاً : بلى .

– قال اذن من حقي عليكم ان تلبوا رغبتي التي تتلخص بشيء واحدوهو ان تضمنوا لي تناسي الموضوع من جانبكم بالكلية . كما انني سوف ابذل جهدي لأن يتناسى الامام الموضوع الذي اثاره من جانبه ، أجاب الجندي المجهـول بقوله : أنا شخصيا موافق على رأيكم يا والدنا من حيث المبـــدأ ولكن بعد الاحتفاظ بشرطين لا ينفصل بعضها عن بعض . احدهما . ان تضمن لنا تناسي الامر من جانب الامام. وعندئذ نتعهد لك نحن بتناسي الامر من جانبنا ـ ثانياً ان يوافق رفاقي على ما وافقت عليه بهذا الصدد ثم انحرف الجندي المغمور نحو رفاقـه ، يستفسر منهم رايهم في الموضوع. فكان الرد منهم جميعاًيشير الىموافقة صاحبهم وتأييد رأيه

وبناء على رغبة الشيخ الذي يعتبر موضع ثقة لدى الجانبين ، تأخر الوافدون عن سفرهم المرتجل . ولم يعودوا الى اهلهـم الا وقلب كل منهم طافح بالسرور والرضاء عن امامهم وزعيمهم عبد العزيز . وذلك بفضل جهود ومساعي وصلاح قصد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الذي كان كما اسلفت من ابرز العوامل وأهم الاسباب التي اعانت الملك عبد العزيز على تأسيس وحدة الجزيرة العربية . تلك الوحدة التي لا يقدر أهميتها الا من يعرف ما كانت عليه البلاد من تفرقـة ونهب وسلب وسفك لدماء الضعفاء على ايدي الاقوياء . الخ . .

وبعد فقد رويت هذه القصة من عدة مصادر والمصدر الثقة الذي اذكره هو المرحوم محمد بن ماضي ، والذي جعلني اثـق بصحة حدوثها ليس الا وفرة القرائن والادلة الآتية :

اولا – نوفر الادلة التاريخية الآتية كما يلي : منها ان اهل القصيم عقدوا هدنة مع ابن رشيد بعد وقعة جراب عام ١٣٣٣ هـ .

ثانياً – مجيء ذكر الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ في القصـــة ، والشيخ عبد الله ثابت لدى كل من يعرف تاريخ نشوء حكومة المغفور له الملك عبد العزيز انه من اقوى الدعائم الجذرية الاصيلة في توطيد اسس تلك الحكومة وامنع الحواجز الدفاعية التي يعتمد عليها مؤسس الدولة في مواجهة الازمات وحل المعضلات المستعصية .

صاحب الحق منصور وان كان ضعيفاً

- ٢٠ -

يعجبني الرجل الذي يؤمن بأن الاجل محدود ، وان الرزق مضمون ، وان ما اصابه لم يكن ليخطئه، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، ومن يؤمن بهذه الحقيقة الواقعة فانه بلا شك سوف يعيش عزيزاً شامخَ الانف مدى الحياة ، فان اهين لم يستسلم للهوان ، وان نال من كرامته ذو سلطان فانه لا يستكين ولا يخنع خوفاً من العقاب ، ايماناً منه بان صاحب هذا السلطان انسان فان مهما طال الزمن به او قصر ، وان الحياة تمر كوميض البرق الخاطف ، فما هي قيمة هذه الحياة الوجيزة اذا لم يحي الحر فيها ابياً ، مرفوع الرأس ، وعلام يذعن للاهانة وينقاد للخنوع ، ويبيت على الضيم وهو يعتقد ان الحياة اعز من ان يقبل الابي فيها بالخسف، واقصر من ان يعيش فيها الحر ذليلا مهاناً، فلا فض فو الشاعر المعاصر احمد الصافي النجفي القائل :

وأعجب من شعب يبيت على الاذى

ومن رجل بالناس يرمى ولا يرمي

اقولها ثانية وثالثة : يعجبني الحر الابي الذي يؤمن بهذه الفلسفة ويطبق هذا المنطق ، ويقف بوجه المتعجرف المأخوذ بزهو جاهه كما وقف ذلك النجار الفقير

القروي المتواضع المدعو فهد الرقابي [1] ـ من يوسف العتيق [2] وهـذا الاخير من الرجال ذوي المكانة المرموقة بين مجتمعه ، لا لكونه شقيق ناصر الذي هـو اشبه ما يعبر عنه برئيس ديوان الامير وأمين سره الخاص ، لا ليس من اجـل ذلك ، وانما لكون يوسف رجلا وقوراً وذا رأي سديد ، وكثيراً مايولى مهاماً كبيرة في امارة محمد العبد الله ، كما انه يرجع اليه في معرفة القضايا العربية الشعبية الخاصة في تقاليد وعادات رجال ذلـك العهد والحكم الذي يحكم به يوسف ، يكون مقبولا عند كلا الجانبين [3] .

فقد يوسف العتيق بصره في آخر حياته .. وفي ذات يوم سقط ابن اخيـه يحيى عن فرسه فأصيب بجرح في ركبته ، وجاء الوافدون من مختلف سكان البلاد لعيادة ابن اخيه ، وكان فهد الرقابي من جمـلة الوافدين ، ولكنه عندما دخل وجد المجلس حاشداً من اعيان اهل البلاد ولم يجد له مكاناً يجلس فيـه ، لولا ان شخصاً من اسرة آل عتيق تخلى عن مكانه ونادى الرقابي قائلا :

– اقلط يا فهد .. يعني تفضل ..

وبعدها جلس الرقابي بالمكان الذي اخلي له وادير ت اقداح القهوة ، بعـد ذلك وجه الشيخ المكفوف يوسف الى من في الحفل سؤاله التالي :

– من هو فهد هذا الذي دخل الآن ؟ ..

---

(١) راجع ص ١٧٤ الى ١٨٢ في هذا الجزء

(٢) يوسف من اهالي حائل وهو الاخ الاكبر لناصر العتيق وزير الرأي للامير محمد بن الرشيد وكاتبه الخاص .

(٣) حصل تفاخر بين عشيرتين من قبيلة شمر كما هي العادة المألوفة عند البادية ، فكل منهما قبل حكم يوسف العتيق في امره وهذا دليل على مكانة الرجل المحترمة وسعة اطلاعـه بالتاريخ القومي لهاتين العشيرتين بشكل خاص وبتاريخ جميع القبائل بصورة عامة ..

فأجابه الكثير من الحاضرين بلسان واحد قائلين :

ـ هو فهد الرقابي أطال الله عمرك ..

فقال ثانية على سبيل الاستفسار او السخرية ..

ـ اهو فهد الرقابي النجار ؟.. [1]

ـ فقالوا : نعم هو بذاته ..

فصمت الشيخ قليلا ثم قال بعد ان اخـــذ راحته اليمنى وصفق بها راحته اليسرى ..

ـ ان كلمة اقلط في حفل كهذا لا تقـــال الا للرجل المعروف بسداد رأيه ومروءته وشجاعته اما اذ استعملت لغير اهلها فمعناه انها رخصت واختلط الحابل بالنابل .. ولا يكون ثمة تنافس على الفضيلة ، ولا ميزة بـــين الشريف الكفؤ نابه الصيت ، وبين الرجل العادي او من هو اقل من العادي ..

القى الشيخ هذه الكلمة فتلقاها الحاضرون كما يتلقى الطلبـــة الدرس الذي يلقيه اساتذتهم او كما يتلقى الاطفال تعاليم والدهم ، مع انها تحمل استهتاراً جارحاً لكرامة مواطن كالرقابي . ولكن الرقابي بالرغم من انه رجل فقـــير متواضع ونكرة ، ولكنه اثبت بأنه ليس من النوع الذي تغمز قناتـــه ، ولا من الذين يصمتون على مضض بل سرعان ما نهض الرجل وانتصب كالرمح ثم اشار بيمينه الى الى الرجال الجالسين قائلا ما معناه :

ـ ايها الاخوان الحاضرون : انني اناشد الله كل فرد منكم يعرف عني عيباً

(٥) صاحب الحرفة كالنجارة والحدادة محتقر عند العرب ، خاصة في العهد القديم .

او رذيلة ان يعلنها .. فلم يجبه احد فاعادها ثانية وثالثة ثم قال :

ـ لا ستر الله عورة من يعرف عني شيئاً يعيبني ولا يعلن ما يعرفه ..

ولما لم يجبه احد اتجه نحو الشيخ المكفوف وقال :

ـ لماذا ايها الشيخ تحتقرني أمام قومي بعباراتك اللاذعـــة التي جرحت بها كرامتي ثم مضى بعبارته الى ان قال : انني لا اعرف امرأ يجعلك تستهتر بي في وسط هذا الحفل اللهم الا امراً واحـــداً وهو انني لا آكل الا من كسب يميني وعرق جبيني، وعيبي الثاني بنظرك هو انني لم اكن من المقربين عند ولاة الامر الذين لا يتورعون عن ان يكسبوا المال بأية وسيلة كانت حتى ولو كانت هـــذه الوسيلة قائمة على ظلم القوي للضعيف ..

كان الشيخ يصغي لكلامــه بكل حواسه ، اما الحاضرون الذين منهم من يكون الشيخ عمه، ومنهم من يكون خاله او ابوه ومنهم من يرى الشيخ بمنزلة الاستاذ ، كل هؤلاء واولئك لم يتحملوا من النجار الخامل ان يتطاول على الشيخ المحترم الوقور ، الذي يخطيء من يشاء ولا يحق لاحد ان يقول له انت اخطأت، ولذلك نجدهم قطعوا على النجار حديثه قبل ان ينتهي وصاحوا به جميعاً بصوت واحد قائلين :

ـ اسكت يا كيت .. ولكن الشيخ كان اعقل منهم واهـدأ اعصاباً حيث صاح بهم قائلاً :

ـ دعوه يتم حديثه .. ثم قال للنجار :

ـ أكمل حديثك يا بني ..

فنشط النجار وقال :

ـ أجل لو كنت من هذه الفئة لما استكثرت عليّ كلمة (اقلط) .. ثم ختم حديثه بقوله :

ولكنني اريد ان اسألك الآن على ان تجيبني ما الذي يجعلك تقبل ان يكون فلان [1] عن يمينك وانت تعرف عنه كذا ... وفي الوقت نفسه تستكثر عليّ كلمة عابرة لا اهمية لها ..

وعندما انتهى النجار من كلامه كان الجالسون كأنهم على احر من الجمر فحالا صاحوا به قائلين جميعهم ما عدا الشيخ :

اخرج من هنا يا وقح ويا قليل الادب الخ ...

الرجوع عن الخطأ فضيلة !!!

اما الشيخ فقد صاح بالحاضرين قائلا :

ـ دعوه والله لم يقل الا الحق ، وانه يستحق مني الاحترام ، ثم قال :اقرب مني يا بني وعندما قرب راح يقبل جبينه ورأسه.. ثم انحرف نحو الشخص الذي كان عن يمينه والذي غمزه النجار بعبارته السالفة الذكر وقال له :

قم من هنا يا فلان ليجلس في مكانك من هو خير منك ومني ..

وجاء بالنجار واجلسه بجانبه وقال :

أشهد على نفسي بانني اخطأت بحقك.. ثم مضى وقال .. وان كنت اخطأت

---

١ يقصد شخصاً لا اريد ان اذكر اسمه لا لانني اكتب الشيم العربية واضرب صفحاً عن العيب والمآخذ .. لا ليس من اجل ذلك فحسب ، بل لاجل ان العيب الذي عاب النجار به الشخص المشار اليه لا اهمية له .. اللهم الا ان رجال ذلك العهد يبرزو ن اقل شيء يعاب به المرء من الامور التي ليس لها اهمية عندنا اليوم ..

في تعبيري فانني لم اندم على ماقلته لانني لو لم اقل تلك الكلمة لما استطعت أن اعرف عنك يا بني هذه الجرأة وهذه الموهبة التي كشفت لي عنك سجية الصراحة والشجاعة في اعلان الحق .. ذلك انني يا بني تعودت ان اقول في جميع مراحل حياتي اخطأت .. ولكنه يندر ان اجد من يقول لي اخطأت فيما اذا حدث مني شطط كهذا الشطط ..

وختم الشيخ حديثه بقوله :

– انني يا بني بهذا السن الذي اجتزته لابد ان تخرج مني كلمة لم ازنها بحكم تقدم سني كهذه الكلمة وامثالها .. ولذلك اكون بحاجة ماسة الى رجل مخلص جريء كشخصك ينبهني الى خطيئتي اذا وقع مني زلل ويرشدني الى الصواب اذا اخطأت ، واشكو اليه همومي اذا سئمت ، ولك عليّ يا بني ان اتعهد لك بما يقوم بأودك انت ومن تعول :

فأجابه النجار قائلا :

اما انني اترك قدومي ومنشاري واتخلى عن مهنتي التي هي مصدر فخاري ، واظل عندك بصورة انقطع بها عن عملي .. فهذه الناحية من المستحيل ان اوافق عليها ، ولكن لك علي انني في حالة فراغي سوف آتي اليك وفي الوقت الذي يبدو لك بي حاجة تستدعيني بها ، لك علي ايضاً ان اترك عملي والبي طلبك في أي وقت تريدني أحضر به ..

ومن تلك اللحظة ظلت أواصر الصداقة تزداد رسوخاً ، بين الشيخ والنجار وأعجب ما في الامر أن الجالسين الذين كانوا يرون الشيخ بمنزلة استاذهم الاكبر ، اصبح الآن تلميذاً امام النجار يتلقى منه النصائح والارشادات ..

نقلت هذه الحادثة عن بطل القصة فهد الرقابي نفسه رحمه الله كما انني وجدت

ما يؤيدها من عدة مصادر موثوقة ، ومن جملة هذه المصادر المرحوم عبد العزيز العتيق ، ابن الشيخ يوسف صاحب الترجمة ، وقد سألته في حينه عن هذه القصة فلم يعارض صحتها ، بل أكد لي بأن الرقابي ثقة وصريح ، ولا يتحدث الا بما يعتقده ، وزاد في ذلك تأكيداً انه كان يذكر ان بين والده وبين الرقابي صلة روحية وطيدة العرى بالرغم من فارق السن بينهما ، وهناك رواية اخرى نقلتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد تؤيد صحة هذه القصة ، يقول ابن زيد :

– ان الشيخ يوسف العتيق في آخر ايامه كان لا يذهب الى مكان ما الا والرقابي بجانبه ، وفي ذات يوم ذهب الاثنان الى منزل احد اقارب يوسف في شرقي البلاد من الناحية الجنوبية .. وظل الرقابي في منزل شخص من ذوي القربى ليوسف مقدار نصف الساعة .. ثم بعد ذلك طلب الاذن من صاحب المكان على ان يعود بعد ساعة لصاحبه ، فخرج وبعد مضي المدة التي حددها عاد الى صاحبه يوسف ليخرجا سويا ولكنه في عودته هذه الاخيرة جاء صاحب المنزل بصحن من التمر الطيب واقداح من اللبن وكوبا مملوء من زبد الضأن وقدمه للضيفين ، فرفض الرقابي ان يتناول شيئاً من الطعام بحجة انه صائم .. وكان صاحبه اي الشيخ يوسف يذكر انه لم يكن صائماً فألح عليه كما الح ايضاً عليه صاحب المنزل ولكن لم يفد الحاحهما بشيء فتناول يوسف حبة من التمر وشرب جرعة من اللبن ثم خرجا سوياً ..

وعندما ابتعدا عن المنزل الذي خرجا منه ، راح الرقابي يقبل رأس الشيخ يوسف قائلا :

– ناشدتك الله ان تخبرني بالحقيقة .

فجاوبه الشيخ :

– اي حقيقة تعني .؟ فقال النجار :

– اليس اقاربك البخلاء قدموا لك الطعام بعدما خرجت من عندهم ، ومن ثم ذهبت انت توبخهم قائلا لهم لماذا لم تقدموه عندما كان فلان رفيقي موجوداً هنا ، ثم انك غضبت من تصرفهم هذا ورفضت ان تتناول حبة منه ، وبعدما عدت اليكم جاء احد اقاربك بطعامه يريد ان يرضيك لا ان يضيفني .. ولذلك اعتذرت بالصيام ، ثم اعاد العبارة عليه ثانية قائــلاً : ناشدتك الله اليس الامر كذلك ..؟

فأجابه الشيخ قائلا : وهو يبتسم

– يبدو انك تستخدم الشياطين وتستعمل السحر والا ما الذي يخبرك بما حدث في غيابك بهذه الامور التي تضع فيها النقاط على الحروف ..

فضحك النجار وذهب يقبل رأس الشيخ ثانية وهو يقول :

– لقد تحققت فراستي بك يا ابا فلان ، فلله درك على اعراضك عن طعامهم من اجل صديقك ..

محال ان ينال الأبي ثقة المستبد !!

-٢١-

ضدان لن يجتمعا ، وان اجتمعا فان ذلك نادر ، وهما الحاكم المستبدالمطلق، والرجل الابي ، فالاول لا يريد احـداً يقف منه موقف الرجل المحترم لنفسه، المعتز بكرامته ، المدافع دون عقيدته ورأيه ، ولا يقبل من اعوانه ومواطنيه الا ان يكونوا آلة مسخرة مطيعين لاوامره كيفما كانت مذعنين لارادته مهـما انحرفت عن السبيل ، مهللين ومكبرين لسلطانه مهما جار وطغى ، ومن لم يكن كذلك فهو مغرور متكبر يجب اذلاله ، والنيل من كرامته ، بحق او بباطل ، لكي لا يفسد اخلاق المواطنين المخلصين ، ومقياس الاخلاص بنظر الاول هو مـا يبديه له ضعفاء النفوس من انحناء وتذلل وخنوع ..

ومقياس الاخلاص بنظر الثاني هو مصارحة ولاة الامور وجهاً لوجه بكل خفية وبينة ، ومناصرة الضعيف والاخذ بيد المظلوم مهما قل مناصروه، وعدم الاستكانة والخنوع للمخلوق الفاني مهما علا شأنه ، وعظم سلطانه .

وليس الذي وقع بين عناد القاضب[1] وسبهان العلي بن سبهان[2] بدعاً من نوعه، بل وقع ويقع في كل زمان ومكان بين الحاكم الذي يرى ان من يحتفظ بكرامتـه

---

١ عناد من اقطاب بلدة الجوف وهو رئيس فخد يدعى بالسهيب. وفي يوم ١٨ رمضان ١٣٧٥ التقيت بالامير عبد الرحمن السديري بدمشق الوالي على بلدة الجوف في ذلك الوقت وحتى الآن وقد طلبت منه ان يوافيني بتاريخ وفاة بطل القصة... وبعدما وصل الجوف جاءت منه رسالة يفيدني ان وفاته حدثت في رجب ١٣٤٨هـ .

٢ سبهان ورد اسمـه في هذا السفر اكثر من مرة وهو غير سبهان السلامـة الذي كان وزيراً لمال عند محمد الرشيد ومستشاراً له

ولا يتملق ولا ينافق له عدو مبين ، وبين المواطن المخلص الذي لا يؤمن بهذا المنطق الواهي .

ويقع تاريخ هذه الحادثة في سنة ١٣٢٩ هـ وذلك عندما كان سبهان العلي والياً على مدينة الجوف من قبل امير حائل وقتذاك سعود العبد العزيز بن متعب الرشيد ، ومن المعروف ان اهل الجوف « خاصة في ذلك العهد » من اكبر رجال الجزيرة العربية نفساً واشمهم انفا واعزهم جانبا لا يبيتون على الضيم ، ولا يرضخون لعسف الحاكم المستبد مهما تكن قوته ومهما بلغ عقابه من الشدة والقسوة ، والذي درس ادبهم الشعبي يتضح له مدى ما يتمتع به افرادهم من اباء وشمم ، وتمرد على الحاكم اذا استبد وجار ..

ولولا انني اخشى ان يبعد بنا السبيل عن صميم البحث الذي نستهدفه ، لولا ذلك لاتيت بشيء من اناشيدهم الشعبية التي تعبر تعبيراً جليا عما تصبو اليه نفوسهم الجبارة من طموح واعتداد بالنفس ، وشعور بالكرامة ، وعلى سبيل الاختصار أود ان آتي بنماذج وجيزة من بعض الامثلة الشعبية ، امثال قول بعضهم (يوم ديك خير من الف يوم دجاجة) وهذا المثل أشبه ما يكون بمثل سبق أن قرأته بمجلة الرسالة المصريه في عددها رقم ٩٣٤ وتاريخ ١٩٥٢ نوفمبر خلاصته كما يلي :

(الافضل ان تكون ذيل أسد من ان تكون رأس كلب) .. يقال ان هذا المثل يوناني ، ومن المعلوم ان مثل اهل الجوف ابلغ معنى ..

والمثل الاعظم من ذلك عند اهل الجوف لكونه وقع عمليا هو قول احدهم (ما عقب الجماعة مقعد) ..

والمعنى ان ابن رشيد واظن انه طلال ، عندما نفذ حكم الاعدام في عدد من اعيان اهل الجوف ، بعد ذلك عفا عن واحد منهم لاجل صداقة قديمة بين

المعفو عنه وبين الامير ، فرد هذا قائلا : اتقتل رفاقي وتعفو عني .. فهذا العفو منك ليس مقبولاً ، ولا اريد ان احيا يوما واحدا بعد رفاقي ... فارغم الامير وتحداه حتى نفذ فيه الحكم ..

وبطل قصتنا هذه – عناد القاضب–ليس الا واحداً من نمط اولئك الرجال وبقدر مـــا كان عناد ابياً شهماً وفياً وقوراً منيع الجانب متكبرا على الجبابرة المتغطرسين ، بقدر ما كان ليناً متواضعاً رحيماً بالفقراء عاطفياً نحو المساكين، متسامحاً عن عثرة اصدقائه ، وبحسن اختياره لهم ..

وكان بمسلكه وسيرته يعبر عن الصفات التي اوصى بها رب السيف والقلم محمود سامي البارودي بقوله :

وكن وسطاً لا مشرئباً الى السهى ولا قانعاً يبغي التزلف بالصغر
واحمد اخلاق الفتى مـــا تكافأت بمنزلة بين التواضع والكبر

حقد ليس له مبرر

اعتقد أمير الجوف سبهان ان عناداً يضمر له العداوة والكره ، وانه يتآمر عليه الامر الذي جعله يضمر الحقد لعناد ، ويحاول ان يجد عليه ادنى سبيـــل ليأخذه اخذ عزيز مقتدر .. وفي الحين الذي كان سبهان يضمر السوء لعناد ، ويحاول ان يبطش به عندما يجد اية زلة يدينه بها ، كان عناد لا يحمل في نفسه لسبهان ولا لمن ولاه اي كره ، اللهم الا انه يكره الاساليب التي لا ينال المرء بها ثقة حاكم ما الا بقدر ما يدفعه من تضحية بكرامته وهدر لإبائه وقتـــل لشممه ، فكان معروف الرصافي وعناد القاضب يلتقيان على صعيد واحد عنده قال الرصافي :

وتكره نفسي كل عبد مذلل   وقد كرهت حتى الطريق المعبدا

والغريب في الامر ان المعروف عن سبهان انه يحمل نفسيه كنفسية عناد من حيث قوة الشكيمة وعزة النفس وثباته في الحصار وموقفه ايضاً القوى من النوري بن شعلان[1] كل ذلك يعطينا دليلاً بأن الرجل يتمتع بقسط كبير من شموخ الانف واباء النفس ، ولكن الذي يبدو ان بعض الناس يريد ان تكون مزايا الرجولة حكراً لنفسه وموقوفة على شخصه ، واذا كان هناك من ينافسه عليها فانه لا يدخر وسعاً من محاربته وقهره ان امكنه ذلك ..

وهذا ما جعل سبهان يقف من عناد موقف الحاقد الذي يريد ان ينتقم منه بأية وسيلة كانت ..

ومن الامور التي جعلت سبهان يتضاعف حقده على عناد ، هي ان عنادا طموح باختياره لاصدقائه فلم يقع اختياره الا على فتي كان من خيرة حاشية سبهان ومن اعزهم نفساً واوفاهم عهداً وارجحهم عقلا واشجعهم قلباً ، الا وهو (سويلم الشعلان)[2]

لم يخامر الوالي سبهان ادنى شك في اخلاص سويلم له ، ولكنه رغم ذلك تضايق من صداقة عناد له فراح يوجه لسويلم السؤال التالي :

— ما معنى هذه الصداقة التي توطدت عراها بينك وبين عناد ؟..

---

١ راجع صفحة ٨٧ ج ٣ من شيم العرب للمؤلف.

٢ توفي سويلم رحمه الله في عام ١٣٨٢ ﻫ الموافق ١٩٦٢ ولسويلم مواقف في الوفاء والشجاعة تستحق الاعجاب والتقدير وفي اليوم الذي جرى فيه تنفيذ المؤامرة لقتل زامل بن سبهان وسبهان نفسه المذكور اعلاه كان سويلم هو الفارس الوحيد الذي كافح وناضل دون سبهان حتى قتل سبهان .

– ليس لها أي معنى اللهم الا ان عناداً بدا بمد يد الصداقة ورأيت انه شخص فيه من دلائل الرجولة ومظاهر الفتوة والوقار ما هو جدير بالاحترام ، فأبديت له الصداقة والوداد بمثل ما بدا لي منه ..

– احذر ان يخدعك هذا الماكر المتغطرس الذي يضمر لنا من العداوة والبغضاء اكثر مما تتصوره وهو في الوقت ذاته يرى لنفسه من القدر فوق ما تستحقه منزلته . ولكنني بعون الله سوف اتخذ نحوه اجراءات تمكنني من تحطيم منزلته بين قومه لكي اقضي على ما في نفسه من غرور وكبرياء ..

– من رأيي ان لا تتحدى الرجل بشيء قد لا تجني من ثمره خيراً اللهم الا اذا كان لديك من الوثائق ما يجعلك تدينه بالخيانة للامارة ، فعندئذ لك ان تتخذ نحوه ما شئت من عقاب ..

لقد بذلت جل جهدي لكي اجد عليه عثرة واحدة لآخذه بها ، فلم اجد عليه شيئاً ، وليس معنى ذلك انه بريء من عداوته لنا ، ولكن الذي يبدو لي ان الخبيث حازم ومحتاط لنفسه ، ولكن رغم ذلك سوف ادبر له مكيدة تحط من كرامته بين قومه ..

– أنا انصحك ان تترك الرجل وشأنه ، وان لا تحاول اهانته بدون بينة تأخذه بها لانني واثق بأنه شخص غيور على كرامة نفسه ..

– أنت بلا شك مخدوع بهذا المتكبر المغرور ..

– الايام بيننا .. ولكنني اذكرك بحكمة العربي القائل : اياك وصولة الكريم اذا اهين وبطر اللئيم اذا شبع ..

– اتظن ان صاحبك كريم .. بل انه لئيم ولا يصلح له الا الاهانة .. ولذلك

سوف لا ادخر وسعاً لاهانته ولو بطريقة غير مباشرة ..

– ما هي الطريقة التي تريد ان تتخذها لاهانته ..؟

– سوف ازوره في منزله الآن وسيكون مجيئي له فجـــأة ، وعندما يراني زائراً لهسوف يحاول ان يبذل كل مالديه من الجهد لاكرامي والحفاوة بي كضيف زائر .. وعندئذ سوف ارفض واقسم له بأنني لن اتناول من بيته شيئاً الا اذا نفذت رغبتي ، ثم اجعل طلبي مبهما لا اخبره عنه ، وفي هذه الحالة سوف يسألني عن كنه الطلب وعندها سوف اقول له انني كما تعلم بعيد عن اهـــلي وشعرت هذه الساعة بقلق ممـــا جعلني احاول ان اسلي نفسي وانسيها همومها ، فرحت اسأل افراد رجالي واحداً واحداً عمن يحسن ان يلحن على الربابة فلم اجـــد فيهم احداً فسألتهم هل يعرفون احدا من اهل البلاد يحسن التلحين على الربابة فأخبرت بأنك تجيد ذلك ، ولذلك قصدتك راجيـــاً ان تلبي طلبي وتساعدني على تبديد همومي ، ثم مضى وقال وهو عندما يلبي طلبي ويغني لي على ربابته اكون وقتها تمكنت من اهانته والحط من كرامته بين مجتمعه بدون ان يشعر بذلك ..

– اعتقد ان الرجل فوق ما تتصوره واذكى من ان تفوت عليه هـــذه الخدعة .. ومن رأيي ان تترك سبيله ، ومضى سويلم الى ان قال : انا اؤكد لك بأنه وان كان يحسن التلحين والغناء على الربابة من اجل ان يسلي نفســـه او يسلي بعض زائريه من اصدقائـــه الذين من منزلته وما دون، ولكنه لا يمكن ان يغني بالربابة لشخص اعلى منه منزلة من امثالك ..

– دع القضية سراً وسوف ترى فيما بعد نتائج الامور .. ثم واصل سبهان حديثه وقال : ارى انه من الافضل ان نباغته الآن ونذهب اليه فى هذه الساعة..

– اذا كنت عازماً فما عليك الا ان تتوكل على الله ..

أراد ان يهين فأهين .

كانت الساعة التي صمم بها الامير على زيارته الملغومة ساعة قيلولة .. وكان الفصل صيفاً وكانت العادة المألوفة عند أهالي نجد وخاصة اهالي الشمال ان ساعة القيلولة التي تقع قبيل صلاة الظهر بساعة .. هذه الفترة بالذات بالنسبة لاهل البلاد اشبه ماتكون بمنتصف الليل خاصة في ذلك العهد .. فيكون السكون مخيما على البلاد ولن تجد في الاسواق احداً ، فكلهم مخلدون الى الراحة والسبات العميق.

في هذه اللحظة بالذات ذهب سبهان وحاشيته الى منزل عناد وتنفيذاً لخطته الملغومة ، عندما وصل باب الرجل تقدم احد الحاشية وطرق الباب (بركزة) سيفه بشدة حسب القاعدة المألوفة في حالة كهذه كنذير ، يشير الى ان الزائر ليس عادياً ، فأسرع احد الصبيان وفتح الباب ..

و ان رأى الصبي الوالي وحاشيته حتى عاد مذهولاً ليخبر سيد المنزل النائم .. فجاء الرجل يسير بخطى وئيدة وبكل هدوء ورباطة جأش .. فبادر الوالي بالتحية فرد عليها بمثلها ، وهو في موقفه عند مدخل الباب دون ان يأذن للوالي بالدخول .. وكانت هذه المقابلة الجافة اول نذير لسبهان بفشل خطته .. ولكنه تابع تنفيذ مكيدته وقال :

ـ لقد اصابني قلق وصدمة نفسية في هذه اللحظة ولم أجد بداً من ان اذهب الى أي مكان لأسلي نفسي وازيل ما ألمّ بي من قلق مزعج فرأيت ان خير من اذهب اليه هو جنابك و ..

فرد عليه عناد بقوله وهو يبتسم ابتسامة تعبر عما في نفس صاحبها من وقار واعتزاز بالنفس :

ـ ان هذه الزيارة بأطويل العمر زيارة العدو[1] لعدوه ، ثم أتبع هذه الكلمة بعد صمت قليل وقال : وعلى اية حال فانني اعتبر هذه الزيارة فرصة ميمونة فيما اذا لم يكن لها ما وراءها من بواعث في النفس واسرار خفية مخالفة للحقيقة التي اشرتم اليها في ظاهر الامر ..

ـ لم يكن هناك حافز ورغبة أو رهبة تضطرني لأن احدثك حديثاً يخالف الحقيقة التي صارحتك بها ..

ـ ان قدومك عليّ في هذه الساعة الحرجة وبدون سابق علم يجعلني اشك كثيراً بان هذه الزيارة تم عن باطن خفي .. ثم مضى وقال : اسمح لي ان اقول لك بأنني لا يمكن ان آذن لك بدخول منزلي حتى تثبت لي ان مجيئك له ليس ظاهره يخالف باطنه ..

والدليل الثابت الذي يقنعني بهذا الشأن هو ان تعطيني عهد الشرف بانك سوف تزورني بعد الغد لتناول وجبة العشاء في منزلي هذا حتى يكون لديّ من الوقت الكافي ما يجعلني استطيع القيام بواجبي نحوك بصفتك تمثل حاكم بلادنا هنا .. وواجبك الرسمي يفرض عليّ ان لا تكون زيارتك لمنزلي زيارة ارتجالية كهذه ، بل يتحتم عليّ ان اقدم لك الضيافة التي تليق بمنزلتك كنائب لحاكمنا .. كما ينبغي منك ان تنظر لوضعي الراهن بين قومي الذين سوف يعيبونني وسوف تصاب كرامتي عندهم بشلل عندما يعلمون انك زرتني ولم اقم بواجبك ..

ـ ما دام قبولي دعوتك لتناول وجبة العشاء ، يقنعك بأنه ليس لدي باطن يخالف ظاهري ، فأنني من الآن موافق على قبول دعوتك بعد الغد كما تريد ..

---

(١) هذا مثل شعبي يقال في مناسبة كهذه .. وهو صالح ان يقال في حالة الجد وفي حالة المزح .. ولكنه اكثر ما يستعمل في المزح وربما كان الاصل فيه الجد كما هو الامر الواقع الآن.

ـ انني اعتبر الوعد منك عهداً ؟..

ـ طبعاً ..

ـ اذن تفضل ..

ـ دخل الوالي او الامير -حسب الاصطلاح المعمول به هناك وجلس عناد عن يمينه بعدما امر شخصاًمن اقاربه بتهيئة القهوة ..

وبعدما احتسى الامير وحاشيته اكواباً من القهوة عند ذلك استأذن فأذن له مضيفهالذي راحيقدمه حتى الباب الخارجي، وعندما تبادلا التحية الوداعية، ذكره عناد بالوعد من باب التأكيد ، فأعطاه الامير اشارة تتضمن زيادة تأكيده بما وعده به ، خرجالامير من منزل عناد وهو كاسف البال يسحب خطاه شاعراً بالهزيمة ، ولم يفكر ان يباحثسويلما قطعياً في الموضوع لئلا يشمت به ..وكانت مصيبته الكبرىانه سوف يأتي بعد الغد الى منزل هذا العدو اللدود وهو كاره..

ظل الامير ذلك اليوم عابس الوجه مقطب الحاجبين .. وعندما جاء مساء اليوم الثاني ذهب الى بيت عناد لينفذ وعده المشؤوم .. وما ان وصل هناكحتى وجد بعض اعيان البلاد والبعض الآخر جاء فيما بعد وظل المدعوون يتوافدون حتى انه لم يبق من رجال اهل البلاد الذين يشار اليهم بالبنان احد الا وحضر.. وبعد ما تكامل المدعوون نهض المضيف امام الامير مشيراً بأن يتفضل الى المائدة فقام الامير وحاشيته والمدعوون على شرفه ، حتى اذا وصل المائدة وجد جزوواً وعدداً من كباش الضان فكانت المائدة بمنتهى السخاء .. وبعد ان انتهى من عشائه عاد الى المجلس فتناول فنجاناً من القهوة ثم استأذن من مضيفه،وراح وفي نفسه من الحقد اضعاف ما كان فيها سابقاً ..

ولما كان اهل الجوف من نوع القوم الذين يسأمون حياة الاستقرار والهدوء،

ولا يطيب لهم العيش الا في ظل الثورات والتمرد .. فقد كان الوقت مواتياً لهم آنذاك .. بوجود قوتين متنافستين وهما ابن رشيد من من الجهة الشرقيـة وابن شعلان من الجهة الغربية وكان النزاع بين الرئيسين قائماً على قدم وساق ، ومن مصلحة اهل الجوف ان يتخذوا من هذا النزاع وسيلة للمساومة بين المتخاصمين ، وعند اية مناسبة يختلقونها ، يجتمع نفر منهم ويتفقون على نقض العهـد الذي في ذمتهم للحاكم الحالي .. ومن ثم يبعثون وفداً منهم موكلا من قبلهم يعلن عن لسانهم ولاءه للحاكم المناوىء لحاكمهم الحالي .

وفي تلك الايام بلغ سبهان من مصدر ثقة بأن اهل الجوف اوفدوا رجالاً من اعيانهم برسالة الى النوري بن شعلان تتضمن اجماع الكثير منهم على خلع العهـد الذي بذمتهم لابن رشيد ، واخذ عهد لابن شعلان .. ولم يستغرب سبهان هـذا النبأ كما لم يستبعده ..

بعد ان خدعه المنافقون عرف المخلصين !

ولم يكن لدى سبهان من الوسائل التي ينتحلها الا انه بعث رجاله ليستدعوا له اعيان اهل البلاد، فحضر جميع الاعيان البارزين الا عنادا، تخلف عن الحضور ، فراح سبهان يصارحهم عن حقيقـة النبأ الذي بلغه ، فانكروا جميعهـم الخبر وأكـدوا بأنهم لا زالوا متمسكين له بالعهد ومعترفين له بالولاء والاخلاص .. فطلب منهم بان يأخذ منهم عهداً جديداً لكي يزداد اطمئنانا .. فلبى جميعهم الطلب بدون ان يبدو من أي واحد منهم تردد ، وعندها اخذ سبهان عهداً من كل فرد منهم ..

وبعد هذا العهد الجديد اطمـأن على نفسه ، وشكر المعاهـدين بحضورهم وبغيابهم وفي الوقت نفسه ازداد غضبه على عناد ، لانه لم يحضر مع اعيان البلاد الذين عاهدوه واثبتوا ولاءهم واخلاصهم ، فظل يشتمه ، وينال من شرفـه ،

ويتهمه بالخيانة،الامر الذي جعله يرى ان حجته قامت عليه وان الفرصة سنحت له لينتقم منه .. فذهب ونادى «سويلما» وعندما حضر قال له:

– ها هو صاحبك الخبيث العدو المبين حضر رفاقه المخلصون وجدد واالعهد ونفوا التهمة عن نفوسهم الا هو لم يحضر لانه يعرف نفسه بأنه مجرم خائن .

فقال سويلم :

– لا يحق لنا ان نحكم عليه بالخيانة قبل ان تبعث له الآن رسولا يستدعيه ليحضر عندك .. وفي حالة تلبيته لطلبك ، لك ان تستفسر منه عن اسباب تأخره ، فهو اما ان يحضر وعندئذ يمكنك ان تفهم شيئاً عن وجهة نظره بعدم حضوره ،او انه يمتنع عن المجيء وعند ذلك تقيم عليه الحجة بالادلة القاطعة ...

– اذن سوف نبعث له الان رسولا يستدعيه وننظر ماذا تكون النتيجة ؟ .

ارسل سبهان رسولا يستدعي عنادا، وما ان جاءه الرسول حتى حضرفوراً، وبعد تبادل التحية بينه وبين سبهان وجه اليه الاخير السؤال التالي :

– ما هي الاسباب التي اخرتك عن المجيء مع الجماعة عندما حضرواعندنا.. فاجابه عناد بهذه العبارة نصاً حرفياً :

– من حضر ما غاب[1]..

١ هذه العبارة التي جاءت جواباً من عناد لسبهان نقلتها حرفياً من رسالة وردتني بتاريخ ١٣٧٥/٩/٨ هـ من راوي القصة المرحوم سويلم الشعلان وذلك أنني حررت له رسالة بتاريخ ١٣٧٥/٧/٢٤هـ طالباً منه مزيداً من الايضاح عن تفاصيل القصة والتأكد عن اسم الشخص اعني عناداً لانني رويت عنه هذه الحادثة من مدة لا تقل عن خمس سنين من تاريخ رسالتي ..وقدفرقت بيننا الايام ولم أر سويلما بعد تلك المدة الا قبل ان يتوفاه الله بشهر واحد .. واما معنى الجملة الشعبية التي تلفظ بها عناد بقوله: من حضر ما غاب معناها انني حضرت الان بين يديك وكأنني لم اغب فهات ما عندك ..

– لقد طلبت من أهل البلاد ان يعطوني عهداً جديداً لأطمئن اليه وذلك انه بلغني خبر يفيد انهم نقضوا المعاهدات السابقة ، ولكني احتطت للامر فاخذت من كل فرد من اعيانهم عهداً .. ثم مضى الامير بحديثه الى ان قال : وبصفتك من افذاذ اهل هذه البلاد البارزين فانني أرغب بأن تعطيني عهداً على الطريقه التي اخذت بها عهداً من رفاقك ..

فقال عناد :

– ما هي صفة العهد الذي عاهدك به الجماعه ؟ ..

– ليس هذا بخاف عليك ..

– أريد ان افهم كنهه لفظاً ومعنى ..

– معناه ولفظه كالعهود المتبعة المألوفه ، وهو انك تضع يمينك بيميني وتقول: اعاهدك الله بانني صديق صديقك وعدو عدوك. وتحلف يمينا بالله بأنك لن تنكث هذا العهد وينتهي الامر بعد ذلك ..

– اود ان تعفيني من هذا العهد ولا سيما ما دام ان اعيان قومي كلهم عاهدوك فما انا الا واحد منهم ولا سبيل لي الا سبيلهم ..

– لا بل يجب ان تعاهدني كما عاهدني قومك ، والا فسوف تكون موضع ريبة عندنا ..

– سوف اعاهدك على انني واحد من هؤلاء القوم الذين عاهدوك لا اخرج عن رأيهم ، فان وفوا بعهدهم وصدقوا فانني واحد منهم وان نكثوا عهدهم فانني منهم ايضاً ..

- لا لا تلف وتدور اريد منك ان تضع يمينك بيميني وتعاهدني بنفس العبارات التي تلفظ بها رفاقك حرفياً ..

اذا كنت مصراً على ذلك فانني سوف اعاهدك الله بالعبارات التاليه :

- اعاهدك الله على ما انطوت عليه ضمائر جماعتي وما خبأته نفوسهم ،لا على ما نطقت به السنتهم .. ثم مضى وقال : وثق يا سبهان بأنني لو علمت بأنه باستطاعتي ان افي لك بالعهد الذي نطقت به السن قومي فلن اتأخر .. ولو اعتقد ان فيهم واحداً يفي بعهده لعاهدتك. ولكنني كشخص من اعيان اهل هذه البلاد لا استطيع ان اشذ عن الرأي العام الذي يجمع عليه خاصة أهل البلاد وعامتهم.

- اذن في نفوس القوم خفية خلاف البينة التي عاهدوني عليها .

- اتمنى ان لا يكون ذلك ولكن هذا هو واقع امرهم ...

اذهب الى قومك . والحقيقة انني عرفت الآن انك انبلهم خلقاً واصدقهم حديثا واوفاهم عهدا واكرمهم نفسا ..

وما ان ذهب عناد الى قومه حتى بات لدى سبهان من اليقين القاطع بأن لدى أهل الجوف من الباطن خلاف ما عاهدوه عليه وكانت النتيجة انهم نقضوا المعاهدات الجديدة التي اخذها عليهم سبهان، وذهبوا يعاهدون النوري بن شعلان.

اما سبهان فقد ظل محاصرا بقصر امارته ذلك الحصار الذي ذكرته في سفرنا هذا (ص ٧٧ الى ٩٢ ج ٢)

افتدى قومه بنفسه !!

- ٢٢ -

يفاجأ المرء بازمات قاسية ، وامتحانات عنيفة لم يحسب لها حسابا، وهو بحالة كهذه اذا لم يواجه تلك الازمات وهـذه المحن بعزيمة ماضية وارادة فولاذية ، وشجاعة خارقة . فانه سوف يذهب ضحية رخيصة.

وشجعان القلوب كثيرون ، واكثر منهم شجعان المهرجانات والتهريج ، ولكن شجعان العقول وشجعان الازمات ، وأبطال المفاجـآت قليلون ، وأقل منهم شجعان الامتحانات ، وأعني بهذا الاسم اولئك النفر الذين يتحملون على عاتقهم عبء المسؤولية ، وذلك عندما تكون المسؤولية مشتركة ، وموزعة على عدد كثير من الرجال ، فما أكثر الذين يتهربون عن المسؤولية في حالة كهـذه ، مجالاً كل واحد منهم ان يضع المسؤولية على عاتق غيره ، وما اقل بل ما اندر الرجال الذين يتحدون التهديدات ، التي قد تؤدي الى الموت ، آخذين المسؤولية كلها على عاتقهم ، كما فعل بعض رجالات العرب في عهدنا القريب عندمـا وقف يتحدى السلطة الجبارة العنيفة قائلا :

انا وحدي المسؤول ..

معيداً الى اذهاننا موقف بطل قصتنا هذه الواقعة في عام ١٣١٠ هـ والـتي اوافي بها القارىء كما نقلتها من راوي القصة وهو المرحوم سلمان بن[1] رشدان احد

---

١ ورد اسم سلمان بن رشدان اكثر من مرة في هذا الكتاب.

شهود العيان الذي نقلها لنا على الوجه التالي فقال :

عندما كان الامير محمد العبد الله الرشيد مخيماً في جنوب شبه الجزيرةالعربية، بلغهخبر يفيد بوجود شخص مقتول في وسط معسكره، وعندما اجرى التحقيق عن جنسية هذا المقتول تبين انه من قبائل المنتفق ، اي ليس من قبيلته شمر التي هي قبيلة الامير ، اذ لو كان منها لهان الامر عليه ، اما ان يقتل شخص كهذا الذي يعتبر ضيفاً للامير في وسط معسكره فهذا معناه استهجان بحرمة الامير واهانة موجهة له شخصياً .. ولم يكن للامير من بد ان يبعث رجالا يتحرون الحقيقة ويبحثون عن القاتل بطريقة سرية وعلانية ، ولكن بالرغم من جهوده المبذولة ما استطاع الامير ان يصل الى أية نتيجة ، اللهم الا نتيجة واحدة ، ضئيلة لا تفي بالغرض المطلوب ، وهي وجود القتيل في وسط المعسكر الخاص بالجماعة المسمون باهالي لبدة [1] ، وهؤلاء وان كانوا حضراً ولكنهم متعصبون فيما بينهم تعصباً لا يقل عن تعصب رجال القبيلة لقبيلتهم ، كما انهم في الوقت ذاته يشكلون القسم الكبير من جنود الاميرالذين يعتمدعليهم في الحروب، وفي المهمات التي يسندهاالى الرجال البارزين ذوى الكفاءة من أهالي هذا الحي..

اتخذ الامير من وجود جثمان القتيل في وسط خيام هؤلاء القوم دليلا يحتج به عليهم ، وانما المشكلة انهم رجال كثيرو العدد ، ولا يمكن ان يتآمروا كلهم على قتله ، فرأى الامير ان خير الوسائل التي يلتمسها بهذا الشان هي ان يجمع كافة الشخصيات البارزة من اعيانهم وراح يحقق معهم في موضوع القتيل مهدداً اياهم تارة باشد العقاب ومغرياً تارة اخرى بالمال لمن يخبره محاولا بهذه وتلك ان يجد فيهم من يدله على قاتل ضيفه ، ولما لم يجد فيهم من يفيده ، تركهم وشأنهم ، واذن لهم بالخروج من ناديه، فبدل خطته الاولى بخطة ثانية، وهي انه راح واجتمع فرادهم واحداً بعد واحد، وراح يحقق دو بنفسه مع كل فرد منهم على طريقته

---

١ لبدة من اكبر الاحياء في مدينة حائل.

الاولى أي الاغراء ، فيما اذا كان ذلك يفيد ، والا فالتهديد والوعيد ، وعندما لم يصل الى نتيجة اشتد غضبه فقرر هذه المرة ان يجمعهم ثانية ويتحدث معهم بلغة صارمة تختلف عن ذي قبل ، وعندما اجتمعوا وجه لهم الحديث التالي :

تعلمون ان القتيل لو كان أخي لكان بإمكاني ان اغض طرفي عن متابعة القضية ، ولكنه ضيفي ، فكيف اتهاون بامره ، فقاطعه احد كبارهم وهو حمود الزيد فقال : [١]

– ان ضيفك ضيف لنا ونحن مهتمون بامره كاهتمامك به ..

فرد عليه الامير :

– انتم مسؤولون عنه امامي ، وانا مسؤول عنه امام اهله ...

فأصبح الحوار والجدل بين الامير وبين حمود الذي يتكلم بلسان رفاقه الموجودين والغائبين فقال :

– اذا كان هناك مسؤولية فانها ستكون مشاعة على عشرات الالوف من قومك .. لا مختصرة علينا وحدنا ..

كانت هذة الكلمة مفحمة للامير ولذلك قال : بعدما اشتد غضبه :

– بل ان المسؤليــة تقع على عاتقكم انتم وحدكم لان الرجل قتل عندكم وفي وسط مخيمكم والادلة كلها تشير الى ان قاتله واحد من رفاقكم ، ثم مضى الامير

---

(١) حمود من اعيان ساكني حائل ، وهو شجاع في الحروب كما كان شجاعاً في رأيه . وقد تولى امارة بريدة نائباً عن محمدالعبدالله الرشيد،ويكون والد المرحوم الشيخ عبدالعزيزبن زيد الذى كان سفيراً لحكومته السعودية في ممثليتها في سورية ولبنان وتوفي في دمشق عام١٣٧٩هـ ١٩٥٨م كما يكون الجد الثالث لسميه حمود الوزير المفوض في وزارة الخارجية السعودية حالياً . وهو ايضا اخو جد سفير المملكة السعودية في ليبيا حالياً عبدالمحسن الزيد .

في حديثه الى ان قال :

- وانني اعطيكم مهلة اقصاها غداً مساء فان اخبرتموني بالقاتل فبها ، والا اعاهدكم الله بأنني سوف اشدخ رؤوسكم جميعاً ..

فقال حمود :.

- ولماذا لا نكون ابعد نظراً من ذلك ونضع نصب اعيننا شتى الاحتمالات ومن هذه الاحتمالات ان القتيل قد يكون مطالباً بالثأر من قبل نفر من نفس قبيلته الذين ضمن غزاتك الان ، فقتله طالب الثأر ، وبعد ذلك حمله القاتل ليلا ووضعه في وسط خيمنا ، لكي تبتعد الانظار عنه ، ثم استرسل وقال :ومن هذه الاحتمالات واقربها الى الصواب ان يكون القاتل عدواً لك ايها الامير وعدوا لنا في آن واحد ويقصد من عمله هذا ان يوقع بيننا وبينك العداوة والبغضاء ..

لم يصغ الامير الى كلام ابن زيد بل اعاد العبارة الاولى مؤكداً بأنه سوف ينفذ وعيده فيما اذا جاء الوقت المعين ولم يخبره أحد من هؤلاء بالقاتل..

وبعد ذلك خيّم على الحاضرين جو من الصمت ، والذهول .. اما الامير فقد قام من مجلسه وقال بجد وحزم :

- موعدكم غداً مساء .

وعندها لحق به ابن زيد وقال :

- أمصمم الامير على رأيه الاخير ؟ ..

فرد عليه بقسوة وعنف بقوله:
من هنا الى الغد سوف يتضح لك مدى تصميمي .. فيما اذا لم تخبروني بقاتل ضيفي ، فجاوبه ابن زيد بهدوء ورزانة قائلا :

- اعتقد انك اذا وجدت من يخبرك الآن بالقاتل فسوف ينتهي الاشكال ..
فسر الامير لهذه البادرة وظن انه وصل الى ما يريد فقال :

أجل .. أجل ينتهي الاشكال ومن الآن فليذهب الحاضرون الى امكنتهم عندما تخبرني عن القاتل ..

وعندئذ اتجه حمود الزيد الى رفاقه وقال لهم : اذهبوا الى خيامكم ، فقام القوم شاكرين المولى على فرجه السريع ثم اتجه ابن زيد الى الامير وقال :

- لماذا تقتل جميع أعيان بلدي بدون بينة تدينهم بها ، فان كنت فاعلا ولا بد، فانني اقول لك انا القاتل لضيفك.. واعاد هذه العبارة ثلاث مرات ثم قال: تفضل مر جلادك يقتلني .. فتكون انت بررت بوعدك وفي الوقت نفسه يكون المقتول ظلما منا واحداً عوضاً عن ان تحمل نفسك اثم عشرات الانفس من خيرة رجالك المخلصين الابرياء ..

اندهش الامير من هذه العبارات التي فيها تحد لسلطانه ، ولكنه تحد بمنطق وعقل ، ولم يسع الامير الا ان راح يوجه لابن زيد الكلمات اللاذعة التي تخفف عما في نفسه من الغضب وهي في الوقت ذاته لا تمس كرامة ابن زيد بسوء ، وكانت آخر كلمة قالها الامير لابن زيد ما معناها :

- اخرج من هنا يا وقح .. الخ .

وقد انتهت الازمة بفضل الموقف البطولي الذي اتخذه ابن زيد الذي كما اشرت آنفاً بأن شجاعته الادبية والعقلية في الامتحانات والمفاجآت كهذه لا تقل عن شجاعته بقلبه اذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب ..

اما الموقف الذي اتخذه الامير بعد ما تعذر عليه معرفة القاتل فهو انه دفع دية مضاعفة لاهل القتيل وانتهى الامر عند هذا الحد ..

فليكن عقابي القتل

- ٢٣ -

أصعب شيء يمر في حياة الانسان ، عندما يعيش في مجتمع ، بينه وبين أهله من حيث اليقظه والوعي والنمو الفكري ، كما بين الطفل الذي في الخامسة من عمره والكهل الذي تجاوز سن الاربعين ، وكما ان التفاهم بين من يحمل عقلية العصر الحجري وبين من يحمله عقلية القرن العشرين مفقود ، بل معدوم ..

وهذا ما يقع دائماً وأبداً في كل العصور وفي كل المجتمعات . ولا أعتقد ان ثمة امة من الامم الا مرت بهذه التجربة ، في حياتها البدائية .. وما لقيه أي مواطن من الاستهجان وتسفيه الرأي عندما يطالب في تعليم المرأة وتحرير الانسان من استعباد أخيه الانسان في مجتمع لا زال في دوره البدائي ، لقيه صاحب هذه الترجمة ، عندما رفض ان يساير مجتمعه الذي كان يعيش آنذاك على الغزو والنهب والسلب ..

وبينما كان رجال مجتمعه يرون ان معارضته لهم في سلوكهم هذا واعلانه عدم مسايرتهم بكل صراحة وعنف ، ضرباً من الجنون ، بينما يرى الفتى ان رجال مجتمعه يعيشون حياة حريا بها ان يقال انها الى حياة الوحوش التي يفترس قويها ضعيفها اقرب منها الى حياة الانسان ..

وهكذا كان الامر واقعياً بالنسبة لبطل قصتنا هذه المرحوم سعد القنب[1]

---

(١) سعد من ساكني حائل

وعلينا اولا ان نشير الى ترجمة حياة الفتى ، ونذكر الاسباب والمؤثرات التي ايقظت وعيه وجعلته شاذاً بين مجتمعه .

ولد سعد القنب في مدينة حائل في عام ١٣٠٨ هـ ودرس القرآن ، ثم سافر الى تركيا عام ١٣٢٤ هـ بصحبة أحد اصهار ابن رشيد وهو سبهان العلي الذي تبنى تربية القنب منذ ان كان طفلا يتيما فكأنه ابنه المدلل، وقد ظل في استانبول حتى عام ١٣٢٩ وتعلم اللغة التركية كواحد من ابنائها ، وصادف بقاؤه في استانبول الظرف الذي التهب فيه وعي الشباب التركي ضد حكم السلطان عبد الحميد وشاهد بعيني رأسه ثورة الجماهير عندما طوحوا بعرش السلطان عبد الحميد وامتزج مع كثير من الشباب التركي الناضج الوعي ، حتى تبلورت افكاره ونضج وعيه بصورة لا تختلف عن وعي اي شاب ثائر من الشباب التركي الذين يطالبون بمجلس أمة و والخ ..

وهكذا جاء الفتى من استانبول الى حائل حاملا هذه الافكار ومؤمنا بها ايماناً لايتزحزح ، في الحين الذي لايوجد في بلاده من يعرف معنى تلك الافكار وحتى لو قدر المستحيل ووجد من يحمل او يفهم المبادىء التي يفهمها الفتى ويؤمن بها فانه لم يوجد ولن يوجد ذلك الرجل الذي لديه من الشجاعة بل والتطرف ما لدى صاحب الترجمة ..

من هنا يكون التناقض .

وفي الظرف الذي كان فيه الفتى متحمساً لمبادئه وبالغاً ايمانه بها درجة من التهور والاسراف جعلته لا ان يكون ايمانه محدوداً على نفسه فحسب ، بل يحاول ان ينشر افكاره ومبادئه بين مواطنيه ، حتى ولو أدى الأمر الى ان يدفع حياته ثمناً لما يؤمن به .

في هذا الظرف بالذات جاءه رسول امير البلاد يبلغه امر حاكمه بأن يتأهب

للغزو ليشارك أهل بلاده بالمهمة ، ومن هنا يبدو التناقض سافراً بين فتى يحمل فكرة جيـــل العصر الحديث ويحاول ان تتحد امته العربية ، وتسود الحرية والمساواة كافة امة العرب ويعيش ناطقـــوا الضاد من المحيط الى الخليج في أمن ورضا واخوة ووئام .. وبين تفكير رسول الامير الذي لا يمكن ان يفقه هـذه المعاني ، ولا يؤمن الا بما يؤمن به رجال مجتمعه وهو السمع والطاعة العمياء لتنفيذ ارادة الامير التي ترمي الى استعداد اهل البلاد عن بكرة ابيهم ، ما عدا الشيوخ والاطفال .. واما البقية فكلهم يجب ان يذهبوا ليغزوا احدى القبائل وينهبوا ما امكنهم نهبه من ابل وغنم هذه القبيلة التي لاتذعن لسلطان الامير ، اوليحاربوا ذلك الزعيم او الامير الذي ينافس اميرهم السيادة ، وفي الوقت ذاته تقوم تلك القبائل او ذاك الزعيم بغزوة مماثلة على قبيلة ورجال وبلاد الامير الغازي وهكذا دواليك ..

وكيف يكون التفاهم بين عقلية وتفكير الفتى الثائر وبـــين تفكير عقلية رسول الامير الذي اشبه ما يكون بمرآة لمجتمعه من أهل البلاد واميرهم وقبيلتهم بل ولسان حال رجال ساكني نجد جميعاً آنذاك ..

وها هـــو الرسول يطرق باب منزل سعد القنب الكائن في الحي الغربي من مدينة حائل وعندما خرج الفتى وجد جندي الامارة يحمل ورقـة بيضاء تضم اسماء الطليعة الراقية من الغزاة وكان الفتى في رأس قائمة الطبقة الاولى الممتازة ، وذلك لان الغزاة مرتبون على حسب منازلهم الى درجات .. فالدرجة الاولى الممتازة يسمى صاحبها بالعرف المتبع (ملط) [1] وهذه لاتحصل الا للفارس او للرجل المحترم ، واما الثانية فيدعي المرء صاحب شداد ورديفه ، والثالثة الرديف ، ولابد

---

(١) الملط معناه انه منفرد براحلته لايشاركه بها احـد .. وصاحب الشداد الذي له رديف هو الذي له شريك في الراحلة ولكنه مقدم على شريكه . الرديف هو الذي يركب خلف صاحب الشداد وهو شريـــك لصاحب الشداد ولكنه لا يركب المكان الامامي الا بأمر من الاول . والراحلة من الامارة .

والحالة هذه للرسول ان يزف للفتى البشرى والتهنئة على ان المسؤولين اعتبروه من رجال الطبقة الاولى واصبح ملطا ومثل هذه المنزلة لا تحصل بسهولة لفتى في هذا السن ، وهذا مما جعل الجندي حامل القائمة يقول للفتى بذهول انساه التحية :

ـ أهنئك وابشرك ..

ـ بماذا تبشرني ؟..

ـ هاهو اسمك ملط في جانب اسم فلان وفلان .. ثم يربت الرسول على كتفي الفتى مهنئاً على حوزته وسام الشرف والتقدير الذي لا يناله الا الطليعة الممتازة من الغزاة ولكن الفتى الكافر بهذه الشكليات ، اجاب الرسول بهدوء قائلاً :

ـ اذهب الى من ارسلك وقل له ان فلانا ليس لديه استعداد للغزوة ، ولن يكون لديه في المستقبل لا القريب ولا البعيد ..

ـ أأنت مجنون ما هذا الحديث الذي لا يصدر الا عن امريء اصيب عقله ؟

ـ قلت لك ارجع الى من أرسلك وانقل له الحديث الذي ابلغتك اياه ولا تزد الحديث معي ..

ـ انا لا انقل كلاماً كحديثك هذا الذي لا يصدر الا من رجل مسه الجنون في عقله ..

ـ أنت رسول وما عليك الا ان تبلغ من أرسلك حديثي كما بلغتني أوامره

ـ انت بين امرين : اما انك مصاب بشلل بعقلك او انك جلبت معك من الشيء الذي يعمل في بلاد الكفار والذي لا يشربه الا الكفار (يعني الخمرة) الذي يقولون عنه بأنه يجعل الانسان يهذي كهذيانك هذا ..

ـ انا لست مجنوناً ولا شارب خمرة وانما المجنون والمتوهاذت وامثالك الذين تساقون كالبهائم مسلوبي الحرية ولا تعرفون معنى لقيمتكم الانسانية .

ـ ما هي الحرية يا أهبل ؟ .. وهل هناك حرية اشرف من امتثال والي أمرنا الامير اطال الله عمره ونصره على اعدائه ، الم يقل الله جل شأنه بكتابه العزيز : اطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم ؟..

ـ اعتقد ان الحديث معك ضرب من العبث ، ولن أجيبك بعد الآن على حديثك بكلمة واحدة قطعياً وما عليك الا ان تبلغ سيدك حديثي وانا المسؤول عن كل كلمة تحدثت بها .. وأزيدك تأكيداً وتكراراً بأنني كافر بأوامر سيدك ولن امتثل لها وهب انه سيعاقبني بالموت ثم ماذا فليكن عقابي القتل في سبيل ما اعتقد انه صواب وحق ؟ ..

قال الفتى هذه الكلمات ثم ذهب مدبراً وفي الوقت ذاته ادبر من عنده رسول لامير ذاهباً الى سيده وعندما وصل الى مولاه قال :

– انني ذهبت الى فلان لاخبره بأن يستعد ويتهيأ للغزو ، ولكنني وجدته يتكلم بحديث كالهذيان ..

كان الامير وقتها صبياً لم يبلغ سن الرشد بعد ، وكان الوصي زاملَ بن سالم السبهان[1] وهو من اخوال الامير ، ولم يكن الامير الا رمزاً فقط ، اما الجهاز المحرك فهو زامل .. فهذا هو قطب الحركة المهيمن على مرافق الامارة ، الامر الذي جعل الرسول يذهب الى زامل رأساً ، ويخبره بالخلل الذي اصاب الفتى ، فسأل الوصي رسوله عن معني الحديث الذي سمعه الفتى فقال :

---

١ زامل قتل غدراً بيد عبد الكريم بن خشمان بايعاز من ابن عم زامل سعود بن صالح السبهان وكان مصرعه في عام ١٣٣٣هـ كما ان سعوداً كان مصيره كمصير سلفه على يد مشل بن فروان في عام ١٣٣٧هـ .

ـ ان الادب يمنعني ان انقل لحضرتكم حديثاً كحديث ذلك الارعن المجنون، لانه لم يكن عندي عليه شهود يسمعون كلامه ..

فقال الوصي :

ـ اذهب اليه وأمره بأن يأتي الينا ٠
فأجابه هذا :

ـ أمرك يا طويل العمر .

ذهب الرسول وأخبر الفتى بطلب الوصي فأجاب قائلاً :

ـ اذهب وسوف آتي الآن ..

وعلى الفور ذهب الفتى الى الوصي وحالما وصل اليه استدعى رسوله وقال :

ـ حدثنا بالكلام الذي قاله لك سعد ، فقال :

ـ اخشى ان ينكره عندما وصل اليك لان الكلام الذي اسمعني اياه لا يستطيع ان يثبته امامك وجهاً لوجه .

ـ وما ان سمع الفتى هذه العبارات حتى قفز واتجه نحو الرسول قائلا :

ـ عليك ان تتحدث بكل ما دار بيني وبينك من حديث ولك علي ان لا انكر كلمة واحدة مما قلته لك ، بل سوف تسمع مني الآن ما هو اكثر مما سمعته مني بمفردك لانني مؤمن بما اقول ..

وعندما سمع الرسول كلام الفتى بدأ ينقل الكلام الذي سمعه من الفتى بحذافيره، وكانت كل كلمة فيها شيء من القسوة والثابيه عن الكلام المألوف الذي

لم يسبق للوصي ان سمع شيئاً من نوعها. وكان الوصي يحدق بالفتى بعينيه باشارة يفهم منها الاستفهام عما يتحدث عنه الرسول ، وكان الفتى يوميء برأسه علامة التأكيد لما يتحدث به الرسول .. وبعد ان انتهي هذا من حديثه ســـاد النادي جو من الصمت مدة قليلة وبعد ذلك دار الجدال بين الفتى والوصي كما يلي :

من الحماقة والجهل ان اسايركم بجهلكم !!؟

قال الوصي :

ـ هل هذا الكلام الذي لا ينطق به الا المجانين حقيقة صادر عنك ؟ ..

ـ اجل وسوف تسمع مني كلاماً اعظم من الذي اسمعك اياه رسولك ..

ـ ما الذي اصاب عقلك بعد سفرك الى استنبول ؟

ـ ما هو الخلل الذي بدا لك مني ؟

ـ وهل هناك جنون اكبر من حديثك هذا الذي تتحدى به اوامر طويل العمر[1] ، فلو كنت عاقلاً لادركت ما يترتب عليك من العقاب بسبب حديثك هذا ..

ـ ان من العقل أن اتحدث بمثل هذا الحديث ، ومن الحماقة والجهل والجبن ان اسايركم في جهلكم المطبق. اما العقاب الذي ينالني منكم والشيء الذي تهددني به من طرف خفي وأعني به القتل فهذا شيء لم اتخذ قراري هذا الا وانا مقدم عليه ، لانني افضل ان اموت حراً محتفظاً بكرامتي كانسان لا يذعن لاستعباد انسان

١ طويل العمر يعني الأمير الصبي ..

من نوعه ، وذلك خير عندي واشرف من ان اعمر بالدنيا قرناً اعيش بـه بين ظهرانيكم وانا مسلوب حرية الرأي وحرية التفكير وحرية التعبير ..

كان الوصي يصغي لكلامه وهو بأقصى ما يمكن ان يكون من التذمر والقلق .. وكان يتصبر ضابطاً اعصابه ينتظر نهـاية كلام الفتى ولكنه بالتالي فرغ صبره وقاطع الفتى قائلاً :

– أكل اهل هذه البلاد والقبائل بأسرها حمقى وجهلة وانت وحدك الفاهم العاقل لانك غبت في تركيا وجئتنا ظاناً انك الوحيد الذي تفهم وان غيرك مجانين لا يفقهون ولا يفهمون ..

– اعتقد ان الخلاف بيننا بدأ من اجل رفضي لمشاركتكم بهذه الغزوة ..

– طبعاً هذا امر طويل العمر الذي لم يتأخر عن تنفيذه من هو اكبر منك قدراً وارفع حسباً ونسباً ..

– يجب اولا وقبل كل شيء ان اعلم الفائدة التي تعود على المواطنين من وراء هذه الغزوة ، كما يجب ان اعلم من هم الاعداء الذين نود ان نصب غارتنا عليهم ونقاتلهم ويقاتلوننا هل هم من الذين بيننا وبينهم خلاف بالعقيدة والوطن والدم واللغة ، ومن ثم جاؤونا معتدين على اموالنا ومحارمنا فان يكن الامر كذلك ، فسوف اقول لك من الان اللهم اني ملب لنداء الجهاد وسوف اكون في طليعة المجاهدين ، بل اعتبرني الفدائي الاول المناضل وسوف اضحي بحياتي في سبيل الدفاع عن شرف الوطن ؟ ..

ثم استطرد قائلا : اما اذا كانت غزوتكم هذه كما اظن واعتقد بأنكم اعددتموها لقتال ونهب اموال قوم نشترك واياهم بالعقيدة الروحية المقـدسة ، وبالشعور القومي النبيل وبالاحاسيس المشتركة .. واهدافنا واهدافهم متناسقة ومنسجمة

ولم يكن بيننا وبينهم كمواطنين أي خـــلاف مذهبي او عقائدي .. اللهم الا الخلاف الذي بينكم وبين الزعماء الذين ينازعونكم السيادة ، فأصبح تنازعكم هذا مدعاة لاستغلال سذاجة مئات الالوف من المواطنين الذين ذهبوا ضحية لصراعكم الذي كان ولم يزل على حساب ابناء الوطن من كلا الجانبين .. اذا كان الامر كذلك كما اعتقد فاللهم انني ارفض اوامركم ..

كان الوصي يحاول ان يضبط اعصابه ولكنه في النهـــاية اعياه الاحتمال وضاق ذرعاً من سماعه حديث الشاب المزعج .. فخشي ان يؤمن المستمعون بمنطقه المعقول ومبادئه الهدامـة لعرش امارته كايمان سخرة فرعون بموسى ، ولذلك صاح بالفتى قائلا :

– اسكت يا قليل الادب ثم اردف هذه العبارة : انك تتكلم كلاماً لست له أهلا .. وعندها صاح بحجّابه قائلا : اخرجوا هذا الوقح من هنا ..

فدفع الفتى حجاب الوصي وهو يقول :

– ما اكثر الذين يتحدثون حديثاً ليسوا له بأهل ..

لو عاقبته انتشرت افكاره !!!

بعدمـــا خرج الفتى ، ساد المجلس الصمت ، ثم تفرق من في نادي الوصي واحداً تلو واحد . حتى انه لم يبق الا القليل جداً من النخبة المقربين ، كان الوصي يحاول ما استطاع ان لا يثير موضوع الفتى ، ولكن احد حراسه بادر الوصي بقوله :

ـ ما كنا نظن ان تترك مثل هذا الشاب الطائش بدون ان ينال منك عقاباً شديداً يكون عبرة لكل من يتجاسر على هيبة الحـكم كتجاسر هذا المغرور ..

وما ان انتهى المتحدث من هذه العبارات حتى رفع الوصي رأسه ومد بصره يميناً وشمالا ثم قال :

ـ اعتقد انه ليس بيننا احد لا نثق به ، فاجابه احد الحاضرين بقوله :

ـ أجل ليس هنا الا الاخوان المخلصون ..

وعندها تنهد الوصي وقال .

ـ لقد فكرت في الامر طويلا وشئت ان اتخذ نحوه عقاباً صارماً .. ولكنني تراجعت عن ذلك لارحمة به ، وانما وجدته يتحدث عن عقيدة وايمان، والايمان بالعقيدة وبالمبادىء لا يقاوم اصحابها بالعقاب.. وانما يناظرون بالحجة والبرهان والمنطق المقنع .. ثم مضى الوصي الى ان قال: وأيم الله انني لو عاقبت هذا الفتى لما يأتي من عقابنا له الا ان يزداد تمرداً .. وحتى لو فرضنا اننا قتلناه فان قتلنا له سوف يحدث بين صفوف قومنا قيل وقال واخذاً ورداً ، وسوف تترامى حروف الاستفهام من أفراد قومنا كل يريد ان يعرف كنه السر الذي قتل من اجله الفتى . وسوف تكون النتيجه الحتمية هي ان تنتشر افكار الفتى الخطيرة التي اقسم لكم بالله ان لو ادرك مفهومها العميق الافذاذ البارزون من شخصيات قومنا ، وذووا الحل والعقد لتمردوا علينا جميعهم تمرداً لا يقل عنفاً عن تمرد هذا الفتى ، ولتعذر علينا قيادة جندي واحد من جنودنا .. ثم استطرد وقال:

ـ وانني ازيدكم تأكيداً بأن افكار هذا الفتى ومبادئه التي يشير اليها لو تسربت الى الجم الغفير من ساكني الجزيرة البارزين وآمنوا بها ايماناً راسخاً صادرا عن ترو وفهم ، لحدث انقلاب فكري تسفر نتائجه عن توطيد عرى الصداقة والاخوة بين بعضهم ببعض .. ومن ثم سوف تتحد صفوف قومنا وصفوف قوم خصومنا اتحاداً سيطوح بزعامة جميع المتنازعين على الزعامة ..

وعندئذ سوف يكون الحكم في النهاية للجمهور ، وآخر الامر نذهب نحن ومنافسونا ضحية لمبادىء هذا الفتى ..

وذهب الوصي بحديثه الى ان قال : وخوفاً من وقوعنا بهذا الاحتمال الحتمي فيما لو عاقبته ، من اجل ذلك تركته وشأنه ، وختم الوصي الداهية حديثه لحاشيته الخاصة بقوله :

انني اؤكد لكم بأن هذا الفتى من المستحيل ان يبقي في مجتمعنا هذا لانه لن يستطيع ان يعيش بين ظهرانينا ، بل سوف يغادر بلادنا الى حيث القت .. وفي ذهابه تموت افكاره هذه الخطرة في مهدها ، ونكون نحن ارحنا انفسنا من انتشار فكرته بكل سهولة ..

وبعد فانه مما يدلنا على بعد نظر الوصي هو ان الفتى ما استطاع ان يعيش في بلاده بل رحل عنها واستوطن المدينة المنورة ، حيث ظل يعمل مفتشاً في سكة الخط الحديدي الحجازي ولم يعد الى بلاده حتى وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، وانتهت اسطورة الغزو والسلب والنهب الى غير رجعة ..

الكلمة التي غيرت مجرى حياة الفتى

- ٢٤ -

كانت الكويت في مطلع القرن الحالي الهجرى كخلية النحل يعج باللاجئين السياسيين ، وكما ان لبنان اليوم مأوى لكل عربي ساخط على حكام بلاده ، او او مطارد من قبل حكومته ، فكذلك كانت الكويت مأوى للساخطين على حاكم نجد وقتها ومركزاً للطامحين الى سيادة الجزيرة وكان من بين الفئة الاخيرة فتى في شرخ شبابه ، لم يتجاوز العقد الثاني من عمره بعد ، يمتاز عن فتيان مجتمعه بصفات كثيرة منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ..

فاما الصفات المادية التي يمتاز بها هي انه رحب الذراعين قمحي البشرة عاري الاشاجع فارع الطول لا يضارعه اي فتي في قامته المديدة المهيبة ..

واما صفاته المعنوية فانه كان محطا لآمال الفتيان المغامرين ، لا لكونه من سلالة اسرة كانت صاحبة السيادة في شبه الجزيرة حقبة من الزمن ، بحكم ان ذلك العهد يؤمن أهله بالمجد الموروث اكثر من ايمانهم بالمجد الموهوب المكتسب لا ليست الامال معقودة على الفتى من هذه الناحية فحسب ، بل لان صفات الزعامة مطبوعة في شخصيته ومؤهلات القيادة متوفرة بذاته ، واخلاق السيادة بارزة على محياه ..

ويقدر ما كانت الصفات الاولى من شأنها ان تغري الفتيات الحسان وتجعلهن يحاولن ما استطعن فتنته وجلبه اليهن ليصطدنه بسلاحهن الماضي الذي يأسر

القلوب ، ويستهوي الافئدة ، بقدر ما كانت الصفات الثانية حافزات للفتيان المغامرين المتمردين ، عـلى ، ان يستثمروا تلك الصفات لانفسهم ، وان يبذلوا ما استطاعوا من الجهد الذي يمكنهم من حراسة الفتى من غزو الجنس اللطيف لفؤاده .وهيمنتهن على مهجته

الفتى على مفترق الطرق :

كانت ناعسات الطرف يحاولن اغراء الفتى بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكان الفتيان واقفين لهن بالمرصاد ، وكانت الفاتنات يعرفن انهن اذا لم يصدن الفتى الآن ، فانه من غير اليسير عليهن ان يظفرن بـه عندما يشغله رفاقه المتمردون بالمغامرات والثورات التي لا يؤمن بها ، ولذلك كن يترقبن غفلة الفتيان بفارغ الصبر ليرمين الفتى بسهامهن التي لا تخطيء الهدف ..

كان الفتيان لهن بالمرصاد ، وعلى جانب كبـير من اليقظة والانتباه لكل ما يبدينه من حركات وسكنات نحو فتاهم معقد الآمال ، وكانوا يعلمون ان اي كسب يناله الفاتنات فانه سيكون على حساب امانيهم التي يحلمـون بتحقيقها ، على يد فتاهم الذي يتوسمون به جميع صفات الزعامة والقيادة ..

وهكذا ظل المتنافسان يصطرعان وظل الفتى على مفترق الطرق وهو الى جانب الفتية أميل منه الى جانب الساحرات ، وان كان مهـدداً من الاسهم المسلطة عليه في كل لحظة وحين ..

وفي غفلة من الفتيان نصبت احدى الفتيات الماهرات بالصيد شبكتها لتصطاد الفتى ، وعندما دنا الفتى من الشبكة واغراه الطعم ، واوشك ان يلقي نفسه في

قلب الفخ المنصوب ، عند ذلك اخـذ حذره وتراجع ، وراح يفكر بالاستعانة بواحد من رفاقه ذوي الخبرة ، بهذا الشأن ، ولكن رفيقه هذا وان يكن لا يتورع عن سلوك ذلك السبيل اذا سنحت له الفرصة ، ولكنه لا يرضى هذا المسلك لذلك الفتى الذي يبني عليه هو ورفاقه آمالاً بعيدة المدى ..

ولذلك نجد ان ذلك الرفيق كان جريئاً ومخلصاً عندما قال للفتى ما معناه :

– لقد كنت عظيم الامل في مستقبلك الزاهر ، فسيح التفاؤل بمـا اتوقعه فيك من مواهب القيادة الكامنة في شخصك ، قوي الاعجاب بنجابتك وفتوتك .. كان ذلك قبل ان يبدو لي منك ما بدا في هذه الليلة السوداء ، وكنت اعتقد ان طموحك الى لذة المجد ، يحول دون هذا المسلك ..

كان الفتى يصغي الى ناصحـه المخلص الوفي بكل حواسه ، وما ان انتهى الناصح حتى تراجع الفتى من ساعتها ولم يفكر ان يسلك سبيلا كهذا حتى توفاه الله بعدما بلغ العقد الثامن من العمر وعـاد يحدث نفسه بالمعنى الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي :

ولا تحسبّن المجـد زقا وقينة

فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتركك في الدنيا دوياً كأنمـا

تداول سمع المرء أنمـله العشر

اعتقد ان القارىء ليس بحاجة لان اذكر له اسم الفتى .. فالادلة والقرائن سالفة الذكر كلها تغني اللبيب عن ذكر اسمه وتجعله يعرفه بالاشارة ، ولا سيما والحادثة معروفـة وتناقلها الرواة عن مصدرها بالذات .. ولكنني لا بد من

الاشارة الى توضيح اسم ذلك الفتى الذي قـدر له ان يلعب أعظم دور بارز في تاريخ جزيرة العرب ، وان يوحد اجزاءهـا المترامية ، واعني به المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود .

اما صاحب الكلمة التي كان لها ولا شك أكبر الاثر على مجرى حياة الفتى ، فان الرواية عندي مختلفة ، فقد رويتها عن أحد انجاله وهو الامير سلطان ، يقول انه سمعها من والده وان صاحب الكلمة هو محمـــد بن سبعان من ساكني الرياض ، كما رويتها من الامير محمد بن عبد العزيز الابن الثالث للملك عبد العزيز يقول انه سمعها ايضاً من والده وان صاحب الكلمة عبد العزيز المشوق الملقب بـ (ابو عبيد) ..

والذي اتوقعه ان كلتا الروايتين صحيحتان ، وذلك انه قـــد يكون كل من سبعان والمشوق اتفقا بالرأي والمعنى والقول .

* * *

فارس البيان يهزم فارس السنان

- ٢٥ -

من هذه القصة الآتي شرحها يتضح للقارىء ان الشجاعة الادبية لا تقل وزنا عن الشاعة الحربية ، اذ لم نقـــل انها في بعض المناسبات كهذه المناسبة بالذات وأمثالها يكون لها اي الشجاعة الادبية الاثر الفعال الذي لا تقوم مقامه الشجاعة الحربية ..

كان ذلك في عام ١٣١٠ هـ عندما تجادل بندر التمياط وداغر السوادي [١] وقبل الدخول في شرح الجدال الذي دار بين التمياط والسوادي والذي انتصر فيه الثاني على الأول اود ان اذكر طرفاً عن شجاعة التمياط في الحروب ، وعن ما يتمتع به من باع طويل في هذا المضمار ، فاذكر مثلا على سبيل الحصر مايقال ان فارسا من فرسان احدى القبائل طلب مبارزة التمياط وكان وقتهـــا في عنفوان فتوته والمبارزة في حالة كهذه لاتكون الا بالسيف والرمح وعلى انفراد وعندما تنازل الفارسان انقض بندر على قرنه وصفقه على هامته بـ (القرطه) صفقة هشم هامته وتدحرج بها عن ظهر جواده وجيء به الى اهله بحالة [٢] يرثى لها فهناك من اهله من يقول (انه ميئوس منه على اســـاس ان الضربة كسرت عظم الرأس ووصلت إلى المخ .. وهناك من يقول ان مخه سالم لم تصل

---

١ داغر من قبيلة شمر نجد من فخذ آل جعفر منعبده..

٢ القرطة هى عبارة عنعصي كبيرة يكونعلى رأسها حديدة ثقيلة.

اليه الضربة وكانت العرب في حالة كهذه تقوم بعملية امتحان للجريح وتعريف ذلك انه يؤتي بقبضة من حب القمح ويطلب من الجريح ان يكظم عليها باضراسه فان هو استطاع ان يطحن الحبات فمعناه ان مخه سليم وانلم يستطع فهذا يعني ان مخه مصاب وليس فيه بعد ذلك أمل ، فجاؤوا بالحب فقال واحد من اهله :

– أتريدون ان تمتحنوا سلامة مخه ؟.. قالوا :

– نعم .. فقال :

– انا اؤكد لكم ان مخه مصاب بشلل طبيعي منذ الاساس .. قالوا :

– وما دليلك فقال ؟ ..

– دليلي انه لو كان في راسه مخ لكان بامكانه ان يطلب مبارزة اي فارس من فرسان عشيرة بندر اما انه يذهب بمحض ارادته ويطلب مبارزة بندر بالذات . . فهذا دليل على ان راسه [1] فارغ من المخ ..

هذا واحد من الادلة الواقعية التي تعبر تعبيراً واضح المعالم على فروسيةبندر وشجاعته ، واما الدليل الثاني فهو انه عندما وقعت المعركة الطاحنة بين عبدالعزيز المتعب الرشيد وبين مبارك الصباح في تاريخ ١٣١٨ هـ ١٩٠١ مالمسماة بوقعة الطرفية ، وكان مع ابن متعب جميع فرسان قبيلته ومن ضمنهم بندر التمياط ، وعندما التقى الجمعان وواجه الفرسان الفرسان ، عند ذلك اصيب بندر التمياط بجرح كما قتلت فرسه ، فكر عليه فرسان من عشيرته الاقربينمن أجل أن يحملوهعلىاحدىافراسهملئلا يجهز عليهالعدو ويقضي عليه وعند ذلك صاح بهم قائلا :

---

(١) اصبحت هذه الكلمة مثلا يقال عند كل مناسبة نضارع هذه المناسبة .

- تبا لكم اتقدمون لي فرسا من جيادكم والله لن ابارح مكاني حتى تأتوني بفرس من جياد العدو ، وما كان من ابنا عمه الا ان هجموا جميعا وجاؤا له باكثر من فرس من خيل العدو .

فهذا الرجل الذي بلغت شجاعته بالحروب الى هذه الدرجة ، يأتيه شخص كداغر السوادي فيهزمه هزيمة ادبية شنعاء، مع العلم بأن القضية لو كانت مبارزة بالسيف وعلى صهوات الجياد لما استطاع داغر ولا عشرات امثاله ان يقفوا بوجه التمياط . .

أسباب الجدل وبواعثه !!

عندما كان بندر التمياط هاربا من محمد العبدالله أمير حائل ومستجيرا بجوار جدعان ابن مهيد رئيس قبيلة الفدعان [1] ، في تلك الايام أشيع خبر يفيد ان الامير محمد بن رشيد توفي ، ومما لاشك به ان هذا الخبر من شأنه ان يهلل ويكبر له كل من ابن مهيد العدو التقليدي لمحمد الرشيد كما يسر له ايضاً التمياط الذي هاجر عن اهله وبلاده بسبب غضبه على محمد . .

وبحكم انقطاع المواصلات آنذاك بين ابن مهيد الذي يقطن الاراضي الشمالية الغربية لدمشق ، وبين محمد الذي في نجد ، لم يأت احد من الجانب الثاني يفيد ابن مهيد عن صحة الخبر ، وكانت مناسبة سعيدة عندما وفد الى ابن مهيد شخص قادم من نجد ومن قبيلة شمر بالذات التي يرأسها محمد العبدالله ، ومن المسلم به ، ان يكون لدى هذا القادم الخبر اليقين عن صحة وفاة أميره . .

وهذا القادم هو داغر السوادي سالف الذكر ، جاء ليسأل عن (رجل

(١) راجع ص (٨٩) من شيم العرب للمؤلف في هذا الجزء

فرس [1] باعها لشخص من قبيلة ابن مهيد منذ مدة كذا سنة ، وبعدما أحسن ابن مهيد قرى ضيفه كعادته لضيوفه ، عند ذلك راح يسأله قائلا :

ـ ما هي أسباب مرض الامير محمد التي اودت بحياته ؟ ..

ـ فأجابه السو دي على الفور قائلا :

ـ من أين جاء اليكم هذا الخبر الذي لايستند على شيء من الصحة ..

وقبل ان يرد ابن مهيد على حديث ضيفه قال بندر التمياط موجها حديثه الى ابن مهيد :

ـ ان هذا الذي تسأله عن محمد رجل اعرفه كذوب ولا يعول على حديثه ، فانحرف الضيف بوجهه الى ابن مهيد بكل هدوء ورزانةوقال مشيرا بالعصىالتي يحملها الى بندر التمياط ومتجاهلا معرفته اياه :

ـ من هو هذا ياجدعان ؟..

فقال جدعان كيف اما تعرفه ؟ .. فقال :

ـ كاني اذكر انني رأيته ولكنني ناس اين كانت رؤيتي له ثم كرر العبارة والاشارة بالعصى كزيادة استفهام بل استهجان فقال ابن مهيد :

ـ هذا ابن عمك بندر التمياط ..

فقال بهدوء وثبات :

---

١ ـ معنى رجل الفرس هو ان العادات المتبعة عند القبائل ان الفرس الاصيل الطيبة اذا باعها صاحبها يستثنى في بيعه هذا فيقول : بعتك اياها الا نصفها او الا رجلها فالنصف تعنيان الفرس بعدما تنجب مهرتها الاولى يكون الخيار للبائع او للمشتري حسب الاتفاق ان يأخذاما المهرة او امها .. اما اذا كان البيع على الرجل فيكون للبائع الحق ان يملك المهرة الثالثة او الرابعة التي تنجبها الفرس

ـ يخسأ ـ ليس ابن عمي لقد برئت منه قبيلته شمر باسرها بعد قيامه بالعملية النكراء .. ثم اردف قائلا : كيف بك يا جدعان تقبل ان يدخل بيتك مثل هذا السافل الدنيء الذي قام بعمل أطهر لساني ، وأكرم مجلسك عن ذكره ..

المعتدي دائماً مغلوب !!!

لم يسع التمياط ان يصبر بعد هذا الكلام ولم يكن بامكانه ان يضبط اعصابه، بل قفز بلا شعور منة وانتضى سيفه قاصداً ان ينتقم من الضيف ، وفي سرعة كوميض البرق قفز ابن مهيد وجميع اقاربه والقوا القبض على التمياط وجردوه من سلاحه ثم قال ابن مهيد له :

ـ على رسلك ان هذا الذي تريد ان تعتدي عليه هو ضيفي ويتمتع عندي بالحصانة والحرمة كضيف بنفس الحصانة التي تتمتع بها كمستجير بحماي ..

ولم يكن لدى التمياط بعـد ذلك من الحيلة الا ان خرج من نادي ابن مهيد ذليلا يجر اذيال الهزيمة والعار الذي توجه به هذا الرجل العادي ..
اما الضيف فقد كان قبل هذة المعركة بعين ابن مهيد لا يعدو الا ان يكون رجلا عادياً ، ولكنه بعد هذا الموقف البطولي ، لم يسع ابن مهيد الا ان افسح له المجلس ، وادناه بجانبه ، كما انه اصبح محطا لانظار كل من هو في ذلك الناذي وموضعاً لاعجابهم ، بعد ما كان مجهولاً القدر بسبب مظهره الساذج قبل ان يعبر عن لسان حاله بالمعنى الذي اشار الية الشاعر احمد الصافي النجفي :

من كان يجهلني بالزّي منخدعا　　　فسوف يعرفني ان ضمنا النادي

وبعد ذلك استدنى ابن مهيد الضيف وأجلسه عن يمينه وهمس بأذنه بصوت منخفض قائلا :

ـ أخبرني عن الآمر الذي ارتكبه التمياط وبرئت فبيلتكم منه بسببه ..
فقال الضيف :

ـ لا يمكن ان اخبرك به سراً لان الحديث الذي قلته في مجلسك بحق التمياط كان على مسمع الجم الغفير من رجال قبيلتك ..

ـ انا لا استحسن منك ان تنال من عرض التمياط في محضر من الناس اكثر مما نلت منه فقد كفاه ما وصمته به .. ولا ارى الا انك قتلت الرجل قتلا ادبياً ومعنوياً اشد عليه من القتل المادي .. ولذلك اطلب منك ان ترحم الرجل ، لأنني اخشى ان اعدت الكلام في حفل كالسابق ان ينتحر ..

ـ اعاهدك الله ان لا اتكلم بحق التمياط الا بالشيء الذي يشهد بصحته جميع قبيلته كما ان التمياط نفسه لا يستطيع ان ينكر ما سوف اقوله ، واذا لم يعترف بما أقول ، ويكون هو الشاهد بنفسه على نفسه ، فانني اكون وقتها كذابا كما زعم باتهامه اياي امامك ؟ ..

– ياللعجب ما هذا الأمر الذي برئت منه قبيلته وفي الوقت ذاته تزعم انه سوف يعترف به على نفسه ؟.

– لا تسألني عن كنه الامر الآن ولكن الذي استطيع ان اؤكد لك به ان التمياط سوف يشهد على نفسه بكل كلمة اقولها بحقه ..

ـ اذن سوف يكون الحديث غداً ..

وعندما جاء الغد وتوافد رجال القبيلة على نادي ابن مهيد كالمعتاد واحدا بعد واحد حتى غص النادي ولم يغب احد من وجوه القوم الذين كانوا حاضرين بالأمس ما عدا التمياط الذي لزم الفراش من اثر نوبة المرض التي المت به بعد

تلك الكلمات التي هي اشد على نفسه من وقع السيف ..

بعد ذلك تصدر السوادي المجلس وافتتح الحديث بقوله :

– اعتقد انكم سمعتم ايها الاخوان ما وصمني به شيخنا وفارسنا ابو فلان «يقصد بندر التمياط» بعار الكذب الذي هو اقبح سجية يوصم بها الرجل الشريف.. ثم استرسل بحديثه الى ان قال :

ولما كان التمياط من كبار زؤوساء قبيلتي ومن الافذاذ المشهورين بالوفاء والصدق والشجاعة ولكنه بالرغم من هذه السجايا الكريمه التي طبعت بها نفسه لم يتورع عندما غضب بأن يفتري علي بخلق يعلم هو علم اليقين بأنني بريء منه كبراءة الذئب من دم يوسف .. فقد وجدت نفسي ملزماً بأن اكافح عن عرضي بأية وسيلة كانت ، وان اهاجمه بالسلاح نفسه الذي هاجمني به ، فصمت فارس البيان بعد هذه العبارة قليلا ثم انحرف بوجهه نحو الشيخ ابن مهيد وقال :

وكأنني بك ايها الشيخ الكريم تنتظر مني ان اشرح لك كنه الاشارة التي اتهمت بها التمياط بالامس ، ومن اجل ذلك سوف اوضح لك الحقيقة في هذه الاشارة فأقول وايم الله انني لاعرف عن التمياط ادنى شيء يمس شرفه او يحط من كرامته ، ولئن كنت اعرف عنه شيئا فانني اعرف انه الشجاع الشهم الابي الذي لايبيت على الضيم ، والذي اشهد له به هو انه بهجرته عنا والتجائه عندكم خسرنا قطبا من ابرز وانبل اقطاب قبيلتنا الذي لايعوض واخيرا ختم الضيف حديثه قائلا : كنت اتمنى ان التمياط وصمني بعار الكذب وانا بين رجال قبيلتي الذين يعرفونني جيدا فلو ، كان الامر كذلك لما اشكل عليّ الامر اعتقاداً مني بأن رجال قبيلتي كما اسلفت يعرفون حقيقة امري ، ولكنه سامحه الله اتهمني بهذا العار الوقح امام اناس لايعرفون عني شيئا ، بينما هو معروف لديهم بالصدق كما هو معروف لدينا بذلك ...

تسامح بعد الانتصار

بعدما انتهى السوادي من حديثه تضاعف اعجاب ابن مهيد به وفي الوقت ذاته راح ابن مهيد بنفسه يتشافى لمستجيره التمياط من اثر سنان الرمح الذي طعنه به فارس البيان ويبشره بالكلام الذي سمعه منه ، فكانت هذه البشرى من ابن مهيد بلسما لجروح التمياط الذي راح يقبل رأس السوادي ويعترف له بخطيئته . . [1]

---

(١) رويت هذه القصة من سليمان بن رشدان منذ عشرين سنة تقريبا ومن قبيل الصدف اطلعت على قضية عربية مشابهة لها وذلك في جمهرة خطب العرب ج ١ص١٠٦ ومضمونها يشير انه وقع بين عمرو ابن الاهتم ، والزبرقان بن بدر جدل بمحضر من الرسول (ص) وذلك عندما سأل الرسول عمراً عن الزبرقان فقال عمرو : مطاع في ادنيه شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان والله يارسول الله انه يعلم عني أكثر مما قال : ولكنه حسدني شرفي..

فرد عليه عمرو ثانية وقال : اما لئن قال ما قال ، فوالله ماعلمته الا ضيق الصدر احمق الوالد لئيم الخال ،حديث الغني .. فلما رأى انه خالف قول الاول قوله الآخر ورأى الأنكار في عيني النبي قال : يارسول الله رضيت فقلت احسن ما علمت وغضبت فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الأولى ... ولقد صدقت في الآخرة،..فقال الرسول: ان من البيان لسحرا ..

وهذه الحادثة فيها تقارب من حيث الشبه وقد يكون هناك بعض الإختلاف غن حادثة عمرو والزبرقان من حيث الشكل .

قوة العقيدة غلبت قوة السلطة

- ٢٦ -

لا شيء في الدنيا أقوى من قوة العقيدة ، وعندما يعتقد المرء انه على حق، فلا شيء في الدنيا يقهره ، فالموت الذي هو اقصى مراحل العقوبة يعتبره المؤمن ذو العقيدة الصادقة أنه شهادة نال بها رضى مولاه ورحلة ينتقل بها من دار الشقاء والفناء الى فردوس النعيم والخلود الابدي ، والسجن يعتبر كفارة او رياضة

وليس من شك في ان المؤمن الشجاع هو اسعد بني الانسان لانه لا يمكن ان يقهر او يغلب مهما كان خصمه قويا ومهما كان ضعيفا لا قوة له ولا ناصر ..

ومن يعتقد ان انتصاره بموته .. فكيف يغلب من يحمل هذه العقيدة ويؤمن بها ..

والعلماء الروحانيون المؤمنون المخلصون كانوا هم اصحاب السلطة الحقيقية، ومن خلال قصتنا هذه الواقعة حوالي عام ١٢٩٠ هـ يتضح صحة ما نشير اليه ..

.. كان الامير محمد العبدالله الرشيد واضعا وقتا معينا في ناديه يقرأ فيه فصولا من التاريخ والاحاديث النبوية وطرفا من كتب الحكمة والادب ، وكان الذي يتولى القراءة طالباً من التلاميذ الذين يدرسون العلوم الدينية على يد قاضي البلاد الذي يعتبر بمثابة المفتي الاكبر من حيث القضاء ، كما يشبه ما يعبر عنه برئيس الجامعة الاسلامية بصورة مصغرة وبحجم متواضع عما يسمي به اليوم ، وكان الذي يتولى الاشراف على هذين المنصبين الشيخ

محمد الغنيمي [1] ، وهـو الذي ينتخب الطالب الذي يقوم بمهمة القراءة في نادي الامير .. وقد وقع اختيار الشيخ على فتى من طلابه النابهين يدعى يعقوب[2] وفي احدى الايام كان الطالب يقرأ تاريخ ابن كثير ، ترجمة حياة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) بصوته الجهوري ، وكان المستمعون ينصتون للقاريء بكل حواسهم لما في حياة عمر من عبرة وقدوة صالحة للحكام العادلين في كل زمان ومكان .. وعندما انتهى القاريء وساد الصمت وأديرت كؤوس القهوة كالمعتاد، بعد ذلك تولى الحديث نائب الامير المدعو حمود العبيد ، حيث كان الامير وقتها غائباً عن البلاد ، وراح يشيد باعجابه الشديد بشخصية عمر ، ومضى بحديثه هذا المتضمن ثناءة واطراءه للخليفة الثاني الى ان قال ما معناه :

ان اخلاق والدي [2] وقوة شخصيته الفذة تشبه الى حد كبير شخصية عمر بن الخطاب ..

وما ان انتهى الامير من حديثه عن والده حتى انبري له الفتى يعقوب قائلا ما معناه :

ـ ان البعد بين اخلاق والدك[3] وبين اخلاق عمر بن الخطاب كبعد المشرق عن المغرب ، ثم استرسل قائلا : شتان بين شخصية والدك الذي استعمل شجاعته بدافع من انانيته ولحساب نفسه واسرته ، ومن اجل النعرة القبلية الجاهلية ، وبين شخصية عمر بن الخطاب الذى اوقف حياته ونذر نفسه لرفع شان الامة

١ الشيخ الغنيمي اصله من اهالي قرية تسمى نعام وهو من سكان حائل.

٢ يعقوب من بلدة حائل وعبد الله العمر امام الجامع الكبير حالياً في حائل يكون حفيدا ليعقوب المذكور .

٣ حمود ابن عم الامير محمد وهو شاعر شعبي .. وهو الذي يتولى امـارة البلاد في حالة غياب الامير .

٤ والده : هو عبيد العلي الرشيد رجل شاعر وفارس مغوار .. وكثـيراً ما يكون شعره الحماسي مطابقاً لبطولتة .

الاسلامية الشاملة بمفهومها الانســاني لكل من آمن بالله وبرسالته أنبياءه واليوم الاخراني كان جنسه ومهما كان لونه .. دون اية تفرقة ، بالحسب او بالنسب) ..

لم يتحمل الامير طبعاً ان يفند رأيه بأي حديث يقوله فكيف اذا كان هذا الحديث خاصاً بوالده ؟ .. ومن بدهيات الامور ان يصب جام غضبه على هذا الوقح لكي لا يتجاسر المواطنون على تنفيذ رأي الامير سواء كان فيــه شيء من الصواب او كله خطأ بخطأ ..

ولذلك صاح الامير بيعقوب قائلا ما معناه :

ـ أمثلك يزدري والدي هذا الازدراء ..؟

ثم استرسل بحديثه قائلا : ـ اليس لديك من الادب ما يجعلك تتحدث عن شخصية عمر بكل ما هو له أهل .. ونحن نشاركك الاعجاب ، فلك ان تفعل ذلك لو كنت مؤدبا دون ان تسيء الى حرمة والدي وتنال منه، فقال يعقوب :

ـ انت الذي جلبت الاساءةالى والدك عندما قارنت بينه وبين أمير المؤمنين الفاروق ، ولو قارنته بنفسك او بأي من شئت من اسرتك لما اجبتك .. اما وقد قارنته بشخصية افضل العرب والمسلمين بعد محمد ص وأبي بكر (ض) بعد ذلك أصبح الجواب مني فرضاً واجبا كما يكون سكوتي جريمة يحاسبني عنه الله ويؤنبني ضميري عليه ، لان الساكت عن الحق كالناطق بالباطل ..

ومن هنا هاج الامير واشتد غضبه ولميبق لديه منالجواب المقنع الذييدحض به حجة الفتى ، الا انه قال بعدما امطر عليه وابلا من الشتائم والقذف:

ـ اخرج من هنا ..

فخرج الفتى مرفوع الرأس بعد ان قال كلمة الوداع للامير :

ـ انه لشرف حباني الله به بأن يكون طردي من ناديك بسبب انتصاري لامير المؤمنين ..

لم يكن الشيخ الغنيمي موجوداً عندما وقع الشقاق بين الامير وتلميذه يعقوب، الا انه حضر بعد ذلك بمدة وجيزة ، وما ان جلس الشيخ واحتسي كوباً من القهوة حتى قام الامير يشرح له القضية كما وقعت باسلوب فيه تلطف وتودد للشيخ من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيه شكوى للشيخ على تلميذه الذي لا يحسن الادب ولم يحترم مقام الامارة ..

ـ بعد ما انتهى الامير من حديثه قال الشيخ بهدوء ورزانة :

ـ ماذا كان موقف زملاء يعقوب من القضية ؟ ..

فسرّ الامير لسؤال الشيخ ظاناً انه سوف يضع اللائمة على تلميذه فقال :

ـ ان تلامذتك على جانب كبير من العقل والتروي والادب وذلك بفضل توجيهاتك القيمة وتعاليمك الرشيدة التي كان لها الاثر المحسوس على سلوكهم ، حيث كانوا كلهم مؤدبين ولم يبدر منهم اي شيء من قلة الادب التى بدرت من ذلك الاحمق المعتوه الذي اضطرني ان اطرده من مجلسي بسبب تصرفاته الرعناء.

وما ان انتهى الامير من كلامه حتى قفز الشيخ من المجلس وقال :

ـ ان المكان الذي يبعد عنه يعقوب من اجل انه انتصر للحق يتحتم علي بأن لا ابقى فيه لحظة واحدة ، وان اقاطعه واقاطع التلاميذ الذين لم يغضبوا للحق الذي غضب من اجله يعقوب ..

كانت لهذه الكلمات الختامية التي تحدث بها الشيخ مع الامير صداها الايجابي في البلاد ، وخاصة عند تلاميذ الشيخ الذين ضاقت بهم الارض بما رحبت ، وخير

وسيلة التمسها الطلبة لرضاء شيخهم هي ان ذهبوا الى زميلهم يعقوب ، يرجونه بأن يشفع لهم عند شيخهم ، ولم يبخل يعقوب بجاهه ، بل ذهب الى شيخه وطلب منه ان يعفو عن زملائه ، فسمح الشيخ بعد ان اقسموا على انفسهم ان لا تطأ اقدامهم منزل الامير ما لم يسحب الامير كلامه السابق لزميلهم ويرضيه من جديد ..

بلغ الامير التضامن الذي اتفق عليه الشيخ وتلامذته من الاضراب عن زيارته تضامناً مع الطالب يعقوب ..

ولما كان الشيخ كما اسلفت آنفاً صاحب المنزلة الروحية التي لها اعظم تأثير فعال على المواطنين، فانه من مسلمات الامور ان يشعر الامير بقلق نفسي ووخز في ضميره ، الامر الذي جعله يتنازل عن كبريائه ويذهب وحاشيته الى منزل يعقوب ذلك الشاب الصعلوك الذي لا يملك من حطام الدنيا قطميراً ، ولكنه يملك اثمن الاشياء وأنفسها وأعزها الا وهو الايمان بالله ، والاعتماد عليه والثقة بالنفس ، والاخلاص المحض ..

كانت مفاجأة بالنسبة ليعقوب عندما ُطرق بابه وخرج لينظر من هو الطارق واذا هو بالامير يعانقه ويعتذر منه ويطلب منه ان يذهبا سوياً الى الشيخ ، فيوافق يعقوب على ذلك ويذهبان الى منزل العالم الرباني الجدير بالاعجاب والتقدير وخلود الذكر ، الذي لو لم يقف بجانب تلميذه ذلك الموقف الصلب لما اضطر الامير الى تراجعه وتنازله عن عظمته حتى راح بنفسه يزور ذلك الشاب الفقير البائس الذي طرده من مجلسه بالامس ..

وعندما رأى الشيخ يعقوب بجانب الامير ادرك ان الامر بالنسبة ليعقوب انتهى ، وما دام ان تلميذه البار المخلص رضي فان الشيـــخ بطبيعة حاله سوف يرضى[1] ..

---

١ اعود واكرر العبارة الثانية مؤكداً بأنه مع احترامي للطالب الشجاع يعقوب، فان الفضل يعود لشيخه الغنيمي ذلك الرجل الذي لم يكن عالماً فحسب بل كان فارساً مغواراً، وهو احد ابطال المعركة التي وقعت بين بندر بن طلال الرشيد وبين هزاع بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وذلك في تاريخ ١٢٨٦ وتسمى هذه المعركة بذبحة الردفا وقد رويت من سلمان بن رشدان ان الابطال الفرسان الذين حموا مؤخرة جنود بن رشيد هم الشيخ محمد الغنيمي صاحب الترجمة وعبد المحسن الجبر والسندي بن زويمل وعلي بن حجاج .

إن من يفي مع من لا يرجى حري به أن يفي مع من يرجى !!!

- ٢٧ -

أذكر قصة اطلعت عليها في كتب الادب العربي بطلها معن بن زائدة الشيباني وهي من حيث المعنى والمقارنة تشبه الى حد بعيد هذه القصة ..

من المعروف ان معناً من قادة بني امية الاوفياء المخلصين ، وهو من رجال عهدهم الاخير ، حيث ظل وفياً ومحارباً بجانب مروان بن محمد الملقب بمروان الحمار الى آخر لحظة ، ولمعن قصص متعددة بالشجاعة وبالحلم وبالكرم وبالوفاء .. ومن اراد الاطلاع عليها فليراجع كتب الادب كالعقد الفريد وفي كتب التاريخ العربي كتاريخ أبن كثير الخ ..

وربما كان معن هو الرجل الوحيد من رجال بني امية الذي نال منصباً في العهد العباسي ، وخاصة في عهد المنصور .. موطد اركان الدولة العباسية .

كان معن في عنفوان العهد العباسي لا يسمح ان ينال احد من كرامة بني امية في مجلسه ، مما جعل الوشاة يتهمونه عند الخليفة المنصور بأنه لا زال وفياً مخلصاً للاعداء الامويين ، فامر المنصور باحضاره .. وعندما مثل بين يديه قال له المنصور :

ـ أراك لا زلت مسرفاً بوفائك لبني امية .. فلم يتردد معن عن القول :

ـ أجل يا امير المؤمنين ان من يفي مع من لا يرجى حري به ان يفي مع من يرجى ..

فما كان من المنصور الا ان قدره واكرمه واناله ثقته ومنحه منصب وال له على اليمن ..

* * *

وبطل هذه القصة رجل متواضع بسيط من حيث شخصيته ، الا انه عبر لا عن رأي ووفاء فحسب بل وعن جرأة ادبية .

هناك شاعر شعبي يدعى محمد [1] بن هويدي وقد زار هذا الشاعر الامير محمد العبد الله الرشيد في الفترة التي استولى بها على الحكم في نجد بصورة مطلقة . . وفي احد المجالس العامة راح الشاعر يتلو قصيدة كلها هجاء بحق الامام عبد الله الفيصل آل سعود وما ان بدأ الشاعر يتلو اول بيت من قصيدته حتى انطلق عليه أبو سعيد [2] الفيصل يلعنه ويسبه بملء فيه باقذر الشتائم ، فبلغ الخبر الامير محمد ، وكان البعض يظن ان الامير سوف يعاقبه شر عقاب على نيله من كرامة ضيفه ، ولكن الذي حصل عكس ما يظنه المتخرصون ، بل ان الامير بعث لسعيد الفيصل كسوة [3] وخرجية تقديراً لوفائه وأمر الشاعر ابن هويدي بأن لا يعود الى مثل ذلك .

---

١ – ابن هويدي من ساكني الجمعة واصله من قبيلة عنيزة

٢ – من موالي الامام فيصل ابن سعود

٣ – الكسوة تقوم مقام الوسام في عصرنا الحديث

رويت القصة من المرحوم عبد الله المتعب الرشيد .

يستطيع ان يسجنني ولكن لا يستطيع ان يرغمني

- ٢٨ -

قوة الارادة مصدرها قوة الايمان . وهذه الاخيرة هبة من الله ، فالشجاع اذا لم يكن مؤمناً لا يمكن ان يكون شجاعاً . وعلى هـذا الاعتبار تكون الجرأة الادبية وشجاعة الحروب كلاهما مصدرهما الايمان بالعقيدة والثقة بالنفس..

ومتى كان المرء مؤمناً بأن ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، وان اكبر كبير بهذا الكون هو صغير تافه امام عظمة العقيدة وقدسيتها عندما يدرك المرء هـذه الظاهرة ويؤمن بعدالة قضيته فانـه لا يبالي باية سلطة تهدده ..

وبطل قصتنا هذه هو ماجد كردي ، وقبل ان امضي قدماً في مواصلة البحث ، احب ان اجيب القارىء فيما اذا شاء ان يضع حرف استفهـام بين قوسين مشيراً به على انني اكتب شيم العرب ، فما بالي الان آتي باسم معروف من كنيته بانه من اصل غير عربي كما يعرف الكتاب من عنوانه .

جوابي على ذلك يتلخص كما يلي :

وهو ان صاحب الترجمة مولود في مكة مهبط الوحي وقبلة العالم الاسلامي ولغته عربية ونشأته عربية وثقافته عربية وتقاليده عربية ،ومن المعلوم ان الحكم

في حالة كهذه يكون لهذه العوامل الحيوية اكثر منه لاي عامل آخر ..

وكل يعلم ان الولايات المتحدة الامريكية تضم خليطاً متبايناً من مختلف الاجناس ، ولكن كلهم مؤمنون بقوميتهم الاميركية ..

كل هذه الادلة او بعضها مبرر ولا شك ، لما اشرت اليه ، وصاحب الترجمة هو المرحوم ماجـد كردي ، كما اسلفت من مواليد مكة تولى مديرية الاوقاف والمعارف ، وكان يملك مطبعة تسمى المطبعة الماجدية ، وقد عمد الشريف المرحوم الملك حسين بن علي احـد رجاله ليشتري اوراقاً للجريدة الحكومية من الاستاذ ماجد كردي باسعار اقـل من السعر الذي يبيعه للناس فرفض الكردي ، الا ان يشتري منه الملك كما يشتري منه سائر الناس ، فاصر الملك على رأيه وازداد صاحب المطبعة اصراراً على رأيه ، فهدد الملك بأن يستعمل سلطته فيما اذا تمـادى هذا باصراره ، فلم يكن من امر صاحب المطبعة الا ان ازداد عنفاً وتحدياً لسلطة الملك فامر الملك رجـال شرطته ان يودعوه غياهب السجن فيما اذا لم يتنازل عن كبريائه ويبيع الورق بالثمن الذي يريده الملك ، لان القضية اصبحت بالنسبة للملك لا اهمية لهـا من حيث زيادة ثمن الورق أو قلة ثمنه ، وانما من حيث تحدي سلطته ، كما ان الاستاذ ماجد لا يرى هو الاخر اهمية بالنسبة للزيادة او النقص وانمـا ايمانـاً منه بأنه على حق وان صاحب الحق يجب ان يكون شجاعاً ، وجاء شرطي الحكومة يأمر بتنفيذ اوامر الملك وان رفض فمصيره السجن ، ففضل السجن وهو مرفوع الراس مؤمن بحقه وقال كلمته التي تعبر عن ايمانه بحقه :

- يستطيع الملك ان يسجنني او يقتلني ، ولكنه لا يستطيع ان يرغمني ..

وممـا يدعو الى اعجابنا بشجاعة الماجد هو انـه كلمـا ازدادت ايامه

بالسجن ازداد تمادياً باصراره وعناده واكثر من ذلك راح يرسل من سجنه لجميع اقاربه واصدقائه بانه لا يسمح بأن يتوسط له بالشفاعة عند الملك اي واحد منهم ..

وقد ظل بالسجن حتى ان الملك حسين نفسه ، خجل من نفسه وعاد الى جادة العدل والصواب وافرج عنه .



العاقل من لايتحدي الاسد في عرينه

محدي الهبداني ومحمد بن معبهل

- ٢٩ -

الاول من قبيلة ولد سليمان والثاني من قبيلة الرولة وهو من آ ل شعلان ولكنه ليس من بيت الامارة ويعود نسب كل من ولد سليمان والرولة الى قبيلة عنزة التي كانت ولم تزل اكثر قبائل العرب عدداً وهذه القبيلة عدنانية النسب ..

وولد سليمان ينقسمون الى قسمين : قسم منهم من بادية سورية وقسم ثان من بادية نجد .

وبالرغم من ان كلا من ولد سليمان والرولة كلهم يشملهم اسم (عنزة) رغم ذلك فان العداوة القبلية بين الطرفين كانت على قدم وساق ..

كان محدي الهبداني شاعر حماسة ومهيجاً لابشعره فحسب بل حتى في آرائه واحاديثه كما يروي عنه الثقاة .. ومما يذكر عنه انه انتهج اسلوبا في بث روح الشجاعة والرجولة في نفسية شباب قبيلته لم يسبقه اليها احد من رجال العرب فيقال عنه انه كان يختلي بالشباب من عشيرته وهو في سن العشرين عاما فيهمس باذنيه بعبارات يوهمه بهـا قائلا له اي للشاب ان لديهفراسة بمعرفةالشاب الشجاع الابي وان فراسته هذه دلته على انه يوجد في كيانه موهبة من الشجاعة والنبل

والشهامة وصفات الزعامة والقدرة التي تمكنك ايها الشاب ان تكون في المستقبل سيد القبيلة بلا منازع ثم يزيده ايهاما بقوله : وهذه الموهبة لاتنمو ثمرتها وتينع زهرتها الا اذا حافظت على امرين : الامر الاول ان تتعهد هذه الصفات في كل حركة من حركاتك واعمالك وان تجعل من نفسك قدوة صالحة لشباب قومك لكي يعترفوا لك بالفضل والميزة التي تجعلهم يذعنون لقيـــادتك لهم على طول المدى شريطة ان تجمع بين لين الجانب والتسامح واحتمال أذية رجال قبيلتك الادنين وبين العنف وقوة الشكيمة وابداء الشجاعة اذا اعتـــدى على قبيلتك معتد من الاعداء ..

ثانيا – ان لايعلم اي واحد من شباب قومك انني اكتشفت فيك هـــذه المواهب لئلا يحسدك الحاسدون على ذلك ويكيدوا لك كيدا يجعلهم بدلا من ان يسهلوا لك السبيل الى بروزك يسعون لعرقلة همتك وحبك المكيدة لك بشتى الوسائل ومختلف الاسباب .. وهكذا كان الهبداني ينفخ في كيان كل فتى من فتيان قبيلته عزيمة تناطح السحاب وهمة تفل الحديد وروحانية متسامحة مع الاهل والاقارب وشرسة عنيفة لاتلين ولا تستكين مع الاعداء المعتدين ..

هذه صورة مصغرة عن ترجمة حياة بطل القصة . .

وفي احدى المعارك التي دارت رحاها بين فرسان قبيلة الرولة وبين فرسان قبيلة الهبداني وفي الحالة التي كان الصراع بين الجانبين قد بلغ أوجه والكر والفر بينهما وصل من العنف اقصى مداه بصورة لم ترجح بها كفة جبهة على الاخرى.. ففي تلك اللحظة (تقنطرت) اي وقعت فرس محدي الهبداني في الارض وبطبيعة الحال تجندل فارسها من فوقها وهجم عليه فرسان العدو واسروه حالا ..وكان اسر فرسان الرولة لفارس كالهبداني يعتبر وحده نصرا كبيراً .. وان يكن مثل هذا الاسر حسب العرف والعادات التقليدية لايعتبر نصراً بالمعنى الصحيح اذ ان النصر هو الذي يطرح به الفارس قرنه ارضا ويستولي على فرسه او النوع

الثاني وهو ما يستولي به الفارس على نده عن طريق المعاهدة فالطريقة الاولى تسمى بالاصطلاح المتبع عند فرسان ذلك العهد (شلما) والثانية يقال لها(منعا) والفرق بينهما هو انه في الاولى اذا عف الفارس عن عدوه ولم يعاقبه بقتل ولا بأذية فان عمله هذا يعتبر حسنة وفضلا منه بينما في الاخيرة تجعل الفارس مقيداً امام العهد فلا يستطيع ان يمس أسيره بأدنى اذية وان فعل فمعناه انه نكث العهد وخفر الذمة . .

اما الطريقة الثالثة : التي اسر فيها الهبداني فهي الى الاولى اقرب وان كانت من حيث المعنى لايعاب الفارس المأسور على الطريقة التي اسر فيهاالهبداني كتلك الاولى على اعتبار ان من يؤسر على الشكل الاول ربما وجه المأخذ عليه انه استسلم للعدو بدون ان يقاوم او ان يحدث له حادث يبرر استسلامه كجرح خطير او حادث الم بفرسه وعاقها عن الجري او نفاذ عتاده او عطل سلاحه الخ .. اما الاسر الذي كأسر الهبداني فانه كما اشرنا لايعاب صاحبه قطعياً بحكم انه قضاء وقدر ..

ولما كان الهبداني من نوع الرجال الثقيليالوزن والعظيمي الهيبة علىالاعداء فان الحاقدين من اعدائه يودون ان ينالوا منه ويهمزوا من قناته حتي ولو كان هؤلاء الاعداء يعلمون ان اسره بشكل كالشكل الذي اسر به لايعاب علية الفارس ولا يشمت به الا ان محمد ابن معبهل اراد ان يشمت بالهبدانيوينال من كرامته في نادي رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان ذلك النادي الذي يضم مئات الرجال من فرسان ووجهاء القبيلة ومن ضيوف واجانب جاءوا من كل فج عميق ..

ففي ذلك المساء الذي كان نادي ابن شعلان غاصا بشخصيات العرب على مختلف منازلهم اتجه ابن معبهل نحو محدي الهبداني الذي وان كان اسيرا

ولكن كانت معاملة شيخ القبيلة له معاملة ضيف عزيز لامعاملة اسير مضطهد..

فقال ابن معبهل بيت الشعر الآتي :

صارت علومك يالهبادي بسايس   تلوذ باطراف الشجر تقل بوم

وما ان انقطع صوت ابن معبهل حتى اجابه الهبداني فوراً بقصيدة عصماء من وحي البديهة وبدون ادنى تردد وعلى قافية ووزن البيت الذي قاله ابن معبهل ، والذي احفظه من القصيدة ليس الا ثلاثة ابيات فقط جاء منها ما يلي:

هذا تقنطر والسبايا مَراويسْ   بِمْصَادَم الفرسان مَا فيه لوم

وجهك غدا به كاسبين النواميس   او بيدك من فعل النشامى او سوم

جعِيْف وثرٍ ما تَدرِي البيس   عن ملزماتك صابِ وجهك ثلوم

شرح البيت الاول : صارت علومك يالهبادي بسابيس: يقول الشاعر اصبحت أحاديثك المؤثرة وذيوع صيتك السابق بين اندية العرب وما يتناقله عنك الركبان من شجاعة وذكر جميل كل ذلك اصبح في الحقيقة دعاية ملفقة لاتستند على شيء من قواعد المنطق والحقيقة – بسابيس) اي ملفقة متناقضة (تلوذ بالطرف الشجر تقل بوم (ثم يمضي ويقول : والاسباب التي قضت على ما كنت توهم به العرب من شجاعة ورجولة هي عندما كشف الستار عن حقيقة أمرك في هذه المعركة التي لم تواجه بها العدو وجها لوجه وانما ذهبت تختبيء بالاشجار هربا ورعبا من مقارعة الفرسان كما يهرب البوم خوف افتراس الطيور له فيلوذ في المساكن الخربة التي لاتأتيها الطيور ولا يسكنها الا طير البوم الجبان ..

هذا شرح بيت الشاعر ابن معبهل واليك شرح الجواب من الشاعرالهبداني:

هذا تقنطر والسبايا مراويس بمصادم الفرسان ما فيه لوم

يقول الشاعر : لقد وقعت فرسي وأنا وقعت بطبيعة الحال عن ظهــــرها بسبب مصادمتي للفرسان وبسبب الجهد الذي الم بفرسي واعياها من الكر والطراد المستمر حتى نفد كل ما لديها من قوة نتيجة لمقارعة الفرسان (السبايا) اي الخيل تطلق على الجمع ولا مفرد لها) وكلمة مروس ومراويس الاولى ينعت بها المفرد من الخيل والثانية للجمع . المقصود ان الشاعر يقول في صدر البيت انه لم يستسلم جبنا وانما فرسه انطرحت ارضا بعدما اشبعها جريا بمطاردة العدو حتى نفدت قوتها وارتمت .. وفي عجز البيت يقول الشاعر: ان حالة كهـــذه لايلام عليها الفارس لانها حدثت في حالة الكر والعراك والصدام مع الفرسان. في ميدان الحرب ثم يمضي الشاعر في البيت الثاني فيقول :

وجهك غدو به كاسبين النواميس وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

قبل ان اشرح هذا البيت والذي يليه اود ان اشير الى ان الشـــاعر الاول سبق ان خفرت ذمته والذي خفر ذمته لايعدو من ان يكون اما أمير قبيلته ابن شعلان او رجال من نفس اسرة ابن شعلان الذين يكونون اقرب نسبــاً من الشاعر الذي هو الآخر من الاسرة. والحادثة لطول عهدها لم اجـــد من يحفظ تفاصيلها على الوجه الاكمل وانما يؤخذ من مفهوم معاني البيتين اللذين اوردهما الشاعر كجواب على البيت الاول واللذين سوف نشرحهما فيما بعد يؤخذ من ذلك ان الشاعر الاول لايعدو ان يكون قد خفرت ذمته بصورة توحي الى انــه

استجار به مستجير عن رئيس القبيلة او احد اقاربه الاقوياء فلم يستطع الشاعر حمايته او أنه مثلا اعتدى على جاره ولم يستطع ان يدافع عنه او يأخذ الثأر ممن اعتدى على جاره او انه اعطى عهدا لفارس ما وانزله بذمته وجاء هذا الفارس من قتله بدون ان يعبأ بعقاب من خفر ذمته الخ ..

المقصود ان الشاعر الاخير وجد على الاول مهمزا يلمزه به ويحط من قدره فكأن الشاعر الاول اعطى خصمه الاخير سلاحا ليجهز به عليه ليقطعه اربا واذا كان القتل الادبي والمعنوي امضى سلاحاً واخلد ذكراً من القتل المادي في عالم التاريخ والادب، فان الاخير وصم الاول بجوابه بمعان من الشعر ربما لولاها لما عرفنا اي شيء عن حادثة الاول وما لحق به من خفر ذمة .. ولكن القصيدة خلدت ذكر الحادثة او بالاحرى فضول الشاعر الاول الذي جنى على صاحبه حتى اوقعه فلقي ما لقيه من الهبداني الذي وصمه بقوله :

وجهك غدا به كاسبين النواميس   وعن ملزماتك صاب وجهك ثلوم

جعيف وثر مارما تدري البيس   وبيدك من فعل النشامى وسوم

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول انك رجل مخفور الذمة ووجهك قد طلاه بالسواد الرجال الشجعان اصحاب الثناء الذين خفروا ذمتك ووضعوا في وجهك نقوشا من العار واضحة المعالم .. ثم ينتقل الى البيت الثاني فيقول بصدده : انت رجل موصوم بالعار ولكنك لاتحس بعارك هذا لانك ميت الاحساس ومقتول الكرامة وهذا البدوي الامي يلتقي

في هذا الصدد هـــو وابو الطيب المتنبي على صعيد واحـــد عندمــــا قـــال :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

وهكذا اراد الهبداني في صدر هذا البيت اما في عجزه فانه يقول على الرغم من انك مخفور الذمة في جارك او مستجيرك بالاضافة الى ذلك فقـــد طعنك الصناديد الاشاوس الذين خفروا ذمتك بجروح بيـــدك لتظل شاهدة على عجزك عن اخذ الثـــأر لنفسك وتظل ايضا دليلا واضحا على جبنك عن الانتقام لنفسك ..

والشاعر يشير الى اصابة من طعنة سيف وضح اثرها في يدي خصمه ويبدو من معنى البيت ان هذه الاصابة من رؤساء القبيلة الذين لايستطيــع الشاعر الاسبق اخذ الثار منهم وعلى اي شكل فان العجز عن اخذ الثأر او ضعف الجانب لمن تخفر ذمته لايعتبر مبرراً للجبن والاستسلام عند العرب ... وانما العـــار هو الاستسلام او نسيان الثار او تناسيه ... والمثل الدارج عند العرب يقول (العيب بالنسيان) ..

كان البيت الذي قاله الشاعر الاول والابيات التي اجابه عليها الشاعر الثاني كل ذلك كان على مسمع من رئيس قبيلة الرولة ابن شعلان الذي لم يردني اسمه وانما الذى وردني هـذا الكلام الذي اورده رئيس القبيلة

موجهاً به الى الشاعر الاول حيث قال :

ان الانسان العاقل مهما كان شجاعا فانه لايغامر بنفسه مغامرة فاشلة ليذهب الى الاسد ويتحداه في عرينه .. يقصد بالاسد الهبداني وبالمتحدي له ابن معبهل .[1]

(١) ـ رويت هذه القصة من دهيسان الخمشي

« اذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن ان الليث يبتسم »

«المتنبي»

- ٣٠ -

ليس من السهل معرفة خلق المرء والحكم عليه من حيث منظره فقد يبدو لك انساناً طائشاً ولكنه يتصرف في جميع الاعمال التي توكل اليه تصرف العاقل الرزين. وقد تجد انساناً توحي جميع حركاته وسيرته بأنه مسرف بالجبن ولكن سرعان ما يتبخر ما كنا نتوهمه عندما تأتي الاحداث المفاجأة والملمات المباغتة التي يفاجأ بها المرء بدون انيعمل لها ادنى حساب. فالمفاجآت وحدها هي اعظم امتحانتبرز فيهااخلاق الرجال الكامنة، وعلىسبيلالمثالنقول كلمن يرى المرحوم الشيخ عبد العزيز ابن زيد سفير المملكة السعودية في دمشق ولبنان ويجالسه ويمتزج به ويعرفه كمعرفتي اياه لا يتردد قطعياً بالحكم له وعليه. فيحكم له بالكفاءة والهدوء وبعد النظر واصالة الرأي والوفاء والاخلاص لمن يأتمنه على عمله ويحكم عليه ايضاً بالاستكانة وعدم الجرأة .. كان هذا المعروف عنه وكان هذا هو حكمي عليه خلال المدة التي عرفته بها وهي مدة لا تقل عن عشر سنوات ولكن جاءت مناسبات جعلتني ادرك ان الرجل خلاف ما كنت اتوهمه من عدم الجرأة .. وكانت المناسبة التي بدلت رأيي فيه هي يوم الانقلاب السوري الثاني الذي قام به اللواء سامي الحناوي في شوال ١٣٦٩ -- آب ١٩٤٩ وبحكم عملي ايامها كمعاون لآمر الفوج السعودي وضابط اتصال بين رئاسة الاركان للجيش السوري وبين المفوضية السعودية بدمشق، ففي صبيحة ذلك اليوم الذي وقع فيه الانقلاب وجدتني ملزماً بأن اذهب لرئاسة الاركان لاعرف ما هي

اهداف الانقلاب الجديد ؟ ومن هو زعيمه ، فذهبت فوراً للقيـــادة يصحبني الملازم علي دياب احد ضباط الفوج السعودي. وعندما صعـــدت السلم ووصلت مكتب القائد العام للجيش والقوى المسلحة هناك وجدت ضابطاً برتبة ملازم متوشحاً بلباس الميدان مما جعلني اعتقـد انه من احد رجال الانقلاب وكان الزميل علي ذياب الذي لا زال حتى الآن يعمل في الجيش السعودي برتبة عقيد يعرف هذا الضابط الذي لم يكن لي به سابق معرفة فسلم بعضنا على بعض فسألت عليا عن هذا الضابط فقال انه الملازم مصطفى الدواليبي؟ وهو شقيق معروف الدواليبي السياسي السوري فقلت للدواليبي :(يبدو انك من سبـاع الليل) اي من رجال الانقلاب.. فأجابني فوراً : اجل. قلت: هل الزعيم حسني على قيد الحياة ام لا؟ قال بل هو في عالم الاموات ..

لقد دار بيني وبين الدواليبي حديث بعد هذا النبأ لا اراني بحاجه الى كتابته الآن ، اللهم الا في مناسبة غير هذه. وبعدما تأكـدت من مصرع الزعيم ذهبت الى المكتب الاول واخذت منه صورة عن البلاغ الذي سيذاع باسم زعيم الانقلاب الثاني وكان رئيس المكتب وقتـذاك المقدم فيصل الاتاسي ويعاونه ضابطان احدهما الملازم الاول [١] رائف المعري والثاني ضابط برتبة ملازم اول ايضـــاً يدعى حامد شماط ..

المقصود انني استلمت البلاغ رقم ١ وسلمته لصاحبي الملازم علي ذياب فذهب به الذياب الى المفوضية حالا في الحين الذي بقيت فيه بالاركان لاستوضح الامر .

وبعد فترة عدت الى المفوضية فطلب مني السفير ابن زيد أن اذهب لقائد الانقلاب الجديد لاخذ منه موعداً للاجتماع به . فذهبت للحناوى احمل له طلب السفير السعودي فلم يتردد عن قوله لا مانـع عندي من ان يحضر الآن .. فعدت الى ابن زيد اخبره باستجابة الحناوي لطلبه في الوقت الحاضر فخرج ابن زيد من السفارة قاصداً الاركان وكنت بمعيته فدخلنا سوياً الى مكتب وزير الدفـــاع وقتذاك اللواء عبد الله عطفة وكنت اذكر انني مثلت نفس الرواية في الانقلاب الاول لحسني الزعيم .

١ رائف المعري هو احد رجال انقلاب ١٨ تموز الفاشل ١٩٦٣

وما ان تبادلنا التحية التقليدية حتى بدأ اللواء عبد الله عطفة حديثه يعرف السفير بقائد الانقلاب الجديد حيث قال : (هذا الزعيم سامي الحناوي هو الذي قام بالانقلاب . ثم استطرد وقال وهو في الوقت ذاته كان قائداً للواء الاول الذي وطد الانقلاب السابق لحسني الزعيم الخ ..) هذا وكان الحناوي جالساً على يمين المنصة الرئيسية التي يجلس عليها اللواء عطفة وعن يمين الحناوي الزعيم انور بنود وكل من بنود وعطفة لم يشتركا في الانقلاب لا الاول ولا الثاني .

كان الحناوي وقتها لابساً بذلة خاكي مشمراً عن ساعديه وعن فخذيه معاً حيث كان بنطلونه قصيراً دون ركبتيه وكان واضعاً فوق عينيه نظارة سوداء ومتوشحاً بمسدسه ويشرب السيجارة تلو السيجارة وكانت بطنه المسترسل وجسمه الكبير المكتنز باللحم المتراخي متبختراً كالطاووس يشعر ناظره لاول وهلة بأنه نشوان من لذة النصر . كان زعيم الانقلاب صامتاً كالتمثال لم يتكلم قطعياً اللهم الا كلمة واحدة فقط حيث تنهدوقال: لقد نصحت الزعيم حسني[1] قبل ان اقدم على ذلك ولكن الزعيم لا يريد ان يقبل النصيحة .. وبعد ما انتهى الحناوي من هذه الكلمة التي كانت هي البداية والنهاية لحديثه عند ذلك جاء

١ـلكي أتثبت من الناحية التاريخية عن صحة ما اشار اليه الحناوي بقوله انه نصح الزعيم قبل ان يقوم بانقلابه. من اجل ذلك ذهبت الى عديل حسني الزعيم وامين سره السيد نذير فنصه وذلك بعدما خرج من سجن المزة من اجل ان اتحقق من صحة ما قاله الحناوي بنصيحته للزعيم فاكد لي فنصه ان الحناوي صادق بقوله كما اكد لي ان الزعيم لم يكن يعبأ بالحناوي ولم ينظر اليه نظرة توحي بالهيبة والاجلال . ومن قرأ كتاب الرائد فضل الله ابو منصور الذي تولى اعتقال حسني الزعيم وقتله يدرك ان حسني الزعيم قتل بدون أن يعلم من هو قائد الانقلاب . والغريب في الامر ان حسني الزعيم هو الذي رفع الحناوي الى رتبة الزعيم والحناوي هو الذي اعاد الشيشكلي الى الجيش بعد ان سرحه حسني الزعيم .. وهكذا كما تدين تدان.

ر الزعيم انور بنود فقال ان الذي أيد حسني الزعيم وآزره ليس الا
نتم .. يشير بتنده الى السفير ابن زيد ..

كان ابن زيد عن يسار اللواء عبدالله عطفة اي مقابلا للحناوي وبنوذ وجهاً لوجه .وكانت جلسته كعادته جلسة هادئة توحي بالسكينة والوقار لمن يعرفه جيداً. وتوحى لمن لا يعرفه بالاستكانة والاستسلام .

ولا شك ان الزعيم بنود نظر اليه من الناحية الاخيرة متوهماً ان انياب الليث الكاشرة انما هي ابتسام ..

ولقد شطح ظن الزعيم . وذلك انه ما ان نبر بتلك الجملة وعرف ابن زيد من الجملة الاولى بقية الحديث الذي يريد ان يقوله بنود حتى انقض عليه مقاطعاً حديثه قائلا بصوت عال يختلف عن عادته . « عندما يقوم الزعيم حسني بانقلابه ويأتي الجيش السوري عن بكرة ابيه مؤازراً ومؤيداً له وفي مقدمة الجيش زعيم الانقلاب الحالي حسب اعترافه وعندما يؤيد الزعيم حسني جميع رجال السياسة في سورية ثم نأتي نحن مقتدين ومتبعين لمن ايده الجيش بكامله وهلل له وكبر الرأي العام السوري قاطبة .. انكون نحن مخطئين بعد هذا ..؟ فاذا كان الامر كذلك فمعناه اننا نكون مخطئين ايضاً فيما اذا ـ اعترفنا بزعيم الانقلاب الجديد) .. قال هذه الكلمة ثم اظهر حركة تشير الى انه يريد ان يخرج ولكن سرعان ما بادره اللواء عطفه والحناوي وصاحب الكلمة بنود يسترضونه ويعتذرون منه عن تلك الكلمة التي اعتبرت سقطة لسان وحرياً بها ان تذهب بمهب الريح لولا انهاهي وجوابها حدثا بحضور كاتب هذه الاسطر الذي يعتبر أن الشجاعة الادبيه في ظروف حاسمة ودقيقة كهذا الظرف لا تقل اهمية عن الشجاعة الحربية في المعارك الطاحنة ..

وهذا مما جعلني اسجلها في حقل شيم العرب لتظل خالدة ابدية .

واذا لم يكن من الموت بد　　فمن العار ان تموت جبانا

-٣١-

كنت ولم ازل اسعى أن يكون لي قسط من العلم بمعرفة كل ما يصدر « من الشيم » لا المحصورة على رجال امة العرب فحسب ، بل من الشيم التي تصدر من رجال أية امة كانت ، فان بلغت امنيتي هذه فانني سوف اصدر كتاباً باسم « من شيم البشر » .

وقد كانت قراءتي للكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغـــة العربية عاملاً رئيسياً ساعدني الى حد ما على معرفة مـــا يكتب عن تاريخ الامم كما ساعدني على معرفة ما يحدث من النوادر والشيم من الرجال الافذاذ لتلك الامم بصورة محدودة ، ولما كنت معجباً الى حد الاسراف بكل شيء يمت الى الجرأة والشجاعة والاباء بأية صلة كانت ولا سيما الشجاعة التي يجدر بهـــا ان تسمى بشجاعة المبدأ والاختبار ، واعني بهـا تلك التي تضطر صاحبها تحت ظروف قاسية الى ان يقف في قفص الاتهام موجهاً اليه من التهم التي ما من شأنها ان تؤدي بصاحبها الى حبل المشنقة ، فقد تضاعف اعجابي بمـــا قرأته عن رجل المانيا الثاني هارمان غورنغ ماريشال الريخ ، وذلك عندما وقف في محكمة نورمبرغ عام ١٩٤٥ – ١٩٤٦ المكون رجالها من جبابرة الدول الكبرى وهم الروس والامريكان والفرنسيين والانكليز ، لقد وقف ذلك الرجل امام اعدائه موقف

الشجاع الجبار دون ان تلين له قناة او يبدي ادنى كلمة تعبر عن رغبته بطلب الرحمة من خصومه وانما وقف يتحدى محاكميه ويسخر منهم تارة ويمطرهم احياناً بتلك الكلمات النارية المحطمة لكبرياء رجال تلك المحكمة تحطيماً لا يقل مفعوله عن تحطيم قنابل طائراته لحصونهم وجحافلهم عندما كان الآمر الناهي لسلاح طيران الريخ الثالث وحينما كانت اسراب طائراته تتقدم من نصر الى نصر [1] وهكذا وقف غورنغ في قفص الاتهام يرشق قضاة المحكمة الرباعية بتلك العبارات القاسية التي يطيب لي ان اختصر نبذة منها بقدر الامكان .

كقوله « المنتصر هو الحاكم دائماً والمغلوب هو المتهم » وكقوله ـ لأحد مرؤسيه في المحكمة « لا تنزعج لقد كنت تتلقى الاوامر مني فقط وسوف اتحمل مسئولية ذلك وحدي » [2] وقوله لرجال المحكمة « انكم تقولون لي بأنني كنت اعد للحرب ببناء الاسطول الجوي الالماني فهذه مهمتي فقد كنت مسئولا عن سلاح الجو الالماني ولم اكن مديراً لمدرسة بنات [3] . » وقوله « انا مسرور لان الاميرال « دونيتز » هو الذي وقع هدنة استسلام المانيا لانني لا احب ان يقترن اسمي باستسلام المانيا في الاجيال المقبلة » واخيراً قوله « أهذه العدالة التي تتشدق بها محكمتكم ؟ لقد اعتقدت في الاول بأن المحكمة ستكون عادلة تستند على الحقائق والقوانين ، ولكن اتضح لي في النهاية العكس ، ولذلك لا اتردد في مجابهتكم بالواقع والحقيقة وجهاً لوجه فنحن مجرمون بقدر ما انتم مجرمون وجميع الافعال التي قمنا بها ، انتم ايضاً قمتم بها واذا اردتم ان تقدموننا للمحكمة على اعتبار

---

(١) استدراك ـ ارجو ان يعذرني القارىء فيما اذا وجدني خرجت عن موضوع الكتابه الخاصة بشيم العرب كما ارجو ان لا يظن احد أنني معجب بالنازيين ونظام حكمهم الاستبدادي التعسفي كلا وانمـــا جئت بهذا البحث كمقدمة للقصة الاتية بحكم تشابه الظروف (٢) محاكمات نورمبرغ تأليف الدكتور ج. م جلبرت تعريب فتح الله المشمشع وجورج شاهين صائغ (ص٦)(٢) ص ٢٣ المصدر نفسه ص(٥٣)المصدر ذاته (٤) ص(٦٣)(٥) المصدر ذاته ص (٤١)

اننا مجرمون فانني استطيع ان اقدم الادلة والبراهين على الف جريمة قمتم بها . ما رأيك في أعمال الانجليز الاستعمارية ؟ وما رأيك بالفرنسيين ومستعمراتهم ؟».

وبعد فانني اعيد العبارة التي جاءت بالتعليق وهي طلب المعذرة فيما اذا خرجت عن موضوع الكتابة الخاصة بشيم العرب، والسبب هو كما ذكرت التشابه الكامل بين الجرأة والشجاعة التي ابداها المرشال غورنغ عام ١٩٤٦ في محاكمة نورمبرغ وبين الثبات والشمم وشموخ الانف والبطولة التي ابداها سعيد قزاز وزير داخلية العراق السابق وذلك امام محكمة المهداوي عام ١٩٥٩ .

واذا كان المارشال غورنغ قال تلك العبارات السالفة الذكر فان المرحوم سعيد قزاز وقف في قفص اتهام المهداوي يزأر كالأسد الهصور مستهتراً بالمحكمة وبرئيسها وبالمدعي العام الذي قال له « انك يوم ثورة ١٤ تموز جبنت وهربت مرتدياً ملابس نسائية ، فاجابه القزاز بقوله :

« على اثر الثورة سلمت نفسي مختاراً الى السلطة العسكرية ، بعد ان خابرت تلفونيا متصرف لواء بغداد الحالي ومدير الاستخبارات العسكرية بانني مستعد للحضور امامهم متى شاؤا ، ومضى بحديثه الى ان قال .. وقصدي من هذه المقدمة تكذيب ما ادعاه المدعي العام بأنني ارتديت الملابس النسائية خوفاً من القتل ذلك الادعاء الذي لا نصيب له من الصحة (١) وعندما سمع رئيس المحكمة المهداوي ان القزاز يصم مدعيه العام بالتكذيب عند ذلك قال المهداوي « عوضاً عن عبارة تكذيب قل تصحيح » ولكنه مضى بحديثه دون ان يستجيب لطلب المهداوي الا بقوله « انا اخذت وعداً من سيادتكم بأن لا اقاطع » فرد عليه المهداوي قائلا – اذا طلبت انه لا يقاطعك احد لا يعني ذلك رئيس

---

(١) محكمة الشعب « على حد قول من سماها ».ج١٠ ص ١٩
(٢) المصدر ذاته والصفحه نفسها

المحكمة لا يقاطعك ولكن بتهجمك بكلمة تكذيب لا يمكن السكوت عنه يجب ان يصحح ويكون تصحيح - فاجابه القزاز على الفور بقوله « الدفاع دفاعي وبتوقيعي وانا مسئول عن كل كلمة وردت فيه (١) ومضى الشجاع الباسل القزاز بدفاعه الى ان قال .. انني اقف الان وارى الموت مني قاب قوسين او ادنى ، ولا ترهبني المشنقة وعندما اصعد عليها سأرى الكثيرين ممن لا يستحقون الحياة تحت اقدامي - واقف الان بين يدي الله عز وجل لاقول كلمتي الاخيرة كمسلم لا امل له الا بعدالة خالقه العظيم ، ولا ايمان له الا بدينه الاسلامي الحنيف. اقف كعراقي قدم ثلاثاً وثلاثين سنة في تعزيز الوحدة العراقية المقدسة اعلن على رؤس الاشهاد انني فخور بما قدمت لوطني الحبيب من اعمال وخدمات فخور بانني كافحت الشيوعية « الالحادية » بدافع اسلامي ووطني وتنفيذاً لقانون لا يزال يعمل به من شريعة البلاد ، فخوراً بانني كنت وزيراً فعالا افعل بوحي من ربي وعقل في رأي وقلب في صدري فحذاراً من شرور الشيوعية الدولية واخطارها على وطني العزيز واذا اصابني شيء بنتيجة هذه المعركة فانني اتقبلها بايمان عظيم ، وسيكون لاهلي واقاربي الفخر بانني اول شهيد في هذا الميدان . لذلك اختم دفاعي بانني لا اطلب الرحمة ولا الغفران من اي بشر كان بل اترك امري الى الله واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (٣)

لم يستطع رئيس المحكمة المهداوي ان يملك اعصابه عند سماع سعيد قزاز يتحداه وهو في قفص الاتهام ، ويرفض بكل اباء وشمم وشموخ انف طلب العفو لا منه ولا من زعيمه الاوحد الزعيم عبد الكريم قاسم . في تلك الساعة التي يقف بها القزاز تحت رحمتها ومصيره متوقف على ايماءة من الزعيم الاوحد او كلمة عابرة من رئيس المحكمة المهداوي ، ورغم ذلك نجد القزاز لم يفكر في ان يطلب الرحمة ولم يحاول ان يلتمس الغفران ، بل ولم يبدر منه اي دليل يشير الى رغبته

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٤

بعفو يمن به عليه الزعيم الا وحد ورئيس محكمته المهداوي – وهذا مما جعل المهداوي كما ذكرنا انفاً ينفد صبره ويعجز عن سطرته على اعصابه الامر الذي جعله يعبر من ضعفه وضآلة حجته بالعبارات الحمقى التي جاء منها قوله ...« أسمعتم منطق العهد البائد واصرار المتهم على التمسك به بدليل ذكائه الخارق « يسخر منه » والا كاذيب الفورية علينا او على الادعاء العام ، الى ان قال المهداوي « فلقد آليت على نفسي بعد افتضاح هــذه ألاكاذيب ومن جملتها اكاذيب المتهم سوف لا نرد على نباح الكلاب .

وبعد فاننا انا وجدنا تشابهاً بين موقف المرشال غورنغ في محاكمة الحلفاء له وبين موقف سعيد قزاز في محكمة المهداوي ، اذا رأينا انسجاماً وتشابها في موقفها البطولي ، فاننا سوف لا نجد اي تشابه في الظواهر الاتية .. وهو اننا نرى البون شاسعاً الى ما لا نهاية له بين الموقف الذي وقفه المهداوي هو وزعيمة عبد الكريم قاسم حينما جيء بهما امام عبد السلام عارف في اليوم الثاني من ثورة ١٤ رمضان ١٣٨٢ هـ وبين موقف سعيد قزاز فبينما نجد الزعيم الاوحد عبد الكريم قاسم يطلب الرحمة والعفو من زميله المنتصر عبد السلام عارف نجد القزاز يقول عبارته السالفة الذكر التي تفرض احترامي لصاحبها عندما اتى بها مكرراً « انا لا اطلب الرحمة والغفران من اي بشر كان » وعندما ننتهي من المقارنة بين استجداء عبد الكريم قاسم بطلبه الحياة وبين شموخ انف القزاز ، حينما ننتهي من ذلك يجدر بنا ان نقارن ايضاً بين جبن المهداوي وخور قواه واستكانته ، بل وانهيار اعصابه عندما وقف امام عبد السلام عارف في التاريخ والساعة نفسها اللتين وقف بها زعيمه قاسم ، وقال المهداوي « هذا الكلب »[1] الذي أمرني بكل عمل قمت به – الى ان قال .. اعفوا عني واطلقوا سراحي لكي اشتم والعن لكم في الاذاعة عبد الكريم قاسم والشيوعيين واكرم الحوراني » او مــــا في معنى ذلك من العبارات التي نقلتها عن قاسم والمهداوي الانباء العالمية .

(١) يقصد بالكلب زعيمه الاوحد قاسم

حجة بالغة وجواب مقنع

- ٣٢ -

لو وجه الي احد السؤال التالي :

ما هي افضل السجايا المثلى التي يتصف بها المرء؟.. لقلت على الفور الشجاعة، ولست ارى حسب اعتقادي ان هناك سجية تسمو على الشجاعة فضيلة، والادلة على ذلك كثيرة فمنها ما هو خاص ومنها ما هو عام، فأما الدليل الخاص بالنسبة اليّ فهو انه سبق ان مرت علي ظروف اضطرارية جعلتني اتنازل مرغماً وكارهاً عن هذه الصفة الجليلة القدر كما ارغمتني ظروف مماثلة لتلك الظروف بان اتنازل ايضاً عن بعض الصفات المثلى ، وعندئـــذ اشعر ان وخز الضمير الذي يؤلمني بتنازلي عن القيام بواجباتي الاولى يختلف كل الاختلاف عن تنازلي عن اية صفة كانت كما اشعر ايضاً بل احس والمس ان الظروف التي ارغمتني وجعلتني اقدم على ان اتنازل عن تلك الصفة خشية الوقوع بما هو أشر منها ، أشعر فيما بعد ان تقديري هذا خاطىء كل الخطأ ، وأدرك في قراراة نفسي بل حسب خبرتي وتجاربي ان الدرهم الذي يتنازل به المرء عن شجاعته [1] حباً بالسلامة او رغبة بأية مصلحة كانت ، فانه سوف يخسر قنطاراً لا من مصلحته الشخصيـــة فحسب بل من صميم حياتـــه ، هذا اذا قدرنا ان الحياة في عالم الخلود هي تلك الحياة المعنوية ، لا الحياة المادية الفانية التي اشبه ما تكون بحياة الحيوان ، هذا

---

(١) ولئن كنت احترم الشجاعة بمفهومها العـام الشامل فانني اعني ببحثي هذا الشجاعـــة الادبية بل وبصورة اوضح اقصد شجاعة العقل والفكر والتعبير لا شجاعة الساعد .

الدليل ادلى به بصورة خاصة بالنسبة لتجاربي المحدودة ، اما الدليل العام على ما نستشهد به هو اننا لم نجد ولن نجد جبانا برز بعالم التأريخ بقدر ما نجد العدد الذي لا يحصى من الرجال الشجعان الذين طفحت الاسفار بذكرهم ، فالكريم قد يجد من يحبه من اجل كرمه ، ولكنه قل ان يجد من يهابه ويحترمه اذا لم يكن شجاعا وكريما في آن واحد .

والشجاع قد لا يجد عدداً كبيراً من الناس يحبه . ولكنه سيجد حتما من يقدره ويحترمه ويهابه ، وخلاصة القول ، هو ان الشجاعة هي العامل الاول الرئيسي التي تجعل المرء يفرض احترامه ووقاره حتى على اعدائه ، كما انها الدرع القوي الذي يصون الانسان من صولة وبطش اي حاكم صارم لا تأخذه اية رحمة او رأفة بمن تثبت عليه بينة بما يتهم به .

لولا ثبات جنانه لذهب ضحية للوشاة

كما حصل فعلا مع صاحب هذه القصة راشد السبيتي [1] عندما اتهمه الوشاة عند الامير محمد العبد الله الرشيد بأنه يكاتب الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وانه يريد ان يفعل ((كيت وكيت)) على رأي واقوال الوشاة المرتزقة الذين لا يخلو اي حاكم من تأثيرهم عليه وافسادهم ودسهم على المواطنين الابرياء في كل زمان ومكان ، فمنهم من تصيب منه اسهم الوشاية مقتلا فيذهب ينزف دمه حتى يلفظ انفاسه الاخير ، ومنهم من ينجو بفضل شجاعته وجرأته بالدرجة الاولى وبفضل براءته مما يتهم به وعدم قيام البينة عليه بالدرجة الثانية ، كراشد السبيتي الذي جيىء به عند محمد العبدالله ووقف امامه كما يقف اي متهم في قفص الاتهام باحدى المحاكم في عصرنا الحديث ، فوجه اليه الامير محمد

---

(١) راشد السبيتي من اهالي الرياض.

الحديث الآتي :

«لقدبلغني عنك خبر ايفيد بأن بينك وبين الامام عبدالرحمن الفيصل آل سعود مكاتبات و.. والى آخره ـ من الكلمات التي نقلها الوشاة النامون وعظموا شأنها» فأجابه السبيتي بكل جرأة وثبات بل وتحداه قائلا ..

ـ نعم وكل ما نقله لك الواشون حقيقـــة ولا يسعني انكارها ، وسوف اخبرك عما نقل اليك بكل صراحة وصدق .

ـ ومن اجل ذلك جئت بك الى هنا لاستفسر منك بوضوح عما بلغنا عنك.

ـ قلت لك سوف اخبرك بكل صراحة وامانة ،ولذلك اريد ان تصارحوني بكل خفية وبينة نقلت لـكم عني .

ـ نعم لقد بلغنا عنك بانك تكاتب الامام عبدالرحمن الفيصل.

ـ حقيقة كنت اكاتبه وسوف اكاتبه ايضا .

ـ ماذا قلت له في مكاتباتك السابقة وماذا تريد ان تقول له فيما بعد . قل لنا الحقيقة لاتخاف .

ـ قلت له « انت بنحره وانا بظهره »[1]

---

(١) نقلت هذه الكلمة الشعبية من الرواة النقاد كما نطق بها صاحبها ومعناها ان المتهم يهزأ بالامير وينقده نقداً لاذعاً بتصديقه للوشاة قائلا له على سبيل السخرية « انني قلت للامام عليك ان تهجم على جيوش الامير برجالك من الامام وانا سوف اباغته واهجم على جنوده من الخلف » والمعنى بصورة اوضح هو ان السبيتي يقول ان الوشاة اثروا عليك ياحضرة الامير وارهقوا اعصابك بتضليلهم واكاذيبهم وتخويفهم لك من اعدائك حتى بلغ بك الامر الى درجة جعلتك تتخيل ان كل صديق عدواً اوتظن وهما ان اي مواطن يصوره لك الوشاة بانه يحاول ان يقلب نظام حكمك فتنهب وتصدق كل ما نقله لـك الواشون بأي مواطن كان ولو كان هذا المواطن رجـلا عادياً لا يملك حولا ولا طولا من اسباب القوة ومسبباتها ، والجدير بالذكر هو ان هذه الكلمة اصبحت مثلا شعبياً يحتج بها اي متهم باية مناسبة مماثلة كهذه خاصة عندمن سمع بها وفهم معانيها البعيدة المدى.

قال السبيتي هذه الكلمة ثم انحرف وادار ظهره للامـير ومضى ماشيـا الى الامام بدون ان ينتظر القول الفاصل من الامير . اما الامير فقد وجد بجواب المتهم فصل الخطاب ولذلك لم ينبس ببنت شفتيه ، وهذا ما يجعلنـــا نحترم الشجاعة . اذ لو كان السبيتي من نوع بعض الرجال الجبناء الذين تخور قواهم وتخونهم عزائمهم عندما توجه لهم تهمة كهذه وهو منها بريء ، حتما لو كان من هذا النوع لذهب ضحية بريئة لسهام الوشاة . ولكن ثباته ورباطة جأشه وقوة حجته ووضوح بيانه ، هذه المعاني هي التي كانت له درعا حصينا حمـــاه من سلاح الوشاة المرتزقة الذين ليس لهم في عالم الشرف والكرامة والانسـانية اي مكان يهبطون به . سوى هذه الحرفة الحقير صاحبها



الفصل الثالث

الشجاعة الفكرية

والمرء يذكر بالجمائل بعده فارفع لذكرك بالجميل بناء
واعلم بانك سوف تذكر مرة فيقال احسن او يقال اساء
رتب الشجاعة في الرجال جلائل واجلهن شجاعة الآراء

احمد شوقي

بطل الانقلاب الفكري

- ٣٣ -

يقوم بالانقلابات العسكرية الشجعان المغامرون ، سواء كانوا عاقلين او غير عاقلين وسواء كان الباعث لهذا الانقلاب مبادىء يحرص الانقلابيـــون على تنفيذها ، او الدافع محبة السلطة والحقد الشخصي فقط .

كل من هذا وذاك يمكن ان يكون .. ولكن الانقلابات الفكرية ، والثورة الاجتماعية لايقوم بها الا الشجعان العاقلون المفكرون ..

والفرق بين قادة الجحافل وبين قادة الفكر هو ان الاولـــين اذا لم يكونوا اصحاب فكرة ولا مبدأ ، فان سيطرتهم ستكون سيطرة مجـــازية يحكمون بها الرقاب عن طريق الرهبة والرعب ليس الا ، بينما قادة الفكر يسيطرون على القلوب ويهيمنون على العقول ويملكون الافئدة ..

وعلى وجه العموم فان قادة الانقـــلابات العسكرية لن يكتب لهم النصر الطويل ما لم يمهد لهم قادة الفكر اولا وقبل كل شيء ، وما من ثورة عسكرية قامت بالتاريـــخ وكتب لها البقاء الا ونجد قادة الفكر مهدوا لها قبل قيامهـــا واولوها اهتمامهم بعد وقوعها عمليا ، واذا لم يكن ذلك فســـوف تكون مجرد طموح شخصي بدافع الانانية المنبعثة من حب السلطان بأية وسيلة كانت ومن

أي سبيل يأتي ، والتاريخ طافح بالادلة والشواهد الكثيرة بهذا الشأن .

حين ينعدم التوافق بين قائد الفكر وبين قائد الجيش

عندما يصطدم قائد الفكر مع قائد الجيش ، عندئذ سوف يبدو لنا للوهلة الاولى ان الاخير سوف يقضي على الاول بحكم انه يملك السلطة الزمنية ، او على الاقل يجعله خاضعا لسلطانه ، وهذا هو الامر المحتمل فيما اذا كان قائد الفكر جبانا او واهي المنطق ، اما اذا اضاف الى نضوجه الفكري شجاعة وقوة منطق ، فان النصر على طول المدى سيكون حليفا له على نده لان هذا كما اشرنا آنفاً لديه الطاقة التي يملك بها القلوب . .

وبين يدينا الان شاهد ملحوظ نستطيع ان نستمد منه الحكم في هذا الصدد ، وهذا الشاهد حدث في مطلع القرن الهجري الحالي سنة ١٣٠٩ وذلك عندما استدعي الامير محمد العبدالله آل رشيد الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ من الرياض واسكنه عنده في بلدته حائل . .

كانت الغاية من هذا الاستدعاء من حيث الظاهر الاكرام والحفاوة ، ولكن الغاية من حيث الحقيقة والواقع ، هي تحديد اقامة الشيخ والحد من نشاطه الذي يعتقد الامير انه مناوىء له ، وعلى هذا الاساس جيء بالشيخ وفرضت عليه الاقامة الجبرية بطريقة غير مباشرة وخلال المدة التي قضاها بحائل عاصمة الامارة استطاع الشيخ ان يلعب دورا هاما باستيلائه على قلوب ساكني البلاد وذلك بفضل ما اوتي الرجل من ميزات قل ان تتوفر الا بالرجال العباقرة الافذاذ ، فقد كان الى جانب علمه الجم بالعلوم الدينية ، فسيح العقل قوي الحجة ، ذا شخصية جذابة وارادة فولاذية ، كما كان سخياً لا يدخر رزق اليوم للغد . .

وكان بعلمه الغزير وبعقله الوافر وببيانه المقنع وحجته الدامغة وشخصيته الفذة. استطاع ان يسيطر على الكثير من أعيان اهالي بلاد الامير نفسه خلال المدة التي قضاها بحائل وهي ثمانية اشهر وسبعة عشر يوماً .. وكان من حسن حظ الشيخ ان الامير اسكنه في قلب حي في حائل يدعى (لبدة) ولما كان رجال هذا الحي هم ابرز رجال البلاد ، فقد كانت النتيجة ان جميع ساكني ذلك الحي ذهبوا يتنافسون على اكرامه وتقديم الضيافة له بذبح الخرفان على اسلوب الكرم العربي المألوف ، كما اصبح منزل الشيخ حاشداً بالرواد وطلاب العلم من أهل البلاد الذين يتلقون دروس التوحيد والفقة عن الشيخ بنهم وحرص شديد، كانت دروس الفقة على مذهب الامام احمد بن حنبل الذي يعتنقه جميع ساكني نجد وهذا العلم لا يؤثر على سياسة وحكم الامير بقدر ما يؤثر درس التوحيد ، الذي فيه من المعاني ما يجعل المريدين من طلاب العلم يحكمون على ابن رشيد حكماً قاسياً من حيث العقيدة ، فابن رشيد مثلا ترك الاحكام في البادية على ما هي عليه منذ العهد الجاهلي ، بدون ان يجعلهم كالحضر يعودون باحكامهم الى ما جاء في القرآن والسنة ..

والآية القرآنية من هذه الناحية صريحة ولا تقبل التأويل وهي قوله تعالى :

(ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) . والآية الثانية : (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون) ..

يضاف الى ذلك ان ابن رشيد موال للسلطان التركي المكروه لدى اهالي نجد منذ تجهيزه لنائبة محمد علي باشا وابنيه طوسون اولا ثم الثاني ابراهيم وما نجم عن ذلك من تقتيل العلماء واعيان اهل نجد البارزين ونهب المحصولات الزراعية على ضآلتها ونشر الفوضى في البلاد .

* * *

المقصود ان درس التوحيد الذي يتلقاه الطلاب والمستمعون من الشيخ اشبه ما يكون بمعول هدم لتقويض صرح عرش الامير بصورة غير مباشرة ،وفي خلال تلك الفترة الوجيزة التي قضاها الشيخ استطاع ان يحدث انقلاباً فكريا معاكسا لابن رشيد في وسط بلدته وفي صميم افئدة اقرب المقربين اليه ، فكانت المصيبة كبيرة على ابن رشيد، لقد جيء بالشيخ خوفاً منه عندما كان بعيدا، فاذا به يتحداه من قرب ، وينشر مبادئه في قلب عاصمته ويهيمن على افئدة اقوى قوة من رجاله المحاربين الاشداء. ولما كان الامير محمد ادهى واعقل من تولى الحكم من اسرته ، فقد ادرك ان المبادىء لا تحارب بالقوة ، ولذلك كان خير وسيلة التمسها هي ان أذن للشيخ بان يعود الى بلاده التي جلبه منها ظانا انه بابعاده عنه انتهى من خطر مبادئه في بلاده ، ولكن الواقع اثبت خلاف ما كان يظنه الامير وذلك ان الشيخ لم يذهب الا بعد ما تبنى مبادئه مريدون يؤمنون بها ايماناً لا تغريه الاطماع ولا تزعزعه الاهوال مهما عظمت ، وكان على رأس المريدين شاب يدعى(صالح السالم) الذي تبنى افكار الشيخ ومبادئه وظل ينشرهـا بكل آجرأة واقدام ..

وأعجب ما في الامر أن صالحاً هذا كان موضع الثقة الوحيد الذي يأمنه الامير على تدريس نساء قصره ، ولكنه عندما آمن بالافكار والمبادىء التي تلقاها من بطل الانقلاب الفكري هجر قصر الامارة ، وأصبح رئيساً لحزب قوي يؤمن بمبادىء الشيخ ويأتمر بامره الذي يتلقاه منه ..

وكانت الخاتمة ان ظل ذلك الحزب شوكة في قلب امارة الرشيد ، بل كان من أهم العوامل الهدامة التي دكت عرش تلك الامارة وقوضته على طول المدى ..

الرأي قبل شجاعة الشجعان

- ٣٤ -

في منتصف العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجري وآخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ميلادي ، وفي تلك الفترة رزق القروي المدعو عبد العزيز العوني الساكن في قرية من قرى القصيم المسماة بـ (الربيعية) طفلاً سماه محمدا ثم ارتحل القروي بعائلته من الربيعية واستوطن مدينة بريدة عاصمة القصيم وظل يعمل بناءلبيوتالطين التي مهر باجادتها، وشاء القدر ان يلمع نجمابن البناءفي قلب شبه الجزيرة العربية وان يلعب دوراً خطيراً في تاريخ هذه البلاد وذلك منذ عام ١٣١٨هـ الى عام ١٣٤٠ اي اثنين وعشرين سنة والعوني كجهاز محرك لكثير من تلك الحوادث التي وقعت في الجزيرة ومن لا يعرف نشاط العونـي السياسي في تلك الفترة ، فانه لا يعرف شيئاً عن تاريخ الجزيرة ..

وكانت شهرة صاحبالترجمة كشاعر شعبي مهيج لشعور وحماس الجماهيرا كثر من شهرته كصاحب رأي سديد يركن اليه بالشدائد والملمات ، الى ان جاءت مناسبة برز بها برأيه الصائب وبعدها احتل الرجل الصداره في أندية حكام ذلك العهد ، حيث اضاف الى شجاعته الأدبية شجاعة الرأي ..

والمناسبة التي برز بها رأيه وبلغ بعدها منزلة لا ينافسه عليها احد من بني طبقته كانت اسبابها ومسبباتها على الوجه الآتي :

كانت مدينة الكويت في مطلع القرن الهجري الحالي بزعامة الشيخ مبارك الصباح اشبه ما تكون ببيروت بعصرنا الراهن مأوى لجميع اللاجئين السياسيين وكان زعماء شبه الجزيرة الناقمون على عبد العزيز المتعب الرشيد كلهم موجودين في الكويت ، وعلى رأسهم الامام عبد الرحمن [1] بن فيصل ال سعود ، وامراء القصيم كابن سليم وابن مهنا .

وكان مبارك الصباح بقدر ما يهمه ان يكرم ضيوفه اللاجئين محوطين بكل معنى من معاني العناية والاكرام ، بقدر ما كان حريصاً كل الحرص على أن لا يصطدم مع ابن متعب ، الامر الذي جعله يرسل مندوباً من عنده يطلب مهادنته ومسالمته ، فلبى ابن متعب طلب الصباح بشرط ان لا يكون للاجئين اي نشاط سياسي ضده ، فتعهد ابن صباح بتنفيذ ذلك ولكن الناقمين كانوا قد اعدوا العدة وغزوا احدى القبائل الموالية لابن متعب ، ولكي يفي ابن صباح بوعده الذي تعهد به لابن متعب ، بعث رسولاً من عنده يؤكد على الامام عبد الرحمن الفيصل بأن لا يمضي بغزوته ، كما اوصى الشيخ مبارك رسوله بأن يؤكد على الامام عبد الرحمن بأنه اذا خالف تعاليمه واصر الا ان يغزو فعليه الا يعود الى الكويت ، على اعتبار انه اخذ على عاتقه عهداً لابن متعب ، ويريد ان يفي به ..

وصل رسول مبارك الامام في الصحراء ، وابلغه رسالة الشيخ مبارك ، ثم قفل الرسول راجعاً ، كان هذا الخبر من مبارك لعبد الرحمن يعتبر تحطيماً لامال الثاني لانه عندما التجأ الى حاكم الكويت لا يريد ان يمثل بيت الشاعر الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

---

(١) اي والد المغفور له الملك عبد العزيز .

لا لا يريد عبد الرحمن ذلك ، كما انـــه لا يريد الغزوة بحد ذاتها من غنيمة الابل ، وانما غايته الاساسية هي مقارعة ابن متعب ، وما دام ان مباركالصباح اوصد هذا الباب بوجهه ، فمعناه انه يريد ان يقضي على بقية ما تبقى عنده من آمال ..

ولذلك لم ير الامام بدأ من ان يجمع قومه ويشرح لهم ما تتضمنه رسالة الشيخ مبارك ويشاورهم جميعاً في الامر ..

يعرف المرء برأيه وبكتابه وبرسوله !!

وحسب طلب الامام تجمع القوم وكل ابدى رأيه ، فكانت الاراء التي سمعها الامام من ذوي الحل والعقد كلها سلبية وبعيدة عن الحل الايجابي ..

وكان بين هؤلاء القوم شاب في مطلع العقد الثالث من العمر لم يعرف عنه الا انه ينظم الشعر الشعبي وحتى الشعر لم يبلغ به بعد الدرجـــة التي تجعله يصف الشعراء المجيدين ، كما تبدو على محياه البساطة ، بل السذاجة والبلاهة معاً ، التي يؤكد لنا انه يصطنعها عامداً متعمداً بدليل قوله :

اتدبيج ونا ماني بدبوجه

وأسفه العلم كأني ما تمعنا به

والمسايل بصدري تقل منسوجه

افتح الراي الى منه غلق بابه

يقول : انني اتعمد ان اتجاهل الامر واجعل نفسي ابله كأنني لا اعرف ولا افهم وفي صدر البيت الثاني يستدرك ويقول : ان الامثال الادبية والحكم المفيدة مطبوعة في فؤادي ومنسوجة نسجاً طبيعياً .. وفي شطر البيت الاخير يقول : انه عندما تتأزم الامور وتبلغ الازمة حداً يتعذر حلها فان لديّ من

سعة الادراك وبعد النظر ووفرة الرأي السديد ما يجعلني استطيع ان أحل الامور حلا سليماً .. وهذا البسيط هو محمد العوني بن عبد العزيز القروي البناء المتواضع سالف الذكر ، فهـذا هو الذي فتح الباب على مصراعيه برأيه السديد .

عندما ادرك العوني أن كل فردمن رفاقه ذوي الحل والعقد ابدى رأيه دون جدوى ، بعد ذلك طلب من الامام عبد الرحمن ان يسمح له ان يعبر عن رأيه فاذن له الامام فقال :

– مما لا شك فيه اننا عندما تركنا بلادنا وجئنا الى الكويت ليست الغاية هي ان نظل مستسلمين للقدر وانما غايتنا بالدرجة الاولى وقبل كل شيء هي ان نناصب ابن رشيد العداء حتى نستعيد بلادنا منه مهما كان الثمن في سبيل ذلك غالياً ، وما دام ان ابن صباح وابن الرشيد قد عقدا بينهما هدنة على اساس أن يتعهد الاول للثاني ان لا يكون لنا اي نشاط سياسي يناهض ابن رشيد فهذا معناه القضاء المبرم على طموح وآمال الكبير منا قبل الصغير ..

ثم استطرد الشاب ابن القروي وقال : ونحن في هـذه الحالة بين امرين لا ثالث لهما وللامام ان يختار أحدهما .

فاما ان نستسلم للهوان والذل والراحة ونذهب ونطلب من ابن رشيد العفو والغفران ونعود لبلادنا ونقعد بين امهاتنا العجائز فكأن احدنا واحد منهن ، واما اننا نسلك الطريق الثاني الذي يستلزم منا ان نموت اشرافـاً او ان نحيا اعزاء ..

ثم صمت الشاب بعد ذلك فرد عليه الامام قائلا :

– نحن مصممون على اقتحام السبيل الثاني ولكن كيف يكون ذلك ؟ ..

فقال : – اذا كنتم مقدمين على ذلك فما علينا الا ان نضرب بتعـــاليم ابن صباح الحائط وان نستمر في سبيلنا متمردين عليه كما تمردنا على ابن رشيد وان نمضي ونصب غارتنا على أية قبيلة من القبائل الموالية لابن رشيد ونغتنم ما يمكننا اغتنامه من الابل .. ثم نعود الى الكويت بسلاحنا وقوتنا ونبيع الابـــل التي اغتنمناها في اسواق الكويت .. وفي عمليتنا هذه نكون قد اكتسبنا فوائد جمة اهمها اننا نوقع بين ابن صباح وبين ابن رشيد العداوة ، لان الاخير سوف يبلغه خبر غزوتنا هذه قبل ان يبعث ابن صباح رسولاً من عنده يعتذر منه ويفهمه في الحقيقة . وابن صباح سوف يغضب من تصرفنا المخالف لاوامره ، ولكن علينا ان نقيم عليه الحجة ونقول له انك لم تبلغنا امرك الا بعدما خرجنا من بلادك ثم نؤكد له بأننا بعدما نقوم بتسديد ما على كل فرد منا من دين بأننــا سوف نبارح الكويت نهائياً ..

وعلينا ان نثبت قولنا هذا بالفعل فيجب بعد ذلك ان نخرج من الكويت ونغزو مرة ثانية اية قبيلة من القبائل التابعة لابن متعب .. وعندئذ سوف يبلغ ابن متعب الخبر بأننا بعنا غنائمنا الاولى في وسط سوق الكويت ثم خرجنا ثانية من الكويت وغزونا احدى قبائله فعندئذ سوف لا يقبل ابن متعب اي عذر يقدمه له ابن صباح بل سوف يعتقد انه يخادعه ويمكر به .. وانه غير جاد في موضوع المسالمة من اساسه ، ولا بد ان يثور ابن متعب ويغضب ويعلن الحرب على ابن الصباح لا محالة ، وعندما تتحقق هذه الامنية فسوف يبعث ابن صباح لنا رسلا يستنجد بنا ويخطب ودنا لنقف بجانبه صفاً واحداً ضد عدونا المشترك ..

وما ان انتهى الشاب ابن البناء من حديثه حتى اجابه الامـام بتأييد رأيه وتقديره له ، وان كان بعض القوم رأوا ان هذه النظرية مجرد خيال شاعر عارية من الرأي السديد ، ولكن الامام اخذ برأي الفتى ونفذه عملياً ومضى في سبيله غازياً بدون تردد ....

الخيال يصبح حقيقة واقعية

وهذا ابن البناء العوني يصف هذه الغزوة والتي تليها في ملحمته التاريخية التي يصح ان تكون مرجعا تاريخيا ويقول :

وصله على قحطان وخلى دارهم
قوم دعـــا والي السما بذهابهـــا

يشير الشاعر الى هذه الغزوة التي غزا بها الامام عبدالرحمن قبيلة قحطان .. ثم قفل راجعاً الى الكويت حسب رأي العوني الذي استحسنـــه الامام ونفذه حرفياً ..

كانت غزوة الامام وعودته الى الكويت ثم عرضه للابل الـــتي اغتنمها من القبيلة فى ذمة ابن متعب كل هذه الامور كانت مصيبة كبيرة على مبارك الصباح الذي اعطى ابن متعب عهداً بأن لايقوم اللاجئون السياسيون عنده بنشاط معاد له ، فلم يسع مبارك الا ان بعث رسولا من عنده لابن متعب يعتذر منه بماحدث ويؤكد له بأن مثل هذه الغزوة لن تتكرر ، وكان ابن متعب قد جـــاءه من رجـــال قبيلة قحطان المغزوين من يشكو له ما حل بهم من أثر الغارة التي صبت عليهم ..

ولنترك الان رسول مبارك الصباح عند ابن متعب الذي اجل الاجابة على الصباح وترك رسوله دون ان يعبأ به لانه اصبح غير مطمئن من ان ما ابداه مبارك من اعتذار هو الواقع الصحيح ، فلنتركه لنرجع اليه بعد ان نعود الى الامام عبدالرحمن الذي نفذ الخطة بحـــذافيرها ثم خرج من الكويت مرة ثانية بعد ان ودع الشيـخ مبارك وداع الرجل الذي ينوي انلايعود اليه ،

ومضى في سبيله غازيا نايف بن بصيص احد رؤساء قبيلة مطير ، وهذا العوني يؤكد هذه الغزوة في احد ابيات ملحمته فيقول :

وصله على نايف بركن مجزل ... نوما وامام المسلمين عدا بها

اخذ بريه والعواصم خلطهم ... خلى منازلهم يطير ترابهـا

وانكف على هجر وخيّم جمعه ... خيله على هجر تدوس خصابها

وأمر على قومه تقود كسوبها ... وادوى كما دلو عدا جذابها

كما ان العوني ذكر الغزوة الاولى التي غزاهـا الامام عبد الرحمن ، كذلـك يذكر أن الامام غزا هذه المرة عشيره (بريه) من قبيلة مطير ، كما يؤكد انه بعد هذه الغزوة ظل في الاحساء مقدار اسبوع ..

***

ولكن بعد هذه الغزوة اين يذهب الامام وغزاته ؟ .. وأي بلد يستقر بـه والى متى وهو يسير في صحراء بلا اهل ولا مأوى ..

ولنترك هؤلاء المغامرين وزعيمهم ينتظرون فرج الله ، ولنعد الى الامير بن متعب الذي بلغه الخبر بأن الامام خرج من الكويت وغزا مرة ثانية قبيلة مطير، وقد فوجيء بهذا النبأ قبل ان يرد جواباً على رسالة ابن صبـــاح الذي لا زال رسوله ينتظر الاجابة منه ، ولذلك لم يتأخر ابن متعب عن الرد الايجابي هـذه المرة بل اعد الرسالة وسلمها الرسول الشيخ مبارك مفتوحة ومضمون الرســالة اعلان الحرب ..

كان الشيخ مبارك هو الاخر بلغه نبأ غزوة الامام لقبيلة مطير في الحين الدي كان ينتظر الاجابة من ابن متعب على اعتذاره منه بغزوة الامام الاولى ، امـا بعد ان خرج الامام من بلاده وغزا مرة ثانية ، فانه اي الشيـخ مبارك لم يكن لديه ادنى شك بان ابن متعب سوف ينقض الهدنة ويعلن الحرب من جانبه ولذلك لم يكن الخبر الذي جاء به رسوله مفاجئا له .

وما ان استلم رسالة ابن متعب حتى اعد رسالة بصورة مستعجلة للامـــام عبدالرحمن يستنجد به بان يحضر الى الكويت ، موضحاً له الغاية التي استنجد به من اجلها بكل صراحة الا وهي الاستعدادوالتأهب لمواجهة العدو المشترك الذي اعلن عليه الحرب . .

* * *

ولنرجع مرة ثانية الى الامام عبدالرحمن زعيم المغامرين الهائمين بصحرائهم الارض فراشهم والسماء غطاؤهم لا رزق لهم الا من كسب سواعدهم ، وها هـو زعيمهم يقود الركب في وسط الصحراء الخالية ساعتهـا حتى من الطيور والوحوش ، وذلك لشدة حرارة الشمس المحرقة ، وقد آن الاوان للمغامرين ان يحطوا عن رحالهم ليرتاحواوقليل حتى تخمد حرارة الشمس وليتناولوا طعام الغداء المكون من حبيبات التمر ، وقليلا من طحين البر . . ولكن المشكلة ان زعيمهم كان شارد الذهن ملتهب الحواس ماضي الارادة ، يهيمن على كيانـه شعور بمسؤولية الحاضر والمستقبل جعـله لا يحس بلهيب الشمس الكاوية ، ولا يشعر بحرارتهـا وكان معروفاً الرصافي يشير اليـه والى امثاله بقوله :

استبرد النـــار من حرت عزائمه

واستصغر الخطب من في نفسه عظم

وعندما كان الامام يتقدم قومه مسافة ليست بالقريبة سابحا في لجة من بحر افكاره المبعثرة بين عائلته التي تركها في الكويت وبين مصيره هو ورفاقـــه المجهول ..

في تلك اللحظة سمع صوتا من خلفه ينادي :

– يالامام ياطويل العمر ...

فانحرف الى صاحب الصوت واذا به رجل قادم يحث راحلته بسرعة فيناوله رسالة من الشيخ مبارك الصبـــاح ، وبعدما قرأ الرسالة قال له رسول الشيـــخ مبارك :

– ان اخاك مباركا أكد علي بأن ابلغك تحياته وسلامه الجزيل ، وان «انخاك» نيابة عنه بأن تعود برفاقك الى الكويت بقدر ما لديك من السرعـــة لـــكي تقف بجانبه ضد ابن متعب ، الذي اعلن عليه الحرب . .

وقد كان مضمون الرسالة لايختلف عن الكلام الذي سمعه من الرسول : وعلى الفور قال الامام لاحد رفاقه :

– إئتوني بالعوني ، وعندما جاء ابن البناء قال له الامام :

– ترى لو جاءك احد وقال لك ما هو منتهى امنيتك التي تحلم بها وتتمنى

ان تتحقق ماذا تقول ...

فأجاب العوني حالا :

- ليس لدي أمنية بالدنيا أحب من ان اسمع النبأ الاكيد القائل بأن ابن متعب اعلن الحرب على ابن صباح ..

وعندما انتهى العوني من حديثه مد الامام يده مصافحا له كعلامة تتخذ على التأييد في الرأي حسب العادات المأخوذ بها الى الان ، ثم بعـد ذلك ناوله رسالة الشيـخ مبارك ..

ومن مكانه عاد الامام عبد الرحمن الىالكويتهو ورفاقه ودخلوا مرفوعي الرأس موفوري الكرامة ومن الكويت الى الرياض ، ثم الى توحيد شبه الجزيرة بكاملها على يد المرحوم عبدالعزيز بن عبدالرحمن الذي لم تبرز موهبته كزعيم موفق الا بعد ان احتل الرياض ..

وبعد فان شجاعة الرأي هذه التي ابداها العونى والتي كان لها الاثر الملحوظ في تطور الاحداث ، لم يشر اليها أي واحد من المؤرخين ، والسبب يعود الى ما الحت اليه في اكثر من مناسبة في مؤلفاتي ، وهو ان الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن تاريـخ بلادنا يجهلون ادب ابناء البلاد الشعبي الذي هو اكبر دليـــل يهتدي به الـكاتب على معرفة مجرى تاريـخ اية امة كانت .. والذي لاشك فيه هو انه اي مؤرخ يريد ان يتصدى لكتابة تاريـخ امة ما وهو لايجيـــد الادب القومي لتلك الامة التي يتصدى للكتابة عنها فانه سوف يقع بأخطاء لاحصرلها

كما انه سوف يضيع عليه من الحقيقة اكثر بكثير مما يقدمه للقراء كتاريخ ...

ولا تفوتني الاشارة الى ان الاستاذ أمين الريحاني الذي يعتبر كتابه مرجعا كبيراً من مراجع تاريخ الجزيرة قد اشار الى فرع بسيط من فروع هذه القصة بكتابة تاريخ نجد الحديث ص ١١٧ اشارة موجزة جاء نصها كما يلي :

(خرج عبدالرحمن من الكويت واغار على عشائر قحطان في روضة سدير .. اما الشيخ مبارك فكان قد رمى شبكتين في بحر السياسة دفاعاً للحرب واستعدادا لها ... اذ ارسل لابن رشيد يفاوضه بالصلح ... ومضى الريحاني الى ان قال :

ـ وكان الامام عبدالرحمن غزا غزوته وقفل راجعا فارسل اليه يأمره بأن لايرجع الى الكويت الخ . .

هذا منتهى ما اشار اليه الريحاني في هذه الحادثة ، واعتقد ان السر الذي يجعل الريحاني وامثاله لا يعرفون شيئاً عن تفاصيل هذه الحادثة ليس جهلهم بمعرفة ادبنا الشعبي فحسب ، بل ولكونهم حاصرين جهودهم لكتابة ما يحدث عن الافذاذ البارزين من زعماء وامثالهم ..

اما ما يقومه به افراد الشعب من اعمال ايجابية من شيم ومكارم وشجاعة في الحروب او شجاعة في الرأي الخ . . . فهذه الامور

لايعبأ بهـــا الكثير من مؤرخي بلادنا الاجانب ، وانما يكتفون بسرد تاريخ حياة العظماء ، مع العلم انه ما من زعيم يستطيـــع ان يبرز في عالم التاريـخ الا بواسطة رجال آزروه ومهدوا له سواء من رجـال الادب أو من رجــال الحروب او منهم جميعا ..[1]

---

(١) رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن زيد سفير السعودية في سوريةولبنان وكان ابن زيد صديقا حميا للمرحوم محمدالعوني..

الداهية الذي صير الاعداء انصارا

- ٣٥ -

قرأت في كتب الادب العربي ان احد المقربين الى اسكندر المقدوني ذي القرنين وجه اليه السؤال التالي :

ـ بماذا استقام لك الملك ؟ ..

فقال ذو القرنين :

ـ باستمالة الاعداء وتعهد الاصدقاء ..

وليس من شك ان الحاكم العاقل هو الذي يبذل جل جهده بأن يستميـل اعداءه بكل ما لديه من قدرة وان لايستهين بالعدو مهما كان ضعيفا ..

وكلما استطاع الحاكم ان يهيمن على قلوب مواطنيه بأية وسيلة كانت وان يصير من الاصدقاء اخوانا ومن الاعداء انصارا ، كان ذلك دليلا واضح المعالم على بعد نظر الحاكم ورجاحة عقله وسعة افقه ..

وبطل قصتنا هذه لم يكن حاكما ، كما انه لم يكن نكرة بالنسبة لابن الجزيرة الملم بتاريخ بلاده منذ مطلع القرن الهجري الحالي حتى بداية العقد الرابع منه .. اي منذ اواخر القرن ـ التاسع عشر ميلادي الى الربع الاول من القرن العشرين ، كما انه لم يكن مجهولا بالنسبة لقارىء هذا السفر بحكم ان اسمه ورد بين دفتيه

اكثر من مرة الا وهو محمد العوني الشاعر الشعبي المهيـــج الذي لعب أعظم دور بارز في تاريخ البلاد من الناحية السياسية وخاصة في نجد فقد كان (دينمو) لكثير من الاحداث السياسية سواء حينما كان في الكويت بجانب مبارك الصباح حتى وقعة الطرفية (الصريف) او بجانب الملك عبـد العزيز آل سعود الى ان اختلف ابن سعود مع آل مهنا امراء بلدة العوني او بجانب آل مهنا الى ان انتهى امرهم من امارة القصيم على يد الملك عبد العزيز او بجانب الشيخ عجمي السعدون رئيس قبيلة المنتفق بالعراق الى ان انتهت زعامته من العراق وذهب يناضـــل بجانب مصطفى كمال اتاتورك الخ .. او بجانب ابن رشيد الى ان انتهت هو الآخر امارته في عام ١٣٤٠ هـ ١٩٢١ م ..

وقد سبق ان تحدثت عن شجاعة الرأي التي قام بها العوني عندما كان بجانب الامام عبد الرحمن الفيصل ويلذ لي ان اتحدث الآن عن شجاعة الرأي التي قام بها هذا الرجل حينما كان في حائل عند ابن رشيد وأود بأن اختصر الموضوع مـــا استطعت فأقول :

حينما غدر عبد الله بن طلال بابن عمه امير البلاد سعود بن رشيد وقتله ولقي القاتل جزاءه على يد احد موالي المغدور به في ساعتها عند ذلك هاج رجـــال قصر الامارة محاولين ان يقتلوا محمدا اخا القاتل .. لولا انه نجا في فورة الغضب باعجوبة لا مجال لشرحها الطويل ، الا ان الأمر انتهى باعتقاله وايداعه السجن علي يد رجال القصر انفسهم .. وبناء على رغبة امير البلاد خلف الامير المقتول ابن اخيه عبد الله المتعب الذي لم يتجاوز سنه ثلاثة عشر عاماً ، كان العوني من انصار ومؤيدي القاتل آل طلال ، ولكنه لم يملك اية قوة مادية لمؤازرة السجين الا انه يملك سعة الحيلة وسداد الرأي وقوة الحجـــة وابتكار الفكرة ، وقوة الارادة الفولاذية التي لا تعرف الاستسلام ولا اليأس .. كل هذه العوامل استعملها العوني لانقاذ صديقه السجين ، وراح يبث آراءه بصورة غير مبـــاشرة وعن طريق

الايحاء ، فبدا أولا بالدعاية القائلة من الخطأ ان يقع الشقاق بين اسرة الامــارة وان يقتل بعضهم بعضا ومن لم يقتل يسجن .. فكيف يفعلون ذلك بانفسهم ما دام ان الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر يحيطون بهم من كل جانب .. ويمضي العوني في دعايته هذه فيقول : ما دام ان القاتل اقترف حماقة دفع ثمنها فما هــو ذنب أخيه البريء السجين ومــا دام ان الامير الان حديث سن .. اليس من الافضل ان يخرج السجين من سجنه ؟ .. مــا دام انه بريء ليؤازر ابن عمه على تحمل عبء المسؤولية وليقفا صفاً واحداً تجاه الاعداء الخارجيين ..

ولما كان رجال القصور غالباً ما يكونون (طغاما) مماليك وشبــه مماليك ، فانه من المسلم به ان يكون مثل هؤلاء محدودي الذكاء وذلك كما ذكرت في مناسبة غير هذه بأن كل من سلبت حريته من الجماعات او الافراد فان عقله يأسن ووعيه ينضب وتفكيره يتقلص وادراكه ينقص بقدر نسبة الحرية التي تسلب منه..

ونفر من هذه الفئة من السهل جداً على داهيــة ماكر كالعوني ان يخدعهم ويسيرهم من حيث يشعرون او لا يشعرون ، كما سيرت الدعاية الصهيونية بعضاً من مغفلي العرب بمقتهم للفلسطينيين [1] وتشويههم لسمعتهم .

تسربت دعاية العوني بين صفوف رجال القصر وسرت كسريان شعلة اللهيب في وسط الحطب الهشيم .. وفي ليــلة ليلاء قام هؤلاء واخرجوا السجين بدون علم من أميرهم ..

كان الامير الصبي يغط في سبات عميق ولم يعرف عن الامر الذي أبرمه رجال قصره بالليل حتى جاءه احد المقربين اليه يخبره بالنبأ المفاجيء ، فذعر الصــبي لسماعه هذه الأخبارية فسأل المخبر مستفسراً عن النفر الذين قاموا بهــذا العمل الذي فيه تحدي لسلطانه من ناحية ، ومن ناحية اخرى فيــه اخراج منافس له

١ انظر كتاب المؤلف (قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب) ..

على الامارة ، فأجابه المسؤول بأن اخراج السجين كان باجماع تام من رجـــال قصرك وانهم بعثوني اليك الان لـكي تأتي الى معاهدة ابن عمك السجين من اجل ان تقفا صفاً واحداً امام الاعداء [1]

لم يكن امام الامير اليافع الا ان استسلم للامر الواقع ما دام ان رجـــاله الذين يعتمد عليهم ويثق بهم والذين جاؤا بابن عمه واودعوه السجن هم بذاتهم الذين كسروا السجن واخرجوا السجين منه عن سلامة نية أو عن سذاجة ، او على الاصح بايحاء من الداهية المـــاكر (العوني) الذي ظل يرقب الحوادث من بعيد ويدير مؤامرة الانقلاب بدون ان يساهم بهـــا بصورة فعلية .. اما رجال القصر فقد ادركوا فيما بعد ان عملية التوفيق بين الامير وابن عمه بعدما درج الدم بين رجال الاسرة اصبحت مستحيلة .. ولكنهم اصبحوا مجبرين بان يسيروا مع السجين الى ابعد مدى وان يحرسوه من كل اذى لانه بات لديهم من اليقين القاطع ما يجعلهم يعتقدون ان بحراستهم له يكونون حرسوا انفسهم من عقاب سيدهم كما يدركون ان حياتهم اصبحت مرهونه بحياته . .

ظلت الحرب الباردة بين الامير وبين ابن عمه فترة وجيزة واخيراً رجحت كفة ابن العم وطارت كفة الامير الذي ترك البـــلاد ومن عليها وشخص نحو الرياض واصبح السجين بالامس هو الامير اليوم . وعندئذ كشف القناع العوني عن وجهه وجاء الى الامير ظاناً انه سوف يكون هو (الكل في الكل) بالنظر الى ما قام به من حيلة ودهاء ، كان من نتيجتها ان اخرجه من السجن وجاء به الى اريكة الامارة ، ولكن ظن العوني جاء بغير محله ، وقد عرف هـذه الظاهرة بوضوح ، عندما جاء يشفع بشخص من اهـــل البلاد انحاز الى الجهة المعادية ، وعندما رأى العوني ان الامير لم يعبأ بشفاعته عند ذلك جادت قريحة الشاعر بقصيدة كانت خير وثيقة تاريخية تؤيد وتؤكد صحة ما قـام به العوني

---

(١) كانت هذه الحركة أول انقلاب من نوعه في شبه جزيرة العرب .

من مكر ودهاء صيّر به النفر الاعداء انصاراً له واعواناً بل وحراساً لحياته لاعتقادهم ان حياتهم اصبحت مرهونة بحياة الامير .

واليك قصيدة الماكر الداهية ·

ادركتَهــاَ بالحَزمْ والعَزم والبَاسْ

وطفَيتَهــا يَوم آنهاَ كَالسّعْيره

جعَلت عدوَانكْ يصيرُونْ حرّاسْ

بَرَاي وَتَدبيرِ اوَفتَــلْ أو بَصيرْه

يومأنهاقَامَتْ من السّاسْ للـراسْ

واصبَحْ سنَى نَارَكْ بِنَجْدٍ كَبيره

ابْعدتْ عَنَها يَاحَمى دنْ الافَراسْ

انَا البعيــدْ وَصارْ غيرَي ذخيره

صَــارَت لنّاسٍ ماهقَينَنَــاه بِقْيَاسْ

وانا لي القْشلاَتْ صَــارتْ بَرْيْره

انَا رَفيقَكْ يوم يَجفُونَــك النَّاسْ

وانا وديــعْ سُدَودكَمَ والسّـرْيرَه

أحسبْ اذا من نلت عـزٍ ونومَاسْ

يِصَــير ليَ جَاهَه وفَخرَهْ وخَـيْره

واحسب لَو ان ذَنـــيْ يُعدّلْ يا لاطعَاسْ

يكـــونْ عَندكْ نُخفْ حبّة شَغْـــيرة

دِنيَاكْ تَمضِي بَينَ غَفْلة وَهـــوجَاسْ

وصيّور مَاهي يَابو بَنْدْر قَصْـــيرة

الشرح :

١ – يقول انا الذي استطعت ان استدرك الامور بعدما وصلت بك الى الحضيض وذلك بفضل ما بذلته من الحزم والعزة وقوة البأس والصبر والمثابرة وانا الذي استطعت ان اخمد النار المتأججة عندما كان لهيبها على وشك ان يحرقك ..

٢ – هـــذا هو بيت القصيد فهو يقول : الست بصاحب الرأي السديد والتدابير المحكمة والبصيرة النافذة الذي استطاع ان يجعل اعداءك الذين اعتقلوك ووضعوا برجليك اصفاد الحديد هم انفسهم الذين يحرسون حياتك ويحافظون على سلامتك من كل اذى كما يحافظون على سلامة أنفسهم ..

٣ . ٤ – وفي البيت الثالث والرابع معناهما مرتبط .. بعضه ببعض ، فيقول بهذين البيتين يا للعجب ايهـا الامير الفارس ابعد ما سعيت لــك السعي الحثيث بكل اخلاص ووفاء ، وبعد ان اصبح لك صوت داو في قلب نجـــد وعند ساكنيها ..

٤ – ابعد ذلك يكون نصيبي منك الفشل وخيبة الامل ؟ .. ومن ثم يأتي

قوم ليس لهم شأن من قبل فيكونون المقربين واكون مبعداً منبوذاً ..

٥ - وهؤلاء الذين اصبح لهم عندك الان شأن ليسوا بالعير ولا بالنفير ولم يخطر لي ببال ان يكون لهم عندك ادنى حظوة او شأن .. اما انا الذي استحق التقدير بفضل ما قمت به من مغامرات ومؤامرات انقلابية محكمة في سبيل رفع شأنك .. فقد اصبح نصيبي منك الفشل والخسران ..

٦ - امثلي يعامل بهذا الجفاء وانا صديقك الوفي في الحين الذي جفاك وتخلى عنك اقرب المقربين من الناس وقد كنت المؤتمن الوحيد على اسراركم يا آل طلال..

٧ - كنت اعتقد يا حضرة الاميرانه حينما وصلت الى هذه المنزلة وتربعت على اريكة الامارة انني سوف انال منزلة تليق بكفاءتي ووفائي ..

٨ - وكنت اعتقد انه لو بدر مني ذنوب ترجح بالرمال انك سوف تتجاوز عن ذنوبي هذه مهما عظمت وثقلت وتنظر اليها كأنها اخف من حبة الشعير .. وان كانت اثقل من الجبال الرملية ..

٩ - في هذا البيت الاخير تشاءم الشاعر من الحياة كلها فيقول الحقيقة ان هذه الدنيا لا تستحق من يركن اليها او يثق بها ولا برجالها لأنها تمر كوميض البرق .. والمرء فيها سادر بين غفلة وبين همومه الجسام ..

والحقيقة ان اهم ما في القصيدة هو البيت الثاني من حيث دلالته على صحة وتأييد القصة ..

الفصل الرابع

شجاعة الساعد

ان الذي خلق الحديد وبأسه جعل الحديد لساعديك ذليلا
زحزحته فتخاذلت اضلاعه وطرحته ارضاً فصل صليلا

أشجع الرجال يصرع أشجع الأسود

- ٣٦ -

هذه القصة رويتها عن شخص يدعى سالم الشلاش من قبيلة شمر الفرات السورية ومن عشيرة الصائح .

والذي يسترعي الانتباه في هذه الحادثة هو ما يثبت لنا ثبوتاً قاطعاً ان الشجاع من بني الانسان لديه طاقة من الشجاعة ما يفوق شجاعة الاسد ..وربما يقال ان هذا ليس بالغريب بحكم ان كثيراً من بني الانسان يقتنص الاسود في غاباتها ويصطادها في عرينها .. وهذا شيء معلوم لدينا ولكن هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين ما يقتنص الأسد ويصطاده عن طريق المخاتلة بوسيلة فخ ينصبه لها وبعدما يقع الاسد في المصيدة موثوقاً لا حول له ولا طول ومن ثم يأتي بعد ذلك هذا ويقتله وبين من يبارز الأسد وجها لوجه كمبارزة الفارس للفارس ، ثم يصرعه مجندلا لا بفخ ينصبه له فيصطاده حيلة ولا ببندقية يرميه بسهمها فيصرعه عن بعد ولا بمدية يطعنه بها من الخلف ، لا ليس بهذه ولا بتلك وانما بقوة قلبه الحجري وساعديه الحديديين ..

واليك القصة كما رويتها بمعناها كالآتي :

هناك فارس من ابرز فرسان قبيلة شمر الفرات شهرة بعهده يدعى (عضيب ابن موعد[1]) وكان هذا الفارس على جانب فروسيته مضيافاً وشهماً ويميل كثيراً الى سماع الأدب ، ويشاع عنه انه تأخذه نشوة اذا سمع القصص التي تمت الى الشهامة والبطولة بأدنى صلة .. كما انه اذا سمع الاحاديث التي تحمل طابع الجبن المتناهي او شيئاً من الاخلاق الحقيرة التي تتنافى وشيم العرب يبلغ به

١ توفي رحمه الله في مدينة حائل في عهد اميرها طلال بن رشيد بين عام ١٢٧٠هـ و١٢٨٢م

الانفعال اقصى مداه .. وكل من لديه اقل المام بمعرفة تاريخ الرجال البارزين من قبيلة صاحب الترجمة يعرف جيداً ما يتمتع به هذا الرجل من هذه السجايا التي فطرت جبلته عليها حتى اصبح عنواناً بارزا يضرب به المثل بين رجال قبيلته الى ان اصبح يقال عن الرجل المسرف بالشهامة كأنه عضيب بن موعد ..

ولما كان هذا الرجل كما ذكرنا سابقاً مضيافاً ويحب القصص ذات الطابع البطولي وينفر من الاحاديث التي عكس ذلك .. فقد ضافه ذات ليلة شيخ من المعمرين وهو من (الشوايا) اي من الفلاحين .. وبعد ان احسن قراه اراد ان يؤنسه فسأله عن سنه فقال الضيف : انه تجاوز مئة سنة .

عضيب – أرى انك قوي البنية فكأنك دون ذلك بكثير .

الضيف – الحقيقة ان ما قلته هو الصحيح وأظن ان السبب الذي جعلني بهذه القوة رغم انني بلغت من العمر عتياً هو انني لم اصب بمرض قط ولم ار بحياتي ما يزعجني قطعياً اللهم الا مرة واحدة منذ مدة طويلة .

عضيب – الا يحدثنا عمنا عن هذا الحادث .

الضيف – لم يكن في ذلك الحادث بالنسبة اليّ ما يشرفني يا بني .

عضيب – ان اعترافك هذا بقصورك مما يجعلني اعتبرك صدوقاً في روايتك وهذا مما يزيدني حرصا ورغبة بأن تشرح لنا هذه الحادثة التي لا بد ان يكون فيها من العبرة ما نحن بحاجة اليه .

الضيف – لقد بلغني عنك بأنك تسر وتطرب لسماعك الحوادث والقصص التي فيها من معاني الشجاعة ما هو جدير بالاعجاب كما انك تنفعل مما هو عكس ذلك ..

عضيب – وهل في الحادثة التي عندك ما يثير الانفعال .

الضيف – ان في اولها ما يجعلك ترقص طربا لسماعها ولكن في آخرها الشيء الذي سوف يزعجك لا محالة..

عضيب – لقد شوقتني ياعمي لهذه القصة فهاتها ما دام ان في اولها ما يسر فلا مانع من سماعنا آخرها املا ان يكون في اولها ما يشفع بآخرها..

الضيف – ان الحادثة تتلخص بما يلي :

« كنت ذات ليلة من ليالي الصيف وفي اول الشهر العربي خارجا من منزلي قاصدا زوجتي الاخرى في مكان ناء عن المنزل الذي فيه زوجتي ام ابنائي وكان بين منزلي وبين منزل زوجتي الجديدة غابة مخيفة يخشى المرء ان يسير فيها منفرداً في رابعة النهار فضلا عن الليل بحكم كثرة السباع المفترسة فيها ولذلك رأيت من الافضل ان أبيت فوق ذروة احدى تلك الاشجار العالية حتى الصباح ومن ثم اواصل رحلتي نهاراً ليكون ذلك آمن لي من مغامرتي ليلا التي اعرض نفسي فيها للخطر.. وقد نفذت فكرتي هذه فاخترت شجرة عالية وصعدت إليها وهناك استويت على فرعها .. وبعد برهة قصيرة سمعت حركة مستنكرة وكان القمر ساطعا فمددت بصري واذا به عجل فهدأ روعي بعدما خشيت انه أسد فجاء العجل وبرك تحت الشجرة التي كنت على رأسها . . وما ان اخذت مدة قصيرة حتى سمعت زئير الاسد فارتعدت فرائصي وقد ازددت هلعا عندما شعرت ان هذا الزئير كل بين فترة واخرى يزداد دنوا مني ، عند ذلك ذكرت في نفسي ما يقال من ان السباع تشم رائحة الفريسة من مكان بعيد ، فقلت لقد جلبت لي رائحة هذا العجل مصيبة عليّ .. وقد تحقق ما كنت اتوقعه وذلك انه سرعان ما خرج علي خمسة اسود يتقدم الجميع واحد بارز في ضخامته ،فاقبل على العجل فقده بنابه وظل يفترس من طيب لحمه حتى انتفخت خاصرتاه .. ثم ابتعد قليلا عن الفريسة وربض .. وبعد ذلك هجمت الاربعة على فضلته

وتناهبت ما تبقى من لحم العجل حتى انه لم يبق الا عظامه ثم ولت هذه السباع من حيث السبيل الذي جاءت منه بينما سيد الأسود ظل رابضا كما كان من قبل مما زادني رعباً في نفسي معتقداً انه يستطيع ان يثب علي بقفزة منه فيمزقني اربا ... وفي هذه الحالة التي كنت في منتهى الهلع والانهيار العصبي .. رأيت على ضوء القمر شابا قادما نحو الفريسة وعندما دنا منها التفت يمينا وشمالا فاذا به يرى الاسد رابضا عند ذلك ادرك ان الذي افترس العجل هذا الاسد فما شعرت حتى شمر الشاب عن ساعديه وصاح بالاسد قائلا : اتأكل عجلي يا كلب وتنام آمنا غير خائف .. قال ذلك الفتى ثم قفز على الاسد هاجماً عليه بينما وثب الاسد نحوه .. ولكن الفتى كان اسرع وثوبا من الاسد فوضع احدى يديه بحلق الاسد واليد الاخرى احتضنه بها لكي لايتمكن من ان يقده باظفاره ..(ومن هنا قاطعه عضيب) قائلا :

ولماذا لم تنزل من شجرتك وتساعد اخاك الانسان على هذا الوحش. .

الضيف : كنت اود ان افعل شيئا من ذلك ولكنني شعرت بشلل اصابني فلم استطع ان احرك لساني فضلا عن جوارحي :

عضيب : ثم ماذا كانت النتيجة ..؟

الضيف : لقد ظل الاسد يزأر والفتى ينتخي ويصرخ بالاسد .. وكلما طال الوقت زاد صوت الفتى ارتفاعا بقدر ما ينخفض زئير الاسد حتى انقلب الزئير الى شخير وقد ظل الاسد والفتى يتصارعان حتى قرب الفجر عند ذلك تمكن الفتى ان يكتم نفس الاسد بيمينه ولم يتركه حتى وقع ميتا .. ثم جاء بجثته يسحبها الى المكان الذي فيه بقية من عظام العجل فاخذ العظام ووضعها فوق رأس الاسد وكأنه يخاطب انسانا عندما قال : لقد اخذت ثارك يا عجلي

وافترست من افترسك ... قال ذلك ثم اسند رأسه على جذع الشجرة الموالية لشجرتي واستسلم بعد هذا الصراع الى نوم عميق ولم يستيقظ من نومته هذه الى يومنا هذا ...

عضيب – يعني مات هذا الشاب ..

الضيف – اجل .

عضيب – فهل اصاب الاسد منه مقتلا ؟..

الضيف – كلا لم ينله الاسد بسوء ..

عضيب – اذن من اين جاءه سبب الموت ..

الضيف – دع عنك يابني التفاصيل . .

عضيب ـ بعدما وصلنا الى هذه المرحلة لا بد ان اعرف كيف مات هذا الفتى الشجاع . .

الضيف ـ لاتحرجني يابني لانني اذا قلت غير الحقيقة معناه انني كذبت وانا لم اعرف عن نفسي انني كذبت حتى ولو ان قول الصدق يعيبني فانني لن اختار عنه بديلا وان قلت الحقيقة فانك سوف تنفعل وتغضب علي ..

عضيب ـ هل قتلت الفتى ..

الضيف ـ معاذ الله انا عاجز من ان اقتل اي انسان فكيف بي ان اقتل قاتل الاسد ..

عضيب ـ اذن كيف مات الفتى ؟؟

الضيف ـ لا اريد ان اتي لك ببقية القصة لانها مؤلمة ..

عضيب ـ لايسعني الان الا ان اعرف كيف كان مصير هذا الفتى الباسل ..

الضيف ـ عندما اضطجع الفتى بعد ذلك الصراع .. بعد هذا تسلل ثعبان من نفس الشجرة التي كنت جالساً على فرعها ..

عضيب ـ يقاطع الضيف قائلا : ثم ماذا فعل الثعبان ؟

الضيف ـ دنا من الفتى فلدغه في عنقه ..

عضيب ـ ثم مات على اثرها ؟

الضيف ـ نعم مات . .

عضيب ـ ولماذا لم تنذره عن الثعبان يا جبان ؟.

الضيف ـ لقد قلت لك سابقاً بانه اصابني شلل عام لا استطيع النطق ولا الحركة من اول ساعة رأيت فيها الاسد الخمسة حتي جاء النهار ومر من عندي قوم من عشيرتنا ونظروني فأنزلوني من الشجرة ولم أشف الا بعد مدة طويلة ..

عضيب ـ اسمح لي يا عم ان اقول ليت القوم لم ينزلوك من شجرتك وليتك مت ولم تعش فمن يكن جبانا الى هذه الدرجة فموته اولى من حياته .

الضيف ـ لقد قلت لك يابني ان آخر القصة قد يزعجك وقد لا تملك نفسك عن الانفعال . .

عضيب ـ ان ما قلته هو الحقيقة ولكنني لا اعرف ان نهاية قصتك سوف تكون بهذه الصفة وثق ان لو لم تكن ضيفا عندي ولولا ان فيك صفة احببتها وهي صدقك وصراحتك .. لولا هذه وتلك لاسمعتك مايسؤك.

الضيف ـ ولذلك وجدتني اتردد عن سرد ما تبقى من الحادثة بسبب ما يشاع عن انفعالك عند سماعك لقصة تشبه نهاية هذه القصة ..

عضيب ـ عسى ان لايكون لك ذرية من الذكور .

الضيف ـ ماذا تعني من سؤالك هذا ؟ ..

عضيب ـ اعني واتمنى ان تكون عقيما لأنه لن يخرج من صلب الجبـــان الا جبان مثله . ومعني ذلك زيادة عـــدد الجبناء في امة العرب وهذا ما لا اريده ...

ليست الوراثة قضية لا تقبل الجدل

الضيف ـ ليست هذه النظرية قاعدة مطردة . . فقد نجد شجاعاً خرج من صلبه ابناء جبناء كما نجد جبانا انجب ابناء شجعانا ...

عضيب ـ انا لا اصدق ذلك فالاسد لايمكن ان ينجب الا اسدا والثعلب من المستحيل ان ينجب الا ثعلبا .

الضيف – يابني انا اوافقك الرأي بأن الجنس من الحيـوان او من البشر لايمكن ان ينجب الا جنسا من نوع جنسه ولكن لااوافقك الرأي بأن الاخلاق التي يتمتع بها انسان ما سوف يتمتع بها الابن بصورة حتمية فالابن قد يرث اباه بالخلقة ولكنه لايرثه بالاخلاق وبالعكس ..

عضيب ـ حديثك هذا لايمكن ان اقنع به لأن عاداتنا تخالف ذلك ..

الضيف ـ ولكنني يا بني شيـخ عاش قرنا كاملا واصبح لدي من التجارب ما يجعلني اثق بأنني على صواب بنظريتي هذه كما انني بحكم تجـــاربي ايضا

لا اعارض نظريتك هذه لأن تجاربي هدتني بأنها تكون احيانا على جانب كبير من الصواب .. ولكنها دون المغالاة التي تشير اليها اعني انها لم تكن ولن تكون قضية مسلم بها لايعتريها الشطط والتبديل .

عضيب ـ انا واثق من صحة نظريتي هذه ولن اتزحزح عنها كما انني واثق ايضاً بأن من يبلغ من العمر القدر الذي بلغته فإنه لابد الا ان يكون له من التجارب التي مرت عليه ما هو جدير بأن يكون حجة في الموضوع فإن يكن لك شيء من ذلك فإت به ..

الضيف ـ لا شك ان لي تجربة كبيرة بهذا الشأن وتجربتي هي الحكم الفاصل في خلافنا هذا ، وانما الذي اريده منك ان تدعني وشأني فأنت لك رأيك وانا لي رأيي .

عضيب ـ ولماذا لا توافينا بما لديك من تجربة بهذا الشأن وما هو الداعي عن امتناعك عن ذكر شيء فيه انتصار لرأيك وقد يكون فيه الى جانب ذلك درس وعبرة لنا ؟ ..

الضيف ـ ان في تجربتي عبرة حقا ولكن فيها ما هو مؤلم لعاطفتي ومزعج بالنسبة لشعورك الرقيق واحساسك المرهف ولذلك لاارغب بذكر تلك التجربة المؤلمة فكفاني ما ذكرته آنفاً ولا اراني بحاجة الى كشف النقاب عما اصابني من حزن وخزي في آن واحد ..

عضيب - فهل في تجربتك ما هو اسوأ من العار الذي حدثتنا به عن جبنك عندما رأيت بني الانسان يتصارع هو والاسد فلم تستطع من جبنك ان تؤازره ؟ .. وهل في تجربتك ايضا من الخزي ما هو اقبح من الخزي الذي توشحت به عندما رأيت الثعبان يتسلل من الشجرة التي تجلس

على فرعها فيبلغ بك الجبن الى الحد الذي تعجز به من ان تقفز من هذهالشجرة هاربا وتصرخ بذلك الفتى ليهرب من الثعبان ؟ .. فهل في تجربتك ما هو اقبح واسوأ من ذلك ..

الضيف ـ اجل ولهذا تجدني خجلت من اناذكر لك من هوهذا الفتى؟ ولا اريد ان اذكره لك الآن لولا ان سياق الحديث الذي دار بيني وبينك سوف يضطرني الى توضيح الحقيقة . .

عضيب ـ كأن تجربتك هذه لها صلة في قصتك .

الضيف ـ اجل انها الصلة التي لا تنفصل ..

عضيب ـ لايكون الفتى ابن عمك او اخوك ..

الضيف ـ ليتــه هذا او ذاك ولكنه : قال الشيخ هذه الكلمة اي حرف الاستدراك ثم راح يجهش بالبكاء .: وساد النادي موجة من الصمت وبعــد فترة تنهد الشيخ وقال : كنت حريصا ان لااقول ان ذلك الفتى هو ابني ..أجل كنت شديد الحرص على كتمان هذه الحقيقة ولكن الحديث الذي دائما مايكون ذا شجون هو الذي أضطرني لذلك . . لـكي اثبت لك يا بني بالدليــل المادي المحسوس وبالتجربة العملية بأن قضية الوراثــة ليست قاعدة مطردة لا تقبل الجدل .

عضيب ـ ايكون الفتى صارع الاسد أبنا لك ؟؟

الضيف ـ اجل بل هو ابني البكر وذلك انني كنت وحيد والدي .. وكان في منزلنا فتاة يتيمة تكون ابنة عمي فقام والدي وعقد لي النكاح على ابنــة

اخيه وذلك عندما كنت في سن مبكره جداً وعندما بلغت سن الخامسة عشر انجبت ذلك الفتى وحينما وقعت الحادثة كان سنه واحدا وعشرين سنة بينما كان سني ستا وثلاثين سنة .. وكان الذي يراه لا يفرق بيني وبينه من حيث الخلقة فقد كنا متشابهين بكل معنى التشابه الا بالرجولة والشجاعة فإن الفرق بيننا كما سمعته وكما رويته لك لا زيادة فيه ولا نقصان ..

عضيب – لعل اباك شجاع ..

الضيف – لا زلت يا بني متمسكاً بهذه الاسطورة .. لم يكن ابي ولا جدي من الشجعان بل ولا يعرف عن اي واحد من اسرتنا الشجاعة ..

عضيب – ان في قصتك يا شيخ بطولة في اولها وحزنا في آخرها وعبرة في نهايتها .. ولقد سمعت ان الجبان يجبن في اللحظات الحاسمة فيهرب عن صديقه او يتقاعس عن اسعاف اخيه ولكنني لم اسمع قط ان الجبن يبلغ بك درجة تعجز بها عن نجدة ابنك ولو بالكلام .. كما انني ما كنت اتخيل ان من يكون جبانا الى هذه الدرجة يمكنه ان ينجب شجاعاً كابنك .. وخير ما في قصتك هذه التي تحتوي على ثلاث مراحل كما ذكرتهي انها تحمل طابعاً آخر وهو صدق روايتك[1]

* * *

(١) وبعد فلنعد الآن الى تاريخ هذه الحادثة على وجه التقريب فاذا قلنا ان عضيب بن موعد توفي في مدة ادناها عام ١٢٨٢ واقصاها عام ١٢٦٣هـ واذا قدرنا ان راوي الحادثة عندما رواها كان عمره مائة عام واذا قدرنا ايضاً انه رواها في نادي الفارس ابن موعد قبل ان يتوفى بسنتين فقط اي عام ١٢٨٠ فتكون الحادثة وقعت قبل الرواية في مدة قدرها ٦٤ سنة ومعناه ان للحادثة الآن اي منذ عامنا الحالي ١٣٨٤ هـ حتى وقوع حدوثها ١٦٨ عاما على وجه التقريب .

كل آفة عليها من الله آفة

- ٣٧ -

هذا المثل من جملة الأمثلة التي يرددهـا الشعبيون عندنا ، في كل مناسبة من المناسبات الطارئة التي ينطبق عليها هذا المثل قولاً وفعلاً ..

وما اكثر المناسبات التي تذكرنا دائماً وابداً بهذا المثل الذي يتلخص معناه بما يلي :

(ما من ظالم او طاغية الا وسيبتلى على طول الزمان بظالم يذيقه الظلم والطغيان اللذين كان يتسلط بهما على الغير) .

ويوشك ان يكون هذا المثل الشعبي من اقدم الأمثلة الشعبية التي سمعتهـا وحفظتها منذ عهد الطفولة ..

واعتقد ان السبب الذي جعلني احتفظ به لا من اجل انه مثـل واقعي فحسب ، ولكن لأنني شخصياً اكره الظلم انى كان نوعه ، وامقت اهله حيثما كانوا ، ولئن كنت اكره ان اشمت بأي انسان اصيب بكارثة من كوارث الدهر حتى ولو كان هذا الانسان من الدّ اعدائي ، فإنني لا اكره ان اشمت بالظالمين الطغاة ، فيما اذا ابتلاهم الله بقوي اذاقهم مرارة الظلم والطغيان جزاء وفاقاً لما قدمته ايديهم من اعمال مماثلة . وتلك ظاهرة عبر عنها الشاعر الملقب (ببدوى الجبل – الاستاذ احمد سليمان الاحمد) خير تعبير وذلك عندما فتح الجيش الالماني باريس في الحرب العالمية الثانية فأنشد هذا الشاعر السوري قصيدة كلها شماتة بفرنسا ، وعلى سبيل الاختصار اورد منها قوله :

سمعت باريس تشكو ظلم فاتحها فهل سمعت أيا باريس شكوانا
اني لأشمت بالجبار يصرعه طاغ ويرهقه ظلماً وعدوانا
عشرون عاماً شربنا الكأس مترعة من الأذى فلتذوقي شربها الآن

وهكذا نجد الظالم الطاغية في كل زمان ومكان وسواء كان هذا الجبار المعتدي من بني الانسان او من عالم الحيوان ، فإنه لا بد ان يبتليه الله بمن ينتقم منه جزاء ونكالاً على ما قام به من اعتداء على الآمنين الأبرياء .

* * *

وقبل ان تنقطع الاسود من ارض العراق من مدة لا تقل عن قرن ونيف ؛ كان يوجد اسد يختلف باعتدائه عن بقية الاسود التي يتوقف اعتداؤها على افتراس البهائم من الغنم او البقر الخ .. وانما يفترس بني الانسان فأصبح لا تقبل نفسه اي غذاء الا الغذاء الذي يفترسه من بني آدم . وعندما التذ بافتراسه للانسان تمادى به الامر الى الحد الذي جعله يقتحم المنازل ويختطف السكان من بين ايدي اهليهم ، فكان من شأن ذلك ان ادخل الرعب والخوف في قلوب السكان .. فكم من ليلة وليلة هجم هذا الضرغام البطاش الغشوم ، واختطف شخصاً من السكان الآمنين المسالمين وراح يجره من عضده غير مبال ولا خائف ، وكان اعتماده على ظفره ونابه وعلى ضخامة جثته التي تختلف عن بقية الاسود ، اختلافاً كبيراً ، جعل منه وحشاً يقدم على مثل هذه العملية في كل مناسبة وبدون مناسبة . فإن لحق به احد يريد ان ينقذ فريسته منه ، فهو عند ذلك يترك الفريسة ويكر بهجوم معاكس على هذا الاخير فيثب عليه ويقطعه ارباً ..

وفي ذات ليلة وثب هذا الغضنفر كعادته على شخص يدعى «حسن النكيشه» واختطفه من بين يدي اهله على الاسلوب نفسه الذي اعتاد عليه في اعماله المتكررة ، وراح يجر فريسته بكل هدوء وامان وبدون اية مبالاة ، ولم يخطر

لهذا الوحش ببال ان هناك من يستطيع ان يفلت فريسته من يده ، والسبب كما اشرنا هو ان عمليته هذه لم تكن بكراً من نوعها بل سبق له ان قام بأعمال مماثلة من هذا النوع .. كما سبق له ايضاً ان افترس اكثر من واحد من الرجال الشجعان الذين اخذتهم النخوة ولحقوا به محاولين ان ينقذوا ضحيته من يديه ، فتكون النتيجة كما اسلفنا ان يثب على هذا الذي يحاول انقاذ الفريسة ويقده بنابه ، ثم يعود الى فريسته فيما بعد .

اصبح الفارس مفترساً

اما ان يخطر ببال الغضنفر ان يلحق به فتى شجاع كصالح الزيد [1] لا ليفلت فريسته من بين براثنه فحسب ، بل ليثب عليه كما كان يثب هو على ضحيته وليمزق اشلاءه بحسامه كما كان يمزق اشلاء فريسته بأظفاره ..، لا لم يخطر ببال الضرغام الغاشم شيء من ذلك ..

وفي الحين الذي كان ملك الوحوش متأبطاً فريسته سمع نداء يصيح به بصوت عال جهوري قائلا :

ـ قف يا كلب ..

---

(١) صالح من مدينة حائل وهو الجد المباشر للمرحوم عبد العزيز بن زيد الذي كان سفيراً للمملكة العربية السعودية في سورية ولبنان . انظر ص ٢٦١ من هذا الجزء . وقد ذهب صالح الزيد للعراق من بلاده حائل حوالي عام ١٢٤٥ ﻫ هو ونفر من اهالي بلاده وعلى رأس اولئك النفر عبد الله العلي الرشيد انظر ص ١٧٤ ج ١ من شيم العرب للمؤلف . وقد ذكرت الاسباب التي جعلت صالح الزيد يهاجر عن بلاده ذكرتها في الجزء الخامس من شيم العرب الذي لا زال تحت الطبع .

كان هذا الصوت يختلف عن اي صوت سمعه من بني الانسان.. صوت اشبه ما يكون بزئير الاسد الهصور ، ولذلك ترك الاسد فريسته وراح يزأر زئيزاً مدوياً مرعباً .. ثم عقب زئيره بزئير ثان وثالث وبعد ذلك ارتكز على قدميه كما اعتمد على يده اليسرى ثم وثب بيده اليمين محاولاً ان يهشم بها هامة الفتى صالح .. ولكن الفتى كان اسرع منه وثوبا بحسامه الذى امتشقه بسرعة خاطفة واومى به على يد المعتدي فبترها ، فجمع الضرغام كل ما لديه من قوة ثم وثب ثانية بيده الثانية محاولاً ان يفتك بالفتى .. ولكن الفتى سبقه بحسامه مرة اخرى وبتر يده الثانية .. ثم بعد ذلك أجهز عليه وقطعه ارباً واراح اهل البلاد من شره ، واخذ بيد الشخص الذي كان ينوي الاسد افتراسه وادخله بيت اهله ، ويؤكد لي المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد حفيد صالح بطل القصة بأن الصلة بين احفاد حسن النتيشة العراقي الذي انقذه جده صالح من افتراس الاسد وبين احفاد صالح الزيد ظلت راسخة الجذور ومستمرة دون انقطاع وخاصة اذا زار احفاد صالح العراق في مناسبة ما ..

من ابطال السودان

- ٣٨ -

كل من لا يعرف حقيقة ساكني السودان يظن خطأ انهم ليسوا بعرب بحكم سوادبشرتهم والذي يتخيل وهما هذه النظرية سوف يخيل اليه ايضاً انني اخطأت بوضعي لهذه القصه ضمن شيم العرب وعاداتهم، ولكنني افند من يرى هذا الرأي بالمنطق الواقعي وبالعلم الأكيد الناتج عن خبرة وتجربة ودراسة لعاداتهم وذلك بحكم صلتي المباشرة بهم تلك الصلة التي مكنتني من معرفة اخلاق هؤلاء القوم معرفة وطيدة وذلك منذ اكثر من عشرين عاماً حينما ساقني القدر لزيارة تلك البلاد حيث قضيت فيها فترة من الزمن كنت فيها يافعاً ..

ولا اريد ان ابعد بالقارىء الى شرح الاسباب التي قادتني الى تلك الرحلة التي مكثت بها سنتين هناك ، لأن ذلك يبعد بنا عن صميم الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه، والذي يطيب لي الاشارة اليه هو انني تجولت بشتى الاقطار السودانية واستوطنت بعضاً منها الامر الذي مكنني بأن ازداد خبرة واسعة وعلما راسخا بعادات وأنساب اهل تلك البلاد وتقاليدهم القومية وعلى وجه العموم استطيع ان أؤكد بأنهم كلهم كعرب ولم يكن هناك كثير التباين بالعادات والشيم العربية خاصة في البلاد التي لم تتأثر بالحضارة والاخلاق الاوروبية ..

وبحثنا هنا حول ساكني السودان ، اولئك القوم الذين حسب عهدي بهم

من ابعد البلاد العربية عن التصنع بأخلاق الغربيين ومن أشد البلاد العربية تمسكا بعادات العرب فتجدهم بكرمهم وشهامتهم وشدة جلدهم يمثلون الخلق العربي بكل معنى من معاني هذه الكلمة .. ومن ناحية تمسكهم بأنسابهم فإنه قل ان تجد واحداً منهم الا وهو يعتز بنسبه العربي ولا يتوقف اعتزازه بعروبته الى هذا الحد فحسب ، بل يذهب ويسرد شجرة نسبه فلان ابن فلان الى ان يقف عند الفضل بن العباس الهاشمي وأكثر من يعتني بهذه الناحية بعض منهم الذين تعرفت عليهم كقبيلة الجعليين والشاقيه والانقرياب والرباطـاب الخ .. فكل هؤلاء وامثالهم نجد ان الفرد منهم يعد نسبه غيبا كما ذكرنا حتى ان يصل الى العباس عم النبي محمد ﷺ . ومن المعلوم انه ليس لديهم لغة ما عدا اللغة العربية. وما دمت قد وضعت فصلا خاصا بشجاعة الساعد فلا بد لي هنا بأن اشير الى قصة تعبر ابلغ التعبير عن الشجاعة التي من هذا النوع ، وقبل ان اباشر بشرح القصة أحب اولا ان أشير الى ذكر عادة من عاداتهم التي تبرز بها الشجاعة الجسديه بصوره تكاد ان نقول عنها إنها فوق احتمال بني الانسان، بصرف النظر عن كونها عادة ليست مألوفة ولا مستحسنة ولكنها كما اسلفت تعبر تعبيراً اكيداً عن مدى صبر وقوة وشجاعة ابطالها الماهرين بها ..

وأعني بذلك لعبة « الدلوكه » تلك التي كنت اود ان لو شاهدتها رؤيه العين لكي استطيع بأن اصفها كما رأيت لا كما سمعت .. والسبب الذي حال دون اتاحة الفرصة لرؤيتي « الدلوكه » هو انها لا تقام ولا يعتني بهـا كما يقولون الا عند النفر (الاشو)[1] هذا وبحكم ان اقامتي كانت في المدن فإنه تعذر عليّ رؤية هذه المسرحية الشعبية وتعريف هذه اللعبة كما يلي :

---

(١) الاشو يعني القرويين .

هذه الدلوكه السودانية .

يجتمع شباب القرية ونساؤها في موضع ما ، وفي مناسبة الافراح كالاعياد او الزواج ، ومن ثم تأتي امرأة مسنة وتقرع طبلا كبيراً وتلحن قصيدة شعبية من القصائد التي تنشد في مثل هذه المناسبة. وقد كنت احفظ بعضاً من القصائد القوميــة التي من هذا النوع ولكن خانتني الذاكرة لطول العهد . ولم اذكر الا بيتا واحداً سوف آتي به في مكانه المناسب ، المقصود انه بعدما يدق الطبــل وتنشد صاحبة الطبل الاغاني الشعبية عند ذلك يأتي الفتيان والفتيات ويحيطون بصاحبةالطبل وعندئذ تأتي فتاة وتتوسط المسرح وتظل ترقص واذا قضت فترة اختارت شاباً من الحاضرين وذهبتنحوه حتى اذا دنت منه قامت بحركة غرامية توحي بأنها تريد ان تقبل الفتي بينما هي لا تعدو من كونها تميل عليه برأسها دون أن تمسه قائلة الكلمة التالية (كش) وهذه العملية يطلق عليــها اسم (شبال) حسب الاصطلاح فيقال عندهم فلان أعطى (شبال) والشاب الذي تمنحه الفتاة (للشبال) يتحتم عليه ان يقف وسط المسرح امــام الحفل وقفة الشجاع فيهز زنده ثم يضرب الارض بقدمه قائلا: (انا خو البنوت) اي (انا أخو الفتيات) فيأتيه بعد ذلك شاب آخر حاملا سوطاً بيده فيضربه على ظهره شريطة ان يكون المضروب عاري الظهر وليس على ظهره أي شيء يقيه الضرب ما عدا ما يستر به عورته .

والجدير بالملاحظة ان هذا المضروب سوف يقتص من ضاربه في تلك الساعة او بعدها بقدر عدد الاسواط التي يضربه بها ، فالقضية أشبــه ما تكون بالمبارزة ، فاذا كان المضروب الاخير استطاع ان يتحمل عــدد الاسواط التي

ضربه بها الاول فيكون امتياز البطولة امام هذا الحفل له لا للضارب الاول ، واذا اخذ التفوق على نده اصبح له مكانة محترمة بين بني قومه الى أن يأتيه من يفوقه ، والثاني هذا سوف ينال الاحترام حتى يأتي من يعلو عليه وهكذا دواليك الى ان تصل الاسطورة الى ما يسمى بفتوة (الحي) او شيء بهذا المعنى . وما من قرية الا ويكون فيها شخص متفوق بصبره واحتماله للسياط - بصورة لايضارعه بها احد من فتيان الحي . فيكون هذا كالحصان الذي يأخذ جائزة السباق فيظل يتمتع بهذه الصفة الى ان يأتيه من يسمو عليه ..

ولا بد لي من أن اشير الى البيت الذي تنشده ضاربة الطبل فتقول :

أخوان البنوت القـــده ظميانه

وين انتم يا مسقين اكفانـــه

شرح المعنى : تقول ان الاسواط ظمآنه ولا يسقيها الا اجساد الفتيان الشجعان فأين انتم ايها الفتيان ؟ ...

يأكل طعام الخمسين ويصرع الخمسين !

وعندما كنت في السودان روى لي شخص يقوم بعمل مهندس بفن النجارة يدعى (عالم طه) حادثة بطولة قام بها فتى سوداني اسمه محمد عابد يقول طه : انه سافر ضمن بعثة من رفاقه بأمر من حكومة الانتداب الانجليزية وقتذاك برحلة الى احدى الجهات من السودان التي ضاع عن ذاكرتي موضعها ، وكان يرأس تلك البعثة شخص انجليزي وعدد هذه البعثة يقارب خمسين شخصا بما فيهم

من مستخدمين وعمال ، وبينما كانوا يسيرون في أرض صحراوية وجدوا شاة ضائعة فكلفوا احد العمال بذبحها وطبخها ، والعامل الذي وكل بطبخها هو المرافق الخاص لصاحب الرواية المدعو محمد عابد ، وكان محمد معروفا بين العمال بالصدق والامانة والاستقامة وقوة البنية ، وكان السبب لاختيارهم له هو ما يعتقدونه بأنه سوف ينهي طبخ الشاة بوقت اسرع مما ينهيه به غيره من زملائه ، وقد كان الفتى عند حسن ظنهم به من حيث قوته وسرعة انضاجه للذبيحة ، ولكنهم اخطأوا بمعرفتهم لشخصه ، فكأنهم كانوا كمن يودع الشاة عند الذئب الجائع ، وذلك ان الفتى التهم الشاة بكاملها بدون شعور منه حيث كان كلما بين لحظة واخرى يتناول قطعة من لحم الشاة التي في القدر على النار ويلتهمها بقصد ان يعرف مدى نضوجها ، وهكذا كان يفعل حتى تقلص لحم الشاة ولم يبق منه الا ما هو اقل من ربعه . . وقد كان يأخذ القطعة من القدر المغطى ثم يعيد الغطاء بدون ان ينظر ماذا بقي من اللحم حتى اذا ايقن ان اللحم نضج نزل القدر حتى يبرد وينادي رفاقه ، ولكنه عندما كشف الغطاء وجد القدر فارغا من لحم الشاة ولم يبق به الا كما ذكرنا آنفاً اي الشيء الذي يقل عن ربع لحم الذبيحة ، فازداد دهشة وخجلا فكان مصدر دهشته هو انه استغرب كيف انه التهم هذه الشاة في الحين الذي يشعر انه جائع وكأنه لم يدخل جوفه لقمة واحدة كما انه كان خجلاً من رفاقه فلا يعلم بماذا يعتذر به منهم في عمليته هذه ..

فترك الفتى قدره مكشوفا وراح يشرح لمعلمه القضية كما كانت ولم يكن لدى معلمه من الحيلة الا ان قال له عليك ان تجمع رجال القافلة جميعهم وتشرح لهم الامر وتطلب منهم ان يسامحوك .. فذهب الفتى ونادى رجال القافلة فحضروا

جميعا اعتقادا منهم ان الفتى انتهى من طبخ الشاة وانه ينوي ان يقسم عليهم اللحم كل يناوله بسهمه من الشاة .. ولكنهم ادركوا ان اعتقادهم كان خاطئا وذلك عندما وقف الفتى وقال :

- باستطاعتي أيها الاخوان ان اقول لكم انني بعدما انضجت الشاة تركتها في القدر وذهبت لقضاء حاجة ما وعندما عدت وجدت الشاة مختلسة ولم يبق منها الا شيء قليل .. كان باستطاعتي ايها الرفاق ان اقول لكم ذلك وانتم سوف تصدقونني طبعا نظراً لما تعرفونه عني من صدق الحديث ولكن من الحق والصدق ان اصارحكم بالحقيقة وان كانت هذه الحقيقة مخجلة لي وقد لايرضي عنها بعضكم فأقول اسمحوا لي بأن اعرفكم عن نفسي اولا : فانا فتى بقدر ما وهبني الله من الصحة وقوة البنية بقدر ما كنت اكولا .. لقد كنت التهم الخروف الكبير الذي هو اكبر من شاتكم هذه كنت آكله بمفردي في الحين الذي لم اكن جائعا كجوعي هذا اليوم .. وهذا ما جعلني آكل ثلاثة ارباع الشاة بدون ان اشعر وكل ما في الامر انني بين لحظة واخرى اذهب وآخذ قطعة من لحم الشاة وهي فوق النار وفي وسط القدر لأنظر هل نضجت ام لا ؟... وبدون شعور مني أكلت ثلاثة ارباع الشاة ولم اشعر بعمليتي هذه المخجلة الا بعدما نزلت القدر وكشفت الغطاء عنه عند ذلك عرفت ما وقع مني وازيدكم تأكيداً بأنني اكلت ما اكلت وانا لازلت اشعر بالجوع فكأنني لم اتناول الطعام قطعيا ..

يقول الراوي طه انه بعدما انتهى الفتى من حديثه انقسمت القافلة الى قسمين : قسم منهم اقتنع بحديث الفتى وسمح عنه وقسم آخر اصر على انه يجب

ان يطرح ويضرب بالسياط تأديبا له على فعلته هذه .. وكان الاكثرية من رجال القافلة الذين يرون الرأي الاخير ، وعندما رأى الفتى عزم الاكثرية على عقابه والتنكيل به نزح بعيدا عنهم وناشدهم الله بأن يتركوه وشأنه ولكن القوم لم يصغوا لما يقول .. وأخيرا حذرهم بل وهددهم عما سيلقونه منه فيما اذا اقدموا على عملهم هذا ، وما كان من تحذيره لهم الا ان تمادوا باصرارهم وهجموا عليه جميعا فخرج من بينهم كالسهم ثم كر عليهم وبدأ يتناول الذين كانوا يحرضونهم واحدا واحدا حتى اذا قبض احدا منهم رفعه بين يديه ثم ضرب به الارض ضربة تركت ذعرا ورعباً في قلوبهم جميعا . وأخيرا لاذوا جميعا بالفرار وبعد ذلك عاد والتهم بقية ما تبقي من الشاة .

هذا وقد واصلت القافله سيرها الحثيث حتى وصلوا الى قرية كبيرة لا اذكر اسمها ومن الصدف العجيبة ان وجد رجال هذه القافلة في تلك القرية مسرحية (الدلوكه) فكانوا بطبيعة حالهم كقادمين من رحلة صحراوية بحاجة الى ان يرفهوا عن انفسهم جميعاً ليتسلوا بمشاهدة هذه المسرحية الشعبية بما فيهم آكل الشاة محمد الذي سر سرورا يختلف عن سرور رفاقه ، فهم ارادوا بذهابهم ان يرفهوا عن انفهسم ويتسلوا ولكنه اراد ان يبرهن لرفاقه مدى ما يتمتع به من بطولة في ميدان الدلوكة الذي هو موضع امتحان بصورة تكون اكثر مما رأوه وشاهدوه وقبل ان يذهب الى المسرح مر عليهم وقال :

– سوف أذهب الى الدلوكة فأود ان تأتوا الآن لتنظروا الى موقف صاحبكم لعلكم ترون مني ما يبيض وجهكم امام اهل هذه القرية لكي تغفروا لي خطيئتي الاولى التي وقعت مني بدون قصد وأعني بها اكلي للشاة كما تغفرون لي

خطيئتي الثانية التي أرغمني بعض اخواني عفا الله عنهم على ارتكابها كدفاع عن النفس ، بعد هذه الكلمات ذهب الفتى الى المسرح كما تبعه رفاقه بشوق ورغبة لينظروا ماذا لدى فتاهم هذا من البطولة بعد حديثه هذا ..

وما ان وصل المسرح وتوسط منه حتى قام بالحركات التي تدل على ان صاحبها يريد ان يدخل نفسه في ميدان المنازلة وقد كان الفتى على جانب كبير من الوسامة والجسامة معا كما انه غريب لم يسبق لمن بالحفل من اهل القرية ان رأوه قبل هذه المرة ، فكل هذه العوامل من شأنها ان تجمل انظار من بالحفل تشرئب نحوه كما انها خليقة ان تشغل عقل فتاة المسرح الراقصة مما يجعلها تنساق اليه بشوق وغرام ... وهذا ما حصل فعلا ، فقد ذهبت الفتاة اليه حتى اذا دنت منه اعطته (الشبال) فقام الفتى بعملية الروتين المألوف حيث توسط المسرح ليدفع ثمن هذا « الشبال » ولما كان الفتى كما هو معروف غريبا عن أهل القرية ، ومن عادة الغريب الذي لا يعرف مدى ما لديه من قدرة على الجلد والشجاعة ان يكون مهيوبا يضاف الى ذلك ان للفتى من مظاهر الرجولة والهيبه ما يجعل له هيبة وخوفا في نفسية من يريد ان ينازله ، فقد تردد ان يقدم على منازلته من فتيان القرية اي واحد منهم .. وحسب العادات الجارية في حالة كهذه أي انه اذا جاء للبلاد غريب لايعرفون شيئا عن مدى بطولته في هذا الميدان وتخلى فتيان البلاد عن منازلته وتأزم الموقف ، عند ذلك يتحتم على فتوة هذه البلاد ان ينازله هو بنفسه ولهذا اضطر الفتوة صاحب المجد الذي لاينافسه أحد عليه في هذه البلاد اضطر ان يأخذ السوط ويقبل عليه قائلا الكلمة المألوفة :

- شبال بشره [١]

فأجابه الفتي الغريب (ايوالله بشره [١]) ثم ضرب الارض برجله ، ضربة احدثت رعبا في قلوب اهل القرية جميعا .

وبعد ذلك ناوله فتوة البلاد سوطا بكل ما اوتي من القوة ولكن لم يكن لهذه الضربة أي اثر على المضروب .

واحد كألف والف كواحد ! !

ثم ضربه ثانية وثالثة وكان في كل ضربة من ضرباته يستعمل اقصى ما لديه من القوة ولكنه رغم ذلك لم يكن لضرباته هذه ادنى تأثير بل كأنه يضرب جبلا على الرغم من ان هذا الفتوة عرف بأنه لم يضرب انسانا بسوطه الا صرعه ...

ولما كانت الاصطلاحات كما ذكرنا تقضي ان يسدد المضروب للضارب في حينه عدد الاسواط التي ضرب بها سواء قلت ام كثرت ، فقد وجد فتوة البلاد نفسه أن من الحكمة ان لايزيد عن هذه الاسواط الثلاثة ليقينه ان كل ضربة يزيدها سوف تكون على حسابه ، ولذلك طرح السوط من يده ووقف عند هذا الحد ليحتفظ لنفسه بشيء من الكرامة ، ولكن قرينه لم يتركه يحتفظ بكرامته امام الحفل بل صرخ به قائلا :

---

(١) اي انك سوف تدفع ثمن هذه العملية التي قامت بها الفتاة .

(٢) انني مقدم على ذلك غير هائب .

– ألست فتوة البلاد مالك ادبرت ؟ انني اتحداك امام هذا الحفل بأن تزيد من اسواطك هذه الباردة ؟ ..

ثم واصل حديثه الى ان قال يجب عليك احد الامرين اما ان تعود وتزيدني او ان تعترف على نفسك بأنك تركتني رحمة بنفسك ورأفة بها ، ثم عليك ان تعلم بأن الصراع بيني وبينك لم يكن صراع شخصين عاديين بل صراع فتوة وفتوة فان غلبتني فلا تخش بعد ذلك منافسة اي فتوة بعدي وان غلبتك فسوف تفقد لقب فتوة البلاد ..

كان لهذا الحديث الموجه من الفتى الغريب الى الفتوة المعروف اثر مزعج ، كما انه اثار انتباه جميع من في المسرح وجعلهم يزدادون اعجابا بالفتى الغريب وظلوا جميعا ينتظرون النتيجة بفارغ الصبر ..

هذا وقد انبعث المسرح من جديد وقامت تترنم صاحبة الدلوكة بصوتها المطرب وجاءت فتاة المسرح ترقص على نغمات المطربة وموسيقى الدلوكة وظلت الفتاة ترقص وتتكسر باطرافها فكأن جسدها الغض الناعم لحم لا عظام فيه حتى اذا دنت من فتوة البلاد مالت عليه كغصن الموز ، وناولته – الشبال – المغلوم أي القبلة الموهومة فقفز الفتوة وتوسط المسرح واقبل نحوه الفتى الغريب وهز السوط بوجهه قائلا العبارة المألوفة :

– الشبال بشره ، واجابه هذا بالجواب الذي يقال عادة بمثل هذه الحالة :

– اي والله بشره كما مثل الحركات المعتادة سالفة الذكر .

واول عملية قام بها الفتى الغريب هى ان اتجه الى من بالحفل قائلا :

– اعاهدكم الله لئن تآمر علي احد وشق الطبل قاصدا افساد المسرح قبل ان انهي عدد الاسواط الثلاثة التي سوف اضرب بها الفتوة كما ضربني فانني سوف ارقع شق الطبل من جسد الفتوة نفسه بمديتي هذه ، مشيرا الى المدية التي يضعها الشعميون السودانيون في الذراع الايمن .

كأنني ارى علامات الاستفهام تترامى علي من القراء مستفسرين عن معنى هذا اللغز ، ومعناه هو ان العادة المتبعة تقضي بأنه عندما تطغى بطولة الضارب على المضروب وتنهار قوة المضروب قبل ان يستوفي الاخير عدد الاسواط التي ضرب بها من قبل عند ذلك يأتي احد اقارب او اصدقاء المضروب ويشق الطبل الذي هو مدار نشاط المسرح والغاية من ذلك هو افساد المسرح من اساسه ..

هذا وقد ناول الفتى الغريب فتوة البلاد السوط الاول وشاء ان يرتمي الفتوة ارضا من شدة الضربة الاولى ولكنه استرد شجاعته وثبت بعدما ظل يرتعش وظهره ينزف دما ثم ضربه الثانية فسقط على الارض فهجم اخوه على الطبل الضارب قاصدا ان يشق الطبل لكي تفسد المسرحية قبل ان يناوله اخاه السوط الثالث وعندئذ وثب الفتى الغريب على هذا الذي اراد ان يفسد للطبل قبل ان يستوفي حقه كامــــلا ، وهنالك عند ذلـــك هجم من بالحفل من شباب القرية على الفتى الغريب حيث اخذتهم النعرة القبلية على فتوتهم الذي وقع صريعا من ضربه وكان قصد اهل القرية ان يستخلصوا المدية من يده ثم يشبعونه ضرباً فيما اذا لم يستسلم ..

ويؤكد راوي الحادثة المهندس عــــالم طه ان فتاهم عندما رأى كل من في المسرح من رجال ونساء هجموا عليه وشاءوا ان يتمكنوا منه عند ذلك هجم الفتي على ادنى الجهات الموالية حاملاً السوط بيد والمــدية بيد فهزم كل من وقف بوجهه وعندما فك الحصار الذي كان مطوقاً به كر مرة ثانية بهجوم معاكس

على البقية فلم يقف بوجهه احد من رجال القرية فحسب بل حتى رفاقه انهزموا عن وجهه .

ويزيدني المهندس عالم تأكيداً بأن رئيس القافلة الانجليزي اعجب كثيراً بالفتى محمد وراح يحاول ان يستميله لكي يكون مرافقاً له بصورة خاصة ولم يترك وسيلة من وسائل الاغراء للفتى الا استعملها ولكن البطل صارح الانكليزي قـــائلا :

– لو خيّرت بين الموت او البقاء في معيتك لفضلت الأمر الأول .



شجاعته بساعده كشجاعته في الهيجاء

- ٣٩ -

ربما يكون لدى انسان ما شجاعة أدبية ، ولو لم يكن لديه شجاعه في الحروب ، او يكون لديه شجاعة في قلبه وساعده ، ولم يكن لديه شجاعة في عقله وتفكيره .. او يكون العكس من هذا وذاك .. والجمع بين هذه الصفات بصورة كاملة قد يكون من المستحيل .. اما الجمع بين صفتين متجانستين كالجمع مثلا بين الشجاعة الفكرية والشجاعة الحربية ، او الجمع بين شجاعة القلب وشجاعة الساعد ، فالجمع بين هذه وتلك قد لا يكون متعذراً كتعذره بين الصفات السالفة الذكر ..

وبطل قصتنا هذه هو سويلم الشعلان[1] ذلك الرجل الذي جمع بين شجاعة الحروب كفارس له مواقف معروفة في الهيجاء ، كما اضاف اليها شجاعته بساعده وقلبه وذلك في الحادثة الآتية :

كان ذلك في عام ١٣٦٦هـ عندما كنت طالباً في الطائف في مدرسة دار التوحيد الثانوية ، وقد بلغنا وقتها ان هناك ذئباً مفترساً في قرية الحوية[2] وان

(١) انظر ص ٨٥ من هذا الجزء . وصفحة .... ج ٣ من شيم العرب للمؤلف .
(٢) الحوية هي القرية التي فيها مطار الطائف .

هذا الذئب بلغ استهتاره بالسكان درجة جعلته لا يبالي باقتحام بيوتهم واختطاف فريستة من الغنم من بين ايدى الاهالي .. وقد تكررت عمليته هذه ، وفي ذات ليلة هجم الذئب المذكور على منزل سويلم الشعلان عندمـا كان يقيم في (الحوية) قاصداً ان ينهب عنزاً من الغنم الموجودة عند صاحب المنزل .

ويروي لي سويلم رحمه الله كيفية هجوم الذئب على منزله فيقول :

– بينما كنت وزوجتي وأطفالي نغط في سبات عميق في بداية الثلث الاخير من الليل .. وفي تلك اللحظة سمعنـــا دوي صوت ثقيـلا شعرنا بأنه سقط في البيت ، وقد احدث سقوط هذا الشيء المفاجيء اثراً مزعجاً كان من شأنــه ان استيقظنا جميعاً وذهبنا للنظر ما الأمر ، وسرعان ما بدا لنا الامر غير مجهول وذلك عندما رأينا الذئب يتجول بين الغنم الموجودة في جانب البيت .

ويقول الراوي: ما ان رأى الأطفال النساء والذئب حتى علا ضجيجهم وصراخهم بصورة تدعو الى الرثاء، وعند ذلك رأيت ان خير وسيلة اتخذها مبدئياً لمواجهة المشكلة هي انني جمعت العائلة كلها من نساء واطفال وأدخلتهم في احدى غرف البيت وأقفلت عليهم باب الغرفة ، ثم بعد ذلك ذهبت لانظر ماذا فعل الذئب بالغنم ، وعندها وجدته واقفا بين الغنم دون ان يقوم بشيء عملي نحوهـــا .. فصحت به فترك الغنم وراح مدبراً قاصـــداً ان يخرج من الطريق الذي دخل منه .. ولكن المشكلة هى ان الجدار الذي يحيط بالبيت والذي قفز منه الذئب

كانت ارضة مرتفعة من الخارج بصورة مكنت الذئب من القفز منه بدون كلفة بينما كانت ارض البيت من الداخل منخفضة فيكون الجدار بطبيعة الحال مرتفعاً الامر الذي جعل عودة الذئب منه متعذرة ..

ويمضي سويلم في قصته فيقول : عندما وجد الذئب انه لا يستطيع الخروج من المكان الذي دخل منه عند ذلك ذهب يحاول الخروج من الباب الخارجي للبيت ولكن هذا الباب كان مقفلا ، وعندما وجده موصداً في وجهه وان لا سبيل له للخروج من المأزق الذي ادخل نفسه فيه ، عند ذلك جمع نفسه وأقبل علي ينوي الفتك بي ، ويقف سويلم عند هذه المرحلة فيقول :

(كنت شعرت في تلك اللحظة ان الذئب عندما يتعذر عليه الخروج فانه سوف يهجم عليّ لا محالة لا محبة بالافتراس فحسب بل كدفاع عن نفسه لان القضية بالنسبة اليه أصبحت بحكم الامر الواقع قضية حياة او موت .. وهذا الشعور جعلني افكر بالسلاح الذي اقاوم به هذا الوحش ، ففكرت بالبندقية على الفور ، ولكن هذه البندقية في وسط الغرفة التي اقفلتها على الأبناء ولم اذكر الان اين يكون مفتاحها ، كما انه لم يكن لدي متسع من الوقت يجعلني انقب عن المكان الذي فيه المفتاح ..

واسترسل الراوي في سرد قصته الى ان قال : وعندما أقبل عليّ هذا الوحش فاتحاً فاه كنت في لباس النوم اعزل من أي سلاح الا انني في تلك اللحظة وقعت عيني على العصا التي يحمل عليها الساقي(صفيحتي) الماء فاختطفتها،

وعلى الفور اهويت بها على الوحش بكل مالدي من القوة فخر صريعاً فوراً ..
وقد جاءت الاصابة لحسن الحظ على هامتـه فهشمتها بصورة اشبه ما تكون
بطلقة نارية فتت رأسه ومزقته ارباً [1] .).

***

١ ومما يجعلنا نؤمن بأن شجاعة قلب سويلم كشجاعته بساعده انه لم تكن الاولى اعظم مما يجعلنا نؤمن بذلك وهو ان الرجل وقتهـا كان في بداية العقد السابع من عمره ومع ذلك استطاع بضربة واحدة ان يقضي على هذا الوحش المفترس .

بطل القسطنطينية الذي اهمله التاريخ

- ٤٠ -

يوشك ان تكون هوايتي علم التاريخ وحرصي الشديد على الالمـام بكل ما يمكنني ان اعرفه عن تاريخ امتي العربية بصورة خاصة وتاريخ الامم الاخرى بالمفهوم العام الشامل طاغيين على كياني بكل مـــا تشير اليه هـــذه الكلمة من معنى .

كما ان هيامي بالاطلاع على تاريخ الاسر التي اتيح لرجالها ان يتولوا دست الحكم باسم الملكية او الامبراطورية والسلطنة الخ .. ورغبتي بمعرفة تاريـخ الافراد الذين ابرزتهم مواهبهم من العدم والخمول الى ذيوع الصيت وشيوع الذكر وعالم الخلود ، لا يقل شأناً عن رغبتي بالاطلاع على تاريخ الشعوب والامم .

وكان الامر طبيعياً ان اسعى ما امكنني السعي الى الوصول نحو معرفـــة تاريـخ اسرة بني عثمان بصورة خاصة وتاريـخ الشعب التركي بشكل عام ، تلك الاسرة التي مهما قيل عنها من صواب وشطط فاننا لا نستطيـــع ان ننكر بأنها اول اسرة في التاريخ استطاعت ان تصل اسمها اتصالا لا ينفصل باسم عشرات الملايين من البشر الذين اقاموا الدنيا واقعدوها حقبة طويلة من الزمان ، وذلك الشعب (العثماني) الذي تصدى لقهر ثمان واربعين حملة صليبية متحدة في هدفها وعقيدتها ، وان اختلفت في بيئتها ولغتها ومناخها ، كمـــا استطاع ايضاً في خلال ستة قرون ونصف ان يحمي البلاد المقدسة من كل معتد وغاصب .

ان أسرة من هذا الطراز وشعباً بهذه الصفة لجديران ان يخلقا في نفسية اي مشتاق لعلم التاريـخ حافزاً يحدوه الى الوقوف على معرفة تاريخهما الحافل بالعبر والغني بالعظات، والطافح بالاحداث .

وهذا مما جعلني ابذل أقصى ما لدى من التنقيب عن تاريـخ هذه الامة ، فلم اترك مكتبة من المكتبات العربية التي هيأت لي الفرصه ، الاتصال بها ، ما لم ابحث فيها عن ضالتي المنشودة ، وكان نصيبي الافلاس ، وبالتالي ذهبت اسأل ذوي الاختصاص من الاصدقاء ، علّي اجد عندهم ما اريـــد ، وكانت فرصة سعيدة عندما وجدت في مكتبة الاستاذ ناصر المنقور في مكة عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م كتاباً بعنوان (التحفة الحليمية في تاريـخ الدولة العلية) مطبوعـاً في القاهرة في ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥ م لمؤلفه ابراهيم حليم الشركسي الاصل ، ولئن كان الكتاب مختصراً وعلى ورق لا يشجع القارىء، الا انه لا يخلو من الفائدة بل قد يكون رغم ايجازه شاملا لسرد جميـع الوقائع والاحداث والحملات الصليبية التي واجهتها الدولة العثمانية بكل بسالة ورباطة جأش ، وذلك منذ عـــام ٧٥٦ هـ وحتى السنة التي طبـع بها المؤلف كتابة في ١٣٢٣ هـ ١٩٠٩ م .

وفي اثناء مطالعتي البحث الخاص باستيلاء السلطان محمـــد الفاتح على مدينة القسطنطينية (استنبول) وقع نظري على حادثة بل بطولة خارقة قام بها عربي من جنود السلطان في المعركة التي فتح فيها القسطنطينية ، ولئن كانت تلك الحادثة من اهم الحوادث في فتح القسطنطينية ذلك الفتح الذي غير مجرى التاريخ، فان المؤلف مع الأسف لم يمر على ذكرها بادنى شيء من العبارات التي تتناسب وجلالة قدرها ، اللهم الا انه ذكرها ذكرا عابراً ، بل وفارغاً من كل معنى من المعاني التي تتناسب وشجاعة فاعلها ،وقد جاءت عبارة المؤلف نصاً حرفياً على النحو الاتي :

« وفي يوم الثلاثاء عشرين جمادي الاولى من السنة المذكورة أي ٨٥٧ هـ في الرابع والخمسين يوماً من المحاصرة هجم السلطان [١] بعساكره على الاستانة فدخلوها وخرج الامبراطور [٢] من سراية تكفور بعساكره خاصة للمدافعة وبيده السيد مسلول فوجد نفراً عربياً مجروحاً فاراد قطع رأسه فسبقه العربي الجريح بضربة بسيفه فقطع بها رأسه فتم الفتح » .

هذه العبارات بنصها الحرفي اوردها المؤلف ، بدون ان يذكر اسم العربي القاتـــل للامبراطور ، والذي يعتبر قتله له من اهم الاسباب التي سهلت فتح القسطنطينية التي كانت للصليبيين وقتذاك (كموسكو – لروسيا) « وكلندن للانكليز » بل وبدون ان يذكر الولاية التي ينتسب اليها البطل او القرية التي خلق فيها ، فيما اذا كان قروياً او القبيلة التي يتصل نسبه بها فيما اذا كان قبلياً ، وكلما في الامر انه ذكره ذكراً عابراً على الصيغة التي وردت آنفـــاً ، ولست ادري أهل كان الاهمال لاسم هذا الجندي الباسل جاء من المؤلف ؟ .. ام من المؤلفين الاتراك القدامى الذين كما ذكر المؤلف في مقدمة كتابه بأنه نقله عنهم؟..

والذي يخيل اليّ ان الاسباب التي حالت دون تخليد اسم بطل القسطنطينية تأتي كما يلي :

اولا – ان العساكر التي حاصرت القسطنطينية وان كانت خليطاً من الجنود المسلمين من الترك والعرب والاكراد والشركس الخ .. فان الاكثرية ولا شك كانت للاتراك كما ان القيادة ايضاً للسلطان التركي .. وهذا مما يجعل اي عمل يقوم به الافراد الاقلية يضيع ذكره وتدرس معالمه وتختفي آثاره بـــين عدد القوم الذين تتألف منهم الاكثرية والقيادة معاً ، كما اختفى ذكر البطولة التي

---

(١) السلطان هو محمد الفاتح ابن السلطان مراد الثاني .

(٢) الامبراطور هو قسطنطين الحادي عشر آخر الاباطرة البيزنطيين .

قام بها نفر من الجنود السعوديين سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٤٨ م في حرب فلسطين لا لانهم اقلية بجانب الجيش المصري فحسب بل لان القيادة كانت ايضاً لاخواننا المصريين .

ثانياً - هو ان المؤرخين الذين كتبوا تاريخ تلك الحقبة من الزمان لا يخلو الامر من ان يكونوا من احد النوعين ، فاما ان يكونوا من الأتراك ومعناه انهم كتبوه باللغة التركية وظل ذلك التاريخ على ما كان عليه بدون ان ينقل الى اللغة العربية . وقد يكون هناك من المؤرخين من ذكر اسم البطل بلغة قومه اي التركية . وظل الاسم مغموراً في طي الاهمال بسبب عدم ترجمته الى اللغة العربية .

ثالثا - هو انه قد يكون كاتب التاريخ في تلك الفترة من احد الكتاب الاجانب الغربيين الذين تطوعوا لكتابة تاريخ العصور الوسطى التي تعتبر حسب اصطلاح المؤرخين من القرن السادس الى القرن الثالث عشر الميلادي، فالمؤرخون اما ان يكونوا كتبوا تاريخهم باللغة الفرنسية اذا كان المؤرخ فرنسياً او باللغة الانجليزية اذا كان انجليزياً، ومن بدهيات الامور ان المؤرخ الذي هو من احدى الطائفتين ، قد لا يحاول ان يسعى جاهداً من اجل ان يصل الى معرفة اسم او كنية ذلك البطل العربي الذي يشفران في قتله لقسطنطين الحادي عشر قتلا لآماله العدوانية واهدافه الاجرامية، بل قتلا وقضاء مبرما لغزوات اسلافه الصليبيين .

اجل إن الكاتب الذي من إحدى هاتين الفئتين سوف لا يحاول بقدر ما يحاول ذلك المؤرخ الانجليزي :(هـ. ا. ل. فشر) تمجيد واطراء الامبراطورة سطنطين الحادي المؤرخ عشر في كتابه (تاريخ اوروبا والعصور الوسطى - الطبعة الثالثة : ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ص ٤٥٩ وقد اطرى المؤلف قسطنطين السالف الذكر بالعبارات التي جاء نصها الحرفي كما يلي :

« وفي هذه السنة الحرجة في خاتمة الامبراطورية البيزنطية سطع اسم قسطنطين الحادي عشر في سماء البطولة ، وبرهن هذا الامبراطور الى حل نصفه بين العثمانيين والبيزنطيين[1] او الجود بالنفس في حومة الدفاع عن القسطنطينية ».

وفي صفحة ٤٦٠ قال المؤلف ابن التايمس ما يلي : « ومعنى هذا كله ان التقصير المسيحي هو الذي جعل القسطنطينية تخور وتمور وتتهدم تحت ضربات العثمانيين وجعل آخر الاباطرة البيزنطيين يخر صريعاً شريفاً والامبراطورية نفسها تئن انين الموت في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٤٥٣ م الخ » ...

نحن لا نلوم المؤلف الاستاذ هـ. ا. ل. فيشر على اطرائه لابن ملته الامبراطور قسطنطين وان يكن مصرعه بالصفة التي قتله بها العربي الجريح لا يستحق ان يقال عنه صريع شرف لانه جاء قاصداً ان يجهز على جريح مثخن بالجروح لا ان يبارز فارساً سليم القوى وجها لوجه . وقتل الجريح في عالم الخلق الحربي الاسلامي والانساني معا يعبّر أسوأ التعبير عن حقارة ونذالة نفسية القاتل ، ولكنني الوم المؤرخ التركي المسلم الذي اهمل اسم عربينا بطل القسطنطينية وهو تربطه به رابطة الروح التي لا تقل وثوقا من الرابطة التي تربط الاستاذ (هـ. ا. ل. فشر) بالامبراطور قسطنطين اذا لم تكن اعمق جذوراً وارسخ اصولا ولا سيا في تلك الحقبة من الزمان عندما كانت الرابطة الروحية بين العربي المسلم والتركي المسلم أمتن وأرسخ من رابطة الدم والنسب .

والذي تجدر اليه الاشارة هو انيخلال اقامتي في تركيا في مفوضية حكومة وطني ، سألت اكثر من واحد من مثقفي الاتراك الذين سنحت لي الفرصة بالاتصال بهم وخاصة الذين يقال عنهم بأن لهم الماما في علم التاريخ . ويؤسفني انني لم اجد عند كل من اتصلت به ادنى علم عما اسأل عنه . اللهم الا انه في ذات يوم وفي مناسبة ما زرت الاستاذ قاسم جوليك وزير المواصلات سابقا

---

(١) هذه الجملة التي بين قوسين نقلتها من كتاب المؤلف المذكور كما وردت بمعناها المبهم »

والممثل لحكومته التركية في المؤتمرات الدولية ، ولما كان الرجل غزير العلم ويحتفظ بمكتبة تحتوي على آلاف الكتب النفسية فقد طاب لي وقتها ان اسأله عما يعرفه عن قصة بطل القسطنطينية فأجاب بأن القصة لم تكن غريبة عليه ، بل أثبت صحتها من حيث المبدأ ولكنه قال : لا يذكر اسم العربي القاتل للامبراطور كما وعدني (جليك) بأنه سوف يتعقب الموضوع ويفتش عنه في المراجع التاريخية ويفيدني مفصلا فيما بعد . ولكنه للاسف حتى كتابة هذه الاسطر لم يفدني بالرغم من انني اجتمعت به عدة مرات وسألته عن ضالتي المنشودة ، وكان جوابه مواعيد عرقوب[1] .

* * *

١ كان الاولى بهذه القصة ان تكون في الفصل الاول من الخاص بالشجاعة الحربية ، ولكن الذي حصل انه بعدما انتهت ملازم هذا الكتاب من الطبع وقع نظري صدفة على مسودتها وعندئذ ادركت انني نسيت تقديمها للمطبعة .



فهرس الجزء الثالث

تابع الفهرس

تابع الفهرس

انتهى الفهرس



استـــدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية . وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتــاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن الف صفحة ونيف الشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحــاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لانني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قرائتي لها بعيني ، واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمد الجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي لولا ذلك لوقـــع من الغلطـــات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .



فهد المارك

الجزء الرابع

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتباتها و المكتبة الدولية

دمشق — الرياض

الطبعة الرابعة
١٤٠٨ ب. هـ.ن - ١٩٨٨ ب.م.م

منشورات

مؤسّسة الخافقين ومكتباتها
لصاحبها
محمّد مفيد بن عزة التميمي
الجمهورية العربية السورية
دمشق - ساحة النعنع - هاتف ١١٥٣٧٦

المكتبة الدوليّة
المملكة العربيّة السعوديّة - الرياض
العليا - شارع الثمانين - مجمّع الخليج التجاري
هاتف: ٤٦٤١٨٥١ - ص.ب ٢٢٣٤٨

الفصل الأول

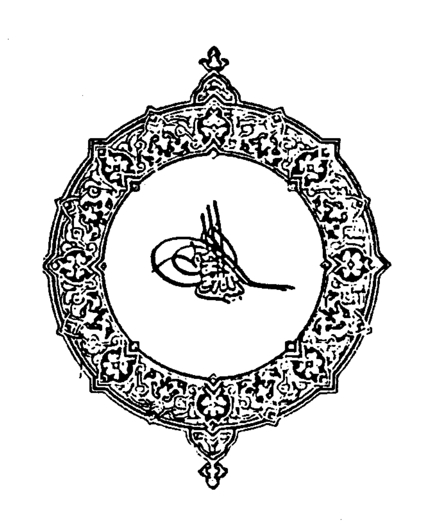
إكرام رفيق السفر والذود عنه

« إدا كنت رباً للذلول فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب »
« أنخها وأركبه فـإن حملتكما فذاك وان كان العقاب فعاقب »

حاتم الطائي







من أروع الحوادث وأشهرها ذيوعاً

- ١ -

خليق بهذه القصة وأمثالها من القصص الواقعية المنبثقة من وحي الصحراء والصادرة من صميم حياة أبناء الجزيرة بصورة طبيعية لا كلفة فيها ولا تصنّع والنابعة (من شيم العرب) الموروثة من عاداتهم الاجتماعية منذ فجر التاريخ .. خليق بها ان يؤخذ منها فلمٌ سينمائي..

ليعرف الأحفـــاد من ناطقي الضاد كيف كان أجدادهم يتحملون المشاق والتضحية في سبيل مواساة بعضهم لبعض وكيف كان يبلغ الفرد منهم من الجوع والظمأ درجة يشرف بهاعلى الموت، ومع ذلك يستمر، بكرم خلقه ، مؤثراً رفاقه على نفسه ..دون ان يكون ثمةرقيب يحصي عليه عثراته اللهم إلا مراقبـة ضميره الحيّ لأعماله ، وشهادة وجدانه العامر بالإيمان على أفعاله ..

ودون ان يفكر بأن يمنح وساماً تقديراً لما قام به أو تقدم له مكافأة مالية مقابل جهوده وتضحياته، أو تذاع أعماله من أجهزة الاعـــلام العالمية، أو تنشر صوره على صفحات الجرائد . بل دون ان يخطر له ببال ان يأتي كاتب بعد مئتي سنة أو أقل أو أكثر فيكتب عنه ..

واني كانسان حكمت عليّ ظروف خاصة (لا يسعني شرحها) فعشت بين ظهراني أهل البادية الرحّل فترة من الوقت - جعلتني في خلال تلك الفترة أرى عن كثب ان المقياس الأساسي لأهل البادية هو كل معنى يمت الى المثل العليا بأية صلة .

وكم رأيت بعضاً من رجالهم الذين لا يملكون من الابل اللهم إلا راحلتين ولكنه رغم فقره هذا أجد جماعته ينظرون اليه بعين طافحة بالتقدير والاجلال فإن أقبل عليهم قاموا عن أمكنتهم وقدموه على أنفسهم ، وأن تحدث أصغوا لحديثه كأن على رؤوسهم الطير ، وأن أديرت القهوة قدم له الكأس الأول ، بينما رأيت بعيني رأسي رجالا يملكون كثيراً من الابل فيأتي هذا الى أنديتهم فلا يؤبه له ، فاسأل عنه فأجده عارياً من الصفات التي يتمتع بها سلفه .

والقصة التي نحن بصدد ذكرها الآن وقعت في سنة ١٣٠٣ هـ وكما هو شأني في استقصاء الأخبار حتى لا أضع في الكتاب هذا إلا القصة الصحيحة.. لهذا فقد رويت هذه القصة عن عدة مصادر وكانت تلك المصادر قد تختلف من حيث الأسلوب فقط ، وأما من حيث الأصل فإنها كلها متفقة . وبالرغم من شهرة هذه القصة وذيوع صيتها بحيث أصبحت تشبه قصة المهادي (١) من حيث الشهرة بين الأوساط الشعبية حتى أنك قل أن تجد مواطناً من رواة أدبنا القومي إلا وهو يعرف تفاصيل هذه القصة التي أطلق عليها اسم (خوة الشلقان) ..

أقول بالرغم من ذلك فقد كنت شديد الحرص على ان أنقل هذه القصة من

---

(١) قصة المهادي هي القصة الاولى من هذا الكتاب في صدر الجزء الاول .

(الكاسب) [1] .ابن عبكلي ،رئيس عشيرة الشلقان من قبيلة شمر ،لا لكونه ابن رئيس أبطال القصة أو بصفته سمع قصتنا هذه من والده أكثر من مرة فحسب ،بل لكون الكاسب ثقة وصدوقاً ورزيناً بروايته . ولذلك انتهزت عطلة عيد الفطر لعام ١٣٧٥ هالموافق ١٩٥٥م حينما كنت موظفاً في سفارة حكومة وطني في دمشق وذهبت الى بلدة (عرعر) التي كان الكاسب مقيما فيها وقتذاك فارتويت الماء الزلال من ينبوعه حتى ان بعض أبيات من القصيدة كانت مفقودة عندي فوجدتها عند الكاسب .

ما أعظم سروري عندما أجد قصة شيقة كهذه ، ومن ثم أجد رواة ثقات كالكاسب ! وقد يتضاعف اطمئناني عندما أجد قصيدة شعبية قالها بطل القصة . عندها تكون القصيدة مؤيدة لصحة القصة مائة بالمائة ..

كنت أصغي لرواية الكاسب بكل حواسي عندما بدأ يسرد القصة بهدوئه المألوف وعلى طريقته البدوية البعيدة عن التكلف والتصنع وبأسلوب رزين وإلقاء شيق . وقد شعرت عندما كنت استمع لحديث الكاسب .. انني أعيش وسط أبطال الحادثة ، وذلك عندما ظل يشرح لي القصة ويصورها تصويراً واقعياً . ولئن كنت أشك في قدرتي على نقلها بالاسلوب الشيق الشعبي الذي أورده ابن بطل القصة فانني واثق بعون الله انني سوف أروي القصة باسلوبي الخاص الذي ،وان اختلف عن اسلوب الكاسب الشعبي فانه ، لا يختلف البتة عن أصل ومعنى القصة التي نقلتها منه على الوجه الآتي :

كانت الغزوات وقتذاك متبادلة بين قبيلة شمر وبين قبيلة الحويطات ، ولما

---

١ . الكاسب ابن عكلي ووالده أحد الابطال الثمانية لهذه القصة والابن لا يزال على قيد الحياة .

كانت عشيرة الشلقان تقطن الحدود الغربيـــة من ناحية شبه الجزيرة وقبيـــلة الحويطات تقطن الجهة الشرقيـة من الاردن والمتاخمـــة لحدود الشلقان ، فان الاحتكاك يكون دائما ، والغزوات بين الجانبين مستمرة بصورة طبيعية ..

وفي عـــام ١٣٠٣ تسلل ثمانيـــة رهط من عشيرة الشلقـان برئاسة عبكلي ،والد الراوي كما ذكرت آنفاً ،قاصدين غزو قبيـــلة الحويطات. ولم يكن الحويطات قريبين من اراضي عشيرة الشلقان هـــذه المرة ، بل تركوا منازلهم المتاخمة لأعدائهم ورحلوا الى الأرض التي فيها الكلأ والمرعى الخصب لإبلهم .. وهم مع ذلك لم يتجاهلوا أعداءهم ولم يسقطوهم من حسابهم ،بل كانوامتخذين لهم كل الاحتياطات والحذر بصورة مكنتهم من ســـبر غورهم ومعرفة حركاتهم واتجاهاتهم ..

ظل الغزاة سائرين في سبيلهم بين الغفلة والغرور ،حتى دنوا من ارض العدو، وعند ذلك بعثوا فتى من امضاهم بسالة واقداماً،ليكون سبّاراً لغور الأعداء .. هل هم منتبهون لهم أم لا ؟ .. كما جرت به العادة في حالة كهذه . ولكن السبر الطائش بحكم ثقته بفتوته لم يهتم بسبر العدو كاهتمامه بسبر المـكان الذي ترعى فيه الإبل ..

وكان الحويطات الدهاة قد أحكموا الخدعة فتركوا ابلهـــم في الفلاة ترعى دون ان يكون بجانبها أي فارس لحمايتها كما جرت به العادة . اللهم إلا رعاة الإبل الذين لم يحمل واحدهم سوى العصا وما أن رأى رسول الغزاة الإبل الكثيرة العدد تسير وحدها بدون أن يكون هناك من يحرسها من الفرسان حتى عاد الى رفاقه يزف اليهم البشرى السارة والأخبار الطيبـــة ، فتهلل وجه كل فتى منهم سروراً واستبشروا بـــدون أن يخطر ببال اي واحد منهم بأن هذه الابل انما هي طُعم مقدم لهم ليصطادهم العدو به .

الفخ المنصوب وما وراءه

كان منظر الابل الكثيرة العدد مغرياً للغزاة ومشجعاً لهم على الاقدام ، فلم يتأخروا عن صب غاراتهم عليها ونهبهم لها. وعندما تم لهم الفوز باختطاف الابل وذهابهم بها مسافة بعيدة عن فلاتها الى حد ما ، وظن الغزاة أنهم بلغوا امنيتهم وراحوا يهزجون أناشيد المنتصر الظافـر – في تلك اللحظة انقضت عليهم خيل العدو بفرسانها البواسل وطوقوهم من جميع النواحي .

عندئذ أفاق الغزاة من غفلتهم بدون ان يتنازلوا عن كبريائهم وغرورهم ، فظلوا في بداية الأمر يقاتلون الفرسان ظناًمنهم جهلاً ، أنهم ، بمقدرتهم أن ينهبوا الابل مع كثرة عدد أهلها الفرسان الذين أحاطوا بهم ، ولكن ظنهم هذا سرعان ما تفتت على صخرة الواقع وعلى كثرة عدد وعدة الفرسان الذين لا قبـل لهم في مقاومتهم . فتركوا الابل مرغمين . وظل القتال يـدور حول رحالهم فظلوا هم والفرسان بين كروفر . وبالتالي استطاع الفرسان ان يأخذوا رحالهم من بـين ايديهم ولم يبق الآن إلا ان يأخذوهم قهراً بدون قيد ولا شرط . ولكن الفتيان قاتلوا قتال المستميت عند هذه الناحية ، فطال القتال واشتد الصراع بين الغازي والمغزو وسقط أحدالغزاة الثمانية مكسور الرجل . وكان المصاب من أبرزهم وهو الفتى الذي اختاروه ليكتشف لهم ابل العدو فأصبح الغزاة المكافحون سبعة . وبعد سقوط هذا الفتى ضعفت عزيمتهم. ولكنه ضعفلم يصل بهم الى حد الانهيار الذي من شأنه ان يستسلموا بدون قيد ولا شرط ، كما يريــد العدو . بل ظلوا مصرين بعناد واستمروا يقاتلون بضراوةوعنف، حتى يئسالعدو من استسلامهم. عندئذ قبل العدو أن يعطيهم عهداً بأن لا يمس أحداً منهم بسوء ولا يهان أو تمس كرامة أي منهم على ان يسلموا أسلحتهم ورحالهم . فوافق الغزاة على قبول هذه المعاهدة التي كان العدو في اول الأمر مصراً على عدم قبولها .

معان تستحق الاعجاب

كان في المعاهدة التي وقعت بـــين الجانب الغازي والجانب المغزو اكثر من معنى من المعاني التي تستحق الاعجاب في شيم العرب وأخلاقهم.

اولاً – ان الغزاة عندما كانوا مصرين على القتـــال حتى الموت كانت غايتهم من ذلك ان يموتوا قتلى معركةٍ خيراً من أن يموتوا أسرى مكتوفي الأيدي .

هذا فيما اذا أراد عدوهم ان يحكم عليهم بالابادة ، مع العلم انه من اندر النوادر ان يقتل العربي أسيره .

ثانيـــاً – ان الغزاة مـــع يقينهم من ان حياتهم مضمونة ولكن بعـــد المنة من عدوهم .. لذلك فضلوا ان يقاتلوا حتى يموتوا وهم أباة شم الأنوف على ان يتكرم عليهم عدوهم بمنة من عنده. هذا بالنسبة للغزاة. اما بالنسبة للمغزوين فان هناك دليلاً واضح المعالم على احترام العربي للعهد ، والا من يعلم عن هؤلاء الغزاة فيما لو أراد المغزوون ان ينكثوا بعهدهم ويقتلوهم جميعـــاً عن بكرة ابيهم ثم يدفنوا جثثهم في تلك الصحراء الخالية من أي انسان او يتركوهم في الفلاة لتأكل لحومهم الطيور والوحوش .. ترى لو أراد الحويطات ان يفعلوا ذلك ، أهنـــاك رقيب يعاقبهم او يعيبهم اللهم الا رقابة ضمائرهم لهم ليس الا ... كل هذه المعاني تعطينا أعظم الأدلة على ان هنـــاك اخلاقاً مثلى في أمـــة العرب راسخة الأصول ..

مشكلة الجريح ، او الامتحان الاعظم

عاد المغزوون الى أهلهم منتصرين على اعدائهم ومغتنمين رحالهم النجيبة التي عرفت عند بادية شبه الجزيرة بالاصالة .

ويمكن ان الذلول الواحدةمن هذه الرحال التي اغتنمها الحويطات تساوي عدداً كثيراً من النياق الأخرى ..

ولكن الخسارة التي مني بها الغزاة لم تقف عند حد خسارتهم في رحالهم وأسلحتهم فحسب ،بل وهناك قضية رفيقهم الجريح الذي ليس باستطاعتهم حمله على اكتافهم من مكانهم الى أهلهم وهي مسافة خمس عشرة ليـــلة ، أيتركونه وشأنه ويذهبون لينجوا بأنفسهم ، فهذا شيء فيه عيب وعــار على فتية أمثالهم حسب العادات العربية ؟.

ظل الفتيان يستعرضون جميع الحلول الخاصة بحل هذه المعضلة وكل حـــل يستعرضونه يجدونه عقيماً،وكل باب يحاولون الدخول فيـــه يجدونه موصداً في وجههم ، كانوا يتداولون الرأي فيما بينهم في مكان ناءٍ عن الجريح الذي كان ملقى على ظهره والدم والمخ ينزفان من جرحه الخطير ..

لقد ادرك الجريح ان رفاقه لم يبعدوا عنه الا ليتحدثوا في امره ، كما ادرك ان وضعه الحالي جعلهم في حيرة من أمره وعندما رأى الفتى انه سوف يكون حجر عثرة في سبيل نجاة رفاقه ، عند ذلك صاح برفاقه قائلاً :

– انني أشعر الآن انني في حالة احتضار تدب في جسمي .. ولذلك أحب ان تتركوني وشأني فان شئتم ان تصلوا عليّ صلاة الميت فبها ، لأنني بحكم الميت لا محالة .

كان كلام الجريح معزياً لهم لأنه عبّر عن وضعه الراهن بأنه لا أمل له في الحياة ، وعلى هذا الاعتبار أصبح صاحبهم من عداد الأموات ...

فتداولوا الأمر ثانية فوجدوا ان لا حل لقضيتهم إلا ان يأخـــذوا برأي

الجريح الذي هو أسلم الحلول ، فراحوا يودعونه وأعينهم تفيض من الدمع المنهمر حسرة وحزناً على رفيقهم الذي حكمت عليهم ظروفهم القاسية ان يتركوه بحالة كان فيها بين الحياة والموت ، وهو الى الاخير أقرب .. أما الجريح فلم يبدر منه أي جزع ولم يشارك رفاقه بالعبرة بل كانت عيناه يشع منهما الحزم والجلد ..

ودّع القوم رفيقهم الجريح وذهبوا من عنده يتناحبون .. ولكن ذهابهم كان بأجسادهم فقط ، أما قلوبهم فقد تركوها عند جريحهم البائس ، وكانت أبصارهم تمتد بين خطوة وأخرى نحو رفيقهم ، وكلما مشوا خطـــوة انحرف الفتية الى رفيقهم يودعونه بالحنين والدموع ، وقبل ان يتوارى منظره عن أبصارهم رأوا منظراً مؤلماً ضاعف حسرتهم ، وكان منظراً محزناً حقا ومؤثراً .. منظر تلك النسور المعتادة على اكل لحم قتلى المعـــارك التي حامت حوله ثم هبطت عنده وراحت تدنو منه ..

بعدما رأوا هذا المنظر الفاجع الرهيب لم يكن في وسعهم ان يصبروا وإنمـا كرّوا راجعين عليه كرة رجل واحـــد ، مقررين ان يربطوا مصيرهم بمصيره ، فتعاهدوا ان يموتوا جميعاً أو ينجوا جميعاً. وبينما الجريح يحاول ان يطرد النسور ما استطاع بالحجارة وفي الوقت الذي رأى انه أعجز من ان يُطـــير عشرات النسور التي دنت منه لتتقاسم اشلاءه ، وبينما النسور في سرور وحبور على وجود لحم ذلك الفتى الذي إذا لم تبادر في التهامها ما لذ وطاب من لحمـه فان السباع سوف تشم رائحته وتسبقها إليه ، في هذه الفترة التي احتدم الصراع فيها بـــين الجريح والنسور في تلك اللحظة الحاسمة لم يشعر الجريح إلا بهرب النسور من حوله بدون ان يعلم عن السبب ، لأنه كان ملقى على ظهره . وفي سرعة البرق وجد رفاقه يحيطون به قائلين بلهجتهم الشعبية :

ـ أبشر بأمك .. ابشر بأمك .. يكررون هذه الجملة ويرقصون حوله عن هن يمينه وعن يساره ومن خلفه وأمامـــه .. والمعنى من هذه الجملة اطمئن كأنك عند أمك ..

الصورة الناطقة

حاول الجريح هذه المرة أن يقنعهم ليتركوه كما اقنعهم في المرة ، الأولى غير ان كلامه هذه المرة لم يجدِ قطعياً ولم يؤثر على هممهم بل زادهم إصراراً وتمرداً قائلين له :

ـ انك بكلامك هذا تهزأ بنا وتسخر منا،وإلا كيف يعقل ان نمضي ونتركك لتمزق أشلاءك الطيور ونحن ننظر اليك رؤية العين !

ثم أردفوا قائلين : إياك أن تحدثنا بشيء من حديثك هذا الذي يحمل طابع السخرية والتثبيط في آن واحد. وختم الفتية حديثهم مع رفيقهم بقولهم عليك أن تثق بأننا قررنا ان نربط مصيرنا بمصيرك.. فاما أن نموت سويـاً وإما أن تكتب لنا جميعاً النجاة والسلامة . وليس هناك حل وسط بين هذين السبيلين . .

كان الفتيان مصممين ولا يمكن ان يتراجعوا عن عزيمتهم ،وانما المشكلة الآن هي طريقة حمله ..

فكر الفتية في الطريقة التي يتمكنون بها من حمله، فوجدوا انها معقـــدة، اللهم إلا أن يحملوه على طريقة النعش كما يحمل الميت بصورة يتراوحون حمـله على أربعة أنفار ، وإذا تعب الأربعة الأولون يحمله الآخرون .. وبما أن عددهم سبعة فقد أصبح ينقصهم واحـد عندما يأتي دور الثلاثة .. فهذه ايضاً مشكلة

والمسافة بعيدة المدى.. ولكنها لم تكن مشكلة مستعصية الحل وذلك ان فيهم رئيسهم عبكلي الذي كان عملاقاً قوي البنية قوة تزيد عن رفاقه .. لهذا اكد لجماعته بأنه على استعداد متى ما جاء دوره فانه سوف يقوم بمهمة اثنين من رفاقه ، وعندئذ انتهى الاشكال عند هذه الناحية .. بقي الآن قضية العدة التي يحملون جريحهم عليهافالامر يحتاج الىعصي والىحبال يوثقون فيهاالعصي.. وقضية العصي موجودة وليست مستعصية وذلك انه بالامكان ان يؤتى بها من الاشجار التي في الفلاة وان يكن قطع الاشجار ليس بالسهل لمن ليس معـــه اي عدة تعينه على قطعها كهؤلاء الذين جردهم العدو من كل شيء ما عدا القميص الذي يستر به الفرد منهم عورته ... ولكن مع هـــذا استطاع الفتيان ان يتكاتفوا جميعاً على غصون الأشجار وفي تكاتفهم ما يسهل عليهمقطع ما يريدونه من الشجرة بأيديهم طبعاً .. بقي عليهم قضية الحبال التي يربطون بها العصي وهذه ايضاً تكاد ان تكون مستعصية االا انهم وجدوا حلا لهـا بأن قطع كل فرد من قميصه قطعة مستطيلة من طرف القميص الادنى الى آخـــره فأصبح الأمر متيسراً عليهم حيث جمعوا هذه القطع وابرموهـــا حتى كانت كالحبل .. وعندها حزموا بها العصي وجاءوا بجريحهم ووضعوا له وقاية مـــن الحشائش على هذه العصي ثم حملوه على أكتافهم وراحوا به يغنون ويرقصون متحدين المشاق والطبيعة القاسية والشمس المحرقة .. ذلك ان الفصل كان صيفاً كما وصفه الشاعر في قصيدته الآتية والتي تعتبر وثيقة تاريخية لقصتنا هذه بصورة عبرت لنا أبلغ التعبير عن مراحل هذه القصة . . ولحسن الحظ كان الشاعـــر هو الجريح بالذات الذي نوافي القارىء بقصيدته الآتية :

١ ـ البارحة عن لذّة النوم سهّارْ

بأيمن صَرغ لاجاه وبل الشّخَاتِير

الشرح : في صدر البيت يقول الشاعر انه في الليلة الماضية لم يطب له النـوم وإنما ظل في حالة سهر وقلق ..

أما قوله في عجز البيت بأيمن (صرغ) يعني موضعا للسكة الحديد الحجازية السورية الواقعة بين طريق الاردن والحجاز .. والشاعر هنـــا يحدد المـكان الذي وقعت فيه المعركـــة بين رفاقه وبـين أعدائه واصفا المكان بأنه يكون – يمينا عن (صرغ) سالف الذكر . أما قوله (لاجـــاه وبل الشخاتير) فهو بذلك يسأل الله ان لا ينزل الى هذا الموقـــع قطرة من الغيث معتبراً ان هذا الموقع مشؤوم بحكم انه اصيب فيه بهذا الجرح..والبدو يتشاءمون من المنازل التي تصيبهم فيها كارثة .

٢ – لَحـَـقوا هَلْ البل فـُوْق عَدْلات الأزوارْ
قب تفاهق روسهْن كالخنَـازِيْرْ

يصور لنا الشاعر وضع أصحاب الابل عندما أحاطوا بهم فيقول انهم سرعان ما جاءنا اصحاب الابل ممتطين افراسا اصيلات ممتدات الرقـــاب .. أما قوله (كالخنازير) فمعنى ذلك ان خيل الفرسان الذين لحقوا بهم كانت سمانا كسمنة الخنازير . . والشعراء الشعبيون كثيراً ما يصفون الخيـل من حيث السمنة بالخنازير . .

٣ – ربع بغونا طفحة قبل الأشوار
لكن جبرناهم على المنع تجبير

يقول ان اعدائنا عندما رأوا قلتنا طمعوا بنا بشكل جعلهم يظنون انهم ينتصرون علينا بدون قيد ولا شرط .. ولكننا قاتلنـــا قتال المستميت حتى

اوقفناهم عند حدهم وأخذنا منهم عهداً على دمائنا وحرمتنا ..

٤ – قبل أمس وانا للصناديد سبار
والیوم یامشكای للرجل مادیر

يصف الشاعر وضعه الراهن ويأسف لحالته الواقعية فيقول : كيف كنت بالأمس الشاب السليم القوي والفذ الوحيد الذي يختاره قومه الصناديد ليسبر لهم ابل العدو ، بينما اجدني الآن عاجزاً عن تحريك رجلي .. مشيراً الى الجـرح الذي أصابه ..

٥ – قلت أرشِدوا حَقّني من الآخرة صارْ
مع السلامة ياحمُاة المظاهيرْ

يفيدنا الشاعر انه حينما رأى نفسه في حالته السيئة الخطرة ، عند ذلك اعتبر نفسه ميتاً لا محالة فقال لرفاقه اسلكوا سبيل الرشاد وانجوا بأنفسكم لأنـــني مفارقٌ الدنيا وسوف انتقل الى مقري الأخير بعد دقائق محدودة ، هذا ما قاله في صدر البيت أما ما يعنيه في عجز البيت عندما قال يا حماة المظاهير فمعنـــاه يقول انني استودعكم الله أيها الأبطال و يا حماة الوطن والمحارم ..

٦ – قالوا نِشِيْلكُ فوقْ الأمتان بحِصَار
ذرب كلامك لاتـَقـُولْ المصَاخِير

يقول الشاعر الجريح انه عندما قال لرفاقه : اذهبوا لتنجـــوا بأنفسكم واتركوني وشأني كان الجواب من الرفاق قولهم : لن نتركك قطعياً وإنما سوف نحملك على أكتافنا وسوف نضع لك وقاية لينة ، وهذه ما أشار اليـــه في قوله

(حصار) مفردها (حصره) وهي عبارة عن وقاية لينة يجلس عليها الراكب على الراحلة لكي لا يشعر بالملل .. وهذا ما يقصده في صدر البيت اما في عجز البيت فانه يزيدنا وضوحاً بأن رفاقه عندما قال لهم اتركـوني اجابوه بعنف ولهجة شديدة قائلين له : (ذرب كلامك) اي اسحب كلامك الذي اسأت به التعبيرنحونا .. وأما قوله (لا تقول المصاخير) يعني ان رفاقه قالوا له : انك بكلامك هذا تزدرينا وتسخر منا .. ويقال فلان يتمصخر اي معناه يزدري ..

٧ – خمسة عشر ليلة وانا تِقِل بحِصَارْ
متمركي تحـتي ظهور المناعِـير

في هذا البيت يعطينا الشاعر حقيقة تاريخية عن عدد الايام التي قضاها وهو محمول على اكتاف قومه وهي كما حددها بالذات خمسة عشر ليلة وفي عجز البيت يصف الجريح وضعه فيقول انني قضيت هذه المـدة جالساً مطمئناً على ظهور الابطال الصناديد بصورة مستنداً فيها كأنني على سرير .

٨ – اثنين لي حضّاي واثنين حضّارْ
غَدوا لِيْ اجوازِ تقل حَطحَطتْ ظيرْ

يصف الشاعر كيف كان رفاقه يعتنون فيه عناية فائقة ويرأفون بـه رأفة ربما لو كان عند والدته لم ترأف به اكثر من عناية رفاقه ورأفتهم به بعـد ذلك يشرح الجريح بوضوح ودقة مؤكداً بأن رفاقه عـلاوة على حملهم له على اكتافهم نصف شهر فانهم ايضاً كانوا يتنافسون على العنـاية بتمريضه ومؤانسته فيقول انهم يتقاسمون العناية به بصورة يكون فيهـا اثنان مهمتهما تمريضه والعناية به واثنان آخران مهمتهما مؤانسته وتسليتـه .. واما قوله : تقل حَطْحَطَتْ ظِير – فهذا يعني ان عنايـة رفاقه به ورحمتهم له وعطفهم وشفقتهم عليه أشبه ما تكون بعطف وشفقة الناقة على ابنها الصغير ..

٩ ـ والى اوجسوا اني من الشيل فتّار

قاموا يقصرون الخطـــا لي َتقصيرْ

يا الله ما اعظم ما يصف الشاعر بكل امانة الطريقة التي كان رفاقه يعاملونه بها معاملة لطف وحنان ورأفة فيقول ان رفاقي عندما يحسون انني متـألم من الجرح فانهم بحالة كهذه يقصرون خطاهم ويمشون الهوينا لكـي لا اشعر بالالم كجريح محتاج الى الراحة والهدوء ..

١٠ ـ حفايا بالقَيظْ ِجهّالْ واِصفَارْ

هو كيف لو عقّلهم ِلي َحواِضـيرْ

يصف الشاعر في صدر البيت رفاقه بأنهم كانوا يتحملون هــذه المشقة وهم حفاة .. كما يعطينا دليلاً ملحوظاً من حيث الزمان بأنه كان صيفاً كما يؤكد لنا بأن رفاقه فتية حديثي السن ولم يكونوا من الرجال الذين عركهم الدهر ... وهذا معنى قوله (جهال واصفار) يعني انهم فتيان تنقصهم التجربة ومعنـاه انه يتعجب مما يراه من هؤلاء الفتية الذين لم يؤثر عليهم الحفـاء والذين اثبتوا من الصبر والجلد واحتمال المشاق والمكاره الشيء الذي لا يستطيع ان يتحمـــله الا الرجال المحنكـــون المجربون .. وفي عجز البيت يقول : ما دام ان هذه اعمال الفتيان الحديثي السن والغير مجربين اذن كيف تكون مواقف الرجال الذين سبق ان عركهم الدهر ومارسوا الشدائد اكثر من هؤلاء الفتيان الذين عمليتهم هذه هي اول تجربة من نوعها :

١١ ـ عجِبْت ِلدم ِوجيهَهْم كيف َما َغارْ

كأنهـــم ِبـــداق ِللمصنّع ِمسايرْ

يعطينا بطل القصة مثالاً حياً عن شدة جلد رفاقه ومتانة عودهم فيقول : ليس موضوع العجب في هؤلاء الفتية تحملهم لهذه الشدة وصبرهم على تلك المتاعب

فحسب ، فهذه الناحية عند الشاعر ليست محل العجب وانما الذي جعل اعجابه يتضاعف برفاقه هو ما يبدو لـــه من بشاشة وجوههم بصورة تبدو ليست مصطنعة ولم يكن فيها ادنى شيء من التكلف .. ثم يمضي الشاعر فيقول انني ارى وجوه هؤلاء الفتية تشع سروراً وطرباً .. واما قوله (كنهم بداة للمصنع مسايير) اي كأنهم سائرون الى الملهى الذي يطرب فيـه الشباب (والمصنّع) اشبه ما يكون بالمسرح اللهم الا ان المصنع بريء من الخلاعة التي تحدث في ملاهي المدن ، وغاية ما يكون في المصنّع هو ان يحضره جماعة من فتيان الحي وفتياتهم كما يحضره نفر من كهولهم ، ومن ثم يأتي شاعر من هؤلاء الفتيـان وينشد ابياتاً شعبية فيصفق الفتيان الحاضرون ويرقصون رقصة قومية على نغمات تلحين الشاعر على ان يكون في وسط هذا الحفل فتاة تسمى (الحاشي) وهـــذه الفتاة هي محور الحركة ، وهي التي تمثل دور المطرب لانها الأخرى ترقص على نغمات اناشيد الشاعر التي يرددها الفتيان ، واذا انتهى دور هذه الفتاة جاءت فتاة اخرى تمثل الدور نفسه .. وطبعاً لا يكون هذا الا في المناسبات الطارئة كالاعياد السنوية والافراح وما شابه ذلك .. وبالنظر لما في هذا (المصنع) من مكانة مرموقة في نفوس شباب البدو حيث يجدون فيه ما تصبو اليه نفوسهـــم من سرور وسلوة وابتهاج .. عندما يتجهون اليه ، بالنظر الى ذلك نجد الشاعر يصف بشاشة وجوه رفاقه عندما كانوا يحملونه بانها تشبه بشاشة الفتيان في حالة اتجاههم الى المسرح الذي يلهون ويمرحون فيه ..

١٢ ـ مَعْهم هِدِيبَ الشّامْ حالْ القِطّارْ
زودٍ على حِمِله نَقَلْ حِملْ مادِرْ

يمتدح الشاعر رئيس الغزاة المدعو (عبكلي) سالف الذكر فيقول انه بقوته وشدة احتماله اشبه ما يكون بقوة وجلد الجمل الذي كان يؤتى به في موسم الحج وفي الزمان السابق لتوضع عليه حمولة ثقيلة ، فتتقدم الحجـــاج الذين يأتون من سورية ويسمى هذا (جمل المحمل الشامي) وهو بضخامته ومظهره يختلف عن

مظهر الجمال العادية اختلافاً كلياً ، وقد سبق ان اشرت من قبل بان (عبكلي) كان اذا جاء دوره يحمل الجريح بصورة زائدة ومضاعفة عن حمولة رفاقه له بحكم ان رفاقه ستة غير عبكلي فاذا حمل الجريح منهم اربعة فان البقية يستريحون حتى يأتي دورهم، فالشاعر هنا يشرح لنا موقف عبكلي بوضوح مؤكداً بأنه إذا جاءه الدور كان يحمل الجريح على كتفه بمفرده عوضاً عن اثنين .. وهذا معنى قوله في عجز البيت : (زود على حمله نقل حمل مادير) أي أن عبكلي ـ علاوة على ما يحمله من سهمه كفرد ، فانه يحمل سهماً[1] ثانياً ، وأن القارىء ليشاركني الإعجاب بشيم العرب عندما اؤكد بأنني رويت هذه القصة وقصيدتها الكاملة من (الكاسب) ابن عبكلي كما ذكرت آنفاً .. وانه عندما جاء الى هذا البيت الذي فيه إطراء لوالده ـ أغفل البيت بكامـــله ، ولولا أنني حافظ للبيت من رواة آخرين لما ورد ذكره فيما لو اقتصرت بروايتي التي اخذتها عن الكاسب ، هذا وان الرواة الذين يعرفون (عبكلي) معرفـــة عن كثب يؤكدون أن في كتفيه بقعة سوداء أشبه ما تكون بحرقة النـــار التي أنضجت كتفيه وذلك من تأثير عصا النعش الذى كان يحمل به رفيقه على كتفيه ..

١٣ ـ تراه الى جادْ أوّل العِشْ مَابَارْ
لازم أن التـَّالِي يجِي لَــــه نـَوابـــير

في هذا البيت يؤكد لنا الشاعر عن إيمانه بما للوراثة من تأثير فيقول إنه اذا كان الأصل عريقاً فمن الواجب أن يكون الفرع طيبـــاً ايضاً مشيراً في ذلك الى أن رفاقه من بيت عريق في مجده وأصيل في حسبه ونسبه .

---

١ ـ ليس هذا بالغريب من عبكلي .. لقد رأيته في الرياض في العقد الثامن من عمره ، وكان شيخاً عملاقاً وكم كنت معجباً بمتانة عضلاته وقوة بنيته · فـلا غرو ان يكون في عنفوان فتوته كما وصفه الشاعر .

١٤ ـ حمدت ربٍ زَيّنه والأقدار

زفن من الجَمّه إلى مطلــعْ البثر

يحمد الشاعر الله الذي أنقذه من العطب أن كان يائساً من حياته ..

هذا وأنني اعتقد جازماً أن القصيدة اكثر مما أوردت بالسياق وذلك أنني أجد بين القصيدة وبين البيت الذي يليه عدم أرتبــاط بالمعنى مع بعض الأبيات كعدم الأرتباط بين البيت الرابع والخامس .. وإلى القارىء القصيدة متسلسله لكي يتضح عدم الارتباط المشار اليه بصورة أوضح خاصة للقارىء الذي يعرف ويتذوق أدبنا القومي :

١ ـ البارحـــة عن لذّة النوم سَهّـــارْ

بأيمن صرغ لا َ جاه وبل الشّخَاتيرْ

٢ ـ لحقوا أهل البل فـَوقَ عدَلات الزوارْ

قبٍ تـَفاَهق رُوِسهِـن كالخَـــنازيرْ

٣ ـ ربعٍ بَغـْوَنا طَفحةٍ قـَبل لا شوّارْ

لكن جَبَرنـَام على المنـــع تـَجْـبيرْ

٤ ـ قـَبِـلْ أمس. وانـَا للصّـَناديدْ سبّارْ

واليومَ يَا مشكاي للرجل مــــادِيْرْ

٥ ـ قلت أرشدوا حقي من الآخرة صَار

مع ُ السـلامة يـــا حــاة المظـاهير

٦ ـ قالوا نشيلك فوق الامتّان ٍبحْصَارْ

ذَرّب كَلامكَ لا تقول المصَاخِيرْ

٧ ـ خمسة عشرَ لَيلةْ ونا يِقْلِ بحصَارْ

متمركي تحتي ظهـــور المَناعِير

٨ ـ اثنين لي حضّايَ واثنين حضّارْ

غدو لي أجواز تقلْ حَطحَطتْ ظِيرْ

٩ ـ وإلى أوجسوا أني من الشيل فتـّارْ

قاموا يقصّرون الخطى لي تَقْصِيرْ

١٠ ـ خفايا بالقيظ جهّال واصفَـــارْ

هو كيف لو عقالهم لي حَواضِيرْ

١١ ـ عجبت لدم وجيههم كيف ما غـــار

كأنهم بداة للمصّنِع مَســـايِيرْ

١٢ ـ معَهم هِدْيت الشّامْ حمّالْ القَطـّارْ

زودِ على حملِهِ نقـْل حِملْ مَادِيْرِ

١٣ ـ تراه الى جاد أول العشَ مَـــابَارْ

لازم أن التّالي يجـــي له نوابـِيرْ

١٤ ـ حمـــدت رب زينـة والأقــدار

زفـــن من الجمه الى مطلـــع البشر

●

من أروع معاني الإيثار

مما لا شك فيه أن القارىء حينما يتدبر هذه القصة سينظر الى هؤلاء الفتية بعين ملؤها التقدير والإعجاب ، ولكن سوف يتضاعف إعجابه لا محالة حينما يرى ما يثير الدهشة والاعجاب في قصة (الجربوع) التي تعبر أبلغ التعبير عن مـــدى إيثار كل فرد من هؤلاء الفتيان لصاحبه على نفسه .

وما هذه القصة الآتية إلا فرع من أصل قصتنا الآنفة الذكر وهي كما يلي :

وجد أحد أبطال هذه القصة (جربوعاً) وشواه ولكن أبت شيمته الكريمة وضميره الحرّ أن يأكله منفرداً دون رفاقه ، ومن المعروف أن هذا الحيوان الذي لا يساوي وزنه خمسين درهماً لا يمكن ان يتجزأ لحمه بين هؤلاء الثمانية فهو إذا عظم كان لقمة سائغة ففكر صائد الجربوع كيف يفعل في جربوعه فدله تفكيره على ان يهب الجربوع الى الجريح المحمول ، فوهبه إياه خلسة دون ان يعلم عـنه احد من رفاقه فوقع في نفس الجريح من الخجل والحياء نفس الشيء الذي وقع لصائده السابق فذهب وسلمه خلسة ايضاً الى من يعتقد انه احدث الفتيان سناً او أضعفهم جسداً فوقع في نفس الفتى الثالث من عزة النفس الشيء الذي وقع في نفسي صاحبيه فقام وسلمه للرابع وقام هذا وسلمه للخامس والخامس بدوره دفعه الى السادس وكان هذا السادس هو الذي اصطاده فذهب بطبيعة حاله وسلمه للسابع وهكذا دواليك حتى عاد الجربوع الى الجريح ثانية من يد الى يـد .. وكانت العملية تجري بصورة خفية لا يعلم احدهما عن الآخرين وعندما عاد الى الجريح عن غير الطريق الشخص الذي دفعه اليه حينذاك أدرك ان الجربوع دار دورته على رفاقه جميعهم وأن كل فرد منهم رفض ان يأكله بمفرده دون رفاقه .. ولذلك احتفظ الجريح بالجربوع حتى اذا وصل الى أهله محمولاً هنـــاك أبرز الجربوع أمام حفل من قومه وروى لهم قصته ليشهد لرفاقه عزة نفوسهم من ناحية وليشهد رفاقه له ايضاً بأنه لم ترض نفسه بأكل الجربوع من دونهم ..

ولست بحاجة على أن أؤكد بأن تلك النفوس العربية قد بلغت أسمى ما يمكن أن توصف به نفوس بني البشر من وفاء ونجدة وشمم وايثـــار .. ولعل القارىء يتساءل من أين كان يقتات هؤلاء الفتيان خلال تلك المـدة فالجواب هو ان أعداءهم ربما تركوا لهم أشياء من زادهم الذي جـاءوا به من أهلهم كالتمر و (البقل) أي اللبن الجمد والطحين كما ان الامر لا يخـــلو من أن يصطادروا من حيوانات الصحراء ما يقوم بأودهم كالأرنب مثلا والضب الخ ..

مع العلم بأن البدوي لديه من الصبر ما يضارع صبر جمله بالجلد والاحتمال ..

وأخيراً اليك أسماء الفتية أبطال القصة موضحة :

١ ـ عبكلي الشلاقي .
٢ ـ غريب .
٣ ـ رميح .
٤ ـ جفران .
٥ ـ شحاده .
٦ ـ مشوط .
٧ ـ مشارى .

وأما الجريح الشاعر فاسمه (بجيديع الربوض) وكلهم من بطن يسمى الزميل وهذه الكلمة تشمل آل شلقان ولكن الشاعر ليس من فخذ الشلقان وانما هو من فخذ يقال لهم الربضان . وكما ان مفرد الشلقان يقـــال له شلاقي كذلك مفرد الربضان يقـــال له الربوض .. والجميع يشملهم اسم عشيرة سنجاره وبصورة أكمل يشملهم اسم قبيلة شمر .

سأدافع عن راحلة رفيقي حتى الموت

- ٢ -

هناك نوع من الناس اذا شعر بأنه يتمتع بأدنى شيء من السلطة بلغ به الغرور حداً جعله يسيء الى نفسه أولاً والى سمعة المصدر الذي ولاه شيئاً من هذه السلطة ولا سيا اذا اصطدم وجهاً لوجه بفتى أبي من أمثال (لا في بن مملث(١) أو كصاحب هذه القصة (٢) خلف بن مخيمر الذي ابتلى بشخص أراد افضل ان يستعمل سلطته كجندي للحكومة بدون اي مبرر وذلك في عام (١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣١) عندما كان خلف يسير في الصحراء الرملية التي تقع شمالاً عن مدينة حائل . وبمحض الصدفة التقى خلف ورفيقه مروي التومي بجنديي الحكومة المدعو البسيس(٣) ويرافقه مليحان ابن ملاقي ، كان هذان الجنديان ذاهبين الى مهمة رسمية فعجزت راحلة فليحان عن مواصلة السير على رأي الجندي المدعو البسيس وكانت راحلة رفيق خلف على جانب كبير من النجابة والصلابة مما جعل البسيس يطمع بها قهراً فامر صاحب الراحلة ان يتخلى عن راحلته قائلاً :

ـ ان راحلة رفيقه لا تستطيع ان تواصل السير الى نهايه المهمة وانه ليس من الشيمة ان يترك رفيقه يسير على راحلة هزيلة ضعيفة الجهد ولا سيا بعد ما وجد الراحلة النجيبة التي تقله .

فأجابه خلف بقوله :

ـ ان باعث الغيرة الذي يحدوك على ان تتعدى على حرمة رفيقي هو في

---

١ ـ انظر قصته في هذا الكتاب

٢ ـ خلف من قبيلة شمر من سنجاره ومن الزميل

٣ ـ البسيس من قبيلة حرب اما رفيقه مليحان فهو من قبيلة شمر

الوقت ذاته يحدوني على أن ادافع عن راحلة رفيقي حتى الموت .

فلم يلتفت الجندي الى كلام خلف بل مضى في سبيله واصر بعنـــاد . وراح ونزع شداد رحلة رفيق خلف وطرحه ارضاً ..

فبادر خلف وشهر البندقيه بوجه الجندي وسدد فوهتها نحو صدره وقال :

ـ دع راحلة رفيقي والا سوف تلفظ نفسك الآن ...

ولم يصدق الجندي بان البدوي جاد في تهديده لذلك مضى في سبيله ، حتى انه لم يرد عليه إلا باشارة مليئة بالتهكم والسخرية ، وعندما وجد البـدوي ان الجندي متماد باستهتاره همز الجهـــاز المحرك فانطلق السهم الذي اصاب قلب الجندي فخر ميتاً من فوره .. ولما كانت الحدود الشمالية متاخمة لحدود الصحراء العراقية فقد كان من السهل على خلف ان يهرب الى الحدود العراقية .. وكان مما شفع له عند الحكومة الامور الآتية :

اولاً ـ ان الجندى المقتول كان يحمل هو ورفيقه مرتبات جنود الحكومـة المرابطين على الحدود وعندما قتل الجندي وفر رفيقه الجنـــدي الثاني صاحب الراحلة الهزيلة على حد زعم القتيل ، عندما فر هذا هارباً ترك المرتبات ملقاة على الارض وحينما بلغ الحكومة مصرع الجندي بعثت جنوداً يحققون بالامر فوجدوا الدراهم متروكة لم ينقصها القاتل بشيء ، بعد ذلك ثبت لدى الحكومة ان القتل لم يكن بدافع من الطمع .

ثانياً ـ هو ان القاتل بعدما وصل العراق راح يعلن عن نفسه بدون مراوغة وبكل صراحة قائلاً انه هو القاتل لجندي الحكومة وانه على اتم الاستعـــداد بأن يحضر للبلاد على ان يذهب للشرع الاسلامي الذي ينص حديث النبي الكريم بالمعنى الذي جاء فيه قوله : قاتل عند شراك نعلك ..

وكانت النتيجة ان قبل المسؤولون بحضور خلف من العراق الى المملكـــة

بمحض ارادته وذهب هو وورثة القتيل الى القاضي الشرعي الشيخ حمود الحسين الشغدلي الذي لا زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الاسطر . وقد انتهى الامر بأن حكم القاضي على القاتل بدفع الدية كاملة لورثة القتيل .

وقد رأيت بطل القصة خلفاً في مدينة الطـــائف في يوم ١٠ | ٣ / ١٣٧٣ الموافق عام ١٩٥٣ .

وهذه الرواية التي جاءت بالسياق اوردتها نقلاً عن بطل الحادثة نفسه .

لولا رباطة جأشه وقوة بنيته لمات رفيقه

- ٣ -

عندما يروي المرء حادثة ما عن مصدرها الاساسي يكون لهـــا في نفس الكاتب أثر محسوس حتى ولو كانت الحادثة أقل شأناً من غيرها .

وهكذا وجدتني بالنسبة الى هذه الحادثة التي رويتها من بطلها بصورة مباشرة وذلك عندما كنت في الوطن في عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م في تلك الأيام ذكر لي بعض الأخوان أن شخصاً يدعى (صاهد(١) بن باين) من الرجال الثقاة الذين يحفظون القصص الواقعية فسألت عنه وقتها فقيل انه يقيم في مكة ضمن رجال الأمير عبدالله بن عبد الرحمن ، وكنت أيامهـا أقيم في مدينة جدة فذهبت الى مكة أسأل عن المسكن الذي يقيم فيه الى ان وفقت الى من يهديني عليه ، وعندما وصلت هناك وجدت شيوخاً من البدو فسألتهم عن صاهد فأشار أحد الموجودين اليه فتبادلنا التحية ثم أجلسني بجانبه ولئن كان الرجل قد غشاه الشيب ولم يكن في لحيته شعرة سوداء فان من يراه للوهلة الأولى يدرك أنه كان في شبابه قويّ البنية صلب العضلات مفتول الساعد .. كان تقديري لسنه وقتها لا يقل عن كونه في بـداية العقد السابـع وكانت قامته المديدة التي لم تؤثر عليها السنون

---

١ ـ صاهد من قبيلة عتيبة .

بالانحناء توحي بأنه أقل من تقديري هذا .. كما ان بشرته الشقراء المـــائلة الى البياض تنم عن انه رجل من صميم البادية اللهم إلا ان الابتسامات التي تعلو شفتيه أثناء حديثه تعبرعنه بأنه أمرؤ ليّن العريكة بعيد عن غلظة البدو كما تعبر عن صدق لهجته .

جلست في بداية الأمر بدون أن ابدي لصاهد شيئاً عن الهدف الذى قدمت من أجله ، إلى ان احتسيت أكواباً من القهوة والشاي ، بعـــد ذلك شرحت له غايتي المنشودة فابتسم وقال :

ـ ان تلك الأحاديث ذهبت مع ذهاب وقتها ولا اذكر الآن شيئاً منها .. وكنت قد أخبرت ان هناك حادثة هو بطلها .. فقلت أريـدك ان تخبرني عن قصتك مع رفيقك فقال والابتسامة تعلو شفتيه .

ـ تلك قصة لها الآن أربعون سنة ..(١)

قلت ـ لا يهمني طول المدة وانما الذي يهمني أن أتلقى القصة من مصدر ثقة كحضرتك . فأود ان اسمعها من فيك ، فأجابني الرجـل بالموافقة وراح يشرح قصته قائلاً :

ذهبت غازياً بطنا من قبيلة قحطان يقال لهم : آل سويدان وكان في معيتي ثمانية شباب من قبيلتي وكنت العقيد (٢) لهذا الرهط . وعندما صببنا غارتنا على ابل العدو واغتنمنا منها ما امكننا اغتنامه ، بعد ذلك لحق بنا أصحاب الإبل بقوم لا قبل لنا بهم فاستردوا الإبل منا وظلوا يطاردوننا حتى شتتوا شملنـا ، وولى كل فرد منا هارباً لا يعلم شيئاً عما حل برفاقه ، وكان لسوء الحظ ان اقترن

---

١ ـ معناه ان القصة تكون جرت في عام ١٣٣٤ هـ

٢ ـ العقيد أي الرئيس وهي كلمة عربية .

سبيلي مع سبيل شخص من رفاقي يدعى (حامد الحصان الشيباني) حيث كان طريقنا بالفرار سويا .. وكان الحصان اضعف جهداً واقل صحة من ان يباريني في مسيري وكان الفصل صيفاً لا يرحم وقد مضى صاهد يروي قصته مع رفيقه الذي لا يستطيع ان يجاريه بالمشي كما ان صاهداً لا يستطيع ان يتخلى عن رفيقه وكل ما استطاع صاهد ان يفعله هو ان يطلب من رفيقه بأن يشبك اصابع كفيه على متن صاهد ويسيران سوياً بصورة تجعل رفيقه كأنه نصفه محمول على متن صاهد ، ولكن مع هذا كله بدا الملل واليأس على محيّا رفيقه، وبقي صاهد يشجع صاحبه ملتمساً أقوال الحكماء المشجعة وقصائد الشعراء التي تثير الهمم قاصداً ان يبث في نفسية صاحبه شيئاً من العزيمة والقوة والنشاط .

« اذا استولى اليأس والقنوط على المرء لا تفيدُ موعظة الحكماء »

ولا بيان الشعراء !!!

ومن الاشعار الشعبية التي ذهب صاهد يسمعها صاحبه حامداً قوله [1] :

يالقرم [2] وشعلم لاضحكه ولا هرجه

أمشي معك يالسنا في كاني الحالي

يقول الشاعر : لماذا يا رفيقي النجيب لا تؤنسني ولا تضحك لكي تقاوم الهم بالسرور .. وفي عجز البيت يقول : كأنني اسير بمفردي معك .

ما يِستوى النّوم لـّلي يَقْطع الفْرجة

الى جاء على عوص الانظاء بالخلاَ الخاليِ

---

١ ـ فاتني ان اسأل صاهداً هل ان هذه القصيدة منه أم من اقوال الشعراء ؟..

٢ ـ كلمة القرم والقروم بالجمع تستعمل كثيراً باللغة الشعبية وهي لغة عربية فصحى

يقول : ان الرجل الذي يحاول ان يقطـع الطريق ينبغي له ان لا يتسلل النوم الى عينيه ، لأنه اذا استسلم للنوم مات ظمأ ..

عَطْني عَليْهن سُوالِف زينـة الهَرجَة
حتى يَطير العِماس وينسمح بالي

يقول : آتني بالأحاديث الشيقة المفرحة لكي يذهب عنـا السأم واليأس والقنوط .

صَبُّور ذي شِطّة يا لقرم مُنفرجـة
لا بد من عقبها كيْفات واظْلالي

يقول : هذه محنة ولكن لا بد من انها تزول وتنفرج فكن قرماً صبوراً .. ولا بد من أن يأتي بعد هذه الشده فرج ويتبدل العسر يسرا ..

كان تأثير الظمأ الذي لحق برفيق (صاهد) أقوى من تأثير الشعر والحكم والنصائح ، وكانت المدة التي قضاها (صاهد) ورفيقه أربعة ايام وهما يسيران على الأقدام بدون ماء ولولا ان البدوي كما يقال يتحمل من العناء والظمأ ما يتحمله جمله .. لولا ذلك لما استطاعا ان يمشيا كل هذه المدة بدون مـاء ، ولولا أن (صاهداً) لديه من قوة البنية الشيء الذي هو فوق طاقـة المرء العادية لهلك الاثنان ظمأ ..

ويؤكد لنا (صاهد) بأن رفيقه طرح نفسه على الأرض ولم يستطع ان يسير خطوة واحدة وكل ما في الأمر انه يئس من حياته وظل ينتظر يومـه الموعود وحتى ان (صاهداً) حسبما روى لنا عن نفسه بأنه بلغ به الظمأ والتعب ما بلغ ولكن ليس بالدرجة التي وصل اليها رفيقه . ويقول : عندما رأيت صاحبي بلغ به الأمر الى هذا الحد ورأيت ان لا أمل من مسيره بجانبي ولا ثمة فـائدة من

بقائي بجواره عند ذلك ذهبت أهرول قاصداً بئراً أعرفه . وهو ليس بالقريب ، ولذلك هرعت اليه وبعد الجهد والمشقة وصلت اليه فوجدته كما عهدتـــه وافراً غزيراً وماء عذباً ولم يكن بعيداً بعمقه .ويقول انه عندما وجد المـاء بهذه الصفة أخذ منه قليلاً وبلّ جسده مبدئياً ثم بدأ يشرب قليلاً قليلاً الى ان استرد قواه وعاد كما كان من قبل ، وعند ذلك استدنى عمامته وأدخلها في وسط المـاء ثم حملها بيديه وراح يركض بها بقدر ما استطاع من الجري قاصداً رفيقه ، وعندما وصله وجده على آخر رمق من الحياة أو على عتبات الموت فاقداً وعيه ، وراح يعصر عمامته في حلقه الناشف شيئاً فشيئاً حتى استيقظ ونشط بصورة مكنته من أن يسير الهوينا بجانب رفيقه (صاهد) الذي أسنده على كتفه حتى أوصله الماء وأنقذه من الهلاك المحقق .

●

مغامرة بحنكة وعقل

- ٤ -

كان ذلك بين سنة ١٣٢٥ - ١٣٣٠ هـ عندما غزا جماعة من قبيلة شمر ، نجد قبيلة بني صخر [١] بقيادة غريب [٢] بن معيقل ومن بين صفوف هـؤلاء الغزاة فتى حديث السن من قبيلة عنزة ، وكان هذا الفتى وحيد والدته التي نزح بعلها من قبيلته لسبب ما واختار لنفسه ان يكون بجوار غريب حتى توفاه الله ، وحينما تأهب الغزاة للمسير جاءت والدة الفتى تهرول وعندما توسطت منهم وقفت وقالت : ان ابني حديث سن ولم يسبق له ان غزا قبل هذه المرة وهذه اول تجربة - بالنسبة اليه وقد حاولت ان ارده عن مشاركتكم في هذه المغامرة ولكنه رفض وأصر الا ان يغزو. ثم واصلت العجوز حديثها الى ان قالت وهو كما تعلمون ابني الوحيد وهو عزائي في هذه الدنيا خاصة بعد ما توفي والده .. ثم خطت خطوتين متجهة نحو قائد الغزاة غريب وعندما دنت منه وضعت كفها على عنقه وقالت : ان ابني في ذمتك ثم اجهشت بالبكاء .. وعادت الى

---

١ . بني صخر قبيلة من بادية شرق الاردن .

٢ . غريب بن معيقل من قبيلة شمر . راجع كتاب المؤلف الجزء الاول الطبعة الثانية ص ٢٤٢ وهو احد الفتيان السبعة الذين حملوا رفيقهم على اكتافهم . راجع القصة في ص ١ من هذا الكتاب .

خدرها المتواضع وهي تنحب بدون ان تنتظر الاجابة من غريب ، الذي وجد نفسه ملزماً بتعهده للصبي من عدة وجوه اولا – انه جار له ..

ثانياً – ان هذا الفتى هو العنزي الوحيد الذي بين غزاة قبيلة شمر .

ثالثاً – انه أي غريب أصبح ملزماً بصورة حتميه بتعهده لهذا الفتى بعدما جاءت والدته واختارته دون غيره من رفاقه وقالت كلمتها سالفـة الذكر ، فلم يسع غريب والحالة هذه إلا ان يربط مصيره بمصير هذا الفتى ..

سار الغزاة كعادتهم متجهين نحو العدو فانتخبوا رجالا يسبرون لهم ابـــل العدو كما يسبرون فرسان الابل . . هل انهم متيقظون ؟ . . ام غافلون ؟ . . وكان المغزوون اقدر حيلة من سبر الغزاة الذين استطاعوا ان يسبروا المكـان الذي فيه العدو ، ولكنهم ما استطاعوا ان يسبروا غور فرسان العـدو الذين كانوا على اهبة الاستعداد لمقاومة اي معتد على ابلهم ، عاد السابرون مسرورين بكشفهم مواقع ابل العدو ، وبقدر ما كان الفرح والسرو يغمران افئدة الغزاة بقدر ما كان غريب في هم وغم على سلامة هذا الفتى .. ولم يكن غريب ذلـك الرجل الجاهل بالمكيدة التي يتوقع ان العدو قدأعدهـــا لهم . . بل كان امرؤاً عركه الدهر ووقع بالفخ الذي نصبه اهل الابل في حالة كهذه اكثر من مرة .. ولذلك لم ينخدع بالاخبار التي نقلها له سبرهوالقائلة انابل العدو ترعى في الفلاة دون ان يكون هناك اي كمين من فرسان العدو ، لا لم ينخدع عقيـد القوم بهذه الاخبار التي زفها السبر وهي اخبار قد تكون سارة لمن لم يجرب الامور ولم يعرف الاساليب التي يبرمها العدو في حالة كهذه ، ولكنها لم تكن سارةلغريب على النحو الذي سر لها غزاته ،ولذلك قام الرجل باتخاذ : « الخطة المحكمة » .. التي يتوقع ان يلاقيها من عدوه ، ورسم لقومه خطـــة تجعلهم اذا أفلسوا من غنيمتهم لابل العـدو,لا يفلسون على الاقـــل من احتفاظهم برواحلهم وأسلحتهم . .

وكانت الخطة التي رسمها غريب لقومه ترمي الى أن يذهب بعضهم لكسب الإبل ـ والبعض الآخر الذي هــو الأكثر والأقوى يبقى في مكان متوار عن الأعين ، ثم ينقسم هؤلاء الى فرقتين على ان تكون مهمة احدى هـاتين الفرقتين مهاجمة العدو من الأمام في حالة هجومه المباغت ومهمة الفرقة الثانية مهاجمته من الخلف ..

وأمر غريب رفاقه بأن يطرحوا من حسابهم غنيمة إبل العدو في الحالة التي يرون ان فرسانه يزيد عليهم بالعدد والعــدة ، ففي حالة كهذه أوصاهم ان لا يبددوا جهودهم في طمعهم بالإبل بل يتركوا إبــل العدو له ويوحدوا صفوفهم للكفاح بغية الاحتفاظ برواحلهم وأسلحتهم ، وأوصاهم بأن يكونوا أزواجـاً متكاتفين متضامنين في حالة تفاقم الأمر ومعنى ذلك ان كل واحـد من هؤلاء الغزاة أصبح يعرف انه مسؤول عن رفيقه فأصبحت المسؤولية بينهم جميعـاً متبادلة ، اللهم الا الفتى العنزي فانه جعل نفسه هو المسؤول عنه ، وطبعـاً لم يكن الفتى مسؤولاً عن غريب ، كما هي الطريقة المتبعة القاضية بأن المسؤولية مزدوجة على النهج الآنف الذكر ..

وآخر التدابير التي اتخذها غريب بهذا الشأن هي انه عيّن لقومه موعـدين يلتقون فيهما في حالة وقوعهم في معركة حاسمة مع العدو ، وهذان الموعدان يطلق على الأول منهما اسم (وعد الكذاب) والثاني (وعد الركاب) .

فالأول يجتمع فيه الغزاة بعد المعركة ويتفقد بعضهم بعضاً فـان تكاملوا جميعهم في هذا الموعد بدون ان يفقد منهم أحد أو بدون أن يؤكد أحدهم بأن هذا المفقود قد شاهده رؤية العين قتيلاً ، إذا لم يكن شيء ، من ذلـك فمعناه انهم استغنوا عن الموعد الأخير ، امـا اذا لم يحضروا جميعاً في الموعد الأول او فقد منهم رفيق لا يعلم احد منهم عن مصيره فعندئذ يذهبون الى الموعد الثاني المسمى (وعد الركاب) فهذا هو الموعد النهائي فمن لم يحضر فيه يكون امـا قتيلاً او جريحاً متروكاً في المعركة او وقع أسيراً بيد الاعداء .

وهكذا أحكم غريب خطته على أساس هذه التدابـير التي قـــام رفاقه على تنفيذها بأمرها .

لا غالب ولا مغلوب :

فذهب الفريق الأول وصبّ غارته على إبل العدو وربح الغزاة الجولة الأولى الوهمية ، فطاروا فرحاً عندما لم يجدوا من يقاومهم من فرسان الإبل ، ولكن سرعان ما تبدل فرحهم الى بؤس عندمـــا أحاط بهم الفرسان من كل جــانب ، اولئك الأبطال البواسل الذين يزيدون على الغزاة بعددهم وعدتهم. فلم يكن منهم إلا أن أخلوا سبيل الإبل لأهلها . وبينما المغزوون يطاردون الغزاة واثقين بأسرهم أو إبادتهم في تلك اللحظة انقض عليهم من خلفهم (الكمين) الذي أعده قائد الغزاة لإنقاذ رفاقه في حالة كهذه ، فتبدل طمع المغزوين بالغزاة عن ذي قبــل فانحرفوا يقاتلون المهاجمين الجدد ، بضراوة وبينا قــواهم متجهة كلها نحو القــوم الذين جاؤهم من الأمام،وإذا ببقية الكمين يهاجمهم من الخلف وفي الوقت ذاته كر عليهم القوم السابقون الذين اختطفوا الإبل ، فأصبح المغزوون بين الكماشة مطوقين من ثلاث جهات ، وانما كثرة عددهم وقلة الغزاة كانا شافعين للمغزوين ومع ذلك ظل القتال محتدماً بين الفريقين وبالتالي انتهى على الطريقة التي يقــال عنها (لا غالب ولا مغلوب) .

وقع المحذور :

وصل القوم الموعد المعين وتفقد بعضهم بعضاً فلم يغب عنهم الا ذلك الصبي العنزي سالف الذكر ، لقد كان غريب على رأس الكمين وكان في بــداية الأمر منتبهاً للفتى إلا انه بعدما حمي الوطيس انشغل عنه في تدبير دفة المعركة كقائد مسؤول عن جميــع الغزاة ، في تلك اللحظة الحاسمة التي كان غريب في سكرة

وذهول بين تدبيره لرفاقه وثم كفاحه وذوده عنهم جميعاً وبـــين تشجيعه لهم وندبه لكل فرد من رفاقه باسمه وكنيته ..

في ذلك الظرف الحرج نسي غريب نفسه كما نسي الصبي الذي لا يعرف أين مصيره ، ولشد ما انزعج الرجل حينما اجتمع رفاقه بكاملهم في الموعـد الأول ، ولم يغب الا العنزي ، وانما هناك ما يعزي به نفسه وهو الموعد الأخير مؤمـلاً ان يرى الفتى فيه ، ولكن آماله باءت بالفشل حينما اجتمع القوم مرة ثانية الا ذلك الصبي الذي أودعته أمه في ذمة غريب ..

كان يود غريب ان يخسر كل شيء أو يقتل من يقتل من اخوته وابناء عمـه على ان يعود الى أم الفتى بدون ابنها . كان من السهل على غريب ان يعود الى ارض المعركة ليتأكد من الفتى فيما اذا كان جريحاً او قتيلاً ، ومن السهل ايضاً ان يأتي به ويحمله على (ذلوله) ويسعى بخدمته والعناية به فيما إذا كان جريحاً .. كل هذه الأمور سهلة جداً على غريب ولكن الشيء الصعب والذي يحتاج الى مغامرة قد يدفع رأسه ثمناً لها وهي إذا كان الفتى أسيراً بيد الأعداء .. فهذه الناحيـة قد تكون سهلة على أي فرد من الغزاة ما عـدا غريب ، بالذات وذلك ان بينه وبين قبيلة (بني صخر) من العداوة كما بين الذئب والشاة ، يضاف الى ذلك انه معروف لديهم بأنه (العقيد (الذي دائماً وأبداً يقود الغزاة ويصب الغارات تلو الغارات عليهم ومن المسلم به ان (بني صخر) إذا ظفروا بـه لا يمنعهم شيء من القضاء على حياته .

واجب لا بد منه :

ولكن هذا لا يمنـع غريباً من ان يغامر من اجل الفتى ويعود الى المعركة فإن وجده فيها وإلا فسوف يواصل مغامرته قدماً نحو ذهابه الى ديار العدو ، فيما إذا كان اسيراً هناك محاولاً اختطافه مهما كلفته هذه المغامرة من ثمن باهظ ..

طلب الرجل من قومه ان يختاروا رئيساً لهم غيره ، مؤكداً لهم عزيمته على ان يعود من أجل الفتى الذي بعهدته ، وكان رأي القوم يشير الى ان يعود معه نفر منهم ليشاركوه في مهمته إلا انه رفض باصرار كما ان القوم أصروا الا ان يرافقه نفر منهم ، وبالتالي اتخذ الفريقان موقفاً وسطاً وهو ان يذهب معه بعض من رفاقه الى ارض المعركة فإن وجدوا الفتى جريحاً يساعدونه على حمله والعناية به ، وإن وجدوه قتيلاً يكونون شهوداً له عند والدة الفتى بما أصاب ابنهـا من قضاء وقدر ، أما إذا لم يجدوه في كلتا الحالتين فعلى الرفاق ان يعودوا الى أهلهم ويتركوا (غريبا) وشأنه ..

وعلى اساس هذه الخطة ذهب (غريب) ورفاقـــه الى ارض المعركة التي لم تكن بعيـدة عنهم كثيراً فوصلوا مكان القتال فبحثوا هنا وهنـاك منقبين عن الفتى مؤملـــين ان يجدوه جريحاً او قتيلاً ، ولكنهم لم يجدوه في كلتا الحالتـين . .

مغامرة ورحلة طويلة :

وعندما لم يوجد الفتى عاد رفاق غريب بينما صمم بطل القصة على مواصلـة رحلته حتى ينقذ رفيقه ولو كان في عرين الأسد او يلاقي حتفه في سبيل انقاذه..

كان غريب يعلم جيداً بأن (بني صخر) إذا ظفروا به لن تأخذهم به رأفة ، كما كان يعلم ايضاً بأنهم عرب أقحاح ، وأن هناك من الأمور والعادات العربية التي تجعلهم يمتنعون عن عقابه مهما كان مجرماً متى ما تمكن ان يقوم بها قبل ان يقع بين أيديهم ، ومن العادات التي ستكون حصانة له إذا قام بها قبل ان يلقـــوا عليه القبض هي ان يشرب كوباً من قهوتهم قبل ان يظفروا به ، هذه الطريقة يرى غريب انها هي الوسيلة الوحيدة التي تنجيه من فتكهم به وذلـك في حالة عجزه عن اختطاف الفتى مع يقينه ان صاحبه الصبي إذا كان أسيراً فإنه لا خوف

عليه من أي شر يلحق به من (بني صخر) وذلك لعـــدة امور .. منها انه حديث سن ، ومنها انه ليس من قبيلة (شمر) الغازية الخ ..

لقد ذهب غريب حتى اذا قرب من بيوت (بني صخر) أوثق عقال (ذلوله) وراح تحت ظلام الليـــل يتحسس عن رفيقه فقرب من احد الأندية ، فسمع اسمه على اطراف ألسنة المتحدثين فدنــا قليلاً فسمع من يقول :

ـ سوف لا يتركه غريب ، وسمع آخر يقول : ـ توقعوا له وخذوا حذركم منه فانه قد يأتي الليلة هذه او ليلة الغد ، فأصغى الرجل أذنيه ليسمع الى صوت الفتى ، ولكن دون جدوى فظل خلف الرواق حامـلاً بندقيته بيمينه ، ينظر للقوم عندما تفرقوا محاولاً ان يرى رفيقه ولكنه لم يره. حتى اذا نـــام رجال القبيلة ونام صاحب هذا البيت الكبير الذي كان أكبر بيوت القبيلة، تسلل بخطى وئيدة محاولاً أن يرى الفتى نائماً داخل البيت ومتخذاً الاحتياطات اللازمــة في حالة يقظة صاحب البيت ، وأهم تلك الاحتياطات هي ان أخذ لنفسه حصانة قوية حيث ذهب قبل اجرائه هذا وظل يحتسي من القهوة التي عند مدخل البيت ، وفي تلك اللحظة استيقظ صاحب البيت الذي كان احد رؤساء القبيلة المـــدعو (الخريشا) فصاح به قائلاً :

ـ من هذا ؟ .. فأجابه البطل فوراً بقوله ..

ـ ضيف .

ـ أأنت غريب بن معيقل ؟..

فقال وهو ممسك بفنجان القهوة يرشفه :

ـ أجل هو ـ فنهض من فراشه وراح يرحب به .. ثم قال :

ـ أجئت تسأل عن رفيقك الصبي ؟..

ـ نعم أين يكون الآن ؟.

ـ كان هنا .. وعندما تحدث لنا عن نفسه بأنه وحيد والدته رحمناه ورأفنا به وأكرمنا مثواه ، ولم يكن لدينا أدنى شك بأنك سوف تـأتي على أثره حينما أخبرنا الفتى عن تفاصيل قصة والدته معك وكنا ننتظر مجيئك بفارغ الصبر .. ثم استرسل (الخريشا) في حديثه قائلاً : ولا تظن اننـــا حريصون على مجيئك لكي ننتقم منك من أجل ما قمت به نحونا من غزواتك المستمرة المتكررة فتلك أشياء متبادلة بيننا ونتمنى ان نقهرك أسيراً باحدى تلك الغزوات وجهاً لوجه ، وانما كان حرصنا من أجل ان نكرمك على وفائك مع رفيقـك . ثم ختم حديثه بقوله : ويجب ان تثق انك لو لم تشرب قهوتي فانـك لن ترى مني الا واجبات الضيافة والكرم ..

ـ هذا شيء لا استغربه منكم لأنني شخصياً لو حكمت عليكم ظروف كظروفي ورمى بكم (الفال) في بيتي كما ساقني القـــدر إليكم لما رأيتم مني الا الاكرام والاحترام نفسه الذي رأيته منكم .. ثم أردف قائلاً : ان أعظم اكرام تقدمونه لي الآن هو ان تسلموني الفتى ..

ـ ان الفتى عندما وصل إلينا وجد عقيلات(١) قاصدين الشام فذهب معهم جيراً ، صباح امس الماضي وقد حاولنا ان نرده عن عزيمته مقدرين انك سوف تأتي على أثره لا محالة ، ولكنه رفض وأصر الا ان يـــذهب في سبيله طمعاً منه بالأجرة ..

ـ هل تسمح لي أن أذهب متبعاً أثره لعلي ألحق به قبل ان يصل الى الشام؟.

ـ معاذ الله كيف تذهب قبل أن نقدم لك ما تفرضه علينا واجبات الضيافة!

ـ انا لا أشك في كرمكم وسخائكم ولذلك أرى انكم عندمـــا تسمحون لي

---

١ ـ كلمة عقيلات يقصد بها تجار الابل .. وأكثر من اختص بتجارة الإبل أهل القصيم فيقـــال عقيلات وعقيل ومفردها عقيلي ..

بالذهاب هذه الليلة تكونون فعلتم نحوي جميلا كبيراً لأنني أخشى ان يدخل الفتى مدينة الشام وعندئذ سوف يصعب العثور عليه بحكم جهلي بالمدن وعدم معرفتي لأهلها ..

ـ كما انك ترى من واجبك ان تلحق برفيقك وتعود به الى أمه مهما كلفك ذلك من عناء وتضحية فنحن ايضاً نرى ان من واجبنا ان نقدم لك واجبات الضيافة كعربي كريم استضاف عربياً من أمثاله ..

ثم اردف (الخريشا) قائلاً : من العبث ان تفكر بأن تذهب من هنا قبل ان أقدم لك قراك وادعو أعيان قبيلتي على شرفك ..

ـ ليس لدي ما أقوله الا المثل العربي القائل : (الضيف بحكم المضيف) وانما أريد ان تكون الضيافة غداء مبكراً لكي اذهب لطلب الفتى لعلي الحق به قبل ان يدخل المدينة ..

ـ كنت أود أن أجعل ضيافتك غداء وعشاء ولكن مراعاة لظرفك الراهن ما عليّ الا ان أوافقك على طلبك ..

كان الفصل صيفاً وليل الصيف كعادته قصير، لذلك لم يتسلل النوم الى عيني الضيف ولا المضيف ، فالأول مهتم بمصير فتاه، والثاني ينتظر انبلاج الفجر بفارغ الصبر لكي يبكر ما استطاع بتقديم الوليمة لضيفه ..

وما ان ادبر الليل وانحسر ظلامه المدلهم أمام انوار الفجر البهية كانحسار الخمار عن جبين الفتاة الحسناء حتى قام المضيف يحث رجاله بالاسراع ما استطاعوا بانجاز الضيافة ، وبدعوة اعيان القبيلة للحضور ليسلموا على ضيف الشرف ويشاركوه بالدعوة التي أقيمت على شرفه ..

كان الضيف مستيقظاً بطبيعته عندما أشعل رجال المضيف النار وراحوا

يعدون العدة لانجاز القهوة في ذلك النادي الذي بدأ يتوافد عليه رجال القبيلة بين كل فترة وأخرى يقف المضيف يقدم رجال قبيلته قائلاً : هـــذا فلان يا غريب الخ ..

وما ان ارتفعت الشمس قليلاً حتى انتهت الوليمة ، وكان المدعوون قـــد تكاملوا ، عند ذلك مد الخوان وجيء بالجفان المجللة بالخرفان الكثيرة العدد ومن تحتها الثريد الممزوج بمرق اللحم وزبد الضأن ، وما ان انتهى الضيف والمدعوون من تلك الوليمة الدسمة حتى شرع غريب بتوديع مضيفه وراح يواصل رحلتــه مقتفياً أثر الفتى بقدر ما اوتي من السرعة محاولاً ان يدركه قبــل ان يصل الى المدينة فيصعب عليه معرفة مكانه ..

كان لدى غريب ذلول من النجائب السريعة العدو ، وكانت المسافة التي بين الشام وبين الأرض التي سافر منها الفتى كفيلة ان يتمكن غريبــاً من اللحاق بالفتى قبل ان يدخل الشام بفضل سرعة عدو راحلته النجيبة التي لم يدخر وسعاً من حثه لها بقدر ما لديها من قدرة على الجري .وكانت المشكلة انه تمكن من ان يصل قرى دمشق دون ان يلحق بالعقيلي ، ودون ان يجد في طريقة أثراً لابله ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يستمر في سبيله لعـــله يجده في احدى القرى او على ابواب الشام .. وهكذا مضى الرجل في طريقه ، حتى وصل ضواحي المدينـة بدون جدوى ، فدخل قلب الشام وهـــذه اول مرة يرى غريب مدينة الشام فسار بين اسواقها مدهوشاً من مناظر عاصمة الأمويين ومن اشجارها البـــاسقة وأنهارها الجارية فوجد رجالاً يضع أكثرهم فوق رأسه طاقيــة حمراء ، خلافـاً لما يعهده عند رجال القبائل من لبس العباءة والعقــال ! وكان كل منظر يراه من العمران ولبـــاس الرجال والنساء يختلف عما يـــألفه ، فحاول ان يسأل عن رفيقه ولكن يسأل من ؟.. وإذا سأل من هو الذي يعرف بدوياً جاء مع تجار بدو من جنسه ودخلوا مدينة الشام ..

وبينما كان راكباً ذلوله ويسير في وسط الفيحاء هناك صاح به أحـد رجال شرطة الأمن قائلاً :

ـ أين تريد يا بدوي ؟. وكان البدوي حافظاً اسم التاجر الذي استأجر فتاه ولذلك أجاب الشرطي بكل براءة قائلاً :

ـ أريد فلان العقيلي ..

ـ من هو فلان ؟ .. وماذا يعمل ..

ـ فلان العقيلي المشهور اما تعرفه ؟..

ـ لم اسمع بهذا الاسم مدة حياتي ..

ـ قل لي ما هي صنعته ؟.

ـ لم يكن صانعاً وانما هو عقيلي ..

ـ ماذا تعني بالعقيلي ؟.

ـ الحضري الذي يبيع ويشتري (بالبعارين) ..(١)

ـ ما هي (البعارين) .

ـ كيف اما تعرف (البعارين) ؟ .

ـ لا لم اسمع بهذا الاسم ..

ـ الزمل والنياق ..

ـ يعني الجمال ؟ .

ـ أجل .

ـ انت تقول حضري وأنا لا أعرف حضريا يمتهن التجارة بالجمال ..

ـ نعم حضري ومن اهل القصيم ..

---

١ ـ اي الإبل مفردها بعير وهي لغة عربية .

– ما هو القصيم ؟ .
– كيف لا تعرف القصيم ؟ ..
– لا ولم اسمع بهذه البلاد مدة حياتي ..
– كيف ذلك الم تسمع بنجد ؟ ..
– نعم اسمع بانبج التي هي من قرى حلب ..
– انا اقول لك (نجد) وانت تقول (محلب) ما هو محلب ،لم اسمع به؟..

وبينما البدوي والشرطي في أخـــذ ورد فإذا بالقدر يسوق عقيلياً كان يتسمع جميع ما دار بين البدوي والجندي من اول كلمة الى آخر كلمة مما جعله جعله يتدخل في الموضوع محاولاً ان يحل الاشكال ، ولكن الشرطي اعـترض وقال :

– ما الذي دخلك في موضوع لم تكن مسؤولا عنه ؟ فبادره العقيلي بقوله :
– ان الرجل يسأل عن شخص من جماعتي وأعرفه ..
– أنت بدوي وهذا يسأل عن شخص حضري ..
ومن هنا تدخل البدوي بالحديث وقال :

– الصحيح ان مثل هؤلاء العقيلات الذين يقال لهم عندنـــا حضراً ليسوا بالحضر الحقيقيين .. وإنما الحضر هم اشباه هذا الذين لا يعرف واحدهم اسم القصيم (مشيراً بيده الى الشرطي) ..

هذا وقد ترك الشرطي البدوي بجانب رفيقه العقيلي الذي افاده بـأن فلاناً الذي يسأل عنه بعدما كان ناوياً ان يأتي بأبله ليبتاعها بالشام بدل رأيه وذهب بها الى مصر لأن اثمان الابل مرتفعة في مصر اكثر منها في الشام ..

وقع هذا الخبر على غريب وقوع الصاعقة ، وشعر انه سوف يبدأ رحلته من

جديد ، من الشام الى مصر ، وما دام انه اوشك ان يضيع في مدينة الشام وان لا يجد من يهديه السبيل الى العقيلي ، ولا من يعرف اسم نجد لولا ان القدر ساق له عن طريق الصدفة ذلك العقيلي ، فإنه في مصر سوف لا يجد من يهديه الى صاحبه .. فما عليه والحالة هذه ان يترك صاحبه العقيلي ليرسم له الطريقة التي يسير عليها فيما إذا وصل مصر ، ليهتدي الى المكان الذي يجد فيه العقيلي المستأجر للفتى .. وفعلاً لقنه العقيلي اسم الحي الذي يجد فيه – العقيلي في مصر او يجد فيه من العقيلات من يدله على صاحبه .

ولما لم يجد بدا من الذهاب الى مصر ، فقد أشار عليه العقيلي بأن لا يذهب على ظهر ذلوله من الشام الى مصر وإنما يذهب في القطار عن طريق فلسطين حتى يصل الى العريش .. الخ .. وكانت المشكلة بالنسبة لغريب انه فارغ اليد من النقود . وأهل المدن ليسوا كالبدو يجد من يضيفه حتى ولو كان عدواً كما فعل (الخريشا) ، فأخذ رأي العقيلي في هذا الموضوع فأبدى رأيه له بأن يبيع ذلوله هذه في الشام لينفق ثمنها ، كما هداه الى المكان الذي تباع فيه الابل والذي يكون فيه رجال من العقيلات الذين يعرفون أثمان الذلول النجيبة كذلوله فانصاع غريب لرأي العقيلي الذي ذهب به الى المكان الذي تعرض فيه الابل وتولى العقيلي بيعها بنفسه وقد كان مخلصاً وأميناً حيث باع الذلول بثمن مغر لم يحلم به غريب ، وعندما وجد غريب في العقيلي الامانة والاخلاص ذهب وسلمه بندقيته وعتادها ليبيعهما له ايضاً فأخذهما العقيلي وباعهما بثمن أثلج صدر غريب الذي صرف ثمن الذلول والبندقية بجنيهات ذهبية وربطها في حزام طواه على بطنه وراح من فوره يقطع تذكرة في القطار بواسطة رفيقه العقيلي الذي لم يتركه حتى هداه الصراط المستقيم . .

ذهب غريب يردد اسم البلد الذي يقيم فيها العقيلات خوفاً من ان ينساه وكان اسم البلد (المطرية) فذهب يردد هذا الاسم باليوم والليلة أكثر من مائة مرة.. ولم يجد غريب هذه المرة مشقة في سفره بحكم تعاليم صاحبه العقيلي التي أوصاه بأن لا يحيد عنها

والتي نفذها بجذافيرها حتى وصل الى القاهرة ومن هناك ظل يسأل المارة عن المطرية الى ان وجد من يهديه اليها ، وفي المطرية راح يسأل عن الحي الذي يقطنه عقيل المحتفظ باسمه من صاحبه الذي في الشام ، فوجد ايضاً من يدله عليه ، ولم يتعب كثيراً بالسؤال عن عقيل كتعبه في الشام خاصة في ذلـــك الحي الذي يقطنه العقيلات بكثرة ، ومن أول سؤال ألقاه على رجل عـــابر سبيل من سكان تلك البلدة يسأله بـــه عن بيت من البيوت التي يسكنها أي واحد من عقيل ساعتها أرشده المسؤول الى طلبه ؟.. وما ان وصل ذلك البيت حتى وجـد كثيراً من الرجال الذين لم تكن لهجتهم غريبة عليه ، تلك اللهجة التي لم تسمعها أذناه منذ ان فارق بيت (الخريشا) اللهم الا بتلك الفترة القصيرة التي التقى فيها بالعقيلي في الشام .. وبعدما احتسى أكوابـــاً من القهوة الشقراء الممزوجة بالهيل ذي الرائحة الشذية عند ذلك سأل عن العقيلي الدي استأجر فتاه ، فأخبر انـــه في طريقه اليهم وسيصل اليوم او غداً.. ولما كان العقيليون ن اعرف الناس بلهجات القبائل العربية بحكم أعمالهم كتجار ابل تفرض عليهم الاتصال المستمر المبـــاشر بجميع القبائل العربية وخاصة قبائل شمال الجزيرة وسورية والعراق ، فانه من مسلمات الأمور ان يعرفوا لهجة غريب بأنه من قبيلة شمر . ولدلك لم يكونوا بحاجة لأن يسألوه من أي قبيلة يكون فهذه الناحية عرفوها من اول كلمة نطق بها لسانه ولا سيا ولغة قبيلة شمر لها علامات تعرف بها بكل سهولة وانما أرادوا ان يعرفوا هذا الرجل الذي تعبر شخصيته من اول وهلة لمن يراه بـــأنه ليس بذلك البدوي العادي . ولذلك اوعزوا لواحد منهم بأن يوجه اليه السؤال التـــالي :

- من أي بطن من شمر يكون أخو العرب أمن عبده ام من سنجاره ؟..

- بل من سنجارة ..

- من اي فخد من سنجارة ؟ ..

– فصمت البدوي قليلا ثم أجاب بكلفة وبلغة تعبر عن استيائه من هـذا السؤال الذي لم يستسغه البدوي بفطرته وقال :
– من آل زميل .

ومن هنا أدرك السائل أن المسؤول تضايق من هذين السؤالين ولذلك ترك الأسئلة الأخرى التي إذا أجاب عليها المسؤول يستطيع أن يحكم السامعون على معرفة شخصية الرجل بالقرينة ، وبعد صمت طويل أديرت بعده أكواب القهوة والشاي ، واحتسى البدوي من الاولى ما راق له وانطلقت أساريره عندئذ سأله صاحبه قائلاً :

– من أي فخذ أخونا الكريم يكون من آل زميل . .
– فعاد البدوي الى صمته وقطب بحاجبيه ثم قال وهو يتهيأ للقيام . .
– من الشلقان . . ثم اتبع هذه الكلمة العبارة التالية (على الخير والشر)(١) .

وعندما وقف متهيئاً للخروج قفز الرجال الذين في النادي يريدون أن يعتذروا منه ويحاولوا أن يعود الى مكانه كضيف . وفي تلك اللحظة دخل رجل من العقيلات يعرفه غريب معرفة جيدة كما أنه يعرف غريباً معرفة راسخة فسلم الاثنان على بعضهما بحرارة ، وعند ذلك لم يكن أصحاب النادي بحاجة الى بذل أي مسعى لاعادته كما أنهم لم يكونوا بحاجة الى من يعرفهم بشخصيته فقد عرفوا اسمه من صاحبهم عندما بادله بالتحية بقوله (مرحب يا غريب) وإنما عليهم الآن أن يقدموا له أقصى ما يمكنهم من واجبات الضيافة والحفاوة والاكرام . .

---

١ – تقال هذه الكلمة في الحالات الاستثنائية عندما يكون المسؤول لا يعرف ما يلاقيه من سائله من صداقة او عداوة ..

وقد ظل غريب عند العقيلات موضع الاجلال والاحترام ضيفاً عزيزاً الى أن جاء العقيلي مستأجر رفيقه وكان سرور غريب لا يعادله سرور عندما وجد الفتى العنزي سليما ومعافى من كل أذى ..

ومن فوره أخذ بيده وقفل عائداً الى أهله وعندما وصل اول قبيلة من بادية الشام اشترى من ثمن ذلوله وبندقيته ذلولا اقلته وفتاه حتى وصلا أهلها حيث وجد العجوز ام الفتى كما نقله لنا الرواة تهيم بين بيوت الحي بصورة فاجعة وقد فقدت كثيراً من نور بصرها على ابنها الوحيد .. وعلى وشك أن تفقد البقية الباقية من نور عينيها فيما لو عاد غريب إليها بدون أن يسلمها ابنها يداً بيد ..

اقتصاصاً للمقتول ومحواً للعـــار

- ٥ -

كما انه من سعادة المرء ان يوفق بابن نجيب يرفع ذكره ، كذلك من ســـوء طالعه أن يبتلي بابن عاق نذل يلصق العار والخزي بوالده واسرته ..

وهذا ما ابتلى به نمش(١)بن دعسان من العار الذى جره عليـــه ابنه ذعار وذلك في عام ١٣٢٦ هـ .

حل (ذعار) ضيفاً على أمير بلدة الزُّلْفِي(٢)فوجد عند مضيفـه شخصاً من قبيلة عتيبة يدعى (عويهان الصل) في حوزته فرسٌ أصيلة غنمها من قبيلة شمر ومن عشيرة الاسلم بالذات ، فبات تلك الليلة كل من العتيبي والمطـــيري ضيفين عزيزين عند أمير البلاد . وفي الباكر خرجا جميعاً كل منهما قاصداً أهله.. وبعدما قطعا مسافة بعيدة حطا عن راحلتيهما في أرض خصبة ليبيتا تلك الليلة على ان يجددا السفر في الغد ، بات العتيبي آمناً غير خائف غارقاً في سباته ، بينما المطيري لم يتسلل النوم الى عينيه ، وإنما كان جل همه هو ان يثق من نوم رفيقه

---

١ ـ نمش بن دعسان من قبيلة مطير ومن الدياحين .

٢ ـ الزلفي بلدة في نجد معروفة .

ليجهز على حياته ويغدر به طمعاً بالفرس ، وما ان وثق من نوم رفيقـــه حتى وثب عليه وقطعه إرباً بمديته ، وعندما نفذ المجرم خيانته امتطى الفرس وذهب الى أهله مدعياً انه غنم الفرس من قبيلـة شمر التي بينها وبين قبيلتـــه عداوة تقليدية ..

مضت ليال وأيام والغادر مرفوع الرأس بين قبيلته ..

اول نكبة تلحق بالخائن الغادر !!!

كانت الفرس التي ادعى الغادر انه غنمها من قبيلة شمر : من جياد الخيـــل الأصائل المشهورة عند قبائـــل الجزيرة والذي يغتنم مثـل هذه الفرس يكون موضع اجلال عند قبيلته ولا سيما إذا كان غنمها جاء عن طريق طراد الفرسان وجهاً لوجه اي بصورة يكون الفارس الذي غنمها طرح صاحبها ارضاً بعد قتال مرير ، ولكن هذه الفرس لم تأت الى يد صاحبها الاول الذي هو العتيبي إلا عن طريق (الحيافة)(١) والحيافة تعتبر شجاعة ومغامرة ولكنها لا تجعل لصاحبها من القدر بين قومه كما للفارس الذي يغتنم الفرس من صاحبها وجهـــاً لوجه كما اشرنا آنفـــاً .. وعندمـــا افتخرت قبيلة مطير على قبيـــلة شمر بِـغُنم الفرس منها ردت الاخيرة جواباً على افتخار رجال الاولى : بأن هذه الفرس التي تفخرون بها ليست من سلالة خيل شمر لأن امها جاءت (قلاعة)(٢) من خيـــل مطير في المعركة الفلانية التي وقعت في مـــكان كذا وفي وقت كـــذا بينما انتم اخذتموها عن طريق الحيافة .. وعندما حققت قبيلة مطير في الأمر وجدت ان

١ ـ الحيافة هي انه اذا كان بين قبيلة واخرى عداوة يأتي بعض الافراد ليلا ويختطف فرساً أو ابلا من العدو وبصورة اشبه ما تكون بالاختلاس وكان العتيبـــي المغدور به قد اخذ الفرس بهذه الطريقة .

٢ ـ القلاعة : هي التي تغتنم من فارسها بصورة علانية في احدى المعارك سواء بقتل صاحبها او بطرحه ارضاً .

ام الفرس حقيقة من خيل (وطبان الدويش(١)) وعندها ذهب وطبان وأخذ الفرس من يد الغادر بحجة ان الفرس ابنة فرسه وكانت حجة مقبولة في العرف المتبع بحالة كهذه ، فما كان من الدويش إلا ان اتخذ هذه الحجة وسيلة لاستعمال نفوذه الذي لا مرد له عند قبيلته بحكم انه كان رئيس القبيلة الوحيد في نجد الذي يصدر أوامره على قبيلته دون ان يجد من يعارضه في القبيلة بأسرها ..

المقصود ان الغادر أفلس من الفرس التي قتل صاحبها طمعاً بها وكل ما في الأمر هو ان ظلت يد الخائن ملوثة بلطخة العار ..

كل خفية عليها من الله بيّنه ! ! !

يعود بنا الحديث الى اهل القتيل الذين ذهبوا يلتمسون الحقيقة من مصدرها ولا زالوا يواصلون البحث والتنقيب عن ابنهم حتى بلغهم العلم اليقين الدي أفادهم ان – ابنهم وصل يوم كذا بلدة الزلفي ومصطحباً فرساً اغتنمها من قبيلة شمر وأنه حل ضيفاً عند أمير الزلفي .. وعلى أثر هذا النبأ شد العتيبيون رواحلهم وذهبوا الى أمير الزلفي ليتأكدوا منه وعندما وصلوا هناك وحلوا ضيوفاً عند الأمير وفهم المضيف الغاية التي جاء من أجلها ضيوفه عندئذ أكد لهم بأن ابنهم ضافه في يوم كذا وبصحبته الفرس التي كذا لونها مؤكداً أنه اختطفها من قبيلة شمر وأنه ذهب من عنده بصحبة ذعار بن نمش المطيري وكان هدا آخر العهد به ، فما كان من العتبان بعدما تلقوا هذا النبأ إلا انذهبوا الى رئيس قبيلة مطير المدعو (سلطان الدويش) وحلوا عنده ضيوفاً مطالبين بدم ابنهم ، وكان وجود الفرس أكبر دليل على صحة دعواهم التي دعمها شهادة أمير الزلفي وكثير من اهل البلدة نفسها ، وفي الحين الذي استقبل الدويش (العتبان) كضيوف

---

١ - وطبان من اسرة الدويش صاحبة الرئاسة المطلقة على قبيلة مطير .

أعزاء ، في الوقت ذاته بعث رسلاً من رجاله ليحققوا مع المدعى عليه ، ولكن المتهم لم ينتظر حتى يحقق معه بل فر هارباً ..

كاد المريب ان يقول خذوني !!

وذلك أنه بمجرد ما بلغه الخبر بأن هناك قوماً من قبيلة عتيبة يسألون عن ابنهم المفقود الذي كذا صفته ونعته ، بجرد ما تأكد من ذلك فر هاربا عن أهله وقبيلته بل وعن الأراضي النجدية كلها قاصداً الكويت ليتوارى عن أنظار القوم فترة الى أن يسبل الزمان ذيل النسيان على جريمته النكراء ثم يعود بعد ذلك الى عشيرته كأن لم يكن فعل شيئاً ..

كان فرار المجرم دليلا قاطعا على اثبات جريمته ، ويؤكد الرواة على رأسهم المرحوم عبد العزيز السديري الذي تولى وزارة الزراعة في المملكة السعودية ان والد الجاني وعموم اسرته أصبحوا امام قبيلتهم منبوذين ومقاطعين مقاطعة صارمة لا هوادة فيها بصورة أجمعت عليها رجال قبيلة مطير عن بكرة أبيها ، واتخذت نحوهم قراراً جماعيا بأن لا يكلم أي واحد من رجال القبيلة اسرة الغادر ولا تنكح نساؤهم ولا يزوج رجالهم من القبيلة وكان من نتيجة هذه المقاطعة الصارمة ان اضطر والد المسيء على أن يتخذ تدابير حاسمة ليغسل وصمة العار عن نفسه وعن اسرته ، وكانت الخطة التي اتخذها الاب تتلخص بما يلي :

أولاً – أنه رحل عن قبيلته وراح واستوطن مدينة (عنيزة) إذ لم يكن بوسعه ان يظل بين ظهراني رجال قاطعوه بهذه الصفة ..

ثانيا – قرر ان هذا العار الذي ألبسه إياه ابنه الغادر لا يمكن أن يمحى إلا بقتل الغادر نفسه ولذلك حالما وصل الوالد بلدة عنيزة كلف ابنه الثاني شقيق

القاتل بأن يذهب ليقتل أخاه وأقسم الشيخ لأبنه هذا بأنــــه سوف يقتل نفسه فيما إذا لم ينفذ ما أمره به ولم يتأخر الفتى عن السفر الى الكويت تنفيذاً لما أمره به والده وما أن أبلغ المجرم خبر أخيه حتى جاء يستقبله ولم يتصور أن أخاه جاء ليقتله وإنما ظن وهما بان أخاه جاء من أجل أن يشاركه وحشة الغربة وفي أول ليلة بات بها الأخ عند أخيه وثب عليه وذبحه بمديته وهو يقول :

– اقتصاصا لمن غدرت به وغسلاً للعار الذي ألبستنا إياه بين رجالنا ..

وبعد ذلك حز رأسه وأدرجه في خرقة من القماش وذهب رأسا الى قبيلته حسب تعاليم والده وعندما وصل هناك وجد مجلس الدويش حاشداً بشخصيات القبيلة عندئذ أخذ رأس أخيه وألقاه في وسط مجلس الدويش ثم عاد الى والده وجاء به الى قبيلته وظل بعدها يتصدر الأندية باحترام وتقدير من جميع رجال القبيلة بعدما كان مقاطعا منبوذاً ..

الفرس تعود الى ورثة المغدور به !!

اما الفرس التي اختطفها العتيبي المغدور به من قبيلة شمر ، والتي كانت لقمة سائغة لوطبان الدويش على أساس انها من سلالة خيله ، وان الذي غنمها شخص من قبيلته ، هكذا حجة الدويش وقـــد تكون حجة مقبولة فيما لو كان الذي اختطف الفرس من قبيلته اما وقد ثبت الآن بالدليل القاطع بأن الذي اختطف الفرس هـــو العتيبي المقتول غدراً فعلى هذا الأساس تكون الفرس ملكاً لورثة العتيبي ..

وعلى ضوء هذا المنطق استطاع ابن نمش ان يأخذ الفرس من الدويش ويسلمها الى ورثة العتيبي ، وما كان من قبيلة عتيبة الا ان رفعت الراية البيضاء لابن نمش(١) .

---

١ ـ الراية البيضاء هو أن يؤتى بعصا طويلة كالرمح ويوضع على رأسها خرقة بيضاء ثم يطاف بها بين قبائل الجزيرة العربية وكثيراً ما يطاف بها في المواسم الكبيرة التي يحضرها العرب بكثرة كموسم الحج . ويكون لهذه الراية أثر عميق في نفوس كل من يرى هذه الراية ويتحتم على من يحمل الراية ان يتخلل الصفوف منادياً بأعلى صوته قائلا (بيض الله وجه فلان ابن فلان) . وكل من يسمع هذا النداء يحمل نفسه على احترام هذا الشخص المنادي باسمه بحكم ان العادة المألوفة تقضي أن لا ترفع الراية البيضاء بصورة كهذه بين صفوف القبائل الا للمرء الذي فعل من الجميل الشيء الكبير الذى فيه تفان وتضحية وعلى العكس ترفع الراية السوداء بصورة مماثلة للمرء الذي يعمل قبيحاً ..

ويؤكد الرواة الثقاة ان اسرة المقتول اي العتيبيين رفعوا الراية البيضاء ثلاث سنوات على التوالي في المواسم الكبيرة . كموسم الحج في منى وعرفات .

بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين

- ٦ -

كل جريمة فيما اعتقد أهون وأخف من جريمة قتل النفس . والقتـل من حيث هو ما لم يكن قصاصاً او خطأ او دفاعاً عن النفس فانه يكون جريمة نكراء .. والجرائم تختلف باختلاف بواعثها فـالقتل الذي ينجم عن فورة غضب مثلاً يختلف عن القتل الذي يصدر من انسان لا غـاية له الا ان يقتل أخاه الانسان لينهب ماله او أرضه او سلطته الخ .. ولذلك نجد ان القاتل الذي من هذا النوع سرعان ما تقتص منه يد العدالة بطريقة لا يفكر بها ولم تخطر له ببال . كهذه الحادثة التي اقدم بها المجرم على قتله لنفس بريئة بدافع الجشع والاجرام والظلم ، وشاء الله ان يكون قتل القاتل على يد ابن اخته ، وشرح القصة كما يلي :

كان المعروف ان صحراء الجزيرة فيما سبق لا يستطيع المسافر ان يقطعهـا حتى يكون معه رفيق من احدى القبائل التي يمر (١) بأرضها لكي تحميه من هذه القبيلة .. وهذا الرفيق يعتبر هو المسؤول عن الرجل المسافر ، ومن يعتدي عليه فانما هو معتد على حرمة الرفيق . وبين عام ١٢٨٠ هـ و ١٢٨٥ جاء شخص من أهل مدينة بريدة يدعى (صالح الصقعبي) يمتهن حرفة التجارة ورمى بـه

---

١ - راجع ص ٩٢ - ٩٣ الطبعة الثانية الجزء الأول من شيم العرب للمؤلف .

الفال الى الأرض التي تقطنها قبيلة العجمان ، فاصطحب رفيقاً من العجمان يدعى (حمد بن قرعان) وظل التاجر بحماية حمد حتى ظن انـه تجاوز حدود الأرض التي يقطنها العجمان ، عند ذلك ترك حمد رفيقه على أساس انه سوف يتخذ رفيقاً من احدى القبائل الأخرى المتاخمة ، ولكن الذي حصل هو انه ما ان توارى حمد عن رفيقـه حتى انهالت غارة الغزاة من قبيلة حمد نفسها فـدافع التاجر ببندقيته عن نفسه ما استطاع ، وأخيراً طوقه الغزاة المجرمون وقتلوه وتقاسموا ماله وكان الذي تولى تنفيد القتل بالتاجر الشهيد خال حمد رفيق التاجر ومجيره ولم يعلم حمد عما تم برفيقه ..

وبعد مضي مدة من وقوع الحادثة سافر حمد بصحبة خـــاله ومن الصدف الغريبة ان طريقهما جاء على المكان الذي قتل فيه التاجر وكان حمد رديفـاً لخاله وفجأة ضحك الخال بدون أي سبب وكان لا بـــد لابن الأخت أن يسأل خاله قائلاً :

ـ ما الذي اضحكك يا خال ؟..

فرد عليه بقوله :

ـ شيء مضى وانقضى يا بني ..

ـ ناشدتك الله ان تخبرني به ؟

ـ اضحكني صاحب هدا القبر .. حضري قتلته وعندما كان على عتبة الموت كان يصرخ قائلاً يا حمد يابن قرعان وهو لا يعلم ان قـــاتله خال حمد نفسه .. ولذلك ضحكت الآن عندما رأيت قبره وتذكرت سفاهة رأية عندمـــا راح يستنجد بحمد على خاله ..

ـ أهو التاجر يا خال الذي كذا صفته ؟..

ـ نعم هو بذاته ..

وعندئذ وثب ابن الأخت على خاله وطعنه بخنجره التي مزق اشلاءه بهـــا وهو يقول :

ـ فليبشر مستنجدي .

وبعد ما قضى عليه حفر قبره ودفنه بجوار رفيقه (١) .

---

١ ـ رويت هذه القصة من عدة مصادر وآخرها المرحوم فهد العيسى وذلك في عـــام ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ في مدينة جدة .

لولا وجود القصيدة لضاعت القصة

-٧-

ولولا خصال سنها الشعر ما درى　　　بناة العلى من أين تؤتى المكارم

مما لا جدال فيـــه أن بعض القصص لولا وجود القصائد الشعبية لضاعت آثارها من الوجود ولله در الشاعر القائل وخاصة مثل هذه القصة التي كنت أسمع بقصيدتها منذ أن كنت طفلاً بدون أن أعرف شيئاً عن القصة ذاتهـا الا أنني بعد ما بلغت من الوعي حداً مكنني من معرفة معاني الشعر من حيث هو بعد ذلك ، أدركت ان تلك القصيدة ترمي الى معنى يشير به الشاعر الى وفـاء قام به تجاه رفيقه ، ولكن لو سألتني وقتها عن الشاعر او عن القصة التي أثارت شجون الشاعر وشحذت ظروفها قريحته ، لو سألتني عن ذلك لما استطعت ان أفهم شيئا بهذا الشأن الا بعد ان كرست جهودي نحو القيام بتسجيل شيم العرب ومما لا شك فيه ان الكثير ممن يحفظون القصيدة لا يعرفون شيئا عن قصتها ما عدا القليل من أهـــالي بلدة الشاعر نفسه وخاصة رواة الأدب الشعبي

والقصة حدثت في عام ١٢٨٠ هـ . على وجه التقريب :

وخلاصتها أن نفراً من بلدة الرس(١) سافروا لاداء فريضة الحج وفي عودتهم سقط شخص منهم عن راحلته فتحطمت ساقه ، ويدعى هذا الشخص (جارد ابن ذياب) فحاول رفاقه ان يحملوه على الراحلة ولكن الجريح ما استطاع الركوب وظل يئن ويضجر من تأثير الكسر الذي أصابه فظل رفاقه حيارى في أمره وبقوا يتداولون الرأي فيه ماذا يصنعون به انقسم رأي الركب الى قسمين : قسم منهم يرى ان يحمل فوق راحلته بصرف النظر عن كونه لا يتحمل ركوب الراحلة والقسم الآخر يرى ان ليس من الشيم والتقاليد العربية بحالة كهذه ان يرغموا رفيقهم على شيء لا يستطيع احتماله كجريح .. وكان على رأس كل فريق من هذين الفريقين المتخالفين بالرأي شخص قوي المعارضة ، فرئيس أصحاب الرأي الأول يدعى صالح بن رخيّص ورئيس الجانب الثاني فتى يسمى (خالد العلي) وبعد الجدال الطويل بين الفريقين رجحت كفة ابن رخيص فقرر القوم ان يحملوا الجريح على راحلته بدون ان ينظروا لعدم احتماله وأصبح خالد العلي وحيداً برأيه حيث تخلى عنه رفاقه وراحوا يؤيدون فكرة ابن رخيص مخالفين رأيه الذي يشير بأن يظلوا جميعاً يعتنون برفيقهم الجريح حتى يجبر عظمه ويبلغ من الصحة درجة يستطيع معها ركوب راحلته بدون كلفة .. وعندما رأى خالد ان رفاقه اجمعوا على رأيهم لم يسعه الا ان يذعن للأمر الواقع .. وفي الحين الذي جاء القوم ليحملوا الجريح على راحلته عند ذلك اغرورقت عيناه وأشار بطرفه الى خالد اشارة يؤخذ من معناها انه يستنجد بخالد فكأنه يقول باشارته هذه : (ادركني يا خالد ...)

أثارت هذه الاشارة نخوة خالد وعندها آلى على نفسه بان لا يتخلى عن رفيقه حتى يجبر كسر ساقه او ان يموتا معا ، وقد حاول رفاقه ان يقنعوه ولكن محاولتهم تفتت على صخرة عناده وإرادته الفولاذيتين وعندما رأى الركب اصراره تركوا عندهما ما استطاعوا من الماء والزاد وذهبوا لينجوا بانفسهم لئلا يفتك بهم الظمأ .. أما خالد فقد بقي يمرض رفيقه الجريح ويعتني

---

(١) الرس احد بلدان القصيم

به عناية لا يقوم بها إلا والدته الحنون الى ان جبرت عظامه وشفي شفاءً تاماً وذلك بعد مضي ثلاثة اشهر قضاها خالد بجوار رفيقه وكانا على وشك بان يفتك بهما الظمأ لولا وجود ما وجده خالد بمحض الصدفة .. أما من حيث الطعام فقد كانا يعيشان على الصيد الذي يصطاده خالد ببندقيته خاصة بعدما انتهى الزاد الذي تركه رفاقهما ، وكانت النهاية ان عاد خالد برفيقه بعد مضي تلك المدة التي ظن أهلهما انهما ماتا ظمأ وجوعا ...

واليك بعضا من القصيدة التي أنشدها بطل القصة خالد والتي كما اشرت آنفا لولا وجودها لدرست القصة وانمحت ..

ولما كان مطلع القصيدة والبيت الذي يليه يبعدان بنا عن صميم المعنى الذي نحن بصدد شرحه فقد رأيت ان اختصر القصيدة وان لا آتي منها إلا بالأبيات التي تعبر تعبيراً واضحا عن تصوير الشاعر للقصة كقوله :

يا ِبنْ رْخَيّص كُبْ عَنْكَ الزّواريب

عَمارنا يا ابِـنْ رْخَـيص عوَارى

يخاطب الشاعر ابن رخيص باعتبار انه كان زعيم القوم الذين يرون الرأى الذي يرمي الى حمل رفيقهم الجريح . . والمعنى هنا ان الشاعر يزدري ابن رخيص ويقول دعني من حديثك الذي تقصد منه تثبيط الهمة . . وفي عجز البيت يقول الشاعر ان حياة بني الانسان كلها محدودة وأشبه ما تكون بالعارية فيجب والحالة هذه ان يفعل المرء فيها ما أمكنه من جميل وتضحية فهذه الحياة زائلة ..

خَـيوّيـنَا مَا نَصَـلبِـهْ بالمْصاليبْ

ولا يـشْتِكي مِنـا الجِفَا والعزَارِي

يقول ان الرفيق له حرمة مرموقة عندنا ولا يمكن ان يمس بسوء ولا يرى منا جفاء .. وأنه من المستحيل ان تشد وثاقه على ظهر المطية :

لاَزِمْ تِجيك أُمي بكَبْدَهْ لَوَاهِيب

تبكي ومن كثر البكا ماقدارى

تسألــك باللي يعلم الجهر والغيب

عن ابنها اللّي لِكْ خَوِيّ مبارى

قل ابنِكْ قَعَدْ بعاليات المرَاقِيب

في سِهلة ما حَوِله إلاّ الحبارى

يَتْنى خَوِيّه لِيْن يَبْدى به الطيب

و إلا فيجرى له من الله جارى

بما أن هذه الأبيات الأربعة متصل بعضها ببعض لذلك وجدت ان من الأنسب أن لا أفصلهن عن بعضهن ..

يقول الشاعر مخاطباً رفاقه عندما سافروا وتركوه :
يا أيها الركب سوف تأتيكــم والدتي محروقة الفؤاد تبكي بكــاء مراً وتسألكم بالله الذي يعلم الغيب والعلانية قائلة : أين ابني الذي ذهب مرافقاًلكم وعدتم بدونه ؟ .

هذا هو شرح البيت الأول والثاني من الأربعة ، ويقول بطل القصة وشاعرها في البيت الثالث والأخير :

اذا أتتكم والدتي وسألتكم عني مبدية شوقها بحرارة فقولوا لها ان ابنك

ذهب به الوفاء والتضحية في سبيل حياة رفيقه الى الحـــد الذي جعله يجلس في رأس جبل عال ليس لديه جليس ولا انيس ما عدا طيور الفلاة كل ذلـــك من أجل الوفاء لرفيقه الجريح وأكدوا لها بأنه سوف يظل بهذا الموقـع الى ان يبرأ رفيقه او يأتيه أمر من قضاء الله وقدره فيتوفى ، فحينئذ يكون قد قام بواجبه تجاه رفيقه .. ومن سياق القصيدة ليبدو انهما كانا في رأس جبل عال ..

وقد ظل في جانب رفيقه حتى تم شفاؤه فرجعا الى أهلهما سوياً .

واليك القصيدة بكاملها :

١ ـ يا ابن رخيص كبّ عنك الزواريب
عمـــارنا يـــا ابن رخيص عواري

٢ ـ خوينـــا نصلبـــه بالمصاليب
ولا يشتكي منـــا الجفا والعزاري

٣ ـ لازم تأتيك أمي بكبدها لواهيبْ
تـَبْـكي ومن كِـثْـر البكا ما تداري

٤ ـ تسألك باللـّي يعلم الجهر والغيب
عن ابنها الـلي لـك خوى مبـــاريْ

---

١ ـ كب : دع . الزواريب ـ التثبيط .

٢ ـ خوينا : رفيقنا . الغزاري : المعـــاملة السيئة . المصاليب ؛ الكيفية التي أرادوا ان يحملوه عليها . أي ان يشد وثاقه على سرج الراحلة .

٣ ـ لازم : لا بد . لواهيب : جمع لهيب . تدار ، : ترأف بنفسها .

٤ ـ خوى مبار : رفيق مساير

٥ - قل ابنك قـَعدْ في عالياتْ المراقيبْ

في سهلة مـــا حـــوله الا الحباري

٦ - يَتـْنى خـَوِيّهْ لين يبدى به الطيب

والا فيجري له مـــن الله جاري

٥ - المراقيب : الجبال . الحبارى : نوع من الطيور مفردها حبارى .

٦ - يتنى : ينتظر . لين : الى ان . الطيب : الشفاء .

الفصل الثاني

النخوة العربية

رُبَّ (وامعتصماه) ! انطلقت ... مِلْءَ أفواه الصبايا اليتم
لامَسَتْ أسماعهم لكنها ... لم تُلامِسْ نَخوَةَ (المعتصم)

عمر ابو ريشه



بنجدة الفرد انجد الوطن !!!

- ٨ -

مما يدعو الى الأسف بل والى الأسى والألم المرير ، اننـا كعرب مهملون الى ابعد حدود الاهمال الاحتفاظ بكل ما يمت الى تاريخ اسلافنا الأدبي والاجتماعي والسياسي والقومي بأرسخ الصلات الوطيدة .

واذا كان الاهمال هذا ظاهرة محسوسة عند جميع ناطقي الضاد بصورة عامة، فانه عند ساكني شبه الجزيرة بل بعبارة اوضح وأصح عند عرب نجد اهمال يتجاوز الحد ، وذلك للسبب الآتي :

وهو شيوع الأمية واعتمادهم في حفظ الاحداث والوقـائع على ذاكرة الرواة القصاصين فتكون الحادثة مثلاً ذات الأهمية محفوظة في صدور الرواة الى مـدة اقصاها قرن او قرنان ، واذا توفي هؤلاء الرواة ولحق بهم الناقلون عنهم ، فان الحادثة تدرس وتختفي من عالم التاريخ لسببين : السبب الرئيسي هو موت الجيل

الاول من الرواة والجيل الثاني الذي يليه ، واما السبب الثاني فهو وقوع أحداث من جديد تقسيع القديمة في خضم الاحداث الجديدة .

وهكذا يضيع تاريخنا القومي ويختفي أثره من عالم الوجود ، بينما نجد الأمم الاخرى تحتفظ بتاريخها الماضي كاحتفاظها بقوتها اليومي ، واذا وقع لأي فرد من رجال تلك الأمم حادثة من الحوادث التي تسترعي الانتباه سواء أكانت تلك الحادثة من الاعمال الخاصة بالابتكار الصناعي او بالابداع الفكري او بالانتاج الادبي او بالمغامرات البطولية .. أجل اذا نبغ اي فرد من اولئك في اية ناحية من تلك النواحي نجد انهم يقدمون لذلك النابغ في حياته من الاوسمة والنياشين والثناء العاطر ويقيمون له المهرجانات والحفلات ويضعون له الراتب الذي يضمن له عيشة هنيئة سعيدة مدة حياته ، اما اذا مات فانهم يصنعون له تمثالاً تذكارياً ويقام له مهرجان سنوي كلما جاءت الذكرى التي توفي فيها .

ومن أوضح الأدلة على اهمالنا لتراثنا وعناية الأجانب بمجدهم ، اننا عندما نقارن بين ما قام به الضابط الطيار الالماني الذي اختطف السنيور موسوليني من قلعته ونذكر تلك الجمجمة التي أقامتها حكومة المانيا وقتها بصورة خاصة ، وما قامت به الدول الأوروبية بصورة عامة بما في ذلك اعداء المانيا النازية .. كل من هؤلاء وأولئك تضافرت جهودهم بالدعاية الرنانة التي أقاموا الدنيا وأقعدوها حتى بحت اصوات المذيعين وملئت أعمدة الصحافة الأوربية ، وألفت المؤلفات وترجمت تلك المؤلفات الى عدة لغات وأخذت منها الأفلام السينمائية في كثير من دول العالم .

أقول : عندما نقارن بينما قام به الأوربيون الغربيون والشرقيون من اهتمام وتمجيد وثناء خالد لذلك الطيار الالماني ورفاقه الذين اختطفوا السنيور موسوليني

من قلعته أبان الحرب العالمية الثانية ، وبين العرب الذين اختطفوا الأمام فيصل ابن تركي آل سعود من سجن محمد علي الخديوي .. نجد البون شاسعاً الى مـا لا نهاية له • أقول ذلك ومرارة الأسى تحزّ في نفسي، عندما أجد اولئك الأجانب يفعلون من التشجيع لرجالهم العاملين كل ما يمكنهم فعله لايجاد تنافس ومسابقة على الابداع والأعمال الجدية انى كان نوعها، بينما نحن لا نعبأ بمثل هذه الأمور الا كما يعبأ الطفل بالألعوبة التي تقدم اليه فيفرح بها الطفل في ساعتها فرحة ارتجالية موقتة ، وبعد فترة وجيزة يركلها برجله زاهداً بها وذاهبـــاً ينقب عن العوبة ثانية من جديد .

هذا المثل على بساطته يوشك إن يكون مطابقاً لواقع أمرنا من حيث اهمالنا لتاريخ أسلافنا وعدم اهتمامنا بتشجيع العاملين اني كانت اعمالهم .

* * *

قد تكون دراستي للتاريخ بصورة عامة أكثر من دراستي لأي فن كان .. وخاصة تاريخ بلادنا العربية ، وكثيراً ما احصر اهتمامي بمتابعة الاحداث ذات الاتصال المباشر بشيم العرب ، سواء ما يصدر عن جهود الجماعات او ما يصدر عن الجهود الفردي .. وكنت قد درست اسباب العدوان التركي الذي قـام به ابراهيم باشا الخديوي على قادة الجزيرة العربية آل سعود ؛ سواء مـا كان في عهد الامام عبدالله بن سعود عندما استولى ابراهيم باشا عليه في عام ١٢٣٣ هـ ١٨١٨م او ما كان بقيادة خورشيد باشا الذي استولى على الامام فيصل بن تركي آل سعود وذلك في عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣١ م .

كل ذلك درسته بتدبر وامعان كما اطلعت على قصة هروب الامام فيصل من

سجنه في مصر ومجيئه الى نجد، ولكن الشيء الذي لم أطلع عليه بل ولم يذكره أي مؤرخ من المؤرخين الذين اطلعت على مؤلفاتهم، هو اسم الاشخاص الذين غامروا بحياتهم واختطفوا الأمـــام فيصل من معتقله في مصر ، وحتى المؤرخ عثمان بن بشر عندما جاء الى هذه الناحية لم يشر اليها لا من بعيد ولا من قريب ، وانمـا مر عليها مر الكرام بكتابه (عنوان المجد) ص ٩٩ ج ٢ الطبعـــة ١٣٤٩ هـ فقال مانصه حرفياً :

(في اول هذه السنة يعني سنة ١٢٥٩ هـ نزل الامام فيصل من حبسه بحبال لما اكثر التذلل والتضرع عنـــد ربه والابتهال ، ونزل من رأس القاهرة ومعه أخوه جلوى وابن عمه عبدالله بن ابراهيم وابنه عبدالله . ومضى المؤرخ الى ان قال .. وكانوا قد واعدوا ركائب تحتهم فركبوها فساروا الى جبل شمر وأرسلوا الى عبدالله بن علي بن رشيد يخبرونه بجيئهم فتلقاهم بالرجال والرحائل ودخلوا بلدة حائل ، وقابلهم بالتكريم والاكرام وعظمهم غـــاية الأعظام ، وقال أبشروا بالمال والرجال والمسير معكم والقتال) .

المقصود هنا هو ان ابن بشر الذي يعتبر تاريخه مرجعاً في هـــذا الشأن ، لم يشر الى الرجال الذين اختطفوا الأمام فيصل من سجنه ، وكل ما في الأمر انـه قال : (وكانوا قد واعدوا ركائب تحتهم فركبوها) ، اما الرجال الذين جاؤا بالركائب والذين لولا وجودهم لما استطاع الامـــام ان يهرب من سجنه ، هؤلاء الابطال الشجعان اصحاب النخوة العربية لم يذكرهم ابن بشر مع الأسف ، وانما ذكر الركائب .

وفي احدى المناسبات التي اجتمعت بها بالأخ الاستاذ العلامـــة الشيخ حمد الجاسر ، دار البحث بيننا حول تاريخ بلادنا فقال الجاسر انه وجد في مكتبة

شركة ارامكو في الظهران نبذة مختصرة عن تاريخ نجد نقلهـــا الاستاذ بديع البستاني ، عن المرحوم الشيخ ضاري الفهيد الرشيد ، وانــه اي الاستاذ الجاسر أخذ عنها صورة فوتوغرافية .

ولما كنت اعرف ان ضارياً من الملمين بتاريخ نجد ، كما انه في الوقت ذاتــه شاعر شعبي مجيد ، فقد ابديت رغبتي للاستاذ الجاسر بـــأن يطلعني على النبذة المذكورة وقد كان الجاسر وقتها يقيم في بيروت ، وكانت النسخة في الرياض ضمن مكتبته هناك .. ولكن الاستاذ الشهم طلب النسخة من الرياض بناء على رغبتي وعندما جاءت سلمني اياها .

وقد أعدت قراءتها ثلاث مرات ، وأحسن شيء اعجبني فيها هو ان الاستاذ البستاني نقل الرواية عن الشيخ ضاري بتعبيره الشعبي على علاتـــه ، وعلى وجه العموم لم يكن في تلك النبذة شيء غريب عليّ من حيث الأصل والجوهر ، اللهم الا الشيء الذي هو العمدة في بحثنا هذا وأعني به ما ذكره ضاري بصورة اجمالية عابرة عن النفر الذين اختطفوا الامام فيصل بن تركي من وسط معتقله في مصر ، فكل ما في الأمر ان ضارياً عندما جاء الى هذه الناحية قال ما نصه : (وجاء الامام فيصل بدو واختطفوه من مصر) الخ .. بدون ان يذكر اسم البدو بـل ولم يذكر اسم القبيلة التي ينتسب اليها هؤلاء البدو ، ولست ادري هل ان الشيخ ضارياً يجهل اسماء هؤلاء البدو ، ويجهل ايضاً اسم القبيلة التي ينتمون اليها ، او انه لا يجهلهم ولكنه لا يريد ان يذكر اسمهم ، لأنهم قد يكونون من غير قبيلته ، فان كانت الاولى فهي مصيبة من مثل ضاري الملم بأخبـــار العرب ، وان كانت الثانية ، فالمصيبة اعظم ، وعلى اي شكل فان ضارياً اعطانا دليـلا نستند اليـه بقوله : جاء بدو و ختطفوا الامام فيصل ، أي انـــه بعبارته هذه كان أوضح تعبيراً من ابن بشر الذي يذكر الركائب بدون ان يذكر الرجال الذين أعـدوا

الركائب وجاؤا بها.. وهكذا تضيع علينا معرفة هؤلاء الرجال اصحاب النخوة العربية الذين اختطفوا زعيمهم ، تضيع بين ابن بشر الذي لم يذكر الا الركائب وبين ضاري الذي لم يذكر الا البدو .

وبعد .. فقد اشرت منذ قليل الى الدعاية الرنانة التي أقامها الأوروبيون للطيار الالماني ورفاقه الذين اختطفوا الزعيم الطلياني من معتقله ، ويطيب لي ان أقول الآن يا ترى لو ان هؤلاء البدو الذين قدموا حياتهم قرباناً على مذبح النخوة والنجدة لزعيم وطنهم والذين غامروا بحياتهم وبراحتهم وجاؤا من قلب الجزيرة العربية ممتطين رواحلهم وقطعوا مسافة ما بين مصر وأقصى نجد لا تقل عن مسيرة شهرين للركائب ، لا اولئك الطيارين الألمان الذين لا تتجاوز مشقة سفرهم ساعات محدودة في الجو ، أقولها ثانية وثالثة لو ان مغامرة هؤلاء البدو عند اولئك الأجانب الذين يعيرون مثل هذه الأمور جلّ اهتمامهم أيمكن ان تدرس مآثرها وينسى اسماء رجالها الابطال الاشاوس كما طوى اسماءهم الاهمال والنسيان عندنا .. هذا مع البون الشاسع بين الزعيم الطلياني السنيور موسوليني الذي عندما ظفر به شعبه مزق اشلاءه وقتله شر قتلة .. وبين الزعيم العربي الامام فيصل الذي عندما جاء الى شعبه ابناء الجزيرة استقبلوه بقلوب طافحة بالولاء لشخصه والايمان بزعامته والاجلال والتقدير لذاته ، لأن الوطن أصيب بنكسات واضطرابات بعد اعتقال الأمام فيصل فكانت عودته الى الوطن عودة الاستقرار والاطمئنان .

وكانت نجدة اولئك البدو وللأمام فيصل من معتقله نجدة للوطن بأسره ونجدة لأمة بكاملها لا نجدة لشخص بمفرده .

والشيء الذي اختم به بحثنا هذا هو انني سوف أسعى ما استطعت بالاتصال بالشيوخ الرواة في الجزيرة لعلي أصل الى معرفة اسماء هؤلاء الرجال لكي أخلد

ذكرهم بصورة اوضح بها اسماءهم واسم القبيلة التي ينتمون اليها ، لاعتقادي ان عودة الامام فيصل الى الوطن بفضل مساعي اولئك الشجعان ذوي الشهامـة تعتبر نقطة تحول في تاريخ وطننا العزيز (١) .

---

١ - بعد ان انتهيت من كتابة هذه القصة ذهبت الى الوطن في ١٥ شوال سنة ١٣٨٣ وقـد سنحت لي الفرصة بالاجتماع ببعض الرواة فسألت عن اسماء اصحاب النجدة فلم أجد من يخبرني عنهم سوى شخص من حاشية الملك فيصل بن عبد العزيز وهو المدعو سعد بن عيسى فهذا الرجل يؤكد ان الذي قام بهذه النجدة شخصان من قبيلة عتيبة احدهما يـدعي حزام الهرار والثاني يسمى المريبض .

أخو النخوة الذي حارب المستعمرين بسلاحهم

- ٩ -

لم تكن الحرب التي شنها الايطاليون سنة ١٩١١ م على عرب ليبيا حرباً استعمارية فحسب، بل وحرباً صليبية، وذلك ان البابا نفسه تولى توزيع الصلبان على قادة الغزاة الفاتحين ، وكانت نواقيس النصر تدق في الكنائس في كل مناسبة يسفك بها الغزاة دم الابرياء الليبيين او يغتصبون أرضاً من أراضيهم ، الامر الذي خلق في نفوس ذوي الشهامة العربية ـ والغيرة الاسلامية استعداداً لمحاربة هؤلاء الصليبيين الطغاة .

وكان في مقدمة المجاهدين البواسل محمد صالح حرب(١) الذي أخذته النخوة العربية والغيرة الاسلامية وضحى برتبه العسكرية ورواتبه وهجر أهله وبلاده وراح يكافح في جانب اخوانه العرب الليبيين رابطاً مصيره بمصيرهم ، مفضلاً

---

١ ـ هو رئيس جمعية الشباب المسلمين في الجمهورية العربية المتحدة ، وكان وزيراً للدفاع في حكومة علي ماهر في مصر .

حياة المجاهدين بصحراء ليبيا القاحلة على رفاهية العيش في ضفاف النيل .

كان الايطاليون بحربهم الصليبية لليبيا يعتمدون الى حد كبير على الانجليز بحكم الرابطة الصليبية والاستعمارية وذلك منذ بداية هجومهم على ليبيا ، اي قبل وقوع الحرب العالمية الاولى وكانت المؤازرة التي يقوم بها الانجليز للطليان تقتصر في بداية الامر على حصار ليبيا اقتصادياً ، ولما كانت مصر وقتها ترزح تحت السيطرة الانجليزية فقد كان من السهل على الانجليز ان يحكموا الحصار الاقتصادي على المجاهدين وأن يمنعوا عنهم أية معونة تأتيهم من اخوانهم العرب سواء كانت هذه المعونة مؤناً او ذخيرة أو مجاهدين ، كان الانجليز يفعلون ذلك قبل ان تقع الحرب العالمية.. اما بعد ان وقعت الحرب واصبحت ايطاليا حليفة للانجليز ضد المعسكر الالماني فإنمن بدهيات الامور ان تصبح مساعدتها لايطاليا مساعدة عسكرية ومما لا شك فيه ان أية مساعدة لايطاليا سوف تكون على حساب المجاهدين الليبيين .

كان محمد صالح حرب وقتذاك على رأس قوة عسكرية مصرية متاخمة للحدود الليبية برتبة (قومندان – مقدم) وفي ذات يوم امر جنوده بأن يأخذوا كامل استعدادهم وان يسيروا قدماً نحو الجهة الغربية . . وخرج يقودهم جهاراً ، وعلى مرأى من القادة الانجليز الذين كانوا يعتقدون انه خرج بجنوده – للتدريب او الاستطلاع ، اما انهم يظنون بأن الجرأة ستبلغ به الى الحد الذي يجعله يخرج من عندهم بجنوده عياناً بياناً لينضم الى صفوف المجاهدين ويحاربهم بسلاحهم .. هذا الظن كان ابعد ما يتصورونه لعدة امور :

– منها ان المجاهدين لم يكن وضعهم يشير الى اية علامة من علامات النصر بل كانوا في اسوأ حالة من المجاعة والحرب الدامية امام قوة الاشرار التيتفوقهم عدداً وعدة اضعافاً مضاعفة ..

– ومنها انه هو وجنوده كلهم اصحاب عائلات في مصر وليس من المعقول ان – يغامروا جميعاً هذه المغامرة اليائسة لمناصرة رجال ليس هناك اي امل محسوس لفوزهم على عدوهم الغاشم ، ولكن محمد صالح اخلف ظنهم وذلك انه لم يقف به الامر بأن انحاز الى صفوف المجاهدين فحسب ، بل ذهب في طريقه واتصل بعمد ومشايخ مرسي مطروح وضمهم اليه وبعد ذلك جمع العمد والمشايخ والضباط وألقى فيهم كلمته التاريخية قائلا :

– نقف الآن بين معسكرين احدهما معسكر الانجليز اعداء الله والوطن .. والآخر معسكر العرب والمسلمين المجاهدين وقد املى علي ضميري وواجبي الديني بمحاربة الانجليز ، وها انذا عقدت العزم وتوكلت على الله لأحاربهم فمن كان منكم حريصا على حياته او لا يستطيع فراق اهله وتحمل ما يخبئه لنا القدر من مستقبل مليء بالكفاح والاهوال الجسام فليعد بأمان ولن احول بينه وبين رغبته .. ولكن بشرط ان يترك ما معه من سلاح وذخيرة ومؤونه ..

ولما كان الكلام الذي يصدر من القلب يمضي كالسهم الى قلب السامعين فقد كانت النتيجة ان استجاب جميع جنوده وضباطه ومن معه من المشايخ لرغبته وقرروا ان يموتوا جميعا برفقة قائدهم او يحيوا جميعا ..

وكانت ثورة محمد صالح مفاجأة للانجليز وخاصة انضمام بعض القبائل اليه كأولاد علي الذين انقادوا لرغبته .. وقد ابلى الرجل في جميع المعارك التي خاضها ضد المستعمرين بلاء حسنا ..

ويتضاعف اعجابنا وتقديرنا للبطل محمد صالح حرب انه اقدم على تلك المغامرة بدون ان يأخذ رأي ضباطه ، وكما ذكر عنه الاستاذ محمود شلبي (في كتابه سالف الذكر ص ٥٠) بقوله : انه لم يعلم عن خطته التي اتخذها سوى ضابط من ضباطه فقط ، أما البقية فانهم لم يعلموا شيئا عندما خرج بهم حتى فاجأهم بما هو عازم عليه ، ولئن دلّ ذلك على شيء فانما يدلنا على ثقة الرجل بنفسه كقائد يدرك مدى هيمنته على نفوس

ضباطه وجنوده ولولا ثقته بنفسه وإيمانه بالله لما اقدم على هذه المغامرة قبـل ان يأخذ رأي جميع ضباطه، لأن خطته هذه بالامكان ان تفشل فيما لوقدر ان احد ضباطه غدر به وأطلق عليه رصاصة من خلفه .. وعندها سوف تتقلب الخطـة رأسا على عقب .. ولكـن الرجل كمـا اشرت يبدو انه راسـخ الإيمان بالله ووطيد الثقة بنفسه وفسيح الأمل بنفسه وبرفاقـه جميعـا ضباطا وجنودا وعمداً .. ومشائخ .

النخوة التي أسرني صاحبها بفضله

- ١٠ -

اذا كنت أشعر براحة كبرى عندما أسجل أية حادثة من الحوادث التي تمت بصلة وثيقه الى شيم العرب بصورة عامة ، فانني ولا شك سوف أشعر بسعادة تغمر كياني ولذة لا تعد لها لذة عندما أدون حادثـة من شيم العرب كهذه التي أسداها فاعلها الى مصدر وجودي بهذه الحياة ، ولئن كنت اعتبر ان المجهـود الذي ابذله في خلود شيم العرب بشكل عام لشرفا اعتز به ، او فرض كفايـة اقوم به ، فانني اعتبر ان تسجيلي لقصة صاحب هذه النخوة العربية فرض عين بالنسبة لكاتب هذه الأحرف بالذات ..

كان والدي رحمه الله كشأن الكثير من رجال ذلـك العهد الـذين يرون ان اظهار العطف الكثير للولد يضعف شخصيته ، ولذلك لا اذكر منـذ ان كنت طفلا ان والدي قبلني الا في حالة قدومه من سفر او ذهابه الى سفر ..

وفي ذات يوم وجدته طبعني بقبلة عطف تنم عن أنه مسافر الى جهة ما ثم يعود بعد ذلك ، الا انني رغم حداثة سني شعرت بهاجس طاف بمخيلتي يوحي الى ان تلك القبلة سوف تكون آخر قبلة من والدي ، فذهبت مسرعا من المكان

الكائن جنوب البلدة الى المنزل الذي يقيم فيه أبي ، وهو شمال البلدة قاصداً أن أتمتع اكثر برؤيته وقد خيل إليّ انني لن أراه أبداً بعد ذلك ، وعندما وصلت منزله ودخلت قاعة البيت ولم أره ، ذهبت لأنظر الى عدة السفر التي أعهدها في البيت كالرحل والخرج والقربه الخ .. وعندما لم أر أثراً لأي منها ، أيقنت أن والدي سافر فعدت اسأل عنه زوجته لازداد يقيناً فكان جوابها ان اجهشت بالبكاء ، فقارنت ساعتذاك بين ما دار بخيلتي وبين بكاء تلك المرأة فتضاعف تشاؤمي فخنقتني العبرة ، وخرجت من المنزل أسكب دمعاً غزيراً ، وكنت أظن ظناً يكاد ان يكون يقيناً قاطعاً بأن أبي نفذ فكرته التي كانت تدغدغ خياله منذ فترة من الزمان وهي عزيمته على السفر الى العراق ، وكنت اذكر رحلته في العام الماضي عندما كنت بصحبته وما لقيناه من أهوال ، كان موضوع الغرابة والعجب اننا نجونا من الموت المحتوم(١) بمعجزة الهية ، وعندما اذكر ذلك يتضاعف خوفي ويزداد قلقي على أبي ، بحكم ان السفر الى خارج البلاد في ذلك العهد لم يكن متيسراً الا باذن خاص من ولاة الأمر ، اذاً والدي حاول الحصول على الاذن ، ولم يوفق ، وهذا معناه انه سوف يعرض نفسه الى مصير تكون النجاة منه ليست مضمونة بقدر ما يكون الخطر محققاً محتوماً .

كادت المخاوف ان تتحقق

فهمت من زوجة والدي بعد ان عدت اليها في الغد ان أبي سافر يصحبه ثلاثة من قبيلة شمر بادية بلادنا (حائل) ، وهذا الخبر طمأنني الى حد ما ، فذهبت أعد الأيام بالدقيقه منذ الليلة التي سافر بها أبي ، وكل يوم يمر لم اسمع شيئاً عنه يجعلني ازداد – اطمئناناً على نجاته من رجال الأمير ابن مساعد حاكم حايل الحالي ، حيث كان جنوده يتجولون على رأس الحدود المتاخمة للعراق ،

---

١ ـ انظر القصة بكاملها في ج . ٢ ـ بعنوان « الرحل الذي كان سبباً لامتداد أجلي »

الأمر الذي جعلني اعتقد ان رفاقه البدو بحكم خبرتهم الواسعة في طرق الصحراء سوف يسلكون به سبيلاً بعيداً عن أعين جنود الأمير ، ولكنني عندما اذكر ان الفصل وقتها صيف ، تنبعث مخاوفي من جديد لعلمي بأن رفاقه مهما حاولوا ان يتجنبوا الطرق التي تبعدهم عن رؤية جنود الامير فـــإنهم سوف يضطرون مرغمين الى المرور بالآبار ليسقوا رحالهم ويملأوا قربهم ، وهذه الآبار من شأنها ان يراقبها رجال الامير بصورة مستمرة لكي لا يفلت من أيديهم أحـــد من المشتبه بأمره .

لم أبق بحائل بعد سفر والدي اكثر من ثلاثة ايام حيث ذهبت بصحبة رجل من أهل المدينة يسمى (أحمد شعبان) جاء الى حائل ليشتري سمناً ويذهب به الى المدينة فذهبت بمعيته راكباً على ظهر احدى الرواحل التي تحمل اسقية السمن، ومن المدينة شخصت الى جدة بصحبة قافلة مماثلة للأولى وفي جدة أقمت مـــدة تقارب عشرة أشهر حيث أصبت بمرض الحمى (الملاريا) ، وهناك بلغني ان والدي وصل بغداد وانه حـــل ضيفاً على المرحوم الملك فيصل بن الحسين ، كما بلغني ان دورية الامير ابن مساعد التي يرأسها (زبار الجميلي) (١) التقت بـــه على بئر يسمى الحزل (٢) واعتقلته حين لم تجد معه وثيقة تدل على انـــه مسافر بإذن من المسؤولين ، ولكنه هرب من السرية ووصل العراق .. وكانت الاخبار التي وصلتني بخصوص افلاته من قبضة هذه السرية متضاربة ، فهناك من يقول : ان زبارا رئيس السرية كان صديقاً لوالدي وانه اغضى طرفه عنه وتركه يهرب.. وهناك من يقول انه جاءه اشخاص من رجال قبيلة شمر واختطفوه ليلاً من بـــين ايدي الجنود ، وكانت الشائعة الاولى اكثر شيوعـــاً ، بل كانت هي الارجح والأعظم رواجاً .

---

١ ـ زبار الجميلي من قبيلة حرب .

٢ ـ الحزل : بئر عذب ماؤه وخصبة تربته اكثر ما يقطنه قبيلة شمر ويقع شمالا عن مدينة حائل ومتاخماً للحدود العراقية .

ولما كنت دون بلوغ سن الرشد ، فانني لم أستطع ان أفند الاولى بالمنطق السليم الذي يؤخذ من مفهومه بأن رئيس السرية اذا كان صديقاً وفياً لأبي ، فانه يتغاضى عنه من الأساس ويتجاهل وجوده ، فانني بطبيعة الحال لم أتوصل لمعرفة كنه هذه الحقيقة الواضحة الملحوظة .

وبعد مضي اربع سنوات قضيتها متجولاً بين السودان فالقاهرة ، في رحلة يطول شرحها لم أعلم شيئاً عن حياة والدي خلال تلك الفترة، بعد ذلك اجتمعت بشخص يدعى سعيّد المرجان من أهالي نجد ومن ساكني مدينة بريدة ، التقيت به في جوار الأزهر في القاهرة ، وبعد ان عرفته بنفسي أفادني ان والدي توفي منذ ثلاث سنوات في عمان .

ومن القاهرة شخصت نحو سورية حيث وجدت هناك الكثير من ساكني بلدتي ومن باديتها .

أخو النجدة المزيف

وفي سورية التقيت بشاب يدعى (مدلول الغيثي) من قبيلة شمر نجد الذي راح يروي لي الصورة التي اعتقل بها والدي في تلك السفرة وانه اختطفه من ايدي الجنود الذين اعتقلوه ويزعم (مدلول) انه كان احد الرجال الذين اخذتهم النخوة وغامروا حتى اختطفوا ابي من بين ساجنيه ، وذهب يروي القصة على النهج الآتي فيقول :

كنت أحد رفاق والدك الثلاثة عندما سافرنا من مدينة حائل مساء متجهين نحو العراق وبعد ما قطعنا الكثير من حدود المملكة وأوشكنا ان نصل الحدود العراقية هناك اضطررنا بدافع الظمأ لأن نتجه الى احدى الآبار القريبة منا فكانت أقرب الآبار الحزل ، فقصدناه وبعد أن أسقينا رواحلنا وعبأ كل منا سقاه ،

هناك فوجئنا برجال الأمير ابن مساعد ، ويمضي الراوي بحديثه فيقول : لما كنا الرفاق الثلاثة بدوا ، فان رئيس جنود ابن مساعد اعرض عنا ، وراح يطلب من ابيك بصفته حضرياً الوثيقة التي تخول له السفر ، ولما لم يجد معه شيئاً من ذلك اعتبره هارباً ، فاتخذ نحوه الاجراءات اللازمة ، حيث اعتقله ووضع حديداً في رجليه ، كما وضع يده على راحلته وأمتعته ، أما نحن الرفاق فلم يعترض لنا بسوء ، ويواصل (مدلول) حديثه فيقول : وقد تظاهرنا تلك الليلة أمام رجال ابن مساعد بأننا لسنا مهتمين بأمر رفيقنا حتى مضى النصف الاول من الليل وعندئذ تسلل واحد منا واختطف السجين ، بينما ظل الاثنان كميناً يحمي ظهر الخاطف والسجين معاً ، ببندقيتهما ، وختم (مدلول) حديثه بأن قال وقد تمكنا من اختطاف رفيقنا من بين أيدي رجال الامير ، ولما لم يكن في قبضتنا عدة لفك الحديد الذي وضعه رئيس الجنود في رجلي رفيقنا فقد ظل ذلك الحديد برجليه حتى وصلنا مدينة النجف العراقية وفصمنا عنه القيد ..

انتهت رواية مدلول الى هذا الحد تلك الرواية التي كدت اؤمن بصحتها إيماناً كاملاً وذلك للأدلة المتوفرة الآتية :

اولاً – ان الرواية الاولى القائلة بأن رئيس جنود ابن مساعد هو الذي اخلى سبيل والدي عامداً متعمداً .. هذه الرواية بدأت تتقلص وبدأ يحل محلها الرواية المعاكسة القائلة انه اختطف رغم إرادة رئيس جنود الامير ..

ثانياً – ان راوي الحادثة يقدم لي ادلة تثبت صحة روايته ، منها انه ينعت ذلول والدي بأوصافها الكاملة ، كما ينعت منزل والدي في حائل ، ويذكر لي الظرف الذي سافروا فيه من البلاد ، وأكثر من ذلك هو انني عندما عدت الى ذاكرتي بدا لي ان هذا الشاب سبق ان رأيته ليلا في منزل والدي قبل ان يسافر ابي بيوم واحد وأكثر من ذلك أيضاً أن الشاب ذهب يذكرني بتلك الليلة التي رأيته فيها ، إذن كل القرائن تفيد أن (مدلولاً) صادق بروايته القائلة أنه أحد

الرفاق الثلاثة الذين اختطفوا والدي ، بل ويؤكد أنه هو البطـل الاول الذي تنكب ببندقيته وتوشح بعتاده ، واختطف السجين من الرجال المحيطين به ، والدليل الأخير هو انني شاهدت رأي العين شجاعة أقدم عليها مدلول لايسعني شرحها ، ولكنها تعبر بأن مدلولاً مقدام لا يبيت على الضيم ، وفاتك خطير إذا نيل من كرامته ..

كان من شأن هذه الأدلة المتعددة أن تجعلني أصدق مدلولا بروايته وأعتبره منقذاً لأبي ، ومسدياً اليّ معروفا كبيراً لا يمحى أثره من نفسي،ولكن فيما بعد بدا لي (مدلول) وان كان شاباً شجاعاً بلا شك ليس ذلك الشجـاع الشهم اخا النخوة الذي تدفعه شجاعته وشهامته ونخوته الى التضحية بنفسه في سبيل الغير، كما بدا لي منه أنه لا يبالي ولا يخجل من أن يتحدث عن نفسه بالشجاعة والبطولة حديثاً لا يمت الى الحقيقة بأدنى صلة من الصلات .

كيف عرفت أخا النجدة الحقيقي ؟ ..

كانت الخلاصة التي استنتجتها من حديث مدلول مضمونها كما يلي :

اولاً – انني اعتقدت ان الأدلة التي أوردها مدلول من حيث نعتـه لمنزل والدي ولذلوله ، وما ذكر من أنه رآني ، وما أظن انني رأيته ، كل هـــذه القرائن جعلتني أعتقد بل أجزم أنه صادق بقوله بأنه أحد رفاق والدي الثلاثة وأن رئيس سرية الامير ابن مساعد لم يعترض سبيلهم بصفتهم بدوا ولا تنطبق عليهم القوانين التي يجرى تطبيقها على الحضر ..

ثانياً – اعتقدت جازماً أن والدى اختطفه رجل بين جنبيه من النخـــوة والشهامة والشجاعة ما يجعله يغامر بنفسه ولو أدي الأمر الى ان يضحي بحياته في سبيل نجدتـــه له ، كما اعتقدت أيضا ان اختطـــاف ابي جرى على نفس

الاسلوب الذي ذكره مدلول ، وبات لدى من اليقين القاطع ان مدلولاً وان كان كاذباً بروايته عن نفسه ، ولكنه صادق من حيث وقـــوع الحادثة وتفصيلها ، ولكن الشيء الذي اصبحت بحاجة الى الوصول اليه هو معرفة بطل الحادثـة ، بعد ان ثبت لديّ بأن الحادثة وقعت على النهج الذي شرحه مدلول .

ومدلول يعرف ولا شك من هو الذي قـــام بتنفيذ المغامرة ولكنه من المستحيل ان يصدقني الحديث ويخبرني بالحقيقة ، كما انني ايضاً من المستحيل ان أثق بروايته بعدما عرفته جيداً .

وبعد رحلتي تلك عدت الى بلادي حائل بعـد مضي تسع سنوات خرجت منها كما ذكرت آنفاً دون بلوغ سن الرشد وعدت اليها شاباً مفتول الساعد أمرد لم يكتمل الشعر بوجهي بعد ، وكنت كلما انظر الى جدران بلادي المبنية بالطين يخيل إليّ انها هبطت عن ارتفاعها الذي كنت أعهده سابقـــاً ، فاذهب اسأل نفسي هل ان الأمطار أثرت في بنيان الطين الى الحد الذي جعلها تتلاشى شيئاً فشيئاً بهبوط مستمر ؟.. ام أن نسبة الهبوط جاءت معاكسة لنسبة النمو الذي امتدت به قامتي ارتفاعاً مضاعفا عن ذي قبل ، وكان الجواب الأخير منطقيـاً اكثر من نظريتي الخاطئة الأولى .

ولم يستعص عليّ معرفة بطل الحادثة خاصة بعد ان وصلت البـلاد التي هي عاصمة للقبيلة، وما ان ذهبت اسأل همساً حتى جاءني الخبر اليقين على يد شخص يدعى (عقيل (١) الجميشي) الذي اذكر انه همس بأذني قائلاً :

ـ أحقيقة تريد ان تعرف الرجل الذي اختطف والدك من بين يدي ساجنيه ؟..

---

١ ـ عقيل الجميشى اصله من قبيلة عنزة ولكنه يعيش في وسط قبيلة شمر منذ وقت طويل ..

قلت برغبة أكيدة وحرص شديد ..
ـ أجل من هو ؟..
فقــال :
ـ انه خلف بن الويش ...
ـ من أي قبيلة ؟..
ـ من شمر ..
ـ من عبده والا من سنجاره والا من الأسلم ؟..
ـ بل من سنجاره ..
ـ من أي بطن يكون ؟
ـ من الزميل ..
ـ أهو على قيد الحياة ؟..
ـ أجل ومنذ مدة قريبة اجتمعت به ..
ـ اين يكون الآن ؟..
ـ في الصحراء الشمالية .
ـ في أي موقع ينزل ؟..
ـ شأنه شأن كل بدوي لا مكان له معين ، اللهم الا المكان الذي يتوفر فيــه الكلأ والمرعى الخصب لإبله .
ـ هل يأتي للمدن ؟..
ـ في المناسبة النادرة ..
ـ كيف عرفت انه هو الذي قام بتلك المغامرة ؟..
ـ كيف لا عرف والرجل صديقي الحميم ..
ـ أيمكن ان تروي لي قصة مغامرته ؟..
ـ أجل ، ولكن من الأحسن ان نبتعد قليلاً عن هذا المكان ..

كان الحديث الذى دار بينى وبين عقيل في مدينة حائـــل في وسط الموقع

الذي تجلب فيه الابل آنذاك في وسط السوق المسمى بـ (المسحب) من الناحية الشرقية ، ولما كان ذلك المـــكان حاشداً بالناس بصورة دائمة ، فقد اخذ بيدي عقيل الى مكان ناء لا يسمع حديثه احد وراح يروي لي الحادثة من الفها الى يائها..
وكانت رواية عقيل والرواية التي اوردها (اخو النجدة المزيف مدلول) تكاد ان تكون صورة طبق الأصل وان يكن ثمة اختـــلاف فإنما هو ـ اختلاف بالشكل فقط ..

اما من حيث الاصل فليس هناك اي اختلاف ، الا انه بـــدل ان يكون (مدلول) على حد قوله هو الذي حمل بندقيتـــه واختطف السجين بحديده ، تكون الرواية الحقيقية على النهج الآتي :

جاء بطل القصة خلف وأعد راحلتين وجهزهما بكل ما يلزم من عدة السفر ثم جاء وتسلل هو ونفر من عشيرته الاقربين مدججين بالسلاح وقصدوا السجـين المقيد بالحديد وكان في وسط رجال الامير المحيطين به من جميـــع الجوانب ، وكان الوقت بعد مضي النصف الاول من الليـــل ، وفي تلك اللحظة اختطف السجين اثنان من المغامرين ، والبقية ظل كل واحد منهم موجهاً فوهة بندقيته نحو الجنود النائمين الذين اصبحوا محروسين بعدما كانوا حارســـين وقد استمر هؤلاء بمراقبتهم لحركات الجنود حتى جاءتهم اشارة من رفاقهـم الذين اختطفوا السجين تفيد بان المغامرة انتهت ومعناه ان السجين نفذ من مصيره المجهول وحمله صاحبا الذلولين اللذان كان (خلف) احدهما بل هو الدماغ المفكر برسم المغامرة وهو المنفذ لها عملياً ..

وبالرغم من ان علامات الصدق وأدلة الوقار واضحتان على سيماء (عقيـل) الذي اعهد انه على قيد الحياة منذ خمس عشرة سنة من هذا العام ١٣٨٤هـ١٩٦٤م بالرغم من ذلك فانني لم اكتف برواية الراوي واقف عند حـدها ، بل رحت اتحقق من الثقاة هل هو من الرجال الذين تؤخذ روايتهم ؟. فكانت رواية كل

من سألته عن عقيل تفيد بأنه رجل ثقة صدوق ولم يختلف بتزكيته اثنان ..

وعندما تأكدت صحة رواية عقيل ، ذهبت اسأل عن بطـــل القصة خلف قاصداً ان ازداد تأكيداً عن معرفة شخصية الرجل وماضيه ، اعتقاداً مني ان نخوة كهذه لا يقوم بها الا رجل له ماض في الشهامة والرجولة ..

وحينما ذهبت اواصل اسئلتي عن الرجل ، توفر لديّ اكثر من دليـــل بأن الرجل جم المروءة شجاع ابي ، لا يبيت على الضيم وانه سبق ان قام بمغامرة لا تقل شأناً عن مغامرته هذه في عام ١٣٢٥ هـ عندما اهانه في مناسبة ما (سالم ابن سبهان) ، فما كان من ـ خلف ـ الا ان اغار على ركائب ابن سبهان ونهبها وباعها في العراق نـكاية به واخذاً بثأر كرامته منه ، والذي يقدم على مثل هذه المغامرة في ذلك العهد لا يستغرب منه ان يقدم على مغامرته هذه .

لا خيل عندي اهديها ولا مال

بعد ان توفرت لديّ الادلة بصحة رواية الراوي ، ثم ثبت لدي بدليـــل لا يقبل الشك بأن خلفاً اهل لأن يقوم بمثل هذه النخوة ، بعد ذلك بقيت اتمنى ان تتاح لي الفرصة المناسبة التي اتمكن بها من ان اكافيء هذا الرجل حسبما استطيع سواء مكافأة مادية ان امكنني ذلك ، والا فمعنوية ..

وفي سنة ١٣٥٧ هـ تجهز نفر من ساكني حائل رجالاً ونساء قاصدين تأدية فريضة الحج ، ولما لم يكن سبيل المواصلات ، كما هو الآن متيسراً ولم تكـــن السيارات متوفرة ، فقد كان الامر طبيعياً بأن يكون سفر هؤلاء الحجاج على الأبل ، وعندما وصلوا الى مكان يسمى (وادي الليمون) ويبعـــد عن مكة مقدار ثلاثة ايام للابل ، في هذا المكان حطوا عن رواحلهم ليرتاحوا قليـــلا ، فكان من امرهم ان اهملوا رواحلهم من ان يوكلوا واحداً منهم يتولى رعايتهـــا

فكانت النتيجة ان ذهبت الابل ترعى من الكلأ بدون ان تجد احداً يحرسها او يحد من حريتها في الحين الذي كان اصحابها في غفلة عنها ، ولم ينتبهوا الا بعد ان قطعت أبلهم مسافة بعيدة وتوارت عن الانظار ، ومما زاد الطين بلة كونهم في ارض مجدبة لا يبين فيها اثر الابل ، وغاية ما هنالك ان هب كل فرد منهم ينقب عن الابل ، وكانت النهاية ان جاء المساء وعاد جميع المنقبين بلا جدوى ، وظلوا بحالة من اليأس لا يحسدون عليها ، وكان من بينهم نساء لا يستطعن ان يتحملن من العطش والمشقة ما يتحمله الرجال .

وفي اللحظة التي فرغ بها صبر الرجال فضلاً عن النساء ، وشعروا جميعهم بسوء المصير ، في هذه اللحظة الحاسمة نجا هؤلاء بأعجوبة غريبة ، وذلك انه من قبيل الصدف الطيبة جاء فتيان قاصدين الحج ، وفي مسيرهم هذا وجدوا هؤلاء الرجال والنساء ضائعة رواحلهم وكان موعد الحج قريباً لا يسمح لهم بأن يتأخروا من اجل ان يفتشوا عن الرواحل الضائعة .. والمسافة بين مكة وبين الموقع الذي ضاعت فيه الرواحل ليست مسافة تنتهي بمسير الساعات بل ولا بمسير اليوم الواحد او اليومين والرواحل التي تقل هؤلاء الفتيان ليس باستطاعتها ان تحمل راكبيها وتتحمل الرجال والنساء الضائعة رواحلهم فأصبح هؤلاء الفتية مضطرين لأحد الأمرين : اما ان يحملوا تلك النساء واولئك الرجال حتى يوصلوهم مكة .. وهذا يعني انهم اي الفتيان سوف يسيرون مشياً على الاقدام مسافة لا تقل عن ثلاثة ايام او ان يذهبوا ويتركوهم عرضة لفتك الجوع والظمأ بهذه الصحراء الخالية من الغذاء والماء ، وكان هذا الاختيار الاخير أضمن لراحة الفتيان ، ولكنهم فضلوا نجاة وحياة تلك النساء واولئك الرجال الكثيري العدد على راحتهم ، فحملوا النساء اللواتي كن في الهوادج على رواحلهم كما كنّ من قبل كما حملوا الرجال ايضاً ، وظلوا يسيرون على اقدامهم حتى اوصلوهم مكة وادركوا الحج بكل سهولة ..

كنت ايامها في مكة ، فجاءني احد الرجال الذين ضاعت رواحلهم يقصّ

علي القصة من اولها الى آخرها ، ويصف كيف كان كل واحد من اولئك الفتيان ينافس رفيقه على حملهم وحمل امتعتهم، وعلى خدمتهم والعناية بهم حتى اوصلوهم مكة الخ ..

وعندما انتهى المتحدث من حديثه الذي اذا لم تخني الذاكرة انه صالح العلي (١) الخير الله قال :

ـ لقد جئت اليك لا من أجل أن أسرد اليك القصة ولكنني جئتك لأمر ثان ، قلت :

ـ ما هو هذا الأمر ، فقال :

ـ نحن نود أن نكافئهم على أعمالهم هذه مكافأة معنوية ، لأن البدوي يفضل الأمور المعنوية أكثر بكثير من الأمور المادية ، ولولا ذلك لكان بإمكاننا ان نجمع لهؤلاء الفتيان مالاً ونقدمه لهم مكافأة على معروفهم .. ولكنهم لن يقبلوا ذلك ، وهذا مما جعلني آتي اليك لأطلب منك أن تنشد قصيدة تثني عليهم بها لأعتقادي أن القصيدة سوف يكون لها أكبر وقع في نفوسهم ..

ثم مضى محدثي وقال :

ـ ألا ترى انهم يستحقون ذلك ؟. فقلت :

ـ أرى أنهم قاموا بواجب تفرضه عليهم الشيم العربية أولاً كما يفرضه عليهم الضمير الانساني ، لأنه ليس من الشيمة العربية أن يرى عربي أخاً له بحالة يهدده فيها العطش ـ والجوع بالموت ثم يتخلى عنه .. كما انه ليس من الوجدان الانساني ان يرى الانسان أخاه ـ الانسان عرضة للهلاك مهما كان لونه أو دمه او معتقده،

---

١ ـ صالح الخير الله من بلدة حائل ولا يزال على قيد الحياة .

فيكفي أنه انسان .. فمن واجبه ان ينقذه ما استطاع الى ذلك سبيلا ..

ثم مضيت وقلت من أي القبائل يكون هؤلاء الذين اسعفوكم ؟.. فقال :

ـ من قبيلة شمر ..

ـ فقلت اذن هؤلاء بادية بـلادكم فأصبح الواجب عليهم مكرراً .. بحكم انكم ولا بد تعرفونهم شخصياً كمـا يعرفونكم ، فصمت محدثي معترفـاً بالأمر الواقع .. فعدت اسأله على سبيل الاستفهام قائلا :

ـ من أي فروع القبيلة رفاقكم ..أهم من عبده أم من سنجارة أم من الأسلم؟.

ـ من سنجارة ومن فخذ آل زميل ..

فعدت أكرر سؤالي ثانية :

ـ أكلهم من آل زميل ؟. فقال :

ـ أجل ..

والواقع انني بعدما عرفت ان هؤلاء من فخذ (خلف بن لويش) ذلك الرجل الذي أسدى الي معروفاً بنجدته والدي ، بعد ذلك قلت في نفسي :

لقد سنحت لي الفرصة لكي أقوم بما يفرضه علي الواجب نحو هـــذا الرجل الشهم ولو بتأدية شيء قليل من الواجب المعنوي والأدبي بتنظيم أنشودة شعبية مليئة بالثناء العاطر الخاص بفخذ خلف متخذاً من مدحي للفتيان الذين حملوا الحجاج وسيلة أصل على ضوئها لمدح خلف الذي غامر بنفسه وانقذ والدي من مصير لا يعلمه إلا الله ..

وكم كنت أتمنى ان لديّ من وضعي الاقتصادي ما يمكنني من أن اكافئه على معروفه بشيء مثمر ثمين أقدمه له بدون ان يعلم أنه مني كما قـدم اليّ معروفاً

بدون ان يخبرني بمعروفه ..

أجل كم كنت أود وأتمنى ذلك ولكن ظروفي القاسيـة وقتها حالت دون تحقيق أمنيتي هذه ..

ولما كان العرب قديماً وحتى عهدنا القريب وخاصة البادية منهم يعتبرون الشعر نبراسهم الحي وعنوان مجدهم الفذ وسجلا جوهرياً راسخاً لمآثرهم الخالدة ، فقد وجدت من اللازم علي أن أكسو خلفاً وفخذه حلة من الدرر الشعبية لكي أخلد بها مجده ومجد فخذه ما دامت اللغة الشعبية عامرة ليتناقلها الركبان ، ويشدو بها الفتيات والفتيان في كل زمان ومكان ..

وهذا هو جهد المقل وفقاً لقول الشاعر العربي :

لا خيل عندك تهديهـا ولا مال

فليسعد النطق ان لم تسعد الحـال

وهذه القصيدة التي أشير اليها لم تكن محفوظة عندي بكاملها، ما عدا الأبيات المناسب ذكرها للموضوع لا كمطلع القصيدة وبعض أبيات منها جاءت كما يلي :

بَيْضَا تشيَّدْ فَوْقَ عالِي طويَله

في روس عالي شاخـات المشاهيل

الشرح : كنت ذكرت في قصة ابن نمش المطيري في كتابنا هـذا ذكرت أن العربي إذا شاء أن يشيد بمدح فرد أو جماعة ما يلجأ الى استعمال خرقة بيضاء يضعها على رأس عصا طويلة كطول الرمح ثم يطوف بها في أندية العرب الكبيرة وينادي بأعلى صوته قائلا : (بيض الله وجه فلان بن فلان) .. وكل من يسمع هذا النداء يعرف عن طريق البداهة ان المنادى باسمه فعل فعلا جميلا يستحق

التقدير والاجلال ، وينعكس الأمر فيما اذا كان الفعل قبيحاً عندئذ يوضع على رأس العصا خرقة سوداء ويقول حاملها (سود الله وجه فلان) .. وبقدر ما كان الأول ينظر اليه بعين التقدير والاجلال بمجـــرد ما يسمع عنه ذلك الفعل ، ينظر الى الثاني بعين المقت والازدراء ..

وهذا ما قصدت بمطلع قصيدتي أعني ان هؤلاء الفتيان يستحقون ان ترفع لهم الراية البيضاء ..

من قـوْر (مَكـّهْ) لـَين رأس الرّعيلة
تـَشْهر وتوِضي مِثـْل ما يوضي سَهيْل

في هذا البيت قلت يجب ان لا تكون هذه الراية البيضاء في مجتمـع محدود وأن لا تكون مجرد خرقة لا يعلم عنها ولا ينظر اليها الا من يراها نصب عينيه ، بل يجب ان تكون بضوئها واشراقها كضوء أحد الكواكب المسمى بسهيـــل بصورة يرى نوره الوهاج المواطنون الذين في مكة والذين من وراء جبلي طيء وربما يقال لماذا لم تقل كما تضيء الشمس أو البدر عوضـاً عن (سهيل) لكي يكون أبلغ من حيث المعنى ، وجوابي على ذلك هو انني حاولت فعـــلا ذلك ولكن قافية الشعر حالت دون ما أريد ..

لعيال (غلبا (١)) كاسْبِينَ النـّفيله
نضايض الغلمان غوش ٍ مشاكيل

كان هناك سائل يسألني قائلا : لمن هذه الراية البيضاء التي ترفع له ؟. ومن هذا الذي يستحق هذا الإطراء والثناء فأجيبه قائلا:ان هذا الثناء لهؤلاء الفتيان الشجعان الأشاوس المنتسبين الى هذه القبيلة .

---

١ ـ غلبا كنية لقبيلة شمروعيال يعني أبناء .

أثني على اللّي يفْعَلُون الفَضيلَـة

وخصّكم يا مَعْتَزين على (زُمَيْلْ)

أقول : أن من طبيعتي أن أثني على كل من يصنع الجميل وأقدر أي انسان يفعل الفضيلة . وفي عجز البيت أشرت بأنني وان كنت أنظر بعين الاعتبار كل من يفعل الفضيلة أنى كان مصدرها ولكنني في هذه المناسبة يكون ثنائي هذا خاصاً بكم انتم يا بني زميل واسم (زميل) معروف بأنه الجد البعيد الذي ينتسب اليه هؤلاء الفتيان وعلى رأسهم بطل القصة خلف بن لويش ..

أحْيَوا سْلوُم (غرَيِّب) في خليـله

شُوْمَنْ لهم يا لابسات الخلاخيـل

أشير بهذا البيت الى نجدة (غريب بن معيقل الشلاقي) الذي سبق أن شرحت قصته مع رفيقه بعنوان (مغامرة بحنكة ص ٣٥) وهو في الوقت ذاته أحد الابطال السبعة الشلقان الذين حملوا رفيقهم الجريح خمسة عشر ليلة .. أنظر قصتهم في (ص ٧ ج ٤) (كما ورد اسم غريب في الجزء الأول من شيم العرب الطبعة الثاني ص ٢٤٢) . والجدير بالملاحظة ان غريباً ورفـاقه الذين حملوا الجريح (وخلف بن لويش) بطل القصة والفتيان الذين حملوا الحجاج كلهم ينحدرون من أصل واحد وجد واحد وهوَ (زميل) .

وفي عجز البيت معنى يستعمله الشعراء الشعبيون دائماً في الاطراء للمدوح ، ومعناه انني اخاطب فتيات الحي قائلا يجب عليكن ان تنكحن من هـؤلاء الفتيان ـ البواسل لكي تنجبن ابطالاً من نمطهم ..

لِـ (عْبَيْد) والعِفْرِي ومن يَعتِزى له

ولـ (عقابْ) زِجّنْ بالعْذَارى هَلاِهيْل

عندما جاءني الرجل سالف الذكر الذي طلب مني ان أنشد قصيدة بهؤلاء الفتيان طلبت منه أن يوافيني باسمائهم فقال انهم كثيرون فقلت : وافني باسماء البارزين منهم فقدم لي بعضاً من اسمائهم وهم هؤلاء الذين وردت اسماؤهم في هذا البيت والاسماء الاخرى تأتي في البيت الذي يليه ، فالذين في هذا البيت هم عبيد بن ثنيان ، العفري ، عقاب السعدي . وزدت الاخير منهم بالاطراء لسبب ذي اهمية يطول بنا شرحه .

ومن المعلوم انني لا اعرف منهم احداً اللهم الا عقاب السعدي فقد رأيته قبل ذلك رؤية خاطفة .. وكان عدد هؤلاء الفتيان عشرين شخصاً حسب رواية الراوي ، وكما ذكرت آنفاً ان غايتي من نظم القصيدة واطرائي لهؤلاء الفتيان هي بالدرجة الأولى والثانية ان اصل بثنائي الى بطل القصة (خلف بن لويش)

واذا سألني القارىء عن السبب الذي يجعلني امتنع عن الاشادة باطرائه والاعلان بثنائي عليه بصورة واضحة ، أجبت ان الظروف في ذلك الوقت لا تسمح لي بذلك خوفاً من ان يكون ثنائي عليه واطرائي له يسببان له أذى ، ولذلك جئت باسمه ضمن هؤلاء الفتيان الذين حملوا الحجاج من قبيل التغطية ، ويشفع لي بذلك انه (اي خلف) كما اسلفت من نفس الفخذ الذي ينتمي اليه الفتيان ، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني انظم هذه القصيدة لكي اصل الى الاشادة باطرائي لخلف بما يلي :

و (خلف) اذا منه تعلّى الاصيلة

ابن لويش يستاهل المدح والقيل

يستاهل التمجيد راع الجميلة

سوّى سواة ما تسوى بذا الجيل

هذان البيتان هما بيت القصيد حيث وصلت الى غايتي المنشودة وهي ثنائي على (خلف) .. وقد اكدت في البيت الاول بانه فارس وانه يستحق الاطراء ويجب ان يثني عليه نظماًونثراً ، وفي البيت الاخير دنوت حول الغاية التي أصبو اليها وقلت ان العمل الذي قام به هذا الرجل بتضحية وتفان ونخوة اصيلة ليس من اعمال جيلنا الحديث وانما هي من اعمال العرب القدماء ...

كان من شأن هذين البيتين ان جعلا في نفوس اولئك الفتيان شيئاً من اللوم الموجه اليّ على اعتبار اني تركت اسم بعض من الذين ساهموا باسعاف الحجاج وجئت باسم خلف الذي لم يحضر القضية ، وحتى الذين استثنيت اسماءهم من العشرين الباقين حتى هؤلاء لم ينلهم من الثناء مثلما نال خلفا ..

وكم حاولت اقناعهم بواسطة من يتصل بهم مؤكداً لهم بأنهم لو تعمقوا بتدبر الامر بدقة لعلموا ان خلفاً هو صاحب الفضل عليهم ، ولولا خلف لما جادت قريحتي ببيت واحد يشير ادنى اشارة اليهم ، وليس هذا انكاراً لجميلهم ، ولكن العمل الذي قاموا به لا يعدو ان يكون فضيلة من مثات الفضائل التي يقع امثالها كثير في حياة العرب ، ولكنها ليست من النوادر التي تعتبر غريبة من نوعها في شيم العرب .

وانني اذ اورد تلك الابيات فانني ارجو ان يسمح لي القارىء فيما اذا اطلت عليه ، لانني اردت ان استشهد بما هو مؤيد للقصة ومنسجم مع واقعها ..

*

وبعد .. فقد تحسن وضعي الاقتصادي عن ذى قبل ، الامر الذي جعلني احرص حرصاً شديداً على معرفة خلف . وفي عام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠ م التقيت بالاخ سليمان الشنيفي في دمشق وكان الشنيفي وقتها اميراً لـ (لِيْنَة) المركز الذي اصبح الان قرية تقع شمالاً للحدود السعودية ومتاخمة للحدود العراقية

وطبيعة الحال تجعل الصلة مستمرة بين أمير (لِيْنَةَ) الشنيفي وبين (خلف ابن لويش) ، ولذلك سلمت للشنيفي رسالة وأبديت رغبتي الملحة بأن يحرص على أن تصل هـذه الى يد خلف ، ولما كنت أيامها أعمل في مفوضية حكومة بلادي ، في دمشق ، فقد أكدت لخلف برسالتي بأنني حريص على رؤيته وطلبت منه أن يحدد لي الزمان والمكان ، لكي أزوره ، ولم يأت اليّ منه إجابة مع أنه ورد اليّ من الشنيفي رسالة تفيد بأنه بعث رسالتي مع رجل ثقة سلمها لصاحبها.

وبما أن البدوي كما اسلفت لا يستقر في مكان معين وانما يتبع مواقع الأمطار ويرحل من مكان الى مكان حتى يجد الأرض الخصبة التي يوجد فيها الكلأ الوافر بكثرة ، وفي عام ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ م هطلت الأمطار الغزيرة في ارض الأردن في الحين الذي كانت الجزيرة العربية قاحلة مما اضطر عشيرة خلف أن ترحـل بماشيتها الى هناك ، ومن المعروف ان من يكون في الأردن يصبح قريباً من دمشق فقرب هذا المكان الى مقر عملي ، جعل الرجل الوفي يحرص على تنفيذ رغبتي التي وصلت اليه ضمن رسالتي ، يضاف الى ذلك انه وجد رجلا من أعيان عشيرتـه يدعى (هتاش الكلب) لديه عزيمة على زيارة المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد سفير المملكة السعودية في دمشق وقتـذاك بحكم رابطة صداقة قديمة بين السفير وهتاش ، عند ذلك وجد خلف انه ما دام (هتاش) يريد ان يذهب الى دمشق لأقصد له إلا زيارة صديقه ، فان من حقه أن يذهب هو لزيارة ابن صديقه فجاء الرجلان تدفعهما ظروف متشابهة هذا يريد زيارة صديقه وذاك يريـد التعرف والزيارة لإبن صديقه .

الحسرة التي لا زالت مرارتها في نفسي ؟؟..

كان من توفيق هتاش أن وجد صديقه في دمشق ، ولعدم توفيقي ان خلفاً لم يجدني هناك ، حيث كنت ذاهباً للقاهرة أمثل حكومي في مؤتمـر مقاطعة

اسرائيل المعقود في الجامعة العربية وذلك في تاريخ ٢٨ ذي العقدة ١٣٧٢ ولما كنت المندوب الدائم وقت ذاك لحكومتي لهذه المهمة فقد صادف سوء الحظ أن يكون مجيء هذا الرجل في الظرف الذي عقد فيه المؤتمر ، واقولها مرة ثانية وثالثة أنه من سوء توفيقي ان الرجل نزل في الاراضي الأردنية القريبة لدمشق بدون ان يكون لدي علم به . وجاء الى دمشق وظل خمس عشرة ليلة ينتظرني في الحين الذي كنت في القاهرة بدون ان يكون لي علم انه موجود في دمشق وسافر من دمشق بدون أن أعلم عنه أنه جاء للشام بقصد زيارتي ، الا بعد ان مضى شهران من عودتي الى دمشق عند ذلك علمت بمجيئه ، والاسوأ من ذلك انه ترك الشام بدون ان يعين المكان الذي اتجه اليه .. ومن المؤلم حقاً بالنسبة لكاتب هذه الأسطر انني لم أعلم عن مجيئه الا بمناسبة عابرة جاءت بمحض الصدفة وذلك اني .. كنت أسير في احد شوارع العاصمة الأموية دمشق وبقرب قصر العدل ، في ذلك المكان بالذات التقيت بشخص يدعى (فهد العديلي(١)) وبعد ان تبادلنا التحية العابرة صافحني وبعد ان خطا خطوتين مدبراً عاد لي فقال بلغة فاترة وبصوت خافت وبتعبير لا يوحي بأدنى اهتمام :

ـ مر بنا رجل يسأل عنك منذ شهرين .. فقلت :

ـ الذي يريدني يجدني !..

فأدبر فهد من عندي كما مضيت في سبيلي بدون أن القي لكلمته هذه بالاً ، بل ولم أعرها اي انتباه ، ولم يخطر لي ببال قطعيا أن هذا الشخص الذي يشير اليه العديلي بإشارته الباردة هو خلف الذي أكن له في ضميري من الولاء والتقدير والمودة منزلة لا يضارعها إلا منزلة والدي ..

---

١ ـ فهد العديلي من قبيلة شمر ومن فخذ صاحبنا خلف نفسه ، وهو حضري مولود في حائل ويقيم وقتها في قرية عدره القريبة من دمشق .

وبعد ان قطع العديلي ما يقارب عشر خطوات شعرت بنفسي بحافز يحدوني الى الاستفسار عن هذا الرجل الذي جاء يسأل عني ، ولم يكن هـذا الشعور مبنياً على ما أتوقعه او اظنه بأن السائل عني خلف ذاته، وانما كان ذلك الشعور صادراً عن حب الاستطلاع ليس إلا ، ولذلك عدت اقتفي أثر فهد حتى اذا دنوت منه أشرت اليه بالوقوف ، ثم قلت له :

ـ من هو الذي سأل عني ؟

فقال :

ـ عود من عربنا (١)..

ـ يعني بدوي ..

ـ أجل .

ـ ماذا يريد ؟..

ـ لا أعلم ..

ـ أما تعرف اسمه ؟..

ـ بلى كيف لا ..

ـ ما اسمه ؟..

ـ خلف بن لويش ..

الحقيقة انني عندما سمعت هذا الاسم أحسست بشيء غمر كيـاني ومهما أردت ان اصف ذلك الأثر الذي استولى على شعوري وحواسي فانني لا استطيع وصفه البتة ..

ـ أي شيخ مسن من قبيلتنا .

بذلت أقصى جهدي وهل يلام المرء بعد الاجتهاد ؟..

وكل مالدي انني عدت استفسر من فهد بشغف وبحرص لا مزيد عليه فقلت:

ـ أين يكون خلف الآن ؟؟

ـ لا أدري ..

ـ من هو الذي يستطيع ان يهديني عليه هنا ؟

ـ لا أعرف احداً يعرفه ..

ـ أين كان مسكنه عندما جاء الى دمشق ؟؟

ـ كان عندي ضيفاً مدة خمس عشرة ليلة ، وكل ما فهمت انه قضى تلك المدة بانتظارك ..

ـ ألا تعلم الجهة التي اتجه نحوها ؟.

ـ الذي أعرفه أنه بلغه الخبر ان أهله رحلوا من الاراضي الأردنية واتجهوا نحو العراق وفهمت انه سوف يذهب للعراق عن طريق جزيرة الفرات السورية ولا أعلم عنه اكثر من ذلك ..

الواقع انني تحيرت في أمـــري فحاولت ان اقتفي اثره ولكن أي أثر أقتفيه ، بدوي يسير في الفلاة والذي يريد ان يتتبع اثره أشبه ما يكون بمن يحاول ان يقتفي طيراً في الجو ، ومع ذلك لم أيأس بل ذهبت اسأل عنه واتتبع اخباره قاصداً انني متى ماعرفت المكان الذي يستقر به ان أمكن له الاستقرار، ذهبت اليه بقدر ما استطيع من السرعة .

وبعد سؤالاتي المتتالية فهمت ان الرجل بعدما سافر من الشام اتجه فعلاً الى العراق عن طريق جزيرة الفرات فواصلت سؤالي عنه فأخبرت انه نزل ضيفاً

عند شخص يدعى منيس (١) بن سعدى الساكن في قرية تسمى (تل كوشر) فذهبت أطلب مركز تل كوشر بالهاتف فكلمني شخص عرفني ولم أعرفـــه يقول عن نفسه انه فلان (القصير) وأصله من القصيم ، فكلفت القصير ان يسأل منيس بن سعدى هل يوجد عنده ضيف يدعى خلف بن لويش فواعــدني القصير بأنه سوف يذهب ليسأل منيساً ثم يعود ويخبرني هاتفياً على الرقم الهاتفي الذي قدمته له في دمشق .. وكان القصير وفياً بوعده حيث اتصل بي وأفادني بـــأنه سأل منيساً ولم يجد عند المسؤول ما يفيد السائل .

الخبر الاسود المشؤوم

كنت شديد الحرص على رؤيته وعلى معرفته اعتقاداً مني بأن رؤيتي له تقوم مقام رؤيتي لوالدي وكنت اريد ان أروي القصة نقلاً عنه واريد ان اتصوره امامي عندما يروي لي بداية المغامرة وكيف كان شعوره عندما جاء يتقدم ذويه الاقربين حاملاً سلاحه مصمماً على ان يأخذ بيد والدي من سجن مجهول مصيره به الى السلامة والنجاة أو ان يقتل بجانب السجين ..

وكنت واثقاً من انه يعرف ابي حتماً ، ولكن الشيء الذي كنت حريصاً على الألمام به هو معرفة الحافز الذي دفع خلفاً الى هـــذه المغامرة ، لأن الروايات عندي مضطربة ، فمن قائل انه بين والدي وبين خلف صداقة متينة ، وان مغامرة خلف كانت بدافع وفاء منه لصديقه ، وانه عندما بلغه خبر اعتقال قائد السرية لصديقه ذهب ساعتها بحجة انه زائر لامـــير السرية ، ولكن قصده الحقيقي هو ان يعرف المكان الذي فيه السجين ليرسم خطته التي يختطفه بها ليلاً وهناك من يقول : ان خلفاً جاء الى قائد السرية بقصد الزيارة فعلاً . وبدون ان يعلم شيئاً عن حالة السجين وان قضية سجن ابي كانت مفاجأة له عندما رآه ملقى

---

١ ـ منيس من قبيلة شمر الفرات النازلين في الحدود السورية المتاخمة للحدود العراقية .

على الارض والقيود برجليه وان السجين عندما رأى خلفاً اوعز له باشارة خفية تعتبر استنجـــاداً بنخوته وان هذه الاشارة اثارت نخوة خلف ونفذ على اثر هذه الاشارة مغامرته تلك ..

كان حرصي شديداً للغاية من اجل ان اراه لأوفق بين الروايتين وان كان من المحتمل جداً انني ارجح الاولى بحكم انني اعرف ان اصدقاء والدي من البدو اكثر من اصدقائه من الحضر ، ولكن بعدما عرفت ان الرجل جاء الى دمشق من اجل زيارتي فقط ، تضاعف حرصي على رؤيته عن ذي قبل مضاعفة لا استطيع التعبير عنها ..

ولا تستطيع يا اخي القارىء العزيز ان تتصور أثر الصدمة التي منيت بهـا عندما فوجئت بذلك الخبر الاسود المشؤوم الذي نقل اليّ نعي خلف ..

آمنت بك يا آلهي اننا لك واننا اليك راجعون !...

مما لا شك فيه ان كل من على وجه الارض مصيره الفناء سواء طال به الزمان أو قصر ولكن عندما يفاجأ المرء بوفاة امرىء عزيز كان يود ان ينظر اليه أو يجتمع به ولو فترة وجيزة عندما يفاجأ بذلك فان حزنه قد يختلف عن حزن غيره ، وهكذا كان حزني على خلف اعظم من ان اصفه بقلمي واجل من ان اعبر عنه بدمعي ، وان كنت لم ادخر وسعاً من ان اسكب الدمع الغزير ولكن كما قال المرحوم محمود سامي البارودي .

فزعت الى الدموع فلم تجبني

وفقد الدمـع عند الحزن داء

وما قصرت في حزن ولكـــن

اذا عظم الأسى ذهب البكاء

فاذهب يا خلف الى رحمة الله وفسيح جنانه .. ولئن غاب جسدك عن هذه الدنيا الفانية فان ذكرك سوف يبقى خالداً، ومجدك التليد سوف يظل باقياً ما دامت شيم العرب خالدة ، ولئن لم يسعدني الحظ على القيام بواجبك بحياتك ، ذلك الواجب الذي اعتبره من اقدس الواجبات ، فانني لن ادخر جهداً من تخليد ذكرك والاعتراف بفضلك .. فنم هادئاً عليك رحمة من الله وغفرانه .. وهـذا لسان حالك يا خلف يذكرني بقول الشاعر سالف الذكر محمود سامي البارودي :

سيذكرني (بالمجد) من لم يلاقـني

وذكر الفتى بعد الممات من العمر

●

تعليق

لئن فاتتني الاشارة الى ناحية ذات اهمية في مـــتن القصة ، فانني اود ان استدركها في الهامش ، وهي انني عندما قسوت بالعتاب على فهد العديـــلي مضيف خلف على عدم أخباري بمجيء خلف وقصده اياي قائلاً له : لماذا لم تخبرني بمجيئه ببرقية تبعثها الى عندما كنت في القاهرة لحضور المؤتمر المذكور ..

فرد عليّ العديلي بقوله :

انني لا اظن انك حريص الى هذا الحد على رؤية خلف ، فغضبت اكثر عليه وقلت :

ـ أرجل كخلف بالنسبة اليّ يجهلك الامر انني لا اهتم بأمره ولا احرص على القيام بواجبه ؟.. فقال العديلي :

ـ طبعاً يجهلني ذلك لأنني لا اعرف أن بينك وبينـــه ادنى شيء من الصداقة .. فاستغربت ذلك قائلاً :

ـ ألم يحدثك خلف بقصته الطويلة مع والدي ، قال :

ـ كلا لم يأت ذكر والدك على شفتي خلف خلال المدة التي قضاها عندي ..

ومن هنا تضاعف اعجابي بذلك الرجل الجم المروءة الذي لم ترض شيمتـه ان يذكر شيئاً من جميله الذي كان ولا زال طوقاً في عنقي ..

مغامرة في سبيل النخوة ومن اجل النخوة

- ١٠ -

مما لا شك فيه ان شر آفة ابتلي بها العرب هي آفة التفرقة ، ولولا ذلك لكان بالامكان ان نقول ان الصفات والسجايا التي توجدعند العرب قل ان توجد عند أية امة كانت ، ولكن هذه الصفات الحميدة من الاثرة والتضحية الخ .. كلها مع الاسف تذوب على صخرة التفرقة وعدم اذعان بعضهم لبعض .. ولم يحدثنا التاريخ ان العرب غلبوا وهم متحدون ...

كانت فترة وجيزة جداً في تاريخ العرب عندما اتحد بنو قحطان وعدنان في القرن الأول الهجري ففي تلك الفترة الوجيزة فتحوا مشارق الارض ومغاربها وارهبوا سكان البسيطة ولكن متى كان ذلك ؟..

كان في الحين الذي لا يقبل الكفؤ ان يتولى قيادة الامة وهو يعلم ان في امته من هو اكفأ منه لقيادتها ، حتى ولو رشحته امته لرئاستها فانه يتخلى عن ذلك الترشيح ما دام انه واثق ان بين ظهراني امته من هو اقدر منه للرئاسة واصلح منه للزعامة وأعظم منه كفاءة لسياسة الامة ، وأقدم منه كفاحاً واوفر منه رصيداً في النضال ..

كما تخلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مؤتمر السقيفة عن الخلافة التي رشحه لها المهاجرون

والانصار ، اي جميع قادة ناطقي الضاد من العدنانيين والقحطانيين كلهم رشحوا عمر للخلافة ولكنه تخلى عن ذلك الترشيح وقال كلمته الخالدة :

ـ من يتقدم على أبي بكر .. ثم خرق الصفوف وقال : امدد يدك يا ابا بكر لنعاهدك على الخلافة .

بهذا الايثار وبهذا التجرد عن الذات استطاع العرب ان يكون لهم كيان في عالم التاريخ .. وعندما ننظر الى كفاءة عمر بن الخطاب واخلاصه وكفاحه وشجاعته وماضيه قبل الخلافة وعدله وانصافه بعد الخلافة ونجده مع ذلك تخلى عن الخلافة وذلك عندما ادرك ان ابا بكر اقدم منه في الكفاح وأوفر منه رصيداً في سبيل نصرة الاسلام عندما كان الاسلام في المهد ، واربط منه جأشاً حينما توفي النبي صلى الله عليه وسلم عندما فقد عمر صوابه وقال :

(من قال ان محمداً مات ضربت عنقه) وأصلب منه موقفاً عندما حدثت الردة ، واراد ابو بكر ان يجهز جيشاً ليغزو المرتدين ، وعارضه عمر الرأي فقال ابو بكر كلمته المأثورة :

ـ أجباراً في الجاهلية ، وخواراً بالاسلام يا ابن الخطاب ..والله لو منعوني(١) عناقاً كانوا يدفعونه على عهد رسول الله لجاهدتهم حتى يدفعوه) ..

وعندما نقارن بين موقف عمر وتخليه عن رئاسة الخلافة التي هي اكبر منصب في العالم العربي والاسلامي ، ثم نقارن الآن بين بعض قادتنا الحاليين عندما يرتفع احدهم الى منصة الحكم لا بانتخاب اجماعي وافق عليه الرأي العام العربي كما وافق على انتخاب عمر بن الخطاب وانما استولى على تلك المنصة بالمدافع والرشاشات والمصفحات والطائرات ، ونجده يستميت على هذه الكرسي ،

---

١ ـ العناق بن المنز

ومن المستحيل ان يتخلى عنه لمن هو اقدم منه بالكفاح، او من له رصيد شعبي ونضالي بين صفوف امته العربية.. أجل من المستحيل ان يتجرد عن منصبه لمن هو اقدم منه وأولى. من المستحيل ان يتجرد عـــن منصبه لمن هو خير منه حتى ولو عرف عن نفسه وعرفه المواطنون انه ليس له في ميدان الكفاح اية سابقة، كما ليس له من الرصيد الشعبي مايزن مثقال ذرة لا قبــل توليه المنصب ، ولا في حالة تبوئه اريكة الحكم ، ومع ذلك فانه لم يترك منصبه بمحض ارادته لمن هو اكفأ منه .. الا بقوة المصفحة والمدفع والمدرع تلك القوة التي جاءت به هي وحدها وهي التي تزيحه عن منصته ليس الا ..

والشيء الوحيد الذي يعزينا في عالمنا العربي من حيث التكتل ، هو انه مهما يكن بينهم من التفرقة والقطيعة ، فانهم عندما يعتدى عـــدوهم المشترك على احدهم يتناسون احقادهم ويتكاتفون صفاً واحداً ضدهذا العدو، ومن مسلمات الامور ان اسرائيل لم تتوقف عن اهدافها الاستعماريه من حيث التـــوسع في ارض العرب الا بدافع خوفها من ان العرب مهما يكن بينهم من خلاف وشقاق فان هذا الخلاف وذلك الشقاق سوف يتمزقان ، ويحل محلهما الوئام والالفـــة والاتحاد ، عندما تحاول اسرائيل ان تقوم بأى هجوم عـــدواني على احدى الدول العربية .

وبعد .. فانني عندما اورد تلك الشواهـــد والادلة المستمدة من تاريخنا العربي الماضي وتاريخنا الحالي الذى نعيشة اليوم ، فانني اريد ان اوافي القارىء بحادثة قد تكون جزئية ضئيلة بحد ذاتها ، ولكن رغم ضآلتها نجد ان فيها ما يعبر عن خلق العربي وغيرته علي ابن عمه عندما يناله أذية من الاجنبي ، فانه وقتها ينسى جميع ما بينه وبين ابن عمه من احقاد وضغينة .. ويفعل ما وسعه من الجهد لمناصرة ابن عمه مهما كان الثمن غالياً ، ومهـــما يناله في سبيل هذه المناصرة من عناء ونصب سواء بماله أو بنفسه ...

تفوق البدوي على الباريسي

وهذا ما وقع مع احد رؤساء قبيلة (الفدعان) المدعو (عبيد بن غبين ١) مع (بشير بن ٢ هويدى) وذلك عندما سجنت الحكومة الفرنسية الاول في ايام الحرب العالمية الثانية حوالي عام ١٣٦٢ هـ ١٩٤١ م على يد (الكولونيل اردوال) ذلك المستعمر الغشوم الطاغي الذي لم يقف به الامر الى اختطاف بشير من اهله وزجه بالسجن فحسب بل امر بتعذيبه واشباعه لكماً وضرباً بالسياط ، وبعد ان فقد السجين شعوره وحواسه تركه ملقى على وجهه على الارض بين معسكر الجنود في موقع يسمى (عين عروس) ٣ وفي الحين الذى كان السجين يعاني ابشع معاملة يعامل بها الانسان من تنكيل وتعذيب ، في تلك اللحظة ساق القدر الشيخ عبيد بن غبين الى ان توسط بسيارته المعسكر الفرنسى بدون ارادة منه ، ولكن عندما شعر انه لا مفر له من قبضة القائد الفرنسي الطاغية ، عند ذلك دبر حيلة عبرت عن ذكائه وحنكته ، وذلك انه تظاهر انه جاء من اجل ان ينذر القائد الفرنسى عن قوة الانكليز التي توجهت اليه من المكان الفلاني ، ولما كان القائد من الفرنسيين التابعين لفرنسا الفيشية التي اعلنت ولاءها للجيش النازي ضد الحلفاء فانه لم يكذب النبأ الذى جاء به النذير ، بل اعتبر ان النذير من عملائهم المخلصين ، ولحسن حظ ابن غبين ، بل لحسن حظ السجين ان الدلائل جاءت وفقا لما انذر به ابن غبين ، حيث ثبت ان قوة من جيش الحلفاء كانت قريبة من المعسكر الفرنسي ، وتحاول الهجوم عليه ، الامر الذى جعل ابن غبين بعين القائد الباريسي موضع ثقة واجلال ..

كانت العداوة القبلية بين قبيلة ابن غبين الفدعان وبين قبيلة ابن هويدى

---

١ . عبيد بن غبين من قبيلة عنزه ولاسرته زعامة عشيرة الفدعان سابقاً وهو من بادية سورية .

. بشير بن هويدي رئيس قبيلة العفادلة وهم فلاحون ويقطنون الجهة الشمالية في سورية وابن اخيه فيصل نائب القبيلة في البرلمان السوري سابقاً ..

٣ . عين عروس : بلدة سورية متاخمة للحدود التركية من الناحية الشمالية .

العفادلة قائمة على قدم وساق ، وكان القائد الفرنسى يدرك هـــذه الظاهرة ، ولذلك خيل اليه ان عبيداً عندما جاء ينذره عن هجوم القوة الانجليزيه ، كان بدافع من رضاه عنه بسبب انتقامه من عدوه .

بون شاسع بين التفكيرين

نظر عبيد بن غبين الى السجين فوجده بحالة يرثى لها فاخذته النخوة العربية على ابن عمه العربي ، تلك النخوة التي طغت على جميع ما في نفسه من عـداوة وضغينة ، واحقاد قديمة ، فسرح تفكيره من ناحيةواحدة فقط ، وهى الوسيلة التي تمكنه من اختطاف السجين ، اما القائد الفرنسى فكان تفكيره محصوراً على ما يتوهمه من ان عبيداً جاء شامتا بالسجين ، وان انذاره جاء نتيجـــة لقيامه بسجن ابن هويدي وتنكيله به ..

وهكذ كان البون شاسعا الى ما لا نهاية له بينتفكير ابن غبين وبين تفكير القائد المستعمر .

وقد إستطاع البدوى ابن غبين ان يدرك مـــا يدور في مخيلة ابن باريس ، ولذلك أراد هذا البدوى الأمي التمادى بخدعته لأبن باريس ويضلله اكثر فراح يقترح عليه بأن يذهب ليسبر غور القوة الانجليزية التي سبق ان انذره بها والتي جاءت مجهزة منالعراق بغية الهجوم على فرنسا الفيشية، ولم يسع القائد الباريسي إلا ان يرحب بهذه الفكرة ، ويثني ثناء عاطراً في نفسه على عبقريته الفـذة ، ورجاحة عقله الفسيح الذي استطاع ان يصيد عصفورين بحجر ، وهو انه تمكن بدهائه وحنكته ان يعتقل ابن هويدى عدو ابن غبين وباعتقاله له استطاع ان يكسب مغنماً آخراً وهو مجيء ابن غبين متطوعاً من تلقاء نفسه لخدمة حضرة القائد جزاء لسجنه وتعذيبه لعدوه اللدود ابن هويدى ، هذا جل ما وصل اليه تفكير ابن باريس المتعلم الفسيح الأفق ، أما البدوى فقد ذهب على حد تفكير

الباريسي بأن يسبر له غور العدو ، بينما ذهب ليستوضح السبيـل الذى تسلكه سيارته عندما يختطف السجين بصورة تضمن له النجاة ، وعندمـا رسم الخطة وعرف من اين يكون سبيله حينما يريد الفرار ، هناك عاد اليه يحمل الأخبـــار المزعجة التي زادته ذعراً وهي أخبار وان كانت من مخيلة أفكار ابن الصحراء، ولكنها من نوع الكذب الذى قال عنه معروف الرصافي :

وأبشع الكذب عندى ما يمازجه

شيء من الصدق تمويها على الفكر

لقد استطاع البدوى ابن الصحراء القاحلة لا ان يموه الأخبار ويقلب الحقائق على ابن باريس فحسب ، بل استطاع ان يخدعه حتى نال ثقته التي مكنته من اختطاف ابن عمه السجين .

ساعة الصفر

كانت الخطة التي رسمها ابن غبين لاختطاف السجين كما يلي :

أولاً ـ انه امر قائد السيارة ان يقف بها بقرب السجين جنباً الى جنب ، في الحين الذى يذهب الى القائد الفرنسي ليخبره بالاخبـار التي من شأنها ان تجعل رأسه يدور في حلقة فارغة ..

ثانياً ـ على قائد السيارة ان يدير إتجاه السيارة الى الجهة التي يريد ان يسلكها في حالة فراره .

ثالثاً ـ على قائد السيارة ان يحرك سيارته حالما يخرج من خيمة القـائد ، وبعدما يعطيه الاشارة التي تدل على تنفيذ العملية . وفي الوقت ذاتـــه يتم بين

قائدالسيارة وبين ابن الصحراء اختطاف السجين من مضجعه الذى تركه الطاغية فيه بعدما اشبعه تعذيباً وتركه يائسا من حياته ..

وهكذا كان رسم الخطة..وما ان وصل عبيد الى المعسكر حتى اوقف سيارته بقرب السجين وذهب الى القائد ليخبره بنتائج رحلته ، وبعد ما شرح له مهمته المختلقة خرج منه في الحين الذى كان ابن باريس يفكر بأن يمنح هذا البدوى هبة سخية على هذه الخدمات التي قام بها لالشيء اللهم إلا تقديراً من حضرة الكولونيل الذى سجن عدوه وعذبه.. هذا أبعد ما وصل اليه تفكير ابن باريس العبقرى .

وفي الحين الذى كان سعادة القائد في بحر من التفكير المزدوج ، تارة يفكر في السبيل الذى ينجيه من جيش الانجليز الذي جاءه زاحفا من العراق حسب المعلومات التي وردت اليه من هذا البدوي الذى لم يكن له به صلة سابقـــة او صداقة عريقة ، اللهم الا عداوته للرجل السجين حسب القاعدة المألوفة القائلة: (عدو عدوك صديقك) .

وتارة يفكر في المكافأة التي يهبها لهذا البدوى الصديق الصـــدوق المخلص الذى سخر نفسه وسيارته وقائد السيارة في خدمة سعادة (المسيو اردوال) .

في هذه اللحظة التي كان الباريسي فيها غارقا في خياله السارح بين الفكرتين، جاءه ضابط الانضباط يخبره بان البدوى اختطف السجين من مضجعه وهرب به بسيارته ، فقفز حضرة القائد بغير وعي ولم يصدق الخبر كقضية مسلم بها حتى خرج لينظر بنفسه الى السجين هل لا يزال في مكانه كما يعهده ، فألقى نظرة الى المكان فوجده خاليا من صاحبه فالتقط (الناظور) لينظر الى سيـــارة البدوي فوجدها تنهب الأرض نهبا ولم ير إلا الغبار الذى يكسو السيارة .

فكانت خدعة ابن البدوية لابن الباريسية اكبر مصيبة على الاخـــير من اختطافه للسجين من بين يديه ومن وسط معسكره عيانا بيانا .

فأمر سعادته سياراته ان تجري خلفه عسى او لعل ان يحـــدث في سيارة البدوي خلل فيلقي جنوده عليها القبض . ولذلك ذهبت مجموعة من سياراته ، ولكن بعدما قطع الرجل مسافة يصعب على جنود الطاغية اللحـــاق بصاحب النجدة ، يضاف الى ذلك هو ان قائدي سيارات المستعمر كانوا عرباً فتعمـــدوا ان لا يجدوا باللحاق خلف الهارب .

كانت الخطة التي رسمها ابن غبين ناجحة والعاقبة حميدة ، وتأكيداً لما سلف ذكره بأن بين قبيلتي ابن غبين وابن هويدي عداوة تقليدية ، تأكيداً لذلك هو ان ابن غبين ما استطاع هو بنفسه انيذهب بابن هويدي حتى يوصله اهله وذلك خوفاً من أن يناله اذية من بعض الشباب الطائشين من قبيلة الهويـــدي ، ولذلك بعث عبداً مندوباً من عنده يخبر اهل بشير بن هويدي ، فجاء من اهـــله من يستلمه . .

واجمل ما في هذه الحادثة هو ان بطليها (اي ابن غبين وابن هويـــدي) كلاهما لا زال على قيد الحياة حتى هذه اللحظة في ١٠ رجب ١٣٨٣ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ .

نخوة وشجاعة ووفاء

- ١٢ -

هذه القصة التي بين يدي القارىء بعيدة العهد وقد رويتها عن المرحوم عبد العزيز السديري واذا شئنا ان نقارن بين العهد الذي عاش فيه بطل القصة وبين وقوع الحادثة نجد ان الحادثة وقعت على وجه التقريب في منتصف القرن الثاني عشر الهجري أي قبل نيف ومئتي سنة .. ولولا ان العرب مغرمون بحفظ القصص النادرة ، يتوارث روايتها الأحفاد عن الأجداد حتى تكون سجلا خالداً في صدور الرواة لا تطمسه السنون .. لولا ذلك لدرست هذه القصة وذهبت في صدور الرواة الذين لقوا ربهم وفي صدورهم من القصص الرائعة ما يستحق الخلود كهذه القصة وأمثالها .

وبطل قصتنا هذه فتى يدعى شامان الخالدي (١) ولشامان من المغامرات في ذلك العهد شهرة واسعة النطاق ، وكان (حايفا) (٢) ماهراً وشجاعاً

---

١ - شامان من قبيلة بني خالد بادية الاحساء الذين كان لهم صولة وجولة في عهد اميرهم ابن عريعر .

٢ - كلمة حايف تطلق على الفتى الشجاع الذي يغزو اعداءه بمفرده فيختطف منهم اطيب ابلهم وانجب خيلهم .

مغامراً لا يخشى المنية .

وفي هذه القصة ما يعطينا أكثر من دليل على أن الكسب المـــادي ليس له أدنى أهمية بالنسبة للكسب المعنوي في نفسية العربي وانما هدفه وغايته الأشياء المعنوية أولاً وقبل كل شيء وأما الكسب المادي فإنما هو شيء ثانوي لا يعبأ به .

ذهب الفتى شامان كالمعتاد غازياً قبيلة العجمان وليس بوسعه ان يصب غارته على اعدائه ضحى وانما يغزوهم ليلاً كما هي العـادة المتبعة في أسلوب (الحائف) بصورة عامة وبطريقته المألوفة على أسلوبه الخاص .

رشوة الكلب

وصل قبيلة اعدائه ليلاً .. فاختار أكبر بيوت القبيلة ، فقصده ، فجـــاءه الكلب بحماس ليقطع اشلاءه فقدم له لحماً دسماً بجداً أعـده لمثل هذه المفاجأة ، فتركه الكلب حتى التهم لقمته ثم أقبل عليه ثانية لا بحماسه الأول ولا بنيته السابقة التي كان ينوي افتراسه بها وإنما أقبل عليه حانيا رأسه (يلوي) ذنبـــه على جنبيه بصورة يعبر بها عن الاستسلام والاستجداء وطلب المزيد من الرشوة التي قدمها له العدو الغازي لأهله الذين ائتمنوه على حراسته لهم .
وكان شامان قد تعود القيام بمثل هذه العملية التي يسيطر بها على الكلب.. ولذلك لم يكلفه الأمر اكثر من أن قدم للكلب لقمة ثانية وثالثة الخ .
وفي هذه اللحظة خرج صاحب البيت ليقضي حاجته ، فانطرح شامان على الأرض وفي الوقت ذاته – أشلى (١) – الكلب فذهب يهر فنهره سيده ظانا انه متوهماً بمعرفته إياه فتلكأ الكلب خجلا من سيده وعاد يتلقى الأوامر من سيده الجديد ويطلب المزيد من الرشوة الدسمة ، ولم يتردد الغـــازي من تقديمه قسطا

١ ـ أي حرض الكلب على الهجوم ، ويعبر عنها بكلمة (أش) .

أكثر مما قدمه له سابقا بعدما رأى منه تنفيذه أوامره وولاءه له بهذه السرعة وتنكره لسيده القديم ، اصبح الكلب حارسا للغازي . سار شامـــان بخطى وئيدة يتقدمه الكلب وكأن لسان حال الكلب يقول أمض حيث تريـد فانك بأمان وان عيني لتحرسك من امامك ومن خلفك ومن بين يديك .

جدال بين الزوجين !!

أصبح الفتى الآن آمناً غير خائف وما عليه الا ان يمضي قدماً ليتحقق هل عند صاحب هذا البيت الكبير جواد اصيل يستحق هذه المغامرة .. وعنـدما دنا من البيت وجد ضالته المنشودة فرسا كاملة الاوصاف من خيرة الجياد وبالاضافـة الى ذلك يقف الى جانب هذه الفرس الشقراء الطويلة الساقـين القصيرة الظهر ، الكبيرة الحافر ، واسعة المنخرين ، يقف الى جانبها مهرة يقارب سنهـــا عاماً ونصف عام متصفة بالصفات نفسها التي تتصف بها امها .. يا لـهـــا من غنيمة كبيرة اذا تحققت فانها سوف تكون كما يقال بالمثـــل الشعبي (دافنة للفقر) ففرس كهذه لا تقل قيمتها عن ستين ناقة من طيبات الابل وابنتها بعد عامـين سوف تقدر قيمتها بالقيمة نفسها التي تشترى بها امها .. انها غنى العمر ، ومتى يجود الزمان بمثل هذه الفرصة السانحة لمغامر كشامان .

وما عليه والحالة هذه الا ان يختار المكان الذي يختبيء به بصورة تمكنـه من استماعه لحديث الزوجين لعله يلتقط كلمة منها ليهتدي بها الى موقع مفتاح حديد الفرس (١) فجاء واختبأ تحت رواق البيت من الناحية الخلفية فأصبـــح يسمع كل كلمة ينبر بها اي من الزوجين .

---

١ ـ كانت العرب تضع على يدي الفرس حديداً ثقيلا ليكون قيداً للجواد .. وفوق هذا الحديد قفلا محكماً يصعب ان يفتح الا بمفتاح وهذه الاحتياطات كلها من اجل الاحتفاظ بالفرس عن (حائف) مثل شامان .

كان يكتم نفسهُ بشدة خشية من ان يسمعه أحد الزوجين ..
ولشد ما اندهش الفتى عندما سمع الزوجة تصرخ بأعلى صوتها والعبرة تخنق صدرها قائلة :

ـ أين شامان الخالدي منا الليلة ؟.

فشاء بنخوته المألوفة ان يلبي ندبتها فيقفز من مكانه الذي اندس فيه ولكنه سيطر على أعصابه وراح يصغي الى ما وراء هذه الكلمة بكل حواسه فسمع الرجل يردد على زوجته قائلا :

ـ ماذا تقصدين من ندبتك لشامان ؟.

ـ اريده ينصفني منك باختطافه فرسك التي هي أعز ما تملك بحياتك لكي يحرق قلبك كما احرقت قلبي في هذه الليلة السوداء التي تعتزم فيها النكاح من إبنة فلان ..

ـ تبالك من امرأة حمقى .. اتظنين ان شامان يستطيع ان يحل بأرضي أو يتجاسر على نهب فرسي وهو يعرف انني وراءه .

ـ انني لا اجهل شجاعتك (١) وما لديك من هيبة في نفوس الشجعان ولكن الذي اسمعه عن شامان وما يتناقله الرواة بأنه فتى لا يبالي ان يغزو الأسد في غاباتها ويتحدى الضرغام في عرينه ، ثم واصلت حديثها قائلة :

ـ تالله لئن جاء شامان الليلة هذه فلن أمتنع من ان أهديه الى المكان الذي خبأت فيه مفتاح الفرس ليخطفها نكاية بك .. ثم مضت قائلة :

---

١ ـ لم اعرف اسم صاحب الفرس ولكنه بلا شك رجل واثق من نفسه بالشجاعة .

ـ أسألك يا إلهي ان تجيب دعوتي وتزف الي شامان بهذه الساعة القريبة .. فأجابها زوجها بعدما نهض قائما ليذهب الى عروسه الجديدة فقال :

ـ اذا جاء شامان فأنت مسامحة فيا اذا هديتيه الى مفتاح قفل الفرس .. بل آمرك ان تسلميه بيدك المفتاح.. ثم استدرك وقال ولكن بشرط فقاطعته قائلة:

ـ ما هو شرطك ؟.. لعله طلاقي ومضت تقول :

ـ اذا كنت تهددني بالطلاق فانني على أتم الاستعداد لقبوله من الآن .. فأجابها قائلا :

ـ لا ليس شرطي الطلاق كما تتوهمين فقاطعته الكلام وهي تتنهد بشدة قائلة :

ـ اذن ما هو شرطك ؟. فقال :

ـ ان شرطي الذي اطالبك به هو انه اذا تم لك حلمك الوهمي وجاءك شامان فصمت لحظة خفيفة لكي يختار الكلمة التي تدل على اعتزازه برجولته ثم قال : اريد منك ان تقولي له ان هذه مفاتيح فرس فلان فان استطاع ان يمد يده ويأخذ منك مفاتيح الفرس وهو يعلم انني وراءه فان لك مني اي شيء تطلبينه ..

ـ اطلب منك ان تطلق زوجتك الجديدة فيا اذا تحقق ما اريد ..

ـ أعاهدك الله ان اخلي سبيلها فيا اذا استطاع شامان او غيره ان ينهب فرسي بعدما يعلم انني صاحبها .

قال هذه الكلمة ثم ذهب يتبختر مزهوا بمشيته كالطاووس قاصداً بيت عروسه الحسناء البكر .

مع الحقيقة وجهاً لوجه

كان شامان يستمع لكل ما دار بين الزوجين من الحديث الذي كان اسمه محور الجدال فيه وكان يتصبر وكأنه على احر من الجمر وينتظر ذهاب الزوج الى عروسه بفارغ الصبر .. وعندما ذهب صاحب البيت الى عروسه راح شامان يتبعه ليتأكد من بيت العروس لكي يواجهه بالحقيقة وجهاً لوجه وليثبت له صحة نظرية زوجته بأنه من نوع الفتيان الشجعان المغامرين الذين لا يتردد احدهم عن ان يتحدى الاسد وسط عرينه .

كان العريس يسير والغازي يسير وراءه مسافة غير بعيدة .. وكان الكلب يسير خلف سيده القديم وامام سيده الجديد .. وكان الاول يظن انه يسير خلفه ليحرسه ، بينما الاخير واثق بانه يسير امامه ليحميه مقابل اللقيمات الدسمة التي قدمها له كرشوة مقدمة .. ثم جلس الاول لقضاء حاجته ووقف منه شامان بمكان ليس ببعيد ، وبعد ذلك مضى حتى دخل خدر – عروسه ، وبعدما وصل هناك .. عاد الفتى شامان كما عاد الكلب راجعاً يسير امامه حتى ادخله بيت سيده .

كانت لحظة سعيدة ممزوجة بالدهشة عندما وقف الفتى شامان ينادي المرأة باسمها الذي عرفه من زوجها في تلك الساعة التي دار فيها الجدال الطويل بين الزوجين .. قائلاً :

ـ ها انذا شامان الخالدي يا فلانة .. لقد سمعت كل ما دار بينك وبين بعلك من ـ أول كلمة الى آخر كلمة ..

ـ وماذا تريد ان تفعله الان ..

ـ اريد مفتلح حديد الفرس ..

ـ معاذ الله كيف افعل ذلك انالفرس (كحيلة عجوز (١)) وهي كلما يملك زوجي أبو فلان ..

ـ لبس عليك لوم من ناحية زوجك بعد ما سمعت حديثه الذي سمح لك به بان تسلميني مفتاح الفرس مشترطا بان تخبريني باسمه ظنا منه ان مجرد معرفتي لاسمه يجعل الرعب يدخل في قلبي فيمنعني الخوف من اغتصاب فرسه ونسي انني وان كنت اشهد له بالشجاعة ولا شك بحكم ما نسمع عنه من شهرته كفارس شجاع ولكن بالنسبة اليّ ارى ان اختطافي لفرسه اصبح يحمل ثلاثة معان :
اولاً ـ انني اجد لذة لا تعادلها اية لذة عندما تكونغنيمتي فرس رجـــل شجاع مشهور ذائع الصيت كزوجك اكثر الف مرة من اختطاف فرس رجل نكرة خامل الذكر .

ثانيا ـ ان القضية بالنسبة اليّ الآن اصبحت تحديا سافراً منه لرجولتي وهي بالنسبة لك انت بالذات امست رحمة لك وفرجا بصفته اعطـــاك عهدا بانه سوف يطلق زوجته التي دخل عليها الان ..

ثالثا ـ اجدني باغتصابي لمثل هذه الفرس اكون ربحت غنيمة دسمة قل ان يجود عليّ الزمان بكسب جواد من نوعها ..
كانت الزوجة تصغي الى حديثه بكل جوارحها فقاطعته الحديث قائلة :

ـ لا مانع عندي من ان أدلك على مفتاح الفرس ولكن بشرط واحد ..
ـ أريد منك ان تقيم من حسابك الامر الاخـــير وتكتفي بالامرين الاولين ..

ـ مـاذا تقصدين من ذلك ؟ ..

---

١ . (كحيلة عجوز) اصل من اصول الخيل المشهورة عند العرب .

ـ اقصد ان تكتفي بالكسب المعنوي وتترك الكسب المادي ..

ـ كيف يكون ذلك والأمريقضي بأن الكسب المعنوي لايتم الا بعد تحقيق الكسب المادي .. فلو لم اذهب مثلاً بالفرس معي الآن فمعناه ان بعلك سوف يخيل اليه وهما بأنني تركت فرسه خوفاً منه وهذا شيء لا استطيع احتماله .

ـ الذي اعتقده جازمة بأنك عندما تذهب الى زوجي الآن وانت ممتـــط فرسه ثم تروي له القصة بكاملها فانه بلا شك سوف تأخـــذه الدهشة وسوف يفاجأ بذهول يفقده رشده وخاصة بعدمايرى انك تمكنت من رقبته كما تمكنت من اختطافك لفرسه وساعتذاك سوف يتبدل موقفه من تحديه لك منذ قليل الى طلبه منك ان تتكرم عليه بالفرس .. فان لم تفعل فسوف يطلب منك ان تترك له المهرة .. ومن هنا قاطعها الفتى قائلا :

ـ سوف لا استجيب لطلبه ابداً اللهم الا بشرط واحد وهو ان يتخلى عن زوجته العروس ويسمعني طلاقها ويعود اليك هذه الليلة ..

فقالت وهي تكاد ان تطير من الفرح .

ـ لا شأن لي بذلك فهذا شيء متروك أمره اليك ، وقد شعر من هذه الجملة الأخيرة بأن لسان حالها يقول : اذا ظفرت به فلا يفلت من يديك حتى يطلق عروسه .. فأعاد الجملة مكرراً اياها قائلا :

ـ قضية طلاقه لعروسه شرط اساسي بالنسبة لكسبي المعنوي ولن اتخلى عن فرسه ما لم يسمعني طلاق العروس بل ما لم يبت عندك الليلة هذه .

فأجابته وكل جوارحها تتهلل سروراً وطرباً ويوشك بها ان ترقص لسماعها لهذه الجملة المعسولة قائلة :

ـ لقد قلت لك ان هذا شيء متروك امره اليك .

ـ اين مفتاح حديد الفرس ؟.

ـ ها هو تحت مخدتي خذه .

أخذ الفتى المفتاح وفك حديد الفرس ثم تنكب سيفه بعدمـــا استوى على صهوة الجواد وعندئذ دنت منه قائلة :

ـ دعني أسير أمامك لأهديك بيت العروس .

فأجابها بقوله :

ـ لقد عرفته .. فبادرت تسأله بدهشة واستغراب :

ـ كيف عرفته ؟.

ـ عندما ذهب من عندك رحت اقتفي أثره .. وكنت اشعر بحافز يحدوني بأن اضرب عنقه بالسيف جزاء لما سمعته من اعتداده بنفسه الذي بلغ به حداً جعله يستهتر بالرجال ولا يقيم لهم وزنـــاً .. ولكن كلما هممت بضرب عنقه أخذتني الشيمة والخجل من نفسي معتبراً ان القتل بطريقة غدر ليس من خلق وشيمة الرجل الواثق بشجاعته ومروءته وقد ظلت الشيمة وحب الانتقـــام يتصارعان في كياني حتى تغلبت الأولى على الثانية فعدت شاكراً الله على عدم قتلي له .

فأجابته بلغة تحمل الشماتة ببعلها الذي هجرهـــا وذهب الى عروســـه الجديدة قائلة :

ـ ها انت الآن سوف تقتله بلا سلاح قتلا معنوياً اسمى من القتل المادي .

ـ ولاجل ذلك تركته واخليت سبيله وكان باستطاعتي ان اضرب عنقه ثم آتي اليك باسلوب التهديد والعنف حتى تدليني على مفتـــاح الفرس بحافز من الخوف لا برضاك كما فعلت الآن .

ـ بورك فيك من فتى شهم شجاع جم المروءة .

فأجابها وهو يعتز بنفسه مزهواً فوق صهوة الفرس فقال :

ـ اتريدين أن تقتفي اثرى لتسمعي ما نصل اليه من نتيجة قد تكون سارة بالنسبة اليك ؟.

ـ الامر متروك اليك .

ـ ها انا ذاهب اليه فاتبعيني .

فذهب الفتى ممتطياً الفرس والمهرة تسير بجانب والدتها والزوجة تسير من خلفه، حتى اذا وصل الى بيت العروسين ترجل عن الفرس وربطها بأحد اطناب البيت .. فدخل البيت حيث وجد العروسين عاريين في حـــالة من .. فصرخ بصوت مرتفع كان له في اذن العروسين وقع كالصاعقة قائلا :

ـ ها أنا شامان الخالدي جئتك وهذه فرسك ومهرتك قد ربطتها في طنب بيتك وقدكنت خلف رواق بيتك منذ اول الليل وسمعت كل ما دار بينك وبين حليلتك من الجدال كما انني سرت خلفك عندما خرجت من بيتك قاصدا بيت عروسك هذه .. وعندما جلست لقضاء حاجتك كنت منك قاب قوسين او أدنى .. لقد اشرت الى هذه الناحية لكي تكون على يقين من قولي عندما اؤكد لك بأنني هممت بضرب عنقك حينما خرجت من بيتك جزاء لاستهتارك بالرجال، ومن لم يهب الرجال لم يهب .. ومن هاب الرجال تهيبوه .. وها أنذا متمكن من عنتك ومن فرسك

ومهرتها ولن تفلت مني حتى تعطيني عهداً بما اريد .

كان العريس بحالة ذهول من تبدل الموقف المفـــاجيء من سدرة تشبه نشوة الخمرة بل هي الخمرة بذاتها الى وقوعه بين يدي فتى يريد ان يحكم عليه بالاعدام او ان ينفذ فيه ما يريد .. بينما يجد نفسه مجرداً من أي سلاح يكافح به عن نفسه سوى السلاح الذي اعده لعروسه ..!؟ فأخذ فترة كالمغمى عليـــه بعد سماعه صوت الشاب ورؤيته له شاهراً سيفه فوق رأسه .. لم يكن بينه وبين الموت الا لحظة يوميء بها الفتى بسيفه على عنقه وبعد الدهشة والذهول المفاجي، استعـاد الرجل شجاعته فقال بعدما جرع ريقه الجاف :

ـ الحق ان من لم يهب الرجال لا يهـــاب والا من يقول ان ابن انثى سوف يقهرني كما قهرتني الان .. ثم صمت ثانية وقال :

ـ ماذا تريد ان افعله الآن ؟؟

ـ اريدك ان تسمعني طلاق عروسك الآن وخير لك ان تفارقها حياً من ان تفارقها ميتاً .. فلك ان تختار احد الامرين ..

ـ قضية العروس سبق ان طلقتها مقدماً ..

ـ لم افهم معنى ذلك ؟..

ـ الم تسمع ما قلته لزوجتي عندما كنت مختبئاً في مكانك الذي لم يخطر لي ببال ان القضية سوف تتحقق وانك سوف تقف مني بهـــذه السرعة موقف المتحدي وجهاً لوجه :

ـ آه لقد فهمت الآن ما تشير اليه تعني كلمتك التي اكـــدت بها لزوجتك بقولك اعاهدك الله ان اخلي سبيلهـــا فيما اذا استطاع شامان او غيره ان ينهب

الفرس بعدما يعلم انني صاحبها .

فأجابه العريس الاسير وهو يتلعثم نادماً على هذه الجملة فقال :

ـ أجل ان هذا العهد مني كاف ان اعتبره طلاقاً مقدماً بعدما نصرك الله عليّ بصورة لم تنته عند الحد الذي تنهب مني الفرس وحسب . بـل وقهرتني وانا في أحرج الظرف وبساعة لا املك فيهـا اي سبب من أسباب الدفاع عن النفس ..

ـ لا عيب عليك فيما اذا غلبتك في حالة كهـذه ؟.. وانت لو ظفرت بي بظرف كهذا الظرف وتمكنت مني كما تمكنت منك الآن لمـا وسعني الا الاستسلام وفقاً للمثل القائل : (الحر اذا شبكه الصياد يستسلم) .. ثم مضى الفتى وقال :

ـ ولكن العيب فيك استهتارك بالرجال ليس الا .. فرد عليه العريس :

ـ دعني من تكرار الماضي .. فالرجل الشجاع الكريم عندما ينتصر على شجاع كريم من درجته لا يليق به ان يؤنبه أو يعاتبه على ما مضى وانقضى ..

ـ صدقت وانني من الآن اقدم لك اعتذاري ثم قال بخجل : وماذا تريد ان افعله الآن ..

ـ اريد ان تترك المهرة وتكتفي بأمها ..

ـ بل سوف اترك لك المهرة وأمها ..

ـ بقي شيء واحد اريده منك ؟

ـ اوافقك على طلبك مقدماً ..

ـ ان ما رأيته منك من شجاعة ومروءة جمة يجعلني ملزماً باكرامك ... ولذلك اطلب منك ان تبيت عندنا الليلة لكي اقوم بضيافتك غداً ..

ـ قلت لك انني موافق على ما تريده مني مقدماً ..

ـ اذن فلنذهب معاً .. ثم قال :

ـ اسمح لي حتى البس ثيابي ..

وفي هذه اللحظة خرج شامان من البيت بعدما ادخل سيفه في غمده .. وبقي لحظة ينتظر العريس اول الليل ، الاسير في منتصفه ، المضيف في آخره ..

اما الزوجة القديمة فقد انتهزت الفرصة التي يلبس فيها زوجها ثوبه وراحت تهرول الى بيتها وهي تكاد ان تطير فرحاً وغبطة .. وبعد لحظة وجيزة خرج الرجل من عند عروسه .. بل من عند مطلقته فاقبل على ضيفه يعانقه بينما جاء الضيف بالفرس يقودها ثم سلمها لصاحبها ..

وعندما وصل الاثنان البيت صاح الرجل بزوجته قائلاً :

ـ يا ابنة فلان : يبدو انك بارة بوالديك .. لقد حقق الله امنيتك وكل شيء جاء بالنسبة اليك على ما يرام ..

فأجابت وهي تحاول ان تخفي سرورها المستفيض فقالت :

ـ الخير كله بما يختاره الله سواء بالنسبة اليّ ام بالنسبة اليك ..

ـ اعدي لضيفنا فراشاً يبيت عليه ..

فذهبت واعدت له اطيب ما عندها من فراش.. وما ان جاء الغد حتى اقام المضيف وليمة كبيرة لضيفه دعا على شرفه جميع رجال قبيلته الذين اعتـبروا هذه الحادثة من اروع قصص العرب فاحتفظوا بها في سجلهم الشعبي ينقلهـا الاجيال منذ قرنين ونيف .. حتى دخلت التاريخ كشأن القصص الواقعية التي يحرص مؤلف هذا السفر ان لا يترك اية قصة تقع بين يديه من شيم العرب دون ان يسجلها راجياً ان يقتدي الاحفاد بتراث اهلهم الافاضل وشيمهم

* * *

عندما يهاجم الوطن عدو بعيد تنسى عداوة ابن العم القريب

١٣

الكثير من هذه الحوادث التي اوردتها في هذا السفر ، كنت معتمداً على ذاكرتي بحفظها ، وذلك منذ فجر الشباب ، وبعضها كنت اكتبه كرؤوس اقلام واضعه في دفتر اعددته لهذه الغاية ، وعندما نقلت من سفارة بلادي في دمشق الى جده ثم الى صنعاء وبعدها الى ليبيا ، تركت الدفتر في احد ادراج مكتبي في منزلي في دمشق .. وكان من نتيجة ذلك ان تصرف ابني الاكبر في المكتبة تصرفاً لم يكن موفقاً فيه ، فضاع الدفتر المذكور كما ضاع معه بعض اوراق لها علاقة ماسة بتاريخ بلادنا الحديث ، الذي رويته من افواه الشيوخ الثقاة الذين بلغ بعضهم العقد العاشر وكان احدهم يروي لي الحادثة وهو اما شاهد عيان لها او ينقلها عمن شاهد الاحداث من الشيوخ القدامى الموثوق في روايتهم على الطريقة نفسها التي نقلتها منهم .

وكان لحسن الحظ ان الدفتر الذي فقد كنت قد نقلت منه الكثير من الحوادث والقصص الى دفتر آخر وسودتها بصورة اوضح واوسع مما كانت في الدفتر الاول ، وظللت محتفظاً بهذا الدفتر في حقيبتي الخاصة اصطحبه اينما رحلت ..

وهذه الحادثة التي أقدمها للقارىء الآن كانت من ضمن الحوادث التي في حقل الدفتر المفقود ، وكان من المفروض ان تذهب في طي الاهمال والضياع كما ضاع الكثير من امثالها من الحوادث التي اختفت في صدور الرواة الذين لحقوا بالرفيق الأعلى ، وذلك كما ضاع مني السجل لقيدها كذلك ضاعت الحادثة برمتها عن ذاكرتي بحكم طول العهد الذي رويتها فيه ، ولكن بعد هذه المدة الطويلة سرعان ما عادت - لذاكرتي وذلك عندما جاءت مناسبة مماثلة لها وهي اهتمام اسرائيل بتحويل نهر الأردن ، وعندها حمدت صاحب المثل القائل : (الشيء بالشيء يذكر) .. كما حمدت الظروف التي أوجدت هذه المناسبة .

فأما المناسبة فهي (عندما أعلن رئيس أركان حرب اسرائيل عزمه على تحويل مجرى نهر الأردن ، عندئذ ذكرت هذه الحادثة كما ذكرت حوادث أخرى مماثلة ، والحقيقة انني وان كنت تأثرت كثيراً من تحدي اسرائيل للعالم العربي شأني كشأن أي عربي .. كما تأثرت أكثر من الشقاق والخلافات بين زعماء العرب التي لو لم تكن لما استطاعت اسرائيل ومن دار في فلكها ان تعيش يوماً واحداً في بلادنا العربية ، ولكن حينما تبادر لذاكرتي هذه الحادثة وأمثالها مما سوف نورده فيما بعد ، عند ذلك زال تأثري وتبدد تشاؤمي وقلت للسفير في أنقره (الشيخ حسين فطاني) الذي كان يشاركني الشعور العربي نفسه ، قلت : انني لست متشائماً من تحدي اسرائيل بل وزدت على ذلك قائلاً : انني أتمنى ان تتمادى اسرائيل بغرورها الاستعماري لأن عدوانها هذا هو الذي سوف يكون حافزاً لتكاتف العرب وتناسي خلافاتهم ، ووقوفهم في جانب بعضهم بعضاً ضد العدو المعتدي .

وكنت مستمداً تفاؤلي هذا من التاريخ الذي دائماً يعيد نفسه ، لأن الامم والشعوب وحتى الافراد لا يحكم على حاضرهم الا من ماضيهم .

وهذه الحادثة وان كانت محصورة او محدودة في نطاق قبلي ضيق ، ولكنها تعطي صورة عن الخلق العربي بمفهومه الشامل الفسيح .

قال أحدهما : حتى ولو قطعت رجلي ..!!

وقال الثاني : حتى ولو قتلت أهلي ..!!

من بدهيات الأمور انه عندما يأتي نكرةما، ومن ثم يحاول ان ينافس رجالاً ذوي شهرة كبيرة مجد عريق وزعامة موروثة ، فانه سوف يلاقي من معارضيه من العداوة والصراع الشيء الذى قد يدفع حياته ثمناً لهذه المنافسة .. وان كتب له النجاح فانه لن ينجح الا بعد صراع مرير ونضال قد يقضي به زهرة شبابه ، هذا اذا توفرت فيه جميع مؤهلات الزعامة وأصبح لديه من الرصيد الوطني القدر الوافر الذي يشفع له بين مواطنيه،ويرغم معارضيه على الاستسلام.

وفتى كعبد الله العلي بن الرشيد(١) ذلك العصامي الذي لمع نجمه في منتصف القرن الثالث عشر الهجري وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي والذي توفرت في شخصه جميع مؤهلات الزعامة بكاملها ، ففتى كعبد الله ابن الفلاح البسيط ليس من السهولة بمكان ان يذعن لزعامته ابناء الأسر ذات الزعامة الوراثيه العريقة في قبيلته شمر كابن علي مثلاً أمير بلدة حائل ورئيس عشيرة (عبدة) ، وكابن طواله رئيس عشيرة (الاسلم) ، وهذان الرئيسان من أكبر رؤساء القبيلة ، وهما من أشد المعارضين لعبد الله عندما ولاه الأمام فيصل بن سعود أمارة بلاده حائل ، والمعارضة من الأول كانت أشد ضراوة وأقسى عنفاً من ابن طواله بحكم انه نافسه على امارة بلاده ، وقد وصل الأمر الى ان قتل عبيد شقيق عبدالله رجالاً من آل علي كما ان عبيدا نفسه طعن في أحد المعارك زعيم قبيلة الأسلم المدعو (نعيس بن طوالة) طعنة خطيرة بتر بها رجله من الساق ، الأمر الذي جعل العداوة تتفاقم وتستحكم بينه من جانب وبين ابن علي وابن طواله من الجانب الثاني .. وكل من الجبهتين المتنازعتين لهما انصار من القبيلة نفسها ومعناهان شقاقهم جميعاً سوف يكون على حساب القبيلة ومن شأنه

---

١ - راجع ا ص ١٤٧ من شيم العرب .

ان يضعف شوكتها ويجعل الأعداء يطمعون بسحقها عند أدنى فرصة مناسبة ، وعندما نقل الأمام فيصل بن سعود الى مصر ، واختــل توازن القوى في نجد وظن اعداء عبدالله الخارجيون والداخليون ان الفرصة المواتية بالقضاء عليـه أصبحت متيسرة اكثر من أي وقت مضى بحكم عدم وجود من يحمي ظهره من الخارج ، وفي الفترة التي كان الصراع بينه وبين رؤساء قبيلته قائما ما على قدم وساق في تلك الفترة بالذات ، تجمهر اعداؤه من الخارج وتحزبوا جميعـاً لغزوه ببلاده، وهم يحيى (١) بن سليم أمير بلدة عنيزه وعبد العزيز المحمد (ال ابو عليان أمير بلدة بريدة ويساندهم برجس ابن مجـلاد رئيس قبيلة (عنزة الدهامشة) ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الغزاة الخارجين أصبحوا غازين للقبيلة بأسرها، وانتصارهم على عبد الله يعتبر انتصاراً على قبيلة شمر ، وفي الحين الذي كان عبد الله افي أحرج الأوقات لا يدري هل يقاتل زعماء قبيلته الذين نافسهم على الزعامة ام يقاتـل العدو الخارجي الذي غزاه بجيش جرار ؟.

وصديقه الذي ولاه الإمارة الأمام فيصل ابن سعود الذي بامكانه ان يحميه من هؤلاء الذين تحزبوا ضده من الخارج والداخل .. هذا الصديق الحميم استولى عليه القائد التركي خورشيد باشا منذ سنتين ، وأصبح الحاكم في الرياض خالد بن سعود عدو صديقه فيصل ، وخالد لا يكره ان يهزم عبدالله باعتباره من انصار الامام فيصل .

وفي هذا الظرف الذي كان عبدالله محاربـاً من شتى الجهات سالفة الذكر ، توافد عليه ابنا عمه الزعيمان اللذان نافسها عـلى رئاسة القبيلة وهما (نعيس ابن طواله) رئيس عشيرة الأسلم و (صحن بن علي) رئيس عشيرة (عبدة) وقـال الأول لعبدالله :

---

١ ـ ذكرت في صفحة ١٧٤ الطبعة الثانية الجزء الاول من شيم العرب ان زامل بن سليم هو امير اهل عنيزة في الغزوة المذكورة اعلاه والصواب انه ابن عمه يحيى بن سليم .

- لا يمنعني من مناصرتك كابن عم حتى ولو قطعت رجـــلي لأن القضية أصبحت خارجة عن نطاق عـداوتنا الشخصية ، ودخلت مدخلاً آخراً استغله أعداؤنا لضرب القبيلة بكاملها .

- وقال صحن بن علي :

- لقد جئت نجدة لك حتى ولو قتلت اخواني وأبنـــاء عمي لأن العداوة خرجت عن نطاق التنافس بيننا ودخلت مرحلة أخرى استغلها اعداؤنا جميعـاً وهذا ما جعلني أتنـــازل عن طلبي الثأر منك لئلا يشتت العدو شمل القبيلة ويقضي على كيانها وييتم أطفالنا ويرمل نساءنا بسبب تنازعنا .

وكان من نتيجة تضامنهم وتناسي احقادهم ان صدوا هجوم العدو وهزموه شر هزيمة في المعركة المعروفة باسم (بقعا) الكائنة عام ١٢٥٥ هـ ١٨٤٠ م. (١)

---

١ ـ ومما لا شك فيه ان العرب بعون الله عندما يدركون مـــدى الخطر الصهيوني الذي يهدد كيانهم جميعاً فانهم سوف يتحدون وينسون الخلافات التقليدية فيما بينهم ليقفوا صفاً واحداً أمام عدوهم المشترك .. وهذا ما اعتقده واومن به وأرجو ان يتحقق بعون الله ومشيئته . وما ذلك على الله بعزيز .

الشهامة خصلة جميلة ومن ذوي الفضل أجمل

- ١٣ -

يمرّ على المرء في هذه الحياة ظروف لا يستطيع ان يتصور كنهها ، واذكر انه سبق ان مرّت عليّ ظروف من الصعب جداً ان أصفها وصفاً يتلاءم وحقيقة أمرها ، وكل ما يمكنني ان أعبر عنها هو ان أقول: كان من شأن تلك الظروف ان خلقت مني انساناً انعزالياً لا جليس لي ولا أنيس الا كتابي،وحتى اصدقائي الذين لا أستطيع ان أسلو عن مجالستهم حتى هؤلاء تركتهم ونأيت بجانبي عنهم. وفي ذات يوم وجه الي احد الأصدقاء وهو الأخ سعود(١) المشاري السؤال التالي:

ما الذي جعلك معرضاً بصورة نهائية عن مخالطة الناس بما فيهم اصدقائك؟.

فقلت له : أريد أن أنقطع للدراسة من ناحية ، ومن ناحية أخرى وجدت ان في اعراضي عن مخالطة الناس سلامة لي من اذيتهم . فقال :

ـ وهل تظن ان بابتعادك عن الناس سلامة لك من شرهم .. فقلت :

أجل وهل ينال المرءَ شر من الناس الا بسبب مخالطتهم واحتكاكه بهم ؟ .

---

١ ـ سعود من ساكني حائل وهو حالياً يسكن عمان ويحترف الاعمال الحرة هناك .

فقال : – أعتقد ان السلامة من شر الناس من الامور المستحيل تحقيقها سواء اعتزلتهم ام لم تعتزلهم .

قلت : – بل أعتقد ان الانسان إذا ترك الناس وشأنهم فانهم سوف يتركونه وشأنه .

قال : – المفروض ان يكون الأمر كذلك ولكنني أعتقد انتطبيق ماتشير اليه من الناحية العملية والواقعية ان لم يكن مستحيلا فانه شبيه بالمستحيل .

قلت – الأيام بيننا ! .

قال – وهو كذلك ! .

أصاب صاحبي ... واخطأت

وقد افترقنا ساعتها وأنا مؤمن بصواب رأيي .. ولكن الذي حدث هو انه بعد افتراقنا بيوم واحد فوجئت بحادثة اثبتت صواب رأي صاحبي بقدر ما عبرت عن شطط نظريتي،وذلك عندما اعتدى عليّ أحد الاخوان(سامحه الله – في الوقت نفسه الذي كنت منعزلاً فيه عن الناس – بل وفي ساعة كنت فيها مضطجعاً على جنبي لم افكر بأذيَة اي مخلوق كما لم يخطر لي ببال ان يمسني اي كائن بسوء . وقد قمت بعمل يخيل اليّ ساعتها اني قصدت منه الدفاع عن النفس ولكن طيش الشباب وشدة الألم الذي نالني من فتك المعتدي افقدني صوابي وجعلني لا أفكر ولا أندم على انتقامي من المعتدي إلا بعد ان سبق السيفالعذل وبعد ما وقع المحذور الذي كنت ساعياً ما استطعت بالابتعاد عنهبشتىالوسائل وبمختلف الاسباب . وبعد ما أدركت ان دفاعي عن النفس كان قاسياً بل كاد ان يؤدي بالمعتدي الى نهاية حياته ، بعد ذلك ندمت ولكن لات ساعة مندم..

كانت الحادثة في الرياض وكانت الرياض وقتها بلداً صغيراً ومحصوراً عماره بعضه ببعض والشيء الذي يحدث في جانبه الشرقي يدري به الذي في جانبه

الغربي في حين حدوثه بصورة مباشرة وكان من نتيجة ذلك ان بلغ الخبر المرحوم الملك عبد العزيز في حين وقوع الحادثة كما اخبرت ايضاً ساعتها ان الخبر الذي بلغ الملك كان مشوهاً ومقلوبة فيه الحقيقة رأساً على عقب ، وقد أكد لي المصدر الموثوق بأن الغضب بلغ بالملك نحوي أشده ، وأنه أي الملك أمر مدير الأمن العام بأن يعتقلني فوراً ، والحقيقة انه عندما بلغني هذا النبأ اسودت الدنيا في وجهي فلا أرى أرضاً تقلني ولا سماء تظلني .. وكل باب اطرقه أراه موصداً في وجهي وأي سبيل احاول المنفذ منه أجده مغلقا أمامي ، وكان جل همي محصوراً بأن أجد من يفهم الملك عبد العزيز الحقيقة قبل ان ينفذ بي العقاب الصارم .. ولكن مشكلتي هي أنني لا أعرف أحداً أستطيع ان الوذ بحماه الى ان يبلغ الملك الخبر على حقيقته ، بل ولم يخطر ببالي ان هناك أحداً يستطيع ان يقبلني كمستجير به في حالة غضب الملك المخيف ، وهكذا انحجبت أمامي جميع السبل ، وأظلمت الآفاق في عيني وضاقت بي الارض بما رحبت . وأخيرا قررت بأن أذهب تحت سواد الليل خارج الرياض لأختبيء في أحد بساتين النخل التي كانت لاصقة بمدينة الرياض وقتذاك .. فذهبت أسير بخطى تشبه الى حد بعيد مشية من إصابة شلل برجليه .. وكل ما سمعت حركة شخص يسير من خلفي أو رأيت شخصاً يسير أمامي ظننت ان هذا أو ذاك الشرطي الذي بعثه مدير الأمن لاعتقالي .. ولا زال هذا الذعر يطاردني طول تلك الليله التي ما استطعت ان انام فيها نوماً هادئاً .. بل كل ما دخل عيني النوم قفزت من سباتي مذعورا من وعيد الملك الذي نقله اليّ الثقاة على النهج الذي سمعوه منه .

.. ولا عجب ، فان الذي يعرف هيبة المغفور له الملك عبد العزيز ويشعر أنه مطارد من قبله فانه لا يلام إذا حارب النوم عينيه حتى ولو كان خارجاً عن عاصمة ملكه ، فكيف والحالة هذه بالمرء الذي في قلب مدينة الرياض ، لقد كنت أشعر في تلك الليلة ، ان كل ثانيه تمر عليّ كأنها سنة كاملة ، وبالتالي ذكرت ان هناك شخصاً من ساكني حائل يدعى (محمد المضيبري) وقعت علية

مظلمة ما وأنه طرق أبواباً كثيرة محاولا ان يجد من يرفع مظلمته للمرحوم الملك عبد العزيز فلم يجد من يصغى له او يرفع مظلمته سوى (الشيخ عمر بـــن حسن آل الشيخ) الذي رفع قضية ذلك المواطن للملك بصورة مفصلة .وكانت النتيجة ان الملك انصفه خير انصاف ...

اذا ابتليت بمصيبة فعليك بأهل الفضل

عندما ذكرت هذه القضية فكرت بأن اذهب الى الشيخ عمـــر لأشرح له أمري وأطلب منه ان يرفع الحقيقة للملك كما وقعت ، وكنت واثقاً ان الملك إذا فهم الحقيقة عني على الصورة التي تختلف عما فهمها من الجانب الثاني فإنه بلا شك سوف لا يتخذ نحوي العقاب الذي بلغني عنه ، ولكن بعد ما اختمرت في ذهني هذه الفكرة ترددت لعدة امور ، منها ان الشيخ عمر هو رئيس هيئـــة الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت في نفسي : من يـدري لو ان الشيخ بلغه خبر قضيتي على الصورة الـتي بلغت الملك ، وعندئذ يكـــون مجيئي له معناه انه سوف يسلمني لدائرة الشرطة ؟ ! ومنها ان معرفتي بالشيخ عمر وقتها كانت ضئيلة للغاية بل وأعظم من ذلك أنه بلغنى عنه «بأن الوشاة الذين لم تخطئني أسهمهم في كثير من الأوقات قد وشوا بي عنده» ، إلا ان الرجل لم يأخذ بأقوال الواشين . .

ولكن على أى شكل شعرت في نفسى بأننى لست من المرغوب فيهم عنده فكيف بي اذهب اليه وأقرع بابه نصف الليل ، وأطلب نجدته وحمايته ، وأنا لا أعلم ماذا ألقى منه ، وقد ظللت فترة وأنا في حـــيرة من أمرى بين التردد والاحجام من ناحية وبين الخوف من سطوة الملك عبد العزيز ذلك الخوف الذى وصفته بأنه بدأ يلاحقنى ويطرد السبات عن عيني ، وفي نهاية الأمر اتخذت قرارى الأخير بالذهاب الى الشيخ عمر محدثاً نفسى بأن الأمر لا يخلو من إحدى

الاثنتين : اما ان تقع عليّ الكارثة التي كنت أخافها وأخشى منهـا ، أو أجد عند الرجل امنيتي التي ذهبت من أجلها ..

فقلت في نفسي : ان كانت الاولى فانني اكون أرحت نفسي من سيطرة هذا الخوف الذي اقـّض عليّ مضجعي على اعتبار ان الخوف من المحذور أشد ارهاقا للأعصاب ، وأعظم فتكا في نفسية الإنسان من المحذور ذاته ، كما تصورت الأمر انه إذا كانت الثانية فانى اكون وقتها بلغت ما تصبو اليه نفسى من امنية ..

وعلى الفور ذهبت من مكاني قاصداً منزل الشيخ عمر الذي كان وقتهـا في الموقع المسمى بالشرقية ، فطرقت الباب بشدة ، ولحسن الحظ ان الذي أجابني الشيخ بذاته وعندما سمعت صوته طرقت الباب ثانية فنزل اليّ قائلاً :

– من هذا ؟ ..

فقلت شخص مستنجد بجاهك ولائذ بجاهك ..

فقال : من هذا الشخص ؟ .

فقلت : فلان بن فلان ..

ففتح الباب وأعطاني اشارة بالدخول وكانت اشارته توحي بالطمأنينة ، وعندما أجلسني عن يمينه قال :

ـ ما هو أمرك ؟ ..

ولست أدري وقتها هل سؤاله هذا ناشيء عن عدم معرفته بالأمر ؟ .. أم انه يعلم أمري وإنما يريد ان يستفسر مني ، ولكنني في كلتا الحالتين شعرت براحة واطمئنان لسؤاله هذا فرحت اشرح له القضية بكل صراحة ووضوح .. وعندما استوعب الموضوع قال :

وماذا تريد مني الآن ؟.

عندما قال لي هذه الكلمة أدركت للوهلة الأولى ان لسان حال الرجل لا يعني بهذه الكلمة الاستفهام السلبي ، ولذلك تفاءلت خيراً وقلت له : أريد منك ان تحميني من ان لا تستلمني الشرطة حتى يفهم الملك قضيتي على الوجه الكامل الذي فهمته مني الآن .

فقال : لك ان تختار أحد الأمرين :

ـ اما ان تظل في بيتي وسوف لا ينالك أحد بسوء ما دمت قادراً على الدفاع عنك بقدر ما أودع الله بي من القدرة .

ـ واما ان تذهب الليلة الى حيث تريد وفي الغد سلم نفسك لمدير الأمن وأنا بدوري سوف اذهب للملك صباحاً وأخبره بحقيقة امرك بصورة جلية .

فقلت له : بعدما آمنت بسرعة نجدته وصدق حديثه .

ـ بل أريد أن يكون اختيار أحد الأمرين بيديك والسبيل الذي تختاره لي من هذين الأمرين سوف أقبله بكل اطمئنان وسرور .

فصمت الشيخ قليلاً ثم قال :

ـ اذا بقيت في بيتي فانني سوف أصارح الملك بأنك في منزلي ، كما انني سوف أوضح له قضيتك بكاملها ..ولكنني لا أضمن نجاح مجهودي في هذا الشأن عندما يعلم الملك انك بتّ في بيتي ولا زلت فيه كضمان مجهودي عندما تكون قد سلمت نفسك للشرطة .. ثم مضى الشيخ بحديثه الى ان قال : أخشى انه في الحين الذي أشرح به قضيتك للملك وأنت في بيتي قد يقال أن شرحي هذا كان بحافز عن دفاعي عنك كمستجير بي .

اما الثانية : فانه لم يكن اي مجال للظن عندما أشرح قضيتك في الحين الذي تكون به قد سلمت نفسك للشرطة .

وعندما وجدت ان رأى الشيخ بذهابي وتسليمي نفسي لمدير الأمن هو الرأي الصائب السليم ـ عند ذلك ذهبت من عنده شاكراً نجدته ومؤمناً بتنفيذ ما وعدني به .

فرحت أسير بخطى وئيدة ثابتة تختلف عن خطاي الأولى ، ولم أعد أخشى من شبح شرطه الأمن كما كنت أخشاه سابقاً .. وقد نمت بقية ليلي نوما مريحا هادئاً وذلك في أحد بساتين النخيل المجاورة لمنزل عبدالله ابن سعدون الحالي . ولم أشعر بأي شيء يقلق بالي حتى انبلج الفجر فذهبت لتأدية الصلاة بمسجد ابن سعدون .. وبعد خروج الشمس بقليل ذهبت الى مديرية الأمن حيث وجدت المدير (علي جميل) الذي لم يعرفني وقتها وكان سروره لا مزيد عليه عندما قلت له :

–أحقيقة انك أرسلت رجالاً من جنودك بشأن اعتقال فلان الفلاني– معلناً اسمي الكامل .

فقال: أجل اما تعرف أين يكون هذا الشخص .؟

قلت : هو هذا الذي أمامك ويحدثك الآن .. فقال : أأنت فلان ؟ قلت : نعم هو ، فصاح بجنوده فوراً وعندها تراكض نفر منهم وأودعوني في غياهب السجن او ما يسمى (المصمك) .

وبعد ساعة جيء بي الى مدير الأمن حيث أخذ افادتي ورفعها بدوره الى الملك وكان الشيخ عمر قد سبق مدير الأمن وأخبر الملك بالحقيقة ، ثم جاءت افادتي مطابقة لرواية الشيخ ، فتراجع الملك عن عزمه باتخاذ العقاب الصارم الذي بلغنى عنه بأنه سوف ينالنى فيما لو لم أوفق لنجدة الشيخ . ولكنه عاقبنى عقابا تلقيته بكل سرور واطمئنان وذلك لأننى وجدت به رحمة وسلامة بالنسبة للعقاب الذي بلغني سابقا .

وبما أن انتقامي من المتدي «الذي وقع منى بلا شعور» كان قاسيا وخطيراً

فقد أمر الملك غفر الله له بأن أظل فيالسجن الى ان يشفى صاحبنا المعتدي (١).

وكان أول زائر يأتيني في السجن في ذلك اليوم رجلين الأول رسول الشيخ عمر الذي بعثه ليسأل عن صحتي ويطمنني .. والثاني صديقي(سعود المشاري) الذي جاءني لا بحافز الوفاء الذي لا يستغرب منه فحسب،بل لأجل ان يعزيني بالجملةالتي جاء نصها كالآتي :

ـ لقد اعتزلت الناس قولاً وفعلاً .. فهل سلمت من شرهم :

فقلت : ارجو ان تكون هذه الحماقة التي فوجئت بها هي آخر حماقة ابتلي بها من معتد كهذا .

«ولئن كانت تلك آخر شيء من المعتدي ذاته فانها لم تكنالأخيرة من نوعها بل تالني من معتد آخر لا يقل عن الأول حماقة ورعونة اعتداء مماثل وفي ظرف كنت مسالماً به للغاية . »

وبعد فقد كان المفروض ان تطول اقامتي في السجن لولا مساعي الشيخ عند الملك تلك المساعي التي بقدر ما أفادتني في انقاذي من عقـــاب الملك الشديد افادتني ايضا في خروجي من السجن في فترة محدودة .

وفي مناسبة ذكرى لنخوة الشيخ عمر أجدني ملزماً بأن أعترف لهذا الرجل بجميله لا من أجل موقفه معي هذا فحسب بل من أجل انه شحذ همتي ودفعني الى الأمام في مناسبة كان شرحها على الوجه الآتي :

(عندما بدأت حوادث فلسطين المشؤومة قام بعض الأثرياء في بلادنا وفي البلاد العربية يتبرعون بمالهم لهذه الغاية المقدسة .. كما أخذ الحماس بعضاً مـن الشباب العرب فذهب منهم من ذهب بنية التطوع للكفاح عن فلـسطين ، دون غزو المعتدين ، ولما لم يكن بين يدي من المال ما أنفقه كما يفعل الأثرياء الطيبون،

---

١ ـ التعليق على هذه الجملة سيكون في نهاية البحث .

فقد وجدت أن أشارك اخواني المتطوعين بهذا المضمار وعندمـــا عقدت العزيمة ذهبت آخذ رأي شخص من أعز اصدقائي (رحمه الله) فـــأراد صاحبي ان يثبط عزيمتي بآرائه الانهزامية وحيث ان صلتي بالشيخ عمر بعـــد تلك الحادثة اصبحت متينة الى الحد الذي جعلني استنير برأيه في الكثير من أموري الخاصة، فذهبت اليه وأوضحت له عزيمتي التي أنوي تنفيذها، وبعد ان شرحت له كل ما في نفسي قلت له :

ـ ما هو رأيك ـ يا أبا حسن في عزيمتي هذه .

فأجابني على الفور بالجملة الآتية التي لا زلت اذكرها لفظاً ومعنى :

ـ أتسألني الرأي في موضوع كهذا .. ثم أردف قائـــلاً : ألا ليت ظروفي تشفع لي بالقيام بهذا الواجب كما تشفع لك ظروفك من شتى الوجوه .

عندما قال الشيخ هذه الجملة الأخيرة شعرت انه يتلعثم بها وينطق بها بصورة تختلف عن فصاحته المألوفة .. فنظرت اليه واذا عيناه مغرورقتان من الدمع .. فذهبت من عنده متأثراً أبلغ التأثر (١)!.

هذا وأن الشيء الذي احب ان اعلق عليه لم يكن من الأمور ذات العلاقة في موضوع الكتاب وانما هي حادثة مسلية تتلخص كما يلي :

حينما كنت في السجن كان يقدم لي القهوة صبي يبلغ من العمر ما يقـارب اثنتي عشرة سنة يدعى محمد مصيوده مـن احدى قرى الرياض وفي ذات يوم بادرني هذا الصبي بقوله :

ـ عندي لك بشرى سارة ياعم .. فتبـادر لذهني على الفور بأنه سمـــع

---

١ ـ اشرت آنفاً بأنني سوف اعلق في نهاية البحث

خبرا ـ بالافراج عني فقلت له :

ـ بشرى خير ان شاء الله .. فقال بكل بساطة وسذاجة ..

ـ أبشرك ان الشخص الذي اعتدى عليك مات ..

وما ان طرقت اذني هذه الكلمة حتى شعرت بأن صاعقة نزلت عليّ اخرستني حتى عن سؤال الصبي ، والتأكد منه عن صحة الخبر ، وذلك انني واثق بأن بقائي في السجن مرهون بشفائه ، وحياتي مرهونة بسلامته وحياته . . أما إذا قدر له ان يتوفى نتيجة لما أصابه مني كدفاع عن النفس فان مصيري بلا شك ضرب عنقي وفقاً لمـــا يقتضيه الحكم الشرعي حسبما ورد في صميم الدســـتور الاسلامي ..

وقد ذهبت من عند الصبي وهو يظن انه زف إلي بشري سارة بينما وجدتني في حالة لا أحسد عليها ، ولن يفيد الآن لا شفاعة الشيخ عمر ولا سواه . . بل حتى الشيـخ عمر لا يمكن ان يبذل اي مجهود لمؤازرتي فيما إذا حكمت عليّ شريعة السماء ..

وفي اليوم الثاني جاءني الصبي كالمعتاد وكنت وقتها قد استرددت شجاعتي وآمنت بمصيري الذي لا مفر منـــه واتخذت قرارا لنفسى بأن احاول ما استطعت بأن اتلقى الموت بكل ثبات وجلد . . ولذلك سألت الصبى بكل اطمئنان قائلاً :

ـ من الذى قال لك ان الرجل توفي ..

ـ فقال : لم يقل لي احد شيئا من ذلك ..

ـ فقلت :

ـ إذن كيف عرفت انه توفي .. فقال :

ـ اردت ان ابشرك لتطمئن .. وإلا من حيث الحقيقة لم يتوف الرجل ..

فقلت له وانا اوشـــك ان اطير من الفرح من ناحية ، ومـن ناحية اخرى اوشكـت ان اصفعه جـزاء تكـديره لي طـول تلك الليــلة ..

– اشكرك على بشراك الأخـــيرة لا على ما فجعتنى بـه بشراك الأولى المشؤومة ..

●

تاريخ النخوة العربية يتكرر !!

- ١٤ -

من يكن له أدنى المام بالتاريخ العربي القديم وبعض المعرفة في تاريخ العرب ، الحديث يتضح له الأمر بصورة جلية ان هناك من الحوادث والوقائع التي حدثت في اكثر من الف عام عند العرب ، حدث ما هو مشابه لها في تاريخنا الحديث بصورة تكاد ان تكون طبق الأصل لتلك القديمة .

من المعروف ان معنا بن زائدة الشيباني كان ممن ظل على ولائه لبني أمية حتى ان الخلافة الأموية انقرضت ولكنه رغم ذلك ظل محارباً بجانب عبدالله ابن هبيرة ومحتمياً في احدى قلاع جزيرة الفرات بدون ان يستسلم او أن ينخدع بالعهد الذي خدع به المنصور ابن هبيرة الذي اعطاه عهداً وبعد ذلك غدر بـه المنصور ونكث عهده وقتله .

وبعد ان استسلمت تلك القلعة التي فيها ابن هبيرة وممن ابن زائدة ، والتي تعتبر آخر حصن منيع من حصون بني أمية ، بعـد ذلك هرب معن وراح متوارياً عن سلطة بنى العباس حتى ان دولة العباسيين وضعت مبالغ جمة من المال لمن يأتي به حياً او ميتاً ، وقصته مع الشرطى الزنجى الفقير من كل شيء الا من المروءة مشهورة ومعروفة في كتب الأدب،ولا اراني.. بحاجة الى شرحها

اللهم الا الاشارة اليها بايجاز ، وهي ان الشرطي القي القبض على معن ، ثم اطلق سراحه وهو يعرفه جيداً ويعرف المبلغ الذي سوف يناله من الحكومة فيما لو جاء به وسلمه للخليفة الذي يريد ان يضرب عنق معن بأي ثمن ..

وقد ظل معن متوارياً عن الانظار مدة ليست بالقصيرة الى ان جاءت وقعة الهاشمية التي قام بها نفر من فارس بعدما قتل المنصور ابا مسلم الخراساني فهب الفارسيون بعد ذلك بثورة مناهضة للمنصور ، وبعدما اصبحت القضية بين العرب والعجم ، عند ذلك خرج معن من المكان الذي كان متوارياً فيه وانتضى سيفه ودخل صفوف العرب ، وقاتل قتال الابطال حتى انتصرت جنود المنصور العرب على الاعاجم .. وكانت مساهمة معن في المعركة من اعظم العوامل التي قوت معنوية المقاتلين واضعفت في الوقت ذاته جبهة العدو ، وهذا ما جعل معنا يحتج على الخليفة المنصور عندما عزله عن ولاية اليمن قائلاً :

ـ ان العامل لا يعزل عن عمله الا لامرين : اما عن ضعف واما عن خيانة .. فهل بلغك عني يا امير المؤمنين واحدة من هاتين الخصلتين :

فقال المنصور :

لم نعزلك لا عن هذه ولا عن تلك ولكنني عزلتك من اجل الهبة التي اسرفت بها للشاعر مروان بن أبي حفصه لقوله فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به
شرفاً على شرف بنو شيبان

ان عدّ ايام الفعال فانما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

فرد عليه معن قائلاً :

والله يا امير المؤمنين ما اعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، وانما اعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلناً
بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه
من وقع كل مهند وسنان

وعندما سمع الخليفه هذين البيتين اللذين اشار بهما الى تلك المعركة الحاسمة اعاده والياً كما كان من قبل ..

.. وبعد لئن اسهبت في شرح حادثة معن ، فان قصدي ان اقارن بصورة جلية بين تلك الحادثة العربية التي وقعت في القرن الثاني الهجري ، وبين حادثة عربية وقعت في القرن الهجري الحالي بصورة تكاد ان تكون طبق الاصل لحادثة معن مع المنصور العباسي ، واليك تفاصيل حادثتنا هذه :

في عام ١٣٣٥ هـ عقدت معاهدة صلح بين سعودبن عبد العزيز بن متعب امير حائل آنذاك وبين نواف بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وأمير بلدة الجوف وقتها ، والمعاهدة تقضي بأن لا تعتدي بادية واحد منهما على بادية الثاني فنفذت تلك المعاهدة من الجانبين ، فترة من الوقت ، وفي مناسبة غاب بها الاول الى مدائن صالح مدة تقارب السنة وفي خلال هذه المدة ، غزا بعض من رجال قبيلته قبيلة ابن شعلان ، فارسل والي ابن شعلان على بلدة الجوف المدعو عامر المشورب رسالة لامير حائل شديدة اللهجة وخلاصة معناها انه يقول :

ـ أنت يا حضرة الأمير بين أمرين : اما انه لا سلطة لك على رجال قبيلتك او انك لا ترعى حرمة الوفاء بالعهد ..

فما كان من سعود الا ان اثارته هذه الرسالة وبعث رجالاً جبابرة من عنده

ليضربوا اعناق كل من هباس بن هرشان وفهاد بن مصطح ونايف السعدي فكل هؤلاء من فرسان قبيلة شمر الذين اعتدوا على قبيلة ابن شعلان واخلوا بالعهد الذي بين الجانبين ، فبعث الامير سعود رجالاً من قبله ليضربوا اعناقهم جميعاً ، فألقوا القبض على الاخير وضربوا عنقه ، كما القوا القبض على هباس ، وكاد ان يكون مصيره كزميله ، لولا انه كان ذكياً وانفلت من ايديهم بقوة السلاح الذي استعمله رجال عشيرته عندما تأكدوا ان القضية فيها قتل لرئيسهم ، اما فهاد : فانه بمجرد ما بلغه مصرع السعدي والمصير الذي كاد ان يلاقيه هباس ، عندما بلغه ذلك،هرب الى جزيرة الفرات في العراق ، وفي الوقت ذاته لحق به هباس ، وبعد ذلك بعام واحد نقضت المعاهدات التي بين أمير حائل وبين ابن شعلان امير الجوف ، لاسباب يطول شرحها .. فذهب الاول غازياً بلدة الجوف التي في حوزة ابن شعلان ، وكان عندما غزا الجوف ظاناً انه سوف يحتلها بكل سهولة وذلك للأسباب الآتية :

اهمها ان رجاء بن مويشير احد زعماء الجوف الكبار اقدم على قتل عامر ابن شعلان وبعث من عنده رجالاً يستنجدون بامير حائل بأن يأتي يتسلم الجوف فخرج من بلاده وشخص نحو الجوف قاصداً ان يقنص صيدتين بسهم واحد : اولاً يلبي نجدة من استنجد به وهو ابن مويشير الذى يعتقد ان كل اهل الجوف يشاركونه عندما اقدموا على قتلهم لوالي ابن شعلان .

ثانياً ـ يربح احتلال الجوف ويضيفه إلى امارته ظناً منه ان ذلك لا يكلفه كثيراً من العناء بحكم ان ابن شعلان بدوي يقيم في الصحراء وانه في امكانه ان يحتل البلاد بموافقة اهلها قبل ان يأتي ابن شعلان من صحرائه ، ولذلك خرج من بلاده بجنود قلة كما حصر عددهم الشاعر محمد العوني بقصيدته التي تعتبر وثيقة تاريخية لا من حيث حصره للعدد فحسب بل ومن حيث تفاصيل تلك الحادثة وشرحها ومن معاني القصيدة الاتية يبدو لنا الامر بوضوح وان تقديرات أمير حائل كلها تحطمت على صخرة الواقع ، وذلك انه عندما دنا من الجوف بلغه

الخبر ان ابن شعلان جاء وتسلم البلاد وان الامور تغـــيرت عن ذي قبل تغيراً معاكساً .. فاهل البلاد جددوا ولاءهم لابن شعلان ما عدا ابن مويشير الذي قتل والي ابن شعلان فهذا اصبح محاصراً في قصره ومهدداً بين عشية وضحاها من قبل ابن شعلان ..

ولم يسع امير حائل الآن الا احد أمـرين : اما ان يقدم لنجدة ابن مويشير ويغامر بنفسه وجنوده القلة ، او يقفل راجعاً الى بلاده ويكسب السلامة ، فما كان منه الا ان اختار سبيل النجدة على ما فيه من مغامرة مجهولة العاقبة ..

وها هو الشاعر العوني يصف لنا تفاصيل هذه الحادثة فيقول :

جونا مناديبٍ منَ الجوف يقولِهمْ

ما عادْ بالجـــوبه يَسوج وسَارْ

وجئنا ثلاثمائة ذِلول نحثها

نبغَي نعـــدَل ما يَلِ ويَسارْ

●

ولما وصلنا الحزل جتنا ركايب

يقولون كلِ اللي يُقال بَوارْ

يقولون ابن شعلان بالجوف نازِلْ

ومـــن لكم قبلٍ صديق بارْ

وابن مويشير تبـــين بفولهم

وثارتْ عليه الدّيرتـين وحار

وينخَاك يازين الرفيق ودو َنه
َنار ِ ُبشطر عن سناه بشَرار

عيب على ِمثْلي الى حد ِيثْني
الى شاف نيران الحروب ُكبـــارْ

●

١ ـ يقول الشاعر انه ورد الى سعود امير حائل رسل من قبل ابن مويشير سالف الذكر يؤكدون انه لا يوجد في الجوف اية قوة شعبية تؤيد بن شعلان .

٢ ـ وعلى اساس هذا النبأ جئنا ثلاثمائة مقاتل ممتطين ثلاثمائة ذلول .

٣ ـ ولكن عندما دنونا من الجوف جاءتنا رسل تنفي صحة الاخبارية الاولى .

٤ ـ ويؤكد هؤلاء بان ابن شعلان لا زال مسيطراًبقوته وجنوده على الجوف وان كلا من يدعي الصداقة لكم انحاز بجانب ابن شعلان ..

٥ ـ ولم يبق الا ابن مويشير بمفرده وهو محاصر من جميـــع البلدتين الجوف وسكاكا .

٦ ـ وهو يستصرح وينخا الامير سعود ليخرجه من هذا الموقف الحرج ، وفي الشطر الاخير من البيت السادس يقول الشاعر ان ابن مويشير مطوق بسياج من نار تتقد والذي يحاول نجدته لا بد بأن يصلاه لهيب النار ..

٧ ـ يقول في هذا البيت ان امير حائل عندمـــا قرب من الجوف ادرك ان اقدامه على نجدة مستجيره مغامرة انتحارية كما انه ادرك ايضاً ان تراجعه عن خوض هذه المعركة بعدما عرف قوة خصمه عار وجـــبن ، ولذلك فضل ان يغامر مهما تكن نتيجة مغامرته خطرة من ان يتحمل عار الجبن والهزيمة ..

هذا وان القصيدة التي تشرح تفاصيل الحادثة بوضوح كثيرة وطويلة ، ولكنني اختصرت منها هذه الأبيات كشاهد على صحة الحادثة ، المقصود ان سعوداً اقدم على نجدة مستنجده المحاصر بذلك العدد القليل ، ولكنه لم يصل اليـــه الا بعد معركة دامية .. وكانت النتيجة ان ابن شعلان طوق المنجد والمستنجد به.. وعندئذ اصبح المنجد محاصراً وبحاجة الى من ينجده كحاجة ابن مويشير اليه.. فبعث الامير سعود ابن عمه عبدالله بن طلال الى رجال قبيلته شمر يستنجد بهم فجاء رجال القبيلة عن بكرة ابيهم : وفي مقدمتهم الفارسان اللذان اراد قتلهما الامير سعود بالامس وهما هباس بن هرشان وفهاد بن مصطح ، وعندما اقترب فرسان القبيلة من الجوف وجدوا قبيلة ابن شعلان ومن التف حوله من قبيلة الحويطات برئاسة عودة ابي تايه وقبيلة الشرارات واهل الجوف ماعدا ابن مويشير ونفر معه كل هؤلاء كانوا مطوقين للبلاد وضاربين عليهـا حصاراً من جميع الجهات ..

والخطة التي ينوي تنفيذها المنجدون تقضي بأن يذهب رجال منهم ليخبروا اميرهم المطوق بقدومهم وليتلقوا الاوامر منه بالطريقة التي يختـارها لهم .. هكذا قرر المنجدون ، ولكنهم عندما قربوا من الجوف وجدوا ابن شعلان مطوقاً للبلاد برجاله .. ومن المستحيل ان يفك هذا الحصار بسهولة .. وعندما اجمع رأيهم يتداولون في الامر ، تقدم فهاد وهباس انفسهم كفدائيين ، على أن يغامرا بنفسيهما ويهجما على جنود ابن شعلان المطوقين للامير سعود ليبلغاه رسالة رجالهم .. وفعلاً هجم الفارسان ليلاً واطلق المحاصرون عليهما النار ، ولكن الله انجاهما في تلك الليلة .. الا انه في اليوم الثاني وقعت المعركة الحاسمة التي دارت رحاها بعنف فقتل فيها فهاد، كما اصيب بها هباس بجرح فوق ساقه وقتلت تحته فرسه ..

وكان في نجدة هذين الفارسين ورفاقهما أثر في انتصار سعود العبد العزيز ابن

متعب على أعدائه كأثر الانتصار الذي احدثته نجدة معن بن زائدة للمنصور العباسي في وقعة الهاشمية سالفة الذكر ..

وهكذا نجد تاريـــخ النخوات العربيـــة يتكرر بعد مدة اكثر من عشرة قرون .

من له صديق وفيّ لا يخاف ! !

- ١٥ -

قد تكون هذه القصة من أقدم القصص عهداً وذلك ان الرواة يؤكدون ان بطلها المدعو سعود بن فريحان بن دباس الكثيري عاش في عهد مانع بن عريعر الذي له مايزيد عن قرنين .. ويقال ان لسعود شهرة بالمروءة والوفاء والنجدة كشهرة عنترة بالشجاعة وكشهرة حاتم بالكرم ..

وعندما كان ابن عريعر صاحب السلطة في شرقي الجزيرة في تلك الفترة اعتقل ابن عريعر شخصا صديقا لسعود وأودعه السجن وشدد الحراسة عليه ، ولكن السجين لم يعبأ بالسجن ولم يتأثر منه بل ولم يحاول ان يطلب العفو من ابن عريعر ليفرج عنه وكان يقول لمن ينصحه بطلب الاسترحام من ابن عريعر ليعفو عنه :

- أنا لست بحاجة لعفوه ولا خائف من عقابه ..

فيقول له الناصحون :

- الا تخاف وأنت في غياهب السجن وتحت رحمته ..

فيرد على ناصحيه بقوله :

- من له صديق وفي لا يخاف ..

وكان اصرار السجين على عدم طلب الرحمة من الامير ابن عريعر أمراً جعل الامير يزداد حقداً عليه وعدم الرحمة به .. يضاف الى ذلك ان الوشاة نقلوا لابن عريعر الكلمة سالفة الذكر كما نقلوا له صلته الوطيدة بسعود بن دباس وعند ذلك شدد الحراسة على السجين ولكن هذا كله لم يمنع سعودا من بذل شتى الوسائل لاخراج رفيقه ..

وبالرغم من ان اخراجه من السجن يستلزم مغامرة خطيرة قد تكون فيها نهاية حياته لأن القضية فيها تحد لسلطة الامير ، ولذلك كانت الخطة التي رسمها سعود لاختطاف رفيقه من السجن فيها منتهى المغامرة والحذر في آن واحد ..

ولما كان الضيوف الوافدون على مضيف ابن عريعر كثيري العدد وبصورة متواصلة مستمرة وخاصة في الليل فقد جاء سعود كضيف ليل وتناول الطعام من ضمن عشرات أو مئات الضيوف وبات أول ليلة في مضافة الامير وظل يتحسس بهدوء مكان السجين حتى عرفه وتركه في بداية الأمر .. وفي الليلة الثانية عرف الطريقة التي يبدل به الحارس رفيقه كما عرف الزي الذي يرتديه الحارس .. وما ان جاءت الليلة الثالثة حتى جاء الى الحارس حاملا سلاحه ويسير بكل رزانة وهدوء نحو الحارس الذي كان ينتظر ان يأتيه البديل ، وكانت الليالي الثلاث التي قضاها في ضيافة الامير كافية لأن تجعله يعرف أسماء الحراس الذين يتناوبون الحراسة على رفيقه .. ولذلك لم تكن مفاجأة للحارس المناوب عندما جاءه هذا يناديه باسمه وبالزي نفسه الذي يرتديه زميله الحارس وفي ساعة قريبة جداً من الساعة التي يأتيه بها بديله ولذلك تنحى عن السجين وسلمه على ما يعتقد لزميله .. وراح هذا واستلم رفيقه الذي كان واثقاً بأنه سوف يختطفه من سجنه لا محالة .. وعندما جاء الحارس ليغير رفيقه لم يجد حارساً ولا سجيناً فراح الى مرجعه يصرخ قائلاً :

ـ إن السجين والحارس فرا سوية ..

فذهبوا يفتشون على الحارس الأول فوجدوه آمنـاً مطمئناً فسألوه عمن تسلم السجين منه فقال :

ـ سلمته لزميلي الذي اسمه كذا وصفته كذا ٠. فجاءوا بزميله ليتأكدوا منه وبمجرد ما رآه قال :

ـ نعم هذا هو الذي تسلم مني السجين منذ فـــترة قصيرة .. فصاح به الحارس قائلاً :

ـ كذبت لم أتسلم منك ولم أرك ورد عليه هذا ..

ـ تسلمت مني الآن ..

وعندما علا صوت الجنديين كل واحد منهما يريد ان يضع المسؤوليـــة على صاحبه ، عند ذلك سيق الحارسان الى الأمـــير ليقول كلمته النهائية فيهما .. وحين ما وصلا وبـــدأ الأول يسرد الصورة التي جاءه فيهـــا رفيقه وتسلم منه السجين نظر الأمير اليه فوجده يتحدث حديث الرجـــل الصادق الواثق بصحة كل كلمة يقولها فتركه ثم استدعى الثاني فذهب ينـــكر ويجحد كل كلمة قالها صاحبها مؤكداً بانه لم يره .. وكانت دلائل الصدق بارزة ايضاً على محيا الجندي الثاني مما جعل الامير يزداد حيرة في امرهما وغاية مـــا هنالك انه أمر بسجن الجنديين الى ان يحقق معهما فيما بعد على أساس انه لا بد ان يكون احدهما مرتشياً فعند ذلك سوف يكون عقابه الاعدام من قبل الأمير ، ولكـــن سعوداً الفتي الشهم لم يترك الجنديين يذهبان ضحية الظلم بل راح وأوعز لمن يخبر الامير بأن جنديه بريئان مما يتهمهما به ..وانه هو المسؤول الوحيد عن فرار السجين

كما اوضح الطريقة التي استطاع بفضل حنكته ورباطـــة جأشه ان يختطف بها رفيقه من بين يدي السجانين بمهارة لا يستطيع القيام بتنفيذها الا مغامر اخو نجدة كصاحب الترجمه (١)

- رويت هذه القصة عن حجاب بن حثلان السبيعي .

سيأتي بدل الابن ابن ، ولكن قلّ ان يأتي

بدل البطل بطل من نوعه

١٦

عندما يصاب المرء بمحنة مزدوجة ذات شقين ، تحتم عليه ان يتجاوز عن احد الامرين لا محالة ، فأنه سوف يختار أخف الضررين ..

ومن المسلم به أن المرء عندما يصاب بمصيبة تفرض عليه ان يتخلى اما عن ابن عمه وأما عن أخيه فانه سوف يتخلي عن ابن عمه ، وعندما يكون مضطراً لأن يتخلى عن ابن عمه ، وان يكون مضطراً أيضاً لأن يتخلى عن ابنه أو عن أبيه فسيكون في حيرة من أمره ، فيما اذا لم يكن وفياً باراً ، اما اذا كان شيمته البر فانه سوف لا يتردد من تخليه عن ابنه في سبيل انقاذ حياة والده الذي هو مصدر وجوده .

ولكن الشيء الذي هو موضوع الدهشة والغرابة هو اننا نجد عربياً يدعى (غضبان (١) بن رمال) شاء القدر ان يبتليه بامتحان قاس وذلك انه في احدى

---

١ غضبان من اشهر شجعان قبيلة شمر نجد ورئيس فخذ ارمال من عشيرة سنجارة . توفي عام ١٣٦٨ هـ

الغزوات التي هزم بها قوم ابن رمال سقط ابنه جريحاً وفي الوقت نفسه سقط ايضاً الشيخ عقاب (١) ابن عجل جريحاً وكانت خيل العدو منهما قاب قوسين أو ادنى .. وكان لا بد لغضبان من ان ينجدواحداًمنهماونجدته لاحدهما معناها تضحيته بالثاني ، فان انجد ابنه ، فهذا يعني انه ترك عقاباً فريسة بيد الأعداء وأسر العدو لشخصية كعقاب أو قتله يعتبره العدو نصراً ما بعده نصر ..

كما ان تخليه عن فلذة كبده وتركه لقطعة من قلبه ، يمزق اشلاءه الأعداء ليس من السهل على العاطفة الابوية ان تتحمله ..

كان الظرف حرجاً للغاية .. وكانت اللحظة حاسمة وضيقة ، ولا مجال فيها للتفكير وجواده لا يطيق ان يحمل اكثر من أثنين ، يعني فارسه وواحداً معه فقط .

وكان ابنه ينظر اليه بعين العطف ولا يعتقد انه بحاجة الى ان يستنجد بأبيه فرابطة الابوة كافية أن تستفزه ، وتأمر فؤاده ، وتسيطر على عواطفه ... وكان الجريح الثاني أي الشيخ عقاب يرى ان حياته أصبحت على كف عفريت فاما ان ينخي ويستنجد بشجاعة ونجدة ابن رمال واما ان يقطع ارباً بيد فرسان العدو الذين أقبلوا عليه كالسيل المنهمر ، ولكنه لم يستنجد به بالرغم من انه بأمسّ الحاجة لمن ينجده .

كان عقاب يرى ان طلب النجدة ضعف منه في موقف حرج كهذا الموقف الذي يفرض عليه ان يتصف بكل ما يحتفظ به من رصيد الصبر والجلد ورباطة الجأش ..

---

١ ـ عقاب بن عجل اشهر من نار على علم عند رجال البادية فقد جمع بين الشجاعة وسداد الرأي خاصة في الحروب وهو من رؤساء قبيلة شمرمن نجد ولكنه استوطن العراق وتوفي عام ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ ، انظر القصة التي بعنوان العاقل خصيم نفسه في ص ج من هذا الكتاب .

كان يرى ان وضعه الراهن يغني عن النجدة ولسان حاله ينادي (غضبان) بالحقيقة القائلة : انه اذا انجد عقابا وترك ابنه فان ابنه لا يفقده الا والده ووالدته ولكنه اذا ترك عقابا وانجد ابنه فانه يترك زعيماً تفقده القبيلة بأسرها ..

ظل العاملان المتناقضان يتصارعان في كيان غضبان : الاول عامل العاطفة الأبوية ، والثاني عامل النخوة العربية .. ولم يكن ثمة أي حل وسط بين هذا وذاك ..

ولئن كانت دوافع العامل الأول مؤثرة من الناحية العاطفية ، فان حوافز العامل الثاني قوية وعنيفة من حيث النخوة العربية ، وان تكن نجدته لابنه عملية طبيعية لا حمد فيها ولا ثناء ، فان في نجدته لعقاب وتركه لابنه تضحيه نادرة من نوعها تستحق الخلود الأبدي ..

ولم يسعه الا ان ينقاد لحافز النخوة معرضاً عن حافز العاطفة مقدماً حياة زعيم وبطل كعقاب على حياة فلذة كبده ، معزياً نفسه بكلمته الخالدة التي استشهد بها عندما صمم على تنفيذ نجدته هذه ، ومخاطباً ابنه في تلك اللحظة الضيقة الحاسمة قائلاً :

بأمكاني يا بني ان انجب ابناً خلفاً لك بمبيت ليلة واحدة مع والدتك ... ولكن ليس بالامكان ، ولا من السهولة ان ينجب رجالنا او تنجب نساؤنا رجلاً ذا رأي سديد وشجاعة كعقاب .

وهكذا رأى غضبان ان التضحية بثمرة فؤاده أهون عليه من التضحية بالفارس الزعيم ..(١)

.. وبعد

فبالرغم من ان هذه الحادثة ثابتة ولا شك عندي في صحتها وذلك

---

(١) ترى لو انه ترك عقاباً وانجد ابنه .. أيمكن ان نسجل له هذه المفخرة في صفحات شيم العرب. طبعاً لا ؟

لعدة امور :

منها : ان ابن بطل القصة غضبان قتل في نفس المعـركة المسماة بغزوة (ام غراميل) . ومنها ان عقابا بن عجل جرح فعلاً في تلك المعركة ، والى أن توفاه الله وهو يعرج من اثر ذلك الجرح .

ومنها : ان نجدة غضبان بن رمال في تلك اللحظة لابن عجل مشهورة ولا يختلف فيها اثنان ..

ومنها ان الحادثة قريبة العهد في آخر العقد الرابع من قرننا الهجري الحالي ولكن رغم توفر هذه الادلة بالنسبة لكون الحادثة من أنـــدر النوادر ، فأنني حرصت كثيراً على ان استقصي الاخبار كما هو شأني في تحققي وتثبتي بنقل اية حادثة من (شيم العرب) ..

ولذلك كنت شديد الحرص على ان آخذ الحادثة من مصدرها وهو الشيخ عقاب ابن عجل الذي لم يتوف الا منذ ثلاث سنوات فقط .. ولكن ثمة ظروف لا يسعني شرحها حالت دون ما اريد ..
وبعدما تلاشت تلك الظروف واضمحلت الى غير رجعة بعد ذلك توفي الرجل الى رحمة الله .

وعلى أي شكل فان الحادثة اكيدة وثابتة ولا ريب في صحتها بحكم الرواية المتواترة والادلة الوافرة الآنفة الذكر .

حينما يبكي الشجاع يأمن الخائف

١٧

عندما يقع المرء في محنة ما لا يفكر الا بالوسيلة التي ينجو بها من مأزقه .. وهذا ما وقع مع شخص يدعى (دحيم ابن مهوس) وذلك عندما القته السلطة في مدينة الزبير بغياهب السجن بتهمة تهريب الاسلحة ..

كان دحيم بن مهوس الذي لا يزال على قيد الحياة (١) صاحب قدرة كاملة على صيغة الحديث بأسلوب مؤثر وذلك في الاحوال العادية وبدون كلفة ..

وتأييداً لذلك اذكر على سبيل المثال ان شخصاً ما شاء ان يبعث انــذاراً ايجابيا لشخص آخر فذهب ينقب عمن ينقل انذارههذا بصورة صادقة فلم يجد من يحمل الانذار على الوجه المطلوب سوى ابن مهوس الذي تطوع من عنــده وبلغ المنذر (بفتح الذال) وصية المنذر بطريقة ارعب بها من وجه اليه الانذار حيث جاء بجملة اهتبلها من عنده كمقدمة للانذار كانت اشد تأثــيراً واعظم رعبا على نفسية المهدد من العقاب العملي ...

كانت الجملة التمهيدية التي تطوع بها ابن مهوس كالاتي :

---

١ - دحيم من ساكني مدينة حائل وهو يناهز الثمانين عاماً حالياً

(انني لم اعرف احداً يتلذذ بالانتقام فيما اذا نيل من كرامته كما يتلذذ الانسان بالاتصال الجنسي مع المرأة كفلان) ..

كانت هذه الجملة التمهيدية وحدها جدير بها ان تغني عن أي انذار كان .. وبعد فان غايتي من ذكر هذه الحادثة التي هي خارجة عن صميم البحث الذي نحن بصدد ذكره ليس الا تقديم الدليل على قدرة ابن مهوس على صوغ الكلام المؤثر بصورة طبيعية وبدون اي حافز يضطره الى ذلك .

اذن فما بالك بحديث هذا الرجل عندما يكون وراءه ما يحدوه الى الحديث المثير بل ماذا يكون حديثه حينما يدرك ان لا نجدة له من المأزق الذي وقع فيه الا بانتقائه اشد الجمل تأثيراً على نفسية عربي مفرط بالشجاعة والنخوة كالفارس المشهور (ضارى) ابن طوالة رئيس عشيرة الأسلم من قبيلة شمر .

كان ضارى ابن طوله وقتها غاضبا على حاكمه سعود بن رشيد فنزح عن شمالي الجزيرة وذهب الى العراق وذلك حوالي عام ١٣٣٥ هـ وقد بلغ دحيم بن مهوس ان الشيخ ضارى يقيم وقبيلته في ارض قريبة من الزبير ..

فما وسعه الا ان طلب من احد اصدقائه الذين يزورونه بالسجن ان يبلغوا الشيخ ضارى وصيته التي تقضي بطلبه بأن يزوره في سجنه مدة قصيرة محدودة وكان المعروف عن ضارى سرعة نجدته لمن انتدبه لاي شيء كان . ولذلك لم يتردد فذهب فوراً للسجين ولم يشعر ابن مهوس الا بالشيخ ضارى واقفا على ابواب السجن يسأل عن طلبه .

كان المهوس يعرف الشيخ ضارى معرفة جيدة ولكن ضارياً لا يعرف المهوس ولذلك حاول ان يتجاهله فأطلّ عليه من شباك السجن قائلا : من انت

ايها الفتى الذي تسأل عن ابن مهوس .

ـ عربي (١)

ـ من اي القبائل

ـ شمري ..

ـ من الصائح والا من عبده

ـ من الصائح ..

ـ من أي بطن ..

ـ من الاسلم ..

ـ من اي فخذ ..

ـ من الطواله ..

ـ سألتك الله هل ضارى ابن طواله على قيد الحياة ام في عالم الاموات ..

ـ بل لا زال ماذا تريد منه ؟

(يقول ابن مهوس) عندما وجه اليّ ضاري حرف الاستفهام (ماذا تريد منه ؟) كنت انظر الى عينيه التي هي اشبه ما تكون بعيني النمر قد اغرورقت وكساها الدمع) ...

ـ ناشدتك الله ان تقول للشيخ ضارى يقول لك فلان ترى لو كان والده (برغش) على قيد الحياة بمكانه أيمكن ان يقدم والي الزبير على سجننا ظلماً

---

١ ـ من عادات البدو ان لا يعرف احدهم عن نفسه كما هي العادة المألوفة عند الحضر . لانه يخشى من طالب ثار يلاحقه .

وعدواناً وهو يعرف ان وراءنا ابن عم غيــور شجاع شهم كـوالده برغش ..

وختم المهوس كلمته او قل ندبته بقوله : الا ليت (برغش) حياً والا فليت الأحياء بقبره .

قال المهوس هذه الجملة الأخيرة ثم ختمها ببكاء مصطنع بعـــد ان لطم خديه براحتيه .

فما كان من الشيخ ضاري(١) إلا ان تناثرت دموعه وبكى بكاء الأبطــال الذي هو أشبه ما يكون بزئير الأسد لابكاء الجبناء ولابكاء الماكرين الذي قال عنه بعض الحكماء : (إذا كمل مكر المرء ملك دمعته) .. وإنمــا كان بكاؤه اماناً للسجين الخائف من مصيره المجهول ..

ذهب ضاري من عند السجين وراح الوالي يطلب منه ان يخرج السجــين من سجنه وشاء الوالي ان يسوّف ويماطل ولكنه وجد نفسه امــام فارس فاتك لا يقبل التسويف وليس لديه صبر للماطلة ولذلك أمر باخراج المهوس فوراً .

***

عندما روى لي دحيم بن مهوس هذه الحادثة لم أستغربها قطعيا من شجاع كضاري ذلك الفتى الذي عرف بالشهامة والنخوة والشجاعـــة حتى أصبحت هذه المعاني صفة بارزة من صفاته التي عرف بها وعرفت عنه ..

والحديث عن ضاري ابن طواله بهذه الأمور يطول ويطـــول وعلى سبيل

---

١ ـ ضاري عند البادية يعبر عن صفة السبع المفترس .

الحصر والاختصار أود أن أذكر عنه حادثة وان كانت مختصرة ولكنها تعبر تعبيراً أكيداً عن نفسه الأبية وذلك في إحـدى الحروب التي اشترك بها مع والده . . وفي اللحظة التي وقف فرسان قومه من فرسان العدو وجها لوجه ، في تلك اللحظة أمر والده بأن يقطع له غصنا من الشجرة التي كان فرسان قومه واقفين تحت ظلها ولكن ضاريا عوضا من ان ينزل من صهوة جواده ويقطع غصنا لوالده من الشجرة التي تظللهم بدلا من ان يفعل ذلك هجم على العدو قاصدا أن يقطع غصنا من الاشجار التي تضفي ظلها على العدو لا التي تظل قومه . . ولكن بهجومه هذا هزم فرسان العدو ومن ثم نزل عن جواده وقطع غصنا وناوله لوالده . .

ومما يدعو الى الأسى هو ان هذا الفارس المغوار كان مصرعه على يد راع من رعاة الابل لا من يد فارس من انداده . .

وقد روى لي المرحوم (جعيثن بن سقيان) الذي هو شاهد عيان روى لي الطريقة التي مكنت الراعي من قتله للفارس ضاري رواية أكيدة تعطينا أوضح الأدلة على انه باستطاعة أبسط انسان ان يقتل أشجع الفرسان وأشدهم بأسا فيما إذا كان الأمر على النهج التالي :

يقول الراوي : بينما كان ضاري يسير أمامي بهدوء فوق صهوة جواده في تلك اللحظة سمعت طلقة الرصاص فمددت بصري لكي أتأكد من أين مصدرها فإذا بي أرى رجلا متواريا خلف حجر كبير لا أتمكن من إصابته ثم أرجعت بصري كرة أخرى لأنظر الى رفيقي ضاري فإذا به منكبا على رقبة فرسه وينزل بصورة تدريجية حتى سقط صريعاً على الأرض . .

وهكذا كان مصرع ذلك الفارس المغوار من رصاصة اطلقها رجل متوار تحت حجر يتمكن بأن يصيب من يرميه وهو واثق بأنه لا يستطيع امهر الرماة

ان يصيبه بأدنى أذية ..

وهذا مما جعل الشجاعـــة العربية تفقد طابعها الاساسي خاصة بعد ان برز الى حيز الوجود السلاح الحديث عندئذ بطلت اسطورة الفرسان القدامى الذين كان قتالهم فيما بينهم وجها لوجه .. ولذلك نجـد الشاعر الشامي يقول :

رمي الموازر ما بها نوماس حذفـــة شرود من بعيـــد (١)

١ ـ المعنى ان السلاح الحديث أشبه ما يكون بسهـــم المرء الجبان الذي يطلقه من بندقيته بدون ارادة منه ، بل وقد يكون مختبئاً في حالة اطلاقه لسهمه أو هارباً مدبراً .

الفضل ما شهدت به الأعـــداء

- ١٨ -

من ابرز الصفات التي يمتاز بها البدوي على الحضري هي اعترافـــه لخصمه بالخصال التي يمتاز بها فتجده يشهد لعدوه بماله من فضيلة حتى ولو كانت شهادته هذه فيها هضم لحقه . فإنه لا يبالي بذلك ... بل يقول الحق ولو على نفسه ..

يقول الشيخ خليل(١) بن مهيد : كنا ذات يوم في دمشق في منزل المرحوم(٢) مشل الجرباء . وفي ذلك النادي الحاشد حصل مناظرة كالمعتاد بين نفر من قبيلـة عنزة ونفر من قبيلة شمر وعند ذلك تدخل في الموضوع شيخ طاعن بالسن يدعى (كاكان٣) بن مصيول .

---

١ - : خليل ابن حاكم بن مهيد رئيس قبيلة الفدعان الذي يقول عنه العاصي الجرباء أبيات شمية جاء منها ::

الحـــاكم حاكم الفدعان ولا حاكمنـــا رنين

٢ - مشل من رؤساء قبيلة شمر في جزيرة الفرات .

٣ - كاكان من فرسان قبيـــلة شمر الفرات .

فقال ان الحروب بيننا وبين بني عمنا عنزة سجالا يوم لنا ويوم لهم ولكنني اذكر حادثة وقعت من فارس من فرسان الفدعان يدعى (حزيل العواجي(١)) ومضى الرجل يروي الحادثة الى ان قال تجمع عدد كبير من فرسان قبيلة شمر بقيادة الشيخ عبدالكريم الجربا(٢) وكنت بين اولئك الفرسان وبينا نحن سائرين في طريقنا التقينا بفرسان من قبيلة الفدعان بقيادة الشيخ تركي(٣) ابن مهيد وكانوا أقل منا عددا وعدة فوجدناهم لقمة سائغة يمكن الاستيلاء عليهم بكل سهولة .. كما ان القوم ادركوا مدى ضعفهم امامنا ..

ويسترسل الراوي بحديثه فيقول : وكان لي اخ شقيق يدعى (تركي) (٣) اتهم في قتله الفارس حزيل العواجي فقلت في نفسي لا بد ان يكون حزيل من بين هؤلاء الفرسان فان يكن كما اظن فانني اريد ان اطلب مبارزته لعلي أخذ ثأر اخي من رقبته ..

« ولما كانت التقاليد تقضي بأن الفارس الذي يطلب مبارزة فارس ما يجب ان يكون بمفرده .. فقد خرجت من بين صفوف قومي ممتلياً صهوة جوادي وسرت حتى دنوت من غزاة العدو فقلت : (انني فلان اطلب مبارزة حزيل العواجي قاتل اخي تركي فان يكن بينكم فليتقدم لمنازلتي .. وكان المطلوب موجوداً فأجابه الفارس حزيل نصا كما يلي :

---

١ ـ حزيل من ابرز فرسان قبيلة الفدعان .

٢ ـ عبد الكريم اشتهر بكرمه المتناهي حتى كني بأبي (خوذة) اي انه لا يطلب منه شيء الا ويقول لطالبه (خذه) .

٣ ـ تركي رئيس قبيلة الفدعان . قتله الفارس خلف الاذن من قبيلة الرولة وتولى رئاسة القبيلة من بعده حاكم سالف الذكر .

٤ ـ هو تركي بن مصيول انظر قصته في هذا الفصل بعنوان (الفتى الذي بدل الموقف من استسلام الى انتصار .

(اقسم لك بالله انني لم اشق له جلدا ولم ايتم له ولدا) (١) ثم اردف حزيل قائلا : ولا تظن انني عندما انكر قتـــل اخيك معناه انني اعتذر ايضا عن مبارزتك بل ها انذا جئت ملبياً لطلبك ..

وما ان قال الفارس هذه الجملة حتى انقض على صاحبه كالسهم ..

ومن هنا يصور الراوي موقفه من نده بكل صدق وأمانة ..

فيقول : عندما بدأ الرجل حديثه بقسم أنكر به قتله لأخي ، فـترت همتي وتبدلت نفسيتي من رجل يريد ان يأخذ الثأر من عدوه الى رجل عقد العزيمـة على ان يعود الى رفاقه ولكنني فوجئت بالفـــارس الذي هجم عليّ بدون ان يترك لي مجالا للاجابة على قسمه فلم يكن بمقدوري ان استعيـد شجاعتي الاولى فتصورت هذا الفارس امامي كأنه جبل يريد ان ينقض عليّ فلم يسعني وقتها إلا ان رميته برمحي بـــدون ان يكون لديّ من الفطنـــة والسيطرة على اعصابي مايجعلني اركز رميتي بصورة تمكنني من إصابة هدفي بينما العدو طعنني برمحه (زرقا) فجرحني بدون ان يصيب مني مقتلا .. ومن ثم سقط الرمح منتصباً في ارض رملية فاختطفه بسرعة مذهلة فلم يسعني إلا ان ضربت جـــوادي سوطا وأدبرت نحو قومي مستنجدا بهم وهاربا عنه .. ولكن الفـارس تبعني وفي الوقت نفسه تبعه فرسان قومه فكانت النتيجه ان دخل في قلوبنـا الرعب فولينا هاربين جميعاً بعد ما كنا معتقدين ان الغلبة لنا لا محالة بحكم كثرة عددنا وقلة عدد عدونا .

---

١ - اي انه لم يجرحه ولم يقتله .

٢ - الحادثة لها ما يقارب سبعين عاماً من تاريخنا الحالي ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ولئــن كان فيها ما يدلنا على شجاعة هذا الفارس العربي فإن فيها ما يدلنا على صدق وأمانة العربي الذي يشهد بالحق ولو كان على نفسه ،

العدوّ الشهم خير من الصديق النذل

- ١٩ -

اذا كان الانسان يؤتى به الى هذه الدنيا بغير إرادة منه ، ويؤخذ منها بدون رغبته، ويفرض عليه انتسابه الى والديه وارتباطه باسرته ،وصلته بقبيلته أو وطنه، بل وحتى انتمائه الى انسانيته بدون ان يكون له حرية الاختيار ، اذا كان الامر كذلك فان المرء في حالة طفولته الفكرية سيفرض عليه إيمانه بعقيدة آبائه ، سواء كانت تلك العقيدة على حق او على باطل ، وسوف يتعصب لذويه الأقربين على ما فيهم من خير وشر ، وسيظل ذلك الايمان وذلك التعصب باقياً ما بقيت طفولته الفكرية جامدة متحجرة ، اما اذا ـ نمت مواهب المرء الفكرية وانطلقت من عقالها وحطمت اصفادها ، ومن ثم صادف هذا النمو الفكري استعداد نفسي لقبول الانطلاق . التطور ، فعندئذ سينتقل المرء من افكار طفولته الموروثة عن أمه وابيه ، ومن أنانيته المقصورة على قبيلته ، ان كان قبلياً ومن (فاشستيته) المحدودة على حزبه ، ان كان حزبياً ، الى ميدان الانسانية الشامل . وتلك نظرة آمن بها وعبر عنها الشاعر محي الدين بن العربي بقوله :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي
إذا لم يكن ديني الى دينه داني

أدين بـــدين الحب انى توجهت
ركائبه ، فالحب ديني وايمـــاني

هذا البحث الذي أوردته في هذا المكان قد يقال ان لا علاقة له بصدد القصة التي سنوردها فيما بعد ، قد يقال ذلك ولكن الذي يتدبر هـــذا البحث بوعي وإدراك ، ومن ثم يمعن النظر جيداً بما استهدفه من معان جوهرية في صميم قصتنا هذه فانه بلا شك سيدرك بأن هذا البحث لم يكن مقدمة للقصة فحسب ، بقدر ما هو متصل بصميم قصتنا التي أوافي القارىء بها ، لا ناقلاً لهـــا من أفواه الرواة كغيرها من القصص ، بل كشاهد عيان او بعبارة أصح كطرف ثان في الموضوع .

بداية القصة

كنت أثناء وقوع الحادثة في سن لا يتجاوز التاسعة عشرة . وكانت طفولتي الفكرية لا تزيد عن طفولتي الجسدية ، بل تنقص عنها ، هذا اذا كان قياس النمو الفكري مناطاً بما يناله المرء من العلم وسعة الاطلاع وكثرة التجارب ، فاذا كان الأمر كذلك فان نموي الجسدي وقتها قـــد بلغ حده الأقصى ، بينما كان نموي الفكري لا يزال في مرحلة الطفولة ، ولا عجب فقد خلقت في محيط لا توجد فيه أية مدرسة ابتدائية ، ولا توجد فيه أية مكتبة يباع فيها أي كتاب كان ، ولا يوجد فيه بـــل ولا يحتمل أن يكون فيه أي مصح ، او ادنى علاج من ادوية الطب في عصرنا الحديث .

ومن يعش في محيط قبلي كهذا المحيط فـــانه من بدهيات الأمور ان يكون إيمانه بمجد أسرته مقدماً على ايمانه بقبيلته ، كما يكون ايمانه بسعادة قبيلته مقدماً على ايمانه بخير الانسانية وسعادتها .

وهكذا كان ايماني بهذه النظرية الخرقاء ايماناً قبلياً لا تشوبه شائبة ، وقـــد برزت هذه الظاهرة مني في مناسبة سأترك شرح تفاصيلها وأسبابها كما اترك الزمان

والمكان والظرف الذي حدثت فيه . الى ان يجيء الوقت المناسب الذي أبرز فيه الى حيز الوجود الكتاب الذي اسميته (من الطفولة الى الكهولة) .

اما الآن فانني أقف على ذكر الحادثة باختصار على الوجه الآتي :

كانت الخصومة في بداية الأمر بين شخص يدعى (خلف بن رخيص) وبين (علي الذياب (١)) خصومة جدال لم تصل بعد الى حد الاشتباك والمضاربة ، وقد اعتقدت ان الخطأ صادر من علي الأمر الذي جعلني ألومه على ما أبداه من تصرف خاطيء ، وقد خيّل الى علي ان لومي له لا لأنه مرتكب خطأ ، وانما هو بدافع من التحيز والتعصب لخصمه ، على أساس انني وخلف من مدينة (حائل) المنتسب أهلها الى قبيلة شمر نجد ، بينما هو من قبيلة شمر الفرات ، وهذا ما جعله يترك خصومته لخلف ويتجه نحوي موجهاً اليّ كلمات قاسية ، ولما كنت أعاني وقتها من طيش الفتوة وطفولة التفكير الشيء الذي لا أستطيع ان أعبر عنها الآن ، فقد كان رد الفعل مني متجاوباً مع حداثة سني وضحالة تفكيري ، مما جعلني اهجم عليه بصوره مفاجئة لم يتمكن بها من الدفاع عن نفسه فطرحته ارضاً ، ولحسن الحظ انه كان هناك نفر موجودون اثناء الخصومة فبادروا بحجز احدنا عن الآخر قبل ان أتمادى بحماقتي الطائشة .

العربي لا يترك الثأر مهما طال المدى

وبما انني ادرك جيداً بأن العربي وخاصة البدوي قد يتجاهل او يتناسى انتقامه وثأره ممن أهانه واعتدى على كرامته الى ان تتاح له الفرصة المواتية . ولكنه من المستحيل ان يترك ثأره قطعياً ـ اللهم الا في حالة واحدة ، وهي العفو والتسامح ، وهذا العفو وذلك التسامح لا يتحققان من طالب الثأر بكل

---

١ ـ خلف من مدينة حائل . وعلي الذياب من قبيلة شمر الفرات ومن عشيرة الصبحي .

سهولة أقول : لما كنت أعي وأدرك هذه الحقيقة فقد وجدتني بين امرين : اما ان اذهب الى عدوي منحنيا وأطلب منه العفو والتسامح وطارحاً نفسي بين يديه ، مبدياً معذرتي ، ومعلنا بصورة غير مباشرة خوفي من عقابه ، وهلعي من سطوته ، واما ان استعد لمواجهة جميع الاحتمالات التي يفاجئني بها خصمي .
ولما لم يكن لي بد من اختيار اهون السبيلين ، فقد وجدت ان في السبيل الأول اسلوبا لا أستطيع القيام به كاستطاعتي لقبول السبيل الثاني ، ولذلك فقد اخترت السبيل الأخير وظالت في حالة من الحذر واليقظه لأية مفاجأة تبدو من صاحبي ، كما كنت مستعداً لمواجهة اسوأ الاحتمالات التي أتوقع انه لا يمنعه من اتخاذها نحوي الا سنوح الفرصة ، وفي مناسبة يطول شرحها جمعنا القدر معا هو وأنا وثالثنا شخص من قبيلة الفدعان اسمه الشائع لدينا (كربول) وهو يزعم ان اسمه (احمد المعيوف) وهذا الشخص كثير المشكلات ولا ـ يمنعه مانع من الاشتباك والمصارعة والملاكمة مع أي من كان ، ولكنه كان ذكيا بأسلوبه هذا بصورة تجعله يقوم اولاً بتجربة مع من يريد الاشتباك معه عن طريق المزح، وعلى سبيل المثال يأتي فيجرب المصارعة مع شخص ما، او ما يقال عنها بلغتنا الشعبية بـ (المطارحة) فيتخذ هذا الأسلوب باسم المزح والرياضة، فان قدر له ان يتغلب على صاحبه هذا ويصرعه عن طريق المزح فانه سوف لا يتورع من أن يبتكر أية مناسبة يجهز بها على قرينه بصورة جدية فيشبعه ضرباً، وقد سبق لأحمد المعيوف او هو (كربول) ان قام بتجربة فاشلة نحوي ، مما جعله لا يفكر باشتباك جدي معي ، اما وقد سنحت له الفرصة المواتية التي طرحتني بين يديه هو وغريمي (علي الذياب) فانه والحالة هذه سوف لا يجد ما يمنعه من الفتك بي ما استطاع الى ذلك سبيلا .

نسي ثأره واستجاب لنخوته وشهامته

وفي الحين الذي كنت آخذاً به جميع الاحتياطات لمواجهة ما أتوقع حدوثه

من (علي الذياب) الذي أقبل نحوي بوجه يتطاير منه الشر ، وبـدأ يتحرش بي بكلمات يريد ان يتبعها بلا شك بالتنفيذ العملي . في تلك اللحظة أقبل عليّ ايضاً الأخ (كربول) حاملاً عصا خيزران يهزه في وجهي قائلاً هذه الكلمات لفظـاً ومعنى : (انطح عن نفسك يا لحار أبَا الشّواريِ ضربتك لعلي) (١) .

يقول ما معناه (انني مقدم عليك فان كنت رجلاً فدافع عن نفسك وان غايتي من هذا الاقدام هي أن أثأر لعلي وان انتقم منك بسبب ضربك له) .

وما ان سمعت هذه الجملة من أخينا (كربول) حتى صحت به مجاوبـاً له بالعقلية القبلية نفسها التي أومن بها وقتها قائلاً نصاً كما يلي : وِاشْ النّي دَخّلك بيني وبين ابن عمي علي .. أجَلْ مانتْ عدولنا كلنا ؟) .. ثم انحرفت الى علي وقلت له بعد ما أدرت يدي خلف ظهري وحنيت هامتي أمامه (تعل يا عـلي اضربني لمّا تطيب نفسك مني ، ولا تخلي عدونا يأخذ ثأرك مني) .

وما ان قلت هذه العبارات وأتبعتها بالحركات التي من شأنهـا ان تعبّر عن استسلامي ، حتى رأيت الدموع من عيني (علي) تتناثر على خديـه ، فراح مديراً ظهره عني وهو يمسح دموعه ويبكي بصوت خافت ، اما الأخ (كربول) فقد وقف فترة وجيزة وهو مبهوت من تبدل الموقف ، ثم بعد ذلـك ادار ظهره هو الآخر وذهب متراجعاً الى الخلف ،، ولم أنـدم طبعا على دموع علي ولا على حيرة (كربول) .

وبعد مضي يوم واحد من الوقت علمت (ان كربول) راح يلوم عليا قائلاً

---

٢ ـ المعنى انني قلت لـ (لكربول) ما الذي يجعلك تتدخل بيني وبـين ابن قبيلتي (اقصد علياً وأنت عدو لنا جميعاً على اعتبار ان علياً وان كان من شمر الفرات ولكنه ليس هناك فرق بين شمر الفرات وشمر نجد ولا سيما عند ما تأتي القضية ممن هو خارج عنها ثم اردفت قائلا لعلي : تعال وخذ انت ثأرك مني واضربني حتى ترضى خير من ان يأخذ ثأرك مني عدو لنا جميعاً ،)

له : (لقد استطاع الرجل ان يخدعك بتلك الكلمة التي جعلته يفلت من يدك)
وقد بلغني ان عليـا أجاب (كربول) بقوله : (حتى ولو كان فهد أراد من تلك الكلمة ان يخدعني فأنا لست نادما على عدم أخذي لثـــأري منه بواسطة مؤازرتك لي مثل ندمي فيما لو ناصرتني عليه وضربناه معا ، لأنني في الحقيقة قد لا أملك أعصابي حينما أراك طارحا لفهد وباركا على صدره وضاربا له) .

عندما بلغني هذا الحديث الذي دار بين علي و (كربول) عند ذلك ذهبت الى علي واعتذرت منه ، وطلبت منه التسامح والعفو .

وبعد .. فقد تباينت آراء الاخوان والأصدقاء حول تلك العبـارات التي قلتها في تلك الساعة الحرجة ، فهناك من يقول : انني حينما قلت تلك الكلمات انما هو عن ذكاء وبعد نظر وسرعة بديهة ، لكي أجد لنفسي المخرج الذي انجو به من ذلك المأزق الحرج. وهناك من يقول: انها جاءت عفواً بدون تفكير سابق.

وعندما سمع بالقضية صديقنا القديم الأخ (عبد الكريم الشويش(١)) الذي يقيم الآن في مدينة الكويت ممتهنا الأعمال الحرة والذي يستسيـغ النكتة بذكاء فطري ، عندما بلغته هذه الحادثة مفصلة قال : (انا أعتقد جازما ان الكلمات التي قالها فلان جاءت بريئة من أية خطة مسبقـة او تفكير عميق) .. ثم أردف قائلا : فلو ان (فهد) بعيد التفكير لكان بامكانه عندما أثار حماس علي بكلمته تلك ان يقدم على (كربول) ويشبعه ضربا حتى إذا ضمن لنفسه بأن (كربول) لا يستطيع المقاومة بعد ذلك يعود على علي ويمثل معه الدور نفسه الذي قام به مع (كربول) فيكون وقتئذ قد انتصر على كلا الشخصين اللذين يريدان الفتك به.

قلت : لو فعلت ذلك لأصبحت القضية الى المكر والخداع أقرب منهـا الى الخلق النبيل ، والشيم العربية ، واذن لفقدت الطابع الذي يجعل لهـــا مكانا في حقل كتابنا « من شيم العرب » .

---

١ ـ عبد الكريم من اهالي حائل .

الفارس الذي ذهبت نخوته بحياته

- ٢٠ -

في عام ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م جاءت قبيلة مطير وعلى رأسها فيصل الدويش وطوقت مدينة حائل ، حيث نزلت في قرية يقال لها الجثامية ، تقع شمالا عن حائل مسافة خمسة اميال على حد التقدير . وكانت الغاية من ذلك حصار البلاد اقتصاديا لـكي يسهل احتلالها من قبل المرحوم الملك عبـــد العزيز آل سعود ، كخطوة اولى لتوحيده لشبه الجزيرة .

وكان امير حائل وقتها المرحوم محمد بن طلال ، فتى لم يبلغ العشرين عاما من العمر ، ومن يكون بهذه السن قد لا تنقصه الشجاعة بقدر ما تنقصه الخبره العسكرية . وذلك انه عوضاً عن ان يقف بقومه موقف المدافع بحكم وضعه العسكري ، الذي يستلزم ذلك ، لا لكونه محاصرا من جميع الجهات فحسب . بل ومن اجل ان جنوده المقاتلين وان كانوا شجعانا بواسل ، ومدربـــين على الحروب منذ نعومة اظفارهم ، ولكنهم محدودو العدد ، للغاية بالنسبـــة لقوة عدوه . موحد الجزيرة ، عبد العزيز آل سعود ، الذي بدأت طلائع جنـــوده تزحف محاصرة البلاد بصورة مبدئية على يد المرحوم فيصل الدويش . ليتسنى للمرحـــوم الملك عبد العزيز ان يأتي بقوته الكاملـــة بعدما يمهد له الدويش عمليـــة الحصار .

اجل كان الأولى بأبن طلال . ان يتخذ موقف المدافع بحالة كهذه ، ولكن طيش الفتوة جعله يخرج من بلاده ليتخذ موقف المهاجم ، فخرج فعلا ونزل في قريـــة يقال لها النيصية متاخمة لقرية الجثاميـــة التي فيها الدويش ، وذهب يستعرض جنـــوده امام الدويش متحرشـــا به ، دون ان يهاجمـــه ولكن الدويش الداهية المحنك ضبط أعصابه ، متحصنـــا بقريته . بدون ان يحاول

ان يخرج منها ، فإن هجم عليه فإن بامكانه ان يدافع المهاجين ويردهم وهو من وراء جدران قريته بدون ان يعرض رجاله لمغامرة لا تعود عليهم بخير ، ولكن الامير ابن طلال ، الذي لا زال في عنفوان المراهقة لم يستطع ان يتحمل صبر الدويش الذي هو بعنفوان الكهولة . فذهب ورسم خطته الحربيـــة ، وهي خطة لم يكن فيها حل وسط . فاما ان يسحق الدويش ورجـاله واما ان يحكم بالاعدام على زهرة قومه وكانت الخطـــة تقضي بأن يختار صفوة الفتيان من مواطنيه ، بل صفوة الصفوة من الشباب المتحمسين ، فتكون مهمة هؤلاء هي ان يذهبوا ليلا الى جبل يسمى (حميان) ، فيصعدوا على قمة هذا الجبل ، وعند انبلاج الفجر يهجموا على الدويش وفي حالة هجوم هؤلاء من الوجهة الأمامية للعدو ، يأتي بقية قوم الامير فيهجموا على العدو من الخلف ، فيطوقوه وعلى ضوء هذه الخطـــة التي كما سبق ان قلت لم يكن فيها « حـل وسط » ، ذهب صفوة الفتيـان . وصعدوا الجبل . وعند انبثاق الفجر ، نفذوا عملية الخطة بحذافيرها . فأطلقوا ما في بطون بنادقهم من الرصاص ، وظلوا ينتظرون رفاقهم من خلف العـــدو حتى يباشروا الهجوم من قبلهم لكي يضعوا العدو بين الكماشة — ولكن الذي حصل هو ان القوم الذين كان من المفروض ان يهجموا من الخلف حينما يهجم هؤلاء النخبة من الامام ، هؤلاء تقاعسوا عن تنفيذ الخطـــة والسبب يعود الى عدم تكافؤ القـوة بين الصفوة الذين اختيروا للهجوم المباشر . وبين الذين بقوا ليهجموا فيما بعد ...

فكانت النتيجة ان العدو عندما اشرقت الشمس ووجد ان هـؤلاء الذين هاجموه لم يكن ثمة قوة تناصرهم . عندئذ هجم عليهم وطوقهم بخيله ورجاله . وكانت نسبة رجال العدو تزيـــد على نسبتهم عشرات الأضعاف المضاعفة . وشاهدنا في هذه القصة هو ان هناك فارساً يدعى « مجول العيد بن زويمل » كان ضمن الرجال الذين في قرية النصية . عند الامير ابن طلال . ولكنه عندما

رأى صفوة شباب قومه سوف يذهبون فريسة للعــــدو . عند ذلك أخذته النخوة العربية ، وامتطى جواده ، وتوشح بحسامه وبندقيتــــه ، وهجم على الأعداء . . . يقاتلهم بضراوة . . قتال الفارس المغوار المستميت ، الذي قرر ان يشارك رفاقه مصيرهم المحتوم . .

فظل يقاوم ببندقيته الأعداء الذين كانو كالجراد المنتشر ، فتارة يحمي ميمنة رفاقه ، وطورا يحمي ميسرتهم . .

ولا زال يكر على أعدائـــه ولا يفر حتى خر صريعا . . . رحمه الله . .

●



الفَصلُ الثَالِث

المرواه

تطيب له المروءة ، وهي تـــؤذي
ومن يعشق يـــلذ له الغرام

(ابو الطيب المتنبي)



أحسن الى من أساء اليه

- ٢١ -

شيء طبيعي ان يحسن المرء الى من أحسن اليه وان يكافيء صانعي المعروف بمعروف مماثل أو يزيد عليه ، كل ذلك في عالم المروءة العربية جائز بل يصح ان يقال انه فرض من الفروض التي يعاقب تاركها ويثاب فاعلها ..

ولكن المرء الذي يستحق ان ننظره بعين ملؤها التقدير والاعجاب ، ذلك الرجل الذي يعامل بالاساءة من شخص ما ، ثم بعد ذلك يقع هذا الشخص المسيء بيد من أساء اليه فيخيل لهذا المسيء أن صاحبه سوف يثأر منه بانتقام قاس .. فيكون الأمر بعكس ذلك ..

وهذا ما كان يتوقعه (عبد العزيز ابو جربوع) (١) من صاحبه : (علي بن صقر) ..

كان ذلك في عام ١٣٠٩ هـ عندما باع (أبو جربوع) حاجة ما لعلي بن صقر وبقي من ثمنها شيء ضئيل ، لا يستحق الذكر الا ان ظروف ابن صقر القاسية

---

١ - أبو جربوع وابن صقر كلاهما من أهالي مدينة بريدة .

آنذاك جعلته لا يستطيع ان – يسدّد أبا جربوع بقيـة دينه التافه وذلك لما يعانيه ابن صقر من فراغ اليد ..

وبينا كان ابن صقر يسير في طريقه في وسط الشارع الرئيسي لمدينة بريـدة وهو في أمسّ الحاجة ، وأشد الفاقة ، سمع رجلين يشكو أحدهما لصاحبه ما يعانيه من شدة الفاقة والبؤس ، بصورة تعبر أبلـغ التعابير عما يعانيه ابن صقر بالذات . وكان الشاكي يستنير برأي صاحبه ، فظل ابن صقر يسـير وراءهما بصمت مخففا خطاه ، وكانت أرض مدينة بريـدة الرملية تساعده على ستره لمشيته وقد ظل يسير الهوينا بخطى وئيـدة خفيفة ، مصغيا لشكوى الرجـل الذي يعاني من تعاسة العيش ما هو شبيه بوضعه الراهن ومنتظراً الاجابـة من الرجل المستمع للشكوى بفارغ الصبر ، لكي يأخذ منه هذه الاجـابة سبيلاً يهتدي به لحل مشكلته المادية المماثلة لمشكلة هذا الرجل الشاكي ، وهو في مسيره هذا سمع المشكو اليه ينصح الشاكي بالأبيات التالية :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى
وسـافر ففي الأسفار خمس فوائـد

تفريج همّ ، واكتساب معيشة
وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجـد

فان قيل : في الأسفار ضيق وشدة
وقطع الفيافي واقتحـام الشدائـد

فموت الفتى خير له من مقـامه
بدار هوان ، بين واش وحاسد

كانت هذه الأبيات بمثابة نصيحة لإبن صقر لكي يتغرب ، ويترك البلاد

ولا سيا والاغتراب واقتحام الشدائد بالنسبة لأهل القصيم يعتبر شيئاً طبيعياً ، فهم أصبر أهل الجزيرة على الغربة ، واطولهم باعا بهذا الشأن ، فغيـــاب الفرد منهم عشرة ايام عن أهله وغيابه عشرين سنة سِيّان في نظرهم ، ما دام في سبيل الكدح واكتساب الرزق من طرقه الشرعية ،وأغلب اثريائهم عصاميون اكتسبوا الثروة ونموها بفضل اغترابهم ، ولذلك لا يكون ابن صقر غريباً في بني جنسه فيما اذا نفذ وصية الشاعر واغترب عن اهله في سبيل طلب العلى . .

ولكن مشكلة ابن صقر انه مدين لبعض أهل بـلاده ولا يود ان يذهب الى الغربة ويغامر مغامرة لا يعلم ماذا يكون مصيره فيها حتى يوفي دينه قبل كل شيء ، وبينما كان ابن صقر مضطجعاً على فراشه في احدى ليالي الصيف في أعلى سطح منزله ، طائراً عن عينيه النوم ، غارقاً في همومـه ، حائراً في تفكيره ، في تلك اللحظة التي كان أهل بلاده غارقين في سبـات عميق ، كان صمت الليـل الهادىء يزف الى اذنيه بيتين يشدوهما بأعلى صوته رجل ممتطياً ذلوله خارجا عن أسوار البلاد ، فأصغى الى الشادي ليعرف من هو هذا ؟.. فاذا به صوت صاحبه بالأمس الذي كان يشكو فاقته لرفيقه ، فقفز من فراشه واقفـاً ليتفهم معنى البيتين اللذين كان يرددهما المسافر المتجه نحو الجهة الغربية واللذين كان يكررهما مرة تلو المرة فاذا نصهما كالآتي :

لا خَيرْ في نَاسٍ هَلاكا(١) وذِلا ّنْ
مَا يطرُحونَ أرْقَا ْبهُمْ بَالـمْهَافِ
أمّا تِجي بِعقُودْ حصٍ وَمرْجَانْ
وان عاضبت يَعلّهَـــا للتّـلافِ

١ ـ هلاكى : جمع هالك ، و (هلك) : معدم لا يملك قوت يومه .

الشرح :

يقول الشاعر : الا قبح الله قوماً بلغوا من الفاقة والفقر حد الهلاك ، ومع ذلك يكون لديهم من الجبن والتردد ما لا يجعلهم يقدفون بأنفسهم بالمهالك .. فأما أن يكسبوا ثروة تخولهم ان يعيشوا اثرياء سعداء ، واما ان يموتوا وفي ممات الفقير (الهالك) راحة لا ندم فيها .

عندما سمع ابن صقر هذه المعاني قرر من فوره ان لا يتردد عن السفر وترك أهله وبلاده فنام تلك الليلة نوماً هادئاً مريحاً ، ولم يفق من سباته حتى صلاة حر الشمس ، فنهض وأدّى صلاة الفجر قضاء ، وبعد ان احتسى أكواباً من القهوة كعادته ، ذهب الى النفر الذين في ذمته لهم دين معلناً عزمه على السفر ، ومؤكداً لهؤلاء الدائنين صدق نيته لتسديد ما لهم عليه من دين ، وكاتباً على نفسه سنداً لكل من في ذمته له دين بما في ذلك أبو جربوع الذي لا يستحق دينه الذكر ، وكان لحسن حظ الصقر ان هناك قافلة من أهل بريده ينوون - السفر الى العراق فباع كل ما يملك من أثاث منزله بما في ذلك عدة قهوته وفراش مجلسه كما تباع تركة الميت ، وذهب برفقة الرجال المسافرين الذين قرروا ان يخرجوا مساء من البلاد ، على ان ينتظر بعضهم بعضا في مكان معين قريب من البلاد لكي يتجهوا جميعاً بعدما يتكاملون فذهب ابن صقر قاصداً المكان المعين فوجد بعض رفاقه المسافرين كما وجد أبا جربوع ينتظره حاملاً قناته (١) الثقيلة فتكدر ابن صقر كثيراً عندما رأى أبا جربوع يشع من عينيه الغضب ، ويغطي وجهه العبوس ويحمل أكثر من معنى من معاني الشر والوقاحة ، وما ان أناخ ابن صقر راحلته حتى لصق اليه أبو جربوع وقبل ان يترك له مجالاً للتهديد والوعيد ، ويفضحه أمام رفاق السفر ، قبل ذلك قابله بكل انشراح وصافحه ، بعدما سبقه بالتحية المليئة بالوداد المصطنع فلم يرد عليه أبو جربوع التحية وقبل ان يدع لصاحبه

---

١ ـ القناة عصا في رأسها حديدة أو حجر ،

مجالاً للحديث قبضه من كتفه الأيمن وقال :

ـ لن تسير من هنا خطوة واحـدة قبل ان تسدد ما في ذمتك لي من دين ..
قال أبو جربوع هذه الكلمة وهو يهز عصاه في وجه ابن صقر ..

فهمس ابن صقر باذن الجربوع قائلاً له :

ـ سوف اعطيك حقك الآن كاملا .. وانما الذي أريده منك ان لا تفضحني بين رفاقي ، فنهره أبو جربوع بكلمة وقحة ثم قال :

ـ لو كنت تخجل او تستحي اوتحسب للفضيحة لما اقدمت على أكل حلالي ـ
فهمس الصقر بأذنيه ثانية قائلا بصوت منخفض :

ـ سوف أعطيك عباءتي هذه التي هي بلا شك سوف تأتي لك بثمن يزيـد زيادة كثيرة عما تريده مني فتبدل وجه ابي جربوع لسماعه هذا النبأ من وجهه الأول العبوس الذي يشع بالغضب والشر الى ابتسامة عريضة اتبعها قوله :

ـ هيا أعطني العباءة اسرع ، أحسرها عن ظهرك ..

ـ لا استطيع ان انزعها عن ظهري واناولك اياها بهذه الطريقة ، فهـذه العملية فيها إحراج لي أمام رفـاقي ، ثم مضى وقال : وانما الأستر ان تتظاهر بحركة توحي انك لم تأت إلا من أجل موادعتي ، وبعدما يتم الوداع بيننا تذهب انت من عندي ، واذا مضيت مدبراً مقدار عشر خطوات سوف أناديك قائلا : لقد نسيت ان اترك عباءتي عند اهلي فأود ان تأخذها وتسلمها لاهل بيتي ، وانت بعد ذلك تأخذ العباءة وتتصرف فيها كيفما تشاء مقابل ما في ذمتي لك ..

ـ العشر خطوات كثيرة فأخشى انك تقصـد ان تركب ذلولك وتنهزم في خلال الخطوات التي حددتها لي ..

ـ اذن فلتكن خمس خطوات .

ـ لا مانع ولكن يجب ان تعلم ان هذه (القناة) سوف تنال نصيبها الوافر من رأسك فيا اذا بدا لي ان لديك نية سيئة خلاف ما قلته لي الآن ..

ـ سامحك الله يا أبا جربوع ليس عندي أية سريرة خلاف ما أبديتـه لك ، فاذهب من هنا لكي ننهي الموضوع .

ـ ها أنا ذاهب وسوف أنظر في حقيقة ما تقول ..

ذهب أبو جربوع وهو يخطو خطوات قصيرة وكلما رفع إحدى رجليه أشار من خلفه بإحدى أصابعه لصاحبه بعلامة تشير الى عدد خطاه وعندما رفع اصبعه الرابعة نظر اليه ابن صقر وإذا به ترك الاشاره وقبض على القناه بيمينه مبديا حركة تشير انه يتحفز الى ان يكر من خلفه ، فخشي ان يفضحه بين رفاقـه فأسرع وناداه فكانت كرته أسرع من سماعه للصوت وما ان عاد حتى مثلا الدور التقليدي المتفق عليه .

وعندما أخذ (العباءه) ابو جربوع عاد مسروراً ، يكاد ان يطير عن الأرض من شده غبطته وسروره .

ان بعد العسر يسـرا

ذهب ابن صقر برفقه القافلة صفر اليدين ، لا يملك درهما واحداً من المال..

وعندما وصل بغداد راح وباع راحلته واشترى بثمنها عـدداً قليلا من الغنم يقابل ثمن ذلوله ووجد أناسا ذاهبين بغنم كثيرة العدد الى الشام محتاجـين الى من يرعى غنمهم مقابل اجرة معينة ، فقدم نفسه لهم كأجير وتم الاتفاق بينه وبينهم على جعل معين ، فراح يرعى غنمهم مضيفا اليها شويهاته القليلة وعندما وصل الشام وجد ان قيمة الغنم مرتفعة فباع التجار غنمهم بمكسب طيب بعدما قدموا له أجره كاملا ، كما باع هو الآخر شويهاته بثمن مضاعف عما اشتراها به،

ثم اشترى بضاعة من البضائع الرخيصة الثمن في الشام والغالية في العراق وقفل راجعا فوجد لها سوقا طيبا ..

وهكذا دواليك ولم تمض على ابن صقر مدة حتى بارك الله برزقه ، فكانت الحاجة التي يشتريها بقرش يبيعها بعشرة اضعافها ، فوجد نفسه مضطراً الى ان ينفذ المثل الشعبي القائل : (الديره التي ترزق بها ألصق بها) ..

ووفقاً لهذا المثل الواقعي استوطن الرجل العراق ، وأصبح علماً بارزاً يشار اليه بالبنان فجلب أهله الى مقر أعماله التجارية الجديـــد وأصبح الرجل كعبة للوافدين من كافة ساكني شبه الجزيرة بصورة عامة، ولأهل بلاده بصورة خاصة، وما من أحد يأتي لابن صقر الا ويجد من الاكرام والحفاوة الشيء الكثير .. هذا وقد دار الزمان دورته وجاءت الظروف القـاسية التي اضطرت (أبا جربوع) أن يغترب عن أهله لطلب العيش كما اضطرت سلفه ابن صقر من قبـله الى المصير نفسه مع الفارق الكبير بين شخصية الطرفين وبين التوفيق الذي حالف الأول وعدم التوفيق الذي لقيه ابو جربوع في غربته

وصل أبو جربوع العراق صفر اليدين ، فاقـد الثقة بنفسه ، ومفقودة منه الثقة بين قومه ، لا مال بين يديه ولا أهل يأوى اليهم ، ولا ماضي يشفع له ، ولا حاضر يركن اليه ، ولا مستقبل يؤمله ، غطاؤه السماء وفراشه الأرض .

وبينما ابو جربوع يعاني ما يعانيه من فراغ ذات اليد ووحشة الغربة وسوء المصير ، في تلك اللحظة جاءه رسول من قبل صاحبه ابن صقر يدعوه للحضور لديه ، وبالنظر الى موقفه السابق مع الصقر لم يخطر له ببال ان الصقر عندمـــا ارسل رسولاً يدعوه يقصد ان يواسيه او يكرمه ، وانما خيّل اليه ان قصده من وراء دعوتـــه له ان يشمت به ويذكره بالماضي ، . و . الخ ولذلك رفض الاستجابة ولم يلبّ الدعوة ، ولما عاد الرسول الى الصقر يحمل اليـــه رفض ابي جربوع لطلبه ادرك الرجل كنه الأسباب التي جعلت أبا جربوع يمتنع عن المجيء،

ولذلك وجد ان خير طريقة تجعل أبا جربوع يطمئن الى سلامـــة نيته وحسن قصده هي ان يذهب هو بذاته اليه في (الخان)(١) الذي يقيم فيه ، فـــذهب الرجل بنفسه اليه يسير عن يمينه وعن شماله شركاؤه وموظفوه ، حتى اذا وصل باب الخان ، نادى بأعلى صوته قائلاً :

– أين أخونا أبو جربوع،فخرج هذا ليتأكد من معرفة صاحب هذا الصوت الذي يذكر انه سبق له ان سمع صوته في يوم ما ..

وعندما أقبل على مدخل الباب الخارجي واذا به يلتقي بصاحبه وجهاً لوجه، فأراد ابو جربوع ان يشيح بوجهه عنه، ولكن الصقر لم يدع له مجالاً لذلـك ، حيث اقبل عليه بوجهه الأغر ، وبثغره الباسم ، فحضنه وظل يقبله ، ثم امسك بيده وراح به الى منزله ، وعلى الفور أمر احد رجاله ان يعد له كسوة عربيـة جديدة كاملة من العباءة الى العقال .. وظل يواسيه ويسليه حتى هيــأ له عملا يكسب منه العيش ، وبعد ذلك سلمه كيساً مليئاً من النقود وودعه وهو يردد في سره المعنى الذي أشار اليه معروف الرصافي :

وأحسن الى من قد أساء تكرماً
وان زاد بالاحسان منك تمردا
وحب الذي عاداك ان رمت قتله
فاني رأيت الحب اقتل للعدى

٢ ـ الخان يطلق على المكان الذي ينزله المسافرون ، فيجدون فيه مأوى لهم ولدوابهم ..

الطمع بالمجد لا بالغنيمة

٢٢

يذكر القارىء انني اشرت في اكثر من مناسبـــة الى ان الحوافز التي تدفع البدوي الى الغزو والنهب انما هي حوافز معنوية اكثر مما هي ماديـه .. وقد قدمت أكثر من دليل على صحة ما اشرت اليه في هذا الصدد ..

واذا كانت الادلة في هذا المعنى تتكرر دائما وأبداً فانما ذلك شاهد على صحة وثبوت ما نعنيه في هذا الشأن .

وما هذا الشاهد الذي نقدمه الآن سوى واحد من عشرات او مئات الشواهد المماثلة التي وان ـ اختلفت من حيث اللفـــظ والزمان فانها لا تختلف من حيث المعنى ..

في عام ١٢٩٥ هـ على وجه التقريب، غزا ثلة من قبيلـة عتيبة قبيلة قحطـــان بقيادة الشجاع المشهور المدعو شليويح (١) .

كان القحطانيون قد سبروا غور الغزاة واحاطوا بهم علماً قبـــل أن يصبوا

---

١ ـ شلويح رئيس فخذ يسمى العطوة من عشيرة الروقة من قبيلة عتيبة . وهو بالاضافة الى كونه فارساً ذائع الصيت فانه شاعر ايضاً .

غارتهم ٠. ولذلك كان الامر طبيعياً ان يتغلبوا عليهم ويصبح الغازي مغزواً ، وللبدو في اسلوب المقاومة والحروب الواقعة بينهم طرق متباينة ومحكمة ..

ومن الأمثلة على ذلك انهم عندما يبلغ قبيلة ما الخبر بغزاة كهؤلاء عندئـذ تتخذ القبيلة المغزوة من الاحتياطات المتقنة ما يوهم الغازي ان المغزوين غافلون عنه وذلك ان المغزو اذا كان واثقاً من قلة عدد الغزاة وكثرة عـدد رجاله ، ومؤمناً بأنه سوف يكسب المعركة عندئذ يقوم بعملية يتجاهل بها أمر الغزاة وهي انه اي المغزو يترك ابله بالفلاة كطعم للغازي ، حتى اذا جاء هذا الاخـير وصب جميع قوة فرسانه على الابل وراح كل فـارس بـ (خزيزته) (١) من الغنيمة عند ذلك يكر المغزوون على الغازي الذي يكون الآخرون متفرقـين كما يكونوا قد فقدوا قوة شجاعتهم الاولى وتـكاتفهم في غارتهم على الابل ..

وفي مثل هذه الخطة يكون انتصار المغزو مضموناً اكـثر من انتصار الغازي ...

وهكذا وقع غزاة عتيبة في قلب الشرك الذي نصبه لهم القحطانيون وعندما نهب الغزاة الأبل جاء المغزوون وهجموا عليهم ، وكان من السهـل ان يستردوا منهم الأبل المنهوبة بعدما طوقوهم وفي حالة كهذه لا بد ان يحمى الوطيس بـين الجانبين وتشتد الهيجاء وكان عدد فرسان العتبان اكثر مما يتصوره القحطـانيون وكان وجود شليويح وصوته الجهوري من أهم البواعث التي تشجع الغزاة على عدم الاستسلام وعلى الاستمرار في القتال بعناد واصرار .. ولا غرو والحالة هذه ان تزداد المعركة عنفاً بعدما انكسرت النصال على النصال واسودت الارض وانحجب نور الشمس عن الفضاء من غبار وعجاج حوافر خيـل الغازي والمغزو وتحطمت اسنة الرماح عن رؤوس فرسان كلا الفريقين وطال الكر والفر المتبادل فـلا

ـ الحزيزة هي الناقة التي يختص بكسبها الفارس بمفرده . وجمعها خزايز .

ترى في الميدان الا فرساً تسحب عنانها بدون فارس ، وفارساً ملقى على الارض وفرسه صافنة على جثمانه .. وجريحاً مثخناً بجروحه ينزف منه الدم وتختنق فيه الروح .. كان ذلك بفضل تعادل القوى بين الجانبين ..

لقد ادرك الفرسان القحطانيون ان الغزاة لن يستسلموا للهزيمة ما دام ان فارسهم وقائدهم شليويح يكر وينتخي في مقدمة قومه اذا كروا وفي مؤخرتهم اذا فروا ، فرأوا ان يتضافروا عليه ومتى قتلوه أو طرحوه ارضاً هان عليهم أمر الغزاة .. وقد تعهد اثنان من فرسان قحطان بأن يصرعا الفارس شليويحا وهذان الفارسان هما سالم بن مزيد بن شفلوت وشلوان بن جلغم بن شفلوت اللذان هجما على الفارس شليويح هجوماً موحداً فالاول جاء عن يمينه والثاني عن يساره فطعناه برماحهما فخر صريعاً فاختطف شلوان فرسه كغنيمة دون ان يبدي سالم أدنى معارضة في تلك الساعة لأن الذي كان يهمهما هو مصرع فارسها الذي بقتلهما له انهزم فرسان عتيبة مولين الادبار ..

عاد القحطانيون الى اهلهم منتصرين وان كان انتصارهم هذا قد كلفهم ثمناً غالياً من بعض فرسانهم الذين قتلوا في المعركة المتبادلة ولكنهم استطاعوا ان يعيدوا ابلهم وأكثر من ذلك وفقوا بقتلهم أكبر فارس من فرسان قبيلة اعدائهم الالداء .. وشاهدنا هنا يعود الى الفرس التي اغتنمها الفارس شلوان فقد كانت فرساً اصيلة ومن اطيب الخيل وكان للفارس ان يزهو ويعتز لا من حيث انه غنم هذه الفرس التي تساوي قيمتها وقتها عدداً كثيراً من الأبل فحسب ، بل لأنه بمجرد ما يقال ان فلاناً غنم فرس شليويح فهذا دليل كاف على ذيوع صيته ،وشيوع شهرته بين فرسان قومه الأدنين ، وفرسان اعدائه على حد سواء ..

هذا وقد كان الفارس الثاني ابن عمه المدعو سالم اي شريكه بصرعها للفارس يعتقد انه هو صاحب الحق الشرعي في الفرس وانه ترك الجواد تكرما منه لابن عمه وعن طيبة نفس .. وعندما بلغ شلوان ان ابن عمه يزعم ان الفرس من حقه

وانه لم يتركها الا هبة له عند ذلك ما استطاع ان يقبل ذلك فهو الاخر يعتقد أن الفرس حقٌ من حقوقه فهو البادىء بقتل صاحبها على ما يظن لا ابن عمه ... ولذلك راح ووضع الفرس عند القاضي الذي يتولى الحكم في الموضوع ..

وللبدو احكام في مثل هذه الامور دقيقة للغاية وغالبا ما تكون مصيبة وموضوعية ومقنعة حتى للذي يكون الحكم ضده ..

بقيت الفرس عند الحكم وذهب الخدمان الى التحكيم كل منهم يدلي بحجته وأدلته وبعدما استوعب القاضي حجتها بواسطه الشهود ، وجد ان القرائن والادلة مع شهادة الشهود كلها تفيد ان الحق بجانب سالم لا لان (شلوان) لم يساهم بصرع صاحب الفرس وانما لكون سالم كان هو الاسبق بطعنته للفارس.. ولهذا كانت له الاسبقية في شرعية ملك الفرس . وعندئذ امر القاضي ان تسلم الفرس لسالم فجيء بالفرس اليه ولكنه بعد ما سلمت له راح بها الى ابن عمه شلوان وسلمها له قائلاً :

ـ ان غايتي بدعواي عند القاضي لا من اجل ان تعود اليَّ الفرس وانما كانت مطالبتي من أجل ان اثبت اني الفارس الاول الذي قضى على البطل شليويح الذى ما استطعنا ان نهزم قومه حتى تمكنا من قتله ..

فقبل الفرس شلوان وهو يود ان تكون الفرس ملكا لابن عمه سالم على ان تكون السمعة بقتل الفارس له ، وهذا مما يزيدنا قناعة على ان الغزو والكسب والغنيمة عند العرب مهما ارتفعت قيمتها من الناحية المادية ، فانها ليست الا وسيلة للكسب المعنوي وليس العكس(١) .

---

١ ـ وسيلة للكسب . رويت هذه القصة من حمود العماج أحد حاشية الملك فيصل .

هكذا خلق الزعيم

- ٢٣ -

يقول بعض الحكماء ان (التغافل ثلاثة ارباع العقل) واذا كان من الضروري ان يتغافل الفرد منا فان من الواجب على أي حاكم أو زعيم ان يتغافل ويتجاهل الأمور كأنه لا يدري وان كان يدري لأنه اذا شاء ان يجعل نفسه رقيبا على هفوات قومه ، ومعاقبا لكل من تبدو منه زلة عن عمد او عن جهل او سهو ، فمعنى ذلك انه سوف يخلق لنفسه كل يوم عدواً ، وما من احد كثرت اعداؤه وفتح لنفسه جبهات من الأعداء متعددة الا وتكون نهايته الفشل لا محالة ..

والرجل الكبير في خلقه ، والعظيم في نفسه ، هو الذي تصغر في عينه الأحداث وخاصة هفوات قومه مهما كبرت كما نوه بذلك ابو الطيب المتنبي :

وتكبر في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

وهذا فيصل (١) بن حشر احد زعماء قبيلة قحطان وقصته وقعت على وجه

---

١ - . فيصل بن حشر رئيس آل عاصم من قبيلة قحطان وصاحب القصة هو فيصل بن حشر الاول الذي عاصر الامام فيصل آل سعود في منتصف العقد الثالث عشر الهجري لا فيصل بن حشر الذى عاصر الملك عبد العزيز في اول قرننا هذا .

التقريب حوالي ١٢٧٠ هـ .

ولئن عبرت هذه القصة على ايجازها عن شيء فانما تعبر لنا عن مدى ما يتصف فيه بطلها من بعد النظر وعلو الهمة وتغافله وتجاهله لعثرات قومه .

أصبح فيصل بن حشر ذات يوم ، فوجد أغلى ما لديه من الخيل قد قطعت قوائمها فتكدر طبعاً لهذا العدو الدنيء الذي جعل كيده في هذه البهيمة ، فراح يهدد بالوعيد لمن قام بهذا العمل ، كما أعطى وعداً مقدماً بأنه سوف يهب ناقة من أطيب إبله لمن يدله على من قام بهذا العمل السيء ، وما دام ان القضية فيها شيء مغر فلا بد ان يجد من ضعفاء النفوس من يتطوع بالوشاية على من قام بهذا العمل ، سواء أكان صادقاً بوشايته ام مفترياً كاذباً . والذي يهم الواشي في كل زمان ومكان هو ان يجد من يقدم له ثمناً مقابل نميمته بصرف النظر عن كونه صادقاً او كاذباً .

فجاء هـذا الواشي الى ابن حشر يخبره بأن قاطع رجل فرسه هو فلان بن فلان . .

وما كان من شيمة ابن حشر الا ان وفى للنمام بوعده ، ولكنه لم ينفذ وعيده بالمعتدي ، وكل ما قام به ابن حشر هو ان طلب من الواشي بعدما قدم له الناقة ان لا يخبر احداً بالمعتدي . فسأله الواشي مستغرباً :

– لماذا وعدت ان تهب ناقة لمن يخبرك بالمعتدي ثم تنفذ وعدك بعدما تخبر به وفي الحين ذاته تروح تطلب مني بأن أكتم الخبر بدلاً من أن تطلب مني الشهادة في حالة تنفيذك العقاب بالمعتدي . .

فأجابه ابن حشر وعلامات الجد بادية على محياه قائلاً :

– عندما نذرت ناقة لمن يدلني على المعتدي لم اكن جاداً في الموضوع لا انني اذا عرفته او شئت ان اعاقب شخصاً جاهلاً من رجال قبيلتي فهـذا يعني انه

سوف يقع فيما بعد ما هو شر من ذلك ، اما اذا تجاهلت الأمر وان كنت عالماً وملماً به ومن ثم اكتفيت بتهديدي للفاعل فهذا التهديد والوعيد كافيان ان يدخلا في قلب المجرم الرعب والخوف ، ولن يجرؤ بعدها على الاقدام على أي عمل من هذا النوع .

يوافق فيصل بن حشر في رأيه هذا معروف الرصافي في قوله :

اذا دُفِعَ الشّرُ القبيح بمثله تحصل شر ثالث وتولدا
وأمست دواعي الشر ذات تسلسل مديد، وزاد الشر بالناس سرمدا (١)

---

١ - رويت هذه القصة من حمود العماج القحطاني الذي من حاشية الملك فيصل .

أفضل أن أقتل شريفاً من ن حيا واشيا ..

- ٢٤ -

يرى العربي ان الوشاية من أحط السجايا خلقا ، ولا يتحمل عارها الا الدنيء، وأما شريف النفس فانه اذا ابتلي بين أن يكون واشياً او أن يقتل شريفاً، فضل الاخيرة . وبين يدينا الآن قصة وقعت في ١٣١٠ هـ وهي تثبت صحة ما أشرت اليه بدليل لا يقبل الجدل .

وقع شقاق بين فخذين من قبيلة السهول (١) ويدعى احد هذين الفخذين بآل محيميد والثاني يسمى (الظهران) وكان من نتيجة ذلك الشقاق ان وقع بينهما اصطدام مسلح راح ضحيته بطل من فخذ الظهران يدعى (فيصل المصيريع) وكان مصرع هذا الرجل من الامور التي اثارت الحزازات وأججت نار الفتنة اكثر من ذي قبل خاصة في نفوس رجال الظهران الذين كرسوا نفوسهم لأخذ الثأر من قاتل رجلهم .. ولكن الشيء الذي أشكل عليهم هو انهم لا يعرفون من هو الذي نفذ القتل في رجلهم حتى يقتصوا منه شخصيا .. ومن المعلوم ان معرفة القاتل لا تخفى على أي فرد من افراد آل محيميد، وقد تحسسوا وتجسسوا وبذلوا

١ - السهول من بادية مدينة الرياض

كل ما لديهم من الجهد ليعرفوا القاتل ولكن جهودهم باءت بالفشل ، وبالتـــالي اتخذوا طريقة تقضي بأن يتسللوا ليلاً ليحاولوا اختطاف رئيس فخذ آل محيميد المدعو (حمود بن جلعود) فان ظفروا به ربحوا أحد الأمرين ، إما أن يخبرهم بالقاتل بعد التهديد والتعزير وإما ان يقتلوه فيكونوا أخذوا الثأر من اعدائهم . وهكذا أبرموا أمرهم وتسللوا ليلا نحو بيت رئيس فخذ اعدائهم،وكانت خطتهم ناجحة حيث وجدوا الرجل غارقا في سباته فجاءوا بهوخيروه بين أحد الامرين إما الاعدام فوراً وإما ان يدلهم على القاتل من رجاله . فرفض ان يدلهم على القاتل فظنوا ان اصراره هذا ورفضه من أجل ان يأخذ منهم عهداً ، فأعطوه عهداً بأنهم سوف يعفون عنه بمجرد اخبارهم بالرجل الذي قتل فيصلا .. وكانت آخر كلمة نطق بها البطل هي ان قال :

- انني افضل ان اموت حراً شريفاً على ان اعيش بين عشيرتي واشيـــاً ..

وكان الامر طبيعياً ان يدفع حياته الكريمة ثمناً لشرفه ووقاية لعرضه (١)!

---

١ - ومن بدهيات الامور ان النفس الابية عندما تسمو بصاحبهـــا ، وتبلغ به الذروة القصوى من الاجلال والعظمة والشمم ، فانها سوف تؤدي بصاحبهـــا الى هذا المصير الذي لقيه هذا البطل رحمه الله .

رويت هذه القصة من شخص يدعى حجاب بن حثلان من قبيلة سبيع .

« واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الاجسام »

- ٢٥ -

هذا البيت شامل بمفهومه لمعان كثيرة ولا يقتصر على معنى محدود ، ومن المعلوم ان المتنبي لم يقصد بكبر النفس المعنى المتبادر للعوام – وهو الكبر – فذلك شيء ليس بالمحمود ، بل وممقوت خاصة التعالي والكبرياء على الضعفاء ، وأما الكِبَرْ الذي يقصده المتنبيء فهو السموّ بالنفس عن الدنايا وعلو الهمة وعدم الاستكانه لضيم المعتدين ، والتضحية بالنفس عند تأزم الشدائد وتفاقم المحن ، كما هي الحال مع بطل هذه القصة المدعو (نايف (١) ابن هرماس) . وتاريخ هذه الحادثة عام ١٢٩٣ هـ .

كان ابن هرماس ضمن غزاة من قبيلة شمر التي اصطدمت بغزاة من قبيلة مطير ، وعندما التقى الفريقان وحمي الوطيس كانت الغلبة لغزاة شمر . وتمت

---

١ - نايف من قبيله شمر ومن عشيرة عبده وينتسب الى آل جعفر ،

العملية بأن يأخذ الغالب أسلحة المغلوب ورواحله ... كان ذلك في أول النهار ولكن ما ان جاء آخر النهار حتى جاءت غزاة من قبيلة مطير وتنازلت هي وغزاة شمر الذين كانت لهم الغلبة سابقاً ... وبعد القتال المرير تغلبت غزاة مطير الثانية على غزاة شمر وكانت الغلبة من نوع الطريقة السابقة أي أخذ الأسلحة والرواحل .

وكان من بين غزاة شمر شخص يدعى (عايد ابن عجبه) هذا الرجل (مرفوعة جنايته (١))عند قبيلة مطير ، والذي افاد الغزاة بوجود ابن عجبه بين عزاة شمر هم غزاة مطير السابقون الذين كانوا أسرى عند شمر فهؤلاء سمعوا من ينادي باسم ابن عجبه ولكنهم لم يصلوا الى معرفته ، وكل ما في الامر انهم أفادوا رفاقهم المنتصرين بأنه يوجد بين هؤلاء ابن عجبه ، ومعناه ان الشخص الذي ترغب قبيلة مطير في الاستيلاء عليه بأي ثمن أصبح موجوداً بين هؤلاء الغزاة ... ولكن السبيل الى معرفته ليس بالامر السهل ومن المستحيل العثور عليه . وكانت الطريقة التي فكروا ان يصلوا بها الى معرفة الرجل المطلوب هي ان توسموا بوجوه القوم حتى اذا رأوا ابرزهم شخصية من حيث المظهر ، جاءوا به على اساس انه هو ابن عجبه ... فوقع اختيارهم على نايف بن هرماس ، سالف الذكر ، فجاءوا به ليقتلوه باعتباره انه ابن عجبه ، اللهم الا ان يثبت بالدليل المحسوس على انه ليس الرجل المطلوب ... وأية وسيلة يقدمها ابن هرماس مرفوضة عند غزاة مطير ما لم يدلهم على الشخص بذاته ، ولكن الضحية أصر على عدم الاعتراف للغزاة بكلتا الحالتين ، فلا هو اعترف بأنه رجلهم المطلوب ولا هو الذي دلهم على الشخص .

---

١ ـ للرجل الذي يقال عنه انه مرفوعة جنايته معناه انه لا يشمله العهد ولا يجيره احد ولا تقبل له شفاعة اي انه ارتكب عند هذه القبيلة جرماً كبيراً جعل رجال القبيلة يحقدون عليه ولا يغفرون له زلة ولا يتأخرون عن سفك دمه .

فجاءوا به وشدوا وثاقه وطرحوه ارضاً ووضعوا المدية على حلقه قاصدين ان يعترف والا فانهم سوف يذكونه ، فما زاده ذلك الا تحدياً لهم حيث قال الكلمة التالية التي نقلت معناها عن عدة مصادر موثوقة كما يلي : (عليّ عهد الله لن ادلكم على رفيقي ولكم ان تفعلوا ما شئتم واياكم ان تتصوروا بأنكم اذا هددتموني بالقتل بأني سوف أجبن خوفا من الموت) ثم مضى في كلامه الى ان قال : (تزعمون انكم سوف تعفون عني فيما اذا نفذت رغبتكم وتظنون انكم مننتم عليّ بهذه الحياة الفانية بينما افضل ان تقتلوني الآن وانا ابيض العرض فهذا خير لي من أن أعيش بين قومي بعدما انفذ رغبتكم التي تستهدفون بها قتل صاحبي) ..

كان هذا الحديث من ابن هرماس عبارة عن تحريض لاعدائه الغزاة على مضيهم في قتله ، بل اعتقدوا انه هو ضالتهم المنشودة . ولم يذهبوا من عنده الا وهم يعتقدون انهم قضوا على ضحيتهم .. ولكنه رغم هذا كله شاء الله ان يحيا في الدنيا عمراً طويلاً ، ولم يتوفه الله الا بعدما بلغ سن الهرم بالرغم من ان القتلة لم يدخروا وسعا في القضاء على حياته ، ولم تأخذهم به رأفة ولا رحمة ...

ومن اوضح الادلة على ذلك ما نقله لنا الرواة بأن الرجل كان لا يستطيع ان يشرب الماء الا بعد ان يضع يده على حلقه ، واذا لم يفعل ذلك فان الماء يتسرب من حلقه ، وهذا يعني ان بعض العروق التي يجري منها الماء اصيبت بخلل من أثر الجرح الذي ناله من العدو ... ومما تجدر الاشارة اليه هو ان « عايد بن عجبه » عندما رأى الغزاة طرحوا صاحبه ليقتلوه ، جاء ووقف امام الضحية في تلك الساعة الحرجة وظل يشير الى نفسه باصبعه اشارة يؤخذ من مفهومها انه يقول : انني سامح لك بأن تخبر الاعداء بي . ويؤكد الرواة ايضا ان ابن هرماس بعدما سلم قال لقومه : انني انظر الى رفيقي ابن عجبه عندما اشار الى نفسه اشارة يريدني ان أهدي الاعداء اليه ،

ولكنني في تلك الساعة كنت قد اتخذت القرار النهائي لنفسي وحتى ولو ان ابن عجبه جاء الى الغزاة واكد لهم بأنه هو الرجل المطلوب كنت ناويا ان اكذبه وادّعي بأنني انا ابن عجبه !

---

١ - ولا يسعني حيال امثال هذه التضحية الا ان انشد مع المتنبي :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

والقصة مشهورة .

قيمة الرجل بشخصه لا بماله

- ٢٦ -

كل منا سمع المثل القائل : (عندك درهم تسوى درهماً ، عندك قنطار تسوى قنطاراً ما عندك درهم ما تسوى درهماً) ..

هذا المثل سمعته اكثر من مرة ، وشاهدت اثره المحسوس في حياتي العملية ، وتجاربي الطويلة ، ولكنني لا أستطيع أن أقول أنه مثل واقعي يصح ان نؤمن به كقضية مسلم بها لا تقبل الجدل ، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .. فوجود المال بيد الانسان من اهم العوامل الرئيسية التي يكسب فيها المرء النجاح ، وينال بسببها الاطمئنان او ان شئت فقل عنه انه مرجّح ، ولكنه ليس مقوما .

وإذا شئت ان اعبر عنه بعبارة اصح وأوضح ، قلت ان المال كالسلاح بل هو السلاح بعينه ، والحياة معارك مستمرة وحروب طاحنة ومغامرات مفاجئة ، وامتحانات دائمة فيها كر وفر ، والذي يكسب النصر ويهيمن على المعركة ذلك الرجل الذي يملك السلاح والشجاعة معا .. وكلاهما صنوان مكمل بعضهما للبعض .. وما يقال عن الشجاع إذا ادخل الهيجاء بدون سلاح بأن وجوده كعدمه ، يقال عن الجبان إذا خاض غمار الحرب وهو يملك السلاح بكامل عدته ،

وعتاده ، اللهم الا ان وجود الشجاع في الوغى ولو لم يكن معه سلاح فانه يفيد من الناحية المعنوية من حيث تحميسه وتشجيعه للمقاتلين ، ومن حيث الاخذ برأيه والاقتداء بشجاعته ، اما وجود الجبان في الهيجاء فانه مضر ولو كان يحمل ما يستطيع حمله من سلاح ، وذلك انه : اولا سوف يفر هاربا وربما يلقي سلاحه في الارض فيستفيد منه العدو .. ثانيا : سوف يكون وجوده قدوة سيئة يقتدى بها ضعفاء العزيمة من المقاتلين ، وعندئذ يتسرب الوهن حتى يصل الى افئدة الشجعان ، فتنهار الجبهة ، ويكون ساعتذاك السبب الرئيسي للهزيمة هو وجود هذا الجبان في وسط المعركة ..

هذا المثال الوجيز من الناحية العسكرية يصح ان يكون مقياسا من الناحية الاجتماعية من حيث كون المال بيد من لا يحسن التصرف به لفائدة المجتمع فانه مضر ولا شك(١) .

اذن : والحالة هذه يكون المرحوم فهد الخالد(٢) على جانب كبير من الصواب عندما قال كلمته تلك المشتقة من اسمه الخالد : (قيمة الرجل بشخصه لا بماله) .. وهذه الجملة نقلتها عن المرحوم سويلم الشملان(٣) عن صاحبها ، والذي يجعلنا نضعها في حقل شيم العرب ، لا لكونها حكمة يحسن الاخذ بها في كل زمان ومكان فحسب .. بل لكونها جاءت في مناسبة ذات اهمية فأصبح تأثيرها الواقعي اعظم من تعبيرها اللفظي ..

تلك المناسبة التي جاءت في عام ١٣٣٩ هـ على الشكل الآتي :

---

١ ـ اشرت الى هذه الناحية في مؤلفي « لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب » ص ١٦١ .

٢ ـ فهد الخالد من اهالي عنيزة . ولكنه سكن حائل وظل فيها حتى توفاه الله حوالي عام ١٣٥٠ هـ .

٣ ـ جاء ذكر سويلم في هذ السفر اكثر من مرة .

عندما كانت مدينة حائل محاصرة من قبل المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود، رأى اميرها وقتذاك المرحوم محمد بن طلال بن رشيد ان يتخذ اجراءات وقائية من الناحية الاقتصادية بصورة اضطرته ان يضع ضريبة مالية على اغنياء البلاد لكي يستعين بها على مواصلة الحرب، فيما اذا طال الحصار . . وعلى هـذا الاعتبار شكل الرجل لجنة من خبراء بلاده ليضعوا حسب اجتهادهم على كـل فرد مبلغا منسجما مـع امكانياته المادية بشكل لا يكون فيه ضرر ولا اضرار . .

وعلى هذا الاساس باشرت اللجنة عملها وصنفت أهل البلاد على الدرجات الآتيـة :

درجة اولى وثانية وثالثة .

وما تبقى من اهل البلاد يكونون جنوداً محاربين .. وعلى هذه الفئـات الثلاث تمويلهم وكل فئة من هذه الفئات وضع رجالها في قائمة منفردة . . ووكل على جباية المال نفر معين، وكان صاحب الترجمة موضوعا في القائمـة الاولى وعندما عرضت القائمة عليه ألقى بصره ووجد نفسه مطالبا بدفع مبلغ كثـير من المال .. فوعد الجباة خيراً .. وذهب بنفسه الى الامير وعندما وصل اليه خاطبه قائلاً :

– نحن الآن في حالة حرب ينبغي على كل واحد منا ان يكافـح بنفسه الى آخر نقطة من دمه وان يجود بماله بكل ما يملك، ومضى في حديثه الى ان قال للامير والذي ألفت انتباهكم اليه الآن هو انني فهمت انكم انتخبتم لجنـة مهمتها ان تضع المواطنين في درجات متباينة وقد وردتني قائمه الان مـوضوع اسمي فيها ضمن اسم فلان وفلان .. ولست ادري هل ان اللجنة عندما وضعتني في جانب هؤلاء نظرت الي من حيث وضعي الاقتصادي او انها نظرتنـي من حيث مكانتي الشخصية ..

فقال الأمـير :

ـ بل من حيث وضعك الاقتصادي ..

ـ اذن أنا مظلوم من هذه الناحية ، لأن وضعي المالي لا يسمح لي ان اوضع بجانب هؤلاء ..

فقال أحد الجالسين قاصدا ان يقيم عليه الحجة ..

ـ بل من حيث مكانتك الشخصية ..

فقال جوابا لمخاطبه :

ـ كذلك أجدني مظلوماً ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأنني أستحق ان يوضع عليّ اكثر من ذلك وأستطيع دفع ما يوضع عليّ ولو استدنت لأن الرجل في حالة الشدائد والمحن يقاس بشخصيته لا بماله ..

كلاهما فرسا رهان

- ٢٧ -

مدار بحثنا هذا حول شخصيتين كلاهما فرسا رهان ، بالفضل ، واصطناع المعروف . وهما ياسين الهاشمي (١) ومحمد البسام .

ولئن كان الاول اكثر بروزاً في الميدان السياسي العربي خاصة في القضايا العربية، فان الثاني ذو مكانة مرموقة ومنزلة سامية في محيطه ولا سيما من الناحية التجارية والاجتماعية .

ولما كانت الحروب من عادتها ان ترفع دولاً وتقضي على كيان دول اخرى ، فانها بطبيعة الحال ترفع افراداً يقال لهم اثرياء الحرب وتقضي على اثرياء آخرين.. وكان البسام من الرجال الذين حصدت الحرب العالمية الاولى كل ما بين يديه من الاموال التي لا تحصى ولا تعد . وقضت على ثروته من نقود مجمدة ، واموال يشغلها في ميدان التجارة ، ومواش تذهب من الجزيرة الى مصر وسورية بصفته

---

١ - ياسين الهاشمي أشهر من نار على علم وهو الذي صار رئيس وزراء العراق في فترة ما. واما محمد البسام فهو من أشهر تجار الجزيرة العربية في عصره وهو من اهالي مدينة عنيزة وأكثر اقامته كانت في دمشق

يمتهن تجارة المواشي بعشرات الالوف من الإبل كما يتعاطى مهنة الصرافة ، فكان الرجل بوضعه الراهن آنذاك كبنك من أكبر البنوك العالمية .

ولئن قضت الحرب على كل ما بين يديه من مال حتى انه لم يبق عنده ادنى شيء من تلك الثروة الطائلة فانها ما استطاعت ان تقضي على وقاره وثباته وقوة شخصيته ورباطة جأشه وهدوء اعصابه . وقـــد ظل البسام محتفظاً بشخصيته ومعتزاً بشممه ولم يستكن للدهر ولم يبدُ منه خور ، بل جابه الخطب الجلل الذي فوجيء به مجابهة البطل الواثق بنفسه. ومن أوضح الادلة على ثبات الرجل وقوة بأسه ما نقله لنـا الاستاذ راغب العثماني (١) بقوله : بينما كان محمد البسام جالساً على مائدته التي لا تخلو دائماً من الضيوف يتناول طعـــام الغداء في تلك اللحظة جاءه أحد رجاله فقدم اليه ورقـــة فقرأها ثم طواها وبدأ مستمراً في حديثه الذي كان يتحدث به وظل يواصل قصة تاريخية بدون ان يبدو على محياه أدنى علامة من علامات الكآبة او التشاؤم ، فكأن الورقة التي قدمهـا موظفه ورقة عادية ، وكان الأحرى بالضيوف أن لا يعلم أي واحد منهم بـــا تتضمنه تلك الورقه لولا ان الموظف طاش حلمه وفقد اعصابه وراح يتحدث للناس بوعي او بدون وعي بما تتضمنه الورقة من خبر سيء .

كانت الورقة تتضمن اشعار محمد البسام بأن سبعين ألف جنيه ذهباً صودرت له بصورة نهائية بين حدود سورية والعراق .

وعلينا اولاً ان نقدر قيمة هذا المبلغ في تلك الظروف لندرك انه من القليل جداً ان يوجد تاجر في كثير من البلاد العربية لديه من رأس المال كهذه الثروة..

وبالاضافة الى هذه الكارثة التي فوجيء بها البسام هو ان اكثر ما لديه من

---

١ ـ الاستاذ راغب العثماني اديب وشاعر من اهالي سورية ولا يزال على قيد الحياة في مدينة دمشق .

النقود كانت عملة روسية فصادف ان سقطت تلك العمله ولم يعد لها اي اعتبار في البنوك العالمية ..

كان من شأن هذه الخطوب والمحن التي تتابعت على البسام ان تهد كيـــانه ولكنها في الحقيقة لم تزده الا جلداً وصبراً..وقد ظل الرجل مستهتراً بالأحداث باسم الثغر أغر الوجه ناصع الجبين ، ولم يكن لتلك الاحـداث اي اثر على قوة معنويته الجبارة ..

هذا هو البسام ، اما رفيقه ياسين الهاشمي فانه كما ذكرنا اشهر من ان ينوه عنه ، لا بكفاحه واخلاصه لأمته العربية فحسب ، بل وبما يتصف به من حظ وافر من شيم العرب ..

أنهى لي راوي الحادثة الاستاذ راغب العثماني سالف الذكر ، القصة التالية :

(شاءت دولة الاستعمار الفرنسية التي كانت باسطة نفوذها على سورية وقتذاك ان تشتري لرئيس قبيلة الرولة المغفور له الشيخ نوري الشعلان بيتـاً من أحسن وأكبر البيوت الموجودة في عاصمة الامويين دمشق الفيحاء .

فعمدت لهذه المهمة المرحوم (محمد باشا العضيمي العتيبي النسب الذي لعب دوراً سياسياً خطيراً آنذاك) فنقب العضيمي عن بيت صالح للشيخ ابن شعلان فلم يجد وقتهــا أحسن من بيت ياسين الهاشمي الـكائن في قلب دمشق فابتاعه العضيمي من الهاشمي بألف وخمسمائة جنيه ذهباً فقدمه العصيمي بدوره الى نوري ابن شعلان بأمر من دولة فرنسا التي دفعت الثمن كامــلاً للهاشمي ، وهو البيت الذي كان ينزله المغفور له الشيخ فواز الشعلان حفيد النوري وظل حتى يومنـا هذا ملكاً لاسرة آل شعلان ويطلق على الحي بكامله الآن حي الشعلان ..

والشاهد في قصة البيت ومشتراه يعود للمرحوم ياسين الهاشمي الذي عندما تسلم قيمة بيته كاملة ذهب بها وأودعها عند صديقه الحميم محمد البسام وذلك قبـل

ان تتلف امواله على الطريقة التي أشرنا اليها آنفاً ..

أخذ البسام المبلغ ووضعه ضمن مئات الوف الليرات الذهبية العائدة له . وجاءت الكارثة التي فوجىء بها الرجل والتهمت رأس ماله الخاص وما لديه من الودائع بما فيها ودائع صاحبه الهاشمي .

ترى ماذا فعل الهاشمي مع صاحبه البسام ؟.. لقد فعل الرجل لصاحبه من العمل الذي عبر أطيب التعبير عما يتمتع به الرجل من نبل ومروءة جمة لا تصدر الا من شهم كريم من امثال ياسين الهاشمي.. وذلك انه لم يقف به الحد الى درجة كونه أغضى طرفه عن قضية الأمانة وتناساها بصورة نهائية وربما لولا ان محمد البسام نفسه تحدث عنها للاستاذ راغب العثماني وهذا بدوره نقلها الينا لولا ذلك لما عرف عنها احد قطعياً ..

لا لم تقف مروءة الهاشمي ووفاؤه مع صاحبه البسام الى هذا الحد فحسب بل راح يسعى جاهداً لمؤاساة صديقه بنفسه . ولم يهدأ له بال او يطيب له عيش حتى ذهب به الى وطنه العراق ومنحه جنسية عراقيـــة لكي يصبح له الحق بالنيابة في مجلس (البرلمان العراقي) .

ولما كان البسام محبوباً ومعروفاً بالجميل والفضل لا في مسقط رأسه الجزيرة العربية فقط بل وفي كافة الاقطار العربية ولا سيما في القطرين الشقيقين السوري والعراقي، فقد كان من اليسير عليه ان يربح اصواتاً تخوله ان يكون نائباً في مجلس الامة العراقي . وقد تحقق له ذلك بعدما رشح نفسه بفضل مساعي صديقه الوفي وبفضل ماضيه السابق ..

وظل محمد البسام نائباً في عهد حكومة ياسين الهاشمي حتى توفاه الله .

السفير الذي طغت مروءته العربية على العرف الديبلوماسي

- ٢٨ -

اذا كان الموظف بصورة عامة مقيداً لا يملك حرية التصرف ، فـــان موظف السلك الديبلوماسي بصورة خاصة مقيد ومكبل بالاصفاد ، وتتضاعف نسبة القيود بقدر ما ترتفع نسبة الاحساس فـاذا كان موظف السلك السياسي يرى ان وظيفته هي الغاية وهي الوسيلة معاً ، فمن يكون بهذه الصفة فانه لا يشعر بالقيود مهما ثقلت ولا يحس بالاصفاد مهما ازدادت . اما اذا كان الموظف رقيق الشعور جم الاحساس دافق المروءة فانه لا يرى الوظيفة الا وسيلة لهدف اسمى وسبباً لغاية انبل .

وهذا الاخير غالباً ما يكون معذب الضمير قلق الوجدان ويزداد ضمــيره تعذيباً ووجدانه قلقاً عندما يطلب منه المسؤولون القيام بعمل يخـــالف مبادئه التي يؤمن بصوابها فيكون وقتها بين ثلاثة امور لا محيص له من ان يلتمس واحداً منها : اما ان يفشي السر الذي اؤتمن عليه وهذا يعني انه سجل على نفسه عملية وقحة مهما حاول ان يلتمس لها وسيلة تبرر قيامه بها فانه لا يجد بقاموس اية لغة اسماً قابلاً لأن يسمى به عمليته هذه الا اسماً واحداً وهو اسم الخيانة . وهـــذا

عار لا يطيق احتماله من تكون الامانة طبعا أصيلاً في خلقه ..

واما ان يستقيل من وظيفته وهذا شيء ليس من السهل الاقدام عليه اللهم الا اذا كان لديه مورد رزق مضمون يغنيه عن مورد الوظيفة . واما ان يبقى في وظيفته متحملاً ما يعانيه من تأنيب الضمير وقلق الوجدان ، واذا قدر للموظف الديبلوماسي ان ينجو من أن لا يبتلي بشيء من ذلك فانه قد لا ينجو من الابتلاء ببعض المشاكل الاخرى ..

فمثلاً هب انك تمثل حكومتك في قطر من الاقطار العربية التي يتقيد اهلها بكثير من العادات والتقاليد العربية ، وطبيعة عمل الموظف الدبلوماسي تقضي بأن لا يدخر وسعاً في اكتساب ما يستطيع اكتسابه من الاصدقاء الذين هم من نخبة أهل البلاد وأعيان المجتمع الذي يمثل بلاده فيها ..

فماذا يكون موقف الممثل الدبلوماسي مثلاً عندما تسجن الحكومة مواطناً من خيرة اصدقائه بتهمة سياسية ؟.. فهل يتقيد بما يطالب به من موقف الدبلوماسي المحترف او يقوم بما يفرضه عليه وفاؤه العربي ونخوته مع صديقه في ايام محنته ؟.. فالموقف الاول يقضي منه ان يهجر صاحبه وان يبتعد عنه مهما كانت اواصر الصداقة بينه وبين المتهم راسخة وطيدة .. هكذا ينص العرف الدبلوماسي في حالة كهذه .. واما الموقف الثاني فانه يقضي بان لا يتخلى عن صديقه وان يفي معه ما استطاع وان لا يعير التقاليد السياسية ادنى اهتمام بل يضرب بها عرض الحائط عندما تصطدم مع العادات والشيم العربية ..

وهذا ما فعله الدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في المملكة الليبية حالياً .. وهاك القصة :

كنت في سنة ١٣٨٠ – ١٩٦٠ قائماً باعمال سفارة حكومة وطني في ليبيا

كما كان الدكتور مدحت فتفت سفـــيراً لحكومة وطنه لبنان في المملكة الليبية ..

ومن يعرف الدكتور فتفت لا يتردد عن ان يحكم عليه بأنه رجل خفيف الروح مزدوج الشخصية .. فتجده مثلاً يبتكر النكتة في حالة المزاح ويجيدها الى درجة يوهم من يعرفه – للوهلة الاولى ان موهبته التي برزت بهذه الناحية خلقت منه انساناً لا يجيد اي شيء من الامور كاجادته للنكتة والمداعبة ... بينما تجده في حالة الجد صارماً شديداً بل قاسياً مخيفاً وهو مع ذلك سخي متلاف.. وكانت نظرتي له للوهلـــة الاولى محصورة في مظهره الاول ، ومقصورة على المجاملة والاستماع الى ادبه الواسع ونكته اللاذعة احياناً .. ولما كانت ظروف العمل من شأنها ان تقرب كلا منا الى صاحبه بحكم الاحتكاك والاتصالات المستمرة فقد بدأ يتضح لي بصورة جلية ان ما يبدو لنـــا من مظهر فتفت الخارجي ليس الا ستاراً شكلياً للجانب الثاني الذي هو الجد والحزم والمروءة التي لا حد لها والسخاء الذي يتجاوز الحد المألوف .

وعندما ادركت هذه الحقيقة تبدلت نظرتي اليه من نظرة المجاملة الى نظرة الاحترام ..

ومع مضي الايام وتوالي الأحداث عرفت ان الرجل لم يكن رجل نكتة وجد في آن واحد ، بل ورجل وفاء ونخوة لا تحول دونهمـــا الحدود الدبلوماسية ...

جاء ادراكي لهذه الحقيقة بصورة مفاجئة وفي ظروف استثنائية وذلك عندما اعتقلت الحكومة الليبية شخصاً بتهمة سياسية وكان هذا الشخص صديقاً حميماً للدكتور فتفت وللمؤلف في آن واحد ، وكانت ظروفنـــا كممثلين لحكومتينا تجعل كلاً منا يقف من ذلك الصديق موقف الحـــذر بل والابتعاد

عنه ما استطعنا .. (١)

وكم كنت اشعر بوخز الضمير لعدم مؤاساتي لصديقي في محنته ولكن القيود حالت دون ذلك وفي ذات يوم رن جرس الهاتف في مكتبي فأخذت السماعة فاذا بالمتحدث الدكتور فتفت :

– ما خبرك أبا حاتم ؟..
وكان الجواب صارما ومختصراً :
– اما ان تأتي واما ان آتيك ..

وكنت قد عرفت اسلوبه في الحديث عندما يكون جاداً في موضوع ما فيكون وقتها مختلفا اختلافا كليا عن اسلوبه المعتاد ..

ولذلك لم اتردد في اجابته :

– بل سوف آتيك ..
– متى يكون ذلك ؟.
– كما تريد .
– يمكنك الآن ..
– أجل .

– فذهبت على الفور لمقابلته في دار السفارة اللبنانية . فبادرته بالتحية فرد علي ببرودة لا تخلو من التكلف خلافاً لاجابته المألوفة ..

مرحب – بتفخيم الحروف .

---

١ – الرجل هو السيد عبد القادر العلام الذي كان وزيراً للخارجية الليبية اثناء قيامي بالاعمال

فصمت قليلاً منتظراً ان يبادرني بالحديث كعادته ولكنه لم يفعل فسألته :

ـ ماذا يريد ابو حاتم ؟..

وكان جوابه التقليدي على مثل هذه الجملة :

ـ (رضاك) بتفخيم الحروف ايضاً ..

اما هذه المرة فكان جوابه قاسيا ومختصرا كما يلي :

(اعتقد ان الفرق بين الانسان والحيوان شيء نسبي) ..

قال هذه الجملة بنبرات حادة ثم صمت بدون ان يتابع حديثه وبصورة مناقضة لأسلوبه بالحديث المتواصل الصريح المرح ...

وكنت اعرف ان هناك ابياتا لبعض الشعراء اذا سمعها وهو في حالة الغضب يتحول غضبه الى ابتهاج ورضا ، وان كان صامتا يتبدل صمته الى انطلاق وتفاعل مع الابيات فيرددها بنشوة وطرب فانشدته ابياتا لمحبوبه المتنبي :

تلذ لي المروءة وهي تؤذي
ومن يعشق يلذ له الغرام

فانطلقت اساريره ولكن بصورة محدودة للغاية ..

فانشدته ثانية بيتين من قصيدة المرحوم ايليا ابي ماضي :

هذا الذي اختار الكرى تحت الثرى
كيلا يرى في (جلّق) الاغرابا

واذا نبا العيش الكريم بما جـــد
حر أى الموت الكريم صـــوابا

ثم اتبعت هذين البيتين ببيتـــين آخرين لعمر ابي ريشة كنت اذكر انهما يؤثران عليه تأثيرا فعالاً :

رب (وامعتصماه) ! انطلقت مـــلء أفواه الصبايا اليتم
لامست اسماعهم لكنهـــا لم تلامس نخوة (المعتصم)

فما ان سمع ذلك حتى بدأ يكرر المعاني نفسها التي اشرت اليها من قليل وانما بتعبير آخر جاء فيه قوله .

(واذا تجرد الانسان من النخوة والمروءة والعاطفة فمعناه انه كالحيوان لا هم له الا العيش الهنيء والتناسل ليس الا .. ثم واصل حديثه فقال : لقد قررت ان اذهب الى بنغازي ..

قلت : لماذا ؟..

قال : من اجل ان ازور (فلان) اي صديقنا السجين .. ولكي اضع تحت تصرفه الف جنيه ..

وكنت اشعر قبل ان يبدي لي رأيه بهـــذا الشأن بقلق يقض علي مضجعي لعدم قيامي بواجب الصداقة امام صديقنا السجين ذلك الواجب الذي حـــال دون تنفيذي له القيود السياسية ، اما الان فقد تضاعف قلقي بعدما علمت ان هناك من يشاركني صداقة السجين ، وفي الوقت نفسه لديه من القيود السياسية الشيء المطابق لوضعي عينا بعين .. ومع ذلك يريد ان لا يبالي بهذه القيود وبل يمضي بما تمليه عليه شهامته ونخوته العربية ضاربا بهـــذه القيود عرض الحائط

فلم يسعني وقتذاك الا ان التمس احد السبيلين : اما ان احبذ رأيه هذا ومن ثم اقوم بواجب الصداقة على الطريقة التي قام بها الدكتور فتفت وهذا معناه انني سوف أتعرض لمشكلات لا يشفع لي وضعي باحتمالها ولاسيا لدي من الظروف ما هو مختلف عن وضع الدكتور فتفت اختلافا كليا .. منها ان قيامي باعمال السفارة هي التجربة الاولى من نوعها فلا اريد ان اقوم بعمـــل اثبت فيه جهلي بالاعمال التي تتنافى والعرف الديبلوماسي ، ومنها ان عيون الوشاة نحوي دائما يقظة .. ولاسيا وقد نالني من اسهمهم ما نالني .. والمثل الشعبي يقول :

(من قرصته العقرب يقمز عن الحبل) ..

ومنها ان وزارة الخارجية وقتها لم تكن بيد « فيصل بن عبد العزيز آل سعود» ذلك الرجـل الذي عرفته بعد تجربة طويلة اثبتت لي ان الوشاية المختلقة والامور التافهة لا يعيرها اهتمامه ..

كل هذه الامور تجعلني احجم عن التماس السبيل الاول ..

يبقى عليّ السبيل الثاني وهو انني ابذل ما استطعت من الجهد لكي احول دون قيام الدكتور فتفت بهذا العمل لئلا يسبقني في هذا المضار فـأظل في حسرة مؤلمة ..

فقلت للدكتور فتفت : هل تقصد بزيارتك لصاحبنا نفعه ام ضرره ؟.

فقال : طبعا اريد مؤازرته ونفعه بأيه وسيلة كانت ..

قلت : ان قيامك بعمل كهذا يضره اكثر بكثير مما ينفعه ..

قال : اذاً ماذا نفعل امام صديقنا بمحنته هـذه .. فهل نقف منه موقف المتفرج ..

قلت : ان مصلحته الخاصة تقضي بأن نبتعد عنه خاصة ما دام انه الى الان لم يصدر بشأنه حكم يدينه بأي شيء مما يتهم به ..

قال : اذن نصبر حتى يصدر الحكم بشأنه ..

قلت : وهذا هو الافضل .

ولم اذهب من عنده حتى أيقنت انني أقنعته بعدم تنفيذه للأمر الذي ينوي قيامه به ..

ولحسن الحظ ان صديقنا خرج من السجن بريئاً من التهمة التي سجن من أجلها وبدون محاكمة وكان خروجه بعد تلك الحادثة الجارية بيني وبين الدكتور فتنفت بمدة وجيزة .

ولم يكن سروري وابتهاجي على خروجه من السجن بأقل من سروري على عدم تنفيذ الدكتور فتفت لفكرته التي فعلت المستحيل حتى أرهنت عزيمته عن القيام بها .

ولست أدري كيف غاب عن ذهن الدكتور فتفت المثل العربي القائل : (ثلاثة لا يستشيرهم المرء في أي أمر من أموره : الأول الرجل الذي ينافسك على العمل الذي تريده لنفسك والثاني من يجهل كنه العمل والثالث العدو) .

واعتقد ان الدكتور لا يجهل هذا المثل كما انه لا يجهل انني من النوع الأول والحقيقة انني لا أذكر في حياتي ان أحداً استشارني وأخذ رأيي في موضوع ما الا وأخلصت له النصيحة وأحببت له الخير الذي أحبه لنفسي حتى ولو كان ضد مصلحتي الخاصة اللهم الا هذه المرة .

ولكن الذي يشفع لي في الموضوع امران : الأول انني بعدما خرج صاحبنا من السجن ذهبت اليه في منزله في بنغازي وأخبرته بما تم بيني وبين الدكتور

فتفت بل و أكثر من ذلك صارحته بأنني عندما ابديت رأيي لفتفت كنت وقتها أريد تثبيطه لئلا يسبقني بميدان لا تشفع لي ظروفي بمنافسته فيه .

ثانياً : هو انني أضفت هذه الحادثة في حقل شيم العرب لتشهد للسفير الذي شاءت نخوته العربية ان تطغى على (الروتين السياسي) لولا انني ثبطت عزيمته بحجة منطقية .

تاجر في مهنته أمير في سيرته

- ٢٩ -

السخاء والمروءة طبعان في النفس لا يستطيع صاحبها ان يحيـا بدونها إلا إذا كان يستطيع الحياة بدون الغذاء والماء .

فكما ان الظمآن يتلذذ بشربة الماء فكذلك ذو المروءة يتلذذ ويطرب باغاثة الملهوف او نصرته للمظلوم ، وكما ان الظمآن إذا ازداد به الظمأ زادت لذة المـاء لديه كذلك المروءة ايضاً إذا زاد العناء والنصب والاذى في سبيلهـا تضاعفت لذة ذويها ، وتلك ظاهرة سبق ان نوه عنها ابو الطيب المتنبي بقوله :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

ولا بد ان نؤكد ان هناك من الاعمال والمهن التي يمتهنها المرء كمصدر لرزقه لو جاهه . ما يحتم على صاحب هذه المهنة او تلك ان يكون لديه خلق منسجم مع صفة عمله كل الانسجام ، فمثلا الجندي اذا لم يكن سخيا فانه لا يعاب بقدر ما يعاب اذا لم يكن شجاعاً . والحاكم اذا كان جاهلا بحرفة التجارة لا يعـاب بقدر ما يعاب اذا لم يكن ملما بشؤون مواطنيه وعفيفـا عن المطامع المادية وعادلا في حكمه متواضعاً في سلوكه .. والسجان او الجاسوس او الجلاد كل من

هؤلاء اذا تجرد احدهم عن العاطفة والوجـدان والانسانية لا يـلام كما يـــلام الطبيب او الموظف المسؤول بوزارة الشؤون الاجتماعية اذا لم يكونا رقيقـــي العاطفة عامري الوجدان .. والفلاح اذا كان نشيطا ومجتهداً في حقله لا يلام فيم اذا كان جاهلا بالادب او بليداً بالسياسة او غبياً بعلم التاريخ كما يلام السياسي او المحامي فيم اذا كانا لا يفقهان شيئاً من هذه المعانيّ وأخيراً التاجر اذا امسك ماله ولم ينفق منه درهماً واحداً إلا في حدود الضرورة فانه لا يعاب بقدر مـــا يعاب إذا كان محتالاً ماكراً لا ذمة له ..

ومدار بحثنا هنا يدور حول التاجر المحترف الذي يطلب منه ان يكون أمينا صدوقا وفيا بمعاملته اكثر من ان يكون سخيا بذالا وان كان السخـــاء محبوبا فاعله كما ورد في الحديث الشريف (الكريم حبيب الله وحبيب الناس) . ولكن المشكلة ان السخاء مناف لمهنة التاجر كمنافاة الشره والجشع والظلم لخلق الحاكم وكمنافاة الجبن لمهنة الجندي ، فالتاجر تضطره مهنتـــه ان لا ينفق قرشا حتى يعلم انه سوف يكسب ضعف ما أنفقه اما اذا كان ثمة تاجراً طبعت المروءة في جبلته فانه سوف يعلن افلاسه على طول المدى فان لم يكن ذلك فهذا يعني ان هناك معجزة الهية من السماء حرسته من ذلك المصير المحتوم لكل تاجر ذي مروءة سخي امين .

ونحن هنا بصدد ذكر حادثة مروءة بطلها عربي من ساكني مدينة بريـــدة يدعي سليمان(١) الرميح وقد كان يمتهن حرفة التجارة وغالبا ما يتاجر بالابل وأحيانا بالخيل ، فيشتري بالجملة ويبيع بالجملة وإذا كانت تجارته ابلا فانه سوف يضطر أن يهيء عدداً من الرعاة وبالعكس اذا كانت التجارة خيلا فانه يهيء لها

---

٢ - يوجد حاليا شاب يدعى سليمان الرميح وهو مدير مطار جدة حالياً وهـــو ابن صاحب القصة واسم الابن الاصلي رميح السليمان وانما يدعى الان بسليمان ..

ما يسمونه (سواسا) ومفرده (سايس) وكانت تجارته هذه المرة خيلا قاصداً بها مكة المكرمة على عهد المغفور له الملك حسين بن علي وذلك حوالي عام ١٣٣٦ - ١٩١٧ وقد اصيب سواس خيله بمرض (التيفوئيد) وهم في منتصف الطريق بين مكة والمدينة وكان موسم الحج قريبا فأصبحوا محتاجين الى من ينقذهم من مكانهم الصحراوي الذي لم يكن فيه ما يؤمن لهم راحة الجلوس فضلا عن العلاج والدواء ، ولكن المشكلة تأتي في حملهم ، كيف يكون ذلك ؟ .. فهم بحالة من المرض سيئة لا يمكن اي منهم ركوب الراحلة ؟ والسيارات في ذلك الوقت لم تكن متوفرة بل ولا وجود لها في ارض الحجاز ... ايتركهم سليمان الرميح في الفلاة ؟ . هذا شيء فيه منافاة للخلق العربي الذي يعتبر ثلاثة امور من شأن العربي ان يحتفظ بها ويتفانى فى عدم اهمال واحدة منها وهي حماية المستجير والوفاء بالعهد ، واكرام كل من الضيف والرفيق بالسفر .. وهؤلاء المرضى وان كانوا سواس خيل اي اجراء عند ابن رميح ولكنهم من حيث العادات والتقاليد العربية يعتبرون رفاق سفر ... وابن رميح يدرك جيداً مسؤوليته امام هؤلاء ويشعر بها كعربي يفقه ما توجبه الشيم العربية في مثل هذه الحالة لا كتاجر ينظر الى ما يلحق به من خسارة فيما اذا اقدم على ما قام به من نفقات كلفته مبالغ ضخمة جاءت على النهج الآتي : لقد كان المرضى يقارب عددهم خمسة عشر شخصا وفي رواية انهم عشرون وقد استأجر لكل فرد منهم رجالاً يحملونه على اكتافهم بشكل تابوت او نعش مربع اي كل فرد يحمله ثمانية اشخاص يتناوبون على حمله . . ومضوا حاملين المرضى على أكتافهم حتى اوصلوهم مكة .. ولم يقف ابن رميح عند الحد الذي اوصل به رفاقه الى مدينة مكة محمولين على الأكتاف فحسب .. بل ذهب واستأجر لهم عمالاً آخرين يحملونهم بنفس الطريقة من مكة الى منى فعرفات حتى أكملوا مناسك الحج طوافا وسعيا الخ . . . فكم كلف هذا التاجر المريض الواحد من اجرة العمال مدة عشرة ايام من الصحراء الى مكة ومدة خمسة او ستة ايام من مكة الى ان ادى مناسك الحج ؟ . . كم كلفه ذلك فيما اذا قدرنا ان

عددهم خمسة عشر شخصا وكل شخص مقدر له ثمانية من العمال واجرة العامل الذي سوف يسير على أقــدامه مثقــلا بالحمولة لا تقل عـــن عشرة ريالات وعلى القاريء ان يحسب عدد المبلغ بـكامله الذي دفعــه ابن رميح فى هذا السبيل وعلى القاريء أيضاً أن يـــذكر ما أشرنا اليه في مقدمــة البحث بأن السخاء والمروءة اللذين يصلان بصاحبهما الى مثل هذه الأعمال ، مضران بمصلحة التاجر ، ومتنافيان كل المنافات مع طبيعة عمله ... ولا شك أنه عندما يكون التاجر سخياً ذا مروءة فان سخاءه ومروءتـــه سيكونان على حساب تجارتـه بل على حساب رأس مــــاله الأساسي ، وهكذا كانت النتيجـة التي سيلاقيها سليمان الرميح ، بل الـــتي لاقاها فعلا ، لأن الرجـــل لو لم يكن اصطدم بهذه الحقيقة أي ضيـاع ماله كتاجر بسبب سخائه ومروءته لولا ذلك لأصبح الآن لديه من الأموال النقدية والعقارات الوافرة الشيء الكثير لأنه عريق في امتهان التجارة . وصاحب الترجمة الآن يقضي بقيـة حياته في مدينة جدة وقد زرتـه في عام ١٣٨٣ هـ . هذا في منزل أبنائه فوجدته شيخاً هرماً مقعداً قد فقد بصره ولا يسمع إلا ببطء ولكنــه محتفظ بحواسه كاحتفاظ التاريخ له بما أسداه (من شيم العرب الخالـــدة) ..

ورحم الله المتنبي حينما قال :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتـــال

الفتى الذي لم تغيره المناصب

- ٣٠ -

كنت في دمشق عاصمة الأمويين عام ١٣٦٨هـ الموافق عام ١٩٤٨م وكان عملي كمؤسس لفوج المتطوعين السعوديين المتصل اتصالاً عسكرياً برئيس أركان الجيش السوري المرحوم الزعيم حسني الزعيم يجعلني أتعرف على الكثير من قـــادة الجيش السوري البارزين وخاصة الذين يعملون في الأركان كرئيس المكتب الأول والثاني والثالث الخ .. وكان لي مع بعضهم صداقة ومع البعض الآخر معرفة فقط ..

وكانت معرفتي بذلك الضابط الفتى في بداية الأمر معرفة عابرة ولئن عجزت عن كشف شخصيتـه في اول الأمر فانـنـي لم اعجز عن معرفتي . له على الوجه الأكمل بصورة واضحـــة جلية فيما بعـــد . ولكن معرفتي له السابقة كانت كما أسلفت ضئيلة جداً لا من حيث ما يتمتع به من مكانة اجتماعية بين رفاقه العسكريين ، فحسب بل كنت جاهلاً بمعرفة ما طبعت عليه نفسه

من السجايا الأصيلة من مروءة ووفاء ونبل . الأمر الذي جعلني انظر الى ذلك الفتى نظرة أقل مما يستحقها بكثير ، ولعـــل بشاشته وابتسامته الدائمة التي تتجاوز الحد الوسط جعلتني أظن أن هذه المجاملة مجرد استهلاك محلي عارياً عن الجد والخلق الأصيل .

وفي اول يوم للانقلاب الأول الذي قـام به الزعيم حسني الزعيم في ١٩٤٩ وقف ذلك الفتى خطيباً فوق عتبة الباب الخارجي للبرلمان السوري امام حشد كبير من المواطنين ولا اذكر الآن شيئاً من الجمل التي فاه بها وانما كان خطابـه على وجه العموم معبراً عن واقع الانقلاب وأهدافه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الفتى يوحي بخطابه للمواطنين بأنه الممثل لقائد الانقلاب .. ولما كان الموقع الذي اختاره لخطابه موقعاً حساساً كما ان الظرف الذي ألقى فيه الخطاب اكثر حساسية ..

فقد كان الأمر طبيعيـــا ان تتجة الأنظار نحو الضابط الخطيب الذي كان يحمل (ثلاث نجمات) وأن تترامى نحوه حروف الاستفهام ولا شك ان ذلك اليوم كان أول يوم عرف به الجماهير اسم ذلك الفتى ألمتدفق حيوية .. إما بالنسبة إليّ فقد تبدلت نظرتي اليه لا من تلك الساعة التي ألقى فيها خطابه وانما بمناسبات أخرى جاءت فيما بعد .. ولكن تبدل نظرتي هذه كانت محصورة على ناحية معينة وهي ما يتمتع به من مكانة محترمة بين رفاقه العسكريين .

اما الناحية الجوهرية التي هي الأصل الأساسي في خلود ذكر المرء فقد ظلت خفية عليّ الى مدة تزيد عن خمس سنوات .. ولا عجب فـذيوع الصيت وبروز المرء من السهل معرفة صاحبه خاصة عندما تتاح الصدف المفاجئة التي يبرز بهـا الرجال المغامرون كالانقلابات العسكرية التي برز بها رجال لم يعرفهم من قبـل الا ذووهم الأقربون ، ولكن الشيء الذي ليس من السهل معرفة كنهه هو اسرار النفس الخفية ، وخلق المرء الكامن الذي يصعب علينا معرفته اللهم الا عندمـا ينال المرء منصباً رفيعا فان ذلك يكون ادعى الى معرفة ذلك السر المتواري .

هذا وقد مضى الانقلاب السوري الاول والثاني والثالث دون أن ينال الفتى مكانا يشار اليه بالبنان ، وفي خلال عهد صاحب الانقلاب الثالث العقيد أديب الشيشكلي أدخل الفتى غياهب السجن بتهمة سياسية وخرج من السجن دون ان تلين له قناة ، بل كان أمضى عزيمـة مما كان من قبل ... وظل يترقب الاحداث عاريا من صفته العسكرية التي جرده منها العقيد الشيشكلي ، وما ان جاء الانقلاب الرابع حتى أعيد الفتى الى الجيش لا بترقيته الى رتبة عقيد فحسب ، بل الى منصب معاون رئيس الاركان ... والواقع انه وان كان من حيث الاسم معاونا لرئيس الاركان ولكنه من حيث الواقع العملي كان هو رئيس الاركان الفعلي حيث التف حوله وآمن به جميع الفتيـان المخلصين البواسل من ضباط الجيش السوري وكان رئيس الاركان وقتذاك يتمتع بسلطة رئيس حكومة لا بالنظام البرلماني بل بالنظام الرئاسي .

وكنت أظن أن طيش الفتوة ، وعنفوان الشباب ، وشراسة الجندي ، وغرور السلطة ، وزهو العلم كل هذه المعاني التي تجمعت بالفتى كنت أظن انها سوف تخلق منه انسانا متعاليا ، فظا ، غليظ القلب ، متلبـد العواطف ... ولكن سرعان ما أخلف ظني حينما جاءت المناسبة التي أود ان أشرح ظروفها كما يلي :

سبق أن ذكرت أن ظروف عملي في قيادة الجيش السوري في عام ١٩٤٨ كانت من أهم الأسباب التي هيأت لي الصلة ببعض القادة ، وكان أول ضـابط تعرفت به المرحوم العقيد محمد ناصر قائد سلاح الطيران السوري الذي اغتيل غدراً في آب ١٩٥٠ في أول عهد الشيشكلي وكنت كلمـا دنوت من ناصر ازددت به اعجابا وتقديراً حتى اصبحت الصداقة بيننا متبادلة راسخة ... وعندما قتل بطريقة لم تكن شريفة كان الفقيد يعول اربعة أطفال فيهم ذكر واحد والبقية اناث . والكبير من أبنائه لم يبلغ الثالثة عشرة ، وكان وضع

هؤلاء الايتام وامهم الثكلى يرثى لهم من الناحية المادية .. وقد رأيت ان من واجبات الوفاء لصديقي الشهيد ان أواسي ابنــاءه ما استعطت ... وكنت أشعر ان هناك ضباطاً ومدنيين من أصدقاء الراحل يشاركونني بذلك الواجب وخاصة في الأيام الأولى للمصيبة ، ولكن الذي لاحظته فيما بعد انه كلما امتدت الأيام بعداً عن مصرع والدهم تقلص عدد الزائرين لأطفاله اليتامى ، من اصدقائه السابقين ، ولم أترك ملاحظتي هذه تذهب سدى ، بل ذهبت اسأل حرم الفقيد عن اولئك الأصدقاء هـل ظلوا مستمرين على وفائهم ؟.. أم انهم تقاعسوا بعد ما رأوا ان السبيل طويل ، وان المثابرة على مشقة الوفـاء تحتاج الى جلد وصبر وخلق أصيل ؟.

فأجابتني الثكلى قائلة : كل اولئك النفر انقطعوا اللهم الا ذلك الفتى الوفي العقيد عدنان المالكي ، الذي ظل يواسيني بدون انقطاع ، ويلبي طلبي بكل رحابة صدر ، ويستجيب لندائي في أي وقت كان ، ولقد استغربت ذلـــك فذهبت امتحن صحة قولها فقلت لها : لقد ذكرت ان الفتى يلبي نداءك في أي وقت كان .. فهل يمكن ان أراه غداً في منزلكم ؟.. فقالت : أجل انه اعطاني وعداً أكيداً ان لا يرد لي طلباً يستطيع القيام به وأنه قد أعطاني رقم هاتفــه الخاص لأطلبه هاتفياً في أية لحظة كانت ، وانه سيحضر عندي فيما اذا بدت لي حاجة تستوجب حضوره ، ثم أردفت قائلة : أي وقت تريـد الاجتماع به ؟.. فقلت غداً مساء في الساعة الخامسة .. قالت وهو كذلك .

وما أن جاء الوقت المعين حتى رن جرس الهاتف فأخذت السماعة مستفسراً فاذا بها حرم المرحوم أم نضال تؤكد لي وجود الفتى في منزلها..

فذهبت فوراً فوجدت الفتى في ذلك المنزل المتواضع .

والحقيقة انه كبر في عيني وأعجبت بنبله ومروءته أعجابا الزمني ان أسجل له هذا الخلق الكريم في حقــل شيم العرب الخالدة ، واني لأذكر جيداً تلك الكلمات التي بادرته بها وكان متجاوبا معي في قبولها .

لقد قلت له : (انني سألت هذه الارملة الثكلى عن اصدقاء بعلها الأوفياء الذين ظلوا يتعهدون مواساة أبنائها الايتام ... فأجــابتني بأن ذلك الرصيد الوافر من أصدقائه بدأ يتلاشى حتى نفد نهائياً ، وان رصيدها الذي لم ينفــد ولم يتبدل من جميع اولئك العدد الكثير هــو انت يا عدنان فقط .) ثم استطردت قائلاً : (يقول حكماء الأدب : (اتق السكرات الثلاث : سكرة الشباب ، وسكرة السلطة ، وسكرة العلم) (١) ... وها أنت قد توفرت فيك هذه المغريات الثلاث بكاملها ، وان دل وفاؤك لهؤلاء الأيتام ، وتلبيتك لنداء امهم الثكلى التي انهك قواها الحزن والبؤس حتى طواهــا الهرم الذي حنى ظهرها ، وجعد وجهها ، ان دل ذلك على شيء فانما يدل على ان تلك المغريات الثلاث التي حذر عنها الحكماء لم تخدعك واحــدة منها) . وقد ختمت حديثي مع الفتى الوفي المتواضع بقولي : (لا شك في انك الآن تتمتع بنفوذ لا يضارعك به أحد في ســورية كما انني لا اشك بأن هنــاك من يغبطــك ، بل ويحسدك على منزلتك هذه ، ولكنني شخصياً لا أغبطك على سمو منزلتك هذه لاعتقادي انها عارية لا دوام لها ، ولكن الذي اهنئك به واغبطك عليه هو ما تتمتع به من خلق اصيل، ولهذا الخلق الوفي وحده ومن اجله أود ان أربط معك اخوة عربية صادقة علماً بأنني قد أجد الكثير من ذوي المنــاصب الذين بامكاني ان اكسب صــداقتهم ولكنني قل ان أجد الصــديق الوفي الذي ادخره للنائبات وغوائل الدهر) .

وقد أبدى الفتى رحمه الله موافقته وتأييده لطلبي ... ومن يومها بدأت الأخوة والمودة تزد د رسوخاً بيننا ، وكان الأحرى بها ان تزداد رسوخاً اكثر

١ - كان المرحوم عدنان ركناً مجازاً .

فأكثر لولا ان يد الغدر اغتالت ذلك الفتى النبيل الجريء في ٢٩ شعبان ١٣٧٤هـ الموافق ٢٢ نيسان عام ١٩٥٥ ، وفي الوقت ذاته جبن الغـــادر عن مواجهة الرأي العام العربي بقلب بريء سليم ، وجبين ناصع ، فما وسعه بعد تنفيذه لجريمته الدنيئـة الا ان اغتال نفســه فوراً استجابة لنــداء أبي الطيب المتنبي حينما قال :

كفى بك (عاراً) أن ترى الموت شافيا

وحسب المنـــايا أن يكنْ أمانيا

كان آخر عهدي بالمرحوم محادثة هاتفية تمت بيني وبينه وذلك قبيل مصرعه رحمه الله بيوم وليلة فقط ... وكان الطلب مني وكان الباعث لطلبي إياه أمراً على جانب كبير من التعقيد المزدوج يتلخص بما يلي :

اتهمت الحكومة السورية وقتذاك نفرا من العسكريين المتقاعدين بالقيـــام بمؤامرة ضد الحكم القـــائم ، وزج بالسجن بعضهم ، وهرب البعض الآخر . ومن بين المتهمين المسجونين المقدم المتقاعد بشير الحواصلي ، وبشير هـــذا كان الآمر للفوج السعودي وكنت المعاون له ، وعلى هذا الاعتبار أصبح تربطني به زمالة وصداقة . وقد رأيت ان واجب الصداقة والزمالة ان لا اتخلى عنه في محنته هذه ، فأقل ما يمكن ان افعله معه هو ان أزوره في سجنه ... ولكن المشكلة التي سوف اصطدم بها لا محالة هي انني علمت ان التهمة الموجهة لبشير ذات صلة مختلقة بحكومتي . ومعنى ذلك ان زيارتي للسجين سوف تزيـــد التهمة أكثر مما كانت عليـــه ... مع يقيني الراسخ بأن المتهم لم يكن له بحكومتي اية صلة ، وان العدالة سوف تبرىء ساحته كما وقع ذلك فعلا في النهاية حيث اخلي سبيـله ببراءة شرعية ، ولكن هـذا لا يمنعني من تقديري لمضاعفة التهمة المختلقة على السجين فيما اذا زرته في سجن المزة .. ولقد فكرت

طويلاً بين زيارتي للسجين التي تضره اكثر مما تفيده ، وبين هجرانه والتخلي عن صديقي وهو في اوج محنته ... ولئن كانت الاولى لا تأتي للصديق بخير ، فانني اشعر بأن الثانية مؤلمة لضميري وطاعنة لوفائي ، وبالتالي وجدت نفسي اصارح صاحبي الفتى بالحقيقة المجردة من كل غموض .

فخاطبته هاتفياً بما يلي :

(لا شك بأنك تعلم يا عدنان بأن المقدم المتقاعد بشير الحواصلي كان يوماً من الأيام آمرا للفوج السعودي ، وكنت معاوناً له فـــترة من الوقت فأصبح والحالة هذه بيني وبينه زمالة وصداقة وهو اليوم رهين السجن) ثم استرسلت وقلت (ولست أسأل كيف سجن ؟ .. أو لماذا سجن ؟.. ولكن الذي يهمني هو ما أجد نفسي به من وضع حرج مزدوج بـين واجب الزمالة والصداقة الذي يفرض علي ان لا أتخلى عنه بمحنته هذه ، وبين ظروف السجين ووضعي السياسي الذي يجعل من زيارتي له مضاعفاً لتهمته وتأويلاً مصطنعاً لا مبرر له). وختمت حديثي الهاتفي بقولي وما عليّ الآن الا ان أترك لـك الأمر لتكون حكماً في الموضوع على ان تضع نفسك في محلي ثم تختار لي احدى الحالتين : امـــا اقتحام العقبة السياسية ار التجرد عن التقاليد والشيم العربية .

وما ان انتهيت من حديثي حتى أجابني الفتى الشهم بهذه العبارة حرفيـاً بقوله : (أولاً أحيي فيك هذه الروح العربية) مكرراً هذه الجملة أكثر من مرة ثم أردف قائلاً : (انني عازم الآن على الذهـــاب الى لبنان وسوف أعود غداً وعندها سوف أبلغ الجهات المختصة بأن تسهل لـك الزيارة للسجين والاتصال به في أي وقت تريد بدون تقيد) .

فشكرت الفتى على مروءته منتظراً عودته وواثقاً بصدق وعده .. ولكنه لم يعد الى دار الفناء بل ذهب الى دار الخلود ، وان تمثال عـدنان الرمزي في قلب عاصمة الأمويين لدليل ناصع على خلود ذكره الأبدي .

كنت أروي هذه الأحاديث عن شمائل عدنان على مسمع من بعض اخواننـا السوريين وعندما انهيت حديثي اسمعني أحد المستمعين قصة أخرى عن الفقيد فقال : في تلك الأيام التي كان عدنان المالكي هو صاحب الكلمة الأولى في سورية خاطبه بالهاتف في مكتبه مواطن دمشقي ، يمتهن تجارة الأقمشه يـدعى (نعيم القوادري) يطلب منه تحديد فرصة لمقابلته ، وقد أوضح له التاجر بـأن لديه مظلمة يود ان يرفعها له ، ويزيد الراوي تأكيداً بأن الفتى قال لمحدثه : ما دامت القضية فيها مظلمة فانه ليس من العدل ان يكون تحديد الزمان والمكان من قبلي كما انه ليس من الانصاف ان أتركك حتى تأتي اليّ بـل الواجب يفرض علي كحاكم ان آتي بنفسي لنجدة المواطن المظلوم كي أنصفه من ظالمه . وما كان من أمر الفتى الا ان ترك مكتبه وذهب فورا الى القوادري بائع الأقمشه ليصغي الى شكواه .. ولم يعد من عنـده حتى أيقن المظلوم بان الفتى اهتم للقضية ، وأنصفه .. وفعلاً كانت النتيجة هي انصاف التاجر وإعادة الحق الى نصابه .

وبالرغم من أنني لا استبعد وقوع مثل هذه النجدة من عدنان خاصة بعد ما اختبرته وعرفت ما يتمتع به من مروءة جمة وشيم عربية ، لا حصر لحدودهـا ، بالرغم من ذلك فقد رأيت الا أسجل هذه الحادثه الأخيرة على علاتها حتى اذهب بنفسي للطرف الثاني اي (نعيم القوادري) واستفسر منه مفصلاً وذلك وفقاً لما انتهجته في تسجيلي للأحداث في كتابي (من شيم العرب) الذي لم أصغ في حقله حادثة ما حتى أتحقق من صحتها ثم اقتنع بـأنها حقيقة ولا يخالجني شك في صدق حدوثها .

وفي أول شهر صفر ١٣٨٣ الموافق ١٠ يوليو ١٩٦٣ ذهبت الى سوق الأقمشة في دمشق أسأل عن نعيم القوادري فهـداني المرشدون الى دكانه الكائن في آخر سوق الحميدية ، فوجدت شيخاً ربما كان في العقد السادس من عمره قوي البنيـة ،

وقور المحيا، فبادرته بالتحية فرد عليّ بمثلها ، وقد كنت حائراً في سؤالي له خاصة بعد ما شعرت بأنه سر بزيارتي ، معتقداً انني (زبون) سوف يأخذ منه صفقة تجارية رابحة ، ولكن سرعان ما خاب ظنه بي عندما أدرك من محادثتي له انني من هواة الأدب ، ولا عجب لأن الفرق بـين ميول الأديب واتجاهاته الخيالية وبين ميول التاجر وتصرفاته المادية الواقعية فرق لا يقل في مساحته وبعده من بعد المشرق عن المغرب ، ولذلك لم استغرب أبداً عندمـا قال لي (القوادري) لست فارغاً الآن لأسرد لك الحادثة بتفاصيلها .. قـال ذلك بعدما استفسرت منه عن صحة الحادثة .. ولكن الحقيقة انني بعدما شرحت له قصدي وأوضحت له غايتي من سؤالي هذا ، وبعدما أقنعته بأنني أريد أن أتثبت من صحة الرواية لكي أضعها في سجل شيم العرب عند ذلك أقبل الرجل نحوي مبتسماً وقـال : ان الحادثة من حيث الأصـل ثابتة ولكنني نسيت تفـاصيلها لبعد الوقت الذي أسدل ستاره عليها .. فقلت : أستطيع أن أروي لك الحادثة على الطريقة التي نقلتها من الراوي ، فان كان فيها ما يخالف الحقيقة فأود ان تنبهني فذهبت أسرد ما رويته من الحادثة كما وردت آنفاً من الفها الى يائها ، وكان الشيخ ينصت وكأنه يستعيد ذاكرته من جديد وعندما انتهيت عدت أوجه اليه السؤال التالي:

أحقيقة ما سمعت مني؟.. فأجاب الشيخ بنعم وهو يبتسم .. فقلت اما عاد الى ذاكرتك شيء من تفاصيل الحادثة وعن كنهها ؟.. فصمت قليلاً ثم قـال : الذي أذكره الآن هو ان هناك ضابطاً قد استأجر منزلاً لنـا وقد انتهى العقد المحدد بيني وبين الضابط بعد ان نالني من الأذى بواسطة إسكانه العناء الكثير ، وحاولنا ان نخرجه من المنزل ولكنه رفض الخروج وعندئذ اضطررت ان أرفع الأمر لعدنان ، لينصفني من هذا الضابط الذي يريد ان ينزل في مسكني بدون موافقتي ، معتمداً على نفوذه العسكري .. فما كان من أمر عدنان الا ان أرغمه على اخلاء المنزل حالاً .

ولكي أثبت صحة الحادثة بأدلتها وشواهدهـا قلت للقـوادري أتعرف

اسم الضابط قال نعم اسمه (حسن القصاب) .

وهكذا تكون المناصب عونا لإبراز مواهب الرجال الشرفاء كهذا الفتى ، وشاحذة لمروءتهم ومعبرة عن صفاء نفوسهم ، وسلاحـــا بأيديهم مصلتا على الظالمين ، وحصنا منيعا في حوزتهم لنجدة المظلومين ، كما انهـــا تكون اي المناصب لعنة تاريخية على اللئام الأدنياء الذين يستغلونها لأنفسهم ، ويسيرون كل ما يملكون من طاقة في سبيل مصلحتهم الذاتية حتى ولو كانت مصلحتهم هذه لا تتم الا على حساب ظلم العدد الوافر من المواطنين الأبرياء .

اما هذا الفتى فقد كان من النوع الأول الذي اتخذ من وظيفته قـوة يستعين بها للأخذ بيد المظلوم وسيفا مصلتا على الظالمين ولم يسخر وظيفته لمصلحته الخاصة قط .. وكنت أذكر على سبيل المثال حادثة بسيطة تعبر أصدق التعبير عن نزاهة الفتى وأمانته .

كنت اذكر الحديث النبوي القائل : (تهادوا تحابوا) وكنت اذكر ايضا ان النبي محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويكافيء عليهـــا .. ولذلك انتهزت مناسبة عودتي من اجازة قضيتها في الجزيرة فأعددت هدية رمزية قاصداً ان أقدمها للفتى عملاً بالحديث الشريف سالف الذكر ولكنني قبل ان أقدم على ذلك وجدت من الأنسب ان أخبر صـــديقي لكي لا أحرجه أو يحرجني وبعد سلام السفر أخبرته فابتسم ضاحكا كعادته ثم قال : انا أقبـــل هديتك كصديق على شرط ان تحتفظ بالهدية كأمانة عندك الى أجل غير مسمى .. فقلت ولماذا لا يكون الأجل مسمى .. قال : لأنني مقسم سراً بيني وبين نفسي بأن لا أقبل من أي انسان ، أدنى هدية ما دمت أشغل منصبي هذا .

قلت وقد تضاعف اعجابي به واجلالي له : تكون يمينك هذه محصورة على من يحمل جنسية بلادك الذين قد تضطرهم ظروف خاصة لمراجعتك لقضاء حوائجهم .. فابتسم ثانية وقال : انه لم يستثن أحداً .

فودعته وأنــــا أتمنى ان يقسم كل مسؤول وكل موظف في جميع الدول العربية هذا القسم .

والعجيب في امر هذا الفتى هو ان النبل لم يفــارقه حتى في اللحظة التي كان يلفظ بها نفسه الأخير فيقال : انه عندما أطلق الغادر رصاصته على رأسه وسقط من الكرسى يسبح بدمــــه كان آخر كلمة نطق بها قوله : (سامحك الله) يقصد القاتل .

***

تنافس بالمروءة

- ٣١ -

لئن كانت الحروب القبلية قائمة على قدم وساق منذ العهد الجاهلي في جزيرة العرب ، فانها في أوائل القرن الهجرى الحالي ، واواخر القرن التاسع عشر الميلادي . قد بلغت اوجها بين قبائل شبه الجزيرة . وثمة قبيلتان في جنوب الجزيرة ، كان التنافس بينهما على العلاء مستمراً ، والغزوات المتبادلة قائمة بين هاتين القبيلتين ، على قدم وساق ، والحرب بينهما سجال — وهما قبيلة قحطان وقبيلة عتيبة — وكم وقع بينهما من الغزوات والمعارك ، وكم قال الشعراء من كلتا القبيلتين من القصائد الحماسية البعيدة عن الهجاء المقذع — وبالرغم من أن الغزوات والحروب التي استمرت زماناً طويلاً بين عتيبة وقحطان ؛ وبالرغم من العداوة التي وصلت ذروتها القصوى بينهما رغم ذلك كله ، نجدهما بقدر ما يتنافسان على الصراع والقتال وسلب ابل بعضهما البعض ، نجدهما يتنافسان على المروءة ويتسابقان على التسامح والفضل ، فكل منهما يحاول أن يقدم لصاحبه جميلاً أكثر من الجميل الذي يقدمه له نده ، وذلك عندما تسنح الفرصة التي يلتقي بها الخصمان ، على صعيد واحد :

حتى ولو كان هذا الالتقاء جاء بعد قتال مرير وبصورة أسر فيها أحد الخصمين خصمه ، لا بطريقة سلم ومعاهدات – كما نرى ذلك بصــورة عملية بين كل من الفارس المشهور محمد بن هندي ، رئيس عشيرة برقاء – من قبيلة عتيبة ، وبين الفارس الثاني جعفر بن عبود رئيس عشيرة المسعود من قبيلة قحطان . وكانت القصة على الوجه التالي :

غزا نفر من قبيلة عتيبة متجهين نحو قبيلة قحطان ، وصب الغزاة غارتهم التي اختطفوا فيها إبلاً ضئيلة العدد ، لجعفر بن عبود . فلم يسع جعفر إلا أن امتطى فرسه قاصداً مقارعة الغزاة ، حتى يعود بابله التي اختطفها المعتدون . وبينما هو يحث السير مسرعاً ليلحق بالعدو . واذا به يجد نفسه مطوقــاً من من جميع الجهات ، من فرسان العدو . وعندما وجد مقاومته لهؤلاء القــوم ضرباً من الانتحار ، استسلم للأمر الواقع وأحنى رأسه للقدر ، حتى تم اسر العدو له بدون قيد ولا شرط فهو تحت رحمة اعدائه الآن ، لهم ان يقتلوه ولا عيب عليهم بقتله حسب العادات المألوفة في وقوع العدو بين يدي اعدائه بحالة كهذه ، ولهم ان يعفوا عنه فهذا يعتبر كرماً واحساناً من الغالب المنتصر على عدوه المغلوب .

كانت الغزاة التي اختطفت ابل ابن عبود قليلة العــدد ، وكان ابن عبود بقدر ما لديه من العلم الأكيد بقلة عدد الغزاة واثقاً من نفسه ومعتمداً عــلى بطولته بأنه قادر على مقارعة هؤلاء الغزاة القلة ... وإعادة ابله منهم قهراً كما أخذت منه ، هكذا كانت عقيدته وثقته بنفسه ، كان مؤمناً بأنه سوف يحقق ما ينويه فيما لو كان القوم هم القوم القلة الذين نهبوا ابله ، ولكن الموقف تبدل فجأة عما كان يظنه الرجل ، والسبب في تبدله هــذا هو ان الغزاة الذين اختطفوا ابله القليلي العــدد انضموا الى غزاة كثيري العدد من نفس قبيلة عتيبة وبرئاسة محمد بن هنــدي رئيس عشيرة برقاء التي هي من اكثر وأقوى العشائر في جنوب الجزيرة ، فلم يكن امام ابن عبــود الآن إلا أن

ييأس من ابله التي لا قدرة له على ارجاعها ، خاصة بعدما رأى القوة الاخيرة التي بهره كثرة عدد فرســانها : فليس له الآن إلا ان يحاول النجاة ما استطاع ... هكذا كان قرار ابن عبود النهائي ولكن أنـّى له النجاة ... وهل يستطيع الفرار والنجاة وقد أحاط بــه الغزاة من كل جانب حتى اعتقلوه بدون أن يكون لديه من الوقت ما يمكنه من المقاومة او ان يأخذ لنفسه عهداً يصون به كرامته ويحفظ دمه ؟..

لم يستطع ابن عبود ان يفعل شيئاً من ذلك ، فقد غلب على امره وجيء به أسيراً الى رئيس عتيبة وفارس نجد محمد بن هندي ، ولم يعلم ابن عبــود ماذا يلاقي من ابن هندي ؟ فان قتله فلا يعاب بحكم انه اخذ (شلعـــا لا منعاً) أي قهره الأعداء واستسلم بدون قيـــد ولا شرط ، وان عفا عنه وترك سبيله فهذا تكرم وفضل منه ، والفضل لا يستغرب من شجـاع كريم كابن هندي ، وقد كان ابن هندي الى المروءة أقرب منه إلى العقاب ، والى الكرم أقرب منه الى الطمع ... وذلك انه مـــا ان رأى ابن عبود حتى قفز واقفاً مرحبا به ومعانقا إياه فكأنه ضيف عزيز لا عدو جيء به أسيرا ، كما ان ابن عبود عندما رأى من ابن هندي هذه المقابلة الحسنة بادله بتحيـة مماثلة وبعد ذلك جرى بينهما الحوار الموضح معناه كما يلي :

ابن هندي : انها فرصة ميمونة التي جمعتنا بكم فلو أردناها أمنية لما تحققت ...

ابن عبود : وأنا ايضا شديد الحرص على الاجتماع بكم واتمنى أن اراكم وذلك انني كنت أسمع بذكركم الطيب العـاطر ، ولكن لم تتح لي رؤيتكم إلا في الهيجاء وعلى صهوات الخيل ، وتلك ساعـــة تكون حوافر خيلنا وخيلكم قد حرثت الأرض حتى لا يرى المرء منها الا موقع حافر فرسه ، كما ان دخان بنادقنا وبريق سيوفنا وأسنة رماحنا قد حجبت عنا أشعــة

الشمس ووجه السماء ، ومن بديهيات الأمـور ان لا أتمكن من رؤية وجهك الكريم في تلك الساعات العصيبة ، واستطرد ابن عبود الى ان قال : ولئن كنت أتمنى رؤيتك فانني اود ان أراك إما ضيفـا في منزلي لأقوم بواجبك الذي تفرضه عليّ منزلتك ومقامك الجليل ذلك المقام الذي اعتقد بأنـــني مهما نحرت لك من الابل فلا أراني قمت لك بالضيافـــة التي تتناسب مع منزلتك المحترمة لا كزعيم من أكبر زعماء القبائل فحسب ، بل وكفارس من أفذاذ فرسان العرب قاطبـة ، ثم استدرك ابن عبود بحديثه وقال : أجل اود أن أراك ضيفـا لا أود أن اراك في ارضي غازيـا ، فان لم تكن الأولى فانني كنت أتمنى ان أراك أسيرا بين يـدي كما ساقني القدر اسيرا بين يديك الآن ...

ابن هندي : اذن ما دام ان كلا منا يتمنى ان يرى صاحبـــه ، ما دام الأمر كذلك فقد تمت هذه الأمنية لكلينا ، بصرف النظر عن الظروف التي جمعتنا .

ابن عبود : ان مدار البحث هنا يـــدور حول الظرف الذي جاء بي الى هنـا ، فهو بالنسبة لكم مناسبـة طيبة فيها انتصار وفيها لقـاء أخوي .

ابن هندي : ماذا تعني بالانتصار ؟.. فاذا كنت تقصد بذلك الابل التي اغتنمها رفاقي فانني سوف أعيدها اليك .

ابن عبود : انت يا ابن هندي من اعقل الرجال ، ومن دهاة العرب العارفين بأخلاقهم وشيمهم ، ولكنك سامحك الله تريد ان تتجاهل الحقيقة والا ما هي قيمة الابل او الفرس بجانب مرارة الغلبة بالنسبة إلي فأنا اتمنى بأن فرسي قتلت في المعركة كما اتمنى ان ابلي اصيبت بجرب اودى بحياتها

جميعا ، وان اكون منتصرا واتمنى ايضا أنه لو اتيحت لي الفرصة فقاتلت فيها واصابني ما اصابني من حــدّ سيوفكم ، واسنة رماحكم ، على ان اقع اسيرا بين يديكم ... هذا بالنسبة إليّ ، أما بالنسبة اليكم فانني على يقين من العلم بأن كلا من الفرس والابل التي غنمتم مني ثم تريـــدون ان تهبوني اياها لا اهمية لها عندكم بجانب لذة النصر المعنوي عندما تقاس هذه اللذة بجانب الغنيمة المادية لأن القضية بالنسبة لنا ليست قضية غنيمة ابل او كسب فرس بل هي قضية معنوية .

ابن هندي : يبدو انك مغتـــاظ كثيرا من أسرك ، اكثر من اي شيء آخر .

ابن عبود : اجل .

ابن هندي : ألم يسبق لكم يا بني قحطان ان اسرتم وقتلتم من فرسان عتيبة احدا ..

ابن عبود : كيف لا وفارسنا قنيفذ بن لبده الذي غنم من خيل عتيبة اكثر من عشرين فرسا منها ما غنمها بعدما قتل فرسانها ومنها ما غنمها عن طريق (المنع او الشلع) .

ابن هندي : اذن واحـــدة بواحـــدة ، والزمان يـــدور ، اليوم لنـــا وغدا لكم ..

ابن عبود : صدقت ، وهـــذا المثل خـــير معز لي بالنسبـــة لوضعي الراهن ...

ابن هندي : لعلك الآن رضيت ولم يبقَ في نفسك شيء ..

ابن عبود : نعم رضيت كل الرضا وانما بقي في نفسي حاجة اود ان تتعهد لي بتنفيذها .

ابن هندي : لقد تعهدت لك بتنفيذ كل ما تطلبه مني مسبقا شريطة ان استطيع القيام بتنفيذه .

ابن عبود : انا لا اطالبك بشيء لا يمكن القيام بتنفيذه .

ابن هندي : ما دام الأمر كذلك ، فلك علي عهد لأنني سأنفذ كل ما تريده مني .

ابن عبود : لقد وهبتني يا حضرة الأمير إبلي وفرسي وبقدر مـا اجدني عاجزا عما يقتضيه الواجب بشكرك بقدر ما اكون راضيا عنك ومقدرا لك الجميل فيما اذا قبلت مني الفرس والابل ضيافة مني لكم .

ابن هندي : ولكنني قد وهبتك ذلك مسبقـــا وليس من شيمة الكريم ان يرفض الهبة كما انه ليس من شيمتي ان آخذ ما وهبته ..

ابن عبود : ترى لو قدمت اليك عند اهلك ونزلت ضيفا في دارك الا تنحر لي هذه الإبل التي غنمتها مني او ربما تزيد عليها .

ابن هندي : اجل ان مقامك وقدرك يفرضان عليّ ان افعل ذلك .

ابن عبود : ما دام الأمر كذلك فأنت الآن في ارضي وعنـــد اهلي فما عليك الا ان تختار مني احد الامرين : إما ان تقبل دعوتي وتذهب معي لأقوم بشيء مما يفرضه علـيّ الواجب نحوك ، وإمـا ان تقبل إبلي هـذه كضيافة لك ...

ابن هندي : انني سأترك الخيار لك ، فأيهما ترضاه فانني موافق ...

ابن عبود : افضل ان تقبل دعوتي اولاً ...

ابن هندي : لقد قبلت ذلك شريطة ان تقبل الفرس والابل .

ابن عبود : اما الفرس فقد قبلتها ، واما الابل فانما هي ضيافة لك ...

ابن هندي : ألم نقبل دعوتك على ان تقبل منا الابل ...

ابن عبود : هذه الابل لا علاقة لها بضيافتك في منزلي لأن ضيافة المنزل شيء وضيافتك في الطريق شيء آخر .

ابن هندي : اذن لقد قبلت هذه الابل ضيافة منك إلي في المنزل وفي الطريق ، وأنت ما عليك إلا ان لا تتراجع عن قبولك الفرس .

ابن عبود : كنت اتمنى انك قبلت دعوتي ، اما وقد اعتذرت عن ذلك فاني اقبل الفرس تنفيذاً لرغبتك .

ابن هندي : وها انذا استودعك الله ...

ابن عبود : إذهب في رعاية الله وامانه ...

وعند ذلك تفارق البطلان بعد هذا الحوار والتنافس على فعل الجميل ، فكل منهما يود ان يسبق صاحبه في المروءة ، وهـذا ابن عبود الذي امتطى فرسه جارياً وراء العدو ، مخاطرا بحياته لكي يعود بإبله من الذين اغتصبوها ... هذا الرجل نراه الآن يرفض بكل إصرار قبول إبله ، كمعروف من ابن هندي ، لأنه يريد ان يستردها بالقوة ، وبحد السيف ، كما اخذت منه بالقوة . فهذه هي الشيمة العربية الأصيلة ،

وهذا هو الخلق العربي العريق ، وهذا هو التراث الخلقي الذي سيبقى ما بقيت الدنيا ، وسيرثه احفادنا ، بعون الله ، كما ورثناه نحن من اجدادنا (١) ...

---

١ ـ وبعد فهل للصهاينة وكل من دار بفلكهم ومن اعترف بباطلهم ، سواء من رجال الاستعمار الاقتصادي او رجال الاستعمار الفكري ... اقول هل لهؤلاء واولئك ولاسرائيل ان يفقهوا جميعاً ان كل محاولة تبذل في سبيل احلال السلم بين العرب والصهاينة فانما هي محاولة عقيمة فاشلة حتى ولو قبل اليهود مشروع التقسيم فانه لا يمكن ولا بوجه من الوجوه ان يقبل الخلق العربي أن يأتي مشردو البشر ويغزوننا في عقر دارنا ويغتصبوا ارضنا وييتموا اطفالنا ويرملوا نساءنا ومن ثم يحاولون عبثاً التفاهم مع العرب على حساب كرامتهم بعد ما اختلسوا منا حصة الاسد وابتلعوها غنيمة باردة ... يا لها من سخرية ؟..

الكبير لا يقصد إلا في الأمر الكبير

- ٣٢ -

قرأت في كتب الادب العربي قصة وجيزة كان مضمونها ما يلي :

جاء اعرابي يستنجد برجل من رجال العرب،ذوي المروءة ، فقال المستنجد: لقد جئتك لأمر صغير ليس ذا اهمية . قال ذلك قاصداً أن لا يتردد الرجل الذي يستنجد به من قبول نجدته ، فيما اذا أدرك أن الأمر صغير لا أهمية له. ولكن صاحب النجدة جعلت ثقته بنفسه يرى أن في هذه الكلمة اهانة له وجرحاً لكبريائه ، ولذلك اجاب المستنجد على كلمته هذه بقوله :

انني رجل كبير والكبير لا يستنجد به الا في الأمر الكبير . وما عليك في حاجتك الصغيرة الا أن تذهب بها الى رجل صغير .

هذه الحادثة كما اشرت آنفاً قرأتها في كتب الادب العربية — وعلى اي شكل فان التاريخ العربي والاحداث العربية كثيراً ما تتشابه باسلوبها ووقائعها ومعانيها حتى تكاد تكون الحادثة التي وقعت اليوم قد وقع ما هو مماثل لها في تاريخ الادب العربي القديم .

فهناك رجل من بادية شبه الجزيرة لا استحضر اسمه الآن . وانما عرفت عنه

كلمة مشهورة ، وهو انه جاءه رجل ، فقال (اني مستجير بحماك ، فقال المجير : عن ماذا استجرت . فقال : عن رجل يريد ان يعتدي عليّ . فأجابه قائلاً : أنا أكبر من ان اجير المعتدى عليه فاذهب الى غيري .وستجد كثيراً من الرجال الذين يجيرونك اما انا فانني لا اجير الا المعتدي لا المعتدى عليه) .

هذا طبعاً خلق العربي الجاهلي ، ولكن الاسلام جاء وهذّب اخلاق العرب وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (لعن الله من آوى محدثاً) . ومهما يكن الامر فان الاحداث كما ذكرت سابقاً تعيد بعضها بعضاً في كثير من المناسبات .

والمناسبة الحديثة التي نحن بصدد ذكرها هي كما يلي :

في عام ١٣٧٣هـ -١٩٥٣ م. كنت فيالقاهرة وكان أيامها الملكالسابق سعود موجوداً هنـاك . فجاءني صديق عزيز لا زال على قيـد الحياة . ولكنني لا استطيع ان اذكر اسمه لانني لم استأذنه وأخشى انه لا يرغب ان ينوه باسمه .

المقصود ان صاحبي هذا اكد لي بأنه كان قد جلب مسدسات وذخيرتها من اوربا ، بكمية ضئيلة لا تتجـاوز حمولة حقيبتين صغيرتين ، حسب ما يستطيعه من رصيده المالي الذي وضعه كله ثمناً لهذه المسدسات عندما كانت هذه تبـاع في المملكة العربية السعودية ، بصورة علنية لا محذور فيها ، وكان من يأتي بها الى المملكة يجد ربحاً مغريا من ورائها ، ولذلك جاء بها صاحبنا من اوربا عن طريق القاهرة قاصداً أن يبعثها للمملكة. ولكن الذيحصل هو ان الحكومة السعودية، أصدرت امراً يقضي بمنع بيع المسدسات . فظلت بضاعة صاحبنا في القاهرة ، وعندما جاء الملك سعود وجد صاحبها في مجيئه فرصة تجعله يبعث (حقيبتيه) مع احـد رجال الحاشية – يقول صاحبي ذهبت اولاً الى شخص من اصدق اصدقائي في الحاشية فطلبت منه ان يحمل ما عندي ، فاعتـذر بدون أن يعلم ما في داخـل هاتين (الحقيبتين) يقول ـ فكنت اسمع عن المرحـوم

العقيد (١) محمد الذيب بأنه رجل ذو مروءة جمة فذهبت اليه في (فندق الكونتننتال) في القاهرة وذكرت له حاجتي ، فلبى طلبي بدون ان يبدو منه ادنى تردد . ويؤكد صديقي بأنه عندما رأى ما ابداه الذيب من حسن استقبال واستعداد لقبول طلبه خجل منه وقال له ان حقيبتيّ فيهما محذور وهو كذا وكذا .. فكان الجواب من الذيب حسب ما نقلته من الراوي نصاً كالآتي: (اذا لم يكن في حقيبتك محذور فاذهب بهما الى غيري) . حينما ذكر لي صديقنا هذه الكلمة عدت بذاكرتي الى تلك الكلمة التي نسبت عن احد رجالات العرب القائلة ما معناه : الكبير لا يقصد الا لكبيرة...

فرحم الله محمد الذيب، لقد عرفته ذا مروءة غزيرة وشهامة لا حدود لها.. ولذلك لم استغرب هذه الكلمة منه ، وقد كان الى جانب مروءته وسخائه ، ذا المام بتاريخ العرب وادبهم وكثير المطالعة والقراءة ، وقلّ ان رأيته خارج عمله الا وهو يحمل كتاباً من كتب الادب او التاريخ .

وعلينا ان نستدرك هنا بأن ما ذكرته عن مروءة الذيب وشهامته لا علاقة له بما ذكرته من اطلاعه على الادب والتاريخ العربي ... فتلك السجايا خلق مطبوع في النفس وموهبة من الله لا علاقة لها بكثرة المطالعة او عدمها . فكثيراً ما نجد أمياً لا يعرف شيئا من حروف الهجاء ولكنه ذو مروءة ونجدة وشهامة لا يوجد منها مثقال ذرة عند بعض المثقفين الذين درسوا علوم الدنيا والدين معا .. ومما لا شك فيه ان العلم من حيث هو ، نعمة كبرى وفوائده لا تقدر بثمن فاذا وجدنا مثلاً مثقفا واسع الاطلاع ولديه من المروءة وكرم

---

١ - محمد الذيب من ساكني مدينة بريدة عاصمة القصيم وهو المعاون وقتها لرئيس الحرس الملكي الخاص توفي رحمه الله عام ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ .

الخلق ما هو طبع اصيل في نفسه ، ثم وجدنا امياً ايضا مطبوعا على الشهامة والنجدة فان الاول سوف يكون افضل من الاخير لا محالة لانه جمع بين ادب الدرس وادب النفس ..

وعلى كل فالعلم من اهم الوسائل واقوى العوامل ولكنه وسيلة لا غاية ومقوم لغيره لا مرجح ...



الفَصْلُ الـرَّابع

الفِراسَة

« اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله »

(حديث شريف)



كما ظن أن يكون كان

- ٣٣ -

شاءت سنة الله أن يبرز في كل قبيلة وبين كل جيل وجيل ، قائد تتوفر فيه صفات القيادة بكاملها ، وتبقى شهرة هذا القائد او ذلك الزعيم مهيمنة على تلك القبيلة ، لا يستطيع ان ينافسه عليها أحد.. حتى يغيب شخصه من عالم الدنيا. وأغرب ما في الأمر ان هـذه الصفة الموجودة في بني الانسان موجودة ايضاً في عالم الحيوان ، وهي ظاهرة عرفها هواة صيد الظباء أكثر مما عرفهـا غيرهم ، ويؤكد هؤلاء ان الصياد الماهر بحكم التجربة يعرف ان للظباء قائداً .. ولذلك يحرص ان يقتل القائد فاذا فعل فانه سوف يقتل العدد الكثير منها ، والحكمة في ذلك ان الظباء بعدما يقتل قائدها (١) تظل فترة من الوقت وهي حائرة لا تعرف الطريق ، الى ان يبرز من بينهـا قائد يتقدمها فتتبعه الى نفس الجهة التي يتجه اليها . .

وما دام ان هذه هي حالة الحيوان ، فانه من مسلمات الأمور ان تكون هـذه

---

١ ـ يكون قائد الغزال تارة ذكراً ويسمى التيس ، او تكون احيانـاً انثى وتسمى (العنود) .

الصفة موجودة في بني الانسان بصورة أكمل وأشمل .

* * *

وفي منتصف القرن الهجري الماضي كان هناك زعيم لمع نجمه لا بين ظهراني قبيلته عنزة فحسب ، بل طار صيته وارتفعت شهرته حتى عند القبائل العربية الأخرى وهو (عقاب بن سعدون العواجي) (١) ذلك الفارس المشهور وقائد عشيرته ، بلا منازع والى جانب ذلك كان شاعراً موهوباً ، ولكنه مقل في شعره كما كان ذا رأي سديد وبصيرة نافذة ، ينظر الى عواقب الأمور بفكره الثاقب ويخشى وقوعها قبل ان يتحقق مفعولها .. ويتنبأ بما سيكون قبل ان يكون ..

وفي احدى الغزوات التي وقعت بين قبيلتي شمر وعنزة حصلت مبارزة بينه وبين فارس من فرسان شمر يدعى (كنعان ابا الوقي) وكانت المبارزة فوق صهوتي فرسيهما فهجم كل منهما على صاحبه وطرحه ارضاً ، بدون أن يظفر أحدهما بالآخر ، وفي حالة وقوعهما ارتمى سيف كل واحد منهما من يده ، فهجم عقاب على سيف الشمري والتقطه من الأرض ، وفي الوقت ذاته هجم الفارس الشمري على سيف عقاب والتقطه هو ايضاً من مكانه .

تنافس بالنجدة :

وما ان سقط الفارسان ارضاً حتى تنافس فرسان كلتا القبيلتين على نجدة الفارسين ففرسان عنزة هبوا مسرعين لنجدة فارسهم وزعيمهم ، وفرسان شمر أسرعوا لنجدة احد فرسانهم ، وكان الموقف بالنسبة للفارسين اللذين سقطا على

---

١ - راجع ج ١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية من ص ١٦٣ - ١٦٨ .

الأرض حرجاً للغاية. فكل واحد منهما اصبحت حياته مهددة فيما اذا سبقت فرسان اعدائه فرسانه ، ولو ثانية واحدة .. واذا تدبر القارىء بدقة وضع الفارسين بهذه اللحظة الحاسمة ، ومن ثم تصور نفسه انه واحد منهما عند ذلك يعذر أي منهما اذا امتطى فرس صاحبه بدون شعور منه لينجو بنفسه ، وهذا ما حصل فعلاً حيث أسرع عقاب وامتطى صهوة الفرس التي تليه ، كما ان أبا الوقي – امتطى فرس عقاب ، بصفتها القريبة منه لينجو من ان يظفر به اعداؤه .. ولئــــن كانت هذه المبارزة بين الفارسين من حيث واقعها العملي ، لا تعبر عن انتصار احدهمــــا على خصمه ، فانهــا من حيث الشكل تعتبر انتصاراً للفارس الشمري من شتى الوجوه الآتية :

اولاً – ان الفارس الشمري بالنسبة لعقاب يعتبر نكرة .. ولم يعرف اسمه ويبرز في عالم الفرسان الا عند هذه المنازلة لا قبلها ولا بعدها ، ومعناه ان الشهرة التي نالها فيما بعد كانت على حساب عقاب ليس الا ، وهذه الحقيقة لم تغب عن ذهن عقاب .

ثانياً – اغتنامه لفرس عقاب بدلاً من فرسه واكتسابه لسيفه يعتبر ايضاً نصراً كبيراً بالنسبة (لأبي الوقي) وان كان اغتنامه لفرس عقــــاب واكتسابه لسيفه جاء بدون قصد ، وان يكن عقــــاب ايضاً اغتنم فرس نِدّهِ وسيفه ، ولكن النسبة بين الرجلين بعيدة كبعد المشرق عن المغرب .

ثالثاً هو ان فرس عقاب معروفة انهــــا من الخيل الأصائل التي يندر وجودها عند العرب .. والفرق بين فرس عقاب وبين فرس (ابا الوقي) كالفرق بين منزلة وشخصية الرجلين ، ومن أوضح الأدلة على ذلك البيت الذي سيأتي ضمن القصيدة التي سوف نوردها في موضعها من بحثنا هذا .

رابعاً – وجود الشاعر الشمري المشهور المدعو (مبيريك التبيناوي) (١)
الذي ما من حادثة تصدر عن قبيلته الا وينشد فيها قصيدة يتناقلها الركبان ،
بشكل يصور فيه الحادثة لمن لم يرها بأنها كلها انتصارات لقبيلته ، فوجود هذا
الشاعر كان يعادل في منظر عقاب كل المعاني الثلاثة السالفة الذكر بل ويزيد
عليها أضعافاً مضاعفة .

---

١ ـ انظر ص ١٦٨ ج١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية .

البطل الذي لم ترهبه أنصلة السيوف ولم يخش
أسنة الرماح خاف من الشعر

وبالرغم من أن عقاباً جباراً جَلْداً لا تلين له قناة ولا تزعزعـه الأحداث مهما تفاقمت ، ولا يستكين لخطوب الدهر مهما عظمت ، ولا يبالي بفاجـآت الزمان ومحنه مهما بلغت من الشدة، بالرغم من هذا كله نجده لم يستطع ان يكظم غيظه او يوارى جزعه او يملك أعصابه ، بل بدأت علامات الضجر ترتسم على وجهه العابس ، وأدلة التذمر وفقـد الأعصاب يلوحان للناظرين من نبراته وأحاديثه ، فحاربت عيناه النوم وأعرضت نفسه عن الطعام .. اللهم الا مـا يسد به رمقه ، وعزفت عن النساء ، وتبلدت عـاطفته عن مداعبة طفـله الوحيد الذي يتفانى بمحبته ونأى بجانبه عن رجـال قبيلته الذين يركنون الى رأيه ويستمتعون بأحاديثه ، ولم يكن هناك أحد من رجـال قبيلته يرضى عقاب ان يبث شكواه اليه او يتظاهر أمامه بالضعف .. كما انـه ما من احد يستطيع ان يجرأ ويسأله عن اسباب انهيـاره وقلقه سوى شخص واحد وهو والده سعدون ، ذلك الشيخ الذي عركه الدهر ، هو الوحيد الذي ذهب لابنـه يعاتبه على ما بدر له من ضعف ووهن لم يعهدهما به ، ومن جملة عتاب الشيخ ولومه لأبنه قوله :

– كنت اعرفك يا بني صخرة تتحطم عليها الأحداث ، فما الذي بدلك عما

١ – ينسب عن نابليون بانه يقول : أفضل ان أقاوم اربعة آلاف جندي على ان اقاوم اربعة كتاب . وما يقال عن تأثير الكتاب في عهد نابليون الذي هو امتداد لهذا العهد يقال عن الشعراء عند العرب .

كنت عليه ، ثم استطرد الشيخ يقول : انا لا اعرف شيئا يوجب انهيار اعصابك سوى اغتنام فرسك وهذه وان كانت فرسا اصيلاً ، وقليل من الخيل الذي يقوم مقامها.. ولكن من الممكن ان تستعيض عنها بجواد من نوعها وأحسن منها .)

وبعدما انتهى الشيخ من حديثه أجاب الابن والده قائلا بعد ان تنهد بشدة :

– وهل تظن يا والدي ان ما اعانيه من ضجر وقلق ناتج من اجل الفرس..

– اذاً ما هي الاسباب التي جعلتك تصل الى هذا الحد من الارهاق والهموم التي فتكت بجسمك ؟ ..

– ان الذي يهمني حقا ويقلق راحتي هو بيت الشعر الذي سوف يهجوني به شاعر شمر (مبيريك التبيناوي) .

– ماذا يقول عنك التبيناوي انه لن يجد عليك اي مغمز ينال من شرفك ، واذا حاول ان يبهتك او يفتري عليك بشيء انت منه بريء فإن ذلك لا يضيرك ..

– سوف يهجوني الشاعر ببيت يبقى مثلا عند العرب .

– ما هذا البيت الذي تخشى ان يقوله التبيناوي ؟ ..

– سوف يقول بلا شك :

السَّيْفُ مِنْ يِمْنَيْ عقابٍ َخذَيْناه (١)

والخيــلْ يِبدّل كدْشِهــا بالأصايلْ

---

١ – معنى البيت الذي يتنبأ عقاب بأن الشاعر سوف يقوله كما يلي : « ماذا بقي لعقاب من المجد ما دام ان سيفه أخذناه من يمينه .. وما دام ان فرسه الاصيــل اغتنمناها منه ، وأبدلناه بفرس (كديش) أي ليست بأصيلة ولا ذات قيمة ..

ولما كان والد عقاب شاعراً فقد ادرك حقيقة ما تنبأ به ابنه وانما حاول ان يخفف بنصحه لابنه بعدم اهتمامه لما يقوله الشاعر الخ.. وحيث ان منازل كل من قبيلة شمر وقبيلة عنزة كلاهما مجاور بعضهما للآخر، والخبر الذي يحدث اليوم عند احدهما يعرفه الطرف الثاني غداً، وبالأخص القصيدة التي ينشدها الشاعر التبيناوي الذي اشبه ما يعبر عنـــه بعصرنا الحديث بوكالة (رويتر) .. فأي بيت يقوله هذا الشاعر سوف يكون له دوي في أندية ومجتمعات كلتا القبيلتين وسوف يحفظه الرجال والنساء على حد سواء.. ولذلك لم تمضِ على المعركة مدة وجيزة إلا والبيت الذي تنبأ به عقاب وخشي أن يقوله الشاعر ذلك البيت بالذات قاله التبيناوي لفظاً ومعنى اللهم الا انه لم يكن صدرا لقصيدته ولكنه اصبح هو بيت القصيد ...

واليك بعضاً من القصيدة :

ابا الوِقيْ بالبيضْ خَضّبن يِمنـــاه
أنا أشهَدْ انّه من رفاع الحمايل

المعنى : اشاد الشاعر بمطلع قصيدته اولاً بالفارس المدعو ابا الوِقيْ واثنى عليه، بمعنى يقول فيه يجب على نســاء الحيّ ان تعطر راحة ابا الوقي اليمــين بالمسك لأنه فارس ومن سلالة ابطال عريقين بالمجد ..

السّيفْ منْ يمْني عقاب ِ خَذَيْناهْ
والخَيْل ِبدّلْ كِدشها بالاصايلْ

هذا البيت كما ذكرنا آنفاً هو بيت القصيد وهو الذي تنبأ به الفارس العواجي، وقــد اوضحت معناه مقدمــاً ولذلك لا ارى داعيــاً لتكرار شرحه ...

من فِعلنا بيع اطيَب الخيل بارْداه
وَحُلُوْ قِسم المنسمح يا بنْ وايل

يقول في صدر البيت الاول : اننا اغتصبنا منكم اطيب الخيل وتركنا لكم الفرس الرديئة ، وفي عجز البيت يقول : ان هذا التصرف فيه عدل منا وانصاف (وهذا من نوع السخرية) ...

المقصود : ان تنبؤات عقاب جاءت طبقا للأصل الذي كان يظنه ويعتقده ...

الشيخ الذي تنبأ بما سيكون قبل ان يكون

-٣٥-

يعتز العربي بنسبه من ناحيــة امه كاعتزازه به من ناحية ابيه ، كما ان العرب واهل البــادية بصورة خاصة يؤمنون بالوراثة من ناحية نسب الأب ، فانهم ايضاً يؤمنون ايماناً راسخاً بها من ناحية نسب الام ..

والحــديث الشريف يقول : (إياك وخضراء الدمن فإن العرق دساس) .. وخضراء الدمن المرأة الجميلة في المكان غير الشريف .

وقد نجد من رجال البادية رجالاً يبلغ بهم الاسراف بهذه الناحية درجــة تجعلهم لا يقف بهم الامر الى الحد الذي يجعل احدهم يفخر بخاله المباشر فحسب ، بل يذهب به الامر الى ما هو أبعد من ذلك ، فنجده مثلاً يعتز بخال ابيه وبخال أمه . ومن أصدق الادلة على ذلك – البيت الذي أنشده الشيخ(العاصي الجرباء) رئيس قبيلة شمر الفرات بادية سورية عندما قال:

به الزعيلي والدويش وعضيب خال أمه وكاد

بهــذا البيت يعبر لنا الشاعر بثنائه على ابنه المدعو الهادي بأنه عريق بنسبه من شتى الوجوه ، فتجده يفخر بنسب ابنه من قبل خال امه الذي هو

مضيب ابن موعد (١) الفارس المشهور ..

وثمة ظاهرة اخرى وهي ان البدوي يعتقد ان بعض الأسر يكون في نسائهم ميزة من حيث النجابة .. والعكس بالعكس تماماً ..

فتجدهم مثلاً يعتقدون ان الفتى الذي تكون امه من الأسرة الفلانية أو من الفخذ الفلاني فانه لا بـد الا ان يكون نجيباً ، بصرف النظر عن كون رجال هذه الأسرة كلهم نجباء او عاديين ، فهذه الناحية لا علاقة لها في الموضوع الذي نحن بصدد ذكره ..

ولما كان للعادات أكبر الاثر وأعظم التأثير في تسيير مجرى حياة الكثير من الناس ، فانه يصدق ان تصح هذه النظرية ، وعندما تلتقي الصدف والايمـان بالعادات على صعيد واحد، فلسوف يزداد الايمان بتلك العادات بصورة يستحيل معها تفنيد رأي المؤمنين بها. وهذه القصة التي بين يدي القارىء من جملة القصص التي تجعل الايمان بتلك الظاهرة حقيقة معترفاً بها بين رجال القبائل ونسائهـا .. وتاريخها يقع في ١٢٣٠ هـ اي منذ قرن ونصف القرن ومضمونها كما يلي :

كان صالح بن رغيلان (٢) من الاسر التي يقال عنها ان نساءها لا بد الا ان يكون مولودهن نجيبـاً ، وكان بكره انثى فراح (فايز بن هذيل) (٣) يخطب ابنة ابن رغيلان ، وكان قصده من ذلك هو ان يرزق مولوداً نجيباً ، فوافق والد الفتاة ، ولكن بعد ان طلب مهراً فيه من المغالاة ما يثقل كاهـل الخطيب ، الامر الذي جعله يتنصل من رغبته بهذه الفتاة ، ويذهب ينقب عن ضالته من

---

١ - راجع ص ج من شيم العرب للمؤلف .

٢ - صالح بن رغيلان بن علي من قبيلة شمر .

٣ - فايز من مشاهير فرسان قبيلة شمر .

طريق آخر . وبمحض الصدفة رمى به الفال الى رؤية فتـاة ذات جمال رائع ، وكانت الرؤية ليلاً بصورة تجعله يستطيع ان ينظرها بخدرها بدون ان تراه .. وكان الفصل شتاء وكانت الفتاة تصطلي على حمو النار ، وضوء النار الساطع كان ينعكس على بياض بشرتها الناصع ، فدنا بخطى وئيدة لينظر اليهـا من قرب ، وبدنوه رأى جمالاً عربياً رائعاً ، فأصيب الرجل بذهول أفقـده الرشد وجعله يفكر بالاقتران بها بدون ان يسأل عن حسبها ونسبها اللذين كان ينشدهمـا بخطيبته الاولى ، فبـات تلك الليلة على مضض ، وما ان انبلج الفجر وبزغت الشمس حتى ذهب مسرعاً الى صديق له عزيز ليخطب له تلك الفتاة من ابيها . وكانت المدة بين ذهاب الرسول لوالد الفتاة وبين عودته اليه حاملاً موافقة والد الفتاة قصيرة جداً ، وبعد الموافقة لم يكن لديه من الصبر ما يجعله ينتظر لحظـة واحدة ، بل دفعه الشوق والغرام الى مواصلة سعيه ، فذهب وعقد النكاح وتم نكاحه بالحسناء باقرب ما يمكن من السرعة .. وعلى الفور حملت وأنجبت ذكراً.

وعندما كان فائز جالساً امام بيته الشعر على مقربة من نادي الضيوف وبعيداً عن الرواق الحائل بين المكان المعـد للنساء المسمى بـ (الرفه) وواضعاً مولوده الجديد في حضنه ويداعب الطفل تارة ويقبله أحياناً ..

زهده بعروسه الجميلة وشككه بنجابة ابنه !!

في تلك اللحظـة دخل عليه شيخ أشرف على نهـاية العقد السادس يدعى (فضيل بن غانم) من اقاربه الادنين ، وكان فضيل من الرجال الذين يركن الى رأيهم في الامور الهامة ومن أرسخ رجال عشيرته علماً في التقاليد والعادات، وعندما تبادل التحية مع صاحب البيت جلس في مكان مشاهد لفائز ، وظـل يرسل بصره خلسة نحو الطفـل الذي في حجر ابيه ، ففطن له فائز وأدرك ما يحوك في صدره نحو مولوده الجديـد ، وانما اراد ان يتجاهله وكأنه لم ينتبه له

ولكن الشيخ لم يتركه يتمادى بتجاهله بل راح يتحرش به ليكشف القناع عما يدور في نفسه فوجه اليه السؤال التالي :

- من هو خال ابنك ؟..

فرد عليه قائلا :

- أجاهل بخاله ام تتجاهل ؟ ..

- فسر سؤالي كيف تشاء ..

- ألا تعلم ان الفحل (١) يشبى ؟ ..

- بلى ولا شك ، ولكن مهما بلغ الفحل من الاصالة فانه لا يكون ابنه نجيباً ما لم تكن امه من فحل نجيب ..

- هذه نظرية نتناقلها نحن منذ العهد الجاهلي وما قبله ، وقد تصيب مرة ولكنها تخطىء مراراً .

- انها نظرية حق ، ويندر جداً ان لا تكون على صواب ..

- ماذا تقول بفارس العرب عنترة العبسي ؟..

- عرفت ماذا تعني فكأنك تقول انه ابن أمة سوداء ومع ذلك بلغ من الشهرة بفروسيته مكانة لا ينافسه عليها احد من فرسان العرب قاطبة ..

- اجل هذا هو الذي اعنيه بالذات ..

- هناك فيه تباين بعيد بين ابنك هذا الذي عرف خاله بأنه (شاوي) (٢) ولم يعرف عن نسائه ولا عن اهله النجابة قطعياً ، وبين عنترة الذي وان كان من

١ - يشير الى نفسه بأنه اصيل وشجاع وان ابنه سوف يكون نجيباً ما دام انه هو والده ..

٢ - الشاوي هو راعي الغنم . واصحاب الإبل والخيل ينظرون اليه نظرة احتقار .

أمة سوداء ولكنه أثبت عمليا بأن أمه من النساء اللواتي ينجبن الابطال امثاله.. ولو ان خالته واقعها عربي فارس كشداد والد عنترة لأنجبت منه فتى لا يقل شجاعة عن عنترة ، وانت اذا استطعت ان تؤكد بأن واحدة من أسرة اصهارك أنجبت من أي عربي مولوداً فارساً نجيبا فانني سوف اتراجع عن رأيي ، وان لم تستطع كما اعتقد بأنك لن تستطيع فانني من الآن سوف انبؤك بما سيتم في مستقبل ابنك هذا المدلل اعانك الله عليه ..

- هيا أخبرني بماذا تتنبأ به من مستقبل لهذا الطفل ولا تظلمه او تظلم نفسك.

- ان غزاك اعداؤك واغتنموا إبلك فسوف يجبن عن لقائهم وإن اعتدى عليك معتد وقتلك او جرحك فسوف لا يكون لديه من الشجاعة ما يجعله يفكر بأخذ الثأر ممن اعتدى عليك وواحدة من هاتين الخصلتين بالفتى كافية ان تحكم عليه بأن عدمه خير من وجوده ..

- ما هذا اليوم المشؤوم الذي صبحتني به ؟ ... لقد زهدتني بزوجتي وشككتني بنجابة ابني ..

- يجب ان تعتبر هذا اليوم يوماً سعيداً بدلاً من ان تعتقد انه يوم مشؤوم ، لأن القريب او الصديق الذي يوضح لك اعوجاجك طالباً ان تعدله خير من ذلك الصديق المداجي الذي يجاملك حتى تسير في طريق معوج حتى لو شئت ان تعود منه فانه يصعب عليك ذلك ..

- لماذا لم تنصحني قبل ان اقدم على الزواج بهذه الفتاة ؟ ..

- المسؤولية تقع على عاتقك لانك لم تستنصح اي واحد من رجال القبيلة ، وكانت الاخبار الشائعة لدينا تفيد بأنك خطبت ابنة صالح بن رغيلان ، فاستبشرت خيراً ، وبينما نحن نرقص طرباً على سماع تلك الاشاعة ، واذا بالخبر السيء يأتي الينا فجأة بزواجك من ابنة الشاوي ،فتساءلنا ما السبب الذي صرفك عن الاولى وعن السبب الذي جاء بك الى هذه فقيل ان السبب الذي أبعدك عن ابنة النجيب هو انك بخلت عن دفع المهر الذي طلبه منك والدها ، كما تأكدنا

بأن السبب الذي رمى بك الى ابنة الشاوي هو انك رأيتها ليلاً تصطلي على النار فاستولى على لبك حمرة بشرتها وأسر عقلك قوامهـــا المديد وخصرها الضامر وبياضها الناصع ، فأقدمت على النكاح بدافع غريزتك الجنسية بدون ان تنظر بعيداً الى ما يترتب على ذلك من نتائج ..

– لو ان ابن رغيلان كريم ، وأخو مروءة ، كما يشاع عنه لما انصرفت عن خطبتي لابنته ، ولكن التجارب أثبتت انه رجل استغلالي يريد ان ينهب مني جميع ما املك من الإبل مقابل تزويجي ابنته .. وهذا ما جعلني اعرض عنه .

المال يأتي عوض منه مال ، ولكن نجابة الابن لا تعوض !!

– ليتك أخذت رأيي في موضوع ابنة رغيلان لأنني اعتقد ان الرجل ليس طماعاً ولا استغلالياً كما تظن ..

– القضية ليست مجرد ظن كما يخيل لك وانما هي حقيقة واقعية ..

– فلنفرض ان الرجل طماع واستغلالي ولكن عندما تدفع له كل ما يطلبه منك فستكون انت الرابح لان المال الذي تدفعه له سوف تتعوض عنه مالاً خيراً منه ولكن خسارتك في عدم نجابة الابن لا تتعوض عنها شيئا قطعيا ..

– أخشى ان ابنة ابن رغيلان قبيحة لا تطاق فأكون وقتها خسرت المال والجمال ..

– انا لم ار الفتاة ولكن سمعت نساءنا يتحدثن عنها بأنها لا يدانيها بالجمال اية فتاة من فتيات القبيلة بأسرها ..

– المهم انها لا تكون بشعة تتقزز منها النفس ، فاذا لم تكن كذلك فانني على اتم الاستعداد بأن ادفع كل ما يطلبـــه مني أبوها ما عدا فرسي التي ليس عندي أغلى منها بمالي كله ...

– دعني أذهب الى اختي التي تكبرني لكي أتأكد منها لأنني اذكر ذات

يوم انها أسرفت بنعتها للفتاة بالجمال ...

– من الأحسن أن تـأتي بها معك هنـا لأسمع من فيهـا ، ولأزداد قناعة ...

– اذن لا حاجة بأن أذهب بنفسي ، بل سوف أبعث لهـا أحد هؤلاء الصبيان الذين يمرحون هنا ليناديها ...

– الأمر متروك لك ...

أمر فضيل واحداً من الصبيان ليناديِ اخته ، وعلى الفور حضرت أخت فضيل التي تجاوزت السنين الأولى من العقد السابع ...

وبعدما استقرت في مكانها قال لها أخوها :

– كنت اذكر انك حدثتيني عن ابنة صالح بن رغيلان ، فهـل لك ان تحدثي أخي فائزاً عما تعرفينه عن جمالها ؟...

فقالت اخت فضيل على الفور :

– فتاة ابن رغيـلان ليست من الفتيـات اللواتي يحتجن الى سـؤال من شتى الوجوه ، سواء من ناحية الجمال الذي لا ينافسها عليه أحد من نسـاء القبيلة بكاملها ، ولا من ناحية حصافة عقلها كفتاة بالثامنة عشر من عمرها ، ولكنها تحمل عقل امرأة تجاوزت الأربعين ، واما من ناحية نسبها فيكفي ان أباها صالح بن رغيلان ...

وما ان انتهت العجـوز من حديثها ، حتى تولى الحـديث معها فائز بنفسه قائلاً :

– لا شك انك تعرفين زوجتي هذه ...

– أجل كيف لا ؟..

– فهل في ابنة صالح من الجمال ما يقارب لزوجتي هذه ؟..

– أتقول ذلك عن جد وحقيقة ؟..

– ألا تعلمين إنني لا اتحدث إلا بالجد والصراحة ؟..

– ما دام الأمر كذلك اسمح لي بأن أؤكد لك بأن زوجتك التي خلبت لبك ، عندما تجلس بجانب ابنة ابن رغيلان سوف تكون كأصغر النجوم بجانب البدر عندما يبلغ نموه كاملا ... ومضت اخت فضيل الى ان قالت : ربما أكون مخطئة في نظرتي للفتاة او مسرفة في وصفي لها ، ولذلك من الأحسن لك ان تسأل غيري من نساء الحي اللواتي لهن بالفتاة صلة مباشرة اكثر مني ، لكي تكون على يقين من الأمر فيما اذا قدر لك نصيب من السعادة بالاقتران منها ...

بعدما انهت العجوز حديثها تدخل اخوها فضيل قائلا :

– ان اختي على جانب كبير من الصواب في رأيها ... ولذلك أرى ان من الضروري ان تسأل من تثق به من نساء اسرتك اللواتي يعرفن الفتاة لتتوفر لديك الادلة الكاملة ...

– بعد كلام اختك هذا لا أراني بحاجة الى سؤال احد ، فيكفيني من ابنة ابن رغيلان انها ليست البشعة التي لا تطاق ، فهذا وحده يجعلني لا اتردد عن خطبتها ثانية . ووصل حديثه الى ان قال : هذه المهمة سوف اكل امرها اليك ... فأنت تذهب وكيلا عني وتخطبها من ابيها ..

– سوف اسعى والتوفيق بيد الله ...

ذهب فضيل من عند صديقه وقريبه وقصد صالحاً وشرح له المهمة التي

جاء من اجلها ، فصمت صالح فترة لم يجب بكلمة واحدة ثم قال بعد ان ملأ سبيله من (تتن العراق) وجرع منه نفسين :

- سبق ان طلب مني فائز ابنتي وطلبت منه مهراً معقولاً فلم يرد عليّ ، وقد سمعت انه تزوج ابنة شاور ، واما اذا كان يريد يد ابنتي الآن ، فانني لن أزوجه اياها الا بشرط واحد وهو ان يضاعف طلبي الاول من الابل ، وزيادة على ذلك يدفع فرسه ، فان قبل فبها ، وان لم يقبل فليس له عندي كلام اكثر من ذلك .

ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر !

عاد فضيل الى فائز ونقل له موافقة والد الفتاة وطلبه المضاعف ، وكان الطلب يعني ان يتجرد الخطيب من ثلاثة ارباع ما يملك من الابل ، وكل ذلك كان رخيصا بنظر الخطيب ، ما عدا فرسه التي يرى انها مصدر مجده ورزقه ، فان قلّت ابله فانه يستطيع بفضل وجود فرسه ان يغزو اعداءه ويغتنم منهم ابلا ... وان غزاه احد فانه يستطيع ان يقاتل الغزاة على صهوتها حتى يدحرهم خاسرين وهذا مما يجعله يتردد في المضي بدفع الفرس ضمن المهر المطلوب ، فراح يستشير صاحبه فضيل في موضوع الفرس فقط فرد عليه بقوله :

- لماذا تسألني عن شيء سبق ان وضحت لك رأيي به مقدما ، حيث قلت لك في بداية الحديث ان المال بالامكان ان تعتاض عنه مالاً ، ولكن عدم نجابة الابن ليس هناك ما يعادلها في الحياة ... ثم استرسل فضيل الى ان قال : لك ان تختار بين ان تعيش في حياتك كعيشة الرجل العقيم ليس لديك من الذرية من يذود عن حماك ويحمي ظهرك ويرد الغزاة المعتدين عندما تبلغ من العمر عتيا وتصبح هرما لا تستطيع كفاح من يعتدي عليك من

العدو البعيد أو القريب ... واذا توفيت فلن يكون هناك ابن نجيب يخلفك ويحيي ذكرك ، وبين ان ترخص مالك في سبيل ان تنجب ابنا يكون سندا لك في حياتك في حالة شيخوختك ... فتكون هيبتك بهرمك بفضل وجود ابنك النجيب كهيبتك ايام شبابك وفتوتك ... فلا يتجرأ اعداؤك البعيدون ان يطمعوا بغزوك ... وهم يعرفون ان لك ابنا نجيبا ، ولا يتجاسر اعداؤك الادنون ان يمسوك بأدنى اذية ما دام لك ابن نجيب يذود عن حماك ويثأر لك ممن ينال منك .

– اذن هذه ابلي مائة وستون ناقة لك ان تأخذ منها مائة وعشرين ، وهذه فرسي خذها واذهب بها اليه ، وخذ منه وعدا بشأن عقد النكاح ...

ذهب فضيل واستعان بالرعاة ، واخذ مائة وعشرين ناقة ، وجاء الى الفرس وامتطى صهوتها وراح الرعاة في مقدمة الابل ، وهو في مؤخرتها حتى وصل الى بيت والد الفتاة ، فناوله عنان الفرس كما سلمه الابل بالعدد الكامل وطلب منه ان يعين موعدا لعقد النكاح فأجاب بقوله :

– اي وقت يريد ...

فعاد فضيل الى صاحبه يخبره بأن تحديد وقت العقد عائد له ، فقال :

– اريد ان يكون في صباح الغد ...

فرجع فضيل ليؤكد لوالد المخطوبة بأن صاحبه يود ان يكون العقد غدا صباحا فوافق على ذلك .. وفي صباح الغد جاء فائز وصديقه فضيل قاصدين بيت صالح فوجداه جالسا حسب العادة ، وبعد ان احتسيا اكوابا من القهوة

اجرى العقد الشرعي حسب العادة المألوفة ، وقبـل ان يتفرق الحاضرون قال والد الفتاة لصهره :

– سوف تأتيك زوجتك الليلة هذه ...

فراح فائز يهيء لعروسه البيت ..

المصاهرة التي اصبحت مضرباً للمثل !

ظل فائز بن هذيل في صراع عنيف بينه وبين نفسه ، وقد بدأ هـذا الصراع يزداد عنفا منـذ أن ذهبت منه فرسه النجيبة ، وبينا هو يناجي نفسه في الخواطر التي استولت على كيانه ، واصبحت هذه الخواطر تعبث في افكاره وحواسه ، متشعبة الى جبهتين : خواطر تقلقه عندما يرى نفسه اصبح صفر اليدين من ثلاثة ارباع ما يملكه من كسب عمره الطويل ، ومن فرسه التي لا يعادلها اي ثمن عنده ، وبين ما يعزى به نفسه من انه سوف يرزق ابنا نجيبا من ابنة ابن رغيلان ليحيي ذكره ويحيا بكنفـه في آخر حياته ... ومشكلته ان الافكار الأولى توحي اليه بأن خسارته محسوسة وملموسة ، بينا ربحه لم يكن مضمونا ضمانا تاما كخسارته الملحوظة ... فقد تكون ابنة ابن رغيلان عقيما لا تلد ابـداً ، وقد لا تلد إلا إناثا ... وربما تلد ذكراً لا يكون نجيبا ، كما يعتقد صاحبه ، كل هـذه الاحتمالات جائز ان يتحقق بعضها ، وفي بعض اللحظات يذهب به خيـاله الى مقت صاحبه فضيل ، ومقت الساعة المشؤومة التي جاءه فيها وزهده بزوجـه الجميلة ، وشككه بنجابة ابنه ... وبينما هـو سابح في خضم هذه الافكار المتصارعة في كيانه ، واذا به يسمع اصوات رعاته الذين ذهـبوا بإبله في الليلة الماضية يحـدون ، وفي الحين الذي يصغي به الى اهازيج الرعاة بمرارة

ويأس ، سمع صهيل فرسه من قرب ، فقفز بدون وعي منـه ، ظانا ان فرسه انطلقت من صهره ، وجاءت الى اهلها الذين الفتهم ، وترعرعت بينهم منذ ان خلقت ، ودار في ذهنه تلك الساعـة من الخيال ما يجعله يفكر بأن لا يدع فرسه تعود الى صهره بدعوى انها التجأت اليه بدافع الالفـة القديمة ، وكان ناويا ان يقول لصهره بأنه على اتم الاستعداد بأن يـدفع ما تبقى من ابله بكاملها على ان لا تفلت فرسه من يده بعدمـا عادت اليه ، وكان آخر حل عنده فيما اذا اصر صهره الا ان تعـود الفرس هو ان يفسخ العقد ويريح بالة من هذه المشكلة التي ورطه بها صديقه فضيل منذ ان جاء اليه في ذلك الصباح المشؤوم ..

وفي تلك اللحظة التي كان يعاني فيها الصراع المرير بين خسارته المحسوسة وبين آماله التي ليست مضمونة ، وبالتالي بين قراره النهائي الذي اتخـذه بعدما سمع صهيل فرسه في هذه اللحظة الحاسمة تبدد ذلك القلق بمفاجـأة سارة ، والى كسب مضمون لم يتصوره ، كانت هذه المفاجأة هي ان الرعاة الذين كان يسمع اهازيجهم عادوا اليه بإبله التي اعادها اليه صهره بدون ان ينقص منها شيئا ... وكانت الفرس التي يتوهم انها انفلتت من صهره وجاءت اليه عفوا ، كانت معادة اليه من قبل صهره ، والى جانب هذا كله جاءت زوجته بهودجها وبجانبها عدد من الابل محمـلة بأكياس من الحنطة والتمر والسمن ، وبالاضافة الى هذا بعث صهره الكريم عددا من الابـل كمهر من عنده لابنته ، وببيت شعر مستقل وفراشا وقطعا من السجاد ، كل هـذه الاشياء جاءت مع شقيق زوجته الاكبر ... وعندما بني بيت اخته وفرشه راح وسلم فائز فرسه وإبله والابل والمؤونة التي جاءت بصحبة العروس ، ثم قفل راجعا الى ابيه ...

اما فائز فقد غمر كيانه موجة من السرور بلغت حدا يعجز عن وصفه الواصفون وقد تضاعفت نسبة سروره وارتفعت درجة الغبطة ارتفاعا لا مزيد

عليه عندما دخل على عروسه فوجد بدرا ساطعا لم يرَ في حياته جمالاً عربيا كامل الأوصاف كهذا الجمال الذي يشاهده الآن في عروسه ... فبات تلك الليلة بنشوة من السرور والغبطة اللذين عاش على ذكراهما مدة حياته ...

وفي الصباح الباكر ذهب الى صديقه فضيل ليخبره بنتائج مساعيه الطيبة ، وآراءه التي بدأت بشائرها تلوح في الافق مقدما ، وما ان رآه حتى ذهب يقبل رأسه ويشكره على النصيحة التي أسداها اليه ، شارحا له الموقف النبيل الذي اتخذه صهره معه ، ومعبرا له عن غبطته بعروسه التي وجد فيها من الجمال والعقل والقدر الذي يسمو على ما وصفته له اخته ، فرد عليه فضيل بقوله :

– اما من خصوص ما فعله صهرك من إعادته إبلك وفرسك الخ ... فهذا شيء لم استغربه من نبيل شهم كصالح ... ثم التفت الى احد ابنائه وقال : اسرع الى عمتك وقل لها ان والدي وعمي فائزا ينتظرانك...وبعد لحظة وجيزه حضرت العجوز فقال لها اخوها :

– ما هو جوابي لك عندما ذهبت تقذفين وتشتمين صالحا بن رغيلان على طلبه ذلك المهر لابنته من أخي فائز ...

فأجابت العجوز قائلة :

– لعله تحقق ظنك بصالح ...

– تحدثي اولاً عما قلت لك عن رأيي بصالح عندما بدأت بهجومك العنيف عليه ...

– كنت اسكتني وقلت انك تعتقد ان قصد صالح من طلبه هذا هو ان

يمتحن فائزاً ليعرف مقدار رغبته في مصاهرته . وانه عندما يجد فائزاً مصمما ومرخصا كل ما طلبه منه فان صالحا سوف يرد عليه كل ما دفعه .. وعندما انتهت العجوز تولى فائز الحديث وقال :

– لقد كان الرجل على ما يظنه اخوك واكثر مما يظن به .. وراح يشرح ما لقيه من صهره من نبل وكرم وما وجده في عروسة من جمال منقطع النظير وعقل وافر .. وبعد ذلك ذهب فائز من عند صاحبه مكرراً شكره له، متفائلا خيراً بتحقيق تنبوءاته له بمولود نجيب ، وراح وأقام في ليلتها وليمة كبيرة دعا على شرفها اعيان قبيلته ، وفي مقدمتهم والد العروس طبعا وصديقه فضيل ، وكانت ليالي فائز وعروسه سروراً دائماً وشهر عسل مستمراً ، ولم ينقصه شيء الا ان تنجب عروسه ذكراً..وبعد مضي ثلاثة اشهر من زواجها حملت العروس، وظل فائز يعد ليالي حملها بالساعة .. وكانت اكبر بشرى تزف اليه تلك التي نقلتها اليه اخته المفيدة بأنه رزق صبياً ..

بدل الصبي صبيان

وبعد مضي عامين رزق من زوجته الجديدة بصبي آخر ،كما رزق انثى ،وتوقف الزوجان عن الانجاب بعد ان اصبح اباً لثلاثة ذكور وانثى ، وامسى لا همّ له الا العناية والرعاية لأبنائه ، وعندما كبروا راح يدربهم على اعمال البطولة كالرماية وركوب الخيل وشق انواع الرياضة التي من شأنها ان تزيد عضلاتهم صلابة وقوة ..

وعندما بلغ ابناؤه سن الرشد ، وثق ابوهم ان كل واحد منهم اتقن فن الفروسية ومهر بها ، واصبح الفرد منهم فتى مفتول الساعد ، فارع القامة . بعد ذلك جمع ابناءه وقال :

– انني الآن تجاوزت سن الشباب واصبحت بحاجة الى الراحة والهدوء ..

وقد بذلت في شبابي جل جهدي حتى جمعت هذه الإبل وحميتها بنصال السيف وسنان الرمح عن غزوات الطامعين، اما الآن فانني سوف اطلق السلاح والنضال واترك هذا الامر لكم ايها الفتية فأرجو ان لا يخيب ظني بكم .

كان ابناؤه الثلاثة على جانب كبير من وسامة الفتوة وقوة الشباب، ولكنهم حتى تلك الساعة لم يتسن لأي واحد منهم المحنة التي تكشف الغطاء عن مقدار تحملهم وطاقتهم .

سبق ان اشرت في اكثر من مكان بأن النزاع بين قبيلة شمر وقبيلة عنزة كان دائما مستمراً بحكم تجاور القبيلتين .. وعندما يكون احد المواقع خصبا عند ذلك يشتد النزاع بين المتحاربين ، فكل منهما يحاول ان تتمتع إبله بهذا المرعى ، وتارة تكون الحرب سجالاً واحياناً تكون الغلبة لاكثر القبيلتين عدداً وعدة ، اما اذا تعادلت قوتاهما وشاءت كل قبيلة ان تتجنب شر قرينتها عند ذلك يكون ذلك الموقع الخصب محمياً عن رعي إبل كلتا القبيلتين ..

وشاء القدر ان تأتي سنة ، امحلت فيها جميع الاراضي سوى مكان مجاور لمنازل كلتا القبيلتين ، كانت إبل قبيلة شمر تسرح غربا عن منازلها، كما ان إبل قبيلة عنزة تسرح غربا عن مساكنها، فيبقى ذلك الموقع الذي بين الشرق والغرب خصباً مزدهر النبات لا تستطيع ان ترعاه إبل قبيلة دون الاخرى ، خوفاً من مفاجأة عدوتها . ولكن رغم ذلك كان شباب من فرسان قبيلة عنزة المغامرين يأتون بإبلهم ويتركونها ترعى عشب هذا المكان المحذور الخطر، وهم على صهوات خيلهم مدججين بالسلاح ، ومستعدين لمقاومة أية غارة تأتيهم من العدو ، بينما إبل شمر لا يحصل لها المرعى من هذا المكان الخصب ، وانما تذهب الى ارض ممحلة لا تجد فيها ما يسد رمقها ، فكانت تذهب ضامرة وتعود كما ذهبت ، وفي ذهابها كانت تحن حنينا يعبر عما تعانيه من الجوع .. ولم يستطع الشيخ فائز ان يتحمل حنين نياقه من آلام الجوع فهو يعتبر ان هذا الحنين من إبله عبارة عن

شكوى منها اليه .. ولما كان البدوي وخاصة الفـارس قد يستطيع ان يبيت الطوى جائعاً ولكنه لا يستطيع ان يري إبله جياعاً وهنـاك مرعى خصب ، فقد بلغ الغضب من فائز حداً جعله يتحدث بالعبارات التي أثارت حماس ابنائه وجعلتهم يعقدون العزيمة على ان يذهبوا بإبلهم الى المرعى الخصب الذي ترعى منه إبل عنزة بفضل شجاعة فرسانهـا ، وان يغامروا بإبلهم وفي انفسهم بدون ان يفكروا في مصيرهم ..

وكانت الكلمات التي تحدث بها والدهم جديرة ان تثير حماس اي فتى يحمل بين جوانحه قلبا شجاعا ونفسا ابية ..

لقد وقف الشيخ خطيبا امام إبله وهي تحن جوعا وقال مخاطبا إبله :

ـ كأنك ايتها الإبل بحنينك هذا تشكين من لوعة الجوع ، وكأن لسان حالك يوجه اليّ اللوم قائلاً : ـ أليس من العار والخزي ان نشكو الجوع ونبيت الطوى بينما نرى المكان الخصب ونشم رائحة العشب المزدهر قريبا منـا ترعاه إبل اعدائنا برغد وأمان بفضل فرسانها بينما نحن نحرم منه لا لذنب اقترفناه الا لاننا لم نوفق لفرسان كالذين وفقت بهم إبل العـدو . ويمضي الشيخ بخطابه لإبله فيقول : أرجو ان تعذربني ايتها الإبل لانني اصبحت شيخا كبيراً فاقداً قوة النضال تلك التي عندما كنت اتمتع بها في شرخ شبابي واتولى حراستكن وحدي، لم اترك موضعا خصبا من أراضي العدو الا وجعلتكن تتمتعن ايتهـــا الإبل به وترعين عشبه بكل أمان واطمئنان ، ولم تستطع اية قوة من فرسان العدو ان تنالكن بسوء خشية من بأسي . ثم يستطرد الشيخ ويقول : اما الآن فقد شخت وعجزت عن حمايتي لكن ايتها الإبل ، ها هم ابنائي الفتيان الثلاثـة قد حلوا محلي ، وان يكن لكنّ من لوم فانما يقع لومكنّ على هؤلاء الشباب الجبنـــاء ، الذين يرون الارض الخصبة نصب اعينهم تتمتع برعيها ابل العدو تحت رعـــاية وحماسة فرسانهـا بينما تبيتنّ جياعا من عدم وجود فرسان يحرسونكنّ بأسنة رماحهم ونصلات سيوفهم ..

كان هذا الحديث على سمع ابنائه الثلاثـــة الذين كما ذكرت آنفا قرروا بأن يذهبوا بابلهم الى المرعى الخصب غير مبالين بما يلحق بهم من مصارعة اعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعدة .

كان رجال قبيلتهم يجلسون كل صباح عند رئيس القبيلة ليعقدوا رأياً موحداً ويتخذوا قراراً يجمعون عليه ، وعلى ضوء هذا القرار يعين المكان الذي تسرح اليه ابل القبيلة ، لكي يتبعها الفرسان من أجل حمايتها من غارة العدو ، وكانت المعلومات الواردة اليهم تفيد أن قبيلة عنزة تزيد عليهم عدداً وعـــدة ، ولذلك كانوا يبعدون بابلهم عن الارض التي تقطنها عنزة .. ويحاولون ما استطاعوا أن لا يتحرشوا بهم .. وكان الفتيان يذهبون كالمعتاد كل صبـــاح الى رئيس القبيلة ليعرفوا المكان الذي تذهب اليه ابل القبيلة ، ولكنهم بعد ما عقدوا العزم على أن يذهبوا بابلهم الى ارض العدو المحظورة ، رأوا أن لا فائدة من وراء ذهابهم اليه بل كل ما في الأمر انهم بعد ما امتطوا صهوات خيولهم وتنكبوا سيوفهم ورماحهم وأمروا الرعاة ان يذهبوا بالابل الى الارض المتوفر فيها الكلأ والتي تتمتع برعيها ابل العدو ، بعد ذلك مروا برئيس القبيلة لا ليأخذوا رأيــه في قضية ذهابهم فتلك قضية قد انتهوا منها ، ولكن من أجل ان يخبروه بما صمموا أمرهم عليه بمجرد اشعار ليس الا ،وكم حاول رئيس العشيرة ان يفند رأيهم موضحاً لهم ان خطتهم هذه انما هي عملية انتحارية ، ولكن جميع محاولاتــه تفتت على صخرة عزيمة الشباب الفولاذية ..

.. وهكذا مضى الفتيان ..

تنبؤات الشيخ تتحقق

مضى الفتيان في سبيلهم ، ولحقوا بابلهم يسوقونها حتى اوصلوهـــا الارض المحرمة على ابلهم ، والمباحـــة لابل العدو ، كان مجيئهم مثار دهشة واستنكار

بالنسبة لفرسان عنزة ، وقد كثرت علامات الاستفهام ، فمن قائل ان هؤلاء الفتية بعثهم رجال قبيلتهم للاستدراج ليتحرشوا بنا حتى اذا هجمنا على ابلهم لحقوا بنا وطوقونا ؟.. ومن قائل ان قبيلة شمر جاءها نجدة من ابناء عمهم الذين في العراق ، وان هؤلاء الفتيان لم يتجرأوا على مغامرتهم هـــذه لو لم يعرفوا أن وراءهم قوة جاءت من جديد لتحميهم من الخلف .. وأخيراً قرر العنزيون ان يبعثوا فرسانا ليتحروا الحقيقة وليسبروا غور القبيلة بكاملها ، وان لا يعودوا حتى يأتوا بالسر الحقيقي الكامن وراء مغامرة هؤلاء الفتيان .

فذهب شلة من فرسانهم لهذه المهمة فراح هؤلاء ولم يدخروا وسعا من بذلهم اقصى ما لديهم من الجهد بالتنقيب والتحري لكشف الحقيقة ظانين انهم سوف يجدون كميناً من فرسان العدو ، ولكنهم بعد ما بذلوا كل ما لديهم من الجهد ولم يجدوا شيئاً بعد ذلك عادوا الى رفاقهم وهم قانعون قناعة تامة .. ان ليس وراء هؤلاء الفتيان اية قوة تساندهم ، وان كل ما هنالك انهم صبيان دفعتهم سكرة الشباب الى القيام بمثل هذه المغامرة الحمقى ، ووفقاً لقناعتهم هـــذه صمموا ان يغيروا على ابل الفتيـــان وان ينهبوها من ايديهم ، وهكذا فعلوا ، اما الفتيان فقد دبروا خطة تقضي بأن لا يكافحوا العدو ساعة هجومه ، بل يتظـــاهرون بالجبن ويلوذون بالفرار حتى اذا هجم العـــدو بكامل قوته واطمأن الفرسان المعتدون بعدم وجود من يكافحهم ومن ثم تقاسموا الغنيمة واشتغل كل فارس منهم بسوق غنيمته والمحافظة عليها، بعد ذلك يكرون عليهم كرة صادقـــة على ان تكون كرتهم هذه موحدة ومصبوبة على ادنى فارس من الغزاة ..فعندئذ يسهل عليهم قتالهم فردا فردا حتى يستخلصوا ابلهم او يقتلوا جميعاً ..

وعلى ضوء خطتهم هذه تظاهروا بالفرار الى ان تقاسم الغزاة الابل ، ومضى كل فارس منهم بحصته ،عند ذلك كروا جميعاً على اول فارس من الغزاة وطرحوه أرضاً .. ثم كروا على الثاني وكان مصيره كمصير سلفه ، وعندئذ تخلى الغزاة عن الابل ولكنهم لم يتخلوا عن القتال بل كروا على الفتيان حتى حمي الوطيس بين

الجانبين وفي هـــذه الساعة الحرجة الحاسمة فر أخوهم الكبير أي ابن المرأة (الشاوية) وقامت المعركة على الفتيين ابني زوجته الأخيرة اللذين ظلا يفران ويكران حتى امساهما الليـــل ، وتفرق الطرفان عن بعضهما ولكن بعد ان غنم الفتيان الفرسين اللتين طرحا فارسيها منذ اول معركة . وبعـد ان استردا ابلهما ودفع كل فرد منهما ثماناً باهظة من الجروح التي نالاها جميعاً من طعـــان العدو ، اما اخوهم الاكـــبر سالف الذكر فقد كان سليما جسده من اي جرح ، حيث فرّ من اول ما حميت المعركة وذهب الى والده ..

فسأل الشيخ ابنه الهارب عن اخويه فأجابه بقوله :

– آن آخر عهدي بهما عندما طوقهما فرسان العدو وانهالت عليهما السيوف والرماح من كل جانب ولم اتركهما الا وانا على يقين من العلم بأن الاعداء مزقوهما اربا . .

اصغى الى الحديث المشؤوم الذي يرويه له ابنه فائز وكان بين المصـــدق والمكذب ، ومضى النصف الاول من الليل وهو في قلق عظيم يشاركه في قلقه هذا ام الفتيين وشقيقتهما التي كانت اقل من والدتها صبراً واكثر منها سخـــاء بسكبها للدموع المنهمرة من مقلتيها بلا انقطاع .. أما الشيخ فكان يذرع الباحة الفسيحة امام بيته الشعرى ذهابا وايابا وينشد هذه الابيات الشعبيـــة معزيا نفسه بها :

موتَ الفتى دونَ المعزّة والامـــوال
من فوق قبٍّ واردٍ كالنـــداويَ
في ساعةٍ يثبت بها عِرْبْ الاخوال
ويهرب بها الخـــايبْ بناخِي الشواوى
أخـــيرْ منَ صَبرٍ على الهون واذلال ذل
الْيَا عادْ موْتَ الكلْ بأمر سِمَاوىّ

المعنى : يقول الشيخ انه عندما يلاقي الفتى حتفه وهو يناضل دون كرامته وماله وعلى صهوة جواده هاجما على اعدائـــه كهجوم الصقر على فريسته ، وفي معركة حاسمة لا يثبت بها الا الفتى الشجاع الذي عرف اخواله بالاصالة كما يهرب من هول هذه المعركة الفتى الذي اخواله ليسوا معروفين بالاصـالة ، اشرف من أن يحيا ذليلاً مهاناً من اعدائه ما دام الموت امرا حتمياً لا مفر منه ..

فالشيخ بأبياته الثلاثة التي يعبر لنا بمعانيها عن واقـع أمره يشير الى المعنى الذي قاله الشاعر الاحسائى علي بن المقرب :

فلا عاش من يرضى الهوانَ فهل تجـد
جبانـــاً على مـــر الزمـــان مخـــلدا

وهل مات من يخشى الوغى قبل يومه
فتى لضروب الحـرب لا زال امجـــدا

أو المعنى الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي :

واذا لم يكن من المـــوت بُـــدٌ
فمن العجـــز ان تمـوت جبـــانا

المقصود : ان الشيخ يعبر لنا في هذه الابيات انه وان كانت عاطفة الوالد لا بد من ان تؤثر على قلبه ، ولكنه يظهر بمظهر الذي يفضل مصرع بنيه وذهاب ابله ، على ان يرى ابل اعدائه ترتع في الارض الخصبة ، بينما ابله تبيت الطوى ، كما انه يثني على ابنيه اللذين يعتقد انهما قتلا .. وفي الوقت ذاته يهجو ابنه الذي هرب بدون ان يعقد مصيره بمصير أخويه ، ويعتبر ان ثبات ابنيه دليل على عراقة نسب أمهما واصالة خوالهما ، كما يعتبر ان هروب ابنه هذا من اوضح الادلة على ان اخواله ليسوا من اهل الشجاعة والمجد ..

وفي الحين الذي كان الشيخ يردد هذه الابيات بذهابه وايابه امام بيته وتارة يختطف كوبا من القهوة ويحتسيه ، وهو في هذه الحالة جاءت ناقة (خلوج) (١) من ابل الشيخ وقصدت ابنها ، وعندما رأى الشيخ هذه الناقة بات في نفسه شيء من الامل وراح يخاطب هذه الناقة كانه يخاطب انسانا يعقل قائلاً :

– ناشدتك الله يا فلانة (٢) اين ولديَّ فلان وفلان .. ثم يعود ويقول مخاطباً الناقة ايضاً : أخبريني عنهما لاعتقادي ان لديك خبرا أصح واصدق من الخبر الذي جاء به (ابن الشاوية)(٣) وفي الوقت الذي كان يردد الشيخ هذه العبارات للناقة تارة واحيانا ينشد الابيات السالفة الذكر ، في تلك اللحظة جاءته ابنته تهرول قائلة :

– ابشر ابشر يا أبي لقد سمعت حداء واهازيج كأنهااصوات أخوي يلحنانه تلحين المنتصر ، فقال ابوها :

– اذهبي يا ابنتي ولا تعودي حتى تنبئيني بالخبر الاكيد .. فذهبت مليا ولم تعد حتى وقفت على الحقيقة ورأت أخويها كما رأت الفرسين اللتين غنماهما من العدو فعادت مسرعة تبشر والدها بل وتزغرد زافة لوالدها البشرى بسلامة اخويها وزيادة على ذلك بشرته بالفرسين التين غنمهما اخواها من العدو ، وبعد ذلك بفترة قصيرة جاء الفتيان يسوقان الابل ولم ينقص منها شيء ، ولكن كان كل واحد منهما مثخنا جسده بعدة طعنات من رماح وسيوف العدو .. وكان البدو يستعملون للجريح علاجاً عربياً وهو ما يسمى بالتكيد ، وتعريف هذا العلاج هو ان تُشعل النار في حفرة رملية وبعد ان تخمد النار يزاح الجمر عن هذه الحفرة وتترك الى ان تخف حرارتها وتبلغ درجة يستطيع أن يتحملها جسد

١ – اي الناقة التي وضعت من جديد حوارا وتركته في مكانه لا يستطيع المشي معها لصغره.
٢ – ما من ناقة عند البدو الا ولها اسم تدعى به .
٣ – مشيرا بذلك الى ابنه الاكبر الذي هرب عن اخويه .

الانسان ، وعند ذلك يؤتى بالجريــح ويدفن في وسط هذه الحفرة فترة من الوقت ..

وعلى الفور أمر الشيخ ابنه الاكبر الهارب ان يحفر ثلاث حفر وان يشعل فيهن النار ، فحفر اثنتين ثم عاد الى والده يستفسر عن الغاية من حفره للثالثة فقال الشيخ :

– بعد ما تنتهي من حفرها واشعال النار فيها وازاحة الجمر كالاثنتين عند ذلك سوف اخبرك عن السبب لحفرها ، فذهب الابن ونفذ ما امره به والده وعندما انتهى من الحفر واشعال النار وازاحة الجمر من جميع الحفر الثلاث بعد ذلك قال الشيخ لابنه الهارب :

– كنت اتمنى انك شاركت اخويك بشرف النضـال وان جسمك ناله من شرف الكفاح القدر الذي نال جسمي اخويك لكي ادفنــك كما دفنتهما وانت مرفوع الراس ناصــع الجبين موفور الكرامة ، أما وقد جبنت وانهزمت عن اخويك لذلك يتحتم عليّ أن أدفنك في وسط الحفرة لتشارك اخويك على الاقل بألم حرارة الرمل لأن نفسي لم تطب أن ادفن أخويك البطلين وأخلي سبيلك ..

فدفنه ابوه بدون رضاه .. وفي الصباح الباكر استدعاه والده وقال له :

– هب ان الله توفاني الم تكن ابني ويحق لك أن تنال نصيبــك من مالي كوارث شرعي كما يرثني احد ابنائي ، فقال الابن :

– أجل يا والدي .. قال الأب :

– أريد أن تعلم من الآن بأنني قررت بأن هبك من مالي ما تستحقه فيما لو كنت ميتاً شريطة بأن لا أراك بل تعتبرني ميتاً كما اعتبر انك لم تخلق ..

وأخيراً ذهب الفتى عن والده وراح يعيش بين خواله بعد ما اخذ نصيبه من الابل .

***

لقد سردت هذه القصة لكي اطلع القارىء على مقدار ما يؤمن به أهل البادية بالوراثة ، اما انا شخصياً فانني لست مؤمناً بأن الوراثة عن طريق الام بل ولا عن طريق الاب لها تأثير ايجابي في نمو مواهب الفرد اكثر من تأثير الزمان والمحيط والمجتمع والعادات والقرين ..

واصدق ما يقال بهذا الصدد قول عمر بن الخطاب (ر ض) :

(الناس بزمانهم أشبه به من آبائهم) ..

والغريب ان الشعراء الشعبيين تختلف نظرتهم في هذا الشأن اختلافاً كلياً فبينما نجد شاعر الحماسة محمد العوني يقول في قصيدته المسماة بالالفية :

الجيم جنب عن رديّ الطماعة
وصادق صديق لك ترى به شجاعة
ترى ردِيَ الخال ما به بتاعه
وتراك من عز المباري تعزّى

المعنى : يقول العوني يجب على المرء أن يبتعد عن دنيء الهمة وان لا يصادق الا المرء المغامر الطموح الشجاع ويقول في عجز البيت الثالث ان من يكون خاله جباناً دنيئاً لا يمكن ان يكون شجاعا ، وفي البيت الرابع يقول ان المرء يعز ويحترم بين رجال مجتمعه بقدر ما يختاره لنفسه من الصاحب الطيب والصديق الكريم بحكم ان الصديق مرآة منعكسة عن اخلاقه .. هذا خلاصة ما يقوله العوني ..

بينما نجد شاعر الحكمة والموعظة والارشاد محمد العبد الله القاضي يقول بيتين على عكس نظرية العوني بقصيدته اللامية الشعبية وهما قوله :

لا يفتخر من جاد جده وخـــاله
هي بالهِمَمْ لا بالرَّممْ مثل من قال
الجمر يمسي كالخـــلاص اشتعـــاله
ويصبح هشيمٍ مِغبرٍ خامـدٍ بالْ

المعنى : يقول في البيت الاول لا يحق للمرء أن يفاخر بنسبه لا من ناحيـة ابيه وجده ، ولا من ناحية اخواله لأن هذه الأمور لا أهمية لها وانما الاهميـــة والاحترام للرجل العصامي الذي يصنع المجد لنفسه بنفسه ، معتمدا على سمو همته الشخصية لا على عظام ورمم آبائه البالية ، ثم يذهب القاضي مؤكداً هذا بقوله : اننا اذا شئنا ان نقبل النظرية القائلة ان كل اصل جيد وطيب فان فرعه سيكون طيباً .. فان المنطق يفند هذه النظرية بحكم ان النار هي اقوى واصلب المواد من حيث اصلها . ولكن فرعها رماد لا ينفع، واصح معنى في هذا الصدد هو ما قاله المرحوم معروف الرصافي :

وَشرُّ العالمـــين ذوو خمـــول
اذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسبٍ قديمٍ
أضاف لنفسه حَسَباً جديـــدا

الشاعر الذي ينطق القدر على لسانه

- ٣٦ -

لو أن قبر هذا الشاعر في البلاد التي يقدس اهلها قبور الاموات الصالحين الذين يصدف ان يلتقي القضاء والقدر واستجابة دعوتهم في آن واحد ، أقول لو كان قبره في البلاد التي يؤمن اهلها بهذا الاعتقاد لاصبح قبر صاحب الترجمة مزاراً للمتبركين .. لانه وان كان شاعرا شعبيا واكثر شعره بالغزل ووصف الذلول ، ولكنه رغم ذلك لم يسبق ان دعى على احد بشعره الا وجاءت دعوته موافقة طبق الاصل لما دعى به . وهذا الشاعر يدعى ساكر الخمشي (١) توفي حوالي عام ١٣٥٠ هـ .

ونود هنا ان نورد القصائد التي ضمنها الشاعر دعواته التي أتت كما دعا بها كما نأتي بالاسباب الداعية لذلك ..

ابتلي الشاعر بغرام فتاة من قبيلة شمر نجد من عشيرة الأسلم الذين يرأسهم وقتها ضاري بن طواله ، كما ان الفتاة حسبما يبدو من معاني القصيدة الآتية

---

١ ـ ساكر من قبيلة عنزة راجع ص١٧٣ ج٤ من شيم العرب للمؤلف .

كانت تبادله بغرام مماثل ، ولكن المشكلة ان الفتـــاة (محيرة) (١) لابن عمها بمعنى انها لا يمكن ان ينكحها احد الا بموافقته ، وكان ابن عمها عنيدا لا يقبل ان ينكحها احد سواه ، فراح الشاعر يشدو قصيدة في مطلعها استنجاد ونخوة لرئيس عشيرة الاسلم وفارسها المغوار ضاري ابن طواله ، والبقية كلها تغزل من أرق المعاني التي قالها الشعراء الشعبيون بالغزل ، بل هناك بيت قاله الشاعر في معشوقته بقدر ما حرصت ان اجد شاعرا من شعراء العربية جاء بالمعنى الذي قاله الخمشي فانني لم أجد معنى مماثلا له وهو قوله :

ثلاث علامات من الـّريمْ هي بِـكْ
عين وعنق والحـــذاره ترابـــك

المعنى : يخاطب الشاعر معشوقته قائلا : انه توفر فيها ثلاث صفـات من صفات الغزال : اثنتان مادية والثالثة معنوية .. وموضع الرقة والجزالة بالمعنى يأتي بالصفه المعنويه ، فالشاعر نعت معشوقته بالصفتين الماديتين بالغزال واللتين وصفها الكثير من الشعراء وهما العين والعنق .. واما الصفة الثالثـة التي هي معنوية فانه لم يُسبق هذا الشاعر على وصفها وهي النفرة وعدم الانقيـاد بكل سهولة ، اذ انه من المعلوم ان الغزال حذر ولا يستطيـع احد ان يصيده الا رميا بالرصاص ..

وهذا البيت ضمن قصيدة اخرى خلاف قصيدته التي أشرت اليها آنفا والتي جاء منها قوله :

شاكي للولي عزّالِ ليـلِ او نهارتي
عَالِم بالخفي من بيّناتٍ وغـَبي

---

١ ـ راجع ص ٣٧ و ٢٥٠ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب يتضح لك معنى المحيرة .

ثم شاكي لِخو صلفه زبونْ الشّبارى
حيث انه يحول الخيل ومشبّبيْ
شاكيٍ له على غرو فِضاني اجْهّارْ
كيف واحد يفضْاني بِوسْط عرُبيْ

القصيدة طويلة : وكلها من الغزل الرقيق ولا ارى مـــا يدعو الى سرد الابيات الباقية ، لانها تبعد بنا عما نريد ، وانما نكتفي بشرح هذه الابيات ..

يقول الشاعر في البيت الاول انه يشكو امره الى الله خالق الليل والنهار العليم بسرائر الامور وعلانيتها ..

وفي البيت الثاني يقول : بعد ما اشكو امري الى الله اعود وابث شكواي واستنجادي بالفارس (أخو صلفه) يقصد ضاري بن طواله .. وهو بهـــذا البيت ينعت ضاريا بأنه بطل الهيجاء وحامي فرسان قومه .. اذا وهنت جيادهم وخارت عزائمهم ..

وفي البيت الثالث يؤكد شكواه ونجدته بضاري مرة ثانية فيقول كيف ان هذه الفتاة تقهرني وانا بجوارك و ..

(وان كان الضمير يعود الى المتكلم بقوله – كيف واحد يفضاني بوسط عربي) .. ولكن المعنى يشير الى انه يقول كيف هذه الفتاة تقهرني وأنا في وسط قبيلتك يقصد ضاري بن طواله لان الحشي كما ذكرنا من قبيـــلة عنزة ومعناه انه عند ما يكون نازلا عند الاسلم الذين هم من قبيلة شمر فهذا يعني انه بجوار رئيس العشيرة ضاري ..

ولما كان ضاري معروفا بسرعة النجدة (١) والمرؤة الجمة فقد بـــذل ما

١ – راجع ص١٦٠ الى ١٦٥ ج ٤ من شيم العرب .

استطاع من الجهد بأن يغري الشاب الذي من اسرته ليتخلى عن الفتـــاة التي شغف بحبها الشاعر .. ولكن الشاب رفض ان يتخلى عن ابنة عمه وكل محاولة بذلها الشيخ ضاري لاغرائه باءت بالفشل ، امام عناد واصرار ابن عم الفتاة ..

وعندما يئس الشاعر من الحصول على محبوبته راح ينشد قصيدة في اولهـــا توجع على معشوقته وفي آخرها دعاء على اسرة الفتاة بكاملها فيقول :

يَمال َقلْبٍ لاعِبٍ لِعْبَةِ الدّوكْ
في يَد ظرفٍ ماهِرٍ باشتغـــاله
على حبيب ما يحبه لنا شكوك
عيو عليـــه الذاهبـــين الطواله
عسي يجيهم من بني عمهم صوك
يوم بـــه المرور يـــبزع بخاله
عسى يجيهم طلعة الشمس مدلوك
مدمي ولا تنفـــع عليه الدخـــاله

المعنى : يقول في البيت الاول الا وامَصيبتي التي آلمت قلبي حتى أصبح قلبي مضطربا اشبه ما يكون بنول النسيج ..

وفي البيت الثاني يقول ان اسباب المرض الذي الم بقلبه هو غرامه بتلـك الفتاة التي لا شك بأنها تبادله المودة نفسها .. وفي عجز البيت الثاني يقول على الرغم من ان الغرام متبادل بينه وبين معشوقته ولكن اهلها رفضوا واصروا على عدم الاقتران بها .. وفي عجز البيت ما يعبر بوضوح بأن الفتاة التي يهواها من اسرة آل طواله نفسها التي هي اسرة الشيخ ضاري ..

وفي البيت الثالث يدعو الشاعر بحرارة على أسرة آل طواله قائلا : أسأل

الله ان يوقع بينهم فتنة ينتج عنها معركة عنيفه يبلغ بها الامر الى درجـــة ان الشاب الثائر الشجاع يفتك بخاله ..

وفي البيت الرابع يؤكد الدعاء مرة ثانية فيقول : اسأل الله تعالى ان تقع المعركة بينهم عند طلوع الشمس وان يبلغ الحقد بينهم الى الحد الذي يحمل الرحمة تنتزع من قلوبهم فلا يعطف بعضهم على بعض وان لا يكون مجالا للتسامح ولا لاستجارة بعضهم ببعض .

ومن غريب الصدف ان ما تنبأ به من وقوع المعركة بين فخذ ابن طواله وقعت وفقا لما ذكره في البيت سالف الذكر حتى ان ابن الاخت قتل خاله والعكس بالعكس .. اما اسباب الفتنة فقد جاءت على الشكل الآتي :

ذهبت فتاة من فتيات الفخذ لتملأ قربتها من الماء وعندما انتهت من ملء القربة اشارت لاحد الفتيان الذين يسقون ابلهم على جانب البئر بأن يحمل القربة على ظهرها ، فاستجاب احد الفتيان لطلبها وحمل على ظهرهـــا السقا ، وفي الوقت ذاته تصرف تصرفا بعيدا عن الادب والخلق ..

فراحت الفتاة تشكو لرجالها التصرف الخاطىء الذي لقيته من ذلك الشاب الطائش ..

وعلى الفور أخذت النخوة رجالها وهجموا على الفتى وقطعوه اربا .. وعند ذلك قام اقارب الفتى بهجوم معاكس قاصدين أخذ الثأر لابنهم وهكذا تقاتلت العشيرة بكاملها قتالا عنيفا ، كما تنبأ بذلك الشاعر الخشي ..

هذه واحدة من تنبؤات هذا الشاعر ، واليك قصه ثانية جرى القدر بما نطق به لسانه بها بصورة مشابهة للاولى ..

في ٢٧ رمضان ١٣٣٨ هـ هجم أهل (الغطغط) (١) على موقـــع يسمى (الشعيبية)ويقطنه وقتها نفر من قبيلة شمر، وقتل المهاجمون كل من وقع بايديهم من هذه القبيلة ..

وكان من نتيجة ذلك ان اخذت الشاعر العاطفة بالقتلى كما اخذه الغضب على القتلة وراح يتنبأ لهم بمستقبل سيء ويتوقع لهم عاقبة وخيمة جزاء وفاقا لمــا فعلت ايديهم باخوانهم واليك ما قاله الشاعر :

ذبحت اهل المسجد ركوع وسجـــاد
يأتي لها من عقب ذلك منـــادى
ادعوا معي يا قارئين بالايجـاد
تروا الدعا قبـــلي مجادع هوادي
يعل دار حـــلّ به ذبـــخ الاجواد
تاخذ ثمان سنين ما سال وادى
ترخص بها السلعة ويغـــلى بها الزاد
وتذهل بها المرضع ربيع الفؤادى

المعنى : يشير الخشي الى ان الذين قتلهم أهل الغطغـــط وهم يتعبدون في المسجد في رمضان ويقيمون الليل ركعا وسجدا ويقول : ان الله تبارك وتعالى لا بد من ان ينتقم من هؤلاء القتلة ولو بعد حين • ويقول في البيت الثاني : عليكم ايها الصالحون من حملة القرآن ان تشاركوني بالدعاء وتسألوا الله معي ان ينكب هؤلاء السفاكين لأن الدعاء كرمي السهم اذا اخطأت بعض السهام الهدف فـلا بد ان يصيبه السهام الاخر ..

وفي البيت الثالث يقول الشاعر : اسأل الله ان يصبّ جام غضبه على اهل

١ ــ الغطغط ارض كانت صحراوية وعمرها رجال من قبيلة عتيبة واستوطنوها ..

هذا البلد القتلة وان يمسك الغيث عن بلادهم مدة ثمان سنوات .. ومـــا معنى البيت الرابع الا امتدادا لمعنى ما قبله من الدعاء على اولئك السفاكين فيقول : اسأل الله ان يبتلي هؤلاء القتلة بالقحط والبؤس الى ان يصلوا درجة من ارتفاع المعيشة والغلاء تجعلهم يبتاعون اثاث منازلهم ليشتروا زادا وان ترتفع اسعار الطعام ، وتشتد الفاقة والمجاعة الى الحد الذي يجعل الام تنسى وتذهـــل عن جنينها الرضيع تاركة ثمرة فؤادها من اجل ان تفتش عن لقمة من الطعام لتسد رمقها، واعجب ما في الامر ان الشيء الذي تنبأ به هذا الشاعر تحقق ولكن على درجة اقل مما يريد، وذلك انهم اي اهل الغطغط، بدر منهم من التصرفات الهوجاء التي كان من نتائجها ان ضربهم الملك عبد العزيز ضربة قضت عليهم ، فبلغوا حالة من اثر النكبة اشبه ما تكون بما عبر عنها الشاعر بدعوته وأمنيته ..

تنبؤ جاء قبل اوانــــه !

- ٣٧ -

(من سلّ سيف الظلم قتل به) .. هذا المثل القديم لا زلنا نشاهده واقعيا في تاريخنا الماضي والحاضر ، ونؤمن بصحة منطقه في المستقبل ..

ولم يكن منصور السالم القفاري(١) هو الذي ابتكره ، ولكن المناسبات جاءت به على لسانه والعدالة الالهية حققت تنبوأته ..

وقد كان ذلك في عام ١٩٢٩ عندما وقر في ذهن امير حائل وقتذاك بندر (٢) بن طلال والرشيد ان ينشىء حديقة قريبة من قصر امارته لكي يذهب اليها في اوقات فراغه وراحته كموضع نزهة واستجمام ، فوقع اختياره على مكان يقع شرقاً عن بلاده يسمى (الخريمي)، وعندمـا وجد في هذا المكان التربـة الصالحة لنمو الاشجار ، عند ذلك اصدر امراً تعميمياً لملاك الحدائق في بلاده على ان يبعث له كل فرد منهم مشتلا من خيرة انواع النخل ، وكل فلاح بلغه الأمر

---

١ ـ منصور صاحب مزرعة في قرية قفار التي يقطنها بنو تميم وتقع جوار حائل ...

٢ ـ راجع ص ١١٧ ج ١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية .

ذهب مسرعاً بتنفيذه ، مـــا عدا منصور بن سالم الذي امتثل لتنفيذ الأمر من حيث الظاهر ولكنه ضرب به عرض الحائط من حيث الواقع العملي ، وكل مـا هنالك انه اجتث جوزاً من (البار) (١) وأعده ليذهب به الى الأمير ، وعند ذلك جاء احد رجال اسرته مفنداً لرأيه وناصحاً له بأن لا يقدم على ذلك مؤكداً له بأن هذه المغالطة سوف تعرضه لعقاب الأمير فيما اذا تأكد من معرفة المشتل، فوجه منصور سؤالاً لناصحه قائلاً :

- ما هي المدة التي تجعل الأمير يستطيع ان يعرف حقيقة هذا المشتل ..؟

- ادناها ثلاث سنين وأقصاها خمس سنوات ..

- ما دام الأمر كذلك ولماذا اجتث له مشتلاً طيباً ؟..

- لأنه سوف يعرف الحقيقة ولو بعد مضي أقصى المدتين ..

- استطيع ان اؤكد تأكيداً جازماً بأنه لن تمضي المـــدة الأولى فضلاً عن الأخيرة الا وفرج الله اقرب وأسرع من أن يعرف مشتلي ..

- اوضح ما تشير اليه ..

- اؤكد لكم ثانية بأن لا تمضي المدة الاولى الا وقـــد حدث أحد الأمور الثلاثة الآتية :

اما ان يقتل الأمير او ان يموت مشتلي قبـل ان ينمو ويصل الى الدرجة التي يعرف بها ان كان ذكراً او انثى . . او ان يوافيني أجلي . . ثم استدرك منصور حديثه فقال :

- انني اعتقد ان الأولى اقرب الاحتمالات الثلاثة ..

- ما هو السر الذي جعلك تقدم الأولى على الاثنتين ؟..

---

١ - البار اسم للذكر من النخل الذي يلقح به النخل وهو لا يثمر ويسمى (الفحال)

– لم يكن الامر سرا بل واضحاً كوضوح الشمس في رابعة النهار ..

- قد يكون واضحاً بالنسبة لمفهومك ولكن لم يتضح الى الآن لنا ما تشير اليه ..

– ألم يكن بندر ظالماً بقتله لعمه متعباً وقاطع رحم في آن واحد ؟..

– أجل ، لا احد ينكر ذلك .

– ألم يقل الله في محكم كتابه العزيز : (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) الخ .. او لم يقل النبي محمد (ص) « الرحم معلقة بالعرش تقول : – من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» وبالتالي ألم يقل المثل العربي : (من سلّ سيف الظلم قتل به) ..

– ان ما ذكرته من الآيات القرآنية والحديث النبوي والمثل العربي كل ذلك معروف لدينا ولكن غاب عن الذاكرة الاستنباط منه .

– ما غاب عن ذهنك فانه لم يغب عن ذهني ذلك ، لهذا سوف أبعث مشتلين عوضاً عن المشتل الواحد من (البار) الذي لا يثمر ، ومن فوره بعث منصور أجيره حاملاً المشتلين فوق ظهر الجمل وركب هو مطية أخرى ليقدم هديته للأمير .. ولكن عندما دنا من قصر الامارة سمع صياح النساء وعويل الأطفال من كل جانب.. كما سمع من الجانب الآخر الزغاريد وعلامات الاستبشار والفرح، فوقف مندهشاً ومذهولاً وحائراً بين هاتين الظاهرتين المتباينتين . ولكن ذهوله لم يستمر طويلا وحيرته لم تتجاوز فترة قصيرة حتى سمع المنادي يعلن بصوته الجهوري من أعلى منارة في القصر النبأ الذي يعبر عنه في العصر الحديث في حالات الانقلابات باسم (البيان رقم واحد) .

وكان اللفظ الذي ينادي به صاحب الصوت كما يلي :

– ان المشيخة والحكم لمحمد العبد الله وان بندرا غدر بعمه متعب وقتله ظلماً وعدواناً وانه لقي جزاءه على يد شقيق متعب محمد الذي انتقم من القاتل وجازاه من جنس عمله .

وعندما سمع منصور هذا النبأ ، أمر العامل ان يطرح مشتليه بالفلاة وان يعود الى المزرعة ، بينما جلس في المدينة ولم يعد الى أهله الا بعد ان جـدد العهد للحاكم الجديد تمشياً مع التقاليد المتبعة والأصول المرعية في حالة تغير حاكم قديم، ومجيء حاكم جديد .

ثم عاد بعد ذلك الى أهله، فكانت نبؤته قد جاءت وفقاً لما أكده، فأصبحت حديث الموسم في تلك الأيام ، وهي الآن موضوعة ضمن التنبؤات العربية مـــن شيم العرب بعد ان مضى قرن بعد حدوثها .

اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله

(حديث شريف)

- ٣٨ -

يوجد في العرب رجال ذوو علم راسخ وخبرة واسعة في معرفة الرجـــال خاصة اذا كانوا في سن المراهقة او مـــا دونها قليلا .. فهناك رجال لهم خبرة واسعة في معرفة الخيل ، وليس المقصود هنا عن الخيــل معرفة الفرس السباقة فهذه قد يصيب فيها حتى النفر الذين لم يكونوا من ذوي الاختصاص ، ولكن الشيء الذي يثير الانتباه هو ان هناك من العرب يعرف الفرس المشؤومة ، فمثلا تجد عربيا من المختصين بمثل هذه الناحية بمجرد ما ينظر الى فرس يقول لك هذه الفرس سوف يقتل على ظهرها فارس او فارسان أو يجرح على ظهرها كذا .. وكثيرا ما يصيب هذا بتكهنه .. هذا من ناحية معرفة الخيل ، امـا التنبوء والفراسة بمعرفة الفتيان ، فان هناك ايضاً رجالاً ذوي خبرة واختصاص في هذه الناحية وان كان ذوو الاختصاص بمعرفة المشؤوم بصورة خاصة بالخيل اشهر من المختصين بمعرفة الموفق من المشؤوم من الرجال كما ان الاولين غالبا ما يكونون على صواب في رأيهم اعني المختصين بمعرفة الخيل .. ومدار البحث هنا يدور حول التنبآت في معرفة الرجال .

عندما استولى محمد بن رشيد على امارة حائل ثم بسط نفوذه على قسم كبير

من شمال شبه الجزيرة وقسم من جنوبها شرقها ، لم يكن وقتهـــا يخشى من اية اسرة عربية تنافس اسرته على السيادة اللهم الا آل سعود الذين لاهلهم اسبقيــة الحكم عليه او الذين بصورة اوضح لم تأت اسرته للحكم في بداية تكوينها الا عن طريق اسرة آل سعود .. وهذا مما يجعل الامر طبيعيا بالنسبة لمحمد الرجـــل الداهية العاقل فيما اذا رأى نفسه ملزمـــا ان يأخذ للأمر حيطته ويعمل الف حساب وحساب لمراقبة وسير حركات رجال هذه الاسرة وكان خوفه من نبوغ فتى من فتيان هذه الاسرة اكثر بكثير من خوفه من رجال الاسرة وكهولها الذين سبق ان عرفهم وادرك مدى تفوق حظه عليهم .. وبمـــا ان اسرة آل السعود وقتها كانوا في الكويت وخاصة الامام عبد الرحمن الفيصل الذي يعتبر الوارث الشرعي لحكم آل السعود فان شبح الفتية الذين من صلب عبد الرحمن هو الذي ظل يلاحق الامير الرشيدي الامر الذي جعله يفكر طويلاً في هـــذه الناحية ، وأخيراً هداه تفكيره الى ان يختار شخصاً من الراسخين علماً بمعرفة الرجال ذوي الخبرة الفسيحة بتحليل شخصيات الفتيان ، فوقع أختياره على شخص من ابرز شخصيات مدينة حائل وهو (علي المجراد) الذي سوف أتحدث عن ترجمة حياته في نهاية هذا البحث .

عند ما انتخب الامير محمد علي المجراد لهذه المهمة قال له انني سوف انتدبك لمهمة ذات طابعين : طابع ظاهري وطابع سري .. فاما الطابع الظاهري فهو التظاهر امام الناس انك مسافر الى الكويت لتحمل رسالة لامير الكويت الشيخ مبارك الصباح وهذه الرسالة وان كانت سلبية جوفاء ولكنها كافية لتكون مبرراً لمهمتك الاساسية التي ستكون سراً مبهماً بيني وبينك .

علي المجرد – ما هي الرسالة السرية اطال الله عمرك .

الامير – الرسالة سرية كما ذكرت لك وستكون سراً بيني وبينك .

علي – انا يا طويل العمر رجل صريح ولا اصلح للقيام بالاعمال التي لهـــا بينة وخفية .

الامير – انا اعرف الناس بخلقك ولذلك من المستحيل ان انتخبك دون غيرك الا بعد ان نقبت عن الكثير من رجالي الذين يصلحون مثل هذه المهمة فلم اجد من يقوم بها خير قيام سواك فانت الوحيد الذي استطيع ان اعتمد عليه بمثل هذه المهمة .

علي – لو امرتني ان اذهب الى مغامرة اعتقد انني سوف الاقي حتفي فيها فانني سوف اذهب راضياً بدون ان ابدي ادنى تردد ولكنني اتردد في قبول هذه المهمة لكونها ذات وجهين علنية في ظاهر امرها امام الناس وفي باطن أمرها سرية ومكتومة الى ابعد حدود الكتمان . وهذا مما يجعلني اخشى ان تكون هذه المهمة مهمة تجسس تلك السجية التي تتنافى وشيمتي كل المنافاة..؟

الامير – وهل تظن انني اذا اردت ان انتدب للتجسس احداً لا اجد من يقوم بمثل هذه المهمة ويؤديها على اكمل وجه دون ان اختارك لمهمة التجسس التي اعلم انها لا تنسجم مع خلقك ، ولكنني اخترتك لمهمة وان كان الامر يقتضي الآن ان تكون سرية ولكنها في الحقيقة ليست سرية ، اللهم الا في نطاق محدود اي في اثناء رحلتك . واما بعد عودتك فان شئت ان تعلنها فلك ان تفعل وان شئت ان تخفيها فالامر متروك لك . .

علي – هانذا مستعد للسفر في أي يوم تأمروني فيه .

الامير – بقدر ما يمكنك من السرعة .

علي – بامكاني ان اسافر غداً لانني لا ارى ما يدعو الى التأخير مـــا دام الامر يهمكم الى هــذا الحد .

الامير – بورك فيك وغداً سوف اشرح لك المهمة التي ندبتـــك لها وان شئت ان اخبرك بها الان فلا مانع عندي .

علي – اكون شاكراً لكم اذا شرحتم لي مهمتي بوضوح لكي يطمئن قلبي .

الامير - الا تعلم انه لا خوف عليّ من اي زعيم ينافسني السيادة في نجد سوى آل السعود ؟

علي – هذا شيء مفروغ منه .

الامير ـ ولكنني مع ذلك لا أخشى أبداً من أي واحد من رجال آل السعود الذين تتجاوزوا سن الفتوة لانني قد عرفتهم جيداً وادركت ان لا خوف عليّ من اي واحد منهم وانما الذي اخشى منه هو نبـــوغ فتى من فتيانهم للذين لا اعرف مدى تفوق حظي عليه .

علي ـ وماذا تريد ان افعله حيال ذلك ؟؟

الامير ـ اريدك ان تذهب للكويت بمهمة ظاهرها يوحي بحمل رسالة للشيخ مبارك الصباح كأنها ذات اهمية وبال وباطنها المتوارى هو ان تسبر لنا غور ابناء الامام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وهما محمد الذي أخواله آل جلوى وعبد العزيز الذي خاله السديري هذان الفتيان هما حالياً انهد ابناء الامام عبد الرحمن الفيصل، ولكنني لا اعلم مدى كل منهما بالنجابة ، فأريد منك ان تظـــل في الكويت المدة الكافية التي تمكنك من الاحتكاك بهما عن كثب وبالشكل الذي يخولك كشف نفسية كل منهما وتشخيص امكانياتهما من شتى الوجوه وعليك ان تخلق الوسائل التي تبرر زيادة مقامك فيالكويت فيما اذا استعصى عليك الوصول الى معرفة شخصية الفتيين في امد قريب .

علي ـ ان كل شيء يمكن معرفته بعد التمحيص والامعان الا معرفـة كنه حقائق الرجال، فان ذلك تضيع فيه المفاهيم، وليس من السهل ان يحكم المرء على شخص ما بمجرد جلسة يوم او يومين وانما يحتاج الامر الى خبرة عملية وامتحان طويل .. وبعد ذلك يمكن للمرء ان يحكم برأيه بعد التجربة الطويلة وهذا الحكم

ايضاً قد يكون صواباً وقد يكون شططاً وجنوحاً (١) هذا بالنسبة للرجال المجربين الذين تجاوزوا سن الفتوة .. فما بالك بالحكم على الفتيان الذين مواهبهم لا زالت كامنة ولم تصقلها التجارب بعد .

الامير ـ انني عندما اخترتك دون سواك من رجالنا الكثيري العدد انما هو لاجل ثقتي بقدرتك على تحليل شخصية الفتى الذي لا زال مجهول المستقبل خاصة من اسرة آل السعود اما الرجال الكهول فقد كشفهم لنا الزمان .

علي ـ سوف افعل جهدي بتنفيذ ما امرتني به والتوفيق بيد الله .

الامير ـ اذهب على بركة الله .

وودع علي الامير محمدا وذهب الى الكويت ممتطيا راحلته يصحبه اربعة من رجاله وهم الطاهي وصاحب القهوة والبدوي المختص بحفظ الرواحل ورعايتها وصاحب شداد (الراحله) اي مرافقه الخاص . لقد قطع الارض البعيدة المدى الكائنة بين مدينتي حائل والكويت بأقصر مدة يمكن أن يقطعها مسافر بسرعة كسرعته وما ان وصل الكويت حتى نزل ضيفاً عند الشيخ مبارك الصباح الذي استقبله استقبالاً حافلاً بالعناية والاكرام .. ثم قدم الضيف رسالة الامير التقليدية التي لا تخلو من ان يكون فيها من المعاني ما يوهم القارىء بأنها ذات اهمية الأمر الذي جعل الشيخ مبارك الذكي الداهية لا يخطر بباله بأن هذه الرسالة ليست الا وسيلة لا غاية . لقد ظل (علي الجراد) موضع حفاوة وعناية عند الشيخ مبارك وفي اليوم الثالث لقدومه استأذن الجراد من الشيخ مبارك لزيارة الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود بحجة انه اي الامام عزيز قوم

---

١ ـ من أرسخ الرجال الذين عرفتهم علماً بتشخيص الرجال هو الشيخ خالنا (ابو الوليد) القرقني مستشار المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ومن المجاهدين الليبيين القدامى . لقد اكد لي ذلك الشيخ المحنك انه صاحب رجلاً ما ـ ثلاثين سنة ـ وبعد هذه المدة اتضح له ان لدى هذا الرجل حقيقة غير الحقيقة التي يعرفها عنه خلال تلك المدة الطويلة .

وسلالة حكامه الاسبقين فمن المرؤة احلاله عملا بقول الشاعر حسان بن ثابت :

نسوّد ذا المال القليل اذا بدت   مرؤته فينا وأن كان معدمـــا

فلم يتردد الشيخ مبادك عن الموافقة على طلب ضيفه حيث بعث من رجاله مرافقا من اجل ان يدله على منزل الامام ، ومن هنا بدأت المسرحية .. لقد تظاهر الرجل بكثير من الاجلال والتقدير للإمام واسرته كما اكد للامام عبد الرحمن بأن وفاءه لحاكمه الحالي اي ابن رشيد لا يتنافى ابـداً عن وفائه لحكامه واحترامه لحكام وطنه السابقين آل السعود وان الشيمة العربية تقضي باحترام ذوي المجد السابق والسيادة القديمة .. ولما كان ابن مجراد من الرجال المعروفين بالشهامة العربية وبالمروءة الجمة فان كل ما يتظاهر به من هذه السجـــايا التي يفرضها خلق العربي الكريم تكون من مثل ابن مجراد طبيعية لا تستغرب ممـا جعل زيارته للامام ولابناء الامام تتكرر بصورة مقبولة حتى اصبح بينه وبين الامام وابنيه عبد العزيز ومحمد الفة ووئام كلما زادت الايام زادت هذه الالفة بقدر ما يزداد الرجـــل فراسة ودراسة لنفسية الفتيين .. ولكن المشكلة التي اصطدم فيها الرجل وجهاً لوجه هو انه وجد الانظار كلها متجهة نحو احد الفتيين بما في ذلك والدهما الامام بينما فراسته وتنبؤاته الخاصة كلها عكس ذلك فظل الرجل في حيرة من امره الامر الذي جعله يضطر الى ان يهتبل وسيلة تبرر له تمديد اقامته لكي يصل الى نتيجة اكثر وضوحاً مما وصل اليه وقد فعل الرجل ذلك ولكن طول المدة التي قضاها لم تبدل شيئاً من نظريته الاولى التي كانت على طرفي نقيض من نظرة الرجال المحيطين بالفتيين وكلما اطـــال المدة ، وزاد احتكاكه بالفتيين الاخوين عبد العزيز ومحمد زاد اعجابه بالاول الذي منصرفة عنه الانظار ومتجهة كلها نحو الثاني بما في ذلك والدهما كما ذكرنا انفا وبالتالي قرر العودة الى اميره ليحمل له الرايين المتضاربين فذهب الى الشيخ مبـــارك ليستأذن منه بالعودة الى اميره ، فاذن له مبارك واودعه رسالة كجواب على رسالة الامير ، فخرج الرجل من مدينة الكويت مع رفاقه الاربعة فوصل مدينة

جائل عاصمة امارة الرشيد بسرعة لا تقل عن سرعته عند ذهابه للكويت فقابله الامير الذي كان ينتظر عودته بفارغ الصبر مقابلة ودية ثم خلى به على الفور سائلاً اياه عن نتائج مهمته :

فقال علي : انني في الحقيقة لا زلت في حيرة بين ابني الامام ..

الامير ـ ما هو مصدر حيرتك ؟

علي ـ ان مما وضعني في حيرة هو ان انظار الرجال المحيطين بالامام كلها متجهة نحو محمد ، والذي زادني حيرة في امري هو انني اشعر ان الامام عبد الرحمن الفيصل نفسه يشارك رجاله الاعجاب بمحمد ونظرة الوالد عادة تكون هي الحكم الفاصل بالنسبة لابنائه .

الامير ـ حقاً ما تقول فانه ادرى الناس بمعرفة ابنائه وانما الذي اخشاه ان محمدا يفوق اخاه عبد العزيز بالعمر وعادة ينظر الاكبر بعين الاعتبار بحكم فارق السن .

علي ـ من حيث فارق السن لم يكن بينهما ما يدعو الى ذلك فقد سألت عن هذه الناحية واخبرت بأن الفتيين متقاربان بالعمر بحكم ان كل واحد منهما من ام ولكن القضية فيما يبدو لي انها قضية خلاف بعيد وبون شاسع بين رأي كل من حاشية الامام والامام نفسه وبين رأيي الخاص .

الامير ـ دعني من رأي الحاشية ومن رأي الوالد الذي عادة ما يكون اعلم من غيره بالنجيب من الخامل من ابنائه ، دعني منهم جميعاً ووافني برأيك الخاص .

علي ـ الذي اراه واكاد ان اجزم به حسب خبرتي وتجاربي التي قل ان ان تخطيء بهذا الشأن وما اقوله باختصار بالنسبة للمهمة التي انتدبت من اجلها

هو انه لا خوف على حكمكم من خطر يهدد كيانه الا من عبد العزيز الذي لم تكن الانظار متجهة اليه الآن بقدر ما هي متجهة الى اخيه محمد .

الامير ـ ان الذي يهمني في الموضوع هذا بالذات هو رأيك الخاص .

علي ـ من حيث رأيي الخاص فهو كما أوضحته لطويل العمر فقد اكون مصيباً وقد أكون مخطئاً . ولكن بالنسبة لفراستي وتجاربي الطويلة التي استند اليها دائماً في تحليل شخصيات الرجال والفتيان معاً بالنسبة لذلك فانني أجد أن بين جنبي الفتى عبد العزيز قلباً المعيا ونفساً لا يقف مدى طموحها عند حد وروحاً تتجسد في جوانحها صفات الزعامة بكل معنى من معاني هذه الكلمة ..

الامير ـ انني اذ اشك في اخلاصك فمعنى ذلك انني اشك حتى في نفسي ولولا اخلاصك أولاً ثم مقدرتك على معرفة تحليل شخصية الرجال تلك القدرة التي لا أعرف أحداً من رجالنا يشاركك بها ، لولا هذه وتلك لما اخترتك على غيرك ووكلت اليك أمر هذه المهمة دون سواك .

وبعد فان علي الجراد لقي حتفه رحمه الله في المعركة المساة بالطرفية وهناك من يسميها بالصريف تلك المعركة الطاحنة الواقعة بين المرحومين عبد العزيز المتعب بن رشيد وبين مبارك الصباح من جانب آخر وقد انتصر فيها الاول انتصاراً كان بداية النهاية وذلك في عام ١٣١٨ هـ . (١)

***

علي من ساكني مدينة حائل او ما يقال عنها في كتب الادب العربي جبلي طيء وينتهي الى اسرة مفهومها الشامل تدعى (الجرى) ومن الجرى تتفرع

---

١ ـ ولا بد هنا من ان اشير الى شيء من ذكر الصفات التي كان يتمتع بها علي المجراد تلك الصفات التي تفرض لصاحبها الوقار والاحترام ..

عائلته المساة بالجراد كما يتفرع منها اسر عديدة كالزيد الذين منهـــم السفير المرحوم عبد العزيز ابن زيـــد وكثير من الأسر في حائل ، فالرجل كان مثالاً للوقار والشجاعة الحربية والجرأة الأدبية وله في كل من هذه وتلك مواقف بالغة الروعة وكان الاحرى ان افرز لكل من موقفه البطولي الحربي وموقفه الادبي الجريء الصريح زاوية مستقلة في باب الشجاعة الحربية والادبية اسوة بالقصص الاخرى التي لها طابع منسجممع هاتينالقصتين ، ولكنني لم ارد ان اشتت ذهن القارىء واختصاراً للموضوع طاب لي أن آتي بقصة لعلي الجراد تعيد إلى أذهاننا مما قرأناه عن تاريخ العرب وبطولاتهم وخاصة مـا ذكره المؤرخون عن موقف (ابي جهل) عندما صرع في معركة بدر وجاءه عبد الله ابنمسعودرضي اللهعنه وهو يلفظ آخر انفاسه ويتخبط بدمه فما ان رآه بن مسعود حتى وثب عليـــه واعتلى ظهره قائلاً : ابا جهل رأس الشرك شكراً لله الذي مكنني منـــك .. فأجابه ابو جهل قائلاً : لقد ارتقيت مرتقىصعباً رويعى الغنم فقال ابن مسعود رفعني الله بالاسلام كما اذلك بالكفر .

ابو جهل - لمن النصر اليوم .

ابن مسعود ــ لله ورسوله يا عدو الله .

ابو جهل ــ ما هذه الخيل البلق التي يحاربنا اهلها بجانبكم .

ابن مسعود ــ هؤلاء ملائكة الرحمن يا مشرك ..

ابو جهل ــ اما الان فقد طاب لي الموت ما دمت حاربت فرسان الارض وفرسان السماء ..

ان ما وقع بين ابي جهل وبين ابن مسعود يكاد ان يكون صورة طبق الاصل لما حدث به علي المجراد بن اخيه خالد وهو في اخر رمق من حياته واليـــك الحادثة كما وقعت بل كما رويتها من المرحوم خالد المجراد ابن اخي صاحب الترجمة والشاهد العيان في الحادثه نفسها التي نقلتها منه على الوجه التالي :

يقول خالد : عندما حمي الوطيس بين جنود مبارك الصباح وبين جنود عبد العزيز ابن متعب الرشيد ، والتقى الفرسان بالفرسان ، وانقطع صوت لعلعة البنادق ولم يكن ثمة صوت سوى صرير السيوف ، وقعقعة الرماح ، وصهيـل الخيل ، وعويل الجرحى ، وشهيق القتلى ، عندما يلفظ احدهم نفسه الأخير ، في تلك اللحظة العنيفة الحاسمة أصيب علي الجراد بجرح خطير لقي حتفه على أثره بدقائق معدودة ، وقبل أن تقبض روحه أحاط به الفرسـان من بني عمه الأقربين ومن بينهم خالد راوي الحادثة ، فلما دنوا منه قال احدهم : نرجو ان تكون إصابتك إصابة سليمة . فقال الجريح وهو في آخر رمق من حياتـه : اعتقد انني مفارق للحيـاة ولكن الذي يهمني كسب المعركة أهل هي لنا أم للعدو ؟ أكد لي الراوي أنه عندما سأل عمه ذلك السؤال كانت رحى الحرب دائرة بين الفريقين بالسلاح الأبيض ، وكانت بوادر الفوز وأدلة النصر توحيان بأن المعركة على وشك أن يكسبها ابن رشيد ، ولذلك يزيدني الراوي تأكيداً بأنه أجاب عمه قائلا : أبشرك يا عم ان رجالنا بدأوا يتقدمون بخطى وئيـدة نحو صفوف العدو ، كما أن جيش العدو بدأ يتراجع القهقهرى...

علي : أعد النظر يا بني هل تحقق لنا النصر . يقول خالد بين السؤال الأول والسؤال التالي كانت لحظة وجيزة هجم بها رجالنا على فرسان العدو هجوماً اكتسحوا به جيشه وإخذت راياته ، ساعتذاك كان الجواب مني لعمي هو قولي : اجل لقد ربحنا المعركة وها أنذا انظر جيوشنا قد هزمت جيش العدو واغتنم فرساننا راياته ...

علي : اذن اسندني اليك يا بني ، لانظر بعيني رأسي زحف جيشنا الظافر لكي أموت منتصراً قرير العين .

خالد : كما تأمر يا عم .

حدثني خالد ان آخر كلمة نطق بها عمه بعد التشهد هو ان قال : الآن طاب

لي الموت بعدما هزمنا العدو .

وهكذا نجد ان تاريخ شجعان العرب يعيد نفسه في كل مكان وزمان ، فان اختلفت الوسائل والاسباب بين قتيل بدر الذي يقول لقد طاب لي الموت بعد ان قاتلت فرسان السماء وفرسان الارض ، فانها لم تختلف هذه الوسائل من حيث المعنى بين قتيل (الطرفية) الذي يقول : الآن طاب لي الموت الخ ...

لا يعرف الفضل إلا ذوو الفضل

- ٣٩ -

كما أن للورد أناساً مختصين بمعرفة النوع الطيب منه من النوع الرديء ، بحاسة الشم فقط ، وكما أن للاحجار الثمينة قوماً ذوي خبرة يميزون بين الاصيل منها وبين التقليد ، بحاسة اللمس ليس إلا ، كذلك هناك رجال يميزون بين الاشخاص العاديين ، وبين الاشخاص الأفذاذ ، بمجرد الرؤية . وليس غريباً تشخيص المرء وتحليل نفسيته بمجرد رؤية العين له بهذا العصر ، لا ليس الامر غريباً في جيلنا المعاصر ، وفي عالم الحضارة . والسبب أن هذا الفن أصبح علماً قائماً بحد ذاته ، وهو ما يسمى بـ (علم النفس) . ولكن موضوع الغرابة أننا نجد بدوياً أمياً لا يعرف حرفاً واحداً من حروف الهجاء ، ومع ذلك يكون لديه موهبة خاصة ، وفراسة راسخة بمعرفته للانسان لأول وهلة يقع نظره عليه . واليك شاهداً واقعياً لا يقبل الجدل ولا مجال للشك فيه .

من المعروف أن الصراع القبلي كان قائماً على قدم وساق ، بين قبيلة وقبيلة في شبه الجزيرة العربية ، الى أن قيض الله تعالى المرحوم الملك عبد العزيز ووحد البلاد ، وانتهى ذلك الصراع المرير والقتال المستمر ، والغزوات المتوالية ، بين كل قبيلة واخرى ، وكم أزهق من الارواح واستبيح من الاموال ، في العهد الذي

ذهب وولى الى غير رجعة، وكم كنت اتمنى بل وعشرات الملايين من ناطقي الضاد يتمنون معي أن يهيىء الله لامتنا العربية من محيطها الى خليجها من يوحدها ، كما وحد المرحوم جزيرة العرب . ومما لا شك فيه أن من ينظر الى وضع عالمنا العربي نظرة موضعية يجد أن عوامل التفرقة التي توحي بالتشاؤم - اكثر من عوامل التفاول. ولكن الذي ينظر لتاريخ الامم التي اتحدت بعدما كانت مجزأة تجزئة أكثر بكثير مما نعانيه الآن من التفرقة والتجزئة والشقاق ، بل الذي يرجع البصر كرة اخرى الى ما كانت عليه شبه جزيرة العرب التي بلغت من التجزئة أكثر من احدى عشرة وحدة سياسية ، ومع ذلك سنحت الظروف المؤاتية لذلك البطل أعني الملك عبد العزيز آل سعود - فوحد تلك الوحدات المتفرقة ، بعد كفاح طويل ، وبعد قتال مرير ، دفع ثمن لهذه الوحدة المباركة ، نفوس ودماء زكية من شتى رجال البلاد كقربان لهذه الوحدة المنيعة الجانب ، اذ لا شيء يأتي بلا ثمن (ومن طلب الحسناء استرخص المهر) .

أقول عندما ننظر الى تاريخ جميع الامم والدول التي اتحدت بعدما لاقت من مرارة التفرقة ، أكثر الف مرة مما لاقيناه سابقاً وما نلاقيه الآن ، فاننا سوف نتفاءل خيراً بأن الوحدة العربية آتية لا محالة بعون الله ، ومشيئته . وانما القضية قضية زمان ليس إلا ، ولم تكن نظرتي هذه مجرد أمنية ، أو تنبؤ بما سيكون ، وإنما هي نظرية مبنية على دراستي لتاريخ الامم المتحضرة كالولايات المتحدة الاميركية وألمانيا ، وروسيا وسويسرا الخ ... كل من هذه الامم مرت بنفس المرحلة التي تمر بها أمتنا العربية، واجتازت نفس الظروف والمحن التي تجتازها أمة « الضاد » ...

وبعد فانني ارجو ان يعذرني القارىء فيما اذا وجدني أبعدت عن نطاق البحث الذي نحن بصدده . وذلك أنني عندما جئت الى ذكر تاريخ جزيرتنا العربية ، وذكرت ما ابتلينا به سابقاً من تلك التفرقة البغيضة ثم أعدت النظر الى ما تعانيه أمتنا العربية بمفهومها الشامل العام في هذه الفترة الراهنة ، عندئذ

اتضح لي جليا أن تاريخنا الماضي الخاص ، متصلاً اتصالاً لا ينفصل عن تاريخنا المعاصر العام بصورة عامة ، الأمر الذي جعلني عندما جئت الى ذكر تلك الحقبة من الزمان أرسلت قلمي بلا شعور. وها أنا ذا الآن اعود الى تكرار الجملة سالفة الذكر فأقول : عندما كان ساكنو الجزيرة متفرقين وسلطان القبيلة هو السائد ، والحكم لمفتول الساعد، وجريء القلب ، وكثير العشيرة . في تلك الفترة غزت قبيلة مطير قبيلة عتيبة ، ونهبت منها إبلا . وكانت قبيلة عتيبة سبق أن سبرت غور قبيلة مطير ، وعرفت كل ما أعـدته القبيلة الغازية من عدة ، دقيقهـا وجليلها ، وعلمت عدد الغزاة ، وعدتهم. ولذلك لم تكن الغارة التي صبتها القبيلة الغازية مفاجأة للمغزو ، بل كان العتبان قد أعدوا العدة الكاملة لمواجهة قبيلة مطير . واتخذوا كل ما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات اللازمة . حيث حشدوا فرسان القبيلة عن بكرة أبيها،في الحين الذي لم تحشد قبيلة مطير جميع فرسانها، لهذه الغزوة ، كما فعلت عتيبـة ، مع العلم بأن رجال الاخيرة أكثر عـدداً من الاولى ، حتى ولو قدر لها ، اي الاولى ان تحشد جميع رجالها فانها لا تعـادل قبيلة عتيبة (برقاها وروقتها) وبالاضافة الى كثرة عدد فرسان(العتبان)الزائد العدد على (المطران) ، نجد أن العتبان رسموا خطة محكمة من شأنها ان يقع فرسان مطير بيـد العتبان . ولكن كمـا ورد في المثـل الشعبي (الكثرة غلبت الشجاعة) فما بالك اذا اضيف الى الكثرة الشجاعة. . .وهكذا لم ينج من قبيلة مطير الا القليل . اما الاكثرون فان منهم من قتل ومنهم من وقع أسيراً ، بعد ان طرح أرضا عن فرسه . والاسير في هذه الحالة يكون تحت رحمـة آسره — اي ان شاء قتله ، وان شاء عفا عنه — هـذا وقد سيق الاسرى جميعهم الى بيت أمير قبيلة عتيبة لينظر في أمرهم . وكان من بين الاسرى رجـل من أسرة الدوشان التي لها الزعامة المطلقـة في قبيلة مطير وهو مطلق بن الجبعاء ، وهو غير مطلق بن الجبعاء المتوفي عام ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م. هذا الاخير مسمى على الاول . ومن المعروف أن البدو لا يتميز بعضهم عن بعض في الهندام ، ولا بأي مظهر من المظاهر التي يمتاز بها أميرهم عن بقية رجالهم العاديين ، فهم من هـذه

الناحية يمثلون الديموقراطية بكل معنى من معانيها . وكان ابن الجبعاء يحاول ما استطاع أن يخفي نفسه اعتقاداً منه أن متى ما عرفه العدو فانه سوف يضاعف عليه العقاب ، ولكن جهوده التي بذلها بهذا الشأن لم تحل دون معرفة ذوي الفضل لأهل الفضل ، أو معرفة ذوي الخبرة والفن بتحليل شخصية الرجال . ذلك أنه بجرد ما جاء الى نادي أمير عتيبة شيخ من الرجال ذوي العلم الفطري بمعرفة انواع الرجال ، والقى نظرة الى الاسرى ، صاح بأمير عتيبة قائلاً (١) إن بين الاسرى رجلاً ليس بالعادي . ثم أشار بيده الى مطلق قائلا : (هذا الرجل ، إما أن تـذبحوه والا ان تذبحوا له) . معناه : إما أن تقتلوه او أن تنحروا له ناقة من خيرة الإبل . (يشير هذا البدوي الأمي) الى المعنى الذي نوه عنه الشاعر بقوله :

ونحن اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقد كان رئيس قبيلة عتيبة (الذي لم يردني اسمه هو الآخر) أكرم نفساً من أن يتخذ مع ابن الجبعاء الاولى « أي قتله » بل راح ونحر له ناقة من أطيب النوق وقدمها له . ضيافة بدون ان يعرفه انه من أمراء قبيلة مطير ، بل ومن فرسانها البارزين ، وإنما الأمر لا يعدو من ان يكون مجرد فراسة وتنبؤ من ذلك الشيخ الذي لم يخطىء في فراسته بمعرفة الرجال . كما ان ابن الجبعاء لم يعلن عن نفسه حتى عاد الى اهله معززاً مكرماً . وهناك رفع راية الثناء العاطر والشكر الجزيل لأمير قبيلة عتيبة وللشيخ الداهية الجليل الذي صدقت فراسته بمعرفة الرجال (٢) .

---

١ - لم يردني اسم ذلك الشيخ العراف وذلك لبعد عهد الحادثة .
٢ - القصة مشهورة .

تنبوآت الأديب

- ٤٠ -

كل من يعرف تاريخ حياة الشاعر الشعبي محمد العبد الله القاضي (١) يعرف أنه لم يكن فقيراً ، بل الأدلة كلها تفيد بأن الرجل كان بالنسبـــة لرجال عصره يعتبر ثرياً ، وأنه كان يقرض الناس . وقصته معروفة مع الرجل الذي أقرضه دراهم لمدة معينه ، ثم مضت المدة ولم يسدده حسابه . وعندما طالبه القاضي بتسديد ما في ذمته تطاول عليه وأسمعه كلاماً لاذعاً ، فـــارتجل القاضي بيتاً بنى عليه فيما بعد قصيدته الميمية المليئة بالمواعظ والحكم والتي كان مطلعها :

أفكرْت بالدنيا وهَيّضت مَكتومْ
ما حَنْ في لِيحان قلبي وحام

---

١ ـ محمد العبد الله القاضي من مدينة عنيزة ، وهو من أشهر شعراء شبه الجزيرة الشعبيين ، وأعزهم نفساً ولم يكن مرتزقاً بشعره قط . وكان شعره في أول شبابه بالغزل وفي آخر حياته كان شعره مطبوعاً بطابع الحكمة والموعظة .

واليك البيت الذي ارتجله القاضي عندما تطاول عليه الرجل سالف الذكر :

من يبذرْ المعروفْ بالنذلْ مليومْ
خاب وخسرْ من يبـذره باللئامْ

وكذلك قصته مع الفـلاح (عكوم) (١) المشهورة ، كل من هـذه وتلك يزيدنا يقيناً بأن القاضي كان وضعه الاقتصادي طيبـاً بل ثرياً ، ومن يتتبع أدبه يجده لم يكن محترفاً للشعر . ولم يفـد الى الحكام والامراء بشعره ، بالرغم من أن الشعراء في عهده كانوا محترمـين ، وبالرغم أيضاً من أنه كان شاعر عصره بلا منازع .

أما القصيدة التي أنشدها في طلال العبـد الله الرشيد أمير حائل الكائن تاريخها في ١٢٨١ هـ . هذه القصيدة لم يكن القاضي قاصداً من ورائها الكسب المادي ، إذ لو كان الأمر كذلك لذهب يمتدح الامام فيصل بن تركي آل سعود الحاكم العام على نجد بكاملها ، وعلى هذا الاعتبار أصبحت الصـلة التي بين القاضي وبين أمـير حائل طلال صـلة أدبية فقط ، لا علاقـة لها بالمطامع المادية ، ولا علاقة لها أيضاً بقرب النسب وإنما هي قرابة الأدب التي قال عنها الشاعر العربي :

وقرابـة الآداب تقصر دونهـا
عنـد الاديب قرابة الأنساب

وعندما غزا طلال بن رشيد الجوف في عام ١٢٨١ وعاد منتصراً وجـد القاضي انها فرصة طيبة يبعث بمناسبتها قصيدة شعبية أشبه بما يعبر عنها

١ ـ عكوم من فلاحي مدينة عنيزة ولا اريد ان اشرح قصته لانها طويلة وتبعد بنـا عن الموضوع الذي نحن بصدده .

بعصرنا هذا بالتهنئة . والقصيدة من عيون قصائد القاضي ، بل وفيها بيت يحتوي على ثمانية من النعوت كلها إطراء لطلال ، بصورة لم يسبق لشاعر من الشعراء الشعبيين أن جاء بتعداد الخصال التي جاء بها القاضي في ثنائه على طلال بالبيت الآتي :

صميذعٍ ١ صنديد ٢ قَرْمٍ ٣ عنيدٍ ؛
شهمٍ ٥ وفيٌ ٦، هيلعي ٧، ووهّابُ ٨

والقصيدة أكثر من ثلاثين بيتاً والذي يهمنا الان هو ذكر الشاهد في الموضوع . ولذلك سوف أختصرها ما استطعت ولن آتي إلا بأربعة أبيات منها ، فقط مبتدئاً بمطلع القصيدة والأبيات الثلاثة التي تليها ، واليك مقدمتها :

طلال لو قَلبك حجَر أو حديدٍ
أمداه من حامي وطيس الوغى ذاب

الشرح : يمتدح الشاعر صديقه طلالاً على شجاعته ويقول : إن قلبك الكبير الذي تخوض به المعارك وتجابه به الخطوب والملمات لو كان حجراً أو حديداً لما وسعه إلا أن ينصهر ويذوب كما يذوب الملح بالماء :

كسيتُ حكمكْ ثوب عزٍّ جديد
وسلبت حال أعداك يا عز الاقراب

يقول : انك ألبست أمارتك حللا قشيبة من العز والمجد والسؤدد ، كما أنك في الوقت ذاته قضيت على معنوية أعدائك وقتلت حيويتهم :

حرب وضرب شاب منه الوليدِ
يا طيبْ من عاداك يوم ولا شابْ

يقول : إنك لم تنل هذا العز والمجد إلا بعد كفاح وحروب شيب من هولها الأطفال ، وفي عجز البيت يقول : ما أشجع الرجل الذي يعلن عداءك يوماً واحداً ، ومن ثم لا ينقلب شعره أبيض من الشيب :

يا ليتْ حكمك عندنا يا لرشيدِ
ما كان يوخذ زملنا من وراء الباب

القصيدة كما ذكرت طويلة لا تقل عن ثلاثين بيتاً ومن أراد الاطلاع عليها فليراجعها في ص ١١٥ من الكتاب المسمى (ديوان الشعر العامي) الذي جمعه ونشره المرحوم خالد الفرج ومما تجدر الاشارة اليه هو أن البيت الأخير لم يكن ضمن القصيدة التي في الديوان المذكور ، مع العلم أن البيت هو أشهر ما في تلك القصيدة ، بل هو بيت القصيد وعليه مدار بحثنا هدا ، لأن هذا البيت هو السبب الرئيسي الذي جعل هذه القصيدة تتطور من كونها قصيدة عادية لا تعدو أن تكون كسائر القصائد التي ينشدها شاعر ما ، ويرسلها لصديقه إلى أن تجاوزت الحد ، وأصبح لها أثر في نفس أمير عنيزة المدعو زامل بن سليم ، ذلك الرجل الذي أثارت حفيظته هذه القصيدة أو بالأحرى البيت الأخير لأن معناه يشير بوضوح بأن الشاعر لم يقف به الأمر إلى إطرائه لصديقه طلالاً فحسب ، بل ذهب يستهتر بأمير بلاده وينال منه بصورة علنية قائلاً : كنت أتمنى أن تكون أنت الحاكم يا طلال لبلادنا . وفي الشطر الأخير من البيت يقول : لو صحت هذه الأمنية لأصبح لنا هيبة في نفوس أعدائنا ولما استطاع اعداؤنا ان ينهبوا جمالنا من بين أيدينا وعند أبواب بلادنا غير مبالين بنا . ويتضح لنا من معنى هذا البيت أمران : أولاً : ان القاضي ذو مكانة قوية في مجتمعه ولديه من الشعبية ما يجعل أمير عنيزة لا يستطيع أن يمسه بسوء .

ثانياً : إن القاضي لم يقصد بهذا البيت إطراءه لطلال أكثر من قصده تحميس أهل بلدته وإثارة نخوتهم وبالأخص أمير البلاد زامل بن سليم ، ومما لا شك فيه بأن معنى البيت يمس كرامة زامل مساً جارحاً ومن المعلوم ان زاملا من أفذاذ رجال نجد البارزين .

المكر الأدبي !!!

ولما كان زامل كما أشرنا من دهاة رجال الجزيرة في عهده كما أنه شجاع (١) وذو رأي سديد وفي الوقت ذاته شاعر وأديب فقد فكر أن يقوم بمكيدة يبطل بها مفعول القصيدة على الأقل ، فراح وبعث رسولاً من عنده يسبر غور القاضي ويترقب حركاته ليعرف من الرسول الذي سوف يبعثه الشاعر ليحمل قصيدته هذه الى صديقه تلك القصيدة التي كان لها صدى في الأوساط الشعبية في مدينة عنيزة ، وذلك لما للأدب من مكانة في نفوس المواطنين ، ولقد تم لزامل ما أراد حيث عرف الرجل الذي ندبه القاضي لحمل قصيدته ، وما ان تسلم الرسول القصيدة من صاحبها وامتطى راحلته قاصداً طلالاً في مدينة حائل ، ونزح قليلا عن البلاد حتى وجد رجال الامير زامل يترصدون له ، فأمسكوه وجاءوا به الى الأمير الذي قابل الرسول مقابلة لطف ورقة ولم يبد له أي شيء يوحي بالخوف أو عدم الاطمئنان ... وبعدما هدأ روع الرسول بادره زامل قائلا انه يريد ان يطلع على القصيدة ثم يعيدها إلى ما كانت عليه ، ولم يتأخر الرسول عن تنفيذ رغبة الأمير حيث سلمها له وعندما تناولها زامل شد عليها حتى انشق طرفها ومن ثم أبدى أسفه المصطنع أمام الرسول على ما بدر منه وفي الوقت نفسه استدرك وقال : من الأجمل أن ننقل القصيدة على ورقة سليمة لا تشويه فيها ، فرأى الرسول ان هذا رأي صواب ،

وعندئذ سر الأمير الداهية بوصوله إلى تنفيذ مؤامرته بكل سهولة وبدون أن يشعر الرسول بأدنى شك بما يحاك حول هذه القصيدة من غاية مكتومة ، فناول كاتبه كراسا وراح يملي عليـه القصيدة كما قالها الشاعر بدون أدنى تحريف ، وعلى مسمع من الرسول إلى ان وصل الى آخر القصيدة عند ذلك أشار إلى احد رجاله بأن يشغل الرسول عن انتباهه للبيت الأخـير الذي فيه (القنبلة الكبيرة) وعندما اشغل الرسول املي البيت الاخير الذي ادخله الامير زامل من عنده ، وكان البيت الدخيل منسجما كل الانسجام بالوزن والقافيـة وما من احد يستطيع ان يميز بين ما قاله القاضي وبين البيت الدخيل الذي جاء به زامل اللهم الا ذوو الاختصاص لا بمعرفة اسلوب الشاعر فحسب بـل والراسخون علما بتحليل نفسية القاضي .

وهذا نص البيت الذي أدخله زامل في القصيدة :

أبي منك يا شيخ ميـة مجيدي

مع مشلح ياشيخ ترى مشلحي ذاب

الشرح : يزعم الأمير زامل أن القاضي يقول في نهاية القصيـــدة أرجو أن يتفضل عليّ الأمير طلال بمائة مجيـدي كما يمنحني عباءة لأن عبـاءتي التي لديّ اصبحت مهلهلة بائدة . . .

فبعدما انتهى الكاتب من القصيدة تسلمها الرسول وامتطى راحلته وبعد أربعة أيام وصل مدينة حائل وحل ضيفاً على اميرها طلال بعد أن سلمه رسالة صديقه المتضمنة للقصيدة .

كان للشعر في ذلك العهد كما اشرت آنفاً مكانة مرموقة خاصة عنـــد أمراء حائل ، لأن مؤسس الأمارة عبد الله كان شاعراً وشقيقه عبيد كان شاعراً ، وكان عبيد وقتها لا يزال على قيد الحياة وقصيدة تأتي من شـاعر

كالقاضي عند هؤلاء سوف يكون لها أثر ملحوظ ، الأمر الذي جعل طلالاً وعمه يقرآن القصيدة بنهم وشوق ، وكان كل بيت من القصيدة يعيدانه أكثر من مرة مأخوذين بجزالة المعنى وقوة الاسلوب حتى وصلا إلى آخرها فوجدا ذلك البيت الذي حط من قيمة القصيدة ومن قدر صاحبها أيضاً ... فأخذتهما الدهشة في بداية الأمر مستغربين ان يصدر هذا البيت من القاضي العزيز النفس الغني عن الاستجداء ، فساورهما الشك بأن يقول القاضي هذا البيت فذهبا ينظران الى الخط ليقارنا بين الأبيات التي في صدر القصيدة والبيت الذي في آخرها وعند ذلك ظهر لهما أن الخط واحد لا اختلاف فيه فأعادا النظر في القصيدة كرة أخرى وأخرى فوجدا أن مطلع القصيدة يحتوي على معان رفيعة في اطرائه لطلال ، وفي وسطها وصف رائع لانتصارات طلال في غزوته نحو الجوف وكلما امعنا النظر في القصيدة وجدا انها قصيدة بمنتهى الروعة لولا وجود هذا البيت الأخير الذي مسخ معانيها مسخاً .

اكتشاف الخدعة !!!

ولم يبقَ عندهما إلا التحقيق مع رسول القاضي والاستفسار منه عن الرسالة هل كانت من يده الى يد القاضي رأساً أم انه تسلمّها بواسطة أحد غير القاضي ؟ .. ثم التحقيق ثانية هل أحد أطلع على الرسالة أو تسلمها بعد أن أخذها من يد القاضي ؟.. وعلى الفور جيء بالرسول وتولى التحقيق معه عبيد فسأله ممن تسلم الرسالة فقال :

ـ انه تسلمها من القاضي يداً بيد ... فنهره عبيد قائلاً :

ـ أفدنا لمن سلمت الرسالة بعدما تسلمتها من القاضي ؟..

فارتبك وبدت على وجهه علامات الخوف ، فصرخ به عبيد ثانية بقوله :

ـ أخبرنا بالحقيقة ولا تخف وإلا فسوف نتخذ نحوك أشد العقوبات لأنه ثبت لدينا بأن القصيدة قد أدخل فيها بيت لم يقله القاضي .

فأجاب وهو يرتعش بالأمر الواقع ، وعندئذ سر طلال وعمه لا من حيث أن هذا البيت ليس من شعر القاضي فحسب ، بل لكونهما أدركا بثاقب فكرهما ما حاكه الأمير زامل بن سليم ، وكانت النتيجة ان طلالاً اعتبر ان هذا البيت الذي أدخله ابن سليم في صلب هذه القصيدة ، فيه تحد لسخائه ، علاوة على أنه يقصد الحط من قيمة الشاعر وقصيدته ، ولذلك أمر رسولاً من عنده يحمل اربعمائة مجيدي ، واربع عباءات بدلاً من مائة المجيدي والعباءة الواحدة وخوفاً من أن القاضي يرفض قبول الهبة ، من أجل ذلك كتب طلال رسالة يشرح فيها الاسباب التي جعلته يقدم له هذه الهدية وعندما وصل رسول طلال للقاضي وقدم له الرسالة وبعد أن قرأها قدم له الهبة الكريمة حيث كان مثل هذا المبلغ في ذلك العهد يعتبر ثروة كبيرة ، وعلى الفور ذهب القاضي الى قصر امير البلاد زامل وسلمه رسالة طلال الموجهة اليه أي الى القاضي التي لم تترك شاردة ولا واردة من الشرح لتطور القضية ومن معرفتهم إلى كشف الحقيقة ومن العبارات المليئة بالتقدير من طلال الى صديقه الشاعر وبالتالي قدم له الهبة التي وصلت اليه ، وراح الشاعر يشكر زاملا على تصرفه هذا الذي أحسن به اليه من حيث انه يقصد الاساءة ، أما زامل فانه بعد ما قرأ الرسالة وفاجأه القاضي بالهدية لم يكن من أمره إلا أن ازداد حقداً على حقد وراح يهجو القاضي بقصيدة لم يصلني منها سوى هذين البيتين :

وَراهْ تَمرْجِكْ يا زباده(١) يزيدِ
ضِدٍّ مِدَحْ ضِدِّهْ ولا سَرّ الاقراب

طــلال ما ينفعه منك المجيدِ
نجم ظهر عِزّي لِرَبْعَهْ الى غابْ

يقول زامل في البيت الاول ان شعرك هذا كله فضول وليس فيه فائــدة لمواطنيك اللهم الا انك كلت المديح والثناء لعدونا وعدوك بدون ان تفيد اقاربك بشيء . وفي صدر البيت الثاني يقول ان اطراءك لطلال وتمجيدك له لن يرفع من قدره . وفي عجز البيت يقول : ان طلالاً أشبه ما يكون بالنجم المتـألق في السماء فاذا قدر لهذا النجم ان يسقط فان سقوطه سيكون نكبة على بني قومه . وسوف يصلون بعد موته الى درجة يرثى لهم من الهبوط اليهـا . ثم جاء بالبيت سالف الذكر وختم به البيتين واعني به البيت الذي أدخله ضمن قصيدة القـاضي المرسلة لطلال وهو قوله :

أبي منك يا شيخ مَنْيَة مِجِيدي
مع مشلَحٍ يا شيخ ترَى مِشْلِحي ذاب

وهو عندما يأتي بهذا البيت يقصد ان يقول : ان غايتك من هـذه القصيدة مبنية على هدف مادي وهو الحصول على هذه الهبة ..

هذا وقد افترق الإثنان وكل في نفسه ما فيهـا من الحقد على صاحبه ، وكان زامل أكثر حقداً لا من اجل الهبة التي منحهـا طلال للشاعر ولكن من حيث أواصر الصداقة التي نمت وازدادت رسوخاً بين طلال وبين القاضي .

---

١ ـ كلمه زيادة اراد بها زامل تحقيرا للشاعر كلقب مشين وهو لقب لا معنى له .

نعي ووفاء !

وفي الحين الذي كانت الصداقة بين القاضي وطلال على خير ما يرام ، فوجىء الاخير بنعي صاحبه ، فكانت الفاجعة كبيرة ، ومما يزيد القــاضي حزناً على صديقه الحميم هو ان موته لم يكن طبيعياً ولم يكن ايضاً قتيــل معركة ، فلو كانت الثانية لهانت عليه المصيبة اذ ان ذلك مما يعينه على شحذ قريحته بقصيدة يرثيه بها .. ولكن المصيبة ان صاحبه مات منتحراً ، ولكن هــذا كله لم يمنع القاضي من أن يرثي صاحبه بقصيدة (فائيــة) ، كانت ولا شك من أروع قصائده ، لان فيها من المواعظ والحكم ما يثير الاعجاب ، كما ان فيها من الادلة ما يثبت صحة القصة .

وخذ قصيدة القاضي التي تعبر عن وفائه وهي تزيد على اربعين بيتــاً ، ولست بحاجــة الى سردها بكاملها وإنما أود ان آتي بمطلع القصيدة وببعض الشواهد منها .

يقول الشاعر في مطلع قصيدته :

أجَلْ عَنْكَ ما الدّنيا إلي عاهدتْ تافي
تزَخْرَفُ وهي لا بُدّ يَبْقى لهــا قافي

الشرح : يقول في صدر البيت : اجل ان الدنيــا لا يوثق بعهودها .. وفي عجز البيت يقول : ان الدنيا تغري المرء بزخارفها وعيشها اللذيذ ،ولكن لا بد ما يأتي بعد ذلك ما يكدر صفو العيش .

مِنُونٍ بْنَوّ الخَيْر عَجْلَ إلى ادْبَرَتْ
فهيْ مِثِلْ حلم الليلُ يشكِلْ على الغافي

الشرح : ان الدنيا لا تعطيك شيأ الا وتسليه منك في نهاية المطاف والجميل

الذي تسديه اليوم سوف تمن عليك به غداً ، ونعيمها أشبه ما يكون بحلم النائم .

يدير الفلكُ دولابهـــا لِيْنَ ينتهي
سريعٍ ترددها بتكديرهـــا الصـــافي

اعتقد ان معنى هذا البيت لا يحتاج الى شرح .

على شان جيرتها كثير همومهـــا
ولاقط منهـا واحد راح مستافي

يقول ان كل انسان رأى منها من الهم والغم ما يكدر صفو عيشه .

شاهدتْ منها ما مضى من عجائبْ
يسعد بها جيل وجيل بها هافي

المعنى : يرى المرء في هذه الدنيا عجائب كثيرة فقوم يرون فيهـا سعادة مؤجلة وآخرون لا يرون فيها الا البؤس والشقاء .

أعطت طلال الملكْ لينَ امهلت له
تزخرف على وجهه بتجميع الاصناف
يوم استتمت له وُجَتْ له على المُنَى
جرى من سبب كفه على نفسه اتلافِ

كل تلك الابيات مقدمة لهذين البيتين وما بعدهما وقـــد بدأ الآن برثائه لصديقه فيقول في البيت الاول والثاني ان الدنيا جاءت لطلال على ما يهوى ويريد حتى بلغ بها الذروة ولكن بعدما تم له النعيم وظن انه قادر على السيطرة عليها عند ذلك انقلبت عليه وكانت نتيجتها انها خدعته حتى ان موته جاء من كفه على نفسه .

وتملكت (١) غيره وهي في حباله

وهي منه حبلى قاربٍ شهرها وافي

يصف الشاعر ما فعلته الدنيا بطلال فيقول انهـا اشبه مـا تكون بالفتاة الحسناء التي نكحها شاب بطريقة شرعية وذلك بعد مـا اغرته بجمالها الفاتن ، ولكن بعد ما استولى عليها ووثق بوفائها نشزت عنـه واستبدلته ببعل سواه ، وانكحت نفسها من ذلك البعل الجديد في الحين الذي كانت حبلى مـن معشوقها الاول وعلى وشك من ان تضع جنينها من ذلك الاسبق .

حنّت عليه جبْالْ حايلْ ومنْ بها

من الجار والجالين وصنوف الاضياف

يقول : بكى على طلال مدينة حائل وجبلا طيء (يقصد اجاء وسلمى) كما بكى عليـه المستجيرون به واللاجئون والضيوف في شتى البلاد ومن مختلف الاصناف .

عمارَ الجبلْ سور الجبلْ هيبة الجبلْ

حمى حوز (٢) جانبها بشذرات الاسياف

يقول : ان حياته كانت عمراناً وخـيراً لبلاده جبلي طيء وحصناً منيعاً لمواطنيه ...

قلت ان القصيدة طويـلة ولا داعي لسردها وانما نكتفي بالشاهد منهـا ..

١- في ديوان خالد الفرج يقول : (وتملك بهـا غيره وهي في حباله) ولكن الصواب الذي كنت احفظه من قبل ما ذكرته لانه اوضح معنى .

٢- في الديوان الذي طبعـه الاستاذ خالد الفرج يقول : (حمى دون ساكنها بشرفات الاسياف) .. وهذا خطأ لان كلمة (شرفات) لا معنى لها .. والمعروف هو شذرات .

ومما هو جـــدير بالملاحظة هو اننا نرى ان القاضي اسهب بثنائـه على طلال في الابيات الانفة الذكر من هـذه القصيدة وفي الابيات الاخرى التي لم نوردها .. ولكن شيئاً واحداً لم نر ان القاضي ابدى شيئاً من التوجع او التفجع على رفيقه في جميع قصيدته كما يفعله كثير من الشعراء الاوفياء في حالة الرثاء لاصدقائهم .

والذي يبدو لي ان القاضي لم تغب عن ذهنه هذه الناحية والذي نظم مـــا يزيد على اربعين بيتاً لا يعجز من ان ينشد ابياتاً يعبر بها عـن الاثر السيء الذي اصابه عندما بلغه موت صديقه الحميم . ولكن الذي اعتقده انه ترك الاشارة الى هذه الناحية عامداً متعمداً لأن اي معنى من المعاني التي يثبت فيهـــا القاضي شكواه ويعلن فيها حزنه ، فان ذلك مما يجعل عدوه زاملاً يشمت به .. وهذا مـــا جعله في نظرى يسر شكواه ، ويكتفي برثائه المليء بالموعظة كعزاء لنفسه ، والطافح بالثناء والاطراء لصديقه الراحل .

الرجل يزهو باقبال دولته ويذوى بادبارها

- ٤١ -

كما ان الارض اذا نزل عليها الماء ربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، واذا امتنع عنها الماء امحلت واغبرت ، كذلك الانسان عندما يتمتع بحرية جمة وعز أثيل ومجد شامخ تنمو صحته وتبرز شخصيته في مجتمعه ويصبح كلامه مسموعاً ورأيه مقبولاً وسيئاته حسنة وخطأه صواباً ..

ولئن كان الشاهد الذي سوف نورده بهذا الصدد شاهداً فردياً ، فانه يصح ان يسري مفعوله على الجماعات وعلى الشعوب بل وعلى الدول ..

وليس الفضل للذي أدرك كنه هذه الظاهرة بعدما يتحقق مفعولها عليه او على غيره من الناس ومن ثم تصبح حقيقة لا تحتاج الى دليل ، وانما الفضل يعود لمن نظر اليها كقضية واقعية وهو في القمة من زهو المجد وازدهار العز ؛ اعني به الامام (١) عبدالله الفيصل آل سعود الذي عندما قال له حمود العبيد الرشيد :

---

١ ـ كلمة الامام بذلك العهد اشبه ما يكون معناها بخليفة المسلمين ، وهذه الصفة خاصة بولاة الامر من آل سعود وما زال هذا اللقب لاصقاً بحكامهم حتى النصف الاخير من عهد المغفور له الملك عبد العزيز .

– انني معجب بكياسة وكفاءة (مضايفيك) (١) محمد السبيتي ..

فأجابه الامام قائلاً :

– ان السر في اعجابك به ليس مجرد كفاءته وخلقه ، وانما هو اقبال دولة رجاله ، ولو تبدل ذلك الاقبال لتبدلت نظرتك اليه والى من هو اكبر منه ..

ولم يكن حمود العبيد منفردا باعجابه بالسبيتي بل كل وافد يفد الى الامام في عاصمته الرياض كان يشارك حمودا الرأي باعجابه بالسبيتي ، وانما كان حمود اكثر اعجاباً به من غيره الى الحد أنه عندما يعود الى بلاده يكون السبيتي موضع حديثه بين ابنائه وفي مجتمعاته وعندما يرى ادنى قصور من (مضايفي) ابن عمه الامير محمد الرشيد يصيح به قائلاً :

– ينبغي ان تذهب للرياض وتظل اياماً هناك لتأخذ درساً من السبيتي الذي كذا صفته وخلقه الخ ...

وهكذا كان حمود معجباً بالسبيتي وداعية له الى الحد الذي جعل من لا يعرف السبيتي من اهل البلاد يود ان تسنح له الفرصة التي يسافر فيها الى الرياض ليتعرف على السبيتي ويقتبس من سيرته واخلاقه ..

ولما كانت الدنيا كما وصفها بعض رجال السلف الصالح بقوله : (ان الدنيا تمر وتمر بضم الميم الاول وكسر الميم الثاني وتسر وتضر وتغر) .. فقد مرت بنعيمها كوميض البرق على الامام عبد الله الفيصل واسقته المرارة كعادتها ، الا ان الامام لم ينخدع بغرورها من الاساس ..

لقد تبدلت الاوضاع وجاء الامام عبد الله الفيصل الى امارة الرشيد بحائل

---

١ ـ المضايفي هو ما يعبر عنه اليوم برئيس التشريفات

اعزل من الحكم وذلك في عام ١٣٠٩ ..

وجاء السبيتي الى حائــل ضمن عشرات الرجال من حاشية الامام وأصبح الذين يتمنون رؤيته في الرياض بامكانهم ان ينظروا اليـه ويقتبسوا من سلوكه واخلاقه عن كثب ، فهب الكثيرون من شباب اهل البلاد ورجالها يسلمون على الامام ويحاولون ان يتعرفوا على السبيتي ذى السمعة الطيبة التي أشبه ما تكون بعبيق المسك ..

ولكن المشكلة ان كل واحد تعرف على السبيتي من اهـل البلاد ، عاد وهو يعتقد ان السبيتي هذا خلاف السبيتي الذي يحدثهم عنه حمود العبيد ، فهذا رجل دون الحد الوسط ذكاء وكياسة وعقلاً ومنطقاً ، فلا بـــد والحالة هذه اما ان يكون حمود مخطئاً في نظريته وهذا شيء بعيد جداً لان حمودا من النفر الذين قل ان يخطئوا في تحليل شخصية الرجال واما ان هناك سبيتاً آخر غير هذا السبيتي الذي رأوه ووجدوه بعد الحديث معه أقل بكثير مما نعته به حمود ..

فرأى القوم ان لا بد من ان يختاروا رجلا ليتحقق من حمود عن السبيتي .. فتعهد بالقيام بهذه المهمـــة الابن الاكبر لحمود المدعو (ماجد) (١) فراح الإبن يلقي على والده السؤال التالي قائلاً :

– هل السبيتي الذي نراه الآن هو السبيتي الذي كنـــا نسمعك تطريـــه بالكمال ؟ .. ام ان هناك سبيتاً غير هذا ؟ ..

– بل هذا هو بالذات ؟ ..

– ان يكن هو فارجو ان لا تؤاخذني يا والدي فيما اذا قلت انني لم اذكر ان فراستك في الرجال اخطأت كما اخطأت بالسبيتي ..

---

١ ــ ما جد من ارجح اسرته عقلا ..

– كيف حكمت عليّ بهذه السرعة .. ؟

– كنت تنعت السبيتي بصفات من الكمال لم يكن لديه الآن واحدة منها ..

– كنت على صواب برأيي فيه بالسابق كما انك لست مخطئاً يا بني في رأيك فيه الآن ..

– كيف الجمع بين الرأيين ؟ ..

– الجمع بين ذلك هو فارق الزمان واختلاف الظرف بين رؤيتي له وبين رؤيتك له ، فأنت رأيته بعد زوال دولته وذهاب مجده والمرء اذا طرأ على حياته تبدل مفاجيء تذوب شخصيته وتنقلب اوضاعه رأساً على عقب .. ولهذا يكون الامر طبيعياً بالنسبة اليك فيما اذا رأيته بعين الازدراء .. اما انا فقد رأيته في عنفوان سلطان دولته وفي ابان مجده .. ولو رأيته بالعين التي رأيته بها لعلمت انني لم اوفه حقه من الثناء الذي سمعته مني ..

– لقد ارشدتني يا والدي الى حكمة كانت غائبة عن تفكيري ..

– الفضل بذلك يعود لمن ارشدني اليها قبل ان يتحقق مفعولها ..

– من هو الذي تشير اليه ؟ ..

– الامام عبد الله الفيصل الذي نبهني الى ذلك ..

ثم راح الشيخ يروي القصة من اولها شارحاً تنبوأت الامام بما يعتري رئيس تشريفاته من تبدل فيما اذا تبدلت دولته وتغير زمانه ..

كان ايماني بهذه النظرية هو الذي جعلني لم انخدع ابداً بالدعاية التي روجها الصهيونيون بتشويه سمعة الفلسطينيين ، فقد كنت ادافع عنهم بحجة انهم اناس شردوا من اوطانهم وارهقتهم النكبة المفاجئة ، واصبح لديهم من العذر ما يشفع لهم فيما اذا اعترى بعضهم شيء من الخمول .. لان قصة السبيتي هذه وان كانت فردية ولكنها كما ذكرت آنفاً يصح ان تقاس على الجماعات والشعوب . ومن

يعرف تاريخ الفلسطينيين جيدا منذ عهد صلاح الدين الايوبي الى ما قبـــل النكبة يدرك انهم من اشم الشعوب العربية انفـــا واقواهم شكيمة واشدهم بأسا (١) .

١ـ راجع كتاب : (قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب) للمؤلف .

تنبوء بما سيكون ، ودفاع عن الشعراء كافة

- ٤٢ -

جرت شائعة قوية عند بعض البدو تشير بأن الشاعر غالباً ما يكون جباناً . . ولست اعلم من اين جاءوا بهذه النظرية ، فقد يقال ان حسان ابن ثابت شاعر الاسلام والجاهلية كان جباناً ، مع ان بعض الكتاب والمؤرخين فندوا تلك الدعوى التي تنسب لحسان ، وحتى لو قدرنا ان حسان جبان فهل يحكم على مئات او الوف الشعراء بالجبن ؟ . .

وبطل هذه القصة شاعر يدعى (عدوان الهربيد) من قبيلة شمر نجد ، ارتحل فخذ من قبيلته ونزل في مكان خصب ، ولكنه بعيد عن منازل قبيلته ، ويحيط بهؤلاء اعداء من كل جانب ، وهذا المكان يقع غرباً عن منازل قبيلة شمر وهو الى حدود الاردن حالياً التي تقطنها قبيلة الحويطات وقبيلة بني صخر وقبيلة الرولة اقرب منه كثيراً من الحدود التي يقطنها قبيلة شمر . وهذا مما جعل الشاعر عدوان الهربيد يخشى كثيراً من ان يغزوه اعداؤه فلا يجد من يناصره ، ولذلك راح ينصح قومه بالرحيل عن هذا المنزل الذي وان كان وافر الكلأ . ولكنه واثق بأن بقاءهم فيه سيجعلهم مهددين بغارات العدو بين عشية وضحاها ، ولكن

نصائحه لقومه وما يبديه من رأي سديد، كل ذلك كان يقابل بالسخرية والعناد من بعض الشباب المتهورين من فتيان قومه ، وكانوا يرون ان تشاؤمه ليس الا نتيجة جبن وذعر استوليا على فؤاده .. وأكثر من يصمه بالجبن ويسترسل بترويج هذه الشائعات فتيان : يدعى احدهما ُسعَيْد ، والثاني يدعى اسماعيل . وكان الاول اشد هجوماً من رفيقه وكثيراً ما كان يهاجمه وجهاً لوجه قائلا :

– انك انهزامي وجبان بدليل انك شاعر وما من شاعر الا ويكون جبانا..
فيرد عليه الهربيد قائلا :

– هناك فرق بين الانتحار وبين الشجاعـة .. واذا كنت تعتقد بان بقاءنا في هذه الارض شجاعة فانني اعتقد انه انتحار ودليل على حماقتك وعدم تقديرك لنتائج الامور(وعلى عدم اكتراثك بما يلحق رجالنا من قتل واموالنـــا من نهب ونساءنا من ترميل واطفالنا من تيتيم وتشتيت ..

وكان الجواب من (سعيد) تكراراً للجواب السابق اي ينعته بالجـــبن لانه شاعر .. وان الجبن في الشاعر سجية راسخة في خلقه. وعند ذلك جادت قريحة الشاعر وأنشد قصيدة تحمل طابعين : الاول انه تنبأ بالمعركة التي سوف يصبهـا عليهم الاعداء والتي سوف يلاقي حتفه بها (سعيد) لا محالة ، والثاني انه أثبت في هذه القصيدة ان هنـــاك ما يزيد عن اربعين شاعر من شعراء العرب كلهم شجعان في الهيجاء وأسخياء وزعماء . والجدير بالذكر ان العدد الذي ذكره الهربيد بقصيدته كلهم من الشعراء الشعبيين ومن الذين وردت أسمـاء الكثيرين منهم في صفحات كتابنا هذا (من شيم العرب) ولم يذكر الشاعر من شعراء العرب الا اثنين من شعراء الجاهلية وهما : عنترة العبسي وحاتم الطائي ..واليك الصيدة :

المجلس اللّـلي بَه اسْماعيلْ وسْعَيْد
ينعافْ لو قَـربَـه على الكَـبْـد غالي

المعنى : المجلس لغة جمعه مجالس ، اللي : دائماً تستعمل بمعنى الذي ،والشاعر يقول ان النادي الذي يضم اسماعيل وسعيداً يجب ان اهجره حتى ولو كان يضم رجالاً محبوبين ..

اسماعيل ما سمته سموت الأجاويد
وسْعَيْد ما داجوا عليه الرجال

يهجو الشاعر كلا من اسماعيل وسعيداً ويقول : ان الاول لم يتصف بصفات الرجال الأفاضل النبلاء ، كما ان الثاني بخيل لم يدخل منزله الرجال الكرام ..

غياً لك الضُمران والفرسْ يا سْعَيْد
يا جعِلْ ما لَحَمَاضَ الاطْعاسْ تال

(غي لك) بمعنى اغراك و (الضمران والفرس) نوعان من انواع العشب. فالشاعر هنا يقول : لقد اغراك الكلأ عن نظرة المستقبل . ثم يعود ويقول : ألا قبح الله هذه المغريات التي ستكون عاقبتها وخيمة ..

يا سعيد هَرْجَكْ به مُغير أو ترادِيدْ
تُوقر من الهرج الرخيص الجمالِ

يقول انك يا سعيد تتكلم كلاماً كثيراً رخيصاً يعجز عن حمله الجمال ..

وحَكْيٍ على اكناف العذارى مناقِيدْ
ولا يطيّب الصبيان كود الفِعالِ

وانك تلبجح بالحديث امام النساء وان الفتيان الشجعان لا يتحدثون وانما يعملون ..

أخافْ من جيشٍ كثير المراجيدْ
يضيمنـــا يا سعيّدٍ بالأحتالِ

أنا أخشى ان نهاجم بجيش عرمرم يفوقنا عدداً وعدة .

أنا بــلايْ مزهبِـين البواريـدْ
وأهـل السيوف ميتمين العيالِ
ما بين شُمطـان اللـحا والأواليدْ
نضـّتِ عيالِ فوقْ مثلْ السيالِ

البيت السابع والثامن كلاهما يحملان معنى واحداً..افيقول الشاعر انا اخشى ان يهاجمنا رجال بين الشباب ومتوسطي العمر الذين يحملون السلاح الشيء الذي لم يكن موجوداً لدينا ويزيدون علينا بعدد خيولهم .. وأناس بهذه الصفة سوف ييتمون ابناءنا بدون ان نربح طائلا منهم ..

يا سعيد لو تـُضرَبْ على دارة الدّيد
بزَرْقاء تسلّ الرّوحْ بالاشْتـَعالِ
بِبدْيار ْمربيَةْ البَقرِ َمرتـَع الصّيدْ
ما عندك اللـّي عن حوَلك يسالِ

يقول انا أتنبأ بموجب اصرارك هذا بأنك سوف تطعن برمح مسنون وسيكون موقع الطعنة في ثديك .. وذلك في هذا المكان الذي ليس فيه من رجال قبيلتك من ينجدك .. وموضع الغرابة هنا ان سعيداً هذا قـُتل من إصابة سنان الرمح الذي طعن في نفس المكان من جسده الذي وصفه الشاعر فلقي حتفه فوراً .. وهذا ما تنبأ به الشاعر .

عَمّيْتْ بالسايه جميــع القواصيدْ
ما قلت بالشعّار طامن وعالِ

يلوم الشاعر سعيداً قائلا : انك باتهــامك هذا الشعراء بالجبن أسأت اساءة كبيرة الى جميــع الشعراء ، فالأجـــدر بك ان تقول ان الشعراء فيهم الشجاع وفيهم الجبان ..

عمّيْتْ نمر ١ والمهادي ٢ وابا زَيد ٣
عزّ الضّعن حبس الكمين الهلالي
ومشعان ٤ والطيار ٥ وعقاب ٦ وعبَيْد ٧
وعبد الله ٨ المصطور فرز العيـــال
والعسكري ٩ وهديب ١٠ ومصيخ ١١ ورشيد ١٢
وحسين ١٣ حمـــاي الركاب التوالي
وجملْ ١٤ وابن حثلين ١٥ والفغم ١٥ ورشيد ١٧
وعنتر ١٨ الى ما اعادل الشيل مالي
وارميزان ١٩ هو والعرفجي ٢٠ مع ابن زيـد
وساجر ٢١ مسوى للذلول النعـــال
وصعب ٢٢ من الصيداد سقم الاضاديـــد
وابن سعـــود ٢٣ سعود راع العوالي
حق الشريف ٢٤ اللي يقولون يا سعيـــد
وحاتم ٢٥ بعد معطي العطايا الجزالي
وابن دعيج ٢٦ اللي كرمته كأنها العيد
وابن سمير ٢٧ الـــلي بقـــرن الشمالي
وحطاب ٢٨ اللي بالصحن ينفض الغيد
وبراك ٢٩ مْحَيّي بالركاب الهـــزالي
ومغير ٣٠ ابن غازي ونومان ٣١ يا سعيد
ابن الحشور الى اعتلاه الجفـــالي
وجدعان ٣٢ نحـــار السمان المصاعيـــد
مودع مع الدعثور مثـــل الغزال
وتركي ٣٣ زبون مدللات المثابيـــد
وفهد ٣٤ زبون مجنفرات المفـــالي

والأشمـــل ٣٥ اللي من مناه التراديد
ومطلق ٣٦ مطبق بالغـــدير الزلال

دبـع بهم يا سعيد صدر وتوريد
وفهق وتقليط وفتـــل وفعـــالي

هـــذا العدد البالغ ستة وثلاثين شاعراً كلهم مشهورون بالشجاعـة والكرم والمروءة وسداد الرأي ، وكان غاية الشاعر ان يفند حجة خصومه القائلين بأن الشاعر جبان،ويقال ان العدد كان اربعين شاعراً ، وعلى هذا فان الذين لم نعرف اسماءهم ستة ولم آت بالقصيدة كاملة وانما أتيت بالشواهد للقصة فقط . .

والشاعر الهربيد بقصيدتههذه قدم لنا قاموساً بأسماء شعراء الجزيرة العربية في الزمن الماضي ، مع العلم انـــه لم يذكر اسم الشاعر من حيث هو شاعر فقط ، وانما اختار اسمـاء الشعراء الذين جمعوا بين الزعامة والشجاعـة والكرم وسداد الرأي .

اما تنبوء الشاعر بالمستقبل الذي سوف يلاقيه خصمه سعيد فقد تحقق فعلاً ، وذلك انه نتيجة لعنـاد سعيد أصيب برماح العـدو بطعنة وقعت في المكان الذي حدده الشاعر من جسد سعيد ، فلقي حتفه فور اصابته القاتلة .

***

واليك تراجم الشعراء

١ : نمر بن عدوان : شاعر ورئيس عشيرة واكثر شعره غزل وهو من بادية شرق الاردن .

٢ : المهادي : راجع ص ١٨ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب .

٣ : يقصد ابا زيد الهلالي الذي تروى عنه الاساطير .

٤ : مشعان : يقصد ابن هذال رئيس قبيلة العمارات من عنزة .

٥ : الطيار : هو كنعان الطيار شاعر وفارس ورئيس عشيرةولد علي من عنزه . راجع ص ٢٠٢ ج ١ من شيم العرب الطبعة الثانية .

٦ : عقاب العواجي : فارس ورئيس عشيرة ولد سليمان من عنزه .راجع ض ١٣ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب .

٧ : عبيــد بن رشيد : شاعر وفارس موهوب . راجع ص ج من شيم العرب .

٨ : عبدالله بن رشيد : راجع ص ١٧٤ ح ١ الطبعة الثانية من شيم العرب.

٩ ـ ١٠ ـ ١١ : لم اعرف هؤلاء الثلاثة .

١٢ : رشيد بن طوعان : شاعر وشجاع من قبيلة شمر .

١٣ : حسين الذنيب : شاعر وفارس من قبيلة شمر .

١٤ : جمل بن لبدة من رؤساء قبيلة قحطان ومن فرسان العرب .

١٥ : يقصد راكان بن حثلين رئيس قبيلة العجمان وهو فارس ذائع الصيت وشاعر مطبوع .

١٦ : الفغم : من قبيلة مطير وكلمة الفغم كنية له اما اسمه فلا اعرفه .

١٧ : فهيد يقصد فهيد بن معبهــل بن شعلان من قبيلة الرولة ، وهو ان عم محمد بن معبهل الذي جاء ذكره بصفحة ٢٥٣ ج ٣ من شيم العرب .

١٨ : يعني عنترة العبسي فارس العرب المشهور وهو يــدعى عندنا بعنتر اي تحذف من اسمه التاء المربوطة التي تشير الى التأنيث . واعتقــد ان شاعرنا لا يعرف من شعراء العربيــــة الفصحى الا عنترة وحاتم الطائي الآتي اسمه .

١٩ : رميزان بن غشام : شاعر وسخي وشجاع ، وهو من بني تميم . من اهل القرن الحادي عشر .

٢٠ : يشير الى محمد بن عرفج من آل ابو عليان من رؤساء مدينة بريدة في الزمان السابق وهو شاعر سديد الرأي .

٢١ : ساجر الرفدى : له شهرة بالشجاعة كبيرة خاصة في شمال الجزيرة وهو من قبيلة عنزة .

٢٢ : يغني صعب الصديد من رؤساء قبيلة شمر الفرات ومن فرسان القبيلة.

٢٣ : يعني سعود بن عبد العزيز الاول ابن سعود الذي وحد الجزيرة فيبداية القرن الهجري الماضي .

٢٤ : يقصد الشريف بركات من أشراف مكة وهو صاحب القصيدة الشعبية الكافية . راجع كتاب المؤلف بين الافساد والاصلاح ص ١٥ .

٢٥ : يعني حاتم الطائي كريم العرب المشهور .

٢٦ : ابن دعيج : لم أوفق لمعرفة اسمه والشاعر هنا ينعته بالسخاء المتناهي.

٢٧ : اما ابن سمير فهو يقصد محمد بن سمير راجع ج ٢ ص ٣٣ الى ٤٣ من شيم العرب .

٢٨ : حطاب هو من زعماء بلدة الجوف اي دومة الجندل وشعره كله حماس ومهيج وهو سخي متلاف .

٢٩ : براك : امير قرية بقعاء التي هي احدى قرى مدينة حائل . والشاعر هنا ينعته بالكرم وهو مشهور هو وأسرته بالسخاء .

٣٠ : مغير بن غازي : من قبيلة شمر ومن الرجال المعروفين بالشجاعة والكرم . راجع ج ٥ ص ٠٠٠ من شيم العرب .

٣١ : يشير الى الفارس نومان الحسيني وهو من فرسان قبيلة الظفير وله قصة طويلة راجعها في ج ٣ ص ١٦٠ الى١٦٩ من شيم العرب .

٣٢ : هو جدعان بن مهيد رئيس الفدعان من قبيلة عنزة وأسرة ابن مهيد مشهورة بالكرم راجع ص ٠٠٠ ج ٠ من شيم العرب .

٣٣ : يعني تركي بن مهيد بن جدعان سالف الذكر . راجع ص ٢٣٦ ج٣

٣٣ : يقصد فهد بن شعلان رئيس قبيلة الرولة .

٣٥ : الاشمل : يقصد بنية الجرباء شقيق مطلق الجرباء رئيس قبيلة شمر قاطبة منذ قرنين مضيا . راجع التعليق في ص ٦٨ الطبعة الثانية من شيم العرب . ج ١



فهرس الجزء الرابع



استدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية . وعلى الرغم من وضع جدول موضحا فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئيه التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الاداريه من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتاب كهذا الكتاب البالغ صفحاتـــه ما يزيد عن الف صفحه ونيف والشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطبـــات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتهـــا بقدر ما تفوت علي ايضا لانني حافظ لها غيبا مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قراءتي لها بعيني ، واعتقد جازما انه لولا وجود الاستاذ حمد الجاسر العالم بالادب الشعبي كعلمه بالادب العربي لولا ذلك لوقع من الغلطات في القصائد الشعبيه ما هو اكثر من ذلك .

نبذه عن حياة المؤلف

أولاً ـ من أهالي المملكة العربية السعودية .

ثانياً ـ حمل السلاح في سبيل الله تعالى متطوعاً مع المجاهدين العرب الذين جاؤوا بدافع من عقيدتهم الإسلامية للمشاركة في الدفاع عن عروبة فلسطين والجهاد ضد الصهاينة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م .

ثالثاً ـ ترأس الفوج العربي السعودي ضمن جيش الإنقاذ العربي في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م .

رابعاً ـ شارك مشاركة فعالة في معارك المالكية .

خامساً ـ نال أوسمة الشرف في حربه ومعاركه عام ١٩٤٨ م .

سادساً ـ ساهم بشكل مباشر في تأسيس «جمعية رعاية أسرى مجاهدي وشهداء فلسطين» في المملكة العربية السعودية .

سابعاً ـ ساهم في جميع التبرعات «الشعبية والرسمية في العالم العربي» لدعم الثورة الفلسطينية .

ثامناً ـ قام بتأليف كتب عدة عن القضية الفلسطينية ونضال شعب فلسطين الأبي، ونشر العديد من الحلقات في الصحف العربية، ناهيك عن الكتب الأدبية والتاريخية والإجتماعية التي عرف منها وتم طبعها :

١ ـ كتاب : من شيم العرب أربعة أجزاء .

٢ ـ كتاب : من شيم الملك عبد العزيز آل سعود (طيب الله ثراه) ثلاثة أجزاء .

٣ ـ كتاب : هكذا يكون الإصلاح .

٤ ـ كتاب : هكذا نصلح أوضاعنا الإجتماعية .

٥ ـ كتاب : التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين .

٦ ـ كتاب : كيف ننتصر على إسرائيل .

٧ ـ كتاب : كيف هزمنا .

٨ ـ كتاب : الهدامون والبناؤون .

٩ ـ كتاب : لن نهزم إسرائيل عسكرياً قبل أن نهزمها إعلامياً في أمريكا .

تحت الطبع

١ ـ كتاب : جهاد الملك فيصل وجانب من عظمته .

٢ ـ كتاب : تاريخ جيل وحياة رجل «محمد العوني» .

٣ ـ كتاب : من الطفولة إلى الكهولة .

تاسعاً ـ انتقل إلى رحمته تعالى يوم ٢٠/ جمادي الأولى/ ١٣٩٨ ب . هـ. ن الموافق ل ٢٧/ أيار/ ١٩٧٨ م .

الناشر

محمد مفيد بن عزة الخيمي